

التفسير والمفسرون

بركة تفسير من فروع التفسير وتطورها، وتأثيرها وما هيبت
تبع فرضياتها في تفسير المفسرين، وآثارها في تاريخ التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

الدكتور محمد حسين الذهبي

الجزء الأول

مكتبة وهبة

14 شارع الجمهورية، دابليو

القاهرة، طبع في ١٩٨٧

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وظوره . والوازع ومداهبه .
مع عرض شامل لاسم المفسرين . وتحليل كامل للاهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم الى عصرنا الحاضر

تأليف

الدكتور محمد حسين الذهبي

الجزء الأول

الناشر

مكتبة وهبة

٤ اشانع الجمهورية . عابدين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

« صدق الله العظيم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ..
والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، الذي أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً،
وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ويعسد ...

فقد مرَّ على الإنسانية حين من الدهر وهي تتخبط في مَهْمَةٍ من الضلال متسع
الأرجاء، وتسير في غمرة من الأوهام، ومضطرب فسيح من فوضى الأخلاق وتنازع
الأهواء، ثم أراد الله لهذه الإنسانية المعذبة أن ترقى بروح من أمره وتسعد بوحى
السماء، فأرسل إليها على حين فترة من الرسل رسولا صنع الله على عينه، واختاره
أمينا علي وحيه، فطلع عليها بنوره وهدّيه، كما يطلع البدر على المسافر البادى بعد
أن افتقده فى الليلة الظلماء.

ذلك هو محمد بن عبد الله - عليه صلاة الله وسلامه - نبى الرحمة، ومبدد
الظلمة، وكاشف الغمة.

أرسله الله إلى هذه الإنسانية الشقية المعذبة، ليزيل شقوتها، ويضع عنها إصرها
والأغلال التى فى أعناقها، وأنزل عليه كتابا - يهدى به الله من أتبع رضوانه سبل
السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم - وجعل
له منه معجزة باهرة، شاهدة على صدق دعوته مؤيدة لحقية رسالته، فكان القرآن هو
الهداية والحجة، هداية الخلق وحجة الرسول.

لم يكد هذا القرآن الكريم يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم، وتملّك عليهم
حسهم ومشاعرهم، ولم يعرض عنه إلا نفر قليل، إذ كانت على القلوب منهم أفعالها،
ثم لم يلبث أن دخل الناس فى دين الله أفواجا، ورفع الإسلام رايته خفاقة فوق ربوع
الكفر، وأقام المسلمون صرح الحق مشيدا على أنقاض الباطل.

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم، الذى جعل الله فيه الهدى والنور، ومنه طب
الإنسانية وشفاء ما فى الصدور، وأيقنوا بصدق الله حيث يصف القرآن فيقول: ﴿ إِنَّ
هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] .. وبصدق الرسول حيث يصف القرآن

فيقول هو أيضا: « فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشعب منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» (١).

صدق المسلمون هذا، وأيقنوا أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفى آياته دليل عليه، فراحوا يثورون (٢) القرآن ليقفوا على ما فيه من مواعظ وعبر، وأخذوا يتدبرون فى آياته ليأخذوا من مضامينها ما فيه سعادة الدنيا وخير الآخرة. وكان القوم عربا خلصا، يفهمون القرآن، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية، فهما لا تعكره عجمة، ولا يشوبه تكدير، ولا يشوهه شئ من قبح الابتداع، وتحكم العقيدة الزائفة الفاسدة.

وكان للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية التى دقت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات، إذ كانوا يرجعون فى مثل ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيكشف لهم ما دق عن أفهامهم، ويجلى لهم ما خفى عن إدراكهم، وهو الذى عليه البيان كما أن عليه البلاغ، والله تعالى يقول له وعنه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

ظل المسلمون على هذا يفهمون القرآن على حقيقته وصفاته، ويعملون به على بينة من هديه وضيائه، فكانوا من أجل ذلك أعزاء لا يقبلون الذل، أقوياء لا يعرفون الضعف، كرماء لا يرضون الضيم، حتى دانت لهم الشعوب وخضعت لهم الدول.

ثم خلف من بعدهم خلف تفرقوا فى الدين شيعة، وأحدثوا فيه بدعا وبدعا، وكانت فتن كقطع الليل المظلم، لا خلاص منها إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا نجاة من شرها إلا بالتمسك بالقرآن، وهو الحبل الذى طرفه بيد الله وطرفه بأيديهم.

وكان من بين المسلمين من أهمل هداية القرآن، وركب رأسه فى طريق الغواية، فلم ينهج هذا المنهج الواضح القويم الذى سلكه سلفه الصالح فى فهم القرآن الكريم

(٢) أى ينقرون عنه ويبحثون عن معانيه.

(١) الترمذى: ١٤٩/٢.

والأخذ به، فأخذ يتأول القرآن على غير تأويله، وسلك في شرح نصوصه طريقا ملتوية، فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول، وكان الذي رمى به في هذه الطريق الملتوية التي باعدت بينه وبين هداية القرآن، هو تسلط العقيدة على عقله وقلبه، وسمعه وبصره، فحاول أن يأخذ من القرآن شاهدا على صدق بدعته، وتحايل على نصوصه الصريحة لتكون دعامة يقيم عليها أصول عقيدته ونزعته، فحرف القرآن عن مواضعه، وفسر ألفاظه على تحمل ما لا تدل عليه، فكان من وراء ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير!!

وكان بجوار هذا الفريق من المسلمين، فريق آخر منهم، برع في علوم حدثت في الملة، ولم يكن للعرب بها عهد من قبل، فحاولوا أن يصلوا بينها وبين القرآن، وأن يربطوا بين ما عندهم من قواعد ونظريات وبين ما في القرآن من أصول وأحكام وعقائد، وتم لهم ذلك على اختلاف بينهم في الدوافع والحوافز على هذا العمل، منهم من قصد حذق هذه العلوم وترويجها على حساب القرآن، ومنهم من أراد خدمة الدين وتفهم القرآن على ضوء هذه العلوم، وأخيرا خرج هذا الفريق على الناس بتفاسير كثيرة، فيها خير وشر، وبينها تفاوت في المنهج، واختلاف في طريقة الشرح ووسيلة البيان.

وكان من وراء هؤلاء وهؤلاء فريق التحف الإسلام وتبطن الكفر، يحمل بين فكّيه لسانا مسلما، وبين جتنبه قلبا كافرا مظلما، يحرص كل الحرص على أن يطفئ نور الإسلام ويهدم عز المسلمين، فلم يجد أعون له على هذا الغرض السيئ، من أن يتناول القرآن بالتحريف والتبديل، والتأويل الفاسد الذي لا يقوم على أساس من الدين، ولا يستند إلى أصل من اللغة، ولا يرتكز على دليل من العقل... وأخيرا خرج هؤلاء أيضا على الناس بتأويلات فيها سخف ظاهر وكفر صريح، خفى على عقول بعض الأغمار الجهلة، ولكن لم يجد إلي قلوب عقلاء المسلمين سبيلا، ولم يلق من نفوسهم رواجا ولا قبولا، بل وكان منهم من أفرغ همه لدحض هذه التأويلات، وأعمل لسانه وقلمه لإبطال هذه الشبهات، فوقى الله بهم المسلمين من شر، وحفظ بهم الإسلام من ضر، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

خلف لنا هؤلاء جميعا - مسلمون وأشباه مسلمين، مبتدعون وغير مبتدعين - كتبا كثيرة في تفسير القرآن الكريم، كل كتاب منها يحمل طابع صاحبه، ويتأثر بمذهب مؤلفه، ويتلون باللون العلمي الذي يروج في العصر الذي أُلّف فيه، ويغلب على غيره من النواحي العلمية لكاتبه، وعنى المسلمون بدراسة بعض هذه الكتب،

وقلَّ اهتمامهم ببعض آخر منها، فأحببت أن أقدم للمكتبة الإسلامية كتاباً يعتبر باكورة إنتاجي في التأليف^(١) عنوانه:

«التفسير والمفسرون»

وهو كتاب يبحث عن نشأة التفسير وتطوره، وعن مناهج المفسرين وطرائقهم في شرح كتاب الله تعالى، وعن ألوان التفسير عند أشهر طوائف المسلمين ومن ينتسبون إلى الإسلام، وعن ألوان التفسير في هذا العصر الحديث... وراعى أن أضمّن هذا الكتاب بعض البحوث التي تدور حول التفسير، من تطرق الوضع إليه، ودخول الإسرائيليات عليه، وما يجب أن يكون عليه المفسر عندما يحاول فهم القرآن أو كتابة التفسير، وما إلي ذلك من بحوث يطول ذكرها، ويجدها القارئ مفصلةً مُسَهِّبةً في هذا الكتاب.

ورجوت من وراء هذا العمل أن أُنبه المسلمين إلى هذا التراث التفسيري، الذي اكتظت به المكتبة الإسلامية على سعتها وطول عهدها، وإلى دراسة هذه التفاسير على اختلاف مذاهبها وألوانها، وألا يقصروا حياتهم على دراسة كتب طائفة واحدة أو طائفتين، دون من عداهما من طوائف كان لها في التفسير أثر يُذكر فيشكر أو لا يشكر.

ورجوت أيضاً أن يكون لعشاق التفسير من وراء هذا المجهود موسوعة تكشف لهم عن مناهج أشهر المفسرين وطرائقهم التي يسيرون عليها في شرحهم لكتاب الله تعالى، ليكون من يريد أن يتصفح تفسيراً منها على بصيرة من الكتاب الذي يريد أن يقرأه، وعلى بينة من لونه ومنهجه، حتي لا يغترّ بباطل أو ينخدع بسراب. وفي اعتقادي أن في هذا الموضوع جدة وطرافة، جدة: إذ لم أسبق إليه إلا بمحاولات بسيطة غير شاملة، وطرافة: إذ يعطى القارئ صوراً متنوعة عن لون من التفكير الإسلامي في عصوره المختلفة، ويكشف له عن أفكار وأفهام تفسيرية، فيها غرابة وطرافة، وحق وباطل، وإنصاف واعتساف، ومحاورة شيقة، وجدل عنيف.

وقد رتب الكتاب على مقدمة، وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة، فقد جعلتها على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما.

المبحث الثاني: في تفسير القرآن بغير لغته.

المبحث الثالث: في اختلاف العلماء في التفسير، هل هو من قبيل التصورات، أو

من قبيل التصديقات؟

(١) تقدم المؤلف بهذا البحث للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ في علوم القرآن

والحديث سنة ١٩٤٦.

وأما الباب الأول: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الأولى من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى، عن التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول:

الفصل الأول: في فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن الكريم، وأهم مصادر التفسير في هذه المرحلة..

الفصل الثاني: في الكلام عن المفسرين من الصحابة.

الفصل الثالث: في قيمة التفسير المأثور عن الصحابة.

الفصل الرابع: في مميزات التفسير في هذه المرحلة.

وأما الباب الثاني: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثانية من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى عن التفسير في عهد التابعين، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول:

الفصل الأول: في ابتداء هذه المرحلة، ومصادر التفسير في عصر التابعين، ومدارس التفسير التي قامت فيه.

الفصل الثاني: في قيمة التفسير المأثور عن التابعين.

الفصل الثالث: في مميزات التفسير في هذه المرحلة.

الفصل الرابع: في الخلاف بين السلف في التفسير.

وأما الباب الثالث: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثالثة من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى، عن التفسير في عصور التدوين، وهي تبدأ من العصر العباسي، وتمتد إلى عصرنا الحاضر، وقد رتبت هذا الباب على ثمانية فصول:

الفصل الأول: في التفسير بالمأثور وما يتعلق به من مباحث، كتطرق الوضع إليه، ودخول الإسرائيليات عليه.

الفصل الثاني: في التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث، كالعلوم التي يحتاج إليها المفسر، والمنهج الذي يجب عليه أن ينهجه في تفسيره حتى يكون بمأمن من الخطأ.

الفصل الثالث: في أهم كتب التفسير بالرأى الجائز.

الفصل الرابع: في التفسير بالرأى المذموم، أو بعبارة أخرى، تفسير الفرق المبتدعة وهم: المعتزلة - الإمامية الإثنا عشرية - الباطنية القدامى، وهم الإمامية الإسماعيلية - الباطنية المحدثون، وهم: البابية والبهائية - الزيدية - الخوارج.

الفصل الخامس: في تفسير الصوفية.

الفصل السادس: في تفسير الفلاسفة.

الفصل السابع: في تفسير الفقهاء.

الفصل الثامن: في التفسير العلمي.

وأما الخاتمة.. فقد جعلتها عن التفسير وألوانه في العصر الحديث، وقصرت الكلام على أهم ألوان التفسير في هذا العصر وهي:

أولاً- اللون العلمي.

ثانياً- اللون المذهبي.

ثالثاً- اللون الإلحادي.

رابعاً- اللون الأدبي الاجتماعي.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يسدد خطانا، ويحقق رجاءنا، إنه سميع مجيب، وهو حسبي ونعم الوكيل..

حدائق حلوان في ١٨ المحرم سنة ١٣٩٦ هـ

(أول يولييه سنة ١٩٧٦ م)

محمد حسين الذهبي



مقدمة

- معنى التفسير والتأويل .
- الفرق بين التفسير والتأويل .
- تفسير القرآن بغير لغته .
- هل تفسير القرآن من قبيل التصورات... أو من قبيل التصديقات؟

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما

التفسير في اللغة: التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]... وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: «الفسر: الإبانة وكشف المغطي كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر»^(١).

وقال في لسان العرب: «الفسر: البيان، وفسر الشيء يُفسره - بالكسر ويُفسره - بالضم فسرا. وفسره أبانه. والتفسير مثله... ثم قال: الفسر كشف المغطي، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل...»^(٢)

وقال أبو حيان في البحر المحيط: «... ويطلق التفسير أيضا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عرّيته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجرى»^(٣) ومن هنا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة في الكشف الحسّي، وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول.

التفسير في الاصطلاح: يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكفي في إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلف له التعريف، فيذكر في ذلك علوما أخرى يحتاج إليها في فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات.. وغير ذلك.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهي وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

فقد عرفه أبو حيان في البحر المحيط بأنه: «علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك».

ثم خَرَجَ التعريف فقال: فقولنا: «علم»، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: «يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن»، هذا هو علم القراءات، وقولنا: «ومدلولاتها» أى مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: «وأحكامها الإفرادية والتركيبية»، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان وعلم البديع، وقولنا: «ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب» يشمل ما دللته عليه بالحقيقة، وما دللته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: «وتتمت لذلك»، هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك» (١).

وعرفه الزركشي بأنه: «علم يفهم به كتاب الله المنزل علي نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه» (٢) وعرفه بعضهم بأنه: «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دللته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية» (٣). والناظر لأول وهلة في هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان في علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه، وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] - بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ: «وملكا كبيرا» - بفتح الميم وكسر اللام. وكقراءة ﴿حَتَّى يَطْهَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] - بالتسكين، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ: «يطهرون» - بالتشديد، كما أن المعنى يختلف أيضا باختلاف الرسم القرآني في المصحف، فمثلا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ [الملك: ٢٢] - بوصل «أمَّنْ»، يغاير في المعنى: ﴿أَمَّ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ [النساء: ١٠٩] - بفصلها، فإن المفصلة تفيد معنى «بل» دون الموصولة.

وعرفه بعضهم بأنه: «علم نزول الآيات، وشعونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيها ومدنيها، ومُحكّمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجمّلها ومُفسّرّها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمّثالها» (٤).

(٢) الاتقان: ١٧٤/٢.

(٤) الإتقان: ١٧٤/٢.

(١) الجزء الأول ص ١٣ - ١٤.

(٣) منهج الفرقان: ٦/٢.

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد. **والتأويل في اللغة:** التأويل: مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال في القاموس: «آل إليه أولاً ومآلاً: رجع، وعنه: ارتد... ثم قال: وأول الكلام تأويلاً وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل: عبارة الرؤيا» (١)

وقال في لسان العرب: «الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً رجع، وآول الشيء: رجعه، وألت عن الشيء: ارتددت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي: ولا رجع إلى خيسر... ثم قال: وأول الكلام وتأوله: دبره وقدره. وأوله وتأوله: فسره... إلخ» (٢)

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه - قال الزمخشري في أساس البلاغة: «آل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم، أي سائس محتكم» (٣)

والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد في كثير من آياته على معانٍ مختلفة، فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].. فهو في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين. وقوله في سورة النساء: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].. فهو في هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير. وقوله في سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله في سورة يونس: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾ [يونس: ٣٩].. فهو في الآيتين بمعنى وقوع الخبر به.. وقوله في سورة يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].. وقوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانَهُ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧]: وقوله فيها: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].. وقوله فيها: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٤٥] وقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رَعِيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] فالمراد به في كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا. وقوله في سورة الكهف: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]

وقوله أيضا: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

● التأويل فى الاصطلاح:

١- التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: «إن العلماء يعلمون تأويله» يعنى القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى تفسيره: «القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا» ويقوله: «اختلف أهل التأويل فى هذه الآية»... ونحو ذلك فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرا، كان تأويله نفس الشئ المخبر به، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير، والشرح، والإيضاح، ويكون وجود التأويل فى القلب، واللسان، وله الوجود ذهنى واللفظى والرسمى، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلية، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا فى نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التى نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى.

٢- التأويل عند المتأخرين من المتفهمة، والمتكلمة، والمحدثنة والمتصوفة:

التأويل عند هؤلاء جميعا: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف. فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث - أو هذا النص - مؤول أو محمول على كذا. قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل. وعلى هذا فالتأويل مطالب بأمرين: الأمر الأول: أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وادعى أنه المراد. الأمر الثانى: أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلا فاسدا، أو تلاعبا بالنصوص.

قال فى جمع الجوامع وشرحه: «التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه لدليل فصحيح، أو لما يظن دليلا فى الواقع ففساد، أو لا شئ فلعب لا تأويل». (١)

وهذا أيضا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات، فمنهم من ذم التأويل ومنعه، ومنهم من مدحه وأوجبه (١) وستطلع عند الكلام على الفرق بين التفسير والتأويل على معان أخرى اشتهرت على ألسنة المتأخرين.

● الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة بينهما:

اختلف العلماء فى بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وفى تحديد النسبة بينهما اختلافا نتجت عنه أقوال كثيرة، وكأن التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصي حله على كثير من الناس إلا من سعى بين يديه شعاع من نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابورى فقال: «نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهدوا إليه» (٢). وليس بعيدا أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولى حيث يقول: «وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب» (٣).

وهذه هي أقوال العلماء أبسطها بين يدي القارئ ليقف علي مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى فى المسألة يوافق ذوقه العلمى ويرضيه:

١- قال أبو عبيدة وطائفة معه: «التفسير والتأويل بمعنى واحد» (٤) فهما مترادفان. وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢- قال الراغب الأصفهانى: «التفسير أعم من التأويل وأكثر ما يستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا والتأويل يستعمل أكثره فى الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل فى الجمل، فالتفسير إما أن يستعمل فى غريب الألفاظ كـ «البحيرة والسائبة والوصيلة» أو فى تبين المراد وشرحه كقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٣] .. وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى فى سورة التوبة ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ٣٧] وقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩].

(١) لخصنا هذا الموضوع من «الإكليل فى المتشابه والتأويل» للعلامة ابن تيمية: ١٥-١٧ من مجموعة الرسائل الكبرى له. وانظر مقالته فى القاعدة الخامسة من جواب المسألة التدبيرية.

(٢) الإتيقان: ٢/ ١٧٣.

(٤) الإتيقان: ٢/ ١٧٣.

(٣) التفسير: معالم حياته .. منهجه اليوم ص ٦.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاما، ومرة خاصا، نحو «الكفر» المستعمل تارة فى الجحود المطلق، وتارة فى جحود البارى خاصة و«الإيمان» المستعمل فى التصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الحق تارة، وإما فى لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل فى الجد والوجد والوجود» (١).

٣ - قال الماتوردى: «التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله» (٢)، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤ - قال أبو طالب الثعلبى: «التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا، كتفسير «الصراط» بالطريق، والصَّيْبُ بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى فى سورة الفجر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].. تفسيره أنه من الرصد، يقال: رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضى بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة» (٣) وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٥ - قال البغوى ووافقته الكواشى: «التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط. والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها» (٤) بتصرف. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٦ - قال بعضهم: «التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية» (٥)، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧ - التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة. فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نبه إلى هذا الرأى الأخير العلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا الموضوع: «وعندى أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه - ما سمعتها وما لم تسمعها -

(١) مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢-٤٠٣ بآخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى

عبد الجبار. (٢) الإتيان: ١٧٣/٢.

(٣) الإتيان: ١٧٣/٢. (٤) تفسير البغوى: ١٨/١. (٥) الإتيان: ١٧٣/٢.

مخالف للعرّف اليوم، إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قدسية، ومعارف سبحانهية، تنكشف من سجع العبارات للسالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك.

وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك في مرية من رد هذه الأقوال. أو بوجه ما، فلا أراك ترضى إلا أن في كل كشف إرجاعا، وفي كل إرجاع كشفًا، فافهم» (١).

هذه هي أهم الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل. وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة التطويل.

والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا تجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل.. فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك. قال الزركشى: « وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل: التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط» (٢).



المبحث الثاني

تفسير القرآن بغير لغته

تفسير القرآن بغير لغته، أو الترجمة التفسيرية للقرآن، بحث نرى من الواجب علينا أن نعرض له، لما له من تعلق وثيق بموضوع هذا الكتاب، وقبل الخوض فيه يحسن بنا أن نمهد له بعجالة موجزة تكشف عن معنى الترجمة وأقسامها، ثم نتكلم عما يدخل منها تحت التفسير وما لا يدخل، فنقول: الترجمة تطلق في اللغة على معنيين: الأول: نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان لمعنى الأصل المترجم، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة.

الثاني: تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى.

قال في تاج العروس: «والترجمان المفسر للسان، وقد ترجمه عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر. وقال الجوهري: وقيل: نقله من لغة إلى لغة أخرى» (١) وعلي هذا فالترجمة تنقسم إلى قسمين: ترجمة حرفية، وترجمة معنوية أو تفسيرية.

أما الترجمة الحرفية: فهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجم. وأما الترجمة التفسيرية: فهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه. وليس من غرضنا في هذا البحث أن نعرض لما يجوز من نوعي الترجمة بالنسبة للقرآن وما لا يجوز، ولا لمقالات العلماء المتقدمين والمتأخرين، ولكن غرضنا الذي نريد أن نكشف عنه ونوضحه هو: أى نوعي الترجمة داخل تحت التفسير؟ أهو الترجمة الحرفية؟ أم الترجمة التفسيرية؟ أم هما معا؟ فنقول:

● الترجمة الحرفية للقرآن:

الترجمة الحرفية للقرآن: إما أن تكون ترجمة بالمثل، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل، أما الترجمة الحرفية بالمثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حدوا وبحذو بحيث تحمل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمّله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها

البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز، وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسيين:

أولهما: كونه آية دالة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وذلك بكونه معجزا للبشر، لا يقدرّون على الإتيان بمثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك.

وثانيهما: هداية الناس لما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم.

أما الغرض الأول، وهو كونه آية على صدق النبي ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقا، فإن القرآن - وإن كان الإعجاز في جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل، وغير ذلك مما عد من وجوه إعجازه - إنما يدور الإعجاز السارى في كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقا، فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة، ولكن لكل لغة خواصها لا يشاركها فيها غيرها من اللغات، وإذن فلو تُرجم القرآن ترجمة حرفية - وهذا محال - لضاعت خواص القرآن البلاغية، ولنزل من مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ.

وأما الغرض الثانى، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوي عليها جميع اللغات، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية، ونجد هذا كثيرا فى استنباطات الأئمة المجتهدين، وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا. والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعانى الأولية، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعانى الثانوية، ضرورة أنها لازمة للقرآن دون غيره من سائر اللغات.

ومما تقدم يعلم: أن الترجمة الحرفية للقرآن، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه، لما يترتب عليها من ضياع الغرض الأول برتمته، وفوات شطر من الغرض الثانى.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن حدوا وحدوا بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وهذا أمر ممكن، وهو وإن جاز فى كلام البشر، لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز، لأن فيه من فاعله إهدارا لنظم القرآن وإخلالا بمعناه، وانتهاكا لحرمة، فضلا عن كونه فعلا لا تدعو إليه ضرورة.

● الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن :

اتضح لنا مما سبق معنى الترجمة الحرفية بقسميها، وأقمنا الدليل بما يناسب المقام على عدم إمكان الترجمة الحرفية بالمثل، وعدم جواز الترجمة الحرفية بغير المثل، وإن كانت ممكنة، ولكن بقى بعد ذلك هذا السؤال : هل الترجمة الحرفية بقسميها - على فرض إمكانها فى الأول وجوازها فى الثانى - تسمى تفسيراً للقرآن بغير لغته؟ أو لا تدخل تحت مادة التفسير؟

وللجواب عن هذا نقول:

إن الترجمة الحرفية بالمثل، تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم الأصل بلغة أخرى تحاكيه حدوا بحدو، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفردات الأصل وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى البلاغية، والأحكام التشريعية. وتقدم لنا أيضا أن هذه الترجمة بالنسبة للقرآن غير ممكنة، وعلى فرض إمكانها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته، لأنها عبارة عن هيكل القرآن بذاته، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين: المترجم منها والمترجم إليها. وعلى هذا فأبناء اللغة المترجم إليها يحتاجون إلى تفسيره وبيان ما فيه من أسرار وأحكام، كما يحتاج العربي الذي نزل بلغته إلى تفسيره والكشف عن أسراره وأحكامه، ضرورة أن هذه الترجمة لا شرح فيها ولا بيان، وإنما فيها إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه، ونقل معنى الأصل كما هو من لغة إلى لغة أخرى.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل، فقد تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم القرآن حدوا بحدو، بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وتقدم لنا أن هذا غير جائز بالنسبة للقرآن وعلى فرض جوازها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته لأنها عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام، وهذه الترجمة لم يترتب عليها سوى إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه فى تأدية بعض معناه، وليس فى ذلك شيء من الكشف والبيان، لا شرح مدلول، ولا بيان مجمل، ولا تقييد مطلق، ولا استنباط أحكام، ولا توجيه معان، ولا غير ذلك من الأمور التى اشتمل عليها التفسير المتعارف.

● الترجمة التفسيرية للقرآن :

الترجمة التفسيرية أو المعنوية، تقدم لنا أنها عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه، وذلك بأن نفهم المعنى الذى يراد من الأصل، ثم نأتى له بتركيب من اللغة المترجم إليها يؤديه على وفق الغرض الذى سيق له.

وعلم مما تقدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية، وإيضاح هذا الفرق نقول:

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق، وعن مدها غاية المد، ومثل هذا التعبير فى اللغة المترجم إليها ربما كان لا يودى المعنى الذى قصده القرآن، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن، ويقول فى نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن، لأنه مثير للضحك علي فاعله والسخرية منه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ. أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية، فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير، مصورين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها، ويناسب إلف من يتكلم بها. ومن هذا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية، يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية.

إذا علم هذا، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد، فإن ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التى نزل بها.

وحيث اتفقت كلمة المسلمين، وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية، بدون إحاطة بجميع مراد الله، فإننا لا نشك فى أن الترجمة التفسيرية للقرآن داخله تحت هذا الإجماع أيضاً، لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير، لا لعبارة الأصل القرآنى، فإذا كان التفسير مشتملاً على بيان معنى الأصل وشرحه، بحل ألفاظه فيما يحتاج تفهمه إلى الحل، وبيان مراده كذلك، وتفصيل معناه فيما يحتاج للتفصيل، وتوجيه مسأله فيما يحتاج للتوجيه، وتقرير دلائله فيما يحتاج للتقرير، ونحو ذلك من كل ما له تعلق بتفهم القرآن وتدبره، كانت الترجمة التفسيرية أيضاً مشتملة على هذا كله، لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن.

وقصارى القول: إن فى كل من التفسير وترجمته بيان ناحية أو أكثر من نواحي القرآن التى لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربى مبين، وليس فى واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن، ولا إحلال نظم محل نظم القرآن بل نظم القرآن باقٍ معهما، دال على معانيه من جميع نواحيه.

● الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية:

لو تأملنا أدنى تأمل، لوجدنا أنه يمكن أن يُفَرَّق بين التفسير والترجمة التفسيرية من جهتين:

الجهة الأولى: اختلاف اللغتين. فلغة التفسير تكون بلغة الأصل، كما هو المتعارف المشهور، بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى.

الجهة الثانية: يمكن لقارئ التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته فإن وجده خطأ نبه عليه وأصلحه. ولو فرض أنه لم يتنبه لما فى التفسير من خطأ تنبه له قارئ آخر، أما قارئ الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك، لجهله بنظم القرآن ودلالته، بل كل ما يفهمه ويعتقده، أن هذه الترجمة التى يقرأها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن.

● شروط الترجمة التفسيرية:

تفسير القرآن الكريم من العلوم التى فُرض على الأمة تعلمها، والترجمة التفسيرية تفسير للقرآن بغير لغته، فكانت أيضاً من الأمور التى فُرضت على الأمة، بل هى أكد لما يترتب عليها من المصالح المهمة، كتبليغ معانى القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين، وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يفهمون لغة العرب، وأيضاً حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين، والدفاع عن القرآن بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة وتعاليم فاسدة، ليظهروا القرآن لمن لم يعرف لغته فى صورة تنفر منه وتصد عنه، وكثيراً ما علت الأصوات بالشكوى من هذه التراجم الفاسدة، لهذا نرى أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوافر وتُرَاعَى، لتكون الترجمة التفسيرية ترجمة صحيحة مقبولة، وإليك هذه الشروط:

أولاً - أن تكون الترجمة على شريطة التفسير، لا يُعَوَّلُ عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية، وعلوم اللغة العربية، والأصول المقررة فى الشريعة الإسلامية، فلا بد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك، أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن، أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول، فلا تجوز ترجمته ولا يُعتد بها، كما لا يُعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل، معتمداً على هذه الأصول.

ثانياً - أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن، وهذا شرط فى المفسر أيضاً، فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلطت على

تفكيره، فإذا بالمفسّر وقد فُسّر طبقاً لهواه، وإذا بالمرجّم وقد تُرجم وفقاً لميوله، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهده.

ثالثاً - أن يكون المترجم عالماً باللغتين، المترجم منها والمترجم إليها، خبيراً بأسرارهما، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما.

رابعاً - أن يكتب القرآن أولاً، ثم يؤتى بعده بتفسيره، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن. هذه هي الشروط التي يجب مراعاتها لمن يريد أن يُفسّر القرآن بغير لغته، تفسيراً يسلم من كل نقد يُوجّه، وعيب يُلتَمَس (١).



(١) المراجع: المدخل المنير ص ٤١ - إلى النهاية، ومجلة نور الإسلام «الأزهر» السنة الثالثة ص

المبحث الثالث

هل تفسير القرآن من قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات ؟

اختلف العلماء فى علم التفسير: هل هو من قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات؟ فذهب بعضهم إلى أنه من قبيل التصورات، لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظ القرآن، وذلك كله تعاريف لفظية، وقد صرح بهذا الحكيم على المطول حيث قال: «وما قالوا من أن لكل علم مسائل فإنما هو فى العلوم الحكيمة، وأما العلوم الشرعية والأدبية فلا يتأتى فى جميعها ذلك، فإن علم اللغة ليس إلا ذكر الألفاظ ومفهوماتها، وكذلك التفسير والحديث»^(١).

وذهب السيد: إلى أن التفسير من قبيل التصديقات، لأنه يتضمن الحكم على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى، وعلى هذا يكون التفسير - عبارة عن مسائل جزئية، مثل قولنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لأهل المدينة، والاسم، معناه: الدال على المسمى، والله، معناه: الذات الأقدس، والرحمن، معناه: الحسن... وغير ذلك، ولا شك أن هذه قضايا جزئية^(٢).



(١) ص ٤٩١ - ٤٩٢

(٢) انظر: اللؤلؤ المنظوم فى مبادئ العلوم ص ١٦٠ - ١٦١

الباب الأول

المرحلة الأولى للتفسير (التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه)

- فهمُ النبي ﷺ والصحابة للقرآن .
- المفسرون من الصحابة .
- قيمة التفسير المأثور عن الصحابة .
- مميزات التفسير في هذه المرحلة .

الفصل الأول

فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن

• تمهيد :

نزل القرآن الكريم على نبي أمي، وقوم أميين، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلاً مما يجرى هذا المجرى، وكان كلامهم مشتملاً على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية. والإيجاز والإطناب.

وجرياً على سنة الله تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] .. فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظاً قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: إنها عربت وأخذت من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال. ومن قائل: إنها عربية بحتة، غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تخرج القرآن عن كونه عربياً.

استعمل القرآن في أسلوبه الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، وعلى نمط العرب في كلامهم. غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي افتن بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

• فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن :

وكان طبيعياً أن يفهم النبي ﷺ القرآن جملة وتفصيلاً، إذ تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان: ﴿ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩] ، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي ﷺ القرآن في جملته، أى بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه الممثل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها.

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول في مقدمته: «إن القرآن نزل بلغة العرب،

وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه» (١)، نعم لا أظن الحق معه في ذلك، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي أن العرب كلهم كانوا يفهمونه في مفرداته وتراكيبه، وأعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

• تفاوت الصحابة في فهم القرآن:

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وُضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس: «أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وفاكهة وأباً﴾ [عبس: ٣١].. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا ليهو التكلف يا عمر» (٢).. وما روى من أن عمر كان على المنبر فقراً: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ [النحل: ٤٧] ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوْفُ الرَّجُلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرْداً كَمَا تَخَوْفُ عُوْدَ النَّبْعَةِ السَّفْنُ (٣)

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنت لا أدري ما ﴿فاطر السموات﴾ حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها» (٤).

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى «الأب» ومعنى «التخوف»، ويسأل عنهما غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى «فاطر» إلا بعد

(١) ص ٤٨٩ . (٢) الإيتقان: ١١٣/٢ .

(٣) الموافقات: ٨٧/٢ - ٨٨ .. والتامك: السنام. والقرد: الذي تجعد شعره، فكان كأنه وقاية للسنام. والنبع: شجر للقسي والسهم. والسفن: كل ما يُنحت به غيره.

(٤) الإيتقان: ١١٣/٢

سماعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية، فيكفيهم - مثلاً - أن يعلموا من قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهِةً وَأَبًا﴾ أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً ما دام المراد واضحاً جلياً (١).

وماذا يقول ابن خلدون فيما رواه البخاري، من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] .. وبلغ من أمره أن أخذ عقلاً أبيض وعقلاً أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبيننا، فلما أصبح أخبر الرسول ﷺ بشأنه، فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد (٢).

الحق أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملماً بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلزم النبي ﷺ فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً. قال مسروق: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاد - يعنى الغدير - فالإخاد يروى الرجل، والإخاد يروى الرجلين، والإخاد يروى العشرة، والإخاد يروى المائة، والإخاد لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم» (٣).

هذا .. وقد قال ابن قتيبة - وهو ممن تقدم على ابن خلدون بقرون - : «إن العرب لا تستوى في المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض» (٤). ويظهر أن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرح به فيما أورده بعد عبارته السابقة بقليل حيث قال: «وكان النبي ﷺ يبين الجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه» .. (٥). وهذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم فى معرفة معانى القرآن معرفتهم بلغته، بل كانوا فى كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول ﷺ.

- (١) انظر ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن قصة عمر فى سؤاله عن معنى الأب فى سورة عم من تفسيره لجزء عم ص ٢١
 (٢) الحديث عند البخارى فى باب التفسير: ١٢٧/٨ من فتح البارى.
 (٣) مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى لكلية الشريعة ص ٨٤
 (٤) التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم ص ٦، نقلاً عن المسائل والأجوبة لابن قتيبة ص ٨.
 (٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٩.

مصادر التفسير في هذا العصر

كان الصحابة في هذا العصر يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

الأول : القرآن الكريم .

الثاني : النبي ﷺ .

الثالث : الاجتهاد وقوة الاستنباط .

الرابع : أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

ونوضح كل مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول :

● المصدر الأول - القرآن الكريم :

الناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص. وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى.

لهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملاً، وليحمل المطلق على المقيّد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسّر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا، فمن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُشرح ما جاء موجزاً في القرآن بما جاء في موضع آخر مُسهباً، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة في بعض المواضع، وجاءت مُسهبّة مطوّلة في موضع آخر، وكقصة موسى وفرعون، جاءت موجزة في بعض المواضع، وجاءت مُسهبّة مُفصّلة في موضع آخر.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُحمل الجمل على المبيّن ليُفسّر به، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، فمن ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ يَصِيبُكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] بأنه العذاب الأذني المُعجل في الدنيا، لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا نَرِيكَ بِعَضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينِكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧] .. ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧] بأهل الكتاب لقوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤] .. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمَ

من رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴿البقرة: ٣٧﴾ فَسَّرْتَهَا آيَةَ الْأَعْرَافِ : ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] .. ومنه قوله تعالى : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فَسَّرْتَهَا آيَةَ : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] .
ومنه قوله تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] ..
فسرتها آية : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] .

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، فمن الأول: ما نقله الغزالي عن أكثر الشافعية من حمل المطلق على المقيد في صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثلاً له بآية الوضوء والتيمم، فإن الأيدي مقيّدة في الوضوء بالغاية في قوله تعالى : ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] .. ومطلقة في التيمم في قوله تعالى : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦] .. فقيدت في التيمم بالمرافق أيضاً (١) ، ومن أمثله أيضاً عند بعض العلماء: آية الظهار مع آية القتل، ففي كفارة الظهار يقول الله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣] .. وفي كفارة القتل، يقول : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] .. فيحمل المطلق في الآية الأولى على المقيد في الآية الثانية، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء (٢) .

ومن الثاني : نفى الخلة والشفاعة علي وجه العموم في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .. وقد استثنى الله تعالى المتقين من نفى الخلة في قوله : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] .. واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله : ﴿وَكُمْ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] .. ومثل قوله تعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُعْزِزْهُ﴾ [النساء: ١٢٣] .. فإن ما فيها من عموم خصص بمثل قوله : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] ..

ومن تفسير القرآن بالقرآن: الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف، كخلق آدم من تراب في بعض الآيات، ومن طين في غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التي مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه .

ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ وتتفق في المعنى، فقراءة ابن مسعود رضى الله عنه : «أو

(١) مسلم الثبوت وشرحه: ٣٦١/١ .

(٢) جمع الجوامع وشرحه: ٥٤/٢ والمستصفي: ١٨٥/٢ .

يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ» تفسّر لفظ الزخرف في القراءة المشهورة: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرَفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] .. وبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ والمعنى، وإحدى القراءتين تُعَيِّنُ المراد من القِراءة الأخرى، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] .. وفسّرتها القراءة الأخرى: «فامضوا إلى ذكر الله»، لأن السعى عبارة عن المشى السريع، وهو وإن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب .

وبعض القراءات تختلف بالزيادة والنقصان، وتكون الزيادة في إحدى القراءتين مفسّرة للمجمل في القراءة التي لا زيادة فيها، فمن ذلك: القراءة المنسوبة لابن عباس: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج» .. فسّرت القراءة الأخرى التي لا زيادة فيها (١)، وأزالت الشك من قلوب بعض الناس الذين كانوا يتحرّجون من الصفاق في أسواق الحج .. والقراءة المنسوبة لسعد بن أبي وقاص: «وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السُدُسُ» .. فسّرت القراءة الأخرى (٢) التي لا تعرض فيها لنوع الأخوة .

وهنا تختلف أنظار العلماء في مثل هذه القراءات فقال بعض المتأخرين: إنها من أوجه القراءات، وقال غيرهم: إنها ليست قرآناً، بل هي من قبيل التفسير، وهذا هو الصواب: لأن الصحابة كانوا يفسّرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب القرآن فظننها بعض الناس - لتداول الزمن عليها - من أوجه القراءات التي صحّت عن رسول الله ﷺ ورواها عنه أصحابه .

ومما يؤيد أن القراءات مرجع مهم من مراجع تفسير القرآن بالقرآن، ما روى عن مجاهد أنه قال: «لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه» (٣) .

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة في تعرف بعض معاني القرآن، وليس هذا عملاً آلياً لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبير والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة .

ومن أجل هذا نستطيع أن نوافق الأستاذ جولدزيهر على ما قاله في كتابه «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن» من أن: «المرحلة الأولى لتفسير القرآن والنواة التي بدأ

(١) يشير إلى الآية (١٩٨) من سورة البقرة . (٢) يشير إلى الآية (١٢) من سورة النساء .

(٣) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي: ١/١٦٣

بها، تتركز في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها. وبعبارة أوضح: في قراءاته، ففي هذه الأشكال المختلفة، نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير»^(١) . . نعم نستطيع أن نوافقه على أن المرحلة الأولى للتفسير تتركز في القرآن نفسه على معنى رد متشابهه إلى محكمه، وحمل مجمله على مبينه، وعامه على خاصه، ومطلقه على مقيده . . إلخ، كما تتركز في بعض قراءاته المتواترة. وما كان من قراءات غير متواترة فلا يُعَوَّلُ عليها باعتبارها قرآناً، وإن عُوِّلَ على بعض منها باعتبارها تفسيراً للنص القرآني، نعم . . نستطيع أن نوافقه على هذا إن أراد، ولكن لا نستطيع أن نوافقه على ما يرمى إليه من إحداد في آيات الله، وما يهدف إليه من اتهام المسلمين بالتساهل في قبول القراءات، وذلك حيث يقول في صفحة (١، ٢) من الكتاب نفسه: «وقد تسامح المسلمون في هذه القراءات واعترفوا بها جميعاً على قدم المساواة بالرغم مما قد يفرض من أن الله تعالى قد أوحى بكلامه كلمة وكلمة وحرفاً وحرفاً، وأن مثله من الكلام المحفوظ في اللوح والذي تنزل به الملك على الرسول المختار يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد» أ هـ .

كما لا نستطيع أن نوافقه على ما نسبه إلى الصحابة من أنهم هم الذين أحدثوا هذه القراءات جميعاً، ونفى كونها من كلام الله، وعلل ما ذهب إليه بعلل واهية لا تقوم إلا على أوهام تخيلها فظنها حقائق، وذلك حيث يقول في صفحة (٦) بعد أن ساق هذه الآية: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ - ٩] . . قال: «قرأ بعضهم بدلاً من «وتعزروه» بالراء: «وتعزروه» بالنزاي، من العزة والتشريف، وإنى أرى في الانتقال من تلك القراءة إلى هذه القراءة - وإن كنت لا أجزم بذلك - أن شيئاً من التفكير في تصور أن الله قد ينتظر مساعدة من الإنسان قد دعا إلى ذلك، حقاً إنه قد جاءت في القرآن آيات بهذا المعنى - سورة الحج (٤٠) ومحمد (٧) والحشر (٨) وغيرها - بيد أن اللفظ المستعمل في هذه الآيات - وهو «نصر» - يقوم على أساس أخلاقي تهذيبي، وليس كالتعبير بلفظ «عزَّر» وهي الكلمة المتفقة مع اللفظ العبري «عزار»، والتعبير بـ «عزَّر» تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية» أ هـ .

فهذا الكاتب دفعه إلى رأيه الذي رآه ولم يقطع به كما هي عادته، جهله بأساليب العرب وأفانينها في البلاغة، فالعرب لا يفهمون من قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ - بالراء - معنى النصر المادية، بل أول ما تصل هذه الكلمة إلى أسماعهم يعلمون أن الله يريد منهم نصر دينه ونصر رسوله، وكثير من مثل هذه العبارات وارد في القرآن، وما

ذكره من التفرقة بين لفظ: « نصر » ولفظ: « عزَّر » من أن الأول يقوم على أساس أخلاقي تهديبي، والثاني يقوم على أساس من المساعدة المادية، لا يقوم على أساس من الفقه اللغوي.

ويقول الكاتب في صفحة (١٩، ٢٠) من الكتاب نفسه: « وأحب أن أهتم هنا ببعض ما ذكرته من هذه القراءات، لما فيه من طابع خاص ذي مبادئ جوهريّة، فبعض هذه الاختلافات ترجع أسبابها إلى الخوف من أن تُنسب إلى الله ورسوله عبارات قد يلاحظ فيها بعض أصحاب وجوه النظر الخاصة ما يمس الذات الإلهية العالية أو الرسول، أو مما يرى أنه غير لائق بالمقام. وهنا تغيرت القراءات من هذه الناحية بسبب هذه الأفكار التنزيهية ».

ثم ضرب لذلك أمثلة فقال: « في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨].. فقد فهم أن هناك ما يصطدم بشهادة الله نفسه على قدم المساواة مع الملائكة وأولى العلم فقرأ بعضهم: « شهداء الله » وبهذا يكون الكلام ملتئما مع الآية المتقدمة: « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، شهداء الله: أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم » ا. هـ. والمتأمل أدنى تأمل يرى أن هذا الوهم الذي ادعى حصوله من القراءة الأولى لا يمكن أن يدور بخلد عاقل، ولم نر أحدا من العلماء خطر له هذا الإيهام، فشهادة الله مع الملائكة لا غبار عليها، ولا تفيد مساواته لمن ذكروا معه.

ويقول في صفحة (٢١، ٢٢): وفي سورة العنكبوت ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [سورة العنكبوت: ٢، ٣] فقوله تعالى: ﴿ فَلِيَعْلَمَنَّ ﴾ قد يوحى إلى النفس أن الله قد علم ذلك أولا عند الفتنة كأنه لم يكن يعلم بذلك في الأزل، ويظهر أن مثل هذا الظن قد أدى إلى قراءة علي والزهرى: « فَلِيَعْلَمَنَّ » من الإعلام، بمعنى: فليعرفن الله الناس أخلاق هؤلاء وهؤلاء، أو بمعنى لیسمنهم بعلامة يعرفون بها، من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها. وزرقة العيون عند العرب علامة على القبح والغدر، وأحيانا على الحسد » ا. هـ.

وللرد على هذا نقول: إن الله تعالى لا يعلم الشيء موجودا إلا بعد وجوده، فتعلق علمه بالحادث باعتبار أنه حدث حادث، وهذا لا ينافي كونه عالما من الأزل بالشيء قبل وقوعه، فالكاتب ظن أن العلم المترتب على الفتنة هو العلم الأزلي، ونسى علم الانكشاف والظهور، فبنى على هذا أن من قرأ: « فَلِيَعْلَمَنَّ » من الإعلام، قرأ بها فرارا مما تفيد القراءة الأولى، وهذا قول باطل، ولا يخفى على صحابة رسول الله ﷺ أن

فتنة الله لمن يشاء من عباده يراد منها أن يظهر للناس في الخارج ما اشتمل عليه علمه من الأزل، فكيف يعقل أنهم عدلوا عن قراءة «فليعلمن» من العلم إلى قراءة «فليعلمن» من الإعلام لمجرد هذا الوهم الباطل؟.. اللهم إن الكاتب لا يريد إلا أن يوقع في أذهان الناس أن القرآن كان عرضة للتبديل والتحريف من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد ساق الكاتب أمثلة كثيرة في كتابه، كلها من هذا القبيل ولهذا الغرض بدون أن يُفرّق بين قراءة متواترة وقراءة شاذة، ولو أنه علم ما اشترطه المسلمون لصحة القراءة وقبولها من تواترها عن صاحب الرسالة. أو صحة السند وموافقة العربية وموافقة الرسم العثماني، لما صار إلى هذا الرأي الباطل، ولما نسب إلى الصحابة رضون الله عليهم مثل هذا التحريف والتبديل في كتاب ضمن الله حفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

● المصدر الثاني - النبي ﷺ :

المصدر الثاني الذي كان يرجع إليه الصحابة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله ﷺ، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله ﷺ في تفسيرها، فيبين له ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].. وكما نبه على ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده إلى الرسول ﷺ أنه قال: «ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه»... الحديث (١).

والذي يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت بابا من الأبواب التي اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيرا من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك:

ما أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما عن عدى بن حبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى».

وما رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

وما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على الناس فقالوا:

يا رسول الله؛ وأيناً لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك».

وما أخرجه مسلم وغيره عن عقيبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].. ألا وإن القوة الرمي». وما أخرجه الترمذى عن على قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: «يوم النحر».

وما أخرجه الترمذى وابن جرير عن أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦].. قال: «لا إله إلا الله».

وما أخرجه أحمد والشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَوَقَشَ الْحِسَابَ عُدِّبَ» قلت: أليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يَحْسَابُ حِسَابًا سِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] قال: «ليس ذلك بالحساب.. ولكن ذلك العرض».

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر أعطانيه ربي فى الجنة» (١)

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله ﷺ:

● الوضع على رسول الله ﷺ فى التفسير:

غير أن القصاص والوضاع زادوا فى هذا النوع من التفسير كثيرا، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وليس أدل على هذا مما أخرجه الحاكم عن أنس أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] فقال: «القنطار ألف أوقية»، وما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ «القنطار اثنا عشر ألف أوقية». (٢)

فمثل هذا التناقض فى مقدار وزن القنطار، لا يمكن أن يصدر عن رسول الله ﷺ، ولهذا رد العلماء كثيرا مما ورد من التفسير منسوباً إلى رسول الله ﷺ، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازى» ومراده من قوله هذا - كما نقل عن المحققين من أتباعه - أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة (٣) لا كما استظهره الأستاذ أحمد أمين حيث يقول: «وظاهر هذه الجملة أن

(١) الإتيقان: ٢/١٩١، ٢٠٥.

(٢) فجر الإسلام (ص ٤٢٥)، وقد حقق الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حَبَّ الشَّهَوَاتِ...﴾ إلخ (آل عمران: ١٤). أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ حديث فى تحديد القنطار، وما ورد من ذلك فموقوف على بعض الصحابة.

(٣) الإتيقان ٢/١٧٨.

الأحاديث التي وردت في التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة، والظاهر - كما قال بعضهم - أنه يريد الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ في التفسير. أما الأحاديث المنقولة عن الصحابة والتابعين فلا وجه لإنكارها، وقد اعترف هو نفسه ببعضها» (١).
وحيث يقول: «إن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتا، أعنى أنه أنكر صحة ورود ما يروونه من هذا الباب، فقد روى عن الإمام أحمد أنه قال: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي». (٢)

نعم .. ليس الأمر كما استظهره صاحب «ضحى الإسلام» و«فجر الإسلام»، لأنه مما لا شك فيه أن النبي ﷺ صحّت عنه أحاديث في التفسير، والإمام أحمد نفسه معترف بها، فكيف يعقل أن الإمام أحمد يريد من عبارته السابقة نفى الصحة عن جميع الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ في التفسير؟ - وظنى أن الأستاذ أراد بالبعض المذكور، المحققين من أصحاب الإمام أحمد، غاية الأمر أنه حمل كلامهم على غير ما أرادوا فوقع في هذا الخطأ، والعجب أنه نقل عن «الإتقان» في هامش فجر الإسلام (ص ٢٤٥) ما استظهرناه من كلام المحققين من أتباع الإمام أحمد.

واعترف في فجر الإسلام (ص ٢٤٥)، وضحى الإسلام (الجزء الثاني ص ١٣٨):
بأنه قد صح عن رسول الله ﷺ تفسيرات لبعض ما أشكل من القرآن، وإن كان قد اضطرب في كلامه فجعل ما ورد من التفسير عن رسول الله ﷺ بالغا حد الكثرة، حيث قال في فجر الإسلام (ص ٢٤٥): «وهذا النوع كثير: وردت منه أبواب في كتب الصحاح الستة، وزاد فيه القصاص والوضّاع كثيرا»، ثم عاد في ضحى الإسلام (ج: ٢ ص ١٣٨): فجعل ما ورد عن الرسول ﷺ من التفسير بالغا حد القلّة حيث قال: «وما روى عن الرسول ﷺ في ذلك قليل، حتى روي عن عائشة أنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تعدّ، علّمهنّ إياه جبريل»، وفاته أن الحديث مطعون فيه، فذكره دليلا عن مُدعاة ولم يُعقب عليه، مع أنه أحال على الطبري في نقل الحديث، والطبري وضّح علتها، وتأوله على فرض الصحة كما سنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

● هل تناول النبي ﷺ القرآن كله بالبيان؟

قد يقول قائل: إن الله تعالى يقول في سورة النحل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] .. فهل بين رسول الله ﷺ لأصحابه القرآن كله، أفرادا وتركيبا، وما يتبع ذلك من بيان الأحكام؟ أو أنه بين لهم

بعضه وسكت عن بعضه الآخر؟ ثم على أى وجه كان هذا البيان من الرسول ﷺ لأصحابه؟ . وللجواب عن هذا نقول:

● المقدار الذى بينه رسول الله ﷺ من القرآن لأصحابه:

اختلف العلماء فى المقدار الذى بينه النبي ﷺ من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ بين لأصحابه كل معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية (١).

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ لم يبين لأصحابه من معانى القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء: الخويى والسيوطى (٢) وقد استدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة نورها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب.

● أدلة من قال بأن النبي ﷺ بين كل معانى القرآن:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ..

والبيان فى الآية بتناول بيان معانى القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بين الرسول ﷺ ألفاظه كلها، فلا بد أن يكون قد بين كل معانيه أيضاً، وإلا كان مقصراً فى البيان الذى كُلف به من الله.

ثانياً: ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى (٣) أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»، ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة، وقد ذكر الإمام مالك فى الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ «البقرة» ثمان سنين، والذى حمل الصحابة على هذا ما جاء فى كتاب الله تعالى من قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [سورة ص: ٢٩] .. وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] .. وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك من غيره.

(١) انظر مقالته فى مقدمته فى أصول التفسير ص ٥.

(٢) انظر ما نقله السيوطى عن الخويى فى الإتيان: ١٧٤/٢ وما ارتضاه السيوطى فى الإتيان:

١٧٩/٢.

(٣) هو عبد الله بن حبيب التابعى المقرئ (المتوفى سنة ٧٢ هـ) وهو غير أبى عبد الرحمن

السلمى الصوفى (المتوفى سنة ٤١٢ هـ).

فهذه الآثار تدل على أن الصحابة تعلموا من رسول الله ﷺ معاني القرآن كلها، كما تعلموا الفاظه.

ثالثا: قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالتطب أو الحساب ولا يستشروه، فكيف بكتاب الله الذي فيه عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؟

رابعا: ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضى الله عنه أنه قال: «من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها»، وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية، لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه. (١)

● **أدلة من قال بأن النبي ﷺ لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن:**

استدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي:

أولا: ما أخرجه البزار عن عائشة قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد، علمه إياهن جبريل». (٢)

ثانيا: قالوا: إن بيان النبي ﷺ لكل معاني القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا في آي قلائل، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل، ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده في كتابه. (٣)

ثالثا: قالوا: لو كان رسول الله ﷺ يبين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فائدة، لأنه يلزم من بيان رسول الله ﷺ لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله، فكيف يخص ابن عباس بهذا الدعاء؟ (٤)

● **مغالاة الفريقين:**

ومن يتأمل فيما تقدم من أدلة الفريقين يتضح له أنهما على طرفي نقيض، ورأبي أن كل فريق منهم مبالغ في رأيه. وما استند إليه كل فريق من الأدلة يمكن مناقشته بما يجعله لا ينهض حجة على المدعى.

● **مناقشة أدلة الفريق الأول:**

فاستدل ابن تيمية ومن معه على رأيهم بقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

(١) استخلصنا هذه الأدلة من مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص ٥، ٦ ومن الإتيان:

٢٠٥/٢

(٢) القرطبي: ٣١/١، ورواية الطبري في تفسيره: ٢١/١: «... إلا آيا تعد»، وفي ضحى

الإسلام: ١٣٨/٢ بلفظ: «... إلا آيات تعد»..

(٣) انظر ما نقله السيوطي في الإتيان عن الخوي: ١٧٤/٢. (٤) انظر القرطبي: ٣٣٠/١.

إِيَّاهُمْ ﴿ استدلّال غير صحيح، لأن الرسول ﷺ - بمقتضى كونه مأمورا بالبيان - كان يبيّن لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه، ما أشكل منها وما لم يشكل.

وأما استدلالهم بما روى عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، فهو استدلال لا ينتج المدعى، لأن غاية ما يفيد، أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبي ﷺ أو من غيره من إخوانهم الصحابة، أو من تلقاء أنفسهم، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد.

وأما الدليل الثالث، فكل ما يدل عليه: هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه، شأن أى كتاب يقرؤه قوم، ولكن لا يلزم منه أن يكونوا قد رجعوا إلى النبي ﷺ فى كل لفظ منه.

وأما الدليل الرابع، فلا يدل أيضا، لأن وفاة النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يبين لهم آية الربا لا تدل على أنه كان يبين لهم كل معانى القرآن، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة، فكان لابد من الرجوع فيها إلى النبي ﷺ، شأن غيرها من مشكلات القرآن.

● مناقشة أدلة الفريق الثانى :

وأما استدلال أصحاب الرأى الثانى بحديث عائشة، فهو استدلال باطل، لأن الحديث منكر غريب، لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيرى، وهو مطعون فيه، قال البخارى : « لا يتابع فى حديثه » وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : « منكر الحديث »، وقال فيه ابن جرير الطبرى : « إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار » وعلى فرض صحة الحديث فهو محمول - كما قال أبو حيان - على مغيبات القرآن، وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله (١). وفى معناه ما قاله ابن جرير (٢) وما قاله ابن عطية (٣).

وأما الدليل الثانى، فلا يدل أيضا على ندرة ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام فى التفسير، إذ أن دعوة إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره بالنسبة للكل غير مسلمة، وأما ما قيل من أن النبي ﷺ لم يؤمر بالتنصيص على المراد فى جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس فى آيات القرآن فليس بشئ، إذ أن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالبيان، وقد يشكل الكثير على أصحابه فليزمه البيان، ولو فرض أن القرآن أشكل كله على الصحابة ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام أن يمتنع

(١) البحر المحيط: ١٣/١.

(٢) فى تفسيره: ٢٩/١.

(٣) ونقله عنه القرطبى فى تفسيره: ٣١/١.

عَنْ بَيَانِ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ، بِمَقْتَضَى أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي الْآيَةِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ .

وأما الدليل الثالث، فلو سلمنا أنه يدل على أن النبي ﷺ لم يفسر كل معاني القرآن. فلا نسلم أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى.

● اختيارنا في المسألة:

والرأى الذى تميل إليه النفس - بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق فى دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى - هو أن نتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول ﷺ بين الكثير من معانى القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معانى القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير، قال «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء. وتفسير لا يعلمه إلا الله» (١).

وبدهى أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذى لا يعذر أحد بجهله، لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه، وإنما فسر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات الى أخفاها الله عنهم وأطلعها عليها وأمره ببيانها لهم، وفسر لهم أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وما إلى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به.

هذا.. وإن مما يؤيد أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسر كل معانى القرآن، أن الصحابة رضون الله عليهم أجمعين، وقع بينهم الاختلاف فى تأويل بعض الآيات، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله ﷺ ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص.

بقى بعد هذا أن نجيب عن الشق الثانى من السؤال، وهو: على أى وجه كان بيان رسول الله ﷺ للقرآن؟ فنقول:

إن الناظر فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد فيهما ما يدل على أن رسول الله ﷺ وظيفته البيان لكتاب الله، أو بعبارة أخرى، ما يدل على أن مركز السنة النبوية من القرآن، مركز المبين من المبين.

فمن القرآن، قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ .
ومن السنة، ما رواه أبو داود عن المقدم بن معد يكرب، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه» . (١)

فقوله: «أوتيت الكتاب ومثله معه» معناه أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى وأوتى من البيان مثله، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب . فيعم ويخص، ويزيد عليه ويشعر ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . ويحتمل وجهاً آخر: وهو أنه أوتى من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] .

وأما قوله: «يوشك رجل شبعان . . .» الخ، فالمقصود منه التحذير من مخالفة السنة التى سنّها الرسول ﷺ وليس لها ذكر فى القرآن، كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا (٢)، وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال: «كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك» (٣)، وروى الأوزاعى عن مكحول قال: «القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن» (٤) .

● أوجه بيان السنة للكتاب :

وإذ قد اتضح لنا من الآية والحديث والآثار مقدار ارتباط السنة بالكتاب ارتباط المبيّن بالمبيّن فلنبين بعد ذلك أوجه هذا البيان فنقول:

الوجه الأول: بيان المجمل فى القرآن، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، فمن الأول: بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج . ولذا قال: «خذوا عني مناسككم»، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلى» .

وقد روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: «إنك أحقق، أتجد

(٢) انظر القرطبي: ٣٧/١ - ٣٨ .

(٤) نفس المرجع: ٣٩/١ .

(١) القرطبي: ٣٧/١ - ٣٨ .

(٣) المرجع السابق: ٣٩/١ .

الظهر في كتاب الله أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة، ونحو ذلك ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسراً؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا» (١)

* **ومن الثاني: تفسيره - ﷺ - للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]** بأنه بياض النهار وسواد الليل.

* **ومن الثالث: تخصيصه - ﷺ - الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]** بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتى قال: وأينال لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ليس بذلك، إنما هو الشرك».

* **ومن الرابع: تقييده اليد في قوله تعالى: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]**. باليمين.

الوجه الثاني: بيان معنى لفظ أو متعلقه، كبيان: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود و﴿الضَّالِّينَ﴾ بالنصارى. وكبيان قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة، وكبيان قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم» [البقرة: ٥٨، ٥٩]. بأنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعيرة.

الوجه الثالث: بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم، كتحریم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزاني المحسن، وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين، وغير هذا كثير يوجد في كتب الفروع.

الوجه الرابع: بيان النسخ: كأن يبين رسول الله ﷺ أن آية كذا نسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا، فقوله عليه الصلاة والسلام: «لا وصية لوارث» بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها وإن بقيت تلاوتها وحديث: (البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام) بيان منه أيضاً لنسخ حكم آية ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥].. وغير هذا كثير.

الوجه الخامس: بيان التأكيد، وذلك بأن تأتي السنة موافقة لما جاء به

الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته. وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه » فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩].. وقوله عليه الصلاة والسلام: « اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فإنه موافق لقوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩].

● المصدر الثالث من مصادر التفسير فى عصر الصحابة - الاجتهاد وقوة الاستنباط:

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ رجعوا فى ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خلص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضى الله عنه.

● أدوات الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة:

وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آى القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأى والاجتهاد، مستعينا على ذلك بما يأتى:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تعين على فهم الآيات التى لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب. ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ٣٧].. وقوله: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] لا يمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب فى الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تعين على فهم الآيات التى فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم

كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها »^(١) وقال ابن دقيق العيد: « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن »^(٢) وقال ابن تيمية: « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب »^(٣).

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يؤتیه من يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن يدق معناه، ويخفى المراد منه، ولا يظهر إلا لمن أوتى حظا من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بذلك حيث قال: « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ».

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى جحيفة رضى الله عنه أنه قال: « قلت لعلى رضى الله عنه: هل عندكم شئ من الوحى إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر »^(٤).

هذه هى أدوات الفهم والاستنباط التى استعان بها الصحابة على فهم كثير من آيات القرآن، وهذا هو مبلغ أثرها فى الكشف عن غوامضه وأساره.

● تفاوت الصحابة فى فهم معانى القرآن:

غير أن الصحابة رضون الله عليهم أجمعين، كانوا متفاوتين فى معرفتهم بهذه الأدوات، فلم يكونوا جميعا فى مرتبة واحدة، السبب الذى من أجله اختلفوا فى فهم بعض معانى القرآن، وإن كان اختلافا يسيرا بالنسبة لاختلاف التابعين ومن يليهم. ومن أمثلة هذا الاختلاف: ما روى من أن عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر فقال عمر: من يشهد على ما تقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول، فقال عمر: يا قدامة إنى جالدك، قال: والله لو شربت كما يقول ما كان لك أن تجلدننى، قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾ [المائدة: ٩٣]. فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله ﷺ بدرا، وأحدا، والخندق، والمشاهد. فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٤) البخارى فى باب الجهاد: ٤/٦٩

(١) منهج الفرقان: ٣٦/١

(٣) منهج الفرقان: ٣٦/١

ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذرا للماضين وحجة على الباقيين، لأن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠].. قال عمر: صدقت.. (١)

وما روى من أن الصحابة فرحوا حينما نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] لظنهم أنها مجرد إخبار وبشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا نعى النبي ﷺ، وقد كان مصيبا في ذلك، إذ لم يعيش النبي ﷺ بعدها إلا أحدا وثمانين يوما كما روى (٢).

وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليربهم، فقال ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئا فقال لي: أكذاك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول (٣).

● المصدر الرابع من مصادر التفسير في هذا العصر - أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

المصدر الرابع للتفسير في عهد الصحابة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل، وبالأخص في قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت في الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم، ومعجزاته عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجا يخالف منهج التوراة والإنجيل، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائما تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء، جعل بعض الصحابة - رضی الله عنهم أجمعين - يرجعون في استيفاء هذه القصص التي لم يتعرض لها

(٢) الموافقات: ٣/ ٣٨٤.

(١) فجر الإسلام ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

(٣) البخارى في باب التفسير: ٨/ ٥١٩ من فتح البارى.

القرآن من جميع نواحيها إلى من دخل في دينهم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحمار، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شئ عن رسول الله ﷺ، لأنه لو ثبت شئ في ذلك عن رسول الله ﷺ ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه.

● أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر السابقة:

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب، لم يكن له من الأهمية في التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة، إنما كان مصدرا ضيقا محدودا، وذلك أن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل، وكان طبيعيا أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم، ويصونوا القرآن عن أن يخضع في فهم معانيه لشئ مما جاء ذكره في هذه الكتب التي لعبت فيها أيدي المحرفين، فكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن، أما ما اتضح لهم كذبه مما يعارض القرآن ويتنافى مع العقيدة فكانوا يرفضونه ولا يصدقونه، ووراء هذا وذاك ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا النوع كانوا يسمعون من أهل الكتاب ويتوقفون فيه، فلا يحكمون عليه بصدق ولا بكذب، امثالا لقول الرسول ﷺ: « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا... » الآية.

وسنوفق بمشيئة الله تعالى بين هذا الحديث وحديث: « بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج... » ونذكر مدى تأثير اليهودية والنصرانية على التفسير في أدواره المختلفة من لدن عصر الصحابة إلى عصر التدوين، وذلك عند الكلام عن التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.



الفصل الثاني

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأي والاجتهاد.

● أشهر المفسرين من الصحابة:

وقد عد السيوطي رحمه الله في «الإتقان» من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أجمعين. وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وغير أن ما نقل عنهم في التفسير قليل جدا، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولا، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسراره، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة.

أما علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفى عنهم من معاني القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكنت لهم ولعلي بن أبي طالب أيضا في التفسير، هذه الصفات هي: قوتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تخرجهم من الاجتهاد وتقدير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبي ﷺ مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى

من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي عليه الصلاة والسلام في شبابه. لوفاة النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروى لهم.

أما باقي العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلَّت عنهم الرواية ولم يصلوا في التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون.

لهذا نرى الإمساك عن الكلام في شأن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، ونتكلم عن علي، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، نظراً لكثرة الرواية عنهم في التفسير، كثرة غذت مدارس الأمصار على اختلافها وكثرتها.

ولو أننا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم علي بن أبي طالب، ثم أبي بن كعب، وسنتكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة، بما يتناسب مع مشربه في التفسير ومنحاه الذي نحاه فيه:

١ - عبد الله بن عباس

● ترجمته :

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لُبابة الكبرى بنت الحارث بن حَزَن الهلالية. وُلِدَ والنبي عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشَّعب بمكة. فأَتَى به النبي عليه الصلاة والسلام فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي عليه الصلاة والسلام في صغره، لقربته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وتوفى رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله ﷺ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة. مات بالطائف ودُفِن بها، وتولى وضعه في قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوَّى عليه التراب: مات والله اليوم حَبْرُ هذه الأمة.

● مبلغه من العلم :

كان ابن عباس يُلقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وكان عمر رضى الله عنه يُجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقول

له: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خلقاً، وأفقههم فى كتاب الله. وقال فى شأنه: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سهولاً، وقلباً عقولاً. وكان لفرط أدبه إذا سألته عمر مع الصحابة عن شىء يقول: لا أتكلم حتى يتكلموا. وكان عمر رضى الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير فى كتابه «أسد الغابة» عن عبيد الله بن عتبة قال: «إن عمر كان إذا جاءتة الأفضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طرأت علينا أفضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه» قال عبيد الله: وعمر هو عمر فى حدقه واجتهاده لله وللمسلمين، وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليربهم، فقال: ما تقولون فى قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحِ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شياً، فقال لى: أأذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا، فيقال: ما يقبول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحِ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾. . فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول. . وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره. وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس». وقال فيه عطاء: «ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع». وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفتقه فى رأى منه، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازى، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سألته إلا وجد عنده علماً». وقيل لطاؤوس: لزمت هذا الغلام - يعنى ابن عباس - وتركت الأكبر من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارعوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس». وروى الأعمش عن أبى وائل قال: «استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة - وفى رواية: سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا» وكان على بن أبى طالب يثنى على تفسير ابن عباس ويقول: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

وبالجملة.. فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويُعلم، ولم يشتغل

بالإمارة إلا قليلاً لما استعمله عليّ على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربي بأكمل معانيه. علماً، وفصاحة، وسعة اطلاع في نواح علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى. وخير ما يُقال فيه ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد» (١).

● أسباب نبوغه :

ونستطيع أن نُرجع هذه الشهرة العلمية، وهذا النبوغ الواسع الفيّاض، إلى أسباب نجملها فيما يلي :

أولاً: دعاء النبي ﷺ له بقوله: «اللهم علّمه الكتاب والحكمة»، وفي رواية أخرى: «اللهم فقهه في الدين، وعلّمه التأويل»، والذي يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى واضحاً فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثانياً: نشأته في بيت النبوة، وملازمته لرسول الله ﷺ من عهد التمييز، فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزلت فيها آيات القرآن.

ثالثاً: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، يأخذ عنهم ويروى لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع، وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاتته من العلم بموت رسول الله ﷺ، وتحدث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: «وجدتُ عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنتُ لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئتُ أن يُوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسقى على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف».

رابعاً: حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وآدابها، وخصائصها، وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربي.

خامساً: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تخرجه منه، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق، دون أن يأبه للملامة لائم ونقد ناقد، ما دام يثق بأن الحق في جانبه، وكثيراً ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن، ولكن لم ترق إليه همة نقده، بل ما لبث أن رجع إلى قوله، واعترف بمبلغ علمه، فقد روى أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن معني قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].. فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرني، فذهب

فسأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً. هذه هي أهم الأسباب التي ترجع إليها شهرة ابن عباس في التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ، ودين متين.

● قيمة ابن عباس في تفسير القرآن :

تتبين قيمة ابن عباس في التفسير، من قول تلميذه مجاهد: «إنه إذا فسّر الشيء رأيت عليه النور»، ومن قول علي رضي الله عنه يثنى عليه في تفسيره: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»، ومن قول ابن عمر: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد»، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه في فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عزّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى. ففي قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم، أي الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشرًا؟ ولما لم يقف على رأى يم شطر ابن عباس، الذي هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفي هذا يروي الطبري في تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: «قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب - يعنى ابن عباس - فسأله عن ذلك، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن النبي إذا وعد لم يخلف، وقال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أنزل على موسى، هذا والله العالم (١).

وهذا عمر رضي الله عنه يسأل الصحابه عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جواباً مرضياً رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفي هذا يروي الطبري: «أن عمر سأل الناس عن هذه الآية - يعنى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين، إنى أجد فى نفسى منها شيئاً، فتلفت إليه فقال: تحوّل ههنا، لم تحقر نفسك؟ قال: هذا مثلّ ضربه الله عزّ وجل فقال: أيودٌ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه

بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه» (١).

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وجوابه بالجواب المشهور عنه، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفى المعانى التى يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا من نفحه الله بنفحة من روحه، وكثيراً ما ظهر ابن عباس فى المسائل المعقدة فى التفسير بمظهر الرجل الملمهم الذى ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه على رضى الله عنه، الأمر الذى جعل الصحابة يُقدِّرون ابن عباس ويثقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداه فى عصر التابعين، فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس. استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غدَّت بعلمها الأمصار المختلفة، وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجاباً وتقديراً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر. وقد صرَّح الزركشى بأن قول ابن عباس مُقدِّمٌ على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم فى التفسير (٢).

● رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب :

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون فى فهم معانى القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله ﷺ، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة فى ذلك بمعرفة أسباب النزول والظروف والملابسات التى نزل فيها القرآن. وكان رضى الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى كثير من المواضع التى أُجمِلت فى القرآن وفُصِّلت فى التوراة أو الإنجيل، ولكن كما قلنا فيما سبق: إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان فى دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

● اتهام الأستاذ جولدزيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب :

وإننا لنجد فى كتاب «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» مبلغ اتهام مؤلفه «جولدزيهر» لابن عباس بتوسعه فى الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفاً ما ورد من النهى عن ذلك فى حديث رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبُوهم» ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه بعد ذلك.

(١) تفسير ابن جرير: ٤٧/٣

(٢) الإتيان: ١٨٣/٢

قال: « وكثيراً ما يُذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أي ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدي، الذي اثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام، ويختتم التوراة في ستة، يقرؤها نظراً، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يُقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب في الاستفادة من التوراة.

« ومن بين المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس، نجد أيضاً كعب الأحمبار اليهودي، وعبد الله بن سلام، وأهل الكتاب على العموم، ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه في أقواله حذر من الرجوع إليهم، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب، ورُفِعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم.. ولم تكن التعاليم الكثيرة التي أمكن أن يستقيها ابن عباس، والتي اعتبرها من تلك الأمور التي يُرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر، مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية، فقد كان يسأل كعباً عن التفسير الصحيح لأُم القرآن وللمرجان مثلاً، وقد رأى الناس في هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم - على العموم - في القرآن وفي كلام الرسول (ﷺ) وما فيهما من المعاني الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد - من كل جهة - من سؤالهم» اهـ (١).

هذه هي عبارة الأستاذ «جولدزيهر» في كتابه، ومنها يتضح لنا مبلغ تجنيه علي الصحابة وعلي ابن عباس على الأخص.

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأي، حيث يقول في «فجر الإسلام»: «وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الإسلام، فتسرّب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت في تفسير القرآن يستكملون بها الشرح، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم. روى أن النبي ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تُكذبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يُصدّقونهم وينقلون عنهم» (٢).

فالأستاذ «جولدزيهر»، والأستاذ أحمد أمين، يريان أن الصحابة - وبخاصة ابن عباس - لم يَأْبَهُوا لنهي الرسول ﷺ، فصدّقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير في التفسير، وأن اللون اليهودي قد صبغ مدارس التفسير القديمة، وبالأخص مدرسة ابن عباس بسبب اتصالهم بمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب.

(٢) فجر الإسلام ص ٢٤٨.

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٥ - ٦٧.

● رد هذا الاتهام :

والحق أن هذا غلو في الرأى، وبعده عن الصواب، فابن عباس - كما قلت آنفاً - وغيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء يمس العقيدة. أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك، بل كانوا يحكمون دينهم وعقلهم، فما اتفق مع الدين والعقل صدقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه. وبهذا المسلك يكون الصحابة - رضوان الله عليهم - قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»، وقوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار، لما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: «فإن فيهم أعاجيب». والثاني محمول على ما إذا كان المخبر به من قبلهم محتملاً، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه، لأنه ربما كان صدقاً في نفس الأمر فيكون في التكذيب به حرج، وربما كان كذباً في نفس الأمر فيكون في التصديق به حرج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، كما أفاده ابن حجر ونبه عليه الشافعى رضى الله عنه (١) - وسيأتى مزيد للكلام عن هذين الحديثين عند الكلام عن الإسرائيليات في التفسير.

ثم كيف يستبيح ابن عباس رضى الله عنه لنفسه أن يحدث عن بنى إسرائيل بمثل هذا التوسع الذى يجعله مخالفاً لأمر رسول الله ﷺ وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيراً على ذلك، فقد روى البخارى فى صحيحه عنه أنه قال: «يا معشر المسلمين؛ تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم» (٢).

● رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم :

كان ابن عباس رضى الله عنه يرجع فى فهم معانى الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن إلى الشعر الجاهلى، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق فى فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربى القديم، ليُستعان به على فهم معانى

(١) فتح البارى : ١٢٠/٨

(٢) البخارى فى كتاب الشهادات : ١٨٥/٥ من فتح البارى.

الألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧] فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التخوُّف: التنقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَخَوُّفُ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوُّفَ عُوْدِ النَّبْعَةِ السَّفْنُ

فيقول عمر رضي الله عنه لأصحابه: «عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم» (١).

غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيراً ما كان يُسئل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد روى عنه الشيء الكثير من ذلك، وأوعب ما روى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتي مسألة، أخرج بعضها ابن الأنباري في كتاب «الوقف والابتداء»، وأخرج الطبراني بعضها الآخر في معجمه الكبير، وقد ذكر السيوطي في «الإتقان» بسنده مبدأ هذا الحوار الذي كان بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها، فقال: «بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عَزِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٧]؟ قال: العزون: حلق الرفاق، قال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليهِ حتّي يكونوا حول منبره عزينا؟

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؟ قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنتره وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

إلى آخر المسائل وأجوبتها (٢)، وهي تدل على قوة ابن عباس في معرفته بلغة العرب، وإلمامه بغريبها، إلى حد لم يصل إليه غيره، مما جعله - بحق - إمام التفسير

(١) القصة في الموافقات: ٢/ ٨٨ وليس فيها ما يعارض ما جاء عن عمر من أنه لما سأل عن «الأب» رجع إلى نفسه وقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر، لأن الآية التي معنا يتوقف فهم معناها على معرفة معنى التخوُّف، بخلاف الآية الأخرى، فإن المعنى الذي يُراد منها لا يتوقف على معرفة معنى «الأب».

(٢) وهي في الإتقان: ١/ ١٢٠.

في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية للعصر الذي وُجد فيه، وزعيم هذه الناحية من التفسير على الخصوص، حتى لقد قيل في شأنه: «إنه هو الذي أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن» (١).

هذا وقد بين لنا ابن عباس رضي الله عنه، مبلغ الحاجة إلى هذه الناحية في التفسير، وحض عليها من أراد أن يتعرف غريب القرآن، فقد روى أبو بكر بن الأنباري عنه أنه قال: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه» (٢).

وروى ابن الأنباري عنه أيضاً أنه قال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب» (٣).

فابن عباس رضي الله عنه كان يرى رأى عمر في ضرورة الرجوع إلى الشعر الجاهلي، للاستعانة به على فهم غريب القرآن، بل وكان أكثر الصحابة إلماماً بهذه الناحية وتطبيقاً لها.

وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومن يليهم، إلى أن حدثت خصومة بين متورعي الفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة، وقالوا: إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن (٤)، وقالوا: كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث.

والحق أن هذه الخصومة التي جدت في الأجيال المتأخرة لم تقم على أساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأي، من جعل الشعر أصلاً للقرآن، بل هو في الواقع، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].. ولهذا لم يتحرج المفسرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلي للاستشهاد به على المعنى الذي يذهبون إليه في فهم كلام الله تعالى.

● الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة :

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه في التفسير ما لا يُحصى كثرة، وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولاين ابن عباس رضي الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذي جعل نُقاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التي تجاوزت الحد وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة فعدّلوا العدول،

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٩.

(٢) الإتقان: ١/١١٩.

(٣) الإتقان: ١/١١٩.

(٤) ومن هؤلاء الإمام النيسابوري صاحب التفسير المشهور، فقد صرح بذلك في مقدمة

تفسيره: ١/٦.

وجرحوا الضعفاء، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفاً. وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أُبين مبلغها من الصحة أو الضعف، لنعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضی الله عنه. وهذه هي أشهر الطرق:

أولها: طريق معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهذه هي أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضی الله عنه: «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها عليّ بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً^(١)». وقال الحافظ ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يُعلّقُه عن ابن عباس»^(٢).

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبي صالح. ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعاً يحتجون بعليّ بن أبي طلحة.

● طعن بعض النقاد على هذه الطريق :

ولقد حاول بعض النقاد أن يُقلل من قدر هذه الطريق فقال: «إن ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير»^(٣) وعليّ هذا فهي طريق منقطعة لا يُرْكَن إليها، ولا يُعَوَّل عليها.

وقد استغل هذا القول الأستاذ «جولدزيهر» في كتابه «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن» فقال: «صرّح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل - عليّ بن أبي طلحة - لم يسمع التفسير الذي تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى في صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقا، يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبه لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له» اهـ^(٤).

● تفنيدها الطعن :

ويظهر لنا أن الأستاذ «جولدزيهر»، جهل أو تجاهل ما ردّ به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذي لا قيمة له، فقد فنّد ابن حجر هذا النقد بقوله: «بعد أن عرفت الوساطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك»^(٥).

وقال صاحب إيثار الحق: «وقال الذهبي في الميزان: وقد روى - يعنى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ممتعاً، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن

(٢) الإتيان: ١٨٨/٢ .

(١) الإتيان: ١٨٨/٢ .

(٥) الإتيان: ١٨٨/٢ .

(٤) صفحة ٧٧ .

(٣) الإتيان: ١٨٨/٢ .

ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يُقبل»^(١). وجملة القول: فهذه أصح الطرق في التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخارى لها واعتماده عليها شاهداً على صحتها.

ثانيها: طريق قيس بن مسلم الكوفى، عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يُخرَج منها الفريابي والحاكم فى مستدركه.

ثالثها: طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ابن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهى طريق جيدة وإسنادها حسن، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً، وأخرج الطبرانى منها فى معجمه الكبير.

رابعها: طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، تارة عن أبى مالك، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس. وإسماعيل السدى مُختلف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة، وهو تابعى شيعى^(٢). وقال السيوطى: «روى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشعبة، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى»^(٣). وابن جرير يُورد فى تفسيره كثيراً من تفسير السدى عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس، ولم يخرِج منه ابن أبى حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يخرِج أصح ما ورد.

خامسها: طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهى تحتاج إلى دقة فى البحث، ليُعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذُكر فى كل آية من الصحيح والسقيم، فلم يتميز فى روايته الصحيح من غيره، وقد روى عن ابن جرير هذا جماعة كثيرة، منهم بكر بن سهل الدمياطى، عن عبد الغنى بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن ابن جريج عن ابن عباس، ورواية بكر ابن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر. ومنهم محمد بن ثور، عن ابن جريج عن ابن عباس، روى ثلاثة أجزاء كبار. ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج، روى جزءاً وهو صحيح متفق عليه.

سادسها: طريق الضحاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأنه وإن وثَّقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه روى عنه ولم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمار، عن أبى روق، عن الضحاك، فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبى حاتم. وإن كان من رواية جويبر عن

الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبر شديد الضعف متروك، ولم يُخْرَج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذه الطريق شيئاً، إنما خَرَّجها ابن مردويه، وأبو الشيخ ابن حبان .
سابعها: طريق عطية العوفى، عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأن عطية ضعيف ليس بواه، وربما حَسَّن له الترمذى . وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير، وابن أبي حاتم كثيراً.

ثامنها: طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراسانى، وهو المفسر الذى يُنسب إلى الشافعى أنه قال فيه: «إن الناس عيال عليه فى التفسير»^(١) ومع ذلك فقد ضَعَّفوه، وقالوا: إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما . وقد كذَّبه غير واحد، ولم يُوثِّقه أحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه^(٢)، وتكلم عنه السيوطى . فقال: «إن الكلبي يُفَضَّل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الردية»^(٣) وقد سئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال: «لا تنظروا فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفنه» - يعنى التفسير -^(٤) وقال أحمد بن حنبل: لا يعجبني أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئاً^(٥) . وبالجملة فإن من استحسِن تفسير مقاتل كان يُضَعِّفه ويقول: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة»^(٦) .

تاسعها: طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذه أوهى الطرق . والكلبي مشهور بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشيع كما قال ابن عدى فى الكامل، ومع ذلك فإن وجد من قال: رضوه فى التفسير، فقد وجد من قال: أجمعوا علي ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع^(٧) . ومن يروى عن الكلبي، محمد بن مروان السدى الصغير، وقد قالوا فيه: إنه يضع الحديث، وذاهب الحديث متروك، ولهذا قال السيوطى فى الإتيان: «فإن انضم إلى ذلك - أى طريق الكلبي - رواية محمد بن مروان السدى الصغير، فهى سلسلة الكذب»^(٨) وقال السيوطى أيضاً فى كتابه الدر المنثور (ج ٦ ص ٤٢٣): «الكلبي: اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه فى مرضه: كل شئ حدثتكم عن أبي صالح كذب .. ومع ضعف الكلبي فقد روى عنه تفسيره مثله أو أشد ضعفاً، وهو محمد بن مروان السدى الصغير» وكثيراً ما يخرج من هذه الطريق الثعلبي والواحدى .

(٢) إيثار الحق ص ١٥٩

(١) وفيات الأعيان: ٥٦٧/٢

(٤) تهذيب الأسماء واللغات: ١١١/٢

(٣) الإتيان: ١٨٩/٢

(٦) التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم ص ٩ .

(٥) المرجع السابق: ١١١/٢

(٨) الإتيان: ١٨٩/٢ .

(٧) التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم ص ٩ .

هذه هي أشهر الطرق عن ابن عباس، صحيحها وسقيمها، وقد عرفت قيمة كل طريق منها، ومن اعتمد عليها فيما جمع من التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه .

● التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته :

هذا .. وقد نسب إلى ابن عباس رضي الله عنه جزء كبير في التفسير، وطبع في مصر مرارا باسم « تنوير المقباس من تفسير ابن عباس » جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشافعي، صاحب القاموس المحيط، وقد اطلعت علي هذا التفسير، فوجدت جامع يسوق عند الكلام عن البسملة الرواية عن ابن عباس بهذا السند: « أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروي، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازي، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي، قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ».

وعند تفسير أول سورة البقرة، وجدته يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله ابن المبارك، قال: حدثنا علي بن إسحاق السمرقندي عن محمد بن مروان عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس .

وفي مبدأ كل سورة يقول: وبإسناده عن ابن عباس .

.... وهكذا يظهر لنا جليا، أن جميع ما روى عن ابن عباس في هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدي الصغير عن الكلبي فيما تقدم . وحسبنا في التعقيب على هذا ما روى من طريق ابن عبد الحكم قال: « سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث » (١) وهذا الخبر - إن صح عن الشافعي - يدلنا على مدار ما كان عليه الوضع من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفسير المنسوبة إلى ابن عباس، وليس أدل على ذلك، من أنك تلمس التناقض ظاهرا بين أقوال في التفسير نسبت إلى ابن عباس ورويت عنه . وسيأتي - عند الكلام عن الوضع في التفسير - أن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس لم يفقد شيئا من قيمته العلمية في الغالب، وإنما الشيء الذي لا قيمة له فيه، هو نسبه إلى ابن عباس .

● أسباب الوضع على ابن عباس :

ويبدو أن السرف في كثرة الوضع على ابن عباس، هو أنه كان من بيت النبوة والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وضع على غيره، أضف إلى ذلك أن

ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جددهم.. وسنعرض إلى أسباب الوضع في التفسير، وإلى القيمة العلمية للتفسير الموضوع بصرف النظر عن وضعه، عند الكلام على منشأ الضعف في رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

٢ - عبد الله بن مسعود

● ترجمته:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مضر، ويكنى بأبي عبد الرحمن الهذلي، وأمه أم عبد بنت عبدود، من هذيل، وكان ينسب إليها أحياناً فيقال ابن أم عبد. كان رحمه الله خفيف اللحم، قصيراً، شديد الأدمة، أسلم قديماً. روى الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود - «لقد رأيتني سادس ستة ما علي ظهر الأرض مسلم غيرنا» وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ، وأوذى في الله من أجل ذلك، ولما أسلم عبد الله بن مسعود أخذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه في أكثر شعونه، وهو صاحب ظهوره وسواكه ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله في ذراعه إذا جلس، وبمشى أمامه إذا سار، ويستتره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بلا حجاب، حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه من أهل بيت رسول الله ﷺ ففي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له» وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدر، وأحداً، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ وهو الذي أجهز علي أبي جهل يوم بدر، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد». وقد ولى بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان، وقدم المدينة في آخر عمره، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع ليلاً، تنفيذاً لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعا وستين سنة.

● مبلغه من العلم:

كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال: «قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ على سورة النساء»، قال: قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن

« أَسْمِعْهُ مِنْ غَيْرِي »، فقرأت عليه حتي بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ شُهَدَاءَ ﴾ [النساء: ٤١] فاضت عيناه - ﷺ « وكان رسول الله ﷺ يقول: « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل، فليقرأه علي قراءة ابن أم عبد ». وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتز به، حتى أنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف في عهد عثمان، وكان يرى أنه أولى منه بذلك، وقد قال في هذا: « يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر »؟ - يريد زيد بن ثابت - وعن مسروق أنه قال: « انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلي ستة: عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلي رجلين: علي، وعبد الله »، وقيل لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السميت والدل والهدى من رسول الله ﷺ تأخذ عنه، فقال: « لا نعلم أحدا أقرب سمنا ولا هديا برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ، أن ابن أم عبد أقربهم إلي الله وسيلة ».

ولما سيره عمر رضي الله عنه إلي الكوفة كتب إلي أهلها: « إني قد بعثت عمار ابن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله علي نفسي ».

وقد أقام رضي الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقہ، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم في الاعتداد بالرأي حيث لا يوجد النص، ولما قدم علي الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما رأينا رجلا أحسن خلقا، ولا أرفق تعليما، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعا من ابن مسعود قال علي: « أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم »؟ قالو: نعم، قال: « اللهم اشهد أني أقول مثل ما قالوا وأفضل ».

ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضي الله عنه في العلم، ومنزلته بين إخوانه من الصحابة، فالكل يشهد له ويقدمه علي غيره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده (١)

● قيمة ابن مسعود في التفسير:

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن »، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار

حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه، وعن مسروق قال: «قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته»، وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقي عنتا ومشقة، وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، وروى أبو نعيم في الحلية عن أبي البحتري قال: قالوا لعلى: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علما، وقال عقبه بن عامر: ما أدرى أحدا أعلم منه بما نزل على محمد بن عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل. وضح عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة وقال أبو وائل: لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته، قال أبو وائل: فمتمت إلى الخلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه... وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به، فإن أصحاب رسول الله ﷺ لم ينكروا عليه ذلك، بل وتحذثوا بمكانته فى العلم، ومقدار فهمه لكتاب الله، وعلل ذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع، ويدخل حين لا يؤذن لهم بالدخول، الأمر الذى جعله أوفر حظا فى الأخذ عن الرسول ﷺ وأعظم نصيبا من الاعتراف من منهل النبوة الفياض، ولئن صح عن أبى الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود: ما ترك بعده مثله، لهى شهادة منه على مقدار علمه، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله ﷺ، وبالجملة فابن مسعود كما قيل: أعم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم بمحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة، بصير بكتاب الله.

● الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

ابن مسعود أكثر من روى عنه فى التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضي الله عنه، قال السيوطى فى الإتقان: وأما ابن مسعود فقد روى عنه أكثر مما روى عن على^(١)، وقد حمل علم ابن مسعود فى التفسير أهل الكوفة نظرا لوجوده بينهم،

(١) الإتقان: ٢/١٨٧.

يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواه مسروق بن الأجدع الهمداني، وعلقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تتلمذوا له ورووا عنه. وسيأتي الكلام على هؤلاء جميعا - إن شاء الله تعالى - عند الكلام عن التفسير في عصر التابعين، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهي إلى ابن مسعود، نجدها مبثوثة في كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ومنها ما يعتريه الضعف في رجاله، أو الانقطاع في إسناده، وقد تتبع العلماء النقاد هذه الروايات، كما تتبعوا غيرها بالنقد تجريحا وتعديلا وهذه هي أشهر الطرق عن ابن مسعود:

- أولا: طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه.
- ثانيا: طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود، وهذه أيضا طريق صحيحة لا يعتريها الضعف. وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه أيضا.
- ثالثا: طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، وهذه أيضا طريق صحيحة يخرج البخاري منها، وكفى بتخريج البخاري شاهدا على صحتها وصحة ما سبق.
- رابعا: طريق السدي الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود وهذه الطريق يخرج منها الحاكم في مستدركه، ويصحح ما يخرجها وابن جرير يخرج منها في تفسيره كثيرا، وقد علمت فيما مضى قيمة السدي الكبير في باب الرواية.
- خامسا: طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود. وابن جرير يخرج منها في تفسيره أيضا. وهذه الطريق غير مرضية، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود فهي طريق منقطعة.

٣- علي بن أبي طالب

● ترجمته:

هو أبو الحسن، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره علي ابنته فاطمة، وذريته ﷺ منها. أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو أول هاشمي ولد من هاشميين. ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بني هاشم، وهو أول من أسلم من الأحداث وصدق برسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة وموقفه من الهجرة مشهور، قيل: ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].. وقد شهد على المشاهد كلها إلا تبوك، فإن رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وله في الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة، وقد أعطاه الرسول ﷺ اللواء في مواطن كثيرة، وقال يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» ثم أعطاها لعلي رضي الله

عنه، وآخاه رسول الله ﷺ لما آخى بين أصحابه وقال له: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره، فمن ورع في الدين، إلى زهد في الدنيا، إلى قرابة وصهر برسول الله ﷺ. إلى علم جم وفضل غزير، وقد توفى رحمه الله في رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولا بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك.

● مبلغه من العلم:

كان رضي الله عنه بحرا في العلم وكان قوى الحججة، سليم الاستنباط، أوتي الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل قضائي ناضج، وبصره نافذة إلى بواطن الأمور، وكثيرا ما كان يرجع إليه الصحابة في فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولاه رسول الله ﷺ قضاء اليمن، ودعا له بقوله: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه»، فكان موفقا ومسددا، فيصلا في المعضلات، حتى ضرب به المثل ف قيل: «قضية ولا أبا حسن لها»، ولا عجب، فقد تربى في بيت النبوة، وتغذى بلبان معارفها وعمته مشكاة أنوارها. روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أفضى أهل المدينة على بن أبي طالب. وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟ قال: لا، والله لا أعلمه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل عنه إلى غيره».

والذى يرجع إلى أقضية على رضي الله عنه وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وهب عقلا ناضجا، وبصيرة نافذة وحظا وافرا من العلم وقوة البيان. (١)

● مكانته من التفسير:

جمع على رضي الله عنه إلى مهارته في القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفى معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي رضي الله عنه أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربي وهب لى قلبا عقولا، ولسانا سئولا».

وعن أبي الطفيل قال: «شهدت عليا يخطب وهو يقول: سلونى فوالله لا تسألونى عن شئ إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلا نزلت أم بنهار، أم فى سهل، أم فى جبل».

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف، إلا وله ظهر وبطن، وإن على بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن». وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد له بأنه كان صدر المفسرين والمؤيد فيهم .

● الرواية عن على ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية فى التفسير عن على رضى الله عنه، كثرة جاوزت الحد، الأمر الذى لفت أنظار العلماء النقاد، وجعلهم يتبعون الرواية عنه بالبحث والتحقيق، ليميزوا ما صح من غيره .

وما صح عن على فى التفسير قليل بالنسبة لما وضع عليه، ويرجع ذلك إلى غلاة الشيعة، الذين أسرفوا فى حبه فاختلفوا عليه ما هو برئ منه، إما ترويجا لمذهبهم وتدعيما له، وإما لظنهم الفاسد أن الإغراق فى نسبة الأقوال العلمية إليه يعلى من قدره، ويرفع من شأنه العلمى . وأظن أن ما نسب إلى على من قوله: «لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت» لا أصل له، اللهم إلا فى أوهام الشيعة، الذين يغالون فى حبه، ويتجاوزون الحد فى مدحه . ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوضع بالكذب عليه، تلك الناحية هى نسبته إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية، تكسب الموضوع قبولا، وتعطيه رواجاً وذبوعاً على ألسن الناس، والحق أن كثرة الوضع على على رضى الله عنه أفسدت الكثير من علمه، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا على ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلمانى وشريح، وغيرهما . وهذه أهم الطرق عن على فى التفسير:

أولاً: طريق هشام: عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلمانى، عن على . طريق صحيحة، يخرج منها البخارى وغيره .

ثانياً: طريق ابن أبى الحسين، عن أبى الطفيل، عن على . وهذه طريق صحيحة، يخرج منها ابن عيينة فى تفسيره .

ثالثاً: طريق الزهرى، عن على زين العابدين، عن أبىه الحسين، عن أبىه على . وهذه طريق صحيحة جداً . حتى عدها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً^(١)، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقتين السابقتين نظراً لما ألصقه الضعفاء، والكذابون بزىن العابدين من الروايات الباطلة .

٤ - أبي بن كعب

● ترجمته:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل^(١) أبي بن كعب بن قيس، الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرا، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، وقد أثنى عليه عمر رضى الله عنه فقال: «أبي سيد المسلمين» وقد اختلف في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

● مبلغه من العلم:

كان أبي بن كعب سيد القراء، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وقد قال فيه ﷺ «وأقرؤهم أبي بن كعب»، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبي ﷺ فقد أخرج الترمذى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: «إن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: آله سمانى لك؟ قال: نعم، فجعل أبى يبكى».

وفي رواية أنه قيل لأبي: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعنى وهو يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وروى الشعبى عن مسروق قال: «كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة: عمر، وعلى، وعبد الله، وأبى، وزيد، وأبو موسى»^(٢).

● مكانته فى التفسير:

كان أبى بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعانى كتاب الله، هو أنه كان حبرا من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومقدم القرآن ومؤخره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن يشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله ﷺ، لهذا كله عد أبى بن كعب من المكثرين فى التفسير، الذين يعتد بما صح عنهم، ويعول على تفسيرهم.

● الرواية عنه فى التفسير ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية عن أبى بن كعب فى التفسير وتعددت طرقها، وتتبع العلماء هذه الطرق بالنقد، فعدلوا وجرحوا، لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه - وهذه هى أشهر الطرق عنه:

(١) كناه النبي ﷺ بالأولى، وعمر بالثانية . (٢) انظر أسد الغابة: ١/٤٩ - ٥١ .

أولاً: طريق أى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي رضى الله عنه. وهذه طريق صحيحة، وقد ورد عن أبي نسخه كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازى بهذا الإسناد إلى أبي، وقد خرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً، وأخرج الحاكم منها أيضاً فى مستدركه، والإمام أحمد من مسنده.

ثانياً: طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد فى مسنده، وهى على شرط الحسن، لأن عبد الله بن محمد بن عقيل وإن كان صدوقاً تكلم فيه من جهة حفظه، قال الترمذى فى سننه: « عبد الله بن محمد بن عقيل، هو صدوق وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، والحميدى، يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل قال محمد - يعنى البخارى - وهو مقارب الحديث، ونص الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد على أن حديثه حسن». (١)



الفصل الثالث

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

أطلق الحاكم في المستدرک: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبي ﷺ، وعزا هذا القول للشيخين حيث يقول في المستدرک: «ليعلم طالب الحديث، أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند» (١) ولكن قيد ابن الصلاح والنووي، وغيرهما، هذا الإطلاق، بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأى فيه، قال ابن الصلاح في مقدمته ص (٢٤): «ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ ولا مدخل للرأى فيه، كقول جابر رضی الله عنه: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]... الآية فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشمل على إضافة شيء إلى الرسول ﷺ فمعدودة في الموقوفات».

ولكننا نجد الحاكم نفسه قد صرح في «معرفة علوم الحديث» بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال: ومن الموقوفات ما حدثناه أحمد بن كامل بسنده عن أبي هريرة في قوله: ﴿لَوْ أُحِدَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩]... قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحما على عظم، قال: فهذا وأشباهه يعد في تفسير الصحابة من الموقوفات، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مسند، فإنما نقوله في غير هذا النوع...»، ثم أورد حديث جابر في قصة اليهود وقال: «فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف، فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند» (٢).

فالحاكم قيد في (معرفة علوم الحديث) ما أطلق في (المستدرک)، فاعتمد الناس ما قيد، وتركوا ما أطلق. وعلل السيوطي في (التدريب) إطلاق الحاكم بأنه كان حريصا علي جمع الصحيح في (المستدرک) حتي أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع، ثم اعترض بعد ذلك علي الحاكم، حيث عدّ الحديث المذكور عن أبي هريرة من الموقوف،

(١) تدريب الراوي ص ٦٤.

(٢) تدريب الراوي ص ٦٥، ومعرفة علوم الحديث ص ١٩-٢٠.

وليس كذلك؛ لأنه يتعلق بذكر الآخرة، وهذا لا مدخل للرأى فيه، فهو من قبيل المرفوع (١).

وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج:

أولاً: تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكل ما ليس للرأى فيه مجال، أما ما يكون للرأى فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ.

ثانياً: ما حكم عليه أنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

ثالثاً: ما حكم عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق إلى أن الموقوف على الصحابي من التفسير لا يجب الأخذ به لأنه لما لم يرفعه، علم بأنه اجتهد فيه، والمجتهد يخطئ ويصيب، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه، لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم إن فسروا برأىهم فرأىهم أصوب، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، ولبركة الصحبة والتخلق بأخلاق النبوة، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

قال الزركشى فى «البرهان»: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبى ﷺ، أو الصحابة أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثانى ينظر فى تفسير الصحابى، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك فى اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه» (٢).

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره: «... وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصموا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم» (٣).

وهذا الرأى الأخير هو الذى تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب لما ذكر.



الفصل الرابع

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولاً: لم يفسر القرآن جميعه، وإنما فسر بعض منه، وهو ما غمض فهمه وهذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبي ﷺ والصحابة، فكان التفسير يتزايد تبعاً لتزايد هذا الغموض إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها.

ثانياً: قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه، وسنعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: كانوا كثيراً ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلاً، فيكفي أن يفهموا من مثل قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١].. أنه تعداد لنعم الله تعالى علي عباده.

رابعاً: الاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم: ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣].. أى غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من أسباب النزول.

خامساً: ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله، نظراً لآحادهم في العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبي لم يقم إلا بعد عصر الصحابة رضی الله عنهم.

سادساً: لم يدون شئ من التفسير في هذا العصر، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني. نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير في مصاحفهم فظننها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التي نزل بها من عند الله تعالى.

سابعاً: اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وفرعاً من فروعها، ولم يتخذ التفسير له شكلاً منظماً، بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة، كما كان الشأن في رواية الحديث، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد، بجانب حديث ميراث، بجانب حديث في تفسير آية.... وهكذا.

وليس لمعترض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصح نسبته إليه بل جمعه الفيروز آبادي ونسبه إليه، معتمداً في ذلك على رواية واهية، هي رواية محمد ابن مروان السدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس وهذه هي سلسلة الكذب كما قيل.



الباب الثاني

المرحلة الثانية للتفسير (التفسير في عصر التابعين)

- ابتداء هذه المرحلة .
- مصادر التفسير في هذا العصر .
- مدارس التفسير التي قامت فيه .
- قيمة التفسير المأثور عن التابعي .
- مميزات التفسير في هذه المرحلة .
- الخلاف بين السلف في التفسير .

الفصل الأول

التفسير في عصر التابعين

● ابتداء هذه المرحلة:

تنتهى المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عهد الصحابة، وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم .
وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم فى استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله، اشتهر أيضا بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا فى التفسير، ووضحوا لمعاصريهم خفى معانيه .

● مصادر التفسير فى هذا العصر:

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى .
وقد روت لنا كتب التفسير كثيرا من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير، قالوها بطريق الرأى والاجتهاد ولم يصل إلى علمهم شئ فيها عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة، وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعا، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن . . . وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث .

● مدارس التفسير فى عصر التابعين:

فتح الله على المسلمين كثيرا من بلاد العالم فى حياة رسول الله ﷺ، وفى عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعا فى بلد واحد من بلاد المس لىن بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزعين على جميع البلاد التى دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون، ومنهم غير ذلك .

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التي رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت في هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير وتعلم فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاث، هي أشهر مدارس التفسير في الأمصار في هذا العهد.

قال ابن تيمية: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب» (١)

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث، وعن أشهر المفسرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المدارس من الصحابة. فأقول وبالله التوفيق:

أولا: مدرسة التفسير بمكة

● قيامها علي ابن عباس:

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه.

● أشهر رجالها:

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح. وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلماء في مقدار الثقة بهم والركون إليهم.

ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته في التفسير، ومقدار الاعتماد عليه فيه:

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ١٥ .

١ - سعيد بن جبير

• ترجمته:

هو أبو محمد - أو أبو عبد الله - سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي، مولاهم. كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال سمع جماعة من أئمة الصحابة. روى عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما.

• مكانته في التفسير:

كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث و الفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضاً، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه^(١) وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، يدلنا على ذلك ما جاء عن إسماعيل بن عبد الملك أنه قال: «كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً»^(٢)، ولاشك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه القدرة على التوسع في معرفة معاني القرآن وأسراره، ولكن يظهر لنا أنه كان يتورع من القول في التفسير برأيه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن خلكان: من أن رجلاً سأل سعيداً أن يفسر القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك^(٣) ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألم بما عندهم من النواحي التي برزوا فيها، فقد قال خفيف: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب. وبالخطبة عطاء، وبالاحلال والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير»^(٤).

لهذا كله نجد أستاذه ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ - يعني سعيد بن جبير - ويروي عمرو بن ميمون عن أبيه أنه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما علي ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلي علمه، ويرى بعض العلماء أنه مقدم على مجاهد و طاووس في العلم، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير.

هذا وقد وثق علماء الجرح والتعديل سعيد بن جبير، فقال أبو القاسم الطبري: هو ثقة حجة، إمام على المسلمين. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان عبداً فاضلاً ورعاً. وهو مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة.

وقد قتل في شعبان سنة ٩٥ هـ (خمس وتسعين من الهجرة)، وهو ابن تسع

(١) وفيات الأعيان: ١/٣٦٤.

(٢) المرجع السابق: ١/٣٦٥.

(٣) نفس المرجع: ١/٣٦٥.

(٤) المرجع نفسه: ١/٣٦٥.

وأربعين سنة ، قال أبو الشيخ: قتله الحجاج صبيرا. وله مناظرة قبل قتله مع الحجاج، تدل على قوة يقينه، وثبات إيمانه، وثقته بالله، فرضى الله عنه وأرضاه. (١)

٢ - مجاهد بن جبر

● ترجمته:

هو مجاهد بن جبر، المكي، المقرئ، المفسر، أبو الحجاج المخزومي، مولى السائب ابن أبي السائب. كان أحد الأعلام الأثبات. ولد سنة ٢١هـ (إحدى وعشرين من الهجرة) في خلافة عمر بن الخطاب. وكانت وفاته بمكة وهو ساجد، سنة ١٠٤هـ (أربع ومائة) على الأشهر، وعمره ثلاث وثمانون سنة.

● مكانته في التفسير:

كان مجاهد - رحمه الله - أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير (٢)، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما، ونجد البخاري رضى الله عنه في كتاب التفسير من الجامع الصحيح، ينقل لنا كثيرا من التفسير عن مجاهد، وهذه أكبر شهادة من البخاري على ثقته وعدالته، واعتراف منه بمبلغ فهمه لكتاب الله تعالى، وقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهدا يقول: عرضت القرآن علي ابن عباس ثلاثين مرة (٣). وروى عنه أيضا أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أفف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟ (٤) ولا تعارض بين هاتين الروايتين، لأن الإخبار بالقليل لا ينافي الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط، ودقة التجويد، وحسن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلبا لتفسيره، ومعرفة ما دق من أسرارها، وخفى من معانيه. كما تشعر بذلك ألفاظ الرواية. وعن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله (٥) وروى عبد السلام بن حرب عن مصعب قال: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحدج عطاء. وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد. وقال ابن سعد: كان ثقة، فقيها، عالما، كثير الحديث. وقال ابن حبان: كان فقيها ورعا، عابدا متقنا. وأخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي بكر الحنفى قال: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به (٦) وكان رحمه الله جيد الحفظ، وقد حدث بهذا عن نفسه

(١) تهذيب التهذيب: ١٣/٤ - ١٤.

(٢) فجر الإسلام ص ٢٥١.

(٣) تهذيب التهذيب: ١٠/٤٢.

(٤) ميزان الاعتدال: ٩/٣.

(٥) تفسير ابن جرير: ٣٠/١.

(٦) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٨.

فقال: قال لى ابن عمر: وددت أن نافعا يحفظ حفظك^(١). وقال الذهبي فى الميزان، وفى آخر ترجمة مجاهد: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كل هذه شهادات من العلماء النقاد تشهد بعلو مكانته فى التفسير.

ولكن مع هذا كله، كان بعض العلماء لا يأخذ تفسيره، فقد روى الذهبي فى ميزانه: أن أبا بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ - كما هى رواية ابن سعد - قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب.

هذا هو كل ما أخذ على تفسيره ولكن لم نر أحدا طعن عليه فى صدقه وعدالته، وجملة القول فإن مجاهدا ثقة بلا مدافعة، وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك، لا سيما وهو تلميذ حبر الأمة ابن عباس. الذى شدد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهى الوارد عن رسول الله ﷺ.

● مجاهد والتفسير العقلي:

وكان مجاهد - رضى الله عنه - يعطى عقله حرية واسعة فى فهم بعض نصوص القرآن التى يبدو ظاهرها بعيدا، فإذا ما مر بنص قرآنى من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءا معترفا به ومقررا لدى المعتزلة فى تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص.

وإذا نحن رجعنا إلى تفسير ابن جرير وقرأنا بعض ما جاء فيه عن مجاهد نجده يطبق هذا المبدأ عمليا فى مواضع كثيرة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَقْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] نجده يقول - كما يروى عنه ابن جرير: «مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارا» ولكن نجد ابن جرير لا يرتضى هذا التفسير من مجاهد فيقول معقبا عليه: وهذا القول الذى قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف.. ثم يضى فى تفنيد هذا القول بأدلة واضحة قوية. (٢)

وكذلك نجد ابن جرير ينقل عن مجاهد أنه فسر قوله تعالى فى هاتين الآيتين: ﴿وَجِوْهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بقوله: «تنتظر الثواب

من ربها، لا يراه من خلقه شيء» (١) وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئا قويا للمعتزلة فيما ذهوا إليه في مسألة رؤية الله تعالى .

ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد، هو الذى جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتخرجون من القول فى القرآن برأيهم يتقون تفسيره، ويلومونه على قوله فى القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة فى الرأى، فقد روى عن ابن مجاهد أنه قال: قال رجل لأبى: أنت الذى تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبى ثم قال: إني إذن لجرئ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم .

ومهما يكن من شئ، فمجاهد رضى الله عنه إمام فى التفسير غير مدافع، وليس فى إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته . أو يقلل من مكانته (٢) .

٣ - عكرمة

● ترجمته:

هو أبو عبد الله عكرمة البربرى المدنى مولى ابن عباس (أصله من البربر بالمغرب) روى عن مولاة، وعلى بن أبى طالب، وأبى هريرة، وغيرهم .

● اختلاف العلماء فى توثيقه:

وقد اختلف العلماء فى توثيقه، فكان منهم من لا يثق به ولا يروى له، وكان منهم من يوثقه ويروى له .

● مطاعن من لا يوثقونه:

وإننا لنجد العلماء الذين لم يثقوا بعكرمة، يصفونه بالجرأة على العلم ويقولون: إنه كان يدعى معرفة كل شئ فى القرآن ويزيدون على ذلك فيتهمونه بالكذب على مولاة ابن عباس، وبعد هذا كله، يتهمونه بأنه كان يرى رأى الخوارج، ويزعم أن مولاة كان كذلك، وقد نقل ابن حجر فى « تهذيب التهذيب » كل هذه التهم ونسبها لقائلها، فمن ذلك: ما رواه شعبة عن عمرو بن مرة قال: سأل رجل ابن المسيب عن آية من القرآن، فقال: لا تسألنى عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شئ - يعنى عكرمة . وحكى إبراهيم بن ميسرة أن طاووسا قال: لو أن مولى ابن عباس اتقى الله وكف من حديثه لشدت إليه المطايا، وروى أبو خلف الجزار عن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول لنافع: اتق الله . . ويحك يا نافع، ولا تكذب على كما كذب

(١) تفسير الطبرى: ٢٩ / ١٢٠ .

(٢) انظر ترجمة مجاهد فى تهذيب التهذيب: ١٠ / ٤٢ - ٤٤ .

عكرمة على ابن عباس. وروى أن سعيد بن المسيب قال مثل ذلك لمولاه، وروى ابن سعد: أن علي بن عبد الله كان يوثقه علي باب الكنيف ويقول: إن هذا يكذب علي أبي. ثم بعد ذلك كله يصورون للناس مبلغ كراهة معاصريه له فيقولون: إنه مات هو وكثير عزة في يوم واحد، فلم يشهد جنازته أحد، أما كثير فقد شيعه خلق كثير..

● تفنيد هذه المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه:

هذا الذي تقدم هو بعض الروايات التي رواها من لا يثق بعدالة عكرمة، وكلها تُهمُّ باطلة لا تقوم على أساس، فعكرمة مولى ابن عباس، كان يلازمه، ويخالطه، فلا يضيره كثرة الرواية عنه، لأن هذا أمر طبيعي، ولا يمكن أن يعد افتراء على العلم وافتياتا على الرواية، لأن كثرة الرواية ليست من المطاعن التي توجه إلى الراوي وتذهب بعدالته، فهذا أبو هريرة قال الناس عنه في عصره: أكثر أبو هريرة، فبين لهم سبب إكثاره من الرواية عن رسول الله ﷺ، وهو أنه كان يلازم النبي ﷺ على ملء بطنه، ولا شيء يشغله كما شغل غيره من الصحابة بالصفق في الأسواق، فهل ذهبت عدالة أبي هريرة وفقدنا الثقة به لكثرة روايته؟ اللهم لا.

ثم إن هذا الاتهام لم يخف على عكرمة، بل كان يبلغه عن متهميه فيود لو أنه ووجه به ليفنده، فقد روى حماد بن زيد عن أيوب أنه قال: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذبونني، يكذبونني من خلفي، أفلا يكذبونني في وجهي؟ فإذا كذبوني في وجهي فقد والله كذبوني... ثم نراه يستشهد ببعض أصحابه على صدقه فيما يروى عن مولاه، فعن عثمان بن حكيم قال: كنت جالسا مع أبي أمامة سهل بن حنيف، إذ جاء عكرمة فقال: يا أبا أمامة، أذكرك الله، هل سمعت ابن عباس يقول: ما حدثكم عكرمة عنى فصدقوه فإنه لم يكذب علي؟ فقال أبو أمامة: نعم.

هذا هو رد عكرمة على متهميه بالكذب وتفنيده لما نُسب إليه من الافتراء على مولاه.

وأما ما رواه ابن سعد: من أن علي بن عبد الله بن عباس كان يوثقه علي باب الكنيف ويقول: إن هذا يكذب علي أبي، فإنه مردود بما رواه ابن حجر في تهذيب التهذيب: من أن ابن عباس مات وعكرمة على الرق، فباعه ولده علي بن عبد الله بن عباس، من خالد بن يزيد بن معاوية، بأربعة آلاف دينار، فأتى عكرمة مولاه عليا فقال له: ما خير لك، بعثت علم أبيك بأربعة آلاف؟ فاستقاله فأقاله فأعتقه.»

ثم نجد بعد هذا أن ما روى عن ابن عمر لا يصح، لأنه من رواية يحيى البكاء، ويحيى البكاء متروك الحديث، ومن المحال أن يُجرَّح العدل بكلام المجروح (١).

وأما ما قيل من أنه توفي هو وكثير الشاعر في يوم واحد فلم يشهد أحد جنازته، بخلاف كثير فقد شيعه الكثير من الناس، فلسنا نعلم نصيب هذا القول من الصحة، ولعل ذلك على فرض صحته - كما يقول ابن حجر - كان بسبب تطلب الأمير له وتغيبه عنه حتى مات. وليس صحيحاً ما قيل من أن هذا يرجع إلى تحقير المولى إزاء تشریف الحر (١).

ويحقق ابن حجر بعد هذا: أن ما نُقل من أنهم شهدوا جنازة كثيرة وتركوا عكرمة، لم يثبت، لأن ناقله لم يُسَم.

وأما ما رُمى به من الميل للخوارج، فافتراء عليه، ولا يكاد يتفق مع سلوكه في حياته، قال ابن حجر: «فأما البدعة، فإن ثبتت عليه فلا تضر حديثه، لأنه لم يكن داعية، مع أنها لم تثبت عليه» (٢).

● شهادات الموثقين له :

ولو أننا تتبعنا أقوال المنصفين، الذين عرفوا حقيقة هذا التابعي الجليل، لوجدناه رجلاً ثباتاً، لا يُتهم في عدالته، وكل ما قيل في شأنه من التهم لا يُراد به إلا أن يفقد الناس ثقتهم به وركونهم إليه. وإليك ما قاله بعض علماء الجرح والتعديل لتقف على عدالة الرجل وصدق روايته...

قال المروزي: قلت لأحمد: يُحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم يُحتج به. وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة، وفي حماد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام. وقال العجلي فيه: مكى تابعي ثقة، برىء مما يرميه به الناس من الحرورية. وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة. وقد وثقه النسائي وأخرج له في كتابه السنن، كما أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم، وكان مسلم بن الحجاج من أسوئهم رأياً فيه، ثم عدله بعد ما جرحه. وقال المروزي: أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل الحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل، وابن راهويه، ويحيى بن معين، وأبو ثور، ولقد سألت إسحاق بن راهويه عن الاحتجاج بحديثه فقال: عكرمة عندنا إمام الدنيا - تعجب من سؤالي إياه!

وبعد... فهل هناك من يُقدّم على البخاري ومسلم وجميع من ذكرت من علماء الرواية في باب التعديل والتجريح؟، وإذا كان هؤلاء هم أعلم الناس بالرجال، فهل نقبل تجريح من عداهم ونترك توثيقهم؟

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٧٥. (٢) مقدمة فتح الباري: ١٤٨/٢.

الحق أن عكرمة تابعى موثوق بعدالته ودينه، وكل ما رمى به كذب واختلاق !!

● مبلغه من العلم ومكانته فى التفسير:

هذا وإن عكرمة رضى الله عنه، كان على مبلغ عظيم من العلم، وعلى مكانة عالية من التفسير خاصة، وقد شهد له العلماء بذلك، فقال ابن حبان: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن. وقال: عمرو بن دينار: دفع إلى جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة وجعل يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه. وكان الشعبي يقول: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. وقال حبيب بن أبى ثابت: اجتمع عندى خمسة: طاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، فأقبل مجاهد وسعيد ابن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول: أنزلت آية كذا فى كذا، وأنزلت آية كذا فى كذا. وقال يحيى بن أيوب المصرى: سألت ابن جريج: هل كتبتكم عن عكرمة؟ فقلت: لا، قال: فاتكم ثلاثا العلم.

هذا بعض ما قيل فى عكرمة، مما يشهد لمكانته فى العلم عامة، وفى التفسير خاصة، ولا عجب، فإن ملازمته لمولاه ابن عباس، ومبالغة مولاه فى تعليمه إلى درجة أنه كان يضع فى رجله الكبل (١)، ويعلمه القرآن والسنن، جعلته ينهل من معينه الفيض، ويأخذ عنه علمه الغزير، بل نجد أكثر من هذا فيما يرويه ابن حجر فى تهذيب التهذيب، من أن عكرمة بين لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن، قال: روى داود بن أبى هند عن عكرمة قال: قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿لَمْ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].. قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجوا فكسانى حلة، وهذا الخبر يدل على مبلغ ثقة ابن عباس بمولاه وتلميذه، وعلى مقدار إعجابه بعلمه، وتقديره لفهمه.

وجملة القول: فإن عكرمة أمين فى روايته، مُقدّم فى عمله، مبرز فى فهمه لكتاب الله... وكيف لا يكون كذلك وهو وارث علم ابن عباس؟
توفى رحمه الله سنة ١٠٤ هـ (أربع ومائة من الهجرة)، فرضى الله عنه وأرضاه (٢).

* * *

(٢) انظر تهذيب التهذيب: ٢٦٣/٧ - ٢٧٣.

(١) الكبل: القيد.

٤ - طاووس بن كيسان اليماني

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان، اليماني الحميري الجندی (١) مولى بحير ابن ريسان، وقيل مولى همدان. وروى عن العبادلة الأربعة وغيرهم، وروى عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة. وكان رحمه الله عالماً متقناً، خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى، ويرجع ذلك إلى مجالسته لكثير من الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم، ولكن نجده يجلس إلى ابن عباس أكثر من جلوسه لغيره من الصحابة، ويأخذ عنه في التفسير أكثر مما يأخذ عن غيره منهم، ولهذا عدناه من تلاميذ ابن عباس، وذكرناه في رجال مدرسته بمكة.

ولقد كان طاووس على جانب عظيم من الورع والأمانة، حتى شهد له بذلك أستاذه ابن عباس فقال فيه: إني لأظن طاووساً من أهل الجنة، وقال فيه عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً مثل طاووس. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. وقال ابن معين: إنه ثقة. وقال ابن حبان: كان من عبّاد أهل اليمن ومن سادات التابعين، وكان مستجاب الدعوة، وحج أربعين حجة. وقال الذهبي: كان طاووس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ١٠٦ هـ (ست ومائة من الهجرة) (٢).

٥ - عطاء بن أبي رباح

● ترجمته :

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين (٢٧ هـ)، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة (١١٤ هـ) على أرجح الأقوال. كان - رحمه الله - أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك. روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وغيرهم وحدث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً كثير الحديث. وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء؟. وقال فيه أبو حنيفة: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفي. وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مان وهو أرضى أهل الأرض عند الناس. وقال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة: عطاء، ومجاهد، وطاووس. وقال ابن حبان: كان من سادات التابعين فقهاً، وعلماً، وورعاً، وفضلاً (٣). وهو عند أصحاب الكتب الستة.

(١) الجندی - بفتح الجيم والنون - نسبة إلى بلد باليمن كان يسكنها.

(٢) أنظر تهذيب التهذيب: ١٠ - ٨/٥

(٣) أنظر تهذيب التهذيب: ١٩٩/٧ - ٢٠٣

● مكانته في التفسير :

كل ما تقدم من أقوال العلماء في عطاء يشهد لمكانته العلمية على وجه العموم ويدل على مبلغ ثقته وصدقه، وليس أدل على ذلك من شهادة أستاذه ابن عباس له بذلك، ونجد شهرة عطاء على غيره من أصحاب ابن عباس، تتجلى في معرفته بمناسك الحج، ولهذا قال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير. وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام. وإذا نحن تتبعنا الرواة عن ابن عباس نجد أن عطاء بن أبي رباح لم يكثر من الرواية عنه كما أكثر غيره، ونجد مجاهداً وسعيد بن جبير يسبقانه من ناحية العلم بتفسير كتاب الله، ولكن هذا لا يقلل من قيمته بين علماء التفسير، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تخرجه من القول بالرأى، فقد قال عبد العزيز بن رفيع: سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، ف قيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأى.

ثانياً : مدرسة التفسير بالمدينة

● قيامها على أبي بن كعب :

كان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها كما تحول كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة. ونستطيع أن نقول: إن قيام هذه المدرسة كان على أبي بن كعب، الذي يعتبر بحق أشهر من تتلمذ له مفسرو التابعين بالمدينة، وذلك لشهرته أكثر من غيره في التفسير، وكثرة ما نقل لنا عنه في ذلك.

● أشهر رجالها :

وقد وجد بالمدينة في هذا الوقت كثير من التابعين المعروفين بالتفسير، اشتهر من بينهم ثلاثة، هم: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي. وهؤلاء منهم من أخذ عن أبي مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة.

وأرى أن أسوق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة، بما يتناسب مع جانبه العلمي في التفسير فأقول:

١ - أبو العالية

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين. روى عن علي، وابن مسعود، وابن عباس. وابن عمر، وأبي

ابن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير. قال فيه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم: ثقة. وقال اللالكائي: مجمع على ثقته. وقال فيه العجلي: تابعي ثقة. من كبار التابعين. وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة. وكان يحفظ القرآن ويتقنه، وروى قتادة عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين. وروى معمر عن هشام عن حفصة عنه أنه قال: قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات. وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية. وروى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي. وقلنا فيما تقدم: إن هذا الإسناد صحيح، وقلنا أيضاً: إن ابن جرير وابن أبي حاتم أخرجا من هذه النسخة كثيراً، كما أخرج منها الحاكم في مستدركه، والإمام أحمد في مسنده. وكانت وفاته سنة ٩٠ هـ (تسعين من الهجرة) على أرجح الأقوال في ذلك (١).

٢ - محمد بن كعب القرظي

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو حمزة - أو أبو عبد الله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني، من حلفاء الأوس. روى عن علي، وابن مسعود وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أبي بن كعب بالواسطة. وقد اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن. قال ابن سعد: كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وقال العجلي: مدني، تابعي، ثقة، رجل صالح. عالم بالقرآن. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي (٢). وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة ١١٨ هـ (ثمانى عشرة ومائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

٣ - زيد بن أسلم

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو أسامة - أو أبو عبد الله - زيد بن أسلم، العدوي المدني الفقيه المفسر، مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول في التفسير والثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائي: ثقة.

(١) أنظر تهذيب التهذيب: ٣/٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٠٥.

ويكفيها شهادة هؤلاء الأربعة الأعلام دليلاً قوياً على ثقته وعدالته، كما أنه عند أصحاب الكتب الستة.

ولقد كان زيد بن أسلم معروفاً بين معاصريه بغزارة العلم، فكان منهم من يجلس إليه، ويأخذ عنه، ويرى أنه ينفعه أكثر من غيره، يدلنا على هذا ما رواه البخاري في تاريخه أن علي بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطى مجلس قومه، فقال له نافع بن جبيرة بن مطعم: تتخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب؟ فقال علي: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه.

وقد عُرف زيد بأنه كان يُفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، فقد روى حماد ابن زيد، عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه: لا أعلم به بأساً، إلا أنه يُفسر برأيه القرآن ويكثر منه، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيدا ثقة لا يؤخذ عليه شيء إلا أنه كان يُكثر من القول بالرأى، وهذا لا يُعد مغمزاً من عبيد الله في ثقته وعدالته، كما لا نستطيع أن نُعد هذا طعنًا منه في علمه، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول في القرآن برأيهم كغيره من الصحابة والتابعين، وكان زيد يرى جواز تفسير القرآن بالرأى فلا يتحرج منه كما لم يتحرج من ذلك كثير من الصحابة والتابعين، ولا نجد في العلماء من نسب زيد بن أسلم إلى مذهب من المذاهب المبتدعة حتى نقول إنه كان يُفسر القرآن برأيه مطابقاً لمذهبه البدعي، ولو كان شيء من ذلك لما سكت عبيد الله عن بيانه، ولما حكم عليه حكمه هذا، الذي يدل على ثقته وعدالته، وإن دُلَّ على اختلافهما في جواز التفسير بالرأى.

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن ابن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وكانت وفاته سنة ١٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائة من الهجرة) وقيل غير ذلك^(١).

ثالثاً : مدرسة التفسير بالعراق

● قيامها على ابن مسعود :

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظراً لشهرته في التفسير وكثرة المروى عنه في ذلك، ولأن عمر رضي الله عنه لما وُلِّيَ عمار بن ياسر على الكوفة، سَير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فكونه معلّم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة.

(١) أنظر تهذيب التهذيب: ٣/٣٩٥ - ٣٩٧.

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي. وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في وسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الطريقة فى مدرسة التفسير، فيكثر تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج إعمال الرأى فى فهم نصوص القرآن والسنة.

● أشهر رجالها :

وقد عُرِفَ بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر من بينهم علقمة ابن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومُرَّةُ الهمداني، وعامر الشعبى، والحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى. ونتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب:

١ - علقمة بن قيس

● ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعى الكوفى، ولد فى حياة رسول الله ﷺ. روى عن عمر، وعثمان، وعلى، وابن مسعود، وغيرهم. وهو من أشهر رواة عبد الله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال عثمان بن سعيد: قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخير، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله. وقال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمّاً وهدياً. وقال داود بن أبى هند: قلت لشعبة: أخبرنى عن أصحاب عبد الله، قال: كان علقمة أنظر القوم به. وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه. وقال إبراهيم النخعى: كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود... وذكر الباقرين. وكان رحمه الله ثقة مأموناً، على جانب عظيم من الورع والصلاح. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة ٦١ هـ (إحدى وستين، أو اثنتين وستين من الهجرة)، وعمره تسعون سنة (١).

٢ - مسروق (٢)

● ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفى العابد. سألته عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمى مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان،

(١) تهذيب التهذيب: ٧/٢٧٦ - ٢٧٨.

(٢) قيل إنه سُرِقَ فى صغره، ثم وجد فسمي بذلك.

أنت مسروق بن عبد الرحمن، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم، وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شريح القاضى يستشيريه فى معضلات المسائل. وقال مالك بن مغول: سمعت أبا السفر غير مرة قال: ما ولدت همدانية مثل مسروق. وقال الشعبى: ما رأيت أطلب للعلم منه. وقال على بن المدينى: ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله أحداً. وهذه الشهادة من ابن المدينى، يبدو أنها قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم الذى استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة ولابن مسعود على الأخص، الأمر الذى جعله يجمع بين علم هؤلاء جميعاً، ولقد حدث مسروق - رضى الله عنه - أنه جالس أصحاب محمد ﷺ فوجدهم كالإخاذا، فالإخاذا يروى الرجل، والإخاذا يروى الرجلين، والإخاذا يروى العشرة، والإخاذا يروى المائة، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

ثم إن هذا التلمذ لأصحاب رسول الله ﷺ ولابن مسعود الذى اشتهر بتفسير القرآن، جعل من مسروق إماماً فى التفسير، وعالمًا خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى. وقد حدث مسروق بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير عن أستاذه ابن مسعود فقال: كان عبد الله - يعنى ابن مسعود - يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويُفسرها عامة النهار.

أما ثقته وعدالته، فأمر اعترف به علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين: ثقة، لا يُسئل عن مثله. وقال ابن سعد: كان ثقة، وله أحاديث صالحة. وذكره ابن حبان فى الثقات، وقد أخرج له الستة. هذا وقد روى شعبة عن أبى إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً. وكانت وفاته سنة ٦٣ هـ (ثلاث وستين من الهجرة) على الأشهر (١).

٣ - الأسود بن يزيد

● ترجمته ومكانته فى التفسير :

هو أبو عبد الرحمن، الأسود بن يزيد بن قيس، النخعى. كان من كبار التابعين، ومن رواة عبد الله بن مسعود. روى عن أبى بكر، وعمر، وعلى، وحذيفة، وبلال، وغيرهم. وكان رحمه الله ثقة، صالحاً، على جانب عظيم من الفهم لكتاب الله تعالى. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وقال فيه يحيى بن معين: ثقة. وقال ابن سعد: ثقة وله أحاديث صالحة. وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال الحكم: كان الأسود يصوم الدهر، وذهبت إحدى عينيه من الصوم. وذكره إبراهيم النخعى فى من

كان يُفتى من أصحاب ابن مسعود. وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً زاهداً. توفي بالكوفة سنة ٧٤ هـ (أربع وسبعين، أو خمس وسبعين من الهجرة) على الخلاف في ذلك (١).

٤ - مُرَّة الهمداني

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو إسماعيل، مُرَّة بن شراحيل الهمداني، الكوفي، العابد المعروف بِمُرَّة الطيب، ومُرَّة الخير. لُقِّبَ بذلك لعبادته، وشدة ورعه، وكثرة صلاحه. روى عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وغيرهم. وروى عنه الشعبي، وغيره من أصحابه. وثَّقَهُ ابن معين، والعجلي. وهو عند أصحاب الكتب الستة. قال فيه الحارث الغنوي: سجد مرة الهمداني حتى أكل التراب وجهه، وكان يصلي كل يوم ستمائة ركعة، وتوفي سنة ٧٦ هـ (ست وسبعين من الهجرة) (٢).

٥ - عامر الشعبي

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة. روى عن عمر، وعلي، وابن مسعود، ولم يسمع منهم (٣). وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم. قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة. وقال العجلي: سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة.

وقال عبد الملك بن عمير: مر ابن عمر على الشعبي وهو يُحَدِّثُ بِالْمَغَازِي فَقَالَ: لقد شهدت القوم، فلهو أحفظ وأعلم بها. وقال مكحول: ما رأيت أفقه منه. وقال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. وقال ابن شبرمة: سمعت الشعبي يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء، ولا حدَّثتني رجلٌ بحدِيثٍ إِلَّا حَفِظْتَهُ، وَلَا حَدَّثتني رجلٌ بحدِيثٍ فَأَحْبَبتُ أَنْ يَعِيده عليّ. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة. وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً شاعراً. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال أبو جعفر الطبري في طبقات الفقهاء: كان ذا أدب وفقه وعلم. وحكى ابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي حصين قال: ما رأيت أعلم من الشعبي، فقال أبو بكر بن عياش: ولا شريح؟ فقال: تريدني أكذب؟ ما رأيت أعلم من الشعبي. وقال أبو إسحاق الحبال: كان واحد زمانه

(١) المرجع السابق: ٣٤٢/١٠ - ٣٤٣. (٢) انظر تهذيب التهذيب: ٨٨/١٠ - ٨٩.

(٣) خلاصة تذهيب الكمال ص ١٥٥.

في فنون العلم. وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاووس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين. وعن أبي بكر الهذلي قال: قال لي ابن سيرين: الزم الشعبي، فلقد رأيتهُ يُستفتى والصحابة متوافرون. وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير. وقال عاصم: ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجارة من الشعبي.

كل هذه الشهادات من العلماء، تدل على مبلغ علم الشعبي وعظيم حظه منه على اختلاف فنونه، فمن حديث، إلى تفسير، إلى فقه، إلى شعر، إلى قوة حفظ، وكثرة أخذ عن الصحابة وعلماء الأمصار المختلفة. وإذا كان الشعبي يُفتى مع وجود الصحابة ووفرتهم، ويجلس له كثير من أهل العلم يأخذون عنه، فتلك لعمري أكبر دلالة على عظيم مكانته العلمية، وعلو منزلته بين أتباعه ومعاصريه.

وإذا كان الشعبي قد رُزق حظاً وافراً من العلم، ونال إعجاب معاصريه، فإنه مع ذلك لم يكن جريئاً على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه، بل كان يتحرج من ذلك، ويتوقف عن إجابته سائليه إذا لم يكن عنده شيء عن السلف، فقد قال ابن عطية: «كان جُلَّة من السلف، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، يعظمون تفسير القرآن. ويتوقفون عنه. تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم» (١).

وأخرج الطبري عن الشعبي أنه قال: «والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله» (٢).

وأخرج عنه أيضاً أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأى» (٣) ومع هذا التوقف فإننا نرى الشعبي رجلاً نقاداً لرجال التفسير في عصره. وكثيراً ما كان يُصرِّح بالطعن على من لا يعجبه مسلكه في التفسير من معاصريه فقد ذكر أبو حيان: «أن الشعبي كان لا يعجبه تفسير السدي، ويطعن عليه وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر» (٤).

وروى ابن جرير: أن الشعبي كان يمر بأبي صالح باذان (٥) فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول: تُفسِّر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن (٦). وروى ابن جرير أيضاً عن صالح بن مسلم قال: مرَّ الشعبي على السدي وهو يفسِّر فقال: لأن يُضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا (٧).

(٢) مقدمة تفسير ابن جرير: ٢٨/١.

(٤) البحر المحيط: ١٣/١.

(٦) تفسير ابن جرير: ٣٠/١.

(١) مقدمة تفسير القرطبي: ٣٤/١.

(٣) مقدمة تفسير ابن جرير: ٢٨/١.

(٥) باذان: اسمه، ويقال: باذام بالميم.

(٧) المرجع السابق.

هذا وإن الخلاف في مولد الشعبي وفي وفاته كثير، وأشهر الأقوال في ذلك أنه ولد في سنة ٢٠ هـ (عشرين)، وتوفي سنة ١٠٩ هـ (تسع ومائة من الهجرة) (١).

٦ - الحسن البصرى

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو سعيد، الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى مولى الأنصار، وأمه خيرة مولاة أم سلمة. قال ابن سعد: ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ونشأ بوادى القرى، وكان فصيحاً ورعاً زاهداً، لا يُسبق في وعظه، ولا يُداني في مبلغ تأثيره على قلوب سامعيه. روى عن عليّ، وابن عمر، وأنس، وخلق كثير من الصحابة والتابعين. هذا.. وإن الحسن البصرى ليجمع إلى صلاحه وورعه وبراعته في الوعظ، غزارة العلم بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأحكام الحلال والحرام، وقد شهد له بالعلم خلق كثير، فقال أنس بن مالك: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا. وقال سليمان التيمي: الحسن شيخ أهل البصرة. وقال مطر الوراق: كان جابر بن زيد رجل أهل البصرة، فلما ظهر الحسن جاء رجل كأنما كان في الآخرة، فهو يخبر عما رأى وعين. وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال: ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه. وقال بكر المزني: من سره أن ينظر إلى أعلم عالم أدركناه في زمانه، فلينظر إلى الحسن، فما أدركنا الذى هو أعلم منه. وقال الحجاج بن أرطاة: سألت عطاء بن أبي رباح فقال لى: عليك بذلك - يعنى الحسن - ذلك إمام ضخم يُقتدى به. وكان إذا ذُكر عند أبي جعفر الباقر قال: ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء. وقال ابن سعد: كان الحسن جامعاً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم فصيحاً، جميلاً وسيماً. وقال حماد بن سلمة عن حميد: قرأت القرآن على الحسن ففسره على الإثبات - يعنى إثبات القدر - وكان يقول: من كذب بالقدر فقد كفر. وحديثه عند أصحاب الكتب الستة. توفي رحمه الله تعالى سنة ١١٠ هـ (عشر ومائة من الهجرة) وهو ابن ثمان وثمانين سنة (٢).

٧ - قتادة

● ترجمته ومكانته في التفسير :

هو أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه، عربى الأصل. كان يسكن البصرة. روى عن أنس، وأبى الطفيل، وابن سيرين، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح، وغيرهم. وكان قوى الحافظة، واسع الاطلاع فى الشعر العربى، بصيراً بأيام العرب،

(١) انظر تهذيب التهذيب: ٦٥/٥ - ٦٩.

(٢) انظر تهذيب التهذيب: ٢٦٣/٢ - ٢٧٠.

علماً بأنسابهم، متضللاً في اللغة العربية، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير. ولقد يشهد لقوة حفظه ما رواه سلام بن مسكين قال: حدثني عمرو بن عبد الله، قال: قدم قتادة على سعيد بن المسيب فجعل يسأله أياماً وأكثر، فقال له سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، حتى رد عليه حديثاً كثيراً، قال: فقال سعيد: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك. وقد شهد له ابن سيرين بقوة الحافظة أيضاً، فقال: قتادة هو أحفظ الناس.

وكان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فوق ما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله. حتى قدمه بعضهم على كثير من أقرانه، وجعل بعضهم من النادر تقدم غيره عليه. وقال فيه سعيد بن المسيب: ما أتاني عراقي أحسن من قتادة. وقال معمر للزهري: قتادة أعلم عندك أم مكحول؟ قال: بل قتادة. وقال أبو حاتم: سمعت أحمد ابن حنبل وذُكر قتادة، فأطنب في ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من تقدمه، أما المثل فلعن. وقال معمر: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] فلم يجبني، فقلت: سمعت قتادة يقول: مطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة، ولولا كلامه في القدر - وقد قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدْرُ فَأَمْسِكُوا» - ما عدلت به أحداً من أهل دهره (١).

وهذا يدل على أن أبا عمرو كان يثق بعلم قتادة وبتفسيره للقرآن، لولا ما ينسب إليه من الخوض في القضاء والقدر. وكثيراً ما تخرج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك، ونجد أصحاب الصحاح يخرجون له، ويحتجون بروايته، ويكفينا هذا في تعديله وتوثيقه: قال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس: الزهري، ثم قتادة. وقال ابن سعد: كان ثقة مأموناً حجة في الحديث، وكان يقول بشيء من القدر. وقال ابن حبان في الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ أهل زمانه.

وكانت وفاته سنة ١١٧ هـ (سبع عشرة ومائة من الهجرة)، وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور (٢).

وبعد... فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين، وغالب أقوالهم في التفسير تلقوها عن الصحابة، وبعض منها رجعوا فيه إلى أهل الكتاب، وما وراء ذلك فمحض اجتهاد لهم، ولا شك أنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم ودقة الفهم، لقرب

(٢) انظر تهذيب التهذيب: ٣٥١/٨ - ٣٥٦.

(١) وفيات الأعيان: ١٧٩/٢.

عهدهم من عهد النبوة، واتصال ما بين العهدين بعهد الصحابة، ولعدم فساد سليقتهم العربية، والفساد الذى شاع فيما بعد، حتى بلغ إلى درجة الهجنة والمزيج اللغوى.

ثم حمل أتباع التابعين هذا التراث العلمى الذى خَلَّفَهُ التابعون، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من الغموض وما جد من اختلاف فى الرأى، وعن هؤلاء أخذ من جاء بعدهم.... وهكذا. تناقل الخلف علم السلف، وحمل علماء كل جيل علم من سبقهم وزادوا عليه، سنة الله فى تدرج العلوم، تبدأ ضيقة الدائرة، محدودة المسائل، ثم لا تلبث أن تتسع وتتضخم إلى أن تبلغ النهاية وتصل إلى الكمال.

* * *

الفصل الثاني

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء فى الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر فى ذلك شئ عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . فنقل عن الإمام أحمد رضى الله عنه روايتان فى ذلك : رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول، وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعى، واختاره ابن عقيل، وحكى عن شعبة . واستدل أصحاب هذا الرأى على ما ذهبوا إليه : بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل فى تفسير الصحابى : إنه محمول على سماعه من النبى ﷺ . وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التى نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلا، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة . نقل عن أبى حنيفة أنه قال : « ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال » .

وقد ذهب أكثر المفسرين : إلى أنه يؤخذ بقول التابعى فى التفسير، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة، فمجاهد مثلا يقول : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقتادة يقول : ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا، ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين فى كتبهم ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها .

والذى تميل إليه النفس : هو أن قول التابعى فى التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأي فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قال ابن تيمية : قال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟ بمعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشئ فلا يرتاب فى كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك^(١) .

(١) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٨ - ٢٩، وفواتح الرحموت ٢/ ١٨٨، والإتقان : ١٧٩/٢ .

الفصل الثالث

مميزات التفسير في هذه المرحلة

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولاً: دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وكان لا يزال عالقا بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات. وكثير من القصص. وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فتساهل التابعون فزجوا في التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحر ونقد. وأكثر من روى عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج. ولا شك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات في التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم (١)

وسنأتي بعرض لهذه الناحية عرضاً موسعاً عند الكلام عن أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

ثانياً: ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية (٢)، إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي ﷺ وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون - بوجه خاص - بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبي، والعراقيون عن ابن مسعود... وهكذا.

ثالثاً: ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلاً قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى الخوض في القضاء والقدر ويتهم بأنه قدرى، ولا شك أن هذا أثر على تفسيره، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه. ونجد الحسن البصرى قد فسّر القرآن على إثبات القدر، ويكفر من يكذب به كما ذكرنا ذلك في ترجمته.

رابعاً: كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين.

(١) انظر فجر الإسلام ص ٢٥٢، ومنهج الفرقان: ٢٠/٢.

(٢) وما سبق من أن مجاهد بن جبر كتب التفسير كله عن ابن عباس، وما يأتي بعد من أن سعيد بن جبير كتب تفسير القرآن، لا يخرج بالتفسير في هذه المرحلة عن طابع التلقي والرواية، لأن هذا عمل فردي لا يؤثر على الطابع العام.

الفصل الرابع

الخلاف بين السلف في التفسير

قلنا إن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يفسرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية، وما يعلمونه من الأسباب التى نزل عليها القرآن، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات، وكانوا يرجعون في فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله ﷺ. وقلنا إن المفسرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم، فأخذوا عنهم كثيرا من التفسير، وقالوا فيه أيضا برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التى وصلت إليها فيما بعد.

قلنا هذا فيما سبق. ونزيد عليه أن ما دون من العلوم الأدبية، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية، ومذاهب الخلاف الفقهي والكلامية، لم يكن قد ظهر شئ منها في عصر الصحابة، والتابعين، وإن كان قد وجدت النواة التى نمت فيما بعد وتفرعت عنها كل هذه الفروع المختلفة. كان هذا هو الشأن علي عهد الصحابة والتابعين، فكان طبيعيا أن تضيق دائرة الخلاف فى التفسير فى هاتين المرحلتين من مراحلها، ولا تتسع هذا الاتساع العظيم الذى وصلت إليه فيما بعد.

كان الخلاف بين الصحابة فى التفسير قليلا جدا، وكذا بين التابعين وإن كان أكثر منه بين الصحابة، وكان اختلافهم فى الأحكام أكثر من اختلافهم فى التفسير. وإذا نحن تتبعنا ما نقل لنا من أقوال السلف فى التفسير، وجمعنا ما هو مبثوث فى كتب التفسير بالمأثور لخرجنا بادى الرأى بكثير من الأقوال المختلفة فى المسألة الواحدة، فقول لصحابى يخالف قول صحابى آخر، وقول لتابعى يخالف قول تابعى آخر، بل كثيرا ما نجد قولين مختلفين فى المسألة الواحدة، وكلاهما منسوب لقائل واحد، فهل معنى هذا أن الخلاف فى التفسير قد اتسعت دائرته علي عهد الصحابة والتابعين، وهل معنى هذا أن الصحابى أو التابعى يناقض نفسه فى المسألة الواحدة؟.. لا، فدائرة الخلاف لم تتسع، ولم يناقض الصحابى أو التابعى نفسه. وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف فى التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلا، أو اختلاف تنوع، لا إلى اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس فحكاه علي أنه أقوال متباينة لا يرجع بعضها إلى بعض.

ونستطيع بعد البحث والنظر فى هذه الأقوال التى اختلفت ولم تتباين، أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور، نذكرها ليتبين لنا أنه لا تنافي ولا تباين بين هذه الأقوال التى تبدو متعارضة عن السلف، وهى ما يأتي:

أولاً: أن يعبر كل واحد من المفسرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله ﷺ، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر منها، بل الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

[الإسراء: ١١٠]

وإذا نحن نظرنا إلى كل اسم من أسمائه لوجدناه يدل على ذات الله تعالى وعلى صفة من صفاته تضمنها هذا الاسم فـ «العليم» يدل على الذات والعلم، و «القدير» يدل على الذات والقدرة... وهكذا.

ثم إن كل اسم من هذه الأسماء يدل على الصفة التى فى الاسم الآخر بطريق اللزوم، وكذلك الشأن فى أسماء النبى ﷺ مثل: محمد وأحمد وحامد، وأسماء القرآن مثل: القرآن، والفرقان، والهدى، والشفاء وأمثال ذلك.

فإن كان مقصود السائل تعيين المسمى عبر عنه بأى اسم كان إذا كان يعرف مسماه. فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ [طه: ١٢٤].. إذا قيل: ما ذكره؟ يقال: ذكره قرآنه، أو كتابه، أو كلامه، أو هدايه، ونحو ذلك. وهذا على القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به فلا بد فى ذلك من قدر زائد على تعيين المسمى، مثل أن يسأل عن القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوساً وسلاماً ومؤمناً، ومهيماً، ونحو ذلك.

والسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر، كمن يقول: القدوس: هو الله أو الرحمن، أو الغفور، ومراده أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هى هذه. ومعلوم أن هذا اختلاف لا يمكن أن يقال إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ومثال ذلك تفسيرهم للصرات المستقيم، فقال بعضهم: هو اتباع القرآن لقوله ﷺ فى حديث على عند الترمذى: « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفى السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على رأس الصراط، قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن».

ومنهم من قال: هو اتباع السنة والجماعة، ومنهم من قال: هو طريق

العبودية ، ومنهم من قال : هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، وقيل غير ذلك فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين، بل كلها متفقة فى الحقيقة ، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، وهو طاعة الله ورسوله، وهو طريق العبودية لله، فالذات واحدة، وكل أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها.

ثانيا : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبية

المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه .

مثال ذلك ما نقل فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] فبعضهم فسر السابق بمن يصلى فى أول الوقت، والمقتصد بمن يصلى فى أثناؤه، والظالم بمن يصلى بعد فواته . وبعضهم فسر السابق بمن يؤدى الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد بمن يؤديها وحدها، والظالم بمنع الزكاة، فكل من المفسرين ذكر فردا من أفراد العام على سبيل التمثيل لا الحصر، لتعريف المستمع أن الآية تتناول المذكور، ولتنبيهه به على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يكون أسهل من التعريف بالحد المطابق والعقل السليم يتفطن للنوع بذكر مثاله . وهذا الاختلاف فى ذكر المثال لا يؤدي إلى التباين والتناقض بين الأقوال، إذ من المعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك الحرمات . والسابق يتناول من تقرب بالحسنات مع الواجبات .

ومن هذا القبيل أن يقول أحدهم : نزلت هذه الآية فى كذا، ويقول الآخر : نزلت فى كذا، كل يذكر غير ما يذكره صاحبه، لأن كلا منهم يذكر بعض ما يتناوله اللفظ، وهذا لا تنافى فيه ما دام اللفظ يتناول قول كل منهما . أما إذا قال أحدهم : سبب نزول هذه الآية كذا، وقال الآخر : سبب نزول هذه الآية كذا، وكل ذكر غير ما ذكره الآخر فيمكن أن يقال : إن الآية نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين : مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب .

ثالثا : أن يكون اللفظ محتملا للأمرين أو الأمور، وذلك إما لكونه مشتركا فى اللغة، كلفظ «سورة» الذى يراد به الرامى ويراد به الأسد ولفظ «عسعس»، الذى يراد به إقبال الليل ويراد به إدباره وإما لكونه متواطئا فى الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين ، كالضمائر فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم : ٨ - ٩] . . وكلفظ : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر : ١ - ٣] . . وما مائل ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالها السلف، وذلك إما لكون الآية نزلت مرتين ، فأيد بها هذا تارة وهذا تارة . وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه أو معانيه، وهذا يقول به أكثر الفقهاء من

المالكية، والشافعية، والحنابلة، وكثير من أهل الكلام وإما لكون اللفظ متواطئاً، فيكون عاماً إذا لم يكن هناك موجب لتخصيصه.

رابعاً: أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه، وإنما يعبر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه، فمثلاً إذا قال قائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩].. المور: الحركه فذلك تقريب للمعنى، لأن المور حركة خفيفة سريعة. كذلك إذا قال: ﴿وَقَضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤].. أى أعلمنا، لأن القضاء إليهم فى الآية أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالاً وإيحاء إليهم. فإذا قال أحدهم فى قوله تعالى: ﴿وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠] إن معنى تبسل: تحبس، وقال الآخر: ترتهن، ونحو ذلك، لم يكن من اختلاف التضاد، لأن هذا تقريب للمعنى كما قلنا.

خامساً: أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة فيظن ذلك اختلافاً، وليس باختلاف، مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وغيره من طرق فى قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجره ١] إن معنى سكرت: سدت، ومن طريق أخرى عنه: أن سكرت بمعنى أخذت وسحرت، ثم أخرج عن قتادة أنه قال: من قرأ «سكرت» مشددة، فإنما يعنى سدت، ومن قرأ «سكرت» مخففة. فإنه يعنى سحرت. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرِانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] أخرج ابن جرير عن الحسن: أنه الذى تهنأ به الإبل، وأخرج من طرق عنه وعن غيره: أنه النحاس المذاب، وليس بقولين، وإنما الثانى تفسير لقراءة من قرأ: «من قطر آن» بتنوين قطر، وهو النحاس المذاب، وآن: شديدة الحرارة. وأمثلة هذا النوع كثيرة. وقد خرج على هذا الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَا مَسْتَمٍ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦] هل هو الجماع، أو الجس باليد؟ فالأول تفسير لقراءة «لامستم»، والثانى لقراءة: «لمستم» ولا اختلاف.

هذه هى الأوجه التى بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلف التى تبدو متعارضة. أما ما جاء عنهم من اختلاف فى التفسير ويتعذر الجمع بينه بواحد من الأمور السابقة - وهذا أمر نادر، أو اختلاف مخفف كما يقول ابن تيمية^(١) - فطريقنا فيه: أن ننظر فيمن نقل عنه الاختلاف، فإن كان عن شخص واحد واختلفت الروايتان صحة وضعفاً، قدم الصحيح وترك ما عداه، وإن استويناه فى الصحة وعرفنا

أن أحد القولين متأخر عن الآخر ، قدم المتأخر وترك ما عداه . وإن لم نعرف تقدم أحدهما علي الآخر رددنا الأمر إلي ما ثبت فيه السمع . فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما ، رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه . وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى ولا نتهجم على تعيين أحد القولين ، ويكون الأمر حينئذ في منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

وإن كان الاختلاف عن شخصين أو أشخاص ، واختلفت الروايتان أو الروايات صحة وضعفا ، وقدم الصحيح وترك ما عداه . وإن استوت الروايتان أو الروايات في الصحة ، رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع . فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه . وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى ، ولا نتهجم على تعيين أحد القولين أو الأقوال . ويكون الأمر حينئذ في منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

ويروي الزركشى : أن الاختلاف إن كان بين الصحابة وتعذر الجمع ، قدم قول ابن عباس عل قول غيره ، وعلل ذلك فقال : « لأن النبي ﷺ بشره حيث قال : « اللهم علّمه التأويل »^(١)

* * *

(١) الإتيان : ١٨٣/٣ - وقد اعتمدنا في هذا البحث على مقدمة أصول التفسير لابن

تيمية ص ٦-١٣ ، والإتيان : ١٧٦/٢ - ١٨٣ ، ومبادئ التفسير للخضري ص ٦-٧ .

الباب الثالث

المرحلة الثالثة للتفسير

(التفسير في عصور التدوين)

- تمهيد
- التفسير بالمأثور
- التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث
- أهم كتب التفسير بالرأى الجائز
- التفسير بالرأى المذموم ... أو تفسير الفرقة المبتدعة.

المرحلة الثالثة للتفسير تمهيد

● ابتداء هذه المرحلة :

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين ، وذلك في أواخر عهد بنى أمية، وأول عهد العباسيين .

* الخطوة الأولى للتفسير :

وكان التفسير قبل ذلك يتناقل بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ كما يروى بعضهم عن بعض . والتابعون يروون عن الصحابة . كما يروى بعضهم عن بعض ، وهذه هي الخطوة الأولى للتفسير .. (١)

* الخطوة الثانية :

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة . وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وجد من العلماء من طوَّف في الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجوار ذلك ما روى في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي ﷺ، أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هـ، وآدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هـ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هـ وغيرهم، وهؤلاء جميعا كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعا لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعا للتفسير على استقلال وانفراد . وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسندا إليهم ، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شئ منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها .

* الخطوة الثالثة :

ثم بعد هذه الخطوة الثانية، خطا التفسير خطوة ثالثة، انفصل بها عن الحديث،

(١) هذه الخطوات للتفسير، خطوات علمية وأما المراحل فزمنية ، وإذن فلا ضير أن يخطو التفسير خطوة علمية واحدة في مرحلتين زمنيتين ، مرحلة عصر النبي ﷺ والصحابة، ومرحلة عصر التابعين .

فأصبح علما قائما بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف. وتم ذلك علي أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨هـ وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩هـ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠هـ، وغيرهم من أئمة هذا الشأن.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شئ من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبرى فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض، وزاد علي ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة، واستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية... وسنأتى بالكلام عن هذا التفسير عند الكلام عن الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور إن شاء الله تعالى.

وإذا كان التفسير قد خطا هذه الخطوة الثالثة التى انفصل بها عن الحديث فليس معنى ذلك أن هذه الخطوة محت ما قبلها وألغت العمل به، بل معناه أن التفسير تدرج فى خطواته، فبعد أن كانت الخطوة الأولى للتفسير هى النقل عن طريق التلقى والرواية، كانت الخطوة الثانية له، وهى تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة، وهى تدوينه على استقلال وانفراد، فكل هذه الخطوات، ثم إسلام بعضها إلى بعض، بل وظل المحدثون بعد هذه الخطوة الثالثة، يسيرون على نمط الخطوة الثانية من رواية المنقول من التفسير فى باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين فى ذلك على ما ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة أو عن التابعين.

* ليس من السهل معرفة أول من دوّن تفسير كل القرآن مرتباً:

هذا... ولا نستطيع أن نعين بالضبط، المفسر الأول الذى فسر القرآن آية آية، ودوّنه على التابع وحسب ترتيب المصحف. ونجد فى الفهرست لابن النديم (ص ٩٩) أن أبا العباس ثعلب قال: «كان السبب فى إملاء كتاب الفراء فى المعاني^(١) أن عمر بن بكير كان من أصحابه وكان منقطعاً إلي الحسن بن سهل فكتب إلي الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألتني عن الشئ بعد الشئ

(١) قامت دار الكتب المصرية بطبع هذا الكتاب وقد تم منه الجزء الأول سنة ١٩٥٦، وهو ينتهى عند آخر سورة يونس، وإلي الآن لم يطبع غير هذا الجزء.

من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا، أو تجعل في ذلك كتابا أرجع إليه فعلت، فقال الفراء. لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا في القرآن، وجعل لهم يوما فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل ويفسر الفراء، قال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه.

فهل نستطيع أن نستخلص من ذلك: أن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ هو أول من دون تفسيراً جامعاً لكل آيات القرآن مرتباً على وفق ترتيب المصحف؟ وهل نستطيع أن نقول: إن كل من تقدم الفراء من المفسرين كانوا يقتصرون على تفسير المشكل فقط؟ لا... لا نستطيع أن نفهم هذا من عبارة ابن النديم لأنها غير قاطعة في هذا كما لا نستطيع أن نميل إليه كما مال إليه الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام (ج ٢ ص ١٤١)، وذلك لأن كتاب «معاني القرآن» للفراء شبيهه في تناوله للآي على ترتيبها في السور بكتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة، فإنه يتناول السور على ترتيبها، ويعرض لما في السورة من آي تحتاج لبيان مجازها - أي المراد منها - فليس للفراء أولية في هذا، بل تلك على ما يبدو كانت خطة العصر^(١)، ثم إن ما نقل لنا عن السلف يشعر - وإن كان غير قاطع - بأن استيفاء التفسير لسور القرآن وآياته كان عملاً مبكراً لم يتأخر إلى نهاية القرن الثاني وأوائل الثالث، فمثلاً يقول ابن أبي مليكة: «رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله»^(٢)

ونجد الحافظ ابن حجر عندما ترجم لعطاء بن دينار الهذلي المصري في كتابه «تهذيب التهذيب» يقول: «قال علي بن الحسن الهسنجاني، عن أحمد بن صالح: عطاء بن دينار، من ثقات المصريين، وتفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير صحيفة، وليس له دلالة على أنه سمع من سعيد بن جبير، وقال أبو حاتم: صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان، وكان عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة ٨٦هـ) سأل سعيد ابن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير».

فهذا صريح في أن سعيد بن جبير رضى الله عنه جمع تفسير القرآن في كتاب، وأخذه من الكتاب عطاء بن دينار، ومعروف أن سعيد بن جبير قتل سنة ٩٤هـ - أو سنة

(١) التفسير... معالم حياته.. منهجه اليوم ص ٣١-٣٢ (هامش).

(٢) تفسير ابن جرير: ٣٠/١.

٩٥ هـ - على الخلاف على ذلك، ولا شك أن تأليفه هذا كان قبل موت عبد الملك ابن مروان المتوفى سنة ٨٦ هجرية.

وكذلك نجد في وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣): أن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة، كتب تفسيراً للقرآن عن الحسن البصرى، ومعلوم أن الحسن توفى سنة ١١٦ هـ. ومر بنا فيما سبق (ص ٨٥) أن ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هـ له ثلاثة أجزاء كبار في التفسير رواها عنه محمد بن ثور، فإذا انضم إلى هذا ما نلاحظه من قوة اتصال القرآن بالحياة الإسلامية، وشدة عناية القوم بأخذ الأحكام وغيرها من آيات القرآن، وحاجاتهم الملحة في ذلك، نستطيع أن نقول إن الفراء لم يسبق إلى هذا الاستيفاء والتقصي، بل هو مسبوق بذلك، وإن كنا لا نستطيع أن نعين من سبق إلى هذا العمل على وجه التحقيق، ولو أنه وقع لنا كل ما كتب من التفسير من مبدأ عهد التدوين. لأمكننا أن نعين المفسر الأول الذى دون التفسير على هذا النمط.

* الخطوة الرابعة:

ثم إن التفسير لم يقف عند هذه الخطوة الثالثة بل خطا بعدها خطوة رابعة، لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد، فنصف فى التفسير خلق كثير، اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوا لقائلها، فدخل الوضع فى التفسير والتبس الصحيح بالعليل، وأصبح الناظر فى هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح، فنقله كثير من المتأخرين فى تفاسيرهم، ونقلوا ما جاء فى هذه الكتب من إسرئيليات على أنها حقائق ثابتة، وكان ذلك هو مبدأ ظهور خطر الوضع والإسرئيليات فى التفسير. وسنعرض لهذا بالبيان والتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولقد وجد من بين هؤلاء المفسرين من عنى بجمع شتات الأقوال، فصار كلما سنح له قول أورده، وكلما خطر بباله شئ اعتمده، فيأتى من بعده وينقل ذلك عنه بدون أن يتحرى الصواب فيما ينقل، وبدون التفات منه إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم فى التفسير، ظنا منه أن كل ما ذكر له أصل ثابت!! وليس أدل على نهم هؤلاء القوم بكثرة النقل من أن بعضهم ذكر فى تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] عشرة أقوال مع أن تفسيرها باليهود والنصارى، هو الوارد عن رسول الله ﷺ وعن جميع الصحابة والتابعين، حتى قال ابن أبي حاتم: « لا أعلم فى ذلك اختلافا بين المفسرين ». (١)

* الخطوة الخامسة:

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة خامسة ، وهى أوسع الخطأ وأفسحها امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك .

● تدرج التفسير العقلى :

بدأ ذلك أولا على هيئة محاولات فهم شخصى، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمرا مقبولا ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية. ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم، متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم. دونت علوم اللغة، ودون النحو والصرف، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى، وأثيرت مسائل الكلام، وظهر التعصب المذهبى قائما على قدمه وساقه فى العصر العباسى، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فامتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير^(١) حتى طغت عليه، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى، وصار أظهر شئ فى هذه الكتب، هو الناحية العقلية، وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول أو بغير ذلك على المأثور.

وهكذا تدرج التفسير واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة، وتحكمت الاصطلاحات العلمية، والعقائد المذهبية فى عبارات القرآن الكريم فظهرت آثار الثقافة الفلسفة والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه، وكما ظهرت آثار النحل و الأهواء فيه ظهورا جليا.

(١) وكان السبب فى مزج هذه العلوم بالتفسير ما يأتى :

أولا: فى العلوم الأدبية: ضعف السليقة العربية، لاختلاط العرب بالعجم، فاحتيج إلى مزج هذه العلوم بالتفسير لفهم ألفاظ القرآن، والوقوف على بلاغته التى تعتبر أهم نواحي إعجازه.

ثانيا: فى العلوم الكونية ما ترجمه العلماء فى إبان شوكة الإسلام من كتب الفلاسفة، فاحتاجوا إلى مزجها بالتفسير لتأييدها أو الرد عليها.

ثالثا: فى العلوم الكلامية: ظهور الفرق الإسلامية، واستدلال كل طائفة منها ببعض آيات القرآن الكريم على ما تذهب إليه، فاضطر العلماء إلى الكلام على ذلك فى التفسير ليميزوا المقبول من المردود، وما يدل عليه القرآن مما لا يدل عليه.

رابعا: فى العلوم الفقهاء: نضوج الفقه الإسلامى وتبحر العلماء فيه، فعنى المفسرون بمزجها فى تفاسيرهم، لتكون متممة للناحية التشريعية، وشارحة لأصل الدين وهو القرآن.

وإننا لنلاحظ في وضوح وجلاء: أن كل من برع في فن من فنون العلم، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذي برع فيه، فالنحوي تراه لا هم له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل في ذلك من أوجه، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته، وذلك كالزجاج، والواحدى في «البيسط»، وأبى حيان في «البحر المحيط».

وصاحب العلوم العقلية، تراه يعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما تراه يعنى بذكر شبههم والرد عليها، وذلك كالفخر الرازى في كتابه «مفاتيح الغيب».

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهية، والرد على من يخالف مذهبه، وذلك كالجصاص، والقرطبي.

وصاحب التاريخ، ليس له شغل إلا القصص، وذكر أخبار من سلف ما صح منها وما لا يصح، وذلك كالثعلبي والحازن.

وصاحب البدع، ليس له قصد إلا أن يؤول كلام الله وينزله على مذهبه الفاسد، وذلك كالرمانى، والجبائى، والقاضى عبد الجبار، والزمخشرى من المعتزلة. والطبرسى، وملا محسن الكاشى من الإمامية الإثنا عشرية.

وأصحاب التصوف قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب. واستخراج المعانى الإشارية من الآيات القرآنية بما يتفق مع مشاربهم، ويتناسب مع رياضتهم ومواجيدهم، ومن هؤلاء ابن عربى، وأبو عبد الرحمن السلمى..

وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب ما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت في بعض العصور رواجاً عظيماً كما راجت في عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن كل العلوم، ما ظهر منها وما لم يظهر، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجازه القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن. وفي الحق أن هذا غلو منهم، وإسراف يخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه.

وسوف نتكلم على ذلك بتوسع عند الكلام عن التفسير العلمى إن شاء الله تعالى.

ثم إن هذا الطغيان العلمى، لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذى يجعله فى عداد ما درس وذهب، بل وجد من العلماء فى عصور مختلفة من استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان، ففسر القرآن تفسيراً نقلياً بحثاً، على توسع منهم فى النقل، وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطى فى كتابه «الدر المنثور».

● التفسير الموضوعي :

وكذلك وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة، فابن القيم - مثلا - أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه «التبيان في أقسام القرآن» وأبو عبيدة أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن، والراغب الأصفهاني أفرد كتابا في مفردات القرآن . وأبو جعفر النحاس أفرد كتابا في الناسخ والمنسوخ من القرآن . وأبو الحسن الواحدى أفرد كتابا في أسباب نزول القرآن والجصاص أفرد كتابا في أحكام القرآن .. وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث .

● توسع متقدمى المفسرين قعد بمتأخريهم عن البحث المستقل :

ثم إننا نجد متقدمى المفسرين قد توسعوا في التفسير إلى حد كبير، جعل من جاء بعدهم من المفسرين لا يلقون عنتا، ولا يجدون مشقة في محاولتهم لفهم كتاب الله، وتدوين ما دونوا من كتب في التفسير، فمنهم من أخذ كلام غيره وزاد عليه، ومنهم من اختصر، ومنهم من علق الحواشى وتبع كلام من سبقه، تارة بالكشف عن المراد، وأخرى بالتفنيد والاعتراض، ومع ذلك فاتجاهات التفسير؛ وتعدد طرائقه وألوانه . لم تنزل على ما كانت عليه، متشعبة متكاثرة .

أما في عصرنا الحاضر، فقد غلب اللون الأدبي الاجتماعى على التفسير ووجدت بعض محاولات علمية، فى كثير منها تكلف ظاهر وغلو كبير، أما اللون المذهبى، فقد بقى منه إلى يومنا هذا بمقدار ما بقى من المذاهب الإسلامية، وسوف نعرض للتفسير فى عصرنا الحاضر بما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى .

هذا هو شأن التفسير فى مرحلته الثالثة - مرحلة التدوين - وهذه هى خطواته التى تدرج فيها من لدن نشأته إلى عصرنا الحاضر، وتلك هى ألوانه وطرائقه، وأرى من العسير على أن اتمشى بالتفسير مع الزمن، وأن أتكلم عن طرائقه، ومميزاته، واتجاهاته، وألوانه فى كل عصر من العصور التى مرت عليه، وذلك راجع إلى أننا لم نقف على كثير مما خلفته تلك العصور من آثار فيه وهى كثرة كاثرة تنوعت مقاصدها واختلفت اتجاهاتها . وإننا لندهش عند سماع ما ألف فى التفسير من الكتب التى بلغت حد الكثرة . ونسبت لرجال لهم قيمتهم العلمية، فى القرن الثانى كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيرا للقرآن عن الحسن البصرى، كما ذكره ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان»^(١)، ويذكر صاحب كتاب «تبيين كذب المفتري»: أن أبا الحسن

الأشعري كتب كتابا في التفسير يسمى «المختزن»، لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الحق (١).

كما ينسب إلى الجويني تفسير كبير يشتمل على عشرة أنواع في كل آية (٢) وينسب للقشيري أيضا تفسير كبير (٣). وابن الأنباري يذكرون أنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً من تفاسير القرآن بأسانيدها (٤) وأبو هلال العسكري له كتاب «الحاسن في تفسير القرآن»، خمس مجلدات (٥) وغير هذا كثير جدا من الكتب التي ألفت في تفسير القرآن.

وبعد.... فهل يكون في مقدوري - وقد اندرست معظم كتب التفسير - أن أتكلم عن التفسير وما ألفت فيه في جميع مراحل الزمنية؟ اللهم إن هذا أمر لا أقدر عليه إلا إذا جمع بين يدي كل ما كتب في التفسير من مبدأ نشأته إلى يومنا هذا، وكان لدى من الوقت ما يتسع لدراسته كله، وأنى لى بذلك؟

على أننا لو نظرنا إلى مناحى المفسرين واتجاهاتهم، لوجدناهم مع اختلاف عصورهم يشتركون فيها، فبينما نجد من المتقدمين من دون التفسير بالمأثور خاصة، نجد من المتأخرين من قصر تفسيره على المأثور أيضا. وبينما نجد من المتقدمين من نحا في تفسيره الناحية الإشارية نجد من المتأخرين من ينحو هذا المنحى بعينه، وبينما نجد من المتقدمين من حاول إخضاع القرآن لمذهبه وعقيدته نجد من المتأخرين من حاول مثل هذه المحاولة (٦) وهكذا نجد كثيرا من كتب التفسير على اختلاف أزمانها تتحد في مشربها، وتتجه إلى ناحية واحدة من نواحي التفسير المختلفة.

لهذا كله، أرى نفسى مضطرا إلى أن أعدل في هذه المرحلة الثالثة - مرحلة عصور التدوين - عن السير بالتفسير مع الزمن إلى التكلم عنه من ناحية هذه الاتجاهات التي اتجه إليها المفسرون في تفاسيرهم وأتبع ذلك بالكلام عن أشهر الكتب المؤلفة في التفسير فأتكلم أولا عن التفسير المأثور وأشهر ما دون فيه، ثم عن التفسير بالرأى الجائز وغير الجائز، وعن أشهر الكتب المؤلفة في ذلك. ويندرج في هذا الكلام على تفاسير الفرق المختلفة، ثم أتكلم بعد ذلك عن التفسير عند الصوفية وأهم كتبهم فيه، ثم عند الفلاسفة، ثم عند الفقهاء كذلك، ثم أتكلم عن التفسير العلمي، ثم أختتم بكلمة عامة عن التفسير في عصرنا الحاضر، وأسأل الله العون والتوفيق.

(١) تبين كذب المفترى ص ١٣٣ وانظر ص ١٣٦ منه أو في هامشها، وذكر المقرئ أنه في سبعين مجلدا، وعن ابن عربي أنه في خمسمائة مجلد... وابن فورك كثير النقل عن هذا التفسير. ويقول التاج السبكي أنه اطلع على جزء منه.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٧. (٣) نفس المرجع ص ٢٧٣.

(٤، ٥) التفسير... معالم حياته.. منهجه اليوم ص ١٥.

(٦) سيتضح لك فيما بعد التوافق في مناحى التفسير بين المتقدمين والمتأخرين.

الفصل الأول

التفسير بالمأثور

● ما هو التفسير المأثور؟

يشمل التفسير المأثور ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن الرسول ﷺ وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم. وإنما أدرجنا فى التفسير المأثور ما روى عن التابعين - وإن كان فيه خلاف هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأى - لأننا وجدنا كتب التفسير المأثور، كتفسير ابن جرير وغيره، لم تقتصر على ذكر ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وما روى عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعين فى التفسير.

● تدرج التفسير المأثور:

تدرج التفسير المأثور فى دوريه - دور الرواية ودور التدوين - أما فى دور الرواية، فإن رسول الله ﷺ بين لأصحابه ما أشكل عليهم من معانى القرآن، فكان هذا القدر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين. ثم وجد من الصحابة من تكلم فى تفسير القرآن بما ثبت لديه عن رسول الله ﷺ أو بمحض رأيه واجتهاده، وكان ذلك على قلة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التى كانت لهذا العهد، والمستوى العقلى الرفيع لأهله، وتحدد حاجات حياتهم العملية ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا.

ثم وجد من التابعين من تصدى للتفسير، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأى والاجتهاد، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة. ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض... وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ثم ابتداءً دور التدوين - وهو ما يعيننا فى هذا البحث - فكان أول ما دون من التفسير، هو التفسير المأثور، على تدرج فى التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول فى هذا. وقد رأينا أصحاب مبادئ العلوم حين

ينسبون - على عادتهم - وضع كل علم لشخص بعينه يعدون واضع التفسير - بمعنى جامعه لا مدونه - الإمام مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة^(١). وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلا منظما، ولم يفرد بالتدوين بل كان يكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة يجمعون فيه ما روى عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأُفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عرف لنا من ذلك، تك الصحيفة التي رواها على بن أبي طلحة عن ابن عباس^(٢). ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت في التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبي روق^(٣) وتلك الأجزاء الثلاثة التي يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج^(٤). ثم وجدت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة في التفسير، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروي عن النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم، كتفسير ابن جرير الطبري. ويلاحظ أن ابن جرير ومن على شاكلته - وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد - توسعوا في النقل وأكثروا منه، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقا به. كما يلاحظ أنه كان لا يزال موجودا إلى ما بعد عصر ابن جرير ومن على شاكلته - ممن أفردوا التفسير بالتأليف - رجال من المحدثين بوبوا للتفسير بابا ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث.

ثم وجد بعد هذا أقوام دونوا التفسير المأثور بدون أن يذكروا أسانيدهم في ذلك، وأكثروا من نقل الأقوال في تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل، مما جعل الناظر في هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المختلق، وهو كثير في التفسير.

ثم بعد هذا تغيرت موجهات الحياة، فبعد أن كان التدوين في التفسير لا يتعدى المأثور منه، تعدى إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج فيه، كما أشرنا إليه فيما سبق.

● اللون الشخصي للتفسير المأثور:

من المعلوم أن الشخص الذي يفسر نصا من النصوص، يلون هذا النص بتفسيره إياه لأن المتفهم لعبارة من العبارات، هو الذي يحدد معناه ومرماها وفق مستواه الفكري، وعلى سعة أفقه العقلي، وليس في استطاعته أن يفهم من النص إلا ما يرمى إليه فكره، ويمتد إليه عقله، ومقدار هذا يتحكم في النص ويحدد بيانه، وهذا أصل ملحوظ،

(١) المبادئ النصيرية: ٢٦.

(٢) الإتيقان ٢/ ٨٨.

(٣) الإتيقان ٢/ ٨٨.

(٤) نفس المرجع السابق

نجد آثاره واضحة في كتب التفسير على اختلافها، فما من كتاب منها إلا وقد وجدنا آثار شخصية صاحبه وقد طبعت تفسيره بطابع خاص لا يعسر علينا إدراكه .

غير أن هذا الطابع الشخصي الذي يطبع به التفسير إن ظهر لنا جلياً واضحاً في كتب التفسير بالرأى، فإننا لا نكاد نجده لأول وهلة على هذا النحو من الوضوح والجلاء بالنسبة لكتب التفسير بالمأثور، ولكن نستطيع أن نتبينه إذا ما قدرنا أن المتصدى لهذا التفسير النقلى إنما يجمع حول الآية من الرويات ما يشعر أنها متجهة إليه، متعلقة به، فيقصد إلى ما يتبادر لذهنه من معناها، ثم تدفعه الفكرة العامة فيها إلى أن يصل بين الآية وما يروى حولها في اطمئنان، وبهذا الاطمئنان، يتأثر نفسياً وعقلياً، حينما يقبل مروياً ويعنى به، أو يرفض مروياً حين لا يرتاح إليه .

وكذلك راج بين المتقدمين - كما لاحظته ابن خلدون في مقدمته - ما هم في شوق إليه وتعلق به، من أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، وتفصيل الأحداث الكبرى في تاريخ الإنسانية الأولى، نظراً لبدواتهم وأميتهم، وقلة المتداول بينهم منه، فكان من وراء ذلك كثرة الإسرائيليات، وليس من شك في أن هذا صورة عقلية، وطابع شخصى لهذا العصر الأول^(١)، كما أنه صورة عقلية، وطابع شخصى لكل من يقبل هذه الإسرائيليات، ويُفسر بعض آيات القرآن على ضوءها .

ثم إننا بعد هذا نلاحظ لوناً شخصياً آخر في التفسير النقلى، ذلك أن الشخص الذى يعرف قيمة الرجال، ويستطيع أن ينقد السند، ويعرف أسباب الضعف فى الرواية، نرى تفسيره يطبع بهذا الطابع الشخصى الخاص، فيتحرى الصحة فيما يرويه، فلا يدخل فى كتابه مروياً اعتراه الضعف أو تطرق إليه الخلل . أما الشخص الذى لا دراية له بأسباب الضعف فى الرواية، وليس عنده القدرة على نقد الرجال ونقد المروى عنهم فحاطب ليل، يجمع كل ما يُنقل له فى ذلك بدون أن يُفرق بين الصحيح وغيره .

وبعد ... أفلا ترى أنه حتى فى رواج التفسير النقلى وتداوله تكون شخصية المتعرض للتفسير هى الملوثة له، المروجة لصنف منه، أظن أن نعم .

● الضعف فى رواية التفسير المأثور وأسبابه :

علمنا مما تقدم أن التفسير المأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروى عن التابعين . أما تفسير القرآن بالقرآن . أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف فى قبوله، لأنه لا يتطرق إليه الضعف . ولا يجد الشك إليه سبيلاً .

وأما ما أضيف إلى النبي ﷺ وهو ضعيف في سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبي ﷺ.

وأما تفسير القرآن بما يروى عن الصحابة أو التابعين، فقد تسرّب إليه الخلل، وتطرّق إليه الضعف، إلى حد كاد يفقدنا الثقة بكل ما روى من ذلك، لولا أن قيض الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك، فسلمت لنا منه كمية لا يُستهان بها، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطاً في كثير من الكتب التي عني أصحابها بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروى من ذلك كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما - أكبر عامل في صرف همّة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح، حتى لقد نُقل عن الإمام الشافعي رضى الله عنه أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث»^(١). وهذا العدد الذي ذكره الشافعي، لا يكاد يُذكر بجوار ما روى عن ابن عباس من التفسير. وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير النقلى من الروايات المكذوبة المصنوعة.

● أسباب الضعف:

ونستطيع أن نُرجع أسباب الضعف في رواية التفسير المأثور إلى أمور ثلاثة:

أولها: كثرة الوضع في التفسير.

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

وأرى أن أعرض لكل سبب من هذه الأسباب الثلاثة المحملة بالإيضاح والتفصيل، حتى يتبين لنا مقدار ما كان لكل منها من الأثر في فقدان الثقة بكثير من الروايات المأثورة في التفسير.

أولاً: الوضع في التفسير

● نشأة الوضع في التفسير:

نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجاً لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد في الحديث: الصحيح والحسن والضعيف، وفي روايته من هو موثوق به، ومن هو مشكوك فيه، ومن عُرف بالوضع، نجد مثل ذلك فيما روى من التفسير، ومن روى من المفسرين.

وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون

سياسياً، وتفرَّقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور، ووُجِدَ من أهل البدع والأهواء مَنْ رُوِّجوا لبدعهم، وتعصَّبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام مَنْ تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم السيئة، ورغباتهم الخبيثة.

● أسبابه :

ويرجع الوضع في التفسير إلى أسباب متعددة: منها التعصب المذهبي، فإنَّ ما جَدَّ من افتراق الأمة إلى شيعة تطرَّفوا في حب عليٍّ، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العدا، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهنَّ شيء من ابتداع التشيع أو الخروج، جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيدها مذهبها بشيء من القرآن، فنسب الشيعة إلى النبي ﷺ، وإلى عليٍّ وغيره من أهل البيت - رضی الله عنهم - أقوالاً كثيرة في التفسير تشهد لمذهبهم. كما وضع الخوارج كثيراً من التفسير الذي يشهد لمذهبهم (١)، ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أصحابه، الترويج للمروى، والإمعان في التدليس، فإنَّ نسبة المروى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى أحد الصحابة، تورث المروى ثقة وقبولاً. لا يوجد شيء منهما عندما يُنسب المروى لغير النبي عليه الصلاة والسلام أو لغير صحابي.

كذلك نجد اللون السياسي في هذا العصر يترك له أثراً بيناً في وضع التفسير، ويلاحظ أن المروى عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وُضِعَ عليهما في التفسير أكثر مما وُضِعَ عليٍّ غيرهما، والسبب في ذلك أنَّ علياً وابن عباس رضي الله عنهما من بيت النبوة، فالوضع عليهما يُكسب الموضوع ثقة وقبولاً، وتقديساً ورواجاً، مما لا يكون لشيء مما يُنسب إلى غيرهما. وفوق هذا فقد كان لعليٍّ من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنون أنه يُعلَى من قدره، ويرفع من شأنه. وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوجد من الناس مَنْ تزلف إليهم، وتقرب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس، مما يدل على أن اللون السياسي كان له أثر ظاهر في وضع التفسير. كذلك نجد من أسباب الوضع في التفسير ما قصده أعداء الإسلام الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدس والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحُجَّة.

(١) وسيأتي شيء من ذلك عند الكلام عن تفسير الشيعة والخوارج.

● أثر الوضع في التفسير :

وكان من وراء هذه الكثرة التي دخلت في التفسير ودُست عليه، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذي خلفه لنا أعلام المفسرين من السلف، لأن ما أحاط به من شكوك، أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرُق إليها شيء من الضعف، وربما كانت صحيحة في ذاتها.

كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقيم منها، جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بين الصحيح والعليل، ينظر إلى جميع ما روي بعين واحدة، فيحكم على الجميع بالصحة، وربما وجد من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسر واحد فيتهمه بالتناقض في قوله، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة.

يقول الأستاذ «جولدزيهر» في كتابه «المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن» (ص ٧٨ - ٨٢) - ما نصه: «وإنه لما يلفت النظر في هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهي أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهي في نفسها تظهر في تضاد شديد بينها وبين بعضها، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق». ثم يسوق بعد ذلك مثلاً لهذا التضاد، فيذكر ما قام حول تعيين الذبيح من خلاف أسنده مثيروه إلى أقوال مأثورة عن السلف، ويذكر في ضمن كلامه: «أن كل فريق يعتمد في رأيه على إسناد متصل بابن عباس يدعم به رأيه، فالإسحاقيون عن عكرمة، والإسماعيليون عن الشعبي أو مجاهد، كل أولئك سمعوا ذلك عن ابن عباس، وكل ادعى بأن هذا هو رأيه في هذه المسألة...».

ثم يقول بعد كلام ساقه في هذا الموضوع: «ويمكن أن يرى من ذلك إلى أي حد يكون مقدار صحة الرأي المستند إلى ابن عباس، وإلى أي حد يمكن الاعتراف به. وما نعتبره بالنسبة له وللآراء المأثورة عنه، يمكن أن يُعتبر إلى أقصى حد بالنسبة للتفسير المأثور، فالأقوال المتناقضة يمكن أن ترجع دائماً إلى قائل واحد، معتمدة في الوقت نفسه على أسانيد مرضية موثوق بها...».

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما وقع فيه من اللعب والخداع: «ومن الملاحظات التي أبديناها، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة: وهي أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحدة تامة أو كياناً قائماً، فإنه قد تُروى عن الصحابة في تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة وفي أغلب الأحيان يناقض بعضها بعضاً من جهة، ومن جهة أخرى فقد تُنسب للصحابي الواحد في معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة، وبناء على ذلك، يُعتبر التفسير الذي يخالف بعضه بعضاً، والمناقض بعضه بعضاً، مساوياً للتفسير بالعلم».

هذا ما حكم به الأستاذ «جولدزيهر» على التفسير بالمأثور في كتابه، وكل ما قاله في هذا الموضوع لا يعدو أن يكون محاولات فاشلة يريد من ورائها أن يظهر أن ابن عباس خاصة، ومن تكلم في التفسير من الصحابة عامة، بمظهر الشخص الذي يناقض نفسه في الكلمة الواحدة أو الموضوع الواحد. كما يرمى من وراء ذلك إلى أن يصرف نظر المسلمين عن هذه الثروة الضخمة التي خلفها لهم السلف الصالح في التفسير، زعماً أن هذا التناقض الموجود بين الروايات، نتيجة لاختلاف وجهات النظر من شخص واحد أو أشخاص، وتفسير هذا شأنه نحن في حلٍّ من التزامه، لأنهم قالوا بعقولهم، ونحن مشتركون معهم في هذا القدر.

ونحن لا ننكر أن هناك اختلافاً بين السلف في التفسير، كما لا ننكر أن هناك اختلافاً بين قولين أو أقوال لشخص واحد منهم، ولكن هذا الاختلاف قلنا عنه فيما سبق مفصلاً: إن معظمه يرجع إلى اختلاف عبارة وتنوع، لا اختلاف تناقض وتضاد، فما كان من هذا القبيل، فالجمع بينه سهل ميسور، وما لم يمكن فيه الجمع، فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا في الصحة عنه، وإلا فالصحيح المقدم^(١).

أما إذا تعارضت أقوال جماعة من الصحابة وتعدّر الجمع أو الترجيح، قيّم ابن عباس على غيره، لأن النبي ﷺ بشره بذلك حيث قال: «اللهم علمه التأويل» وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لحديث: «أفرضكم زيد»^(٢).

وأما ما ساقه على سبيل المثال من اختلاف الرواية عن ابن عباس في تعيين الذبيح، فقد رجعت إلى ابن جرير في تفسيره، فوجدته قد ذكر عن ابن عباس هاتين الروايتين المختلفتين، وساق كل رواية منها بأسانيد تتصل إلى ابن عباس، بعضها يرفعه إلى الرسول ﷺ، وبعضها موقوف عليه.

وابن جرير - كما نعلم - لم يلتزم الصحة في كل ما يرويه، ولو أننا عرضنا هاتين الروايتين على قواعد المحدثين في نقد الرواية والترجيح، لتبين لنا بكل وضوح وجلاء، أن الرواية القائلة بأن الذبيح هو إسماعيل، أصح من غيرها وأرجح مما يخالفها، لأنها مؤيدة بأدلة كثيرة يطول ذكرها، وأيضاً فإن الرواية التي يذكرها ابن جرير عن ابن عباس مرفوعة إلى رسول الله ﷺ ومفيدة أن الذبيح هو إسحاق، في سندها الحسن بن دينار عن علي بن زيد، والحسن بن دينار متروك، وعلي بن زيد منكر الحديث، كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره^(٣).

(٣) الجزء الرابع ص ١٧.

(٢) الإتيان: ١٨٣/٢.

(١) الإتيان: ١٧٩/٢.

أما باقى الروايات الموقوفة على ابن عباس، والتي تفيد أن الذبيح هو إسحاق، فهى - وإن كانت صحيحة الأسانيد - محمولة على أن ما تضمنته من أن الذبيح هو إسحاق، كان رأى ابن عباس فى أول الأمر، لأنه سمع ذلك من بعض الصحابة الذين كانوا يحدثون فى مثل هذا بما سمعوه من كعب وغيره من مسلمى اليهود، ثم علم بعد: أن ذلك قول اليهود فرجع عنه وصرح بنقيضه، كما قال ابن جرير: «حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمر بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح، عن عبد الله ابن عباس أنه قال: المفدَى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود»^(١)، وهذا الأثر صحيح عن ابن عباس، إسناده على شرط الصحيح، وهو كما ترى صريح فى تكذيب اليهود فيما زعموه، وهو يقضى على كل أثر بخلافه، وبهذا الطريق تنتظم الآثار الواردة عن ابن عباس فى هذا الباب. قال ابن كثير فى تفسيره (ج ٤ ص ١٧) بعد ما ساق الروايات فى أن الذبيح هو إسحاق: «وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً، فرما استمع له عمر رضى الله عنه، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه، غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده».

وأما ما رمى إليه من جعل التفسير المأثور مساوياً للتفسير بالعلم، وادعاؤه أنه لا توجد له وحدة تامة أو كيان قائم، فهذا شطط منه فى الرأى، ولا يكاد يسلم له هذا المدعى، لأن المأثور الذى صح عن النبى ﷺ له مكانته وقيمته. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤] .. وأما ما صح عن الصحابة فغالبه مما تلقوه عن الرسول ﷺ، وقليل منه قالوه عن نظر منهم واجتهاد، وحتى هذا القليل - عند من لا يرى أن له حكم المرفوع - له أيضاً قيمته ومكانته، ولا يجوز العدول عنه إذا صح إلى غيره، لأنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح.

وبعد .. فهل يُعد التفسير المأثور مساوياً للتفسير بالعلم؟ اللهم إن هذا لا يقوله منصف.

● قيمة التفسير الموضوع :

ثم إن هذا التفسير الموضوع، لو نظرنا إليه من ناحيته الذاتية بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية، لأنه مهما كثر الوضع فى التفسير فإن الوضع ينصب على الرواية نفسها، أما التفسير فى حد ذاته فليس دائماً

أمراً خيالياً بعيداً عن الآية، وإنما هو - في كثير من الأحيان - نتيجة اجتهاد علمي له قيمته، فمثلاً مَنْ يضع في التفسير شيئاً وينسبه إلى عليّ أو إلى ابن عباس، لا يضعه على أنه مجرد قول يلقيه على عواهنه، وإنما هو رأى له، واجتهاد منه في تفسير الآية، بناء على تفكيره الشخصي، وكثيراً ما يكون صحيحاً، غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجاً وقبولاً، فنسبه إلى مَنْ نُسب إليه من الصحابة. ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى عليّ أو ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية غالباً، وإنما الشيء الذي لا قيمة له فيه هو نسبته إلى عليّ أو ابن عباس.

فالموضوع من التفسير - والحق يقال - لم يكن مجرد خيال أو وهم خُلق خلقاً، بل له أساس ما، يهم الناظر في التفسير درسه وبحثه، وله قيمته الذاتية وإن لم يكن له قيمته الإسنادية (١).

* * *

ثانياً : الإسرائيليات

● تمهيد :

● بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن :

لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أننا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودى واللون النصرانى للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ «الإسرائيليات»، من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى، فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثير النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

كان لليهود ثقافة دينية، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك، وكلتا الثقافتين كان لها أثر فى التفسير إلى حد ما.

أما اليهود، فإن ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة التى أشار إليها القرآن بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائد: ٤٤] ودل على بعض ما جاء فيها من أحكام بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].. وكثيراً ما يستعمل المسلمون واليهود أنفسهم لفظ «التوراة» ويطلقونه على كل الكتب المقدسة عند اليهود فيشمل الزبور وغيره. وتسمى التوراة بما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها: العهد القديم.

وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى بطريق الكتابة، وإنما تحمّلوها ونقلوها بطريق المشافهة. ثم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال، ثم دُوِّنت وعُرِفَت باسم التلمود، ووُجِدَ بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودى، والقصص، والتاريخ، والتشريع، والأساطير.

وأما النصرانى فكانت ثقافتهم تعتمد - فى الغالب الأهم - على الإنجيل، وقد أشار القرآن إلى أنه من كتب السماء التى نزلت على الرسل فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرِسَالِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧] وغير هذا كثير من آيات القرآن التى تشهد له بذلك.

والأناجيل المعتبرة عند النصارى يُطلق عليها وعلى ما انضم إليها من رسائل الرسل، اسم: العهد الجديد. والكتاب المقدس لدى النصارى يشمل: التوراة والإنجيل ويُطلق عليه: العهد القديم والعهد الجديد.

وكان طبيعياً أن يُشرح الإنجيل بشروح مختلفة، كانت فيما بعد منبعاً من منابع الثقافة النصرانية، كما وُجدَ بجوار ذلك ما زاده النصارى من القصص، والأخبار، والتعاليم، التي زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام، وهذا كله كان من ينابيع هذه الثقافة النصرانية.

إذن.. فقد كانت التوراة المصدر الأول لثقافة اليهود الدينية، كما كان الإنجيل المصدر الأهم لثقافة النصارى الدينية.

وإذا نحن أجلنا النظر في التوراة والإنجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام، وذلك على اختلاف في الإجمال والتفصيل، فالقرآن إذاً عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلاً - فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة أو الإنجيل، فتراه يقتصر على موضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فلا يذكر تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها، كما أنه لا يذكر في الغالب أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث. ويدخل في تفاصيل الجزئيات، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع، وما يتعلق بموضع العبرة.

وإذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التي اتفق في ذكرها القرآن والتوراة، أو القرآن والإنجيل، ثم أخذنا موضوعاً منها، وقارنا بين ما جاء في الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهراً جلياً.

فمثلاً قصة آدم عليه السلام، ورد ذكرها في التوراة، كما وردت في القرآن في مواضع كثيرة، أطولها ما ورد في سورة البقرة، وما ورد في سورة الأعراف. وبالنظر في هذه الآيات من السورتين، نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة، ولا لنوع الشجرة التي نهى آدم وزوجه عن الأكل منها، ولا بين الحيوان الذي تقمصه الشيطان فدخل الجنة ليزل آدم وزوجه. كما لم يتعرض للبقعة التي هبط إليها آدم وزوجه وأقام بها بعد خروجهما من الجنة... إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح.

ولكن نظرة واحدة يجيلها الإنسان في التوراة يجد بعدها أنها قد تعرضت لكل ذلك وأكثر منه. فأبانت أن الجنة في عدن شرقاً، وأن الشجرة التي نهى عنها كانت في وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأنها شجرة معرفة الخير والشر، وأن الذي خاطب حواء هو الحية، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي تقمصها إبليس، بأن جعلها تسعى

على بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حبلها... إلى آخر ما ذُكر فيها مما يتعلق بهذه القصة (١).

ومثلاً نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت في الإنجيل، فمن ذلك قصة عيسى ومريم، ومعجزات عيسى عليه السلام، كل ذلك جاء به القرآن في أسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة ومكان العبرة، فلم يتعرض القرآن لنسب عيسى مفصلاً، ولا لكيفية ولادته، ولا للمكان الذي وُلد فيه، ولا لذكر الشخص الذي قُذفت به مريم، كما لم يتعرض لنوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء، ولا لحوادث جزئية من إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياء الموتى..

مع أننا لو نظرنا في الإنجيل لوجدناه قد تعرض لنسب عيسى، ولكيفية ولادة مريم له، ولذكر الشخص الذي قُذفت به مريم (٢)، ولنوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء (٣) ولحوادث جزئية من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى (٤)، ولكثير من مثل هذا التفصيل الموسع الذي أعرض عنه القرآن فلم يذكره لنا.

وبعد... فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز في كتابهم، ويجدون بجانب ذلك تفصيلاً لهذا الإيجاز في كتب الديانات الأخرى، ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارح لهذا الإيجاز وموضح لما فيه من غموض؟.. هذا ما نريد أن نعرض له في هذا البحث، ليتبين لنا كيف دخلت الإسرائيليات في التفسير، وكيف تطور هذا الدخول، وإلى أي حد تأثر التفسير بالتعاليم اليهودية والنصرانية.

● مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير وتطوره :

نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات في التفسير، أمر يرجع إلى عهد الصحابة رضی الله عنهم، وذلك نظراً لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل كما تقدم، مع فارق واحد، هو الإيجاز في القرآن، والبسط والإطناب في التوراة والإنجيل. وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مرَّ على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الديني.

غير أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - لم يسألوا أهل الكتاب عن كل

(١) العهد القديم: الإصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤ - ٥.

(٢) العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح الأول ص ١.

(٣) العهد الجديد، إنجيل مرقس، الإصحاح الثاني ص ٤٧.

(٤) إنجيل متى ص ٨، ١٠، ٤٠.

شئ، ولم يقبلوا منهم كل شئ، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحاً للقصة وبياناً لما أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يلقي إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [المائدة: ٥٩]» (١).

كما أنهم لم يسألوه عن شئ مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن. كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب، لأنه إذا ثبت الشئ عن الرسول ﷺ فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعاً من اللهو والعبث، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ومقدار سفينة نوح، ونوع خشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر. وغير ذلك، ولهذا قال الدهلوي بعد أن بين أن السؤال عن مثل هذا تكلف ما لا يعنى: «وكانت الصحابة رضى الله عنهم يعدون مثل ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات» (٢).

كذلك كان الصحابة لا يُصَدِّقون اليهود فيما يخالف الشريعة أو يتنافى مع العقيدة. بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا إذا سألوا أهل الكتاب عن شئ فأجابوا عنه خطأ، ردوا عليهم خطأهم. وبينوا لهم وجه الصواب فيه، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه». وأشار بيده يقللها (٣).

فقد اختلف السلف في تعيين هذه الساعة، وهل هى باقية أو رُفِعَتْ؟ وإذا كانت باقية، فهل هى فى جمعة واحدة من السنة أو فى كل جمعة منها؟ فنجد أبى هريرة رضى الله عنه يسأل كعب الأحماس عن ذلك، فيجيبه كعب: بأنها فى جمعة واحدة من السنة، فيرد عليه أبو هريرة قوله هذا ويبين له: أنها فى كل جمعة، فيرجع كعب إلى التوراة، فيرى الصواب مع أبى هريرة فيرجع إليه (٤).

كما نجد أبى هريرة أيضاً يسأل عبد الله بن سلام عن تحديد هذه الساعة ويقول له: أخبرنى ولا تضن على، فيجيبه عبد الله بن سلام بأنها آخر ساعة فى يوم الجمعة، فيرد

(١) البخارى فى كتاب التفسير: ١٢٠/٨. من فتح البارى.

(٢) الفوز الكبير فى أصول التفسير ص ٣٥. (٣) البخارى فى باب الجمعة: ١٣/٢.

(٤) القسطلانى فى شرحه للحديث السابق: ١٩٠/٢.

عليه أبو هريرة بقوله: كيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يُصَلِّي» وتلك الساعة لا يُصَلِّي فيها؟، فيجيبه عبد الله ابن سلام بقوله: ألم يقل رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ حَتَّى يُصَلِّيَ»؟... الحديث (١).

فمثل هذه المراجعة التي كانت بين أبي هريرة وكعب تارة، وبينه وبين ابن سلام تارة أخرى، تدلنا على أن الصحابة كانوا لا يقبلون كل ما يقال لهم، بل كانوا يتحرون الصواب ما استطاعوا، ويردُّون على أهل الكتاب أقوالهم إن كانت لا توافق وجه الصواب.

ومهما يكن من شيء فإن الصحابة - رضی الله عنهم - لم يخرجوا عن دائرة الجواز التي حدَّها لهم رسول الله ﷺ وعمَّا فهموه من الإباحة في قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (٢).

كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبُوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا.. الآية» (٣) ولا تعارض بين هذين الحديثين، لأن الأول أباح لهم أن يُحدِّثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوباً، لأن الرسول ﷺ لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٤) عند شرحه لهذا الحديث: «وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم. وهو نظير قوله: «إذا حدِّثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبُوهم»، ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه».

وأما الحديث الثاني، فيراد منه التوقف فيما يُحدِّث به أهل الكتاب، مما يكون محتملاً للصدق والكذب، لأنه ربما كان صدقاً فيُكذِّبونه، أو كذباً فيُصدِّقونه، فيقعون بذلك في الحرج. أما ما خالف شرعنا فنحن في حلٍّ من تكذيبه، وأما ما وافقه فنحن في حلٍّ من تصديقه.

(١) المرجع السابق، وسؤال أبي هريرة لابن سلام، عند مالك، وأبي داود، والترمذي.

(٢) البخارى: ٦/٣٢٩ من فتح البارى.

(٣) البخارى في باب التفسير: ٨/١٣٠ من فتح البارى.

(٤) الجزء السادس ص ٣٢٠.

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: «لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبُوهم»: «أى: إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه، فتقعوا فى الحرج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه. نَبَّه على ذلك الشافعى رحمه الله...»

ثم قال: «وعلى هذا نحمل ما جاء عن السلف من ذلك»^(١).

وأما ما أخرجه الإمام أحمد، وابن أبى شيبه، والبخاري، من حديث جابر بن عبد الله: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب فقال: «أمتهم كون»^(٢) فيها يابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده، لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى»^(٣) فلا يعارض ما قلناه من الجواز، لأن النهى الوارد هنا كان فى مبدأ الإسلام وقبل استقرار الأحكام. والإباحة بعد أن عرفت الأحكام واستقرت، وذهب خوف الاختلاط.. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح^(٤): «وكان النهى وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية خشية الفتنة، فلما زال المحذور وقع الإذن فى ذلك، لما فى سماع الأخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار».

ويمكن أن ندفع ما يُتوهم من التعارض بما نقله ابن بطال عن المهلب أنه قال: «هذا النهى إنما هو فى سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، ولا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة»^(٥).

ومن هذا كله يتبين لنا: أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث الثلاثة، كما يتبين لنا المقدار الذى أباحه الشارع من الرواية عن أهل الكتاب.

ولسنا بعد ما فهمناه من هذه الأحاديث، وما عرفناه من حرص الصحابة على امتثال ما أمرهم به الرسول ﷺ، نستطيع أن نقر الأستاذ «جولدزيهر» والأستاذ أحمد أمين على هذا الاتهام الذى وجهاه إلى ابن عباس خاصة، وإلى الصحابة عامة، من رجوعهم إلى أهل الكتاب فى كل شئ، وقبولهم لما نهى الرسول عن أخذه من أهل الكتاب، وقد ذكرنا كلامهما ورددنا عليه عند الكلام عن ابن عباس، كما ذكرنا الأثر الذى

(١) فتح البارى: ١٢٠/٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣٨٧/٣.

(٣) فتح البارى: ٢٥٩/١٣.

(٤) المتهوك: المتحير.

(٥) الجزء السادس ص ٣٢٠.

أخرجه البخارى عن ابن عباس، وفيه يُشدد - رضى الله عنه - النكير على من يأخذون من أهل الكتاب ويصدقونهم فى كل شىء، فهل يُعقل بعد هذا، وبعد ما عرفناه من عدالة الصحابة وحرصهم على امتثال أوامر الله ورسوله، ومراجعة أبى هريرة لكعب الأخبار وعبد الله بن سلام، أن نعترف بتهاون الصحابة ومخالفتهم لتعاليم رسول الله ﷺ !!؟ اللهم إنا لا نقر ذلك ولا نرضاه .

وأما ما ذكره الأستاذ «جولدزيهر»: من أن ابن عباس كان يرجع لرجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدي فى تفسير القرآن^(١)، فعلى فرض صحة ذلك. فإننا لا نكاد نُصدق أن ابن عباس كان يرجع إليه فى كل شىء، بل كان يرجع إليه فيسأله عن أشياء لا تعدو دائرة الجواز، وليس من شك فى ذلك بعد ما عرفت من شدة نكير ابن عباس على من كان يرجع لأهل الكتاب ويأخذ عنهم .

وأما ما اعتمد عليه هذا المستشرق فى دعواه هذه، من أن الطبرى عند تفسيره للفظ «البرق» فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] .. نسب إلى ابن عباس أنه قال: إن أبا الجلد يقول: إن معناه المطر^(٢) فهو اعتماد لا يكاد ينهض بهذه الدعوى، لأن ما رواه ابن جرير رواه عن المثنى، قال: حدثنا حجاج، قال: حدثنا حماد، قال: أخبرنا موسى بن سالم أبو جهضم مولى ابن عباس قال: كتب ابن عباس إلى أبى الجلد يسأله عن البرق فقال: البرق: الماء^(٣) وهذا إسناد منقطع، لأن موسى بن سالم أبا جهضم لم يدرك ابن عباس، ولم يكن مولى له، وإنما كان مولى العباسيين، وروى عن أبى جعفر الباقر الذى كان بعد ابن عباس بمدة طويلة^(٤) ولعل ما قاله ابن جرير من أنه مولى ابن عباس سهو منه، أو لعله خطأ وقع أثناء الطبع.

ثم إن سؤال ابن عباس عن معنى البرق، ليس سؤالاً عن أمر يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، وإنما هو سؤال يرجع إلى تعرف بعض ظواهر الكون الطبيعية، وليس فى هذا ما يجبر إلى مخالفة الرسول ﷺ فى نهيه عن سؤال أهل الكتاب. على أن الحديث ليس فيه ما يدل على أن ابن عباس صدق أبا الجلد فيما قال، وكل ما فيه: أنه حكى قوله فى البرق .

وأما ما نسب لعبد الله بن عمرو بن العاص من أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يُحدّث منهما، فليس على إطلاقه، بل كان يُحدّث منهما فى

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ .

(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ (هامش) .

(٣) تفسير ابن جرير: ٨٢/١٢ .

(٤) انظر خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٣٤، وميزان الاعتدال: ٢١٠/٣ .

حدود ما فهمه من الإذن في قوله ﷺ: « حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ » كما نص على ذلك ابن تيمية (١).

هذا هو مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم. أما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فظهرت في هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة في التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى، فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء: مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) الذي نسبه أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم (٢)، بل ونجد بعض المفسرين في هذا العصر - عصر التابعين - يصل بهم الأمر إلى أن يصلوا بين القرآن وما يتعلق بالإسلام في مستقبله، فيشرحوا القرآن بما يشبه التكهّن عن المستقبل، والتنبؤ بما يطويه الغيب، فهذا مقاتل بن سليمان، كان يرى أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٨] يرجع إلى فتح القسطنطينية، وتدمير الأندلس وغيرها من البلاد، فقد جاء عنه أنه قال: وجدت في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: « أما مكة فتخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فهلاكها ضروب.. ثم ذكر بلدا بلدا (٣). وروى عن وهب بن منبه: أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر، ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة، فإذا كانت الملحمة الكبرى، فتحت قسطنطينية على يد رجل من بني هاشم، وخراب الأندلس من قبل الزنج، وخراب إفريقية من قبل الأندلس، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها، وخراب العراق من الجوع. وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم من الشراب من الفرات، وخراب البصرة من قبل الغراق (الغرق) ، وخراب الأيلة من عدو يحصرهم برا وبحرا، وخراب الرى من الديلم، وخراب خراسان من قبل التبت، وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان، وخراب مكة من قبل الحبشة، وخراب المدينة من قبل الجوع (٤).

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات، وأفرط في الأخذ منها إلى

(١) مقدمته في أصول التفسير ص ٢٦ . (٢) وفيات الأعيان: ٢ / ٥٦٨ .

(٤) المرجع السابق .

(٣) تفسير الألوسي: ٢ / ٩٣ .

درجة جعلتهم لا يردون قولاً. ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره العقل!! واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات، والولع بنقل هذه الأخبار التي أصبح الكثير منها نوعاً من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي، الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها.

● مقالة ابن خلدون في الإسرائيليات:

ونرى بعد هذا أن نذكر عبارة ابن خلدون في مقدمته، ليتبين لنا أسباب الاستكثار من هذه المرويات الإسرائيلية، وكيف تسربت إلى المسلمين، فإنه خير من كتب في هذا الموضوع، وإليك نص عبارته:

قال رحمه الله: «... وقد جمع المتقدمون في ذلك - يعنى التفسير النقلى - وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم. وإنما غلبت عليهم البداءة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من «حمير» الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحداث والملاحم، وأمثال ذلك وهؤلاء مثل: كعب الأخبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتألت التفاسير من المنقولات عنهم، وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل، وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملاؤا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها - كما قلنا - عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ...»^(١)

ومن هذا يتضح لنا أن ابن خلدون أرجع الأمر إلى اعتبارات اجتماعية وأخرى دينية، فعد من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداءة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تشوق إليه النفوس البشرية، من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، وهم إنما يسألون في ذلك أهل الكتاب قبلهم.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

وعد من الاعتبارات الدينية التي سوغت لهم تلقي الرويات فى تساهل وعدم تحرر للصحة « أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتنحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل ».

وسواء أكانت هذه هى كل الأسباب أم كانت هناك أسباب أخرى، فإن كثيرا من كتب التفسير قد اتسع لما قيل من ذلك وأكثر، حتى أصبح ما فيها مزيجا متنوعا من مخلفات الأديان المختلفة، والمذاهب المتباينة.

● أثر الإسرائيليات فى التفسير :

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سئ فى التفسير، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئا مما جاء فيها، لاعتقاده أن الكل من واد واحد. وفى الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لا تكاد يصح شئ منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة. وسوف نعرض لهذا فيما بعد، ونرد عليه إن شاء الله تعالى.

● قيمة ما يروى من الإسرائيليات :

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، وهى ما يأتى :

القسم الأول : ما يعلم صحته بأن نقل عن النبي ﷺ نقلا صحيحا وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحا على لسان رسول الله ﷺ كما عند البخارى (١) أو كان له شاهد من الشرع يؤيده. وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثانى : ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته، لما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم: « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا... » الآية.

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافا كثيرا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت، وأسماء الطيور التى أحيهاها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى.. إلى غير ذلك مما أبهمه الله فى القرآن ولا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم.

ثم إذا جاء شئ من هذا القبيل - أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده - عن أحد من الصحابة^(١) بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يقبل ولا يرد، لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهى رسول الله ﷺ عن تصديقهم. وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله، لأن احتمال أن يكون الصحابى قد سمعه من النبى ﷺ أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، ولا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم.

أما إن جاء شئ من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا بكذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب، لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله ﷺ وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه. فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعا من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به. والله أعلم.^(٢)

● موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات :

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت فى ديننا واستفحل خطرهما، كما علمنا أن قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» قاعدة مقررة لا يصح العدول عنها بأى حال من الأحوال، وبعد هذا وذاك نقول: إنه يجب على المفسر أن يكون يقظا إلى أبعد حدود اليقظة، ناقدًا إلى نهاية ما يصل إليه النقد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان فى سنة نبينا ﷺ بيان لمجمل القرآن، فمثلا حيث وجد لقوله

(١) ومرادنا من الصحابى، الصحابى الذى لم يكن قبل إسلامه من أهل الكتاب.

(٢) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ١٣ - ١٤ وص ٢٦ - ٢٧.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] مجمل في السنة النبوية الصحيحة وهو قصة ترك «إن شاء الله» والمؤاخذة عليه^(١) فلا يرتكب قصة صخر المارد^(٢).

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدر بقدر الحاجة، فلا يذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال، ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكف اللسان عن الزيادة.

نعم.. إذا اختلف المتقدمون فى شئ من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعاً، على أن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وليس

(١) القصة عند البخارى فى باب الجهاد (٢٢/٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة - أو تسع وتسعين - كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله فلم يقل: إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون.

(٢) هذه القصة رواها ابن جرير فى تفسيره عن قتادة ونصها: أن سليمان أمر ببناء بيت المقدس فقيل له: ابنه ولا يُسمع فيه صوت حديد، قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل له: إن شيطاناً فى البحر يقال له صخر شبه المارد قال: فطلبه وكانت عين فى البحر يردّها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها، وجعل فيها خمر، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلاً، قال: ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً، ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً، قال: ثم شربها حتى غلبت على عقله قال: فأرى الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذل، قال: فكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد، قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يري بيضه ولا يقدر عليه، فجاء بالماس فوضعه عليه فقطعهما به حتى أفضى إلى بيضه، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخله بخاتمه، فانطلق يوماً إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه، قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه فى البحر فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان، قال: فجاء فقعده على كرسيه وسريه وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه، قال: فجعل يقضي بينهم وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: لقد فتن نبي الله، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال: والله لأجرنه، قال: فقال له: يا نبي الله - وهو لا يري إلا أنه نبي الله - أهدنا نصيبه الجنابه فى الليلة الباردة فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس، أتري عليه بأساً قال: لا فبينا هو كذلك أربعين ليلة، حتى وجد نبي الله خاتمه فى بطن سمكة فأقبل. فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: هو الشيطان صخر» (الجزء ٢٣ ص ١٠١).

له أن يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، لأن مثل هذا العمل يعد ناقصا لا فائدة فيه ما دام قد خلط الصحيح بالعليل، ووضع أمام القارئ من الأقوال المختلفة ما يسبب له الحيرة والاضطراب.

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفا عن القرآن، وشاغلا عن التدبر في حكمه وأحكامه، وبدهى أن هذا أحكم وأسلم.

هذا ... وقد يشير إلى ما قلناه من جواز نقل الخلاف عن المتقدمين على شريطة استيفاء الأقوال وتزييف الزائف منها وتصحيح الصحيح، وأن من الخير أن يمسك الإنسان عن الخوض فيما لا طائل تحته، وما جاء في هذه الآية: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].. فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - كما يقول ابن تيمية - على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغى في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الإطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ .. فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ .. أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب» (١).

● أقطاب الروايات الإسرائيلية:

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور. فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يرى فيها من إسرائيلييات، يكاد يدور على أربعة أشخاص، هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج .. وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس في الحكم عليهم والثقة بهم، فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت في الرواية ولهذا أرى أن أعرض لكل فرد منهم، لأكشف عن قيمته في باب الرواية، وبخاصة ما يرجع من ذلك إلى ناحية التفسير، لنرى أى الفريقين أصدق في حكمه، وأدق في نقده.

١ - عبد الله بن سلام

● ترجمته:

هو أبو يوسف، عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري، حليف بني عوف من

الخرزج، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة. ويحدثنا البخارى عن قصة إسلامه فيقول فى ضمن حديث ساقه فى باب الهجرة: «... فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنت جئت بحق، وقد علمت اليهود أنى سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى، فأرسل نبي الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا، وأنى جئتكم بحق فأسلموا» قالوا: ما نعلمه، قالوا: للنبي ﷺ قالها ثلاث مرات، قال: «فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام» قالوا: ذلك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أفأريتم إن أسلم»؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال: «أفأريتم إن أسلم» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: «أفأريتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم قال: «يا بن سلام.. اخرج عليهم»، فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ (١).

قيل: وكان اسمه الحصين، فسماه النبي ﷺ «عبد الله» وشهد له بالجنة. ونجد البخارى رضى الله عنه - عند الكلام عن مناقب الأنصار - يفرد لعبد الله بن سلام بابا مستقلا فى مناقبه، فروى فيما روى من ذلك بإسناده إلى سعد بن أبى وقاص أنه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشى علي الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وقال: فيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأحقاف: ١٠] (٢).

ومما يذكر عنه رحمه الله: أنه وقف خطيبا فى المتألمين على عثمان رضى الله عنه يدافع عنه، ويخذل الثائرين، فقد روى عبد الملك بن عمير عن ابن أخى عبد الله بن سلام، قال: «لما أريد قتل عثمان رضى الله عنه، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت فى نصرك، قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عنى فإنك خارج خير لي منك داخل، فخرج عبد الله إلى الناس فقال: يا أيها الناس، إنه كان اسمى فى الجاهلية فلانا، فسمانى رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت فى آيات من كتاب الله عز وجل ونزل فى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلِيٍّ مِثْلَهُ قَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾.. ونزل فى ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].. إن لله سيفا مغمودا، وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله ﷺ فالله الله فى هذا الرجل أن تقتلوه، فوالله لئن قتلتموه لتطردن جيرانكم من الملائكة وليسلن سيف الله المغمود فيكم فلا يغمد إلى يوم القيامة. قالوا: اقتلوا اليهودى.. وقتلوا عثمان..»

(٢) البخارى: ٥/٣٧.

(١) البخارى فى باب الهجرة: ٥/٦٣.

روى عن النبي ﷺ، وروى عنه ابنه: يوسف ومحمد، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، وأبو بردة بن أبي موسى. وعطاء بن يسار، وغيرهم وشهد مع عمر رضى الله عنه فتح بيت المقدس والجابية. ومات بالمدينة سنة ٤٣ هـ (ثلاث وأربعين من الهجرة) وقيل: غير ذلك. وقد عده بعضهم فى البدرين، أما ابن سعد فذكره فى الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق وما بعده.

● مبلغه من العلم والعدالة:

أما مبلغه من العلم فيكفى ما جاء فى حديث البخارى السابق من إخباره عن نفسه: أنه أعلم اليهود وابن أعلمهم، وإقرار اليهود بين يدي رسول الله ﷺ بذلك. والحق أنه اشتهر بين الصحابة بالعلم، حتى لقد روى أنه لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، فقال: أجلسونى... قال: إن العلم والإيمان عند أربعة رهط: عند عويمر أبى الدرداء، وعند سلمان الفارسى، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله ابن سلام الذى كان يهوديا فأسلم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عاشر عشرة فى الجنة».

وليس عجيبا أن يكون عبد الله بن سلام فى هذه المكانة العالية من العلم بعد أن اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن وبعد أن امتزجت فيه الثقافتان اليهودية، والإسلامية، ولقد نقل عنه المسلمون كثيرا مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها، ونجد ابن جرير والطبرى ينسب إليه فى تاريخه كثيرا من الأقوال فى المسائل التاريخية الدينية، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية، يرويها كثير من المفسرين فى كتبهم.

ونحن أمام ما يروى عنه من ذلك لا نزيّف كل ما قيل، ولا نقبل كل ما قيل، بل علينا أن نعرض كل ما يروى عنه على مقياس الصحة المعتبر فى باب الرواية، فما صح قبلناه، وما لم يصح رفضناه.

هذا... وإنا لا نستطيع أن نتهم الرجل فى علمه، ولا فى ثقته وعدالته، بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وأعلمهم، وبعد ما جاء فيه من آيات القرآن، وبعد أن اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التى بين أيدينا من طعن عليه فى علمه، أو نسب إليه من التهم مثل ما نسب إلى كعب الأخبار ووهب بن منبه.^(١)

٢ - كعب الأخبار

● ترجمته:

هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميرى، المعروف بكعب الأخبار، من آل ذى رعين، وقيل: من ذى الكلاع، وأصله من يهود اليمن، ويقال: إنه أدرك الجاهلية وأسلم فى خلافة أبى بكر، وقيل: فى خلافة عمر، وقيل: إنه أسلم فى عهد النبي ﷺ وتأخرت هجرته، وقال ابن حجر فى الفتح: إن إسلامه فى خلافة عمر أشهر، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة، وغزا

(١) انظر تهذيب التهذيب: ٥/٢٤٩، وأسد الغابة: ٣/١٧٦-١٧٧.

الروم في خلافة عمر، ثم تحول في خلافة عثمان إلى الشام فسكنها إلى أن مات بحمص سنة ٣٢ هـ (اثنين وثلاثين من الهجرة) على أرجح الأقوال في ذلك. وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام وقال: كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة، ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفي بها سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان، وقد بلغ مائة وأربعين سنة. وقال أبو مسهر: والذي حدثني به غير واحد: أنه كان مسكنه اليمن، فقدم على أبي بكر، ثم أتى الشام فمات به. روى عن رسول الله ﷺ مرسلًا، وعن عمر وصهيب، وعائشة، وروى عنه معاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم.

● مبلغه من العلم:

كان كعب بن ماعة علي مبلغ عظيم من العلم، ولهذا كان يقال له: «كعب الخبر»، «وكعب الأحبار»، ولقد نقل عنه في التفسير وغيره ما يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية، ولم يؤثر عنه أنه ألف كما ألف وهب بن منبه، بل كانت تعاليمه كلها - على ما يظهر لنا وما وصل إلينا - شفوية تناقلها عنه أصحابه ومن أخذوا عنه، وقد جاء في الطبقات الكبرى حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن قيس جالس إلي كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ^(١) وهذا يدلنا على أن كعبا كان لا يزال بعد إسلامه يرجع إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية. وقال ابن سعد: قالوا: ذكر أبو الدرداء كعبا فقال: إن عند ابن الحميري لعلمًا كثيرًا. وروى معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير أنه قال: قال معاوية: ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء ألا إن عمرو بن العاص أحد الحكماء ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء، أن كان عنده علم كالثمار وإن كنا لمفرطين. وفي تاريخ محمد بن عثمان بن أبي شيبة، من طريق ابن أبي ذئب، أن عبد الله بن الزبير قال: ما أصبت في سلطاني شيئًا إلا قد أخبرني به كعب قبل أن يقع.^(٢)

● ثقته وعدالته:

أما ثقته وعدالته فهذا أمر نقول به، ولا نستطيع أن نطعن عليه كما طعن بعض الناس، فابن عباس على جلالته قدره، وأبو هريرة على مبلغ علمه، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويزوون له، ونرى الإمام مسلما يخرج له في صحيحه، فقد وقعت الرواية عنه في مواضع من صحيحه في أواخر كتاب الإيمان، كما نرى أبا داود والترمذي والنسائي يخرجون له، وهذا دليل على أن كعبا كان ثقة عند هؤلاء جميعا، وتلك شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الخبر الجليل.

(١) فجر الإسلام ص ١٩٨ نقلا من طبقات ابن سعد: ٧٩/٧ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب: ٤٣٨/٨ - ٤٤٠ .

● اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب :

ولكننا نجد الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - يحاول أن يغض من ثقة كعب وعدالته، بل ودينه، فنراه يوجه إليه من التهم ما نعيذ كعبا من أن يلحقه شيء منها، وذلك حيث يقول: « وقد لاحظ بعض الباحثين، أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووي لا يروى عنه أبدا، وابن جرير الطبري يروى عنه قليلا، ولكن غيرهم كالثعلبي، والكسائي ينقل عنه كثيرا في قصص الأنبياء، كقصة يوسف، والوليد بن الريان، وأشبه ذلك، ويروى ابن جرير أنه جاء إلي عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له: اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل.. في التوراة قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة: قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك. »

ثم قال الأستاذ أحمد أمين: « وهذه القصة إن صحت دلت علي وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل. »

ثم قال: « وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم - يريد كعبا ووهبا وغيرهما من أهل الكتاب - في عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح » (١)

● تفنيده هذا الاتهام :

ونحن مع الأستاذ في قوله: « وهذه القصة، إن صحت دلت علي وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية » ولكن لسنا نعتقد صحة هذه الصفة، ورواية ابن جرير لها لا تدل علي صحتها، لأن ابن جرير - كما هو معروف عنه - لم يلتزم الصحة في كل ما يرويه، والذي ينظر في تفسيره يجد فيه مما لا يصح شيئا كثيرا كما أن ما يرويه في تاريخه لا يعدو أن يكون من قبيل الأخبار التي تحتل الصدق والكذب، ولم يقل أحد بأن كل ما يذكر في كتب التاريخ ثابت صحيح.

ثم إن ما يُعرف عن كعب الأخبار من دينه، وخلقه، وأمانته، وتوثيق أكثر أصحاب الصحاح له، يجعلنا نحكم بأن هذه القصة موضوعة عليه، ونحن ننزه كعبا عن أن يكون على علم بمكيدة قتل عمر وما دُبر من أمرها ثم لا يذكر لعمر من يُدبر له القتل ويكيد له، كما ننزهه عن أن يكون كذابا وضاعا، يحتال على تأكيد ما يخبر به بنسبته إلى التوراة وصوغه في قالب إسرائيلي.

وأما قوله: « وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم

وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح» فإن أراد أن يرجع ذنب هذا الأثر السيئ إلي كعب وأضرابه فنحن لا نوافق عليه ، لأن ما يرويه كعب وغيره من أهل الكتاب لم يسندوه إلى رسول الله ﷺ ، ولم يكذبوا فيه علي أحد من المسلمين ، وإنما كانوا يروونه علي أنه من الإسرائيليات الموجودة في كتبهم ، ولسنا مكلفين بتصديق شئ من ذلك ، ولا مطالبين بالإيمان به ، بعد ما قال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » .

وإذا كانت هذه الإسرائيليات المروية عن كعب وغيره ، قد أثرت في عقيدة المسلمين وعلمهم أثرا غير صالح ، فليس ذنب هذا راجعا إلى كعب وأضرابه ، لأنهم روه علي أنه مما في كتبهم ، ولم يشرحوا به القرآن - اللهم إلا ما يتفق من هذا مع القرآن ويشهد له - ثم جاء من بعدهم فحاولوا أن يشرحوا القرآن بهذه الإسرائيليات فربطوا بينها وبينه علي ما بينهما من بعد شاسع ، بل وزادوا علي ذلك ما نسجوه من قصص خرافية ، نسبوها لهؤلاء الأعلام ، ترويجا لها وتمويها علي العامة .

فالذنب إذن ذنب المتأخرين الذين ربطوا هذه الإسرائيليات بالقرآن وشرحوه علي ضوئها ، واخترعوا من الأساطير ما نسبوه زورا وبهتانا إلى هؤلاء الأعلام وهم منه براء .

● اتهام الشيخ رشيد رضا لكعب :

كذلك نجد السيد محمد رشيد رضا - رحمه الله - في مقدمة تفسيره بعد أن ذكر كلاما لابن تيمية في شأن ما يروي من الإسرائيليات عن كعب ووهب يقول ما نصه : « فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق - يريد ابن تيمية - جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات . وهذا في غير ما يقوم الدليل علي بطلانه في نفسه ، وصرح في هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه ، مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما ، فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهم إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شئ منه ولا حوت حوله » (١)

● تفنيذ هذا الاتهام :

ونحن لا ننكر ما ذهب إليه ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير التي اعتمد عليها الشيخ فيما نقل عنه ، ولكن ننكر علي الشيخ فهمه لعبارة ابن تيمية ، وذلك أنه ادعي أن ابن تيمية جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات ، وهذا في غير ما يقوم الدليل علي بطلانه في نفسه - يعني أنه لا يتوقف فيه بل يرفض رفضا باتا .

وعبارة ابن تيمية التي ذكرها الشيخ لا تفيد ذلك الذي قاله وإنما تفيد أن ما جاء

عن رواية الإسرائيليات يتوقف فيه إذا كان مما هو مسكوت عنه في شرعنا ولم يقيم دليل علي بطلانه، أما ما روى عنهم موافقا لما جاء في شرعنا فهذا صحيح مقبول بدون توقف، كما نص عليه ابن تيمية (في ص ٢٦، ٢٧) من مقدمة في أصول التفسير، وهو عين ما عناه بعبارته الموجودة (في ص ١٣، ١٤)، وهي التي اعتمد عليها السيد محمد رشيد في طعنه علي كعب وغيره.

كما أننا لا نقر الشيخ على هذا الاتهام البليغ لكعب ووهب، ولا على رميهما بالكذب، ولا على ادعاء عزوهمما إلى التوراة وغيرها ما ليس فيها، كما أننا لا نقره على اتهامه لعلماء الجرح والتعديل الذين طهروا لنا السنة، وأزاحوا عنها ما لصق بها من الموضوعات، وبينوا لنا الصحيح والعليل منها والعدل والمجروح من رواتها، حيث رماهم بالغفلة والاعتراض، وهم أهل هذا الفن الذي لا يصلح له إلا قليل من الناس، ولا ندرى ما هذا الكذب الذي تبين له من كعب ووهب وخفى على ابن تيمية وهو من نعلم علما ومعرفة، وليت الشيخ - رحمه الله - بين لنا ما يستند إليه في دعواه، ولا أظن إلا أنه استند إلى ما جاء عن معاوية رضى الله عنه عند البخاري في شأن كعب، وهذا نصه كما في صحيح البخاري.

قال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأخبار، فقال: «إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب». (١)

نعم أظن أن الشيخ - رحمه الله - اتهم كعباً وأضرابه بالكذب استناداً لهذا الأثر المروي عن معاوية، والذي رجح لدى هذا الظن ما قاله الشيخ بعد كلامه السابق بقليل: «وقد علم أن بعض الصحابة روى عن أهل الكتاب حتى عن كعب الأخبار الذي روى البخاري عن معاوية أنه قال: إن كنا لنبلوا عليه الكذب.. ومنهم أبو هريرة وابن عباس» (٢).

وأرى أن الشيخ قد فند قول نفسه بنفسه حيث أثبت - كما هو الواقع - أن أبا هريرة وابن عباس وغيرهما من الصحابة أخذوا عن كعب، وهل يعقل أن صحابياً يأخذ علمه عن كذاب وضاع، بعد ما عُرف عن الصحابة من العدالة والتثبت في تحمل الأخبار، خصوصاً ابن عباس الذي كان يتشدد في الرواية ويتأكد من صحة ما يروى له؟

نعم... إن حديث البخاري الذي رواه عن معاوية، يُشعر لأول وهلة بنسبة

(١) البخاري: كتاب التوحيد: ١٣/٢٥٩ من فتح الباري. (٢) تفسير المنار: ١٠/١.

الكذب إلى كعب، ولكن لو رجعنا إلى شراح الحديث لوجدناهم جميعاً يشرحونه بما يبعد هذه الوصمة الشنيعة عن كعب الأخبار، وإليك بعض ما قيل في ذلك:

قال ابن حجر في الفتح عند قوله: «وإن كنا لنبلوا عليه الكذب» - أي يقع بعض ما يخبرنا عنه بخلاف ما يخبرنا به، قال ابن التين: وهذا نحو قول ابن عباس في حق كعب المذكور: بدّل من قبله فوقع في الكذب، قال: والمراد بالمحدثين - في قوله: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب - أئداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر في كتبهم فحدث عما فيها، قال: ولعلهم كانوا مثل كعب، إلا أن كعباً كان أشد منهم بصيرة، وأعرف بما يتوقاه.

وقال ابن حبان في كتاب الثقات: أراد معاوية أنه يخطئ أحياناً فيما يخبر به، ولم يرد أنه كان كذاباً. وقال غيره: الضمير في قوله: «لنبلوا عليه» للكتاب لا لكعب، وإنما يقع في كتبهم الكذب لكونهم بدّلوه وحرفوه. وقال عياض: يصح عوده على الكتاب، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه وإن لم يقصد الكذب ويتعمده، إذ لا يشترط في مسمى الكذب التعمد، بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب. وقال ابن الجوزي: المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً، لأنه يتعمد الكذب، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأخبار» (١).

هذه هي الأقوال التي سردها لنا الحافظ ابن حجر، ونحن نميل إلى القول بأن كعباً كان يروي ما يرويه على أنه صحيح لم يُبدّل ولم يُحرف، فهو لم يتعمد كذباً ولا يُنسب إلى كذب، وإن كان ما يرويه كذباً في حد ذاته، خفى عليه كما خفى على غيره. ولهذا التحريف والتبديل. نهى رسول الله ﷺ عن تصديق أهل الكتاب وعن تكذيبهم فيما يروونه من ذلك، لأنه ربما كان صدقاً فيكذبونه أو كذباً فيصدقونه فيقعون في الحرج.

ثم إن معاوية الذي قال هذا القول، روي عنه فيما سبق أنه قال: «ألا إن كعب الأخبار أحد العلماء إن كان عنده علم كالثمار» (٢) وإن كنا لمفرطين، فمعاوية قد شهد لكعب بالعلم وغزارته، وحكم على نفسه بأنه فرط في علم كعب، فهل يُعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذاب؟ وهل يُعقل أنه يتحسر ويتندم على ما فاته من علم رجل يُدّلس في كتب الله ويُحرف في وحى السماء؟ .. اللهم إني

(٢) وفي رواية: كالبحار.

(١) فتح الباري: ٢٥٩/١٣ - ٢٦٠.

لا أعقل ذلك، ولا أقول إلا أن كعباً عالم له مكانته، وثقة له قيمته، وعدل له منزلته وشهرته ..

٣ - وهب بن منبه

● ترجمته :

هو أبو عبد الله، وهب بن منبه بن سيح بن ذى كنان، اليماني الصنعاني، صاحب القصص، من خيار علماء التابعين. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: كان من أبناء فارس، وأصل والده «منبه» من خراسان من أهل هراة، أخرجه كسرى منها إلى اليمن فأسلم في عهد النبي ﷺ، وكان وهب بن منبه يختلف إلى هراة ويتفقد أمرها، وقيل: إنه تولى قضاء صنعاء. قال إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن الهروي: ولد سنة ٣٤ هـ (أربع وثلاثين) في خلافة عثمان، وقال ابن سعد وجماعة: مات سنة ١١٠ هـ (عشرة ومائة)، وقيل غير ذلك.

روى عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وجابر، وأنس، وغيرهم، وروى عنه ابنه: عبد الله وعبد الرحمن، وعمر بن دينار، وغيرهم. وأخرج له البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وأبو داود.

● مبلغه من العلم والعدالة :

كان وهب بن منبه واسع العلم، كثير الاطلاع على الكتب القديمة، محيطاً بأخبار كثيرة وقصص يتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم، ومما يؤثر عنه أنه ألف كتاباً في المغازي (١)، ويحدثنا ابن خلكان: أنه رأى لوهب بن منبه تصنيفاً ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير، وأخبارهم، وقصصهم، وقبورهم وأشعارهم، في مجلد واحد، قال: وهو من الكتب المفيدة (٢).

وقال أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق عن أبيه: حج عامة الفقهاء سنة مائة فحج وهب، فلما صلوا العشاء أتاه نفر فيهم عطاء والحسن، وهم يريدون أن يتذاكروا القدر، قال: فأمن في باب الحمد، فما زال فيه حتى طلع الفجر، فافترقوا ولم يسألوه عن شيء، قال أحمد: وكان يُتهم بشيء من القدر ثم رجع، وقال حماد بن سلمة عن أبي سنان: سمعت وهب بن منبه يقول: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها: «من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر» فتركت قولي. وقال الجوزجاني: كان وهب كتب كتاباً في القدر ثم حدث أنه ندم عليه.

فأنت ترى من بين هذه الأخبار أن وهباً كان على ناحية عظيمة من المعرفة بالكتب

(١) فجر الإسلام ص ١٩٤.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ١٨٠.

الإلهية القديمة، كما ترى أنه لم يثبت على رأيه وعقيدته في القَدَر، بل تركها بعد ما تبين له الحق، وندم على ما كان منه بعد أن ظهر له الصواب، وبعد رجوعه عن رأيه لا يصح أن نطعن عليه من هذه الناحية، ولقد كان وهب يرى من نفسه أنه قد جمع علم ابن سلام وعلم كعب، ويحدِّث هو بذلك عن نفسه فيقول: يقولون: عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ - يريد نفسه.

● مطاعن بعض الناس عليه :

ومع تلك المنزلة العالية التي كان عليها وهب، طعن عليه بعض الناس كما طعن على كعب، ورموه بالكذب والتدليس وإفساد عقول بعض المسلمين وعقائدهم، وقد سمعتَ مقالة السيد محمد رشيد رضا فيه وفي كعب، وسمعتَ الرد عليه، كما سمعتَ مقالة الأستاذ أحمد أمين وما تعقبناه به.

● رأينا فيه وشهادات الموثقين له :

وأنا وإن كنت لا أنكر أن صاحبنا أكثر من الإسرائيليات، وقصَّ كثيراً من القصص إلا أنني لا أتهمه بشيء من الكذب، ولا أنسب إليه إفساد العقول والعقائد، ولا أحمله تبعة ذلك، لأن القوم هم الذين أفسدوا بإدخالهم في التفسير ما لا صلة له به، وبالوضع عليه وعلى غيره ترويجاً للموضوع كما سبق.

ولو أننا رجعنا إلى ما قاله العلماء النقاد في شأن وهب لتبين لنا أنه رجل منزّه عما رمى به، مبرأ من كل ما يخذش عدالته وصدقه. قال الذهبي: كان ثقة صادقاً، كثير النقل من كتب الإسرائيليات. وقال العجلي: ثقة تابعي، كان على قضاء صنعاء، وقال ابن حجر: وهب بن منبه الصنعاني من التابعين، وثقة الجمهور، وشذ الفلاس فقال: كان ضعيفاً، وكان شبهته في ذلك أنه كان يُتهم بالقول في القَدَر. وقال أبو زرعة والنسائي: ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات. والبخاري نفسه يعتمد عليه ويوثقه، ونرى له في البخاري حديثاً واحداً عن أخيه همام عن أبي هريرة في كتابة الحديث^(١)، وتابعه عليه معمر عن همام، ولهمام هذا عن أبي هريرة نسخة مشهورة أكثرها في الصحاح، رواها عنه معمر ويحدِّثنا مثني بن الصباح. أن وهباً لبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً. . . وغير هذا كثير مما شهد لعدالة الرجل وحسن إيمانه.

ونحن أمام توثيق الجمهور له، واعتماد البخاري وغيره لحديثه، وما ثبت عنه من الورع والصلاح، لا نقول إلا أنه رجل مظلوم من متهميه، ومظلوم هو وكعب من

أولئك الذين استغلوا شهرة الرجلين ومنزلتهما العلمية، فنسبوا إليهما ما لا يصح عنهما، وشوهوا سمعتهما، وعرضوهما للنقد اللاذع والطعن المرير!! (١).

٤ - عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج

● ترجمته :

هو أبو خالد - أو أبو الوليد - عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الأموي مولاهم. أصله رومي نصراني. كان من علماء مكة ومحدثيهم، وهو من أول من صنّف الكتب بالحجاز، وهو قطب الإسرائيليات في عهد التابعين، ولو أننا رجعنا إلى تفسير ابن جريج الطبري، وتتبعنا الآيات التي وردت في النصاري، لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جريج في تفسير هذه الآيات يدور على عبد الملك، الذي يُعبر عنه دائماً بـ «ابن جريج».

روى عن أبيه، وعطاء بن أبي رباح، وزيد بن أسلم، والزهرى، وغيرهم. وروى عنه ابنه: عبد العزيز ومحمد، والأوزاعي، والليث، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وحماد ابن زيد، وغيرهم. قال ابن سعد: ولد سنة ٨٠ هـ (ثمانين)، وأما وفاته فمختلف فيها، فمنهم من قال: سنة ١٥٠ هـ (خمسين ومائة)، ومنهم من قال: سنة ١٥٩ هـ (تسع وخمسين ومائة)، وقيل غير ذلك.

● مبلغه من العلم والعدالة :

ابن جريج - كما قيل - هو أول من صنّف الكتب بالحجاز، ويعدونه من طبقة مالك بن أنس وغيره ممن جمعوا الحديث ودونوه. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: من أول من صنّف الكتب؟ قال: ابن جريج وابن أبي عروبة. وقال ابن عيينة: سمعت أخى عبد الرزاق بن همام عن ابن جريج يقول: ما دون العلم تدويني أحد. وقد عُرف عن ابن جريج أنه كان رحالة في طلب العلم، فقد وُلد بمكة ثم طُوف في كثير من البلاد، فرحل إلى البصرة واليمن وبغداد. ويقول ابن خلدون في «العبر»: إنه لم يطلب العلم إلا في الكهولة، ولو سمع في عنفوان شبابه لحمل عن غير واحد من الصحابة، فإنه قال: كنت أتبع الأشعار العربية والأنساب فقيل لى: لو لزم عطاء؟ فلزمته ثمانية عشر عاماً (٢).

وقد رويت عن ابن جريج أجزاء كثيرة في التفسير عن ابن عباس، منها الصحيح، ومنها ما ليس بصحيح، وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع، بل روى ما ذُكر في كل آية من الصحيح والسقيم (٣).

أما منزلته من ناحية العدالة، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه وثبته فيما يرويه، وإنما اختلفت أنظارهم فيه، فمنهم من وثّقه، ومنهم من ضعفه. قال فيه

(١) انظر تهذيب التهذيب: ١١/١٦٦ - ١٦٧، وميزان الاعتدال: ٣/٢٧٨، ومجلة

نور الإسلام (الأزهر) السنة الثالثة ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) شذرات الذهب: ١/٢٢٦.

(٣) الإتيقان: ٢/١٨٨.

العجلي : مكى ثقة . وقال سليمان بن النضر بن مخلد بن يزيد : ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج . وعن يحيى بن سعيد قال : كنا نسعى كتب ابن جريج كتب الأمانة ، وإن لم يحدثك بها ابن جريج من كتابه لم يُنتفع به . وقال ابن معين : ثقة فى كل ما روى عنه من الكتاب . وعن يحيى بن سعيد قال : كان ابن جريج صدوقاً فإذا قال : « حدثنى » ، فهو سماع . وإذا قال : « أخبرنى » ، فهو قراءة ، وإذا قال : « قال » ، فهو شبه الريح . وقال الدارقطنى : تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس ، لا يُدلس إلا فيما سمعه من مجروح . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان من فقهاء أهل الحجاز وقرأتهم ومتقنيهم وكان يُدلس . وقال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال : أحد الأعلام الثقات يُدلس ، وهو فى نفسه مجمع على ثقته مع كونه قد تزوج نحواً من تسعين امرأة نكاح متعة ، وكان يرى الرخصة فى ذلك ، وكان فقيه أهل مكة فى زمانه . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قال أبى : بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة ، كان ابن جريج لا يبالي من أين يأخذها ، يعنى قوله : أُخبرت وحدثت عن فلان (١) . وذكر الخزرجى فى « خلاصته » (٢) أنه مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة . ولكن ترى الأستاذ أحمد أمين ينقل فى « ضحى الإسلام » (٣) : أن البخارى لم يوثقه وقال : إنه لا يُتبع فى حديثه ، ولسنا ندرى من أين استقى صاحب « ضحى الإسلام » هذا الكلام الذى عزاه إلى البخارى رضى الله عنه .

هذه هى نظرة العلماء إليه وحكمهم عليه ، ونرى أن كثيراً منهم يحكم عليه بالتدليس وعدم الثقة ببعض مروياته ، ومع هذا فقد قال فيه الإمام أحمد : إنه من أوعية العلم ، ونحن معه فى ذلك ، ولكنه وعاء لعلم امتزج صحيحه بعليله ، ولا نظن إلا أن الإمام أحمد يعنى ذلك ، بدليل ما تقدم عنه من قوله : « بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة . وكان ابن جريج لا يبالي من أين أخذها » . وكان الإمام مالك رضى الله عنه يرى فيه أنه لا يبالي من أين يأخذ ، فقد روى عنه أنه قال : كان ابن جريج حاطب ليل .

وأخيراً فعليّ المفسر أن يكون على حذر فيما روى عن ابن جريج فى التفسير حتى لا يروى ضعيفاً ، أو يعتمد على سقيم (٤) .

وبعد ... فهؤلاء هم أقطاب الإسرائيليات ، وعليهم يدور كثير مما هو مبثوث فى كتب التفسير ، وسواء أكان كل ما يُنسب إليهم صح عنهم أم وُضِعَ عليهم ، فقد علمت قيمة كل واحد منهم ، وعلمت قيمة ما يروى من هذه الإسرائيليات وما يجوز روايته وما لا يجوز ... وهذا هو جهد المقلِّ وغاية ما وصلت إليه فى هذا الموضوع الذى التوى ، ثم التوى ، حتى صار أعقد من ذنب الضب .

(١) ميزان الاعتدال ١٥١/٢ . (٢) صفحة ٢٠٧ .

(٣) الجزء الثانى ص ١٠٧ . (٤) انظر تهذيب التهذيب : ٤٠٢/٦ - ٤٠٦ .

ثالثاً : حذف الإسناد

حذف الإسناد هو السبب الثالث والأخير الذي يرجع إليه ضعف التفسير المأثور، وسبق أن أشرنا إلى مبدأ اختصار الأسانيد، ونعود إليه فنقول:

إن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتحرون الصحة فيما يتحملون، وكان الواحد منهم لا يروى حديثاً إلا وهو متثبت مما يقول، ولكن لم يُعرف عن الصحابة أنهم كانوا يسألون عن الإسناد، لما عُرفوا به جميعاً من العدالة والأمانة. وإذا كان الأمر قد وصل ببعضهم إلى أنه كان لا يقبل الحديث إلا بعد أن تثبت عنده صحته بالشهادة أو اليمين كما دلت على ذلك الآثار الكثيرة، فإن الغرض من ذلك هو زيادة التأكيد والتثبيت، لا عدم الثقة بمن يروون عنه منهم، فقد روى أن عمر قال لأبي ابن كعب - وقد روى له حديثاً - لتأتينني على ما تقول بيئنة، فخرج فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم، قالوا: قد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فقال عمر: أما إنني لم أتهمك، ولكن أحببت أن أتثبت» (١).

ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب، فكانوا لا يقبلون حديثاً إلا إذا جاء بسنده، وتثبتت لهم عدالة رواته، أما إن حذف السند، أو ذكر وكان في رواته من لا يوثق بحديثه، فإنهم كانوا لا يقبلون الحديث الذي هذا شأنه، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا - سمو لنا رجالكم» (٢).

ظل الأمر في عهد التابعين على هذا، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، لا يروونه إلا بإسناده، ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير، ودون ما تجمّع لديه من ذلك، فألفت تفاسير تجمع أقوال النبي ﷺ في التفسير، وأقوال الصحابة والتابعين، مع ذكر الأسانيد، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وغيرهما ممن تقدّم ذكرهم.

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألقوا في التفسير، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال غير معزوة لقائلها، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل.

ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده، ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف (٣).

(١) الأسلوب الحديث : ١٠/١ (٢) صحيح مسلم : ١١٢/١ (٣) الإتيان : ١٩٠/٣

وفى الحق أن هذا السبب يكاد يكون أخطر الأسباب جميعاً، لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر فى هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها، وجعل كثيراً من المفسرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات والقصاص المخترع على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل.

وإذا كان للوضع خطره، وللإسرائيليات خطرهما، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو دُكرت لنا هذه الأقوال بأسانيدها، ولكن حذفها - وللأسف - عمى علينا كل شىء، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات الأقوال فعلوا كما فعل ابن جرير من رواية كل قوله بإسناده، فهو وإن كان لم يتحر الصحة فيما يرويها، إلا أن عذره فى ذلك، أنه ذكر لنا السند مع كل رواية يرويها، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة، فإن أحوال الرجال كانت معروفة فى العهد الأول، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة.

وبعد... فهذه هى الأسباب الثلاثة التى يرجع إليها ضعف التفسير المأثور، وكل واحد منها له خطره وأثره فى التفسير، وقد أدرك المسلمون أخيراً هذا الخطر، وقدروا ما كان لهذه الأسباب من أثر، فتداعى علماءهم وأشياخهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات، وتطهيرها من كل ما دخل عليها، ولكن لم نجد منهم من نشط لهذا العمل، وإنما لندرجو آمليين، أن يهيبىء الله للمسلمين من بين علمائنا وأشياخنا من ينقد لهم هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى، على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متناً وسنداً، ليستبعد منها هذا الكثير الذى لا يستحق البقاء، وليستريح الناظرون فى الكتاب الكريم من الوقوف أمام شىء لا أساس له إذا ما حاولوا تفهم آية منه.

ولست أظن أن هذا العمل الشاق المضنى يستطيع أن يقوم به فرد وحده، بل لابد له من جماعة كبيرة، تتفرغ له، ويتسع أمامها الزمن، وتتوافر لديها جميع المصادر والمراجع التى تتعلق بالموضوع وتتصل به.

ذلك ما نرجوه ونأمله، ونسأل الله تعالى أن يحقق الرجاء ويصدق الأمل..

* * *

أشهر ما دُوِّنَ من كتب التفسير المأثور وخصائص هذه الكتب

لا نريد أن نستقصى هنا جميع الكتب المدوَّنة في التفسير المأثور، لأن هذا أمر لا يتيسر لنا، نظراً لعدم وقوع كثير منها في أيدينا. ولو تيسر لنا لوقفنا عند عزمي هذا: وهو أنني لا أتعرض لكل كتاب أُلِّفَ في هذا النوع من التفسير، بل أتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب، لأنني لو ذهبت أتكلم عن جميع ما دُوِّنَ من هذه الكتب، كتاباً كتاباً، لطال على الأمر، والرسول ﷺ يقول: «إن المُنْبِتَ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى». لهذا رأيت أن أتكلم عن ثمانية كتب منها، هي أهمها وأشهرها وأكثرها تداولاً، وسبيلي في هذا: أن أعرض أولاً لنبذة مختصرة عن المؤلف، ثم أبين خصائص كل كتاب وطريقة مؤلفه فيه، وهذه الكتب التي وقع عليها اختياري هي ما يأتي:

- ١ - جامع البيان في تفسير القرآن : لابن جرير الطبري
 - ٢ - بحر العلوم : لأبي الليث السمرقندي
 - ٣ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأبي إسحاق الثعلبي
 - ٤ - معالم التنزيل : لأبي محمد الحسين البغوي
 - ٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسي
 - ٦ - تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء الحافظ ابن كثير
 - ٧ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن : لعبد الرحمن الثعالبي
 - ٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور : لجلال الدين السيوطي
- وسنتكلم عن كل واحد منها بحسب هذا الترتيب فنقول وبالله التوفيق:

١ - جامع البيان في تفسير القرآن (للطبري)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، وهو من أهل آمل طبرستان، وُلِدَ بها سنة ٢٢٤ هـ (أربع وعشرين ومائتين من الهجرة)، ورحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، سنة ٢٣٦ هـ (ست وثلاثين ومائتين)، وطوَّفَ في الأقاليم، فسُمِعَ بمصر والشام والعراق، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقي بها إلى أن مات سنة ٣١٠ هـ (عشرة وثلاثمائة من الهجرة).

● مبلغه من العلم والعدالة :

كان ابن جرير أحد الأئمة الأعلام، يُحكَمُ بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب

الله، بصيراً بالقرآن، عارفاً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، هذا هو ابن جرير في نظر الخطيب البغدادي وهي شهادة عالم خبير بأحوال الرجال. ودُكر أن أبا العباس بن سريج كان يقول: محمد بن جرير فقيه عالم. وهذه الشهادة جد صادقة، فإن الرجل برع في علوم كثيرة، منها: علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه. والتاريخ وقد صنّف في علوم كثيرة وأبدع التأليف وأجاد فيما صنّف، فمن مصنفاته: كتاب التفسير الذي نحن بصددده. وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وهو من أمهات المراجع، وكتاب القراءات، والعدد والتنزيل، وكتاب اختلاف العلماء، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين، وكتاب أحكام شرائع الإسلام، ألّفه على ما أداه إليه اجتهاده، وكتاب التبصر في أصول الدين... وغير هذا كثير من تصانيفه التي تدل على سعة علمه وغزارة فضله.

ولكن هذه الكتب قد اختفي معظمها من زمن بعيد، ولم يحظ منها بالبقاء إلى يومنا هذا وبالشهرة الواسعة، سوى كتاب التفسير، وكتاب التاريخ.

وقد اعتُبر الطبري أبا للتفسير. كما اعتُبر أبا للتاريخ الإسلامي، وذلك بالنظر لما في هذين الكتابين من الناحية العلمية العالية. ويقول ابن خلدان: إنه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً، ونُقِل أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي ذكره في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين. قالوا: وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم «الجريرية»، ولكن هذا المذهب الذي أسسه - على ما يظهر - بعد بحث طويل، ووجد له أتباعاً من الناس، لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كغيره من مذاهب المسلمين، ويظهر أن ابن جرير كان قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد متمذّباً بمذهب الشافعي، يدلنا على ذلك ما جاء في الطبقات الكبرى لابن السبكي، من أن ابن جرير قال: أظهرتُ فقه الشافعي، وأفتيتُ به ببغداد عشر سنين، وتلقاه مني ابن بشار الأحول، أستاذ أبي العباس بن سريج. وقال السيوطي في طبقات المفسرين^(١): وكان أولاً شافعيّاً ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاول واختيارات، وله أتباع ومقلّدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة.

وذكره صاحب لسان الميزان فقال: «ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالة لا تضر..» ثم قال: أقذع أحمد بن علي السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعى

عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنَّى فيه، ولا سيما في مثل إمام كبير، ولعل السليمانى أراد الآتى - يريد محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى - قال: ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا الآتى لبررت، والسليمانى حافظ متقن، كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل».

هذا هو ابن جرير، وهذه هى نظرات العلماء إليه، وذلك هو حكمهم عليه، ومن كل ذلك تتبين لنا قيمته ومكانته (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلى، وإن كان فى الوقت نفسه يُعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلى، نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحاً يعتمد على النظر العقلى، والبحث الحر الدقيق.

ويقع تفسير ابن جرير فى ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يُعتبر مفقوداً لا وجود له، ثم قدر الله له الظهور والتداول، فكانت مفاجأة سارة للأوساط العلمية فى الشرق والغرب أن وُجِدَت فى حيازة أمير «حائل» الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب، طُبِعَ عليها الكتاب من زمن قريب، فأصبحت فى يدنا دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور (٢).

ولو أننا تتبعنا ما قاله العلماء فى تفسير ابن جرير، لوجدنا أن الباحثين فى الشرق والغرب قد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته، واتفقوا على أنه مرجع لا غنى عنه لطالب التفسير، فقد قال السيوطى رضى الله عنه: «وكتابه - يعنى تفسير محمد ابن جرير - أجلُّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين» (٣). وقال النووى: «أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبرى» (٤) وقال أبو حامد الإسفرايينى: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن

(١) انظر وفيات الأعيان: ٢/٢٣٢ - ٢٣٣ - ولسان الميزان: ٥/١٠٠ - ١٠٢، وطبقات

الشافعية الكبرى لابن السبكي: ٢/١٣٥ - ١٣٨، ومعجم الأدباء: ١٨/٤٠ - ٩٤.

(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٦.

(٤) المرجع السابق.

(٣) الإتيقان: ٢/١٩٠.

جرير لم يكن ذلك كثيراً^(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فرنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير^(٢) والكلبي^(٣)».

ويذكر صاحب لسان الميزان: أن ابن خزيمة استعار تفسير ابن جرير من ابن خالويه فرده بعد سنين ثم قال: «نظرتُ فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير» فابن خزيمة ما شهد هذه الشهادة إلا بعد أن اطلع على ما في هذا التفسير من علم واسع غزير.

وهذا وقد كتب «نولدكه» في سنة ١٨٦٠ بعد اطلاعه على بعض فقرات من هذا الكتاب: «لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماماً، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعاً لا يغيض معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم»^(٤).

ويظهر مما بأيدينا من المراجع، أن هذا التفسير كان أوسع مما هو عليه اليوم، ثم اختصره مؤلفه إلى هذا القدر الذي هو عليه الآن، كما أن كتابه في التاريخ ظفر بمثل هذا البسط والاختصار، فابن السبكي يذكر في طبقاته الكبرى^(٥): «أن أبا جعفر قال لأصحابه: أتنتشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟، فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟، قالوا: كم قدره؟، فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله، ماتت الهمم.. فاختره في نحو ما اختصر التفسير».

وهذا ونستطيع أن نقول إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذي له الأولوية بين كتب التفسير، وأولوية زمنية، وأولوية من ناحية الفن والصناعة.

أما أوليته الزمنية، فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا، وما سبقه من

(١) معجم الأدباء: ٤٢/١٨

(٢) هكذا بالأصل، ولعله ابن سليمان، وهو مقاتل بن سليمان بن بشير، وهو متهم بالكذب.

(٣) فتاوى ابن تيمية: ١٩٢/٢.

(٤) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٥ . (٥) الجزء الثاني ص ١٢٧ .

المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شئ منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصدده.

وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة، فذلك أمر يرجع إلي ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجها للناس كتاباً له قيمته ومكانته. ونريد أن نعطي هنا مثالا لطريقة ابن جرير في تفسيره، بعد أن أخذنا فكرة عامة عن الكتاب، حتى يتبين للقارئ أن الكتاب واحد في بابه، سبق به مؤلفه غيره من المفسرين، فكان عمدة المتأخرين، ومرجعاً مهماً من مراجع المفسرين، علي اختلاف مذاهبهم، وتعدد طرائقهم، فنقول:

● طريقة ابن جرير في تفسيره:

تتجلي طريقة ابن جرير في تفسيره بكل وضوح إذا نحن قرأنا فيه وقطعنا في القراءة شوطاً بعيداً، فأول ما نشاهده، أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول: (القول في تأويل قوله تعالي كذا وكذا) ثم يفسر الآية ويستشهد علي ما قاله بما يرويّه بسنده إلي الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد علي كل قول بما يرويّه في ذلك عن الصحابة أو التابعين.

ثم هو لا يقتصر علي مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال، ويرجح بعضها علي بعض، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلي ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار.

● إنكاره علي من يفسر بمجرد الرأي:

ثم هو يخاصم بقوة أصحاب الرأي المستقلين في التفكير، ولا يزال يشدد في ضرورة الرجوع إلي العلم الراجع إلي الصحابة أو التابعين، والمنقول عنهم نقلاً صحيحاً مستفيضاً، ويرى أن ذلك وحده هو علامة التفسير الصحيح، فمثلاً عندما تكلم عن قوله تعالي من سورة يوسف ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] نجده يذكر ما ورد في تفسيرها عن السلف مع توجيهه للأقوال وتعرضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك علي من يفسر القرآن برأيه، وبدون اعتماد منه علي شئ إلا علي مجرد اللغة، فيفند قوله، ويبطل رأيه، فيقول ما نصه: (... وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه علي مذهب كلام العرب، يوجه معني قوله: ﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ أي: وفيه ينجون من الجذب، والقحط بالغيث، ويزعم أنه من العصر والعصر التي بمعني المنجاة، من قول أبي زبيد الطائي:

صادياً يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود

أي المقهور - ومن قول لبيد:

فبات وأسري القوم آخر ليلهم وما كان وقافاً بغير معصر

وذلك تأويل يكفي من الشهادة علي خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين^(١).

وكثيراً ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يروي عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس.

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿مِن سُوْرَةِ الْبَقْرَةِ﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿ [البقرة: ٦٥] يقول ما نصه: (حدثني المثني؛ قال: حدثنا أبو حذيفة؛ قال: حدثنا شبل؛ عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: (مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قرده، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثّل الحمار يحمل أسفاراً).

ثم يعقب ابن جرير بعد ذلك علي قول مجاهد فيقول ما نصه: (وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف) .. إلخ^(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة أيضاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] نجده يروي عن الضحاك في معني هذه الآية: أن من طلق لغير العدة فقد اعتدي وظلم نفسه، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون. ثم يقول: (وهذا الذي ذكر عن الضحاك لا معني له في هذا الموضوع، لأنه لم يجر للطلاق في العدة ذكر فيقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، وإنما جري ذكر العدد الذي يكون للمطلق فيه الرجعة. والذي لا يكون له فيه الرجعة، دون ذكر البيان عن الطلاق للعدة).^(٣)

.. وهكذا نجد ابن جرير في غير موضع من تفسيره، ينبري للرد علي مثل هذه الآراء التي لا تستند علي شيء إلا علي مجرد الرأي أو محض اللغة.

● موقفه من الأسانيد:

ثم إن ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها، إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف، لأنه كان يري - كما هو مقرر في أصول الحديث - أن من أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة ومع ذلك فابن جرير

(٢) تفسير ابن جرير: ١/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

(١) تفسير ابن جرير: ١٢/ ١٣٨.

(٣) تفسير ابن جرير: ٢/ ٢٨٩.

يقف من السند أحيانا موقف الناقد البصير، فيعدل من يعدل من رجال الإسناد، ويجرح من يجرح منهم، ويرد الرواية التي لا يثق بصحتها، ويصرح برأيه فيها بما يناسبها، فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى من سورة الكهف ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].. يقول ما نصه: (روي عن عكرمة في ذلك - يعني في ضم سين (سدأ) وفتحها - ما حدثنا به أحمد بن يوسف قال: حدثنا القاسم، قال: حدثنا حجاج، عن هارون، عن أيوب، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بني آدم هو السد - يعني بفتح السين، وما كان من صنع الله فهو السد، ثم يعقب علي هذا السند فيقول: وأما ما ذكره عن عكرمة في ذلك، فإن الذي نقل عن أيوب: (هارون) وفي نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من زوايا ثقة أصحابه) (١).

● تقديره للإجماع:

كذلك نجد ابن جرير في تفسيره يُقدِّر إجماع الأمة، ويعطيه سلطاناً كبيراً في اختيار ما يذهب إليه من التفسير، فمثلاً عند قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] يقول ما نصه: (فإن قال قائل: فأبي النكاحين عني الله بقوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؟ النكاح الذي هو جماع؟ أم النكاح الذي هو عقد تزويج؟ قيل: كلاهما، وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجاً نكاح تزويج ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحها ولم يجامعها حتى يطلقها لم تحل للأول، وكذلك إن وطئها واطئ بغير نكاح لم تحل للأول، لإجماع الأمة جميعاً، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن تأويل قوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾، نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه، ثم يطلقها، فإن قال: فإن ذكر الجماع غير موجود في كتاب الله تعالى ذكره. فما الدلالة علي أن معناه ما قلت؟ قيل: الدلالة علي ذلك إجماع الأمة جميعاً علي أن ذلك معناه) (٢).

● موقفه من القراءات:

كذلك نجد ابن جرير يعني بذكر القراءات وينزلها علي المعاني المختلفة وكثيرا ما يرد القراءات التي لا تعتمد علي الأئمة الذين يُعتبرون عنده وعند علماء القراءات حجة، والتي تقوم علي أصول مضطربة مما يكون فيه تغيير وتبديل لكتاب الله، ثم يتبع ذلك برأيه في آخر الأمر مع توجيه رأيه بالأسباب، فمثلاً عند قوله تعالى من سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] يذكر أن عامة قراء الأمصار قرأوا (الريح)

بالنصب علي أنها مفعول لـ (سخرنا) المحذوف، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ (الريح) بالرفع علي أنها مبتدأ ثم يقول: والقراءة التي لا أستجيز القراءة بغيرها في ذلك ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه.

ولقد يرجع السبب في عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلي أنه كان من علماء القراءات المشهورين، حتي إنهم ليقولون عنه: إنه ألف فيها مؤلفاً خاصاً في ثمانية عشر مجلداً ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور^(١)، وإن كان هذا الكتاب قد ضاع بمرور الزمن ولم يصل إلي أيدينا، شأن الكثير من مؤلفاته.

● موقفه من الإسرائيليات:

ثم إننا نجد ابن جرير يأتي في تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلتي، يرويها بإسناده إلي كعب الأخبار، ووهب بن منبه، وابن جريج، والسدي، وغيرهم، ونراه ينقل عن محمد بن إسحاق كثيراً مما رواه عن مسلمة النصارتي. ومن الأسانيد التي تسترعي النظر، هذا الإسناد: حدثني ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن أبي عتاب - رجل من تغلب - كان نصرانياً عمراً من دهره ثم أسلم بعد فقراً القرآن وفقه في الدين، وكان فيما ذكر، أنه كان نصرانياً أربعين سنة ثم عمر في الإسلام أربعين سنة.

يذكر ابن جرير هذا الإسناد، ويروي لهذا الرجل النصراني الأصل خبيراً عن آخر أنبياء بني إسرائيل، عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الإسراء ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلُوا تُتَبَرَّأً﴾^(٢) [الإسراء: ٧].

كما نراه عند تفسيره لقوله تعالي من سورة الكهف ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].. الآية يسوق هذا الإسناد: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم، مما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مردبة اليوناني من ولد يونس بن يافث بن نوح. (إلخ)^(٣)

... وهكذا يكثر ابن جرير من رواية الإسرائيليات، ولعل هذا راجع إلي ما تأثر به من الروايات التاريخية التي عالجهافي بحوثه التاريخية الواسعة.

(٢) تفسير ابن جرير: ٣٣/١٥ - ٣٤.

(١) معجم الأدباء: ٤٥/١٨.

(٣) تفسير ابن جرير: ١٤/١٦.

وإذا كان ابن جرير يتعقب كثيراً من هذه الروايات بالنقد، فتفسيره لا يزال يحتاج إلي النقد الفاحص الشامل، احتياج كثير من كتب التفسير التي اشتملت علي الموضوع والقصص الإسرائيلي، علي أن ابن جرير - كما قدمنا - قد ذكر لنا السند بتمامه في كل رواية يرويها، وبذلك يكون قد خرج من العهدة، وعلينا نحن أن ننظر في السند ونتفقد الروايات.

● انصرافه عما لا فائدة فيه :

ومما يلفت النظر في تفسير ابن جرير أن مؤلفه لا يهتم فيه - كما يهتم غيره من المفسرين - بالأموه التي لا تغني ولا تفيد، فنراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمِ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآيات، إلي قوله: ﴿وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٤].. يعرض لذكر ما ورد من الروايات في نوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء.. ثم يعقب علي هذا بقوله: (وأما الصواب من القول فيما كان علي المائدة فإن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون ثمرأ من الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل) (١).

كما نراه عند تفسير قوله تعالى من سورة يوسف: ﴿وَشَرَّوهُ بِشَمْنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] يعرض لمحاولات قدماء المفسرين في تحديد عدد الدراهم، هل هي عشرون؟ أو اثنان وعشرون؟ أو أربعون؟.. إلي آخر ما ذكره من الروايات.. ثم يعقب علي ذلك كله بقوله: (والصواب من القول أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ وقد يحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر، وأي ذلك فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه). (٢)

● احتكامه إلي المعروف من كلام العرب :

وثمة أمر آخر سلكه ابن جرير في كتابه، ذلك أنه اعتبر الاستعمالات اللغوية بجانب النقول الماثورة وجعلها مرجعاً موثقاً به عند تفسيره للعبارات المشكوك فيها، وترجيح بعض الأقوال علي بعض.

(١) تفسير ابن جرير: ٧/٨٨.

(٢) تفسير ابن جرير: ١٢/١٠٣.

فمثلاً عند تفسيره لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود: ٤٠] نراه يعرض لذكر الروايات عن السلف في معني لفظ (التنور) فيروي لنا قول من قال: إن التنور عبارة عن وجه الأرض، وقول من قال: إنه عبارة عن تنوير الصبح، وقول من قال: إنه عبارة عن أعلي الأرض وأشرفها، وقول من قال: إنه عبارة عما يختبئ فيه.. ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: (وأولي هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله (التنور) قول من قال: التنور: الذي يختبئ فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلي الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة علي شئ منه بخلاف ذلك فيسلم لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معني ما خاطبهم به..). (١)

● رجوعه إلي الشعر القديم:

كذلك نجد ابن جرير يرجع إلي شواهد من الشعر القديم بشكل واسع متبعاً في هذا ما أثاره ابن عباس في ذلك، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴾ [البقرة: ٢٢] يقول ما نصه: قال أبو جعفر: والأنداد جمع ند، والند: العدل والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوه ولست له بند فشر كما لخير كما الفداء

يعني بقوله: (ولست له بند): (لست له بمثل ولا عدل، وكل شئ كان نظيراً لشيء وشبيهاً فهو له ند) (٢) ثم يسوق الروايات عن ذلك من السلف.

● اهتمامه بالمذاهب النحوية:

كذلك نجد ابن جرير يتعرض كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، ويوجه الأقوال، تارة علي المذهب البصري، وأخري علي المذهب الكوفي، فمثلاً عند قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨].. يقول ما نصه: (اختلف أهل العربية في رافع (مثل) فقال بعض نحويي البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نقص عليكم مثل الذين كفروا، ثم أقبل يفسره كما قال: مثل الجنة.. وهذا كثير.. وقال بعض نحويي الكوفيين: إنما المثل للأعمال، ولكن العرب تقدم الأسماء لأنها أعرف، ثم تأتي بالخبر الذي تخبر عنه مع صاحبه، ومعني الكلام: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد.. إلخ) (٣).

(٢) تفسير ابن جرير: ١/١٢٥.

(١) تفسير ابن جرير: ١٢/٢٥.

(٣) تفسير ابن جرير: ١٣/١٣١.

وهكذا يكثر ابن جرير في مناسبات متعددة من الاحتكام إلي ما هو معروف من لغة العرب، ومن الرجوع إلي الشعر القديم يستشهد به علي ما يقول، ومن التعرض للمذاهب النحوية عند ما تمس الحاجة، مما جعل الكتاب يحتوي علي جملة كبيرة من المعالجات اللغوية والنحوية التي أكسبت الكتاب شهرة عظيمة.

والحق أن ما قدمه لنا ابن جرير في تفسيره من البحوث اللغوية المتعددة والتي تعتبر كنزاً ثميناً ومرجعاً مهماً في بابها، أمر يرجع إلي ما كان عليه صاحبنا من المعرفة الواسعة بعلوم اللغة وأشعار العرب، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ. ونري أن نبيه هنا إلي أن هذه البحوث اللغوية التي عالجها ابن جرير في تفسيره لم تكن أمراً مقصوداً لذاته، وإنما كانت وسيلة للتفسير، علي معني أنه يتوصل بذلك إلي ترجيح بعض الأقوال علي بعض، كما يحاول بذلك - أحياناً - أن يوفق بين ما صح عن السلف وبين المعارف اللغوية بحيث يزيل ما يتوهم من التناقض بينهما.

● معالجته للأحكام الفقهية:

كذلك نجد في هذا التفسير آثاراً للأحكام الفقهية، يعالج فيها ابن جرير أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأي يختاره لنفسه، ويرجحه بالأدلة العلمية القيمة، فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالي في سورة النحل ﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] .. نجده يعرض لأقوال العلماء في حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ويذكر قول كل قائل بسنده .. وأخيراً يختار قول من قال: إن الآية لا تدل علي حرمة شيء من ذلك، ووجه اختياره هذا فقال ما نصه: (والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثاني - وهو أن الآية لا تدل علي الحرمة - وذلك أنه لو كان في قوله - تعالي ذكره ﴿ لَتَرْكَبُوهَا ﴾ دلالة علي أنها لا تصلح إذ كانت للركوب للأكل لكان في قوله ﴿ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥] دلالة علي أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفع للركوب. وفي إجماع الجميع علي أن ركوب ما قال تعالي ذكره: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ جائز حلال غير حرام، دليل واضح علي أن أكل ما قال: ﴿ لَتَرْكَبُوهَا ﴾ جائز حلال غير حرام، إلا بما نص علي تحريمه أو وضع علي تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلي رسول الله ﷺ، فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء. وقد وضع الدلالة علي تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحية إلي رسول الله ﷺ، وعلي البغال بما قد بينا في كتابنا (كتاب الأطعمة) بما أغني عن إعادته في هذا الموضع إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان

عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل علي أن لا وجه لقول من استدل بهذه الآية علي تحريم لحم الفرس). (١)

● خوضه في مسائل الكلام:

ولا يفوتنا أن ننبه علي ما نلاحظه في هذا التفسير الكبير، من تعرض صاحبه لبعض النواحي الكلامية عند كثير من آيات القرآن، مما يشهد له بأنه كان عالماً ممتازاً في أمور العقيدة، فهو إذا ما طبق أصول العقائد علي ما يتفق مع الآية أفاد في تطبيقه، وإذا ناقش بعض الآراء الكلامية أجاد في مناقشته، وهو في جدله الكلامي وتطبيقه ومناقشته، موافق لأهل السنة في آرائهم، ويظهر ذلك جلياً في رده علي القدرية في مسألة الاختيار.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في آخر سورة الفاتحة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].. نراه يقول ما نصه: (وقد ظن بعض أهل الغيباء من القدرية أن في وصف الله جل ثناؤه النصاري بالضلال بقوله: ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ وإضافة الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلي نفسه. وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذي وصف به اليهود أنه مغضوب عليهم دلالة علي صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية، جهلاً منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه. ولو كان الأمر علي ما ظنه الغبي الذي وصفنا شأنه، لوجب أن يكون كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك من فعله ولوجب أن يكون خطأ قول القائل: تحركت الشجرة إذا حركتها الرياح، واضطربت الأرض إذا حركتها الزلزلة، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يطول بإحصائه الكتاب، وفي قوله جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجْرَيْنَ فِيهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها، ما يدل علي خطأ التأويل الذي تأوله من وصفنا قوله في قوله: ﴿وَالضَّالِّينَ﴾.. وادعائه أن في نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلي من نسبها إليه من النصاري تصحيحاً لما ادعي المنكرون أن يكون الله جل ثناؤه في أفعال خلقه بسبب من أجلها وجدت أفعالهم، مع إبانة الله عز ذكره نصاً في آي كثيرة من تنزيله: أنه المضل الهادي، فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاثية: ٢٣]. فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادي دون غيره، ولكن القرآن نزل بلسان العرب علي ما قدمنا البيان عنه في أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلي من وجد منه وإن كان مشيئة غير الذي وجد منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذي

يكتسبه العد كسباً، ويوجده الله جل ثناؤه عيناً منشأة، بل ذلك أحري أن يضاف إلي مكتسبه كسباً له بالقوة منه عليه، والاختيار منه له، وإلي الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيراً^(١)

وكثيراً ما نجد ابن جرير يتصدي للرد علي المعتزلة في كثير من آرائهم الاعتقادية، فنراه مثلاً يجادلهم مجادلة حادة في تفسيرهم العقلي التنزيهي للآيات التي تثبت رؤية الله عند أهل السنة، كما نراه يذهب إلي ما ذهب إليه السلف من عدم صرف آيات الصفات عن ظاهرها، مع المعارضة لفكرة التجسيم والتشبيه، والرد علي أولئك الذين يشبهون الله بالإنسان^(٢).

وهكذا نجد ابن جرير لم يقف كمفسر موقفاً بعيداً عن مسائل النزاع التي تدور حول العقيدة في عصره، بل نراه يشارك في هذا المجال من الجدل الكلامي بنصيب لا يستهان به، مع حرصه كل الحرص علي أن يحتفظ بسنيتته ضد وجوه النظر التي لا تتفق وتعاليم أهل السنة.

وبعد.. فإن ما جمعه ابن جرير في كتابه من أقوال المفسرين الذين تقدموا عليه، وما نقله لنا من مدرسة ابن عباس، ومدرسة ابن مسعود، ومدرسة علي بن أبي طالب، ومدرسة أبي بن كعب، وما استفاده مما جمعه ابن جريج والسدي وابن إسحاق وغيرهم من التفاسير جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور، كما أن ما جاء في الكتاب من إعراب، وتوجيهات لغوية، واستنباطات في نواح متعددة، وترجيح لبعض الأقوال علي بعض، كان نقطة التحول في التفسير، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي، كما كان مظهراً من مظاهر الروح العلمية السائدة في هذا العصر الذي يعيش فيه ابن جرير.

وفي الحق إن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية جعلت تفسيره مرجعاً مهماً من مراجع التفسير بالرواية، فترجيحاته المختلفة تقوم علي نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة.

وعلي الإجمال، فخير ما وصف به هذا الكتاب ما نقله الداودي عن أبي محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني في تاريخه حيث قال: (فتم من كتبه - يعني محمد بن جرير - كتاب تفسير القرآن، وجوده، وبين فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه،

(١) تفسير ابن جرير: ١/٦٤.

(٢) انظر ما كتبه علي قوله تعالي في الآية (٦٤) من سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ

مَغْلُوبَةٌ﴾ .. الآية. (٦/١٩٣). ﴿وَمَا بَعْدَهَا؛ وَمَا كَتَبَهُ عَلِيٌّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي آيَةِ (٦٧) مِنْ سُورَةِ الزَّمَرِ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (٢٤/١٦) وما بعدها.

ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه والكلام علي الملحدن فيه، والقصص، وأخبار الأمة و القيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة، وآية آية، من الاستعاذة، وإلي أبي جاد، فلو ادعي عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي علي علم مفرد وعجيب مستفيض لفعل). (١)

هذا وقد جاء في معجم الأدباء (الجزء ١٨ ص ٦٤ - ٦٥) وصف مسهب لتفسير ابن جرير، جاء في آخره ما نصه: (... وذكر فيه من كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة طرق، وعن الحسن البصري ثلاثة طرق، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقاً، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حبان، سوس ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فإنه لم يدخل في كتابه شيئاً عن كتاب محمد بن السائب الكلبي، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدي، لأنهم عنده أظناء والله أعلم. وكان إذا رجع إلي التاريخ والسير وأخبار العرب حكى عن محمد بن السائب الكلبي، وعن ابنه هشام، وعن محمد بن عمر الواقدي، وغيرهم فيما يفتقر إليه ولا يؤخذ إلا عنهم.

وذكر فيه مجموع الكلام والمعاني من كتاب علي بن حمزة الكسائي، ومن كتاب يحيى بن زيادة الفراء، ومن كتاب أبي الحسن الأخفش، ومن كتاب أبي علي قطرب، وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون في المعاني، عنهم يؤخذ معانيه وإعرابه، وربما لم يسمهم إذا ذكر شيئاً من كلامهم، وهذا كتاب يشتمل علي عشرة آلاف ورقة أو دونها حسب سعة الخط أو ضيقه).

كما نجد في معجم الأدباء أيضاً قبل ذلك بقليل، ما يدل علي أن الطبري أتم تفسيره هذا في سبع سنوات، إملاء علي أصحابه، فقد جاء في الجزء (١٨ ص ٤٢) عن أبي بكر بن بالويه أنه قال: (قال لي أبو بكر محمد بن إسحاق - يعني ابن خزيمة - بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت: نعم، كتبنا التفسير عنه إملاء، قال كله؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلي سنة تسعين...) إلخ.

وبعد فأحسب أنني قد أفضت في الكلام عن هذا التفسر، وتوسعت في الحديث

عنه، وأقول: إن السر في ذلك هو أن الكتاب يعتبر المرجع الأول والأهم للتفسير بالمأثور، وتلك ميزة لا نعرفها لغيره من كتب التفسير بالرواية.

٢ - بحر العلوم (للسمرقندي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو الليث، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي. المعروف بإمام الهدي. تفقه علي أبي جعفر الهندواني، واشتهر بكثرة الأقوال المفيدة، والتصانيف المشهورة. ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمي بـ (بحر العلوم)، والمعروف بتفسير أبي الليث السمرقندي، وهو ما نحن بصده الآن، وكتاب النوازل في الفقه، وخرانة الفقه في مجلد، وتنبيه الغافلين، والبستان. وكانت وفاته رحمه الله سنة ٣٧٣هـ (ثلاث وسبعين وثلاثمائة) وقيل: سنة ٣٧٥هـ (خمس وسبعين وثلاثمائة) من الهجرة (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون: (تفسير أبي الليث، نصر بن محمد الفقيه السمرقندي الحنفي، المتوفي سنة ٣٧٥هـ (خمس وسبعين وثلاثمائة)، وهو كتاب مشهور لطيف مفيد، خرج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم ابن قطلوبغا الحنفي سنة ٨٥٤هـ (أربع وخمسين وثلاثمائة) (٢).

وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار، وموجود بدار الكتب المصرية، وتوجد منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الأزهر. واحدة في مجلدين والأخرى في ثلاث مجلدات.

وقد رجعت إلي هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدت مؤلفه قد قدم له بباب في الحث علي طلب التفسير وبيان فضله، واستشهد علي ذلك بروايات عن السلف، رواها بإسناد إليهم، ثم بين أنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه من ذات نفسه ما لم يتعلم أو يعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل، واستدل علي حرمة التفسير بمجرد الرأي بأقوال رواها عن السلف بإسناده إليهم أيضاً، ثم بين أن الرجل إذا لم يعلم وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فليتعلم التفسير ويتكلف حفظه، ولا بأس بذلك علي سبيل الحكاية... وبعد أن فرغ من المقدمة شرع في التفسير.

تتبع هذا التفسير فوجدت صاحبه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف فيسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في التفسير، ولكنه لا يذكر إسناده إلي من يروي عنهم، ويندر سياقه للإسناد في بعض الروايات، وقد لاحظت عليه أنه إذا ذكر

(٢) كشف الظنون: ١/٢٣٤.

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي ص ٣٢٧.

الأقوال والروايات المختلفة لا يعقب عليها ولا يرجح كما يفعل ابن جرير الطبري - مثلاً - اللهم إلا في حالات نادرة أيضاً ، وهو يعرض للقراءات ولكن بقدر (١) ، كما أنه يحتكم إلي اللغة أحياناً ويشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما يوضح معني آية أخري (٢) ، كما أنه يروي من القصص الإسرائيلي ، ولكن علي قلة وبدون تعقيب منه علي ما يرويه ، وكثيراً ما يقول : قال بعضهم كذا ، وقال بعضهم كذا ، ولا يعين هذا البعض . وهو يروي أحياناً عن الضعفاء ، فيخرج من رواية الكلبي ومن رواية أسباط عن السدي ، ومن رواية غيرهما ممن تكلم فيه ، ووجدته يوجه بعض إشكالات ترد علي ظاهر النظم ثم يجيب عنها (٣) كما يعرض لموهم الاختلاف والتناقض في القرآن ويزيل هذا الإيهام (٤) .

وبالجملة ، فالكتاب قيم في ذاته ، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية إلا أنه غلب الجانب النقلي فيه علي الجانب العقلي ، ولهذا عددناه ضمن كتب التفسير المأثور .



(١) ارجع إليه عند قوله تعالى في الآية (١٢٤) من سورة البقرة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠/١) .

(٢) ارجع إليه عند قوله تعالى في الآية (٣٦) من سورة آل عمران : ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٧/١) .

(٣) ارجع إليه عند قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة البقرة : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (١٤/١) .

(٤) ارجع إليه في قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة البقرة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ .. الآية (٢٥/١) .

٣ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن (لثعلبي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المقرئ، المفسر، « كان حافظاً واعظاً، رأساً في التفسير والعربية، متين الديانة، قال ابن خلكان: « كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير»^(١). وقال ياقوت في معجم الأدباء: «أبو إسحاق الثعلبي، المقرئ، المفسر، الواعظ، الأديب، الثقة، الحافظ، صاحب التصانيف الجليلة: من التفسير الحاوي أنواع الفرائد من المعاني والإشارات، وكلمات أرباب الحقائق ووجوه الإعراب والقراءات..»^(٢). وله من المؤلفات كتاب العرائس في قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وله غير ذلك من المؤلفات. ونقل السمعاني عن بعض العلماء أنه يقال له (الثعلبي) و (الثعالبي)، وهو لقب له وليس بنسب. وذكره عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي في كتاب (سياق تاريخ نيسابور) وأثنى عليه، وقال: هو صحيح النقل موثوق به. حدث عن أبي طاهر بن خزيمة والإمام أبي بكر بن مهران المقرئ. وعنه أخذ أبو الحسن الواحدي التفسير وأثنى عليه، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ. ولكن هناك من العلماء من يري أنه لا يوثق به، ولا يصح نقله. وسنذكر بعض من يري ذلك فيه ومقالاتهم عند الكلام عن تفسيره هذا.. وقد توفي الثعلبي رحمه الله سنة ٤٢٧هـ (سبع وعشرين وأربعمائة). فرحمه الله وأرضاه^(٣).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

ألقي مؤلف هذا التفسير ضوءاً عليه في مقدمته، وأوضح فيها عن منهجه وطريقته التي سلكها فيه فذكر أولاً اختلافه منذ الصغر إلي العلماء، واجتهاده في الاقتباس من علم التفسير الذي هو أساس الدين ورأس العلوم الشرعية، ومواصلته ظلام الليل بضوء الصباح بعزم أكيد وجهد جهيد، حتي رزقه الله ما عرف به الحق من الباطل، والمفضول من الفاضل، والحديث من القديم، والبدعة من السنة، والحجة من الشبهة، وظهر له أن المصنفين في تفسير القرآن فرق علي طرق مختلفة:

فرقة أهل البدع والأهواء، وعد منهم الجبائي والرماني.

(١) وفيات الأعيان: ١ / ٣٧ - ٣٨. (٢) معجم الأدباء: ٥ / ٣٧. (٣) يراجع في ترجمته: معجم الأدباء: ٥ / ٣٦ - ٣٨، وفيات الأعيان: ١ / ٢٢، وشذرات الذهب: ٣ / ٢٣٠ - ٢٣١.

وفرقه من ألفوا فأحسنوا، إلا أنهم خلطوا بإباطيل المستدعين بأقاويل السلف الصالحين، وعد منهم أبا بكر القفال .

وفرقه اقتصر أصحابها علي الرواية والنقل دون الدارية والنقد، وعد منهم أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي .

وفرقه حذفت الإسناد الذي هو الركن والعماد، ونقلت من الصحف والدفاتر، وحررت علي هوي الخواطر، وذكرت الغث والسمين، والواهي والمتين، قال: وليسوا في عداد العلماء، فصنت الكتاب عن ذكرهم .

ورقة حازوا قصب السبق، في جودة التصنيف والحذق . غير أنهم طولوا في كتبهم بالمعادن، وكثرة الطرق والروايات، وعد منهم ابن جرير الطبري .

وفرقه جردت التفسير دون الأحكام، وبيان الحلال والحرام، والحل عن الغوامض والمشكلات، والرد علي أهل الزيغ والشبهات، كمشايق السلف الماضين، مثل مجاهد والسدي والكلبي .

ثم بين أنه لم يعثر في كتب من تقدمه علي كتاب جامع مذهب يعتمد .. ثم ذكر ما كان من رغبة الناس إليه في إخراج كتاب في تفسير القرآن وإجابته لمطلوبهم، رعاية منه لحقوقهم، وتقرباً به إلي الله .. ثم قال: « فاستخرت الله تعالي في تصنيف كتاب شامل، مذهب، ملخص، مفهوم، منظوم، مستخرج من زهاء مائة كتاب مجموعات مسموعات . سوي ما التقطته من التعليقات والأجزاء المتفرقات وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات، وهم قريب من ثلاثمائة شيخ، نسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز والترتيب » ثم قال: وخرجت فيه الكلام علي أربعة عشر نحواً: البسائط والمقدمات والعدد والتنزلات، والقصص، والنزولات، والوجوه والقراءات، والعلل والاحتجاجات، والعربية واللغات، والإعراب والموازنات، والتفسير والتأويلات، والمعاني والجهات، والغوامض والمشكلات، والأحكام والفقهيات، والحكم والإشارات، والفضائل والكرامات، والأخبار والمتعلقات، أدرجتها في أثناء الكتاب بحذف الأبواب، وسميته: كتاب (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) .. ثم ذكر في أول الكتاب أسانيده إلي من يروي عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفي بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب، كما ذكر أسانيده إلي مصنفات أهل عصره - وهي كثيرة - وكتاب الغريب والمشكل والقراءات، ثم ذكر باباً في فضل القرآن وأهله، وباباً في معني التفسير والتأويل، ثم شرع في التفسير .

عشرت علي هذا التفسير بمكتبة الأزهر فوجده مخطوطاً غير كامل، وجدت منه

أربع مجلدات ضخام - الأول والثاني والثالث والرابع - والرابع ينتهي عند أواخر سورة الفرقان، وباقي الكتاب مفقود لم أعثر عليه بحال.

قرأت في هذا التفسير فوجدته يفسر القرآن بما جاء عن السلف، مع اختصاره للأسانيد، اكتفاءً بذكرها في مقدمة الكتاب، ولاحظت عليه أنه يعرض للمسائل النجوية ويخوض فيها بتوسيع ظاهر، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله﴾ [البقرة: ٩٠] الآية، نجده يتوسع في الكلام علي (نعم) و(بئس) ويفيض في ذلك (١).

كما أنه يعرض لشرح الكلمات اللغوية وأصولها وتصريفها، ويستشهد علي ما يقول بالشعر العربي، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء﴾ [البقرة: ١٧١].. الآية، نجده يحلل كلمة (ينعق) تحليلاً دقيقاً ويصرفها علي وجوهها كلها (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ [البقرة: ١٧٣].. الآية، نجده يحلل لفظ البغي ويتكلم عن أصل المادة بتوسع (٣).

وما لاحظته علي هذا التفسير أنه يتوسع في الكلام عن الأحكام الفقهية عندما يتناول آية من آيات الأحكام، فتراه يذكر الأقوال والخلافات والأدلة ويعرض للمسألة من جميع نواحيها، إلي درجة أنه يخرج عما يراد من الآية، انظر إليه عندما يعرض لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ [النساء: ١١].. الآية، تجده يفيض في الكلام عما يفعل بتركة الميت بعد موته، ثم يذكر جملة الورثة والسهام المحددة ومن فرضه الربع، ومن فرضه الثمن، والثلاثان، والثلث، والسدس.. وهكذا، ثم يعرض لنصيب الجد والجددة والجدات، ثم يقول بعد هذا: (فصل في بساط الآية) وفيه يتكلم عن نظام الميراث عند الجاهلية وقبيل مبعث الرسول (٤).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النساء: ﴿فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة﴾ [النساء: ٢٤] تجده قد توسع في نكاح المتعة وتعرض لأقوال العلماء، وذكر أدلتهم بتوسع ظاهر (٥).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النساء: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ [النساء: ٣١].. الآية، تجده يقول: (فصل: في أقاويل

(٢) الجزء الأول ص ١٢٢.

(٤) الجزء الأول ص ٩١.

(١) الجزء الأول ص ٨٣ - ٨٤.

(٣) الجزء الأول ص ١٢٥.

(٥) الجزء الثاني ص ١٠٢ - ١٠٤.

أهل التأويل في عدد الكبائر، مجموعة من الكتاب والسنة، مقرونة بالدليل والحجة) .. ثم يسردها جميعاً ويذكر أدلتها علي وجه التفصيل (١).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] .. الآية، تجده يعرض لأقوال السلف في معني اللبس والملازمة .. ثم يقول: واختلف الفقهاء في حكم الآية علي خمسة مذاهب، ويتوسع علي الخصوص في بيان مذهب الشافعي ويسرد أدلته، ويذكر تفصيل كيفية الملازمة عنده، كما يعرض لأقوال العلماء في التيمم ومذاهبهم وأدلتهم بتوسع ظاهر عندما يتكلم عن قوله تعالى ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (٢).

وهكذا يتطرق الكتاب إلي نواح علمية متعددة، في إكثار وتطويل يكاد يخرج به عن دائرة التفسير بالمأثور.

ثم إن هناك ناحية أخرى يمتاز بها هذا التفسير، هي التوسع إلي حد كبير في ذكر الإسرائيليات بدون أن يتعقب شيئاً من ذلك أو ينبه علي ما فيه رغم استبعاده وغرابته، وقد قرأت فيه قصصاً إسرائيلية نهاية في الغرابة.

ويظهر لنا أن الثعلبي كان مولعاً بالأخبار والقصص إلي درجة كبيرة، بدليل أنه ألف كتاباً يشتمل علي قصص الأنبياء، ولو أنك رجعت إليه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة الكهف ﴿إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠] لوجدته يروي عن السدي ووهب وغيرهما كلاماً طويلاً في أسماء أصحاب الكهف وعددهم، وسبب خروجهم إليه، ولوجدته يروي عن كعب الأحبار، ما جري لهم مع الكلب حين تبعهم إلي الغار، ولعجبت حين تراه يروي أن النبي ﷺ طلب من ربه رؤية أصحاب الكهف فأجابه الله بأنه لن يراهم في دار الدنيا، وأمره بأن يبعث لهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته إلي آخر القصة التي لا يكاد العقل يصدقها (٣).

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة الكهف أيضاً: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤] تجده قد أطلال وذكر كلاماً لا يمكن أن يقبل بحال. لأنه أقرب إلي الخيال منه إلي الحقيقة (٤).

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمُلُهُ﴾ الآية [مريم: ٢٧]، تجده يروي عن السدي ووهب وغيرهما قصصاً كثيراً، وأخباراً في نهاية الغرابة والبعد (٥).

(٢) الجزء الثاني ص ١٥٢ - ١٣٦ .

(٤) الجزء الرابع ص ١٤٠ - ١٤٣ .

(١) الجزء الثاني ص ١١٠ - ١١٢ .

(٣) الجزء الرابع ص ١٢١ - ١٢٥ .

(٥) الجزء الرابع ص ١٤٧ - ١٤٩ .

ثم إن الثعلبي لم يتحرر الصحة في كل ما ينقل من تفاسير السلف، بل نجده - كما لاحظنا عليه وكما قال السيوطي في الإتيقان^(١) - يكثر من الرواية عن السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بالأحاديث الموضوعية في فضائل القرآن سورة سورة، فروي في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها منسوباً إلي أبي بن كعب، كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعية علي السنة الشيعية فسود بها كتابه دون أن يشير إلي وضعها واختلاقها. وفي هذا ما يدل عن أن الثعلبي لم يكن له باع في معرفة صحيح الأخبار من سقيمها .

هذا .. وإن الثعلبي قد جر علي نفسه وعلي تفسيره بسبب هذه الكثرة من الإسرائيليات، وعدم الدقة في اختيار الأحاديث، اللوم المرير والنقد اللاذع من بعض العلماء الذين لاحظوا هذا العيب علي تفسيره، فقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير^(٢): (والثعلبي هو نفسه كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع).

وقال أيضا في فتاواه: ^(٣) - وقد سئل عن بعض كتب التفسير: (وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره وتفسيره، وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها).

ومن يقرأ تفسير الثعلبي يعلم أن ابن تيمية لم يتقول عليه، ولم يصفه إلا بما هو فيه .

وقال الكتاني في الرسالة المستطرفة^(٤) عند الكلام عن الواحدي المفسر: (ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبي كبير بضاعة في الحديث، بل في تفسيرهما - وخصوصاً الثعلبي - أحاديث موضوعية وقصص باطلة).

والحق أن الثعلبي رجل قليل البضاعة في الحديث، بل ولا أكون قاسياً عليه إذا قلت إنه لا يستطيع أن يميز الحديث الموضوع من غير الموضوع، وإلا لما روي في تفسيره أحاديث الشيعة الموضوعية علي علي، وأهل البيت، وغيرها من الأحاديث التي اشتهر وضعها، وحذر العلماء من روايتها.

والعجب أن الثعلبي بعد هذا كله يعيب كل كتب التفسير أو معظمها حتي كتاب محمد بن جرير الطبري الذي شهد له خلق كثير، وليته إذ ادعي في مقدمة

(٢) صفحة ١٩ .

(٤) صفحة ٥٩ .

(١) الجزء الثاني ص ١٨٩ .

(٣) الجزء الثاني ص ١٩٣ .

تفسيره أنه لم يعثر في كتب من تقدمه من المفسرين علي كتاب جامع مذهب يعتمد، أخرج لنا كتابه خالياً مما عاب عليه المفسرين.. ليته فعل ذلك.. إذن لكان قد أراحنا وأراح الناس من هذا الخلط والخبط الذي لا يخلو منه موضع من كتابه.

٤ - معالم التنزيل (للبغوي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف معالم التنزيل هو أبو محمد، الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء^(١) البغوي^(٢)، الفقيه، الشافعي، المحدث، المفسر، الملقب بمحبي السنة وركن الدين. تفقه البغوي علي القاضي حسين وسمع الحديث منه، وكان تقياً ورعاً، زاهداً، قانعاً، إذا ألقى الدرس لا يلقيه إلا علي طهارة، وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز وحده، ثم عدل عن ذلك فصار يأكل الخبز مع الزيت. توفي رحمه الله في شوال سنة ٥١٠ هـ (عشر وخمسمائة من الهجرة) بـ (مروروز) وقد جاوز الثمانين، ودفن عند شيخه القاضي حسين بمقبرة الطالقاني.

● مبلغه من العلم:

كان البغوي إماماً في التفسير إماماً في الحديث، إماماً في الفقه، وعده التاج السبكي من علماء الشافعية الأعلام، وقال: كان إماماً جليلاً، ورعاً زاهداً فقيهاً، محدثاً مفسراً، جامعاً بين العلم والعمل، سالكاً سبيل السلف، وصنف في تفسير كلام الله تعالي، وأوضح المشكلات من قول النبي ﷺ، وروي الحديث واعتني بدراسته، وصنف كتباً كثيرة، فمن تصانيفه: (معالم التنزيل في التفسير) وهو الذي ترجمنا له، وسنتكلم عنه، وشرح السنة في الحديث، والمصابيح في الحديث أيضاً، والجمع بين الصحيحين، والتهذيب في الفقه وغير ذلك، وقد بورك له في تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته^(٣).

● التعريف بمعالم التنزيل وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون^(٤): (معالم التنزيل في التفسير، للإمام محبي السنة، أبي

(١) الفراء نسبة إلي عمل الفراء وبيعها.

(٢) البغوي نسبة إلي بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها بغ، وبغشور، وهذه النسبة شاذة علي خلاف الأصل. قاله السمعاني في كتاب (الأنساب).

(٣) انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٣، ووفيات الأعيان: ١/١٤٥ - ١٤٦ والطبقات

الكبرى لابن السبكي: ٤/٢١٤ - ٢١٥.

(٢) الجزء الثاني ص ٢٨٥.

محمد حسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفي سنة ٥١٦ هـ (ست عشرة وخمسمائة) ^(١) وهو كتاب متوسط، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، واختصره الشيخ تاج الدين أبو نصري عبد الوهاب بن محمد الحسيني المتوفي سنة ٨٧٥ هـ (خمس وسبعين وثمانمائة).

ووصفه الخازن في مقدمة تفسيره بأنه: (من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلامها، وأنبليها وأسمائها، جامع للصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه والتصحيح والتبديل، محلي بالأحاديث النبوية، مطرز بالأحكام الشرعية، موشي بالقصص الغريبة، وأخبار الماضيين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرج بأوضح العبارات، مفرغ في قالب الجمال بأفصح مقال).

وقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير ^(٢): (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة).

وقال في فتاواه ^(٣) - وقد سئل عن أي التفاسير أقرب إلي الكتاب والسنة: الزمخشري. أم القرطبي. أم البغوي أم غير هؤلاء؟؟ - قال: (وأما التفاسير الثلاثة المستعمل عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعية والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك).

وقال الكتاني في الرسالة المستطرفة (ص ٥٨): (وقد يوجد فيه - يعني معالم التنزيل - من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه أو وضعه).

وقد طبع هذا التفسير في نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير القرشي الدمشقي، كما طبع مع تفسير الخازن، وقد قرأت فيه فوجده يتعرض لتفسير الآية بلفظ سهل موجز، وينقل ما جاء عن السلف في تفسيرها، وذلك بدون أن يذكر السند، يكتفي في ذلك بأن يقول مثلاً: قال ابن عباس كذا وكذا، وقال مجاهد، كذا وكذا، وقال عطاء كذا وكذا، والسر في هذا هو أنه ذكر في مقدمة تفسيره إسناده إلي كل من يروي عنهم. وبين أن له طرقاً سواها تركها اختصاراً. ثم إنه إذا روي عن ذكر أسانيده إليهم بإسناد آخر غير الذي ذكره في مقدمة تفسيره فإنه يذكره عند الرواية، كما يذكر إسناده إذا روي عن غير من ذكر أسانيده إليهم من الصحابة والتابعين، كما أنه - بحكم كونه من الحفاظ المقنين للحديث - كان يتحري الصحة فيما يسنده إلي الرسول ﷺ، ويعرض

(١) هكذا قال، والصحيح ما تقدم، وكثيراً ما يخطئ صاحب كشف الظنون في تعيين التواريخ.

(٢) الجزء الثاني ص ١٩٣.

(٣) صفحة ١٩.

عن المناكير وما لا تعلق له بالتفسير، وقد أوضح هذا في مقدمة كتابه فقال: (وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب علي وفاق آية أو بيان حكم فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة. وعليها مقدار الشرع وأمور الدين - فهي من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث، وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير^(١)).

وقد لاحظت علي هذا التفسير أنه يروي عن الكلبي وغيره من الضعفاء كما لاحظت أنه يتعرض للقراءات، ولكن بدون إصراف منه في ذلك، كما أنه يتحاشي ما ولع به كثير من المفسرين من مباحث الإعراب، ونكت البلاغة، والاستطراد إلي علوم أخرى لا صلة لها بعلم التفسير، وإن كان في بعض الأحيان يتطرق إلي الصناعة النحوية ضرورة الكشف عن المعني، ولكنه مقل لا يكثر. ووجدته يذكر أحياناً بعض الإسرائيليات ولا يعقب عليها^(٢) ووجدته يورد بعض إشكالات علي ظاهر النظم ثم يجيب عنها^(٣). كما وجدته ينقل الخلاف عن السلف في التفسير ويذكر الروايات عنهم في ذلك، ولا يرجح رواية علي رواية، ولا يضعف رواية ويصحح أخرى. وعلي العموم فالكتاب في جملة أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور وهو متداول بين أهل العلم.

٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (لابن عطية)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي^(٤) الحافظ القاضي. ولي القضاء بمدينة المرية بالأندلس ولما تولي توخي الحق وعدل في الحكم وأعر الخطة. ويقال: إنه قصد مرسية بالمغرب ليتولي قضاءها، فصدَّ عن دخولها، وصرف منها إلي الرقة بالمغرب، وأعتدي عليه رحمه الله، وكان مولده سنة ٤٨١ هـ (إحدي وثمانين وأربعمئة)، وتوفي بالرقة سنة ٥٤٦ هـ (ست وأربعين وخمسائة من الهجرة) وقيل غير ذلك.

(١) الجزء الأول ص ٩.

(٢) انظر ما ذكره في قصه هاروت وماروت، وإنظر ما رواه عن الضحاك وغيره عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٥١) من سورة البقرة: ﴿وقتل داود جالوت﴾ (١/٦٠٤ - ٦٠٩).

(٣) انظر ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١١٧) من سورة البقرة: ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (١/٢٩٤).

(٤) اقتصرنا هنا علي ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط (١/٩) وقد راجعت بعض الكتب =

● مكانته العلمية:

نشأ القاضي أبو محمد بن عطية في بيت علم وفضل، فأبوه أبو بكر غالب بن عطية، إمام حافظ، وعالم جليل. رحل في طلب العلم وتفقه علي العلماء. وجده عطية أنسل كثيرا لهم قدر وفيهم فضل، فلا عجب إذن أن يشبه الفرع أصله.

كان أبو محمد بن عطية غاية في الدهاء والذكاء وحسن الفهم وجلالة التصرف شغوفاً باقتناء الكتب، وكان علي مبلغ عظيم من العلم، فكان فقيهاً جليلاً، عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، ونحوياً لغوياً، أديباً شاعراً مقيداً ضابطاً، سنياً فاضلاً. وصفه صاحب (قلائد العقيان) بالبراعة في الأدب، والنظم، والنثر، وذكر شيئاً من شعره، ووصفه أبو حيان في مقدمة البحر المحيط بأنه: (أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير) (١).

روي عن أبيه، وأبي علي الغساني، والصفدي. وروي عنه أبو بكر بن أبي حمزة، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو جعفر بن مضاء، وغيرهم.

وقد خلف من المؤلفات كتاب التفسير، المسمي بـ (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) وهو الكتاب الذي ترجمنا له وسنتكلم عنه، كما ألف برنامجاً ضمنه مروياته وأسماء شيوخه، وقد حرر هذا الكتاب وأجاد فيه.

وعلي الجملة، فالقاضي أبو محمد بن عطية عالم له شهرته العلمية في نواح مختلفة، وقد عده ابن فرحون في (الديباج المذهب) من أعيان مذهب المالكية كما عدة السيوطي في (بغية الوعاة) من شيوخ النحو وأساطين النحاة (٢).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن عطية المسمي بـ (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) تفسير له

= فوجدت الاختلاف في ذكر نسبه كثيراً، ففي الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: (عبد الحق غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرؤوف تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف ابن أسلم بن مكرم المحاربي، يكني أبو محمد من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس غيلان من مضر).

وفي بغية الوعاة في طبقات النحاة: (عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم، وقيل: عبد الرحمن ابن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطي، صاحب التفسير، الإمام أبو محمد).

وفي كشف الظنون عند التعريف بكتابه المحرر الوجيز: (أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي) وفيه أيضاً: (أبو محمد عبد الله بن عبد الحق).

(١) البحر المحيط: ٩/١.

(٢) انظر ترجمة ابن عطية في الديباج المذهب في أعيان المذهب ص ١٧٤، وفي بغية الوعاة

في طبقات النحاة للسيوطي ص ٢٩٥.

قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين، وذلك راجع إلي أن مؤلفه أضفي عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة، ورواجاً، وقبولاً. وقد لخصه مؤلفه - كما يقول ابن خلدون في مقدمته - من كتب التفاسير كلها - أي تفاسير المنقول - وتحري ما هو أقرب إلي الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحي (١).

والحق أن ابن عطية أحسن في هذا التفسير وأبدع، حتي طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته في العربية وغيرها من النواحي العلمية المختلفة، ومع هذه الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فإنه لا يزال مخطوطاً إلي اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ويوجد منه في دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط: الجزء الثالث، والخامس، والثامن، والعاشر. وقد رجعت إلي هذه الأجزاء وقرأت منها ما شاء الله أن قرأ، فوجدت المؤلف يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذية سهلة، ويورد من التفسير المأثور ويختار منه في غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطبري كثيراً، ويناقش المنقول عنه أحياناً، كما يناقش ما ينقله عن غير ابن جرير ويرد عليه. وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربي، معني بالشواهد الأدبية للعبارات، كما أنه يحتكم إلي اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات وينزل عليها المعاني المختلفة.

ونجد أبا حيان في مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري فيقول: (وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص، وكتاب الزمخشري أخلص، وأغوص) (٢).

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين الكتابين - كتاب ابن عطية وكتاب الزمخشري - في فتاواه فيقول: (وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع وإن اشتمل علي بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير) (٣). كما يعقد مثل هذه المقارنة في مقدمته في أصول التفسير فيقول: (وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثور عنهم علي وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري - وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا

(٢) تفسير البحر المحيط: ١/١٠.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١.

(٣) فتاوي ابن تيمية: ١٩٤/٢.

أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلي السنة من المعتزلة (١).

وأنا في أثناء قراءتي في هذا التفسير، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى في سورة يونس ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] يقول ما نصه: (قالت فرقة هي الجمهور: الحسني: الجنة. والزيادة: النظر إلي الله عز وجل، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ، رواه صهيب، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق، وحذيفة، وأبي موسى الأشعري). ثم يقول: (وقال فرقة: الحسني هي الحسننة، والزيادة هي تضعيف الحسنات إلي سبعمائة، فروتها حسب ما روي في نص الحديث وتفسير قوله تعالى ﴿يُضَاعَفُ لِمَنِ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]... وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول).. ثم يأخذ في ذكر طرق الترجيح للقول الثاني.

وهذا يدلنا علي أنه يميل إلي ما تميل إليه المعتزلة، أو علي الأقل يقدر ما ذهب إليه المعتزلة في مسألة الرؤية وإن كان يحترم مع ذلك رأي الجمهور. ولعل مثل هذا التصرف من ابن عطية هو الذي جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق.

٦ - تفسير القرآن العظيم (لابن كثير)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري ثم الدمشقي، الفقيه الشافعي، قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه، سمع من ابن الشحنة، والآمدني، وابن عساكر، وغيرهم، كما لازم المزني وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره علي ابنته. وأخذ عن ابن تيمية، وفتن بحبه، وامتحن بسببه. وذكر ابن قاضي شعبة في طبقاته: أنه كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسأله الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذى.

وقال الداودي في طبقات المفسرين: (كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، ولي مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبي - وبعد موت السبكي مشيخة الحديث الأشرفية مدة يسيرة، ثم أخذت منه) (٢).

وكان مولده سنة ٧٠٠ هـ (سبعمائة) أو بعدها بقليل وتوفي في شعبان سنة

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٣.

(٢) طبقات المفسرين للداودي ص ٣٢٧.

٧٧٤هـ (أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة)، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كف بصره في آخر عمره.. رحمه الله رحمة واسعة.

● مكانته العلمية:

كان ابن كثيرٍ علي مبلغٍ عظيم من العلم، وقد شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصاً في التفسير والحديث والتاريخ. قال عنه ابن حجر: (اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذي سماه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وشرع في شرح البخاري.. وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، وصارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، ولم يكن علي طريق المحدثين في تحصيل العوالي، وتمييز العاليي من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثي الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد). وقال الذهبي عنه في المعجم المختص: (الإمام المفتي، المحدث البار، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة)، وذكره صاحب شذرات الذهب فقال: (كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم) وقال ابن حبيب فيه: (زعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوي وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه في البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير) وقال فيه أحد تلاميذه ابن حجي: (أحفظ من أدر كناه لمتون الحديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أني اجتمعت به علي كثرة ترددي عليه إلا واستفدت منه). وعلي الجملة.. فعلم ابن كثير يتجلي بوضوح لمن يقرأ تفسيره أو تاريخه، وهما من خير ما ألف، وأجود ما أخرج للناس^(١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير المأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير. اعتني فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالي بالأحاديث والآثار مسندة إلي أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً. وقد طبع هذا التفسير مع معالم التفسير للبخاري، ثم طبع مستقلاً في أربعة أجزاء كبار^(٢).

وقد قدم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرض فيها لكثير من الأمور التي لها تعلق

(١) انظر ترجمة ابن كثير في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ٣٧٣ - ٣٧٤) وفي

شذرات الذهب (٦/ ٣٣١ - ٣٣٢)، وفي طبقات المفسرين للدودي ص ٣٢٧.

(٢) وقد قام المرحوم الشيخ أحمد شاكر بطبع هذا الكتاب أخيراً بعد أن جرده من الأسانيد.

واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير.

ولقد قرأت في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعني ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعني الواحد.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية، ويبين ما يحتج به وما لا يحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف.

ونجد ابن كثير يرجح بعض الأقوال علي بعض، ويضعف بعض الروايات ويصحح بعضهاً آخر منها، ويعدل بعض الرواة ويجرح بعضهاً آخر^(١). وهذا يرجع إلي ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

وكثيراً ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدمه.

ومما يمتاز به ابن كثير، أنه ينبه إلي ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويحذر منها علي وجه الإجمال تارة، وعلي وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً﴾ إلي آخر القصة، نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة وعن وجودهم لها عند رجل من بني إسرائيل كان من أبر الناس بأبيه.. إلخ، ويروي كل ما قيل في ذلك عن بعض علماء السلف: ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: (وهذه السياقات عن عبدة وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم).^(٢)

(١) انظر إليه وقد ضعف أبا معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني الذي يروي عنه أبو حاتم عند قوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿وَبَيْنَاتٍ مِنَ الْهَدْيِ وَالْفَرَقَانِ﴾ (٢١٦/١) وانظر إليه وقد ضعف يحيى بن سعيد عند قوله تعالي في الآية (٢٥١) من سورة البقرة ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ الآية (٣٠٣/١).

(٢) الجزء الأول ص ١٠٨ - ١١٠.

ومثلاً عند تفسيره لأول سورة (ق) نراه يعرض لمعني هذا الحرف في أول السورة (ق) ويقول: (. . . وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندني أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به علي الناس أمر دينهم، كما افتري في هذه الأمة مع جلاله قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب علي الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم^(١).

كما نلاحظ علي ابن كثير أنه يدخل في المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئت أن تري مثلاً لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالي في الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها وأدلتهم علي ما ذهبوا إليه^(٢)، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالي في الآية (٢٣٠) من سورة البقرة أيضاً: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾. الآية، فإنه قد تعرض لما يشترط في نكاح الزوج المحلل، وذكر أقوال العلماء وأدلتهم^(٣).

وهكذا يدخل ابن كثير في خلافات الفقهاء، ويخوض في مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مقل لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

وبالجمله . . . فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء فقال السيوطي في ذيل (تذكرة الحفاظ)، والزرقاني في (شرح المواهب): إنه لم يؤلف علي نمطه مثله^(٤).

* * *

(٢) الجزء الأول ص ٢١٦ - ٢١٧.

(١) الجزء الرابع ص ٢٢١.

(٣) الجزء الأول ص ٢٧٧ - ٢٧٩، وانظر إليه قبل ذلك مباشرة تجده قد أطال الكلام عن الخلع

(٤) الرسالة المستطرفة للكناني ص ١٤٦.

ومذاهب الفقهاء فيه.

٧ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن (للتعالبي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف الجواهر الحسان، هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجزائري، المغربي، المالكي، الإمام الحجة، العالم العامل الزاهد الورع، ولي الله الصالح العارف بالله. كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين. قال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلاً صالحاً، زاهداً، عالماً، عارفاً، ولياً من أكابر الأولياء. وبالجملة فقد اتفق الناس علي صلاحه وإمامته، وأثني عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح، كالإمام الأبي، والولي العراقي وغيرهما. وقد عرف هو بنفسه في مواضع من كتبه، وبين أنه رحل من الجزائر لطلب العلم في آخر القرن الثامن فدخل بجاية، ثم تونس، ثم رجل إلي مصر، ثم رجع إلي تونس. ويقول هو: لم يكن بتونس يوماً من يفوتني في علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرويه، تواضعاً منهم وإنصافاً، واعترافاً بالحق، وكان بعض المغاربة يقول لي لما قدمت من المشرق: أنت آية في علم الحديث. وذكر كل شيوخه الذين سمع منهم في تلك البلاد.

وكان الثعالبي إماماً علامة مصنفاً، خلف للناس كتباً كثيرة نافعة منها: (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) وهو التفسير الذي نحن بصدده، وكتاب الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، وتحفة الإخوان في إعراب بعض آيات القرآن، وكتاب جامع الأمهات في أحكام العبادات، وغير ذلك من الكتب النافعة في نواح علمية مختلفة. وكانت وفاته سنة ٨٧٦هـ (ست وسبعين وثمانمائة من الهجرة) أو في أواخر التي قبلها، عن نحو تسعين سنة ودفن بمدينة الجزائر، فرحمه الله ورضي عنه^(١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

نستطيع أن نأخذ فكرة عامة واضحة عن هذا التفسير من كلام مؤلفه نفسه الذي ذكره في مقدمته وخاتمته. يقول الثعالبي رحمه الله في مقدمة تفسيره بعد حمد الله والصلاة والسلام علي رسول الله: (فإني قد جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائده جمة، من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام

(١) انظر ترجمته في الضوء اللامع: ٤/ ١٥٢، وفي نيل الابتهاج بتطريز الديقاج

هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات وذلك قريب من مائة تأليف، وما فيها تأليف إلا وهو لإمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت، وعلي لفظ صاحبه عولت، ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه، وما انفردت بنقله عن الطبري، فمن اختصار الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخمي النحوي لتفسير الطبري نقلت، لأنه اعتنى بتهذيبه).

ثم أبان المؤلف عن رموز الكتاب فقال: (وكل ما في آخره: (انتهى) فليس هو من كلام ابن عطية، بل ذلك مما انفردت بنقله من غيره، ومن أشكل عليه لفظ في هذا المختصر فليراجع الأمهات المنقول عنها فليصلحه منها ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع في الزلل من حيث لا يشعر وجعلت علامة (التاء) لنفسه بدلاً من: (قلت)، ومن شاء كتبها: قلت وأما (العين) فلا ابن عطية. وما نقلته من الإعراب عن غير ابن عطية فمن الصفاقصي مختصر أبي حيان غالباً.، وجعلت (الصاد) علامة عليه، وربما نقلت عن غيره معزواً لمن عنه نقلت. وكل ما نقلته عن أبي حيان - وإنما نقلني له بواسطة الصفاقصي - أقول: قال الصفاقصي: وجعلت علامة ما زدته علي أبي حيان (م) وما يتفق لي إن أمكن فعلامته: (قلت) وبالجمله فحيث أطلق فالكلام لأبي حيان).

ثم قال: (وما نقلته من الأحاديث الصحاح والحسان عن غير البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي في باب الأذكار والدعوات، فأكثره من النووي وسلاح المؤمن. وفي الترغيب والترهيب وأصول الآخرة، فمعظمه من التذكرة للقرطبي، والعاقبة لعبد الحق. وربما زدت زيادة كثيرة من مصابيح البغوي وغيره، كما ستقف إن شاء الله تعالى علي كل ذلك معزواً لماله.

وبالجمله فكتابي هذا محشو بنفائس الحكم، وجواهر السنن الصحيحة، والحسان الماثورة عن سيدنا محمد ﷺ وسميته بالجواهر الحسان في تفسير القرآن).

ثم نقل مما جاء في مقدمة تفسير ابن عطية، فذكر باباً في فضل القرآن وباباً في فضل تفسير القرآن وإعرابه، وفصلاً فيما قيل في الكلام فيه، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين، وفصلاً في اختلاف الناس في معني قوله ﷺ: (أنزل القرآن علي سبعة أحرف) وفصلاً في ذكر الألفاظ التي في القرآن مما للغات العجم بها تعلق، وباباً في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية.. ثم شرع في التفسير بعد ذلك كله، وفي كل ما تقدم يعتمد علي ابن عطية وينقل عنه (١).

وفي خاتمة التفسير يقول: (وقد أودعته بحمد الله جزيلاً من الدرر، وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية. وأسقطت كثيراً من التكرار وما كان من الشواذ في غاية الوهي، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغني عنها، مميزة معزوة لمخالها، منقولة بالفاظها، وتوخيت في جميع ذلك الصدق والصواب) (١).

هذا هو وصف المؤلف لكتابه وبيانه له، ومنه يتضح جلياً أن الكتاب عبارة عن مختصر لتفسير ابن عطية، مع زيادة نقول نقلها الثعالبي عن سبقه من المفسرين ومن أجل هذا نستطيع أن نقول: إن الثعالبي في تفسيره هذا ليس له بعد الجمع والترتيب إلا عمل قليل، وأثر فكري ضئيل.

والكتاب مطبوع في الجزائر في أربعة أجزاء، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى بالمكتبة الأزهرية، وفي آخر الكتاب معجم مختصر في شرح ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة، ألحقه به مؤلفه، وزاد فيه كلمات أخرى وردت في غيره يحتاج إلي معرفتها، وجلها مما جاء في الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب الستة، وبعد هذا ذكر الثعالبي مرثيه التي رأي فيها النبي ﷺ.

وقد قرأت في هذا التفسير فلاحظت أنه التزم ما ذكره في مقدمته، فنقل عن ذكرهم، ورمز إليهم بالحروف المذكورة، ووجدته يتعرض للقراءات أحياناً ويدخل في الصناعة النحوية ناقلاً عن ذكره ومن عند نفسه، ورأيت أنه يستشهد في بعض المواضع بالشعر العربي علي المعني الذي يذكره، وهو إذ يذكر الروايات المأثورة في التفسير يذكرها بدون أن يذكر سنده إلي من يروي عنه، وقد وجدت الثعالبي يذكر بعض الروايات الإسرائيلية، ولكنه يتعقب ما يذكره بما يفيد عدم صحته، أو علي الأقل بما يفيد عدم القطع بصحته، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٢٠) من سورة النمل ﴿ وَتَقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ نجده يذكر بعض الأخبار الإسرائيلية، ثم يقول بعد الفراغ منها (والله أعلم بما صح من ذلك) (٢).

ومثلاً عندما تكلم عن (بلقيس) في نفس السورة السابقة نجده يقول: (وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية، أنها امرأة ملكة علي مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار) (٣).

وجملة القول .. فإن الكتاب مفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المخل، والاستطراد الممل.

٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور (للسيوطي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، السيوطي الشافعي، المسند المحقق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة، ولد في رجب سنة ٨٤٩ هـ (تسع وأربعين وثمانمائة)، وتوفي والده من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وأسد وصايته إلي جماعة، منهم الكمال بن الهمام، فقرره في وظيفة الشيخونية، ولحظه بنظره، وختم القرآن وله من العمر ثمان سنين، وحفظ كثيراً من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين، عدهم تلميذه الداودي فبلغ بهم واحداً وخمسين كما عد مؤلفاته فبلغ بها ما يزيد علي الخمسمائة مؤلف، وشهرة مؤلفاته تغني عن ذكرها، فقد اشتهرت شرقاً وغرباً، ورزقت قبول الناس. وكان السيوطي - رحمه الله - آية في سرعة التأليف حتي قال تلميذه الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، رجالاً، وغريباً، ومتناً وسنداً واستنباطاً للأحكام. ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث، قال: لو وجدت أكثر لحفظت. ولما بلغ الأربعين سنة تجرد للعبادة، وانقطع إلي الله تعالي، وأعرض عن الدنيا وأهلها، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سماه ب (التنفيس) وأقام في روضة المقياس ولم يتحول عنها إلي أن مات. وله مناقب وكرامات كثيرة. وله شعر كثير جيد، أغلبه في الفوائد العلمية، والأحكام الشرعية. وتوفي في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ (إحدى عشرة وتسعمائة) في منزله بروضة المقياس، فرضي الله عنه وأرضاه (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

عرف الجلال السيوطي نفسه هذا التفسير، وبين لنا الحامل له علي تأليفه، وذلك بمجموع ما ذكره في آخر كتاب الإتيقان له، وما ذكره في مقدمة الدر المنثور نفسه، فقال في آخر الإتيقان (٢/١٨٣): (وقد جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبي ﷺ فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم والله الحمد في أربع مجلدات، وسميته (ترجمان القرآن).

وقال في مقدمة الدر المنثور (٢/١): (وبعد.. فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن - وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ - وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات (٢)، رأيت قصور أكثر

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب: ٥١/٨ - ٥٥. (٢) أي طرقاً كثيرة.

الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار علي متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فليخصت منه هذا المختصر، مقتصراً فيه علي متن الأثر، مصدراً بالعزو والتخريج إلي كل كتاب معتبر وسميته بالدر المنثور، في التفسير المأثور).

ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطي اختصر كتابه الدر المنثور من كتابه ترجمان القرآن، وحذف الأسانيد مخافة الملل، مع عزوة كل رواية إلي الكتاب الذي أخذها منه.

ويقول السيوطي في آخر الإتقان (٣/١٩٠) : (وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك، بحيث لا يحتاج معه إلي غيره أصلاً، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهو الذي جعلت هذا الكتاب - يعني الإتقان - مقدمة له).

ومن هذه العبارة يتبين لنا أن كتاب: (مجمع البحرين، ومطلع البدرين) يشبه في منهجه وطريقته - إلي حد كبير - تفسير ابن جرير الطبري، ولكن لا ندرى إذا كان السيوطي قد أتم هذا التفسير أم لا، ويظهر لنا أنه لا صلة بينه وبين كتاب الدر المنثور، وذلك لأنني استعرضت كتاب الدر المنثور فوجدته لا يتعرض فيه مطلقاً لما ذكره من منهجه في مجمع البحرين ومطلع البدرين، فلا استنباط، ولا إعراب، ولا نكات بلاغية، ولا محسنات بديعية، ولا شيء مما ذكر أنه سيعرض له في مجمع البحرين ومطلع البدرين، وكل ما فيه هو سرد الروايات عن السلف في التفسير بدون أن يعقب عليها، فلا يعدل ولا يجرح، ولا يضعف ولا يصحح، فهو كتاب جامع فقط لما يروي عن السلف في التفسير، أخذه السيوطي من البخاري، ومسلم، والنسائي والترمذي، وأحمد، وأبي داود، وابن جرير، وابن أبي حاتم وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وغيرهم ممن تقدمه ودون التفسير.

والسيوطي رجل مغرم بالجمع وكثرة الرواية، وهو مع جلاله قدره، ومعرفته بالحديث وعلله، لم يتحر الصحة فيما جمع في هذا التفسير، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل، فالكتاب يحتاج إلي تصفية حتي يتميز لنا غثه من سمينه، وهو مطبوع في ست مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلي أن كتاب الدر المنثور، هو الكتاب الوحيد الذي اقتصر علي التفسير المأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئاً من عمل الرأي كما فعل غيره.

وإنما اعتبرنا كل هذه الكتب من كتب التفسير بالمأثور، نظراً لما أمتازت به عما

عداها من الإكثار في النقل، والاعتماد علي الرواية، وما كان وراء ذلك من محاولات تفسيرية عقلية، أو استطرادات إلي نواح تتصل بالتفسير، فذلك أمر يكاد يكون ثانوياً بالنسبة لما جاء فيها من روايات عن السلف في التفسير.

وإلي هنا نمسك عن الكلام عن بقية الكتب المؤلفة في التفسير المأثور لما قدمناه من عدم وصول جميعها إلينا، ومن مخافة التطويل.. ولعل القارئ الكريم يتفق معي علي أن هذه الكتب التي تقدمت، يغني الكلام عنها عن الكلام عما عداها من الكتب التي نهجت هذا المنهج وسلكت هذا الطريق.



الفصل الثاني

التفسير بالرأي وما يتعلق به من مباحث

● معنى التفسير بالرأي :

يطلق الرأي علي الاعتقاد، وعلي الاجتهاد، وعلي القياس، ومنه : أصحاب الرأي ، أي أصحاب القياس .

والمراد بالرأي هنا (الاجتهاد) وعليه فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانتها في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه علي أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وسنذكرها قريباً إن شاء الله تعالى .

● موقف العلماء من التفسير بالرأي :

اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين :

فقوم تشددوا في ذلك فلم يجروا علي تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهي إلي ما روي النبي ﷺ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين^(١) .

وقوم كان موقفهم علي العكس من ذلك، فلم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده .

والفريقان علي طرفي نقيض فيما يبدو، وكل يعزز رأيه ويقويه بالأدلة والبراهين .

أما الفريق الأول – فريق المانعين – فقد استدلوا بما يأتي :

أولاً – قالوا: إن التفسير بالرأي قول علي الله بغير علم، والقول علي الله بغير علم منهي عنه، فالتفسير بالرأي منهي عنه، دليل الصغري: أن المفسر بالرأي ليس علي يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى، ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول علي الله بغير علم .

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني، الملحقه بآخر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي

ودليل الكبرى: قوله تعالى ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو معطوف علي ما قبله من المحرمات في قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾. الآية وقوله تعالى في الآية (٣٦) من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

قد رد المجيزون هذا الدليل فقالوا: نمنع الصغري لأن الظن نوع من العلم، إذ هو إدراك الطرف الراجح. وعلي فرض تسليم الصغري فإننا نمنع الكبرى، لأن الظن منهي عنه إذا أمكن الوصول إلي العلم اليقيني القطعي، بأن يوجد نص قاطع من نصوص الشرع، أو دليل عقلي موصل لذلك، أما إذا لم يوجد شيء من ذلك، فالظن كاف هنا، لاستناده إلي دليل قطعي من الله سبحانه وتعالى وعلي صحة العمل به إذ ذاك. كقوله تعالى ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله عليه الصلاة والسلام: (جعل الله للمصيب أجرين وللمخطئ واحدًا) ولقول رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلي اليمن: (فبم تحكم؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله).

ثانيا - استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فقد أضاف البيان إليه، فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

وأجاب المجيزون عن هذا الدليل فقالوا: نعم إن النبي ﷺ مأمور بالبيان ولكنه مات ولم يبين كل شيء فما ورد بيانه عنه - ﷺ ففيه الكفاية عن فكره من بعده، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، فيستدلون بما ورد بيانه علي ما لم يرد، والله تعالى يقول في آخر الآية: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثالثا - استدلوا بما ورد في السنة من تحريم القول في القرآن بالرأي فمن ذلك:

١- ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار).. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن (١).

٢- ما رواه الترمذي وأبو داود عن جندب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) (٢). - ندمج
وأجاب المجيزون عن هذين الحديثين بأجوبة:

(٢) المرجع السابق.

(١) سنن الترمذي (في أبواب التفسير): ١٥٧/٢.

منها: أن النهي محمول علي من قال برأيه في نحو مشكل القرآن، ومتشابهه، من كل ما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبي ﷺ والصحابة عليهم رضوان الله . ومنها: أنه أراد - بالرأي - الرأي الذي يغلب علي صاحبه من غير دليل يقوم عليه، أما الذي يشده البرهان، ويشهد له الدليل، فالقول به جائز فالنهي علي هذا متناول لمن كان يعرف الحق ولكنه له في الشيء رأي وميل إليه من طبعه وهواه، فيتأول القرآن علي وفق هواه، ليحتج به علي تصحيح رأيه الذي يميل إليه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوي لما لاح له هذا المعني الذي حمل القرآن عليه. ومتناول لمن كان جاهلاً بالحق ولكنه يحمل الآية التي تحمل أكثر من وجه علي ما يوافق رأيه وهواه، ويرجح هذا الرأي بما يتناسب مع ميوله، ولولا هذا لما ترجح عنده ذلك الوجه. ومتناول أيضاً لمن كان له غرض صحيح ولكنه يستدل لغرضه هذا بدليل قرآني يعلم أنه ليس مقصوداً به ما أراد، مثل الداعي إلي مجاهدة النفس الذي يستدل علي ذلك بقوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٢٤] ويريد من فرعون النفس.. ولا شك أن مثل هذا قائل في القرآن برأيه.

ومنها: أن النهي محمول علي من يقول في القرآن بظاهر العربية، من غير أن يرجع إلي أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالى، وبدون أن يرجع إلي السماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من المبهمات. والحذف، والاختصار، والإضمار، والتقديم، والتأخير، ومراعاة مقتضي الحال، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وما إلي ذلك من كل ما يجب معرفته لمن يتكلم في التفسير، فإن النظر إلي ظاهر العربية وحده لا يكفي، بل لابد من ذلك أولاً، ثم بعد ذلك يكون التوسع في الفهم والاستنباط.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩] معناه: وأتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وآية بينة علي صدق رسالته، فظلموا بعقرها أنفسهم، ولكن الواقف عن ظاهر العربية وحدها بدون أن يستظهر بشيء مما تقدم، يظن أن (مبصرة) من الإبصار بالعين، وهو حال من الناقة، وصف لها في معني، ولا يدري بعد ذلك بم ظلموا ولا من ظلموا.

كل من هذه الأجوبة الثلاثة: يمكن أن يجاب به علي من يستند في قوله بحرمة التفسير بالرأي علي هذين الحديثين المتقدمين، وهي أجوبة سليمة دامغة كافية لإسقاط حجتها والاعتماد عليهما.

هذا.. ويمكن الإجابة عن حديث جندب - زيادة عما تقدم - بأن هذا الحديث لم تثبت صحته، لأن من رواه سهيل بن أبي حزم، وهو متكلم فيه، قال فيه أبو

حاتم: ليس بالقوي، وكذا قال البخاري والنسائي، وضعفه ابن معين، وقال فيه الإمام أحمد: روي أحاديث منكراً^(١)، والترمذي نفسه يقول بعد روايته لهذا الحديث: (وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم).

رابعاً- ما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التي تدل علي أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ويتخرجون من القول فيه بأرائهم.

فمن ذلك: ما جاء عن أبي مليكة أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن فقال: (أي سماء تظلني، وأى أرض تقلني، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى)؟

وما ورد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً.

وما روي عن الشعبي أنه قال: (ثلاث لا أقول فيهن حتي أموت: القرآن، والروح، والرأي).

وهذا ابن مجاهد يقول: (قال رجل لأبي أنت الذي تفسر القرآن برأيك؟ فبكي أبي، ثم قال: إني إذن لجرئ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم).

وهذا هو الأصمعي إمام اللغة، كان مع علمه الواسع شديد الاحتراز في تفسير الكتاب، بل والسنة، فإذا سئل عن معني شيء من ذلك يقول: (العرب تقول: معني هذا كله، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو).

.. وغير هذا كثير من الآثار الدالة علي المنع من القول في التفسير بالرأي. وقد أجاب المجيزون عن هذه الآثار: بأن إجماع من أحجم من السلف عن التفسير بالرأي، إنما كان منهم ورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مخافة ألا يبلغوا ما كلفوا به من إصابة الحق في القول، وكانوا يرون أن التفسير شهادة علي الله بأنه عني باللفظ كذا وكذا، فأمسكوا عنه خشية أن لا يوافقوا مراد الله عز وجل، وكان منهم من يخشي أن يفسر القرآن برأيه فيجعل في التفسير إماماً يبني علي مذهبه ويقتفي طريقه، فربما جاء أحد المتأخرين وفسر القرآن برأيه فوق في الخطأ، ويقول: إمامي في التفسير بالرأي فلان من السلف.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن إجماعهم كان مقيداً بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، أما إذا عرفوا وجه الصواب فكانوا لا يتخرجون من إبداء ما يظهر لهم ولو بطريق الظن فهذا

(١) انظر ميزان الاعتدال: ١/٤٣٢، وتهذيب التهذيب: ٤/٢٦١.

أبو بكر رضي الله عنه يقول: وقد سئل عن الكلالة - (أقول فيها برأبي فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان: الكلالة كذا وكذا).
ويمكن أن يقال أيضاً: إنما أحجم من أحجم، لأنه كان لا يتعين للإجابة، لوجود من يقوم عنه في تفسير القرآن وإجابة السائل، وإلا لكانوا كاتمين للعلم وقد أمرهم الله ببيانه للناس.

وهناك أجوبة أخرى غير ما تقدم. والكل يوضح لنا سر إحجام من أحجم من السلف عن القول في التفسير برأيهم، ويبين أنه لم يكن عن اعتقاد منهم بعدم جواز التفسير بالرأي.

وأما الفريق الثاني - فريق المجوزين - فقد استدلوا علي ما ذهبوا إليه بما يأتي:
أولاً- بنصوص كثيرة وردت في كتاب الله تعالى: منها قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ [محمد: ٢٤] وقوله: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].. وقوله: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، ووجه الدلالة في هذه الآيات: أنه تعالى حث في الآيتين الأوليين علي تدبر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته كما دلت الآية الأخيرة علي أن في القرآن ما يستنبطه أولوا الألباب باجتهادهم، ويصلون إليه بإعمال عقولهم، وإذا كان الله قد حثنا علي التدبر، وتعبدنا بالنظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً علي العلماء، مع أنه طريق العلم، وسبيل المعرفة والعظة؟ لو كان ذلك لكننا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم، ولما توصلنا لشيء من الاستنباط، ولما فهم الكثير من كتاب الله تعالى.

ثانياً- قالوا: لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل بين البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلي اليوم أمام أربابه، والمجتهد في حكم الشرع مأجور، أصاب أو أخطأ، والنبى ﷺ لم يفسر كل آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

ثالثاً: استدلوا بما ثبت من أن الصحابة - رضوان الله عليهم - قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره علي وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبى ﷺ إذ أنه لم يبين لهم كل معاني القرآن، بل بين لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر توصلوا إلي معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو كان القول بالرأي في القرآن محظوراً لكانت الصحابة قد خالفت ووقعت فيما حرم الله، ونحن نعيذ الصحابة من المخالفة والجرأة علي محارم الله.

رابعاً - قالوا: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال في دعائه له: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل) فلو كان التأويل مقصوراً علي السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء فدل ذلك علي أن التأويل الذي دعا به الرسول ﷺ لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد، وهذا بين لا إشكال فيه.

هذه هي أدلة الفريقين: وكل يحاول بما ذكر من الأدلة أن يثبت قوله ويركز مدعاه. والغزالي - في الإحياء بعد الاحتجاج، والاستدلال علي بطلان القول بأن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه - يقول: (فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله) (١). كما قال قبل ذلك بقليل: (إن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهي الإدراك فيه) (٢).

والراغب الأصفهاني - بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهم في مقدمة التفسير - يقول: (وذكر بعض المحققين: أن المذهبين هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر علي المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرّضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبُّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣) [ص: ٢٩].

● حقيقة الخلاف:

ونحن مع هذا البعض الذي نقل عنه الراغب هذا التحقيق إن وقف الفريق الأول عند المنقول فلم يتجاوزه، وأجاز الفريق الثاني لكل أحد الخوض في التفسير والكلام فيه، إذ أن الجمود علي المنقول تقصير وتفريط بلا نزاع، والخوض في التفسير لكل إنسان غلو وإفراط بلا جدال.

ولكن لو رجعنا إلي هؤلاء المتشددين في التفسير وعرفنا سر تشددهم فيه، ثم رجعنا إلي هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأي ووقفنا علي ما شرطوه من شروط لا بد منها لمن يتكلم في التفسير برأيه، وحللنا أدلة الفريقين تحليلاً دقيقاً، لظهر لنا أن الخلاف لفظي لا حقيقي، ولبيان ذلك نقول:

الرأي قسمان: قسم جار علي موافقة كلام العرب ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لاشك فيه، وعليه يحمل كلام المحيزين للتفسير بالرأي.

وقسم غير جار علي قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط

(٢) الإحياء: ١٢٦/٣.

(١) الإحياء: ١٣٧/٣.

(٣) مقدمة التفسير للراغب ص ٤٢٢.

التفسير، وهذا هو مورد النهي ومحط الذم، وهو الذي يرمي إليه كلام ابن مسعود إذ يقول: (ستجدون أقواماً يدعونكم إلي كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع)، وكلام عمر إذ يقول: (إنما أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن علي غير تأويله، ورجل ينافس الملك علي أخيه) وكلامه إذ يقول: (ما أخاف علي هذه الأمة من مؤمن ينهأه إيمانه، ولا من فاسق بيّن فسقه، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتي أذلقه بلسانه، ثم تأوله علي غير تأويله).

فكل هذا ونحوه، وارد في حق من لا يراعي في تفسير القرآن قوانين اللغة ولا أدلة الشريعة، جاعلاً هواه رائده، ومذهبه قائده، وهذا هو الذي يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأي، وقد قال ابن تيمية - بعد أن ساق الآثار عمن تخرج من السلف من القول في التفسير -: فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محموله علي تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب علي كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولما جاء في الحديث المروي من طرق: (من سئل عن علم فكتمه أجزم يوم القيامة بلجام من نار)^(١).

وإذا قد علمنا أن التفسير بالرأي قسمان: قسم مذموم غير جائز، وقسم ممدوح جائز، وتبين لنا أن القسم الجائز محدود بحدود، ومقيد بقيود فلا بد لنا من أن نعرض هنا لما ذكروه من العلوم التي يحتاج إليها المفسر وما ذكروه من الأدوات التي إذا توافرت لديه وتكاملت فيه، خرج عن كونه مفسراً للقرآن بمجرد الرأي، ومحض الهوي^(٢).

● العلوم التي يحتاج إليها المفسر:

اشترط العلماء في المفسر الذي يريد أن يفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود الماثور منه فقط، أن يكون ملماً بجملته من العلوم التي يستطيع بواسطتها

(١) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٣١ - ٣٢.

(٢) رجعنا في هذا البحث إلي مقدمة تفسير القرطبي ١ / ٣١ - ٣٥، والإحياء للغزالي:

٣ / ١٣٤ - ١٤٢، والإتقان: ٢ / ١٧٩ - ١٨٠، ومقدمة التفسير للراغب الأصفهاني ص ٤٢٢ -

٤٢٥، ومقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ٢٩ - ٣٢.

أن يفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ وتحميه من القول علي الله بدون علم، وإليك هذه العلوم مفصلة، مع توضيح ما لكل علم منها من الأثر في الفهم وإصابة وجه الصواب:

الأول - علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع. قال مجاهد: (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب) ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر في ذلك، لأن اليسير لا يكفي، إذ ربما كان اللفظ مشتركاً، والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفي عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

الثاني - علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره، أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال: حسن فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعي بوجهها فيهلك فيها.

الثالث - علم الصرف: وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: (ومن فاته المعظم، لأن (وجد) مثلاً كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها)، وحكي السيوطي عن الزمخشري أنه قال: (من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١] جمع (أم) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم دون آبائهم قال: وهذا غلط أوجب جهله بالتصريف، فإن (أما) لا تجمع علي إمام (١).

الرابع - الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلاً، هل هو من السياحة أو من المسح؟
الخامس والسادس والسابع - علوم البلاغة الثلاثة (المعاني و البيان و البديع) فعلم المعاني، يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعني. وعلم البيان، يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع، يعرف به وجوه تحسين الكلام.

(١) ونص عبارة الزمخشري: (ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع (أم) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم وأن الحكمة في الدعاء بالأسماء دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين: وألا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصح لفظه؟ أم بهاء حكيمته؟)

وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم.

الثامن - علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة علي بعض.

التاسع - علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسر أن يستدل علي ما يجب في حقه تعاللي، وما يجوز، وما يستحل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلي ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسر في ورطات.

العاشر - علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم، والخصوص والإطلاق، والتقييد ودلالة الأمر والنهي، وما سوي ذلك من كل ما يرجع إلي هذا العلم.

الحادي عشر - علم أسباب النزول: إذ أن معرفة سبب النزول يعين علي فهم المراد من الآية.

الثاني عشر - علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين علي توضيح ما أجمل منها في القرآن.

الثالث عشر - علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكوم من غيره. ومن فقد هذه الناحية، ربما أفتي بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

الرابع عشر - الأحاديث المبينة لتفسير الجمل والمبهم، ليستعين بها علي توضيح ما يشكل عليه.

الخامس عشر - علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعاللي لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعاللي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .. وبقوله ﷻ (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم).

قال السيوطي بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التي لا بد منها للمفسر (ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شئ ليس في قدرة الإنسان وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال في البرهان: (اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا تظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة أو كبر، أو هوي أو حب دنيا، أو هو مصر علي ذنب، أو غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق أو يعتمد علي قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلي معقوله، وهذه كلها حجج وموانع بعضها أكد من بعض) قلت: وفي هذا المعني قوله تعاللي ﴿سَأَصْرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال ابن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن، أخرجه ابن أبي حاتم^(١).
 هذه هي العلوم التي اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالى، وقد ذكرناها
 مسهبة مفصلة، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضاً وأعرض عن بعض آخر، ومنهم من
 أدمج بعضها في بعض وضغطها حتي كانت أقل عدداً مما ذكرنا، وليس هذا العدد
 الذي ذكرنا حاصراً لجميع العلوم التي يتوقف عليها التفسير، فإن القرآن - مثلاً - قد
 اشتمل علي أخبار الأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم، وهي أمور تقتضي الإمام
 بعلمي التاريخ وتقويم البلدان، لمعرفة العصور والأمكنة التي وجدت فيها تلك
 الأمم، ووقعت فيها هذه الحوادث. وأري أن أسوق هنا مقالة الأستاذ المرحوم
 السيد محمد رشيد رضا في مقدمة تفسيره تمييزاً للفائدة، وإليك نص
 هذه المقالة التي اقتسبها من دروس أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده عليه
 رضوان الله:

قال رحمه الله: (للتفسير مراتب: أدناها أن يبين بإجمال ما يشرب القلب عظمة
 الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلي الخير، وهذه هي التي قلنا إنها
 متيسرة لكل أحد: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ [القمر: ١٧].
 وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك
 من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيراً من الألفاظ
 كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت علي غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو
 بعيد، من ذلك لفظ: (التأويل)، اشتهر بمعني التفسير مطبقاً، أو علي وجه
 مخصوص، ولكنه جاء في القرآن بمعانٍ أخري، كقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله
 يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق﴾ [الأعراف: ٥٣]..
 فما هذا التأويل؟ يجب علي من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي
 حدثت في الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، فكثيراً ما يفسر المفسرون
 كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلي
 المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن
 أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه، بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما
 استعمل بمعانٍ مختلفة كلفظ الهداية وغيره، ويحقق؛ كيف يتفق معناه مع جملة
 معني الآية: فيعرف المعني المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه

(١) رجعنا في هذا البحث إلي الإتيان: ٢ / ١٨٠ - ١٨٢.

بعضاً، وإن أفضل قرينة تقوم علي حقيقة معني اللفظ موافقته لما سيق له من القول، واتفاقه مع جملة المعني، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

ثانيها: الأساليب، فينبغي أن يكون عنده من عملها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفتن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف علي مراد المتكلم منه. نعم إننا لا نتسامي إلي فهم مراد الله تعالي كله علي وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهدي به بقدر الطاقة، ويحتاج في هذا إلي علم الإعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب.

ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم؟ كلا، وإنما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة، ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم، ولو كان طبيعياً ذاتياً لما فقدوه في مدة خمسين سنة بعد الهجرة.

ثالثها: علم أحوال البشر، فقد انزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبين في غيره، بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبعتهم، والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير، علويه وسفليه، ويحتاج هذا إلي فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالي: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] الآية وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا وما معني تلك الوحدة التي كانوا عليها. وهل كانت نافعة أو ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عن أحاط بكل شيء علماً، وأمرنا بالنظر والتفكير، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكننا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب علي المفسر القائم بهذا

الفرض الكفائي، أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم علي وجه الحقيقة أو ما يقرب منها، إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟

هل يُكتفي من علماء القرآن - دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد - بأن يقولوا تقليداً لغيرهم: إن الناس كانوا علي باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة؟ كلا.

وأقول الآن: يروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يُخشي أن ينقض عري الإسلام عروة عروة). (انتهي بالمعني).

والمراد: أن من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله، يجهل تأثير هدايته، وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر، ومخرجاً لهم من الظلمات إلي النور، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي، كما تري بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم يعدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو، لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر، وتأثير تلك الآداب من أين جاء؟

خامسها: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل، وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها^(١).

هذه هي عبارة الأستاذ الشيخ رشيد رضا بنصها، وفيها تركيز وإدماج لبعض ما قلناه من قبل، وفيها شرح وإيضاح لبعض آخر منه، وهي تلقي ضوءاً علي ما تقدم، وتوضح بعض ما فيه من إيجاز.

● مصادر التفسير:

خرجنا من المعركة التي قامت بين المتحرجين من القول في التفسير بالرأي والمجيزين له: بأن الخلاف لفظي لا حقيقي، وأسفرت النتيجة عن انقسام التفسير بالرأي إلي قسمين: قسم جائز ممدوح، وقسم حرام مذموم، وعرفنا العلوم التي يجب علي المفسر معرفتها حتي يكون أهلاً للتفسير بالرأي الجائز وبقي علينا بعد ذلك أن نذكر المصادر التي يجب علي المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن، حتي يكون تفسيره جائزاً ومقبولاً، وإليك أهم هذه المصادر:

أولاً: الرجوع إلي القرآن نفسه، وذلك بأن ينظر في القرآن نظرة فاحص مدقق، ويجمع الآيات التي في موضوع واحد، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر، فإن من الآيات ما أجمل في مكان وفسر في مكان آخر، ومنها ما أوجز في موضع وبسط في موضع آخر، فيحمل المجمل علي المفسر، ويشرح ما جاء موجزاً بما جاء مسهباً مفصلاً، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ وقال برأيه المذموم.

ثانياً: النقل عن الرسول ﷺ، مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير، فإن وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه لأن النبي ﷺ مؤيد من ربه، وموكل إليه أن يبين للناس ما نزل إليهم، فمن يترك ما يصح عن النبي ﷺ في التفسير إلي رأيه فهو قائل بالرأي المذموم.

ثالثاً: الأخذ بما صح عن الصحابة في التفسير، ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك، لأن في التفسير كثيراً مما وضع علي الصحابة كذباً واختلاقاً فإن وقع علي قول صحيح لصحابي في التفسير، فليس له أن يهجره ويقول برأيه، لأنهم أعلم بكتاب الله، وأدري بأسرار التنزيل لما شاهدوه من القرائن والأحوال ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح، لاسيما علمائهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة: الخلفاء الراشدين، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس وغيرهم، وقد سبق لنا أن عرضنا لقول الصحابي، هل له حكم المرفوع أو لا، واستوفينا الكلام في ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

ثم هل للمفسر أن يعدل عن أقوال التابعين في التفسير، أو لا بد له من الرجوع إلي أقوالهم؟ خلاف سبق لنا أن عرضنا له أيضاً فلا داعي لإعادته.

رابعاً: الأخذ بمطلق اللغة، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولكن علي المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلي معان خارجة محتملة، يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا توجد غالباً إلا في الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها، روي البيهقي في الشعب عن مالك رضي الله عنه أنه قال (لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا).

خامساً: التفسير بالمقتضي من معني الكلام والمقتضب من قوة الشرع وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» والذي عناه علي رضي الله عنه بقوله - حين سئل: هل عندكم عن رسول الله ﷺ شيء بعد القرآن؟ - فقال: (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتية الله عز وجل رجلاً في القرآن).

ومن هنا اختلف الصحابة في فهم بعض آيات القرآن، فأخذ كل بما وصل إليه عقله، وأداه إليه نظره (١).

● الأمور التي يجب علي المفسر أن يتجنبها في تفسيره:

هناك أمور يجب علي المفسر أن يتجنبها في تفسيره حتى لا يقع في الخطأ ويكون ممن قال في القرآن برأيه الفاسد، وهذه الأمور هي ما يأتي:

أولاً: التهجم علي بيان مراد الله تعالي من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وبدون أن يُحصّل العلوم التي يجوز معها التفسير.

ثانياً: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. فليس للمفسر أن يتهجم علي الغيب بعد أن جعله الله تعالي سراً من أسرارهِ وحجبه عن عباده.

ثالثاً: السير مع الهوي والاستحسان، فلا يفسر بهواه ولا يرجح باستحسانه.

رابعاً: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً، فيحتال في التأويل حتى يصرفه إلي عقيدته، ويرده إلي مذهبه بأي طريق أمكن، وإن كان غاية في البعد والغرابة.

خامساً: التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، وهذا منهي عنه شرعاً، لقوله تعالي في سورة البقرة ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩] (٢)

وإذ قد بينا أن المفسر لا يجوز له أن يتهجم علي تفسير ما استأثر الله تعالي بعلمه وحجبه عن خلقه، وبيننا أنه لا يجوز له أن يقطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، لزم علينا أن نبين أنواع العلوم التي اشتمل عليها القرآن ما يمكن معرفته منها وما لا يمكن، فنقول:

أنواع علوم القرآن

تتنوع علوم القرآن إلي أنواع ثلاثة، وهي ما يأتي:

النوع الأول: علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه، من معرفة كنه ذاته وغيوبه التي لا يعلمها إلا هو، وهذا النوع لا يجوز لأحد الخوض فيه والتهجم عليه بوجه من الوجوه إجماعاً.

النوع الثاني: ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ من أسرار الكتاب واختصه به وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له - ﷺ - أو لمن أذن له قيل: ومنه الحروف المقطعة في أوائل السور، ومن العلماء من يجعلها من النوع الأول.

(١) انظر ما نقل عن الزركشي في الإتيان: ١٧٨ / ٢ - ١٧٩.

(٢) انظر ما نقل عن ابن النقيب في الإتيان: ١٨٣ / ٢.

النوع الثالث: علوم علمها الله نبيه مما أودع في كتابه من المعاني الجليلة والخفية وأمره بتعليمها، وهذا النوع قسمان:

قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع، وذلك كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والقراءات، واللغات، وقصص الأمم الماضية، وأخبار ما هو كائن من الحوادث، وأمور الحشر والمعاد.

وقسم يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من العبارات والألفاظ، وهو ينقسم إلي قسمين: أحدهما: اختلفوا في جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات في الصفات، وثانيهما: اتفقوا علي جوازه وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية، والمواعظ والحكم والإشارات وما شاكل ذلك من كل ما لا يمتنع استنباطه من القرآن واستخراجه منه لمن كان أهلاً لذلك^(١).

● المنهج الذي يجب علي المفسر أن ينهجه في تفسيره:

علمنا مما سبق: أن المفسر برأيه لا بد أن يلتم بكل العلوم التي هي وسائل لفهم كتاب الله، وأدوات للكشف عن أسراره، كما علمنا مما سبق أيضاً: أن المفسر لا بد أن يطلب المعني أولاً من كتاب الله، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن وموضحة له، فإن أعجزه ذلك رجع إلي أقوال الصحابة، لأنهم أدري بكتاب الله وأعلم بمعانيه، لما اقتصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولا احتمال أن يكونوا سمعوه من الرسول ﷺ فإن عجز عن هذا كله، ولم يظفر بشئ من تلك المراجع الأولي للتفسير، فليس عليه بعد ذلك إلا أن يعمل عقله، ويقدم فكره، ويجتهد وسعه في الكشف عن مراد الله تعالي، مستنداً إلي الأصول التي تقدمت، مبتعداً عن كل ما ذكرنا من الأمور التي تجعل المفسر في عداد المفسرين بالرأي المذموم، وعليه بعد ذلك أن ينهج في تفسيره منهجاً يراعي فيه القواعد الآتية، بحيث لا يحدد عنها، ولا يخرج عن نطاقها، وهذه القواعد هي ما يأتي:

أولاً: مطابقة التفسير للمفسر، من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعني، ولا زيادة لا تليق بالعرض ولا تناسب المقام، مع الاحتراز من كون التفسير فيه زيغ عن المعني وعدول عن المراد.

ثانياً: مراعاة المعني الحقيقي والمعني المجازي، فلعل المراد المجازي، فيحمل الكلام علي الحقيقة أو العكس.

ثالثاً: مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام، والمؤاخاة بين المفردات.

رابعاً: مراعاة التناسب بين الآيات، فبين وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق

(١) انظر ما نقل عن ابن النقيب في الإتقان: ٨٣/٢.

من آيات القرآن، حتي يوضح أن القرآن لا تفكك فيه، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض .

خامساً: ملاحظة أسباب النزول . فكل آية نزلت علي سبب فلا بد من ذكره بعد بيان المناسبة وقبل الدخول في شرح الآية، وقد ذكر السيوطي في الإتقان أن الزركشي قال في أوائل البرهان: (قد جرت عادة المفسرين أن يبدأوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث في أنه : أيهما أولي بالبداءة؟ أيبدأ بذكر السبب، أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة علي النزول؟ قال: والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفاً علي سبب النزول كآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] . فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل علي المقاصد وإن لم يتوقف علي ذلك، فالأولي تقديم وجه المناسبة^(١) .

سادساً: بعد الفراغ من ذكر المناسبة وسبب النزول . يبدأ بما يتعلق بالألفاظ المفردة - من اللغة، والصرف، والاشتقاق - ثم يتكلم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمعاني، ثم البيان ، ثم البديع ثم يبين المعني المراد، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه من الآية في حدود القوانين الشرعية .

سابعاً: علي المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار في القرآن ما أمكن .

نقل السيوطي عن بعض العلماء أنه قال: (مما يدفع توهم التكرار في عطف المترادفين نحو: ﴿ لَا تَبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٨]، ﴿ صَلَوَاتٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةً ﴾ [البقرة: ١٥٧] وأشبه ذلك، أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معني لا يوجد عند انفراد أحدهما، فإن التركيب يحدث معني زائداً، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعني، فكذلك كثرة الألفاظ^(٢) .

وعلي المفسر أيضاً أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو في التفسير كالخوض في ذكر علل النحو، ودلائل مسائل أصول الفقه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل مسائل أصول الدين، فإن كل ذلك مقرر في تأليف هذه العلوم، وإنما يؤخذ ذلك مسلماً في علم التفسير دون استدلال عليه .

وكذلك علي المفسر أن يتجنب ذكر ما لا يصح من أسباب النزول وأحاديث الفضائل، والقصص الموضوع، والأخبار الإسرائيلية، فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن، ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار .

ثامنها: علي المفسر بعد كل هذا أن يكون يقظاً، فظناً عليماً بقانون الترجيح حتي إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يرجح ويختار (١).

وإذا كان المفسر لابد له من أن يحتكم إلي قانون الترجيح عندما تحتمل الآية أكثر من وجه، فإننا في حاجة إلي بيان هذا القانون، الذي هو الحكم الفصل عند تزامن الوجوه وكثرة الاحتمالات فنقول:

قانون الترجيح في الرأي

أجمع كلمة قيلت في بيان هذا القانون، هي الكلمة التي نقلها لنا السيوطي في كتابه الإتيقان عن البرهان للزرکشي، ونري أن نسوقها هنا نقلاً عن الإتيقان، ونكتفي بذلك لما فيها من الكفاية.

قال الزرکشي رحمه الله تعالي: (كل لفظ احتمل معنيين فصاعداً هو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل علي أن المراد هو الخفي.

وإن استويا، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل علي الشرعية أولي، إلا أن يدل دليل علي إرادة اللغوية، كما في قوله ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. ولو كان في أحدهما عرفية، والآخر لغوية، فالحمل علي العرفية أولي. وإن اتفقا في ذلك أيضاً: فإن تنافي اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد، كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالي في حقه. وإن لم يظهر له شئ فهل يتخير في الحمل علي أيهما شاء؟ أو يأخذ بالأغلظ حكماً؟ أو بالأخف؟ أقوال. وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلا إن دل دليل علي إرادة أحدهما (٢).

● منشأ الخطأ في التفسير بالرأي:

يقع الخطأ كثيراً في التفسير من بعض المتصدرين للتفسير بالرأي، الذين عدلوا عن مذاهب الصحابة والتابعين، وفسروا بمجرد الرأي والهوي، غير مستندين إلي تلك الأصول التي قدمنا أنها أول شئ يجب علي المفسر أن يعتمد عليه. ولا متذرعين بتلك العلوم التي هي في الواقع أدوات لفهم كتاب الله والكشف عن أسراره ومعانيه.

(١) يراجع الإتيقان: ٢/١٨٥ - ١٨٦، ومناهل العرفان: ١/٤٤٥، ٤٤٦، ومنهج

(٢) الإتيقان: ٢/١٨٢.

الفرقان: ٢/٤١.

ونري هنا أن نذكر منشأ هذا الخطأ الذي وقع فيه كثير من طوائف المفسرين فنقول :
يرجع الخطأ في التفسير بالرأي - غالباً - إلي جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة
والتابعين وتابعيهم بإحسان، فإن الكتب التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً غير ممزوج
بغيره، كتفسير عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وغيرهما لا يكاد يوجد فيها شئ من
هاتين الجهتين، بخلاف الكتب التي جددت بعد ذلك فإن كثيراً منها، كتفاسير المعتزلة
والشيعة، مليئة بأخطاء لا تغتفر حملهم علي ارتكابها نصره المذهب والدفاع عن
العقيدة.

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ في الغالب فهما ما يأتي :

الجهة الأولى : أن يعتقد المفسر معني من المعاني، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن
علي ذلك المعني الذي يعتقده.

الجهة الثانية : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من
الناطقين بلغة العرب. وذلك بدون نظر إلي المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.
فالجهة الأولى : مراعي فيها المعني الذي يعتقده المفسر من غير نظر إلي ما تستحقه
ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

والجهة الثانية : مراعي فيها مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربي، من غير نظر
إلي ما يصلح للمتكلم به والمخاطب، وسيق الكلام.

ثم إن الخطأ الذي يرجع إلي الجهة الأولى يقع علي أربع صور :

الصورة الأولى : أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً فمراعاة لهذا
المعني يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا
ينفي المعني الظاهر المراد، وعلي هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل لا في المدلول، وهذه
الصورة تنطبق علي كثير من تفاسير الصوفية والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان
صحيحة في ذاتها ولكنها غير مرادة، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعني، وذلك مثل
كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير، فمثلاً عندما عرض لقلوبه
تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] الآية نجده يقول ما نصه: ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها،
﴿أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم.. إلخ (١).

الصورة الثانية : أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً فمراعاة
لهذا المعني يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به. ويحملة علي ما يريده هو، وعلي

هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل لا في المدلول أيضاً وهذه الصورة تنطبق علي تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعانٍ إشارية صحيحة في حد ذاتها، ومع ذلك فإنهم يقولون: إن المعاني الظاهرة غير مرادة، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلي تفسير الباطنية، ومن ذلك ما فسره سهل التستري قوله تعالي في سورة البقرة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].. حيث يقول ما نصه: لم يرد الله معني الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معني مساكنة الهمة لشئ هو غيره..... إلخ (١).

الصورة الثالثة: أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ فمراعاة لهذا المعني يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي الظاهر المراد، وعلي هذا يكون الخطأ واقعاً في الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق علي ما ذكره بعض المتصوفة من المعاني الباطلة، وذلك كالتفسير المبني علي القول بوحدة الوجود، كما جاء في التفسير المنسوب لابن عربي عندما عرض لقوله تعالي من سورة الزمل: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [الزمل: ٨].. من قوله في تفسيرها واذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي أعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله..... إلخ (٢).

الصورة الرابعة: أن يكون المعني الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ فمراعاة لهذا المعني يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به، ويحملة علي ذلك الخطأ دون الظاهر المراد، وعلي هذا يكون الخطأ في الدليل والمدلول معاً، وهذه الصورة تنطبق علي تفاسير أهل البدع، والمذاهب الباطلة، فتارة يلون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلي معني ليس في اللفظ أي دلالة عليه، كتفسير بعض غلاة الشيعة: (الجبت والطاغوت) بأبي بكر وعمر، وتارة يحتالون علي صرف اللفظ عن ظاهره إلي معني فيه تكلف غير مقبول، وذلك إذا أحسوا أن اللفظ القرآني يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة فيفسر لفظ (إلي) في قوله تعالي في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالنعمة، ذهاباً منهم إلي أن (إلي) واحد الآلاء، بمعني النعم، فيكون المعني: ناظرة نعمة ربها، علي التقديم والتأخير (٣)، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله في الآخرة.

وأما الخطأ الذي يرجع إلي الجهة الثانية فهو يقع علي صورتين:

الصورة الأولى: أن يكون اللفظ محتملاً للمعني الذي ذكره المفسر لغة، ولكنه

(١) تفسير التستري ص ١٦.

(٢) التفسير المنسوب لابن عربي: ٢/٣٥٢.

(٣) أمالي السيد المرتضي: ١/٢٨.

غير مراد، وذلك كاللفظ الذي يطلق في اللغة علي معنيين أو أكثر. والمراد منه واحد بعينه، فيأتي المفسر فيحمله علي معني آخر من معانيه غير المعني المراد، وذلك كلفظ (أمة) فإنه يطلق علي معان، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة في الدين، والرجل الجامع لصفات الخير، فحمله علي غير معني الطريقة المسلوكة في الدين في قوله تعالي في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] غير صحيح وإن احتمله اللفظ لغة.

الصورة الثانية: أن يكون اللفظ موضوعاً لمعني بعينه، ولكنه غير مراد في الآية، وإنما المراد معني آخر غير ما وضع له اللفظ بقريئة السياق مثلاً فيخطئ المفسر في تعيين المعني المراد، لأنه اكتفي بظاهر اللغة، فشرح اللفظ علي معناه الوضعي، وذلك كتفسير لفظ (مبصرة) في قوله تعالي في سورة الإسراء ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] بجعل (مبصرة) من الإبصار بالعين، علي أنها حال من الناقة، وهذا خلاف المراد، إذ المراد: آية واضحة (١).

● التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي:

قلنا إن التفسير بالرأي قسمان: قسم مذموم غير مقبول، وقسم ممدوح ومقبول، أما القسم المذموم، فلا يعقل وجود تعارض بينه وبين المأثور، لأنه ساقط من أول الأمر، وخارج عن محيط التفسير بمعناه الصحيح.

وأما التفسير بالرأي الحمود، فهذا هو الذي يعقل التعارض بينه وبين التفسير المأثور، وهذا هو الذي نريد أن نتكلم فيه ونعرض له بالبحث والبيان، غير أنه يتحتم علينا - ليكون الكلام علي بصيرة - أن نعرض لبيان معني هذا التعارض فنقول:

التعارض بين التفسير العقلي والتفسير المأثور معناه التقابل والتنافي بينهما، وذلك بأن يدل أحدهما علي إثبات أمر مثلاً، والآخر يدل علي نفيه، بحيث لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال، فكأن كلاهما وقف في عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه. وأما إذا وجدت المغايرة بينهما بدون منافاة وأمكن الجمع، فلا يسمي ذلك تعارضاً، وذلك كتفسيرهم: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالقرآن، وبالإسلام، وبطريق العبودية، وبطاعة الله ورسوله، فهذه المعاني وإن تغايرت غير متنافية ولا متناقضة، لأن طريق الإسلام هو طريق القرآن، وهو طريق العبودية، وهو طاعة الله ورسوله. ومثلاً تفسيرهم لقوله تعالي: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾

[فاطر: ٣٢].. قيل فيه: السابق هو الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد هو الذي يصلي في أثنائه، والظالم هو الذي يصلي بعد فواته.

وقيل: السابق من يؤدي الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد من يؤدي الزكاة المفروضة وحدها، والظالم لنفسه من يمنع الزكاة ولا يتصدق.

وغير خاف أنه لا تنافي بين هذين التفسيرين وإن تغايرا، لأن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يتناول من يفعل الواجبات ويتقرب بعد ذلك بزيادة الحسنات، فكل ذكر فرداً لعام علي سبيل التمثيل لا الحصر.

هذا.. وإن الصور العقلية التي يحصل فيها التعارض بين التفسير العقلي والتفسير النقلية هي ما يأتي:

أولاً: أن يكون العقلي قطعياً والنقلي قطعياً كذلك.

ثانياً: أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً.

ثالثاً: أن يكون أحدهما ظنياً والآخر ظنياً كذلك.

– وأما الصورة الأولى، ففرضية، لأنه لا يعقل تعارض بين قطعي وقطعي ومن المحال أن يتناقض الشرع مع العقل.

– وأما الصورة الثانية: فالقطعي منهما مقدم علي الظني إذا تعذر الجمع ولم يمكن التوفيق، أخذاً بالأرجح وعملاً بالأقوي.

– وأما الصورة الثالثة: فإن أمكن الجمع بين العقلي والنقلي، وجب حمل النظم الكريم عليهما. وإن تعذر الجمع، قدم التفسير المأثور عن النبي ﷺ إن ثبت من طريق صحيح، وكذا يقدم ما صح عن الصحابة، لأن ما يصح نسبه إلي الصحابة في التفسير، النفس إليه أميل، لاحتمال سماعه من الرسول ﷺ ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح، ولما اختصوا به من مشاهدة التنزيل.

وأما ما يؤثر عن التابعين ففيه التفصيل وذلك إما أن يكون التابعي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب أولاً، فإن عرف بالأخذ عن أهل الكتاب قدم التفسير العقلي. وإن لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب وتعارض ما جاء عنه مع التفسير العقلي – كما هو الفرض – فحينئذ نلجأ إلي الترجيح، فإن تأيد أحدهما بسمع أو استدلال رجحناه علي الآخر، وإن اشتبهت القرائن وتعارضت الأدلة والشواهد، توقفنا في الأمر، فنؤمن بمراد الله تعالي ولا نتهجم علي تعيينه، وينزل ذلك منزلة المجمال قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

وبعد.. فهذا هو التفسير العقلي بقسميه، وهذه هي نظرات العلماء إليه، وتلك

هي حقيقة الخلاف، ثم هذه هي البحوث التي تتعلق به تعلقاً قوياً، وتتصل به اتصالاً وثيقاً، وأري بعد ذلك أن أتكلّم عن أهم كتب التفسير بالرأي الجائز وأشهرها، متعرضاً لنبذة قصيرة عن كل مؤلف، تلقي لنا ضوءاً علي شخصيته الذاتية والعلمية، متلزماً ببيان المسلك الذي سلكه كل منهم في تفسيره، وطريقته التي جري عليها وامتاز بها، بما يظهر لي من ذلك أثناء قراءتي في هذه الكتب، مستعيناً في ذلك بما أظفر به من مقدمات قدم بها أصحاب هذه الكتب لكتبهم، ثم بعد الفراغ من ذلك يكون لنا كلام آخر عن موقف بعض الفرق من التفسير، وعن أشهر مؤلفاتهم فيه، وهي لا تكاد تخرج عن دائرة التفسير بالرأي المذموم.

* * *

الفصل الثالث

أهم كتب التفسير بالرأي الجائز

● تمهيد:

ابتدأ عهد التدوين من قديم، وظفر التفسير بالتدوين كغيره من العلوم فألفت فيه كتب اختلفت في منهجها، حسب اختلاف مشارب مؤلفيها، وظفرت هذه الناحية من التفسير - ناحية التفسير بالرأي الجائز - بكثرة زاخرة من الكتب المؤلفة، كثرة تضخمت علي مر العصور وكر الدهور، ففي كل عصر يجد جديد من الكتب المؤلفة في التفسير بالرأي الجائز، ثم تنضم إلي ما سبق من ذلك حتي ازدحمت بها المكتبة الإسلامية علي اتساعها وطول عهدها.

ولكن هل احتفظت لنا المكتبة الإسلامية بكل هذه الكتب؟ أو عفي رسمها وذهب أثرها؟

لا.. لا هذا، ولا ذاك، بل احتفظت لنا ببعضها، وذهب بعضها الآخر بتقادم الزمن عليه، ومع هذا فإن القصور المكتبي، حال بيننا وبين الإطلاع علي جميع ما خلفته لنا المكتبة الإسلامية العامة.. ولهذا ولعدم القدرة علي الإطلاع علي كل ما يوجد من هذه الكتب واستيعابه بالبحث والدراسة أكتفي بأن أتعرض لبعض هذه الكتب علي ضوء المنهج الذي بينته، ولعل في ذلك غني عن بعضها الآخر، الذي حال بيني وبين القصور المكتبي تارة، والقصور الزمني تارة أخرى.

هذا... ولا يفوتني أن أنبه إلي أن هذه الكتب التي وقع عليها اختياري، يتجه كل منها إلي اتجاه معين، وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحي التفسير وألوانه، فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفة والكلامية، ومنها ما تطغى فيه الناحية القصصية والإسرائيلية، ومنها غير ذلك. ولكن الجميع ينضم تحت شيء واحد هو التفسير بالرأي الجائز فلا عليه - إذن - إن كنت قد جمعت بين هذه الكتب المختلفة المنازع والاتجاهات وهذا أمر اعتياري لا أقل ولا أكثر.

أما هذه الكتب التي وقع عليها اختياري، فهي ما يأتي:

- ١ - مفاتيح الغيب : للفخر الرازي .
- ٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوي .
- ٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل : للنسفي .
- ٤ - لباب التأويل في معاني التنزيل : للخازن .
- ٥ - البحر المحيط : لأبي حيان .
- ٦ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان : للنيسابوري .

٧ - تفسير الجلالين : للجلال المحلي، والجلال السيوطي

٨ - السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير
للخطيب الشربيني .

٩ - إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم : لأبي السعود

١٠ - روح المعاني في تفسر القرآن العظيم والسبع المثاني : للألوسي
هذه هي الكتب التي وقع عليها اختياري، و سأتكلم عنها علي حسب هذا
الترتيب فأقول وبالله التوفيق .

١ - مفاتيح الغيب (للرازي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي، البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ (أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة) كان رحمه الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمي شهرة عظيمة فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الري، وعن الكمال السمعاني، والمجد الجيلي، وكثير من العلماء الذين عاصروهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة في الوعظ، حتي قيل إنه كان يعظ باللسان العربي واللسان العجمي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، ولقد خلف - رحمه الله - للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه في الفنون المختلفة، وقد انتشرت هذه التصانيف في البلاد، ورزق فيها الحظوة الواسعة والسعادة العظيمة، إذ أن الناس اشتغلوا بها، وأعرضوا عن كتب المتقدمين، ومن أهم هذه المصنفات تفسيره الكبير المسمي بمفاتيح الغيب، وهو ما نحن بصده الآن وله تفسير سورة الفاتحة في مجلد واحد، ولعله هو الموجود بأول تفسيره (مفاتيح الغيب) وله في علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان في الرد علي أهل الزيغ والطغيان. وله في أصول الفقه: الحصول وفي الحكمة: الملخص وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة وفي الطلمسات: السر المكنون ويقال: إنه شرح المفصل في النحو للزمخشري، وشرح الوجيز في الفقه للغزالي.. وغير هذا كثير من مصنفاته، التي يتجلي فيها علم الرجل الواسع الغزير.

هذا.. وقد كانت وفاة الرازي - رحمه الله - سنة ٦٠٦هـ (ست وستمائة من

الهجرة) بالري ، ويقال في سبب وفاته : أنه كان بينه وبين الكرامية خلاف كبير وجدل في أمور العقيدة فكان ينال منهم وينالون منه سباً وتكفيراً وأخيراً سموه فمات علي إثر ذلك واستراحوا منه (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يقع هذا التفسير في ثماني مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم ، ويقول ابن قاضي شهبة : إنه - أي الفخر الرازي - لم يتمه (٢)، كما يقول ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان (٣)، إذن فمن الذي أكمل هذا التفسير؟ وإلي أي موضع من القرآن وصل الفخر الرازي في تفسيره؟.

الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلي حلها حلاً حاسماً، لتضارب أقوال العلماء في هذا الموضوع ، فابن حجر العسقلاني، في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، يقول : (الذي أكمل تفسير فخر الدين الرازي، هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكّي نجم الدين الخزومي القمولي، مات سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمئة من الهجرة) وهو مصري (٤)).

وصاحب كشف الظنون يقول : (وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي تكلمة له، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ (سبع وعشرين وسبعمئة من الهجرة) وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويي الدمشقي، كمل ما نقص منه أيضاً، وتوفي سنة ٦٣٩ هـ (تسع وثلاثين وستمئة) (٥)).

فأنت تري أن ابن حجر يذكر أن الذي أمّ تفسير الفخر هو نجم الدين القمولي، وصاحب كشف الظنون يجعل لشهاب الدين الخويي مشاركة علي وجه ما في هذه التكملة، وإن كانا يتفقان علي أن الرازي لم يتم تفسيره.

وأما إلي أي موضع وصل الفخر في تفسيره؟ فهذه كالأولي أيضاً، وذلك لأننا وجدنا علي هامش كشف الظنون ما نصه : (الذي رأيته بخط السيد مرتضي نقلاً عن شرح الشفا للشهاب، أنه وصل فيه إلي سورة الأنبياء (٦)).

وقد وجدت في أثناء قراءتي في هذا التفسير عند قوله تعالي في سورة الواقعة : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [الواقعة : ٢٤] هذه العبارة (المسألة الأولى أصولية، ذكرها

(١) انظر وفيات الأعيان : ٢/٢٦٥ - ٢٦٨، وشذرات الذهب : ٥/٢١.

(٢) شذرات الذهب : ٥/٢١.

(٣) الجزء الثاني ص ٢٦٧.

(٤) الدرر الكامنة : ١/٣٠٤.

(٥) كشف الظنون : ٢/٢٩٩.

(٦) كشف الظنون : ٢/٢٩٩ (هامش).

الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها.. إلخ (١). وهذه العبارة تدل علي أن الإمام فخر الدين، لم يصل في تفسيره إلي هذه السورة.

كما وجدت عند تفسيره لقوله تعالي في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦].. الآية، أنه تعرض لموضوع النية في الوضوء. واستشهد علي اشتراط النية فيه بقوله تعالي في سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وبين أن الإخلاص عبارة عن النية، ثم قال: (وقد حققنا الكلام في هذا الدليل في تفسير قوله تعالي: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فليرجع إليه في طلب زيادة الإقتان) (٢).

وهذه العبارة تشعر بأن الفخر الرازي فسر سورة البينة، أي أنه وصل إليها في تفسيره، وهذا طبعاً بحسب ظاهر العبارة المجرد عن كل شيء. والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أن الإمام فخر الدين كتب تفسيره هذا إلي سورة الأنبياء فأتي بعده شهاب الدين الخويي، فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتي بعده نجم الدين القمولي فأكمل ما بقي منه. كما يجوز أن يكون الخويي أكمله إلي النهاية، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخويي، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون.

وأما إحالة الفخر علي ما كتب في سورة البينة، فهذا ليس بصريح في أنه وصل إليها في تفسيره، إذ لعله كتب تفسيراً مستقلاً لسورة البينة، أو لهذه الآية وحدها، فهو يشير إلي ما كتب فيها ويحيل عليه.

أقول هذا: وأعتقد أنه ليس حلاً حاسماً لهذا الاضطراب، وإنما هو توفيق يقوم علي الظن يخطئ ويصيب.

ثم إن القارئ في هذا التفسير، لا يكاد يلحظ فيه تفاوتاً في المنهج والمسلوك، بل يجري الكتاب من أوله إلي آخره علي نمط واحد، وطريقة واحدة، تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة ولا يتمكن من الوقوف علي حقيقة المقدار الذي كتبه الفخر، والمقدار الذي كتبه صاحب التكملة.

هذا.. وإن تفسير الفخر الرازي ليحظي بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعة، في نواح شتى من العلم

(١) مفاتيح الغيب: ٦٨/٨.

(٢) مفاتيح الغيب: ٥٣٩/٣.

ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول: (إنه - أي الفخر الرازي - جمع فيه كل غريب وغريبة) (١).

● اهتمام الفخر الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره:

وقد قرأت في هذا التفسير، فوجدت أنه يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة بل كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة.

● اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية:

كما أنه يكثر من الاستطراد إلي العلوم الرياضة والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، علي ما كانت عليه في عهده كالهئية الفلكية وغيرها، كما أنه يعرض كثيراً لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، وإن كان يصوغ أدلته في مباحث الإلهيات علي نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن بما يتفق ومذهب أهل السنة.

● موقفه من المعتزلة:

ثم إنه - كسني يري ما يراه أهل السنة، ويعتقد بكل ما يقررونه من مسائل علم الكلام - لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها، رداً لا يراه البعض كافياً ولا شافياً.

فهذا هو الحافظ ابن حجر يقول عنه في لسان الميزان: (وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصر في حلها، حتي قال بعض المغاربة: (يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة). (٢).

وقال ابن حجر أيضاً في لسان الميزان: (ورأيت في الأكسير في علم التفسير للنجم الطوفي ما ملخصه: ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي، ومن تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب، فحدثني شرف الدين النصيبي، عن شيخه سراج الدين السرمياحي المغربي، أنه صنف كتاب المآخذ في مجلدين، بين فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج وكان ينقم عليه كثيراً ويقول: يورد شبهه المخالفين في المذهب والدين علي غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق علي غاية من الوهاء. قال الطوفي: ولعمري، إن هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمة. حتي اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولاً أو مذهباً ما كان عنده من يخاف منه حتي يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالاً في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلي تقرير دليل نفسه لا يبقي عنده

(٢) لسان الميزان: ٤/ ٤٢٧.

(١) وفيان الإعيان: ٢/ ٢٦٧.

شئ من القوي، ولا شك أن القوي النفسانية تابعة للقوي البدنية، وقد صرح في مقدمة نهاية العقول: أنه مقرر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر علي الزيادة علي ذلك). (١)

● موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة:

ثم إن الفخر الرازي لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها، مع ترويجه لمذهب الشافعي - الذي يقلده - بالأدلة والبراهين.

كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النحوية والبلاغية، وإن كان لا يتوسع في ذلك توسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية.

وبالجملة.. فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام، وفي عوم الكون والطبيعة، إذ أن هذه الناحية هي التي غلبت عليه حتي كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم.

ومن أجل ذلك قال صاحب كشف الظنون: (إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شئ إلي شئ، حتي يقضي الناظر العجب) (٢) ونقل عن أبي حيان أنه قال في البحر المحيط (جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شئ إلا التفسير) (٣).

ويظهر لنا أن الإمام فخر الدين الرازي كان مولعاً بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، ما دام يستطيع أن يجد صلة ما بين المستنبط أو المستطرد إليه وبين اللفظ القرآني، والذي يقرأ مقدمة تفسيره لا يسعه إلا أن يحكم علي الفخر هذا الحكم، وذلك حيث يقول: (اعلم أنه مر علي لساني في بعض الأوقات، أن هذه السورة الكريمة - يريد الفاتحة - يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك علي ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب، قدمت هذه المقدمة، لتصير كالتنبية علي أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول) ... إلخ. (٤)

وبعد.. فالكتاب بين يديك، فأجل نظرك في جميع نواحيه، فسوف لا تري إلا ما قلته فيه، وما حكمت به عليه.

* * *

(٢) كشف الظنون: ١/ ٢٣٠ - ٢٣١.

(٤) مفاتيح الغيب: ١/ ٢ - ٣.

(١) لسان الميزان: ٤/ ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٣) المرجع السابق.

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (للبيضاوي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، البيضاوي الشافعي، وهو من بلاد فارس قال ابن قاضي شهبة في طبقاته: (صاحب المصنفات)، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية. ولي قضاء شيراز). وقال السبكي: (كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً، صالحاً متعبداً) وقال ابن حبيب: (تكلم كل من الأئمة بالثناء علي مصنفاته، ولو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه). ولي القضاء بشيراز، وتوفي بمدينة تبريز. قال السبكي والأسنوي: سنة ٦٩١ هـ (إحدي وتسعين وستمائة)، وقال ابن كثير وغيره: سنة ٦٨٥ هـ (خمس وثمانين وستمائة). ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوالع في أصول الدين، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن. وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولاً بين أهل العلم^(١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفة فيه:

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، علي مقتضي قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة علي أصول أهل السنة. وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري ولكنه ترك ما فيه من اعتراضات وإن كان أحياناً يذهب إلي ما يذهب إليه صاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٢٧٥) «مَنْ سَوَّرَ الْبَقْرَةَ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾... الآية، وجدناه يقول: (إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد علي ما بزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع).. ثم يفسر المس بالجنون ويقول: (وهذا أيضاً من زعمانهم أن الجن يمس الرجل فيختلط عقله).^(٢)

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها علي الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغترت

(١) انظر ترجمة البيضاوي في شذرات الذهب: ٣٩٢/٥ - ٣٩٣، وفي طبقات المفسرين للداودي ص ١٠٢ - ١٠٣، وفي طبقات الشافعية: ٥٩/٥. (٢) الجزء الأول ص ٢٦٧.

بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانه علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمي بمفاتيح الغيب للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز وعبارة تدق أحياناً وتخفي إلا علي ذي بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويضه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.. يقول ما نصه: وقروء جمع قرء، وهو يطلق للحيض كقوله عليه الصلاة والسلام: (دعي الصلاة أيام إقرائك) وللطهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشي:

مورثة مالا وفي الحي رفة لما ضاع فيها من قروء نساءكما

وأصله الانتقال من الطهر إلي الحيض، وهو المراد في الآية، لأنه الدال علي براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض وأما قوله عليه الصلاة والسلام: (طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان)، فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر: (مره فليراجعها)، ثم ليمسكها حتي تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء... إلخ. (١)

كذلك نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢)، (٣) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ نراه يعرض لبيان معني الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج. بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السنة (١).
والبيضاوي رحمه الله مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: روي، أو قيل.. إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢) من سورة النمل: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ يقول بعد فراغه من تفسيرها: روي أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهيز للحج.. إلي آخر القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: (ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها) (٢).

ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول: الشهاب ما يري كأن كوكباً انقض، ثم يرد علي من يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلي الأثير فيشتغل فتخمين - إن صح - لم يناف ذلك) .. إلي آخر كلامه في هذا الموضوع (٣).

هذا وأري أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لمنهج البيضاوي في تفسيره، والمبينة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد علي بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة ما نصه: (ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن - يعني التفسير - كتاباً يحتوي علي صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي علي نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأمائل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المغربية إلي الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعترين، إلا أن قصور بضاعتي يشبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتي سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي علي

الشروع فيما أردته والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل^(١)

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: «وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي علي فوائد ذوي الألباب. المشتمل علي خلاصة أقوال أكابر الأئمة وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه. والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، المرسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل»^(٢).

وكأنني به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلي أنه اختصر من تفسير الكشاف ولخص منه، ضمن ما اختصره ولخصه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال، وشطحات الاعتزال.

ويقول الجلال السيوطي - رحمه الله - في حاشيته علي هذا التفسير المسماة بـ (نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار) ما نصه: «وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتي بكل مستجد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضوع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكه نضار، واشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلي تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة»^(٣).

ويقول صاحب كشف الطنون ما نصه: (وتفسيره هذا - يريد تفسير البيضاوي - كتاب عظيم الشأن غني عن البيان - لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات. وضم إليه ما وري زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشي:

أولوا الألباب لم يأتوا بكشف قناع ما يُتلي
ولكن كان للقاضي يد بيضاء لا تُبلي

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام. كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، ومُلح الاستعارة، وهتك

(٢) الجزء الخامس ص ٢٠٤.

(١) الجزء الأول ص ٦.

(٣) المدخل المنير للشيخ مخلوف ص ٤١.

لأستار أخري عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها . وترجمان المناطقة وميزانها ، فحل ما أشكل علي الآنام ، وذلّل لهم صعاب المرام ، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة ، وأوضح لهم مناهج الأدلة . والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ (قيل) ، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود .

وأما الوجه الذي تفرد به ، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية ، كقوله : وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتديبرهم له ^(١) ونحوه ، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه ، ولا يبلغ علمه إلي الإحاطة بما فيه ، فمن اعترض بمثله علي كلامه كأنه ينصب الحباله للعنقاء ، ويروم أن يقنص نسر السماء ، لأنه مالك زمام العلوم الدينية ، والفنون اليقينية ، علي مذهب أهل السنة والجماعة . وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق ، وسلموا إليه قصب السبق ، فكان تفسيره يحتوي فنوناً من العلم وعرة المسالك ، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق ، وقل من برز في فن إلا وصده عن سواه وشغله ، والمرء عدو لما جهله ، فلا يصل إلي مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره ، وأعمى عين هواه و واستعبد نفسه في طاعة مولاه ، حتي يسلم من الغلط والزلل ويقتدر علي رد السفسطة والجدل .

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور ، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه ، وتعرض لنفحات ربه ، تسامح فيه ، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل ، ونحا نحو الترغيب والتأويل ، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور ، ودلي بغرور .

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية ، فمنهم من علق تعليقة علي سور منه ، ومنهم من حشي تحشية تامة ، ومنهم من كتب علي بعض مواضع منه ^(٢) . ثم عد من هذه الحواشي ما يزيد عدده علي الأربعين ، ولا أطيل بذكرها ، ومن شاء الإطلاع علي ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه ، وحسبي أن أقول : إن أشهر هذه الحواشي ، وأكثرها تداولاً ونفعاً : حاشية قاضي زاده ، وحاشية الشهاب الخفاجي ، وحاشية القونوي .

(١) انظر تفسير البيضاوي لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة غافر ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ

وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ .. الآية (ج ٥ ص ٣٤) .

(٢) كشف الظنون : ١ / ١٢٧ - ١٢٨ .

وجملة القول .. فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغني عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى ، ويقف علي أسراره ومعانيه وهو مطبوع عدة طبعات، ومتوسط في حجمه .

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (للسنفي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (١) . الحنفي، أحد الزهاد المتأخرين، والأئمة المعتمدين . كان إماماً كاملاً عديم النظر في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه بصيراً بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتمدة في الفقه والأصول وغيرهما . فمن مؤلفاته: متن الوافي في الفروع، وشرحه الكافي، وكنز الدقائق في الفقه أيضاً، والمنار في أصول الفقه، والعمدة في أصول الدين، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل، وهو التفسير الذي نحن بصدد الكلام عنه، وغير ذلك من المؤلفات التي تداولها العلماء ، وتناولوها دراسة وبحثاً، وليس هذا التراث العلمي بكثير علي رجل تفقه علي كثير من مشايخ عصره وأخذ عنهم، ومن هؤلاء : شمس الأئمة الكردي وعليه تفقه ، وأحمد بن محمد العتابي الذي روي عنه الزيادات .

وكانت وفاة النسفي - رحمه الله - سنة ٧٠١هـ (إحدي وسبعمائة من الهجرة) ودفن ببلدة أيدج (٢) . فرضي الله عنه وأرضاه (٣) ..

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير، اختصره النسفي - رحمه الله - من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات وجري فيه علي مذهب أهل السنة والجماعة، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسنات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورد الزمخشري في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا علي طريقتيه من قوله: «فإن قيل .. قلت» بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مدرجاً في ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعه في فضائل السور .

(١) النسفي نسبة إلي (نسف) من بلاد ما وراء النهر .

(٢) قال في القاموس (١٧٧/١) وأيدج كأحمد بلد بكرديستان .

(٣) انظر ترجمته في الدرر الكامنة: ٢ / ٢٤٧، وفي الفوائد البهية في تراجم الحنفية

هذا وقد أورد النسفي في مقدمة تفسيره عبارة قصيرة، أوضح فيها عن طريقته التي سلكها فيه، وأري أن أسوقها لك بنصها لتمام الفائدة.

قال رحمة الله: (قد سألتني من تتعين إجابته، كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات، حالياً بأقويل أهل السنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلاً وأوخر آخري، استقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتي شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتمته في مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل).

وقال صاحب كشف الظنون: (اختصره - يعني تفسير النسفي - الشيخ زين الدين، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي بكر بن العيني، وزاد فيه) (١).

ولكن لم يقع في بلدنا هذا المختصر، ولم نظفر به حتي نحكم عليه.

قرأت في هذا التفسير فوجدته كما قلت آنفاً موجز العبارة سهل المأخذ مختصراً من تفسير الكشاف، جامعاً لمحاسنه، متحاشياً لمساوئه، ومن تفسير البيضاوي أيضاً حتي إنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره (٢).

● خوضه في المسائل النحوية:

كذلك وجدته - كما يقول صاحبه - جامعاً بين وجوه الإعراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيراً. ولا يزج بالتفاصيل النحوية في تفسيره كما يفعل غيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢١٧) من سورة البقرة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ . الآية .

يقول ما نصه: ﴿والمسجد الحرام﴾ : عطف علي (سبيل الله) ، أي وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفراء أنه معطوف علي الهاء في (به) أي كفر به وبالمسجد الحرام ولا يجوز عند البصريين العطف علي الضمير المجرور إلا بإعادة الجار،

(١) كشف الظنون : ٢ / ٢٤٨ .

(٢) راجع - مثلاً - تفسير البيضاوي وتفسير النسفي لسورة النجم لترى مبلغ التوافق أو التقارب بين عبارتيهما .

فلا تقول: مررت به وزيد، ولكن تقول: وبزيد، ولو كان معطوفاً علي الهاء هنا لقليل: وكفر به وبالمسجد الحرام^(١).

● موقفه من القراءات:

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلي قارئها.

● خوضه في مسائل الفقه:

كذلك عند تفسيره آية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٢) من سورة البقرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

يقو ما نصه: (.. ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف - رحمهما الله - يجتنب ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد - رحمه الله - لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وقالت عائشة رضي الله عنها، يجتنب شعار الدم وله ما سوي ذلك.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾ بالتشديد - كوفي غير حفص - أي يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم ﴿يَطْهَرْنَ﴾ أي ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما. وقلنا: له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت الصلاة، عملاً بقراءة التشديد، والحمل علي هذا أولي من العكس لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف، وعند الشافعي - رحمه الله - لا يقربها حتى تطهر وتطهر، دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما...^(٢).

وهو ينتصر لمذهبه الحنفي ويرد علي من خالفه في كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف علي ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾... (ج ١ ص ٨٩) وعند

(١) الجزء الأول ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) الجزء الأول ٨٧ راجع في هذا الموضوع ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ

بأنفسهن ثلاثة قُرُوءٍ﴾ (ج ١ ص ٨٩).

تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٣٧) من سورة البقرة: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ (ج ١ ص ٩٥) وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة الطلاق: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ .. الآية (ج ٤ ص ٢٠١).

● موقفه من الإسرائيليات:

ومما نلاحظه علي هذا التفسير أنه مقل جداً في ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً، وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه.

فمثلاً نجد عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾ يقول: روي أنه صاحت فأخبرتها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيراً تجدوه وصاحتم رحمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلي ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلي، وقال: الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم؛ عش ما شئت آخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد عن الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس.

ثم يتكلم عن قوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النمل أيضاً ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ .. نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف في تخيله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفي بكلمة واحدة (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢١) و(٢٢) في سورة (ص) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ففَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغْيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ .. نراه - بعد أن يذكر من الروايات ما لا يتنافي مع عصمة داود عليه السلام - يقول ما نصه: (وما يحكي أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلي غزوة البلقاء وأحب أن يقتل

ليتزوجها - يعني زوجة أوريا - فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء وقال علي رضي الله عنه: من حدثكم بحديث داود عليه السلام علي ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية علي الأنبياء (١)

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة (ص) أيضاً: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ . . . نراه يذكر من الروايات ما لا يتنافي مع عصمة سليمان عليه السلام، ثم يقول ما نصه: (وأما ما يروي من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود) (٢).

ففي هذه الآية الأخيرة وما قبلها نجد النسفي - رحمه الله - يتصدي للتنبيه والرد علي القصص المكذوب الذي يتنافي مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثلنا به قبل ذلك، ولعله يري أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه علي عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب في ذاته، ولا يتنافي مع العقل أو يتصادم مع الشرع.

هذا . . . وإن الكتاب لتداول بين أهل العلم، ومطبوع في أربعة أجزاء متوسطة الحجم، وقد نفع الله به الناس كما نفعهم بغيره من مؤلفات النسفي رحمه الله.

٤ - لباب التأويل في معاني التنزيل (للخازن)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير. هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي (٣). البغدادي، الشافعي، الصوفي المعروف بالخازن اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق ولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ (ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة)، وسمع بها من ابن الدواليبي، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر ووزيرة بنت عمر واشتغل بالعلم كثيراً قال ابن قاضي شهبه: (كان من أهل العلم، جمع وألف، وحدث ببعض مصنفاة). وقد خلف رحمه الله كتباً جملة في فنون مختلفة، فمن ذلك: لباب التأويل في معاني التنزيل. وهو التفسير الذي نريد الكلام عنه، وشرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول في عشر مجلدات، جمع فيه بين مسندي الشافعي وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطني، ورتبه علي الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطولة. وكان رحمه الله

(٢) الجزء الرابع ص ٣٢.

(١) الجزء الرابع ص ٢٩ - ٣٠.

(٣) الشيعي - بالحاء المهملة - نسبة إلي بلدة اسمها (شيعه) من أعمال حلب.

صوفياً حسن السمات بشوش الوجه، كثير التودد للناس توفي سنة ٧٤١ هـ (إحدي وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوي، وضم إلي ذلك ما نقله ولخصه من تفاسير من تقدم عليه، وليس له فيه - كما يقول - سوي النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب.

وهو مكثّر من رواية التفسير المأثور إلي حد ما، معني بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلي الذي لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم، وأري أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه في مقدمة تفسيره، مبيناً به طريقته التي سلكها، ومنهجته الذي نهجه فيه، وفيها غني عن كل شيء.

قال رحمه الله تعالى: ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذي صنّفه الشيخ الجليل والحبر النبيل، الإمام العالم محيي السنة، قدوة الأمة، وإمام الأئمة مفتي الفرق. ناصر الحديث، ظهير الدين، أبو محمد الحسين ابن مسعود البغوي - قدس الله روحه، ونور ضريحه - من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلها، وأنبها وأسناها. جامعاً للصحيح من الأقاويل، عارياً عن الشبه والتصحيّف والتبديل، محلي بالأحاديث النبوية، مطرزاً بالأحكام الشرعية، موشي بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجاً بأوضح العبارات، مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة متقلبه ومآبه. لما كان هذا الكتاب كما وصفت، أحببت أن أُنخب من غرر فوائده، ودرر فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصراً جامعاً لمعاني التفسير، ولباب التأويل والتعبير، حاوياً لخلاصة منقوله، متضمناً لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها من كتب التفسير المصنفة في سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسني تصرفاً سوي النقل والانتخاب مجتنباً حد التطويل والإسهاب، وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إليّ تحصيل المراد، فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، علي تفسير آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين - عزوته إلي مخرجه، وبينت اسم ناقله، وجعلت عوض كل اسم حرفاً يعرف به، ليهون علي الطالب طلبه، فما كان من صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري فعلامته قبل ذكر الصحابي الراوي للحديث (خ) وما كان من صحيح أبي الحسين مسلم ابن الحجاج

(١) انظر ترجمته في الدرر الكامنة (٣/٩٧ - ٩٨)، وفي طبقات المفسرين للداودي ص

١٧٨، وفي شذرات الذهب (٦/١٣١).

النيسابوري فعلامته (م) وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق) وما كان من كتب السنن، كسنن أبي داود، والترمذي والنسائي فإني أذكر اسمه بغير علامة. وما لم أجد في هذه الكتب ووجدت البغوي قد أخرجه بسند له انفرد به. قلت: روي البغوي بسنده، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي قلت: روي البغوي بإسناد الثعلبي. وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فأعتمده فإني اجتهدت في تصحيح ما أخرجه من الكتب المعتمدة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدي، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزري ثم إنني عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به. ليكون أكمل فائدة في هذا الكتاب، وأسهل علي الطلاب، وسفته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب. وينبغي لكل مؤلف كتاباً في فن قد سبق إليه، أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شئ إن كان معضلاً أو جمعه إن كان متفرقاً أو شرحه إن كان غامضاً. أو حسن نظم وتأليف. أو إسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التي ذكرت وسميته: (لباب التأويل في معاني التنزيل). ثم قدّم الخازن لتفسيره بخمسة فصول - الفصل الأول: في فضل القرآن وتلاوته وتعليمه. الفصل الثاني: في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتي القرآن فنسيه ولم يتعهده. الفصل الثالث: في جمع القرآن وترتيب نزوله، وفي كونه نزل علي سبعة أحرف. الفصل الرابع: في كون القرآن نزل علي سبعة أحرف وما قيل في ذلك. الفصل الخامس: في معني التفسير والتأويل. ثم ابتدأ بعد ذلك في التفسير.

● توسعه في ذكر الإسرائيليات:

وقد قرأت في هذا التفسير كثيراً فوجدته يتوسع في ذكر القصص الإسرائيليين وكثيراً ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التي تعني بهذه الناحية كتفسير الثعلبي وغيره، وهو في الغالب لا يعقب علي ما يذكر من القصص الإسرائيليين، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان في بعض المواضع لا يترك القصة تمر بدون أن يبين لنا ضعفها أو كذبها، ولكن علي ندرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في سورة (ص): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذِ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآيات إلي قوله تعالي: ﴿وَلَمَّا فَتَنَاهَا فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ [٢٤-٢١] نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة كقصص الشيطان الذي تمثل لداود في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، وجناحها من الدر والزبرجد، فطارت ثم وقعت بين رجله وألتهته عن صلواته، وقصة المرأة التي وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال علي زوجها حتي قتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فتن بها وشغف بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة. ولكنه يأتي بعد كل هذا فيقول: «فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب

إليه» ويفند في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبي الله داود عليه السلام^(١).

ولكننا نرى الخازن يمر بقبصص كثيرة لا يعقب عليها، مع أن بعضها غاية في الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ .. الآية، نراه يذكر قصة أصحاب الكهف، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهي غاية في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يعقب عليها بلفظ واحد^(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين [٨٣، ٨٤] من سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرِّ وَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ﴾ .. نراه يروي في حق أيوب عليه السلام، قصة طويلة جداً عن وهب بن منبه، وهب مما لا يكاد يقرأها الشرع أو يصدقها العقل، لما فيها من المنافاة لمقام النبوة، ومع ذلك، فهو يذكر هذه القصة ويزعم عليها بدون أن يعقب عليها بأية كلمة^(٣).

● عنايته بالأخبار التاريخية:

كذلك نلاحظ علي هذا التفسير أنه يفيض في ذكر الغزوات التي كانت علي عهد النبي ﷺ وأشار إليها القرآن.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٩) من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول: «ذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب» ثم يذكر وقائع الغزوة وما جري فيها باستفاضة وتوسع^(٤).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة الأحزاب أيضاً: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .. نراه يستطرد إلي ذكر غزوة بني قريظة، بتوسع ظاهر، وتفصيل تام.

● عنايته بالناحية الفقهية:

كذلك نجد هذا التفسير يعني جد العناية بالناحية الفقهية، فإذا تكلم

(١) الجزء السادس ص ٣٨ - ٤٢.

(٢) الجزء الرابع ص ١٦٠ - ١٦٥.

(٣) الجزء الرابع ص ٢٥٠ - ٢٥٤.

(٤) الجزء الخامس ص ١٩٣ - ٢٠٠.

عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلي مذاهب الفقهاء وأدلتهم، وأقحم في التفسير فروعاً فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً في قليل ولا كثير.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٦) من سورة البقرة: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبِيصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نراه بعد أن ينتهي من التفسير يقول: (فروع تتعلق بحكم الآية) ثم يذكر خمسة فروع - الفرع الأول: في حكم ما إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هي أكثر من أربعة أشهر، والثاني: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر، والثالث: في حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر، والرابع: في مدة الإيلاء في حق الحر والعبد واختلاف المذاهب في ذلك، والخامس فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء، فهل تجب عليه كفارة أو لا تجب (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.. الآية، نراه يعرض لمذهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضي به عدة الحائض.. ثم يقول: (فصل في أحكام العدة، وفيه مسائل) فيذكر أربع مسائل، يتكلم في المسألة الأولى منها: عن عدة الحوامل، وفي الثانية: عن عدة المتوفى عنها زوجها، وفي الثالثة: عن عدة المطلقة المدخول بها، وفي الرابعة عن عدة الإماء (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِي بِكُمْ دِينُ اللَّهِ فَلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾.. الآية، نجد يقول: (فصل في حكم الخلع، وفيه مسائل) ويذكر ثلاث مسائل؛ المسألة الأولى: فيما يباح من أجله الخلع، والثانية: في جواز الخلع بأكثر مما أعطاه وعدم جوازه، الثالثة: في اختلاف العلماء في الخلع هل هو فسخ أو طلاق؟ (٣).

ومثلاً عند تفسيره لآية الظهر التي في أول سورة المجادلة نراه يسوق فصلاً في أحكام الكفارة، وما يتعلق بالظهار، ويورد فيه ثماني مسائل (٤) لا نطيل بذكرها.

● عنايته بالمواعظ:

ثم إن هذا التفسير كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعة الخازن الصوفية هي التي أثرت فيه فجعلته يعني بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة السجدة: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾.. الآية؛ نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: (فصل في فضل

(٢) الجزء الأول ص ١٨٩.

(١) الجزء الأول ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٤) الجزء السادس ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) الجزء الأول ص ١٩٣ - ١٩٤.

قيام الليل والحث عليه) .. ثم يسوق في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ كلها تدور علي البخاري ومسلم والترمذي (١).

وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة في نواح من العلم مختلفة، ولكن شهرته القصصية، وسمعته الإسرائيلية، أساءت إليه كثيراً، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعويل عليه !! ولعل الله يهين لهذا الكتاب من يعلق عليه بتعليقات توضح غثه من سمينه، وتستخلص صحيحه من سقيمه. والكتاب مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة الحجم، وهو متداول بين الناس، خصوصاً من له شغف بالقصص ولوع بالأخبار.

٥ - البحر المحيط (لأبي حيان)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الحياتي، الشهير بأبي حيان، المولود سنة ٦٥٤ هـ (أربع وخمسين وستمئة من الهجرة).

كان - رحمه الله - ملماً بالقراءات صحيحها وشاذها، قرأ القرآن علي الخطيب عبد الحق بن علي إفراداً وجمعاً، ثم علي الخطيب أبي جعفر بن الطباع، ثم علي الحافظ أبي علي بن أبي الأحوص بمالقة، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وإفريقية، ثم قدم الإسكندرية فقرأ القراءات علي عبد النصير بن علي المربوطي، وبمصر علي أبي طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجي، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب. قال أبو حيان: (وعدة من أخذت عنه أربعمائة وخمسون شخصاً، وأما من أجازني فكثير جداً) وقال الصفدي: (لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أره علي غير ذلك).

كذلك عرف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات كما كان علي جانب كبير من المعرفة باللغة أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتي صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبي حيان اليد الطولي في التفسير، والحديث وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصاً المغاربة.

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتي صار من تلامذته أئمة وأشياخ في حياته، وهو الذي جسر الناس علي كتب ابن مالك ورغبتهم فيها وشرح لهم غامضها وأما مؤلفاته فكثيرة، انتشرت في حياته وبعد وفاته في كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس

(١) الجزء الخامس ص ١٨٦ - ١٨٧.

بالقبول، ومن أهمها: تفسير البحر المحيط الذي نحن بصددده الآن، وغريب القرآن في مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب وخلاصة البيان، وله منظومة علي وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز وهي أخصر وأكثر فوائد ولكنها لم ترزق من القبول حظ الشاطبية. هذا وقد قيل: إن أبا حيان كان ظاهري المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعي علي مذهبه، وكان عربياً من الفلسفة، بريئاً من الاعتزال والتجسيم، متمسكاً بطريقة السلف. أما وفاته فكانت بمصر سنة ٧٤٥ هـ (خمس وأربعين وسبعمئة من الهجرة)، فرحمه الله ورضي عنه (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف علي وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية فهو ابن بجدتها، وفارس حلبتها، غير أنه - والحق يقال - قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتي أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلي كتب النحو منه إلي كتب التفسير.

هذا.. وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عداها من النواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم علي المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنه لا يغفل الناحية البلاغية في القرآن ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك، كل هذا علي طريقة وضعها لنفسه ومشى عليها في كتابه، ونبهنا عليها في مقدمته، وذلك حيث يقول:

(وترتيبى في هذا الكتاب، أني أبتدئ أولاً بالكلام علي مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكرة سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسباتها وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذها ومستعملها. ذاكرة توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلماً

علي جليها وخفيها، بحيث أنني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهداً أنني لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدم الكلام عليها، ولا في آية فسرت بل أذكر في كثير منها الحوالة علي الموضع الذي تكلم فيه علي تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلاً علي الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها علي كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئاً بمقتضي الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحاً له لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه متنكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل علي أحسن إعراب وأحسن تركيب، إذ كلام الله تعالي أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقدة، ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منشور، أشرح به مضمون تلك الآيات علي ما آختره من تلك المعاني، ملخصاً جعلها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن وستقف علي هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالي، وربما ألمت بشئ من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ^(١).

وتركت أقوال الملحدين الباطنية^(٢) المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلي هذيان افتروه علي الله، وعلي علي كرم الله تعالي وجهه، وعلي ذريته، ويسمونه علم التأويل...»^(٣).

هذا.. وإن أبا حيان - رحمه الله تعالي - ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتنفيذ لما قاله في مسائل النحو علي الخصوص،

(١) انظر ما تعقب به تفسير القشيري للآية (١١٤) من سورة البقرة: ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ

مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ .. الآية... (الجزء الأول ص ٣٦٠).

(٢) عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٧٢) من سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (الجزء الثالث ص ٤٤٩). (٣) الجزء الأول ص ٤ - ٥.

ولكثرة هذا التعقيب منه علي كلام الزمخشري وابن عطية تجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفي سنة ٧٤٩هـ (تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة) يختصر هذا التفسير في كتاب سماه: (الدر اللقيط من البحر المحيط) يكاد يقتصر فيه علي مباحثه مع ابن عطية والزمخشري ورده عليها^(١) وهذا المختصر توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر، كما أنه مطبوع علي هامش البحر المحيط.

كذلك نجد الشيخ يحيى الشاوي المغربي يفرد مؤلفاً عنوانه: (بين أبي حيان والزمخشري) يجمع فيه اعتراضات أبي حيان علي الزمخشري وهو مخطوط في مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية.

وكثيراً ما يحمل أبو حيان علي الزمخشري حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية (ج ٢ ص ٢٧٦، ج ٧ ص ٨٥)، ومع ذلك نجده يشيد بما للزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه. حيث يصفه بأنه أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعني وبراعة اللفظ. (ج ٧ ص ٨٥).

هذا.. وإن أبا حيان يعتمد في أكثر نقول كتابه هذا - كما يقول - (علي كتاب التحرير والتحرير لأقوال أئمة التفسير، من جمع شيخه الصالح القدوة، الأديب، جمال الدين أبي عبد الله، محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، المعروف بابن النقيب، رحمه الله. إذ هو أكبر كتاب صنف في علم التفسير، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد)^(٢).

ونهاية القول، فإن أبا حيان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرز فيها وهي الناحية النحوية التي طغت علي ما عداها من نواحي التفسير.

٦ - غرائب القرآن وרגائب الفرقان (للنيسابوري)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام الشهير، والعلامة الخطير، نظام الدين ابن الحسن بن محمد بن الحسين، الخراساني، النيسابوري، المعروف بالنظام الأعرج. أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة (قم)، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور. كان رحمه الله من

(١) انظر كشف الظنون: ٢/١٤٥.

(٢) البحر المحيط (ج ١ ص ١١)، ومع اعتماد أبي حيان علي هذا التفسير نجده يصفه بكثرة التكرير وقلة التحرير (ج ١ ص ١١) كما نجده لا يرضي عما أولع به مؤلفه من كثرة النقول عن غلاة الصوفية فيضرب عنها صفحاً (ج ٨ ص ١٩١).

أساطين العلم بنيسابور، ملماً بالعلوم العقلية، جامعاً لفنون اللغة العربية، له القدم الراسخ في صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير. وهو معدود في عداد كبار الحفاظ والمقرئين، وكان مع هذه الشهرة العلمية الواسعة علي جانب كبير من الورع والتقوي، وعلي مبلغ عظيم من الزهد والتصوف، ويظهر أثر ذلك واضحاً جلياً في تفسيره الذي أودع فيه مواجيد الروحية، وفيوضاته الربانية، ولقد خلف رحمه الله للناس كتباً مفيدة نافعة، ومصنفات فريدة واسعة، فمن ذلك شرحه علي متن الشافية في فن الصرف للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام، وشرحه علي تذكرة الخواجة نصير الملة والدين الطوسي في علم الهيئة، وهو المسمى بتوضيح التذكرة ورسائل في علم الحساب، وكتاب في أوقاف القرآن علي حذو ما كتبه السجاوندي المشهور، وأهم مصنفااته تفسيره لكتاب الله تعالي المعروف بـ (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) وهو ما نحن بصددده الآن وله مجلد آخر في لب التأويل نظير تأويلات المولي عبد الرزاق القاشاني.

أما تاريخ وفاته فلم نعثر عليه في الكتب التي بين أيدينا، وكل ما عثرنا عليه هو قول صاحب روضات الجنات: (إنه كان من علماء رأس المائة التاسعة علي قرب من درجة السيد الشريف، والمولي جلال الدين الدواني، وابن حجر العسقلاني، وقرنائهم الكثيرين من علماء الجمهور، وتاريخ إنهاء مجلدات تفسيره المذكور، صادفت حدود ما بعد الثمانمائة، والخمسين من الهجرة) (١).

قال: «ويوجد أيضا بالبال نسبة التشيع إليه في بعض مصنفاة الأصحاب» (٢).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

اختصر النيسابوري تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازي، وضم إلي ذلك بعض ما جاء في الكشاف وغيره من التفاسير، وما فتح الله به عليه من الفهم لحكم كتابه، وضمنه ما ثبت لديه من تفاسير سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

(١) ويوجد بأخر النسخة التي بأيدينا من تفسير النيسابوري ما نصه: «وجد بأخر بعض النسخ ما نصه: علقه مؤلفه، الحسن بن محمد بن الحسين، المشتهر بنظام الأعرج النيسابوري ببلاد الهند في دار مملكتها بدولة آباد في أوائل صفر سنة ٧٣٠ (سبعمائة وثلاثين) من هجرة سيد الأولين والآخرين، صلاة الله وسلامه عليه وعلي جميع الأنبياء والمرسلين، كما جاء في ترجمة النيسابوري بأخر النسخة أيضا أنه فرغ من شرحه للتذكرة النصيرية في غرة ربيع الأول سنة ٧١١ هـ (إحدى عشرة وسبعمائة). وفي كشف الظنون عند الكلام عن تفسير النيسابوري أنه توفي سنة ٧٢٨ هـ.

(٢) انظر ترجمة النيسابوري في آخر تفسيره، وفي روضات الجنات ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

● موقفه من الرمخشري والفخر الرازي:

وهو إذ يختصر كلام الفخر الرازي، أو يقتبس من تفسير الكشاف أو غيره، لا يقف عند النص وقوف من يجمد عند النصوص ويرى أنها ضربة لازب عليه فلا يعترض ولا يتصرف، بل نجد حراً في تفكيره، متصرفاً فيما يختصر أو يقتبس، فإن وجد فساداً نبه عليه وأصلحه وإن رأى نقصاً تداركه فآتمه وأكمله.

وكثيراً ما نجده ينقل عن الكشاف فيقول: قال في الكشاف كذا وكذا أو قال جار الله كذا وكذا، وقد ينقل ما ذكره صاحب الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازي ثم ينصب نفسه حكماً بين الإمامين، ويبدى رأيه علي حسب ما يظهر له.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة الزمر: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .. يقول ما نصه: «قال جار الله: الغرض من هذا الكلام - إذا أخذته كما هو بجملته - تصوير عظمته، والتوقيف علي كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلي جهة حقيقة أو إلي جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروي عن عبد الله بن مسعود: أن رجلاً من أهل الكتاب جاء إلي النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم؛ إن الله يمسك السموات يوم القيامة علي إصبع، والأرض علي إصبع، والجبال علي إصبع، والشجر علي أصبع، والثري علي إصبع، وسائر الخلق علي إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال: وأنزل الله الآية تصديقاً له. قال جار الله: وإنما ضحك أفضح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك، ولا إصبع، ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره علي الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة علي القدرة الباهرة. وأن الأفعال العظام التي لا تكتننها الأوهام هينة عليه .. ثم ذكر كلاماً آخر طويلاً، واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازي: بأن هذا الكلام الطويل لا طائل تحته، لأنه هل يسلم أن الأصل في الكلام حمله علي حقيقته أم لا؟ وعلي الثاني يلزم خروج القرآن بكليته عن كونه حجة، فإن لكل أحد حينئذ أن يؤول الآية بما يشاء، وعلي الأول - وهو الذي عليه الجمهور - يلزم بيان أنه لا يمكن حمل اللفظ الفلاني علي معناه الحقيقي لتعين المصير إلي التأويل، ثم إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدليل علي تعيين أحدهما، ففي هذه الصورة لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت علي امتناع الأعضاء والجوارح لله تعالى، فوجب المصير إلي التأويل صوتاً للنص عن التعطيل، ولا تأويل إلا أن يقال: المراد كونها تحت تدبيره وتسيخيره، كما يقال: فلان في قبضة فلان. وقال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] ويقال: هذه الدار في يد فلان ويمينه، وفلان صاحب اليد.

وأنا أقول: هذا الذي ذكره الإمام طريق أصولي، والذي ذكره جار الله طريق بياني وإنهم يحيلون كثيراً من المسائل إلي الذوق فلا منافاة بينها، ولا يرد اعتراض من الإمام وتشنيعه، وقد مر لنا في هذا الكتاب الأصل الذي كان يعمل به السلف في باب المتشابهات في مواضع فتذكر» (١).

● منهجه في التفسير:

ثم إننا نجد الإمام النيسابوري، قد سلك في تفسيره مسلكاً قد يكون منفرداً به من بين المفسرين، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية أولاً، ثم يذكر القراءات مع التزامه ألا يذكر ما كان منها منسوباً إلي الأئمة العشرة، وإضافة كل قراءة إلي صاحبها الذي تنسب إليه، ثم بعد ذلك يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها، ثم بعد ذلك يشرع في التفسير، مبتدئاً بذكر المناسبة وربط اللاحق بالسابق مع عناية كبيرة بذلك سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرازي، ثم بعد ذلك يبين معاني الآيات بأسلوب بديع، يشتمل علي إبراز المقدرات، وإظهار المضمرة، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب وما حملت عليه الآية القرآنية، لتكون مؤيدة لمذهب من المذاهب، أو غير متعارضة معه ولا منافية له.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة المائدة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ نجده يقول: «واعلم أن الكلام في السرقة، يتعلق بأطراف المسروق، ونفس السرقة، والسارق».. ثم يمضي فيستكلم عن هذه النواحي الثلاث من الناحية الفقهية، بتفصيل واسع وتوجيه للأدلة (٢).

● خوضه في المسائل الكلامية:

كذلك نجده يخوض في المسائل الكلامية، فيذكر مذهب أهل السنة ومذهب غيرهم، مع ذكره لأدلة كل مذهب، وانتصاره لمذهب أهل السنة وتأييده له، ورد ما يرد عليه من جانب المخالفين.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة الأنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾... الآية، نجده يقول: «وفي الآية دلالة علي أن الله تعالي هو الذي يصرف عن الإيمان، ويحول بين المرء وبين قلبه، وقالت المعتزلة: لا يمكن إجراؤها علي ظاهرها، وإلا كان حجة للكفار، ولأنه يكون تكليفاً للعاجز، ولم يتوجه ذمهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، فلا بد من التأويل. وذلك من وجوه.. ثم ساق

خمسة أوجه للمعتزلة، وبعد أن فرغ منها تعقبها بالرد عليها، تفتيداً لمذهب المعتزلة، وتصحيحاً لمذهب أهل السنة^(١).

● خوضه في المسائل الكونية و الفلسفية :

كذلك إذا مر النيسابوري علي آية من الآيات الكونية فإنه لا يمر عليها بدون أن يخوض بأسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٨٩) من سورة البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ﴾ نراه يذكر سبب نزول الآية، ثم يبين الحكمة التي أرادها الله من وراء جوابه لهم علي غير مقصودهم، وهنا يتعرض للسبب الذي من أجله يبدو الهلال دقيقاً ثم يزيد شيئاً فشيئاً حتي يصير بديراً ، ثم يأخذ في النقصان إلي أن يعود كما بدأ^(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة الزمر: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ . الآية، يقول ما نصه: « وقال حكماء الإسلام: النفس الإنسانية جوهر مشرق نوراني، إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء ظاهرها وباطنها، وهو الحياة واليقظة، وأما في وقت النوم فإن ضوءه لا يقع إلا علي باطن البدن وينقطع عن ظاهره، فتبقي نفس الحياة التي بها النفس وعمل القوي الدنية في الباطن ويفني ما به التمييز والعقل وإذا انقطع هذا الضوء بالكلية عن البدن فهو الموت »^(٣).

وهذا المسلك الذي سلكه النيسابوري في الكونيات والآراء الفلسفية . ليس هو في الواقع إلا صدي لما جاء في تفسير الفخر الرازي الذي لخص منه تفسيره وإن كان النيسابوري ليس بوقاً للرازي في كل ما يقول بل كثيراً ما يستدرك عليه ولا يرتضي قوله .

فمثلاً نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١ ، ٢) من سورة الانفطار: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ * وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ ﴾ يقول ما نصه: (وفيه يعني في قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ، وكذا في قوله: ﴿ وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ ﴾ إبطال قول من زعم أن الفلكيات لا تنخرق، أما الدليل المعقول الذي ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره، وهو أن الأجسام متماثلة في الجسمية فيصح علي كل واحد منها ما يصح علي الباقي، لكن السفليات يصح عليها الانخراق، فيصح علي العلويات

(٢) الجزء الثاني ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(١) الجزء السابع ص ١٢٩ .

(٣) الجزء ٢٤ - ص ٧ - ٨ .

أيضاً، فغير مفيد ولا مقنع، لأن الخصم لو سلم الصحة فله أن ينازع في الوقوع لمانع كالصورة الفلكية وغيرها» (١).

● النزعة الصوفية في تفسير النيسابوري:

ثم إن النيسابوري بعد أن يفرغ من تفسير الآية يتكلم عن التأويل، والتأويل الذي يتكلم عنه هو عبارة عن التفسيرات الإشارية للآيات القرآنية التي يفتح الله بها علي عقول أهل الحقيقة من المتصوفة، والنيسابوري - رحمه الله - ؛ كان صوفياً كبيراً، أفاض من روحه الصوفية الصافية علي تفسيره، فنراه لذلك يستطرد أثناء التفسير إلي كثير من المواعظ المبكيات والحكم الغاليات، كما نراه في تأويله الإشاري يمثل الفلسفة الصوفية بأعلي أنواعها.

● ليس في تفسير النيسابوري ما يدل علي تشيعه:

وعلي كثرة ما قرأت في هذا التفسير لم أقع علي نص منه يدل علي تشيع مؤلفه، وكل ما وقعت عليه، أنه قال في خاتمة تفسيره (ج ٣٠ ص ٢٢٨): «وإني أرجو فضل الله العظيم، وأتوسل إليه بوجهه الكريم، ثم بنبيه القرشي الأبطحي ووليه المعظم العلي . . إلخ» وهذه الجملة الأخيرة: «ووليه المعظم العلي» وإن كانت اعترافاً منه بولاية علي رضي الله عنه، ليست دليلاً قاطعاً علي تشيعه، بل نجد النيسابوري علي العكس من ذلك يعترف في نفس خاتمة تفسيره (ج ٣٠ ص ٢٢٤) بأنه لم يمل في تفسيره إلا إلي مذهب أهل السنة والجماعة، وإذا رجعت إلي تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٥٤، ٥٥) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ . . . إلخ (ج ٦ ص ١٩٥ وما بعدها) لوجدته يرد علي الشيعة استدلالهم بهاتين الآيتين علي ولاية علي رضي الله عنه وأنه الخليفة بعد رسول الله، وإن كان ما ذكره تلخيصاً لما قال الفخر الرازي في تفسيره.

وهنا - وبعد ما ذكرت - أري لزاماً علي أن أذكر كلام النيسابوري الذي أوضح فيه مسلكه في تفسيره ومنهجه الذي نهجه فيه، فإن صاحب البيت أعرف به وأدري بما فيه.

قال رحمه الله في مقدمة تفسيره ما نصه: «وإذا وفقني الله تعالي لتحريك القلم في أكثر الفنون المنقولة والمعقولة - كما اشتهر بحمد الله تعالي ومنه فيما بين أهل الزمان - وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الإنسان من العين والعين من الإنسان، وكان قد رزقني الله تعالي من إبان الصبا وعنقوان الشباب، حفظ لفظ القرآن وفهم

معني الفرقان، وطالما طالبني بعض أجلة الإخوان وأعزة الأخدان ممن كنت مشاراً إليه عندهم بالبنان في البيان - والله المنان يجازيهم عن حسن ظنونهم، ويوفقنا لإسعاف سؤلهم، وإنجاح مطلوبهم - أن أجمع كتاباً في علم التفسير، مشتملاً علي المهمات منبئاً عما وقع إلينا من نقل الأثبات، وأقوال الثقات من الصحابة والتابعين، ثم من العلماء الراسخين، والفضلاء المحققين، المتقدمين والمتأخرين - جعل الله تعالى سعيهم مشكوراً، وعملهم مبروراً - فاستعنت بالمعبود - وشرعت في المقصود معترفاً بالعجز والقصور في هذا الفن؛ وفي سائر الفنون لا كمن هو بانه مفتون، كيف وقد قال عز من قائل: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومن أصدق من الله قيلاً، وكفي بالله ولياً وكفي بالله وكياًلاً.

ولما كان التفسير الكبير المنسوب إلي الإمام الأفضل، والهمام الأمثل والحبر النحرير، والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول، الفائز بالفروع والأصول، أفضّل المتأخرين، فخر الملة والحق والدين، محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي، تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوحه جنانه، اسمه مطابق لمسماه وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يحصي، ومن الزوائد والفتوي ما لا يخفي، فإنه قد بذل مجهوده، ومثل موجوده، حتي عسر كتبه علي الطالبين، وأعوز تحصيله علي الراغبين، فحاذيت سياق مرامه، وأوردت حاصل كلامه، وقربت مسالك أقدامه، والتقطت عقود نظامه، من غير إخلال بشئ من الفوائد. وإهمال لما يعد من اللطائف والفرائد، وضمنت إليه ما وجدت في الكشاف وفي سائر التفاسير من اللطائف المهمات، أو رزقني الله تعالى من البضاعة المزجاة، وأثبت القراءات المعتبرات والوقوف المعللات، ثم التفسير المشتمل علي المباحث اللفظيات، والمعنويات مع إصلاح ما يجب إصلاحه وإتمام ما ينبغي إتمامه من المسائل الموردة في التفسير الكبير والاعتراضات، ومع كل ما يوجد في الكشاف من المواضع المعضلات، سوي الأبيات المعقدات، فإن ذلك يوردها من ظن أن تصحيح القراءات وغرائب القرآن، إنما يكون بالأمثال والمستشهدات، كلاً فإن القرآن حجة علي غيره وليس غيره حجة عليه، فلا علينا أن نقتصر في غرائب القرآن علي تفسيرها بالألفاظ المشتهرات، وعلي إيراد بعض المتجانسات التي نعرف منها أصول الاشتقاقات و ذكرت طرفاً من الإشارات المقنعات، والتأويلات الممكنات، والحكايات المبكيات، والمواعظ الرادعة عن المنهيات، الباعثة علي أداء الواجبات، والتزمت إيراد لفظ القرآن الكريم أولاً، مع ترجمته علي وجه بديع، وطريق منيع، يشتمل علي إبراز المقدرات، وإظهار المضمورات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجازات والاستعارات، فإن هذا النوع من الترجمة مما تسكب فيه

العبريات، وترن^(١) المترحمون هنالك إلي العشرات، وقلما يفتن له الناشئ الواقف علي متن اللغة العربية، فضلاً عن الدخيل الزحيل القاصر في العلوم الأدبية، واجتهدت كل الاجتهاد في تسهيل سبيل الرشاد ووضعت الجميع علي طرف التمام، ليكون الكتاب كالبدر التمام، وكالشمس في إفادة الخاص والعام، من غير تطويل يورث الملام، ولا تقصير يورع مسالك السالك ويبدد نظام الكلام، فخير الكلام ما قل ودل: «وحسبك من الزاد ما بلغك المحل»^(٢).

وقال في آخر تفسيره ما نصه: «وقد تضمن كتابي هذا حاصل التفسير الكبير الجامع لأكثر التفاسير، وجل كتاب الكشاف الذي رزق له القبول من أساتذة الأطراف والأكتاف، واحتوي مع ذلك علي النكت المستحسنة الغريبة، والتأويلات المحكمة العجيبة، مما لم يوجد في سائر تفاسير الأصحاب، أو وجدت متفرقة الأسباب، أو مجموعة طويلة الذبول والأذنان».

أما الأحاديث. فإما من الكتب المشهورة كجامع الأصول، والمصابيح وغيرها، وإما من كتاب الكشاف والتفسير الكبير ونحوهما، إلا الأحاديث الموردة في الكشاف في فضائل السور، فإننا قد أسقطناها لأن النقد زيفها إلا ما شذ منها.

وأما الوقوف للإمام السجاوندي، مع اختصار لبعض تعليقات وإثبات للآيات لتوقفها علي التوقيف.

وأما أسباب النزول، فمن كتاب جامع الأصول، والتفسيرين، أو من تفسير الواحدي.

وأما اللغة، فمن صحاح الجوهري، ومن التفسيرين كما نقلنا.

وأما المعاني والبيان وسائر المسائل الأدبية، فمن التفسيرين، والمفتاح وسائر الكتب العربية.

وأما الأحكام الشرعية، فمنهما، ومن الكتب المعتبرة في الفقه ولا سيما شرح الوجيز للإمام الرافعي.

وأما التأويل، فأكثرها للشيخ المحقق، المتقي المتقن نجم الملة والدين المعروف بـ (داية) قدس نفسه وروح رسمه، وطرف منها مما دار بخلدي وسمحت به ذات يدي غير جازم بأنه المراد من الآية، بل خائف من أن يكون ذلك جرأة مني وخصوصاً فيما لا

(١) هكذا بالأصل، وفي هامش بعض النسخ: (ولعل الصواب: ويزل) وليس بظاهر أقول: ولعلها يذن بمعنى يمشي: قال في أساس البلاغة: وفلان يذن في مشيته إذا مشي بضعف، وما زال يذن في هذه الحاجة: يتردد بتؤدة ورفق.

(٢) الجزء الأول ص ٥ - ٦.

يعنيني، وإنما شجعني علي ذلك سائر الأئمة الذين اشتهروا بالذوق والوجدان، وجمعوا بين العرفان والإيمان، والإتقان في معني القرآن، الذي هو باب واسع، يطمع في تصنيفه كل طامع، فإن أصبت فيها، وإن أخطأت فعلي الإمام ما سها، والعذر مقبول عند أهل الكرم والنهي، والله المستعان لنا ولهم في مظان الخلل والزلل، وعلي رحمته التكلان في محال الخطأ والخلل، فعلي المرء أن يبذل وسعه لإدراك الحق، ثم الله معين لإرادة الصواب، ومعين لإلهام الصدق.

وكذا الكلام في بيان الرباطات والمناسبات بين السور والآيات، وفي أنواع التكريرات وأصناف المشتبهات، فإن للخواطر والظنون فيها مجالاً وللناس الأكياس في استنباط الوجوه والنسب هناك مقالاً.

ثم مضى فقال: «وإني لم أمل في هذا الإملاء إلا إلي مذهب أهل السنة والجماعة فبينت أصولهم، ووجوه استدلالاتهم بها، وما ورد عليها من الاعتراضات، والأجوبة عنها.

وأما في الفروع، فذكرت استدلال كل طائفة بالآية علي مذهبه، من غير تعصب ومراء وجدال وهراء».

ثم مضى فقال: «ولقد وفقت لإتمام هذا الكتاب في مدة خلافة علي رضي الله عنه. وكنا نقدر إتمامه في مدة خلافة الخلفاء الراشدين وهي ثلاثون سنة، ولو لم يكن ما اتفق في أثناء التفسير من وجود الأسفار الشاسعة وعدم الأسفار النافعة، ومن غموم لا يعد عديدها، وهموم لا ينادي وليدها - لكان يمكن إتمامه في مدة خلافة أبي بكر، كما وقع لجار الله العلامة» (١).

هذا.. وقد نوه صاحب روضات الجنات بمكانة هذا التفسير فقال: «وتفسيره - يريد النيسابوري - من أحسن شروح كتاب الله المجيد، وأجمعها للفوائد اللفظية والمعنوية، وأحوزها للفوائد القشرية واللبية، وهو قريب من تفسير مجمع البيان كما وكيفاً، وسمة وترتيباً، بزيادة أحكام الأوقاف في أوائل تفسير الآية، ومراتب التأويل في آخره، والإشارة إلي جملة من دقائق نكات العربية في البين» (٢).

والكتاب مطبوع علي هامش تفسير ابن جرير الطبري ومتداول بين أهل العلم.

* * *

٧ - تفسير الجلالين لـ (جلال الدين المحلي)

و (جلال الدين السيوطي)

● التعريف بمؤلفي هذا التفسير :

ألف هذا التفسير الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، أما جلال الدين السيوطي، فقد سبق التعريف به عند الكلام عن تفسيره المسمي بالدر المنثور.

وأما جلال الدين المحلي فهو جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي، تفتازاني العرب الإمام العلامة. قال في حسن المحاضرة: «ولد بمصر سنة ٧٩١هـ (إحدى وتسعين وسبعمائة)، واشتغل وبرع في الفنون فقهاً، وكلاماً، وأصولاً، ونحواً، ومنطقاً وغيرها. وأخذ من البدر محمود الأقسراني، والبرهان البيجوري، والشمس البساطي، والعلاء البخاري، وغيرهم، وكان علامة آية في الذكاء والفهم، حتي كان بعض أهل عصره يقول فيه: إن ذهنه يثقب الماس، وكان يقول عن نفسه: إن فهمه لا يقبل الخطأ ولم يك يقدر علي الحفظ».

وكان غرة عصره في سلوك طريق السلف، علي مبلغ عظيم من الصلاح والورع، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الحق لومة لائم، فكان يواجه بالحق أكابر الظلمة والحكام، وكانوا يأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم في الدخول عليه، وكان حديد الطبع لا يراعي أحداً في القول، وقد عرض عليه القضاء الأكبر فلم يقبله وولي تدريس الفقه بالمؤيدية والبروقية، وسمع من جماعة وكان مع هذا متقشفاً في معيشتة يتكسب بالتجارة وقد ألف كتباً كثيرة تشد إليها الرحال، وهي غاية في الاختصار، والتحرير والتنقيح، وسلامة العبارة وحسن المزج والحل، وقد أقبل الناس علي مؤلفاته وتلقوها بالقبول، وتداولوها في دراساتهم، فمن مؤلفاته شرح جمع الجوامع في الأصول، وشرح المنهاج في فقه الشافعية، وشرح الورقات في الأصول، ومنها هذا التفسير الذي نحن بصدده.

توفي - رحمه الله - في أول يوم من سنة ٨٦٤ هـ (أربع وستين وثمانمائة من الهجرة) (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه :

اشترك في هذا التفسير - كما قلنا - الإمامان الجليلان: جلال الدين المحلي. وجلال الدين السيوطي.

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب: ٧/٣٠٣ - ٣٠٤ وطبقات المفسرين للداودي ص ٢١٩

أما جلال الدين المحلي، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلي آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يفسر ما بعدها. وأما جلال الدين السيوطي، فقد جاء بعد الجلال المحلي فأكمل تفسيره فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلي لتكون ملحقة به.

هذا هو الواقع ولا أظن صاحب كشف الظنون مصيباً حيث يقول عند الكلام علي تفسير الجلالين ما نصه: « تفسير الجلالين من أوله إلي آخر سورة الإسراء للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي المتوفي سنة ٨٦٤هـ (أربع وستين وثمانمائة) ولما مات كمله الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ (إحدى عشرة وتسعمائة) .. وحيث يقول بعد ذلك بقليل: «وكان المحلي لم يفسر الفاتحة، وفسرها السيوطي تفسيراً مناسباً»^(١).

نعم لا أظن صاحب كشف الظنون مصيباً في ذلك، لأن السيوطي في مقدمة هذا التفسير وقبل الكلام علي سورة البقرة - يقول بعد الديباجة ما نصه: «هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الإمام العلامة المحقق، جلال الدين، محمد بن أحمد، المحلي الشافعي رحمه الله، وتتميم ما فاته وهو - يريد ما فاته الجلال المحلي وقام هو بتفسيره - من أول سورة البقرة إلي آخر سورة الإسراء».

ويقول في آخر سورة الإسراء ما نصه: «قال مؤلفه: هذا آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم، الذي ألفه الشيخ الإمام، العالم العلامة المحقق جلال الدين المحلي الشافعي رضي الله عنه»^(٢).

هذا هو ناحية تعيين القدر الذي فسره كل منهما. وأما من الناحية الأخرى وهي ادعاء صاحب كشف الظنون أن المحلي لم يفسر الفاتحة، وإنما الذي فسرها هو السيوطي، فهي أيضاً دعوي يظهر لنا أنها غير صحيحة وذلك لما يقوله الشيخ سليمان الجمل في مقدمة حاشيته علي هذا التفسير (ج١ ص ٧): «وأما الفاتحة ففسرها المحلي، فجعلها السيوطي في آخر تفسير المحلي لتكون منضمة لتفسيره. وابتدأ هو في أول سورة البقرة».

ولقوله في الحاشية نفسها (ج٤ ص ٦٢٦) عند نهاية ما كتبه علي تفسير سورة الفاتحة: «إنه - أي الجلال المحلي - كان قد شرع في تفسير النصف الأول، وإنه ابتدأ بالفاتحة، وأنه اخترمته المنية بعد الفراغ وقبل الشروع في البقرة وما بعدها».

(١) كشف الظنون: ١/ ٢٣٦.

(٢) الجزء الأول ص ٢٣٧.

هذا.. وقد قال صاحب كشف الظنون بعد ما نقلناه عنه آنفاً بقليل: «ولم يتكلم الشيخان علي البسملة، فتكلم عليها بأقل مما ينبغي من الكلام بعض العلماء من زييد وكتب ذلك حاشية بالهامش، وهذا صحيح، فإن الجلال المحلي لم يتكلم عن تفسير البسملة مطلقاً في الجزء الذي فسر له لا في أول سورة الكهف، ولا في أول فاتحة الكتاب، كذلك الجلال السيوطي، لم يتكلم عن تفسيرها مطلقاً في الجزء الذي فسر له.

وبعد هذا.. فالجلال المحلي، فسر الجزء الذي فسر به عبارة موجزة محررة، في غاية الحسن ونهاية الدقة، و الجلال السيوطي تابعه علي ذلك ولم يتوسع لأنه التزم بأن يتم الكتاب علي النمط الذي جري عليه الحال المحلي كما أوضح هو ذلك في مقدمته، وذكر في خاتمة سورة الإسراء أنه ألف الجزء الذي ألفه في قدر ميعاد الكليم، وهو أربعون يوماً، كما ذكر في هذا الموضوع نفسه: أنه استفاد في تفسيره من تفسير الجلال المحلي، وأنه اعتمد عليه في الآي المتشابهة، كما أنه اعترف - جازماً - بأن الذي وضعه الجلال المحلي في قطعه أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة» (١).

وعلي الجملة.. فالسيوطي قد نهج في تفسيره منهج المحلي «من ذكر ما يفهم من كلام الله تعالي، والاعتماد علي أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتج إليه، والتنبيه علي القراءات المختلفة المشهورة، علي وجه لطيف وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعراب محلها كتب العربية» (٢).

ولا شك أن الذي يقرأ تفسير الجلالين، لا يكاد يلمس فرقاً واضحاً بين طريقة الشيخين فيما فسراه، ولا يكاد يحس بمخالفة بينهما في ناحية من نواحي التفسير المختلفة، اللهم إلا في مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل.

فمن هذه المواضع أن المحلي في سورة (ص) فسر (الروح): بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذ فيه. والسيوطي تابعه علي هذا التفسير في سورة الحجر ثم ضرب عليه لقوله تعالي في الآية (٨٥) من سورة الإسراء: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح من علم الله تعالي فالإمساك عن تعريفها أولي.

ومنها: أن المحلي قال في سورة الحج: «الصائبون: فرقة من اليهود»، والسيوطي في

(١) تفسير الجلالين: ١/ ٢٣٧ - ٢٣٨ في الخاتمة.

(٢) مقدمة السيوطي لتفسير الجلالين.

سورة البقرة تابعة علي ذلك وزاد عليه: «أو النصاري» بياناً منه لقول ثان^(١)... وهكذا تلمح الخلاف بين الشيخين قليلاً نادراً.

ثم إن هذا التفسير، غاية في الاختصار والإيجاز، حتي لقد ذكر صاحب كشف الظنون عن بعض علماء اليمن أنه قال: «عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين إلي سورة المزمل. ومن سورة المدثر التفسير زائد علي القرآن، فعلي هذا يجوز حمله بغير الوضوء»^(٢).

ومع هذا الاختصار، فالكتاب قيم في بابه، وهو من أعظم التفاسير انتشاراً وأكثرها تداولاً ونفعاً، وقد طبع مراراً كثيرة، وظفر بكثير من تعاليق العلماء وحواشيهم عليه، ومن أهم هذه الحواشي: حاشية الجمل، وحاشية الصاوي، وهما متداولتان بين أهل العلم.

وذكر صاحب كشف الظنون: أن عليه حاشية لشمس الدين محمد بن العلقمي سماها: قيس النيرين، فرغ من تأليفها سنة ٩٥٢هـ (اثنين وخمسين وتسعمائة)، وحاشية مسماة بالجمالين، لمولانا الفاضل نور الدين علي بن سلطان محمد القاري نزيل مكة المكرمة، والمتوفي بها عام ١٠١٠هـ، (عشر وألف) وشرح لجلال الدين محمد بن محمد الكرخي، وهو كبير في مجلدات سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين، وله حاشية صغرى^(٣).

ولكن شيئاً مما ذكره صاحب كشف الظنون لم يقع تحت أيدينا، ولم نظفر بالاطلاع عليه.

٨ - السراج المنير في الإعانة علي معرفة

بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير

للخطيب الشربيني

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام العلامة شمس الدين، محمد بن محمد الشربيني، القاهري الشافعي الخطيب. تلقى العلم عن كثير من مشايخ عصره، فمنهم الشيخ

(١) خاتمة الجزء الأول من تفسير الجلالين ص ٢٣٨. (٢) كشف الظنون: ١/ ٢٣٦.

(٣) المرجع السابق، وقد تقدم عند الكلام عن تفسير الدر المنثور وأن السيوطي شرع في تأليف تفسير سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين، ولم نعرف هل أتمه أو لا، وهو بالضرورة غير مجمع البحرين ومطلع البدرين لجلال الدين محمد بن محمد الكرخي وإن كان صاحب كشف الظنون عند الكلام عن مجمع البحرين ومطلع البدرين لم يذكر غير ما نسب للجلال السيوطي.

أحمد البرلسي، والنور المحلي، والبدر المشهدي والشهاب الرملي، وغيرهم، ولما أنس منه أشياخه، ورأوه أهلاً للفتوي والتدريس أجازوه بها فدرس وأفتي في حياتهم، وانتفع به خلائق لا يحصون.

ولقد كان - رحمه الله - علي جانب عظيم من الصلاح والورع، وقد أجمع أهل مصر علي ذلك، ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع وكثرة التنسك والعبادة. وكان من عاداته أن يعتكف من أول رمضان فلا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد، وكان إذا حج لا يركب إلا بعد تعب شديد، وكان يؤثر الخمول ولا يكثرت بأشغال الدنيا، وعلي الجملة، فقد كان آية من آيات الله تعالي، وحجة من حججه علي خلقه. توفي في عصر يوم الخميس ثاني شعبان سنة ٩٧٧ هـ «سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة» ومن أهم مؤلفاته: شرحه لكتاب المنهاج وكتاب التنبيه، وهما شرحان عظيمان، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد القاضي زكريا، وأقبل الناس علي قراءتهما وكتابتهما في حياته، وتفسيره لكتاب الله تعالي، وهو الذي نحن بصده الآن (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته: أن أئمة السلف ألقوا في التفسير كتباً، كل علي قدر فهمه ومبلغ علمه، وأنه خطر له أن يقتفي أثرهم ويسلك طريقهم، ولكنه تردد في ذلك مدة من الزمن، مخافة أن يدخل تحت الوعيد الوارد في حق من فسر القرآن برأيه أو بغير علم، ثم ذكر أنه استخار الله تعالي في حضرته، بعد أن صلي ركعتين في روضته، وسأله أن يشرح صدره لذلك وييسره له، فشرح الله له صدره، ولما رجع من سفره، كتم ذلك في سره، حتي قال له شخص من أصحابه: إنه رأي في المنام أن النبي ﷺ أو الشافعي يقول: قل لفلان يعمل تفسيراً علي القرآن. وذكر المؤلف أنه لم يمض عليه إلا القليل حتي قرر في وظيفته مشيخة تفسير في البيمارستان، وذكر أن جماعة من أصحابه ممن لهم شغف بالعلم، طلبوا منه بعد فراغه من شرح منهاج الطالبين، أن يجعل لهم تفسيراً وسيطاً بين الطويل الممل والقصير المخل، فأجابهم إلي ذلك، متمثلاً وصية الرسول ﷺ فيهم، حيث قال فيما يرويه عنه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً» ومقتدياً بالماضين من السلف، في تدوين العلم إبقاء علي الخلف، وذكر أنه ليس علي ما فعلوه مزيد، ولكن لا بد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد، وقصر للطالبين فيه الجد والجهد، تنبيهاً للمتوقفين، وتحريصاً للمتشبطين، وليكون ذلك عوناً له وللقاصرين أمثاله - كما يقول.

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب: ٣٨٤/٨.

وذكر أنه اقتصر فيه علي أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية، وذكر أن ما يذكره فيه من القراءات فهو من السبع المشهورات. قال: وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها، أو لورودها ولكن بصيغة: (قيل)، ليعلم أن المرضي أولها، وسميته: «السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير». ثم قال: وقد تلقيت التفسير - بحمد الله - من تفاسير متعددة رواية، عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت آثارهم.

وقال في خاتمة الكتاب: «فدونك تفسيراً كأنه سبيكة عسجد، أو در منضد، جمع من التفاسير معظمها ومن القراءات متواترها، ومن الأقاويل أظهرها، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها، محرراً لدلائل في هذا الفن مظهراً لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن»... إلخ.

وقد قرأت في هذا التفسير فوجده تفسيراً سهلاً المأخذ، ممتع العبارة ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، نقل فيه صاحبه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما أنه يذكر أحيانا أقوال من سبقه من المفسرين كالزمخشري، والبيضاوي، والبغوي، وقد يوجه ما يذكره من هذه الأقوال ويرتضيها، وقد يناقشها ويرد عليها (١).

● موقفه من القراءات والأعاريب والحديث:

وقد وُفي فيه صاحبه بما وعد فلم يذكر من القراءات إلا ما تواتر منها، ولم يقحم نفسه فيما لا يعني المفسر من ذكر الأعاريب التي لا تمت إلي التفسير بسبب. كما أنه وفي بما التزمه من أنه لا يذكر فيه إلا حديثاً صحيحاً أو حسناً، ولهذا نراه يتعقب الزمخشري والبيضاوي فيما ذكره من الأحاديث الموضوععة في فضائل القرآن سورة سورة، كما ينبه علي الأحاديث الضعيفة إن روي شيئاً منها في تفسيره.

فمثلاً في آخر سورة آل عمران يقول ما نصه: «روي الطبري لكن بإسناد ضعيف: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلي الله عليه وملائكته حتي تحجب الشمس».. أي تغيب، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري وتبعهما ابن عادل من أنه - ﷺ - قال: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً علي جسر

(١) انظر ما نقله عن البيضاوي متابعاً فيه الزمخشري، وما ذكره من رد أبي حنبل عليه، عند قوله تعالي في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (ج ١ ص ١١).

جهنم»، فهو من الأحاديث الموضوعة علي أبي بن كعب في فضائل السور، فليتنبه لذلك ويحذر منه، وقد نبه أئمة الحديث قديماً وحديثاً علي ذلك، وعابوا من أورده من المفسرين في تفاسيرهم، والله أعلم^(١).

وفي آخر سورة الأعراف يقول ما نصه: «والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعاً للزمخشري وهو: «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سداً، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة».. حديث موضوع»^(٢).

وفي آخر سورة الجاثية يقول ما نصه: «وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه - ﷺ - قال: «من قرأ سورة حم الجاثية، ستر الله عورته، وسكن روعته يوم الحساب».. حديث موضوع»^(٣).

● اهتمامه بالنكت التفسيرية ومشكلات القرآن:

وما نلاحظه في هذا التفسير، أنه يورد بعض النكت التفسيرية، وبعض الإشكالات والإجابة عنها، تارة بقوله: تنبيه، وتارة بقوله: فإن قيل كذا أجيب بكذا.

● عنايته بالمناسبات بين الآيات:

كما أنه شديد العناية بذكر المناسبات بين آيات القرآن، عظيم الاهتمام بتقرير الأدلة وتوجيهها.

● موقفه من المسائل الفقهية:

كما أننا نلاحظ عليه أنه يستطرد إلي ذكر الأحكام الفقهية. ومذاهب العلماء وأدلتهم، وإن كان مقللاً في هذه الناحية، فلا يتوسع ولا يكثر من ذكر الفروع. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٥) «مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذْكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ نراه يعرض لبعض أقوال العلماء في معني اليمين اللغو، ثم بعد الفراغ من تفسير الآية يقول: «تنبيه» ثم يذكر ما ينعقد به اليمين وما يترتب علي الحنث في اليمين المنعقدة، وهل تجب الكفارة بالحنث في اليمين الغموس أو لا تجب؟ فيذكر عن الشافعية أنهم يقولون بوجوبها وعن بعض العلماء أنه لا كفارة فيها كأكثر الكبراء، ويعرض لحكم الحلف بغير الله كالكعبة والنبي والأب وغير ذلك^(٤).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٩) «مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ يقول بعد الفراغ من التفسير: «تنبيه: اختلف العلماء فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقاً، فذهب الأكثر - ومنهم الشافعي رضي الله

(٢) الجزء الثالث ص ٥٦٨.

(٤) الجزء الأول ص ١٣٩.

(١) الجزء الأول ص ٢٦٥.

(٣) الجزء الثالث ص ٥٦٨.

عنه - إلي أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج، فالحر يملك علي زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد لا يملك علي زوجته الحرة إلا طلقتين. وذهب الأقل - ومنهم أبو حنيفة رضي الله عنه - إلي أن الاعتبار المرأة في عدد الطلاق كالعدة، فيملك العبد علي زوجته الحرة ثلاث طلقات، ولا يملك الحر علي زوجته الأمة إلا طلقتين»^(١).

● خوضه في الإسرائيليات :

هذا.. ولم يخل تفسير الخطيب، من ذكر بعض القصص الإسرائيلية الغريب، وذلك بدون أن يتعقبه بالتصحيح أو التضعيف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتَظَرِ الطَّيْرِ﴾... الآية، نراه يروي خبراً طويلاً عن كعب فيه: أنه صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاخنة فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول: "ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنه يقول: كما تدين تدان... إلي آخر ما ذكره من صيحات حيوانات متعددة، ومعاني هذه الصيحات، ثم يروي ما يشبه هذا عن مكحول، وعن فرقد السنجي كما يروي بعد ذلك أن جماعة من اليهود سألوا ابن عباس عن معاني ما تقول بعض الطيور، وما كان من جواب ابن عباس عن ذلك، وهو شبيه بما تقدم أيضاً، ومع كون القصة في نهاية الغرابة والبعد فإن الخطيب يمر عليها من الكرام ولا يعقب عليها بكلمة واحدة^(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النمل أيضاً: ﴿وَإِنِّي مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ نراه يقص لنا عن وهب بن منبه وغيره قصة غريبة فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان، وما كان من اختبارها له. وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته علي ما اختبرته به، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه مما يبعث الدهشة ويثير العجب ومع ذلك لا يعقب علي ما رواه بكلمة واحدة^(٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ الْيَأْسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.. نراه يقول: «تنبه أذكر فيه شيئاً من قصته عليه السلام».. ثم يروي لنا قصة طويلة، وعجيبة عن علماء السير والأخبار، وبعد الفراغ منها لا يتعقبها بتصحيح أو تضعيف^(٤).

(٢) الجزء الأول ص ٤٣ - ٤٤.

(١) الجزء الأول ص ١٤١.

(٤) الجزء الثالث ص ٣٦٦ - ٣٦٩.

(٣) الجزء الثالث ص ٥٤ - ٥٥.

ولكن الخطيب إن مر علي مثل هذه القصص بدون أن يعقب عليها، لا يرضي لنفسه أن يمر علي قصة فيها ما يخل بمقام النبوة إلا بعد أن يعقب عليها بما يظهر بطلانها وعدم صحتها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيات: (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة (ص): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾. الآيات، إلي آخر القصة، نراه يذكر لنا عبارة الفخر الرازي التي ذكرها في تفسيره لتفنيد الروايات الباطلة في هذه القصة، وتقرير ما هو لائق في حق نبي الله داود عليه السلام (١).
... وهكذا نلاحظ علي هذا التفسير أنه يغلب عليه الجانب القصصي بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير.

● كثرة نقوله عن تفسير الفخر الرازي:

هذا ولا يفوتنا أن الخطيب الشربيني، كثيراً ما يعتمد علي التفسير الكبير للفخر الرازي، والذي يقرأ في تفسيره هذا، يجد أنه يكثر من النقول عنه. والكتاب مطبوع في أربعة أجزاء كبار، ومتداول بين أهل العلم، لما فيه من السهولة والجمع لخلاصة التفاسير التي سبقته مع الدقة والإيجاز.

٩ - إرشاد العقل السليم

إلي مزايا الكتاب الكريم (لأبي السعود)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الحنفي المولود في سنة ٨٩٣هـ (ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة)، بقرية قريبة من القسطنطينية، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل حتي قال بعضهم فيه: تربي في حجر العلم حتي ربي، وارتضع ثدي الفضل إلي أن ترعرع وحبا، ولا زال يخدم العلوم الشريفة حتي رحب باعه وامتد ساعده واشتد اتساعه».

قرأ كثيراً من كتب العلم علي والده، وتلمذ لكثير من جلة العلماء فاستفاد منهم علماً جماً، ثم طارت سمعته، وفاضت شهرته، وعظم صيته وتولي التدريس في كثير من المدارس التركية، ثم قلد قضاء بروسة ثم نقل إلي قضاء القسطنطينية، ثم نقل إلي قضاء ولاية العسكر في ولاية روم أيلي، ودام علي قضائها مدة ثمان سنين، ثم تولي أمر الفتوي بعد ذلك، فقام بها خير قيام بعد أن اضطرب أمرها بانتقالها من يد إلي يد، وكان ذلك سنة ٩٥٢هـ «اثنين وخمسين وتسعمائة من الهجرة) ومكث في منصب

الإفتاء نحواً من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة، والبراعة في الفتوي والتفنن فيها، وقد ذكروا عنه أنه كان يكتب جواب الفتوي علي منوال ما يكتبه السائل من الخطاب فإن كان السؤال منظوماً كان الجواب منظوماً كذلك، مع الاتفاق بينهما في الوزن والقافية، وإن كان السؤال نثراً مسجعاً، كان الجواب مثله، وإن كان بلغة العرب فالجواب بلغة العرب، وإن كان بلغة الترك فالجواب بلغة الترك... وهكذا مما يشهد للرجل بسعة أفقه وغازاة مادته ولقد قرأنا في ترجمته شيئاً من الاستفتاء والفتوي فوجدنا صدق ما قيل عنه في ذلك.

وكان - رحمه الله - كما قيل عنه من الذي قعدوا من الفضائل والمعارف علي سنامها وغاربها، وسارت بذكره الركبان في مشارق الأرض ومغاربها ولقد حاز قصب السبق بين أقرانه، ولم يقدر أحد أن يجاريه في ميدانه ولقد كان اشتغاله بالتدريس وتنقله بين كثير من المدارس وتوليه للقضاء ثم الفتوي سبباً عائقاً له عن التفرغ والتصنيف والتأليف، ولكنه اختلس فرصاً من وقته فصرفها إلي كتابة التفسير، فأخرج للناس كتابه الذي نحن بصدده كما أنه كتب بعض الحواشي علي تفسير الكشاف، وكتب حاشية علي العناية من أول كتاب البيع من الهداية. وعلي الجملة فقد جمع صاحبنا بين العلم والأدب، فبينما نراه مجوداً فيما كتبه وألفه من كتب العلم، نراه مبدعاً غاية الإبداع فيما أثر عنه من منشور ومنظوم، ولا أظن أن صاحبه الذي رثاه بعد وفاته قد تغالي في الثناء أو اشتط في الرثاء حيث يقول في مرثيته الطويلة:

ما العلم إلا ما حوت حقيقة وعلوم غيرك في الوري كسراب

توفي رحمه الله بمدينة القسطنطينية، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري، وذلك في أوائل جمادي الأولى سنة ٩٨٢ هـ (اثنتان وثمانين وتسعمائة من الهجرة). فرحمه الله رحمة واسعة (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قلنا: إن صاحب هذا التفسير شغل كثيراً بالتدريس والقضاء والفتوي ولكنه اختلس فرصاً من وقته ألف فيها كتابه في التفسير، قلنا هذا فيما سبق، والمؤلف نفسه يقرر هذا في مقدمة تفسيره، ولم يعرف أنه أخرج تفسيره للناس دفعة واحدة، بل ذكروا أنه ابتداءً فيه، فلما وصل إلي آخر سورة (ص) عرض له من الشواغل ما جعله يقف في تفسيره عند هذا الحد، فبيض ما كتب في شعبان سنة ٩٧٣ هـ (ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة) ثم أرسله إلي الباب العالي، فتلقيه السلطان سليمان

(١) يراجع العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم الموجود بهامش وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٢٨٢

خان بحسن القبول، وأنعم عليه بما أنعم، وزاد في وظيفته كل يوم خمسمائة درهم، ثم تيسر له بعد ذلك إتمامه، فأتمه بعد سنة، ثم أرسله إلي السلطان ثانياً بعد إتمامه، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه، وزاد في وظيفته مرة أخرى.

والحق أن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير، فصاحب «العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم» يقول عنه في كتابه: «وقد أتني فيه بما لم تسمح به الأزمان، ولم تفرغ به الآذان، فصدق المثل السائر: كم ترك الأول للآخر». وصاحب «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» يقول: «وقد طالعت تفسيره وانتفعت به وهو تفسير حسن، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، متضمن لطائف ونكات، ومشمتمل علي فوائد وإشارات». ونقل عن صاحب «الكشف» أنه قال: «انتشرت نسخه في الأقطار، ووقع له التلفي بالقبول من الفحول الكبار، لحسن سبكه وصدق تعبيره، فصار يقال له: «خطيب المفسرين» ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف والقاضي لم يبلغ إلي ما بلغه من رتبة الاعتبار» (١).

ولم يظفر هذا التفسير - كغيره من التفاسير - بكثرة الحواشي والتعليقات التي تكشف عن مراده. أو تتعقبه في بعض ما يقول، ولم يقع تحت يدنا شيء من ذلك، غير أننا نجد في «كشف الظنون» عند الكلام عن هذا التفسير ذكر ما كتب عليه من التعليقات فمن ذلك: تعليقة الشيخ أحمد الرومي الأحصاري المتوفي سنة ١٠٤١ هـ (إحدي وأربعين وألف من الهجرة) من سورة الروم إلي سورة الدخان. وتعليقة الشيخ رضي الدين بن يوسف القدسي، علقها إلي قريب من النصف، وأهداها إلي المولي أسعد بن سعد الدين حين دخل المقدس زائراً، وكان دأبه فيها نقل كلام العلّامتين الزمخشري والبيضاوي، وكلام ذلك الفاضل (أبي السعود) بقوله: قال الكشاف وقال القاضي، وقال المفتي، ثم المحاكمة فيما بينهم (٢). وهذا ما ذكره صاحب كشف الظنون، ولا نعلم أحداً كتب عليه غير من ذكرهما.

قرأت مقدمة الكتاب لمؤلفه، فوجدته يثني كثيراً علي تفسير الكشاف وأنوار التنزيل للبيضاوي، ويذكر أنه قرأهما قبل أن يؤلف تفسيره، ثم يقول: «ولقد كان في سوابق الأيام، وسوالف الدهور والأعوام، أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما، يدور في خلدي علي استمرار، أثناء الليل

وأطراف النهار، أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق، وأرتب غرر فرائدهما علي ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق، وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق، وأسلك خلالها بطريق الترصيع، علي نسق أنيق وأسلوب بديع، حسبما تقتضيه جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل، ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب. وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحير أريب، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام في مداحض الأقدام، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الآنام، في معارك أفكار تشبه فيها الشئون ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون، وأبرز من وراء أستار الكمون، من دقائق السر المخزون في خزائن الكتاب المكنون، ما تطمئن إليه النفوس، وتقرب به العيون، من خفايا الرموز وخبايا الكنوز.. نواياً أن أسميه عند تمامه، بتوفيق الله وإنعامه «إرشاد العقل السليم، إلي مزايا الكتاب الكريم». (١)

ومن هنا يتبين لنا، أن أبا السعود يعتمد في تفسيره علي تفسير الكشاف والبيضاوي وغيرهما ممن تقدمه، غير أنه لم يغتر بما جاء في الكشاف من الاعتزالات. ولهذا لم يذكرها إلا علي جهة التحذير منها، مع جريانه علي مذهب أهل السنة في تفسيره، ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، وصاحب أنوار التنزيل من أنه ذكر في آخر كل سورة حديثاً عن النبي ﷺ في فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، مع أن هذه الأحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم جميعاً.

● عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر إعجازه:

قرأت في هذا التفسير فلاحظت عليه - غير ما تقدم - أنه كثير العناية بسبك العبارة وصوغها، مولع كل اللوع بالناحية البلاغية للقرآن، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية، وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه وبخاصة في باب الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير والاعتراض والتذييل، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظاً وافراً من المعرفة بدقائق اللغة العربية، ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرزين في هذه الناحية.

● اهتمامه بالمناسبات وإلمامه ببعض القراءات:

ونلاحظ علي أبي السعود في تفسيره أنه كثيراً ما يهتم بإبداء وجوه المناسبات بين

الآيات، كما نلاحظ عليه أنه يعرض أحياناً لذكر القراءات ولكن بقدر ما يوضح به المعني، ولا يتوسع كما يتوسع غيره.

● إقلاله من رواية الإسرائيليات:

ومن ناحية أخرى نجد أنه مقل في سرد الإسرائيليات، غير مولع بذكرها وإن ذكرها أحياناً فإنه لا يذكرها علي سبيل الجزم بها، والقطع بصحتها، بل يصدر ذكر الرواية بقوله: روي، أو قيل، مما يشعر بضعفها، وإن كان لا يعقب عليها بعد ذلك، ولعله يكتفي بهذه الإشارة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النمل: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ يقول: روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحلهم الأساور والأطواق... إلي آخر ما ذكره من القصة العجيبة الغريبة^(١) ومع ذلك فلم يعقب عليها ولا بكلمة واحدة، ولعله اكتفى - كما قلت - بما يشير إليه لفظ (روي) من عدم صحة ما ذكره.

● روايته عن بعض من اشتهر بالكذب:

كما نلاحظ عليه أنه يروي بعض القصص عن طريق الكلبي عن أبي صالح، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٥) وما بعدها من سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾... الآيات إلي آخر القصة، نجده يقول: وأصل قصتهم ما رواه الكلبي عن أبي صالح: أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ، وبينهما اثني عشر أباً، وهو الذي يقال له (مزيقيا بن ماء السماء) أخبرته (طريقة) الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم الجنتين.. ويمضي في ذكر روايات أخرى عن رجال آخرين^(٢) مع العلم أن الكلبي متهم بالكذب، فقد قال السيوطي في خاتمة الدر المنثور مانصه: «الكلبي اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: كل شيء حدثكم عن أبي صالح كذب»^(٣) ولكن نجده أبا السعود يخلص من تبعة هذه الروايات التي سردها بقوله أخيراً: «والله تعالى أعلم» وهذا يشعر بأنه يشك في صدقها وصحتها.

● إقلاله من ذكر المسائل الفقهية:

كذلك نجد أبا السعود - رحمه الله - يتعرض في تفسيره لبعض المسائل الفقهية، ولكنه مقل جداً، ولا يكاد يدخل في المناقشات الفقهية والأدلة المذهبية، بل نجده يسرد المذاهب في الآية ولا يزيد علي ذلك.

(٢) الجزء الرابع ص ٢٢٩.

(١) الجزء الرابع ص ١٣١.

(٣) الجزء السادس ص ٤٢٣.

فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٢٢٥) من سورة البقرة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾... الآية، نجده يعرض للخلاف المذهبي في تحديد معنى اليمين اللغو فيقول: (وقد اختلف فيه، فعندنا هو أن يحلف علي شيء يظنه علي ما حلف عليه ثم يظهر خلافه، فإنه لا يقصد فيه الكذب. وعند الشافعي - رحمه الله - هو قول العرب - لا والله، وبلي والله، مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال) (١) ولا يزيد علي ذلك بل يمضي فينزل الآية علي قول الحنفية.

● تناولها لما تحتمله الآيات من وجوه الإعراب:

كما نلاحظ عليه أنه يعرض أحياناً للناحية النحوية إذا كانت الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب، وينزل الآية علي اختلاف الأعراب، ويرجح واحداً منها ويدلل علي رجحانه.

وعلي الجملة. فالكتاب دقيق غاية الدقة، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين، وقد طبع هذا التفسير مراراً وهو يقع في خمسة أجزاء متوسطة الحجم.

١٠ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (للألوسي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو: أبو الثناء شهاب الدين، السيد محمود أفندي الألوسي (٢) البغدادي. ولد في سنة ١٢١٧ هـ (سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية)، في جانب الكرخ من بغداد. كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، وآية من آيات الله العظام ونادرة من نوادير الأيام. جمع كثيراً من العلوم حتي أصبح علامة في المنقول والمعقول، فهامة في الفروع والأصول، محدثاً لا يجاري. ومفسراً لكتاب الله لا يباري، فأخذ العلم عن فحول العلماء. منهم والده العلامة، والشيخ خالد النقشبندي، والشيخ علي السويدي، وكان رحمه الله غاية في الحرص علي تزايد علمه، وتوفير نصيبه منه، وكان كثيراً ما ينشد:

سهري لتنقيح العلوم أذلي من وصل غانية وطيب عناق

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودرس في عدة مدارس،

(١) الجزء الأول ص ١٧١.

(٢) الألوسي: نسبة إلي قرية اسمها (ألوس) وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد كانت موطن أجداده.

وعندنا قلد إفتاء الحنفية، شرع يدرس سائر العلوم في داره الملاصقة لجامع الشيخ عبد الله العاقولي في الرصافة. وقد تتلمذ له وأخذ عنه خلق كثير من قاصي البلاد ودانيها، وتخرج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة، وكان - رحمه الله - يواسي طلبته من ملبسه ومأكله، ويسكنهم البيوت الرفيعة من منزله، حتي صار في العراق العلم المفرد، وانتهت إليه الرياسة لمزيد فضله الذي لا يجحد، وكان نسيج وحده في النثر وقوة التحرير، وغزارة الإملاء وجزالة التعبير، وقد أمني كثيرا من الخطب والرسائل، والفتاوي والمسائل، ولكن أكثر ذلك - علي قرب العهد - درس وعفت آثاره، ولم تظفر الأيدي إلا بالقليل منه، وكان ذا حافظة عجيبة وفكرة غريبة، وكثيراً ما كان يقول: «ما استودعت ذهني شيئاً فخانني، ولا دعوت فكري لمعضلة إلا وأجابني». قلد إفتاء الحنفية في السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة الحمديّة، وقبل ذلك بأشهر، ولي أوقاف المدرسة المرجانية، إذ كانت مشروطة لأعلم أهل البلد، وتحقق لدي الوزير الخطير علي رضا باشا، أنه ليس فيها من يدانيه من أحد، وفي شوال سنة ١٢٦٣ هـ «ثلاث وستين ومائتين بعد الألف» انفصل من منصب الإفتاء وبقي مشغلاً بتفسير القرآن الكريم حتي أمته، ثم سافر إلي القسطنطينية في السنة السابعة والستين بعد المائتين والألف، فعرض تفسيره علي السلطان عبد المجيد خان، فنال إعجابه ورضاه، ثم رجع منها سنة ١٢٦٩ هـ (تسع وستين ومائتين بعد الألف).

وكان - رحمه الله - عالماً باختلاف المذاهب، مطلعاً علي الملل والنحل، سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب، إلا أنه في كثير من مسائل يقلد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه، وكان في آخر أمره يميل إلي الاجتهاد. ولقد خلف - رحمه الله - للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة، فمن ذلك تفسيره لكتاب الله، وهو الذي نحن بصده الآن، وحاشيته علي القطر، كتب منها في الشباب إلي موضع الحال، وبعد وفاته أتمها ابنه السيد نعمان الألوسي، وشرح السلم في المنطق، وقد فقد، ومنها الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهوتية، والأجوبة العراقية علي الأسئلة الإيرانية ودرة الغواص في أوهام الخواص، والنفحات القدسية في المباحث الإمامية والفوائد السنية في علم آداب البحث.

وقد توفي رحمه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هـ (سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة)، ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ، فرضي الله عنه وأرضاه (١).

(١) لخصنا هذه الترجمة من الترجمة الموجودة بأول النسخة الأميرية من تفسير الألوسي.

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

ذكر مؤلف هذا التفسير في مقدمته أنه منذ عهد الصغر، لم يزل متطلباً لاستكشاف سر كتاب الله المكتوم، مترقباً لارتشاف رحيقه الختم، وأنه طالما فرق نومه لجمع شوارده، وفارق قومه لوصول خرائده، لا يرفل في مطارف اللهو كما يرفل أقرانه، ولا يهب نفائس الأوقات لخسائس الشهوات كما يفعل إخوانه، وبذلك وفقه الله للوقوف علي كثير من حقائقه، وحل وفير من دقائقه، وذكر أنه قبل أن يكمل سنه العشرين شرع يدفع كثيراً من الإشكالات التي ترد علي ظاهر النظم الكريم، ويتجاهر بما لم يظفر به في كتاب من دقائق التفسير، ويعلق علي ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذي ذهن خطير، وذكر أنه استفاد من علماء عصره، واقتطف من أزهارهم، واقتبس من أنوارهم، وأودع علمهم صدره، وأفني في كتابة فوائدهم حبره... ثم ذكر أنه كثيراً ما خطر له أن يحرق كتاباً يجمع فيه ما عنده من ذلك، وأنه كان يتردد في ذلك، إلي أن رأي في بعض ليالي الجمعة من شهر رجب سنة ١٢٥٢ هـ « اثنتين وخمسين ومائتين بعد الألف من الهجرة »، أن الله جل شأنه أمره بطي السموات والأرض، ورتق فتقهما علي الطول والعرض فرفع يداً إلي السماء، وخفض الأخرى إلي مستقر الماء، ثم انتبه من نومه وهو مستعظم لرؤيته، فجعل يفتش لها عن تعبير، فرأى في بعض الكتب أنها إشارة إلي تأليف تفسير فشرع فيه في الليلة السادسة عشرة من شهر شعبان من السنة المذكورة، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، وذلك في عهد السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان، وذكر في خاتمه أنه انتهى منه ليلة الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ هـ « سبع وستين ومائتين بعد الألف »، ولما انتهى منه جعل يفكر ما اسمه؟ وبماذا يدعوه؟ فلم يظهر له اسم تهتش له الضمائر، وتبتش من سماعه الخواطر فعرض الأمر علي وزير الوزراء علي رضا باشا، فسماه علي الفور: « روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ».

هذه هي قصة تأليف هذا التفسير، كما ذكرها صاحبه عليه رضوان الله.

وقد ذكروا أن سلوكه في تفسيره هذا كان أمراً عظيماً، وسراً من الأسرار غريباً، فإن نهاره كان للإفتاء والتدريس وأول ليله لمنادمة مستفيد وجليس، فيكتب بأواخر الليل منه ورقات، فيعطيها صباحاً للكتاب الذين وظفهم في داره فلا يكملونها تبييضاً إلا في نحو عشر ساعات.

● مكانه هذا التفسير من التفاسير التي تقدمته :

ثم إن هذا التفسير - والحق يقال - قد أفرغ فيه مؤلفه وسعه، وبذل مجهوده حتي أخرج للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراسة، مشتملاً علي أقوال الخلف بكل

أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير، فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي وغيرها من كتب التفسير المعتبرة. وهو إذا نقل عن تفسير أبي السعود يقول - غالباً - قال شيخ الإسلام. وإذا نقل عن تفسير البيضاوي يقول - غالباً قال القاضي، وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازي يقول - غالباً - : قال الإمام وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكماً عدلاً بينها، ويجعل من نفسه نقاداً مدققاً، ثم يبدي رأيه حراً فيما ينقل، فتراه كثيراً ما يعترض علي ما ينقله عن أبي السعود، أو عن البيضاوي، أو عن أبي حيان، أو عن غيرهم. كما تراه يتعقب الفخر الرازي في كثير من المسائل، ويرد عليه علي الخصوص في بعض المسائل الفقهية، انتصاراً منه لمذهب أبي حنيفة، ثم إنه إذا استصوب رأياً لبعض من ينقل عنهم، انتصر له ورجحه علي ما عداه.

● موقف الألوسي من المخالفين لأهل السنة:

والألوسي سلفي المذهب سني العقيدة، ولهذا نراه كثيراً ما يفند آراء المعتزلة والشيعة، وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٥) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .. يقول بعد كلام طويل ما نصه: « .. وإضافته - أي الطغيان - إليهم ، لأنه فعلهم الصادر منهم، بقدرهم المؤثرة بإذن الله تعالى فالاختصاص المشعرة به الإضافة، إنما هو بهذا الاعتبار، لا باعتبار المحلية والاتصاف، فإنه معلوم لا حاجة فيه إلي الإضافة، ولا باعتبار الإيجاد استقلالاً من غير توقف علي إذن الفعال لما يريد، فإنه اعتبار عليه غبار، بل غبار ليس له اعتبار، فلا تهولنك جعجة الزمخشري وقعقعتة (١).

وانظر إلي ما كتبه قبل ذلك عند تفسيره لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٧) مِنْ السُّورَةِ نَفْسِهَا: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ تجده يطيل بما لا يتسع لذكره المقام هنا، من بيان إسناد الختم إليه عز وجل علي مذهب أهل السنة، ومن ذكر ما ذهب إليه المعتزلة في هذه الآية وما رد به عليهم، وفند به تأويلهم الذي يتفق مع مذهبهم الاعتزالي (٢).

ومثلاً عند تفسيره لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١١) مِنْ سُورَةِ الْجُمُعَةِ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .. يقول ما نصه: « وطقن الشيعة لهذه الآية الصحابة رضي الله

تعالى عنهم، بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة، ورجبوا عن الصلاة التي هي عماد الدين، وأفضل من كثير من العبادات، لاسيما مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وروي أن ذلك قد وقع مراراً منهم، وفيه أن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وسائر العشيرة المبشرة لم ينفضوا، والقصة كانت في أوائل زمن الهجرة، ولم يكن أكثر القوم تام التحلي بحلية آداب الشريعة بعد، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا، ولذا لم يتوعدهم الله علي ذلك بالنار أو نحوها، بل قصاري ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم، ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان أنه قال: بلغني - والله تعالى أعلم - أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات، فمثل ذلك لا يلتفت إليه ولا يعول عند المحدثين عليه، وإن أريد بها غيرها فليبين وليثبت صحته، وأني بذلك؟ وبالجملة: الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التي كانت من بعضهم في أوائل أمرهم - وقد عقبها منهم عبادات لا تحصى - سفه ظاهر وجهل وافر. (١)

● الألوسي والمسائل الكونية:

ومما نلاحظه علي الألوسي في تفسيره، أنه يستطرد إلي الكلام في الأمور الكونية. ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة، ويقر منه ما يرتضيه ويفند ما لا يرتضيه، وإن أردت مثلاً جامعاً، فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى في الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) من سورة يس: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمَسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٢).

وأرجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢) من سورة الطلاق: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (٣) فستري منه توسعاً في هذه الناحية.

● كثرة استطراده للمسائل النحوية:

كذلك يستطرد الألوسي إلي الكلام في الصناعة النحوية، ويتوسع في ذلك أحياناً إلي حد يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسراً، ولا أحيلك علي نقطة بعينها، فإنه لا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك.

(٢) الجزء ٢٣ ص ١١ .

(١) الجزء ٢٨ ص ٩٤ .

(٣) الجزء ٢٨ ص ١٢٥ - ١٢٨ .

● موقفه من المسائل الفقهية:

كذلك نجده إذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه.

فمثلاً عند تفسيره لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٢٣٦) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ .. يقول ما نصه: وقال الإمام مالك: المحسنون: المتطوعون، وبذلك استدل علي استحباب المتعة وجعله قرينة صارفة للأمر إلي الندب، وعندنا (١): هي واجبة للمطلقات في الآية، مستحبة لسائر المطلقات. وعند الشافعي رضي الله عنه في أحد قوليهِ: هي واجبة لكل زوجة مطلقة إذا كان الفراق من قبل الزوج إلا التي سمي لها وطلقت قبل الدخول، وما لم يساعده مفهوم الآية ولم يعتبر العموم في قوله تعالى: ﴿وَالْمَطْلُقاتِ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١] لأنه يحمل المطلق علي المقيد، قال بالقياس، وجعله مقدماً علي المفهوم، لأنه من الحجج القطعية دونه، وأجيب عما قاله مالك، بمنع قصر المحسن علي المتطوع، بل هو أعم منه ومن القائم بالواجبات، فلا ينافي الوجوب، فلا يكون صارفاً للأمر عنه مع ما انضم إليه من لفظ حقاً (٢).

وإذا أردت أن تتأكد من أن الألوسي غير متعصب لمذهب بعينه فارجع إلي البحث الذي أفاض فيه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمَطْلُقاتِ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ .. الآية، تجده بعد أن يذكر مذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، وأدلة كل منهم، ومناقشاتهم يقول: «وبالجملة، كلام الشافعية في هذا المقام قوي، كما لا يخفي علي من أحاط بأطراف كلامهم، واستقرأ ما قالوه، تأمل ما دفعوا به من أدلة مخالفيهم» (٣).

● موقفه من الإسرائيليات:

وما نلاحظ علي الألوسي أنه شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة التي حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة، مع سخريته منه أحياناً. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢) من سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ .. نجده يقص علينا قصة عجيبة عن عوج بن عنق، يرويها عن البغوي، ولكنه بعد الفراغ منها يقول ما نصه: (وأقول: قد

(١) هذه اللفظة: (وعندنا) تدل بوضوح علي أن الألوسي كان حنفي المذهب، وما أكثر مثل هذا التعبير في تفسيره مما يجعلنا لا نميل إلي ما نقلناه سابقاً من أنه كان شافعيًا يقلد أبا حنيفة في كثير من المسائل.

(٣) الجزء الثاني ص ١٣٠ - ١٣٣.

(٢) الجزء الثاني ص ١٥٤.

شاع أمر عوج عند العامة، ونقلوا فيه حكايات شنيعة، وفي فتاوي العلامة ابن حجر، قال الحافظ العماد ابن كثير: قصة عوج وجميع ما يحكون عنه، هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات أهل الكتاب ولم يكن قط علي عهد نوح عليه السلام، ولم يسلم من الكفار أحد. وقال ابن القيم: من الأمور التي عرف بها كون الحديث موضوعاً أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة علي بطلانه، كحديث عوج بن عنق وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث وكذب علي الله تعالى، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره، ثم قال: ولا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسول الكرام عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم... ثم مضى الألوسي في تفنيد هذه القصة بما حكاها عن غير من تقدم من العلماء الذين استنكروا هذه القصة الخرافية (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة هود: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾. نجده يروي أخباراً كثيرة في نوع الخشب الذي صنعت منه السفينة، وفي مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، وفي المكان الذي صنعت فيه.. ثم يعقب علي كل ذلك بقوله: «سفينته الأخبار في تحقيق الحال فيما أري لا تصلح للركوب فيها، إذ هي غير سالمة عن عيب، فالحري بحال من لا يميل إلي الفضول، أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى في كتابه، ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، ومن أي خشب صنعها، وبكم مدة أتم عملها إلي غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم يبينه السنة الصحيحة» (٢).

● تعرضه للقراءات والمناسبات وأسباب النزول:

ثم إن الألوسي يعرض لذكر القراءات ولكنه لا يتقيد بالمتواتر منها، كما أنه يعني بإظهار وجه المناسبات بين السور كما يعني بذكر المناسبات بين الآيات ويذكر أسباب النزول للآيات التي أنزلت علي سبب، وهو كثير الاستشهاد بأشعار العرب علي ما يذهب إليه من المعاني اللغوية.

● الألوسي والتفسير الإشاري:

ولم يفت الألوسي أن يتكلم عن التفسير الإشاري بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات (٣)، ومن هنا عد بعض العلماء تفسيره هذا في ضمن كتب

(١) الجزء السادس ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) الجزء الثاني عشر ص ٤٥.

(٣) وسيأتي عند الكلام عن التفسير الإشاري توضيح لرأي الألوسي في هذا اللون من

التفسير الإشاري، كما عد تفسير النيسابوري في ضمنها كذلك، ولكنني رأيت أن أجعلهما في عداد كتب التفسير بالرأي المحمود نظراً إلي أنه لم يكن مقصودهما الأهم هو التفسير الإشاري، بل كان ذلك تابعاً - كما يبدو - لغيره من التفسير الظاهر، وهذه - كما قلت من قبل - مسألة اعتبارية لا أكثر ولا أقل، وإنما أردت أن أبين جهتي الاعتبار.

وجملة القول.. فروح المعاني للعلامة الألوسي ليس إلا موسوعة تفسيرية قيمة. جمعت جل ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه، مع النقد الحر، والترجيح الذي يعتمد علي قوة الذهن وصفاء القريحة، وهو وإن كان يستطرد إلي نواح علمية مختلفة، مع توسع يكاد يخرج عن مهمته كمفسر إلا أنه متزن في كل ما يتكلم فيه، مما يشهد له بغزارة العلم علي اختلاف نواحيه وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه، فجزاه لله عن العلم وأهله خير الجزاء إنه سميع مجيب.

وبعد... فهذه هي أهم كتب التفسير بالرأي الجائز، وهناك كتب أخرى تدخل في هذا النوع من التفسير، ولها أهميتها وقيمتها، كما أن لها شهرتها الواسعة بين أهل العلم الذين يعنون بالتفسير، غير أنني أمسكت عنها هنا مخافة التطويل، ولعدم إمكان الحصول علي بعضها، وأحسب أن في هذا القدر كفاية وغني عن كتب أخرى كثيرة.

* * *

الفصل الرابع التفسير بالرأي المذموم (تفسير الفرق المتدعة)

• تمهيد في بيان نشأة الفرق الإسلامية :

جري التفسير منذ زمن النبوة إلي زمن أتباع التابعين، علي طريقة تكاد تكون واحدة، فخلّف كل عصر يحمل التفسير عن سلف بطريق الرواية والسماع، وفي كل عصر من هذه العصور، تتجدد نظرات تفسيرية، لم يكن لها وجود قبل ذلك، وهذا راجع إلي أن الناس كلما بعدوا عن عصر النبوة ازدادت نواحي الغموض في التفسير. فكان لا بد للتفسير من أن يتضخم كلما مرت عليه السنون.

لم يكن هذا التضخم في الحقيقة إلا محاورات عقلية، ونظرات اجتهادية قام بها أفراد ممن لهم عناية بهذه الناحية. غير أن هذه الناحية العقلية في التفسير لم تخرج عن قانون اللغة، ولم تتخط حدود الشريعة، بل ظلت محتفظة بصيغتها العقلية والدينية، فلم تتجاوز دائرة الرأي المحمود إلي دائرة الرأي المذموم الذي لا يتفق وقواعد الشرع.

ظل الأمر علي ذلك إلي أن قامت الفرق المختلفة، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة، ووجد من العلماء من يحاول نصره مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة. وكان القرآن هو هدفهم الأول الذي يقصدون إليه جميعاً، كل يبحث في القرآن ليجد فيه ما يقوي رأيه ويؤيد مذهبه، وكل واجد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه، والميل بها مع رأيه وهواه وتأويل ما يصادمه منها تأويلاً يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه. ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأي المحمود إلي دائرة الرأي المذموم واستفحل الأمر إلي حد جعل القوم يتسعون في حماية عقائدهم، والترويج لمذاهبهم، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله علي وفق أهوائهم، ومقتضي نزعاتهم ونحلهم!!

ونحن نعلم بطريق الإجمال - وللتفصيل موضع غير هذا - أن رسول الله ﷺ قال: «ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار، إلا واحدة، وهي ما أنا عليه وأصحابي» وقد حقق الله نبوءة رسوله، وصدق قوله فتصدعت الوحدة الإسلامية إلي أحزاب مختلفة وفرق متنافرة متناحرة، ولم يظهر هذا التفرق بكل ما فيه من خطر علي الإسلام والمسلمين إلا في عصر الدولة العباسية، أما قبل ذلك فقد كان المسلمون يداً واحدة، وكانت عقيدتهم واحدة كذلك، إذا استثنينا ما كان بينهم من المنافقين الذين

ينتسبون إلي الإسلام ويضمرون الكفر، وما كان بين علي ومعاوية من خلاف لم يكن له مثل هذا الخطر. وإن كان النواة التي قام عليها التحزب، ونبت عنها التفرق والاختلاف.

بدأ الخلاف بين المسلمين أول ما بدأ، في أمور اجتهادية لا تصل بأحد منهم إلي درجة الابتداع والكفر، كاختلافهم عن قول النبي ﷺ «أئتوني بقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي» حتي قال عمر: إن النبي قد غيبه الوجد، حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط في ذلك حتي قال النبي ﷺ: «قوموا عني، لا ينبغي عندي التنازع». وكاختلافهم في موضع دفنه - ﷺ - أيدفن بمكة، لأنها مولده وبها قبلته ومشاعر الحج؟ أم يدفن بالمدينة، لأنها موضع هجرته، وموطن أهل نصرته؟ أم يدفن ببيت المقدس، لأن بها تربة الأنبياء ومشاهدهم؟

وكالخلاف الذي وقع بينهم في سقيفة بني ساعدة في تولية من يخلف رسول الله ﷺ بعد وفاته، وغير ذلك من الخلافات التي وقعت بينهم، ولم يكن لها خطرها الذي ينجم عنه التفرق ووقوع الفتنة والبغضاء بين المسلمين.

ظل الأمر علي ذلك إلي زمن عثمان رضي الله عنه، وكان ما كان من خروج بعض المسلمين عليه، ومحاصرتهم لداره، وقتلهم له، فعري المسلمين من ذلك الوقت رجة فكرية عنيفة، طاحت بالروية، وذهبت بكثير من الأفكار مذاهب شتى، فقام قوم يطالبون بدم عثمان، ثم نشبت الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من أجل الخلاف، وكان لكل منهم شيعة وأنصار يشدون أزره، ويقوون عزمه، وتبع ذلك انشقاق جماعة علي كرم الله وجهه، بعد مسألة التحكيم في الخلاف الذي بينه وبين معاوية، في السنة السابعة والثلاثين من الهجرة، فظهرت من ذلك الوقت فرقة الشيعة، وفرقة الخوارج، وفرقة المرجئة^(١)، وفرقة أخرى تنحاز لمعاوية، وتؤيد الأمويين علي وجه العموم.

ثم أخذ هذا الخلاف والتفرق، يتدرج شيئاً فشيئاً، ويترقى حيناً بعد حين إلي أن ظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكان أول من جهر بهذا المذهب ووضع الحجر الأساسي لقيام هذه الفرقة، معبد الجهني الذي أخذ عنه مذهبه غيلان الدمشقي ومن شاكله، وكان ينكر عليهم مذهبهم هذا من بقي من الصحابة كعبد الله ابن عمر، وابن عباس، وأنس وأبي هريرة وغيرهم.

ثم ظهر بعد هؤلاء - وفي زمن الحسن البصري بالبصرة - خلاف واصل بن عطاء

(١) انظر تبين كذب المفتري ص ١٠.

في القدر، وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين، ومجادلته للحسن البصري في ذلك، واعتزاله مجلسه، ومن ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة.

ثم كان من أصحاب الديانات المختلفة كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة.. إلي آخر من تزيبا بزى الإسلام وأبطن الكيد له، حينئذ إلي ملتهم الأولي، كعبد الله بن سبأ اليهودي، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة، ويرجون لهم الفرقة، فأفلحوا فيما قصدوا إليه من تحزب المسلمين وتفرقهم.

وفي خلال ذلك غلا بعض الطوائف التي ولدها الخلاف، فابتدعوا أقوالاً خرجت بهم عن دائرة الإسلام كالقائلين بالحلول والتناسخ من السبئية، وكالباطنية الذين لا يعدون من فرق الإسلام، وإنما هم في الحقيقة علي دين المجوس.

لم يزل الخلاف يتشعب، والأراء تتفرق، حتي تفرق أهل الإسلام وأرباب المقالات، إلي ثلاث وسبعين فرقة كما قال صاحب المواقف^(١) وكما عددهم وبينهم الإمام الكبير، أبو المظفر الإسفراييني، في كتابه (التبصير في الدين)^(٢)، وليس هذا موضع ذكرها واستقصائها.

والذي اشتهر من هذه الفرق خمس: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج. وما وراء ذلك من الفرق كالجبرية، والباطنية، والمشبهة، وغيرها، فمعظمها مشتق من هذه الفرق الخمس الرئيسية.

نحن نعلم هذا التفرق الذي أصاب المسلمين في وحدتهم الدينية والسياسية، ونعلم أيضا، أن الناس كانوا في عصر النبي ﷺ وبعده يقرأون القرآن أو يسمعونه فيغنون بتفهم روحه، فإن عني علماؤهم بشئ وراء ذلك فما يوضح الآية من سبب للنزول، واستشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظاً غريباً، أو أسلوباً غامضاً. ولكننا لا نعلم في هذا العصر الأول، انحياز الصحابة إلي مذاهب دينية وآراء في الملل والنحل، فلما وقع هذا التفرق الذي أشرنا إليه وأجملنا مبدأه وتطوره، رأينا كل فرقة من هذه الفرق تنظر إلي القرآن من خلال عقيدتها، وتفسره بما يتلاءم مع مذهبها، فالمعتزلي يطبق القرآن علي مذهبه في الاختيار، والصفات، والتحسين والتقبيح العقليين.. ويؤول ما لا يتفق ومذهبه، وكذلك يفعل الشيعي، وكذلك يفعل كل صاحب مذهب حتي يسلم له مذهبه.

غير أننا لم نحط علماً بكل هذه النظرات المذهبية في القرآن، ولم يقع تحت أيدينا من كتب التفسير المذهبية إلا القليل النادر بالنسبة لما حرمت منه المكتبة الإسلامية، علي أن هذا القليل ليس إلا لبعض الفرق دون بعض وهناك تفسيرات وتأويلات

لبعض من آيات القرآن لبعض من الفرق، ولكنها متفرقة مشتتة بين صحائف كتب التفسير خاصة وكتب العلم عامة. وهناك فرق أخرى لم نظفر لها بتفسير كامل ولا بشيء من التفسير، ولهذا أرى أن أتكلم عن التفسير المذهبي لا لكل الفرق، بل للفرق التي ألفت وخلفت لنا كتباً في التفسير، ووقعت تحت أيدينا، فاستطعنا بعد القراءة فيها والنظر إليها أن نحكم عليها بما يتناسب مع المنهج الذي انتهجه فيها مؤلفوها، والطريق الذي سلكوه في شرحهم لكتاب الله تعالى.

وسبق لنا أن تكلمنا عن التفسير بالرأي الجائز وأهم ما ألفت فيه من كتب، وذلك هو تفسير أهل السنة والجماعة، وتلك هي أشهر تفاسيرهم التي خلفوها للناس، فلا نعود لذلك، بل نشرع في الكلام عن موقف غيرهم من الفرق، بالنسبة لكتاب الله تعالى، وعن أهم ما خلفوه لنا من كتب في التفسير، والله يتولانا ويسدد خطانا، إنه سميع مجيب.

* * *

المعتزلة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية - نشأة المعتزلة :

نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحاً طويلاً من الزمان، وأصل هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الملقب بالغزال^(١) المولود سنة ٨٠ هـ (ثمانين)، والمتوفي سنة ١٣١ هـ (إحدي وثلاثين ومائة)، في خلافة هشام بن عبد الملك، وذلك أنه دخل علي الحسن البصري رجل فقال: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة - يريد وعيدية الخوارج - وجماعة أخرى يرجئون الكبائر، ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف لنا أن نعتقد في ذلك؟ فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلي أسطوانة من أسطوانات المسجد، وأخذ يقرر علي جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به، من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين، قائلاً: إن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح فلا يكون مؤمناً، وليس بكافر أيضاً، لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير فيه. فإذا مات بلا توبة خلد في النار، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان، فريق في الجنة، وفريق في السعير، لكن يخفف عنه، وتكون دركته فوق دركات الكفار، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فلذلك سمي هو وأصحابه معتزلة^(٢).

ويلقب المعتزلة بالقدرية تارة، وبالمعطلة تارة أخرى، أما تلقيبهم بالقدرية، فلأنهم يسندون أفعال العباد إلي قدرتهم، وينكرون القدر فيها وأما تلقيبهم بالمعطلة فلأنهم يقولون بنفي صفات المعاني فيقولون: الله عالم بذاته قادر بذاته... وهكذا.

فأنت ترى مما تقدم، أن الاعتزال نشأ في البصرة، ولكن سرعان ما انتشر في العراق، واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد، ومروان بن محمد، وفي العصر العباسي، استفحل أمر المعتزلة، واحتلت أفكارهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكاناً عظيماً، وما لبث أن تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة البصرة،

(١) لقب بذلك لأنه كان يلزم حوانيت الغزالين.

(٢) شرح المواقف الجزء الثامن، ويرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن ابنا محمد ابن الحنفية. وعن أبي هاشم أخذ الاعتزال واصل ابن عطاء - انظر مقدمة تبين كذب المفتري ص ١٠، ١١.

وعلي رأسها واصل بن عطاء ومدرسة بغداد ، وعلي رأسها بشر بن المعتمر، وكان بين معتزلي البصرة ومعتزلي بغداد جدال وخلاف في كثير من المسائل .
ولا أطيل بذكر ما كان بين المدرستين من مسائل خلافية، فإن هذه العجالة لا تتحمل الإطالة والتفصيل، ويكفي أن أجمل القول في ذكر أصول المعتزلة، وأن أشير إلي تعدد فرقهم، ومن أراد التفصيل فليرجع إلي الكتب التي ألفت في تاريخ الفرق، وهي كثيرة.

● أصول المعتزلة:

أما أصول المعتزلة فهي خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذه الأصول الخمسة يجمع الكل عليها، ومن لم يقل بها جميعاً فليس معتزلياً بالمعنى الصحيح. قال أبو الحسن الخياط أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث الهجري: «وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتي يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلي» (١).

أما التوحيد: فهو لب مذهبهم، ورأس نحلتهم، وقد بنوا علي هذا الأصل: استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات، وأن القرآن مخلوق لله تعالى.

وأما العدل: فقد بنوا عليه: أن الله تعالى لم يشأ جميع الكائنات ولا خلقها ولا هو قادر عليها، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى، لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً، وما سوي ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

وأما الوعد والوعيد: فمضمونه، أن الله يجازي من أحسن بالإحسان ومن أساء بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار. وأوضح من هذا أنهم يقولون: إنه يجب علي الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه، لأنه أوعد بالعقاب علي الكبائر وأخبر به، فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده. وهم يعنون بذلك أن الثواب علي الطاعات، والعقاب علي المعاصي قانون حتمي التزم الله به، كما قالوا: إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ولو صدق بوجدانية الله وآمن برسله، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٨١) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ..

وأما المنزلة بين المنزلتين: فقد سبق أن بينها في مناظرة واصل بن عطاء للحسن البصري .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مبدأ مقرر عندهم، وواجب علي المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، ولكنهم بالغوا في هذا الأصل، وخالفوا ما عليه الجمهور، فقالوا: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بالقلب إن كفي، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد، لقوله تعالى في الآية (٩) مِنْ سِوَةِ الْحِجْرَاتِ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتِلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ .. وهم في ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره كما أنهم لم يفرقوا بين الأصول الدينية المجمع عليها وعقائدهم الاعتزالية (١).

وهناك مبادئ أخرى للمعتزلة، لا يشتركون فيها، بل هي مبادئ خاصة لكل فرقة من فرقهم المتعددة، التي بلغت العشرين أو تزيد، ولا أطيل بذكر هذه الفرق وبيان خصائص كل فرقة، وأحيلك علي المواقف أو التبصير في الدين، أو الفرق بين الفرق للبغداديين، أو الملل والنحل للشهرستاني، أو الفصل لابن حزم، لتعرف منها هذه الفرق وخصائصها، إذ ليس هذا موضع التفصيل.

وبعد .. فقد عرفنا نشأة المعتزلة، وعرفنا أصولهم التي أجمعوا عليها وما علينا بعد ذلك إلا أن نتكلم عن موقفهم الذي وقفوه من تفسير القرآن، ثم بعد ذلك نتكلم عن أهم من عرفناه من مفسري المعتزلة. وعن كتبهم التي ألفوها في التفسير ونسأل الله التوفيق والسداد.

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

● إقامة تفسيرهم علي أصولهم الخمسة:

أقام المعتزلة مذهبهم علي الأصول الخمسة التي ذكرناها آنفاً، ومن المعلوم أن هذه الأصول لا تتفق ومذهب أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أهم خصومهم، ولهذا كان من الضروري لهذه الفرقة - فرقة المعتزلة - في سبيل مكافحة خصومها، أن تقيم

(١) انظر ما كتبه صاحب الكشاف علي قوله تعالى في الآية (١١٠) من سورة آل عمران ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (ج ١ ص ٢١٩). وما كتبه علي قوله تعالى في الآية (٧٣) من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (ج ١ ص ٥٦١).

مذهبها وتدعم تعاليمها علي أسس دينية من القرآن، وكان لا بد لها أيضاً أن ترد الحجج القرآنية لهؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها، وسبيل ذلك كله هو النظر إلي القرآن أولاً من خلال عقيدتهم ، ثم إخضاعهم عبارات القرآن لآرائهم التي يقولون بها، وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم .

ولا شك أن مثل هذا التفسير الذي يخضع للعقيدة، يحتاج إلي مهارة كبيرة، واعتماد علي العقل أكثر من الاعتماد علي النقل حتي يستطيع المفسر الذي هذا حاله، أن يلوي العبارة إلي جانبه، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه . والذي يقرأ تفسير المعتزلة، يجد أنهم بنوا تفسيرهم علي أسسهم من التنزيه المطلق، والعدل وحرية الإرادة ، وفعل الأصلاح . . ونحو ذلك، ووضعوا أسساً للآيات التي ظاهرها التعارض فحكموها العقل، ليكون الفيصل بين المتشابهات وقد كان من قبلهم يكتبون بمجرد النقل عن الصحابة أو التابعين فإذا جاءوا إلي المتشابهات سكتوا وفوضوا العلم لله .

● إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة :

ثم إن هذا السلطان العقلي المطلق، قد جر المعتزلة إلي إنكار ما صحح من الأحاديث التي تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية، كما أنه نقل التفسير الذي كان يعتمد أولاً وقبل كل شيء علي الشعور الحي، والإحساس الدقيق، والبساطة في الفهم وعدم التكلف والتعمق، إلي مجموعة من القضايا العقلية . والبراهين المنطقية، مما يشهد للمعتزلة - رغم اعتزالهم - بقوة العقل وجودة التفكير .

ومع أن هذا السلطان العقلي المطلق، كان له الأثر الأكبر في تفسير المعتزلة للقرآن، حتي اضطروهم في بعض الأحيان إلي رد ما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة، فإننا لا نستطيع أن نقول إن المعتزلة كانوا يقصدون الخروج علي الحديث أو عدم الاعتراف بالتفسير المأثور، وذلك لأن حالهم بإزاء التفسير المأثور وتصديقه له، يظهر بأجلي وضوح من حكم النظام علي استرسال المفسرين من معاصريه .

وكان (النظام) معتبراً في مدرسة المعتزلة من الرؤوس الحرة الواسعة الحرية وقد ذكر لنا تلميذه الجاحظ قوله الذي قاله في شأن هؤلاء المفسرين، وهذا نصه: قال الجاحظ: « كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلي كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية علي غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة، وكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلي صوابهم وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾

[الجن: ١٨]: إن الله عز وجل ، لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عني الجباه، وكل ما سجد الناس عليه من يد وجبهة وأنف وثفنة - وقالوا في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧]: إنه ليس يعني الجمال والنوق وإنما يعني السحاب - وإذا سئلوا عن قوله: ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩] قالوا: الطلح هو الموز - وجعلوا الدليل علي أن شهر رمضان قد كان فرضاً علي جميع الأمم وأن الناس غيرهه قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٣].. وقالوا في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ [طه: ١٢٥]. قالوا: إنه حشره بلا حجة - وقالوا في قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المصطفين: ١]: الويل واد في جهنم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي، ومعني الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم - وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]... قالوا: الفلق واد في جهنم. ثم قعدوا يصفونه، وقال آخرون: الفلق: المقطرة بلغة اليمن.. إلي آخر ما ذكره من تفسيراتهم الغريبة» (١).

هذا.. وإن الزمخشري - وهو أهم من عرفنا من مفسري المعتزلة - نجده كثيراً ما يذكر ما جاء عن الرسول ﷺ أو عن السلف من التفسير ويعتمد علي ما يذكر من ذلك في تفسيره.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٤١، ٤٢) من سورة الأحزاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.. يقول ما نصه: ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء، من التقديس والتحميد، والتهليل والتكبير، وما هو أهله، وأكثروا ذلك ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي كافة الأوقات، قال رسول الله ﷺ: «ذكر الله علي فم كل مسلم» وروي: «في قلب كل مسلم» وعن قتادة: «قولوا سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وعن مجاهد: «هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان» أعني: اذكروا وسبحوا موجهان إلي البكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة. إلخ (٢).

● ادعائهم أن كل محاولاتهم في التفسير مرادة لله:

ثم إن المعتزلة - بناء علي رأيهم في الاجتهاد، من أن الحكم ما أدي إليه اجتهاد كل مجتهد، فإذا اجتهدوا في حادثة فالحكم عند الله تعالى في حق كل واحد

(٢) الكشاف: ٢/٢١٥.

(١) الحيوان للجاحظ: ١/١٦٨ - ١٧٠.

مجتهده^(١) - رفضوا أن يكون للآية التي تحتل أوجهاً تفسيراً واحداً لا خطأ فيه، وحكموا علي جميع محاولاتهم التي حاولوها في حل المسائل الموجودة في القرآن بأنها مرادة لله تعالى، وغاية ما قطعوا به هو عدم إمكان التفسير المخالف لمبادئهم وآرائهم.

ويدعي أن هذا الذي ذهب إليه المعتزلة، يخالف مذهب أهل السنة من أن لكل آية من القرآن معني واحداً مراداً لله تعالى، وما عداه من المعاني المحتملة، فهي محاولات واجتهادات، يراد منها الوصول إلي مراد الله بدون قطع، غاية الأمر أن المفسر يقول باجتهاده، والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب، وهو مأجور في الحالتين وإن كان الأجر علي تفاوت.

● المبدأ اللغوي في التفسير وأهميته لدي المعتزلة:

كذلك نجد المعتزلة قد حرصوا كل الحرص علي الطريقة اللغوية التي تعتبر عندهم المبدأ الأعلي لتفسير القرآن، وهذا المبدأ اللغوي، يظهر أثره واضحاً في تفسيرهم للعبارات القرآنية التي لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية، أو العبارات التي تحتوي علي التشبيه، أو العبارات التي تصادم بعض أصولهم، فنراهم يحاولون أولاً إبطال المعني الذي يرونه مشتبهاً في اللفظ القرآني، ثم يثبتون لهذا اللفظ معني موجوداً في اللغة يزيل هذا الاشتباه ويتفق مع مذهبهم، ويستشهدون علي ما يذهبون إليه من المعاني التي يحملون ألفاظ القرآن عليها بأدلة من اللغة والشعر العربي القديم.

فمثلاً الآيات التي تدل علي رؤية الله تعالى كقوله سبحانه في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجْهٌ يُومِئُ نَاضِرَةٌ * إِلَيْ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ . . وقوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة المطففين: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ نجد المعتزلة ينظرون إليها بعين غير العين التي ينظر بها أهل السنة، ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يطبقوا مبدأهم اللغوي، حتي يتخلصوا من الورطة التي أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم، فإذا بهم يقولون: إن النظر إلي الله معناه الرجاء والتوقع للنعمة والكرامة، واستدلوا علي ذلك بأن النظر إلي الشيء في العربية ليس مختصاً بالرؤية المادية، واستشهدوا علي ذلك بقول الشاعر:

وإذ نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنني نعماً

ومثلاً عندما يقرأ المعتزلي قوله تعالى في الآية (٣١) من سورة الفرقان ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يجد أن مذهبه الذي يقول بوجوب الصلاح

والأصلح علي الله لا يتفق وهذا الظاهر من معني الجعل ولكن سرعان ما يتخلص من هذه الضائقة العالم المعتزلي الكبير أبو علي الجبائي فيفسر: (جعل) بمعني (بين) لا بمعني خلق، ويستدل علي ذلك بقول الشاعر:

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا علي ثبت من أمرهم حين يمموا
فيكون المعني علي هذا: أن الله سبحانه بين لكل نبي عدوه حتي يأخذ حذره
منه (١).

● تصرف المعتزلة في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم:

وأحيانا يحاول المعتزلة تحويل النص القرآني من أجل عقيدتهم إلي ما لا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله ﷺ.

فمثلاً ينظر بعض المعتزلة إلي قوله تعالي في الآية (١٦٤) من سورة النساء ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ .. فيري أن مذهبه لا يتفق وهذا اللفظ القرآني حيث جاء المصدر مؤكداً للفعل، رافعا لاحتمال المجاز، فيبادر إلي تحويل هذا النص إلي ما يتفق ومذهبه فيقرؤه هكذا: «وكلم الله موسى تكليماً» بنصب لفظ الجلالة علي أنه مفعول، ورفع موسي علي أنه فاعل. وبعض المعتزلة يبقي اللفظ القرآني علي وضعه المتواتر، ولكنه يحمله علي معني بعيد حتي لا يبقي مصادماً لمذهبه فيقول: إن «كلم» من الكلم بمعني الجرح فالمعني: وجرح الله موسي بأظفار الحن ومخالب الفتن، وهذا ليفر من ظاهر النظم الذي يصادم عقيدته ويخالف هواه.

هذا الذي ذكرناه، تعرض له الزمخشري في كشافه، فرواه عن قال به عندما تكلم عن هذه الآية فقال: وعن إبراهيم ويحيي بن وثاب أنهما قرءا (وكلم الله) بالنصب، ثم قال مندداً بالرأي الثاني: «ومن بدع التفاسير أنه من الكلم، وأن معناه: وجرح الله موسي بأظفار الحن ومخالب الفتن» (٢).

ومن الأمثلة التي يظهر فيها هذا التصرف من أجل أغراضهم المذهبية، قوله تعالي في الآية (٨٨) من سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ .. فبعض المعتزلة أحس من هذه الآية أنها لا تتفق ومذهبه لأنها تشعر بأن الله خلق قلوبهم علي طبيعة وحالة لا تقبل معها الإسلام، فيكون هو الذي منعهم عن الهدى وألجأهم إلي الضلال فقرأها هذا المعتزلي: «غلف» .. جمع غلاف بمعني الوعاء أي قلوبنا أوعية حاوية للعلم، فهم مستغنون بما عندهم عما جاءهم به محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا الوجه يتمشي مع القراءة المعروفة: ﴿غُلْفٌ﴾ علي أنه مخفف

(١) انظر تفسير الفخري الرازي: ٤٧١/٦. والمذاهب الإسلامية في القرآن الكريم ص ١٣٠.

(٢) الكشاف: ٣٩٧/١ - ٣٩٨.

« غلف » وبطبيعة الحال يكون هذا القول من اليهود افتخاراً منهم بأن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وليس اعتذاراً منهم وتبريراً لكفرهم بأن الله خلق قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه، ومغشاة بأغطية تمنع وصول دعوة الرسول إليها .

وهذا الذي ذكرنا من قراءة (غلف) بدون تخفيف تعرض لذكره الزمخشري فقال: « وقيل غلف : تخفيف غلف، وجمع غلاف إلي قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره . وروي عن أبي عمرو: « قلوبنا غُلف .. بضمتين » (١) .

كما ذكره أيضاً الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه الآية فقال: « .. وثانيها - أي ثاني الأوجه - روي الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غلف بالعلم ومملوءة بالحكمة، فلا حاجة معها بهم إلي شرع محمد عليه السلام » (٢) .

وهكذا نجد شيوخ المعتزلة، يحاولون التوفيق بين مذهبهم والقرآن بكل ما يستطيعون من وسائل التوفيق، تارة بتطبيق مبدئهم اللغوي علي كثير من آيات القرآن الكريم، حتي يتمشي النص القرآني مع قواعد مذهبهم أو يتخلصوا من معارضته ومصادمته لهم علي الأقل، وتارة بتحويل النص القرآني والتصرف فيه، بما يجعله في جانبهم لا في جانب خصومهم .

● نقد ابن قتيبة لهذا المسلك الاعتزالي في التفسير :

غير أن هذا المسلك قد أغضب العلامة ابن قتيبة وأهاجه عليهم فانتقدهم انتقاداً مرأً لا دعماً في كتابه « تأويل مختلف الحديث » وإليك ما قاله بنصه لتقف علي ما كان بين الفريقين - فريق أهل السنة وفريق المعتزلة - من جدال ومحاوراة، وليتبين لك مقدار الميل بالعبارات القرآنية إلي ناحية المذهب والعقيدة من كبار شيوخ المذهب الاعتزالي . قال أبو محمد: « وفسروا - أي المعتزلة - القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلي مذهبهم ويحملوا التأويل علي نحلهم، فقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي علمه، وجاءوا علي ذلك بشاهد لا يعرف، وهذا قول الشاعر:

* ولا بكرسيء علم الله مخلوق *

كأنه عندهم: ولا يعلم علم الله مخلوق . والكربي غير مهموز، وبكربيء مهموز، يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسيّاً أو سريراً ويجعلون العرش شيئاً آخر والعرب لا تعرف من العرش إلا السرير وما عرش من السقف والآبار، يقول الله

(١) الكشاف: ١ / ٢٢٤، والقراءة المروية عن أبي عمرو شاذة.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ١ / ٦١٥ .

تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي السرير، وأمّية بن أبي الصلت يقول: «العرش سبب وهو كسواء كسواء بيلة بسببه دخلت في سبب فعله كل بيلعده منة فبيلعده الله وهو للمجد أهل سبب ربنا في السماء أمسي كبيراً في البيت وبالبناء الأعلي الذي سبق الناس وسوي فوق السماء سريراً» (١) شرح جعاً ما يناله العين تری دونه الملائك صوراً (١) وقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٤).

إنها همت بالفاحشة، وهم هو بالفرار منها أو الضرب لها، والله تعالى يقول: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] أفترأه أراد الفرار منها أو الضرب لها، فلما رأى البرهان أقام عندها؟ وليس يجوز في اللغة أن تقول: همت بفلان وهم بي، وأنت تريد اختلاف الهمين حتي تكون أنت تهم بإهانتهم ويهم هو بإكرامك، وإنما يجوز هذا الكلام إذا اتفق الهمان في الشيء الذي يهت به. وقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]: إنه أتخم من أكل الشجرة، فذهبوا إلي قول العرب: غوي الفصيل يغوي غوي، إذا أكثر من شرب اللبن حتي يبشم. وذلك غوي يغوي غياً، وهو من البشم: غوي يغوي غوي. وقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي ألقينا فيها، يذهب إلي قول الناس: ذرأته الريح ولا يجوز أن يكون ذرأنا من ذرته الريح، لأن ذرأنا مهموز، وذرته الريح تذرؤه غير مهموز. ولا يجوز أيضاً أن نجعله من أذرته الدابة عن ظهرها أي ألقته، لأن ذلك من «ذرات» تقدير فعلت بالهمز، وهذا من «أذريت» تقدير أفعلت بلا همز، واحتج بقول المثقب العبيدي: «الذرات من أذريت» أهذا دينه أبداً وديني (٢)

وهذا تصحيف لأنه قال: تقول إذا ذرأت أي دفعت، بالدال غير معجمة. وقالوا في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذُهِبَ مَغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]: إنه ذهب مغاضباً لقومه، استيحاشاً من أن يجعلوه مغاضباً لربه مع عصمة الله، فجعلوه مغاضباً لقومه حين آمنوا، ففروا إلي مثل ما استقبحوا، وكيف يجوز أن يغضب نبي الله ﷺ علي قومه حين آمنوا وبذلك بعث وبه أمر؟ وما الفرق بينه وبين عدو الله إن كان يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ولم يخرج مغاضباً لربه

(١) شرحاً أي طويلاً وصوراً جمع أصور وهو المائل العنق (انتهي منه - هامش).

(٢) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعور ولا يكون إلا من جلد ودينه: أي عادته

(انتهي منه - هامش).

ولا لقومه؟ - وهذا مبين في كتابي المؤلف في مشكل القرآن، ولم يكن قصدي في هذا الكتاب الإخبار عن هذه الحروف وأشباهاها، وإنما كان القصد به الإخبار عن جهلهم وجرأتهم علي الله بصرف الكتاب إلي ما يستحسنون، وحمل التأويل علي ما ينتحلون.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]: أي فقيراً إلي رحمته، وجعلوه من الخلة بفتح الخاء، استيحاشاً أن يكون الله تعالى خليلاً لأحد من خلقه، واحتجوا بقول زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

أي إن أتاه فقير، فأية فضيلة في هذا القول لإبراهيم عليه السلام؟ أما تعلمون أن الناس جميعاً فقراء إلي الله تعالى، وهل إبراهيم خليل الله إلا كما قيل، وموسي كليم الله، وعيسي روح الله؟

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]: إن اليد ههنا النعمة، لقول العرب: لي عند فلان يد، أي نعمة ومعروف. وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة، لأنه قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] معارضة عما قالوه فيها، ثم قال: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ [المائدة: ٦٤].. ولا يجوز أن يكون أراد غلبت نعمهم بل نعمته مبسوطتان، لأن النعم لا تغل، ولأن المعروف لا يكتني عنه باليدين كما يكتني عنه باليد، إلا أن يريد جنسين من المعروف فيقول: لي عنده يدان. ونعم الله تعالى أكثر من أن يحاط بها^(١).

● تدرع المعتزلة بالفروض المجازية إذا بدا ظاهر القرآن غريباً:

هذا... وإن المعتزلة في كثير من الأحيان، يعتمدون في طريقتهم التفسيرية علي الفروض المجازية، فمثلاً إذا مروا بآية من الآيات التي تبدو في ظاهرها غريبة مستبعدة، كقوله تعالى في الآية (١٧٢) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾... الآية، وقوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾... الآية، نجدهم يحملون الكلام علي التمثيل أو التخيل، ولا يقولون بالظاهر ولا يحومون عليه، اللهم إلا للرد علي من يقول به ويجوز حصوله.. نعم إن القرآن يمثل القمة العالية في كمال الأسلوب وبراعة النظم، وهو في نفسه يقبل ما يقوله المعتزلة من المجازات والاستعارات، ولكن ما الذي يمنع من إرادة الحقيقة؟ وأي صارف يصرف اللفظ عن الظاهر إلي غيره من التمثيل أو التخيل بعد ما تقرر من أن اللفظ إذا أمكن حمله علي الظاهر وجب

حمله عليه وقبح صرفه إلي غير ما يتبادر منه؟؟ . اللهم لا شئ يمنع من إرادة المعني الظاهر إلا استبعاد ذلك علي قدرة الله تعالي، ولسنا في شك من صلاحية القدرة لمثل ما جاء في الآيات التي أشرنا إليها، غاية الأمر، أن كيفية أخذ الله ذرية بني آدم من ظهورهم، ومخاطبته لتلك الذرية، وكيفية عرض الأمانة علي ما ذكر من السموات والأرض والجبال وإبائها عن حملها، أمر لا نستطيع أن نخوض فيه، بل يجب علينا أن نفوض علمه وحقيقته إلي الله سبحانه .

وسياتي الكلام عن هذه الناحية بالذات بما هو أوسع من هذا، عند الكلام علي الكشاف للزمخشري، فإنه صاحب اليد الطولي في هذه الناحية، وخير من أفاض فيها وأجاد .

● تفسيرهم للقرآن علي ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية :

وكذلك نجد المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند جمهور أهل السنة موقف المعارضة والكفاح، فأهل السنة يقولون بحقيقة السحر ويعترفون بما له من تأثير في المسحور، ويقولون بوجود الجن، ويعترفون بما لهم من قوة التأثير في الإنسان حتي ينشأ عن ذلك المس والصرع، ويقولون بكرامات الأولياء . . وما إلي ذلك، ولكن المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياساً للحقائق الدينية وقفوا ضد هذا كله وجعلوه من قبيل الخرافات، والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء، وكان من وراء ذلك أن تمرد المعتزلة - في حرية مطلقة من كل قيد - علي الاعتقاد بالسحر والسحرة، وما يدور حول ذلك، وبلغ بهم الأمر أن أنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث التي تصرح بأن الرسول ﷺ قد سحر (١) ولم يقفوا طويلاً أمام ما يعارضهم من سورة الفلق، بل تخلصوا بتأويلات ثلاث ذكرها الزمخشري في كشافه (الجزء الثاني ص ٥٦٨) .

كذلك تمرد بعض أعلام المعتزلة كالنظام علي الاعتقاد بوجود الجن، وثار بعضهم كالزمخشري ضد من يقول بأن الجن لها قوة التأثير في الإنسان مع الاعتراف منه بوجودها في نفسها، فأولوا ما يصادمهم من الآيات القرآنية، وأنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث النبوية، كالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري، وفيه: « أن شيطاناً من الجن عرض للنبي ﷺ وهو في الصلاة يريد أن يشغله عنها فأمكنه الله منه »،

(١) ينكر بعض أهل السنة أن رسول الله ﷺ قد سحر، زعماً منهم أن ذلك مما يقدر في صفة نبوته، وأنكروا ما صح من الأحاديث في ذلك أو تأولوها، والحق - ما دامت الأحاديث قد صحت - أن رسول الله ﷺ سحر وأثر فيه السحر بما لا يخدش جانب نبوته وتأثير السحر عليه لا يعدو أن يكون مرضاً بدنياً كالعقد عن النساء .

وكالحديث الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ وهو: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»^(١).

كذلك تمرد المعتزلة علي الاعتقاد بكرامات الأولياء، واعتمدوا في تمردهم هذا علي قول الله تعالى في الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يظْهَرُ عَلَي غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾. . ونري الزمخشري يستنتج من هذه الآية: «أنه تعالى لا يطلع علي الغيب إلا المرتضي، الذي هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضي، وفي هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسول، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع علي الغيب، وإبطال الكهانة والتنجيم، لأن أصحابهما أبعده شيء من الارتضاء وأدخله في السخط»^(٢).

وبعد.. فإن المعتزلة لم يقفوا هذا الموقف الذي لا يتفق مع معتقدات أهل السنة. ولم يعطوا العقل هذا السلطان الواسع في التفسير، إلا من أجل أن يبعدوا - كما يزعمون - كل الأساطير الخرافية عن محيط الحقائق الدينية وليربطوا بين القرآن وبين عقيدتهم التي قامت علي التوحيد الخالص من كل شائبة.

ولكن هل وقفت أهل السنة حيال هذه المحاولات الاعتزالية في فهم نصوص القرآن الكريم موقف التسليم لها والرضا بها؟ أو أغضبهم هذا التصرف من خصومهم المعتزلة؟. الحق أن هذا التصرف من المعتزلة أثار عليهم خصومهم أهل السنة واستعداهم عليهم فرموهم بالعبارات اللاذعة، واتهموهم بتحريك النصوص عن مواضعها تمشياً مع الهوي وميلاً مع العقيدة وقد مر بك آنفاً مقالة ابن قتيبة، وفيها يشدد عليهم النكير من أجل مسلكهم اللغوي في التفسير.

● حكم الإمام أبي الحسن الأشعري علي تفسير المعتزلة:

وهذا هو الإمام أبو الحسن الأشعري، يحكم علي تفسير المعتزلة بأنه زيغ وضلال، وذلك حيث يقول في مقدمة تفسيره المسمى بالمختزن والذي لم يقع لنا: «أما بعد، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن علي آرائهم وفسروه عل أهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً ولا روه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين، افتراء علي الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبي الهذيل بياع العلف ومتبعيه، وعن إبراهيم نظام الخرز ومقلديه، وعن الفوطي وناصره، وعن المنسوب إلي قرية جبي ومنتحليه، وعن الأشج

(٢) الكشاف: ٤٩٧/٢.

(١) الكشاف: ٣٠٢/١، ٣٠٣.

جعفر بن حرب ومجتبييه، وعن جعفر بن مبشر القصبى ومتعصبيه، وعن الإسكافي الجاهل ومعظميه، وعن الفروي المنسوب إلي مدينة بلخ وذويه فإنهم قادة الضلال، من المعتزلة الجهال، الذين قلدوهم في دينهم، وجعلوهم معولهم الذي عليه يعولون، وركنهم الذي إليه يستندون.

ورأيت الجبائي ألف في تفسير القرآن كتاباً أوله خلاف ما أنزل الله عز وجل، وعلي لغة أهل قريته المعروفة بجبي، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روي في كتاب حرفاً عن أحد من المفسرين. وإنما اعتمد علي ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوي بكتابه كثيراً من العوام، واستنزل به عن الحق كثيراً من الطغام، لم يكن لتشاغلي به وجه» (١).

● حكم ابن تيمية علي تفسير المعتزلة:

كذلك حكم ابن تيمية علي تفسيرهم فقال: «إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم وثارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلاً علي قولهم، أو جواباً علي المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف، ونحوه، حتي إنه يروج علي خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله. وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يُعلم أو يُعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك». (٢)

● حكم ابن القيم علي تفسير المعتزلة:

كذلك نجد العلامة ابن القيم يحكم علي تفسير المعتزلة حكماً قاسياً فيقول: «إنه زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار، وعفرار الآراء، ووساوس الصدور، فملأوا به الأوراق سواداً، والقلوب شكوكاً، والعالم فساداً، وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم إنما نشأ من تقديم الرأي علي الوحي، والهوي علي العقل» (٣).

* * *

(١) تبين كذب المفتري ص ١٣٩.

(٢) مقدمة ابن تيمية، أصول التفسير ص ٢٢.

(٣) إعلام الموقعين: ١/ ٧٨.

أهم كتب التفسير الاعتزالي

صنف كثير من شيوخ المعتزلة تفاسير للقرآن الكريم علي أصول مذهبهم، ولم تكن هذه التفاسير أكثر حظاً من غيرها من كتب التفسير المختلفة، حيث امتدت إلي كثير منها يد الزمان، فضاعت بتقادم العهد عليها، وحُرمت المكتبة الإسلامية العامة من معظم هذا التراث العلمي الذي لو بقي إلي يومنا هذا لألقي لنا ضوءاً واضحاً علي مدي التفكير التفسيري، لشيوخ هذا المذهب الاعتزالي، ولكشف لنا عن حقيقة ما ينسب لبعض شيوخهم من تفسيرات واسعة النطاق، نسمع بها من علمائنا المتقدمين، ونقف منها موقف الحائر بين الشك واليقين، لما يذكر عنها من الاستفاضة والتضخم إلي حد يكاد يكون متخيلاً أو مبالغاً فيه.

نتصفح طبقات المفسرين للسيوطي، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودي وغيرهما من الكتب التي لها عناية بهذا الشأن، فنجد أن من أشهر من صنف في التفسير من المعتزلة: أبو بكر، عبد الرحمن بن كيسان الأصم المتوفي سنة ٢٤٠ هـ (أربعين ومائتين من الهجرة). أقدم شيوخ المعتزلة، وشيخ إبراهيم ابن إسماعيل بن علي الذي كان يناظر الشافعي، فقد ذكر ابن النديم في الفهرست: أنه ألف تفسيراً للقرآن الكريم^(١). ولكننا لا نعلم عن هذا التفسير خبراً، حيث إنه فقد بمرور الزمن وتقادم العهد عليه.

ومحمد بن عبد الوهاب بن سلام (أبو علي الجبائي) المتوفي سنة ٣٠٣ هـ (ثلاث وثلاثمائة من الهجرة)، وأحد شيوخ المعتزلة الذين كانت لهم شهرة واسعة في الفلسفة والكلام، فقد ذكر السيوطي في طبقات المفسرين^(٢):

أنه ألف في التفسير، وذكر ذلك ابن النديم في الفهرست^(٣) أيضاً وكنا لا نعلم شيئاً عن هذا التفسير أكثر مما ذكرناه آنفاً عن أبي الحسن الأشعري.

وأبو القاسم، عبد الله بن أحمد البلخي الحنفي المعروف بالكعبي المعتزلي، المتوفي سنة ٣١٩ هـ (تسع عشرة وثلاثمائة من الهجرة) فقد ذكر صاحب كشف الظنون: أنه ألف تفسيراً كبيراً يقع في اثني عشر مجلداً وقال إنه لم يسبق إليه^(٤) ولكن لم يقع لنا هذا التفسير كغيره.

وأبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفي سنة ٣٢١ هـ (إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة)، ذكر السيوطي في طبقات المفسرين^(٥): أنه ألف تفسيراً، وقال إنه رأى جزءاً منه، ولكننا لم نظفر به أيضاً.

(٣) ص ٥٠.

(٢) ص ٢٣.

(١) الفهرست ص ٥١.

(٥) ص ٣٣.

(٤) كشف الظنون: ١/٢٣٤.

وأبو مسلم، محمد بن بحر الأصفهاني المتوفي سنة ٣٢٢هـ (اثنين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة)، صنف تفسيراً اسمه (جامع التأويل لحكم التنزيل) يقع في أربعة عشر مجلداً، وقيل: في عشرين مجلداً. وقد أشار إلي هذا التفسير ابن النديم في الفهرست^(١)، والسيوطي في بغية الوعاة في طبقات النحاة^(٢). وهذا التفسير - فيما يبدو - هو الذي يعتمد عليه الفخر الرازي فيما ينقله في تفسيره من أقوال منسوبة لأبي مسلم، وقد أخذ بعض المؤلفين ما جاء في تفسير الفخر الرازي منسوباً لأبي مسلم، وجمعه في كتاب مستقل سماه تفسير أبي مسلم الأصفهاني، وقد اطلعت علي جزء منه صغير الحجم بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفي سنة ٣٨٤هـ (أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة)، وأحد شيوخ المعتزلة المتشيعين صنف تفسيراً للقرآن الكريم، قال السيوطي في طبقات المفسرين^(٣) إنه رآه. وذكر صاحب كشف الظنون: أنه اختصره عبد الملك بن علي المؤذن الهروي المتوفي سنة ٤٨٩هـ (تسع وثمانين وأربعمائة من الهجرة)^(٤). ولكننا لم نظفر به ولا بمختصره.

وعبيد الله بن محمد بن جرو الأسدي أبو القاسم النحوي العروضي المعتزلي المتوفي سنة ٣٨٧هـ (سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة) قال السيوطي في طبقات المفسرين^(٥): إنه صنف تفسيراً للقرآن الكريم، وذكر في ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مائة وعشرين وجهاً ولكننا لم نظفر به أيضاً.

والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، المتوفي سنة ٤١٥هـ «خمس عشرة وأربعمائة من الهجرة»، ألف كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن» وهو بين أيدينا، ومتداول بين أهل العلم، ولكنه غير شامل لجميع آيات القرآن الكريم.

والشريف المرتضي، العالم الشيعي العلوي المتوفي سنة ٤٣٦هـ «ست وثلاثين وأربعمائة من الهجرة»، كتب بحثاً فياضة في بعض آيات القرآن الكريم التي تصادم مذهب المعتزلة، ووفق بين ظاهر النظم الكريم والعقيدة الاعتزالية، ونجد هذه البحوث التفسيرية ضمن ما دونه في أماليه التي سماها: غرر الفوائد ودرر القلائد.

وعبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني شيخ المعتزلة المتوفي سنة ٤٨٣هـ (ثلاث وثمانين وأربعمائة من الهجرة)، فسر القرآن تفسيراً واسعاً، فقد جاء في طبقات المفسرين^(٦) للسيوطي: «أنه جمع التفسير الكبير الذي لم يرد في التفاسير

(٣) ص ٢٤.

(٢) ص ٢٣.

(١) ص ٥٠.

(٦) ص ١٩.

(٥) ص ١٩.

(٤) كشف الظنون: ١/٢٣٧.

أكبر منه ولا أجمع للفوائد، لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد، منها سبع مجلدات في الفاتحة). ونقل عن ابن النجار أنه قال في شأن القزويني هذا: «إنه كان طويلاً اللسان، ولم يكن محققاً إلا في التفسير، فإنه لهج بالتفسير حتي جمع كتاباً بلغ خمسمائة مجلد حشوي فيه العجائب، حتي رأيت منه مجلداً في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾... الآية» (١).

وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨هـ (ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة)، فسر القرآن الكريم تفسيراً عظيماً جداً لولا ما فيه من نزعات الاعتزال، وهو أشمل ما وصل إلينا من تفاسير المعتزلة.

هؤلاء هم أشهر من عرفناهم من مفسري المعتزلة. وهذه هي تفاسيرهم التي نسمع عنها، ولم يصل إلينا منها إلا هذه المصنفات الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، وأمالى الشريف المرتضى، والكشاف للزمخشري. لهذا نري أن نتكلم عن هذه الكتب الثلاثة، وعن المسلك الذي سلكه فيها أصحابها، بما يلقي لنا ضوءاً علي المنحي الذي نحاه المعتزلة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وتأويلهم لنصوصه، حتي تشهد لهم أو لا تتعارض معهم علي الأقل.

* * *

(١) المرجع السابق - والآية من سورة البقرة: ١٠٢.

١ - تنزيه القرآن عن المطاعن (للقاضي عبد الجبار)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو قاضي القضاة (١) أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمداني الأسدي الشافعي، شيخ المعتزلة. سمع من أبي الحسن بن سلمة بن القطان، وعبد الله بن جعفر بن فارس، وغيرهما. عاش دهرًا طويلاً وفاق أقرانه، وسار ذكره وعظم صيته، ورحلت إليه الطلبة، وأخذ عنه كثير من العلماء، منهم: أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي، والحسن بن علي الصيمري الفقيه، وأبو محمد عيد السلام القزويني المفسر المعتزلي.

استدعاه الصاحب إلي الري بعد سنة ٣٦٠هـ (ستين وثلاثمائة من الهجرة)، فولي قضاءها، وبقي بها مواظباً علي التدريس إلي آخر حياته، وكان الصاحب يقول فيه: هو أعلم أهل الأرض.

وقد خلف القاضي عبد الجبار مصنفات في أنواع مختلفة من العلوم، منها: كتاب الخلاف والوفاق، وكتاب المبسوط، وكتاب المحيط، وكلها في علم الكلام، وألف في أصول الفقه: النهاية، والعمدة، وشرحه. وألف في المواعظ كتاباً سماه نصيحة المتفقهة. وقال ابن كثير في طبقاته: إن من أجل مصنفاة وأعظمها، كتاب دلائل النبوة، في مجلدين، أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة، وبالجملة فقد طبق الأرض بكتبه، وبعد صيته، وعظم قدره، حتي انتهت إليه الرياسة في المعتزلة، وصار شيخها وعالمها غير مدافع، وكانت وفاته في ذي القعدة ٤١٥هـ (خمس عشرة وأربعمائة من الهجرة) (٢).

● التعريف بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته (ص ٣، ٤): أنه لا ينتفع بكتاب الله إلا بعد الوقوف علي معاني ما فيه، وبعد الفصل بين محكمه ومتشابهه وذكر أن كثيراً من الناس قد ضل بأن تمسك بالمتشابه حتي اعتقد أن قوله تعالى ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر، الصف: ١] حقيقة في الحجر والمدر والطيور والنعم، وربما رأوا في ذلك تسبيح كل شيء من ذلك، ومن اعتقد ذلك لم ينتفع بما يقرؤه قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤]. وكذلك وصفه تعالى بأنه: ﴿يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩].. ثم قال: وقد أملينا في ذلك كتابا يفصل بين

(١) تلقبه المعتزلة بهذا، ولا يعنون به عند الإطلاق غيره.

(٢) يراجع طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٦ وشذرات الذهب: ٣/٢٠٢، ٢٠٣.

الحكم والمتشابه، عرضنا فيه سور القرآن علي ترتيبها، وبيننا معاني ما تشابه من آياتها، مع بيان وجه خطأ فريق من الناس في تأويلها، ليكون النفع به أعظم، ونسأل الله التوفيق للصواب إن شاء الله.

فالكتاب لم يقصد فيه مؤلفه أن يعرض لشرح كتاب الله آية آية، بل كان كل همه - كما نأخذ من عبارته السابقة، وكما يظهر لنا من مسلكه في الكتاب نفسه - موجهاً إلي الفصل بين محكم الكتاب ومتشابهه، وإلي بيان معاني هذه الآيات المتشابهة، ثم إلي بيان خطأ فريق من الناس، في تأويلها، وهو يقصد بهذا الفريق - في الغالب - جماعة أهل السنة الذين لا يرون رأيه في القرآن، ولا ينظرون إليه نظرتة الاعتزالية.

نقرأ هذا الكتاب، فنجد أن مؤلفه قد ابتدأه بسورة الفاتحة، واختتمه بسورة الناس ولكنه لا يستقصي جميع السورة، ولا يعرض آياتها بالشرح كما قلنا، بل نجده بيني كتابه علي مسائل، كل مسألة تتضمن إشكالاً وجواباً، وهذا الإشكال تارة يرد علي ظاهر النظم الكريم من ناحية الصناعة العربية، وتارة يرد عليه من ناحية أنه لا يتفق مع عقيدته الاعتزالية.

● بعض مواقف من مشكلات الصناعة العربية :

أما المسائل التي أودها مشتملة علي مشكلات الصناعة العربية وأجوبتها فهي لا تخرج عما عرض له عامة المفسرين في تفاسيرهم، وهذا الجانب يشتمل جزءاً غير قليل من الكتاب، وإليك بعض هذه المسائل :

فمثلاً في سورة الحمد يقول في (ص ٤ ، ٥) ما نصه : (مسألة - قالوا : الحمد لله : خبر، فإن كان حمد نفسه فلا فائدة لنا فيه : وإن أمرنا بذلك، فكان يجب أن يقول قولوا الحمد لله . و جوابنا عن ذلك : أن المراد به الأمر بالشكر والتعظيم لكي نشكره، لكنه وإن حذف الأمر فقد دل عليه بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .. لأنه لا يليق بالله تعالي، وإنما يليق بالعباد فإذا كان معناه قولوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فكذلك قوله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .. وهكذا كقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ * سلام عليكم ﴿ [الرعد : ٢٣ - ٢٤] . ومثله كثير في القرآن .

ومثلاً في سورة البقرة يقول في (ص ٦) ما نصه : (مسألة) - ومتي قيل : ولماذا قال تعالي : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ [البقرة : ٢] ولم يقل : هذا الكتاب ؟ فجوابنا : أنه جل وعز وعد رسوله إنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء، فلما نزل ذلك قال : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ والمراد : ما وعدتك ولو قال : (هذا الكتاب) لم يفد هذه الفائدة .

ويقول بعد ذلك مباشرة في (ص ٦ ، ٧) ما نصه : (مسألة) قالوا : ما معني : ﴿ لَا

رَيْبٌ فِيهِ ﴿ [البقرة: ٢] وقد علمتم أن خلقاً يشكون في ذلك فكيف يصح ذلك؟ وإن أراد: لا ريب فيه عندي وعند من يعلم، فلا فائدة في ذلك فجوابنا: أن المراد أنه حق يجب أن لا يرتاب فيه، وهذا كما يبين المرء الشيء لخصمه فيحسن منه بعد البيان أن يقول: هذا كالشمس واضح، وهذا لا يشك فيه أحد، وهذا كما يقال عند إظهار الشهاداتتين: إن ذلك حق وصدق، وإن كان في الناس من يكذب بذلك. »

ومثلاً في سورة هود يقول: في (ص ١٦٤) ما نصه: «مسألة - وربما قيل في قوله تعالي ﴿ أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [هود: ١٧]: ما الفائدة في هذا الابتداء ولا خبر له؟ وجوابنا: أن الخبر قد يحذف إذا كان كالمعلوم، والمراد: أمَّنْ كَانَ بهذا الوصف كمن هو يكفر ولا يسلك طريق العبادة وما توجهه البينة. »

ومثلاً في سورة الفرقان يقول في (ص ٣٥٤) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿ قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ [الفرقان: ١٥] كيف يصح ذلك ولا خير في النار أصلاً؟ وجوابنا: أن المراد: أيهما أولي بأن يكون خيراً؟ وقد يقول الحكيم لغيره من العصاة: أن التمسك بالطاعة خير لك من المعصية، والمراد ما قد ذكرنا. »

هذه أمثلة من الإشكالات التي أوردها القاضي عبد الجبار علي ظاهر النظم من ناحية الصناعة، وهذه هي الأجوبة التي أجاب بها عن هذه الإشكالات.

● بعض موافقه من المشكلات العقيدية الاعترالية:

وأما المسائل التي أوردها مشتملة علي إشكالات ترد علي ظاهر النظم من ناحية أنه لا يتفق وعقيدته، وعلي أجوبة هذه الإشكالات، فهي كثيرة جداً وهي تشغل الجزء الأكبر من هذا المؤلف، وإليك بعض هذه المسائل:

● الهداية والضلال:

فمثلاً يقول في سورة البقرة (ص ٩، ١٠) ما نصه: (مسألة - قالوا: فقد قال تعالي: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]... وهذا يدل علي أنه قد منعهم من الإيمان، ومذهبكم بخلافه، وكيف تأويل الآية؟ وجوابنا: أن للعلماء في ذلك جوابين أحدهما: أنه شبه حالهم بحال المنوع الذي علي بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه فإذا لم يقبل صح أن تقول: إنه جبار قد طبع الله علي قلبه، وربما تقول: إنه ميت وقد قال تعالي للرسول: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ [النمل: ٨٠] وكانوا أحياء فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى، وهو كقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ويبين ذلك أنه تعالي ذمهم، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة علي سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين.

والجواب الثاني: أن الختم علامة يفعلها تعالي في قلوبهم، لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع علي ذمهم، ويكون ذلك لطفاً لهم، ولطفاً لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه، فيكون أقرب إلي أن يقلع عن الكفر وهذا جواب الحسن رحمه الله، ولهذا قال تعالي: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

ومثلاً في سورة الأعراف يقول في (ص: ١٤٠) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] أليس ذلك يدل علي أنه يخلق الهدي والضلال؟ وجوابنا: أن المراد من يهد الله إلي الجنة والثواب فهو المهتدي في الدنيا ومن يضل عن الثواب إلي العقاب فأولئك هم الخاسرون في الدنيا، وسبيل ذلك أن يكون بعثاً من الله تعالي علي الطاعة. وكذلك قوله تعالي: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] المراد من يضلله عن الثواب في الآخرة فلا هادي له إليه، وإن كنا قد أزعنا العلة وسهلنا السبيل إلي الطاعة».

ومثلاً في سورة الحج يقول في (ص: ٢٤، ٢٤١) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦] إن ذلك يدل علي أنه يهدي قوماً دون قوم بخلاف قولكم: إن الهدي عام. وجوابنا أن المراد: يكلف من يريد، لأن في الناس من لا يبلغه حد التكليف. أو يحتمل أن يريد الهداية إلي الثواب، لأنها خاصة في المطيعين دون العصاة، ورجب تعالي المؤمن في تحمل المشاق واحتمال ما يناله من المبتلين بقوله تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧] فبين حسن عاقبة المؤمن عند الفصل، ليكون في الدنيا وإن لحقه الذل صابراً. وعلي هذا الوجه قال عليه السلام «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

فأنت تري من هذا كله: أنه يفر من القول بأن الله تعالي هو الذي يصرف العبد عن طريق الهدي إلي طريق الضلال أو العكس، تمشياً مع مذهبه وعقيدته.

* مس الشيطان:

كذلك نراه يفسر الآيات التي تدل علي أن الشيطان له قدرة علي أن يؤثر في الإنسان بما يوافق مذهبه، فيقول في سورة البقرة (ص: ٥) ما نصه: (مسألة - وربما

قيل: إن قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] كيف يصح ذلك وعندكم أن الشيطان لا يقدر علي مثل ذلك؟ وجوابنا: إن مس الشيطان إنما هو بالوسوسة كما قال تعالي في قصة أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، كما يقال فيمن يفكر في شيء يغمه: قد مسه التعب، وبين ذلك قوله في صفة الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].. ولو كان يقدر علي أن يخبط لصرف همته إلي العلماء والزهاد وأهل العقول، لا إلي من يعتره الضعف، وإذا وسوس ضعف قلب من يخرجه بالوسوسة فتغلب عليه المرة فيتخبط، كما يتفق ذلك في كثير من الإنس إذا فعلوا ذلك لغيرهم».

ويقول في سورة الناس (ص ٣٨٥، ٣٨٦): (مسألة - وربما قيل في قوله تعال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٤] أليس ذلك يدل علي أن الشيطان يؤثر في الإنسان حتي أمرنا بأن نتعوذ من شره، وأنتم تقولون: إنه لا يقدر علي شيء من ذلك؟ وجوابنا: أنه تعالي بين أن هذا الوسواس من الجنة والناس، ومعلوم أن من يوسوس من الناس لا يخبط ولا يحدث فيمن يوسوس له تغيير عقل وجسم فكذلك حال الشيطان، ومع ذلك فلا بد في وسوستهم من أن يكون ضرر يصح أن يتعوذ بالله تعالي منه، وهذا يدل إذا تأمله المرء علي قولنا بأن العبد مختار لفعله، وذلك لأنه تعالي لو كان يخلق كل هذه الأمور فيه لم يكن لهذا التعوذ معني، لأنه إن أراد خلق ما يضره فيه، وخلق المعاصي فيه، فهذا التعوذ وجوده كعدمه، وإنما ينفع متي كان العبد مختاراً، فإذا أتى بهذا التعوذ كان أقرب إلي أن لا يناله من قبل الجنة والناس ما كان يناله لولا ذلك».

* رؤية الله:

ولما كان المعتزلة لا يجوزون وقوع رؤية الله في الآخرة، فإن صاحبنا قد تخلص من كل آية تجوز وقوع الرؤية.

فمثلاً في سورة يونس بقول في ص (١٥٩) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالي: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أليس المراد بها الرؤية علي ما روي في الخبر؟. وجوابنا: أن المراد بالزيادة التفضل في الثواب، فتكون الزيادة من جنس المزيد عليه، وهذا مروى، وهو الظاهر فلا معني لتعلقهم بذلك، وكيف يصح ذلك وعندهم أن الرؤية أعظم من كيل الثواب فكيف تجعل زيادة علي الحسني؟ ولذلك قال بعده: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قُتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فبين أن الزيادة هي من هذا الجنس في الجنة».

وفي سورة القيامة يقول في (ص ٣٥٨، ٣٥٩) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] إنه أقوى دليل علي أن الله تعالى يري في الآخرة. وجوابنا: أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم، فإننا لا ننازعه في أنه يري، بل في أنه يصافح ويعانق، ويلمس، تعالى الله عن ذلك، وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم. وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلي الله تعالى لا يصح، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طلباً لرؤيته، وذلك لا يصح إلا في الأجسام. فيجب أن يتأول علي ما يصح النظر إليه وهو الثواب، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] فإننا تأولناه علي أهل القرية لصحة المسألة منهم. وبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيباً في الثواب كما ذكر قوله: ﴿وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة ٢٤ - ٢٥] زجراً عن العقاب، فيجب حمله علي ما ذكرناه.

* أفعال العباد:

كذلك يتأثر القاضي عبد الجبار بعقيدته الاعتزالية القائلة بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد، فيقول في سورة الأنفال (ص ١٤٤) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد؟ وجوابنا: أنه ﷺ كان يرمي يوم بدر، والله تعالى بلغ برميته المقاتل، فلذلك أضافه تعالى إلي نفسه كما أضاف الرمية أولاً إليه بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، والكلام متفق بحمد الله. ويقول في سورة الصفات (ص ٢٩٨، ٢٩٩) ما نصه: (مسألة - وربما قيل في قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥ - ٩٦]: أليس في ذلك تصريح بخلق أعمال العباد؟ وجوابنا أن المراد: والله خلقكم وما تعملون من الأصنام، فالأصنام من خلق الله، وإنما عملهم نحتها وتسويتها، ولم يكن الكلام في ذلك، فإنه ﷺ أنكر عبادتهم، فقال: أتعبدون ما تنحتون؟ وذلك الذي تنحتون الله خلقه، ولا يصح لما أورده عليهم معني إلا علي هذا الوجه، وذلك في اللغة ظاهر؛ لأنه يقال في النجار: عمل السرير - وإن كان عمله قد تقضي - وعمل الباب - ونظير ذلك قوله تعالى في عصا موسى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]: المراد ما وقع إفيكهم فيه، فعلي هذا الوجه نتأول هذه الآية، معني قوله من بعد: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ٩٩ - ١٠٠].

* المنزلة بين المنزلتين:

ولما كان القاضي عبد الجبار يقول - كغيره من المعتزلة - بالمنزلة بين المنزلتين فإننا نراه

يتأثر بهذه العقيدة، ففي سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿ [الأنفال: ٢ - ٤] ..
نجده في (ص ١٤٣) يقول ما نصه: «وكل ذلك يدل علي أن الإيمان قول وعمل، ويدخل فيه كل هذه الطاعات، وإن المؤمن لا يكون مؤمناً إلا أن يقوم بحق العبادات، ومتي وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمناً».

وفي سورة الإنسان يقول في (ص ٣٥٩، ٣٦٠) ما نصه: «مسألة وربما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أما يدل ذلك علي أنه ليس من المكلفين إلا كافر ومؤمن؟ وجوابنا: أن الشاكر قد يكون شاكراً وإن لم يكن مؤمناً براً تقياً، لأن الفاسق بغضب أو غيره قد يكون شاكراً فلا يدل علي ما قالوا، بل في آية دلالة علي ما نقول من أن الكافر والمؤمن هما سواء في أن الله تعالى قد هدهما، لا كما قالت المجبرة: إنه تعالى إنما هدي المؤمنين. والمراد به أنه دل الجميع وأزال علتهم، فمن عصي فمن جهة نفسه أتي».

● تذرعه بالجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نري القاضي عبد الجبار يقف أمام الآيات التي تبدو في ظاهرها غريبة مستبعدة، موقف النفور من جواز إرادة المعني الحقيقي، والتخلص من هذا الظاهر المستغرب بحمل الكلام علي الجاز والتشبيه.

فمثلاً يقول في سورة الأعراف (ص ١٤٠) ما نصه: (مسألة) - وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]: وفي الخبر أن جميع بني آدم أخذ عليهم الميثاق من ظهر آدم ﷺ كيف يصح ذلك؟ وجوابنا: أن القوم مخطئون في الرواية فمن المحال أن يأخذ عليهم الميثاق وهم كالذر لا حياة لهم ولا عقل، فالمراد أنه أخذ الميثاق من العقلاء، يأن أودع في عقولهم ما ألزمهم، إذ فائدة الميثاق أن يكون منبهاً، وأن يذكر المرء بالدنيا والآخرة وذلك لا يصح إلا في العقلاء، وظاهر الآية بخلاف قولهم، لأنه تعالى أخذ من ظهور بني آدم، لها من آدم، والمراد أنه خرج من ظهورهم ذرية أكمل عقولهم، فأخذ الميثاق عليهم، وأشهدهم علي أنفسهم بما أودعه عقولهم». ومثلاً في سورة الرعد يقول في (ص ١٨١) ما نصه (مسألة) - ومتي قيل: فما معني قوله تعالى: ﴿وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣] وكيف يصلح التسبيح من الرعد؟ وجوابنا: أن المراد دلالة الرعد وتلك الأصوات الهائلة علي قدرته وعلي تنزيهه، وذلك بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] لدلالة الكل علي أنه

منزه عما لا يليق، ولذلك قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣] ففصل بين الأمرين. وقوله بعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: ١٥] معناه: يخضع، فالمكلف العارف بالله يخضع طوعاً وغيره يخضع كرهاً لأننا نعلم أن نفس السجود لا يقع من كل واحد).

وقد رأينا كيف حمل القاضي حملته الشعواء في مقدمة كتابه علي من يحمل مثل هذه الآية علي حقيقتها، وكيف حكم عليه بأنه ضال لا ينتفع بما يقرأ من كتاب الله.

... وهكذا نجد القاضي عبد الجبار يتأثر متأثراً عظيماً بمذهبه الاعتزالي فلا يكاد يمر بآية تعارض مذهبه إلا صرفها عن ظاهرها، ومال بها إلي ناحية مذهبه.. وعلي الجملة فالكتاب - رغم ما فيه من هذه النزعات الاعتزالية - قد كشف لنا عن كثير من الشبهات التي ترد علي ظاهر النظم الكريم، وأوضح لنا عن كثير من جمال التركيب القرآني الذي ينطوي علي البلاغة والإعجاز، مما يشهد لمؤلفه بقوة وغزارة العلم. وهو مطبوع في مجلد واحد كبير ومتداول بين أهل العلم.

* * *

٢ - أمالي الشريف المرتضي (١) أو (غرر الفوائد ودرر القلائد)

● التعريف بمؤلف هذا الكتاب:

مؤلف هذا الكتاب، هو أبو القاسم، علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسي ابن محمد بن إبراهيم بن موسي الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو أخو الشريف

(١) لأخيه الشريف الرضي المتوفي سنة ٤٠٦ هـ كتاب (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) وهو يقرب من (الأمالي) في منهجه وطريقته، فمن أجوبة لما يرد من إشكالات علي ظاهر النظم. إلي رد ما يتعارض مع مذهب الاعتزالي من ظواهر القرآن، إلي غير ذلك من البحوث التي يكاد يتفق فيها مشرب الشريف الرضي مع مشرب أخيه الشريف المرتضي، وقد أمسكنا عن الكلام عن هذا المؤلف، لأنه مفقود ولم يطبع منه إلا الجزء الخامس وهو يشتمل علي بعض مسائل من سورة آل عمران وبعض سورة النساء، ولأنه في كثير من الأحيان يحيل الجواب علي ما تقدم في الأجزاء السابقة. ولو وقع لنا هذا الكتاب كاملاً لكان مرجعاً مهماً لا يقل عن الأمالي في تصويره لعقلية هذا الإمام الكبير وتأثره بمذهبه الاعتزالي في فهمه لكتاب الله تعالي، ولقد نقل ابن خلكان في وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٦٥) عن ابن جني أستاذ الشريف الرضي أنه قال: «صنف الشريف الرضي كتاباً في معاني القرآن يتعذر وجود مثله، دل علي توسعه في علم النحو واللغة».

الرضي، وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق، وكان مع تشيعة معتزلياً مبالغاً في اعتزاله، وقد تبهر - رحمه الله - في فنون العلم، وعرف بالإمامة في الكلام والأدب، والشعر، وأخذ عن الشيخ المفيد، وروي الحديث عن سهل الديباجي الكذاب، وله تصانيف كثيرة علي مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كبير، وله كتاب (الأمالي) الذي سماه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وجمع فيه بين التفسير الاعتزالي، والحديث، والأدب، وهو ما نحن بصدد الكلام عنه الآن، واختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة) المنسوب إلي الإمام علي بن أبي طالب، هل هو جمعه. أو جمع أخيه الشريف الرضي؟ وبالجملة فقد كان الشريف المرتضي إمام أئمة العراق، يفرغ إليه علماءها، ويأخذ عنه عظماءها. وكانت ولادته سنة ٣٥٥هـ (خمسة وخمسين وثلاثمائة من الهجرة)، وتوفي سنة ٤٣٦هـ (ست وثلاثين وأربعمائة) ببغداد، ودفن في داره عشية يوم وفاته، فرضي الله عنه وأرضاه (١).

● التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه التي سلكها في التفسير:

كتاب غرر الفوائد ودرر القلائد، كتاب يشتمل علي محاضرات أو أمالي أملاها الشريف المرتضي في ثمانين مجلساً، تشتمل علي بحوث في التفسير والحديث، والأدب، وهو كتاب ممتع، يدل علي فضل كثير، وتوسع في الأطلاع علي العلوم، وهو لا يحيط بتفسير القرآن كله، بل ببعض من آياته التي يدور أغلبها حول العقيدة، وعلي ضوء ما فسره من الآيات نستطيع أن نلقي نظرة فاحصة علي تفسير المعتزلة للقرآن في ذلك العصر، كما نستطيع أن نقف علي مبلغ جهود الشريف المرتضي للتوفيق بين آرائه الاعتزالية وآيات القرآن التي تتصادم معها.

ونحن إذ نتكلم عن أمالي الشريف المرتضي لا نتكلم عنها إلا من ناحية ما فيها من التفسير، أما الناحية الحديثية والأدبية فلا تعيننا في هذا البحث، وإن كان لها قيمتها ومكانتها العلمية بين رجال الدين والأدب.

نتصفح كتاب الأمالي، ونجمل النظر بين ما فيه من بحوث في التفسير فنجد السيد الشريف يسعي بكل جهوده إلي الوصول إلي مبادئ الاعتزالية عن طريق التفسير، مستعيناً في ذلك بنبوغه الأدبي، ومعرفته بفنون اللغة وأساليبها حتي إننا لنراه من الآيات التي تعارضه موقفاً يلتزم فيه مخالفة ظاهر القرآن ويفضل فيه التفسير المتتوية لبعض الألفاظ علي ما يتبادر منها إرضاء لعقيدته، وتمشياً مع مذهبه.

وإليك بعض الأمثلة من تفسيره للآيات التي تدور حول العقيدة، لتقف علي حقيقة الأمر، ولتلمس مقدار هذا التعصب المذهبي عند هذا الشريف العلوي:

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان: ٢/١٤ - ١٧.

* رؤية الله :

يقول في المجلس الثالث (ج ١ ص ٢٨ - ٢٩) : (مسألة - اعلم بان أصحابنا قد اعتمدوا في إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية في قوله تعالى ﴿ وَجْهَ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ [القيامة: ٢٢- ٢٣] علي وجوه معروفة، لأنهم بينوا أن النظر ليس يفيد الرؤية، ولا الرؤية من أحد احتمالاته، ودلوا علي وجه المرئي طلباً للرؤية، ومنها النظر الذي هو الانتظار، ومنها النظر الذي هو التعطف والمرحمة، ومنها النظر الذي هو الفكر والتأمل. وقالوا: إذا لم يكن في أقسام النظر الرؤية، لم يكن للقوم بظاهرها تعلق، واحتجنا جميعاً إلي طلب تأويل الآية من جهة غير الرؤية. وتأولها بعضهم علي الانتظار للثواب وإن كان المنتظر في الحقيقة محذوفاً، والمنتظر منه مذكوراً علي عادة للعرب معروفة. وسلم بعضهم أن النظر يكون الرؤية بالبصر. وحمل الآية علي رؤية أهل الجنة لنعم الله تعالى عليهم، علي سبيل حذف المرئي في الحقيقة وهذا كلام مشروح في مواضعه، وقد بينا ما يرد عليه، وما يجاب به عن الشبهة المعترضة في مواضع كثيرة.

وهنا وجه غريب في الآية، حكي عن بعض المتأخرين لا يفتقر معتمده إلي العدول عن الظاهر، أو إلي تقدير محذوف ولا يحتاج إلي منازعتهم في أن النظر يحتمل الرؤية أو لا يحتملها، بل يصح الاعتماد عليه، سواء أكان النظر المذكور في الآية هو الانتظار بالقلب أو الرؤية بالعين، وهو أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا﴾ إلي أنه أراد نعمة ربها، لأن الآلاء النعم، وفي واحدها أربع لغات، ألي مثل قفي، وألي مثل رمي، وإلي مثل معي، وإلي مثل حني، قال أعشي بكر بن وائل:

أبيض لا يهرب الهزال ولا يقطع رحماً ولا يخون إلي

أراد أنه لا يخون نعمة، وأراد تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا﴾ فأسقط التنوين للإضافة، فإن قيل: فأى فرق بين هذا الوجه وبين تأويل من حمل الآية علي أنه أراد به: إلي ثواب ربها ناظرة، بمعنى: رائية لنعمه وثوابه؟ قلنا: ذلك الوجه يفتقر إلي محذوف، لأنه إذا جعل (إلي) حرفاً ولم يعلقها بالرب تعالى، فلا بد من تقدير محذوف، وفي الجواب الذي ذكرناه لا يفتقر إلي تقدير محذوف، لأن (إلي) فيه اسم يتعلق به الرؤية، ولا يحتاج إلي تقدير غيره. والله أعلم بالصواب.

* الإرادة وحرية الأفعال :

وفي المجلس الرابع (ج ١ ص ٣٠ - ٣٣) يقول ما نصه: (تأويل آية - إن قال قائل: ما تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ

لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ [يونس: ١٠٠].. فظاهر هذا الكلام يدل علي أن الإيمان إنما كان لهم فعله بإذنه وأمره، وليس هذا مذهبكم. وإن حمل الإذن هنا علي الإرادة، اقتضي أن من لم يقع منه الإيمان لم يرده الله منه، وهذا أيضاً بخلاف قولكم. ثم جعل الرجس - الذي هو العذاب - علي الذين لا يعقلون، ومن كان فاقداً لعقله لا يكون مكلفاً. فكيف يستحق العذاب وهو بالضد من الخبر المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثر أهل الجنة البله»؟.. الجواب: يقال له: في قوله تعالي: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وجوه: منها أن يكون الإذن: الأمر، ويكون معني الكلام أن الإيمان لا يقع إلا بعد أن يأذن الله فيه ويأمر به، ولا يكون معناه ما ظنه السائل من أنه لا يكون للفاعل فعله إلا بإذنه، ويجري هذا مجري قوله تعالي: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].. ومعلوم أن معني قوله: (ليس لها) - في هذه الآية. هو ما ذكرناه، وإن كان الأشبه في هذه الآية التي ذكر فيها الموت أن يكون المراد بالإذن: العلم، ومنها أن يكون الإذن هو: التوفيق والتيسير والتسهيل. ولا شبهة في أن الله يوفق لفعل الإيمان ويلطف فيه، ويسهل السبيل إليه.. ومنها أن يكون الإذن: العلم، من قولهم: أذنت لكذا وكذا، إذا سمعته وعلمته وأذنت فلانا بكذا، إذا أعلمته، فتكون فائدة الآية: الإخبار عن علمه تعالي بسائر الكائنات، فإنه ممن لا تخفي عليه الخفيات. وقد أنكر بعض من لا بصيرة له أن يكون الإذن - بكسر الألف وتسكين الذال - عبارة عن العلم، وزعم أن الذي هو العلم: الأذن - بالتحريك - واستشهد بقول الشاعر:

* إن همي في سماع وأذن *

وليس الأمر علي ما توهم هذا المتوهم، لأن الأذن هو المصدر، والإذن هو اسم الفعل، فيجري مجري الحذر، والحذر في أنه مصدر، والحذر - بالتسكين - الاسم. علي أنه لو لم يكن مسموعاً إلا الأذن بالتحريك لجاز التسكين مثل: مثل ومثل، وشبه وشبه، ونظائر ذلك كثيرة.. ومنها أن يكون الإذن: العلم، ومعناه إعلام الله المكلفين بفضل الإيمان وما يدعو إلي فعله، ويكون معني الآية: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإعلام الله لها بما يبعثها علي الإيمان وما يدعوها إلي فعله.. فأما ظن السائل دخول الإرادة في محتمل اللفظ فباطل لأن الإذن لا يحتمل الإرادة في اللغة، ولو احتملها أيضاً لم يجب ما توهمه، لأنه إذا قال: إن الإيمان لا يقع إلا وأنا مرید له، لم ينف أن يكون مریداً لما لم يقع، وليس في صريح الكلام ولا دلالة شيء من ذلك» ثم انتقل من هذا إلي كشف الشبهة عن معني قوله: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بما لا يتصل بعقيدته الاعتزالية.

وفي المجلس (٤١ ج ٣ ص ٢-٤) يقول ما نصبه: (تأويل آية - إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١)... إلي آخر الآية فقال: ما تأويل هذه الآية؟ أو ليس ظاهرها يقتضي أنا لا نشاء شيئاً إلا والله تعالى شاء، ولم يخص إيمان من كفر، ولا طاعة من معصية...؟ الجواب: الوجه المذكور في هذه الآية أن الكلام متعلق بما تقدمه من ذكر الاستقامة، لأنه تعالى قال: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي ما تشاءون الاستقامة إلا والله تعالى يريد لها، ونحن لا ننكر أن يريد الله تعالى الطاعات، وإنما أنكرنا إرادته المعاصي. وليس لهم أن يقولوا: تقدم ذكر الاستقامة لا يوجب قصر الكلام عليها ولا يمنع من عمومها، كما أن السبب لا يوجب قصر ما يخرج من الكلام عليه حتى لا يتعداه، وذلك أن الذي ذكره وإنما يجب فيما يستقل بنفسه من الكلام دون ما لا يستقل.. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لا ذكر للمراد فيه، فهو غير مستقل بنفسه، وإذا علق بما تقدم من ذكر الاستقامة استقل. علي أنه لو كان للآية ظاهر يقتضي ما ظنوه - وليس لها ذلك - لوجب الانصراف عنه بالأدلة الثابتة علي أنه تعالى لا يريد المعاصي ولا القبائح. علي أن مخالفينا في هذه المسألة لا يمكنهم حمل الآية علي العموم لأن العباد قد يشاءون عندهم ما لا يشاءه الله تعالى بأن يريدوا الشيء ويعزموا عليه فلا يقع لمانع، ممتنعاً كان أو غيره. وكذلك قد يريد النبي عليه الصلاة والسلام من الكفار الإيمان، وقد تعبدنا بأن نريد من المقدم علي القبيح تركه، وإن كان تعالى عندهم لا يريد ذلك إذا كان المعلوم أنه لا يقع، فلا بد لهم من تخصيص الآية، فإذا جاز لهم ذلك بالشبهة، جاز لنا مثله بالحجة، وتجري هذه الآية مجري قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠].. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦] في تعلق الكلام بما قبله.. فإن قالوا: فالآية تدل علي صحة مذهبنا من وجه وبطلان مذهبكم من وجه آخر، وهو أنه عز وجل قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وذلك يقتضي أنه يشاء الاستقامة في حال مشيئتنا لها لأن (أن) الخفيفة إذا دخلت علي الفعل المضارع اقتضت الاستقبال، وهذا يوجب أنه يشاء أفعال العباد في كل حال، ويبطل ما تذهبون إليه من أنه إنما يريد الطاعات في حال الأمر. قلنا: ليس في ظاهر الآية أنا لا نشاء إلا ما شاء الله تعالى في حال مشيئتنا كما ظننتم، وإنما يقتضي حصول مشيئته لما نشاءوه من الاستقامة من غير ذكر لتقدم ولا

(١) يريد إلي آخر السورة وهو قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ والآيات من سورة التكوير: ٢٦ - ٢٩.

تأخر، ويجري ذلك مجري قول القائل: ما يدخل زيد هذه الدار إلا أن يدخلها عمرو، ونحن نعلم أنه غير واجب بهذا الكلام أن يكون دخولهما في حالة واحدة، بل لا يمنع أن يتقدم دخول عمرو، ويتلوه دخول زيد. و (أن) الخفيفة وإن كانت للاستقبال - علي ما ذكر - فلم يبطل علي تأويلنا معني الاستقبال فيها، لأن تقدير الكلام: وما تشاءون الطاعات إلا بعد أن يشاء الله تعالى. ومشيعته تعالي قد كانت لها حال الاستقبال. وقد ذهب أبو علي الجبائي إلي أنه لا يمتنع أن يريد تعالي الطاعات حالاً بعد حال، وإن كان قد أرادها في حال الأمر، كما يصح أن يأمر بها أمراً بعد أمر، قال: لأنه قد يصح أن يتعلق بإرادته ذلك منا بعد الأمر وفي حال الفعل مصلحة. ويعلم تعالي أنا نكون متي علمنا ذلك كنا إلي فعل الطاعات أقرب، وعلي هذا المذهب لا يعترض بما ذكره. والجواب الأول واضح إذا لم نذهب إلي مذهب أبي علي في هذا الباب. علي أن اقتضاء الآية للاستقبال من أوضح دليل علي فساد قولهم، لأن الكلام إذا اقتضي حدوث المشيئة وأبطل استقبالها بطل قول من قال منهم: إنه يريد بنفسه، أو يريد بإرادة قديمة، وصح ما نقوله من أن إرادته محدثة مجددة ويمكن في تأويل الآية وجه آخر مع حملنا إياها علي العموم من غير أن نخصصها بما تقدم ذكره من الاستقامة، ويكون المعني: وما تشاءون شيئاً من فعالكم إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم، وإقداركم عليها، والتخلية بينكم وبينها. وتكون الفائدة في ذلك الإخبار عن الافتقار إلي الله تعالي وأنه لا قدرة علي ما لم يقدره الله تعالي عز وجل. وليس يجب عليه أن يستبعد هذا الوجه، لأن ما يتعلق به المشيئة في الآية محذوف غير مذكور وليس لهم أن يعلقوا قوله تعالي ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بالأفعال، دون تعلقه بالقدرة، لأن كل واحد من الأمرين غير مذكور، وكل هذا واضح بحمد الله.

فأنت تري من هذه المثل وغيرها لو رجعت إليها في مكانها أن الشريف المرتضي تأثر في تأويله للآيات القرآنية بعقيدته الاعتزالية ودافع بكل ما استطاع عن مذهبه، ورد كل شبهة ترد عليه بما يدل علي قوة ذهنه وسعة اطلاعه.

● رفضه لبعض ظواهر القرآن:

كذلك نجد الشريف المرتضي - كغيره من المعتزلة - يرفض بشدة المعاني القرآنية الظاهرة، التي تبدو في أول أمرها مستبعدة مستغربة، والتي يجوزها أهل السنة ويرونها أولى بأن يحمل اللفظ عليها من غيرها، ويتخلص من ذلك إما بحمل اللفظ علي معني حقيقي آخر لا غرابة فيه، وإما بحمله علي التمثيل أو التخيل، ونجد لذلك مثلاً جلياً واضحاً في المجلس الثالث (ج ١ ص ٢٠، ٢٢) حيث يقول ما نصه: قال الله تعالي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

بَرِيكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢-

وقد ظن بعض من لا بصيرة له ولا فطنة عنده، أن تأويل هذه الآية: أن الله استخرج من ظهر آدم جميع ذريته وهم في خلق الذر، فقررهم بمعرفته وأشهدهم علي أنفسهم. وهذا التأويل مع أن العقل يبطله، ويحيله، مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: من ظهره. وقال: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ ولم يقل: ذريته. ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا إنهم كانوا عن هذا غافلين. أو يعتذروا بشرك آبائهم، وأنهم نشئوا علي دينهم وسنتهم، وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه، وأنها تناولت من كان له آباء مشركون، وهذا يدل علي اختصاصها ببعض ولد آدم، فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله. فأما شهادة العقل؛ فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التي استخرجت من ظهر آدم فخطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، أو لا تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، فإن كانت الصفة الأولى، وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال، وما قرروا به واستشهدوا عليه، لأن العاقل لا ينسي ما يجري هذا المجري وإن بعد العهد وطال الزمان، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا في بلد من البلدان وهو عاقل كامل، فينسي مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله، وليس أيضا لتخلل الموت بين الحالتين تأثير لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر، لكان تخلل النوم، والسمر، والجنون، والإغماء من أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم لأن سائر ما عدده ما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا. وليس لهم أن يقولوا: إذا جاز في العاقل الكامل أن ينسي ما كان عليه في حال الطفولية جاز ما ذكرناه، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادعوه إذا كملت عقولهم من حيث يجري عليهم وهم كاملو العقول، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه. علي أن تجوز النسيان عليهم ينقض الغرض في الآية، وذلك أن الله تعالى أخبرنا بأنه إنما قررهم وأشهدهم لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة وسقوط الحجة عنهم، فإذا جاز نسيانهم له، عاد الأمر إلي سقوط الحجة وزوالها. وإن كاتوا علي الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف، قبح خطابهم، وتقريرهم، وإشهادهم، وصار ذلك عبثاً قبيحاً. فإن قيل: قد أبطلتم قول مخالفكم، فما تأويلها الصحيح عندكم؟ قلنا: في الآية وجهان، أحدهما: أن يكون تعالى إنما عني بها جماعة من ذرية بني آدم، خلقهم، وبلغهم، وأكمل

عقولهم، وقررههم علي ألسن رسله عليهم السلام بمعرفته، وما يجب من طاعته، فأمروا بذلك، وأشهدهم علي أنفسهم لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم. وإنما أتى من اشتبه عليه تأويل الآية من حيث طن أن اسم الذرية لا يقع إلا علي من لم يكن عاقلاً كاملاً، وليس الأمر كما ظن، لأنه سمي جميع البشر بأنهم ذرية آدم وإن دخل فيهم العقلاء الكاملون، وقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر: ٨] ولفظ (الصالح) لا يطلق إلا علي من كان كاملاً عاقلاً، فإن استبعدوا تأويلنا وحملنا الآية علي البالغين المكلفين فهذا جوابهم.

والجواب الثاني: أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيباً يدل علي معرفته ويشهد بقدرته ووجوب عبادته، فأراههم العبر، والآيات، والدلائل، في أنفسهم وفي غيرهم، كان بمنزلة المشهد لهم علي أنفسهم وكانوا في مشاهدة ذلك ومعرفته، وظهوره فيهم علي الوجه الذي أراده الله تعالى وتعذر امتناعهم منه وانفكاكهم من دلالاته بمنزلة المقر المعترف وإن لم يكن هناك إشهاد ولا اعتراف علي الحقيقة، ويجري ذلك مجري قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وإن لم يكن منه تعالى قول علي الحقيقة، ولا منهما جواب. ومثله قوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، ونحن نعلم أن الكفار لم يعترفوا بالكفر بالسنتهم، وإنما ذلك لما ظهر منهم ظهوراً لا يتمكنون من دفعه، كانوا بمنزلة المعترفين به، ومثل هذا قولهم: جوارحي تشهد بنعمتك، وحالي معترفة بإحسانك، وما روي عن بعض الحكماء من قوله: سل الأرض من شق أنهارك؟ وغرس أشجارك؟ وجني ثمارك؟ فإن لم تجبك جواراً، أجابتك اعتباراً، وهذا باب كبير، وله نظائر كثيرة في النظم والنثر، يغني عن ذكر جميعها القدر الذي ذكرناه منها.

● الطريقة اللغوية في تفسيره للقرآن:

ثم إننا نجد الشريف المرتضي، قد ولع بالطريقة اللغوية في تفسيره للآيات القرآنية، وحرص كل الحرص علي تطبيق هذا المبدأ اللغوي، الذي يعتبر الأصل المهم من قواعد التفسير عند المعتزلة، وكثيراً ما نراه يظهر مهارة فائقة في استعماله لهذه الطريقة عندما يساوره الشك في ظاهر اللفظ الذي يتعلق بالعقيدة فنراه يفسره تفسيراً مقبولاً لديه، يقوم علي أساس من الأسس اللغوية، والحق أن الشريف المرتضي قد ظهر تفوقه العلمي الصحيح، عند تطبيقه لهذا المبدأ، وذلك راجع إلي تمكنه العظيم من اللغة والشعر القديم ولهذا نجده لا يعتبر من التفاسير اللغوية إلا ما كان له شاهد من اللغة أو

الشعر العربي القديم، أما التفسير المطلق، الذي لا يعتمد علي شاهد من ذلك، فإنه يرفضه ولا يرضاه. وإليك بعض الأمثلة التي تصور لك عناية المرتضي بهذا المبدأ اللغوي.

ففي المجلس (٢٣ جـ ٢ ص ٦-٩) يقول ما نصه: إن سأل سائل عن قوله تعالي: ﴿تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] ما المراد بالنفس في هذه الآية وهل المعني فيها كالمعني في قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨-٣٠] أو يخالفه؟ أو يطابق معني الآيتين؟ والمراد بالنفس فيهما ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: إذا أحب العبد لقائي أحببت لقاءه، وإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً» أو لا يطابقه؟.. الجواب: قلنا: إن النفس في اللغة لها معان مختلفة. ووجوه في التصرف متباينة؛ فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان، وهي التي إذا فقدتها خرج عن كونه حياً، ومنه قوله تعالي: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. والنفس: ذات الشيء الذي يخبر عنه، كقولهم: فعل ذلك فلان نفسه إذا تولي فعله، والنفس: الأنفة، من قولهم: ليس لفلان نفس، أي لا أنفة له، والنفس: الإرادة، من قولهم: نفس فلان في كذا، أي إرادته. قال الشاعر:

فنفساي نفس قالت إئت ابن بجدل تجد فرجاً من كل غم تهابها
ونفس تقول اجهد نجازك فلا تكن كخاضبة لم يغن شيئاً خضابها

ومنه: أن رجلاً قال للحسن البصري: يا أبا سعيد، لم أحجج قط، فنفس تقول لي: حج، ونفس تقول لي: تزوج، فقال الحسن: أما النفس فواحدة، ولكن لك هم يقول: حج، وهم يقول: تزوج وأمره بالحج، وقال الممزق العبدي، ويروي لمعقربن حمار البارقي:

ألا من لعين قد نأها حميمها وأرقني بعد المنام همومها
فباتت لها نفسان شتي همومها فنفس تعزيها ونفس تلومها

وقال نمر بن تولب العكلي:

أما خليلي فإني لست معجله حتي يؤامر تفسيه كما زعما
نفس له من نفوس القوم صالحة تعطي الجزيل ونفس ترضع الغنما

أراد أنه بين نفسين: نفس تأمره بالجوود، وأخري تأمره بالبخل، وكني برضاع الغنم عن البخل، لأن البخيل يرضع اللبن من الشاة ولا يحلبها، لئلا يسمع الضيف صوت الشخب فيتهدي إليه، ومنه قيل: لئيم راضع وقال كثير:

فأصبحت ذا نفسين: نفس مريضة من الناس، ما ينفك هم يعودها

ونفس ترجي وصلها بعد صرمها تجمل كي يزداد غيظاً حسودها
والنفس : العين التي تصيب الإنسان يقال : أصابت فلاناً نفس : أي عين
وروي أن رسول الله ﷺ كان يرقى فيقول : « بسم الله أرقيك، والله يشفيك، من
كل داء يؤذيك، وداء هو فيك، من كل عين عائن، ونفس نafs، وحسد
حاسد » .

وقال ابن الأعرابي : النفوس : التي تصيب الناس بالنفس ، وذكر رجلاً فقال : كان
والله حسوداً نفوساً كذوباً، وقال عبد الله بن قيس الرقيات وهو قرشي :
يتقي أهلها النفوس عليها فعلي نحرها الرقي والتميم
وقال مضرس الفقعسي :

وإذا نموا صعداً فليس عليهم منا الخيال ولا نفوس الحسد

وقال ابن هرمة : يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :
فاسلم سلمت من المكاره والردي وعثارها ووقيت نفس الحسد

والنفس أيضاً من الدباغ بمقدار الدبغة، تقول أعطني نفساً من دباغ، أي قدر ما
أدبغ به مرة . والنفس : الغيب، يقول القائل : إني لا أعلم نفس فلان : أي غيبه . وعلي
هذا تأويل قوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ [المائدة: ١١٦] أي
تعلم غيبي وما عندي، ولا أعلم غيبك وقيل : إن النفس أيضاً : العقوبة، من قولهم :
أجذرك نفسي : أي عقوبتي . وبعض المفسرين يحمل قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله
نفسه ﴾ [آل عمران ٢٨ - ٣٠] علي هذا المعني كأنه : يحذركم عقوبته، وروي ذلك عن
ابن عباس والحسن وآخرين قالوا : معني الآية : يحذركم الله إياه . وقد روي عن الحسن
ومجاهد في قوله تعالى ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ ما ذكرناه من
التأويل بعينه . فإن قيل : ما وجه تسميته (الغيب) بأنه نفس ؟ قلنا : لا يمتنع أن يكون
الوجه في ذلك : أن نفس الإنسان لما كانت خفية الموضع، نزل ما يكتبه ويجتهد في
ستره منزلتها، وسمي باسمها فقليل فيه : إنه نفسه، مبالغة في وصفه بالكتيمان
والخفاء . وإنما حسن أن يقول تعالى مخبراً عن نبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ ولا أعلم ما
في نفسك ﴾ من حيث تقدم قوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ ليزدوج الكلام، ولهذا
لا يحسن ابتداء : أنا لا أعلم ما في نفس الله تعالى وإن حسن علي الوجه الأول، ولهذا
نظائر في الاستعمال مشهورة مذكورة . فأما الخبر الذي يرويه السائل فتأويله ظاهر،
وهو خارج علي مذهب العرب في مثل هذا الباب المعروف، ومعناه : أن من ذكرني في
نفسه جازيته علي ذكره لي، وإذا تقرب إلي شبراً جازيته علي تقربه إلي . . . وكذلك
الخبر إلي آخره، فسمي المجازة علي الشئ باسمه اتساعاً، كما قال تعالى : ﴿ وجزاء

سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا ﴿ [الشوري: ٤٠] ، ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥] .. وكما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظائر هذا كثير في كلام العرب، ولما أراد تعالي المبالغة في وصف مايفعله به من الثواب والمجازاة علي تقريه بالكثرة والزيادة، كني عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال: باعاً وذراعاً إشارة إلي المعني من أبلغ الوجوه وأحسنها.

وقال في المجلس (٤٥ ج ٣ ص ٤٦ - ٥٠) ما نصه: إن سأل سائل عن معني قوله تعالي: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص: ٨٨] وقوله تعالي: ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ [الإنسان: ٩]، وقوله تعالي: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن: ٢٧] .. وما شاكل ذلك من آي القرآن المتضمنة لذكر الوجه .. الجواب: قلنا: الوجه ينقسم في اللغة العربية إلي أقسام: فالوجه المركب فيه العينان من كل حيوان. والوجه أيضاً: أول الشيء وصدوره. ومن ذلك قوله تعالي: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَآكفروا آخِرَهُ ﴾ [آل عمران: ٧٢] أي أول النهار ومنه قول الربيع ابن زياد:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

أي غداة كل يوم، وقيل قوم: وجه نهار: اسم موضع .. والوجه: القصد بالفعل، من ذلك قوله تعالي: ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ﴾ [النساء: ١٢٥] .. وقال الفرزدق:

وأسلمت وجهي حين شدت ركائبني إلي آل مروان بناة المكارم

أي جعلت قصدي وإرادتي لهم. وأنشد الفراء:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

أي القصد، ومنه قولهم في الصلاة: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض: أي قصدت قصدي بصلاتي وعملي، وكذلك قوله تعالي: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيمِ ﴾ [الروم: ٤٣] .

والوجه: الاحتيال في الأمر، من قولهم: كيف الوجه لهذا الأمر وما الوجه فيه، أي الحيلة. والوجه: الذهاب والجهة والناحية. قال حمزة ابن بيض الحنفي:

أي الوجوه انتجعت؟ قلت لهم لأي وجه إلا إلي الحكم

متي يقل صاحباً سرادقه هذا ابن بيض بالباب يتبسم

والوجه: القدر والمنزلة، ومنه قولهم: لفلان وجه عريض، وفلان أوجه من فلان، أي أعظم قدراً وجاهاً، ويقال: أوجهه السلطان، إذا جعل له جاهاً. قال امرؤ القيس:

ونامت قيصر في ملكه فأوجهني وركبت البريداً
يقال: حمل فلاناً علي البريد إذا هيا له في كل مرحلة مركباً ليركبه، فإذا وصل إلي
المرحلة الأخرى نزل عن المعيني وركب المرفه... وهكذا إلي أن يصل إلي
مقصده.

والوجه: الرئيس المنظور إليه، يقال: فلان وجه القوم، وهو وجه عشيرته: ووجهه
الشيء: نفسه وذاته، قال أحمد بن جندل:

ونحن حفرنا الحوفزان بطعنة فأفلت منها وجهه عتد بها (١)

أراد أفلته ونجاه، ومن ذلك قولهم: إنما أفعل ذلك لوجهك، ويدل أيضاً علي أن
الوجه يعبر به عن الذات، وقوله تعالي: ﴿وَجْوهُ يَوْمئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ *﴾
ووجوه يومئذ بأسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة * [القيامة: ٢٢: ٢٥] وقوله
تعالي: ﴿وَجْوهُ يَوْمئِذٍ نَاعِمَةٌ * لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ *﴾ [الغاشية: ٨-٩] لأن جميع ما أضيف
إلي الوجوه في ظاهر الآي من النظر والظن والرضا لا يصح إضافته علي الحقيقة إليها،
وإنما يضاف إلي الجملة، فمعني قوله تعالي: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ *﴾ أي كل شيء
هالك إلا إياه، فكذلك قوله تعالي: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَنْ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
وَإِلْكَرَامِ *﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] لما كان المراد بالوجه نفسه لم يقل: (ذي) كما
قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *﴾ [الرحمن: ٧٨] لما كان اسمه غيره..
ويمكن في قوله تعالي: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ *﴾ [القصص: ٨٨] وجه آخر - وقد
روي عن بعض المتقدمين وهو أن يكون المراد بالوجه ما يقصد به إلي الله تعالي، ويوجه
به إليه، نحو القرية إليه جلت عظمته، فيقول: لا تشرك بالله ولا تدع إليها غيره، فإن
كل فعل يتقرب به إلي غيره، ويقصد به سواه فهو هالك باطل، وكيف يسوغ
للمشبهة أن يحملوا هذه الآية والتي قبلها علي الظاهر؟ أو ليس ذلك يوجب أنه
تعالي يفني ويبقي وجهه، وهذا كفر وجهل من قائله.. فأما قوله تعالي: ﴿إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لَوْجَهَ اللَّهِ *﴾ [الإنسان: ٩]، وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ *﴾ [الليل: ٢٠]
وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ *﴾ [الروم: ٣٩] فمحمول علي أن هذه
الأفعال مفعولة له، ومقصود بها ثوابه والقرية إليه، والزلفي عنده. فأما قوله
تعالي: ﴿فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ *﴾ [البقرة: ١١٥] فيحتمل أن يراد به فثم الله لا علي
معني الحلول، ولكن علي معني التدبير والعلم، ويحتمل أيضاً أن يراد به: فثم رضا
الله وثوابه والقرية إليه. ويحتمل أن يكون المراد بالوجه: الجهة، ويكون الإضافة

(١) هكذا بالأصل ولا يظهر لقوله: (عتد بها) معني. وأصل البيت بخلاف ذلك راجع ما
كتب علي البيت بهامش الأمالي.

بمعني: الملك، و الخلق، والإنشاء، والإحداث لأنه عز وجل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَوَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]: أي أن الجهات كلها لله، وتحت ملكه، وكل هذا واضح بين بحمد الله.

ونراه يقول في المجلس (٣٩-ج ٢ ص ٥٣ - ٥٦) ما نصه: إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢] فقال: أي تمدح في سرعة الحساب وليس بظاهر وجه المدح فيه؟ الجواب: قلنا: في ذلك وجوه:

أولها: أن يكون المعني أنه سريع الحساب للعباد علي أعمالهم، وأن وقت الجزاء قريب وإن تأخر، ويجري مجري قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وإنما جاز أن يعبر عن المجازاة أو الجزاء بالحساب، لأن ما يجازي به العبد هو كفو لفعله وبمقداره، فهو حساب له إذا كان مماثلاً مكافئاً. ومما يشهد بأن في الحساب معني المكافأة قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]: أي عطاء كافياً. ويقال: أحسبني الطعام يحسبني إحساباً: إذا كفاني. قال الشاعر:

وإذا لا تري في الناس حسناً يفوتها وفي الناس حسناً لو تأملت محسب

معناه: كاف.

وثانيها: أن يكون المراد أنه عز وجل يحاسب الخلق جميعاً في أوقات يسيرة. ويقال: إن مقدار ذلك حلب شاة، لأنه تعالى لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة غيره، بل يكلمهم جميعاً، ويحاسبهم كلهم علي أعمالهم في وقت واحد، وهذا أحد ما يدل علي أنه تعالى ليس بجسم، وأنه لا يحتاج في فعل الكلام إلي آلة، لأنه لو كان بهذه الصفات - تعالى عنها - لما جاز أن يخاطب اثنين في وقت واحد بمخاطبتين مختلفتين، ولكان خطاب بعض الناس يشغله عن خطاب غيره ولكانت مدة محاسبته للخلق علي أعمالهم طويلة غير قصيرة، كما أن جميع ذلك واجب في المحدثين الذين يفتقرون في الكلام إلي الآلات.

وثالثها: ما ذكره بعضهم من أن المراد بالآية أنه سريع العلم بكل محسوب، وأنه لما كانت عادة بني الدنيا أن يستعملوا الحساب والإحصاء في أكثر أمورهم أعلمهم الله أنه يعلم ما يحسبون بغير حساب، وإنما سمي العلم حساباً، لأن الحساب إنما يراد به العلم، وهذا جواب ضعيف، لأن العلم بالحساب أو المحسوب لا يسمى حساباً، ولو سمي بذلك لما جاز أيضاً أن يقال: إنه سريع العلم بكذا، لأن علمه بالأشياء مما لا يتجدد فيوصف بالسرعة.

ورابعها: أن الله تعالى سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، وذلك أنه يسئل في

وقت واحد أسئلة مختلفة من أمور الدنيا والآخرة ، فيجزئ كل عبد بمقدار استحقاقه ومصلحته، فيوصل إليه عند دعائه ومسالته ما يستوجبه بحد ومقدار ، فلو كان الأمر علي ما يتعارفه الناس لطال العدد واتصل الحساب ، فأعلمنا تعالي أنه سريع الحساب ، أي سريع القبول للدعاء بغير إحصاء وبحث عن المقدار الذي يستحقه الداعي . كما يبحث المخلوقون للحساب والإحصاء . وهذا جواب مبني أيضا علي دعوي أن قبول الدعاء يسمي حساباً ، ولم يعهد ذلك في لغة ، ولا عرف ولا شرع . وقد كان يجب علي من أجاب بهذا الجواب ، أن يستشهد علي ذلك بما يكون حجة فيه ، وإلا فلا طائل فيما ذكره . ويمكن في الآية وجه آخر : وهو أن يكون المراد بالحساب محاسبة الخلق علي أعمالهم يوم القيامة ، ومواقفهم عليها ، وتكون الفائدة في الإخبار بسرعه : الإخبار عن قرب الساعة ، كما قال تعالي ﴿سريع العقاب﴾ [الأنعام : ١٦٥] وليس لأحد أن يقول : فهذا هو الجواب الأول الذي حكيمته وذلك أن بينهما فرقاً ، لأن الأول مبني علي أن الحساب في الآية هو الجزاء والمكافأة علي الأعمال ، وفي هذا الجواب لم يخرج الحساب عن بابه . وعن معني المحاسبة المعروفة ، والمقابلة بالأعمال وترجيحها ، وذلك غير الجزاء الذي يفضي الحساب إليه ، وقد طعن بعضهم في الجواب الثاني معترضاً علي أبي علي الجبائي في اعتماده إياه ، بأن قال : مخرج الكلام في الآية علي وجه الوعيد ، وليس في خفة الحساب وسرعة زمانه ما يقتضي زجراً ولا هو مما يتوعد بمثله فيجب أن يكون المراد الإخبار عن قرب أمر الآخرة والمجازاة علي الأعمال . وهذا الجواب ليس أبو علي المبتدئ به ، بل قد حكى عن الحسن البصري ، واعتمده أيضا قطرب بن المستنير النحوي ، وذكره الفضل بن سلمة ، وليس الطعن الذي حكيناه عن هذا الطاعن بمبطل له ، لأنه اعتمد علي أن مخرج الآية مخرج الوعيد ، وليس كذلك ، لأنه تعالي قال : ﴿فَمَنْ النَّاسِ مِنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢] فالأشبه بالظاهر أن يكون وعداً بالشواب ، وراجعاً إلي الذين يقولون : ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أو يكون راجعاً إلي الجميع ، فيكون المعني أن للجميع نصيباً مما كسبوا ، فلا يكون وعيداً خالصاً : بل إما أن يكون وعداً خالصاً ، أو وعداً ووعيداً . علي أنه لو كان وعيداً خالصاً علي ما ذكر الطاعن لكان لقوله تعالي ﴿والله سريع الحساب﴾ علي تأويل من أراد قصر الزمان وسرعة الموافقة وجه وتعلق بالوعد ، والوعيد ، لأن الكلام علي كل حال متضمن لوقوع المحاسبة علي أعمال العباد ، والإحاطة بخيرها وشرها وإن وصف الحساب مع ذلك بالسرعة ، وفي هذا ترغيب

وترهيب لا محالة ، لأن من علم بأنه يحاسب بأعماله ، ويوقف علي جميلها وقبيحها انزجر عن القبيح ، وعمل ورغب في فعل الواجب ، فهذا ينصر الجواب ، وإن كنا لا ندفع أن في حمل الجواب علي قرب المجازاة ، وقرب المحاسبة علي الأعمال ترغيباً في الطاعات ، وزجراً علي المقبحات ، فالتأويل الأول أشبه بالظاهر ونسق الآية ، إلا أن التأويل الآخر غير مدفوع أيضاً ولا مردود .

فأنت تري في المثالين الأولين كيف تخلص من ظاهر اللفظ الذي يمس عقيدته بمهارته اللغوية وتوسعه في المعرفة بأشعار العرب ، كما تري في المثال الثالث كيف لم يقبل قول من قال : إن معني (سريع الحساب) سريع العلم ، أو سريع القبول للدعاء ، لأن القولين لم يستندا - كما قال - إلي أصل لغوي ، أو عرفي ، أو شرعي .

● دفعه لموهم الاختلاف والتناقض :

هذا . . وإن الشريف المرتضي لا يقتصر في أماليه علي هذا النوع المذهبي من التفسير ، بل نجده يعرض لبعض الإشكالات التي ترد علي ظاهر النظم الكريم مما يوهم الاختلاف والتناقض ، ثم يجيب عنها بدقة بالغة ، ترجع إلي مهارته في اللغة وإحاطته بفنونها .

فمثلاً في المجلس الثالث (ج ١ ص ١٨ - ٢٠) يقول ما نصه : (تأويل آية - إن سأل سائل فقال : (ما تقولون في قوله تبارك وتعالى حكاية عن موسى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٢٢]) وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتت كأنها جانٌ ولىّ مدبراً ولم يعقب ﴾ [القصص : ٣١]) والثعبان الحية العظيمة الحلقة ، والجان : الصغير من الحيات ، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة ؟ وكيف يجوز أن تكون العصا في حال واحدة بصفة ما عظم خلقه من الحيات وبصفة ما صغر منها ؟ وبأي شئ تزيلون التناقض عن هذا الكلام ؟ الجواب : أول ما نقول : إن الذي ظنه السائل من كون الآيتين خبراً عن قصة واحدة باطل ، بل الحالتان مختلفتان ، والحال التي أخبر أن العصا فيها بصفة الجان ، كانت في ابتداء النبوة وقبل مسير موسى إلي فرعون والحال التي صار العصا عليها ثعباناً ، كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة ، والتلاوة تدل علي ذلك ، وإذا اختلفت القصتان فلا مسألة ، علي أن قوماً من المفسرين قد تعاطوا الجواب علي هذا السؤال ، إما لظنهم أن القصة واحدة ، أو لاعتقادهم أن العصا الواحدة لا يجوز أن تنقلب في حالتين ، تارة إلي صفة الجان ، وتارة إلي صفة الثعبان .

أو علي سبيل الاستظهار في الحجة ، وأن الحال لو كانت واحدة علي سبيل ما ظن لم يكن بين الآيتين تناقض . وهذا الوجه أحسن ما تكلف به الجواب لأجله ، لأن

الأولين لا يكونان إلا عن غلط أو عن غفلة. وذكروا وجهين تزول بكل منهما الشبهة من تأويلها:

أحدهما: أنه تعالى إنما شبهها بالثعبان في إحدى الحالتين لعظم خلقها وكبر جسمها، وهول منظرها. وشبهها في الآية الأخرى بالجان لسرعة حركتها، ونشاطها وخفتها، فاجتمع لها مع أنها في جسم الثعبان وكبر خلقه، نشاط الجان وسرعة حركته، وهذا أبهر في باب الإعجاز وأبلغ في خرق العادة، ولا تناقض بين الآيتين. وليس يجب إذا شبهها بالثعبان أن يكون لها جميع صفات الثعبان، وإذا شبهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرٌ مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان ١٥-١٦]، ولم يرد تعالى أن الفضة قواريراً علي الحقيقة، وإنما وصفها بذلك لأنه اجتمع لها صفاء القوارير وشفوفها ورقتها، مع أنها من فضة، وقد تشبه العرب الشيء بغيره في بعض وجوهه، فيشتبهون المرأة بالطيبة، وبالبقرة، ونحن نعلم أن في الظباء والبقرة من الصفات ما لا يستحسن أن يكون في النساء، وإنما وقع التشبيه في صفة دون صفة، ومن وجه دون وجه.

والجواب الثاني: أنه تعالى لم يرد بذكر الجان في الآية الأخرى الحية، وإنما أراد أحد الجن فكأنه تعالى أخبر بأن العصا صارت ثعباناً في الحلقة وعظم الجسم، وكانت مع ذلك كأحد الجن في هول المنظر وإفزعها لمن شاهدها ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ . . . ويمكن أن يكون في الآية تأويل آخر استخرجناه، وإن لم يزد علي الوجهين الأولين لم ينقص عنهما، والوجه في تكلفنا له، ما بيناه من الاستظهار في الحجة، وأن التناقض الذي توهم زائل علي كل وجه، وهو أن العصا لما انقلبت حية صارت أولاً بصفة الجان وعلي صورته، ثم صارت بصفة الثعبان، ولم تصر كذلك ضربة واحدة، فتتفق الآيتان علي هذا التأويل ولا يختلف حكمهما وتكون الآية الأولى تتضمن ذكر الثعبان إخباراً عن غاية حال العصا، وتكون الآية الثانية تتضمن ذكر الحال التي ولي موسي منها هارباً، وهي حال انقلاب العصا إلي خلقه الجان، وإن كانت بعد تلك الحال انتهت إلي صورة الثعبان، فإن قيل علي هذا الوجه: كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى ﴿ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وهذا يقتضي أنها صارت ثعباناً بعد الإلقاء بلا فصل؟ قلنا: ليس تفييد الآية ما ظن، وإنما فائدة قوله تعالى ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ الإخبار عن قرب الحال التي صارت فيها بتلك الصفة، وأنه لم يطل الزمان في مصيرها كذلك، ويجري هذا مجري قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]، مع تباعد ما بين كونه نطفة وكونه

خصيماً مبيناً، وقولهم: ركب فلان من منزله فإذا هو في ضيعته، وسقط من أعلي الحائط فإذا هو في الأرض، ونحن نعلم أن بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زماناً، وأنه لم يصل إليها إلا علي تدرج، وكذلك الهابط من الحائط، وإنما فائدة الكلام الإخبار عن تقارب الزمان وأنه لم يطل ولم يمتد».

● ليس في الأمالي أثر للتشيع وإنما فيه عزو أصول المعتزلة إلي الأئمة من آل البيت:

هذا.. وإنا لا نكاد نجد أثراً ظاهراً للتشيع فيما فسره الشريف المرتضي من الآيات في آماليه، رغم أنه من شيوخ الشيعة وعلماهم، غير أننا نجد منه محاولة جديدة، يريد من ورائها أن يثبت أن أصول المعتزلة مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن كلام غيره من أئمة الشيعة وغيرهم، وذلك حيث يقول في المجلس العاشر «ج ١ ص ١٠٣، ١٠٤» ما نصه: اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وخطبه وأنها تتضمن من ذلك ما لا مزيد عليه ولا غاية وراء، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول، وروي عن الأئمة من أنبائه عليهم السلام ما لا يكاد يحاط به كثرة ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة، ونتاج للعقول العقيمة، ونحن نقدم علي ما نريد ذكره شيئاً مما يروي عنهم في هذا الباب.. ثم ساق أشياء كثيرة منها ما نصه: «وروي صفوان بن يحيى قال: دخل أبو قرة المحدث علي أبي الحسن الرضا عليه السلام، فسأله عن أشياء من الحلال والحرام، والأحكام والفرائض حتي بلغ سؤاله إلي التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا: إن الله قسم الكلام والرؤية، فقسم لموسي عليه السلام الكلام، ولمحمد ﷺ الرؤية، فقال الرضا عليه السلام: فمن المبلغ عن الله إلي الثقلين - الجن والإنس - : أنه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ [طه: ١١]، و ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى: ١١].. أليس محمد نبياً صادقاً؟ قال: بلي. قال: وكيف يجرى رجلي إلي الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله يدعوهم إليه بأمره ويقول: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾، ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾، ﴿ ليس كمثله شيء ﴾.. ثم يقول: سأراه بعيني، وأحيط به علماً، ألا تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر. قال أبو قرة: فإنه يقول ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ * عند سدره المنتهى ﴿ [النجم: ١٣-١٤].. قال عليه السلام: ما قبل هذه الآية يدل علي ما رأى حيث يقول: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾

[النجم: ١١].. يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأي فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، وآيات الله غير الله، وقد الله تعالي: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ فإذا رآته الأبصار فقد أحاط به العلم، فقال أبو قره: فأكذب بالرؤية؟ فقال الرضا عليه السلام: إن القرآن كذبها وما أجمع عليه المسلمون أنه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثلته شيء».

... ثم قال بعد قليل: «وروي أن شيخاً حضر صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلي الشام، أكان بقضاء من الله تعالي وقدر؟ قال له: نعم يا أخا أهل الشام، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئاً، ولا هبطنا وادياً، ولا علونا تعة، إلا بقضاء من الله وقدر، فقال الشامي: عند الله أحسب عناية يا أمير المؤمنين، وما أظن أن لي أجراً في سعبي إذا كان الله قضاه علي وقدره، فقال له عليه السلام: إن الله قد أعظم لكم الأجر علي مسيركم وأنتم سائرون، وعلي مقامكم وأنتم مقيمون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، وإلا إليها مضطرين ولا عليها مجبرين، فقال الشامي: كيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟ فقال عليه السلام: ويحك يا أخا أهل الشام! لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدرًا حاكماً، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله والنهي ولما كان المحسن أولي بثواب الإحسان من المسئ، والمسئ أولي بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان، وحزب الشيطان، وخصماء الرحمن، وشهداء الزور، وقدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، وأعطى علي القليل كثيراً. ولم يطع مكرهاً، ولم يعص مغلوباً، ولم يكلف عسيراً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتب لعبادٍ عبثاً، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. قال الشامي فما القضاء والقدر الذي كان مسيرنا بهما وعنهما؟ قال: الأمر من الله بذلك والحكم. ثم تلا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُّقَدَّرًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].. فقام الشامي فرحاً مسروراً لما سمع هذا القول، وقال: فرجت عني، فرج الله عنك يا أمير المؤمنين، وجعل يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم الحساب من الرحمن غفراناً
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحساناً

وهكذا يذكر الشريف المرتضي من الأخبار عن أهل البيت وعن غيرهم ما يستدل به علي أن أصول المعتزلة مستمدة من كلامهم، والله يعلم مقدار ما عليه هذه الأخبار من الصحة، وأنا لا أكاد أصدقها بالنسبة لعلي (رضي الله عنه)، فقد روي أبو القاسم

ابن حبيب في تفسيره بإسناده: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سأله سائل عن القدر فقال: دقيق لا تمس فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: بحر عميق لا تخض فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال: سر خفي لله لا تفسه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال علي (رضي الله عنه): يا سائل؛ إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فقال: كما شاء، قال: إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء؟ فقال: كما شاء فقال يا سائل؛ لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته؟ فإن قلت مع مشيئته، ادعيت الشركة معه، وإن قلت: دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته. وإن قلت: فوق مشيئته، كانت مشيئتك غالبية علي مشيئته. ثم قال: أأستسأل الله العافية؟ فقال: نعم، فقال: فعن ماذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به؟ أو من بلاء غيره ابتلاك به؟ قال: من بلاء ابتلاني به فقال: أأستسأل تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟ قال: بلي، قال: تعرف تفسيرها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، علمني مما علمك الله فقال: تفسيره: أن العبد لا قدرة له علي طاعة الله ولا علي معصيته إلا بالله عز وجل، يا سائل؛ إن الله يسقم ويدوي، منه الداء. ومنه الدواء، اعقل عن الله، فقال السائل عقلت، فقال له: الآن صرت مسلماً قوموا إلي أحيكم المسلم وخذوا بيده، ثم قال علي: لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه، ولا أزال أضربه حتي أكسر عنقه، فإنهم يهود هذه الأمة (١).

وبعد... فهذه هي أمالي الشريف المرتضي، وهي وإن كانت لا تصور لنا تفسيراً متناولاً للقرآن كله إلا أنها يمكن أن تكشف لنا عن مبلغ تأثير صاحبها بعقيدته الاعتزالية في بحوثه التفسيرية التي عالجها، كما تكشف لنا عن مبلغ ما كان لفنه الأدبي من الأثر الظاهر في التفسير.

* * *

٣ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (للزمخشري)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير، هو أبو القاسم : محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي ، الإمام الحنفي المعتزلي، الملقب بجار الله ^(١)، ولد في رجب سنة ٤٦٧ هـ (سبع وستين وأربعمائة من الهجرة) بزمخشر - قرية من قري خوارزم - وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم ، ودخل خراسان مرارا عديدة . وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا وسلم له واعترف به . ولقد عظم صيته وطار ذكره حتي صار إمام عصره من غير مدافعة .

ليس عجيباً أن يحظي الزمخشري بكل هذا وهو الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو، واللغة والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتي العلوم . ومن أجل مصنفاته : كتابه في تفسير القرآن العزيز الذي لم يصنف قبله مثله، وهو ما نحن بصدده الآن، والمحاكاة في المسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفائق في تفسير الحديث ، وأساس البلاغة في اللغة، والمفصل في النحو، ورؤوس المسائل في الفقه . . . وغير هذا كثير من مؤلفاته .

قال صاحب وفيات الأعيان : « كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهراً باعتزاله، حتي نقل عنه : أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب، وأول ما صنف كتاب الكشاف، كتب استفتاح الخطبة : « الحمد لله الذي خلق القرآن » فيقال إنه قيل له : متي تركته علي هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه، فغيره بقوله : « الحمد لله الذي جعل القرآن » (جعل) عندهم بمعنى (خلق) ، والبحث في ذلك يطول . ورأيت في كثير من النسخ : « الحمد لله الذي أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لإصلاح المصنف .»

يقول الفيروزآبادي - وصاحب القاموس - فيما علقه علي خطبة الكشاف « قال بعض الطلبة - وأثبتته بعض المعتنن بالكشاف في تعليق له عليه - أنه كان في الأصل كتب : (خلق) مكان : (أنزل) وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة

(١) لقب بذلك لأنه سافر إلي مكة وجاور بها زماناً حتي عرف بهذا اللقب واشتهر به وصار كأنه علم عليه .

الواضحة وهذا قول ساقط جداً وقد عرضته علي أستاذي فأنكره غاية الإنكار، وأشار إلي أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين: أحدهما أن الزمخشري لم يكن أهلاً لأن تفوته اللطائف المذكورة في (أنزل) وفي (نزل) في مفتتح كلامه ووضع كلمة خالية من ذلك. والثاني: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلي الاعتزال، وإنما كان يفتخر بذلك، وأيضاً أتى عقيبها بما هو صريح في المعنى^(١) ولم يبال بأنه قبيح وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام، مختبئة في تربة الإمام أبي حنيفة، خالية عن أثر كشط وإصلاح»^(٢).

وكانت وفاة الزمخشري رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وخمسائة من الهجرة) بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم، بأبيات من جملتها:

فأرض مكة ندِّي الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود^(٣)

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - قصة تأليف الكشاف:

قبل الخوض في التعريف بالكشاف للزمخشري، أرى أن أسوق لك قصة تأليفه وما كان من الزمخشري من التردد بين الإقدام عليه والإحجام عنه أولاً. ثم العزم المصمم منه علي تأليفه حتي أخرجه للناس كتاباً جامعاً نافعا.

أسوق هذه القصة نقلاً عن الزمخشري في مقدمة كشافه، فقد أوضح ما كان منه أول الأمر، وكشف عن السبب الذي دعاه إلي تأليف كتابه في التفسير فقال:

«ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطبروا شوقاً إلي مصنف أطرافاً من ذلك، حتي اجتمعوا إلي مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد والذي حداني إلي الاستعفاء - علي علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة، لان الخوض فيه كفرض العين - ما أرى عليه الزمان من رثاة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر همهم عن أدني عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقي إلي الكلام المؤسس علي علمي البيان والمعاني، فأملت عليهم مسألة في الفوائح وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب

(١) حيث قال: أنشأه كتاباً ساطعاً بيانه.

(٢) كشف الظنون: ١٧٦/٢.

(٣) انظر ترجمة الزمخشري في وفيات الأعيان: ٥٠٩/٢ - ٥١٣، وشذرات الذهب:

١٢١/٤، وطبقات المفسرين للسيوطي ص ٤١.

طويل الذيول والأذنان، وإنما حاولت به التنبيه علي غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه، ومثلاً يحتذونه، فلما صمم العزم علي معاودة جوار الله، والإناحة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها - وقليل ما هم - عطشي الأكباد إلي العثور علي ذلك المملي، متطلعين إلي إيناسه، حراساً علي اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدرجة الحسنية الأمير الشريف، الإمام شرف آل رسول الله، أبي الحسن، بن حمزة بن وهاس - أدام الله ومجده - وهو النكتة والشامة في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، وأعطش الناس كبداً، وألهبهم حشي، وأوفاهم رغبة، حتي ذكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبتني عن الحجاز مع تزامم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي وطى المهامه، والإفادة علينا بخوارزم، ليتوصل إلي إصابة هذا الغرض، فقلت قد ضاقت علي المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهرت العشر التي سميتها العرب دقاقة الرقاب ^(١)، فأخذت في طريقة أخصر من الأولي، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ^(٢) وكان يقدر في أكثر من ثلاثين سنة. وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم. أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني، ونوراً لي علي الصراط يسعي بين يدي ويميني، ونعم المسئول ^(٣).

هذه قصة تأليف الكشاف كما يرويها الزمخشري نفسه.

● قيمة الكشاف العلمية:

وأما قيمة هذا التفسير. فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلوغته، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم. لا سيما ما برز فيه من الإمام بلغة العرب. والمعرفة بأشعارهم وما أمتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة،

(١) وهي ما بين الستين إلي السبعين، وهي معترك المنايا.

(٢) وهي سنتان وأربعة أشهر، أو ثلاثة أشهر وتسع ليال، وفي كشف الظنون: الجزء الثاني ص ١٧٢ أنه فرغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثاني من ربيع الآخر في عام ثمان وعشرين وخمسمائة، وكذا في خاتمة الكشاف.

(٣) الكشاف: ١/١٥-١٩.

والبيان، والإعراب والأدب، ولقد أضفي هذا النبوغ العلمي والأدبي علي تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلق به قلوب المفسرين.

هذا.. وقد أحس الزمخشري إحساساً قوياً بضرورة الإمام بعلمي المعاني والبيان قبل كل شيء، لمن يريد أن يفسر كتاب الله عز وجل، وجهر بذلك في مقدمة الكشاف فقال: «.. ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الأبواب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سبكها، علم التفسير، الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم - كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن - فالفقيه وإن برز علي الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية^(١) أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أو عظم، والنحوي وإن كان أنحي من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدي منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص علي شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة، وبعثته علي تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص علي اسيتضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورجع إليه، ورد ورد عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس، درأ كاللمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً علي الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير رريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلي مضايقه. ووقع في مداحضه ومزالقه»^(٢).

وفي الحقيقة أن الزمخشري قد جمع كل هذه الوسائل التي لا بد منها للمفسر فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم في تفسير القرآن «الكشاف عن حقائقه، المخلص من مضايقه المطلع علي غوامضه، المثبت في مداحضه، المخلص لنكته ولطائف نظمه، المنقر عن فقره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز الحاذق للفضول، وتجنب المستكره

(١) القرية - بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة: أحد فصحاء العرب، واسمه أيوب، والقرية اسم أمه.

(٢) الكشاف: ١٢/١ - ١٥.

الملول، ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء علي قانونه، لكفي به ضالة ينشدها محققة الأخبار، وجوهرة يتمني العثور عليها غاضبة البحار) (١).

ولما علم الزمخشري أن كتابه قد تحلي بهذه الأوصاف قال متحدثاً بنعمة الله :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشافى

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي (٢)

وإذا كان الزمخشري قد اعتز بكشافه، وبلغ إعجابه به إلي حد جعله يقول فيه ما قال من تقيظ له، وإطراء عليه، فأنا نعذره في ذلك ولا نلومه عليه، فالكتاب واحد في بابه، وعلم شامخ في نظر علماء التفسير وطلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلي ما فيه من ناحية الاعتزال، وإليك مقالات بعض العلماء في الكشاف:

● مقالة ابن بشكوال في الكشاف:

وإننا لنجد في مقدمة تفسير أبي حيان، مقارنة للحافظ أبي القاسم بن بشكوال بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري، ووصفاً رقيقاً وتحليلاً عميقاً لكتاب الكشاف يقول فيها:

« وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص. وكتاب الزمخشري أخص وأغوص، إلا أن الزمخشري قائل بالطرفة، ومقتصر من الذؤابة علي الوفرة فرمما سرح له أبي المقادة فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتاده. وربما ناقض هذا المنزع، فثني العنان إلي الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلاماً، ورمي نحو عرضه سهاماً هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض، لإصابته في أكثر تبيانه» (٣).

● مقالة الشيخ حيدر الهروي:

كذلك نجد للشيخ حيدر الهروي - أحد الذين علّقوا علي الكشاف - وصفاً دقيقاً لكتاب الكشاف وهذا نصه:

« .. وبعد، فإن كتاب الكشاف، كتاب عليّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين. اتفقت علي متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعن علي محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين. ما قصر في قوانين التفسر وتهذيب براهينه وتمهيد قواعده وتشديد معاقده.

(٢) كشف الظنون: ١٧٣/٢.

(١) الكشاف: ٦١٠/٢.

(٣) البحر المحيط: ١٠/١.

وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقيير والقطمير، إذا قيس به لا يكون له تلك الطلاوة ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، علي أن مؤلفه يقتفي أثره، ويسأل خبره. وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا افتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال. أصابته عين الكلالة. فالتزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواه فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية.

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة وتعسفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة - عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير، لئلا يوهم بالعجز والتقصير، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادر إلي الأفهام، والخفية التي لا تتسارق إليها الأوهام، بل لا يهتدي إلي حبائله إلا وراد بعد وراد من الأذكياء الحذاق، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده؛ ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده. ونعم ما قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤] . . خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش، فهب أنه اجترأ علي الطعن في أولياء الله تعالى، فكيف اجترأه علي كتبه ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله المجيد.

ومنها: أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بني علي الهزل والفكاهة أساسها. وأورد علي المزاح البارد نبراسها. وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد، لاسيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجيرة، وتارة ينسبهم علي سبيل التعريض إلي الكفر والإلحاد، وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار. (١)

● مقالة أبي حيان:

ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٩) من

(١) كشف الظنون: ٢/ ١٧٦، ١٧٧.

سورة النمل: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْ يَكُنَّا قَوْمًا يَعْلَمُونَ مَا اشْهَدْنَا مِنكُم مِّمَّا كَفَرْتُمْ إِنَّا كَانُوا إِتْرَافًا﴾ . . . يتعقب الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ . . . ثم يصفه بقوله: «وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلي مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت علي ما فيه مما يجب تجنيبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف علي كتابي هذا، وينتبه علي ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:

ولكنه فيه مجال لناقد	وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً	ويعزو إلي المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة	ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة	بتكثير ألفاظ تسمي الشقاشقا
يقول فيها الله ما ليس قائللاً	وكان محباً في الخطابة وامقا
ويخطئ في تركيبه لكلامه	فليس لما قد ركبوه موافقا
وينسب إبداء المعاني لنفسه	ليوهم أغمارا وإن كان سارقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنه	يجوز إعراباً أبي أن يطابقا
وكم بين من يؤتي البيان سليقة	وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للألفاظ حتي يديرها	لمذهب سوء فيه أصبح مارقا
فيا خسره شيخ تخرق صيته	مغارب تخريق الصبا ومشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة	لسوف يري للكافرين مرافقا (١)

وأحسب أن القارئ لا يفوته أن يدرك ما في الوصف من قسوة علي الزمخشري ، وما فيه من اتهامه بقلة بضاعته في البيان والعربية، مع أنه سلطان هذه الطريقة في التفسير غير مدافع .

● مقالة ابن خلدون:

وهذا هو العلامة ابن خلدون ، نجده عندما تكلم عن القسم الثاني من التفسير وهو ما يرجع إلي اللسان، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب . يقول: «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في

العقائد، فيأتي بالحجاج علي مذهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكانته، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك علي المذاهب السنية، محسناً للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه، وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزييفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية علي ما يراه أهل السنة، لا علي ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم» (١).

● مقالة التاج السبكي:

وأخيراً.. فهذا هو العلامة تاج الدين السبكي يقول في كتابه «معيد النعم ومبید النقم»: «واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متاجر يبدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسئ أدبه علي أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعني والده تقي الدين السبكي - يقرأه فإذا انتهى إلي كلامه في قوله تعالي في سورة التكوير الآية (١٩): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها (سبب الانكشاف، عن إقراء الكشاف) وقال فيها: قد رأيت كلامه علي قوله تعالي ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣] (٢) وكلامه في سورة التحريم (٣) وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها علي خير خلق الله تعالي، سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة» (٤).

هذه هي شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه. ومهما يكن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١.

(٢) في الآية (٤٣) من سورة التوبة وفيها يقول الزمخشري: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت (انتهى من الكشاف: ج ٢ ص ٣٤ - طبع الأميرية سنة ١٣١٨ هـ).

(٣) حيث يقول عند تفسيره للآية (١) من سورة التحريم: ﴿لَمْ تُحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ .. إلخ.. وكان هذا زلة منه، لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله (انتهى من الكشاف ج ٣ ص ١٩٨ - طبع الأميرية سنة ١٣١٨ هـ).

(٤) النماذج الخيرية ص ٣١٠.

من شيء ، فالكل مجمع على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه، ومن أجلها طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيض واعتني الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن يميز لما جاء فيه من الاعتزال ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محش وضح ونقح واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وأنقد، ومن مختصر لخص وأوجز.

ولا أطيل بذكر الكتب التي عني بها أصحابها بهذه النواحي، ويكفي أن أقول: إن من أهم الحواشي علي تفسير الكشاف، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي، المتوفي سنة ٧٤٣هـ «ثلاث وأربعين وسبعمئة من الهجرة» وهي تقع في ست مجلدات كباراً، وهي التي أشار إليها ابن خلدون في مقالته السابقة. وقد سماها صاحبها «فتوح الغيب، في الكف عن قناع الريب» ومن يريد الوقوف علي كل ما كتب علي الكشاف ليرجع إلي كشف الظنون (ج ٢ ص ١٧٣ - ١٧٧) وسيرها كثيرة، كثرة يضيق المقام عن ذكرها.

هذا.. وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتي من خصومه، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التي أغرب العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات، لدليل قاطع علي أنه تفسير في أعلي القمة.

وليس عجيباً أن يكون الكشاف كذلك وهو أول كتاب في التفسير كشف لنا علي سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعني الذي يفهم من التركيب اللفظي. كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع لا يتفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين وإذا كان الزمخشري قد تأثر في تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلي المعاني التي تشهد لمذهبه، أو تأولها بحيث لا يتنافي معه علي الأقل فإنه في محاولاته هذه قد برهن بحق علي براعته وقوة ذهنه، وصور لنا مقدار ما كان من التأثير والتأثر بين التفسير وهوي العقيدة وما كان لنا بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير، تأثراً بمذهبننا السني، وكراهة لمذهب المعتزلة، وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السنة عليه - فيما عدا ناحيته الاعتزالية - واعتماد معظم مفسريهم عليه وأخذهم منه.

فالكشاف - والحق يقال - قد بلغ في نجاحه مبلغاً عظيماً، ليس فقط لأنه لا يمكن الاستغناء عنه في بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة، بل لأنه استطاع أيضاً أن يكون

معترفاً به من الأصدقاء والخصوم علي السواء ككتاب أساسي للتفسير، وأن يأخذ طابعاً شعبياً يغري الكل ويتسع للجميع.

وكما اعتبرنا تفسير الطبري ممثلاً للقمة العالية في التفسير بالمأثور فأطنبنا في وصفه وأطلنا الكلام عليه، فهنا كذلك سنعتبر الكشاف للزمخشري القمة العالية للتفسير الاعتزالي، لأنه الكتاب الوحيد من تفاسير المعتزلة الذي وصل إلينا متناولاً للقرآن كله، وشاملاً للأفكار الاعتزالية التي تتصل بالقرآن الكريم باعتباره أصل العقيدة، ومعتمد ما يتشعب عنها من آراء وأفكار، ولهذا أراني مضطراً إلي الإطناب والإفاضة في كلامي عن هذا التفسير، ودراستي له من جميع نواحيه بمقدار ما يفتح الله.

● اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن:

عندما يلقي الإنسان نظرة فاحصة علي العمل التفسيري الذي قام به العلامة الزمخشري في كشافه، يظهر له من أول وهلة، أن المبدأ الغالب عليه في جهوده التفسيرية، كان في تبين ما في القرآن من الثروة البلاغية التي كان لها كبير الأثر في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله، والذي يقرأ ما أورده الزمخشري عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، يري أن الزمخشري كان يحرص كل الحرص علي أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه، وإنا لنكاد نقطع - إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان - بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالاً في جهوده في هذا الصدد من تفسير الزمخشري.

ولقد كانت لعناية الزمخشري بهذه الناحية قي تفسيره من الأثر بين المفسرين وبين مواطنيه من المشاركة ما هو واضح بين.

أما أثره بين المفسرين، فإن كل ما جاء بعده منهم - حتي من أهل السنة - استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون إليها لولاه، فأوردوا في تفسيرهم ما ساقه الزمخشري في كشافه من ضروب الاستعارات، والمجازات والأشكال البلاغية الأخرى، واعتمدوا ما نبه عليه الزمخشري من نكات بلاغية، تكشف عما دق من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه وليس عجيباً أن يعتمد خصوم الزمخشري كغيرهم علي كتاب الكشاف وينظروا إليه كمرجع مهم من مراجع التفسير في هذه الناحية، بعد ما قدروا هذه الناحية البلاغية في تفسير القرآن، وبعد ما علموا أن الزمخشري هو سلطان هذه الطريقة غير مدافع.

وأما أثره بين مواطنيه من المشاركة، فإنهم أخذوا عنه هذا الفن البلاغي وبرعوا فيه،

حتى سبقوا من عداهم من المغاربة . وقد بين ابن خلدون في مقدمته - عند الكلام عن علم البيان - ما لتفسير الزمخشري من الأثر في براعة المشاركة في هذا الفن فقال :

« .. وبالجملة ، فالمشاركة علي هذا الفن أقوم من المغاربة . وسببه - والله أعلم - أنه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرنا . أو نقول : لعناية العجم - وهم معظم أهل المشرق - بتفسير الزمخشري وهو كله مبني علي هذا الفن وهو أصله (١) » .

ثم إننا نستعرض هذه الروح البلاغية التي تسود في تفسير الزمخشري فنشهدا واضحة من أول الأمر عندما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٢) من سورة البقرة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .. فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التي تجوز في محل هذه الجملة من الإعراب ، نبه علي أن الواجب علي مفسر كلام الله تعالى أن يلتفت للمعاني ويحافظ عليها ، ويجعل الألفاظ تبعاً لها ، فقال ما نصه : « .. والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه الحال صفحاً وأن يقال : إن قوله: ﴿ أَلَمْ ﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها . ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ جملة ثانية و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثالثة و ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جرى بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولي معتنقة لها .. وهلم جراً إلي الثالثة والرابعة . بيان ذلك : أنه نبه أولاً علي أنه الكلام المتحدي به . ثم أشير إليه بأنه الكتاب المبعوث بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدي وشداً من أعضاده ، ثم نفي عنه أنه يتشبه به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة . وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك؟ فقال : في حجة تتبختر اتضاحاً ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً . ثم أخبر عنه بأنه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله ، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السوي ، من نكتة ذات جزالة ، ففي الأولى : الحذف ، والرمز إلي الغرض بألطف وجه وأرشفه ، وفي الثانية : ما في التعريف من الفخامة . وفي الثالثة : ما في تقديم الريب علي الظرف . وفي الرابعة : الحذف ، وضع المصدر الذي هو ﴿ هُدًى ﴾ موضع الوصف الذي هو ﴿ هَادٍ ﴾ وإيراده

منكراً، والإيجاز في ذكر ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ زادنا الله اطلاعاً علي أسرار كلامه، وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه» (١).

● تذرعه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي:

كذلك نري الزمخشري - كغيره من المعتزلة - إذا مر بلفظ يشته عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعني الظاهر، وأن يثبت للفظ معني آخر موجوداً في اللغة.

فمثلاً نراه عندما تعرض لتفسير قوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجِوهُ يَوْمئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ .. يتخلص من المعني الظاهر لكلمة (ناطرة)، لأنه لا يتفق مع مذهبه الذي لا يقول برؤية الله تعالى . ونراه يثبت له معني آخر هو التوقع والرجاء، ويستشهد علي ذلك بالشعر العربي فيقول ما نصه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ : تنظر إلي ربها خاصة لا تنظر إلي غيره، وهذا معني تقديم المفعول، ألا تري إلي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢] . ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] .. ﴿إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ﴿وَأِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨] .. ﴿إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] (٢) .. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠] كيف دل فيها التقديم علي معني الاختصاص ومعلوم أنهم ينظرون إلي أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفي محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاخصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال ، فوجب حمله علي معني يصح معه الاختصاص . والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلي فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معني التوقيع والرجاء ومنه قوله القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدني نعماً

وسمعت سروية (٣) مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلي مقائلهم تقول : عينتي نويظرة إلي الله وإليكم) والمعني : أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه» (٤).

● اعتماده علي الفروض المجازية وتذرعه بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نري الزمخشري يعتمد في تفسيره علي الفروض المجازية في الكلام الذي يبدو في حقيقته بعيداً وغريباً.

(٢) وفي مواضع أخرى من القرآن

(٤) الكشاف: ٥٠٩/٢.

(١) الكشاف: ٩٢/١ - ٩٤.

(٣) لعلها نسبة إلي سرو: محلة حمير

فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ .. الآية، يقول ما نصه: «هو يريد بالأمانة الطاعة، فعظم أمرها، وفخم شأنها، وفيه وجهان:

أحدهما: أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال، قد انقادت لأمر الله عز وجل انقياد مثلها، وهو ما يتأتي من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها، حيث لم تمتنع علي مشيئته وإرادته إيجاباً وتكويناً، وتسوية علي هيئات مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال ﴿قَالْنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].. وأما الإنسان، فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات وتليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه - وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها وتليق بها من الانقياد وعدم الامتناع. والمراد بالأمانة: الطاعة، لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء. وعرضها علي الجمادات وإبائها وإشفاقها مجاز. وأما حمل الأمانة، فمن قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، تريد أنه لا يؤديها إلي صاحبها حتي تزول عن ذمته ويخرج عن عهدها، لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها وهو حاملها، ألا تراهم يقولون: ركبته الديون ولي عليه حق.. فإذا أداها لم تكن راكبة له ولا حاملاً لها. ونحوه قولهم: لا يملك مولاي لمولي نصراً، يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها الخاذل، ومنه قول القائل:

أخوك الذي لا تملك الحس^(١) نفسه وترفض عند المحفظات الكتائف

أي لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده، بل يبذل ذلك ويسمح به. ومنه قولهم: ابغض حق أخيك، لأنه إذا أحببه لم يخرج به إلي أخيه ولم يؤده، وإذا أبغضه أخرجه وأداه. فمعني ﴿فَأَبِينِ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]: فأبين إلا أن يؤديها وأبي الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أدأؤه.

والثاني: أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله، أنه عرض علي أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه أن يتحمّله ويستقل به، فأبى حمّله والإستقلال به، وأشفق منه، وحمله الإنسان علي ضعفه ورخاؤه قوته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها: ونحو هذا الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا علي طرقهم وأساليبهم. من ذلك قولهم: «لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج» وكم لهم من

(١) الحس: مصدر قولك: حس له: أي دق له، والبيت لذى الرمة.

أمثال علي ألسنة البهائم والجمادات، وتصور مقابلة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقبل وعلي حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة، وصعوبة أمرها، وثقل حملها والوفاء بها.

وهنا تقوم أمام الزمخشري صعوبات ومشاكل يصورها لنا في سؤاله «فإن قلت قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت علي رأي واحد: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخري، لأنه مثلت حاله في تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضي علي أحدهما، بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهة، وكل واحد من الممثل والممثل به شئ داخل تحت الصحة والمعرفة، وليس كذلك ما في هذه الآية، فإن عرض الأمانة علي الجماد وإبائه وإشفاقه محال في نفس غير مستقيم، فكيف صح بناء التمثيل مع المحال؟ وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول».

ولكن الزمخشري لا يقف طويلاً أمام هذه الصعوبات، بل نراه يتخلص منها بكل دقة وبراعة حيث يقول: «قلت الممثل به في الآية، وفي قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب، وفي نظائره، مفروض، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله، بحاله المفروضة لو عرضت علي السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها»^(١).

ثم إن هذه الطريقة التي يعتمد عليها الزمخشري في تفسيره - أعني طريقة الفروض المجازية، وحمل الكلام الذي يبدو غريباً في ظاهره علي أنه من قبيل التعبيرات التمثيلية أو التخيلية - قد أثارت حفيظة السني ابن المنير الإسكندري عليه، فاتهمه بأشنع التهم في كثير من المواضع التي تحمل هذا الطابع، ونسبه فيها إلي قلة الأدب وعدم الذوق.

فمثلاً عندما يعرض الزمخشري لقوله تعالي في الآية (٢١) من سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .. نراه يقول: (هذا تمثيل وتخيل كما مر في قوله تعالي: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ وقد دل عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ .. والغرض توبيخ الإنسان علي قسوة قلبه وقلة تخشعه، عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره»^(٢).

ولكن هذا قد أغضب ابن المنير علي الزمخشري فقال معقبا عليه: «وهذا مما تقدم

إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية، حيث سمي الله هذا مثلاً، ولم يقل: تلك الخيالات نضربها للناس؟ ألهمنا الله حسن الأدب معه، والله الموفق» (١).

ولكن الزمخشري ولع بهذه الطريقة، فمشي عليها من أول تفسيره إلي آخره، ولم يقبل المعاني الظاهرة التي يجوزها أهل السنة، بل ويرونها أقرب إلي الصواب من غيرها، وهو في كل ما يذكر من المعاني لا يعدم مثلاً عربياً سائراً. أو بيتاً من الشعر القديم يشهد لما يقوله، كما أنه لا ينفك عن التنديد بأهل السنة الذين يقبلون هذه المعاني الظاهرة ويقولون بها، وكثيراً ما ينسبهم من أجل ذلك إلي أنهم من أهل الأوهام والخرافات (٢). وإليك بعض الأمثلة لتقف علي مقدار تمسكه بهذه الطريقة.

ففي سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (٢٥٥): ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾. يذكر الزمخشري أربعة أوجه في معني الكرسي يقول في الوجه الأول منها: إن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا ععود، ولا قاعد، كقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]. من غير تصور قبضة وطبي ويمين وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن، ألا تري إلي قوله: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٣).

وبطبيعة الحال لم يرتض ابن المنير هذا الكلام فتعقبه بقوله: «قوله في الوجه الأول: إن ذلك تخييل للعظمة، سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإصرار، فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق فإن يكن معني ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها في الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب» (٤).

وفي سورة الأعراف عند قوله تعالي في الآيتين (١٧٢، ١٧٣): ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ يقول مانصه: وقوله: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ من باب التمثيل ومعني ذلك: أنه نصب لهم الأدلة علي ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين

(١) هامش الكشاف: ٤٤٩/٢.

(٢) انظر ما قاله عند قوله تعالي في سورة آل عمران: ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران: ٣٦) - (جا ص ٣٠٢).

(٣) الكشاف: ٢٧٨/١ - ٢٧٩.

(٤) المرجع السابق (هامش).

الضلالة والهدي، فكأنه أشهدهم علي أنفسهم وقررهم، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ وكأنهم قالوا: بلي أنت ربنا، شهدنا علي أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالي ورسوله عليه السلام وفي كلام العرب، ونظيره قوله تعالي ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ١] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].. وقوله:

إذا قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ربح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعني^(١).

ولكن ابن المنير السني لم يرض هذا من الزمخشري بطبيعة الحال، ولذا تعقبه بقوله: «إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخيل علي كلام الله تعالي فمردود ولم يرد به سمع. وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم أن القاعدة مستقرة علي أن الظاهر ما لم يخالف العقول يجب إقراره علي ما هو عليه، فكذلك أقره الأكثرون علي ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثلاً. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك»^(٢).

ويتصل بهذه الآية السابقة قوله تعالي في الآية (٨) من سورة الحديد: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.. فالزمخشري يميل في تفسير الميثاق هنا إلي المعني الذي حمل عليه أخذ العهد في آية الأعراف، فيقول: «والمعني: وأي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه، وينبهكم عليه، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقيل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان، حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر وأزاح عنكم، فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبية الرسول، فمالككم لا تؤمنون»^(٣).

ولكن ابن المنير السني، يريد أن يحمل أخذ الميثاق الذي في سورة الحديد، علي المعني الذي ارتضاه للفظ (العهد) في سورة الأعراف، ولهذا نراه يرد علي الزمخشري ويشدد عليه النكير فيقول: «وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق علي ما بينه الله في آية غير هذه، إذ يقول تعالي ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولقد يريني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر، والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلاً، ووقوعها بالسمع

(٢) هامش الكشاف: ١/٥١٧.

(١) الكشاف: ١/٥١٧.

(٣) الكشاف: ٢/٤٣٤.

قطعاً، إلي ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخيلاً. فالقاعدة التي تعتمد عليها كي لا يضرك ما يومئ إليه: أن كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع، وجب حمله علي ظاهره. والله الموفق» (١).

ومسألة التمثيل والتخييل يستعملها الزمخشري بحرية أوسع فيما ورد من الأحاديث التي يبدو ظاهرها مستغرباً، وأسوق إليك مثلاً أتى به الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٦) من سورة آل عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.. قال رحمه الله: «وما يروون من الحديث: «ما من مولود إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطعم الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين وكذلك كل من كان في صفتها كقوله تعالى: ﴿لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣].. واستهلاله صارخاً من مسه، تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسّه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلًا، ولو سلط إبليس علي الناس بنخسهم لامتألت الدنيا صراخاً وغياطاً مما يبيلونا به من نخس» (٢).

وبالضرورة لم يرتض ابن المنير هذا الصنيع من خصمه المعتزلي، فنراه يتورك عليه بقوله: «أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق علي صحته، فلا محيص له إذن عن تعطيل كلامه عليه السلام بتجميله ما لا يحتمله جنوحاً إلي اعتزال منتزع، في فلسفة منتزعة، في الحاد، ظلّمات بعضها فوق بعض. وقد قدمت عند قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ما فيه كفاية. وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتي بقرها، وذكر في قلوبهم حتي حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيّل، كما قال في هذا الحديث. ثم نظيره بتخييل ابن الرومي في شعره جراً وسوء أدب، ولو كان معني ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب. ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن علي بعد أن يكون تمثيلاً أما وهو واقع مشاهد فلا وجه لحمله علي التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوي الوبيل» (٣).

(٢) الكشاف: ٣٠٢/١، ٣٠٣.

(١) هامش الكشاف: ٤٣٤/٢.

(٣) هامش الكشاف: ٣١٢/١.

● مبدأ الزمخشري في التفسير عندما يصادم النص القرآني مذهبه :

والمبدأ الذي يسيير عليه الزمخشري في تفسيره ويعتمد عليه عندما تصادمه آية تخالف مذهبه وعقيدته، هو حمل الآيات المتشابهة علي الآيات المحكمة، وهذا المبدأ قد وجده الزمخشري في قوله تعالى في الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ . . ف (المحكمات) هي التي أحكمت عباراتها، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. و(المتشابهات) هي التشبهات المحتملات و (أم الكتاب) هي أصله الذي يحمل عليه المتشابه، ويرد إليه، ويفسره (١).

علي هذا التفسير جري الزمخشري في كشفه عندما تعرض لهذه الآية. وهو تفسير لا غبار عليه، كما أن هذا المبدأ - أعني مبدأ حمل الآيات المتشابهات علي الآيات المحكمة - مبدأ سليم يقول به غير الزمخشري أيضا من علماء أهل السنة، ولكن الذي لا نسلمه للزمخشري هو تطبيقه لهذا المبدأ علي الآيات التي تصادمه، فإذا مر بآية تعارض مذهبه، وآية أخرى في موضوعها تشهد له بظاهاها، نراه يدعي الاشتباه في الأولي والإحكام في الثانية، ثم يحمل الأولي علي الثانية وبهذا يرضي هواه المذهبي، وعقيدته الاعتزالية.

وقد مثل الزمخشري لحمل المتشابه علي المحكم ورده إليه بقوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ . وقوله في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ . . فهو يري أن الآية الأولي محكمة، والآية الثانية متشابهة، وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولي، ولا سبيل إلي ذلك إلا بحملها عليها، وردا إليها.

ومثل أيضا بقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلُوبُنَا﴾ . وقوله في الآية (١٦) من سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا﴾ . فهو يري أن الآية الأولي محكمة، والآية الثانية متشابهة، فلا بد من حمل الثانية علي الأولي ليتفق المعني ويتحدد المراد.

ثم لا ينتهي الزمخشري من تطبيقه لهذا المبدأ حتي يتساءل عن السبب الذي من أجله لم يكن القرآن كله محكما، وعن السر الذي من أجله جعل الله في القرآن آيات

(١) الكشاف: ١/ ٢٩٤.

محتملات متشابهات؟ ولكن الزمخشري يجيب بنفسه علي ما تساءل عنه فيقول: «لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلي الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلي معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت علي الحق والمتزلزل فيه، ولما في تفادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلي المحكم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف، وإذا رأي فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه علي سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه، وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلي معتقده وقوة في إيقانه»^(١).

وهذا الجواب في منتهي القوة والسداد، وابن المنير السني يمر علي كل هذا الكلام فلا يري فيه أدني ناحية من نواحي الاعتزال، لكنه يغضب علي الزمخشري فقط من أجل أنه بعد قوله تعالي: ﴿وَجِوْهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣] من قبيل المتشابه الذي يجب حمله علي آية الأنعام ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فيقول معقّباً عليه: قال محمود: «المحكّمات التي أحكمت عباراتها... إلخ» قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي علي وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي، وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالي، بناء علي زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال علي وقوع الرؤية كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ مالوا إلي جعله من المتشابه حتى يبروده بزعمهم إلي الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم ولآية، قوله تعالي: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ثم جمع ابن المنير بين الآيتين بما يتفق مع مذهبه السني. ثم قال وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، والأخرى التي هي قوله تعالي: ﴿أْمُرْنَا مَتَرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾، فلا يناع الزمخشري في تمثيل المحكم والمتشابه بهما»^(٢).

● انتصار الزمخشري لعقائد المعتزلة:

هذا. وإن الزمخشري لينتصر لمذهبه الاعتزالي، ويؤيده بكل ما يملك من قوة الحجة وسلطان الدليل، وإننا لنلمس هذا التعصب الظاهر في كثير مما أسلفنا من النصوص، وفي غيرها مما نسوقه لك من الأمثلة. وهو يحرص كل الحرص علي أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلي أن يتأول ما كان منها معارضاً له.

● انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٩٣) من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

(٢) الانتصاف هامش الكشاف: ٩٢٤.

(١) الكشاف: ١/٢٩٤.

مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٥٨﴾ ..
 نجده يجعل لهذه الآية أهمية كبيرة في نصرة مذهبه، ويتب بها علي خصومه من أهل
 السنة، ويندد بهم حيث يقولون بجواز مغفرة الذنب وإن لم يتب منه صاحبه، وبأن
 صاحب الكبيرة لا يخلد في النار فيقول مستغلا لهذه الفرصة المواتية للاستهزاء من
 خصومه السنين: « وهذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم
 وخطب غليظ، ومن ثم روي عن ابن عباس ما روي من أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير
 مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمول
 منهم علي الاقتداء بسنة الله في التخليط والتشديد، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة،
 وناهيك بمحو الشرك دليلاً، وفي الحديث: «لزال الدنيا أهون علي الله من قتل امرئ
 مسلم». وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرك وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه» وفيه:
 «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه» وفيه: «من أعان علي قتل مؤمن
 بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله» والعجب من قوم
 يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس
 بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم، وما يخيل
 إليهم منهاهم، أن يطمعوا في العفو، عن قاتل المؤمن بغير توبة: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ
 أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].. ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل
 الخطأ - لما عسي يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ - فيه حسم
 للأطماع وأي حسم، ولكن لا حياة لمن تنادي .، فإن قلت: هل فيها دليل علي خلود
 من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناوله قوله: ﴿ومن يقتل﴾
 أي أقاتل كان، من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرج الدليل
 فمن ادعي إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله» (١).

وفي سورة الأنعام عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٥٨) ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ
 آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ نجد
 الزمخشري يمسك بهذه الآية، ويستدل بها علي صحة عقيدته في أن الكافر والعاصي
 سواء في الخود في النار فيقول: «والمعني أن أشرطة الساعة إذا جاءت - وهي آيات
 ملجئة مضطرة - ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة
 إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسية في إيمانها خيراً، فلم يفرق -
 كما تري - بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت
 في وقته ولم تكسب خيراً، ليعلم أن قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ جمع

بين قرينين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك» (١).

● انتصاره لمذهب المعتزلة في الحسن والقبح العقليين:

ولما كان الزمخشري يقول بمبدأ المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، كان لابد له أن يتخلص من ظاهر هذين النصين المنافيين لمذهبه، وهما قوله تعالي في الآية (١٦٥) من سورة النساء ﴿رَسُولًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وقوله في الآية (١٥) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.. فنراه في الآية الأولى يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: «كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوبون بما نصه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلي المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلي المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها»؟

ثم يجيب هو عن هذا السؤال فيقول: «قلت: الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون علي النظر، كما تري علماء أهل العدل والتوحيد، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف، وتعليم الشرائع فكان إرسالهم إزاحة للعلة، تمييزاً لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا لما وجب الانتباه له» (٢).

وعندما تكلم عن الآية الثانية نراه يستشعر مثل ما استشعر في الآية الأولى، ويسأل ويجيب بمثل ما سأل عنه وأجاب به في الآية الأولى فيقول: «فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه علي النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا علي النظر في أدلة العقل» (٣).

● انتصاره لمعتقد المعتزلة في السحر:

ثم إن الزمخشري - كغيره من المعتزلة - لا يقول بالسحر ولا يعتقد في السحرة، ولهذا نجد عندما يفسر سورة الفلق التي تشهد لأهل السنة ولا تشهد له، لا تخونه مهارته ولا تعوزه الحيلة التي يخرج بها في تفسيره من هذه الورطة الصريحة، كما نجده يشدد النكير ويغرق في الاستهزاء والسخرية بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر، وذلك حيث يقول: «النفاثات: النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في الخيوط، وينفثن، عليها ويرقين. والنفث: النفخ من غير

ريق. ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شئ ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به علي بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل، قد يفعل عند ذلك فعلا علي سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت علي الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاغ إليهن إلي نفثهن والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلي ذلك ولا يعبأون به. فإن قلت: فما معني الاستعاذة من شرهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك.
والثاني: أن يستعاذ من فنتتهن الناس بسحرهن وما يخذعهم به من باطلهن.
والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.
ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك» (١).

وفي الحق أن هذه محاولة عقلية عنيفة من الزمخشري يريد من ورائها أن يحول الحقائق التي ورد بوقوعها الكتاب والسنة. إلي ما يتناسب مع هواه وعقيدته. ولقد دهش ابن المنير من هذه المحاولة وحكم علي الزمخشري بأنه: (استفزه الهوي حتي أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويغطي بكفه وجه الغزالة) (٢).

● انتصاره لمذهب المعتزلة في حرية الإرادة وخلق الأفعال:

ولقد تأثر الزمخشري برأيه الاعتزالي في حرية الإرادة وخلق الأفعال ولكنه وجد ما يصادمه من الآيات الصريحة في أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالي، فأراد أن يتفادي هذا التصادم ويعمل علي الخروج من هذه الورطة الكبرى، فساعده علي ما أراد هذا المعني الذي تمسك به المعتزلة ونفعهم في كثير في المواضع. وهو (اللطف) من الله، فباللطف منه تعالي يسهل عمل الخير علي الإنسان وبسلبه يصعب عليه عمل الخير.

هذا (اللطف) وما يتصل به من (التوفيق) ساعد الزمخشري علي الخروج من الضائقة التي صادفته عندما تناول بالتفسير تلك الآيات القرآنية الصريحة في أن الله يخلق أفعال العباد خيرا وشرها، والتي يعتبرها أهل السنة سلاحاً قويا لهم ضد هذه النظرية الاعتزالية.

ففي سورة آل عمران عند قوله تعالي في الآية (٨): ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.. نجد الزمخشري يستشعر من هذه الآية أن قلوب العباد بيد الله يقبلها كيف

يشاء، فمن أراد الله هدايته هداة، ومن أراد ضلاله أضله ولكنه يفر من هذا الظاهر فيقول: ﴿ لا تَزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿ بعد إذ هَدَيْتَنَا ﴾ وأرشدتنا لدينك أو لا تمنعنا أطفافك بعد إذ لطفت بنا» (١).

وفي سورة المائدة عند قوله تعالى في الآية (٤١) ﴿ وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .. نجد الزمخشري لا يجزع من هذا الظاهر الذي يتشبه به أهل السنة ويتيهون به علي خصومهم ، بل نراه يفسرها حسب هواه ووفق ميده فيقول: ﴿ وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ تركه مفتوناً وخذلاناً . ﴿ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من أطفافه ما يطهر به قلوبهم، لأنهم ليسوا من أهلها، لعلمه أنهم لا تنفع فيهم ولا تنجع: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ [النحل: ١٠٤] . ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قوماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [آل عمران: ٨٦] (٢).

وهكذا نجد الزمخشري بواسطة هذه التأويلات يخضع لمبدئه الاعترافي في الجبر والاختيار مثل هذه المواضع القرآنية التي لم تكن طيبة له . ولكن ابن المنير السكندري لم ترقه هذه التأويلات، ولم يسلم بها لخصمه، فأخذ يناقشه في معني اللطف مناقشة حادة ساخرة، فعندما تكلم الزمخشري عن قوله تعالى في الآية (٢٧٢) من سورة البقرة: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ وتذرع بلفظ (اللطف) تعقبه ابن المنير فقال: «المعتقد الصحيح، أن الله هو الذي يخلق الهدي لمن يشاء هداة، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدي ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه، وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدي إليه كما في الآية فهو مؤول - علي زعم الزمخشري - بلطف الله الحامل للعبد علي أن يخلق هداة، إن هذا إلا اختلاق وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيء في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسئول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا» (٣).

وعندما تكلم الزمخشري عن قوله تعالى في الآية (٣٩) من سورة الأنعام: ﴿ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُصِّرْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾، وقال ﴿ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ ﴾ أي يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به، لأنه ليس من أهل اللطف . ﴿ وَمَنْ يَشَأْ يُصِّرْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي يلطف به، لأن اللطف يجري عليه (٤). عندما قال ذلك تعقبه ابن المنير فقال: «وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أن

(٢) الكشاف: ١/٤١٦.

(٤) الكشاف: ١/٤٥١.

(١) الكشاف: ١/١٩٥.

(٣) الانتصاف (هامش الكشاف): ١/٢٨٥.

الله تعالى لا يخلق الهدي ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تحرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرفعها، وقد اتسع الخرق علي الرقع» (١).

وعندما تكلم الزمخشري عن قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة الإعراف: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، وتأول الهداية هنا بمعنى اللطف والتوفيق كعادته. وتعقبه ابن المنير ورد عليه رداً في غاية التهكم والسخرية فقال: «وهذه الآية - يعني قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ - تكفح وجوه القدرية بالرد فإنها شاهدة شاهدة تامة مؤكدة باللام علي أن المهتدي من خلق الله له الهدي وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدي الله ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدي فهو إذن مهتد وإن لم يهده الله، إذ هدي الله للعبد خلق الهدي له، وفي زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدي ولا يتوقف ذلك علي خلقه. تعالى الله عما يقولون. ولما فطن الزمخشري لذلك جري علي عادته في تحريف الهدي من الله تعالى إلي اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه فأنصف من نفسك، واعرض قول القائل: المهتدي من اهتدي بنفسه من غير أن يهديه الله - أي يخلق له الهدي - علي قوله تعالى حكاية عن قول الموحدون في دار الحق: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾. . وانظر تباين هذين القولين - أعني قول المعتزلي في الدنيا وقول الموحد في الآخرة في مقعد صدق - واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به. وما أراك - والخطاب لكل عاقل - تعدل بهذا القول المحكي عن أولياء الله في دار السلام منوهاً به في الكتاب العزيز، قول قدري ضال تذبذب مع هواه وتعصبه في دار الغرور والزوال نسأل الله حسن المآب والمآل» (٢).

● خصومة العقيدة بين الزمخشري وأهل السنة:

ومن أجل هذا الخلاف العقيدي بين الزمخشري وأهل السنة، نجد الخصومة بينهم حادة عنيفة، كل يتهم خصمه بالزيغ والضلال، ويرميه بأوصاف يسلكه بها في قرن واحد مع الكفرة الفجرة، وتلك - علي ما أعتقد - مبالغة مسفة في الخصومة، ما كان ينبغي لأحد الخصمين أن يخوض فيها علي هذا الوجه. وبخاصة بعد ما عرف من أن كليهما يهدف إلي تنزيه الله عما لا يليق بكماله. وإليك بعض الحملات التي وجهها كل من الخصمين إلي الآخر، لتلمس بنفسك مبلغ هذه الخصومة وتحكم عليها.

(١) الانتصاف (هامش الكشاف): ٤٥١/١.

(٢) الانتصاف (هامش الكشاف): ٤٨٦/١.

* حملة الزمخشري علي أهل السنة:

هذا ... وإن المتبع لما في الكشاف من الجدل المذهبي، ليجد أن الزمخشري قد مزجه في الغالب بشئ من المبالغة في السخرية والاستهزاء بأهل السنة، فهو لا يكاد يدع فرصة تمر بدون أن يحقرهم ويرميهم بالأوصاف المقذعة، فتارة يسميهم الحجر، وأخري يسميهم الحشوية، وثالثة يسميهم المشبهة، وأحياناً يسميهم القدرية، تلك التسمية التي أطلقها أهل السنة علي منكري القدر، فرماهم بها الزمخشري لأنهم يؤمنون بالقدر، كما جعل حديث الرسول الذي حكم فيه علي القدرية أنهم مجوس هذه الأمة منصباً عليهم وذلك حيث قال عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (١٧) من سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْتَهُم صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: «ولو لم يكن في القرآن حجة علي القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ - وكفي به شاهداً - إلا هذه الآية لكفي بها حجة» (١).

كما سماهم بهذا الاسم ورماهم بأنهم يحيون لياليهم في تحمل فاحشة ينسبونها إلي الله تعالي، حيث قال عند تفسيره لقوله تعالي في الآيتين (٩، ١٠) من سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾: «وأما قول من زعم أن الضمير في (زكي) و (دسي) لله تعالي، وأن تأنيث الراجع إلي (من) لأنه في معني النفس، فمن تعكس القدرية الذين يوركون علي الله قادراً هو برئ منه ومتعال عنه، ويحيون لياليهم في تحمل الفاحشة يسبونها إليه» (٢).

والظاهرة العجيبة في خصومة الزمخشري، أنه يحرص كل الحرص علي أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلي ناحية مخالفه في العقيدة من أهل السنة، ففي سورة آل عمران حيث يقول الله تعالي في الآية (١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ .. نجد الزمخشري بعد ما يعترف بأن الآية واردة في حق اليهود والنصارى، يجوز أن تكون واردة في حق مبتدعي هذه الأمة، وينص علي أنهم المشبهة، والحجر، والحشوية، وأشباههم (٣).

وفي سورة يونس حيث يقول الله تعالي في الآية (٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. يقول: «بل سارعوا إلي التكذيب بالقرآن وفاجأوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا علي تأويله

(٢) الكشاف: ٥٤٧/٢.

(١) الكشاف: ٣٢١/٢.

(٣) الكشاف: ٣١٩/١.

ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم .، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ علي التقليد من الحشوية، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كان أضواً من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة - أنكرها في أول وهلة واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب»^(١).

ولقد أظهر الزمخشري تعصباً قوياً للمعتزلة، إلي حد جعله يخرج خصومه السنين من دين الله وهو الإسلام، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٨) من سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ . الآية «فإن قلت: ما المراد بـ (أولي العلم) الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة علي وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد - يريد أهل مذهبه - فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ - يعني في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران ١٩].. قلت: فائدته أن قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ توحيد . وقوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شئ من الدين وفيه أن من ذهب إلي تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلي الجبر الذي هو محض الجبر، لم يكن علي دين الله الذي هو الإسلام.. وهذا بين جلي كما تري»^(٢).

هذه بعض الأمثلة التي يتجلي فيها تعصب الزمخشري لمذهبه الاعتزالي وانتصاره له. ويتضح منها مبلغ إيغاله في الخصومة، ومقدار حملته علي أهل السنة، وهناك غيرها كثير مما أثار عليه خصومه من السنين، فتعقبوه بالمناقشة والتفنيد، وردوا بشكل حاسم علي ما أورده في كشافه من استنتاجات اعتقادية من آي القرآن الكريم، وقالوا: إنها جافة وقائمة علي الرأي الطليق.

ومع ذلك لم يجحدوا ما كان للزمخشري من أثر محمود في التفسير، فنراهم - علي ما بينهم وبينه من خصومة، ورغم ما سيمربك من حملاتهم عليه - يقدرون إلي حد بعيد ما كان له من مجهود خاص في عمله التفسيري الذي يرجع إلي الناحية البلاغية واللغوية، كما نراهم في الغالب يسطون علي كتابه ويأخذون منه ما يعجبون به ويرون أنه عزيز المنال إلا علي الزمخشري.

(١) الكشاف: ٥٨٢/١.

(٢) الكشاف ٢٩٧/١.

● حملة ابن القيم علي الزمخشري :

فهذا هو العلامة ابن القيم، كثيراً ما يثور علي الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي .

فمثلاً نراه يذكر ما فسره به الزمخشري قوله تعالى في الآية (١٧٦) من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ . ثم يقول: «فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً» (١) .

● حملة ابن المنير علي الزمخشري :

ومن الذين خصصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره، قاضي الإسكندرية، أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف) ناقش فيها الزمخشري وجادله في بعض ما جاء في كشافه من أعراب وغيرها، ولكنه ركز مجهوده العظيم في بيان ما تضمنته من الاعتزال، وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشري وتتفق مع هواه .

ويظهر أن القاضي المالكي كان يميل بوجه عام إلي الجدال والنقاش ، فقد قيل : إنه كان بصدد أن يرد علي كتب الإمام الغزالي، تلك الكتب التي لم تكن مقبولة عند المالكية، ولم يصرفه عن قصده إلا أمه التي لم يطب خاطرها بهذه الحرب التي يثيرها ابنها ضد الموتى كما أثارها ضد الأحياء (٢) .

ولكنه مع ذلك فعل هذا مع الزمخشري، واعتقد أنه بعمله هذا قد ثار لأهل السنة من أهل البدعة، وقد صرح بذلك حيث توجه باللوم للزمخشري علي تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمْسَنَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ .

فقال: «فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقا، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً فالحمد لله الذي أهل عبده الفقير إلي التورك عليه، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة» (٣) .

كما اعتقد أنه أدي للمسلمين وللإسلام خدمة عظيمة، كافية لأن تقوم له عذرا أمام الله وأمام الناس عن تخلفه عن الخروج للغزو والجهاد في سبيل الله وذلك حيث يقول بعد تعقيبه علي الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٢) من سورة

(١) إعلام الموقعين: ١/٢٠٢ . (٢) بغية الوعاة : ص ١٦٨ .

(٣) الانتصاف (هامش الكشاف) ١/٢٩٩ .

التوبة: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .. قال أحمد: ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحضير هذا المصنف، فإني تفقّهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز، مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه. بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم»^(١).

وابن المنير - مع شدة خصومته للزمخشري - لا ينسي ما له من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يبدي إعجابه به، لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة التي تنادي بأنه ليس من كلام البشر.. وكثيراً ما يعترف - بتقدير كبير وفي عدالة واعتدال - بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية. فمثلاً عندما تعقب تفسيره لقوله تعالى في الآية (٩١) ﴿ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قِرَاطِينَ تُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .. نجده يقول: «وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز والعمق في آثار معادنه وإبراز محاسنه»^(٢).

وفي سورة يونس عند قوله تعالى في الآية (١١): ﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ ﴾ .. الآية، نجده يثني علي تفسيره لها فيقول: (وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم علي دقة نظره)^(٣).

وفي سورة هود عند قوله تعالى في الآية (٩١): ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ .. أثني علي تفسيره لقوله ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ فقال: «وهذا من محاسن نكته الدالة علي أنه كان ملياً بالحدائق في علم البيان»^(٤).

وعندما بين الزمخشري سب التعبير بقوله تعالى في الآية (٥١) من سورة النحل: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنِينَ ﴾. قال ابن المنير معترفاً بدقة الزمخشري وبراعته: «وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها»^(٥).

ومع كل هذا الاعتراف، فإن ابن المنير يلاحظ علي الزمخشري - أحياناً أنه سيء

(١) الانتصاف (هامش الكشاف): ٥٧٢/١.

(٢) الانتصاف (هامش الكشاف): ٤٦٠/١، طبع الأميرية سنة ١٩١٨.

(٣) الانتصاف (هامش الكشاف): ٥٧٦/١.

(٤) الانتصاف (هامش الكشاف): ٦١١/١.

(٥) الانتصاف (هامش الكشاف): ٦٨٦/١.

النية فيما يقول، فمن ذلك أن الزمخشري لما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة الرعد: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُوهُمْ أَمْ تَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ وختم تفسيره للآية بقوله: «وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها، مناد علي نفسه بلسان طلق ذلق: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه فتبارك الله أحسن الخالقين» لما قال الزمخشري هذه المقالة، لم يتركها ابن المنير تمر بدون أن ينبه علي ما فيها فقال: «هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلاً، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن، فتنبه لها. وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر علي لسانه وقلبه ويستحسنه، وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ» (١).

وفي الوقت نفسه لم يترك ابن المنير فرصة تمر بدون أن يكيل للزمخشري بمثل كيله من الإقذاع في القول والسخرية به وبأمثاله من المعتزلة، فنراه يرد هجمات الزمخشري التي يشنها علي أهل السنة بعبارات شديدة يوجهها إلي الزمخشري وأصحابه، مع تحقيره له ولهم، واستبشاعه لتفسيره وتفسيرهم.

فمثلاً في سورة آل عمران تكلم الزمخشري عن قوله تعالى في الآية (١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ .. الآية، ونوه بأنه وأصحابه أهل العدل والتوحيد، وإنهم أولوا العلم المرادون بالآية، وصرح - أو كاد - بخروج أهل السنة من ملة الإسلام. عندما تكلم الزمخشري بهذا كله عقب عليه ابن المنير بتهكمه اللاذع، وسخريته الفاضحة فقال: «وهذا تعريض بخروج أهل السنة من ربة الإسلام، بل تصريح، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين علي لسان نبيهم الكريم ﷺ بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيد فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو، واقتصروا علي أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم، لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرابية. وتلك هي المعبر عنه شرعاً بالكسب في مثل قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشوري: ٣٠].

هذا إيمان القوم وتوحيدهم، لا كقوم يغيرون في وجه النصوص فيجحدون الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم بما شاءوا من أفعال علي خلاف مشيئة ربهم، محاذاة ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية

أنفسهم: أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى، ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين.

ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الإنصاف إلي جهالة القدرية وضلالها لا نبعث إلي حدائق السنة وظلالها، ولخرجت من مزلق البدع ومزالها - ولكن كره الله انبعاثهم - ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن، وأولي بالدخول في أولي العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم علي اسم الله عز وجل»^(١).

وفي سورة المائدة عند قوله تعالى في الآية (٤١) ﴿ وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ﴾ . الآية نراه يعين في السخرية من المعتزلة، ويغرق في النكير علي تفسير الزمخشري لهذه الآية. وذلك حيث يقول: «كم يتلجلج والحق أبلج. هذه الآية - كما تراها - منطبقة علي عقيدة أهل السنة في أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب، وأن الواقع من الفتن علي خلاف إرادته، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد، ولكن لم يقع، فحسبهم هذه الآية وأمثالها - لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله: لم يرد الله أن يمنحهم أطفافه، لعلمه أن أطفافه لا تنجع فيه ولا تنفع، فلطف من ينفع؟ وإرادة من تنجع؟ وليس وراء الله للمرء مطمع»^(٢).

ولقد يتطرف ابن المنير فيرمي خصومه من المعتزلة بالشرك، ففي سورة يونس عند تفسير الزمخشري لقوله تعالى في الآية (٣١) ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ . الآية، نري ابن المنير يقول: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية، الزاعمين أن الأرزاق منقسمة فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا: ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٣).

وإننا لنري ابن المنير يعتمد في حملاته الساخرة القاسية التي يحملها علي الزمخشري علي ما يعتمد عليه الزمخشري في حملاته علي أهل السنة، أو علي

(١) الانتصاف (هامش الكشاف): ٢٩٨/١.

(٢) الانتصاف (هامش الكشاف): ٤١٦/١.

(٣) الانتصاف (هامش الكشاف): ٥٨١/١ - والآية من سورة يونس: ٤٢.

الأصح يأخذ من كلام الزمخشري نفسه ما يبرر به موقفه الذي وقفه منه للرد علي اعترالاته، فحيث يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى في الآية (٧٣) من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوْهُمْ جِهَنِمَ وَبَيْسَ الْمَصِيرِ﴾: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهادين جميعاً ولا تحابهم. وكل من وقف منه علي فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن. (١)، عندما يقول الزمخشري هذا، ويرمي من ورائه إلي أن الآية شاملة لخصومه من أهل السنة، نري ابن المنير يستغل هذا الكلام لنفسه ويقلبه علي خصمه المعتزلي فيقول: «الحمد لله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظ عليه أحياناً» (٢).

وقد تبدو علي ابن المنير علائم البشر، وتأخذه نشوة الفرح والسرور عندما يري أن الزمخشري قد ابتعد عن متطرفي المعتزلة، وخالفهم في بعض آرائهم، وأخذ برأي أهل السنة ومثل هذا نراه وإيضاحاً عندما يسر الزمخشري قوله تعالى في الآية (١٨٥) من سورة آل عمران: ﴿كُلِّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوْفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾. حيث قال في تفسير هذه الآية: «فإن قلت: كيف اتصل به - أي بقوله: ﴿كُلِّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ - ﴿وَإِنَّمَا تُوْفُونَ أَجُورَكُمْ﴾. قلت: اتصاله به علي أن كلكم تموتون، ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم علي طاعاتكم ومعاصيكم عقب موتكم وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور. فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروي أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم، لأن المعني أن توفية الأجور وتكملها يكون ذلك اليوم وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور» (٣).

وهنا نري ابن المنير يعترف بأن الزمخشري قد أحسن في مخالفته لأصحابه من المعتزلة، وموافقته لأهل السنة، فيقول: «هذا كما تري - صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم وعذاب، ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة فإنهم يجحدون عذاب القبر، وما هو قد اعترف به» (٤).

● موقف الزمخشري من المسائل الفقهية:

هذا.. وإن الزمخشري - رحمه الله - يتعرض إلي حد ما، وبدون توسع إلي المسائل الفقهية التي تتعلق ببعض الآيات القرآنية، وهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفي.

(٢) الانتصاف (هامش الكشاف) ١/٥٦١.

(٤) الانتصاف (هامش الكشاف) ١/٢٣٩.

(١) الكشاف: ١/٥١٦.

(٣) الكشاف ١/٣٣٩.

ففي سورة البقرة عند قوله تعالى في الآية (٢٢٢): ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ .. يقول: «... وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وروي محمد حديث عائشة رضي الله عنها: أن عبد الله بن عمر سألها: هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت: تشد إزارها علي سفلتها، ثم ليباشرها إن شاء، وما روي زيد بن أسلم أن رجلاً سأل النبي ﷺ ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنك بإعلاها» ثم قال: وهذا قول أبي حنيفة، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «يجتنب شعار الدم وله ما سوي ذلك» وقرئ (يطهرن) بالتشديد، أي يتطهرن بدليل قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ .. وقرأ عبد الله: (حتى يتطهرن) و(و يطهرن) بالتخفيف. والتطهر الاغتسال، والطهر انقطاع دم الحيض وكلتا القراءتين مما يجب العمل به، فذهب أبو حنيفة إلي أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلي أنه لا يقربها حتى تطهر وتطهر فتجتمع بين الأمرين، وهو قول واضح، ويعضده قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ (١).

وعندما فسّر قوله تعالى في الآية (٢٣٧) من سورة البقرة: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ .. قال: «والذي بيده عقدة النكاح الولي، يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رأيي، ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئاً.

أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل هو الزوج وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة» (٢).

وفي سورة الطلاق عند قوله تعالى في الآية (١): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ .. يقول ما نصه «فطلّقوهن مستقبلاً لعدتهن، كقولك: أتيت ليلية بقيت من المحرم أي مستقبلاً لها. وفي قراءة رسول الله ﷺ: «في قبل عدتهم» وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلاً لعدتها.

والمراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق، وأدخله في السنة، وأبعده من الندم، ويدل عليه ما روي عن إبراهيم

النخعي: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتي تنقضي العدة، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة.

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد علي الواحدة في طهر واحد، فأما مفرقاً في الأطهار فلا، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عمر حيث طلق امرأته وهي حائض: «ما هكذا أمرك الله، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً، وتطلقها لكل قرء تطلقته». وروي أنه قال لعمر: «مر ابنك فليراجعها، ثم ليدعها حتي تحيض ثم تطهر، ثم ليطلقها إن شاء، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء». وعند الشافعي رضي الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة، وهو مباح.

فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت. وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت. والشافعي يراعي الوقت وحده^(١).

● موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

ثم إن الزمخشري مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وما يذكره من ذلك إما أن يصدره بلفظ (روي) المشعر بضعف الرواية وبعدها عن الصحة وأما أن يفوض علمه إلي الله سبحانه، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين، وأما أن ينبه علي درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النمل: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾. الآية، نجده يذكر هذه الرواية فيقول: «روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري، وحليهم الأساور والأطواق والقرطة، راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية علي رماك في زي الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشرف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذا رأي وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري، وثقب الدرة ثقباً مستويًا، وسلك في الخرزة خيطاً ثم قالت للمنذر

للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولنك، وإن رأيت بشاً لطيفاً فهو نبي، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبناً الذهب والفضة، وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره علي اللين، وأمر بأولاد الجن - وهم خلق كثير فأقيموا علي اليمين واليسار، ثم قعد علي سريره، والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ، والإنس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث علي اللين فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ وقال: أين الحق؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه، فقال لهم: إن فيه كذا، وكذا، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها فجعل رزقها في الشجرة، وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها في الفواكه، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم قالت: هو نبي وما لنا به طاقة، فشخصت إليه في اثني عشر ألف قبيل تحت كل قبيل ألف» (١).

وفي سورة القصص عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٨) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ .. الآية، قال: «روي أنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتي اجتمع خمسون ألف بناء سوي الأتباع والأجراء، وأمر بطبخ الأجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، فشيدته حتي بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان الباني لا يقدر أن يقوم علي رأسه يبني، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة علي عسكر فرعون فقتلت ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك. ويروي في هذه القصة أن فرعون ارتقي فوقه فرمي بنشابه إلي السماء، فأراد الله أن يفتنهم، فردت إليه ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى، فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه، والله أعلم بصحته» (٢).

فالقصة الأولى: صدرها الزمخشري بلفظ - (روي) المشعر بضعفها والقصة الثانية صدرها أيضا بهذا اللفظ وعقب عليها بقوله: (والله أعلم بصحته) مما يدل علي أنه متشكك في صحة هذه الرواية. وكلتا القصتين علي فرض صحتهما لا مطعن فيهما

(١) الكشاف ٢/ ١٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ١٦٢.

ولا مغز من ورائها يلحق الدين، ولهذا اكتفي الزمخشري بما ذكر في حكمه عليهما. وفي سورة (ص) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾ .. الآيات (٢١) وما بعدها إلي آخر القصة نراه يقول: «كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبتة، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها - وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك - فاتفق أن عين داود وقعت علي امرأة رجل يقال له (أوريا) فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل، فتزوجها - وهي أم سليمان - فقيل له: إنك مع عظيم منزلتك، وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك، وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر علي ما امتحنت به. وقيل: خطبها (أوريا) ثم خطبها داود فأثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب علي خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه.

وأما ما يذكر أن داود عليه السلام، تمنى منزلة آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: يارب؛ إن آبائي قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها، قد ابتلي إبراهيم ينمروذ وذبح ولده، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن علي يوسف، فسأل الابتلاء. فأوحى الله إليه: إنك لمبتلي في يوم كذا وكذا فاحترس، فلما حان ذلك اليوم، دخل محرابه، وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور فجاء الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت، فامتد إليها فطارت، فوقعت في كوة فتتبعها، فأبصر امرأة جميلة قد نفضت شعرها فغطى بدنها، وهي امرأة أوريا، وهو من غزاة اللقاء فكتب إلي أيوب بن سوريا - وهو صاحب بعث اللقاء - أن ابعث أوريا وقدمه علي التابوت - وكان من يتقدم لا يحل له أن يرجع حتي يفتح الله علي يده أو يستشهد - ففتح الله علي يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتي قتل فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما يحزن علي الشهداء، وتزوج امرأته فهذا ونحوه، مما لا يصح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أئمة المسلمين، فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء. وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من حدثكم بخديث داود علي ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد القرية علي الأنبياء. وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة علي ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتبس خلفها. وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كان كما ذكرت وكف الله عنها ستراً علي نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه،

فقال عمر: سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلي زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب» (١).

فأنت تري أن الزمخشري يرتضي قصة النزول عن الزوجة، وقصة الخطبة علي الخطبة، ولا يري في ذلك إخلالاً بعصمة داود، ولا مساساً بمقام النبوة، ويمثل قصة النزول بما كان من تنازل الأنصار للمهاجرين عن أزواجهم في مبدأ الهجرة، ويروي أن الآية تدل علي ذلك، ولكنه يستنكر القصة الأخيرة ويذكر من الأخبار ما يؤكد استبعادها، وذلك لأنه يري فيها - لو صحت - إخلالاً بمقام النبوة، وهدماً لعصمة نبي الله داود عليه السلام.

كذلك نري الزمخشري في السورة نفسها عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٤): ﴿وَلَقَدْ فْتَنَّا سَلِيمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾. يقول: «قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنه عشرين سنة، وكان من فتنته: أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله، فعلم فكان يغذوه في السحاب، فما راعه إلا أن ألقى علي كرسيه ميتاً، فتنبه علي خطئه في أن لم يتوكل فيه علي ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه. وروي عن النبي ﷺ «قال سليمان: لأطوفن الليلة علي سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل إن شاء الله - فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون». فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فْتَنَّا سَلِيمَانَ﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به.

وأما ما يروي من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته، حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون، وهي مدينة في بعض الجزائر، وأن بها ملكاً عظيماً الشأن لا يقوي عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتي أناخ بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها، وأصاب بنتاً له اسمها (جرادة) من أحسن الناس وجهاً فاصطفها لنفسه. وأسلمت، وأحبها. وكانت لا يرقأ دمعها علي أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها، يسجدن له كعاداتهن في ملكه، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلي فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلي الله متضرعاً. وكانت له أم ولد يقال لها (أمينة) إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع

خاتمه عندها - وكان ملكه في خاتمه - فوضعه عندما يوماً، وأتاها الشيطان صاحب البحر - وهو الذي دل سليمان علي الماس حين أمر ببناء بيت المقدس، واسمه (صخر) علي صورة سليمان فقال: يا أمينة، خاتمي فتختم به وجلس علي كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان من هيئته، فأتي أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته .، فعرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور علي البيوت يتكفف، فإذا قال أنا سليمان، حثوا عليه التراب وسبوه، ثم عمد إلي السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث علي ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان .وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة، وقيل: بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم . فتختم به ووقع ساجداً، ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لـ (صخر) فجعله فيها، وسد عليه بأخري ثم أوثقها بالحديد والرصاص وقذفه في البحر. وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتون بذنك . والخاتم لا يقر في يدك، فتب إلي الله عز وجل . ولقد أبي العلماء المتقنون قبوله، وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من فعل الأفاعيل وتسليط الله إياهم علي عباده حتي يقعوا في تغيير الأحكام، وعلي نساء الأنبياء حتي يفجروا بهن قبيح . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع، ألا تري إلي قوله: ﴿ من محاريب وتماثيل ﴾ [سبأ: ١٣] . وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه، وإذا كان بغير علمه فلا عليه» (١).

وجلي أن الزمخشري قد صرح بجواز الروايتين (الأولي والثانية) ورأي أنه لا بأس من وقوع إحداهما، ولكنه فند الرواية الأخيرة - رواية صخر المارد - وبين أنها تذهب بعصمة الأنبياء ولا تتفق وقواعد الشريعة .

... وهكذا لم يقع الزمخشري فيما وقع فيه غيره من المفسرين من الاغترار بالقصص الإسرائيلي والأخبار المختلفة المصنوعة (٢) وهذه محمداً أخري لهذا المفسر الكبير تحمداً له ويُسْكَر عليها .

وبعد .. فهذه الكتب الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن، وأمالي الشريف المرتضي، وكشاف الزمخشري، هي كل ما وصل إلي أيدينا من تراث المعتزلة ومؤلفاتهم في التفسير، وهي وإن كانت قليلة بالنسبة لما لم تنله أيدينا من تفاسير المعتزلة، يمكن أن تكون تعويضاً مقبولاً إلي حد كبير عن التفاسير التي طوتها يد النسيان، وأدرجتها

(١) الكشاف: ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥ .

(٢) وإن كان قد اغتر بالأحاديث الموضوعية في فضائل السور فضمنها تفسيره .

في غضون الزمن السحيق، وهي بعد ذلك تعتبر أثراً خالداً ومهماً، لا في تاريخ التفسير الاعترالي فقط، بل فيه، وفي تاريخ الأدب العربي، كذلك، لما تشتمل عليه من بحوث أدبية قيمة، تلقي لنا ضوءاً علي ما كان بين الأدب والتفسير من تأثير كل منهما بالآخر وتأثيره فيه، والله أعلم.

* * *

انتهي - بحمد الله - الجزء الأول، ويليه - بعون الله - الجزء الثاني وأوله: (الشيعية، وموقفهم من تفسير القرآن الكريم).

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣١	المصدر الأول القرآن الكريم	٥	تقديم الكتاب
٣٦	المصدر الثاني: النبي ﷺ		المقدمة
٣٧	الوضع علي رسول الله ﷺ في التفسير.	(١٢ - ٢٥)	
٣٨	هل تناول النبي ﷺ القرآن كله	١٢	المبحث الأول: معني التفسير والتأويل
	بالبيان؟		والفرق بينهما
٣٩	المقدار الذي بينه النبي ﷺ من القرآن	١٢	التفسير في اللغة - التفسير في
	لأصحابه		الاصطلاح
٣٩	أدلة من قال: بأن النبي ﷺ بين لأصحابه	١٤	التأويل في اللغة
	كل معاني القرآن	١٥	التأويل في الاصطلاح
٤٠	أدلة من قال: بأن النبي ﷺ لم يبين	١٥	١ - التأويل عند السلف
	لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن ...		٢ - التأويل عند المتأخرين من المتفكحة،
٤٠	مغالاة الفريقين	١٥	والمكلمة، والمحدثه، والمتصوفة
٤٠	مناقشة أدلة الفريق الأول		الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة
٤١	مناقشة أدلة الفريق الثاني	١٦	بينهما
٤٢	اختيارنا في المسألة	١٩	المبحث الثاني: تفسير القرآن بغير لغته.
٤٣	أوجه بيان السنة للكتاب	١٩	الترجمة الحرفية للقرآن
	المصدر الثالث من مصادر التفسير في	٢١	الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن ..
	عصر الصحابة: الاجتهاد وقوة	٢١	الترجمة التفسيرية للقرآن
٤٥	الاستنباط	٢٣	الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية.
	أدوات الاجتهاد في التفسير عند	٢٣	شروط الترجمة التفسيرية
٤٥	الصحابة		المبحث الثالث: هل تفسير القرآن من
٤٦	تفاوت الصحابة في فهم معاني القرآن.	٢٥	قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات.
	المصدر الرابع من مصادر التفسير في		الباب الأول: المرحلة الأولى للتفسير
	عصر الصحابة: أهل الكتاب من اليهود		(التفسير في عهد النبي ﷺ)
٤٧	والنصاري		وأصحابه
	أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر	(٢٧ - ٧٣)	
٤٨	السابقة		الفصل الأول: فهم النبي ﷺ والصحابة
٤٩	الفصل الثاني: المفسرون من الصحابة.	٢٨	للقرآن
٤٩	أشهر المفسرين من الصحابة	٢٨	تمهيد
	١ - عبد الله بن عباس - ترجمته -	٢٨	فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن
٥٠	مبلغه من العلم	٢٩	تفاوت الصحابة في فهم القرآن
٥٢	أسباب نبوغه	٣١	مصادر التفسير في هذا العصر

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٦	ابتداء هذه المرحلة -	٥٣	قيمة ابن عباس في تفسير القرآن
٧٦	مصادر التفسير في هذا العصر	٥٤	رجوع ابن عباس إلي أهل الكتاب
٧٦	مدارس التفسير في عصر التابعين		اتهام الأستاذ (جولدزيهر) والأستاذ
	أولاً: مدرسة التفسير بمكة - قيامها علي		وأحمد أمين لابن عباس وغيره من
٧٧	ابن عباس - أشهر رجالها		الصحابة بالتوسع في الأخذ عن أهل
٧٨	١ - سعيد بن جبير - ترجمته	٥٤	الكتاب
٧٨	مكانته في التفسير	٥٦	رد هذا الاتهام
	٢ - مجاهد بن جبر - ترجمته -	٥٦	رجوع ابن عباس إلي الشعر القديم
٧٩	مكانته في التفسير		الرواية عن ابن عباس ومبلغها من
٨٠	مجاهد والتفسير العقلي	٥٨	الصحة
	٣ - عكرمة - ترجمته - اختلاف	٥٩	طعن بعض النقاد علي هذه الطريق ...
٨١	العلماء في توثيقه	٥٩	تفنيد هذا الطعن
	مطاعن من لا يوثقونه - تفنيد هذه	٦٢	التفسير المنسوب إلي ابن عباس وقيمه .
٨٢	المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه	٦٢	أسباب الوضع علي ابن عباس
٨٣	شهادات الموثقين له	٦٣	٢ - عبد الله بن مسعود - ترجمته
٨٤	مبلغه من العلم ومكانته في التفسير ...	٦٣	مبلغه من العلم
	٤ - طاووس بن كيسان اليماني -	٦٤	قيمة ابن مسعود في التفسير
٨٥	ترجمته ومكانته في التفسير		الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من
٨٥	٥ - عطاء بن أبي رباح - ترجمته	٦٥	الصحة
	مكانته في التفسير	٦٦	٣ - علي بن أبي طالب - ترجمته
٨٦	ثانياً: مدرسة التفسير بالمدينة - قيامها	٦٧	مبلغه من العلم
	علي أبي بن كعب - أشهر رجالها ...	٦٧	مكانته من التفسير
٨٦	١ - أبو العالية - ترجمته ومكانته في		الرواية عن علي ومبلغها من الصحة ...
	التفسير	٦٨	٤ - أبي بن كعب - ترجمته - مبلغه
٨٦	٢ - محمد بن كعب القرظي - ترجمته		من العلم
	ومكانته في التفسير	٦٩	مكانته في التفسير - الرواية عنه في
٨٧	٣ - زيد بن سليم - ترجمته ومكانته		التفسير ومبلغها من الصحة
	في التفسير	٦٩	الفصل الثالث: قيمة التفسير المأثور عن
٨٧	ثالثاً: مدرسة التفسير بالعراق - قيامها		الصحابة
	علي ابن مسعود - أشهر رجالها	٧١	الفصل الرابع: مميزات التفسير في هذه
٨٨	١ - علقمة بن قيس - ترجمته ومكانته		المرحلة
	في التفسير	٧٣	الباب الثاني: المرحلة الثانية
٨٩	٢ - مسروق - ترجمته ومكانته في		(التفسير في عصر التابعين)
	التفسير		(٧٥ - ١٠٢).
٨٩	٣ - الأسود بن يزيد - ترجمته ومكانته		الفصل الأول: التفسير في عصر التابعين
٩٠	في التفسير		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٧	أثر الوضع في التفسير	٤	٤ - مرة الهمداني - ترجمته ومكانته في التفسير
١١٩	قيمة التفسير الموضوع	٥	٥ - عامر الشعبي - ترجمته ومكانته في التفسير
	ثانياً الإسرائيليات - تمهيد في بيان المراد بالإسرائيليات ، ومدى الصلة بينهما وبين القرآن	٦	٦ - الحسن البصري - ترجمته ومكانته في التفسير
١٢١	مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير وتطوره	٧	٧ - قتادة - ترجمته ومكانته في التفسير
١٢٣	مقالة ابن خلدون في الإسرائيليات	٩٣	٩٣ - الفصل الثاني : قيمة التفسير المأثور عن التابعين
	أثر الإسرائيليات في التفسير - قيمة ما يروي من الإسرائيليات	٩٦	٩٦ - الفصل الثالث : مميزات التفسير في هذه المرحلة
١٣١	موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات ...	٩٧	٩٧ - الفصل الرابع : الخلاف بين السلف في التفسير
١٣٣	أقطاب الروايات الإسرائيلية	٩٨	٩٨ - الباب الثالث : المرحلة الثالثة للتفسير (التفسير في عصور التدوين) (١٠٣ - ٣٣٥)
١٣٣	١ - عبد الله بن سلام - ترجمته		تمهيد - ابتداء هذه المرحلة - الخطوات التي تدرج فيها التفسير - ألوان التفسير في كل خطوة
١٣٥	مبلغه من العلم والعدالة	١٠٤	١٠٤ - ليس من السهل معرفة أول من دون تفسير كل القرآن مرتباً
	٢ - كعب الأحبار - ترجمته - مبلغه من العلم	١٠٥	١٠٥ - تدرج التفسير العقلي
١٣٥	ثقلته وعدالته	١٠٨	١٠٨ - التفسير الموضوعي
١٣٦	اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب	١١٠	١١٠ - توسع متقدمي المفسرين قعد بمتأخريهم عن البحث المستقل
١٣٧	تفنيد هذا الاتهام	١١٠	١١٠ - الفصل الأول التفسير بالمأثور - ما هو التفسير المأثور؟ تدرج التفسير المأثور
١٣٧	اتهام الشيخ رشيد رضا لكعب - تفنيد هذا الاتهام	١١٢	١١٢ - اللون الشخصي للتفسير المأثور
١٣٨	٣ - وهب بن منبه - ترجمته - مبلغه من العلم والعدالة	١١٣	١١٣ - الضعف في رواية التفسير المأثور وأسبابه
١٤١	مطاعن بعض الناس عليه	١١٤	١١٤ - أسباب الضعف
١٤٢	رأينا فيه وشهادات الموثقين له	١١٥	١١٥ - أولاً : الوضع في التفسير - نشأة الوضع في التفسير
١٤٢	٤ - عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ترجمته - مبلغه من العلم والعدالة	١١٦	١١٦ - أسباب الوضع في التفسير
١٤٣	ثالثاً : حذف الإسناد		
١٤٥	أشهر ما دون من كتب التفسير المأثور وخصائص هذه الكتب		
١٤٧	١ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري - التعريف بمؤلف هذا التفسير		
١٤٧	- مبلغه من العلم والعدالة		
١٤٩	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٧٧	التعريف هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه	١٥١	طريقة ابن جرير في تفسيره - إنكاره علي من يفسر بمجرد الرأي
١٨٠	٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي - التعريف بمؤلف هذا التفسير	١٥٢	موقفه من الأسانيد تقديره للإجماع - موقفه من القراءات
١٨٠	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه	١٥٣	موقفة من الإسرائيليات
١٨٣	الفصل الثاني: التفسير بالرأي وما يتعلق به من مباحث	١٥٥	انصرافه عما لا فائدة فيه
١٨٣	معني التفسير بالرأي - موقف العلماء من التفسير بالرأي	١٥٦	احتكامه إلي المعروف من كلام العرب - رجوعه إلي الشعر القديم
١٨٨	حقيقة الخلاف	١٥٦	اهتمامه بالمذاهب النحوية
١٨٩	العلوم التي يحتاج إليها المفسر	١٥٧	معالجته للأحكام الفقهية
١٩٤	مصادر التفسير	١٥٨	خوضه في مسائل الكلام
١٩٦	الأمر التي يجب علي المفسر أن يتجنبها في تفسيره	٢	بحر العلوم للسمرقندي - التعريف بمؤلف هذا التفسير
١٩٦	أنواع علوم القرآن	١٦١	٣ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي - التعريف بمؤلف هذا التفسير
١٩٧	المنهج الذي يجب علي المفسر أن ينهجه في تفسيره	١٦٣	٤ - معالم التنزيل للبعوني - التعريف بمؤلف هذا التفسير
١٩٩	قانون الترجيح في الرأي	١٦٨	٥ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية - التعريف بمؤلف هذا التفسير
١٩٩	منشأ الخطأ في التفسير بالرأي	١٧٠	٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير - التعريف بمؤلف هذا التفسير
٢٠٢	التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي	١٧١	مكانته العلمية
٢٠٥	الفصل الثالث: أهم كتب التفسير بالرأي الجائز	١٧١	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٢٠٥	تمهيد	١٧٣	٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير - التعريف بمؤلف هذا التفسير
٢٠٦	١ - مفاتيح الغيب للرازي - التعريف بمؤلف هذا التفسير	١٧٤	مكانته العلمية
٢٠٧	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه	١٧٤	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٢٠٩	اهتمام الفخر الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره - اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفة - وموقفه من المعتزلة	١٧٤	٧ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي - التعريف بمؤلف هذا التفسير
٢١٠	موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة	١٧٧	التفسير

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٧	بمؤلفي هذا التفسير.....	٢	٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل
	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه		لليضاوي - التعريف بمؤلف هذا
٢٣٧	فيه.....	٢١١	التفسير.....
	٨ - السراج المنير في الإعانة علي معرفة		التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه
	بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير	٢١١	فيه.....
	للخطيب الشربيني - التعريف بمؤلف		٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل
٢٤٠	هذا التفسير.....	٢١٦	للسنفي - التعريف بمؤلف هذا التفسير.
	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه	٢١٦	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه.
٢٤١	فيه.....	٢١٧	خوضه في المسائل النحوية.....
	موقفه من القراءات والأعراب		موقفه من القراءات - خوضه في مسائل
٢٤٢	والحديث.....	٢١٨	الفقه.....
	اهتمامه بالنكت التفسيرية ومشكلات	٢١٩	موقفه من الإسرائيليات.....
٢٤٣	القرآن.....		٤ - لباب التأويل في معاني التنزيل
	عنايته بالمناسبات بين الآيات - موقفه	٢٢٠	للخازن - التعريف بمؤلف هذا التفسير -
٢٤٣	من المسائل الفقهية.....	٢٢١	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه.
٢٤٤	خوضه في الإسرائيليات.....	٢٢٢	توسعه في ذكر الإسرائيليات.....
٢٤٥	كثرة نقوله عن تفسير الفخر الرازي ...	٢٢٣	عنايته بالأخبار التاريخية.....
	٩ - إرشاد العقل السليم إلي مزايا	٢٢٣	عنايته بالناحية الفقهية.....
	الكتاب الكريم لأبي السعود - التعريف	٢٢٤	عناية بالمواعظ.....
٢٤٥	بمؤلف هذا التفسير.....	٥ - البحر المحيط لأبي حيان - التعريف	
	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه	٢٢٥	بمؤلف هذا التفسير.....
٢٤٦	فيه.....	٢٢٦	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه.
	عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر	٦ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان	
٢٤٨	إعجازه.....		لنيسابوري - التعريف بمؤلف هذا
	اهتمامه بالمناسبات والمأمه ببعض	٢٢٨	التفسير.....
	القراءات - إقلاله من رواية الإسرائيليات	٢٢٩	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
	- روايته عن بعض من أشتهر بالكذب	٢٣٠	- موقفه من الزمخشري والفخر الرازي.
٢٤٨	إقلاله من ذكر المسائل الفقهية.....		منهجه في التفسير - خوضه في المسائل
	تناوله لما تحتمله الآيات من وجوه	٢٣١	الكلامية.....
٢٥٠	الإعراب.....	٢٣٢	خوضه في المسائل الكونية والفلسفية.
	١٠ - روح المعاني في تفسير القرآن	٢٣٣	الزعة الصوفية في تفسير النيسابوري.
	العظيم والسبع المثاني للألوسي -		ليس في تفسير النيسابوري ما يدل علي
٢٥٠	التعريف مؤلف هذا التفسير.....	٢٣٣	تشيعة.....
	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه		٧ - تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي،
٢٥٢	فيه.....		وجلال الدين السيوطي - التعريف

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٧٤	حكم ابن القيم علي تفسير المعتزلة ...	٢٥٢	مكانه هذا التفسير من التفاسير التي تقدمته
٢٧٥	أهم كتب التفسير الاعتزالي	٢٥٣	موقف الألوسي من المخالفين لأهل السنة
	١- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبيد الجبار - التعريف بمؤلف هذا التفسير	٢٥٤	الألوسي والمسائل الكونية - كثرة استطراده للمسائل النحوية - موقفه من المسائل الفقهية
٢٧٨	التعريف كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن وطريقة مؤلفه فيه	٢٥٥	موقفه من الإسرائيليات
٢٧٨	بعض مواقفه من مشكلات الصناعية العربية	٢٥٦	تعرض للقراءات والمناسبات وأسباب النزول - الألوسي ، والتفسير الإشاري
٢٧٩	بعض موافقه من المشكلات العقيدية الاعتزالية	٢٥٨	الفصل الرابع : التفسير بالرأي المذموم (تفسير الفرق المتدعة)
٢٨٠	الهداية والضلال	٢٥٨	تمهيد في بيان نشأة الفرق الإسلامية ... المعتزلة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم - كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية - نشأة المعتزلة
٢٨٠	مس الشيطان	٢٦٢	أصول المعتزلة
٢٨١	رؤية الله	٢٦٣	موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم - إقامة تفسيرهم علي أصولهم الخمسة
٢٨٢	أفعال العباد	٢٦٤	إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة
٢٨٣	المنزلة بين المنزلتين - تذرعه بالمجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره	٢٦٥	ادعائهم أن كل محاولاتهم في التفسير مرادة لله تعالي - المبدأ اللغوي في التفسير وأهميته لدي المعتزلة
٢٨٤	٢ - أمالي الشريف المرتضي (أو غرر الفوائد ودرر القلائد) . التعريف بمؤلف هذا الكتاب	٢٦٦	تصرف المعتزلة في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم
٢٨٥	التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه التي سلكها في التفسير	٢٦٨	نقد ابن قتيبة لهذا المسلك الاعتزالي في التفسير
٢٨٦	رؤية الله	٢٦٩	تذرع المعتزلة بالفروض المجازية إذا بدا ظاهر القرآن غريباً
٢٨٧	الإرادة وحرية الأفعال	٢٧١	تفسيرهم للقرآن علي ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية
٢٩٠	رفضه لبعض ظواهر القرآن	٢٧٢	حكم الإمام أبي الحسن الإشعري علي تفسير المعتزلة -
٢٩٢	الطريقة اللغوية في تفسيره للقرآن	٢٧٣	حكم ابن تيمية علي تفسير المعتزلة ...
٢٩٩	دفعه لموهم الاختلاف والتناقض		
	ليس في الأمالي أثر للتشيع، وإنما فيه عزو أصول المعتزلة إلي الأئمة من آل البيت		
٣٠١	٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري -		
٣٠٤	التعريف بمؤلف هذا التفسير		
	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - قصة تأليف الكشاف		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	انتصاره لمذهب المعتزلة في الحسن	٣٠٦	قيمة الكشاف العلمية
٣٢٤	والقبح العقليين		مقالة ابن بشكوال في الكشاف - مقالة
٣٢٤	انتصاره لمعتقد المعتزلة في السحر	٣٠٨	الشيخ حيدر الهروي
	انتصاره لمذهب المعتزلة في حرية الإرادة	٣٠٩	مقالة أبي حيان
٣٢٥	وخلق الأفعال	٣١٠	مقالة ابن خلدون
	خصومة العقيدة بن الزمخشري وأهل	٣١١	مقالة التاج السبكي
٣٢٧	السنة -		اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية
٣٢٨	حملة الزمخشري علي أهل السنة . . .	٣١٣	للقرآن
	حملة ابن القيم علي الزمخشري -		تذرعه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه
٣٣٠	حملة ابن المنير علي الزمخشري	٣١٥	الاعتزالي
	موقف الزمخشري من المسائل		اعتماده علي الفروض المجازية وتذرعه
٣٣٤	الفقهية	٣١٥	بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره .
٣٣٦	موقف الزمخشري من الإسرائيليات ...		مبدأ الزمخشري في التفسير عندما
٣٤٢	محتويات الكتاب	٣٢١	يصادم النص القرآني مذهبه
		٣٢٢	انتصار الزمخشري لعقائد المعتزلة
			انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب
		٣٢٢	الكبائر

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٥ / ٥٧٣٧

الترقيم الدولي : 0 - 078 - 225 - 977 - I.S.B.N

التفسير والمفسرون

تأليف الأستاذ الدكتور محمد حسين عبد المجيد
مدرس في كلية الشريعة، جامعة القاهرة
مترجم من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية
مترجم من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية

الأستاذ محمد حسين عبد المجيد

الجزء الثاني

مكتبة وهبة

16 شارع الجمهورية - جازين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

التفسير والمفسرون

بحر تفصيلي عن نشأة التفسير وظوره . والوانه ومذاهبه .
مع عرض شامل لأسر المفسرين . وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم الى عصرنا الحاضر

تأليف

الدكتور محمد حسين الذهبي

الجزء الثاني

الناشر

مكتبة وهبة

٤ اشاع الجمهورية . عابدين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

« صدق الله العظيم »

الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم:

الشيعة في الأصل، هم الذين شايعوا علياً وأهل بيته ووالوهم، وقالوا: إن علياً هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وإن الخلافة حق له، استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، وهى لا تخرج عنه فى حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين:

أحدهما: أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه.

ثانيهما: أن يتخلى صاحب الحق عنه فى الظاهر، تقيّة منه، ودرءاً للشر عن نفسه وعن أتباعه.

وهذا المذهب الشيعى، من أقدم المذاهب الإسلامية، وقد كان مبدأ ظهوره فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه (١)، ثم نما واتسع على عهد على رضى الله عنه، إذ كان كلما اختلط - رضى الله عنه - بالناس تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة، مما يظهر لهم من قوة دينه، ومكنون علمه، وعظيم مواهبه، فاستغل الدعاة كل هذا الإعجاب وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس.

ثم جاء عصر بنى أمية وفيه وقعت المظالم على العلويين، ونزلت بهم محن قاسية، أثارت كامن الحبة لهم، وحرّكت دفين الشفقة عليهم، ورأى الناس فى على وذريته شهداء هذا الظلم الأموى، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعى وكثر أنصاره. ويظهر لنا أن هذا الحب لعلى وأهل بيته، وتفضيلهم على من سواهم، ليس بالأمر الذى جدّ وحدث بعد عصر الصحابة، بل وجدّ من الصحابة من كان يحب علياً ويرى أنه أفضل من سائر الصحابة، وأنه أولى بالخلافة من غيره، كعمّار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وجابر بن عبد الله .. وغيرهم

كثيراً مما أوجبهم وهم ومن أوجبهم فلهذا
غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا علياً رضى الله عنه، لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لا بد له من شمل متحد وكلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدأ الذى تكاد تتفق عليه كلمة الشيعة، ويرونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو «أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تُفوّض إلى نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب

(١) وقيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ.

عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأن علياً رضى الله عنه، هو الذى عينه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه» (١).

لم يكن الشيعة جميعاً متفقين فى المذهب، والعقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فرق عدة، يرجع أساس اختلافها وانقسامها إلى عاملين قويين، كان لهما كل الأثر تقريباً فى تعدد فرق الشيعة وتفرق مذاهبهم.

أولهما: اختلافهم فى المبادئ والتعاليم، فمنهم من تغالى فى تشييعه وتطرف فيه إلى حد جعله يلقي على الأئمة نوعاً من التقديس والتعظيم، ويرمى كل من خالف علياً وحزبه بالكفر. ومنهم من اعتدل فى تشييعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة وخطأ من خالفهم، ولكن ليس بالخطأ الذى يصل بصاحبه إلى درجة الكفر.

وثانيهما: الاختلاف فى تعيين الأئمة، وذلك أنهم اتفقوا جميعاً على إمامة عليّ رضى الله عنه، ثم على إمامة ابنه الحسن من بعده، ثم على إمامة الحسين من بعد أخيه. ولما قُتل الحسين على عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهة نظر الشيعة فيمن يكون الإمام بعد الحسين رضى الله عنه:

ففرق يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلى أخيه من أبيه، محمد بن عليّ، المعروف بابن الحنفية، فبايعوه بها.

وفريق ثان: يرى حصر الإمامة فى ولد عليّ من فاطمة، وقد أصبحت بعد قتل الحسين حقاً لأولاد الحسن، لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر بها غير أولاده، وهم ينتظرون كبيرهم ليبايعوا أرشداهم.

وفريق ثالث: يرى ما يراه الفريق الثانى من حصرها فى ولد عليّ من فاطمة، غاية الأمر أنه يقول: إن الحسن قد تنازل عنها فسقط حق أولاده فيها، وبقيت الإمامة حقاً لأولاد الحسين الذى قُتل من أجلها فهم أولى بالانتظار.

بلغ عدد الفرق التى انقسم إليها الشيعة حداً كبيراً من الكثرة، منها من تغالى فى تشييعه وتجاوز بمعتقداته حد العقل والإيمان، ومنها من اعتدل فى تشييعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها.

ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكنى سأقتصر على فرقتين هما: الزيدية، والإمامية «الإثنا عشرية»، والإسماعيلية» لأنى لم أعثر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

● الزيدية:

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن عليّ بن الحسين رضى الله عنهم، طمحت نفسه إلى

استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرقوا عنه فقتل وصلب، ثم أُحرق جسده. وقد ورد في سبب تفرق أصحابه عنه وخذلانهم له «أنه لما اشتد القتال بينه وبين يوسف ابن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال زيد: أثنى عليهما جدى على، وقال فيهما حسنا، وإنما خروجى على بنى أمية، فإنهم قاتلوا جدى عليا، وقتلوا جدى حسينا، فخرجوا عليه ورفضوه، فسموا رافضة بذلك السبب»^(١).

والزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، إذ أنها لم تغل في معتقداتها، ولم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين.

● قوام مذهب الزيدية:

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلى ما قبل طروء التغيير عليه والتفرق بين أصحابه، هو ما يأتي:

١ - أن الإمام منصوب عليه بالوصف لا بالاسم، وهذه الأوصاف هي: كونه فاطميا، ورعا، سخيا، يخرج داعيا الناس لنفسه.

٢ - أنه يجوز إمامة المفضل مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه. وبنوا على هذا أنه لو وقع اختيار أولى الحل والعقد على إمام تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود من تتوفر فيه صحت إمامته، ولزمت بيعته، ولهذا قالوا بصحة إمامة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما.

ولقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين في قطرين مختلفين لا في قطر واحد، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مُخَلَّد في النار، وهذا هو عين مذهب المعتزلة. ويظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا بها كما قالوا بكثير من مبادئهم. والسر في ذلك هو أن زيدا رحمه الله تتلمذ لواصل بن عطاء، فأخذ عنه آراء الاعتزالية وقال بها^(٢).

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمنا طويلا، بل تفرقوا واختلفت عقائدهم. وقد ذكر لنا صاحب «المواقف» أنهم تفرقوا إلى ثلاث فرق، وذكر لكل فرقة خصائصها ومميزاتها وعقائدها^(٣)، ولا نظيل بذكر ذلك. ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إليه في موضعه.

● الإمامية^(٤):

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبي ﷺ نص على إمامة علي رضي الله عنه نصا

(١) التبصير في الدين ص ١٨. (٢) الملل والنحل للشهرستاني: ٢٠٨/٢.

(٣) المواقف: ١٠/٨.

(٤) الإمامية: نسبة إلى الإمام لأنهم أكثرها من الاهتمام به، وركزوا كثيرا من تعاليمهم حوله.

ظاهراً، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد عليّ في ولده من فاطمة رضي الله عنها.

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا في تشيعهم، وتعدوا حدود العقل والشرع، فكفروا الكثير من الصحابة، واعتبروا أبا بكر وعمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعليّ رضي الله عنه، فأوجبوا التبرؤ منهما، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسي صاحب التفسير.

وقد اتفق الإمامية على إمامة عليّ رضي الله عنه، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلى أخيه الحسين من بعده، ثم إلى ابنه عليّ زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك في سؤق الإمامة، وانقسموا إلى فرق عدة أشهرها فرقتان: الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية.

● الإمامية الاثنا عشرية:

أما الإمامية الإثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه عليّ الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى ابنه عليّ الهادي، ثم إلى ابنه الحسن العسكري، ثم إلى ابنه محمد المهدي المنتظر وهو الإمام الثاني عشر، ويزعمون أنه دخل سرداباً في دار أبيه بـ « سرّ من رأي » ولم يعد بعد، وأنه سيخرج في آخر الزمان، ليملاً الدنيا عدلاً وأمناً، كما ملئت ظلماً وخوفاً.

وهؤلاء قد جاوزوا الحد في تقديسهم للأئمة، فزعموا: أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء. وقالوا: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة في الأئمة.

● أشهر تعاليم الإمامية الاثنا عشرية:

وأشهر تعاليم الإمامية الإثنا عشرية أمور أربعة: العصمة، والمهدية، والرجعة، والتقية.

أما العصمة: فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر في كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شيء من الخطأ والنسيان.

وأما المهدية: فيقصدون منها الإمام المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان فيملاً الأرض أمناً وعدلاً، بعد أن ملئت خوفاً وجوراً. وأول من قال بهذا هو « كيسان » مولى عليّ ابن أبي طالب في محمد ابن الحنفية. ثم تسربت إلى طوائف الإمامية، فكان لكل منها مهدي منتظر^(١).

(١) وردت بعض الأحاديث في شأن المهدي، رواها الترمذي وأبو داود وابن ماجه وغيرهم كقوله عليه السلام: « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطول الله ذلك حتى يبعث فيه رجلاً مني - أو من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، ومثل قوله: « لو لم يبق إلا يوم، لبعث الله =

وأما الرجعة: فهي عقيدة لازمة لفكرة المهديّة، ومعناها: أنه بعد ظهور المهدي المنتظر، يرجع النبي ﷺ إلى الدنيا، ويرجع على، والحسن، والحسين، بل وكل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبي بكر وعمر، فيقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعاً، ثم يحيون يوم القيامة.

وأما التقيّة: فمعناها المداراة والمصانعة، وهي مبدأ أساسي عندهم، وجزء من الدين يكتُمونه عن الناس، فهي نظام سرى يسيرون على تعاليمه، فيدعون في الخفاء لإمامهم المختفى ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة في وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه هي أهم تعاليم الإمامية الإثنا عشرية، وهم يستدلون على كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لا تُسلم لهم، ولا تُثبت مدعاهم. ونحن نَمسك عنها وعن ردها خوف الإطالة، وسيمر بك - إن شاء الله تعالى - شيء من ذلك.

● الإمامية الإسماعيلية:

وأما الإمامية الإسماعيلية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه على ذلك، قالوا: وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة في عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعده تتابع أئمة مستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدي رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لُقّبوا بسبعة ألقاب، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم، وهذه الألقاب هي ما يأتي:

١ - الإسماعيلية: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

٢ - الباطنية: لقولهم بالإمام الباطن أي المستور، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهراً وباطناً والمراد منه باطنه دون ظاهره.

٣ - القرامطة: لأن أولهم الذي دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له «حمدان قرمط»^(١).

٤ - الحرّمية: لإباحتهم المحرّمات والمحارم.

= رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» وقد وقع بين المسلمين خلاف في شأن المهدي هذا، فمنهم من يقول به، ومنهم من ينكره، ولكن لم نر من المسلمين من ذهب مذهب الإمامية في تعيين المهدي ودعواهم أنه الإمام الثاني عشر الذي اختفى حياً وسيعود في آخر الزمان.

(١) قرمط: قرية من قرى واسط، أو نسبة لقرمطة في خطوه - وقيل: في خطه، وقرمطة الخطأ تتابعها.

٥ - السبعية: أنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ومحمد المهدي المنتظر سابع النطقاء، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، ولا بد في كل عصر من سبعة بهم يُقتدى وبهم يهتدى.

٦ - البابكية أو الخرمية: لاتباع طائفة منهم «بابك الخرمي» الذي خرج بأذربيجان.

٧ - الحمرة: للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميراً^(١). هذا وسيأتى بعد ما يكشف لنا عن عقيدة هؤلاء الباطنية، عندما نتكلم عن موقفهم من تفسير القرآن الكريم.

وقبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبي المظفر الإسفراني في كتابه «التبصير في الدين» قال رحمه الله:

«واعلم أن الزيدية، والإمامية منهم، يُكفّر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة، والكيسانية يُعدون في الإمامية. واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون على تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غُيّر عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة علي فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنه لا اعتماد علي القرآن الآن ولا علي شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين، وينتظرون إماماً يسمونه «المهدي» يخرج ويعلمهم الشريعة، وليسوا على شيء من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام في الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا في استحلال المحرمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغيير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين»^(٢).

● موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم:

إذا نحن أجلنا النظر في مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام في الرأي والعقيدة. فبيننا نجد الغلاة الذين رفَعوا علياً إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون علياً أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق

(١) المواقف: ٣٨٨/٨ - ٣٨٩.

(٢) التبصير في الدين ص ٢٤، ٢٥ وقد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية.

بالولاية وأولى بها من غيره فحسب، ونجد من يقف موقفاً وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هو يؤله علياً، ولا هو يرى أنه بشر يُخطئ ويُصيب، بل يرى أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ غير منازع ولا مدافع وإن غلب على أمره واغتصبت الولاية منه.

ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزبين أو ثلاثة، بل تفرقت بهم الأهواء - كما قلنا - إلى حد الكثرة في التحزب، وكان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ورأى خاص لا يقول به سواه.

وكان طبيعياً - وكل حزب من هذه الأحزاب يدعى الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو في الجملة - أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهداً له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلاً على مذهبه تمسك به، وأخذ في إقامة مذهبه على دعامة منه. وما وجده مخالفاً لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقاً لا مخالفاً، وإن أدى هذا كله إلى خروج اللفظ القرآني عن معناه الذي وُضِعَ له وسيق من أجله. وإليك طرفاً من تأويلات هؤلاء الغلاة:

● من تأويلات السبئية^(١):

فمثلاً نجد بعض السبئية يزعم أن علياً في السحاب، وعلى هذا يفسرون الرعد بأنه صوت علي، والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمداً ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، وتأول علي ذلك قوله تعالى في الآية (٨٥) من سورة القصص: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾^(٢).

● من تأويلات البيانية:

كذلك نجد بيان بن سمعان التميمي زعيم البيانية^(٣)، يزعم أنه هو المذكور في

(١) السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام وغلا في حب علي حتى جعله نبياً، ثم بالغ في الغلو حتى جعله إلهاً. وزعم أنه لم يقتل ولكنه رُفِعَ إلى السماء.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٢٤، وتاريخ الجدل لأبي زهرة ص ١٢٨.

(٣) البيانية هم أتباع بيان بن سمعان التميمي، وهم الذين زعموا أن الإمامة صارت من محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبي هاشم إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه. واختلف هؤلاء في «بيان - زعيمهم - فمنهم من زعم أنه كان نبياً، وأنه =

القرآن بقوله تعالى فى الآية (١٣٨) من سورة آل عمران: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ . . . ويقول: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفنى كله غير وجهه، ويتأول على زعمه هذا قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة القصص: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ . . . وقوله فى الآيتين (٢٦ - ٢٧) من سورة الرحمن: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ . . . (١).

• من تأويلات المغيرية:

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلي زعيم المغيرية (٢) يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجاً على رأسه، وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية الأولى من سورة الأعلى: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ . . . وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج (٣).

ويزعم المغيرة أيضاً: أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد ﷺ . وقال: فذلك قوله فى الآية (٨١) من سورة الزخرف: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ . . . قال: ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك، فعرض ذلك على الناس. فأمر عمر أبابكر أن يتحمل نصرة علي ومنعه من أعدائه، وأن يغدر به فى الدنيا، وضمن له أن يعينه علي الغدر به، علي شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك. قال: فذلك تأويل قوله فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . . . فزعم أن الظلوم والجهول أبو بكر.

وتأول فى عمر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة الحشر: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ ﴾ . . . والشيطان عنده عمر (٤).

= نسخ شريعة محمد ﷺ . ومنهم من زعم أنه كان إلهاً. (انتهى من الفرق بين الفرق ص ٢٢٧).

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) المغيرية هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلي، وكان يظهر فى بدء أمره موالاته الإمامية ثم ادعى النبوة. وادعى أنه يعرف الاسم الأعظم، وزعم أنه يحيى به الموتى ويهزم الجيوش (انتهى من

الفرق بين الفرق ص ٢٢٩). (٣) الفرق بين الفرق ص ٢٢٩.

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٣٠ - ٢٣١.

● من تأويلات المنصورية:

وكذلك نجد أبا منصور العجلي زعيم المنصورية^(١) والمعروف بـ «الكسّف»، يزعم أنه عُرِجَ به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له: يا بني بلغ عني، ثم أنزله إلى الأرض، وزعم أنه الكسّف الساقط من السماء المذكور في قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة الطور: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾^(٢) ..

وتأوّلت هذه الطائفة الجنّة بأنها رجل أمرنا بمولاته وهو الإمام، والنار بالزند، أى رجل أمرنا ببغضه وهو ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر، وتأوّلتوا الفرائض والحرمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أمرنا بمولاتهم، والحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم^(٣).

● من تأويلات الخطابية:

كذلك نجد من الخطابية^(٤) من يتأوّل الجنّة بأنها نعيم الدنيا، والنار بأنها الآلها^(٥).

ووجدنا منهم من يقول: إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يوحى إليه، وعلى هذا المعنى كانوا يتأوّلون قوله تعالى في الآية (١٤٥) من سورة آل عمران: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ .. ويقولون: إن معناه: بوحى من الله، ويقولون: إذا جاز أن يوحى إلى النحل كما ورد في قوله تعالى في الآية (٦٨) من سورة النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ .. لم لا يجوز أن يوحى إلينا؟^(٦).

(١) المنصورية هم أتباع أبى منصور العجلي، الملقّب بالكسّف، الذى زعم أن الإمامة دارت فى أولاد على حتى انتهت إلى أبى جعفر بن على بن الحسين بن على المعروف بالباقر. وادعى هذا العجلي: أنه خليفة الباقر ثم أُلحد فى دعواه فزعم ما نقلناه عنه بالأصل (انتهى من الفرق بين الفرق ص ٢٣٤).

(٢) المواضع: ٣٨٦/٨.

(٣) الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى وهم خمس فرق، يقولون إن الإمامة كانت فى أولاد على إلى أن انتهت إلى محمد الحبيب (آخر الأئمة المستورين) ابن جعفر الصادق، ويقولون: إن الأئمة كانوا آلهة، وكان أبو الخطاب يقول فى أيامه: إن أولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه، وكان يقول: إن جعفرًا إله، فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده، وكان أبو الخطاب يدعى بعد ذلك الألوهية (انتهى من التبصير فى الدين ص ٧٣ - ٧٤).

(٤) التبصير فى الدين ص ٧٤.

(٥) المواضع: ٣٨٦/٨.

● من تأويلات العبيدين :

كذلك نجد أبا إسحاق الشاطبي يذكر لنا عن بعض العلماء : أن عبيد الله الشيعي المسمى المهدي، حين ملك إفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره .. وكان أحدهما يسمى بـ «نصر الله»، والآخر يسمى بـ «الفتح» فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه فقال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١] قالوا: وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى فبدل قوله تعالى في الآية (١١٠) من سورة آل عمران: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .. بقوله: « كتامة خير أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » (١).

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون، يجدون في صرف اللفظ القرآني عن معناه الذي سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم، ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم، وهم يعملهم هذا يُحْمَلُونَ القرآن ما لا يحتمله، ويقولون على الله بغير علم ولا برهان.

كذلك نجد الإمامية الإثنا عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم، وهؤلاء ليس لهم في تفسيرهم المذهبي مستند صحيح يستندون إليه، ولا دليل سليم يعتمدون عليه، وإنما هي أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، وخرافات صدرت من عقول عشش فيها الباطل وأفرخ، فكان ما كان من خرافات وترهات!!

نعم .. يعتمد الإمامية الاثنا عشرية في تفسيرهم للقرآن الكريم ونظراتهم إليه، على أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والخرافات التي لا توجد إلا في عقول أصحابها، فمن ذلك الذي يعتمدون عليه ما يأتي :

أولاً : جمع القرآن الكريم وتأويله، وهو كتاب جمع فيه على رضى الله عنه القرآن على ترتيب النزول (٢).

ثانياً : كتاب أملى فيه أمير المؤمنين عليه السلام ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالا يخضه . ويعتقدون أنه الأصل لكل من كتب في أنواع علوم القرآن، وهم يروون عن على رضى الله عنه هذا الكتاب بطرق عدة، وهو في أيديهم إلى اليوم، ويبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعاً بالقطع الكبير الكامل، كل صفحة منها سبعة وعشرون سطراً (٣).

(٢) أعيان الشيعة: ١٠٤/١.

(١) المرافق: ٣/٣٩٢.

(٣) المرجع السابق: ١٠٤/١ - ١٥٥.

ثالثاً: الجامعة وهي كتاب طوله سبعون ذراعاً من إملاء رسول الله ﷺ وخط علي عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق في عرض الجلد، جمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعاً وعدها من مؤلفات علي باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ﷺ وإملائه. قالوا: وفيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرض في الخدش (١).

رابعاً: الجفر، وهو غير الجامعة وفيه يقول ابن خلدون: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلي وهو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلي، وكتبه، وسماه «الجفر» باسم الجلد الذي كُتب فيه (٢)، لأن الجفر في اللغة هو الصغير، وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني، مروية عن جعفر الصادق.

وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرف عيّنه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه، أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات» (٣).

ويُعرف صاحب أعيان الشيعة «الجفر» بأنه كتاب أملاه رسول الله ﷺ على علي رضي الله عنه، ويذكر في ذلك أقوالاً متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها: «الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال، وحرام، وأحكام، وأصول .. ما يحتاج إليه الناس في أحكام دينهم وما يصلحهم في دنياهم، والأخبار عن بعض الحوادث، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد (٤)، ثم ينكر علي من يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم، ويتمثل بقول أبي العلاء المعري:

لقد عجبوا لأهل البيت لما أروهم علمهم في مسك جفر

ومرأة المنجم وهي معري أرتته كل عامرة وقفر (٥)

خامساً: مصحف فاطمة، جاء في البصائر: «أن أبا عبد الله سأل بعض الأصحاب

(١) أعيان الشيعة: ١/١٦٦ - ١٦٨.

(٢) المعروف من كتب اللغة أن الجفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، وفي القاموس: الجفر من

أولاد الشاء ما عظم واستكرش. (٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٣.

(٤) أعيان الشيعة: ١/١٨٢. (٥) المرجع السابق: ١/١٨٤.

عن مصحف فاطمة، فقال: إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها ويحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها. وكان على عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة» (١).

هذه هي أهم الأشياء التي يستند إليها الإمامية الإثنا عشرية في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وهي كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا في عقول الشيعة.. وكيف يكون سائغاً ومقبولاً أن يبنى تفسير القرآن وفهم معانيه على أوهام وأباطيل؟ لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى فيقول:

«وأعجب من هذا التفسير - يعنى تفسير المعتزلة - تفسير الروافض للقرآن، وما يدعون من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هارون بن سعد العجلي، وكان رأس الزيدية فقال:

الم نر أن الرافضين تفرقوا
فطائفة قالوا: إمام، ومنهم
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم
برئت إلى الرحمن من كان رافض
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضي
ولو قال: إن الفيل ضب لصدقوا
وأخلف من بول البعير فإنه
فقبح أقوام رموه بفسرية

فكلهم فى جعفر قال منكرا
طوائف سمته النبي المظهورا
برئت إلى الرحمن ممن تجفرا
بصير بباب الكفر.. فى الدين أعورا
عليها، وإن يمضوا على الحق قصرا
ولو قال: زنجي تحول أحمر
إذا هو للإقبال وجّه أدبرا
كما قال فى عيسى الفرى من تنصرا (٢)

(١) نفس المرجع: ١٨/١.

(٢) هذا الذى ذكره ابن قتيبة عن هارون بن سعد العجلي، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هارون بن سعد العجلي وهو يرويه عن جعفر الصادق، ويمكن دفع هذا التناقض بأن نقول: إن هارون بن سعد العجلي، وكان رافضياً مغالياً أول أمره، وكان يروى هذا الجفر ويصدق به ثم رجع عن مذهبه وغلوه وتصديقه بالجفر، وقال مقالته التى رواها ابن قتيبة بعد توبته، وهذا الذى ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام عن هارون ابن سعد العجلي (٦/١١) وخلاصته: إن هارون بن سعد العجلي - ويقال: الجعفى الكوفى الأعور - قال أحمد: روى عنه الناس.. وهو صالح. وروى عن ابن معين أنه قال: ليس به بأس، وذكره ابن حبان فى الثقات، وذكره أيضاً فى الضعفاء، قال: وكان غالباً فى الرفض لا تحل عنه =

قال أبو محمد : وهو جلد جفر ادَّعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجه إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، فمن ذلك قولهم في قول الله عز وجل: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل: ١٦]: إنه الإمام ورث النبي ﷺ علمه. وقولهم في قول الله عز وجل: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ [البقرة: ٦٧]: إنها عائشة رضی الله عنها، وفي قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ [البقرة: ٧٣]: إنه طلحة والزبير. وقولهم في الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر رضی الله عنهما. . . والجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو بن العاص. . . مع عجائب أرغب عن ذكرها، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها.

وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر، فإنه قال ذات يوم: ما سمعتُ بأكذب من بنى تميم، وزعموا أن قول القائل:

بيت زرارة محتب بفنائمه ومجاشع، وأبو الفوارس نهشل

إنه في رجال منهم . . قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت: بيت الله. وزرارة: الحجر، قيل: فمجاشع؟ قال: رمز . . جشعت بالماء. قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قبيس، قيل له: فنهشل؟ قال: نهشل . . أشده، وفكر ساعة ثم قال: نهشل: مصباح الكعبة، لأنه طويل أسود، فذلك نهشل.

وهم أكثر أهل البدع اقتراً ونحلاً، فمنهم قوم يقال لهم البيانية، ينسبون إلى رجل يقال له «بيان»، قال لهم: إلى أشار الله تعالى إذ قال: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وهم أول من قال بخلق القرآن. ومنهم المنصورية، أصحاب أبي منصور الكسفي، وكان قال لأصحابه: في نزل قوله: ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ [الطور: ٤٤] . . ومنهم الخناقون والشداخون، ومنهم الغرابية، وهم الذين ذكروا أن علياً رضی الله عنه كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب، فتغلط جبريل عليه السلام حيث بعث إلى عليّ لشبهه به.

قال أبو محمد: ولا نعلم في أهل البدع والأهواء أحداً ادَّعى الربوبية لبشر غيرهم، فإن عبد الله بن سبأ، ادَّعى الربوبية لعلی فأحرق علی أصحابه بالنار، وقد في ذلك:

= الرواية بحال وروي عن ابن معين أيضاً أنه قال: كان من غلاة الشيعة، وقال الساجي: كان يغلو في الرفض، وحكى أبو العرب الصقلي عن ابن قتيبة أنه أنشد له شعراً يدل على نزوعه عن الرفض (انتهى ملخصاً). ونزع عن الرفض معناه: رجع عنه، يقال: نزع عن الأمر إذا انتهى عنه وأباه، كما أفاده صاحب القاموس وغيره.

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أجمت نارى ودعوت قنبرا (١)
ولا نعلم أحداً ادعى النبوة لنفسه غيرهم، فإن المختار بن أبي عبيد ادعى النبوة
لنفسه، وقال: «إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته، فصدقه قوم واتبعوه، وهم
الكيسانية» (٢).

هذا ولا يفوتنا أن نقول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، وأشهر ما
بقي منها إلى اليوم ثلاث فرق، وهى: الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية -
وهم المسمون بالباطنية - والزيدية.

أما الإمامية الإثنا عشرية، فينتشرون اليوم فى بلاد إيران، وبلاد العراق كما يوجد
منهم جماعة بالشام.

وأما الإسماعيلية، فينتشرون فى بلاد الهند، كما يوجدون فى نواح أخرى متفرقة،
وزعيمهم أغاخان الزعيم الهندى الإسماعيلى المعروف (٣).
وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.

إذن . . فالأجداد بنا أن نمسك عن موقف هذه الفرق البائدة من تفسير القرآن، ما
دامت قد بادت ولم يبق لها أثر، وما دمنا لم نقف لها على شئ فى التفسير أكثر من
هذه النبذ المتفرقة التى وجدناها للبعض منهم وجمعناها من بطون الكتب المختلفة.
والذى يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك، هو تلك الفرق الثلاث التى لا تزال
موجودة إلى اليوم، محتفظة بتعاليمها وآرائها. وسنبداً أولاً بالإمامية الإثنا عشرية، ثم
الإمامية الإسماعيلية، ثم بالزيدية، فنقول وبالله التوفيق:

* * *

(١) قنبر هو مولى على الذى تولى طرحهم فى النار.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ - ٨٨.

(٣) وهو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت، والحسن هذا من نسل على بن أبى

طالب (انتهى من ضحى الإسلام: ٢٢٥/٣).

١ - موقف الإمامية الإثنا عشرية من تفسير القرآن الكريم

للإمامية الإثنا عشرية معتقدات يدينون بها، وينفردون بها عن عداهم من طوائف الشيعة. وهم حين يعتقدون هذه المعتقدات لا بد لهم - ما داموا يقرون بالإسلام ويعترفون بالقرآن ولو بوجه ما - أن يقيموا هذه العقائد على دعائم من نصوص القرآن الكريم، وأن يدافعوا عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل وقوة الدليل.

● موقفهم من الأئمة وأثر ذلك في تفسيرهم:

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يلقون على الأئمة نوعاً من التقديس والتعظيم، ويرون أن الأئمة «أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجة الله البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»^(١)، ويرون أن الإمامة «زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين»^(٢).

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يُحكّم عليه، وفوق الناس في طينته وتصرفاته، فإننا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التي للأنبياء والرسل، وأنه مُشَرَّعٌ ومُنْفَذٌ، وأن الله قد فوَّضَ النبي والإمام في الدين، ويروون عن الصادق أنه قال: «إن الله خلق نبيه علي أحسن أدب وأرشد عقل، ثم أدب نبيه فأحسن تأديبه فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .. ثم أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ثم بعد ذلك فوَّضَ إليه دينه، فوَّضَ إليه التشريع فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، و﴿مَنْ يَطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] .. الله فوَّضَ دينه إلى نبيه. ثم إن نبي الله فوَّضَ كل ذلك إلى علي وأولاده سلَّمتم وجحدته الناس، فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله، وما جعل الله لأحد في خلاف أمرنا»^(٣).

وحيث إن الله تعالى خلق النبي وكل إمام بعده علي أحسن أدب وأرشد عقل، فلا يختار النبي ولا الإمام إلا ما فيه صلاح وثواب، ولا يخطر بقلب النبي ولا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأمة، فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلى رأى النبي ورأى الإمام، مثل الزيادة في عدد ركعات الفرض، ومثل تعيين النوافل من

(١) ضحى الإسلام: ٣/ ٢١٥ نقلاً عن أصول الكافي ص ٩٣. (٢) المرجع السابق.

(٣) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٨٧.

الصلاة والصيام، وذلك إظهاراً لكرامة النبي والإمام، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحي، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام، وله في الشرع شواهد: حرم الله الخمر، وحرم النبي كل مسكر فأجازة الله، وفرض الله الفرائض ولم يذكر الجد، فجعل النبي للجد السادس، وكان النبي يُبَشِّرُ وَيُعْطَى الْجَنَّةَ عَلَى اللَّهِ وَيَجِيزُهُ اللَّهُ.

وأيضاً فوَّضَ اللَّهُ للنبي والأئمة من بعده أمور الخلق، وأمور الإدارة والسياسة من التأديب والتكميل والتعليم، وواجب على الناس طاعتهم في كل ذلك. قالوا: وهذا حق ثابت دلت الأخبار عليه.

وأيضاً فوَّضَهُمُ اللَّهُ تعالى في البيان، بيان الأحكام والإفتاء وتفسير آيات القرآن وتأويلها، ولهم أن يُبَيِّنُوا ولهم أن يسكنوا، ولهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا وعلى أى وجه شاءوا، تَقْيِيَةٌ مِنْهُمْ وَعَلَى حَسَبِ الْأَحْوَالِ وَالْمَصْلِحَةِ. والتفويض بهذا المعنى يدعون أنه حق ثابت لهم، والأخبار ناطقة به وشاهدة عليه. يقول صاحب الكافي: «سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة في كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب، أجاب ثلاثة بأجوبة ثلاثة، واختلاف الأجوبة في مسألة واحدة كان يقع إما على سبيل التَقْيِيَةِ وإما على سبيل التفويض» (١).

وهناك نوع آخر من التفويض يثبتونه للنبي والأئمة، ذلك هو أن النبي أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة، وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق في كل واقعة، كما كان لصاحب موسى في قصة الكهف، وكما وقع لدى القرنين (٢).

ثم كان من توابع هذه العقيدة التي يعتقدونها في أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة، وقالوا بالمهدى المنتظر، وقالوا بالرجعة، وقالوا بالتقية، وهذه كلها عقائد، رسخت في أذهانهم وتمكنت من عقولهم، فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسروا القرآن وفقاً لهواهم، وفهموا نصوصه وتأولوها حسبما تمليه عليهم العقيدة ويزينه لهم الهوى.. وهذا تفسير بالرأى المذموم، تفسير من اعتقد أولاً، ثم فسّر ثانياً بعد أن اعتقد.

● تأثر الإمامية الإثنا عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك في تفسيرهم:

هذا.. وإن الإمامية الإثنا عشرية لهم في نصوص القرآن التي تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تتفق إلى حد كبير مع نظرة المعتزلة إلى هذه النصوص نفسها، ولم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا في مسائل قليلة، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذي كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ

(٢) المرجع السابق ص ٨٩.

(١) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٨٩.

المعتزلة، كما يظهر لنا جلياً أن هذا الارتباط في التفكير شئ قديم غير جديد، فالحسن العسكري، والشريف المرتضى، وأبو علي الطبرسي، وغيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية في تفاسيرهم التي بأيدينا، والتي تعرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر قريباً، بل إننا نجد الشريف المرتضى في أماليه يحاول محاولة جدية أن يجعل علياً رضى الله عنه معتزلياً أو رأس المعتزلة على الأصح، وقد تقدمت لنا مقالته التي عرضنا لها عند الكلام عن أماليه^(١). وليس من شك في أن هذه النظرات الاعتزالية كان لها أثر كبير في تفسيرهم، وسنقف على شئ من ذلك إن شاء الله تعالى.

● تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية في تفاسيرهم:

ثم إن الشيعة لهم في الفقه وأصوله آراء خالفوا بها من سواهم، فمثلاً نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل. أما الكتاب فلهم رأى فيه سنعرض له فيما بعد.

وأما السنة فهم غير أمناء عليها ولا ملتزمين ما صح منها، وسنعرض لها فيما بعد أيضاً.

وأما الإجماع فليس حجة بنفسه، وإنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم في المجمعين، أو كان الإجماع كاشفاً عن رأيه في المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر، فهو في الحقيقة داخل في الكتاب أو السنة.

وأما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس، ولا الاستحسان، ولا المصالح المرسلة، لأن ذلك كله ليس حجة عندهم^(٢).

وفي الفقه لهم مخالفات يشذون بها، فمثلاً تراهم يقولون: إن فرض الرجلين في الوضوء هو المسح دون الغسل، ولا يجوزون المسح على الخفين، وجوزوا نكاح المتعة، وجوزوا أن تورث الأنبياء، ولهم مخالفات في نظام الإرث، كإنكارهم للعلول مثلاً ولهم مخالفات كثيرة غير ذلك في مسائل الاجتهاد.

(١) يرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله، والحسن - ابنا محمد ابن الحنفية - وعن أبي هاشم أخذ واصل بن عطاء (مقدمة تبين كذب المفتري ص ١٠، ١١)، ويقول أبو الحسن الطرائفي الشافعي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ في كتابه رد أهل الأهواء والبدع: «عندما بايع الحسن بن علي معاوية وسلم له الأمر، اعتزل جماعة من أصحاب علي الحسن ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة» (انتهى من هامش تبين كذب المفتري ص ١٠).

(٢) انظر أعيان الشيعة: ١/٤٧٧ - وقد مثل للدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. (انظر ص ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد علي تقى الحيدري - طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠).

لهذا كان طبيعياً أن يقف الإمامية الإثنا عشرية من الآيات التي تتعلق بالفقه وأصوله موقفاً فيه تعصب وتعسف، حتى يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص ويجعلوها أدلة لآرائهم ومذاهبهم، كما كان طبيعياً، أن يتأولوا ما يعارضهم من الآيات والأحاديث. بل ووجدناهم أحياناً يزيدون في القرآن ما ليس منه ويدعون أنه قراءة أهل البيت، وهذا إمعان منهم في اللجاج، وإغراق في المخالفة والشذوذ ..

● احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها:

ويظهر لنا أن الإمامية الإثنا عشرية لم يجدوا في القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم وميولهم، فراحوا (أولاً) يدعون أن القرآن له ظاهر وباطن بل وباطن كثيرة، وأن علم جميع القرآن عند الأئمة، سواء في ذلك ما يتعلق بالظواهر وما يتعلق بالباطن، وحجروا على العقول فمنعوا الناس من القول في القرآن بغير سماع من أئمتهم.

وراحوا (ثانياً) يدعون أن القرآن وارد كُله أو جُلّه في أئمتهم ومواليهم، وفي أعدائهم ومخالفهم كذلك.

وراحوا (ثالثاً) يدعون أن القرآن حُرّف وبُدّل عما كان عليه زمن النبي ﷺ، وكل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال على تركيز عقائدهم وإيهام الناس أنها مستقاة من القرآن الذي هو المنبع الأساسي والأول للدين.

وأعجب من هذا .. أنهم أخذوا يموهون على الناس، ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول الله ﷺ وعلى أهل بيته، وطعنوا على الصحابة إلا نفرًا قليلاً منهم، ورموهم بكل نقيصة في الدين، ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عندما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التي يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله ﷺ.

ويحسن بنا ألا نمر سراعاً على هذه النقط الأربع بالذات، بل علينا أن نقف أمامها وقفة طويلة ودقيقة حتى نستطيع أن نقف على مدى هذه الأوهام والدعاوى. التي كان لها أكبر الأثر في اتجاه التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، فنقول وبالله التوفيق:

١ - ظاهر القرآن وباطنه:

يقول الإمامية الإثنا عشرية: إن القرآن له ظاهر وباطن. وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعد ما صح لدينا من الأحاديث التي تقر هذا المبدأ في التفسير^(١)، غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد. بل تجاوزوا إلى

(١) سيأتي بيان المراد بالباطن قريباً، وسترى أنه بمعزل عما ذهب إليه الإمامية.

القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطناً، ولم يقتصرُوا على ذلك بل تبادوا وأدعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه في الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتعلق بهما.

● حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه :

ولقد كان من أثر هذا الرأي في القرآن، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به على أن يعقدوا صلة بين المعاني الظاهرة والمعاني الباطنة للقرآن، ويعملوا بكل ما في وسعهم وطاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يُقربوا هذا المبدأ من عقول الناس ويجعلوه أمراً سائغاً مقبولاً. ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه، قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة محمد عليه السلام: ﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ .. فهم يقولون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى، ومراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطنى هو علوم الأئمة عليهم السلام، ويقولون: إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما وبمثل هذا يوفقون بين المعاني الظاهرة والباطنة، حتى لا يكون مستبعداً إرادة الله لمعنى خاص حسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، وإرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

● حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن :

وكأنى بالإمامية الإثنا عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه .. كأنى بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا يكفى في حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوهم عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الدينى، الذى يشبه الإرهاب الكنىسى للعامة فى العصور المظلمة، من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم إعمال العقل، وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية، فقالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ولا بد أن يكون ذلك على سبيل التفصيل إن وصل إليه علم ذلك مفصلاً عن آل البيت، ويكفى فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل. قالوا: ولا يجوز أن ينكر الباطن بحال، وعليه أن يُسَلَّم بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت وإن لم يفهم معناه، ولو أن إنساناً آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن أو الظاهر والباطن جميعاً.

وحرصاً منهم على تعطيل عقول الناس ومنعهم من النظر الحر فى نصوص القرآن الكريم، قالوا: إن جميع معانى القرآن، سواء منها ما يتعلق بالظاهر وما يتعلق بالباطن،

اختص بها النبي ﷺ والأئمة من بعده، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله، لأن القرآن نزل في بيتهم «وأهل البيت أدري بما في البيت». أما من عداهم من الناس فلا يرون أدنى شبهة في قصور علمهم، وعدم إدراكه لكثير من معاني القرآن الظاهرة، فضلاً عن معانيه الباطنة، قالوا: ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول في القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم، غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ولرسوله ولأهل البيت، واستمد علومه من أهل البيت حتى آنس من نفسه العلم والمعرفة.. جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له، لأنه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم، وقد قيل: «سلمان منا آل البيت».

● أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن:

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطني للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطرباً بالغاً ومجالاً رحباً، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وترينه لهم العقيدة، فأخذوا يتصرفون في القرآن كما يحبون، وعلى أي وجه يشتهون، بعد ما ظنوا أن العامة قد اتخذت بأوهامهم وسلّموا بأفكارهم ومبادئهم.

فقالوا - مثلاً - إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعاني الباطنة لبعض الآيات إلى ما سيحدث في المستقبل من حوادث، ويعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يُفرعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى، وما يزينه في أعينهم داعي العقيدة وسلطانها، فيقولون مثلاً في قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الانشقاق: ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾: إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كذلك مكّن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللفظ الذي يراد به العموم ظاهراً، كثيراً ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن، فمثلاً لفظ «الكافرين» الذي يراد به العموم، يقولون: هو في الباطن مخصوص بمن كفر بولاية عليّ.

كما مكّنهم أيضاً من أن يصرفوا الخطاب الذي هو موجه في الظاهر إلى الأمم السابقة أو إلى أفراد منها، إلى من يصدق عليه الخطاب في نظرهم من هذه الأمة بحسب الباطن، فمثلاً قوله تعالى في الآية (١٥٩) من سورة الأعراف: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.. يقولون فيه: قوم موسى في الباطن هم أهل الإسلام.

ولقد مكّنهم أيضاً من أن يتركوا أحياناً المعنى الظاهر ويقولوا بالباطن وحده، كما في قوله تعالى في الآيتين (٧٤ - ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا

نصيراً... فالظاهر غير مراد عندهم، ويقولون: عنى بذلك غير النبي، لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجهاً للنبي عليه الصلاة والسلام، وإنما هو معنى به من قد مضى، أو هو من باب: «إياك أعنى واسمعى يا جارة».

كذلك مكّنهم هذا المبدأ من إرجاع الضمير إلى ما لم يسبق له ذكر، كما في قوله تعالى في الآية (١٥) من سورة يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقرآنٍ غيرِ هَذَا أو بدله﴾.. حيث يفسرون «أو بدله» بمعنى أو بدّل علياً. ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقاً في شأن خلافته وولايته.

ومما ساغ لهم أن يقولوه بعد تقريرهم لمبدأ القول بالباطن: أن تأويل الآيات القرآنية لا يجرى على أهل زمان واحد، بل عندهم أن كل فقرة من فقرات القرآن لها تأويل يجرى في كل آن، وعلى أهل كل زمان، فمعانى القرآن على هذا متجددة. حسب تجدد الأزمنة وما يكون فيها من حوادث. بل وساغ لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: إن الآية الواحدة لها تأويلات كثيرة مختلفة متناقضة، وقالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها في شيء وآخرها في شيء آخر.. ولا شك أن باب التأويل الباطنى باب واسع يمكن لكل من وجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره.

وليس لقائل أن يقول: إن رسول الله ﷺ صرح بأن للقرآن باطناً، وأن المفسرين جميعاً يعترفون بذلك ويقولون به، فكيف توجه اللوم إلى الإمامية وحدهم؟ ليس لقائل أن يقول ذلك، لأن الباطن الذى أشار إليه الحديث وقال به جمهور المفسرين، هو عبارة عن التأويل الذى يحتمله اللفظ القرآنى، ويمكن أن يكون من مدلولاته. أما الباطن الذى يقول به الشيعة فشىء يتفق مع أذواقهم ومشاربهم، وليس فى اللفظ القرآنى الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

● مخلصهم من تناقض أقوالهم فى التفسير:

ثم إن الإمامية الإثنا عشرية، أحسوا بخطر موقفهم وتجرجه عندما جوزوا أن يكون للآية الواحدة أكثر من تفسير واحد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفاسير. فأخذوا يموهون على العامة ويضللونهم، فقرروا من المبادئ ما أوجبوا الاعتقاد به أولاً على الناس ليصلوا بعد ذلك إلى مخلص يتخلصون به من هذا المأزق الحرج، فكان من هذه المبادئ التى قرروها وأوجبوا الاعتقاد بها ما يأتى:

أولاً: أن الإمام مفوض من قبل الله فى تفسير القرآن.
ثانياً: أنه مفوض فى سياسة الأمة.

ثالثاً: التقية.

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصاً للخروج من هذا التناقض الذى وقع فى تفاسيرهم التى يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوضاً من قبل الله فى تفسير

القرآن مخلص لهم، لأن باب التفويض واسع، وكونه مفوضاً فى سياسة الأمة مخلص أيضاً، لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسامع، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله، والقول بالتقية مخلص أوسع من سابقه، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب، تقية منه. « قيل عند الباقر: إن الحسن البصرى يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذى ربح بطونهم أهل النار، فقال الباقر: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً، فليذهب الحسن يميناً وشمالاً، لا يوجد العلم إلا ههنا.. وأشار إلى صدره» (١).

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال وما يرى فيه المصلحة.. تقية منه أيضاً وبنوا على هذا « أن الإمام إن قال قولاً على سبيل التقية، فللشيعى أن يأخذ به ويعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعى إلى أن قول الإمام كان على سبيل التقية» (٢).

ونحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجأون إلى هذه التقية.. تقية الخداع فى الأخبار، والنفاق فى الأحكام، وإنما هى تمحلات يتمحلونها، ليخلصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذى وقعوا فيه.

٢ - موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم:

ثم إن الإمامية الإثنا عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة على ومن بعده من الأئمة والتزام حبيهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقي الأصول، كما قرروا وجوب طاعة الأئمة، واعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين.

قرر الإمامية هذا كله، ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن على ما قرروه، بل وزادوا على ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت فى الأئمة ومن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت فى مخالفيهم وأعدائهم، بل ويدعون ما هو أكثر من ذلك فيقولون: إن جل القرآن بل كله، أنزل فى الإرشاد إليهم، والإعلان بهم، والأمر بموافقتهم، والنهى عن مخالفتهم.

ولقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جلّه أو كله وارد فى أئمتهم ومن والاهم، وفى أعدائهم ومن وافقهم، أن قالوا: إن ما نسبته الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميرة سره أن أراد إدخال النبى ﷺ والأئمة معه، قالوا: وهو مجاز شائع معروف، بل وبالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحياناً كما فى قوله تعالى: ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [البقرة: ٥٧].. وأجل من أن يظلم، ولكن خلطنا

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٠

(٢) المرجع السابق ص ٨٢

بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] بمعنى الأئمة منا^(١).

وأعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة، والإله والرب، مراداً به الإمام، وكذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه، وتأولوا ما أضافه الله إلى نفسه من الإطاعة والرضا والغنى والفقر مثلاً، بما يتعلق بالإمام كإطاعته، ورضاه، وغناه، وفقره... إلخ، ويعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف.. ولكن لا شيوخ لمثل هذا المجاز ولا معرفة لنا به إذ المجاز المتعارف عليه بين العلماء هو استعمال اللفظ في غير ما وُضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، وأين العلاقة هنا؟ وإذا تكلفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم.. لم هذا التكلف والعدول إلى المجاز، وقد تقرر أنه لا يُعدل إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة؟

٣ - تحريف القرآن وتبديله:

وأحسب أن الإمامية الإثنا عشرية، عزَّ عليهم أن يكون القرآن غير صحيح في عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفينهم، وكأني بهم وقد تساءلوا فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جُلِّه وأردأ في شأن الأئمة وشيعتهم، وفي شأن أعدائهم ومخالفينهم، فلمَ لم يأت القرآن بذلك صريحاً مع أنه المقصود أولاً وبالذات؟ ولمَ اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟... كأني بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا الاعتراض الذي أخذ بخناقهم، وراحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا: إن القرآن الذي جمعه علي عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذي لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرَّف ومبدَّل، حُذِفَ منه كل ما ورد صريحاً في فضائل آل البيت، وكل ما ورد صريحاً في مثالب أعدائهم ومخالفينهم. وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم في ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروى الكافي عن الصادق: أن القرآن الذي نزل به جبريل على محمد سبعة عشر ألف آية، والتي بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقي مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه علي^(٢).

ويقولون: إن سورة «لم يكن» كانت مشتملة على اسم سبعين رجلاً من قريش بأنسابهم وآبائهم. وإن سورة «الأحزاب» كانت مثل سورة «الأنعام» أسقطوا منها

فضائل أهل البيت. وإن سورة «الولاية» أُسقطت بتمامها... وغير ذلك من خرافاتهم.

وأخف ما لهم فى هذا الموضوع هو «أن جميع ما فى المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل. والباقي مما نزل عند المستحفظ لم يضع منه شيء، وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله على ما جمعه أمير المؤمنين على»^(١).

ولقد اصطدم مدعو التحريف والتبديل، بنصوص من القرآن صريحة فى هدم مدعاهم هذا، فمن تلك النصوص: قوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. . . ولكن سرعان ما تخلّصوا منها بالتأويل فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أى عند الأئمة، وبمثل هذا التأويل يتخلّصون من باقى النصوص المعارضة لهم.

واضطدوا أيضاً بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر على عقائدهم ومبادئهم. أولهما: كيف تعتمدون فى تعاليمكم ومعتقداتكم على هذا القرآن الذى بأيدينا وقد جزتمم التحريف والتبديل فيه؟

ثانيهما: كيف توجبون على الناس أن يعترفوا بفضائل آل البيت، ويتبرأوا من أعدائهم ومخالفينهم، والحجة غير قائمة عليهم بعد أن حُذِفَ كل ذلك من القرآن؟ وقد أجابوا عن الأول: بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم على، وآل محمد، وأسماء المنافقين.

وأجابوا عن الثانى: بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فلم يكتف بما جاء صريحاً فى فضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم، بل أشار إلى ذلك ودل عليه بحسب بطون القرآن وتأويله، وهذا قد سلم من التحريف والتبديل قطعاً، فبقية الحجة قائمة على الناس وإن بدّلوا الظاهر وحرّفوه.

والحق أن الشيعة هم الذين حرّفوا وبدّلوا. فكثيراً ما يزيدون فى القرآن ما ليس منه، ويدعون أنه قراءة أهل البيت؛ فمثلاً نراهم عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. . . يزيدون: «فى شأن على»، وهى زيادة لم ترد إلا من طريقهم، وهى طريق مطعون فيها.

وهم الذين حرّفوا القرآن أيضاً حيث تألوه على غير ما أنزل الله «قبيل للصادق: ألم يكن على قوياً فى دين الله؟ قال: بلى. قيل: فكيف ظهر عليه القوم ولم يدفعهم؟ وما منعه من ذلك؟ قال الصادق: آية فى كتاب الله منعه. قيل: أى آية؟ قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٥]، كان الله ودائع مؤمنون فى أصلاب

قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن عليّ يقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر عليّ على من ظهر فقتلهم»^(١).

وروى العياشي عن الباقر أنه قال: لما قال النبي: «اللَّهُمَّ اعِزِ الْإِسْلَامَ بِعِمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِعِمْرِ بْنِ هِشَامٍ» أَنْزَلَ اللَّهُ: «وَمَا كُنْتَ تَتَّخِذُ الْمُضْلِينَ عَضُدًا»^(٢).
[الكهف: ٥١] ..

وتقول أصول الكافي في قوله تعالى في الآية (١٣٧) من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ : إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبي أولاً، ثم كفروا حيث عرّضت عليهم ولاية عليّ، ثم آمنوا بالبيعة لعليّ، ثم كفروا بعد موت النبي. ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة^(٣).

هذه أمثلة نذكرها ونضعها بين يدي القارئ الكريم ليحكم بنفسه حكماً صادقاً: أن هؤلاء الشيعة، الذين يدعون التحريف والتبديل للقرآن، هم أنفسهم المحرّفون لكتاب الله، المبدّلون فيه، بصرفهم ألفاظ القرآن إلى غير مدلولاتها وتقولهم على الله بالهوى والتشهي.

٤ - موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة:

ولقد رأى الإمامية الإثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، وأمام كثرة من الروايات الماثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وفي تلك الأحاديث وهذه الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة، لذا كان بديهاً أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها، وإما بطريق تأويلها. والرد عندهم سهل ميسور، ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولاً لصحابي، وإما أن تكون قولاً لرسول الله ﷺ عن طريق صحابي، وهم يُجرّحون معظم الصحابة، بل ويكفّرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولاً، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما.. وأما التأويل فباب واسع.. وهم أهل وأربابه.

فمثلاً نجدهم يردون الأحاديث والآثار التي ثبتت في تحريم نكاح المتعة ونسخ حله، كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين ويقولون: إنها من رواية المغيرة بن شعبه رأس المنافقين. ثم نجدهم يُسلّمون صحة الرواية جداولاً ولكنهم يتأولونها فيقولون: إن الخف الذي كان يلبسه النبي ﷺ كان مشقوقاً من أعلى، فكان يمسخ على ظاهر قدمه من هذا الشق.. وظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف.

(٢) الوشيعة ص ٦٤

(١) الوشيعة ص ٦٥ نقلاً عن الوافي: ٣/١٥٢

(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلاً عن أصول الكافي: ٣/٣٢٥

فإذا كان هؤلاء لا يقبلون أقوال الصحابة، ولا يثقون بروايتهم عن رسول الله ﷺ، إذن فمن يقبلون قوله؟ ومن يثقون بروايته؟

الذى عليه الشيعة إلى اليوم، أنهم لا يأخذون الحديث إلا من كان شيعياً، ولا يقبلون تفسيراً إلا من كان شيعياً، ولا يثقون بشيء مطلقاً إلا إذا وصل إليهم من طريق شيعي!!... وبهذا حصروا أنفسهم في دائرة خاصة، حتى كأنهم هم المسلمون وحدهم، فإن عاشوا وسط السنين فباطنهم لأنفسهم، وظاهرهم للثقة!!

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد - حد الثقة بأشياعهم والاتهام لمن عداهم - بل وجدنا الرؤساء من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفي وغيره - قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، وقلوبهم الطيبة الطاهرة، وحبهم لآل بيت رسول الله ﷺ، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته، ويضمنونها ما يرضى ميولهم المذهبية، وأغراضهم السيئة الدنيئة، ولم يفهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم...

ويعجبني هنا ما ذكره أبو المظفر الإسفرائيني في كتابه «التبصير في الدين»، وهو: أن الروافض «لما رأوا الجاحظ يتوسع في التصانيف، ويصنف لكل فريق، قالت له الروافض: صنّف لنا كتاباً، فقال لهم: لست أدرى لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها، فقالوا له: إذن دلنا على شيء نتمسك به، فقال: لا أرى لكم وجهاً إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئاً تزعمونه، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف لكم سبباً تستندون إليه غير هذا الكلام... فتمسكوا بحمقهم وغباوتهم بهذه السوءة التي دلهم عليها، فكلما أرادوا أن يخلقوا بدعة أو يخترعوا كذبة، نسبوها إلى ذلك السيد الصادق، وهو عنها منزّه ومن مقالاتهم في الدارين برىء»^(١).

● أهم الكتب التي يعتمدون عليها في رواية الأحاديث والأخبار:

هذا... وللإمامية الإثنا عشرية كتب كثيرة، يعتمدون عليها في رواية الأحاديث والأخبار، وينزلونها من أنفسهم منزلة سامية، ويثقون بها وثوقاً بالغاً، فمن أهم هذه الكتب ما يأتي:

أولاً: كتاب «الكافي»، وهو أهم الكتب عند الإمامية الإثنا عشرية على الإطلاق، وهو لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (أو ٣٢٩ هـ). وهو عندهم كالبخارى عند أهل السنة، وهذا الكتاب يحتوي على ستة عشر ألف حديث، قسمها - كما فعل أهل السنة - إلى صحيح، وحسن، وضعيف. وهو يقع في ثلاث مجلدات: المجلد الأول في الأصول، والثاني والثالث في الفروع.

ثانياً : كتاب « التهذيب » لمحمد بن الحسن الطوسي، مجلدان في الفروع.
 ثالثاً : كتاب « من لا يحضره الفقيه »، لمحمد بن علي بن بابويه. وهو في الفروع.
 رابعاً : كتاب « الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار »، لمحمد بن الحسن الطوسي (اختصره من كتاب التهذيب).

هذه الكتب الأربعة، هي أمهات كتب الشيعة التي يعتمدون عليها ويثقون بها، وقد جمعها كتاب « الوافي » في ثلاثة مجلدات كبيرة، وهو من مؤلفات محمد بن مرتضى، المعروف بملا محسن الكاشي.

وهناك كتب في الحديث ذكرها صاحب « أعيان الشيعة » غير ما تقدم، منها: « وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة »، للشيخ محمد بن الحسن العاملي، و« بحار الأنوار في أحاديث النبي والأئمة الأظهر »، للشيخ محمد الباقر، وهي لا تقل أهمية عن الكتب المتقدمة^(١).

والذي يقرأ في هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات وأضاليل إلا أن يحكم بأن متونها موضوعة، وأسانيدها مفتعلة مصنوعة، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع، لأنهم ينقصهم الذوق، وتعوزهم المهارة، وإلا فأى ذوق وأية مهارة في تلك الرواية التي يروونها عن جعفر الصادق رضي الله عنه، وهي: أنه قال: « ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فإن علم الله أن المولود من شيعتنا حجب من ذلك الشيطان، وإن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان أصبعه في دبر الغلام فكان مأبونا، وفي فرج الجارية فكانت فاجرة »^(٢).

أظن أن القارئ معي في أن الذي وضع هذه الرواية واختلقها على جعفر الصادق، رجل ينقصه الذوق، وتعوزه المهارة، ونحن أمام هذه الأحاديث والروايات، لا يسعنا إلا أن نردها رداً باتاً، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إن غالب هذه الأحاديث يروونها بدون سند، بل يعتمدون على مجرد وجودها في كتبهم. تروى كتب الشيعة أن إماماً من أئمة أهل البيت أولاد علي يقول: « ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله ». ولكن بأي سند؟ تجيب كتب الشيعة: « إن شيوخنا رووا عن الباقر وعن الصادق وكانت التقية شديدة، وكانت الشيوخ تكتم الكتب، فلما خلت الشيوخ وماتت وصلت كتب الشيوخ إلينا، فقال إمام من الأئمة: حدثوا بها فإنها صادقة »^(٣).

(١) أعيان الشيعة: ١/ ٢٩٢ - ٢٩٣ (٢) الوشيعة ص ٤٠ نقلاً عن الوافي: ١٣/ ١٤

(٣) الوشيعة ص ٤٦ - ٤٧ نقلاً عن الوافي: ١/ ١٢٤ وشرح الكافي: ١/ ٢٨

ثانياً: إن ما روى من هذه الروايات مسنداً لا بد أن يكون فى سنده شيعى متعصب لمذهبه، وقد قال رجال الحديث: إنه لا تُقبل رواية المبتدع الذى يدعو لمذهبه ويروج له.

ثالثاً: إن القاعدة المتفق عليها بين المحدثين: أن « كل متن يناقض المعقول. أو يخالف الأصول. أو يعارض الثابت من المنقول، فهو موضوع على الرسول»، وغالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة.

وكلمة الحق والإنصاف: أنه لو تصفح إنسان أصول «الكافى»، وكتاب «الوافى» وغيرهما من الكتب التى يعتمد عليها الإمامية الإثنا عشرية، لظهر له أن معظم ما فيها من الأخبار موضوع وضع كذب وافتراء، وكثير مما روى فى تأويل الآيات وتنزيلها، لا يدل إلا على جهل القائل بها وافتراءه على الله، ولو صح ما ترويه هذه الكتب من تأويلات فاسدة للقرآن، لما كان قرآن، ولا إسلام، ولا شرف لأهل البيت، ولا ذكركم لهم.

وبعد.. فغالب ما فى كتب الإمامية الإثنا عشرية فى تأويل الآيات وتنزيلها، وفى ظهر القرآن وبطنه، استخفاف بالقرآن الكريم، ولعب بآيات الذكر الحكيم... وإذا كان لهم فى تأويل الآيات وتنزيلاتها أغلاط كثيرة، فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جهل منهم، بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل، والكثير منها صدر عمداً عن هوى ملتزم، وللشيعة - كما بينا - أهواء التزمتها.

● أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية:

للإمامية الإثنا عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير، منها ما تم، ومنها ما لم يتم، ومنها القديم، ومنها الحديث. ومنها ما بقى، ومنها ما اندثر، وكلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال، واختلاف فى المنهج الذى سلكه مؤلف كل منها ومن هذه الكتب ما يأتى:

١ - تفسير الحسن العسكرى، المتوفى سنة ٢٤٥ هـ (أربع وخمسين ومائتين من

الهجرة) لم يتم، وهو مطبوع فى مجلد واحد، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٢ - تفسير محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمى الكوفى المعروف

بـ «العياشى» من علماء القرن الثالث الهجرى، وهو من أمهات كتب التفسير عند

الشيعة. وعليه يعولون كثيراً، ولم يقع لنا هذا التفسير.

٣ - تفسير على بن إبراهيم القمى. فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع

الهجرى، وهو تفسير مختصر يعتمد عليه أرباب هذا المذهب كثيراً، وهو مطبوع فى

مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

- ٤ - التبيان: للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ (ستين وأربعمائة من الهجرة). وهو الذي استمد منه الطبرسي تفسيره، وقد ذكر صاحب «أعيان الشيعة» أنه يقع في عشرين مجلداً. ولم يقع لنا هذا التفسير أيضاً^(١).
- ٥ - مجمع البيان: لأبي عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ (ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة)، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الأزهرية^(٢).
- ٦ - الصافي: لمحمد بن مرتضى، الشهير بملا محسن الكاشي، من علماء القرن الحادي عشر الهجري، وهو مطبوع في مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.
- ٧ - الأصفى: للمؤلف السابق، وهو مختصر من الصافي، ومطبوع في مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى بمكتبة الجامعة المصرية «جامعة القاهرة».
- ٨ - البرهان: لهاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني، المتوفى سنة ١١٠٧ هـ (سبع ومائة بعد الألف من الهجرة)، وهو مطبوع في مجلدين، وموجود بدار الكتب المصرية.
- ٩ - مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: للمولى عبد اللطيف الكازراني، ولم يقع لنا هذا التفسير والموجود منه مقدمته فقط، وهي مطبوعة في مجلد كبير وموجودة في دار الكتب المصرية.
- ١٠ - المؤلف: لمحمد مرتضى الحسيني، المعروف بنور الدين، من علماء القرن الثاني عشر الهجري، وهو مخطوط في مجلد واحد صغير، وموجود بدار الكتب المصرية.
- ١١ - تفسير القرآن: للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوي، المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ (اثنين وأربعين بعد الألف من الهجرة)، وهو مطبوع في مجلد كبير، وموجود بدار الكتب المصرية.
- ١٢ - بيان السعادة في مقامات العبادة: لسليمان بن محمد بن حيدر الخراساني، من علماء القرن الرابع عشر الهجري، وهو مطبوع في مجلد كبير وموجود بدار الكتب المصرية.

(١) ذكر لي عندما كنت بالعراق: أن هذا التفسير يجرى طبعه في النجف، ولعله تم الآن.
 (٢) وقد طُبع أخيراً في إيران في عشر مجلدات، كما أن دار التقريب بالقاهرة تقوم على طبعه الآن وقد صدر منه جزء واحد.

١٣ - آلاء الرحمن في تفسير القرآن: لمحمد جواد بن حسن النجفي المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ (اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة). لم يتم، والموجود منه بدار الكتب المصرية الجزء الأول، وهو كل ما كتبه المؤلف، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه.. وهو يبدأ بسورة الفاتحة، وينتهي عند قوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا﴾... الآية.

هذا هو أعم ما عرفناه من كتب التفسير عند الإمامية الاثنا عشرية وقد أمكنني أن أطلع على كل ما ذكرته من الموجود من هذه الكتب. وعلى غير ما ذكرته مما هو موجود أيضاً بدار الكتب المصرية، فوقفت بنفسى على مشارب أصحابها فى التفسير، واتجاهاتهم فى فهمهم لكتاب الله تعالى، وكفى كنت أود أن أطلع على تفسير العياشى، وتفسير الطوسى، لأقف بنفسى على هذين الكتابين الاعتباريين أهم المراجع فى التفسير عند أرباب هذا المذهب.

وأظننى لست بحاجة إلى أن أتكلم عن كل كتاب اطلعت عليه من كتب هؤلاء القوم فى التفسير، بل يكفينى أن أتكلم عن بعض منها، وهو أهمها، مع ملاحظة أن يكون كل كتاب يقع عليه اختيارى، له لون خاص من ألوان التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، وطابع يمتاز به عما سواه.

وقد رأيت أن الخص أولاً مقدمة «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» للكارزانى، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، ومن وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص.

ثم أتكلم عن «تفسير العسكرى»، لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين، الذين عندهم علم الكتاب كله، ظاهره وباطنه.

ثم عن «مجمع البيان» للطبرسى، لأنه يمثل لنا تفسير معتدلى الإمامية الإثنا عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم، ومقدار دفاعهم عن آرائهم وعقائدهم.

ثم عن «الصافى» لملا محسن الكاشى، لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفى الإمامية الإثنا عشرية.

ثم عن «تفسير القرآن» للسيد عبد الله العلوى، لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذى جمع بين الاختصار وكثرة الفائدة.

ثم عن «بيان السعادة فى مقامات العبادة»، لسلطان بن محمد الخراسانى، لأنه يمثل لنا التفسير الصوفى الفلسفى عند الإمامية الإثنا عشرية.

هذه هى أهم الكتب التى سأتكلم عنها وعن مؤلفيها وسأعرض لها مرتبة حسب ترتيبها فى الذكر، فأقول مستمداً من الله العون والتوفيق:

١ - مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار (للمولى عبد اللطيف الكازراني)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو المولى عبد اللطيف الكازراني مولداً، النجفي مسكناً^(١).

● التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير يُعد في الحقيقة مرجعاً مهماً من مراجع التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، وأصلاً لا بد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه ومن على شاكلته في فهمه لكتاب الله، وتنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية وهواه الشيعي... ولكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، ونحن لم نعثر عليه في مكتبة من مكاتبنا المصرية؟ أليس هذا يُعد من قبيل الحكم على ما نجهله، والقول فيما ليس لنا به علم؟؟... لا، فالكتاب وإن لم نظفر به ولم نطلع عليه، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التي قدّم بها مؤلفه لتفسيره هذا.

وجدت هذه المقدمة في دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها في تفسيره، وتوضح لنا كثيراً من آرائه في فهم كتاب الله وتبين في صراحة تامة كيف تأثر المولى الكازراني بعقيدته الزائفة، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأي حال من الأحوال. وها أنا ذا أُلخص لك أهم المباحث التي تشتمل عليها هذه المقدمة. وبذلك نُلقي ضوءاً على هذا التفسير المفقود ونُعطي القارئ فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف ومنهجه في تفسيره.

● المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره وعلى منهجه الذي سلكه فيه :

يجد القارئ أول ما يقرأ في هذه المقدمة، بياناً مسهباً من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذي حمله على تأليفه لهذا التفسير، وعن المنهج الذي نهجه لنفسه فيه وسار عليه، كما يكشف لنا في أثناء بيانه هذا، عن نظريته لكتاب الله وموقفه من تفسيره. تلك النظرة التي لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذي لا نرتاب في أنه موقف من أغراه مذهبه وخدعه هواه.

يقول المؤلف في المقدمة (ص ٢ - ٣) ما نصه: «... إن من أبين الأشياء وأظهرها، وأوضح الأمور وأشهرها، أن لكل آية من كلام الله المجيد... وكل فقرة من

(١) لم نقف له على ترجمة أكثر من ذلك.

كتاب الله الحميد، ظهراً وبطناً، وتفسيراً وتأويلاً، بل لكل واحدة منها - كما يظهر من الأخبار المستفيضة - سبعة بطون وسبعون بطناً، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيراً من تنزيلها وتفسيرها، في فضل شأن السادة الأطهار، وإظهار جلاله حال القادة الأخيار، أعنى النبي المختار، وآله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفار. بل الحق المتين، والصدق المبين، كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير، أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفي أوليائهم نزلت، وأن جُلُّ فقرات التوبيخ والتشنيع، والتهديد والتفويض، بل جملتها في مخالفهم وأعدائهم وردت.

بل التحقيق الحقيق - كما سيظهر عن قريب - أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم، والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عزَّ وجلَّ جعل جملة بطن القرآن في دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جُلَّ ظهره في دعوة التوحيد والنبوة والرسالة.

وهذه الدعاوى من المولى الكازراني لا نكاد نسلّمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادّعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة على ما ذهب إليه، أمر لا يلتفت إليه ولا يُعوّل عليه، لأن ما يعنيه من الأخبار والأحاديث لا يعدو أن يكون موضوعاً لا أصل له. ومن هذا يتضح لنا أن هذا الشيعي مبالغ في تشييعه إلى حد جعله يُحمّل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله، ويجعله موزعاً بين دعوة الحق ودعوة الباطل، تلك بظاهر القرآن وهذه بباطنه !!

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسري الشيعة الذين سبقوه، وسكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة في تفاسيرهم، وبين عذرهم في ذلك.

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدرة، ويدور بخاطره وخلده، أن يجمع ما تفرّق من الأخبار الماثورة عن آل البيت ويشرح مضامينها، ثم يلحق نصوص كل آية بسورتها، وذلك كله في كتاب مستقل، ولكن حال بينه وبين ما تطمح إليه نفسه - حقبة من الزمن - تفرّق باله، وتشتّت حاله، وكثرة أشغاله، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التي كان حريصاً على جمعها، فرأى أن الذي تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل والتسامح فيه، فاستخار الله واستعان بحوله وقوته على تحقيق مرامه، فشرع في جمع الروايات وتحريرها، وتفسير الآيات وتقريرها.

ثم بين لنا هدفه الذي يرمى إليه من وراء هذا التفسير، وهو أنه أراد أن يُفسر آيات القرآن ويقرر معانيها على وجه منيف، وبيان لطيف، وطور رشيق، وطرز أنيق، بطريق

الإيجاز والاختصار، مع ذكر لب المقصود من الآيات والأخبار، بحيث يوضح غوامض أسرارها، ويكشف عن خبايا أستارها، ويتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها، ويرفع النقاب عن وجوه رموزها، من غير تطويل ممل، ولا اختصار زائد مخل. ثم بين لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير، وهو يتلخص فيما يأتى:

١ - يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة ويحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار.

٢ - أنه لا يتعرض لبيان جميع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جُلّها.

٣ - أنه إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤ - أنه يحرص كل الحرص على ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن.

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير «ببركات أول من آمن بالله بعين الإيقان، وثانى أول ما خلق الله قبل الكون والمكان، قاسم درجات الجنان ودركات النيران... إمام المشارق والمغرب، أمير المؤمنين أبى الحسين على بن أبى طالب». ثم قال: «وكنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلنى فى شيعته الخاصين. وأوليائه الخالصين. وأن تدركنى شفاعته المقبولة، وحمائته المأمولة، وجعلته خدمة لسدته السنية، وثوابه هدية إلى حضرته العلية، وسميته «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار».

وبالجملة.. فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت إما صريحاً أو استخلاصاً من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، ولا يُعوّل على صدق نسبتها إلى من تُنسب إليه من علماء آل البيت رضى الله عنهم.

بعد هذا البيان قال المولى عبد اللطيف الكازراني: «ولندكر قبل الشروع فى المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها ههنا». ونستعرض هذه المقدمات الثلاث فنراه قد جعل المقدمة الأولى فى بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية والإمامة، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد والنبوة والرسالة، وأن الأصل فى تنزيل آيات القرآن بتأويلها، إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبى والأئمة صلوات الله عليهم وإعلام عز شأنهم وذل حال

شانئهم، بحيث لا خير أخبر به إلا وهو فيهم وفي أتباعهم وعارفيهم، ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفي مخالفيهم. قال: «ويستبين ذلك في ثلاث مقالات: المقالة الأولى: في بيان ما يوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة في خصوص هذه المقدمة، وهي تتم بفصول. ثم ذكر ثلاثة فصول.

جعل الفصل الأول منها في بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطوناً وآياته تأويلات. وأن مفاد فقرات القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد، بل لكل منها تأويل يجرى في كل أوان وعلى أهل كل زمان...»

ثم ساق الروايات الدالة على ذلك وكلها مسندة إلى آل البيت، فمن هذه الروايات ما رواه العياشي وغيره عن جابر قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك، كيف أحببت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لى: يا جابر؛ إن للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً. يا جابر؛ وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن.. إن الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه».

ثم عقب المولى عبد اللطيف على هذا الخبر فقال: «دلالة مبدأ هذا الخبر على وجود تأويل له باطن وظاهر، وعلى تعدد تأويل آية واحدة، وعلى عدم تنافى تأويل أول آية في شيء وآخرها في آخر، بل عدم تنافى التفسير بالظاهر في أولها والباطن في آخرها أو بالعكس ظاهرة، فإذا سمعت شيئاً من ذلك فلا تنكره، لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل والتأويل، وبما فيه إصلاح السائل والسماع، ولهذا ورد: «إن القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه». ويؤيده ما في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]: هذه نزلت في رحم آل البيت ﷺ وقد يكون في قرابتك، فلا تكونن ممن يقول للشيء إنه في شيء واحد».

ومن هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبي حكيم الزاهد قال: حدثني أبو عبد الله بمكة قال: «بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلى فاستحسن صلاته، فقال: يا هذا الرجل؛ إن الله تبارك وتعالى ما بعث نبيه ﷺ بأمر من الأمور إلا وله متشابه وتأويل وتنزيل، وكل ذلك على التعبد، فمن لم يعرف تأويل صلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة».

ثم عقب المولى على هذا فقال: «الظاهر أن المراد بالمتشابه الشبيه، وبالتأويل الباطن، وبالتنزيل الظاهر، وبالتعبد سبيل الإطاعة، والمعنى: أن كل ما جاء به النبي

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر به في الظاهر فله شبهه ونظير مأمور به في الباطن، ويلزم الإيمان بهما جميعاً، فمن لم يعرف شبهه الصلاة وباطنها الذي هو الإمام وإطاعته - كما سيأتي - فصلاته الظاهرية ناقصة» (ص ٣ - ٤).

وعند الفصل الثاني في ذكر الأخبار الصريحة في أن بطن القرآن وتأويله، إنما - هو بالنسبة إلى الأئمة - وولايتهم وأتباعهم وما يتعلق بذلك، فكان من جملة الأخبار التي ساقها: ما رواه الكليني بإسناده إلى أبي بصير قال: «قال الصادق عليه السلام: يا أبا محمد؛ ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلها بخير إلا وهي فينا وفي شيعتنا، وما من آية نزلت يذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهي في عدونا ومن خالفنا».

وما نقله عن الكافي وتفسير العياشي وغيرهما، عن محمد بن ميمون، عن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].. قال: القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرم الله في الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحل الله في الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الحق.

وما رواه عن الباقر عليه السلام قال: قال النبي ﷺ في خطبته يوم الغدير: «معاشر الناس؛ هذا عليّ أحقكم بى، وأقربكم إلىّ؛ والله وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضا إلا فيه، وما خاطب الذين آمنوا إلا بدأ به، وما نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه. معاشر الناس؛ إن فضائل عليّ عند الله عز وجل، وقد أنزلها عليّ في القرآن أكثر من أحصيتها في مكان واحد، فمن نبأكم بها وعرفها فصدّقوه».

وما رواه عن عبد الله بن سنان أنه قال: قال ذريح المحاربي: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]. فقال: المراد لقاء الإمام، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام وقلت له: جعلت فداك، قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾.. قال: أخذ الشارب، وقص الأظافر، وما أشبه ذلك. فحكيت له كلام ذريح فقال: صدق ذريح وصدقت، إن للقرآن ظاهراً وباطناً ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟ ثم عقّب المولى على هذا فقال: «الكلام من الإمام عليه السلام صريح في أنهم عليهم السلام كانوا يكتمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس، حتى عن ابن سنان الذي كان من فضلاء أصحابه» (ص ٥).

وعقد الفصل الثالث في بيان نبذ مما يدل على وجوه تناسب الظواهر مع البطون، وجهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال: «اعلم أن ما دلّت عليه الأخبار الماضية، وما تدل عليه الأخبار التي ستأتي من المعاني الباطنة والتأويلات. ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة، بل أكثرها ومعظمها على طريق

التجوز، ونهج الاستعارة، وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، إذ أبواب التجوز في كلام العرب واسعة وموارده في عبارات الفصحاء سائغة، فلا استبعاد إن أراد الله عز وجل بحسب الاستعمال الذي يدل عليه ظاهر اللفظ معنى، وبحسب التجوز الذي تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر، وسنشير إلى كثير من وجوه التناسب في المقدمة الثالثة وغيرها، ولكن نذكر في هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يُستفاد من أخبار الأئمة الأطياب، ونرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب، ونكشف عنها النقاب، تبصرة لمن أراد التبصر من أولى الألياب. وأما إحاطة العلم بالجميع، فهي للراسخين في العلم ومن عنده علم الكتاب.... كما سيظهر في الفصل الأخير.

فأعلم أنه يمكن تبیین المرام في هذا المقام من وجوه وإن أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال، فكان مما ذكره في الوجه الرابع ما جاء في البصائر عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿ وَظِلٌّ مِّمْدُودٌ * وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ * وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣] قال: يانصر؛ إنه ليس حيث يذهب الناس، وإنما هو العالم وما يخرج منه.

ثم قال المولى: «قال شيخنا العلامة - رحمه الله - : «لعل المعنى ليس حيث يذهب الناس من انحصار جنة المؤمنين في الجنة الصورية الأخروية، بل لهم في الدنيا أيضاً بركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود في الدنيا والآخرة. وماء مسكوب من علومهم الممتعة التي بها تحيا النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التي لا تنقطع عن شيعتهم ولا يمتنعون منها، وفُرْشٌ مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم، بل لا يتلذذ المقرَّبون في الآخرة أيضاً في الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التي كانوا يتنعمون بها في الدنيا كما تشهد به الأخبار» - انتهى كلامه أعلى الله مقامه - فتأمل ولا تغفل عن جريان مثله في ساير نعم الجنة، مثل أنهار الخمر وأمثالها، كما يشهد له ما سيأتى في الأنهار واللبن من تأويل اللبنة والخمر بعلوم الأئمة عليهم السلام. وسيأتى في الجنة والنار وما بمعناهما من تأويل الأولي بولاية الأئمة، والثانية بعداوتهم، وأمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار في الترجمات الجاثية المناسبة لها فافهم، وكذا كل ما ورد ظاهره في العذاب، والمسوخ والهلاك، والموت البدني، ونحو ذلك، فباطنه في الهلاك المعنوي بضلالاتهم وحرمانهم عن العلم والكمالات، وموت قلوبهم ومسوخها وعميها عن إدراك الحق، فهم إن كانوا في صور البشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل، وإن كانوا

ظاهراً بين الأحياء، فهم أموات، ولكن لا يشعرون، إذ لا يسمعون الحق، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه، ولا ينطقون به، ولا يأتي منهم أمر ينفعهم في أخراهم، فهم شر من الأموات، وكذا كل ما كان في القرآن مما ظاهره في النهي عن القبائح الصورية، وتحريم الخبائث الظاهرية، كالزنا، والسرقة، والإيذاء، ونحوها مما هو علامة رذالة حالة فاعله، ودليل خبائث طبع مرتكبه، كالخمر، والميتة، والدم، ونحوها مما تستقدر منه الطبائع السليمة، وتنفر منه القرائح المستقيمة، فبطنه في النهي عن القبائح الباطنة التي هي معاداة الأئمة عليهم السلام، والزجر عن الخبائث المعنوية التي هي أعيادهم ومنكرو ولايتهم والفضائل التي هي فيهم، فإنها أيضاً - في استقذار الأرواح، وتخبيث القلوب، واستنفار العقول... ونحو ذلك مثل الخبائث الظاهرة والقبائح الصورية. بل أشد كما لا يخفى، وهكذا حال بطون ما ظاهره في الترغيب بالمبرات والأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم ومعرفتهم، وبالجملة المدار على تشبيه الأمور المعنوية بالصورية، كالحياة والموت والانتفاعات والتصورات الروحانية بالجسمية... وهكذا في البواقي. على أن في هذا الأخير تناسباً آخر أيضاً، وهو أنه لا خفاء في كون النبي والأئمة صلوات الله عليهم وسائط معرفة العبادات والمأمورات، وأنهم الأصل في قبولها فلا بعد إن أريدوا بها في بطن القرآن. وكذا لا بعد في كون أعيادهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث والمنهيات» (ص ٨).

وفي الوجه الخامس من العلل، علل ما ورد من تأويل معرفة الله، وعبادته، ومخالفته وأسفه وظلمه ورضاه وسخطه وأمثالها بمعرفة الإمام وإطاعته ومخالفته وأسفه وظلمه ورضاه وسخطه، وكذا تأويل الإمام يد الله، وعينه، وجنبيه، وقلبه، وسائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه وخصه به، بالإمام عليه السلام، وما ورد من الأخبار في تأويل روح الله ونفسه، ولفظ الجلالة والإله والرب الإمام عليه السلام... علل هذه التأويلات وما شاكلها بأن الذي جرى من عادة الأعظم والملوك والأكابر أن ينسبوا ما وقع من خدمهم بأمرهم إلى أنفسهم تجوزاً، وكذا قد ينسبون مجازاً ما يصيب خدمهم ومقربيه من الإطاعة والخير والشر إلى أنفسهم، إظهاراً لجلالة حال أولئك الخدم عندهم، وإشعاراً بأنهم في لزوم المراعاة والإطاعة ودفع الضر عنهم وجلب النفع إليهم بمنزلة مخاديمهم وفي حكمهم، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم. قال الصادق عليه السلام - كما سيأتي عن الكافي وغيره - إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكن خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مرهوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، لأنهم جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه... (الخبر).

وفي رواية أخرى: ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، ثم أنزل بذلك قرآناً على نبيه... (الخبر). قال المولى: وسيأتي بقية الأخبار مفصلة. وهكذا كثيراً ما يُطلق تجوزاً على مُقربى الرجل وأعوانه أسامى جوارحه وأعضائه وسائر ما يختص به فى النفع كما يقال للوزير الكامل المُقرب عند السلطان النافع له جداً: إنه يده وسيفه وعينه... وهكذا بناء على أنه فى الدفع والنفع والقرب والعزة مثل ذلك، حتى إنه قد يقال: إنه روحه ونفسه، بل ربما يقال إنه السلطان تجوزاً بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته، ومخالفته مخالفته، بحيث لا يرضى بغير ذلك (ص ٩).

ثم عقد الفصل الرابع فى بيان ما يدل على أن الواجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه، وتنزيله وتأويله معاً، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وبسائر ما يتعلق بذلك جميعاً مفصلاً أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدري بما فى البيت. وأن من أنكر الظاهر كافر وإن أقر بالباطن، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة الخطابية والإسماعيلية وغيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر، وكذا بالعكس: أى إنكار الباطن وإن أقر بالظاهر، على كل مؤمن أن لا يجترىء بإنكار ما نُقل عن الأئمة عليهم السلام فى ذلك تفسيراً وتأويلاً وإن لم يفهم معناه ولم يدرك مغزاه.

ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك، وكلها منسوبة إلى أهل البيت، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الله عزَّ وجلَّ قد أرسل رسله بالكتاب وتأويله، فمن كذَّب بالكتاب أو كذَّب بما أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك» (ص ٩).

ومنها ما روى عن الهيثم التميمي، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: يا هيثم؛ إن قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وجاء قوم من بعدهم فأمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً... لا إيمان بظاهر إلا بباطن، ولا بباطن إلا بظاهر» (ص ٩).

وعقد الفصل الخامس فى بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام، وما ذكر فى الأخبار الواردة فى المنع من تفسير القرآن بالرأى وبغير سماع من الأئمة، وفى الجمع بينها وبين ما يعارضها من الآيات والروايات وتوجيه ما هو الحق فى ذلك، فقال: اعلم أنه لا ريب فى اطلاع النبى والأئمة على جميع وجوه آيات القرآن ومعانيها كلها، ظواهرها وبواطنها، تنزيلها وتأويلها، وأنهم الذين عندهم علم الكتاب كله، كما أنزله الله فى بيتهم، فإن أهل البيت أدري بما فى البيت، وقد

دلّت على هذا أخبار متواترة... فمنها: ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال: والله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام: إن الله علّم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل. قال: فعلم رسول الله ﷺ علماً عليه السلام، قال: وعلمنا... (الخبير).

وما فيه أيضاً بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع به، فقال أبو الحسن: فنحن نعرف حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، وسفريه وحضرته، وفى أى ليلة نزلت من آية، فيمن نزلت، وفيمن أنزلت... (الخبير).

واستدل أيضاً بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال: ما يستطيع أحد يدعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره وباطنه إلا الأولياء. ثم قال المولى عبد اللطيف بعد سياقه لهذه الروايات وغيرها: «وأما غيرهم عليهم السلام فلا شبهة فى قصور علومهم وعجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر والتنزيل، فضلاً عن البواطن والتأويل، بلا إسناد من الأئمة العاملين، وعناية من الله رب العالمين».

ثم بعد أن استدلل على ذلك بما ذكره من روايات سابقة ولاحقة قال: «ولهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام». ثم استدلل على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى وضرورة الرجوع إلى الأئمة فى فهم معانيه، فكان مما استدلل به، ما رواه عن العياشى عن الصادق عليه السلام قال: «من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»، وما روى عن النبى ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وما ورد فى تفسير الإمام عليه السلام من قوله: «أتدرون من المتمسك بالقرآن الذى له الشرف العظيم؟ هو الذى يأخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين، وقياس الفاسقين، فأما من قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله، وإن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار» (ص ١١ - ١٢).

ثم بعد ذلك وفق بين الخيار الدالة بظواهرها على حرمة التفسير بالرأى وبين ما ورد من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]... وقوله عليه السلام: «القرآن ذلول ذو وجوه، فأحمله على أحسن الوجوه»، وغير ذلك من الآيات والأخبار الدالة على أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً فقال: لنا فى هذا المقام توجيهات عديدة نشير ههنا إلى ما هو الأكمل منها، وهو ما ذكره بعض محققى علمائنا، وقال: «الصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ورسوله ولأهل البيت،

وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث يحصل له المراس في العلم والطمأنينة في المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، فله أن يستفيد من القرآن غرائب، ويستنبط منه نُبداً من عجائبه، وليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من وجوده بعجيب، وليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين، وقد عدُّوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله في الراسخين في العلم، العالمين بالتأويل» (ص ١٢ - ١٣).

ثم قال: وأما التفسير المنهي عنه، فقد نزله المحقق أيضاً على وجهين: أحدهما: أن يكون للمفسر في الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج به على تصحيح غرضه ومدعاه، فيكون قد فسّر القرآن برأيه، أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وهذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلاً كذلك قد يكون مع العلم، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبس على خصمه، ومن هذا ما مرّ من تأويلات الباطنية، وقد يصدر مثله عمن له غرض صحيح، لكن يطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كالذى يدعو مثلاً إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: قال الله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٢٤]، ويشير إلى قلبه ويومئ إليه أنه المراد بفرعون. قال ذلك المحقق: وهذا قد يساغله بعض الوعّاظ في المقاصد الصحيحة تحسناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع.

ثانيهما: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسمع والنقل عن الأئمة فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيها من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه... إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع إذ من بادر إلى استنباط المعانى فيها بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من يفسر بالرأى، فلا بد له أولاً من السماع وظاهر التفسير ليتقي مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللّغة التى لا بد منها للفهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩].. فإن معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، والناظر إلى ظاهره العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن

عمياء . ولا يدري أنهم بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم . ومن ذلك الآيات التي سنشير إلى كونها واردة على سبيل الكناية والرموز بحيث لا يطع على ما فيها إلا من تجرّع كؤوس علوم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، كما سيأتي في الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧] من أن المراد ظلم محمد وآله . ومنها ما سيأتي أيضاً في الفصل الثالث من المقالة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَا لَقَدْ تَرَكْنَا لِيهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] من أنه تعالى عنى بذلك غير النبي ﷺ كما قال الصادق عليه السلام: « ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به من قد مضى » وقد روى الكليني وغيره عنه عليه السلام أنه قال: « نزل القرآن بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة» . وعن الباقر عليه السلام: « إذا علم الله شيئاً هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان »، وقد مرّ في حديث جابر قوله عليه السلام: « وليس شئ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن أن الآية ليكون أولها في شئ وأخرها في شئ ».... (الخبر) . وسنذكر عن قريب في فصول المقالة المذكورة وغيرها، ما يوضح حال تفسير الآيات التي كذا شأنها، ليتبصر به الناظر فيما نذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى (ص ١٣) .

ونحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير، ولكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال، بل جعل القرآن تبعاً لرأيه . ونزله على معان تتفق وهواه، ورمى غيره بالداء الذي هو فيه .

ثم ذكر المقالة الثانية، فجعلها في بيان ما يوضح اشتمال كلام الله تعالى، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة صريحاً وتنزيلاً، على ما يتعلق بالولاية والإمامة بطناً وكناية وتأويلاً، بحسب الأخبار الواردة في أن الولاية - أى الإقرار بنبوة النبي وإمامة الأئمة والتزام حبه وإطاعتهم وبغض أعدائهم ومخالفهم - أصل الإيمان، مع توحيد الله عز وجل، بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل إنها بسبب إيجاد العالم، وبناء حكم التكليف، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأنها التي عُرِضت كالتوحيد على الخلق جميعاً، وأخذ عليهم الميثاق، وبُعِث بها الأنبياء، وأنزلت في الكتب، وكُلِّف بها جميع الأمم ولو ضمناً، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد في تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل في حكم الكفر بالآخر . ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، وأن الأئمة مثل النبي في فرض الطاعة والأفضلية بعده على الخلائق أجمعين، وكونهم وسائط ووسائل لسائر عباد الله المكرمين، من الأنبياء والأوصياء والملائكة المقربين... عقد هذه المقالة الثانية لهذا

الغرض فقال: «اعلم أن الأحاديث الغير المحصورة، تدل على هذه الأمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مُجمَع عليه عند علمائنا الإماميين، وقد نص على حقيقتها بل كون جُلّها من ضروريات هذا المذهب أعاضم أصحابنا المحدثين، وكفى في بيان ذلك ما ذكروه من مباحث الإمامة وكتب فضائل الأئمة، وسندكر في هذا الكتاب لها شواهد كثيرة، فلنكتف ههنا بنقل شيء من تصريحات محققى أصحابنا في هذا الباب، وذكر أقل قليل من نصوص الأئمة الأطياب إذ ليس هنا موضع البسط والإطناب، ويكفى ما سنذكره في تبصرة من هو من أولى الألباب «فهنا فصول خمسة»... ثم ساق الفصول الخمسة:

فجعل الفصل الأول منها في بيان نُبذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظم شأن الأئمة وولايتهم وكفر منكريهم.

وجعل الفصل الثانى في بيان نُبذ من الأخبار التى وردت فى خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم، وأن ذلك مناط صحة الإيمان، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية والشك فيهم، وكفر مبغضهم ومخالفيهم.

وجعل الفصل الثالث فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن الإقرار بإمامة الأئمة وحبهم وولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى مدخية صحة الدين وصدق الإيمان، كما أن الإقرار بالنبوة يتلو التوحيد فى ذلك، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة، كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر.

وجعل الفصل الرابع فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى خصوص أن الولاية عُرِضت مع التوحيد على الخلق جميعاً، وأخذ عليهم الميثاق، وُبعث بها الأنبياء، وأنزلت فى الكتب، وكُلّف بها جميع الأمم، وأورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضاً.

وجعل الفصل الخامس فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، وأفضلهم وأكملهم، وأكرمهم بحيث كانت الملائكة والأنبياء تتوسل بهم وولايتهم، وتفخر الملائكة بخدمتهم، وتعلموا التسبيح والتمجيد منهم، وأنهم وولايتهم العلة فى الإيجاد، والأصل فى الطاعة والمعرفة.

ثم ذكر المقالة الثالثة وجعلها فى بيان ما يوضح ورود بطون القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، بحسب الأخبار التى تدل على أن هذه الأمة تقتضى سنن الأمم السابقة، وسيرة من كان قبلهم فى كل أفعالهم وجميع أطوارهم وأعمالهم، كما أنه

كان كذلك فى سائر الأمم، قال: «فإنها بجملتها - يعنى بطون القرآن - تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يترك الإنذار والتبشير فيهم، كما لم يترك بالنسبة إلى سابقهم، وأن يشير إلى الزين والشين فى كل أوان بالنسبة إلى أهل كل زمان. وحيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعده منهم، فلا بد من أطفاه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يُستفاد من التنزيل والتبليغ، ولا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز...».

وقد أورد فى جملة ما أورد من الأخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسي فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ [الانشقاق: ١٩]: أى لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء. وما رواه الكليني فى الصحيح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾.. قال: «يا زرارة؛ أى لتركبن هذه الأمة بعد نبيها طبقاً عن طبق فى أمر فلان، وفلان، وفلان».. قال المولى الكازراني: «أقول: أى كانت ضلالتهم بعد نبيهم مطابقة لما صدر من الأمم السابقة فى ترك الخليفة واتباع العجل والسامري وأشباه ذلك.. قال: ويحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة والفساد» (ص ٢٣ - ٢٤).

ثم ذكر المقدمة الثانية فتكلم فى بيان ما يوضح وقوع تغيير فى القرآن وأنه السرفى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية والإمامة والإشارة إلى فضائل أهل البيت وفرض طاعة الأئمة بحسب بطن القرآن وتأويله، والإشعار بذلك على سبيل التجوز والرموز والتعريض فى ظاهر القرآن وتنزيله فقال: «اعلم أن الحق الذى لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شىء من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى، ما جمعه على عليه السلام وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام... وهكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه. ولهذا - كما قد ورد صريحاً حديث سنذكره - لما أن الله عز وجل قد سبق فى علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين فى الدين، وأنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد فى شأن على عليه السلام وذريته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأساً أو تغييره محرّفين، وكان فى مشيئته الكاملة ومن أطفاه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية، ومحارسة مظاهر فضائل النبى صلى الله عليه وآله والأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء

التكليف، لم يكتف بما كان مصرحاً به منها في كتابه الشريف، بل جعل جُلَّ بيانها بحسب البطون وعلى نهج التأويل، وفي ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل، وأشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوز والتعريض، والتعبير عنها بالرموز والتورية وسائر ما هو من هذا القبيل، حتى تتم حُجَّتُه على الخلائق جميعاً ولو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحاً بأحسن وجه وأجمل سبيل» قال: ويستبين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما ذكره في هذا الفصول الأربعة المشتملة على كل هذه الأحوال.

ثم عقد الفصل الأول في بيان نُبذ مما ورد في جميع القرآن ونقصه وتغييره، من الروايات التي نقلها أصحابه من الإمامية في كتبهم.

وعقد الفصل الثاني في بيان نُبذ مما ورد في جمع القرآن ونقصه وتغييره، والاختلاف فيه من الروايات التي نقلها المخالفون في كتبهم.

وعقد الفصل الثالث في بيان ما وعد به سابقاً، من الخير المشتمل على التصريح بتغيير القرآن، وأنه هو السر في الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية والإمامة على سبيل الرمز والتعريض.

وعقد الفصل الرابع في بيان خلاصة أقوال علمائهم في تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال من أنكر التغيير.

ثم ذكر المقدمة الثالثة وقد عقدها لبيان ما يوضح نُبذاً من التأويلات المأثورة عن الأئمة السادات والمفهومة من بعض الروايات، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية والآيات.

قال: ويُستبان بها أيضاً ما بينته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، وأن في هذا الأمر تأويل ما ورد تنزيهه فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة.. عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال:

«اعلم أن التأويلات التي ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد مختصاً بكلمة أو آية مذكورة في موضع واحد بحيث لا يجرى في

غيرها، ومحل ذكر مورده.

الثاني: ما ورد في آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى في غيرها. بل ربما يكون الورد على سبيل العموم أيضاً، ونحن نذكر هذا القسم في هذه المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص.

الثالث: ما لم يرد في تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها، كقوله عليه السلام: «نحن يد الله»... ونحوه، وهذا أيضاً مما نذكره في هذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه، وفي هذين الأخيرين إذا وصلنا في كتابنا هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما

أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل وموضعه، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص في مواردها. ثم من هذه التأويلات ما هو على نهج الكناية والتعريض والمجازات العقلية. ومنها ما هو من قبيل المجاز اللغوي، وما نحن نرتب هذه المقدمة على مقالتين، نذكر في إحداهما مظاهره على النهج الأول مما لا بد من إفراد ذكره، وفي الأخرى سائر التأويلات العامة مع نصوصها. ثم نلحقها بخاتمة نختم بها المقدمات» (ص ٣٦).

ثم ذكر المقالة الأولى: فجعلها في بيان بعض التأويلات التي لا بد من إفراد ذكرها من حيث عظم فوائدها، وجلبها من قبيل المجازات العقلية، والتجوز في الإسناد، والكناية، والتعريض وإن أمكن التكلف في إدخال بعضها تحت المجاز اللغوي، وقد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول:

جعل الفصل الأول منها: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عز وجل كثيراً ما أراد في كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك. قال: ويدل على هذا أحاديث كثيرة، منها ما سيأتي في تأويل الكافرين: بمن كفر بالولاية، والمنافقين: بمن نافق فيها، والمشركين: بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، وأشبه ذلك.. ثم قال: والحق أنه إذا تأمل بصير في أكثر ما ورد من تفسير البطن علن أن معظم ذلك من هذا القبيل، وهو مجاز شائع ذائع استعماله في كثير من الألفاظ العامة والمطلقة ونحوها... إلخ (ص ٣٦).

وجعل الفصل الثاني: في بيان ما يظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيراً ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق على الماضين من أهل أزمان النبي ﷺ والأئم السالفة بحسب الظاهر، ومراده بحسب التأويل والباطن من صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأمة بالنظر إلى حال الإمامة والولاية وإن لم يكن في ذلك الزمان.. ثم ذكر في ضمن ما رواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله في قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩].. قال: قوم موسى: هم أهل الإسلام. قال المولى: «والظاهر أن مراده عليه السلام: أن نظيره جار فيهم، وإنما ذكر في الآية تمثيلاً لحال هذه الأمة، ويؤيده ما سيأتي في الأئمة (١)، فلا ينافي هذا ما هو الظاهر من الآية من وجود جماعة في قوم موسى هادين إلى الحق صريحاً كما يظهر من بعض الأخبار» (ص ٣٧).

(١) لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ وَقَطَعْنَا هُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا ﴾... الآية [الأعراف: ١٦٠]، حيث يجعل على الأئمة الإثنى عشر.

وجعل الفصل الثالث: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله سبحانه قد يريد بخطابه فى كتابه بحسب التأويل والبطن مخاطباً غير من يفهم من الظاهر كون الخطاب متوجهاً إليه، وكان ذلك فى أثناء الخطاب وبين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر وفى آية واحدة، وذلك كما ورد فى خبر جابر من قوله عليه السلام: «إن الآية لتكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء»، وما ورد فى الكافى وفى تفسير العياشى عن عبد الله بن بكير عن أبى عبد الله قال: نزل القرآن بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، وفيهما أيضاً عن أبى عمير عن حدثه عن أبى عبد الله قال: «ما خاطب الله به فهو يعنى به من قد مضى ذكره فى القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئِكَ لَقَدْ كَدْتُمْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] عنى بذلك غيره. قال بعض المحدثين: لعل المراد من مضى ذكره فى القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملحدون فى آيات... قال: وفى كنز الفوائد عن الأعمش قال: سمعت عطاء بن أبى رباح يقول: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] فقال رسول الله ﷺ: «أنا وعلى نلقى فى جهنم كل من عادانا»... (الخبر) (ص ٣٧).

وجعل الفصل الرابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير فى القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعاً إلى شىء ليس بمذكور صريحاً، بل مقصود بحسب الباطن ومعهود تأويلاً، كالضمائر التى ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك، بلا سبق ذكر ظاهراً. ثم ذكر ما ورد من الأخبار فى ذلك، منها: ما رواه الكلينى عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].. قال: قالوا: أو بدّل علياً.. وما ورد فى كنز الفوائد للكراكي من تأويل أهل البيت فى حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا: ﴿وتجعلون رزقكم﴾ (١): أى أن شكر النعمة التى رزقكم وما من عليكم بمحمد وآله ﴿أنكم تكذبون﴾ أى بوصيه ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ * وأنتم حينئذ تنظرون ﴿إلى وصيه على عليه السلام يبشر وليه بالجنة: ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾: يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين على منكم ﴿ولكن لا تبصرون﴾.. أى لا تعرفون.

ومنها ما ورد فى تفسير القمى عن أبى الشمال عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة المدثر: ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ * نديراً للبشر ﴿[المدثر: ٣٥ - ٣٦] قال: يعنى فاطمة، وكذا قال فى سائر الضمائر التى فى السورة (ص ٣٨).

وجعل الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أنه لا استبعاد فى أن يحمل ما عبر

(١) هى وما بعدها إلى قوله: ﴿ولكن لا تبصرون﴾ [الآيات: ٨٢ - ٨٥ من سورة الواقعة].

عنه بالماضي علي ما هو المستقبل الآتي كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال: روى الكليني في الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: إذا علم الله شيئاً هو كائن أخبر خبر ما قد كان. يعني: إذا كان في علم الله تعالى الكامل وقوع الشيء لا محالة وأنه سيكون قطعاً، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى وكان، سواء أكان ذلك مما يدل عليه ظاهر القرآن وتنزيله، أو باطنه وتأويله، كما هو مقتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثلاً، والثواب والعقاب وسائر ما هو من هذا القبيل كالرجعة وما يكون فيها، وما يصدر من الأمة بالنسبة إلى الإمامة وأمثال ذلك.. قال: ولا يخفى أنه بناء على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور (ص ٣٨).

وجعل الفصل السادس: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التي نسبها الله عز وجله إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿إِن إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ * ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦]، وأمثالها من الكلمات القرآنية فإن السرفيه إدخال النبي ﷺ والأئمة فيها، بل إنهم هم المقصودون في كثير منها. وعد هذا من قبيل المجازات الشائعة في كلام الملوك والأعظم... ثم قال: فلنكتف ههنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه، وذكر أخباراً، منها: ما رواه الكليني في الصحيح عن حمزة ابن بزيع عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم﴾.. فقال: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه.. إلخ، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالحاربة ودعاني إليها»، وقال: ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].. قال: وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر ولا يخفى صراحة في المقصود ههنا.. قال: وفي الكافي وغيره عن زرارة عن أبي جعفر قال: سألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] فقال: إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يُظلم، ولكن خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥].. يعني الأئمة منا (ص ٣٩).

وجعل الفصل السابع: في بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن القرآن وتأويله على الإمام في مواضع عديدة، بل هكذا حال بعض الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه، وأن تأويل ما نسبته الله إلى نفسه

بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة، والإطاعة، والمعرفة، والرضا، والسخط، والمخالفة، والفقر، والغنى... إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته، وإقامته، وإطاعته، ورضاه، وسخطه، وسبه، وأذاه ومخالفته، وغناه، وفقره... ونحو ذلك. وعد ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوز في الإسناد. قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن في ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوي أو التشبيه بالمعنى العرفي. ثم ذكر بعض ما هو نص في بيان المقصود، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن علي عليه السلام أنه قال في حديث له طويل: **إِنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]**، وقوله: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]**، وقوله: **﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]**.. وإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التي ركبها فيهم على جميع خلقه، وأن فعلهم فعله... (الخبر)، وما رواه العياشي في تفسيره عن أبي بصير قال: **سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]** يعني بذلك: لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد، وما جاء في كنز الفوائد للكرامجني عن علي بن أسباط عن إبراهيم الجعفي عن أبي الجارود عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]**.. قال: **أَيُّ إِمَامٍ هَدَى مَعَ إِمَامٍ ضَلَالٌ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ؟** وما رواه القمي في تفسير قوله تعالى: **﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]**.. أن الصادق عليه السلام قال: **أَيُّ رَبِّ الْأَرْضِ، يَعْنِي إِمَامَ الْأَرْضِ، وَمَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْقَمِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨]**... الآية، قال: **مَنْ لَمْ يَقْرَبْ بُولَايَةَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَطَلَ عَمَلُهُ مِثْلَ الرَّمَادِ الَّذِي تَجِيءُ الرِّيحُ فَتُحْمَلُهُ، وَمَا جَاءَ فِي كِنَزِ الْفَوَائِدِ مِنْ تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]**.. أن الإمام عليه السلام قال: **هُوَ يُرَدُّ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]**.. أي من شيعته أبي تراب (ص ٤١).

وأما المقالة الثانية: فهي في بيان سائر التأويلات العامة التي تجرى في غير موضعها وتعم أكثر من موضع واحد مع نصوصها وأدلتها. وقد رتب المولى ما في هذه المقالة على ترتيب حروف الهجاء ونهج فيها منهج كتب اللغة بملاحظة الحرف الأول، ثم الآخر ثم الثاني. فمن ذلك الذي ذكره ما يأتي:

«الإصر» قال: هو في سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف. وفي أساس البلاغة: الإصر: الثقل. وفي القاموس: الإصر - بالكسر: الذنب، وسيأتي في الذنب تأويله. وقد روى الكليني أيضاً عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَيُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ**

وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].. أنه قال: «الإصر: الذنوب التي كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام، فلما عرفوا فضل الإمام وضع عنهم الإصر، قال: قال عليه السلام: الإصر الذنب، وهى الآصار».... (الخبر)، وتأويله ظاهر. وفي تفسير القمى عن الصادق عليه السلام أنه قال من قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١]: أى عهدى، أى عهد الإيمان بالنبي ﷺ ونصرة على عليه السلام.... (ص ٥٠).

«الباطل» قال: الباطل والمبطلون، والباطل ضد الحق وقد ورد تأويله بأعداء الأئمة، وبدولة الباطل، وبما كان عليه بنو أمية وأشباههم من غاضبى الخلافة، كعداوة الأئمة وغيرها، ومنه يظهر المراد بالمبطلين أى مدعى الباطل وأتباعهم، ففي تفسير القمى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ [محمد: ٣] قال: هم الذين اتبعوا أعداء على وآل الرسول.... (الخبر) (ص ٧٠).

«الراجفة» قال: الراجفة، والرادفة، والرجفة، والمرجفون: أصل الرجفة الحركة والاضطراب، ومنها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب. وفى سورة الأحزاب فى الآية (٦٠): ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾.. قال: وسيأتى هناك عن الصادق عليه السلام: إن الراجفة الحسين عليه السلام، والرادفة أبوه على عليه السلام، وأن أول من ينفذ التراب عن رأسه فى الرجفة الحسين عليه السلام. وقد فسرها المفسرون بالنفخ الأول، والرادفة بالنفخ الثانى، وهو أيضاً مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى الصور. وربما أمكن إجراء ما ذكرناه من التأويل فى بعض موارد الرجفة على حسب التناسب، بل يمكن التأويل أيضاً بقيام القائم ورجعة الناس فلا تغفل (ص ١٠٩).

«الزيت والزيتون» قال: أما الزيتون فمعروف. وأما الزيت ففرد منه، ويأتى إن شاء الله فى المشكاة، وفى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم، وفى سورة «التين» ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين، وقد أوله القمى أيضاً بعلى عليه السلام كما سيظهر فى السورة المذكورة، ولعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضاً. وقد قيل فى وجه هذه الاستعارة: إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن مبارك لطيف، وعلى عليه السلام وكذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقربين، وعلومه قوة قلب المؤمنين، وبنوره ونور أولاده الطاهرين اهتدى جميع المهتدين، وقد مثل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى «الطور» (ص ١١٣).

«القبلة» قال فى القاموس: القبلة التى يُصَلَّى نحوها، والجهة، والكعبة، وكل ما يُستقبل - يقال: ما له قبلة ولا دبرة - بكسرهما - أى وجهة، هذا وقد مر فى الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام، وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن،

واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ، ونحو هذا . وفى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام : نحن قبلة الله ، ونحن كعبة الله » وسيأتى المؤيد فى « الكعبة » والله الهادى (ص ١٨٣) .

ثم ذكر الخاتمة ، وجعلها مشتملة على فصلين :

الفصل الأول : فى بيان نُبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال : « اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشر : النبى وفاطمة والأئمة الإثنا عشر . والسور هى هذه : « ألم . ألمص . ألمر . كهيعص . طه . طسم . طس . يس . ص . حم . حمعسق . ق . ن » . . ثم قال : وفى معانى الأخبار بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال : « ألم : حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن ، الذى يؤلفه النبى والإمام عليه السلام ، فإذا دعا به أُجيب » ، قال بعض الأفاضل : فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله ونبيه ، ورموز لم يقصد بها إفهام غيره وغير الراسخين فى العلم من ذُرِّيَّته . أقول : ويؤيده ما فى تفسير الإمام عليه السلام : أن معنى « ألم » : أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها « أ ل م » وهو بلغتكم وحروف هجاتكم ، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين ثم قال : وسنشير فيما ورد فى « ص » إلى ما يدل على أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبى ﷺ ، ولنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها على ترتيبها . فما ورد فى : ألم ، وألمص ، وألمر ، وألمر . ما قيل من أن معنى « ألم » : أنا الله أعلم وأرى . و « ألمص » : أنا الله أعلم وأفضل . وعلى هذا يمكن التأويل بأنه علم حيث اختار محمداً وعلياً وآلهما الطيبين للنبوة والإمامة وأنزل لهم وفيهم كتابه المجيد ، وعلى هذا القياس تأويل ما يأتى بعده . . . الخ (ص ٢٣١) .

ثم قال : وأما « كهيعص » فمعناه : أنا الكافى الهادى ، والوالى العالم الصادق الوعد . أقول : تأويل هذا : ما ورد عنه عليه السلام أيضاً أنه قال : أى كاف لشيعتنا ، هاد لهم ، ولى لهم ، وعده حق ، يبلغ بهم المنزلة التى وعدهم إياها فى بطن القرآن . وما فى الاحتجاج والمناقب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحُجَّة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل « كهيعص » فقال : إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عليها عبده زكريا ، ثم فصلها على محمد ﷺ ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها ، فكان زكريا إذا ذكر محمداً ، وعلياً ، وفاطمة ، والحسن سرى عنه همه وانجلي كربه ، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة . فقال ذات يوم : إلهى ؛ ما بالى إذا ذكرت أربعاً منهم تسليت بأسمائهم من همومى ، وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتى ؟ فأنبأه

تبارك وتعالى عن قصته فقال: «كهيعص» فالكاف: اسم كربلاء، والهاء: هلاك العترة، والياء: يزيد لعنه الله - وهو ظالم الحسين - والعين: عطشه، والصاد: صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع فيها الناس من الدخول عليه.... (الخبر). قال: وسيأتى تتمته في سورتته (ص ٢٢٣).

وجعل الفصل الثاني من الخاتمة في ذكر بعض الفوائد. والفائدة الأولى: بيان فضل آل البيت عليهم السلام. والفائدة الأولى: بين فيها أن دأبه في هذا التفسير على شيئين: أحدهما: تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة إلى طاعة أنبيائه وعصيائهم، بأن المراد الإطاعة وعدمها فيما بلغوا إليهم وأمروهم به من الإقرار بولاية النبي والأئمة، والاعتراف بحقهم، والتمسك بهم، مع التبري من أعدائهم. بعد الإقرار بالله ورسله، وتصديقهم فيما بلغوا جميعاً، لا سيما الولاية.

وثانيهما: تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم وإلى إطاعتهم وإلى معصيتهم وما ورد عليهم من الشر والنقم والخير والنعم وغير ذلك على طوائف هذه الأمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبي والأئمة في أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، والأشرار بالأشرار، وتبيان وجه الشبه في تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتنظيم أصحاب السبت بقتلة ذرية النبي كنبى أمية وبنى العباس مثلاً، وأصحاب الكهف بأبي طالب ونظرائه مثلاً، وأصحاب العجل بأهل السقيفة.... وغير ذلك (ص ٢٣٥).

والفائدة الثانية: بين فيها أن المراد في الباطن بجميع ما حرم الله في القرآن: أئمة الجور، وبما أحل: أئمة الحق، وأنهم أصل كل خير، ومن فروعهم كل بر، وأعداؤهم أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، وأن أعداءهم المراد بالفواحش والمناهى وما يعبد من دون الله (ص ٢٣٦).

والفائدة الثالثة: قال فيها: «إنه تقدم وجوب الإيمان بظاهر القرآن وباطنه معاً، وأن كلاً منهما مقصود الباري، ولكن لما كانت التفاسير المتداولة مشتملة على جُلِّ ما يتعلق بالظاهر، وكان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة، لخلو أكثر التفاسير عنها جميعاً، ومن أكثرها، جعلنا مدار كلامنا على تبیین هذا الأمر وبيان ما يتعلق بالباطن فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصلاً، حذراً من التطويل والخروج عن المقصود الأصلي (ص ٢٣٦).

والفائدة الرابعة: بين فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات والكلمات القرآنية في تفسيره، فمبناه على التجوز في المعنى، أو الإسناد، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات

وأمثالها. قال: ومع هذا لا يجوز ذلك في موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه وفي مثله، أو بحسب العموم والإطلاق الشامل (ص ٢٣٦).

والفائدة الخامسة: بيّن فيها أنه اقتصر في نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد، مخافة التطويل.

قال: فرمما فرّقنا مضمون خير على مواضع، وربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، ولكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث ولا يتغير منه معناه (ص ٢٣٦).

والفائدة السادسة: بيّن فيها أن كل ما ذكره في تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام (ص ٢٣٦).

والفائدة السابعة: بيّن فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعة، وأدعى تواتر الأحاديث المثبتة لها في الجملة وإن كانت مختلفة في تفصيلها وقال: لقد وقفت على أزيد من مائتي حديث فيها، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك (ص ٢٣٧ - ٢٣٩).

ثم قال: «ولیکن هذا آخر ما أردنا إيراده في مقدمات تفسيرنا، ونشرع بعد هذا في أصل التفسير إن شاء الله تعالى وبحولہ وقوتہ وتوفيقہ، حامداً ومُصلياً، ومسلماً والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، حمداً وصلاة وتسليماً كثيراً كثيراً كثيراً»..

ولكن أين هذا التفسير؟!.. قلنا: لم نعثر عليه في مكتبة من مكاتبنا المصرية. وقلنا: إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يُصور لنا معالم التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية.. ولكن ألسنتي معي في أن هذه المقدمة التي لخصت لك أهم مباحثها، تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها في تفسيره، وعن مقدار تأثيره بعقيدته في فهمه لكتاب الله؟ أظن أنك معي في هذا وإليك أسوق أهم القواعد التي سار عليها المولى عبد اللطيف في تفسيره، وهي قواعد استخلصتها والخصتها من مقدمة تفسيره، ولا أحسب أنه تخطأها أو شذ عنها بعد ما دافع عنها وقواها بما استطاع من الأدلة. وهذه هي أهم القواعد:

أولاً: القرآن له ظهر وبطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة وسبعون بطناً، وجملة باطن الكتاب في الدعوة إلى الإمامة والولاية، وجملة ظاهره في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على المدح والإكرام ففي أئمتهم، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على التهديد والوعيد والتوبيخ والتفريع ففي مخالفهم وأعدائهم نزلت.

ثانياً: لا تقتصر معاني الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجري في كل أوان وعلى أهل كل زمان.

ثالثاً: معاني القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة.

رابعاً: المعاني الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز ونهج الاستعارة وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، وهذا في تقديره أمر لا غرابة فيه ولا استبعاد، إذ أن أبواب التجوز في كلام العرب واسعة، وموارده في عبارات الفصحاء سائغة.

خامساً: يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وبسائر ما يتعلق بذلك تفصيلاً أو إجمالاً إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت، ومن أنكر الظاهر وأقر بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر، بل ويجب على كل إنسان أن يصدق بكل ما نُقل عن الأئمة من تفسير وتأويل وإن لم يفهم معناه، ومن الجرأة أن ينكر أحد شيئاً من ذلك لخفائه عليه.

سادساً: علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة، وهذا أمر اختصوا به دون من عداهم، فلهذا لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه وبدون سماع منهم، لأنه لا شبهة في أن من عداهم تقصر علومهم وتعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلاً عن بواطنه وتأويله.

سابعاً: ما علم الله صدوره من هذه الأمة المحمدية في الأزمنة المستقبلية - أي بعد نزول القرآن - أشار الله إليه ونبّه عليه في كتابه الكريم، فكل ما جدّ ويجدّ من الحوادث بعد نزول القرآن يُستفاد من آياته عن طريق تأويلها، وهذا أبلغ في الإعجاز وأجمل للإيجاز، فقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

ثامناً: القرآن الذي جمعه على عليه السلام وتوارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح، وما عداه وقع فيه التغيير والتبديل، فكل ما ورد صريحاً في مدح أهل البيت وذم شأنئهم أُسقط من القرآن أو حُرّف وبُدّل، ولعلم الله بما سيكون من التغيير والتبديل لم يكتف الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة والولاية وفضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم بما صرح به القرآن، بل أرشد إلى ذلك أيضاً بحسب ما يدل عليه باطن اللفظ وتأويله، لتقوم بذلك الحجة على الناس وإن حُرّف القرآن وبُدّل.

تاسعاً: كثيراً ما يريد الله في كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك، كما ورد في تأويل «المشركين» بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام.

عاشراً: ما ورد من الخطاب للأُمم السابقة كثيراً ما يُراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه الخطاب من هذه الأمة بحسب الإمامة والولاية وغيرهما، مع إرادة الظاهر أيضاً مثل: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] أراد في الباطن بقوم موسى: أهل الإسلام.

الحادية عشرة: قد يُراد بالخطاب في الباطن مخاطباً غير من نفهم من الظاهر كون الخطاب له، كما ورد عن أبي عبد الله أنه قال: نزل القرآن بـ «إِيَّاكَ أَعْنِي» واسمعي يا جارة»، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئِكَ لَقَدْ تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤] عني به غير النبي.

الثانية عشرة: قد يرجع الضمير بحسب التأويل والباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحاً، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتَ بِقِرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]: يعنى أو بدّل علياً.

الثالثة عشرة: ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم﴾ [الزخرف: ٥٥] السرفيه إدخال النبي ﷺ والأئمة في مفهومه وهذا مجاز شائع معروف.

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة وما شاكله والضمائر الراجعة إلى الله في الظاهر مراد به الإمام باطناً وتأويلاً، وهذا مجاز شائع معروف.

هذه هي أهم القواعد التي سار عليها المؤلف في تفسيره، وهي كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره.

٢ - تفسير الحسن العسكري

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد الحسن بن عليّ الهادي بن محمد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، الإمام الحادي عشر عند الإمامية الإثنا عشرية، والمعروف بالحسن العسكري^(١)، وهو والد المهدي المنتظر.

ولد سنة ٢٣١ هـ (إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة) وقيل سنة ٢٣٢ هـ.

(١) العسكري نسبة إلى العسكري وهي «سُر من رأى» - سامراء - لأن المعتصم لما بناها وانتقل إليها بعسكره قيل لها «العسكر». وإنما نسب المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه علياً إليها وأقام بها مدة طويلة، فنسب وولده هذا إليها.

بالمدينة على الراجح، وتوفى بـ «سُرَّ مَنْ رَأَى» سنة ٢٦٠ هـ (ستين ومائتين). ودفن بها بجانب أبيه (١).

● التعريف بهذا التفسير:

عثرنا على هذا التفسير في دار الكتب المصرية فوجدناه منسوباً إلى الإمام أبي محمد الحسن العسكري، ومروياً عنه برواية أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن سيار، وهما من الشيعة الإمامية، وقد تلقيا هذا التفسير وكتباه عن الحسن العسكري في سبع سنين. ولهما في تلقي هذا التفسير عن الحسن العسكري قصة غريبة في مقدمة الكتاب حدثاً بها فقلاً ما ملخصه: كنا صغيرين. وكان أبوانا إماميين، وكانت الزيدية هم الغالبين بـ «إستراباذ»، وكنا في إمارة الحسن بن زيد العلوي، الملقب بالداعي إلى الحق، إمام الزيدية، وكان كثير الإصغاء إليهم، يقتل الناس لسعائياتهم، فخاف أبوانا الوشاية بهما عنده فخرجنا بنا وبأهلينا إلى حضرة الإمام أبي محمد الحسن بن علي بن محمد أبي القائم، فلما دخلا عليه قال لهما: مرحباً بالآوين إلينا، المتجئين إلى كنفنا، قد تقبل الله سعيكما، وآمن روعكما، وكفاكما أعداءكما، فانصرفا آمنين على أنفسكما وأموالكما، قالا: فماذا تأمر أيها الإمام؟ أن نرجع في طريقنا إلى أن ننتهي إلى بلد خرجنا منه؟ وكيف ندخل ذلك البلد ومنه هربنا وطلب سلطان البلد لنا حثيث، ووعيده إيانا شديد؟ فقال عليه السلام: خلفاً علي ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذي يشرفهما الله به، ثم لا تحفلا بالسعاة ولا بوعيد المسعى إليه، فإن الله عزَّ وجلَّ يقصم السعاة ويلجئهم إلى شفاعتكم فيهم عند من هربتم منه.

قال أبو يعقوب وأبو الحسن: فأتمرنا لما أمرا، وخرجنا وخلفانا هناك، فكنا نختلف إليه فيتلقانا ببر الإماء وذوى الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم: إذا أتاكم خبر كفاية الله عزَّ وجلَّ أبويكما، وإخزائه أعداءهما، وصدق وعدى إياهما، جعلت من شكر الله عزَّ وجلَّ أن أفيدكما تفسير القرآن مشتتلاً على بعض أخبار محمد ﷺ، فيعظم الله بذلك شأنكما، قالا: ففرحنا وقلنا: يا ابن رسول الله؛ فيأذن نأتى جميع علوم القرآن ومعانيه؟ قال: كلا، إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرح بذلك وقال: يا ابن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كلها، قال: قد جمعت خيراً كثيراً وأوتيت فضلاً واسعاً، ولكنه مع ذلك أقل قليل أجزء عليم القرآن، إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِداداً لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ

(١) وفيات الأعيان: ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠، وله ترجمة مستفيضة في أعيان الشيعة:

جئنا بمثله مدد» [الكهف: ١٠٩]، ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وهذا علم القرآن ومعانيه وما أودع من عجائبه، فكيف ترى مقدار ما أخذته من جميع هذا القرآن؟ ولكن القدر الذي أخذته قد فضلك الله به على كل من لا يعلم كعلمك ولا يفهم كفهمك ..

ثم ذكرا ما كان من أمر عدول الحسن بن زيد العلوي عن بطشه وفتكه، وعدم تعرضه للناس في مذاهبهم، وأمره لأبويهما بملازمة الإمام أبي محمد الحسن العسكري لما سمع بهذا قال: هذا حين إنجازي ما وعدتكما من تفسير القرآن، ثم قال: قد وظفت لكما كل يوم شيئا منه تكتبانه، فالزمتني وواظبا على توفيق الله تعالى من العبادة حظوظكما. فأول ما أملى علينا أحاديث في فضل القرآن وأهله، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك فكتبناه في مدة مقامنا عنده، وذلك سبع سنين، نكتب في كل يوم منه مقدار ما نشط له، فكان أول ما أملى علينا وكتبناه قال: «حدثني أبي: علي بن محمد، عن أبيه: محمد بن علي، عن أبيه: علي بن موسى، عن أبيه: موسى بن جعفر، عن أبيه: جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه: الباقر محمد بن علي، عن أبيه: علي بن الحسين زين العابدين، عن أبيه: الحسين بن علي سيد المستشهدين، عن أبيه: أمير المؤمنين وسيد الوصيين وخليفة رسول الله رب العالمين، فاروق الأمة، وباب مدينة الحكمة، ووصى رسول الرحمة، علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، عن رسول الله رب العالمين، وسيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين، والمخصوص بأشرف الشفاعات في يوم الدين، صلى الله عليه وآله أجمعين».

ثم ذكر شيئا من الأخبار في فضل القرآن وحملته .. ثم قال: «قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المتمسك الذي يتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذي أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، وعن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين ..». ثم قال: «قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» [يونس: ٥٧ - ٥٨] قال رسول الله ﷺ: فضل الله عز وجل القرآن والعلم بتأويله. وبرحمته: توفيقه لموالاته محمد وآله الطيبين، ومعاداة أعدائهم ..».

ثم ذكر الحسن العسكري تفسير «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» منسوبا إلى علي رضي الله عنه، وفيه يقول علي: «إلا أنبئكم ببعض أخبارنا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة وأشرع فيه بابه وأشرع المهاجرون والأنصار أبوابهم، أراد الله إبانة محمد وآله الأفاضل بالفضيلة، فنزل جبريل

عن الله تعالى: بأن سدوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب، فأول من بعث إليه رسول الله يأمره بسد باب العباس بن عبد المطلب، فقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله - وكان الرسول معاذ بن جبل - ثم مر العباس بفاطمة فرآها قاعدة على بابها وقد أقعدت الحسن والحسين، فقال لها: ما بالك قاعدة؟ انظروا إليها كأنها لبؤة بين يديها جرواها، أتظن أن رسول الله يخرج عمه ويدخل ابن عمه؟! فمر بهم رسول الله ﷺ فقال لها: ما بالك قاعدة؟ قالت: أنتظر أمر رسول الله بسد الأبواب، فقال لها: إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب واستثنى منهم رسول الله، وإنما أنتم نفس رسول الله. ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال: أحب النظر إليك يا رسول الله إذا مررت إلى مصلاك، فأذن لي في فرجة أنظر إليك منها، فقال: قد أبى الله عز وجل ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه وجهي، قال: قد أبى الله ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه إحدى عيني، قال: أبى الله ذلك، ولو قلت قدر طرف الإبرة لم آذن لك، والذي نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم ولا أدخلتكم، ولكن الله أدخلهم وأخرجكم... ثم قال: لا ينبغي لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت في هذا المسجد جنباً إلا محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون (١) من آلهم الطيبين من أولادهم. قال: فأما المؤمنون فقد رضوا وسلموا، وأما المنافقون فاغتاطوا لذلك وأنفوا، ومشى بعضهم يقول إلى بعض فيما بينهم: ألا ترون محمداً لا يزال يخص بالفضائل ابن عمه ليخرجنا منها صفراً، والله لئن أنفذنا له في حياته لنأتين عليه بعد وفاته، وجعل عبد الله بن أبي يصغى إلى مقاتلتهم ويغضب تارة ويسكن أخرى، ويقول لهم: إن محمداً لم تأله، فإياكم ومكاشفته، فإن من كاشف المتأله انقلب خاسئاً حسيراً وينغص عليه عيشه. وإن الفطن اللبيب من يتجرع على الغصة لينتهز الفرصة. فبينما هم كذلك إذ طلع رجل من المؤمنين يقال له زيد بن أرقم فقال لهم: يا أعداء الله، أبالله تكذبون؟ وعلى رسوله تطعون؟ ولدينه تكيدون؟ والله لأخبرن رسول الله بكم، فقال عبد الله ابن أبي والجماعة: والله لعن أخبرته بنا لنكذبتك ولنحلفن له، فإنه إذن يصدقنا، ثم والله لنقيم عليك من يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدك، قال: فأتى زيد رسول الله فأسر إليه ما كان من عبد الله ابن أبي وأصحابه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) المجاهدين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله والموالة لك ولأوليائك، والمعادة لأعدائك، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يطيعونك في

(١) المنتجبون: أي المختارون.

(٢) من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ﴾... إلى قوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في

الآية (٤٨) من سورة الأحزاب.

الظاهر ويخالفونك في الباطن، ﴿وَدَعِ أَذَاهُمْ﴾ مما يكون منهم من القول السيء فيك وفي ذوبك، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك وإقامة حججتك، فإن المؤمن هو الظاهر بالحجة وإن غلب في الدنيا، لأن العاقبة له، لأن غرض المؤمنين في كدحهم في الدنيا إنما هو الوصول إلى نعيم الأبد في الجنة، وذلك حاصل لك ولآلِكَ ولأصحابك وشيعتك.

ثم إن رسول الله ﷺ لم يلتفت إلى ما بلغه عنهم، وأمر زيداً فقال: «إن أردت أن لا يصيبك شرهم ولا ينالك مكرهم فقل إذا أصبحت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله يعيدك من شرهم، فإنهم شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإذا أردت أن يؤمنك بعد ذلك من الغرق والحرق والسرق فقل إذا أصبحت: بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، بسم الله لا يسوق الخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله، بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بسم الله ما شاء الله وصلى الله على محمد وآله الطيبين، فإن من قالها ثلاثاً إذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق حتى يمسي، ومن قالها ثلاثاً إذا أمسى أمن من الحرق والغرق حتى يصبح، وإن الخضر وإلياس يلتقيان في كل موسم، فإذا تفرقا تفرقا عن هذه الكلمات، وإن ذلك شعار شيعتي، وبه يمتاز أعدائي من أوليائي يوم خروج قائمهم...».

ثم ذكر حديثاً آخر طويلاً عن الباقر يتضمن ما كان من المحاورة بين العباس ورسول الله ﷺ بشأن إغلاق باب العباس وغيره، وإبقاء باب عليّ وحده، وفيه شهادة رسول الله ﷺ بالفضل لعليّ على غيره، وفي آخره يقول رسول الله ﷺ: «يا عم رسول الله؛ إن شأن عليّ عظيم. إن حال عليّ جليل. وإن وزن عليّ ثقيل، وما وُضع حب عليّ في ميزان أحد إلا رجح على سيئاته، ولا وُضع بغضه في ميزان أحد إلا رجح على حسناته...» إلخ (١).

هذا... والكتاب مطبوع في مجلد صغير يقع في (٢٨٦ صحيفة)، وهو غير شامل للقرآن كله، بل بعد الفراغ من المقدمة وشرح الاستعانة شرع في الفاتحة ففسرّها، ثم شرع في سورة البقرة فوصل فيها إلى قوله تعالى في الآية (١١٤): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.. (وذلك يبدأ من أول الكتاب إلى ص ٢٣٦).

ومن قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية (١٥٨)... إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ الآية (١٧٩).. (وذلك يبدأ من ص ٢٣٦ إلى ص ٢٥٤).

ومن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ الآية (١٩٨) ... إلى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ﴾ الآية (٢١٠) .. (وذلك يبدأ من ص ٢٥٤ إلى ص ٢٦٧) .
ومن قوله تعالى فيها: ﴿أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية (٢٨٢) ... إلى قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ أِثْمٌ قَلْبِهِ﴾ في الآية (٢٨٣) .. (وذلك يبدأ من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٨٦) .

هذا هو كل ما وجد وطُبع من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكري رحمه الله تعالى، وأرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه في التفسير، وتأثره بمذهب الإمامية، ولنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح، أو نسب إليه زوراً وبهتاناً ..

● ولاية علي :

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨) من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .. يقول: «قال العالم موسى بن جعفر: إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: يا عباد الله، انسبوني، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: يا أيها الناس؛ ألسنت أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فنظر إلى السماء وقال: اللهم اشهد بقول هؤلاء - وهو يقول ويقولون ذلك ثلاثاً - ثم قال: ألا فمن كنت مولاه وأولى به فهذا علي مولاه وأولى به، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره . واخذل من خذله .. ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمره المؤمنين، فقام وبايع له . ثم قال: قم يا عمر فبايع له بإمره المؤمنين، فقام فبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار، فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب فقال: بخ بخ يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرقوا عند ذلك وقد وكّدت عليهم العهود والمواثيق . ثم إن قوماً من متمرديههم وجبارتهم تواطأوا بينهم لئن كان بمحمد كائنة ليدفعن هذا الأمر من علي ولا يتركونه، فعرف الله ذلك من قبلهم، وكانوا يأتون رسول الله ويقولون: لقد أقمنا علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا فكفيتنا مؤنة الظلمة لنا والمتجبرين في سياستنا، وعلم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطاة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، ولدفع الأمر عن مستحقة مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمداً عنهم فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذي أمرك بنصب علي إماماً وسائساً لأمتك ومدبراً، ﴿وَمَا هُمْ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ بذلك ، ولكنهم يتواطأون على إهلاكك وإهلاكه ، يوطنون أنفسهم على التمرد على على إن كانت بك كائنة» (١).

وعند قوله تعالى في الآية (١٣) من سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ . . . يقول: « قال موسى بن جعفر: إذا قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة، قال لهم خيار المؤمنين كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار: آمنوا برسول الله وعلى الذي أوقفه موقفه وأقامه مقامه وأناط مصالح الدين والدنيا كلها به، وآمنوا بهذا النبي وسلّموا لهذا الإمام، وسلّموا له في ظاهر الأمر وباطنه، كما آمن الناس المؤمنون كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار، قالوا في الجواب لمن يقضون إليه لا لهؤلاء المؤمنين، فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب، ولكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من أهلهم والذين يثقون بهم من المنافقين ومن المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾؟! يعنون سلمان وأصحابه لما أعطوا علياً خالص ودهم ومحض طاعتهم، وكشفوا رؤوسهم بموالاته وأوليائه ومعاداة أعدائه حتى إن اضمحل أمر محمد طحطحهم أعداؤه، وأهلكهم سائر الملوك والمخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ الأخفاء العقول والآراء، الذين لم ينظروا في أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته، ويعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين والدنيا، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين، وصاروا خائفين وجلين من محمد وذريته ومن مخالفيهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه. فهم السفهاء حيث لا يسلم لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد والمؤمنين ولا محبة اليهود وسائر الكافرين، لأنهم يُظهرون لمحمد من موالاته وموالاته أخيه على ومعاداة أعدائهم اليهود والنصارى، كما يُظهرون لهم معاداة محمد وعلى وموالاته أعدائهم، فهم يُقدرون فيهم نفاقهم معهم كنفاقهم مع محمد وعلى، ولكن لا يعلمون أن الأمر كذلك وأن الله يُطلع نبيه على أسرارهم فيخشاهم ويلعنهم ويُسقطهم» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١٥٩ و ١٦٠) من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ فِي الْكِتَابِ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . . . يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ من صفة محمد وصفة على وحليته، ﴿ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ . . . قال:

والذى أنزلناه هو ما أظهرناه من الآيات على فضلهم ومحلهم، كالغمامة التى تظل رسول الله فى أسفاره، والمياه الأجاجة التى كانت تعذب فى الآبار بريقه، والأشجار التى كانت تهطل ثمارها بنزوله تحتها، والعاهات التى كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث ريقه فيها، وكالآيات التى ظهرت على على من تسليم الجبال والصخور والأشجار قائلة: يا ولى الله ويا خليفة رسول الله، والسموم القاتلة التى تناولها من سمى باسمه عليها ولم يصبه بلاؤها... وسائر ما خصه الله تعالى به من فضائله، فهذا من الهدى الذى بينه الله للناس فى كتابه... إلخ (١).

● روايات مكذوبة فى فضل أهل البيت:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾... يقول: «ثم وصف هؤلاء المتقين الذين هذا الكتاب هدى لهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعنى بما غاب عن حواسهم من الأمور التى يلزمهم الإيمان بها: كالبعث، والنشور، والحساب، والجنة، والنار، وتوحيد الله تعالى، وسائر ما لا يُعرف بالمشاهدة وإنما يُعرف بدلائل قد نصبها الله عز وجل عليها: كآدم، وحواء، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بهم بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم، ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون، وذلك أن سلمان الفارسى مر بقوم من اليهود فسألوه أن يجلس إليهم ويحدثهم بما سمع من محمد فى يومه هذا، فجلس إليهم لحرصه على إسلامهم فقال: سمعتُ محمداً يقول: إن الله عز وجل يقول: يا عبادي أو ليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتجمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعة؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على وأفضلهم لدى محمد وأخوه على، ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى، ألا فليدعنى من أهمتته حاجة يريد نفعها، أو دهنه دهياء يريد كف ضررها، بمحمد وآله الأفضلين الطيبين الطاهرين أفضها له أحسن مما يقضيها من تشفعون إليه بأعز الخلق عليه. قالوا لسلمان - وهم يستهزئون به - يا عبد الله؛ فما بالك لا تقترح على الله وتوسل بهم أن يجعلك أغنى أهل المدينة؟ فقال سلمان: قد دعوتُ الله عز وجل بهم، وسألته ما هو أجل وأفضل وأنفع من مُلك الدنيا بأسرها، وسألته بهم أن يهب لى لساناً لتمجيد شأنه ذاكرًا، وقلباً لآلائه شاكرًا، وعلى الدواهي الداهية لى صابراً، وهو عز وجل قد أجابنى إلى ملتضى من ذلك، وهو أفضل من مُلك الدنيا بحذافيرها وما يشتمل عليه من خيراتها مائة ألف مرة. قال: فجعلوا يهزأون ويقولون: يا سلمان؛ لقد ادعيت مرتبة عظيمة يُحتاج أن يُمتحن صدقك من كذبك فيها، وها نحن إذن قائمون إليك

(١) الصفحات: ٢٣٦ - ٢٣٧

بسياط عذابنا فضا ربوك، فاسأل ربك أن يكف أيدينا عنك، فجعل سلمان يقول: اللهم اجعلني على البلايا صابراً، وجعلوا يضربونه بسياطهم حتى أعيوا وملأوا، وجعل سلمان لا يزيد على قوله: اللهم اجعلني على البلايا صابراً، فلما ملأوا وأعيوا قالوا: يا سلمان؛ ما ظننا أن روحاً تثبت في مقرها على مثل هذا العذاب الوارد عليك، فما بالك لا تسأل أن يكفنا عنك؟ قال: لأن سؤال ذلك ربي خلاف الصبر، بل سلّمت لإمهال الله تعالى لكم، وسألته الصبر، فلما استراحوا قاموا بعد إليه بسياطهم فقالوا: لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهق روحك أو تكفر بمحمد، فقال: ما كنت أفعل ذلك، فإن الله قد أنزل على محمد: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وأن احتمالي لمكارهكم لأدخل في جملة من مدحه الله بذلك سهل على يسير، فجعلوا يضربونه بسياطهم حتى ملأوا، ثم قعدوا وقالوا: يا سلمان؛ لو كان لك عند ربك قدر لإيمانك بمحمد لاستجاب دعائك وكفنا عنك، فقال سلمان: ما أجهلكم!! كيف يكون مستجيباً دعائي إذا فعل بي خلاف ما أريد منه، أنا أردت منه الصبر فقد استجاب لي فصبرت، ولم أسأله كفكم عنى فيمنعني حتى يكون ضد دعائي كما تظنون، فقاموا إليه ثالثة بسياطهم فجعلوا يضربونه وسلمان لا يزيد على قوله: اللهم صبرني على البلايا في حب صفيك وخليتك محمد، فقالوا له: يا سلمان؛ ويحك! أو ليس محمد قد رخص لك أن تقول كلمة الكفر به بما تعتقد ضده للتقية؟ فقال سلمان: إن الله قد رخص لي ذلك ولم يفرضه علي، بل أجاز لي ألا أعطيكم ما تريدون وأحتمل مكارهكم، وجعله أفضل المنزلتين، وأنا لا أختار غيره، ثم قاموا إليه بسياطهم وضربوه ضرباً كثيراً وسيلوا دماءه، وقالوا له وهم ساخرون: لو لم تسأل الله كفنا عنك ولا تظهر لنا ما نريد منك لنكف به عنك فادع علينا بالهلاك إن كنت من الصادقين في دعواك أن الله لا يرد دعائك بمحمد وآله الطيبين الطاهرين، فقال سلمان: إنى لأكره أن أدعو الله بهلاككم مخافة أن يكون فيكم من قد علم الله أنه سيؤمن من بعد فأكون قد سألت الله اقتطاعه عن الإيمان، فقالوا: قل: اللهم أهلك من كان في علمك أنه يبقى إلى الموت على تمرده، فإنك لا تصادف بهذا الدعاء ما خفته، قال: فانفرج له حائط البيت الذي هو فيه مع القوم وشاهد رسول الله ﷺ وهو يقول: يا سلمان؛ ادع عليهم بالهلاك فليس فيهم أحد يرشد. كما دعا نوح على قومه لما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال سلمان: كيف تريدون أن أدعو عليكم بالهلاك؟ فقالوا: تدعو الله بأن يقلب سوط كل واحد منا أفعى تعطف رأسها ثم تمشش عظام سائر بدنه.. فدعا الله بذلك، فما من سياطهم سوط إلا قلبه الله تعالى أفعى لها رأسان تتناول برأس رأسه، وبرأس آخر يمينه التي كان فيها سوطه، ثم رضضتهم ومششتهم وبلعتهم والتقمتهم، فقال رسول الله ﷺ وهو في مجلسه: معاشر المؤمنين؛ إن الله

تعالى قد نصر أخاكم سلمان ساعتكم هذه على عشرين فرقة من اليهود والمنافقين، قلبت سياطهم أفاعى رضضتهم ومششتهم وهشمت عظامهم والتقمتمهم، فقوموا بنا ننظر إلى تلك الأفاعى المبعوثه لنصرة سلمان، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه إلى تلك الدار وقد اجتمع إليها جيرانها من اليهود والمنافقين لما سمعوا ضجيج القوم بالتقام الأفاعى لهم، فإذا هم خائفون منها، نافرون من قُربها، فلما جاء رسول الله ﷺ خرجت كلها إليه عن البيت إلى شارع المدينة، وكان شارعاً ضيقاً فوسَّعه الله تعالى وجعله عشرة أضعافه، ثم نادى الأفاعى: السلام عليك يا محمد يا سيد الأولين والآخرين، السلام عليك يا عليّ يا سيد الوصيين، السلام على ذُرِّيَّتِكَ الطيبين الطاهرين الذين جعلوا على الخلق قوَّامين، ها نحن سياط هؤلاء المنافقين الذين قلبنا الله تعالى أفاعى بدعاء هذا المؤمن سلمان، قال رسول الله: الحمد لله الذى جعل من يضاهاى بدعائه عند قبضه وعند انبساطه نوحاً نبيه. ثم نادى الأفاعى: يا رسول الله؛ قد اشتد غضبنا على هؤلاء الكافرين، وأحكامك وأحكام وصيك علينا جائزة فى ممالك رب العالمين، ونحن نسألك أن تسأل الله تعالى أن يجعلنا أفاعى جهنم حتى نكون فيها لهؤلاء مُعذِّبين كما كنا لهم فى هذه الدنيا ملتقمين، فقال رسول الله ﷺ: قد أجبتكم إلى ذلك فالحقوا بالطبق الأسفل من جهنم، بعد أن تقدفوا ما فى أجوافكم من أجزاء أجسام هؤلاء الكافرين ليكون أتم لحزيبهم وأبقى للعار عليهم إذا كانوا بين أظهرهم مدفونين، يعتبر بهم المؤمنون المارون بقبورهم، يقولون: هؤلاء الملعونون المخزيوم بدعاء ولى محمد سلمان الخير من المؤمنين، فقدفت الأفاعى ما فى بطونها من أجزاء أبدانهم، فجاء أهلوهم مدفونهم، وأسلم كثير من الكافرين، وأخلص كثير من المنافقين، وغلب الشقاء على كثير من الكافرين والمنافقين، فقالوا: هذا سحر مبین. ثم أقبل رسول الله على سلمان فقال: يا عبد الله؛ أنت من خواص إخواننا المؤمنين، ومن أحباب قلوب ملائكة الله المقربين، إنك فى ملكوت السموات والحُجُب والكرسى والعرش وما دون ذلك إلى الثرى أشهر فى فضلك عندهم من الشمس الطالعة فى يوم لا غيم ولا قتر ولا غبار فى الجو، فأنت من أفاضل المدوحين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾،، يقول ما نصه: «.. قال على بن الحسين: طلب هؤلاء الكفار الآيات ولم يقنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية والبلاغ، حتى قيل لهم: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾.. أى إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضعة الدامغة، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ وذلك محال،

لأن الإتيان على الله لا يجوز، كذلك النواصب اقترحوا على رسول الله في نصب أمير المؤمنين على إماماً، واقترحوا.. حتى اقترحوا الحال، وذلك أن رسول الله لما نص على علي بالفضيلة والإمامة، وسكن إلى ذلك قلوب المؤمنين وعاند فيه أصناف الجاحدين من المعاندين، وشك في ذلك ضعفاء من الشاكين، واحتال في السلم من الفريقين من النبي وخيار أصحابه ومن أصناف أعدائه جماعة المنافقين، وفاض في صدورهم العداوة والبغضاء، والحسد والشحناء، حتى قال قائل المنافقين: لقد أسرف محمد في مدح نفسه، ثم أسرف في مدح أخيه علي، وما ذاك من عند رب العالمين، ولكنه في ذلك من المتقولين، يريد أن يثبت لنفسه الرياسة علينا حباً ولعلنا بعد موته، قال الله تعالى: يا محمد؛ قل لهم: وأي شيء أنكرتم من ذلك؟ هو عظيم كريم حكيم، ارتضى عبادة من عباده، قد اختصهم بكرامات، لما علم من حسن طاعتهم ولانقيادهم لأمره، ففوض إليهم أمور عباده، وجعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذي وفقهم له، أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خدمة بعض عبيده ووثق بحسن اصطناعه بما يندب له من أمور ممالكه، جعل ما وراء بابه إليه واعتمد في سياسة جيوشه ورعاياه عليه؟ كذلك محمد في التدبير الذي رفعه له ربه، وعلى من بعده الذي جعله وصيه وخليفته في أهله، وقاضى دينه ومنجز عداته، والموازر لأوليائه والمناصب لأعدائه، فلم يقنعوا بذلك ولم يُسلموا، وقالوا: ليس الذي تسنده إلى ابن أبي طالب أمراً صغيراً إنما هو دماء الخلق، ونسأؤهم، وأولادهم، وأموالهم، وحقوقهم، وأنصباؤهم، وديناهم، وأخراهم، فلنأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية، فقال رسول الله: أما كفاكم نور على المشرق في الظلمات الذي رأيتموه ليلة خروجه من عند رسول الله إلى منزله؟ أما كفاكم أن علياً جاز والحيطان بين يديه ففتحت له وطُرقت ثم عادت والتأمت؟ أما كفاكم يوم غدیر خم أن علياً لما أقامه رسول الله رأيتم أبواب السماء مفتحة والملائكة فيها مطلعين تناديكم: هذا ولي الله فاتبعوه وإلا حل بكم عذاب الله فاحذروه؟ أما كفاكم رؤيتكم على بن أبي طالب وهو يمشی والجبال تسير من بين يديه لئلا يحتاج إلى انحراف عنها، فلما جاز رجعت الجبال إلى أماكنها؟ ثم قال: اللهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيرات لتزيد حججتك عليهم تأكيداً. قال: فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض ومنعتهم ونادتهم: حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية علي، قالوا: آمنا.. ودخلوا.. ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم ولم يقلعوها، ونادتهم: حرام عليكم سهولة نزعنا حتى تقروا بولاية علي، فأقروا.. ونزعوها.. ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم ونادتهم: حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية علي، فاعترفوا.. ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم وما لم يثقل منها استحجر في أفواههم وناداهم: حرام عليكم

أكلنا حتى تعترفوا بولاية عليّ، فاعترفوا.. ثم ذهبوا يبولون ويتغوطون فتعذبوا وتعذر عليهم ونادتهم بطونهم ومذاكيرهم: حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية عليّ بن أبي طالب، فاعترفوا.. ثم ضجر بعضهم وقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٢ - ٣٣] الخ (١).

● الشجرة التي نهى آدم عن الأكل منها :

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.. يبين المراد من الشجرة ويعلل النهي عنها فيقول: «.. لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم، شجرة علم محمد وآل محمد، الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: لا تقربا هذه الشجرة، شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم.. ومنها ما كان يتناوله النبي، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نصب، وهي شجرة تميزت من بين أشجار الجنة، إن سائر أشجار الجنة كان كل نوع منها يحمل نوعاً من الثمار والمأكول، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر والعنب والتين والعناب وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون لتلك الشجرة، فقال بعضهم: هي برة، وقال آخرون: هي عنبية، وقال آخرون: هي عنبية. قال الله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة تلتمسسان بذلك دوحه محمد وآل محمد في فضلهم، فإن الله تعالى خصهم بهذه دون غيرها، وهي شجرة التي من يتناول منها بإذن الله عز وجل ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم. ومن تناول منها بغير إذن الله خاب من مراده وعصى ربه، ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.. بمعصيتكما والتماسكما درجة قد أوثر بها غيركما كما إذا أردتما بغير حكم الله» (٢).

● توسل الأنبياء والأئمة السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت :

وقد جاء في هذا التفسير من الأخبار ما يدل على أن الأنبياء والأئمة السابقين كانوا إذا حزبتهم أمر وأهمهم توسلوا بمحمد ﷺ وأهل بيته رضوان الله تعالى عليهم. فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٣٨) من سورة البقرة: ﴿فَأَمَّا يَا تَيْنِكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.. نراه يقول: «.. فلما زلت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربه عز وجل قال: يارب؛ ثب عليّ وأقبل معذرتي، وأعدني إلى مرتبتي، وارفع لديك درجتى فما أشد تبين بغض الخطيئة وذللها بأعضائي ونعائر

بدنى، قال الله تعالى: يا آدم؛ أما تذكر أمرى إياك بأن تدعونى بمحمد وآله الطيبين عند شدائدك ودواهلك وفى النوازل تنزل بك؟ قال آدم: يارب بلى، قال الله عز وجل له: فتوسل بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين خصوصاً، فادعنى أجبك إلى ملتصك وأزدك فوق مرادك، فقال آدم: يا رب وقد بلغ عندك من محلهم أنك بالتوسل بهم تقبل توبتى، وتغفر خطيئتى، وأنا الذى أسجدت له ملائكتك، وأبحته جنّتك، وزوجته حواء أمتك، وأخدمته كرام ملائكتك؟ قال الله: يا آدم؛ إنما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسجود إذ كنت وعاء لهذه الأنوار، ولو كنت سألتنى بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها وأن أظنك لدواعى عدوك إبليس حتى تحذر منها لكنت قد جعلت ذلك، ولكن المعلوم فى سابق علمى يجرى موافقاً لعلمى، فالآن بهم فادعنى لأجبك، فعند ذلك قال آدم: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين، بجاه محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من ألهم لما تفضّلت بقبول توبتى، وغفران زلتى. وإعادتى من كراماتك إلى مرتبتى، فقال الله عز وجل: قد قبلت توبتك وأقبلت برضوانى عليك، ورزقت آلتى ونعمائى عليك، وأعدتلك إلى مرتبتك من كراماتى، ووفرت نصيبك من رحمتى. فذلك قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، (١).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٥٠) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأُجْجِنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ نجده يقول: «قال الله عز وجل: واذكروا إذ جعلنا ماء البحر فرقا ينقطع بعضه من بعض، فأججيناكم هناك وأغرقنا فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون، وذلك أن موسى لما انتهى إلى البحر أوحى الله عز وجل إليه: قل لبنى إسرائيل جدّدوا توحيدى، وأمروا بقلوبكم ذكر محمد سيد عبيدى وإمائى، وأعيدوا على أنفسكم الولاية لعلّى أخى محمد وآله الطيبين، وقولوا: اللهم بجاههم جوّزنا على متن هذا الماء، فإنه يتحول لكم أرضاً، فقال لهم موسى ذلك، فقالوا: أتورد علينا ما نكره، وهل فررنا من آل فرعون إلا من خوف الموت، وأنت تقتحم بنا هذا الماء الغمر بهذه الكلمات، وما يدرينا ما يحدث من هذه علينا؟ فقال لموسى كالب بن يوحنا وهو على دابة له - وكان ذلك الخليج أربعة فراسخ - يا نبى الله؛ أمرك الله بهذا أن نقوله وندخل الماء؟ قال: نعم. قال: وأنت تأمرنى به؟ قال: نعم، فوقف وجدّد على نفسه من توحيد الله ونبوة محمد وولاية على والطيبين من ألهما ما أمر به، ثم قال: اللهم بجاههم جوّزنى على متن هذا الماء، وإذا الماء قصته كأرض لينة، حتى بلغ آخر الخليج ثم عاد راكضاً، ثم قال لبنى إسرائيل: يا بنى

إسرائيل؛ أطيعوا موسى، فما هذا الدعاء إلا مفتاح أبواب الجنان، ومغاليق أبواب النيران، ومستنزل الأرزاق. وجالب على عباد الله وإمائه رضا المهيمن الخلاق. فأبوا وقالوا: لا نسير إلا على الأرض، فأوحى الله: يا موسى؛ اضرب بعصاك البحر وقل: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما فلقتهم، ففعل؛ فانفلق وظهرت الأرض إلى آخر الخليج، فقال موسى: ادخلوها، قالوا: الأرض وحلة، نخاف أن نرسب فيها، فقال الله عز وجل: يا موسى؛ قل: اللهم بحق محمد وآله الطيبين جففها، فقالها، فأرسل الله عليها ريح الصبا فجفت، فقال موسى: ادخلوها، فقالوا: يا نبي الله؛ نحن اثنتا عشرة قبيلة بنو اثني عشر أباً، وإن دخلناها رام كل فريق منا تقدم صاحبه، ولا نأمن من وقوع الشر، فلو كان لكل فريق منا طريق على حدة لأمنا ما نخافه، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعددهم اثني عشر ضربة، في اثنتي عشرة موضعاً إلى جانب ذلك الموضع ويقول: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين بين الأرض لنا، وأقصر الماء عنا، فصار فيه تمام اثني عشر طريقاً، وجف قرار الأرض بريح الصبا، فقال: ادخلوها، فقالوا: كل فريق منا يدخل سكة من هذه السكك لا يدرى ما يحدث على الآخرين، فقال الله عز وجل: فاضرب كل طود من الماء بين هذه السكك، فاضرب فقال: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما جعلت في هذا الماء طيقاناً واسعة يرى بعضهم بعضاً، فحدثت طيقان واسعة يرى بعضهم بعضاً، ثم دخلوها، فلما بلغوا آخرها جاء فرعون وقومه فدخل بعضهم، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج أمر الله تعالى البحر فانطبق عليهم فغرقوا، وأصحاب موسى ينظرون إليهم.. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١).

● التقيّة :

وهو يعترف بالتقيّة ويدين بها، ويروى عن رسول الله ﷺ أحاديث فيها، فمن ذلك: أنه روى عن الحسن بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء إنما فضلهم الله على الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله، وحسن تقيتهم لأجل إخوانهم في الله» (٢).

وروى عن أمير المؤمنين أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره وتزول عنه التقيّة، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار» (٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٦٣) من يورة البقرة: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدًا لَأ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .. يقول: «الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد،

وسَّعَ لَهُمْ فِي التَّقِيَّةِ، يجاهرون بإظهار موالاته أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا، وَيُسْرُونَهَا إِذَا عَجَزُوا» (١).

وَعِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٧٣) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿نَمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾... الآية، يقول: «.. نظر الباقر إلى بعض شيعته وقد دخل خلف بعض المنافقين إلى الصلاة، وأحسَّ الشيعة بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده وقال: أعتذر إليك يا ابن رسول الله عن صلاتي خلف فلان فإنها تقيّة، ولولا ذلك لصليتُ وحدي، قال له الباقر: يا أخي؛ إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت، يا عبد الله المؤمن؛ ما زالت ملائكة السموات السبع والأرضين السبع تصلين عليك وتعلن إمامك ذلك، وإن الله تعالى أمر أن تحسب صلاتك خلفه للتقيّة بسبعمئة صلاة لو صليتها لوحده. فعليك بالتقيّة» (٢).

● تأثره بمذهب المعتزلة :

وإننا لنجد في هذا التفسير تأثراً بمذهب المعتزلة ومعتقداتهم، فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٧) من سورة البقرة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾.. نجد المؤلف لا يرتضى نسبة الختم إلى الله على ظاهره، ونراه يتأول هذا الختم بما يتفق ورأى المعتزلة فيقول: «أى وَسَمَّهَا بِسْمَةِ يَعْرِفُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهَا بِأَنَّهُمْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ كَذَلِكَ بِسْمَاتٍ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ النَّظَرِ فِيمَا كُفِّفُوهُ، وَقَصَرُوا فِيمَا أُرِيدَ مِنْهُمْ، جَهَلُوا مَا لَزِمَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، فَصَارُوا كَمَنْ عَلَى عَيْنِهِ غِطَاءٌ لَا يَبْصُرُ مَا أَمَامَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَعَالَى عَنِ الْعَبْثِ وَالْفَسَادِ، وَعَنْ مَطَالِبَةِ الْعِبَادِ بِمَا قَدْ مَنَعَهُمْ بِالْقَهْرِ مِنْهُ، فَلَا يَأْمُرُهُمْ بِمُغَالَبَتِهِ وَلَا بِالْمَسِيرِ إِلَى مَا قَدْ صَدَّهُمْ بِالْعِزِّ» (٣).

● تأثره في تفسيره بأراء الشيعة في الفروع الفقهية :

كذلك نجد المؤلف يجرى في تفسيره على وفق ما يميل إليه من الأحكام الفقهية التي يقول بها الإمامية الإثنا عشرية.

فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.. نراه يروى حديثاً طويلاً عن رسول الله ﷺ يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجلين في الوضوء مسحهما لا غسلهما، وأن غسلهما لا يجوز إلا للتقيّة، وهذا الحديث هو: أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا توضأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه، وإذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه، وإذا مسح رأسه تناثرت ذنوب رأسه، وإذا مسح رجليه - أو غسلهما تقيّة - تناثرت ذنوب رجليه... إلخ (٤).

(٢) الصفحات: ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٤) الصفحات: ٢١٥ - ٢١٦.

(١) صفحة ٢٣٩.

(٣) صفحة ٣٦.

وهكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشيعي، سيراً فيه كثير من التطرف والغلو والخروج عن دائرة المعقول المقبول. وإذا كان هذا التفسير من عمل الحسن العسكري، الإمام المعصوم، الذي عنده علم القرآن كله، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له ولا علم عنده، وكيف يصدر هذا التلاعب بنصوص القرآن من إمام له قيمته ومكانته. وإذا كان ما يذكره صاحب أعيان الشيعة من علمه وصلاحه أمراً حقيقياً فالظن بهذا الكتاب أن يكون منسوباً إلى هذا الإمام زوراً وبهتاناً، وهذا ما أرجحه وأختاره، لأنني لم أعثر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل وتطرفه في التشيع كما فعل غيره.

* * *

٣ - مجمع البيان لعلوم القرآن (للطبرسي)

• ترجمة المؤلف ومكانته العلمية :

مؤلف هذا التفسير في نظر أصحابه هو أبو عليّ، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي المشهدي^(١)، الفاضل، العالم، المفسر، الفقيه، المحدث، الجليل، الثقة، الكامل، النبيل، وهو من بيت عرف أهله بالعلم، فهو وابنه رضى الدين أبو نصر حسن ابن الفضل صاحب مكارم الأخلاق، وسبطه أبو الفضل عليّ بن الحسن، وسائر سلسلته وأقربائه، من أكابر العلماء. ويروى عنه جماعة من العلماء منهم: ولده المذكور، وابن شهر آشوب، والشيخ منتخب الدين، والقطب الراوندى، وغيرهم. ويروى هو عن الشيخ أبي عليّ ابن الشيخ الطوسى. قال الشيخ منتخب الدين فى الفهرس: «هو ثقة، فاضل، دين، عين، له تصانيف، منها: مجمع البيان فى تفسير القرآن، والوسيط فى التفسير أربع مجلدات، والوجيز مجلدة، وإعلام الورى بأعلام الهدى مجلدين، وتاج المواليذ، والآداب الدينية للخزانة المعيبة».

قال صاحب روضات الجنّات معقّباً على هذا: «وقد فرغ من تأليف المجمع فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٣٤ هـ (أربع وثلاثين وخمسمائة) ولعل مراده بالوسيط هو تفسير جوامع الجامع المشهور. وبالوجيز: الكاف الشاف عن الكشاف، ويحتمل المغيرة».

وقال جوامع صاحب مجالس المؤمنين ما معناه: «إن عمدة المفسرين، أمين الدين، ثقة الإسلام، أبو عليّ الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، كان من نحارير علماء التفسير، وتفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان، بيان كاف ودليل واف لجامعته لفنون الفضل والكمال، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف واستحسن طريقته، أُلّف تفسيراً آخر مختصراً، شاملاً لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف، وسماه الجوامع، وله تفسير ثالث أيضاً أخصر من الأولين، وتصانيف أخرى فى الفقه والكلام، ويظهر من كتاب اللمعة الدمشقية فى مبحث الرضاع أن الطبرسي هذا كان داخلاً فى زمرة مجتهدى علمائنا أيضاً، ومقالته فى الرضاع معروفة، وهى قوله بعدم اعتبار اتحاد الفحل فى نشر الحرمة، وكذا قوله بأن المعاصى كلها كبائر، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر».

ومن العجيب أنهم يذكرون قصة فى غاية الطرافة والغرابة فى سبب تأليفه لتفسيره «مجمع البيان» - الذى نحن بصدده - فيقولون: «ومن عجيب أمر هذا الطبرسي بل

(١) الطبرسي: نسبة إلى طبرستان، والمشهدى: نسبة للمشهد الرضوى المدفون فيه.

من غريب كراماته، وما اشتهر بين الخاص والعام، أنه قد أصابته السكته فظنوا به الوفاة فغسلوه وكفنوه ودفنوه ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه في القبر ومسدوداً عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة، فنذر في تلك الحالة أنه إذا نجى من تلك الداهية أُلّف كتاباً في تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النبّاشين قصده لأخذ كفنه، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده، فتحيرّ النبّاش ودهش مما رآه، ثم تكلم معه فازداد به قلقاً، فقال له: لا تخف، أنا حي وقد أصابتنى السكته ففعلوا بى هذا، ولما لم يقدر على النهوض والمشى من غاية ضعفه، حمله النبّاش على عاتقه وجاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة وأولاه مالاً جزيلاً، وتاب على يده النبّاش، ثم إنه بعد ذلك وفى بنذره الموصوف، وشرع فى تأليفه مجمع البيان» .

وكانت وفاته ليلة النحر سنة ٥٣٨ هـ (ثمان و ثلاثين وخمسائة من الهجرة) (١).

● الكلام على هذا التفسير وطريقته مؤلفه فيه :

قبل أن أخوض فى الكلام عن هذا التفسير أرى أن أسوق ما جاء فى مقدمة هذا التفسير للمؤلف رحمه الله، لما جاء فيها من بيان الحوافز التى دفعت مؤلفه إلى تأليفه، ولما أوضحه لنا من طريقته التى سلكها فى تفسيره، فهو أدرى بها وأعلم . .

● الدواعى التى حملت الطبرسى على كتابه هذا التفسير :

ذكر الطبرسى هذه الدواعى فقال: « . . . وقد خاض العلماء قديماً وحديثاً فى علم تفسير القرآن، واجتهدوا فى إبراز مكنونه وإظهار مضمونه، وألّفوا فيه كتباً جمّة غاصوا فى كثير منها إلى أعماق لججه، وشققوا الشعر فى إيضاح حججه، وحققوا فى تفتيح أبوابه وتغلغل شعابه، إلا أن أصحابنا - رضى الله عنهم - لم يدوّنوا فى ذلك غير مختصرات نقلوا فيها ما وصل إليهم فى ذلك من الأخبار، ولم يعنوا ببسط المعانى فيه وكشف الأسرار، إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى من كتاب التبيان، فإنه الكتاب الذى يُقتبس من ضيائه الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، وقد تضمن فيه من المعانى الأسرار البديعة، واختصر من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضىء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره، غير أنه خلط فى أشياء مما ذكره فى الإعراب والنحو الغث بالسمين، والخائر بالزباد، ولم يميز الصلاح مما ذكر فيه والفساد، وأدى الألفاظ فى مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد، وأخلّ بحسن الترتيب وجودة التهذيب، فلم يقع له لذلك من القلوب السليمة الموقع المرضى، ولم يعل من الخواطر الكريمة المكان العلى» .

«وقد كنت في ريعان الشباب وحادثة السن، وريان العيش ونضارة الغصن، كثير النزاع شديد التشوق إلى جمع كتاب في التفسير، ينتظم أسرار النحو اللطيفة، ولمع اللُّغة الشريفة، وفي موارد القراءات من متوجهاتها، مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها، ويجمع جوامع البيان في المعاني المستنبطة من معادنها، المستخرجة من كوامنها، إلى غير ذلك من علومه الجمَّة، مطلعة من الغلف والأكمة، فيعترض لذلك جوائح الزمان، وعوائق الحدثنان، وواردات الهموم، وهفوات القدر المحتوم، وهلم جرأً إلى الآن، وقد زرف سنى على الستين واشتعل الرأس شيباً، وامتألت العيبة عيباً، فحداني على تصميم هذه العزيمة ما رأيت من عناية مولانا الأمير السيد الأجل العالم، ولى النعيم جلال الدين ركن الإسلام، فخر آل رسول الله صلى الله عليه وآل، أبى منصور محمد بن يحيى بن هبة الله الحسين - أدام الله علاه - بهذا العلم، وصدق رغبته في معرفة هذا الفن. وقصر همه على تحقيق حقائقه، والاحتواء على جلائله ودقائقه، والله عزَّ اسمه المسئول أن يحرس للإسلام والمسلمين رفيع حضرته، ويفيض على الفضل والفضلاء سجل سيادته، ويمد على العلم والعلماء أمداد سعادته. . فأوجبتُ على نفسي إجابته إلى مطلوبه، وإسعافه بمحبوبه، واستخرتُ الله تعالى، ثم قصرتُ وهَمِي وهَمِي على اقتناء هذه الذخيرة الخطيرة، واكتساب هذه الفضيلة النبيلة، وشمرتُ عن ساق الجد، وبذلتُ عاية الجهد والكد، وأسهرتُ الناظر، وأتعبتُ الخاطر، وأطلتُ التفكير، وأحضرتُ التفاسير، واستمددتُ من الله التوفيق واليسير»^(١).

● وصف الطبرسي لتفسيره:

ثم وصف الطبرسي تفسيره فقال: «وابتدأتُ في تأليف كتاب هو في غاية التلخيص والتهديب، وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوى فصوصه وعيونه، من علم قراءاته وإعرابه ولغاته، وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكرنا ما يتفرد به أصحابنا - رضى الله عنهم - من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع، والمعقول والمسموع، على وجه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز دون الإكثار، فإن الخواطر في هذا الزمان لا تحمل أعباء العلوم الكثيرة، وتضعف عن الإجراء في الحلقات الخطيرة، إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، ومن العلوم إلا الذمائم»^(٢).

(١) هنا يذكر الشيخ الحوافز التي دفعته إلى تأليف هذا التفسير، وهي كما ترى مخالفة للقصة المقدمة.

(٢) الذمائم - في الأصل - بقية الروح في المذبوح.

● منهج الطبرسي في تفسيره:

ثم وضح منهجه فقال: «وقدمت في مطلع كل سورة ذكر مكيها ومدنيها، ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها، ثم ذكرت تلاوتها، ثم أقدم في كل آية الاختلاف في القراءات، ثم أذكر العلل والاحتجاجات، ثم أذكر العربية واللغات، ثم أذكر الإعراب والمشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعاني والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات. على أني قد جمعت في عربيته كل غرة لائحة، وفي إعرابه كل حجة واضحة، وفي معانيه كل قول متين، وفي مشكلاته كل برهان مبين، فهو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوي عدة، وللمقري بصيرة، وللناشك ذخيرة، وللمتكلم حجة، وللمحدث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة، وسميته «مجمع البيان لعلوم القرآن».

● مقدمات الكتاب:

ثم استطرده إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال: وقبل أن نشرع في تفسير السور والآيات، فنحن نُصدر الكتاب بذكر مقدمات لا بد من معرفتها، لمن أراد الخوض في علومه تجمعها فنون سبعة:

جعل الفن الأول منها: في أعداد آي القرآن والفائدة من معرفتها.

والفن الثاني: في ذكر أسامي القراء المشهورين في الأمصار ورواتهم.

والفن الثالث: في ذكر التفسير والتأويل والمعنى، والتوفيق بين ما ورد من الآيات والآثار من النهي عن التفسير بالرأى وإباحته.

والفن الرابع: في ذكر أسامي القرآن ومعانيها.

والفن الخامس: في أشياء من علوم القرآن يحال في شرحها وبسط الكلام فيها على المواضع المختصة بها والكتب المؤلفة فيها كإعجاز القرآن، والكلام عن زيادة القرآن ونقصانه.

وهنا يقول: فأما الزيادة فيه فمُجمَع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه... إلخ (١).

ثم ذكر من جملة العلوم التي يحال في شرحها وبسط الكلام فيها على الكتب المؤلفة فيها الكلام في النسخ والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن وليست داخلة في التفسير.

والفن السادس: في ذكر بعض ما جاء من الأخبار المشهورة في فضل القرآن وأهله.

والفن السابع: في ذكر ما يُستحب للقارئ من تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن (١).

ثم شرع في التفسير فتكلم عن الاستعاذة بالبسملة ففاتحة الكتاب وهكذا إلى آخر القرآن.

والحق أن تفسير الطبرسي - بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية وآراء اعتزالية - كتاب عظيم في بابه، يدل على تبحر صاحبه في فنون مختلفة من العلم والمعرفة. والكتاب يجرى على الطريقة التي أوضحها لنا صاحبه، في تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد في كل ناحية من النواحي التي يتكلم عنها، فإذا تكلم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلم عن المعاني اللغوية للمفردات أجاد، وإذا تكلم عن وجوه الإعراب أجاد، وإذا شرح المعنى الإجمالي أوضح المراد، وإذا تكلم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلم عن الأحكام تعرض لمذاهب الفقهاء، وجهر بمذهبه ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، وإذا ربط بين الآيات آخى بين الجمل، وأوضح لنا عن حُسن السبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشكال وأراح البال. وهو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها، ويرجع ويوجه ما يختار منها، وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التي خالف فيها هو ومن علي شاكلته، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعية. غير أنه - والحق يقال - ليس مغالياً في تشيعه، ولا متطرفاً في عقيدته، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الإثنا عشرية.

وإليك بعض المثل من هذا التفسير، لترى كيف يميل الطبرسي بالآيات القرآنية إلى المعاني التي تتفق ومذهبه، وكيف يحاول بكل قواه الجدلية العنيفة أن يقيم مذهبه على أسس من القرآن الكريم، وأن يرد ما يصادفه من ظواهر النصوص ويدفع بها في وجه خصمه:

● إمامة عليّ:

لما كان الطبرسي يدين بإمامة عليّ رضي الله عنه، ويرى أنه خليفة النبي ﷺ بلا فصل، فإننا نراه يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته وولايته من القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ .. يبذل مجهوداً كبيراً لاستخلاص وجوب إمامة عليّ رضي الله عنه من هذه الآية، فنجده أولاً يتكلم

عن المعانى اللغوية لبعض مفردات الآية، فيفسر «الولى» بقوله: «الولى هو الذى يلى النصرة والمعونة، والولى هو الذى يلى تدبير الأمر. يقال: فلان ولى أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها. وولى الدم من كان إليه المطالبة بالقود. والسلطان ولى أمر الرعية. ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده: ولى عهد المسلمين. قال الكميت يمدح علياً: ونعم ولى الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويروى الفتوى: «وإنما أراد ولى الأمر والقائم بتدبيره، قال المبرد فى كتاب العبادة عن صفات الله: «أصل الولى الذى هو أولى - أى أحق - ومثله المولى».

ثم بعد ذلك فسّر الطبرسى «الركوع» و «الحزب»، ثم ذكر الإعراب ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل: «... بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: «قال رسول الله ﷺ»، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا قال الرجل: «قال رسول الله»، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس؛ من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمتا، ورأيت بهاتين وإلا عميتا يقول: «على قائد البرة، وقاتل الكفرة، ومنصور من نصره، ومخذول من خذله»، أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللهم إنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئاً، وكان على راعياً فأوى بخنصره اليمنى إليه - وكان يتختم فيها - فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ، فلما فرغ النبي من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن أخى موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَإِحْلِلْ عَقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * أَشَدِّدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ - ٣٢]، فأُنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَلِكًا مِّنْ أَوْلِيَاءِكَ فَاتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [القصص: ٣٥]، اللهم وأنا محمد نبيك ووصفيك، اللهم فاشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واجعل لى وزيراً من أهلى، علياً أشدد به ظهري. قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه فقال: يا محمد؛ اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] ..

وروى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبى فى تفسيره بهذا الإسناد بعينه، وروى أبو بكر الرازى فى كتاب أحكام القرآن - على ما حكاه المغربى عنه، والرمانى، والطبرى أنها نزلت فى على حين تصدق بخاتمه وهو راعى، وهو قول مجاهد والسدى. والمروى عن أبى جعفر وأبى عبد الله وجميع علماء أهل البيت.

وقال الكليني: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية. وفي رواية عطاء قال عبد الله بن سلام: يا رسول الله؛ أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه وهو راعع فنحن نتولاه.

وقد رواه السيد أبو الحمد أبي القاسم الحسكاني بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبي صالح أبي الصلاح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن آمنوا بالنبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله؛ إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذه المجالس. وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا فشق ذلك علينا، فقال لهم النبى ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾... الآية، ثم إن النبى خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراوع، فبصر بسائل، فقال النبى ﷺ: هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال: نعم، خاتم من فضة، فقال النبى ﷺ: مَنْ أعطاكه؟ قال: ذلك القائم - وأوماً بيده إلى على - فقال النبى ﷺ: علي أي حال أعطاكه؟ قال: أعطاني وهو راعع، فكبر النبى ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].. فأنشأ حسان بن ثابت يقول في ذلك:

أبا حسن تفديك نفسى ومهجتى	وكل بطئ فى الهدى ومسارع
أيذهب مدحيك المحبر ضائعاً	وما المدح فى جنب الإله بضائع
فأنت الذى أعطيت إذ كنت راععاً	زكاة فدتك النفس ياخير راعع
فأنزل فىك الله خير ولاية	وثبتها ثبت الكتاب الشرائع

وفى حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مع رهط من قومه يشكو إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من قومهم، فبينما هم يشكون إذ نزلت هذه الآية، وأذن بلال فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وإذا بمسكين يسأل، فقال ﷺ: ماذا أعطيت؟ قال: خاتم من فضة، قال: مَنْ أعطاكه؟ قال: ذلك القائم. فإذا هو على. قال: علي أي حال أعطاكه؟ قال: أعطاني وهو راعع، فكبر رسول الله ﷺ وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾

ثم شرح المعنى فقال: «ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾... أى الذى يتولى مصالحكم ويحقق تدبيركم هو الله تعالى، ورسوله يفعل به أمره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾... ثم وصف الذين آمنوا فقال: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، بشرائطها، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى ويعطون الزكاة ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أى فى حال الركوع. وهذه الآية من أوضح الدلالة على صحة إمامة على بعد النبى ﷺ بلا فصل. والوجه فيه: أنه إذا ثبت أن لفظه: ﴿وَلِيُّكُمْ﴾ فى الآية تفيد من هو أولى بتدبير أموركم ويجب طاعته عليكم،

وثبت أن المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليّ، ثبت النص عليه بالإمامة ووضح. والذي يدل على الأول هو الرجوع إلى اللُّغة. فَمَنْ تأملها علم أن القوم نصُّوا على ذلك، وقد ذكرنا قول أهل اللُّغة فيه قبل فلا وجه لإعادته. وإن الذي يدل على أنها في الآية تفيد دون غيره، أن لفظة ﴿إِنَّمَا﴾ على ما تقدم ذكره تفيد التخصيص ونفى الحكم عن عدا المذكور، كما يقولون: إنما الفصاحة للجاهلية، ويعنون نفي الفصاحة عن غيرهم. وإذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظة «الوالى» على الموالاتة فى الدين والمحبة، لأنه لا تخصيص فى هذا المعنى لمؤمن دون مؤمنٍ آخر، والمؤمنون كلهم مشتمرون في هذا المعنى، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].. وإذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر وهو التحقيق بالأمر، وما يقتضى فرض الطاعة على الجمهور، لأنه لا محتمل للفظ إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر، والذي يدل على أن المعنى بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو عليّ؛ الرواية الواردة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية لما تصدق بخاتمته فى حال الركوع، وقد تقدم ذكرها، وأيضاً فإن كل من قال: إن المراد بلفظة «ولى» ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة، ذهب إلى أنه هو المقصود بالآية والمنفرد، ولا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا ويذهب إلى أن المعنى بها سواه، وليس لأحد أن يقول: إن لفظة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد، وذلك أن أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التفتيح والتعظيم، وذلك أشهر فى كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. وليس لهم أن يقولوا: إن المراد بقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، أن هذه شيمتهم وعاداتهم ولا يكون حالاً لإيتاء الزكاة، وذلك لأن قوله: ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، قد دخل فيه الركوع، فلو لم يحمل قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ على أنه حال من ﴿يُؤْتُونَ الزُّكَاةَ﴾، وحملناه على من صفتهم الركوع، كان ذلك كالتكرار غير المفيد، والتأويل المفيد أولى من البعيد الذى لا يفيد. ووجه آخر فى الدلالة على أن الولاية فى الآية مختصة، أنه قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ فخاطب جميع المؤمنين، ودخل فى الخطاب النبى ﷺ وغيره، ثم قال: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فأخرج النبى ﷺ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوجب أن يكون الذى خوطب بالآية هو الذى جعلت له الولاية وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولى نفسه، وذلك محال. واستيفاء الكلام فى هذا الباب يطول به الكتاب ومن أَرَادَهُ فَلْيَطْلُبْهُ مِنْ مِطَابَعِهِ...» (١).

(١) التفسير والمفسرون: الجزء الأول ص ٢٣٣.

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة، فإن حديث تصدق على بخاتمه في الصلاة - وهو محور الكلام - حديث موضوع لا أصل له، وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى في كتابه منهاج السنّة (الجزء الرابع ص ٣ - ٩).

● عصمة الأئمة :

ولما كان الطبرسي يدين بعصمة الأئمة فإننا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.. يحاول محاولة جدية أن يقصر أهل البيت على النبي ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين، ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء، فلهذا يقول بعد ما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذي يريده: «... والروايات في هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة، ولو تصدينا لإيرادها لطال الكلام، وفيما أوردناه كفاية.. واستدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة بأن قالوا: إن لفظه ﴿إِنَّمَا﴾ محققة لما أثبت بعدها، نافية لما لم يثبت، فإن قول القائل: إنما لك عندي درهم، وإنما في الدار زيد، يقتضى أنه ليس عندي سوى الدرهم، وليس في الدار سوى زيد. وإذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة في الآية أن تكون هي الإرادة المحضة، أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، ولا يجوز الوجه الأول، لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأن هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة، ولا مدح في الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثاني، وفي ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح. وقد علمنا أن من عدا من ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطان تعلقها بغيرهم. ومتى قيل: إن صدر الآية وما بعدها في الأزواج، فالقول فيه: إن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء في كلامهم، فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء وكذلك كلام العرب وأشعارهم» (١).

فأنت ترى أن الطبرسي يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة الأئمة، وهي عقيدة فاسدة يؤمن بها هو ومن على شاكلته من الإمامية الإثنا عشرية، ولا شك أن هذا تحكّم في كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى وحمله عليه تأثير المذهب.

● الرجعة :

ولما كان الطبرسي يقول بالرجعة، فإننا نراه عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول ما نصه:

« .. واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة . وقول من قال : إن الرجعة لا تجوز إلا في زمن النبي لتكون معجزة له دلالة على نبوته باطل ، لأن عندنا - بل عند أكثر الأمة - يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة والأولياء ، والأدلة على ذلك مذكورة في كتب الأصول... »^(١).

● المهدي :

والطبرسي يدين بالمهدي، ويعتقد أنه اختفى وسيرجع في آخر الزمان، وقد تأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ يذكر الأقوال الواردة في المعنى المراد بـ «الغيب»، وينقل في جملة ما ينقل من الأقوال: أن ابن مسعود وجماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد علمه . ثم يقول: « وهذا أولى لعمومه، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدي ووقت خروجه »^(٢).

● التقيّة :

ولما كان الطبرسي يقول بمبدأ التقيّة، فإنما نجدّه يستطرد إلى الكلام فيها ويؤيد مذهبه عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ . . . الآية، فيقول: « من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله في شيء، أى ليس هو من أولياء الله، والله برئ منه، وقيل: ليس هو من ولاية الله تعالى في شيء. وقيل: ليس من دين الله في شيء. ثم استثنى فقال: ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ . . والمعني: إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودّتهم بلسانه، ومداراتهم تقيّة منهم ودفعاً عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك . وفي هذه الآية دلالة على أن التقيّة جائزة في الدين عند الخوف على النفس، وقال أصحابنا: إنها جائزة في الأحوال كلها عند الضرورة، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال في قتل المؤمن، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه استفساد في الدين .

قال المفيد: إنها قد تجب أحياناً وتكون فرضاً، وتجاوز أحياناً من غير وجوب، وتكون في وقت أفضل من تركها، وقد يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذوراً أو معفواً عنه متفضلاً عليه بترك اللوم عليها .

وقال الشيخ أبو جعفر الطوسي: وظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف

على النفس، وقد روى رخصة في جواز الإفصاح بالحق عنده، وروى الحسن: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم.. قالها ثلاثاً، كل ذلك يجيبه بمثل الأول، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: أما ذلك المقتول فمضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه، فعلى هذا تكون التقيّة رخصة والإفصاح بالحق فضيلة» (١).

● تأثر الطبرسي بفقهاء الشيعة في تفسيره:

ونجد الطبرسي في تفسيره يتأثر بفقهاء الإمامية الإثنا عشرية وآرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذهبهم، وهو في استدلاله، ورده، ودفاعه، وجدله، عنيف كل العنف، قوي إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، والباطل بجانب من يخالفه.

● نكاح المتعة:

فمثلاً نجد الإمامية الإثنا عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين، فلهدأ حاول الطبرسي - وهو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى، فعندما فسّر قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلُّ لَكُمْ مَّا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾... الآية، يقول ما نصه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾... الآية. قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة.. عن الحسن ومجاهد وابن زيد. فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن. وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم.. عن ابن عباس والسدي وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح، لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان في الأصل واقعاً على الانتفاع والالتذاذ فقد صار يُعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد، ولا سيما إذا أضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون معناه: فمتى عقدتم عليهم هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن، ريدل على ذلك أن الله علّق وجوب إعطاء المهر

بالاستمتاع وذلك يقتضى أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به. هذا، وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود: أنهم قرأوا: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمى فآتوهن أجورهن».. وفى ذلك تصريح بأن المراد به عقد المتعة. وقد أورد الثعلبى فى تفسيره عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس مصحفاً فقال: هذا على قراءة أبى، فرأيت فى المصحف: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمى». وبإسناده عن أبى نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمى»، قلت لا أقرأها هكذا. قال ابن عباس: والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات).. وبإسناده عن سعيد بن جبیر أنه قرأ: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مُسمى». وبإسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال: سألته عن هذه الآية: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ أمنسوخة هي؟ قال: قال الحكم: قال على بن أبى طالب: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى^(١). وبإسناده عن عمران بن الحصين قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها، فأمرنا رسول الله ﷺ، وتمتعنا مع رسول الله ﷺ، ومات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء.

ومما أورده مسلم بن الحجاج فى الصحيح قال: حدثنا الحسن الحلوانى، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريج، قال: قال عطاء: قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجنناه فى منزله، فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر.

ومما يدل أيضاً على أن لفظ الاستمتاع فى الآية لا يجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شىء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشىء، وقد علمنا أن لو طلقها قبل الدخول لزم نصف المهر، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد، لأنه قال: ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أى مهورهن، ولا خلاف فى أن ذلك غير واجب، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد فى نكاح المتعة.

ومما يمكن التعلق به فى هذه المسألة، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ حلالاً، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله وأضاف النهى عنها إلى نفسه بضرب من الرأى، فلو كان النبى ﷺ نسخها أو نهى عنها أو أباحها فى وقت مخصوص دون غيره

لأضاف التحريم إليه دون نفسه . وأيضاً فإنه قرن بين متعة الحج ومتعة النساء فى النهى ، ولا خلاف فى أن متعة الحج غير منسوخة ولا محرمة ، فوجب أن يكون حكم متعة النساء حكمها . وقوله : ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ .. من قال إن المراد بالاستمتاع الانتفاع والجماع ، قال : المراد به : ولا حرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر ونقصانه ، أو حط ، أو إبراء ، أو تأخير . وقال السدى : معناه : لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب فى عقد المتعة ، يزيدا الرجل فى الأجر وتزیده فى المدة ، وهذا قول الإمامية وتظاهرت به الروايات عن أئمتهم .. (١) .

● فرض الرجلين فى الوضوء :

كذلك يقول الطبرسى - كفيره من علماء مذهبه - بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء ، فلهذا نراه يجادل بكل قوة ، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلت على شىء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه ، فعندما فسّر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ .. يقول ما نصه : ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ .. اختلف فى ذلك ، فقال الفقهاء : إن فرضهما الغسل . وقالت الإمامية : فرضهما المسح دون غيره ، وبه قال عكرمة . وقد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن عباس ، وأنس وأبى العالية والشعبى . وقال الحسن البصرى بالتخيير بين المسح والغسل ، وإليه ذهب الطبرى والجبائى إلا أنهما قالوا : يجب مسح جميع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم . قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية : يجب الجمع بين المسح والغسل . وروى عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله فمسح على رجليه . وروى عنه أنه قال : إن فى كتاب الله المسح ، ويأبى الناس إلا الغسل . وقال : الوضوء غسلتان ومسحتان . وقال قتادة : فرض الله غسلتين ومسحتين . وروى ابن علية ، عن حميد ، عن موسى ابن أنس : أنه قال لأنس ونحن عنده : إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم ، وإنه ليس شىء من بنى آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهم وظهورهم وأعقابهم ، فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج ، قال تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ . قال : فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما . وقال الشعبى : نزل جبريل عليه السلام بالمسح . وقال : إن فى التيمم مسح ما كان غسلًا ، ويلغى ما كان مسحًا .

وقال يونس: حدثني من صحب عكرمة إلى واسط. قال: فما رأيته غسل رجليه، إنما كان يمسح عليهما - وأما ما روى عن سادة أهل البيت في ذلك فأكثر من أن يحصى، فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازي، عن فضالة، عن حماد بن عثمان، عن غالب بن هذيل قال: سألت أبا جعفر عن المسح على الرجلين فقال: هو الذي نزل به جبريل. وعنه عن أحمد بن محمد قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحهما إلى الكعبين، فقلت له: لو أن رجلاً قال بأصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين؟ قال: لا، إلا بكفه كلها. وأما وجه القراءة في ﴿أرجلكم﴾ فمن قال بالغسل حمل الجرفيه على أنه عطف على ﴿برء وسكم﴾، وقال: المراد بالمسح هو الغسل. وروى عن أبي زيد أنه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا: تمسحتُ للصلاة، وقوى ذلك بأن التحديد إنما جاء في المغسول ولم يجيء في الممسوح، فلما وقع التحديد في المسح علم أنه في حكم الغسل لموافقة الغسل في التحديد، وهذا قول أبي علي الفارسي.

وقال بعضهم: هو خفض على الجوار، كما قالوا: جحر ضب خرب. وخرب من صفات الجحر لا الضب، وكما قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً في عرانيين وبله كبير أناس بجاد مزمل

وقال الزجاج: إذا قرىء بالجر يكون عطفاً على الرؤوس فيقتضى كونه ممسوحاً. وذكر عن بعض السلف أنه قال: نزل جبريل بالمسح، والسنة فيه الغسل. قال: والخفض على الجوار لا يجوز في كتاب الله تعالى، ولكن المسح على هذا التحديد في القرآن كالغسل. وقال الأخفش: هو معطوف على الرؤوس في اللفظ، مقطوع في المعنى، كقول الشاعر:

* علفتها تبناً وماءً بارداً *

أى: وسقيتها ماءً بارداً.

وأما القراءة بالنصب، فقالوا فيه: إنه معطوف على ﴿وأيديكم﴾، لأننا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح، ولما روى أن النبي ﷺ رأى قوماً توضأوا وأعقابهم تلوح. فقال: «ويل للعراقيب من النار». ذكره أبو علي الفارسي، وأما من قال بوجوب مسح الرجلين.. حمل الجر والنصب في «أرجلكم» على ظاهره بدون تعسف، فالجر للعطف على الرؤوس، والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور، وأمثال ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى. قالوا: ليس فلان بقائم ولا ذاهباً، وأنشد:

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

وقال تأبط شراً:

هل أنت باعث ديناراً لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف « عبد » على موضع « دينار » ، فإنه منصوب فى المعنى ، ومن ذلك قول الشاعر :

جئنى بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى « جئنى » : هات وأحضر لى مثلهم ، عطف بالنصب على المعنى ، وأجابوا الأوّلين عما ذكروه فى وجه الجر والنصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجار . . . قالوا : ما ذكروه أولاً من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه :

أحدها : أن فائدة اللفظين فى اللغة والشرع مختلفة ، وقد فرّق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاء المسوحة ، فكيف يكون معنى المسح والغسل واحداً ؟ وثانيها : أن الأرجل إذا كان معطوفاً على الرأس ، وكان الفرض فى الرأس المسح الذى ليس بغسل بلا خلاف ، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك ، لأن حقيقة العطف تقتضى ذلك .

وثالثها : أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما روه عن النبى ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه ، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسموا المسح غسلًا وفى هذا ما فيه .

فأما استشهاد أبى زيد بقولهم : تمسّحتُ للصلاة ، فالمعنى فيه : أنهم لما أرادوا أن يُخبروا عن الطهور بلفظ موجز ولم يجز أن يقولوا : تغسّلتُ للصلاة ، لأن ذلك تشبيهه بالغسل ، قالوا بدلاً من ذلك تمسّحتُ ، لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضاً فتجوزوا لذلك تعويلاً على أن المراد مفهوم ، وهذا لا يقتضى أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل .

وأما ما قالوا فى تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى فى الجواب عنه : أن ذلك لا يدل على الغسل ، وذلك لأن المسح فعل قد أوجبه الشريعة كالغسل فلا ينكر تحديده كتحديد الغسل ، ولو صرح سبحانه وتعالى فقال : وامسحوا أرجلكم وانتهوا بالمسح إلى الكعبين لم يكن منكراً . فإن قالوا : إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضى الغسل ، قلنا : إننا لم نوجب الغسل فى اليدين للتحديد بل للتصريح بغسلهما ، وليس كذلك فى الرجلين ، وإن قالوا : عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام . قلنا : هذا لا يصح ، لأن الأيدى محدودة وهى معطوفة على الوجوه التى ليست فى الآية محدودة ، فإذاً جاز عطف الأرجل وهى محدودة ، على الرأس التى ليست بمحدودة ، وهذا أشبه بما ذكرتموه ، لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود وهو الوجه ، وعطف عضو محدود مغسول عليه ، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود ، فيجب أن يكون « أرجل » ممسوحة محدودة

معطوفة على الرؤوس دون غيره. ليتقابل الجملتان في عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود، وعطف مسموح محدود على مسموح غير محدود. وأما مَنْ قال: إنه عطف على الجوار، فقد ذكرنا عن الزجاج أنه لم يُجوز ذلك في القرآن، ومَنْ أجاز ذلك في الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف، وكل ما استشهد به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذاك. وأيضاً فإن المجاورة إنما وردت في كلامهم عند ارتفاع اللبس والأمن من الاشتباه، فإن أحداً لا يشبهه عليه أن «خرباً» لا يكون من صفة الضب، ولفظة «مزمّل» لا يكون من صفة البجاد، وليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون مسموحة كالرؤوس. وأيضاً فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزاً في كلام العرب، وقالوا في «جحر ضب خرب»: إنهم أرادوا خرب جحره، فحذفوا المضاف الذي هو «جحر» وأقيم المضاف إليه وهو الضمير المجرور مقامه، وإذا ارتفع الضمير استكن في «خرب» وكذلك القول في «كبير أناس في بجاد مزمّل»، فتقديره: مزمّل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة، وهذا واضح لمن تدبره.

وأما مَنْ جعله مثل قول الشاعر: «علفتها تبناً وماءً بارداً»، كأنه قدر في الآية: واغسلوا أرجلكم، فقوله أبعد من الجميع، لأن مثل ذلك لو جاز في كتاب الله تعالى - على ضعفه وبُعدِه في سائر الكلام - فإنما يجوز إذا استحال حملة على ظاهر، فأما إذا كان الكلام مستقيماً ومعناه ظاهراً فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد؟ وأما ما قاله أبو علي في القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدي، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال: جعل التأثير في الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد، فنصب الأرجل عطفاً على الموضع أولى من عطفها على الأيدي والوجوه، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت وبطل حكمها باستئناف الجملة الثانية، ولا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم: ضربت زيدا وعمراً، وأكرمتُ خالداً وبكراً، فإن رد بكر إلى خالد في الإكرام هو الوجه في الكلام لا يسوغ الذي سواه، ولا يجوز رده إلى الضرب الذي قد انقطع حكمه، ولو جاز ذلك أيضاً لترجح ما ذكرناه لتطابق معنى القراءتين ولا تتنافيان.

فأما ما روى في الحديث أنه قال: «ويل للعراقيب من النار»، وغير ذلك من الأخبار التي رووها عن النبي ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، فالكلام في ذلك أنه لا يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بظاهر الأخبار الذي لا يوجب علماً وإنما يقتضي الظن، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووجدت في كتبهم، ونُقلت عن شيوخهم، مثل ما روى عن أوس بن أبي أوس أنه قال: رأيتُ النبي ﷺ يتوضأ ومسح على نعليه ثم قام فصلّى، وعن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ قوم فبال عليها ثم

دعا بماء فتوضأ ومسح على قدميه، وذكره أبو عبيدة في غريب الحديث... إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وقوله: «ويل للعراقيب من النار»، فقد روى فيه أن قوماً من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها، ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سبباً لهذا الوعيد...

وأما الكعبان فقد اختلف في معنهما، فعند الإمامية هما العظامان الثابتان في ظهر القدم عند معقد الشراك، ووافقهم في ذلك محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وإن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع. وقال جمهور المفسرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين، قالوا: ولو كان كما قاله لقال سبحانه: «وأرجلكم إلى الكعب» ولم يقل: إلى الكعبين، لأن على ذلك القول يكون في كل رجل كعبان^(١).

● نكاح الكتابيات :

ولما كان مذهب الطبرسي عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإننا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾... الآية، يقول بعد ما تكلم عن اللغة والإعراب وسبب النزول: «لما تقدم ذكر المخالطة بين تعالى من يجوز مخالطته بالنكاح فقال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ أي لا تزوجوا النساء الكافرات حتى يؤمن - أي يصدقن بالله - وهي عامة عندنا في تحريم مناكحة جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم. وليست بمنسوخة ولا مخصوصة، فاختلفوا فيه، فقال بعضهم: لا يقع اسم المشرك على أهل الكتاب، وقد فصل الله بينهما فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، و﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] وعطف أحدهما على الآخر، فلا نسخ في الآية ولا تخصيص.

وقال بعضهم: الآية متناولة جميع الكفار، والشرك يطلق على الكل، ومن جحد نبوة نبينا محمد ﷺ فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله، وهذا هو الشرك بعينه، لأن المعجزة شهادة من الله له بالنبوة. ثم اختلف هؤلاء: منهم من قال: إن الآية منسوخة في الكتاب بالآية التي في المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].. عن ابن عباس والحسن ومجاهد - ومنهم من قال: إنها مخصوصة بغير الكتابيات.. عن قتادة وسعيد بن جبير - ومنهم من قال: إنها على ظاهرها في تحريم نكاح كل كافرة كتابية كانت أو مشركة.. عن ابن عمر وبعض الزيدية وهو مذهبنا،

وسياتى بيان آية المائدة فى موضعها إن شاء الله: ﴿وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾: معناه: مملوكة مصدقة مسلمة خير من حرة مشركة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبْتَكُمْ﴾: معناه: ولو أعجبتكم بمالها أو حسبها أو جمالها، فظاهر هذا يدل على أنه يجوز نكاح الأمة المؤمنة فى وجود الطول، فأما قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ [النساء: ٢٥]... الآية، فإنما هى على التنزيه دون التحريم، ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ معناه: ولا تنكحوا النساء المسلمات جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى يؤمنوا، وهذا يؤيد قول من يقول: إن قوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ يتناول جميع الكافرات، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾، أى عبد مصدق مسلم خير من حر مشرك ولو أعجبكم ماله أو حاله أو جماله» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَّهُمْ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾... الآية، نراه يقول ما نصه: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى، واختلف فى معناه، فقيل: هن العفاف حرائر كن أو إماء، حرييات كن أو ذميات.. عن مجاهد والحسن والشعبى وغيرهم - وقيل: هن الحرائر ذميات كن أو حرييات - وقيل أصحابنا: لا يجوز عقد نكاح الدوام على الكتابية، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولقوله: إن قوله: ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠].. وأولوا هذه الآية بأن المراد بـ ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اللاتى أسلمن منهن، والمراد بـ ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾: اللاتى كن فى الأصل مؤمنات بأن ولدن على الإسلام، وذلك أن قوماً كانوا يتحرجون من العقد على من أسلمت عن كفر، فبين سبحانه أنه لا حرج فى ذلك، ولهذا أفردهن بالذكر، حكى ذلك أبو القاسم البلخى. قالوا: ويجوز أن يكون مخصوصاً أيضاً بنكاح المتعة وملك اليمين، فإن عندنا يجوز وطؤهن بكلا الوجهين، على أنه قد روى أبو الجارود عن أبي جعفر أنه منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾، ويقولو: ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة المتحنة: ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ قال ما نصه: «أى لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسمى النكاح عصمة، لأن المنكوحة تكون فى حبال الزوج وعصمته، وفى هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء أكانت حربية أو ذمية، وعلى كل حال، الآية

عامة في الكوافر، وليس لأحد أن يخص الآية بعبادة الوثن لنزولها بسببهن، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بالسبب»^(١).

● الغنائم :

ولما كانت الإمامية الإثنا عشرية لهم في الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيوجبون الخمس لمستحقه في مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعاً سبعة هي: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذي يُعثر عليه، والمعدن الذي يُستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى. وليس الخمس الهاشمي الذي يرون وجوبه - فيما عدا الغنائم الحربية - من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقاً امتيازياً لآل محمد الذين حُرِّم عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخمس حق سلطاني بإرادة ملكية، وهي إرادة ملك الكائنات لمستحقه الذين ذكرهم القرآن^(٢).

لما كان هذا، فإننا نجد الطبرسي يُنزل ما ورد في الغنائم من الآيات علي مذهبه، ولهذا عندما فسَّر قوله تعالى في الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾... الآية، يقول متأثراً بمذهبه: «اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس ومن يستحقه على أقوال:

أحدها: ما ذهب إليه أصحابنا، وهو أن الخمس يُقسَّم على ستة أسهم، فسهم لله، وسهم للرسول، وهذان السهمان مع سهم ذى القربى للإمام القائم مقام الرسول، وسهم ليطامي آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، ولا يشركهم في ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرَّم عليهم الصدقات لكونها أوساخ الناس وعوضهم من ذلك الخمس، وروى ذلك الطبري عن علي بن الحسن زين العابدين، ومحمد بن علي الباقر. وروى أيضاً عن أبي العالية والربيع أنه يُقسم على ستة أسهم إلا أنهما قالوا: سهم الله للكعبة، والباقي لمن ذكره الله. وهذا القسم مما يقتضيه ظاهر الكتاب ويقويه.

الثاني: أن الخمس يُقسم على خمسة أسهم، وأن سهم الله والرسول واحد، ويُصرف هذا السهم إلى الكراع والسلاح، وهو المروى عن ابن عباس، وإبراهيم وقتادة، وعطاء.

الثالث: أن يُقسم على أربعة أسهم: سهم لذي القربى.. لقراءة النبي ﷺ، والأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين وهو مذهب الشافعي.

الرابع: أنه يُقسم على ثلاثة أسهم، لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته، لأن الأنبياء

لا تورث فيما يزعمون، وسهم ذوى القُربى قد سقط، لأن أبا بكر وعمر لم يعطيا سهم ذى القُربى ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما.. وهو مذهب أبى حنيفة وأهل العراق - ومنهم من قال: لو أعطى فقراء ذوى القُربى سهماً والآخرين ثلاثة أسهم جاز، ولو جعل ذوى القُربى أسوة بالفقراء ولا يفرد لهم سهم جاز - واختلف فى ذى القُربى: فقيل: هم بنو هاشم خاصة من ولد عبد المطلب، لأن هاشماً لم يعقب إلا منه.. عن ابن عباس ومجاهد، وإليه ذهب أصحابنا - وقيل: هم بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف... وهو مذهب الشافعى، وروى ذلك عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ - وقال أصحابنا: إن الخمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب، وأرباح التجارات، وفى الكنوز والمعادن، والغوص، وغير ذلك مما هو مذكور فى الكتب، ويمكن أن يُستدل على ذلك بهذه الآية، فإن فى عُرْف اللغة يُطلق على جميع ذلك اسم الغنم والغنيمة..» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾... الآية، يقول ما نصه: ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أى من أموال كفار أهل القرى، ﴿ فَلِلَّهِ ﴾ يأمركم فيه بما أحب، ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بتمليك الله إياه، ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ يعنى أهل بيت رسول الله ﷺ وقرباته، وهم بنو هاشم، ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ منهم، لأن التقدير: ولذى قُرباه، ويتامى أهل بيته ومساكينهم وابن السبيل منهم، وروى المنهال بن عمرو عن على بن الحسين قال: قلت: قوله: ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ قال: هم أقرباؤنا ومساكيننا وأبناء سبيلنا. وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين وأبناء السبيل. وقد روى أيضاً ذلك عنهم. وروى محمد بن مسلم عن أبى جعفر أنه قال: « كان أبى يقول: لنا سهم رسول الله وسهم ذوى القُربى، ونحن شركاء الناس فيما بقى. والظاهر يقتضى أن ذلك لهم، سواء أكانوا أغنياء أو فقراء.. وهو مذهب الشافعى - وقيل: إن مال الفقى للفقراء من قرابة رسول الله وهم بنو هاشم وبنو المطلب. وروى عن الصادق أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صفو المال.. يعنى ما كان يصطفى لرسول الله ﷺ من فره الدواب، وحسان الجوارى، والدرّة الثمينه، والشىء الذى لا نظير له» (٢).

● ميراث الأنبياء :

والطبرسى يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما

يورث سائر الناس، ولهذا نراه يتأثر بمذهبه هذا. فيحمل عليه كلام الله، فمثلاً عندما فسّر قوله تعالى في الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ .. يقول ما نصه: «.. اختلف في معناه، فقيل: معناه: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.. عن أبي صالح - وقيل معناه: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب.. عن الحسن ومجاهد. واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث في اللغة والشريعة لا يُطلق إلا على ما يُنقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، ولا يُستعمل في غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة. وأيضاً فإن زكريا قال في دعائه: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ .. أى اجعل يا رب ذلك المولى الذى يرثنى رضىً عندك ممثلاً لأمرك، ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى، وكان لغواً عبثاً، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبياً، واجعله عاقلاً رضىً فى أخلاقه، لأنه إذا كان نبياً فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا فى النبوة، ويقوى ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي﴾ .. وإنما يطلب وارثاً لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم، لأنه كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبياً من ليس بأهل النبوة، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهما بأهل، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس، فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض من بعثته. فإن قيل: إن هذا يرجع عليكم فى ورثة المال، لأن فى ذلك إضافة الضن والبخل إليه، قلنا: معاذ الله أن يستوى الأمران، فإن المال قد يروق المؤمن والكافر، وبماله فيصرفوه فيما لا ينبغي، بل فى ذلك غاية الحكمة، فإن تقوية الفساد وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين، فمن عد ذلك بخلاً وضمناً فهو غير منصف، وقوله: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي﴾ يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم وأفعالهم ومعان فيهم لا من أعيانهم، كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه، فالمراد به: خِفْتُ تضييع المولى مالى وإنفاقهم إياه فى معصية الله»^(١).

وعندما فسّر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ .. نجده يقول ما نصه: «فى هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتورث غيرهم.. وهو قول الحسن - وقيل: معناه: أنه ورث علمه ونبوته ومملكه دون سائر

أولاده. ومعنى الميراث هنا أنه قام مقامه في ذلك، فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث. . عن الجبائي، وهذا خلاف الظاهر، والصحيح عند أهل البيت هو الأول» (١).

● الإجماع :

ولما كان الطبرسي كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفاً عن رأى الإمام أو كان الإمام داخلاً فى جملة المجمعين (٢)، فإننا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدلت بها الجمهور على حجية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات.

فمثلاً عندما فسّر قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. . نراه يرد استدلال الجمهور بهذه الآية على حجية الإجماع فيقول ما نصه: «... واستدل بعضهم بقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ على أن إجماع الأمة حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا للإجماع حجة. وهذا الاستدلال إنما يصح لو فرض أن فى الأمة معصوماً حافظاً للشرع، فأما إذا لم يفرض ذلك فلا يصح، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عده بخلافه عند أكثر العلماء، فكيف اعتمدوا عليه ههنا. على أن الأمة لا تجتمع على شيء إلا عن كتاب أو سنة. وكيف يقال إنها إذا أجمعت على شيء لا يجب عليها الرد إلى الكتاب والسنة وقد ردت إليهما؟» (٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٥) من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾... الآية، يقول ما نصه: «... وقد استدلت بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة، لأنه توعد على مخالفة سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول. والصحيح أنه لا يدل على ذلك، لأن ظاهر الآية يقتضى إيجاب متابعة من هو مؤمن على الحقيقة ظاهراً وباطناً، لأن من أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازاً، فكيف يحمل ذلك على إيجاب متابعة من أظهر الإيمان، وليس كل من أظهر الإيمان مؤمناً، ومتى حملوا الآية على بعض الأمة حملها غيرهم على من هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد ﷺ. على أن ظاهر الآية يقتضى أن الوعيد إنما يتناول من جمع

(٢) تعريف الشيعة ص ١٦

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٢٩

(٣) الجزء الأول صفحة ٢٧٠

بين مشاققة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين لهم أن من يفعل أحدهما يتناوله الوعيد؟ ونحن إنما علمنا أن الوعيد إنما يتناول بمشاققة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية، فيجب أن يسندوا تناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر^(١).

● تأثر الطبرسي بمذهب المعتزلة في تفسيره:

هذا... وإن عقيدة الطبرسي كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادئ المعتزلة في علم الكلام، ولهذا نراه في تفسيره كثيراً ما يوافق المعتزلة في بعض آرائهم الكلامية، ويرتضى مذهبهم، ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ما عداه. وأحياناً نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم.

● الهدى والضلال:

ففي الآيات التي لها تعلق بهداية العبد وضلاله، نراه يوافق المعتزلة في عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ما عداها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٥): ﴿مِنْ سِوَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يردْ أَنْ يَضِلَّهُ يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾... الآية، - ما نصه: «... قد ذكر في تأويل الآية وجوه:

أحدها: أن معناه: من يرد الله أن يهديه إلى الثواب وطريق الجنة يشرح صدره للإسلام في الدنيا، بأن يثبت عزمه عليه، ويقوى دواعيه على التمسك به، ويزيل عن قلبه وساوس الشيطان وما يعرض في القلوب من الخواطر الفاسدة. وإنما يغفل ذلك لطفاً له ومناً عليه وثواباً على اهتدائه بهدى الله وقبوله إياه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿ويزيد الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَمَنْ يردْ أَنْ يَضِلَّهُ﴾ عن ثوابه وكرامته، ﴿يجعل صدره﴾ في كفره، ﴿ضيقاً حرجاً﴾ عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون سبحانه مانعاً له عن الإيمان، وسالماً إياه القدرة عليه، بل ربما يكون ذلك سبباً داعياً له إلى الإيمان، فإن من ضاق صدره بالشيء كان ذلك داعياً له إلى تركه. والدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثواباً قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١]... الآيات، ومعلوم أن وضع الوزر ورفع الذكر يكون ثواباً على تحمل أعباء الرسالة وكلفها، وكذلك ما قرن به من شرح الصدر. والدليل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب قوله: ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ سيهديهم ويصلح بالهم [محمد: ٤ - ٥]، ومعلوم

أن الهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الثواب، فليس بعد الموت تكليف، وقد وردت الرواية الصحيحة: أنه لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر: ما هو؟ فقال: نور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له صدره وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: «نعم، الإجابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور. والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

وثانيها: أن معنى الآية: فمن يرد الله أن يثبتته على الهدى يشرح صدره من الوجه الذى ذكرنا جزاء له على إيمانه واهتدائه، وقد يُطلق لفظ الهدى والمراد به الاستدامة كما قلنا فى قوله: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿ومن يرد أن يضلَّهُ﴾ . . . أي يخذله ويخلى بينه وبين ما يريد لاختياره الكفر وتركه الإيمان، ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ بأن يمنعه الألفاظ التى ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره. فإن قيل: إننا نجد الكافر غير ضيق الصدر لما هو فيه، ونراه طيب القلب على كفره، فكيف يصح الخلف فى خبره سبحانه؟ قلنا: إنه سبحانه بين أنه يجعل صدره ضيقاً ولم يقل فى كل حال، ومعلوم من حاله فى أحوال كثيرة أنه يضيق صدره بما هو فيه من ورود الشبه والشكوك عليه، وعندما يجازى الله المؤمنين على استعمال الأدلة الموصلة إلى الإيمان، وهذا القدر هو الذى يقتضيه الظاهر.

وثالثها: إن معنى الآية: من يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التى وعدّها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة، لأن من حققها أن تزيد المؤمن بصيرة، ﴿ومن يرد أن يضلَّهُ﴾ عن تلك الزيادة بمعنى يذهب عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصح عليه، ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ لمكان فقد تلك الزيادة، لأنها إذا اقتضت فى المؤمن ما قلناه أوجب فى الكافر ما يضاده، ويكون الفائدة فى ذلك الترغيب فى الإيمان والزجر عن الكفر. وهذا التأويل قريب مما تقدم. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: إنما سُمى الله قلب الكافر حرجاً، لأنه لا يصل الخير إلى قلبه - وفى رواية أخرى: لا تصل الحكمة إلى قلبه - ولا يجوز أن يكون المراد بالإضلال فى الآية الدعاء إلى الضلال، ولا الأمر به، ولا الإيجاب عليه، لإجماع الأمة على أن الله تعالى لا يأمر بالضلال ولا يدعو إليه، فكيف يجبر عليه، والدعاء إليه أهون من الإيجاب عليه. وقد ذم الله تعالى فرعون والسامري على إضلالهما عن دين الهدى فى قوله: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [طه: ٧٩]، وقوله: ﴿وأضلهم السامري﴾ [طه: ٨٥]، ولا خلاف فى أن إضلالهما إضلال أمر وإيجاب ودعاء، وقد ذمهما الله تعالى عليه مطلقاً، وكيف يتمدح بما ذم عليه غيره» (١).

(١) الجزء الأول صفحة ٤٠١

● رؤية الله :

كذلك يقول الطبرسي بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها في الآخرة، ولهذا نراه يُفسر قوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بما يتفق ومذهبه فيقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ اختلف فيه على وجهين: أحدهما: أن معناه نظرة العين. والثاني: أنه الانتظار.

واختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما: أن المراد: إلى ثواب ربها ناظرة، أى هى ناظرة إلى نعيم الجنة حالاً بعد حال، فيزداد بذلك سرورها. وذكر الوجوه والمراد به أصحاب الوجوه.. روى ذلك عن جماعة من علماء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم.. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]: أمر ربك. وقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤٢]: أى إلى إطاعة العزيز الغفار وتوحيده. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧]: أى أولياء الله.

والآخر: أن النظر بمعنى الرؤية، والمعنى: تنظر إلى الله معاينة، روى ذلك عن الكلبي ومقاتل وعطاء وغيرهم.. وهذا لا يجوز، لأن كل منظور إليه بالعين، مشار إليه بالحدقة واللاحظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجلس سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع، وأيضاً فإن الرؤية بالحاسة لا تتم إلا بالمقابلة والتوجه، والله يتعالى عن ذلك بالاتفاق. وأيضاً فإن رؤية الحاسة لا تتم إلا باتصال الشعاع بالمرئي، والله منزّه عن اتصال الشعاع به. على أن النظر لا يفيد الرؤية فى اللّغة، فإنه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية. كما أنه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة بدلالة قولهم: نظرت إلى الهلال فلم أراه، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطاً متناقضاً، وقولهم: ما زلت أنظر إليه حتى رأيت، والشئ لا يجعل غاية لنفسه، فلا يقال: ما زلت أراه حتى رأيت، ولأننا نعلم الناظر ناظراً بالضرورة، ولا نعلمه رائياً بالضرورة، بدلالة أننا نسأله: هل رأيت أم لا؟

وأما من حمل النظر فى الآية على الانتظار فإنهم اختلفوا فى معناه على أقوال: أحدها: أن المعنى: منتظرة لثواب ربها.. روى ذلك عن مجاهد، والحسن، وسعيد ابن جبير، والضحاك.. وهو المروى عن على. ومن اعترض على هذا بأن قال: إن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بـ«إلى»، فلا يقال: انتظرت إليه، وإنما يقال: انتظرت، فالجواب عنه على وجوه:

منها: أنه قد جاء فى الشعر بمعنى الانتظار ومعدي بـ«إلى»، كما فى البيت الذى

سبق ذكره:

* .. ناظرات إلى الرحمن * (١)

وكقول جميل بن معمر :

وإذا نظرتُ إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعماً (٢)
وقول الآخر :

إننى إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر
ونظائره كثيرة ..

ومنها: أن تحمل «إلى» فى قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على أنها اسم، فهو واحد الآلاء التى هى النعم، فإن فى واحدتها أربع لغات: «إلا» و«ألا» مثل: معى وقفا، و«ألى» و«إلى» مثل جدى وحسى، وسقط التنوين بالإضافة. وقال الأعشى:
أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحماً ولا يخوض إلى
وليس لأحد أن يقول: إن هذا من أقوال المتأخرين وقد سبقهم الإجماع، فإننا لا نُسلم ذلك، لما ذكرناه من أن علياً ومجاهداً والحسن وغيرهم قالوا: المراد بذلك: تنتظر الثواب.

ومنها: أن لفظ النظر يجوز أن يعدى بـ«إلى» فى الانتظار على المعنى، كما أن الرؤية عدت بـ«إلى» فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] فأجرى الكلام على المعنى، ولا يقال: رأيت إلى فلان. ومن إجراء الكلام على المعنى قول الفرزدق:

ولقد عجبت إلى هوازن أن أصبحت منى تلوذ ببطن أم جريـر
فعدى «عجبت» بـ«إلى» لأن المعنى نظرت.

وثانيها: أن معناه: مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عيني ممدودة إلى الله تعالى وإلى فلان، وأنا شاخص الطرف إلى فلان.. ولما كانت العيون بعض أجزاء الوجوه أضيف الذى يقع بالعين إليها.. عن أبى مسلم.

وثالثها: أن المعنى: أنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كل شئ سوى الله، ورجوه دون غيره، فكنى سبحانه عن الطمع بالنظر، ألا ترى أن الرعية تتوقع نظر السلطان

(١) وذلك حيث فسّر النظر لغة فقال: «.. والنظر تقليب الحدقة الصّحيحة نحو المرئى طلباً لرؤيته. ويكون النظر بمعنى الانتظار. كما قال عزّ شأنه: ﴿وَإِنِّي مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ﴾ [النمل: ٣٥] أى منتظرة، وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن تنتظر الفلاحا

ثم يُستعمل فى الفكر فيقال: نظرت فى هذه المسألة: أى تفكرت، ومنه المناظرة، وتكون بمعنى المقابلة، يقال: دور بنى فلان تناظر: أى تتقارب (الجزء الثانى ص ٥٥٢).

(٢) رفى رواية: جدتنى نعماً، أى: جدت على.

وتطمع في إفضاله عليها وإسعافه في حوائجها، فنظر الناس مختلف : فناظر إلى السلطان، وناظر إلى تجارة، وناظر إلى زراعة، وناظر إلى ربه يؤمله . . وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، وعلى هذا فإن هذا الانتظار متى يكون؟ فقيل: إنه بعد الاستقرار في الجنة، وقيل: إنه قبل استقرار الخلق في الجنة والنار، فكل فريق ينتظر ما هو له أهل . . وهذا اختيار القاضي عبد الجبار - وذكر جمهور أهل العدل أن النظر يجوز أن يُحمل على المعنيين جميعاً، ولا مانع لنا من حمله على الوجهين، فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المُعد لهم في الحال من أنواع النعيم، وينتظرون أمثالها حالاً بعد حال ليتم لهم ما يستحقون من الإجلال، ويُسئل على هذا فيقال: إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة وبمعنى الانتظار مجازاً فكيف يُحمل عليهما؟ والجواب: أن عند أكثر المتكلمين في أصول الفقه يجوز أن يراد بلفظ واحد إذ لا تنافى بينهما . . وهو اختيار المرتضى قدس الله روحه، ولمَّ يجوز ذلك أبو هاشم إلا إذ تكلم به مرتين: مرة يريد النظر، ومرة يريد الانتظار. وأما قولهم: المنتظر لا يكون نعيمه خالصاً فكيف يوصف أهل الجنة بالانتظار؟ فالجواب عنه: أن من ينتظر شيئاً لا يحتاج إليه في الحال وهو واثق بوصوله إليه عند حاجته فإنه لا يهتم بذلك ولا ينقص سروره به، بل ذلك زايد في نعيمه، وإنما يلحق بهم المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره في الحال ويلحقه بفوته مضرة وهو غير واثق بالوصول إليه . وقد قيل في إضافة النظر إلى الوجوه: إن الغم والسرور إنما يظهران في الوجوه، فبين الله سبحانه أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة تهلل وجهه، وأن الكافر يخاف مغبة أفعاله القبيحة فيكلح وجهه . . (١).

● السحر :

والطبرسي ينكر حقيقة السحر ولا يقول به، ويخالف جمهور أهل السنة في ذلك، ويرد أدلتهم، وينكر حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ، ولهذا نراه في آخر تفسيره لقوله تعالى للآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمَانَ ﴾ . . . الآية، يقول ما نصه: « . . واختلَف في ماهية السحر على أقوال: فقيل: إنه ضرب من التخيل وصنعة لطيفة من الصنائع، وقد أمر الله تعالى بالتعود منه وجعل التحرز منه بكتابه وقاية منه، وأنزل فيه سورة الفلق . . وهو قول الشيخ المفيد أبي عبد الله من أصحابنا .

وقيل: إنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، تخيل إلى المسحور لها حقيقة . . وقيل: إنه يمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً ويقلبه من صورة إلى صورة، وينشئ الحيوان على وجه الاختراع . وهو لا يجوز، ومن صدق به فهو لا يعرف النبوة،

ولا يأمن من أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع، ولو أن الساحر والمعزم قدرا على نفع أو ضرر، وعلما الغيب لقدرا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز من معانها والغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه وضرر، فلما رأيناهم أسوأ الناس حالاً وأكثرهم مكيدة واحتياطاً. علمنا أنهم لا يقدرّون على شيء من ذلك. فأما ما روى من الأخبار أن النبي ﷺ سحر فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله أو أنه لم يفعل ما فعله فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، وقد قال الله حكاية عن الكفار: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]. فلو كان السحر عمل فيه لكان الكفار صادقين في مقالهم، حاشا للنبي من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله، فإنه حجة الله على خلقه وصفوته على بريته...» (١).

● الشفاعة :

هذا.. ولا يلتزم الطبرسي القول بكل معتقدات المعتزلة، بل نراه يخالفهم في كثير من الأحيان، ويرد عليهم معتقداتهم، ويجادلهم فيها جدالاً عنيفاً قوياً. فمذهب الطبرسي في الشفاعة - مثلاً - يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾.. يقول ما نصه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآبائنا يشفعون لنا، فأياسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي شفاعة مقبولة، وإن اختلفوا في كيفيتها، فعندنا هي مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقه من مذنبى المؤمنين.

وقالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين. وهي ثابتة عندنا للنبي، ولأصحابه المنتخبين، وللأئمة من أهل بيته الطاهرين، ولصالحى المؤمنين، وينجى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ويؤيده الخبر الذى تلقته الأمة بالقبول وهو قوله: «ادخرتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»، وما جاء فى روايات أصحابنا رضى الله عنهم مرفوعاً إلى النبي أنه قال: «إِنِّي أَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَشْفَعُ، وَيُشْفَعُ عَلَيَّ فَيُشْفَعُ، وَيُشْفَعُ أَهْلَ بَيْتِي فَيُشْفَعُونَ، وَإِنْ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةَ لِيُشْفَعَ فِي أَرْبَعِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ كُلِّ قَدٍ اسْتَوْجِبَ النَّارَ»، وقوله مخبراً عن الكفار عند حسراتهم على الفئات لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعة: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صديق حميم ﴿[الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]﴾ (٢).

● حقيقة الإيمان :

وهو أيضا يخالف المعتزلة في حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.. قال ما نصه: «.. وقالت المعتزلة بأجمعها: الإيمان هو فعل الطاعة، ثم اختلفوا فمنهم من اعتبر الفرائض والنوافل. ومنهم من اعتبر الفرائض فحسب. واعتبروا الاجتناب من الكبائر كلها، وقد روى العام والخاص عن علي بن موسى الرضا: أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وقد روى ذلك على لفظ آخر منه أيضاً: الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتباع الرسول.

وأقول أنا: أصل الإيمان هو المعرفة بالله وبرسوله وبجميع ما جاءت به رسله. وكل عارف بشيء فهو مصدق به، يدل عليه هذه الآية، فإنه تعالى لما ذكر الإيمان علقه بالغيب، ليعلم أنه تصديق للمخبر فيما أخبر به من الغيب على معرفة وثقة، ثم أفرد به بالذكر عن سائر الطاعات البدنية والمالية وعطفها عليه فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، والشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره، ويدل عليه أيضاً أنه تعالى حيث ذكر الإيمان أضافه إلى القلب فقال: ﴿وَقَلْبَهُ مُطْمِئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].. وقال النبي ﷺ: «الإيمان سر - وأشار إلى صدره - والإسلام علانية» وقد يسمي الإقرار إيماناً كما يسمي تصديقاً إلا أنه متى صدر عن شك أو جهل كان إيماناً لفظياً لا حقيقياً، وقد تسمى أعمال الجوارح أيضاً إيماناً استعارة وتلويحاً كما يسمي تصديقاً كذلك، فيقال: فلان تصدق أفعاله مقالته، ولا خير في قول لا يصدقه الفعل. والفعل ليس بتصديق حقيقي باتفاق أهل اللغة، وإنما استعير هذا الاسم على الوجه الذي ذكرناه. فقد آل الأمر مع تسليم صحة الخبر وقبوله إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب والتصديق به على نحو ما تقتضيه اللغة، ولا يطلق لفظه إلا على ذلك. إلا أنه يستعمل في الإقرار باللسان والعمل بالأركان مجازاً واتساعاً، وبالله التوفيق»^(١).

● روايته للأحاديث الموضوعية :

هذا.. ولا يفوتنا أن نقول: إن الطبرسي رحمه الله لم يكن صادقاً في وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث، ذلك لأننا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث في تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصاً ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم.

وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث فى فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث فى فضائل السور مسنداً إلى أبى وغيره، ومرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، وهى أحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم. كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى فى تفسيره من الأحاديث ما يشهد لمذهبه أو يتصل به، وهى أخبار نقرأها ولا نكاد نرى عليها صبغة الصدق ورواء الحق.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الرهد: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.. نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على السنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منه، مما يدل على أنه يصدقها ويقول بها. فهو بعد أن ذكر أقوالاً أربعة فى معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: «أنا المنذر وعلى الهادى من بعدى، يا على، بك يهتدى المهتدون». ونقل بسنده إلى أبى بردة الأسلمى أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ بالطهور، وعنده على بن أبى طالب، فأخذ رسول الله بيد على بعد ما تطهر فألزمها بصدرة ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾، ثم ردها إلى صدره، ثم قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، ثم قال: إنك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى، وأشهد على ذلك أنك كذلك» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.. نجده يذكر أقوالاً ثلاثة فى معنى هذه الآية: أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التوادد والتحاب فيما يقرب إلى الله تعالى من العمل الصالح.

وثانيها: أن معناه: إلا أن تودونى فى قرابتى منكم وتحفظونى لها. وثالثها: إلا أن تودوا قرابتى وتحفظونى فيهم... وهنا يسوق من الروايات عن أهل البيت وغيرهم ما يصرح بأن الذين أمر الله بمودتهم: على وفاطمة وولدهما، ويروى - فيما يروى - هذا الحديث الغريب الذى نقله من كتاب «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل» مرفوعاً إلى أبى أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى، وخلقت أنا وعلى من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلى فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجأ، ومن زاع عنها هوى، ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشبن البالى، ثم لم يدرك مجيبتنا كبه الله على منخره فى النار، ثم تلا: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٢).

● موقفه من الإسرائيليات :

وكثيراً ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائلها، ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يُعقَّب عليها.. اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، ويبين ما فيها من مجافاتها للحق وبعدها عن الصواب، فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة (ص): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابِ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾... الآيات، نجده يقول: «واختلف فى استغفار داود من أى شىء كان، فقيل: أنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع والتذلل بالعبادة والسجود، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].. وأما قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ [ص: ٢٥] فالمعنى أنا قبلناه منه وأثبتناه، فأخرجه على لفظ الجزاء مثل قوله: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]. فلما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول قيل فى جوابه: «غفرنا» وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية وغيرهم. ومن جوز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنوب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا فى ذلك على وجوه:

أحدها: أن أوريا بن حبان خطب امرأة وكان أهلها أرادوا أن يزوجها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضاً فزوجهها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا.. عن الجبائى.

وثانيها: أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

وثالثها: أنه كان فى شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج، فلما قُتل أوريا خطب داود امرأته ومنعت هيبه داود وجلالته أولياؤه أن يخطبوها فعوتب على ذلك.

ورابعها: أن داود كان متشاغلاً بالعبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وذلك مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر فى أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

وخامسها: أنه عوتب على عجلته فى الحكم قبل التثبت، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ويحكم عليه قبل ذلك، وإنما أنساه التثبت فى الحكم فرعه من دخولها عليه فى غير وقت العادة.

وأما ما ذكر فى القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت على إبراهيم فاتخذته خليلاً، وفضلت على موسى فكلمته تكليماً. فقال: يا داود إنا ابتليناكم بما

لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليت، فقال: نعم يا رب فابتلني، فبينما هو في محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهاواها وهم بتزوجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقُتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان، فبينما هو ذات يوم في محرابه يقرأ إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: ﴿ لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ إلى قوله: ﴿ وقليل ما هم ﴾ [ص: ٢٢ - ٢٤] . . فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبيكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، فمما لا شبهة في فساده، فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تُقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك. وقد روى عن أمير المؤمنين أنه قال: لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين: حداً للنبوة، وحداً للإسلام»^(١).

● التفسير الرمزي :

والطبرسي مع أنه في كتابه هذا يفسر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن إلا أننا نلاحظ عليه أحياناً أنه يذكر المعاني الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزي الذي يقول به الشيعة، وهو وإن كان ناقلاً لهذه الأقوال إلا أنه يرتضيها ولا يرد عليها، وكثيراً ما يؤيدها بأدلة من عنده.

مثال ذلك أنه عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ . . . الآية، نجده يقول بعد كلام طويل: «واختلف في هذا المشبه والمشبه به على أقوال» . . ثم ذكر هذه الأقوال، فكان من جملة ما ذكره هذه الروايات التي لا تعدو أن تكون من وضع الشيعة، وهي ما روى عن الرضا أنه قال: «نحن المشكاة فيها المصباح محمد ﷺ يهدي الله لولايتنا من أحب». وما نقله من كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى بن راشد عن أبي جعفر الباقر في قوله: ﴿ كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال: نور العلم في صدر النبي، ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ الزجاج صدر علي، صار علم النبي إلى صدر علي، علم النبي علياً، ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ نور العلم، ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ قال:

يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يُسئل، ﴿نور على نور﴾ أى إمام مؤيد بنور العلم والحكمة فى إثر إمام من آل محمد ﷺ، ذلك من النبى آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء فى أرضه، وحججه على خلقه، لا تخل الأرض فى كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبى طالب:

أنت الأمير محمد قرم أغر مسود
لمسودين أطاهر كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعو د تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل فينا وصى مرشد
ولقد عرفتك صادقاً والقول لا يتفند
ما زلت تنطق بالصوا ب وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضى أن الشجرة المباركة المذكورة فى الآية هى دوحه التقى والرضوان وعتره الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفرعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبريل وميكائيل»^(١).

● اعتداله فى تشييعه :

والطبرسى معتدل فى تشييعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الإثنا عشرية، ولقد قرأنا فى تفسيره فلم نلمس عليه تعصباً كبيراً، ولم نأخذ عليه أنه كفر أحداً من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعد التهم ودينهم.

كما أنه لم يغال فى شأن على بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء، وإن كان يقول بالعصمة. ولقد وجدناه يروى عن رسول الله ﷺ حديثاً فى شأن من والى علىاً ومن عاداه، وهو بصرف النظر عن درجته من الصحة يدل على أن الرجل وقف موقفاً وسطاً أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلى رضى الله عنه، هذا الحديث هو ما رواه فى الوجه الرابع من الوجوه التى قيلت فى سبب نزول قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة الزخرف: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾، حيث قال: «... ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن على عليهم أفضل الصلوات أنه قال: جئت إلى رسول الله يوماً فوجدته فى ملا من قريش فنظر إلى ثم قال: يا على؛ إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفراطوا فى حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفراطوا فى بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسول.. فنزلت الآية»^(٢).

وكل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه وعقائده أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين في آية من الآيات ونقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ... الآية، يقول: «قيل في المعنى بهذه الآية أقوال» ... ثم يذكر الأقوال، ويذكر ما رواه أصحابه عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق من أنهما قالوا: «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده» .. ثم قال مؤيداً لهذا القول: «ويعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة وإلادة الأمر. وروى عنهم أنهم قالوا: آيتان إحداهما لنا والأخرى لكم، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ... الآية» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ... الآية، نجده بعد أن يذكر ما جاء عن بعض السلف من أن المراد بأولي الأمر الأمراء، وما جاء عن بعضهم من أن المراد بهم العلماء يقول: «وأما أصحابنا فإنهم رووا عن الباقر والصادق أن أولى الأمر هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبت عصمته، وعلم أن باطنه كظاهره، وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا العلماء سواهم جلَّ الله أن يُطاعه من يعصيه، أو بالانقياد للمختلفين في القول والفعل، لأنه محال أن يُطاع المختلفون، كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه. ومما يدل على ذلك أيضاً أن الله لم يقرن طاعة أولى الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته، ألا وإن أولى الأمر فوق الخلق جميعاً، كما أن الرسل فوق أولى الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتفقت الأمة على علو رتبتهم وعدالتهم» (٢).

وبعد ... أفلا ترى معنى أن هذا التفسير يجمع بين حسن الترتيب، وجمال التهذيب، ودقة التعليل، وقوة الحجّة؟ أظن أنك معنى في هذا، وأظن أنك معنى أيضاً في أن الطبرسي وإن دافع عن عقيدته وناقح عنها لم يغل غلو غيره ولم يبلغ به الأمر إلى الدرجة التي كان عليها المولى الكازراني وأمثاله من غلاة الإمامية الإثنا عشرية.

* * *

٤ - الصافي في تفسير القرآن (لما محسن الكاشي)

● التعريف بصاحب هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المعروف بملا محسن، وبالفيض الكاشي، وأحد غلاة الإمامية الإثنا عشرية. قال صاحب روضات الجنّات في ترجمته ما ملخصه: « وأمره في الفضل والفهم والنبالة في الفروع والأصول، والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول، وكثرة التأليف والتصنيف، مع جودة التعبير والترصيف، أشهر من أن يخفى في هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد. وعمره كما استفيد لنا من تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين. ووفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين. وأبوه مرتضى المذكور أيضاً كان من العلماء، وكذا أخوه محمد المعروف بنور الدين، وكذا أخوه الآخر المشهور بالمولى عبد الغفور، وبالجملة: فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلى ذروة الأفلاك، من كبار بيوتات العلم والعمل والفضل والإدراك. وأما نفس الرجل فقد بلغ فضله إلى حيث لم يُعرف بين هذه الطائفة مثله، وخصوصاً في مراتب المعرفة والأخلاق، وتطبيق الظواهر بالبوطن بحسن المذاق، وجودة الإشراق، وكان يشبه مشربه مشرب أبي حامد الغزالي، وقد نسب إليه الشيخ علي المشهدي العامل في ذيل رسالته في تحريم الغناء وغيرها، كثيراً من الأقاويل الفاسدة، والآراء الباطلة العاطلة، التي تفوح منها رائحة الكفر والمضارة بضروريات هذا الدين المتين، والمضادة لما هو من قطعيات علم هذا الشرع المتين، ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجيهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما تدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة... من منافيات أصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة. مثل قوله بوحدة الوجود، وبعدم خلود الكفار في عذاب النار، وعدم نجاة أهل الاجتهاد وإن كانوا في جملة أجلّنا الكبار، وفي قوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس... وبالجملة فقد كان رحمه الله دائماً في طرف النقيض من الشيخ علي المذكور... ومن جملة من كان ينكر عليه أيضاً كثيراً من علماء زمانه الفاضل المحدث المولى محمد طاهر القمي صاحب كتاب حجة الإسلام وغيره، وإن قيل إنه رجع في أواخر عمره عن اعتقاده السوء في حقه، فخرج من «قم» المباركة إلى بلدة «كاشان» للاعتراف عنده بالخلاف، والاعتذار لديه بحسن الإنصاف، ماشياً على قدميه إلى أن وصل إلى باب داره، فنادى: يا محسن قد أتاك المسئ، فخرج إليه مولانا المحسن وجعلاً يتصافحان ويتعانقان ويستحل كل منهما من صاحبه ثم رحل من فوره

إلى بلده وقال: لم أَرِدْ من هذه الحركة إلا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهَّاب. ويقال أيضاً: إن بعض من اعتقد في حقه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه في المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه في المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى بعض ما كتبه في أواخر عمره وهو في مكان كذا كذا، فلما استيقظ وطلبه وجده كما نسبه، وكان فيه تبرئة نفسه من جميع ما يُنسب إليه من أقوال الضلال... وقد ذكره صاحب أمل الآمل فقل: المولى الجليل، محمد بن مرتضى، المدعي بمحسن الكاشي، كان فاضلاً عالماً، حكيماً متكلماً، محدثاً فقيهاً، شاعراً أديباً، أحسن التصنيف، من المعاصرين، وله كتب: منها كتاب الوافي في جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشككة، وهو حسن إلا أن فيه ميلاً إلى بعض طريقة الصوفية، وكذا جملة من كتبه، وكتاب سفينة النجاة في طريقة العمل، وتفاسير ثلاثة: كبير وصغير ومتوسط، وكتاب عين اليقين، وكتاب علم اليقين، وكتاب حق اليقين.. وقال صاحب لؤلؤة البحرين: «وهذا الشيخ كان فاضلاً، محدثاً، إخبارياً، صلباً، كثير الطعن على المجتهدين، ولا سيما في رسالة سفينة النجاة، حتى إنه يفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلاً عن الفسق، مثل إيراده آية: ﴿يَا بَنِي آدَمُ ارْكَبُوا مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].. وهو تفریط وغلو بحت، مع أن له أدلة من المقالات التي جرى فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة مما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله، مثل ما يدل في كلامه على القول بوحدة الوجود، وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة في القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن عربي الزنديق، وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبّر عنه ببعض العارفين. ثم قال: وقد تتلمذ في الحديث على السيد ماجد البحراني، وفي الحكمة والأصول على صدر الدين محمد ابن إبراهيم الشيرازي، كان صهره على ابنته، ولذا ترى أن كتبه في الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة. ولاشتهار مذهب التصوف في بلاد العجم وميلهم إليه، بل وغلوهم فيه صارت إليه المرتبة العليا في زمانه، والغالية القصوى في أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه. حتى جاء شيخنا المجلسي فسعى غاية السعى في سد تلك الشقائق الفاغرة، وإطفاء نائرة البدع البائرة. وله تصانيف كثيرة أفرد لها فهرساً على حدة ونحن ننقل عنه ملخصاً: كتاب الصافي في تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت فرغ من تأليفه في سنة ١٠٧٥ هـ (خمس وسبعين بعد الألف من الهجرة) وكتاب الأصفى، منتخب منه، أحد وعشرين ألف بيت تقريباً. ثم عدّد كتبه التي ألفها وهي كثيرة. وحكى السيد السعيد السيد نعمة الله الجزائري التستري قال: كان أستاذنا المحقق المولى محمد محسن الكاشاني صاحب مؤلفات وفيرة مما يقرب من مائتي كتاب ورسالة، وكان نشوه في بلدة «قُم»،

فسمع بقدوم السيد الأجل المحقق الإمام الهمام السيد ماجد البحراني الصادق إلى «شيراز»، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردد والده في الرخصة إليه، ثم بنوا الرخصة وعدمها علي الاستخارة، فلما فتح القرآن جاءت الآية: ﴿قُلْ لَوْلَا نَفْرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]... الآية، ثم بعده تفاعل بالديوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين فجاءت الأبيات هكذا:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم، واكتساب معيشة وعلم، وآداب، وصحبة ماجد
هذه ترجمة المؤلف وفيها ما يشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه في العلم، كما أن الأقوال التي قيلت عن عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة، وإن كان صاحب روضات الجنات يحاول تبرئته من هذه التهمة ويقول إنها فرية بلا مرية.. أما أنا فلم ألاحظ عليه في تفسيره أثراً للقول بوحدة الوجود، ولا ما يشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار في عذاب النار. ولم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفي الفلسفي، ولعل الكتاب من أواخر مؤلفاته وبعد رجوعه عما نسب إليه وأتهم به»^(١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

الصافي في تفسير القرآن الكريم، كتاب فسّر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادئ الإمامية الإثنا عشرية. وهو تفسير وسط يقع في جزئين كبيرين ومتناول لشرح الآيات القرآنية شرحاً مختصراً جداً ولا يطيل إلا إذا وجد في الآية ما يمكن أن يأخذ منه شاهداً على مبادئه، أو دليلاً على عقيدة من عقائده، أو دفعاً يدفع به رأياً من آراء مخالفيه. كذلك يطيل عندما يعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول ﷺ. والكتاب يعتمد أولاً وقبل كل شيء على ما ورد من التفسير عن الأئمة وعلماء أهل البيت، شأنه في هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن وأعلمهم بمعانيه، والكتاب في جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه وغلوه في تشييعه، فهو يجادل ويدافع عن مبادئ حزبه، ويطعن في صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بالنفاق والكفر.. إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى. هذا وقد قدم ملا محسن الكاشي لتفسيره باثنتي عشرة مقدمة، أرى أنه لا داعي لذكرها جميعاً، ولكن حسبي وحسب القارئ أن أذكر أهم الآراء التي يقول بها المؤلف ويشرحها لنا في هذه المقدمات، ثم أذكر طريقته التي سار عليها في تفسيره

كما أوضحها هو، ثم أعرض على القارئ بعد ذلك بعض مواقف المؤلف فى تفسيره، ومنها يتبين جلياً قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه، ومسلكه الذى سلكه فى شرحه لكتاب الله تعالى بما يتفق مع مذهبه ويتمشى مع عقيدته، وإليك أهم هذه الآراء التى قالها المؤلف :

● آل البيت هم تراجمة القرآن، لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم :

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله وأحاطوا بمعانيه وأسراره، ووقفوا على رموزه وإشاراته، ذلك لأن القرآن نزل فى بيتهم - بيت النبوة - ورب البيت أدرى بما فيه، وهو فى هذه العقيدة لا يشذ وحده بل هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل ومتطرف .

يرى المؤلف هذا الرأى ويصرِّح به فى مقدمة تفسيره فيقول: «... وإن العترة تراجمة القرآن فمن الكشاف عن وجوه عرايس أسراره ودقائقه وهم خوطبوا به؟ ومن لتبيان مشكلاته ولديه مجمع بيان معضلاته ومنبع بحر حقائقه وهم أبو حسنه؟ ومن يشرح آيات الله وييسر تفسيرها بالرموز والصرار إلا من شرح الله صدره بنوره ومثله بالمشكاة والمصباح؟ ومن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل، وفى بيوتهم كان ينزل جبريل؟.. وهى البيوت التى أذن أن تُرفع، فمنهم يُؤخذ ومنهم يُسمع. إذن أهل البيت بما فى البيت أدرى، والمخاطبون بما خُوطبوا به أوعى، فأين نذهب عن بابهم وإلى من نصير...؟» (١).

ثم يمضى صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها - فيما نعتقد وكما يظهر من أسلوبها - من وضع الشيعة وأخلاقهم، فمن ذلك ما نقله عن الكافى بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول.. وساق الحديث إلى أن قال: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ وآله إلا أقرأنيها وأملاها على فأكتبها بخطى، وعلمنى تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله أن يُعلمنى فهمها وحفظها، فما نسيتُ آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه على فكتبته منذ دعا لى بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال وحرام، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا أعلمنيه. وحفظته فلم أنس منه حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علماً وفهماً وحكمة ونوراً، فقلت: يا رسول الله - بأبى أنت وأمى - منذ دعوت الله لى بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتنى شئ لم أكتبه، أو تتخوف على النسيان فيما بعد؟. فقال: لست أتخوف عليك نسياناً ولا جهلاً» قال: ورواه العياشى فى تفسيره

والصدوق في إكمال الدين . بتفاوت يسير في ألفاظه، وزيد في آخره: «وقد أخبرني ربي أنه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله؛ ومن شركائي من بعدى؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه وبى، فقال: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩] .. فقلت: ومن هم؟ قال: الأوصياء منى إلى أن يردوا على الحوض، كلهم هادين مهتدين لا يضرهم من خذلهم، هم مع القرآن والقرآن معهم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، بهم تنصر أمتى وبهم تمطر، وبهم يدفع عنهم البلاء، وبهم يستجاب دعاؤهم . فقلت: يا رسول الله؛ سمهم لى .. فقال: ابني هذا .. ووضع يده على رأس الحسن، ثم قال: ابني هذا .. ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له: على وسيولد فى حياتك فأقرته منى السلام، ثم تكلمة اثني عشر من ولد محمد . فقلت له: بأبى أنت وأمى أنت فسمهم لى، فسمأهم رجلاً رجلاً، فقال: منهم - والله يا أخا بنى هلال - مهدي أمة محمد، الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والله إنى لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم» (١) .

ومنها ما نقله عن الكافى بإسناده إلى زيد الشحام .. قال: دخل قتادة ابن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة؛ أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون . فقال أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا، بل بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تُفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك . قال قتادة: سل . قال: أخبرنى عن قول الله تعالى فى سبأ: ﴿وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ [سبأ: ١٨] .. فقال قتادة: من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع إلى أهله . فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك بالله - يا قتادة - هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم . فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة .. إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة .. ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يؤم هذا البيت عارفاً بحقنا، يهوانا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ [ابراهيم: ٣٧] ، ولم يعين البيت فقليل: إليه .. نحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التى من هوانا قلبه قبيلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان ذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة . قال قتادة: لا جرم والله لا أفسرها إلا هكذا . فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن من حُوطب به» (٢) .

● من يجوز له أن يُفسّر القرآن برأيه :

ولكن هل معنى ذلك أن ملا محسن يرى أن فهم معانى القرآن ومعرفة أسرارهِ أصبح أمراً مقصوراً على أهل البيت وحدهم فيكون بذلك قد حُجِرَ واسعاً وحُجِدَ فضل من عداهم من العلماء؟ أو يرى أن القرآن في فهمه قدر مشترك بين العلماء جميعاً لا فرق بين أهل البيت وغيرهم؟ .. الحق أن صاحبنا يرى أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً، ولكن من هم أولوا الفهم الذين يجوز لهم أن يُعملوا عقولهم فى فهم معانى القرآن واستنباط أحكامه؟. نرى المؤلف يحدد لنا أولى الفهم بحدود، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعى، وذلك حيث يقول: « .. فالصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام، وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ فى العلم، والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عيننا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيا ببدن روحه معلّقة بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، ويستنبط منه نبذاً من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله بغيره، ولا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته فلا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل» (١).

● المؤلف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن أهل البيت هو التفسير المثالى ويطعن فى بقية الصحابة وفى تفسيرهم :

ولما كان المؤلف - رحمه الله - قد جعل جُلَّ اعتماده فى تفسيره، بل كله، على ما وصل إليه من التفسير عن آل البيت، لاعتقاده أنهم أدرى به من غيرهم، فإننا نراه يرى - مع شئ من التواضع التقليدى - أن تفسيره هو التفسير المثالى الذى يجب أن يُحتذى، كما نراه لا يعترف بتفسير غيره ممن تقدم عصره، بل ويبالغ فى عدم الاعتراف فيطعن على من عدا أهل البيت من الصحابة ويرميهم بالنفاق وغيره، ولا يرتضى ما جاء عنهم من تفسير، كأن عقول الصحابة جميعاً قد عجمت وضلّت إلا عقول أهل البيت ومن والاهم .

يقرر المؤلف هذا بكل صراحة وجراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله ﷺ، وذلك حيث يقول: « .. هذا يا إخوانى ما سألتمونى من تفسير القرآن، بما وصل إلينا

(١) الجزء الأول صفحة ١٠ .

من أئمتنا المعصومين من البيان، أتيتكم به مع قلة البضاعة، وقصور يدي عن هذه الصناعة، على قدر مقدور، فإن المأمور معذور، والميسور لا يُترك بالمعسور، ولا سيما أني كنت أراه أمراً مهماً، وبدونه أرى الخطب مدلهما، فإن المفسرين وإن أكثروا القول في معاني القرآن، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسُلطان، وذلك لأن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ومحكماً ومتشابهاً، وخاصاً وعماماً، ومبيناً ومبهماً، ومقطوعاً وموصولاً، وفرائض وأحكاماً، وسُنناً وآداباً، وحلالاً وحراماً، وعزيمة ورخصة، وظاهراً وباطناً، وحداً ومطلعاً . . ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل في بيته، وذلك هو النبي ﷺ وآله وأهل بيته، فكل ما لا يخرج من بيتهم فلا تعويل عليه، ولهذا ورد عن النبي ﷺ: « من فسّر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ »، وقد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم في تفسير القرآن وتأويله أخبار كثيرة، إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين، وعلى أقدار أفهام المخاطبين، وبموجب إرشادهم إلى مناهج الدين، وبقيت بعد خبايا في زوايا، خوفاً من الأعداء وتقية من البعداء، ولعله مما برز وظهر لم يصل إلينا الأكثر، لأن رواته كانوا في محنة من التقية، وشدة من الخطر، وذلك أنه لما جرى في الصحابة ما جرى، وضلّ بهم عامة الوري، أعرض الناس عن الثقلين (١)، وتاهوا في بيضاء ضلالاتهم عن النجدين إلا شرذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين، وعمهوا في غمرتهم حتى حين، فالحال إلى أن نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فكان الكتاب وأهله في الناس وليسوا في الناس، ومعهم وليسوا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا. وكان العلم مكتوماً، وأهله مظلوماً، لا سبيل لهم بإبرازه إلا بتعميته وإلغازه، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين ولا ناصبين، لم يدروا ما صنعوا بالقرآن، وعمن أخذوا التفسير والبيان. فعمدوا إلى طائفة يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا يُفسرون لهم بالآراء، ويروون تفسيره عمّن يحسبونه من كبرائهم، مثل أبي هريرة وأنس وابن عمر ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس، وكان خير من يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس، ممن ليس على قوله كثير تعويل، ولا له إلى لباب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله، وربما يسندونه إلى رسول الله ﷺ وآله، ومن الآخذين عنهم من لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم، لما تقرّر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يُبطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله ﷺ في عزة وشقاق، وهكذا كان حال الناس قرناً بعد قرن، فكان لهم في كل قرن

(١) أراد بالثقلين كتاب الله والعترة كما أفصح عن ذلك في أول المقدمة، صفحة ٢.

رؤساء ضلالة، عنهم يأخذون، وإليهم يرجعون، وهم بآرائهم يجيبون، أو إلى كبرائهم يستندون، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام في جملة ما يروون عن رجالهم، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتبأ لهم ولأدب الرواية، إذ ما رعوها حق الرعاية، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب، وراموا غير باب الله أبواباً، واتخذوا من دون الله أرباباً، وفيهم أهل بيت نبيهم، وهم أئمة الحق، وسنة الصدق، وشجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، وعيبة العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا، خزائن أسرار الوحي والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والأمناء على الحقائق، والخلفاء على الخلائق. أولوا الأمر الذين أمروا بطاعتهم، وأهل الذكر الذين أمروا بمسألتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والراسخون في العلم الذين عندهم القرآن كله تأويلاً وتفسيراً، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون، إنا لله وإنا إليه راجعون. ولما أصبح الأمر كذلك وبقي العلم سخرياً هنالك، صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم، فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم، وحملوه على أهوائهم في تفاسيرهم وكلامهم، والتفاسير التي صنّفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل، وكذلك التي صنّفها متأخرو أصحابنا فإنها أيضاً مستندة إلى رؤساء العامة وشذ ما نُقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام، وذلك لأنهم إنما نسجوا على منوالهم، واقتصروا في الأكثر على أقوالهم، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء وهؤلاء - فإنما تكلموا في النحو، والصرف، والاشتقاق، واللغة، والقراءة، وأمثالها - مما يدور على القشور دون اللباب، فأين هم والمقصود من الكتاب؟ وإنما ورد على طائفة منهم ما قويت فيه منته، وترك ما لا معرفة له به مما قصرت عنه همته، ومنهم من أدخل في التفسير ما لا يليق به، فبسط الكلام في فروع الفقه وأصوله، وطوّل القول في اختلاف الفقهاء. أو صرف همته فيه إلى المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء، وأما ما وصل إلينا مما ألفه قداماؤنا من أهل الحديث فغير تام، لأنه إما غير منته إلى آخر القرآن، وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان، مع أن منه ما لم يثبت صحته عن المعصوم، لضعف رواته أو جهالة حالهم، ونكارة بعض مقالهم».. إلى أن قال: «وبالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافي، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمخير والمتنافي»^(١).

● **جُلّ القرآن نازل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم:**

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم،

فما كان من آية مدح فهي في آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهي في مخالفهم، ثم يقوى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة في هذا المعنى، فمن ذلك ما نقله عن الكافي وتفسير العياشي بالإسناد إلى أبي جعفر عليه السلام قال: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في أعدائنا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام»، وزاد العياشي: «ولنا كرائم القرآن».. ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية وأمثالها فقال: «وقد وردت أخبار جمّة عن أهل البيت عليهم السلام، في تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وبأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنّفوا كتباً في تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في تأويل آية آية، إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم، على ترتيب القرآن. وقد رأيت منها كتاباً يقرب من عشرين ألف بيت.. ثم قال: وذلك مثل لما رواه الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين ﴿ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] .. قال: هي الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام. وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد؛ إذا سمعت الله ذكر قوماً من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا. وفيه عن عمير بن حنظلة عن أبي عبد الله عليه السلام: سأله عن قوله تعالى: ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد: ٤٣] .. قال: فلما رأني أتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: حسبك .. كل شيء في الكتاب من فاتحته إلى خاتمته مثل هذا فهو في الأئمة عنوانه» (١).

● رأى المصنف في تحريف القرآن وتبديله:

يدين ملا محسن بأن علياً رضي الله عنه هو أول من جمع القرآن، وأن القرآن الذي جمعه هو القرآن الكامل الذي لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ويروي لنا أحاديث عن آل البيت كمستند له في رأيه هذا، فمن ذلك: ما نقله عن القمّي في تفسيره بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعليّ عليه السلام: «يا عليّ؛ إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقرطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة»، فانطلق عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه في بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه. قال: كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه».

ومنها ما رواه القمّي بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبي عبد الله -

وأنا أستمع - حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله: كُفَّ عن هذه القراءة. اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة، وأخرج المصحف الذي كتبه عليّ عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعته بين اللوحين. فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لقراءته.

ومن ذلك ما روى عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه: أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمع عليّ عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم، لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحتها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا عليّ. . . اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه عليّ عليه السلام وانصرف، ثم حضر زيد بن ثابت - وكان قارئاً للقرآن - فقال له عمر: إن علياً جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتُسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتهم وأظهر عليّ القرآن الذي ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟. ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبر قتله عليّ يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك. . . فلما استخلف عمر سأل علياً عليه السلام أن يدفع إليه القرآن فيحرقه فيما بينهم فقال: يا أبا الحسن؛ إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأت به إلينا حتى نجمع عليه، فقال عليّ عليه السلام: هيهات، ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به لأبى بكر لتقوم به الحجة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: إننا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: ما جئتنا به. إن القرآن الذي عندى لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال عليّ عليه السلام: نعم، إذا قام القائم من ولدى فيظهره ويحمل الناس عليه فتجرى السنة به» (١).

ولكننا نجد صاحبنا بعد ما ساق هذه الروايات وكثيراً غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول: «ويرد على هذا كله إشكال. . . وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن، إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرّفاً ومغيّراً، أو يكون على خلاف ما أنزل الله، فلم يبق لنا في القرآن حجة أصلاً، فنتنفي فائدة الأمر بإتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك، وأيضاً قال الله عز وجل: ﴿وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]، وقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] .. فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير؟ وأيضاً قد استفاض عن النبي والأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على كتاب الله ليُعلم صحته بموافقته له، وفساده بمخالفته (١)، فإذا كان القرآن الذي بأيدينا محرّفاً فما فائدة العرض؟ مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذّب له، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله.

وهنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين:

أولهما: أن هذه الأخبار إن صحّت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم علي وآل محمد، وحذف أسماء المنافقين، فإن انتفاء التعبير باقٍ لعموم اللفظ.

وثانيهما: أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير والبيان ولم يكن من أجزاء القرآن، فيكون التبديل من حيث المعنى، أي حرفوه وغيروه في تفسيره وتأويله، بأن حملوه على خلاف ما يُراد منه (٢).

ثم ذكر بعد هذا أقوال من تقدّمه من شيوخه وعلماء مذهبه وهم ما بين مجيز للتحريف والنقصان ومانع لذلك، ولكل أدلته وحجّته، ولا نطيل بذكرها ومن أرادها فليرجع إليها في المقدمة السادسة (ص ١٤، ١٥).

● طريقة المؤلف في تفسيره:

بيّن المؤلف في المقدمة الثانية عشرة من مقدمات تفسيره طريقته واصطلاحاته التي جرى عليها في كتابه فقال: «كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان وتفسير لفهم المقصود من معانيه. أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه، أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه وتعاطيه، أو إلى تعرف نسخ أو تخصيص أو صفة أخرى فيه، وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم، فإن وجدنا شاهداً من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به، فإن القرآن يُفسّر بعضه بعضاً، وقد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، وإلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام في الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا رضوان الله عليهم أوردناه، وإلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة .. نظائره في الأحكام ما روى عن الصادق: إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا، فانظروا إلى ما رووه عن علي عليه السلام فاعملوا به (رواه الشيخ الطوسي في العدة).

(١) هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم.

(٢) الجزء الأول ص ١٠ - ١٤.

وما لم نظفر فيه بحديث عنهم عليهم السلام أوردنا ما وصل إلينا من غيرهم من علماء التفسير إذا وافق القرآن وفحواه، وأشبه حديثهم في معناه.. فإن لم نعتمد عليه من جهة الاستناد، اعتمدنا عليه من جهة الموافقة والشبه والسادد، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتب الله فخذوه»، وقال الصادق: «ما جاءك في رواية من راو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من راو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به»، وقال الكاظم: «إذا جاءك الحديثان المختلفان فقسهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا. فإن أشبههما فهو حق، وإن لم يشبههما فهو باطل»، وما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها، وتركنا سايرها مما في معناه روماً للاختصار، وصوناً عن الإكثار، وربما أشرنا إلى تعددها وتكثرها إذا أهمنا الاعتماد.

وإن كانت مختلفات نقلنا أصحها وأحسنها وأعمها فائدة، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا. وما لا يحتاج إلى شرح اللفظ والمفهوم، والنكات المتعلقة لعلوم الرسوم، مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم، أوردنا فيه ما ذكر المفسرون الظاهريون من كان تفسيره أحسن، وبيانه أوجز وأتقن، كائناً من كان.

ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكري وغيره، وذكر اصطلاحاته في العزو إلى الكتب التي استقى منها، وفي نسبة الأقوال إلى قائلها ولا نطيل بذكرها (١). هذه هي أهم الآراء التي يقول بها ملا محسن، والتي استخلصناها من مقدماته التي قدم بها تفسيره. وهذه هي طريقتة التي سار عليها في كتابه الذي نحن بصددته. والكتاب - كما أشرنا آنفاً - مذهبي إلى حد التطرف والغلو، فهو لا يكاد يمر بآية من القرآن إلا ويحاول صاحبه أن يأخذ منها شاهداً لمذهبه أو دفعاً لمذهب مخالفه!... ولقد قرأت في هذا الكتاب، فلمست فيه روح التحيز المزرى، والتعصب الممقوت. ولأجل أن يكون القارئ على بينة من الأمر أسوق إليه نماذج من نواح شتى وفي موضوعات مختلفة ليلمس كما لمست مقدار هذا التعصب الذي يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه.

● القرآن وأهل البيت:

فمثلاً، نجد كثيراً من آيات القرآن لها معان خاصة، ولا صلة لها بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكننا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعي، فيحاول أن يلوى

هذه الآيات إلى معان لا صلة لها باللفظ .. معان تحمل في طياتها طابع التعصب المذهبي بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «وذلك لما كان في صلبه من أنوار نبينا وأهل بيته المعصومين، وكانوا قد فُضِّلُوا على الملائكة باحتمالهم الأذى في جنب الله، فكان السجود لهم تعظيماً وإكراماً، والله سبحانه عبودية، ولآدم طاعة. قال عليّ ابن الحسين: حدّثني أبي، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: يا عباد الله؛ آدم لما رأى النور ساطعاً من صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره، رأى النور ولم يتبين الأشباح، فقال: يا رب؛ ما هذه الأنوار؟ قال الله عزّ وجلّ: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشى إلى ظهرك، ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح، فقال آدم: يا رب؛ لو بينتها لي؟ فقال الله عزّ وجلّ: انظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم عليه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التي في ظهره، كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصافية، فرأى أشباحنا فقال: ما هذه الأشباح يا رب؟ قال الله: يا آدم؛ هذه أشباح أفضل خلأني وبرياتي، هذا محمد، وأنا الحميد المحمود في فعالي، شققت له أسماً من اسمي. وهذا عليّ، وأنا العالی، شققت له اسماً من اسمي. وهذه فاطمة، وأنا فاطر السموات والأرض، فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل قضائي، وفاطم أوليائي عما يعيرهم ويشينهم، فشققت لها اسماً من اسمي، وهذا الحسن، وهذا الحسين، وأنا المحسن المجلل، شققت اسميهما من اسمي. هؤلاء خيار خليقتي، وكرام بريتي، بهم آخذ، وبهم أعطي، وبهم أعاقب، وبهم أئيب، فتوسل بهم إليّ يا آدم، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إليّ شفعاءك، فإنني آليت على نفسي قسماً حقاً لا أخيب بهم أملاً، ولا أرد بهم سائلاً، فلذلك حين زلّت به الخطيئة دعا الله عزّ وجلّ بهم، فتاب عليه وغفر له» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١ - ٣) من سورة البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٌ وَمَا وُلِدَ﴾ .. يقول ما نصه: «في الجمع عن الصادق: يعنى آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم ..» (٢).

فأنت ترى من كل هذا أن المؤلف يجدد في إخضاع آيات القرآن لمذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته، وهذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه!!

● طعن المؤلف على الصحابة:

كذلك نجد ملا محسن في تفسيره هذا، يطعن على أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلاً عن صحابي جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل في سبيل نصرتة دمه وماله، كما يطعن في بنى أمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو في حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

● طعنه على عثمان رضی الله عنه:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٨٤، ٨٥) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُمُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .. نجده يفسر الآية تفسيراً مختصراً مقبولاً، ثم يروى عن القمي أنها نزلت في أبي ذر - رحمة الله عليه - وفيما فعل به عثمان بن عفان، وكان سبب ذلك: أنه لما أمر عثمان بنفى أبي ذر - رحمة الله عليه - إلى الريدة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً وهو متكئ على عصاه، وبين يدي عثمان مائة ألف درهم أتته من بعض النواحي، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال: حمل إلينا من بعض الأعمال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيي.. قال أبو ذر: يا عثمان؛ أيهما أكثر؟ مائة ألف درهم أم أربعة دانير؟ قال عثمان: بل مائة ألف درهم، فقال: أما تذكر إذ أنا وأنت دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشاء فوجدناه كئيباً حزينا، فسألنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكاً مستبشراً، فقلت له: بأبي أنت وأمي، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزينا، وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً، فقال: «نعم.. قد بقى عندي من فئ المسلمين أربعة دانير لم أكن قسمتها، وخفت أن يدركني الموت وهي عندي، وقد قسمتها اليوم فاسترحت». فنظر عثمان إلى كعب الأحرار فقال له: يا أبا إسحاق؛ ما تقول في رجل أدى زكاة ماله المفروضة، هل يجب عليه فيها بعد ذلك شيء؟ فقال: لا، ولو اتخذ لبننة من ذهب ولبننة من فضة ما وجب عليه شيء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب، فقال: يابن اليهودية المشركة، ما أنت والنظر في أحكام المسلمين؟ قول الله عز وجل أصدق من قولك حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .. إلى

عاتقى فأضرب به قدماً قدماً؟ قال: « لا ... اسمع واسكت ولو لعبد حبشى، وقد أنزل الله فيك وفى عثمان - خصمك - آية، فقلت: وما هى يا رسول الله؟ فقال: قول الله وتلا الآية» (١).

● طعنه على أبى بكر:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة التوبة: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ... الآية، نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبى بكر، رضى الله عنه، بل ويحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمراً على أبى بكر، وذلك حيث يقول ما نصه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ وهون أبو بكر، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ لا تخف، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة .. فى الكافى عن الباقر أن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبى بكر فى الغار: اسكن فإن الله معنا، وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله حاله قال له: تريد أن أريك أصحابى من الأنصار فى مجالسهم يتحدثون؟ وأريك جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون، وإلى جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أمنتها التى تسكن إليها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ .. فى الكافى عن الرضا: أنه قرأها: «على رسوله» قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نقرؤها، وهكذا تنزِيلها. والعياشى عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وما لهم فى ذلك من حجة، فوالله لقد قال الله: «فأنزل الله سكينته على رسوله» وما ذكره فيها بخبر، قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: هكذا قراءتها» (٢).

● طعنه على أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَأِكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ١ - ٣] .. نراه ينقل عن القمى فى سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ كان فى بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، فى يومي؟ وفى دارى؟ وعلى فراشى؟ فاستحى رسول الله ﷺ منها فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسى، ولا أطؤها بعد هذا أبداً، وأنا أفضى إليك سراً إن أخبرت به فعليك لعنة والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: إن أبا

بكريلي الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ فقال: نبأني العليم الحبير، فأخبرت حفصةً به عائشةً من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبا بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني عن حفصة بشيء ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة، فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم.. قد قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة علي أن يسموا رسول الله، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة قال: ﴿ وَأُظْهِرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ يعنى أظهره على ما أخبرت به وما هموا به من قتله ﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ ﴾: أخبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتُك؟ ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾... قال لم يخبرهم بما يعلم مما هموا به من قتله» (١).

● صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ * أن جاءه الأعمى... الآيات إلى آخر القصة، نجده يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف بين المفسرين جميعاً، ويجعل العتاب موجهاً إلى عثمان رضى الله عنه، أو إلى رجل آخر من بنى أمية. والذى حمله على ذلك هو ما يراه من أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجهاً إلى النبي ﷺ أو إلى أحد من الأئمة المعصومين، كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منهم، أما توجه العتاب إلى عثمان وصدور سببه منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره، لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة، فلهذا تراه يروى عن القمى: «أنها نزلت فى عثمان وابن أم مكتوم»، وكان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله ﷺ، وكان أعمى، وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدمه رسول الله ﷺ على عثمان فعبس عثمان وجهه وتولى عنه، فأنزل الله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ * أن جاءه الأعمى... ونقل عن مجمع البيان أنها نزلت فى رجل من بنى أمية كان عند النبي فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله ذلك وأنكره عليه.. ثم قال: أقول: «وأما ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات فى النبي ﷺ دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير اللائقة بمنصبه، وكذا ما ذكره بعدها إلى آخر السورة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، ويمكن أن يكون من مختلقات أهل النفاق خذلهم الله» (٢).

● دفاع المؤلف عن أصول مذهبه:

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، ونراه ينتصر لمذهبه

ويتعصب له، ويؤيد أصوله بكل ما يستطيع من الأدلة، ويدفع الشبه عنها، ويرد على الخصوم بما يستطيع من أوجه الرد، فلهذا نجده إذا مرّ بآية من آيات القرآن التي يستطيع أن يستند إليها ويعتمد عليها في نظره، أخذ في تأويلها على وفق مذهبه وهواه، وإن كان في ذلك خروج عن ظاهر النظم القرآني.

● ولاية علي :

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ .. نراه يستند إلى هذه الآية استناداً قوياً في أن علياً رضى الله عنه هو وصى النبي ﷺ وخليفته من بعده، فيقول ما نصه: «في الكافي عن الصادق في تفسير هذه الآية «أولى بكم» : أى أحق بكم وبأموالكم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا - يعنى علياً وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة - ثم وصفهم الله فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ .. وكان أمير المؤمنين في صلاة الظهر - وقد صلى ركعتين - وهو راعع، عليه حلة قيمتها ألف دينار، وكان النبي أعطاه إياها، وكان النجاشي أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولي الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم .. تصدق على مسكين، فطرح الحلة إليه، وأوماً بيده إليه أن يحملها، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية، وصير نعمته أولاده بنعمته، فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدقون وهم راععون. والسائل الذى سأل أمير المؤمنين من الملائكة، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة. وعنه عن أبيه عن جده في قوله عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] .. قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ .. الآية، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد المدينة فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرهما، وإن آمننا فإن هذا ذل حين يُسلط علينا علي بن أبى طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول، ولكننا نتولاه ولا نطيع علياً فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنكِرُونَهَا﴾ يعنى ولاية علي، ﴿وَأَكْثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالولاية.

وعنه أنه سئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .. وهم الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ .. الآية .. وروى المؤلف غير ذلك من الروايات، وكلها يدور حول هذا الشأن، ثم ادعى إجماع الأمة على أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راعع غير رجل واحد هو علي .. ثم علل عدم ذكره باسمه في الكتاب بأنه لو ذكر باسمه في الكتاب لأسقط مع ما أسقط .. ثم وفق بين الروايات

القائلة بأنه تصدَّق بحلَّته، وبين الروايات القائلة بأنه تصدَّق بخاتمه فقال: «لعله تصدَّق مرة في ركوع بالحلَّة، ومرة بالخاتم .. والآية نزلت بعد الثانية، وقوله تعالى: ﴿ وَيُؤْتُونَ ﴾ إشعار بذلك، لتضمنه التكرار والتجدد، كما أن فيه إشعاراً بفعل أولاده أيضاً» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ... الآية، نراه يحمل التبليغ المأمور به عليه السلام على تبليغه للناس إمامة علي وولايته، ويروى هنا قصة طويلة جداً، ويروى خطبة النبي لأصحابه عند «غدير خم»، وهي خطبة طويلة كذلك، وفي هذه الخطبة يقول رسول الله ﷺ مبيناً سبب نزول الآية: «وأنا مبين لكم سبب هذه الآية: إن جبريل هبط إلي مراراً ثلاثة، يأمرني عن السلام ربي وهو السلام: أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي، ووصيي وخليفتي، والإمام من بعدى، الذى محله منى محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدى، وهو وليكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله علي بذلك آية من كتابه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾، وعلي بن أبي طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راعع، يريد الله عز وجل في كل حال، وسألت جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعلمى بقلة المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الأتمين، وحيل المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم، ويحسبونهم هينا وهو عند الله عظيم، وكثرة أذاهم لى غير مرة حتى سمونى أذنا، وزعموا أنى كذلك لكثرة ملازمته إياى وإقبالى عليه، حتى أنزل الله عز وجل فى ذلك: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١] .. الآية ولو شئت أن أسميهم بأسمائهم لسميت، وأن أومئ إليهم لأعيانهم لأومات، وأن أدل عليهم لدلت، ولكنى - والله - فى أمورهم قد تكزمت، وكل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أبليغ ما أنزل إلي .. ثم تلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ فى على، ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... ﴾ ... إلخ» (٢).

• أولوا الأمر الذين تجب طاعتهم:

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ... الآية، نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقتصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما من عداهم فليسوا أولى الأمر، وليس يجب على أحد أن يقوم بطاعتهم، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه

(١) الجزء الأول صفحة ١٦٤ .

(٢) الجزء الأول ص ١٦٥ - ١٧١ .

الآية ما نصه: « في الكافي والعياشي عن الباقر: إيانا عنى خاصة .. أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا. وفي الكافي عن الصادق: أنه سُئل عن الأوصياء، طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ ... الآية، وقال الله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ﴾ ... الآية. وفيه والعياشي عنه في هذه الآية قال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين، فقال: إن الناس يقولون: فما له لم يُسَمَّ علياً وأهل بيته في كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يُسَمَّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ فسُرَّ ذلك لهم، ونزلت: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾، ونزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله ﷺ في علي: « من كنت مولاه فهذا علي مولاه»، وقال: « أُوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله أن لا يُفَرِّقَ بينهما حتى يوردهما على الحوض، فأعطاني ذلك ». وقال: « لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم»، وقال: « إنهم لم يخرجوكم من باب هدى ولم يدخلوكم في باب ضلالة»، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين من أهل بيته لإدعائها آل فلان وآل فلان، ولكن الله أنزل في كتابه تصديقا لنبيه: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فكان علي والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال: « اللهم إن لكل نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلى»، فقالت أم سلمة: ألسنت من أهلك؟ فقال: « إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهل بيتي وثقلى » .. (الحديث)، وزاد العياشي: آل عباس، وآل عقيل، قبل قوله: وآل فلان.

عن الصادق أنه سُئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التي إذا أخذ بها زكى العمل ولم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق في الأموال: الزكاة، والولاية التي أمر الله بها: ولاية آل محمد، فإن رسول الله قال: « من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية » .. قال الله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾، فكان علي ثم صار من بعده الحسن، ثم بعده الحسين، ثم من بعده علي بن الحسين ثم من بعده محمد بن علي، ثم هكذا يكون الأمر، إن الأرض لا تصلح إلا بإمام ... (الحديث).

وفي المعاني عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً، فقال: أن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته، وجعله حُجَّتَه في أرضه، وشاهده على خلقه .. قال: فمن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾. قال: فقبلت رأسه وقلت: أوضحت لى، وفرجت عنى، وأذهبت كل شئ كان في قلبى.

وفى الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله؛ عرفنا الله ورسوله، فمن أولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: «هم خلفائى يا جابر وأئمة المسلمين من بعدى، أولهم على بن أبى طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم على بن الحسين، ثم محمد بن على المعروف فى التوراة بالباقر - وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام - ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر، ثم على بن موسى، ثم محمد بن على، ثم على بن محمد، ثم الحسن بن على، ثم سمى محمد، وكنيته «حُجَّةُ الله فى أرضه، وبقيته فى عباده»، ابن الحسن بن على، ذاك الذى يُفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذى يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان». قال جابر: فقلت: يا رسول الله؛ فهل لشيعته الانتفاع به فى غيبته، فقال: «إى، والذى بعثنى بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلها سحاب. يا جابر؛ هذا من مكنون سر الله ومخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله».

والأخبار فى هذا المعنى من الكتب المتداولة المعتبرة لا تحصى كثرة. وفى التوحيد عن أمير المؤمنين: اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسول، وأولى الأمر بالمعروف والعدل والإحسان.

وفى العلل عنه: لا طاعة لمن عصى الله، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصية، وإنما أمر بطاعة أولى الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرن بمعصية» (١).

● الإمام يوصى لمن بعده:

ولما كان مذهب المؤلف أن كل إمام يوصى بالإمامة لمن بعده، وليس ذلك لأحد من المسلمين غيره، فإننا نجد بتأثير بهذه العقيدة ويُفسر قوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ... الآية على وفق هذه العقيدة فيقول: «فى الكافى وغيره فى عدة روايات أن الخطاب إلى الأئمة .. أمر كلاً منهم أن يؤدى إلى الإمام الذى بعده ويوصى إليه، ثم هى جارية فى سائر الأمانات .. وفيه وفى العياشى عن الباقر: إيانا عنى، أن يؤدى الإمام الأول إلى الذى بعده العلم والكتب والسلاح» ... إلخ (٢).

● استدلاله على الرجعة:

ولما كان المؤلف يدين بالرجعة فإننا نجد يستدل على جوازها بقوله تعالى فى الآيتين (٥٦، ٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً

(٢) الجزء الأول صفحة ١٣٢.

(١) الجزء الأول صفحة ١٣٣.

فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ . .
 وذلك حيث يقول: «أقول: قيد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء ونوم، وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التي قال بها أصحابنا نقلاً عن أئمتهم، واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها كما رواه عنه الإصبع بن نباتة، والقُمي، هذا دليل على الرجعة في أمة محمد ﷺ. فإنه قال: لم يكن في بنى إسرائيل شيء إلا وفي أمته مثله - يعنى دليلاً على وقوعها» (١).

● الإيمان بالرجعة وقيام القائم من الإيمان بالغيب:

ولكون المؤلف يعتقد بالرجعة ويرى ضرورة الإيمان بها لكل مؤمن، فإننا نراه يعد الإيمان بها من ضمن الإيمان بالغيب الذي مدح الله به عباده المتقين وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عن حواسهم من توحيد الله، ونبوة الأنبياء، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار، وسائر الأمور التي يلزمهم الإيمان بها مما لا يُعرف بالمشاهدة وإنما يُعرف بدلائل نصبها الله عز وجل» (٢).

● التقية:

ولما كان ملا محسن يقول بالتقية، ويرأها ضرورة من ضروريات قيام مذهبه وصون أصحابه من الاضطهاد، فإننا نراه يفيض فيها عندما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. . . الآية فيقول: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم خوفاً وأمراً يجب أن يخاف منه، وقرئ: «تقية»، منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً في الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالاتة حينئذ جائز بالخالفه كما قيل: كن وسطاً وامش جانباً. . ثم قال: وفي العياشي عن الصادق قال: كَانِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا تَقِيَةَ لَهُ»، ويقول: قال الله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وفي الكافي عنه قال: التقية ترس الله بينه وبين خلقه. وعن الباقر قال: التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم، وقد أحل الله له. والأخبار في ذلك مما لا يُحصى» (٣).

● تأثره في تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية:

ولما كان المؤلف كغيره من علماء مذهبه له في بعض المسائل الاجتهادية الفقهية

(٢) الجزء الأول صفحة ٢٣.

(١) الجزء الأول صفحة ٣٥.

(٣) الجزء الأول صفحة ٩٦.

رأى يخالف آراء مجتهدى المذاهب الأخرى، فإننا نراه ينتصر لمذهبه ويعمل على تأييده بما يظهر له من آيات القرآن .. والمتنبع لتفسيره آيات الأحكام يجد أثر هذا كله ظاهراً جلياً، فهو يحاول محاولة جدية أن يأخذ رأيه من النص القرآنى أو يدفع رأى مخالفه بما يظهر له منه، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبه الفقهي:

● المتعة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .. نراه يتأثر بما يراه من حلِّ نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا ويجعلها دليلاً على صحة مذهبه وذلك حيث يقول ما نصه: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن، سمي أجراً لأنه فى مقابلة الاستمتاع، ﴿ فَرِيضَةٌ ﴾ مصدر مؤكد. فى الكافى عن الصادق: « إنما أنزلت: « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مَّسْمُومٍ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٌ » .. والعياشى عن الباقر: أنه كان يقرأها كذلك، وروته العامة أيضاً عن جماعة من الصحابة: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ من زيادة فى المهر أو الأجل، أو نقصان فيهما، أو غير ذلك مما لا يخالف الشرع. فى الكافى مقطوعاً والعياشى عن الباقر: « لا بأس بأن تزيد ما وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجل آخر برضا منها، ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها، وعدتها حيضتان، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح. ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما شرع من الأحكام. فى الكافى عن الصادق: المتعة نزل بها القرآن، وجرت بها السنة من رسول الله صلى الله عليه وآله، وعن الباقر: كان على يقول: لولا ما سبقنى به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى - بالفاء، يعنى إلا قليل - أراد أنه لولا ما سبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه من قلوب الناس، لندبت الناس عليها، ورغبتهم فيها، فاستغنوا بها عن الزنا، فما زنى منهم إلا قليل، وكان نهيه عنها تارة بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمتان ومعاقب عليهما: متعة الحج، ومتعة النساء. وأخرى بقوله: ثلاث كنَّ على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمتان ومعاقب عليهن: متعة الحج ومتعة النساء وحى على خير العمل فى الأذان. وفيه: جاء عبد الله ابن عمر الليثى إلى أبى جعفر فقال له: ما تقول فى متعة النساء؟ فقال: أحلها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه، فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر؛ مثلك يقول هذا وقد حرمتها عمر ونهى عنها؟ فقال: وإن كان فعل، قال: فإنى أعيذك بالله من ذلك أن تحل شيئاً حرمته عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلم ألعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، وقال: فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك، وبناتك، وأخواتك، وبنات عمك،

يفعلن ذلك؟ فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه . وفيه : سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان صاحب الطاق فقال : يا أبا جعفر؛ ما تقول في المتعة؟ أتزعم أنها حلال؟ قال : نعم . قال : فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن ويكسبن عليك؟ فقال أبو جعفر : ليست كل الصناعات يُرغب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدارهم، ولكن ما تقول يا أبا حنيفة في النبيذ، أتزعم أنه حلال؟ قال : نعم، قال : فما يمنعك أن تُفعد نساءك في الحوانيت نبأذات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيفة : واحدة بواحدة، وسهمك أنفذ، ثم قال : يا أبا جعفر؛ إن الآية التي في «سأل سائل» تنطق بتحريم المتعة^(١) والرواية عن النبي قد جاءت بنسخها، فقال أبو جعفر : يا أبا حنيفة؛ إن سورة «سأل سائل» مكية وآية المتعة مدنية، وروايتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة : وآية الميراث أيضاً تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر : قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة : من أين قلت ذلك؟ فقال أبو جعفر : لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها . ما تقول فيها : قال : لا ترث منه، فقال : قد ثبت النكاح بغير ميراث . . ثم افترقا . وعن الصادق أنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال : عن أى المتعتين تسأل؟ فقال : سألتك عن متعة الحج فأنبئني عن متعة النساء أحق هي؟ فقال : سبحان الله . . أما قرأ كتاب الله : ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾؟ فقال أبو حنيفة : والله لكانها آية لم اقرأها قط . وفى الفقه عنه : ليس منا من لم يؤمن بكرتنا ويستحل متعتنا (أقول) الكرة : الرجعة، وهى إشارة إلى ما ثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم فى زمن القائم لينصروه، وقد مضت الإشارة إليه فيما سلف، ويأتى أخبار أخر فيها إن شاء الله^(٢) .

● نكاح الكتابيات :

وملا محسن، لا يميل إلى حرمة نكاح الكتابيات من اليهود والنصارى، بل نراه يذكر لنا فى تفسيره للآيات التى تتصل بهذا الموضوع أقوال العلماء، ويفيض فى سرده لأقوال المجيزين منهم، ويُعقَّب على أقوال المجيزين بما يدل على أنه مؤيد لعدم الحرمة، ومرتض لقول من يقول بالحلل، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ . . . الآية، يقول ما نصه : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ لا تزوجوا الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ ، ﴿وَلَأُمَةٌ﴾ مملوكة، ﴿مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ حرّة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ المشركة بجمالها أو مالها أو حسبها، ﴿وَلَا

(١) يريد قوله تعالى فى الآيتين (٢٩ - ٣٠) من سورة المعارج : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين .

(٢) الجزء الأول ص ١٢٦ - ١٢٧ .

تُنكحُوا الْمُشْرِكِينَ ﴿ لا تَزُوجُوا مِنْهُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾، ﴿ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبِدٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ مملوك، ﴿ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ ﴾ حرٌّ، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ جماله أو ماله أو حاله، ﴿ أَوْلَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات، ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ إلى الكفر المؤدى إلى النار، فحقهم أن لا يُوالوا ولا يُصَاهَرُوا، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ إلى فعل ما يوجب الجنة والمغفرة من الإيمان والطاعة، ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بأمره وتوفيقه، ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ ﴾ أوامره ونواهيه، ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويتعظون. القمّي: هي منسوخة بقوله تعالى في الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ ﴾... إلى قوله: ﴿ وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ قال: في نسخ هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾ وترك قوله: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾ على حاله لم ينسخ، لأنه لا يحل للمسلم أن ينكح المشرك، ويحل له أن يتزوج المشركة من اليهود والنصارى، وكذلك قال النعمان في كتابه، وكلاهما عدّ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ من منسوخ النصف من الآيات، ويأتى تمام الكلام فيه في سورة المائدة إن شاء الله تعالى» (١).

وعندما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامِكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾... الآية، يقول ما نصه: ﴿... وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ في الفقيه عن الصادق: هن العفاف. والعياشى عن الكاظم: أنه سئل ما معنى إحصانهن؟ قال: هن العفاف من نساءهم. وفي الكافي، والمجمع، والعياشى، عن الباقر: أنها منسوخة بقوله: ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ [المتحنة: ١٠].. وزاد في المجمع: وبقوله: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾.. القمّي: أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه في قوله في سورة البقرة: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾.. قال: وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية، وغيرهم لم تحل مناعتهم.. (أقول): يؤيد هذا الحديث النبوى: «إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها».. وفي الكافي عن الحسن ابن الجهم قال: قال لى أبو الحسن الرضا: يا أبا محمد؛ ما تقول فى رجل يتزوج نصرانية على مسلمة؟ قلت: جعلت فداك، وما قولى بين يديك؟ قال: لتقولن، فإن ذلك تعلم به قولى. قلت: لا يجوز تزوج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة؟ قال: ولم قلت: لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ﴾.. قال: فما تقول فى هذه الآية: ﴿ وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ

أوتوا الكتاب من قبلكم؟ قلت: فقلوه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ نسخت هذه الآية، فتبسم ثم سكت. وفيه وفي الفقيه عن الصادق في الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية قال: إذا أصاب المسلمة فماذا يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقيل: يكون له فيها الهوى، فقال: إن فعل فيمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه في دينه غضاضة. وعن الباقر: لا ينبغي للمسلم أن يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حرة أو أمة. وعنه: إنما يحل منهم نكاح البله. وفي الفقيه عنه: أنه سئل عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية قال: لا، ولكن إن كانت له أمة مجوسية فلا بأس أن يطأها ويعزل عنها ولا يطلب ولدها، وفي رواية: لا يتزوج الرجل اليهودية ولا النصرانية على المسلمة، ويتزوج المسلمة على اليهودية والنصرانية. وفي التهذيب عن الصادق: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية وعنده حرة. وفيه في جواز التمتع بهما وبالمجوسية أخبار أخر^(١).

وفي سورة المتحنة عند قوله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾.. قال ما نصه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد ونسب.. جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات. القمى عن الباقر في هذه الآية قال: يقول: من كانت عنده امرأة كافرة - يعنى على غير ملة الإسلام - وهو على ملة الإسلام، فليعرض عليها الإسلام، فإن قبلت فهي امرأته، وإلا فهي بريئة منه، فنهى الله أن يمسك بعصمتها. وفي الكافي عنه قال: لا ينبغي نكاح أهل الكتاب، قيل: وأين تحريمه؟ قال: قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾.. (أقول): قد مضى في سورة المائدة ما يخالف ذلك^(٢).

● فرض الرجلين في الوضوء وحكم المسح على الخفين:

ويرى صاحبنا أن فرض الرجلين في الوضوء مسحها لا غسلها، كما يرى عدم جواز المسح على الخفين، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾... الآية، نراه يقول بوجوب وصول الماء إلى بشرة سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح، وعليه فلا يجزئ المسح على القلنسوة ولا على الخفين، ثم يروى ما جاء في التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم على فقال: ما تقولون في المسح على الخفين؟ فقام المغيرة بن شعبه فقال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح على الخفين، فقال على: قبل المائدة أو بعد المائدة؟ قال: لا أدري، فقال على: سبق الكتاب الخفين، إنما نزلت المائدة قبل أن

يُقبض بشهرين أو ثلاثة. وهنا يُعقَّب ملا محسن على هذه الرواية فيقول: (أقول): المغيرة بن شعبه هذا هو أحد رؤساء المنافقين من أصحاب العقبة والسقيفة لعنهم الله . . ثم يقول: وفي الفقيه: روت عائشة عن النبي أنه قال: أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره. وروى عنها أنها قالت: لأن أمسح على ظهر غير بالفلاة أحب إلي من أن أمسح على خُفِّي. ولم يُعرف للنبي خوف إلا خوف أهدها النجاشي وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقاً، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم على رجله وعليه خُفاه، فقال الناس: إنه مسح على خُفِّيه، على أن الحديث في ذلك غير صحيح الإسناد (انتهى كلام الفقيه) (١).

وبعد هذا انتقل المؤلف إلي الكلام علي فرض الرجلين في الوضوء فقال بعد ما بين أولاً أن قراءة نصب الأرجل مردودة عندهم: « . . ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس في رابعة النهار، وخصوصاً على قراءة الجر، ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل، وفي التهذيب عن الباقر أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبِينَ﴾ . . على الخفض هي أم على النصب؟ قال: «بل هي على الخفض». ثم قال: (أقول): وعلى تقدير القراءة على النصب أيضاً تدل علي المسح، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرؤوس، كما تقول: مررت بزيد وعمراً، إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة، بل عن أسلوب العربية . . ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه» (٢).

● الغنائم :

وهو يرى في الغنائم ما يراه من علماء مذهبه من أن الخمس يُقسم إلى ستة سهام: سهم لله . وسهم للرسول . وسهم للإمام، وسهم ليتامى آل الرسول، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم . وسهم الله وسهم الرسول برثهما الإمام، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة . . ثم يعلل اختصاص الإمام من الخمس بالأسهم الثلاثة، بأن الله تعالى قد ألزم الإمام بما ألزم به النبي من تربية الأمة، ومؤن المسلمين وقضاء ديونهم، وجميلهم في الحج والجهاد، وذلك قول رسول الله ﷺ، لما أنزل عليه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] «وهو أب لهم»، فلما جعله الله أباً للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد، فقال عند ذلك: «مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِوَرِثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِياعًا فَعَلَىٰ وَإِلَىٰ»، فلزم الإمام ما لزم الرسول . فلذلك صار له من الخمس ثلاثة أسهم .

«والمؤلف يرى أن الله تعالى عوض يتامى آل البيت ومساكينهم وأبناء سبيلهم بما

خُصوا به من هذه السهام عن الصدقات التي حُرِّمت عليهم ومُنِعوا من أخذها لكونها أوساخ الناس، ويروى في ذلك أخباراً كثيرة عن علماء آل البيت» (١).

وعندما فسّر المؤلف قوله تعالى في الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾... الآية، نقل من الكافي عن أمير المؤمنين أنه قال: «نحن والله الذين عنى الله بـ «ذِي الْقُرْبَى» الذين قرّنههم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ منا خاصة ولم يجعل لنا سهماً في الصدقة.. أكرم الله نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما في أيدي الناس» (٢).

● الاستنباط:

ويرى ملا محسن أن الاستنباط لا يجوز لأحد من الأمة إلا للأئمة، لأنهم هم المعصومون عن الخطأ، أما من عداهم فليس له هذه العصمة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٣) من سورة النساء: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾... الآية، يقول ما نصه: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ ﴾ مما يوجب الأمن والخوف، ﴿ أذاعوا به ﴾ فشوه. قيل: كان قوم من ضعفه المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ أو أخبرهم الرسول بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوه، وكانت إذاعتهم مفسدة، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ ردوا ذلك الأمر، ﴿ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ قيل: أى يستخرجون تدبيره بتجاربههم وأنظارهم. فى الجوامع عن الباقر: هم الأئمة المعصومون. والعياشى عن الرضا: يعنى آل محمد ﷺ وهم الذين يستنبطون من القرآن، ويعرفون الحلال والحرام، وهم حجة الله على خلقه. وفى الإكمال عن الباقر: من وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله فى غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله عز وجل، وجعل الجهال ولاة أمر الله، والمتكلفين بغير هدى زعموا أنهم أهل استنباط علم الله فكذبوا على الله وزاغوا عن وصية الله وطاعته، فلم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلوا وأضلوا أتباعهم، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة» (٣).

● موقف المؤلف من مسائل علم الكلام:

والمؤلف كغيره من الشيعة متأثر إلى حد ما بتعاليم المعتزلة وآرائهم الكلامية، فهو يوافقهم فى بعض المسائل، ويخالفهم فى بعض آخر منها. وإننا نلاحظ هذا التأثير فى تفسيره للآيات التى لها ارتباط بالمسائل الكلامية، وإليك بعض المثل التى وافق فيها المعتزلة، وبعض المثل التى خالفهم فيها:

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٤٤.

(٢) الجزء الثانى صفحة ٣٠٦.

(٣) الجزء الأول صفحة ١٣٧.

● أفعال العباد:

يرى صاحبنا أن العبد يخلق أفعال نفسه، ويوافق برأيه هذا رأى المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم. ولهذا نراه يتأثر بهذه العقيدة في تفسيره. فمثلاً عندما فسّر قوله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة الأنعام: ﴿وَكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾... الآية، نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول: «... والمعنى خليناهم وشأنهم ليمكروا ولم نكفهم عن المكر» (١).

● رؤية الله:

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة في أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة، ولهذا نراه يتأول آيات الرؤية كما تأولها المعتزلة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾... يقول ما نصه ﴿وَجوه يومئذ ناضرة * القمى: أى مشرقة﴾، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال: ينظرون إلى وجه الله أى إلى رحمته ونعمته. وفى العيون عن الرضا قال: يعنى مشرقة تنتظر ثواب ربها. وفى التوحيد والاحتجاج عن أمير المؤمنين فى حديث قال: ينتهى أولياء الله بعد ما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى «الحيوان»، فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقاً، فيذهب عنهم كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾، وإنما نعنى بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى. وزاد فى الاحتجاج: والناظرة فى بعض اللغات هى المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿فناظرة بهم يرجع المرسلون﴾ [النمل: ٣٥].. أى منتظرة» (٢).

● الشفاعة:

ويخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالشفاعة فهو يرى أنها جائز وواقعة يوم القيامة، وأهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾... الآية، نراه ينقل من تفسيره الإمام عن الصادق أنه قال: «هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغنى عنه، فأما القيامة فإننا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزاء، ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار: محمد، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين، والطيبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا فى تلك العرصات، فمن كان منهم مقصراً وفى بعض شدائدنا فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان، والمقداد، وأبى ذر، وعمار، ونظرائهم فى العصر الذى يليهم، ثم فى كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزة والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البزة والصقور صيدها،

فيزفونهم إلى الجنة زفاً، وإننا لنبعث على آخرين من محبينا خيار شيعتنا كالحمام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا، وسيؤتى بالواحد من مُقَصِّرِي شيعتنا فى أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه مائة أو أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النَّصَاب (١) فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النَّصَاب النار، وذلك ما قال الله عزَّ وجلَّ فى الآية (٢). من سورة الحجر: ﴿رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى: بالولاية، ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فى الدنيا، منقادين للأئمة، ليُجعل مخالفتهم من النار فداؤهم» (٢).

● السحر :

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالسحر، فهو يعترف بحقيقته ولا ينكر أن النبى ﷺ سحير، ولهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول ما نصه: ﴿ومن شرِّ النَّفَّاثَاتِ فى الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] ومن شرِّ النفوس أو النساء السواحر اللواتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها، والنفث: النفخ مع ريق .. ثم ذكر الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ سحر بفعل لبيد بن الأعصم (٣).

● روايته للأحاديث الموضوعية :

ثم لا يفوتنا أن ننبه على أن هذه الأحاديث التى يرويها المؤلف فى تفسيره عن رسول الله ﷺ أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول، هى فى الغالب مكذوبة موضوعية لا أصل لها، وقد مرَّ بك الكثير من هذه الروايات وهى ناطقة على نفسها بالوضع، فلست فى حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة، إذ نحن فى غنى عن هذا بعد ما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه فى ثنايا ألفاظه ومعانيه. والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر فى نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب، وفى اعتقادي أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أبى وابن عباس فى فضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة فى تفسيره بعد ما سوّد كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعية على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته عليهم رضوان الله.

* * *

(١) النَّصَاب: جمع ناصب، والناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يُقدّم الأول والثانى - يعنى أبا بكر وعمر - على على، أو يعتقد إمامة الأول والثانى. (انتهى من الوشيعة ص ٢٤).
(٢) الجزء الأول صفحة ٣٣. (٣) الجزء الثانى صفحة ٣٧٦.

٥ - تفسير القرآن (للسيد عبد الله العلوي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو السيد عبد الله بن محمد رضا، العلوي، الحسيني، الشهير بشيبر. وُلد بأرض النجف سنة ١١٨٨ هـ (ثمان وثمانين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية) .. ثم ارتحل مع والده إلى الكاظمية ومكث بها إلى أن مات سنة ١٢٤٢ هـ (اثنين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة). كان في نظر أصحابه من أعيان الشيعة وفضلائهم، فقيهاً، محدثاً، مفسراً متبحراً، جامعاً لعلوم كثيرة، آية في الأخلاق. تلقى العلم على والده، وعلى الإمام الكبير السيد محسن الأعرجي، وقد تتلمذ عليه خلق كثير، لأنهم كانوا يعتبرونه عالماً من أعلام الشيعة، وشخصية علمية بارزة لها مكانها ومقدارها. ولقد عكف مدة حياته العلمية على التأليف والتصنيف حتى أخرج للناس مع سنه الذي لم يتجاوز الأربع والخمسين سنة كتباً كثيرة ومصنفات عديدة نذكر منها:

- ١ - الدرر المنثورة في المواعظ الماثورة عن عن الله تعالى والنبى والأئمة الطاهرين عليهم السلام والحكماء.
- ٢ - رسالة في حجية خبر واحد.
- ٣ - إعمال السنة. كتاب على نمط زاد المعاد للمجلسي.
- ٤ - رسالة في حجية العقل والحسن والقبح العقليين.
- ٥ - مصباح الظلام في شرح مفاتيح شرائع الإسلام.
- ٦ - قصص الأنبياء.
- ٧ - البرهان المبين في فتح أبواب علوم الأئمة المعصومين.
- ٨ - كتاب شرح نهج البلاغة.
- ٩ - صفوة التفاسير في ستين ألف بيت.
- ١٠ - الجواهر الثمين في تفسير القرآن المبين .. في مجلدين في ثلاثين ألف بيت.
- ١١ - التفسير الوجيز، مجلد واحد في ثمانية عشر ألف بيت ولعل هذا التفسير هو الذي في أيدينا.

وهناك مؤلفات أخرى كثيرة مذكورة في ترجمته لا نطيل بذكرها (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يجرى على مذهب الإمامية الإثنا عشرية، من حمل ألفاظ القرآن

(١) انظر ترجمته في روضات الجنات ص ٣٧٤، وترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم.

الكريم على معان تتفق وأصول المذهب وتعاليمه، مع شيء من التعصب والغلو في التنوية بشأن أهل البيت والخط من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلی وذرّيته . والكتاب مختصر في ألفاظه، موجز في عباراته، مع تضمنه للمعاني الكثيرة الدقيقة، فهو أشبه ما يكون بتفسير الجلالين من جهة إفادة المعاني الكثيرة، والنكات الخفية الدقيقة، بعبارة سهلة موجزة .

ولقد حرص المؤلف فيه على أن يكون جُلّ اعتماده على ما ورد من التفسير عن أهل البيت، وإن كان لا يعزو كل قول إلى قائله في الغالب، كما حرص على أن ينصر مذهبه ويدافع عنه سواء في ذلك ما يتعلق بأصول المذهب أو بفروعه، وهو بعد ذلك يشرح الآيات التي لها صلة بمسائل علم الكلام شرحاً يتفق أحياناً كثيرة مع مذهب المعتزلة، وأحياناً مع مذهب أهل السنّة . وذلك راجع إلى أنه يأخذ بمذهب المعتزلة في بعض المسائل، وبمذهب أهل السنّة في بعض آخر منها، شأن الكثير الغالب من علماء الإمامية الإثنا عشرية . ثم لا يفوت المؤلف في تفسيره هذا أن يشير إلى بعض مشكلات القرآن التي ترد على ظاهر النظم الكريم . ثم يجيب عنها . كما لا يفوته أن يكشف لنا عن كثير من النكات اللفظية والبيانية والمعنوية، مع الخوض أحياناً في المعاني اللغوية والمسائل النحوية، كل هذا - كما قلت - في أسلوب ممتع لا يمل قارئه من تعقيد ولا يسأم من طول ..

ولقد وصف المؤلف تفسيره هذا، وبين مسلكه فيه فقال في مقدمته :
 « هذه كلمات شريفة، وتحقيقات منيفة، وبيانات شافية، وإشارات وافية، تتعلق ببعض مشكلات الآيات القرآنية، وغرائب الفقرات الفرقانية . وتتحرى غالباً ما ورد عن خزّان أسرار الوحي والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والذين نزل في بيوتهم جبرائيل، بأوجز إشارة، وألطف عبارة، وفيما يتعلق بالألفاظ والأغراض والنكات البيانية تفسير وجيز، فإنه ألطف التفاسير بياناً وأحسنها تبياناً مع وجازة اللفظ وكثرة المعنى» (١) .

هذا .. وقد أتم المؤلف تفسيره هذا - كما قال في خاتمته - في جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ (تسع وثلاثين ومائتين بعد الألف من الهجرة) والكتاب مطبوع في مجلد واحد كبير الحجم، وموجود بدار الكتب المصرية، وإليك بعض ما يكشف عن منهج هذا التفسير:

● تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك في تفسيره:

هذا .. وإن المؤلف بحكم عقيدته وهواه يتأثر في تفسيره بتعاليم الإمامية

الإثنا عشرية وأصول مذهبهم، فلا يكاد يمر بآية يلمح منها حجة لمذهبه أو دفعاً لمذهب مخالف فيه إلا فسرها كما يحب ويهوى.

● الإمامة:

فمثلاً نراه يتأثر بعقيدته في الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .. فيذكر أنها «نزلت في علي عليه السلام حين سأل سائل وهو راكع في صلاته فأوماً إليه بخصره فأخذ خاتمه منها» .. ويدعى إطباق أكثر المفسرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين - جانب الموافقين وجانب المخالفين - ثم يقول بعد ذلك: «وتدل - يعني الآية - على إمامته دون من سواه، للخصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيماً، أو لدخول أولاده الطاهرين»^(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة المائدة أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ... الآية، يروى عن أهل البيت وابن عباس وجابر: «أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال: ألسنت أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى .. قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه»^(٢).

● كل إمام يوصى لمن بعده:

ويدين المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولاً لأحد من الناس، بل كل إمام يوصى لمن بعده، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ .. الآية، يعترف بأن الأمر يعم كل مكلف وكل أمانة .. ثم يقول: «وعنهم عليهم السلام أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده»^(٣).

وفي سورة الأحزاب عند قوله تعالى في الآية (٣٦): ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ ... الآية، يقول: «وفيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار»^(٤).

● وجود الأئمة في كل زمان وعصمتهم، ووجوب الرجوع إليهم عند الاختلاف دون غيرهم:

ولما كان المؤلف يرى أنه لا يخلو كل زمان من إمام، وأن الأئمة لهم من الله العصمة

(١) صفحة ٢٦٤.

(٢) صفحة ٢٦٨.

(٣) صفحة ٢٠٣.

(٤) صفحة ٨٧٣.

كالأنبياء وليس هذا لغيرهم، فإنه يوجب الرجوع إليهم عند الاختلاف وعدم وجود نص من الكتاب أو السنة، وأما من عداهم من الناس فلا يصح الرجوع إليه بحال من الأحوال، لأن غير المعصوم لا يرجع إليه، ولا يؤخذ برأيه في مسائل الخلاف.

يقول المؤلف هذا ويدين به فنجده يتأثر به في تفسيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾... الآية، يقول: «دل على وجود أولى الأمر في كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم، وعصمتهم، ولا ينطبق إلا على مذهب الإمامية.. وعنهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه، ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى محكم كتابه، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بالأخذ بسنته، والمراجعة إلى من أمر بالمراجعة إليه، فإنها رد إليه. وقرئ: «فإن خفتن تنازعاً في شئ فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٣) من سورة النساء أيضاً: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.. يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ هو آل محمد عليهم السلام، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدبيره بأفكارهم وهم آل محمد عليهم السلام» (٢).

● الرجعة:

والمؤلف يدين بالرجعة ويتأثر بها، فمثلاً في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢، ٣) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.. نجده يفسر الغيب: «بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع، وصفاته، والنبوة، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة والنار» (٣).

ومثلاً في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة البقرة أيضاً: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.. يقول: «وفيه حجة على صحة البعث والرجعة» (٤).

● التقيّة:

ولتأثر المؤلف بعقيدته في التقيّة نجدّه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة آل عمران: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ

(٢) صفحة ٢١٠، ٢١١.

(٤) صفحة ٢٥.

(١) صفحة ٢٠٤.

(٣) صفحة ٧.

ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴿١﴾ ... الآية، يقول: «رخص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عداوتهم وهي التقيّة التي تدين بها الإمامية، ودلت عليها الأخبار المتواترة وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، (١).

● تحريف القرآن :

كذلك نجد شبراً يعتقد بأن القرآن بُدِّلَ وَحُرِّفَ، ولما اصطدم بقوله تعالى في الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عند أهل الذكر واحداً بعد واحد إلى القائم، أو في اللوح .. وقيل: الضمير للنبي (٢).

● آيات العتاب :

والمؤلف يكبر عليه معاتبة الله لنبيه محمد ﷺ على أمر من الأمور، فيحاول بكل ما يستطيع أن يحوّل العتاب إلى غير النبي ﷺ .

فمثلاً عتاب الله لنبيه ﷺ في شأن ابن أم مكتوم يشق على شبر أن يكون مقصوداً به النبي، فنراه يقتصر على ما روى عن أهل البيت من أن آيات العتاب «نزلت في رجل من بنى أمية، كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه» (٣).

● طعنه على الصحابة :

وإننا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نسب إليهم في القرآن تنقيصاً لهم، وخطأ من قدرهم .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة التوبة: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ .. الآية، نجده يعرض عن تعيين هذا الذي صحب النبي ﷺ في هجرته، وهو أبو بكر، ثم يُصرّح أو يُلمّح بما ينقص من قدره، أو يذهب بفضله المنسوب إليه والمنوّه به في القرآن الكريم فيقول: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ حال أي معه واحد لا غير، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ نقب في ثور، وهو جبل بقرب مكة، ﴿إِذْ﴾ بدل ثان، ﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ - ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٧] - ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ فإنه خاف على نفسه وقُبض واضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاه عن ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ عالم بنا. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا﴾

هو رابعهم ﴿... إلى قوله ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]: أى عالم بهم. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طمأنينته، ﴿عَلَيْهِ﴾ على الرسول. وفى إقرانه - ﷺ - ههنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت ما لا يخفى، وجعل «الهاء» لصاحبه ينفيه كونها للرسول قبل وبعد .. إلخ» (١).

● تعصبه لآل البيت:

ولقد مررنا عند قراءتنا فى التفسير، الكثير مما يدل على تعصب المؤلف لآل البيت تعصباً مسموحاً مردولاً، فتارة نجد بصرف اللفظ العام إلى علي رضي الله عنه، كما فعل فى الآية (٤) من سورة التحريم عند قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فإن صرف لفظ «صالح المؤمنين» عن عمومهم وأدعى أنه خاص بأمير المؤمنين على عليه السلام كما ادعى رواية العامة والخاصة لذلك (٢).

كما نجد يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن آل البيت كانوا معروفين لدى الأمم السابقة وأنبيائهم يتوسلون بهم إلى الله، فيكشف عنهم الغمّة، ويزحزح عنهم الكربة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾... إلى آخر القصة، نجد يدعى أن السجود لآدم إنما كان «لما فى صلبه من نور محمد ﷺ وأهل بيته» ويدعى أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه هى «التوسل فى دعائه بمحمد ﷺ وآله الطيبين» (٣).

ومثل هذا التعصب كثير فى مواضع من هذا التفسير.

● علم القرآن كله عند آل البيت:

والمؤلف يدعى - كغيره من الإمامية الإثنا عشرية - أن علم القرآن كله عند أهل البيت دون غيرهم، وأنا لنجد أثر هذا واضحاً فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾... الآية، وذلك حيث يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ تأويل القرآن كله الذى يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ الثابتون فيه ومن لا يختلف فى علمه.. عن الصادق عليه السلام: نحن الراسخون فى العلم، ونحن نعلم تأويله. ومن وقف من الجمهور على: (الله)، فسّر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه كوقت قيام الساعة... ونحوه» (٤).

(١) صفحة ٤١٧، ٤١٨. (٢) صفحة ١١٣٥. (٣) صفحة ١٩ - ٢٠.

(٤) صفحة ١٩ - ٢٠.

● تأثر المؤلف في تفسيره بفروع الإمامية الفقهية:

ثم إن المؤلف يجرى في تفسيره آيات الأحكام على وفق ما يأخذ به ويميل إليه من اجتهادات فقهاء الإمامية.

● نكاح المتعة:

فمثلاً نجده يتأثر برأيه الذي يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخه. فنراه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿... وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ... الآية، يقول: «والمراد به نكاح المتعة بإجماع أهل البيت، ويدل عليه قراءة أبي وابن عباس وابن مسعود: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى»، ﴿فآتوهنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، ﴿فريضة﴾ من الله ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾ من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة في الأجر والمدة» (١)

● فرض الرجلين في الوضوء:

ولما كان المؤلف يرى أن فرض الرجلين في الوضوء هو المسح لا الغسل فإننا نراه يشير إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ .. الآية، فيقول: «وأرجلكم إلى الكعبين» .. بالجر كما عن حمزة وابن كثير وأبي عمرو.. ونصبه الباكون عطفاً على «رءوسكم محلاً» (٢).

● الغنائم:

كذلك يقول المؤلف بما يقول به علماء مذهبه في تفسير خمس الغنائم ويجري علي مذهبه في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ ... الآية، فيقول: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ، أي فالحكم أو فواجب أن لله خمسه، ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الإمام، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ يتامي الرسول، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ منهم، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منهم» (٣).

وفي تفسيره لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ...

الآية. يقول مثل ما قاله فى الآية السابقة وينبئه على أنه مرّ فى الأنفال نحوه^(١).

● ميراث الأنبياء:

ونجد شبراً يقول بأن الأنبياء يُورثون المال كسائر الناس، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ .. يقول ما نصه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ﴾ الذين يلونى فى النسب، وهم بنو عمه، ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ بعد موتى أن يرثوا مالى فيصرفوه فيما لا ينبغى، إذ كانوا أشيراراً ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ابناً، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ... إلخ^(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ .. الآية، يقول ما نصه: «ورث سليمان داود ماله ومُلُكُه، وقيل: نبوته وعلمه، بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيهِ وهم تسعة عشر، والأول مروى»^(٣).

● نكاح الكتابيات:

ولكن نرى المؤلف فى مسألة نكاح الكتابيات يميل إلى القول بالحل وعدم الحرمة، فى قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ... الآية، يقول: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ظاهره حل نكاح كل كتابية ذميمة أو حربية، دائماً، أو منقطعاً، أو ملكاً .. فىخص آية: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] إن شملت الكتابية .. وعن الباقر عليه السلام أنه منسوخ بتلك^(٤).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾ .. نراه يمر عليها بدون أن يتعرّض لهذا الموضوع أصلاً.

● تأثره بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

والمؤلف كغيره من علماء الإمامية الإثنا عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها، ويقول بما يقول به فى كثير من أمور العقائد، كما يخالف أهل الاعتزال فى بعض منها ويقول بما يقول به أهل السنة، وإنما لنلمس أثر ذلك واضحاً جلياً فى تفسيره لكتاب الله تعالى.

(١) صفحة ١١٠٧ . (٢) صفحة ٦٣٤ . (٣) صفحة ٧٨٨ .

(٤) صفحة ٢٤٥ .

● حرية الإرادة وخلق الأفعال :

فمثلاً نجد المؤلف يوافق المعتزلة في أن العبد حرٌّ في إرادته . خالق لأفعاله كلها، ولهذا نراه كلما اصطدم بآية من الآيات التي تدل على أن الله هو الذي يخلق أفعال العباد، لجأ إلى التأويل الذي يتفق مع عقيدته هذه .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة البقرة: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَي قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ . . . نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى ويقول: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَي قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ وسمها بسمه يعرفها من يشاء من ملائكته وأوليائه، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لا يؤمنون . وعن الرضا عليه السلام: الختم هو الطبع علي قلوب الكفار عقوبة علي كفرهم - كما قال تعالى: ﴿ بَلِ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥] - ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ غطاء . . (أقول): ويمكن أن يكون تهكماً حكاية لقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥] أي في الآخرة . والتعبير بالماضى لتحققه، ويشهد له قوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَي وَجُوهِهِمْ عَمِيَآ وَبِكَمَا وَصَمَّا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، (١) .

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠٨) من سورة الأنعام: ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ . . . الآية، نراه يفر من نسبة التزين إلى الله فيقول: ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ . . أي لم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم» (٢) .

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١١٢) من السورة نفسها: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ . . . الآية، يتخلص من نسبة الجعل هنا إلى الله تعالى بتأويله بالتخلية فيقول: «أسند الجعل إليه تعالى لأنه بمعنى التخلية، أي لم يمنعهم من العداوة» (٣) .

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٥) من السورة نفسها: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ . . . الآية . نراه يخرج من هذه الورطة بإرادة معنى اللطف والخذلان فيقول: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ﴾ أي يلطف به ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ بأن يفسح فيه ويُنور قلبه، ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ أي يمنعه أطفاه حتى ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان» (٤) .

(١) صفحة ٨ - ٩ .

(٢) صفحة ٣١٧ .

(٣) صفحة ٣١٨ .

(٤) صفحة ٣٢٢ .

● رؤيئة الله :

ولقد تأثر المؤلف أيضا في تفسيره باعتقاده بعدم رؤيئة الله وعدم وقوعها، ولهذا لما فسّر قوله تعالى في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف: ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ ... الآية، قال ما نصه: ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ روى لما كرر سؤال الرؤيئة أوحى الله إليه: يا موسى سلني ما سألك فلن أؤاخذك بجهلهم، ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ علق على المحال، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ أى أظهر له أمره واقتداره أو نوره وعظمته، ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ تنزيها لك عما لا يليق بك من الرؤيئة وغيرها، ﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ ﴾ من طلب الرؤيئة، أو السؤال بلا إذن، ﴿ وَأَنَا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأنك لا ترى» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ .. يقول: «ناظرة إلى رحمته وإنعامه» (٢).

● غفران الذنوب :

ولما كان المؤلف يخالف المعتزلة في بعض معتقداتهم، فإننا نراه يُفسر الآيات التي يستندون إليها في بعض عقائدهم بخلاف تفسيرهم لها، فمثلا يرى المؤلف أنه يجوز في حق الله تعالى أن يغفر الذنوب - إلا الشرك - بدون توبة من العبد تفضلاً منه ورحمة، وهذا ما لا يقول به المعتزلة، فلهذا نجده يجرى على هذه العقيدة في تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فيقول: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ ﴾ أى الشرك ﴿ بِهِ ﴾ بدون توبة للإجماع على غفرانها بها، ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ ما سواه من الذنوب بدون توبة، ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ تفضلاً، ومقتضاه الوقوف بين الخوف والرجاء» (٣).

وهكذا نجد هذا الكتاب يجمع بين الاختصار وسهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعي، والدفاع عن أصوله وفروعه.

٦ - بيان السعادة في مقامات العبادة

(لسلطان محمد الخراساني)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو سلطان محمد بن حيدر الجنازدي الخراساني أحد متطرفي الإمامية الإثنا عشرية في القرن الرابع عشر الهجري (٤).

(١) صفحة ٣٦٧ . (٢) صفحة ١١٧٤ . (٣) صفحة ٣٠٠ .

(٤) لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا .

● قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعطينا هذا التفسير لونا آخر من ألوان التفسير عند الإمامية الاثنا عشرية، وذلك لأن كل ما تقدم لنا من كتبهم فى التفسير يكاد يكون متفقا على لون واحد، وهو نقل ما جاء فى التفسير عن الأئمة وآل البيت، وما كان من تفاوت بينها فهو لا يعدو أن يكون تفاوتاً بمقدار ما بين مؤلفيها من اعتدال فى التشيع أو غلو فيه، وبمقدار ما بينهم من تفاوت فى القدرة على تأييد مذهبهم وتدعيم أصوله بالأدلة والبراهين.

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد سلك مؤلفه فيه مسلكاً غير هذا المسلك، مما جعل له لونا مخالفاً للون تلك الكتب السابقة، ذلك أن المؤلف وإن كان يعتقد كغيره من علماء مذهبه أن علم القرآن كله عند الأئمة، إلا أنه لم يعتمد فى تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد، بل تراه يمزج بها التفسير الصوفى الذى يقوم على الرموز والإشارات، كما يخلط بالتفسير كثيراً من البحوث الفلسفية الدقيقة. والذى يقرأ هذا الكتاب ويتتبع ما فيه من الشطحات الصوفية العميقة فى إدراكها، الغريبة فى لفظها وأسلوبها، لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق فى إدراك معانيه، عسير فى فهم مراده ومرامييه. وأنا إذ أحكم على الكتاب هذا الحكم لا أكون مغالياً ولا متجنياً فيما حكمت، فكثيراً ما قرأت فيه العبارة المرة بعد المرة، ولا أخرج منها إلا بالمعنى القاصر المتور، بعد أن يرتد إلى البصر خاسئاً وهو حسير، ويرجع الذهن عاجزاً عن الفهم وهو كليل .. وربما أكون واهماً فى هذا الحكم، لقصور معرفتى باصطلاحات القوم، وعدم وقوفى على أصول مذهبهم ومرامى رموزهم التى يرمزون بها .. ولو تيسر لى ذلك لجاز أن يكون لى حكم على هذا التفسير مغاير لهذا الحكم، ورأى فيه مخالف لهذا رأى ..

والذى نلاحظه فى هذا التفسير بعد ذلك : أنه يدافع عن أصول مذهبه ويطيل فى دفاعه، مع تعصب كبير، وتطرف بالغ إلى درجة الغلو والعناد. أما فروع المذهب ومسائله الاجتهادية الفقهية، فيمر عليها مرّاً سريعاً بدون تفصيل للأدلة وبيان لوجهة النظر، كما نلاحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير أهل السنة أيضاً كالبيضاوى وغيره، وكثيراً ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول .

وبالجملة .. فالكتاب يكاد فى جملة أن يكون تفسيراً جارياً على النمط الذى يجرى عليه الصوفية فى تفاسيرهم، ويظهر أن مؤلفه كان يقصد هذا اللون الصوفى فى تفسيره أولاً، وبالذات، يدلنا على ذلك هذه العبارة التى نقتطفها من مقدمة تفسيره وهى قوله : « .. وقد كنت نشيطاً منذ أوان اكتسابى للعلوم وعنقوان شبابى بمطالعة

كتب التفسير والأخبار ومدارستها، ووفقتني الله تعالى لذلك، وقد كان يظهر لى فى بعض الأحيان من إشارات الكتب وتلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها فى كتاب ولا أسمعها من خطاب، فأردت أن أثبتها فى وريقات، وأجعلها نحو تفسير للكتاب، لتكون تذكرة لى ولإخوانى المؤمنين، وتنبهها لنفسى ولجملة الغافلين، راجياً من الله أن يجعلها لى ذخيرة ليوم الدين، ولسان صدق فى الآخرين وهو جدير بأن يسمى: «بيان السعادة فى مقدمات العبادة» (١).

فأنت ترى أن المؤلف يقرر فى هذه العبارة أن تفسيره هذا عبارة عن مجموعة تلك الإشارات والتلويحات التى فتح الله بها عليه ولم يسبق إليها، فلو أننا جعلناه ضمن تفسير الصوفية لما كنا بعيدين عن وجهة الحق والصواب، ولكننا آثرنا أن نجعله ضمن تفاسير الإمامية الإثنا عشرية، لما فيه من اللون المذهبي والأثر الشيعي البالغ حد التطرف والغلو حتى فى ناحيته الصوفية والفلسفية. والكتاب مطبوع فى جزئين، وموجود بدار الكتب المصرية، آخره ما يدل على أن مؤلفه فرغ منه سنة ١٣١١ هـ.

وأرى قبل كل شئ أن أسوق للقارئ الكريم أهم الآراء التى يقول بها المصنّف ويجهر بها فى مقدمة تفسيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بما أذكره ضمن النماذج المختلفة. وإليك أهم هذه الآراء:

● الإمامية الإثنا عشرية والمهدى المنتظر:

يدين صاحبنا بأن علياً أول العترة، ووارث علم محمد ﷺ، وبعده الأحد عشر من ولده، وأن الحادى عشر منهم غائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج ويملا الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، وأن هؤلاء الإثنا عشر أئمتهم وشفعاؤه يوم القيامة (٢).

● القرآن والعترة:

ويعتقد المؤلف أن القرآن دليل العترة، وأن العترة مبينون للقرآن، ويقول: «إن القرآن إمام صامت، والعترة إمام ناطق» كما يقول: «إن محبة العالم من العترة وتعظيمه، والنظر إليه، والجلوس عنده، واستماع قوله وسماعه، والتدبر فى أفعاله وأحواله وأخلاقه، والتفكر فى شئونه والتسليم له ولمتشابهات ما منه، وتخليّة بيت القلب لنزوله بملكوته فيه، بملاحظة أنه حبل الله الممدود إلى الناس من غير عناد منه من أعظم العبادات. كذلك تعظيم القرآن، والنظر فى سطره، واستماع كلماته وسماعها، والتدبر فى عباراته، والتفكر فى إشاراته ولطائفه، وتخليّة بيت القلب

لتجلى حقائقه ، واتباع أحكامه وتسليم متشابهاته من أعظم العبادات إذا كان بلحاظ كونه حبلاً ممدوداً من الله»^(١).

● علم القرآن جميعه عند محمد والأوصياء :

ويعتقد المؤلف أن علم القرآن جميعه عند النبي ﷺ والأئمة، أما من عداهم فعلمهم بمعاني القرآن قاصر لا يبلغ المبلغ الذي خص به النبي والأئمة، وذلك في نظره راجع إلى تفاوت المقامات التي يتفاوت العلم بتفاوتها. ونظرية تفاوت المقامات التي يتفاوت من أجلها العلم بمعاني القرآن، نظرية فلسفية صوفية شيعية، وإليك نص عبارة المؤلف في الفصل العاشر من مقدمة كتابه لتكون على بصيرة بها:

يقول المؤلف ما نصه: «الفصل العاشر: إن علم القرآن بتمام مراتبه منحصر في محمد ﷺ وأوصيائه الإثنا عشر وليس لغيرهم إلا بقدر مقامه، قد مضى أن بطون القرآن وحقائقه كثيرة متعددة، وأن بطنه الأعلى وحقيقته العليا هو محمدية محمد، وعلوية علي، وهو مقام المشيئة التي هي فوق الإمكان، وكل نبي ووصي كان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد ﷺ وأوصيائه، ومن لم يبلغ إلى مقام المشيئة لا يعلم ما فيه، ولا يتبين من ذلك المقام شيئاً، لأن المفسر لا يتجاوز في تفسيره حد نفسه، فكل من علم من القرآن شيئاً أو فسر منه شيئاً وإن بلغ من المقامات لا يكون علمه وتفسيره بالنسبة إلى علم القرآن إلا كقطرة من بحر محيط، فإن حقيقة القرآن - التي هي حقيقة محمد وعلي - هي مقام الإطلاق الذي لا نهاية له، والممكن وإن كان أشرف الممكنات الذي هو العقل الكلي يكون محدوداً، ولا يتصور النسبة بين المحدود وغير المتناهي الغير محدود، فعلم كل عالم ومفسر للقرآن بالنسبة إلى علم القرآن كقطرة إلى البحار. ولما كان مقام محمد ﷺ وعلي وأولاده المعصومين مقام المشيئة كان علم القرآن كله عندهم، وكان علي هو من عنده علم من الكتاب كما في الآية بإضافة العلم إلى الكتاب المفيد للاستغراق. وكان آصف هو الذي عنده علم من الكتاب. وكان إبراهيم ابتلاه ربه بكلمات معدودة لا بجملته الكلمات، مع أنه كان أكمل الأنبياء بعد نبينا. وكان محمد ﷺ يؤمن بالله وكلماته جميعاً في قوله تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨].. فإن «الكلمات» جمع مضاف مفيد للاستغراق، وليس المراد به الإيمان الإجمالي وإلا لشاركه غيره فيه، بل الإيمان التفصيلي، والإيمان التفصيلي لا يكون إلا بإدراك المؤمن به شهوداً وعياناً»^(٢).

● تحريف القرآن وتبديله:

والمؤلف يذكر لنا رأيه بوضوح في تحريف القرآن وتبديله فيقول ما نصه: «اعلم أنه

قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك في صدور بعضها منهم وتأويل الجميع بأن الزيادة والنقيصة والتغيير إنما هي في مدركاتهم من القرآن لا في لفظ القرآن كلغة، ولا يليق بالكاملين في مخاطباتهم العامة، لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام والخواص، وصرف اللفظ عن ظاهره من غير صارف، وما تواهموه صارفاً من كونه مجموعاً عندهم في زمن النبي، وكانوا يحفظونه ويدرسونه، وكانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير والتبديل، حتى ضبطوا قراءات القُرْأء وكيفيات قراءاتهم.

فالجواب عنه: أن كونه مجموعاً غير مُسَلَّم، فإن القرآن نزل في مدة رسالته إلى آخر عمره نجوماً، وقد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور وبعض الآيات في العام الأخير، وما ورد من أنهم جمعوه بعد رحلته، وأن علياً جلس في بيته مشغولاً بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره. وكونهم يحفظونه ويدرسونه مُسَلَّم، لكن كان الحفظ والدرس فيما كان بأيديهم، واهتمام الأصحاب بحفظه وحفظ قراءات القُرْأء وكيفيات قراءاتهم كان بعد جمعه وترتيبه، وكما كانت الدواعي متوفرة في حفظه، كذلك كانت متوفرة من المنافقين في تغييره. أما ما قيل: إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه، والحال أنا مأمورون بالاعتماد عليه، واتباع أحكامه، والتدبر في آياته، وامتنال أوامره ونواهيه. وإقامة حدوده، وعرض الأخبار عليه، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير والتحريف عن ظواهرها، لأن الاعتماد على هذا المكتوب ووجوب اتباعه، وامتنال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده وأحكامه، إنما هي للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذُكر، للقطع بأن ما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على محمد ﷺ من غير نقيصة وزيادة وتحريف فيه. ويُستفاد من هذه الأخبار: أن الزيادة والنقيصة والتغيير إن وقعت في القرآن لم تكن مخللة بمقصود الباقي منه، بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم، وفي الباقي منه حُجَّتْهم أهل البيت، وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حُجَّةً قطعياً لنا ولو كان مغيراً تغييراً مخللاً بمقصوده، وإن لم نتوسل بهم أو لم يأمرنا باتباعه، وكان التوسل به، واتباع أحكامه، واستنباط أوامره ونواهيه، وحدوده، وأحكامه، من قبل أنفسنا كان من قبل التفسير بالرأى الذي منعوا منه، ولو لم يكن متغيراً^(١).

● نزول القرآن في شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم:

ويرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه في الأئمة الإثنا عشر بوجه، ونزل فيهم وفي

أعدائهم بوجه، ونزل أثلاثاً: ثلث فيهم وفي أعدائهم، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام .. بوجه . أو ثلث فيهم وفي أحبائهم، وثلث في أعدائهم، وثلث سنة ومثل .. بوجه . ونزل أرباعاً: ربع فيهم، وربع في عدوهم، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام .. بوجه . ويرى أن كل هذا قد أشعرت به الأخبار الواردة عن أهل البيت، ويوجه ذلك فيقول: «لما كان جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية، وتوجيه الخلق إلى الولاية، وكان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية والولاية والمتحقق بالولاية المطلقة محمداً ﷺ وعلياً وأولادهما، صح أن يقال: جملة الشرائع الإلهية وجميع الكتب السماوية نزلت فيهم وفي توجيه الخلق إليهم . وهو أيضاً وصف وتبجيل لهم . ولما كان كثير من آيات القرآن نزلت فيهم تصريحاً أو تعريضاً أو تورية، وما كان في أعدائهم لم يكن المقصود منه إلا الاعتبار بمخالفيتهم والانزجار عن مخالفتهم ليكون سبباً للتوجه إليهم ولمعرفة قدرهم وعظمة شأنهم، وكان سائر آيات الأمر والنهي والقصص والأخبار لتؤكد السير على الطريق الإنسانية إلى الولاية، صح أن يقال: جميع القرآن نزل فيهم، ولما كان القرآن مفصلاً يكون بعض آياته فيهم وفي محبيهم . وبعضها في أعدائهم ومخالفيتهم، وبعضها سنناً وأمثالاً، وبعضها فرائض وأحكاماً، صح أن يقال: نزل القرآن فيهم وفي أعدائهم، أو نزل أثلاثاً أو أرباعاً، والآية الدالة على أخبار الأختيار والأشرار الماضين كلها تعريض بالأئمة وأخبار هذه الأمة وأشراهم، مع قطع النظر عن رجوعها إليهم وإلى أعدائهم بسبب كونهم أصلاً في الخير وكون أعدائهم أصلاً في الشر . بل نقول: كل آية ذُكر فيها خير كان المراد بها أختيار الأمة، وكل آية ذُكر فيها شر كان المراد بها أشرار الأمة، لكون الآية فيهم أو تعريضاً بهم، أو لكونهم وكون أعدائهم أصلاً في الخير والشر»^(١).

هذه أهم آراء المصنّف التي يراها في القرآن وتفسيره ومفسّره . وإليك بعض النماذج التي توضح لك الطريقة التي جرى عليها المصنّف في تفسيره، ومقدار تأثره بنزعتة الصوفية، وهواه الشيعي:

● من التفسير الصوفي:

قلنا: إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفي لكثرة ما فيه من التأويلات الإشارية، والشطحات الصوفية، والمواجيد التي نقرأها للمؤلف في تفسيره للآيات القرآنية، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقي النواحي في هذا التفسير:

فمثلاً عندما تكلم عن قوله تعالى في الآية (٧٥) من سورة النساء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ .. يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ ... الآية: «إن كان النزول في ضعفاء قلة فلا اختصاص لها بهم كما في الخبر. فالقرية مكة وكل قرية لا يجد الشيعة فيها ولياً من الإمام ومشايخهم، وكل قرية وقع بها الأئمة بين منافق الأئمة، وقرية النفس الحيوانية التي لا يجد الجنود الإنسانية فيها ولياً ويطلبون الخروج منها إلى قرية الصدر ومدينة القلب. ويسألون الحضور عند إمامهم أو مشايخهم في بيت القلب خالياً عن مزاحمة الأغيار بقولهم: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ .. تكرار ﴿وَاجْعَلْ﴾، لأن مقام التضرع والابتهاال يناسبه التطويل والإلحاح في السؤال، ولأن المسئول ليس شخصاً واحداً، ولو كان واحداً، لم يكن مسعولاً من جهة واحدة، بل المسئول محمد ﷺ وعلى، أو المسئول محمد من جهة هدايته ومن جهة نصرته، وعلى كذلك».

«وقد بقى بين الصوفية أن يكون التعليم والتلقين بتعاقد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هادياً والآخر دليلاً، والشيخ الهادي له الهداية وتولى أمور السالك فيما ينفعه ويجذبه، والشيخ الدليل ينصره لمدافعه الأعداء، ويخرجه عن الجهل والردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى، وفي الآية إشارة إلى أن السالك ينبغي له أن يطلب دائماً حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته ومقام صدره، وهو معنى انتظار ظهور الشيخ في عالم الصغير، وأما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك، فلا يصدق عليه أنه لدن الله، وإذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان ولياً من لدن الله ونصيراً من لدنه» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨٧) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .. يقول: «.. اعلم أن الإنسان ذو مراتب عديدة بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له، والتكاليف الإلهية الواردة عليه ليست لمرتبة خاصة منه، بل - كما عرفت سابقاً - للمفاهيم الواردة في التكاليف مصاديق متعددة بتعدد مراتب الإنسان. بعضها فوق بعض، فكل ما ورد في الشريعة المطهرة من الألفاظ فهي مقصودة من حيث مفاهيمها العامة باعتبار جميع مصاديقها بحيث لا يشذ عنها مصداق من المصاديق، فالإنسان

بحسب مرتبته النباتية له محللات إلهية، وبحسب مرتبته الحيوانية أخرى، وبحسب الصدر أخرى، وبحسب القلب أخرى، وبحسب الروح أخرى، والتحریم الإلهي في كل مرتبة بحسبه، وكذا تحریم الإنسان على نفسه. فالمحللات بحسب مرتبته الحيوانية والنباتية: ما أباح الله له من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمركوب، والمنكوح، والمسكون، والمنظور. وبحسب الصدر: ما أباح الله له من الأفعال الإرادية، والأعمال الشرعية، والتدبيرات المعادية والمعاشية، والأخلاق الجميلة، والمكاشفات الصورية. وبحسب القلب: ما أباح الله له من الأعمال القلبية، والواردات الإلهية، والعلوم اللدنية، والمشاهدات المعنوية الكلية.. وهكذا في سائر المراتب. والطيبات من ذلك في كل مرتبة: ما تستلذه المدارك المختصة بتلك المرتبة، ومطلق المباح في كل مرتبة طيب بالنسبة إلى مباح المرتبة الدانية منه، وأن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، ولا يحب الشره والاعتداء في رخصه بحيث يؤدي إلى الانتقال إلى ما هو حرام محظور بأصل الشرع، أو بحيث يؤدي إلى صيرورة المباح حراماً بفرض التجاوز عن حد الترخيص بالإكثار فيه، كما لا يحب الامتناع عن رخصه، فمعنى الآية: «يا أيها الذين آمنوا لا تمتنعوا من الرخص، ولا تحرموا - بقسم وشبهة، ولا بكسل ونحوه - على أنفسكم ما لم تستلذه المدارك بحسب كل مرتبة وقوة بما أباحه الله لكم، لأن الله يحب أن يرى عبده مستلذاً بما أباحه له، كما يحب أن يراه مستلذاً بعباداته ومناجاته، ولا تمتنعوا بالاكْتفاء بمستلذات المرتبة الدانية عن مستلذات المرتبة العالية، فإنه يحب أن يرى عبده مُصراً على طلب مستلذات المرتبة العالية، كما يحب أن يراه في هذه الحالة معرضاً عن مباحات المرتبة الدانية، مكْتفياً بضرورياتها وراجحاتها. ولا تعتدوا عما أباح الله إلى ما حظره، وفي المباح إلى حد الحظر. والآية إشارة إلى التوسط بين التفريط والإفراط في كل الأمور من الأفعال والطاعات والأخلاق والعقائد والسير إلى الله، فإن المطلوب من السائر إلى الله أن يكون واقعاً بين إفراط الجذب وتفريط السلوك».

ثم بعد ذلك فسّر قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٨] بما يشبه التفسير السابق.. ثم بعد ذلك ذكر أن الآية نزلت في عليّ وبلال وعثمان بن مظعون، فأما عليّ فحلف أن لا ينام بالليل، وأما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً، فلما علم بذلك رسول الله خرج على الناس ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام يُحرمون عليّ أنفسهم الطيبات؟ إني أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، فقام

هؤلاء فقالوا: يا رسول الله؛ قد حلفنا على ذلك، فأنزل الله آيات الحلف .. ثم استشكل المؤلف على هذه الرواية إشكالين:

أولهما: أن مثال هذه المعاتبات ونسبة التحريم والاعتداء والتقوى ولغو الأيمان غير مناسبة لمقام عليّ.

وثانيهما: أن علياً إما كان عالماً بأن تحريم الحلال إن كان بالاستبدال والرأى كان من البدع والضلال، وإن كان بالنذر وشبهه كما دلّ عليه الخبر، كان مرجوحاً غير مرضى لله تعالى، ومع ذلك حرّمه على نفسه، أو كان جاهلاً بذلك، وكلا الوجهين غير لائق بمقامه.

ثم أجاب عن هذين الإشكالين بجواب كله من قبيل النظرات الصوفية فقال:

« والجواب الجلي لطالبي الآخرة والسالكين إلى الله، الذين بايعوا علياً بالولاية، وتابعوه بقدوم صدق، واستشبهوا نفحات نشأته حال سلوكه أن يقال: إن السالك إلى الله يتم سلوكه باستجماعه بين نشأتي الجذب والسلوك، بمعنى توسطه بين تفريط السلوك الصرف، وإفراط الجذب الصرف، فإنه إن كان في نشأة السلوك فقد جمده طبعه ببرودة السلوك حتى يقف عن السير. وإن كان في نشأة الجذب فقط، فني بحرارة الجذب عن أفعاله وصفاته وذاته، بحيث لا يبقى منه أثر ولا خبر، وهو وإن كان في روح وراحة، لكنه ناقص كمال النقص من حيث أن المطلوب منه حضوره بالعودة لدى ربه مع جنوده، وخدمه، وأتباعه، وحشمه، وهو طرح الكل، وتسارع بوحدته، فالسالك إلى الله تكميله مربوط بأن يكون في الجذب والسلوك منكسراً ببرودة سلوكه بحرارة جذبه، فالجذب والسلوك كالليل والنهار وكالصيف والشتاء، من حيث أنهما يريان المواليد بتضادهما، فهما - مع كونهما متنازعين - متآلفان متوافقان.

إذا علمت ذلك، فاعلم أن السالك إذا وقع في نشأة الجذب، وشرب من شراب الشوق الزنجبيلي، سكر وطرب ووجد، بحيث لا يبقى في نظره سوى الخدمة للمحبوب، وكل ما رآه منافياً للخدمة رآه ثقلاً ووبالاً على نفسه ومكروها لمولاه، فيصمم في طرحه، ويعزم على ترك الاشتغال به، وهو من كمال الطاعة لأنه ترك الطاعة كما يظن، فلا ضير أن يكون أمير المؤمنين حال سلوكه وقع في تلك النشأة، وحرّم على نفسه كل ما يشغله عن الخدمة، لكمال الاهتمام بالطاعة، ولما لم يكن تحصيل الكمال التام إلا بالجمع بين النشأتين، أسقاه محمد ﷺ من شراب السلوك، لأنه كان مكماً مريباً له ولغيره، ولذا قالوا: لأن يكون للسالك شيخ وإلا فيوشك أن يقع في الورطات المهلكة، ولا منقصة في أمثال هذه المعاتبات على الأحاب، بل فيها من اللطف والترغيب في الخدمة ما لا يخفى، وعليّ كان عالماً بأن الكمال لا يحصل إلا بالنشأتين، ولكنه يرى حين الجذب أن كل ما يشغله عن الخدمة فهو مكروه المحبوب،

ومرجوح عنده، فحلف على ترك المرجوح . أو يقال : إن علياً لما كان شريكاً للرسول ﷺ في تكميل السلاك لقوله : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » وكان له شأن الدلالة، ولمحمد شأن الإرشاد، والمرشد بنشأته النبوية شأنه تكميل السالك بحسب نشأة السلوك، وإن كان بنشأته الولوية وشأن الإرشاد شأنه التكميل بحسب الجذب، والدليل بنشأته الولوية شأنه التكميل بحسب نشأة الجذب، وإن كان بنشأته النبوية وشأن الدلالة شأنه التكميل بحسب السلوك فالدليل بولايته يقرب السالك إلى الحضور، ويعلمه آداب الحضور، وطريق العبودية، من عدم الالتفات إلى ما سوى المعبود، وطرح جميع العوائق من طريقه، والمرشد بنبوته يُبعده عن الحضور، ويُقربه إلى السلوك، ويرغبه فيه، فهما في فعلهما كالنشأتين : متضادان متوافقان، فأمير المؤمنين لما رأى بلالاً وعثمان مستعدين لنشأة الجذب، رغبهما إلى تلك النشأة بطرح المستلذات وترك المألوفات، وشاركهما في ذلك ليستكمل بذلك شوقهما ويتم جذبهما، ولما مضى مدة ورأى الرسول أن عودهما إلى السلوك أوفق وأنفع لهما، ردهما إلى نشأة السلوك، وعاتبهما باللفظ عتاب، ولا يبرد نقص على أمير المؤمنين . ولما قالوا بعد عتابه : قد حلفنا .. نزل : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ [البقرة : ٢٢٥]، [المائدة : ٨٩]، وهو الذى يؤتى به للتأكيد فى الكلام كما هو عادة العوام ... إلخ^(١).

فأنت ترى من هذين المثالين السابقين، أن المؤلف يفيض فى الناحية الصوفية فى تفسيره للآيات، كما أنه لم يخل تفسيره الصوفى من التشيع لعلى وذريته بل ومن اتخاذه مخرجاً يخرج به من الإشكالات التى ترد عليه.

● من التفسير الفلسفى :

كذلك نجد المؤلف فى كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية، فمثلاً فى أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسده وروحه عليه السلام، ويرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك، ويقدم لبحثه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام على رضى الله عنه، وذلك حيث يقول :

«العالم ليس منحصرًا فى هذا العالم المحسوس المعبر عنه بعالم الطبع بسمواته وأرضيه، بل فوقه البرزخ، وهو عالم بين عالم الطبع وعالم المثال، وله الحكومة على عالم الطبع والتصرف فيه أى تصرف شاء، من الإحياء والإماتة، وإيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وستر المحسوس، وإظهار غير المحسوس بصورة المحسوس . ومنه طي

الأرض، والسير على الماء والهواء، والدخول في النار سالماً، وقلب الماهيات. ومنه طي الزمان، كما ورد في الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق: اخسأ فصار كلباً. وقال لآخر: أنت امرأة بين الرجال فصار امرأة وأنكر آخر قلب الماهيات عند المعصوم، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء وارتمس^(١) فخرج ورأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة، فدخلت القرية وتزوجت وعاشت مدة وولدت لها أولاد.. ثم خرجت لتغتسل في البحر فدخلت الماء وارتمست فخرجت على ساحل النهر المعهود وهو رجل وإذا بشيابه موضوعة كما وضعها. فلبسها ودخل بيته وأهله غير شاعرين بغيبته لقصر الزمان، وأمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق، وهذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه في عالم الملك، كما نقل أن امرأة وقع لها ذلك فأخبرت وأنكرها جماعة فأثيت بأولادها بعد ذلك من بلدة بعيدة، مع أنه لم يمض في بلدتها قدر ساعة، أو من قبيل البسط في الدهر من غير تصرف في الزمان إن كان وقوعه في الملكوت. وفوق البرزخ عالم المثال، وله التصرف في البرزخ والطبع. وفوقه عالم النفوس الكلبيات المعبر عنها بـ ﴿المدبرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. وفوقه الأرواح المعبر عنها بـ ﴿الصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، ويعبر عنها في لسان الإشرافيين بأرباب الأنواع وأرباب الطلسمات. وفوقها العقول المعبر عنها بالمقربين. وفوقها الكرسي وفوقه العرش، وهو سرير الملك المتعال، وهما بين الوجوب والإمكان لا واجباً ولا ممكنان، بل فوق الإمكان وتحت الوجوب. وكل من تلك العوالم له الإحاطة والتصرف والحكومة على جميع ما دونه، فإذا غلب واحد من تلك العوالم على ما دونه صار ما دونه بحكمه، وذهب عنه حكم نفسه.

ثم اعلم أن الإنسان مختصر من تلك العوالم، وله مراتب بإزاء تلك العوالم، وكل مرتبة عالية لها الحكومة على ما دونها من غير فرق، كما نشاهده من حكومة النفس على البدن والقوى، لكن تلك المراتب في أكثر الناس بالقوة، وما بالفعل من النفس المجردة التي هي بإزاء عالم النفوس ضعيفة غاية الضعف، بحيث لا يمكنها التصرف في بدنها زائداً على ما جعله الله في جبلتها، فكيف بغير بدنها؟ فإذا صار بعض تلك المراتب بالفعل كما في أكثر الأنبياء والأولياء، أو جميعها كما في خاتم الأنبياء وصاحبني الولاية الكلية، كان لهم التصرف في أبدانهم بأى نحو شاءوا، وفي سائر أجزاء العالم، كما روى عن الأنبياء والأولياء من طي المكان والزمان، والسير على الماء والهواء، ودخول النار، وإحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وقلب الماهيات، وغير ذلك مما لا يُنكر تمامها لكثرتها، وتواتر الأخبار بمجموعها وإن كان آحادها غير متواترة. وأما

(١) ارتمس من الارتماس وهو الانغماس.

التصرف في البدن الطبيعي بحيث يُخرجه عن حكم الإمكان ويدخله في عالم العرش الذي هو فوق الإمكان وفوق عالم العقول والملائكة المقربين، كما روى أن جبريل تخلف عن الرسول ﷺ في المعراج، وقال: لو دنوت أنملة لاحتترقت، مع أنه من عالم العقول المقربين، فهو من خواص خاتم الكل في الرسالة والنبوة والولاية، وهو من خواص نبينا ﷺ لا يشاركه فيه غيره لا نبي مرسل ولا خاتم الأولياء. ولذلك جعلوا المعراج الجسماني بالكيفية المخصوصة من خواصه ﷺ. ولما كان المعراج بتلك الكيفية أمراً لا يتصور أمر فوقه من الممكن، وكان لا يتيسر إلا إذا غلب العالم الذي فوق الإمكان على البدن الطبيعي ولا تيسر تلك الغلبة بسهولة ولكل أحد وفي كل زمان، قالوا: إن المعراج للنبي ﷺ كان مرتين، مع أنه نُسب إلى بعض العرفاء أنه قال: إنني أعرج كل ليلة سبعين مرة، والمعراج بالروح أمر يقع لكثير من الرياضيين، بل ورد أن الصلاة معراج المؤمن.

إذا تقرر ذلك نقول: إنه عرج ببدنه الطبيعي وعليه عباؤه ونعلاه إلى بيت المقدس، ومنه إلى السموات، ومنها إلى الملكوت، ومنها إلى الجبروت، ومنها إلى العرش الذي هو فوق الإمكان، وفي هذا السير تخلف جبريل عنه ﷺ، لأنه كان من عالم الإمكان، ولم يكن له طريق إلى ما فوق الإمكان، لأن الملائكة كُلُّها له مقام معلوم لا يتجاوزه، بخلاف الإنسان. ولم يكن منه ذلك المعراج إلا مرتين كما في الأخبار، ولا يلزم منه خرق السموات، لارتفاع حكم الملك عن بدنه بغلبة الملكوت - ولا استغراب في عروج البدن الطبيعي إلى الملكوت والجبروت - ولسقوط حكم الملك بل حال الإمكان عنه مع بقاء عينه، ولا غرور في كثرة وقائعه في المعراج، فإنه من بسط الدهر مع قصر الزمان كما قال: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال أيضاً: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].. فقدر ساعة من الدهر بإزاء ساعة من الزمان تكون كألف ساعة من الزمان أو خمسين ألف ساعة^(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢١) من سورة الحجر: ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾.. يقول ما نصه: «اعلم أنه قد يُطلق الشيء ويراد به ما يساوق الموجود، فيشمل الحق الأول تعالى شأنه. وقد يُطلق ويراد به المشي وجوده، فلا يشمل الحق الأول، ولا حضرة الأسماء ولا حضرة الفعل الذي هو مبدأ إضافاته، ويشمل الممكنات كلها من حضرة العقول المعبر عنها بالأقلام العالية والملائكة المقربين، وحضرة الأرواح المعبر عنها بأرباب الأنواع والصفات صفاء، وحضرة النفوس الكلية المعبر عنها بالأرواح

الكلية المحفوظة والمدبرّات أمراً، وحضرة النفوس الجزئية بألواح المحو والإثبات وبالعالم المثال باعتبارين، ويشمل موجودات عالم الطبع تماماً، وكل ما فى تلك الحضرات له حقيقة فى حضرة الأسماء، وحقيقة فى حضرة الفعل والإضافة الإلهية الإشراقية. وكل ما فى حضرة الفعل له حقيقة أيضاً فى حضرة الأسماء، وكل ما فى حضرة الأرواح له حقيقة فى حضرة الأقسام، وحقيقة فى حضرة الفعل، وحقيقة فى حضرة الأسماء، وهكذا حضرة النفوس الكلية وما فيها، وحضرة النفوس الجزئية وما فيها، وعالم الطبع وما فيه، وبعبارة أخرى: كل دان له صورة بالاستقلال فى العالى، وصورة بالاستقلال فى عالى العالى، وصورة بتبع العالى فى عالى العالى، فلكل شئ من الممكنات حقائق فى حضرة الأسماء استقلالاً وتبعاً، وهكذا فى حضرة الفعل، وهكذا فى حضرة الأقسام إلى عالم المثال، وكل تلك الحضرات من حيث إنها عوالم مجردة عن المادة وأغشيتها، تسمى «عند الله»، و«لدى الله»، لحضورها فى محضره، ولما كانت تلك الحقائق محفوظة عن التغير والتبدل كالأشياء النفيسة المخزونة المحفوظة، سماها تعالى بالخزائن، فكل ما فى عالم الملك له حقيقة فى عالم المثال، ينزله - تعالى شأنه - من عالم المثال إلى عالم الملك بقدر استعداد المادة لقبوله وحين استعدادها، وهكذا من النفوس الكلية إلى عالم المثال، وهكذا الأمر فى العالى والأعلى إلى حضرة الأسماء. ولما كان موجودات عالم الملك متحددة بالتحديد الذاتى، بمعنى أنها كل آن فانية عن ذواتها، وموجودة بموجدها كما حقق فى محله، فما من شئ مما فى عالم الملك إلا ويفنى آنًا فآنًا، وينزله تعالى من خزائنه آنًا فآنًا، فلذلك قال: ﴿وَمَا نَنْزِلُهِ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ (١).

● آل البيت والأُمم السابقة:

ومما نلاحظه على المؤلف أنه يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمداً ﷺ وآل بيته كانوا معروفين عند الأُمم السابقة، وكان لهم أشياع وأتباع يوالونهم، ويتوسّلون بهم، وينالهم الخير والبركة بسبب حبهم.

وهذه الروايات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات التى تسلّطت على عقول أولئك القوم، ومن هذه الروايات - مثلاً - ما ذكره المؤلف فى قصة قتيل بنى إسرائيل المذكورة فى قوله تعالى فى الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾... الآيات، إلى آخر القصة من أن موسى جمع أمثال القبيلة التى وجد القتل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله

القوى الشديد إله بنى إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً^(١).

وبعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذا البقرة المذكورة بأوصافها في القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بنى إسرائيل أراه الله في منامه محمداً وعلياً وطيبى ذريتهما فقالا: إنك كنت لنا محبباً مفضلاً، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك في الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أمك، فإن الله يلقنها ما يغنيك عقبك، وجاء القوم يطلبون بقرته، فقالوا: بكم تباع بقرتك هذه؟ قال: بدينارين، والخيار لأُمى، قالوا: رضينا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا: نعطيك دينارين، فأخبر أمه، فقالت: ثمانية. فما زالوا يطلبون على النصف مما تقول أمه، ويرجع إلى أمه فتضعف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر ما يكون من دنانير، فأوجب لهم البيع فذبحوها وما كادوا يفعلون...»^(٢).

وبعد ذلك بقليل يقول: «وفي تفسير الإمام: أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى وقالوا: افتقرت القبيلة، وانسلخنا بلجاجنا عن قليلنا وكثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا ﷺ، فأوحى الله إليه: ليذهب رؤسأؤهم إلى خربة بنى فلان ويكشفوا عن موضع كذا ويستخرجوا ما هناك، فإنه عشرة آلاف ألف دينار، وليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة ما دفع، لتعود أحوالهم على ما كانت، ثم ليتقاسموا بعد ذلك ما يفضل وهو خمسة آلاف ألف دينار على قدر ما دفع كل واحد منهم، لتضاعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد وآله، واعتقادهم لتفضيلهم»^(٣).

كما يروى أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبى محمد وآله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يحييه لهم فاستجاب، وأن القتيل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد وآله أن يبقيه فى الدنيا متمتعاً بابنة عمه، ويجزى عنه أعداءه، ويرزقه رزقاً كثيراً طيباً، فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التى عاشها قبل ذلك، وعاش فى الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتعاً بحلال الدنيا، وعاش معها لم يفارقها ولم تفارقه، وماتا جميعاً معاً، وصارا إلى الجنة وكانا فيها زوجين ناعمين»^(٤).

● قصص القرآن:

وإننا لنجد المؤلف يقرر فى غير موضع من كتابه: أن القصص القرآنى وما ورد فى شروحه من الروايات على اختلافها وتضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذى يتبادر إلى الذهن، بل هى من قبيل الرموزات التى رمزوا بها لأشياء يعلمونها ويريدونها، كما

(١) الجزء الأول صفحة ٥٧ . (٢) الجزء الأول ص ٥٨ . (٣) الجزء الأول ص ٥٨ .

(٤) الجزء الأول ص ٥٨ .

يقرر أن من يريد حملها على الظاهر فلا بد وأن يتحير فيها، وليس يمكن له أن يصل إلى حقيقتها، والمقصود منها بمجرد قوته البشرية: فعندما تكلم على قصة آدم في أول البقرة وجدناه يقول: « ولما كان قصة آدم وخلقته، وأمر الملائكة بسجده، وإبء إبليس عن السجود، وهبوطه من الجنة، وبكائه في فراق الجنة وفراق حواء، وخلقته حواء من ضلع الجنب الأيسر، وغروره بقول الشيطان وحواء، وكثرة نسله، وحمل حواء في كل بطن ذكراً وأنثى، وتزويج كل بطن لذكر البطن الآخر من مرموزات الأوائل، وقد كثر ذكره في كتب السلف خصوصاً كتب اليهود وتواريخهم، وردت أخبارنا مختلفة في هذا الباب اختلافاً كثيراً، مرموزاً بها إلى ما رمزه، ومن أراد أن يحملها على ظاهرها تحير فيها، ومن رام أن يدرك المقصود بقوته البشرية والمدارك الشيطانية منها طرد عنها، ولم يدرك منها إلا خلاف مدلولها» (١).

وبعد أن يقرر المؤلف هذا نراه يكشف لنا عن تلك الأمور المرموز إليها في القصة، لا بقوته البشرية، فإنها عاجزة عن إدراكها كما يقول، بل بقوته الروحية التي تستلهم المعارف من الله، وذلك حيث يقول في أثناء تفسيره للقصة نفسها: « اعلم أن قصة خلق آدم من الطين، وحواء من ضلعه الأيسر. وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وإبء إبليس عن السجدة، وإسكان آدم وحواء الجنة، ونهيهما عن أكل شجرة من أشجارها، ووسوسة إبليس لهما، وأكلهما من الشجرة المنهية، وهبوطهما، من الرموزات المذكورة في كتب الأمم السالفة وتواريخهم كما ذكرنا سابقاً، فالمراد بآدم في العالم الصغير: اللطيفة العاقلة الآدمية، الخليفة على الملائكة الأرضين، وعلى الجنة والشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس والطبع، المسجودة للملائكة، المخلوقة من الطين، الساكنة في جنة النفس الإنسانية، وهي أعلا من مقام النفس الحيوانية، المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذي يلي النفس الحيوانية زوجتها المسماة بحواء، لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية. والمراد بالشجرة المنهية: مرتبة النفس الإنسانية التي هي جامعة لمقام الحيوانية والمرتبة الآدمية. والمراد بالحية واختفاء إبليس بين حبيها: القوة الواهمة، فإنها لكونها مظهراً لإبليس، تسمى بإبليس في العالم الصغير، ووسوسته: تزيينها ما لا حقيقة له للجنب الأيسر من آدم المعبر عنه بحواء. وهبوط آدم وحواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية. وهبوط الحية وذريتهما: عبارة عن تنزيلهما عن مقام التبعية لآدم، فإن إبليس لما كان الواهمة أحد مظاهره كان رفعتها رفعتته، وشرافتها باستخدام آدم لها شرافته، وهبوط الواهمة كان هبوطاً له، وإذا أريد بالشجرة: النفس الإنسانية ارتفع الاختلاف من الأخبار، فإن النفس الإنسانية شجرة لها أنواع الثمار

(١) الجزء الأول ص ٤٢.

والحبوب، وأصناف الأوصاف والخصال، لأن الحبوب والثمار وإن لم تكن بوجود ذاتها العينية الدانية الموجودة فيها لكن الكل بحقائقها موجودة فيها، فتعين تلك الشجرة بشئ من الحبوب والثمار، والعلوم والأصناف بيان لبعض شئونها.

روى في تفسير الإمام: أنها شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله تعالى دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم ومنها ما كان يتناوله النبي ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين بعد إطعامهم المسكين، واليتيم، والأسير، حتى لم يحسوا بجوع، ولا عطش ولا تعب ولا نصب، وهي شجرة تميزت من بين سائر الأشجار بأن كلا منها إنما يحمل نوعاً من الثمار، وكانت هذه الشجرة وبنسبها تحمل البر، والعنب، والتين، والعناب، وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون . . فقال بعضهم: برة، وقال آخرون: هي الشجرة التي من تناول منها بإذن الله أُلهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم، ومن تناول بغير إذن الله خاب مراده وعصى ربه . .

أقول: «آخر الحديث يدل على ما قالته الصوفية من أن السالك ما لم يتم سلوكه، ولم ينته إلى مقام الفناء، ولم يرجع إلى الصحو بعد المحو بإذن الله، لم يجز له الاشتغال بالكثرات ومقتضيات النفس زائداً على قدر الضرورة. وشجرة علم محمد وآل محمد إشارة إلى مقام النفس الجامع لكمالات الكثرة والوحدة» (١).

وفي سورة البقرة أيضاً عندما تكلم عن قصة هاروت وماروت يقول: «اعلم أن أكثر قصص سليمان كان من مرموزات الأوائل، وأخذها المتأخرون بطريق الأسمار، وأخذوا منها ظاهرها الذي لا يليق بشأن الأنبياء، وورد عن المعصومين تقرير ما أخذوه أسماراً نظراً إلى ما رمزها الأقدمون، وأمثال هذه ورد عنهم تكذيبها نظراً إلى ظاهرها أخذها العوام، وتصديقها نظراً إلى ما رمزوا إليه» (٢).

وفي أول سورة النساء عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ . . الآية، يقول: «لما كان تلك الحكاية وأمثالها من مرموزات الأوائل من الأنبياء والأولياء والحكماء التابعين لهم، وحملها العوام من الناس على ظاهرها، اختلفت الأخبار في تصديقها وتقريرها، وتكذيبها وتوهينها، فإن في كيفية خلقه آدم وتناسلها وتناكحهما وتناكح أولادهما، وكذا في قصة هاروت وماروت. وقصة داود، وغير ذلك، اختلافاً كثيراً في الأخبار، واضطراباً شديداً، بحيث يورث التحير والاضطرابات لمن لا خبرة له، حتى يكاد يخرج من الدين، ولكن الراسخين في العلم

يعلمون أن كلاً من معادن النبوة ومحال الوحي صدر، ولا اختلاف فيها ولا اضطراب، جعلنا الله منهم، والله ولى التوفيق» (١).

وفى سورة (ص) عند قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ... الآيات من (٣٤) إلى تمام القصة، يقول بعد ما ذكر قصة الفتنة: «وأمثال هذه، وأمثال روايات سلب مُلْك سليمان، وجلوس الشيطان على كرسيه، وكون مُلْك من وطأ بخاتم، ليس إلا من الرموز التي رمزها الأقدمون، ثم أخذها العامة بصورها الظاهرة، ومفاهيمها العامية، ونسبوا إلى الأنبياء ما لا يليق أن ينسب إلى مؤمن، فكيف بكامل أو نبي» (٢).

● الإمامة:

والمؤلف يقرر فى تفسيره إمامة على رضى الله عنه، وخلافته للنبي ﷺ بدون فصل؛ فمثلاً فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ .. نجده يؤكد أن الآية نازلة فى حق على رضى الله عنه، وأن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة، ويرد على من يخالف ذلك بما يظهر له من الدليل، كما يبين السر الذى من أجله ذكر على بوصفه دون اسمه. وذلك حيث يقول: «قد ورد من طريق العامة والخاصة أن الولاية نازلة فى على حين تصدق فى المسجد فى ركوع الصلاة بخاتمة أو بحلته التى كان قيمتها ألف دينار. ومفسرو العامة لا ينكرون الأخبار فى كونها نازلة فى أمير المؤمنين وقد نقلوا بطرق عديدة من روايتهم أنها نزلت فى على، ومع ذلك يقولون فى تفسيرها: إن الآية نزلت بعد النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء، ولا شك أن المراد بالأولياء هناك أولياء المعاشرة، بقريئة المقابلة، وبقريئة جمع المؤمنين، ولو كان المراد أمير المؤمنين وبالولاية ولاية التصرف لصرح باسمه، أو لقال: «والذى آمن» بالإفراد، وهم غافلون عن أنه لو صرح باسمه، أو أفرد المؤمن - مع الاتفاق فى أنها نازلة فى أمير المؤمنين - لانسقطوه تمويهاً على عابدى عجلهم، فنقول: نسبة الولاية أولاً إلى الله، ثم إلى رسوله ﷺ وآله، ثم إلى الذين آمنوا، تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التى فى قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] .. لأن ولاية الله ليست ولاية المعاشرة ولا ولاية الرسول، بقريئة العطف، وبما هو معلوم من الخارج، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقريئة العطف، وبقريئة عدم تكرار الولى، فإن المراد أن الولاية ههنا أمر واحد مترتب فى الظهور، فإن ولاية الرسول ليست شيئاً سوى ولاية الله، وولاية الله تتحقق بولاية الرسول، فهكذا ولاية الذين آمنوا، فإنها ولاية الرسول ﷺ تظهر فى ولاية الذين آمنوا على ما قاله الشيعة، ولو كان المراد ولاية

المعاشرة كان «أولياؤكم» بلفظ الجمع أولى، وتقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في حال الركوع يدل على أنها ليست ولاية المعاشرة، وإلا لكان جملة المؤمنين فيها سواء، وليس كل المؤمنين متصفين بالصفات المذكورة، على أنه لا خلاف معتداً في أنها نزلت في على وصورة الأوصاف خاصة به، وقوله: ﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بالمضارع إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم، يعنى حالهم استمرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في حال الخضوع لله، لا في حال بهجة النفس، لأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].. بخلاف الفاعل من قبل النفس فإن شأنه الارتضاء بفعله، وتوقع المدح من الغير على فعله، لأن كل حزب من أحزاب النفس بما لديهم فرحون، ويحبون أن يُحمدوا على ما لم يفعلوا، فصلاً عما فعلوا. واستمرار الصفات بحسب المعنى: لعلّ وأولاده المعصومين بشهادة أعدائهم، وبحسب الصورة: ما كان أحد مصداقها إلا على نقلاً عن طريق العامة والخاصة. ووقع صدور الزكاة في الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة. وفي نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب والإتيان بأداة الحصر دلالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف، فإنها ثابتة لله ذاتاً ولرسوله ولخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله، وليس لأحد شركة فيها، وليس المراد بها ولاية المعاشرة التي تكون بالمواضعة والاتخاذ، وإلا لم يكن للحصر وجه، وكان اقتضاء المقابلة أن يقول: بل أنتم أولياء الله... إلخ، أو: بل اتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ولأن المراد بها ولاية التصرف التي كانت بالذات لله قال في عكسه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.. إشعاراً بأن الولاية السابقة هي ولاية التصرف وليست لغير الله إلا قبولها، ومن قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطاً بالله وخلفائه، ومن صار مرتبطاً بالله صار من حزب الله، ومن صار من حزب الله كان غالباً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]. ولو كان المراد بها المعاشرة لكان الأولى أن يقول: ومن يتخذ الله، أو: ومن صار ولياً لله، والحاصل: أن في لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف، وأنها بعد الرسول ليست لجملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائناً من كان، متعدداً أو منفرداً، سواء قلنا نزلت في على أو لم نقل، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه، ونزلت الآية في حقه، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ههنا، هم الموصوفون في الآية السابقة، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عين الأولى» (١).

وفي سورة المائدة أيضاً عند قوله تعالى في الآية (٦٧): ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية، فجدّه يدعى - كغيره من الإمامية - أن القراءة

الصحيحة كانت: «بَلَّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فِي عَلَيٍّ»، ويحمل التبليغ المأمور به النبي على ذلك فحسب، ويمنع إرادة العموم، ويُقيم الأدلة على ذلك رداً على مَنْ يدَّعي العموم، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامة علي رضي الله عنه بنص القرآن الكريم»^(١).

● الرجعة :

والمؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة، فلهذا نراه عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٥٦) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .. يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول: «وهذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها وصارت كالضرورة في هذه الأمة. وقد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بها على ابن الكواء في إنكاره الرجعة»^(٢).

● تحريف القرآن :

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل في القرآن، فإننا نجد عندما يسطر بقلوبه تعالى في الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ .. يحاول أن يتخلص من هذا النص الذي يجب عليه فيقول: «ولا ينافي حفظه تعالى للذِّكْرِ بحسب حقيقة التحريف في صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع في الصورة الماثلة له كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكما قال: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾»^(٣).

● موقف المؤلف من الصحابة :

لم نلاحظ على المؤلف في تفسيره هذا ما يدل صراحة على أنه يُكفّر أحداً من الصحابة، كما لاحظنا على ملا محسن في تفسيره، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحياناً يقف من الآيات التي وردت في شأن بعض الصحابة وما لهم من الفضل موقفاً يراد منه سلب هذا الفضل عنهم أو تقليل أهميته، وأحياناً ينسب إلى بعض الصحابة ما يكاد يكون تصريحاً منه بفسقهم أو كفرهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٤٤) من سورة آل عمران: ﴿... وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ نراه يصرف لفظ

(١) الجزء الأول ص ٢٤٣ - ٢٤٧ وراجع ما كتبه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]: ٢٠٦/١ - ٢٠٨.

(٢) الجزء الأول ص ٥٤.

(٣) الجزء الأول: ص ٤٠١، ٤٠٢ - والآية من سورة آل عمران: ٧٨، وفي الأصل تحريف وحذف وخلط بين الآيتين.

« الشاكرين » عن عمومه ويريد منه خصوص عليّ ونفر معه فيقول: « والمراد بالشاكرين ههنا: عليّ ونفر يسير بقوا عند رسول الله ﷺ حين انهزم المسلمون » هنا يروى رواية عليها دليل الوضع وسمته فيقول:

« روى عن الصادق: أنه لما انهزم المسلمون يوم أُحد عن النبي ﷺ انصرف إليها بوجهه وهو يقول: أنا محمد رسول الله، لم أُقتل ولم أمت، فالتفت إليه فلان وفلان فقالا: الآن يسخر بنا أيضاً وقد هُزِمنا، وبقي معه عليّ وأبو دجانة رحمه الله، فدعاه النبي ﷺ فقال: يا أبا دجانة؛ انصرف وأنت في حلٍّ من بيعتك، فأما عليّ فهو أنا، وأنا هو، فتحوّل وجلس بين يدي النبي وبكى وقال: لا والله، ورفع رأسه إلى السماء وقال: لا والله، لا جعلت نفسي في حلٍّ من بيعتك، إني بايعتك فإلى من أنصرف يا رسول الله؟ إلى زوجة تموت؟ أو ولد يموت؟ أو دار تخرب ومال يفنى وأجل قد اقترب؟ فَرَّقَ له النبي ﷺ، فلم يزل يُقاتل حتى قُتل، فجاء به عليّ إلى النبي فقال: يا رسول الله؛ أوفيت ببيعتي؟ فقال: نعم. وقال له النبي خيراً. وكان الناس يحملون عليّ النبي ﷺ الميمنة فيكشفهم عليّ، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبي فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع، فجاء إلى النبي فطرحه بين يديه وقال: سيفي قد تقطع، فيومئذ أعطاه النبي ذا الفقار، ولما رأى النبي ﷺ اختلاج ساقيه من كثرة القتال، رفع رأسه إلى السماء وهو يبكي وقال: يا رب، وعدتني أن تظهر دينك وإن شئت لم يعيك، فأقبل عليّ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ أسمع دويًا شديدًا، وأسمع: أقدم يا حيزوم، وما أهم أضرب أحداً إلا سقط ميتاً قبل أن أضربه، فقال: هذا جبريل وميكائيل وإسرافيل والملائكة، ثم جاء جبريل فوقف إليّ جنب رسول الله ﷺ فقال: يا محمد؛ إن هذه لهي المواساة، فقال النبي ﷺ: إن علياً مني وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكم» .. (إلى آخر الحديث). ونزل: ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (١).

ومثلاً نجد أن المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٤) وما بعدها إليّ آخر سورة الليل: ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ لا يصلها إلا الأتقى * الذي كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذي يوتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزئ * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾ يصعب عليه أن يعترف اعترافاً جازماً بأن الأتقى مراد به الصديق رضي الله عنه كما يقول المفسرون من أهل السنة، كما نراه حريصاً على أن يكون عليّ هو أولى الناس بهذا الشرف وهذا التنويه الإلهي، فلهذا نراه يقول ما نصه: « إن كانت الآيات نزلت في رجل خاص فالعنى عام، والأصل فيمن أعطى واتقى: عليّ، وفيمن بخل واستغنى هو الثاني، وقيل المراد بمن أعطى: أبو بكر

حيث اشترى بلالاً في جماعة من المشركين وكانوا يؤذونه فأعتقه، والمراد بالأشقى: أبو جهل وأمّية بن خلف» (١).

وفي سورة النور عند قوله تعالى في الآية (١١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾... الآية، يقول: «قد نُقِلَ في تفاسير الخاصة والعامّة أن الآيات نزلت في عائشة». ثم يروى السبب المعروف لنا، ثم يقول: «ونُقِلَ عن الخاصة أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة، روى عن الباقر أنه قال: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً، فقالت له عائشة: ما الذي يُحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ علياً وأمره بقتله، فذهب عليٌّ ومعه السيف، وكان جريج القبطي في حائط، فضرب عليٌّ باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب، فلما رأى علياً عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان، فوثب عليٌّ على الحائط، ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جريج مدبراً، فلما خشى أن يرهقه صعد في نخلة وصعد عليٌّ في إثره، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء، فانصرف عليٌّ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إذا بعثتني في أمر أكون فيه كالمسمار المحمى في الوبر أمضى علي ذلك أم أنثبت؟ قال: لا، بل تثبت، قال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذي صرف عنا سوء أهل البيت» (٢).

وفي سورة التحريم عند تفسيره لقوله تعالى في أولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾... الآيات، إلى آخر القصة. نراه يذكر سبب نزولها فيقول: «قال القمّي وغيره: سبب نزول الآيات أن رسول الله ﷺ كان في بيت عائشة أو في بيت حفصة، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضب، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! في يومي؟ وفي داري؟ وعلى فراشي؟ فاستحى رسول الله ﷺ فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسي، وأنا أفضى إليك سراً إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم.. ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني بشيء عن حفصة ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً، فقال لهال عمر: إن هذا حق فأخبرنا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم، قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن

يَسْمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه السورة: ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ .. يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما هموا من قتله، و﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ ﴾ أى خبرها وقال: لِمَ أَخْبَرْتَ بِمَا أَخْبَرْتُكَ؟ ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ [التحریم: ٣] يعنى لم يخبرهم بما يعلمه مما هموا به من قتله» (١).

● عتاب النبي ﷺ:

ويرى المؤلف - كغيره من الشيعة - أن ما ورد من الآيات مشتتلاً على عتاب النبي ﷺ، أو على التهديد والوعيد للنبي ﷺ - على فرض وقوع المعصية منه - إنما هو من قبيل: «إياك أعنى واسمعى يا جارة» والذي دفعه إلى ذلك، هو ارتفاعه بمقام النبوة عن أن يُوجَّه إليه عتاب من الله، أو لوم وتهديد على فرض صدور المعصية.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبَتُّنَا لَقَدْ كَدْتِ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ . نجده يقول: وقد ورد فى الأخبار أن هذه الآية من قبيل: «إياك أعنى واسمعى يا جارة» وورد أنها من فرية الملحدين، ولو كان الخطاب له - ﷺ - من غير كونه عن طريق «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، ولم تكن فرية لم يكن فيها ازدراء به - ﷺ - بل يكون صدر الآية ازدراءً بالمُلاحدين، لإشعاره بأنهم بالغوا فى فتنته، يعنى أنهم ما أهملوا شيئاً مما يُفتن به، ولو كان المفتون غيرك ولم يكن التثبيت من الله لفتن، وذيلها ببيان امتنانه عليه بأن ثبتته فى مثل هذا المقام» (٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الكهف: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «وهذا على إياك أعنى واسمعى يا جارة» (٣).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ... الآيات - إلى قوله: ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ [عبس: ١ - ١٠] .. يقول ما نصه: «وقد استبعد بعض العلماء كون الآيات فى رسول الله لبعده مقامه عن العبوس والتولى عن الأعمى، وعلو مرتبته عن أن يصير مُعَاتَبًا بمثل هذا العتاب.

أقول: لو كانت الآيات فيه والعتاب له لم يكن فيه نقص لشأنه، ولم يكن منافياً لما قاله تعالى فى حقه من قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .. فإن إقباله وإدباره، وعبوسه، واستبشاره، كان لله، فإن عبوسه إن كان لمنع الأعمى عن نشر دين الله، وإسماع كلماته لأعداء الله وأعداء دينه وتقريبهم إلى دينه، لم يكن فيه نقص فيه

وفى خُلُقِه، وأما أمثال العتاب له ﷺ - فإنها تدل على تفخيمه والاعتداد به، فإن كلها كانت بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، فالخطاب والعتاب يكون لغيره لا له، وكذا نسبة الله زراية عيب العبوس والقول له يكون متوجهاً إلى غيره فى الحقيقة».

● الناحية الفقهية فى هذا التفسير :

أما الناحية الفقهية فى هذا التفسير: فإنها تظهر فيه بمظهر التأثير بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التى يخالفون فيها من عداهم، غير أن المؤلف يطوى الكلام طياً، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية. ولا يُشغل نفسه بكثرة الأدلة والبراهين، ولا بالدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفه، كما يفعل الطبرسى مثلاً.

● نكاح الكتابيات :

فمثلاً عندما فسّر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «قد اختلفت الأخبار والأقوال فى نكاح النساء من أهل الكتاب، وكذا فى أن هذه الآية منسوخة بآية حرمة نكاح المشركات، وحرمة الأخذ بعصم الكوافر، أو ناسخة، وكذا فى الدوام والتمتع بهن. وقول النبى ﷺ وآله: «إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها» ينفى كونها منسوخة» (١).

● المتعة :

وعندما فسّر قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ ... نجده يقول: «وفى لفظ الاستمتاع، وذكر الأجور، وذكر الأجل، وعلى قراءة «إلى أجل» - دلالة واضحة على تحليل المتعة، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئاً من الفريضة ﴿مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ .. وفيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به.

وعن الباقر: لا بأس بأن تزيد ما وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحلتك بأجر آخر برضا منها ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها، وعدتها حيضتان .. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فحلل المتعة عن علم، ولغايات منوطة بالمصالح والحكم» (٢).

● فرض الرجلين في الوضوء:

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ ... الآية، يقول: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالجر عطف على ﴿رُءُوسِكُمْ﴾، وبالنصب على محل ﴿رُءُوسِكُمْ﴾، وعطفه على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ مع جواز العطف على ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ في غاية البعد، غاية الأمر أنها في هذا العطف محتملة مجتمعة كسائر أجزاء الآية محتاجة إلى البيان، ولم يكن رأينا مبيناً للقرآن لاستلزامه الترجيح بلا مرجح، بل المبين: من نص الله ورسوله عليه، لا من نصبه لبيانه، فإن نصب شخص إنساني لبيان القرآن وخلافة الرحمن ليس بأقل من نصب الأصنام لعبادة الآنام، أو العجل المصنوع للعوام، وتفصيل الوضوء وكيفية قد وصل إلينا مفصلاً مبيناً عن أئمتنا المعصومين من الله ورسوله، وقد فصله الفقهاء رضوان الله عليهم، فلا حاجة إلى التفصيل هنا»^(١).

● ميراث الأنبياء:

والمؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يُورثون كما يُورث سائر الناس، ولكننا نلاحظ عليه أنه لم يقف من الآيات التي استدل بها علماء مذهبه على أن الأنبياء يُورثون المال موقفاً فيه تلك المغالاة وهذا التطرف كالذي وقفه الطبرسي منها، بل نجده عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٥) من سورة مريم: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ .. يقول: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ في الإرث الصوري من التضييع والنزاع والخلاف، أو في الإرث المعنوي من الاختلاف وتضييع العباد، وهذا إشعار بأن دعاءه خال من مداخلة الهوى مقدمة للإجابة^(٢).

هذا هو كل ما قاله في هذه الناحية من الآية فأنت ترى أنه لم يقطع أن الآية في الإرث الصوري دون المعنوي، بل جاوز صدقها على كل منهما، ولم يدافع عن مذهبه هذا الدفاع العنيف الذي كان من الطبرسي عندما أراد أن يُقصر الإرث في الآية على الإرث الصوري. ونجده عندما تعرّض لقوله تعالى في الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ

داود ﴿... الآية﴾، يقرر أن الميراث هو ميراث ما ينبغي أن يرثه منه من الرسالة والعلم والمُلْك والسلطنة، ثم يقول: «ولذلك حذف المفعول الثاني»^(١)، يقول هذا أيضا ولا يحاول أن يُخرج الآية عن ظاهرها وسياقها كما حاول غيره.

● الغنائم:

ويرى المؤلف كغيره من علماء مذهبه أن الغنائم لا تختص بما أخذ من الكفار بطريق القهر والغلبة، بل تعم ذلك وكل ما استفاده الإنسان من أى وجه كان، كما يرى أن الخمس يقسم بين ذوى القربى وهو الإمام، ويتامى آل البيت، ومساكينهم، وأبناء سبيلهم، وذلك تعويض لهم من الله عن الصدقات التى هى أوساخ الناس.

يرى المؤلف هذا كله ويقرره فى تفسيره باختصار فيقول عند قوله تعالى فى الآية (٤١) ﴿... الآية﴾: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين»... الآية، ما نصه: ﴿... الآية﴾: «واعلموا أنما غنمتم من شيء».. اسم الغنيمة قد غلب على ما كان يؤخذ من الكفار بالقهر والغلبة حين القتال، وإلا فهى اسم لكل ما استفاد الإنسان من أى وجه كان وأى شيء كان، فعن الصادق: هى والله الرفاة يوماً بيوم ﴿... الآية﴾: «فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»، وقد فسر «ذوى القربى» بالإمام من آل محمد، فإنه ذو القربى حقيقة، وفسر الثلاثة الأخيرة بمن كان من قرابات الرسول، جعل ذلك لهم بدلا عن الزكاة التى هى أوساخ الناس تشريفاً لهم»^(٢).

وفى سورة الحشر عند قوله تعالى فى الآية (٧) ﴿... الآية﴾: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القربى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»... الآية، يقول: ﴿... الآية﴾: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القربى فله وللرسول ولذى القربى».. أى ذى قربى الرسول ﷺ، واليتامى والمساكين وابن السبيل من قرابات الرسول ﷺ، وقد خصص فى الأخبار كل ذلك بأقرباء الرسول ﷺ»^(٣).

● موقف المؤلف فى تفسيره من المسائل الكلامية:

وإننا لنجد المؤلف يتأثر بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل الكلامية فيوافقهم عليها فى تفسيره، ويخالفهم فى بعض آخر منها فيقول بما يقول به أهل السنة، فمن المسائل التى يوافق فيها المعتزلة مثلاً:

● رؤية الله:

فهو ينكر جوازها ووقوعها، ويجرى تفسيره لآيات الرؤية على هذه العقيدة. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿... الآية﴾: «وإذ قلتم يا موسى لن نُؤمن لك حتى نرى الله جهرة» نجده يقول ما نصه: «وورد أنه سئل الرضا: كيف يجوز أن يكون كلهم الله موسى بن عمران لا يعلم أن الله لا يجوز عليه الرؤية حتى

يسأل هذا السؤال؟ فقال: إن كليم الله علم أن الله منزّه عن أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلّمه وقرّبه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته، وكان القوم سبعمائة ألف، فاختر منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى إلى الطور وسأل ربه أن يكلمه ويسمعهم كلامه « وكلمه الله وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام - لا أن الله أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثاً منها - حتى سمعوه من جميع الوجوه. فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عليه بصاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فماتوا، فقال موسى: ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم، لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت من مناجاة الله إليك، فأحياهم وبعثهم. فقالوا: إنك لو سألت الله أن يرريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته، فقال موسى: يا قوم؛ إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بنى إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحتهم، فأوحى الله إليه: يا موسى؛ سلني ما سألوك فلن أؤخذك بهلهم، فعند ذلك قال موسى: ﴿ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لِن تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجِبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَهُوَ يَهُوَى، ﴿ فَيَسُوفُ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجِبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ ﴾ يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي، ﴿ وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ منهم بأنك لا ترى ﴿ [الأعراف: ١٤٣] ﴾ (١).

وفي سورة القيامة عند قوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣): ﴿ وَجْهَهُ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ إلى ربه ناظرة ﴿ .. يقول: ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أي إلى ربه المضاف لظهور الولاية وصاحبها في ذلك اليوم، أو إلى ربه المطلق لظهور آثاره، أي إلى آثاره ناظرة، أو منتظرة إلى ثواب ربه. روى عن أمير المؤمنين في حديث: « ينتهي أولياء الله بعد ما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى « الحيوان » فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقاً، فيذهب كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يشي بهم قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾، وإنما يعنى بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى. وفي الخبر: والناظرة في بعض اللغات هي المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿ فَنَاطِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥] أي منتظرة» (٢).

ومن المسائل التي يخالف فيها المعتزلة:

● السحر:

فهو يقول به ويعترف بحقيقته ويوضح لنا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ... الآية، حقيقة السحر

وكيفية تأثيره في المسحور وذلك حيث يقول: « والسحر اسم لقول أو فعل أو نقش في صفحة يؤثر في عالم الطبع تأثيراً خارجاً عن الأسباب والمعتاد، وذلك التأثير يكون سبب مزج القوى الروحانية مع القوى الطبيعية، أو يتسخير القوى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسحور الساحر، وهذا أمر واقع في الأمر ليس محض تخييل كما قيل.. وتحقيقه أن يقال: إن عالم الطبع واقع بين الملكوت السفلى والملكوت العلوى كما مر، وأن أهل العالمين تصرفاً بإذن الله في عالم الطبع بأنفسهم، أو أسباب من قبل النفوس البشرية، وأن النفوس البشرية إذا تجردت من علائقها، وصفت من كدورتها بالرياضات الشرعية أو غير الشرعية، وناسبت المجردات العلوية أو السفلية، تؤثر بالأسباب أو بغير الأسباب في أهل العالمين بتسخيرها إياهم، وجذبها لهم إلى عالمها، وتوجيههم في مراداتها شرعية كانت أو غير شرعية، وإذا كان التأثير كان من أهل العالم السفلى تسمى أسبابه سحراً، وقد يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به سحراً، وإذا كان من أهل العالم العلوى يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به معجزة وكرامة، وقد تتقوى في الجهة السفلية أو العلوية فتؤثر بنفسها من دون حاجة إلى التأثير في الأرواح، ويسمى ذلك التأثير والأثر أيضاً سحراً ومعجزة. فالسحر هو السبب المؤثر في الأرواح الخبيثة الذى خفى سببته، أو تأثير تلك الأرواح وآثارها في عالم الطبع بحيث خفى مدركها، ثم أطلق على كل علم وبيان دقيق قلماً يدرك مدركه، ويطلق على العالم بذلك العلم اسم الساحر، ومنه: ﴿يا أيها الساحر ادع لنا ربك﴾ [الزخرف: ٤٩] على وجه.. فيستعمل على هذا فى المدح والذم» (١).

وفى الآية (٤) من سورة الفلق نجد يعترف أيضاً بالسحر ويروي أن الرسول سحر بيد لبيد بن الأعصم وذلك حيث يقول: ﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾ .. أى من شر النفوس اللاتى يعقدن على الشعور والخيوط، وينفثن فيها، ويسحرون الناس بها. أو النساء اللاتى يفعلن ذلك .. ثم ساق حديث سحر الرسول ﷺ» (٢).

وهناك مسائل أخرى يوافق فيها المعتزلة، ومسائل أخرى يخالفهم فيها ويوافق أهل السنة، ولا أطيل بذكرها بعد أن ذكرت نموذجاً من كل طائفة، ومن أراد الرجوع إليها فليرجع إلى تفسيره للآيات التى تتعلق بهذه المسائل.

هذا .. ولا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيراً ما يهتم فى بعض المواضع بالمسائل النحوية، فنراه يذكر الأعراب التى فى الآية، كما يهتم فى بعض النواحي بالقراءات، وإن كان يعتمد فى كثير من الأحيان ما نسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها، كما نراه يذكر بعض النكات التى ترجع إلى نظم القرآن وأسلوبه ..

وبالجملة .. فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثره بعقيدته الشيعية، ونزعت الصوفية الفلسفية فى فهمه لكتاب الله تعالى .
والكتاب مطبوع فى جزئين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية .

* * *

الإمامية الإسماعيلية «الباطنية» وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

● كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم:

قلنا: إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقلنا: إنهم يلقبون بالباطنية أيضاً لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخلة في عداد طوائف المسلمين. وإنما هي في الأصل جماعة من الجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لا تُقهر، وأبصروا عزة المسلمين، فتية لا تغلب ولا تُكسر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلام والمسلمين، ورأوا أنه لا سبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة الحديد والنار، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرار، فسلكوا طريق الاحتيال الذي يوصلهم إلى مآربهم وأهوائهم، ليطفئوا نور الله بأفواههم، وخفى على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

● مؤسسو هذه الطائفة:

ظهرت بوادر هذه الفتنة، ونبتت نواة هذه الطائفة: زمن المأمون، وبهد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القدّاح، وكان مولى جعفر بن محمد الصادق. ومحمد بن الحسين المعروف بـ «ذيدان»، وجماعة كانوا يدعون «الجهاريجة» (١).

اجتمع هؤلاء نفر، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده، فلما خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، واستطار خطرهما إلى كثير من بلاد المسلمين. وما زالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام (٢).

● احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم:

رأى المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف في وجه المسلمين صراحة وجهاراً، فاحتالوا - كما قلنا - على الوصول إلى مآربهم بشتى الحيل، فاندسوا بين المسلمين باسم الحذب على الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والموالاة لأهل البيت، وتظاهروا

(١) أى العلماء الأربعة.

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٦٦، والتبصير في الدين ص ٨٣.

بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستاراً لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب في العقيدة والسياسة .

ومن المحزن أن يدعى هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين، فيلقى هذا الادعاء رواجاً وقبولاً من أناس ضعفاء أغمار، غرهم التباكي على آل البيت والتحزن عليهم، فتحركت أحقاد دفينه، واثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرها .

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين، ورسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر والخديعة، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتتيال على الطعام بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة والإلحاد، وتدرجوا في وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب وهي ما يأتي:

● مراتب الدعوة عند الباطنية:

أولاً - الذوق: وهو تفرس حال المدعو. هل هو قابل للدعوة أو لا؟ ولذلك منعوا من إلقاء البذر في السبخة .. أى دعوة من ليس قابلاً لها، ومنعوا التكلم في بيت فيه سراج .. أى في موضع فيه فقيه أو متعلم .

ثانياً - التأنيس: باستمالة كل واحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه، من زهد، وخلاعة، وغيرهما، فإن كان يميل إلى زهد زينته في عينه وقبح نقيضه، وإن كان يميل إلى الخلاعة زينتها وقبح نقيضها، ومن رآه الداعي مائلاً إلى أبي بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ في تأويل الشريعة، ولهذا استصحب النبي أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه في الغار تأويل الشريعة .. وهكذا حتى يحصل له الأُنس به .

ثالثاً - التشكيك في أصول الدين وأركان الشريعة: كأن يقول للمدعو: ما معنى الحروف المقطعة في أوائل السور؟ ولم تقضى الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولم يجب الغسل من المنى دون البول؟ ولم اختلفت الصلوات في عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثاً، وبعضها أربعاً؟ وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككون بالرجوع إليهم والأخذ عنهم .

رابعاً - الرباط: وهو أمران: أحدهما: أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشي لهم سراً، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١] .. وثانيهما: حوالبته على الإمام في حل ما أشكل عليه من الأمور التي أُلقيت إليه، فإنها لا تعلم إلا من قبل الإمام .

خامساً - التدليس: وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم.

سادساً - التأسيس: وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه.

سابعاً - الخلع: وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

ثامناً - السلخ: وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون في تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم^(١).

فأنت ترى أن الباطنية قد توسلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين في عقائدهم، وكأنهم رأوا أن القرآن ما دام موجوداً بين المسلمين ومحفوظاً عندهم يرجعون إليه في أمور الدين، ويهتدون بهديه كلما نزلت بهم نازلة، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله، وصرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يجدون في تأويل نصوص القرآن كما يحبون. وعلى أى وجه يروونه هدماً لتعاليم الإسلام، الذى أصبح قذى فى أعينهم، وشجى فى حلوهم!!

وحرصاً منهم على أن تكون دعواهم فى تأويل القرآن مقبولة لدى من يستخفونه .. قالوا: «إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون، ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت، ولذلك قال عليه السلام - لما قيل: ومن أين يُعرف الحق بعدك؟ - : «ألم أترك فيكم القرآن وعترتى»؟ .. وأراد به أعقابه، فهم الذين يطلعون على معانى القرآن»^(٢).

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجاً عند عقلاء المسلمين، ولم يجد غباوة فى عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين .. وكيف يمكن أن يجد زواجاً عند هؤلاء أو غباوة من أولئك، وقد علموا وتيقنوا بأن الألفاظ إذا صُرِفَت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشريعة، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له. بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى.

(١) راجع المواقف: ٣٨٩/٨ - ٣٩٠، والفرق بين الفرق ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) فضائح الباطنية ص ٦.

● إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم:

ومع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن باباً للوصول إلى أغراضهم، فإننا لم نقف لهم على كتب مستقلة في تفسير كتاب الله تعالى، ولم نسمع أن واحداً منهم كتب تفسيراً جامعاً للقرآن كله، سورة سورة، وآية آية، ولعل السرفى ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية، ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لا يستطيعون تذليلها، ولا يقدرّون على التخلص منها.

وكل الذى وجدناه لهم فى تفسير القرآن - أو تأويله على الأصح - إنما هو نصوص متفرقة فى بطون الكتب، تعطينا إلى حد ما صورة واضحة، وفكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم، ومبلغ تهجمهم على القول فيه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وأرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين اثنين:

الأول: موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم.

والثانى: موقف الباطنية المتأخرين منه أيضاً.

ونريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية ومن قاربهم فى الزمن، وبالتأخرين: البابية والبهائية. وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذى من أجله عددناهم من قبيل الباطنية.

* * *

موقف متقدمى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

علمت أن الغرض الأول الذى تقوم عليه دعوة الباطنية وتتركز فيه : هو العمل على هدم الشرائع عموماً، وشريعة الإسلام على الخصوص . فكان لزاماً عليهم وقد قاموا يحاربون الإسلام - أن يُعملوا معاول الهدم فى ركن الإسلام المكين، وهو القرآن الكريم، وقد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معولاً أصلب ولا أقوى على تنفيذ غرضهم من معول التأويل والميل بالآيات القرآنية إلى غير ما أراد الله .

كتب عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنانى رسالة طويلة جاء فيها: « .. وإنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وتدعوهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة فى السماء، وإبطال الجن فى الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم» (١).

رأى هذا الزعيم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معاون لهم على تركيز عقائدهم، ورأى أنه أهل الباطن جميعاً فقالوا: « للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللُّغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللُّب إلى القشر، والتمسك بظاهره معدَّب بالشقشقة فى الكتاب، وباطنه مؤدِّ إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الحديد: ﴿ فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سَوْراً لَّهُ بِأُتُنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (٢).

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم، ثم اعجب ما شاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية الكريمة على قاعدتهم التى قعدوها؟ ولست أدري ما صلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة فى شأن من شئون الآخرة ينساق إلى فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء.

● من تأويلات الباطنية القدامى :

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم فى شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتى :

«الوضوء» عبارة عن موالة الإمام، و«التييم» هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذى هو الحجَّة، و«الصلاة» عبارة عن الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى فى

(١) الفرق بين الفرق ص ١٨٠، وبمثل هذه العبارة يستدل أبو المنصور البغدادي على أنهم

(٢) المواقيف: ٣٨٨/٨.

الآية (٤٥) من سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ .. و«الغسل» تجديد العهد ممن أفشى سراً من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى «الاحتلام». و«الزكاة» عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين. و«الكعبة» النبي. و«الباب» على. و«الصفاء» هو النبي. و«المروة» على. و«الميقات» الإيناس. والتلبية» إجابة الدعوة. و«الطواف بالبيت سبعاً» موالاة الأئمة السبعة. و«الجنة» راحة الأبدان من التكاليف. و«النار» مشقتها بمزاولة التكاليف (١).

وتأولوا أنهار الجنة فقالوا: «أنهار من لبن» أى معادن العلم؛ اللبن العلم الباطن، يرتفع به أهلها، ويتغذون به تغذية تدوم به حياتهم اللطيفة، فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم. «وأنهار من خمر» هو العلم الظاهر. «وأنهار من عسل مصفى» هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة (٢).

كذلك نجد الباطنية يرفضون المعجزات، ولا يعترفون بها للرسول، وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحي من الله، بل وزادوا على ذلك فأنكروا أن يكون فى السماء ملك وفى الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجال، ويأجوج ومأجوج، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تُكذِّب دعواهم هذه، فتخلَّصوا منها بمبدأهم الذى ساروا عليه فى تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن، وأولوا هذه الآيات بما يتفق ومذهبهم، فتأولوا «الملائكة» على دعائهم الذين يدعون إلى بدعتهم. وتأولوا «الشياطين» على مخالفهم. وتأولوا كل ما جاء فى القرآن من معجزات الأنبياء عليهم السلام، فقالوا: «الطوفان» معناه طوفان العلم ... أغرق به المتمسكون بالسنة. و«السفينة» حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته. و«نار إبراهيم» عبارة عن غضب نمرود عليه لا النار الحقيقية. و«ذبح إسحاق» معناه أخذ العهد عليه. و«عصا موسى» حُجَّتْه التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشُّبه لا الخشب. «وانفلاق البحر» افتراق علم موسى فيهم عن أقسام. و«البحر» هو العلم. و«الغمام الذى أظلمهم» معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم. و«الجراد والقمل والضفادع» هى سؤالات موسى والتزاماته التى سلَّطت عليهم. و«المن والسلوى» علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى. و«تسبيح الجبال» معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين. و«الجن الذين ملكهم سليمان بن داود» باطنية ذلك الزمان. و«الشياطين» هم الظاهرية الذين كُلفوا بالأعمال الشاقة. و«عيسى» له

(١) المواقف: ٨ / ٣٩٠.

(٢) فضائح الباطنية للغزالي ص ١٣.

أب من حيث الظاهر، وإنما أراد بالأب المنفى: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا - لعنهم الله - أن أباه يوسف النجار. و«كلامه في المهدي» اطلعه في مهد القلب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القلب. و«إحياء الموتى من عيسى» معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن. و«إبرأؤه الأعمى» عن عمى الضلالة. و«الأبرص» عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين. و«إبليس وآدم» عبارة عن أبي بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر. و«الذجال» أبو بكر، وكان أعوراً إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن. و«يأجوج ومأجوج» هم أهل الظاهر^(١).

بل بالغوا فقالوا: «إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس والحيل، طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة»^(٢).

هذا.. وإن مما زعمته الباطنية: أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك قوله تعالى في الآية (٩٩) من سورة الحجر: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.. وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

كذلك استحلت الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم، بحجة أن الأخ أحق بأخته، والأب أولى بابنته.. وهكذا: ولست أدري على أى وجه تأولوا آية النساء التي حرمت ذلك، ومنعته منعاً باتاً!!

ويقول القيرواني في رسالته التي أرسلها إلى سليمان بن الحسن: «.. وينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى بن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها.. وبذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الاسراء: ٨٥] لما لم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن عليها برهان سوى المخزقة بحسن الحيلة والشعوذة، ولما لم يجد الحق في زمانه عنده برهاناً قال له: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] لأنه كان صاحب الزمان في وقته».

ثم قال في آخر هذه الرسالة: «وما العجب من شئ كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة في حسنها، فيُحرّمها على نفسه ويُنكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته، وبنته من الأجنبي، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرّم عليهم الطبيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله

الذى يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يروونه أبداً من البعث من القبور، والحساب، والجنة، والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته، ولذريته بعد وفاته خولاً، واستباح بذلك أموالهم بقوله: ﴿لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى ٢٣].

فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج؟

ثم قال لسليمان بن الحسن فى هذه الرسالة: «... وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها محرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئاً لكم ما نلتهم من الراحة عن أمرهم»^(١).

ومن جملة تأويلاتهم الباطلة التى يتوصلون بها إلى هواهم النفسى، ومأربهم الشخصى، أنهم بعد أن يلقوا على المدعو ما يشككونه به، وتتطلع إلى معرفته من جهتهم نفسه، يقولون له: لا نظهره إلا بتقديم خير عليه، فيطلبون مائة وتسعة عشر درهماً من السبيكة الخالصة. ويقولون: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].. فالحاء والسين والنون والألف إذا جمع عددها بحساب الجمل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر»^(٢).

ومن ذا الذى قال إن القرآن يخضع فى تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجمل؟.. اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرّف أو زنديق يريد أن يضل الناس ويحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله!!

كذلك نجد الباطنية يحرضون على نفى وجود الإله الحق، والنبي المرسل محمد ﷺ، ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكليف، فتراهم يقولون للمبتدئ: «إن الله خلق الناس واختار منهم محمداً (ﷺ)، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أتدرى من محمد؟ فيقول: نعم، محمد رسول الله، خرج من مكة، وادّعى النبوة، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة. فيقول له: ليس هذا الذى تقول إلا كقول هؤلاء الحمير - يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام - إنما محمد أنت. فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمداً، فيقول له: الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) التصير فى الدين ص ٨٧.

[التوبة: ١٢٨] .. وهؤلاء الحمير يقولون: من مكة .. فيقول له الغر الغمر: على أى معنى تقول أنا محمد؟ فيقول: خلقتك وصورك خلقة محمد، فالرأس بمنزلة الميم، واليدان بمنزلة الحاء، والسرة بمنزلة الميم والرجلان بمنزلة الدال، وكذلك أنت على أيضاً، عينك هي العين، والأنف هي اللام، والفم الياء» (١).

وبهذا يوهمه أنه هو محمد الذي جاء ذكره في القرآن، أما ما يدعى من وجود رسول اسمه محمد، فهذا ظاهره غير مراد.

ولأجل أن يوهمه أيضاً بأنه لا إله موجود على الحقيقة، وما جاء في القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة، نجده يقول للمبتدئ: **إِن الْمِرَادِ بِإِثْبَاتِ الذَّاتِ يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِكَ، وَيُؤْوَلُونَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾** [قریش: ٣] .. ويقولون: الرب هو الروح والبيت هو البدن.

ولقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه هو الذي كلم موسى بقوله: **﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾** [طه: ١٢] .. وفي هذا يروى لنا البغدادي صاحب الفرق بين الفرق قصة رجل دخل في دعوة الباطنية، ثم وفقه الله لتركها والرجوع لرشده .. يحكى هذا الرجل قصته للبغدادي فيقول: «إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وكل من ادعى النبوة: كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، وأحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات، واستعبدوهم بشرائعتهم - قال الحاكى للبغدادي: ثم ناقض الذي كشف لى هذا السر بأن قال: ينبغي أن تعلم أن محمد ابن إسماعيل بن جعفر هو الذي نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: **﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾** .. ثم قال: فقلت: سخنت عينك! تدعوني إلى الكفر برب قديم خالق للعالم، ثم تدعوني مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلهاً مرسلًا لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذباً، فالذي زعمت أنه أرسله أكذب، فقال: إنك لا تفلح أبداً، وندم على إفشاء أسراره إلى وتبت من بدعتهم» (٢).

فانظر إليهم - لعنهم الله - كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، ويدعون أنه كلام إلههم المزعوم محمد بن إسماعيل!! .. أليس هذا غلواً في الإلحاد؟ وإغراقاً في الكفر والعناد؟.

وبين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، وهو يكشف لنا عن نواياهم ويفضح أسرارهم وخباياهم. وهو لمحمد بن مالك اليماني أحد علماء القرن الخامس الهجري، ولا أريد

أن أطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازى القوم، ولكن أكتفى بذكر نبذة من الكتاب. ضمنها المصنّف ما شهد به بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهراً بدخوله في زمرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه عنهم من أباطيل وأضاليل، وإنما اخترت هذه النبذة بالذات، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل. وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل!!

● مقالة محمد بن مالك اليماني في الباطنية:

يقول محمد بن مالك اليماني: «أول ما أشهد به وأشرحه، وأبينّه للمسلمين وأوضّحه، أن له - يريد على بن محمد الصليحي زعيم باطنية اليمن في وقته - نواباً يسميهم الدعاة المأذونين، وآخرين يلقبهم المكّلبين، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد، لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل، وينقبضون عن كل عاقل، ويلبّسون على كل جاهل، بكلمة حق يراد بها الباطل، ويحضونه على شرائع الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام، كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه، فيقيم أكثر من سنة يمنعون به، وينظرون صبره، ويتصفحون أمره. ويخدعونه بروايات عن النبي ﷺ مُحرفة، وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يعلمونه، والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، وتدبر القرآن ورموزه، واعرف مثله ومثوله، واعرف معاني الصلاة والطهارة، وما روى النبي ﷺ بالرموز والإشارة، دون التصريح في ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لمثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها، وقف على باطنها ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه. فيقول: عمّ أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] (١). فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، وكذلك الصلاة، من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضاً فالصلاة والزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان، والزكاة زكاتان، والصوم صومتان، والحج حججان، وما خلق الله سبحانه من ظاهرٍ إلا وله باطن، يدل على ذلك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].. ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن؟ فالظاهر ما تساوى به الناس، وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: ﴿وَمَا أَمْنُ مَعَهُ

(١) في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾ [سبأ: ١٣].. فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

و«الصلاة» و«الزكاة» سبعة أحرف^(١) دليل على محمد وعلى صلى الله عليهما، لأنهما سبعة أحرف، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة، فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبي ﷺ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة، لأن مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حُظِرَ عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قَرَّبَ قَرِيبًا لِيَكُونَ لَكَ سَلْمًا وَنَجْوَى، ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثني عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعى: يا مولانا؛ إن عبدك فلاناً قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه إثنا عشر ديناراً، فيقول: اشهدوا أنى قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: ﴿وَيُضَعُ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون: الحمد لله الذى وضع عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك^(٢). ثم يقول له ذلك الداعى - الملعون - بعد مدة: قد عرفت الصلاة وهى أول درجة، وأنا أرجو أن يُبَلِّغَكَ اللهُ إِلَى أَعْلَى الدَرَجَاتِ، فأسأل وابحث، فيقول: عمّ أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر والميسر، اللذين نهى الله تعالى عنهما: هما أبا بكر وعمر لخالفتهما على على، وأخذهما الخلافة دونه، فأما ما يُعْمَلُ مِنَ العَنْبِ وَالزَّيْبِ وَالحَنْطَةِ وغير ذلك فليس بحرام، لأنه مما أنبتت الأرض، ويتلو عليه: ﴿قُلْ مِنْ حَرَمِ زِينَةِ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالتَّطَيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]... إلى آخر الآية. ويتلو عليه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ [المائدة: ٩٣].. إلى آخر الآية، والصوم: الكتمان، فيتلو عليه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] يريد كتمان الأئمة فى وقت استتارهم خوفاً من الظالمين، ويتلو عليه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام لقال: فلن أظعم اليوم شيئاً، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغياناً وكفراً، وينهمك إلى قول ذلك الداعى الملعون، لأنه أتاه بما يوافق هواه، والنفس أمارة بالسوء.. ثم يقول له: ادفع النجوى تكن لك سلماً ووسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثني عشر ديناراً، فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا؛ عبدك فلان قد

(١) لعله عددهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين.

(٢) يشير إلى الآيتين ٢ - ٣ من سورة الشرح.

عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل في رمضان، فيقول له: قد وثقتَه وأمنتَه على سرائرنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعتُ عنه ذلك، ثم يقيم بعد ذلك مدة، فيأتيه ذلك الداعي الملعون فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات، فأعرف الطهارة ما هي، ومعنى الجنابة ما هي في التأويل، فيقول له: فسرتُ لي ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره، وأن الجنابة هي موالة الأضداد، أضداد الأنبياء والأئمة، فأما المنى فليس بنجس، منه خلق الله الأنبياء، والأولياء، وأهل طاعته، وكيف يكون نجساً وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب، لأنهما نجسان، وإنما معنى: ﴿وإن كنتم جنبا فاطهروا﴾ [المائدة: ٦] معناه: وإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذي هو حياة الأرواح، كالماء الذي هو حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠].. وقوله: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق﴾ [الطارق: ٥ - ٦].. فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، ويوهمون ذلك المحدث بهذه المقالة، ثم يأمر ذلك الداعي أن يدفع اثني عشر ديناراً، ويقول: يا مولانا؛ عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك، فيقول: اشهدوا أنني قد حللت له ترك الغسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعي الملعون: قد عرفت أربع درجات، وبقي عليك الخامسة، فاكشف عنها، فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك، ويتلو عليه: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] فيقول له: ألهمني إياها ودلني عليها، فيتلو عليه: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢].. ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا؟ فيقول: وكيف لي بذلك؟ فيتلو عليه: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ [الليل: ١٣].. ثم يتلو عليه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ [الأعراف: ٣٢].. والزينة ههنا: ما خفى على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون وذلك قوله: ﴿ولا يبدن زينتهن إلا لبعوثهن﴾ [النور: ٣١].. والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه: ﴿وحوور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٣].. فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب، وأهل العقول دون الجهال، لأن المستحسن من الأشياء ما خفى، ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة، وسميت الجن جناباً لا ختفاءهم عن الناس، والجنة المقبرة لأنها تستتر من فيها، والترس الجن لأنه يستتر به، فالجنة ههنا: ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقول،

فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكاً، ويقول لذلك الداعي الملعون: تَلَطَّفْ فِي حَالِي، وَبَلِّغْنِي إِلَى مَا شِئْتَنِي إِلَيْهِ، فيقول: ادفع النجوى اثني عشر ديناراً تكون لك قرباناً وسلاماً، فيمضى به فيقول: يا مولانا؛ إن عبدك فلاناً قد صَحَّتْ سريرته، وصفت خبرته وهو يريد أن تُدخِلَه الجنة، وتُبلِغَه حد الأحكام، وتزوِّجَه الحور العين، فيقول له: قد وثَّقته وأمَّنته؟ فيقول: يا مولانا؛ قد وثَّقته وأمَّنته وخبرته فوجدته على الحق صابراً، ولأنعمك شاكراً، فيقول: عَلَّمْنَا صَعْبَ مستعصب لا يحمله إلا نبي مرسل، أو مَلِكٌ مُقَرَّبٌ، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها، فيقول سمعا وطاعة لله ولمولانا، فيمضى به إلى بيته فيبيت مع زوجته حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع ويدعوه له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعي الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا فادفع قربانك، فيدفع اثني عشر ديناراً ويصل به ويقول: يا مولانا؛ إن عبدك فلاناً يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جن الليل، ودارت الكؤوس، وحميت الرؤوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوى الملعونة حریمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، وأطفأوا السراج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده، ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعي الملعون وجميع المستجيبين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم، ووضع عنكم أوزاركم، وحطَّ عنكم آصاركم، ووضع عنكم أثقالكم، وأجلَّ لكم بعض الذي حرَّم عليكم جهالكم ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٢٥].

قال محمد بن مالك - رحمه الله تعالى - هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم، والله تعالى لهم بالمرصاد، والله تعالى على شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعت عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم، والله يشهد على جميع ما ذكرته، عالم به، ومن تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة، والناس أجمعين، وأخزى الله من كذب عليهم، وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً، ومن حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرج من حول الله وقوته إلى حول الشيطان وقوته... (١).

وبعد .. ألسنت ترى معنى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس ولا يستند إلى برهان، وإنما هي أوهام وأباطيل، غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين، وليدخلوهم في زمرة الملحدين وحزب الشياطين؟ أعتقد ذلك، وأظن أن سؤالاً يدور بخلد القارى هو: كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعانى التى نُقلت عنهم للفظ الواحد؟ أليس هذا دليلاً على عدم صحة كل ما يُنسب إليهم؟ .. وألحق أن السؤال وارد، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالي من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلمتهم، ويتفاوت نقل المذهب عنهم^(١).

* * *

موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

● تمهيد .. فى بيان انتشار الباطنية فى البلاد الآن وتعدد ألقابهم:

قلنا إن الباطنية يُعرفون بأسماء عدة، وقلنا إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا فى كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، ويُعرفونه بالبهرة أو الإسماعيلية، وزعيمهم أغا خان الزعيم الإسماعيلية المعروف، ويوجدون فى بلاد الأكراد ويعرفون بـ «العلوية» حيث يقولون: على هو الله. ويوجدون فى تركيا ويعرفون بـ «البكداشية» وفى مصر جماعة من البكداشية من أصل البانى يقيمون فى الجبل المعروف بالمغاورى^(١). ويوجدون فى بلاد العجم ويُعرفون بـ «البابية». ويوجدون فى فلسطين ويُعرفون بـ «البهائية» ومنهم جماعات فى بلاد متفرقة^(٢)، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى «القاديانية»، وهى أحدث فرقة عهداً، وأقربها ظهوراً.

هذه الفرق التى تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأى فى التأويل الباطنى للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها ومشرها.

ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم. غير أننا لم نقف على شئ من ذلك، اللهم إلا شيئاً يسيراً للبابية والبهائية. لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة^(٣) وموقفها من كتاب الله تعالى، لأن ما وصلنا عنها - وإن قل - فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

واعتمادنا فى كل ما نكتب: على بعض الكتب التى وصلتنا عنهم، وعلى ما نشر فى المجالات العلمية من البحوث التى تدور حولهم، فنقول وبالله التوفيق:

(١) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر وذلك لما ظهر من فساد حالهم وسوء فعالهم.

(٢) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، طرد البهائيين من مصر، والاستيلاء على مركزهم العام، وتحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وقد تم ذلك فى حفل عام، سنة ١٩٦١.

(٣) البابية والبهائية فى واقع الأمر طائفة واحدة، نسبت إلى الباب زعيمها الأول فقيل لها «بابية»، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثانى، فقيل لها «بهائية» كما هو موضح بعد.

البابية والبهاية

● كلمة إجمالية عن نشأة البابية والبهاية:

البابية: نسبة إلى الباب، وهو لقب ميرزا عليّ محمد، الذي ابتدع هذه النحلة، وإليه تُنسب هذه الطائفة، باعتباره المؤسس الأول لها.

والبهاية: نسبة إلى بهاء الله، وهو لقب ميرزا حسين عليّ، الزعيم الثاني للبابية، وإليه تُنسب هذه الطائفة، باعتباره المؤسس الثاني لها.

وأصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا عليّ محمد، الملقب بالباب، والمولود في سنة ١٢٣٥ هجرية، توفي عنه والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه، فربى في حجر خاله ميرزا سيد عليّ، ونشأ معه في مدينة شيراز بجنوب إيران، واشتغل معه بالتجارة، ولما بلغ سنه الخامسة والعشرين ادعى أنه الباب - والباب عند الشيعة معناه نائب المهدي المنتظر - وكان ادعاؤه هذا في سنة ١٢٦٠ هجرية، وما لبث أن وصلت هذه الدعوة إلى طائفة من الجاهلين فصدقوا بها، وتتابعوا عليها، وكان عدد من صدّقه في أول الأمر ثمانية عشر رجلاً، فسماهم بكلمة «حى» لأن عدد حرفيها بحساب الجُمَّل ثمانية عشر، ثم أمر أتباعه هؤلاء بالانتشار في إيران وبلاد العراق، يبشرون به وبدعوته، وأوصاهم بكتمان اسمه حتى يُظهره هو بنفسه، ولما حج وفرغ من أعمال الحج أعلن دعوته في المجتمع الكبير فاشتهر اسمه، وذاعت دعوته، فثارت عليه طوائف المسلمين، وقاموا في سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

وقد عقد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهرت ما في دعوته من غواية وضلال، فكفّره بعض العلماء، ورماه بعض آخر منهم بالجنون، فاعتقله الوالي في سجن شيراز، ثم في سجن أصفهان، ثم في طهران، ثم في أذربيجان. وفي عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابين ومخالفهم، وقامت بينهم حرب طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فعلق في ميدان مدينة تبريز، وقُتل رمياً بالرصاص، وذلك في سنة ١٢٦٥ هجرية.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم في شأن من ينوب عنه، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة، من قبيل النبوة، والوصاية، والولاية، وأمثالها، وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨ هجرية انتقاماً لزعيمهم الباب، ولما خاب سعيهم وفشلوا في هذه المؤامرة، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابين، وتسوقهم إلى التحقيق، فقتل من قُتل، ونُفي من نُفي، وكان من بين زعمائهم في هذا الوقت - وقت الاضطهاد - ميرزا حسين عليّ الملقب فيما بعد: «بهاء الله».

● بهاء الله:

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هجرية، وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة في

وقته، فلما قام الباب واشتهر أمره صدّقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هجرية، وهى محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قُبض على بهاء الله وسُجن نحو أربعة أشهر، ثم أُفْرِج عنه وأُبعد إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هجرية، ومكث بها اثني عشر عاماً، يدعو الناس إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب وكان يشير إليه بلفظ «مَنْ يُظْهِرَهُ اللَّهُ» وهناك تجمّع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين، وتسموا حينئذ بالبهايين، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تُفضى إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة، فأرسل إليها ومكث بها نحواً من أربعة أشهر، ثم نُفى إلى أدرنة^(١) ومكث بها نحواً من خمس سنوات، ثم نُفى منها إلى عكا من بلاد الشام سنة ١٢٨٥ هجرية، وبقي بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هجرية، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس (المولود سنة ١٨٤٤م والثوفى سنة ١٩٢١م) والملقب «عبد بهاء»، فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف فيه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتباع البهاء فانشقوا عليه، والتف فريق منهم حول أخيه الميرزا على، وألّفوا كتباً فى الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء^(٢).

● الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى :

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريباً، فإننا نجد لها ليست بالفرقة المحدثّة فى عقائدها وتعاليمها، بل هى فى الحقيقة ونفس الأمر وليدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمة، وآراء فلسفية، ونزعات سياسية. ثم درجت تحذو وحذو الباطنية الأوّل، وتترسم خطاهم فى كل شيء، وتهذى فى كتاب الله، فتأولته بمثل ما تأولوه، لتصرف عنه قلباً تعلقت به ونفوساً اطمأنت إليه.

والذى يقرأ تاريخ الباطنية الأوّل، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل، ثم يقرأ تاريخ البابية والبهائية، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح الباطنية حلّت فى جسم ميرزا على، وميرزا حسين على، فخرجت للناس أخيراً باسم البابية والبهائية.

(١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه الملقب بصبح أزل - وكان ممن رفض دعوى أخيه، وأتباعه يُعرفون بالأزلية - فتنة فى أدرنة، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة، فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا، ونفت يحيى وأتباعه إلى قبرص.

(٢) لخصنا هذا البحث التاريخي من مقال لأبى الفضائل الإيراني منشور بمجلة المقتطف الجزء التاسع، السنة العشرين، ومن مقال السيد محمد الخضر حسين المنشور بمجلة نور الإسلام - مجلة الأزهر فيما بعد - العدد الخامس من السنة الأولى.

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وينفذون إلى عقول العامة بإظهارهم الحب والتشيع، بل والانتساب إلى آل البيت، ثم يصلون إلى أهوائهم ومآربهم بصرفهم القرآن إلى معان باطنية لا يقبلها العقل، ولا تمت إلى الدين بسبب، وعلى هذا الأساس قامت دعوة البابية والبهائية، ويمثل هذه الوسيلة وصلوا إلى أغراضهم وأهوائهم، وإليك ما يوضح ذلك:

أولاً: في الباطنية من يدعى النبوة لنفسه أو يدعيها لغيره، وميرزا علي الملقب بالباب يدعى أنه رسول للناس من قبل الله تعالى، وله كتاب اسمه «البيان» ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى. وقد جاء في رسالة بعث بها الباب إلى العلامة الألوسي صاحب التفسير المعروف، يدعو فيه إلى الإيمان به: «إني أنا عبد الله، قد بعثني بالهدى من عنده» وسمى في هذه الرسالة مذهبه «دين الله» فقال: «ومن لم يدخل في دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا في الإسلام»^(١).

ولا نعلم ماذا أجاب به الألوسي على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم رأيه في هذه الطائفة عندما تعرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ .. وذلك حيث يقول: «وقد ظهر في هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، لهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم في سلك ذوى العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم من العراق لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق، حيث خذلهم - نصره الله - وشتت شملهم، وغضب عليهم - رضى الله تعالى عنه - وأفسد عملهم. فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه فى الدارين ضيماً وضيئراً»^(٢).

وكذلك ادعى زعيمهم الثانى الملقب بهاء الله: أنه رسول من عند الله، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، وبين أيدينا كتاب بهاء الله، ويُطلق عليه اسم «الكتاب» قرأنا فيه فوجدناه يقول:

«لعمركم إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذى أنطق الأشياء بذكره وثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار»^(٣).

«لعمري ما أظهرت نفسى، بل الله أظهرنى كيف أراد، إني كنت كأحد من العباد، وراقداً على المهاد، مرت على نسائم السبحان، وعلمنى علم ما كان. ليس هذا من عندى بل من لدن عزيز عليم. وأمرنى بالنداء بين الأرض والسماء، بذلك ورد على ما

(١) رسائل الإصلاح: ٩٨/٣. (٢) روح المعاني: ٣٩/٢. (٣) «الكتاب» ص ٧.

ذرفت به دموع العارفين. ما قرأتُ ما عند الناس من العلم، وما دخلتُ المدارس، فاسأل المدينة التي كنتُ فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين»^(١).
«قل قد أتى المختار، فى ظل الأنوار، ليحيى الأكوان، من نفحات اسمه الرحمن، ويتحد العالم، ويجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء»^(٢).
ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكاماً خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل الصوم تسعة عشر يوماً من شروق الشمس إلى غروبها، وعيّن لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى. بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم «النيروز» على الدوام، وفى كتاب «البيان»: «.. أيام معدودات، وقد جعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها»^(٣).

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، ويقرر ذلك فى كتابه فيقول: «لو كان القديم هو المختار عندكم، لما تركتم ما شرع فى الإنجيل، بينوا يا قوم .. لعمري ليس لكم اليوم من محيص، إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله، ومن قبله الروح، ومن قبله الكليم. وإن كان ذنبى إعلاء كلمة الله وإظهار أمره، فأنا أول المذنبين. لا أبدل هذا الدين بملكوت السموات والأرضين»^(٤).

وقرر البهاء أن الدين قسمان. عملى وروحانى، فالقسم الروحانى وهو مظاهر الألوهية والنبوة، غير قابل للتبديل. والقسم العلمى، وهو المتعلق بالصور والأشكال الخارجية، قابل للتغيير. وعلى هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات فى اليوم والليله، وجعل قبلتهم فى الصلاة أين يكون هو!!.

وفى هذا يقول: «إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطري الأقدس»^(٥)، وسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق الشرعية والسياسية، وقرر عقوبات مالية للزنا والسرقة وغيرهما، ومنع التسرى، وحرّم الزواج بأكثر من واحدة، وقيد لهم الطلاق وصعبه. وحجّته فى هذا كله: أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالم، فلا بد من دين جديد يوافق هذا العصر .. عصر التقدم المادى العظيم. وهذا الدين الذى جاء به هو الذى يصلح فى نظره لمسيرة هذا العصر دون غيره^(٦).

(٢) المرجع السابق ص ٣٥.

(٤) كتاب بهاء الله ص ٣٩.

(١) «الكتاب» ص ٩.

(٣) رسائل الإصلاح: ٩٩/٣.

(٥) رسائل الإصلاح: ٩٩/٣.

(٦) انظر مقال أبى الفضائل فى المقتطف العدد التاسع من السنة العشرين، وانظر المحاضرة التى

ألقاها عبد العزيز نصحي عن البهائيين بدار جمعية الهداية الإسلامية.

ثانياً: منع الحسن بن الصباح وغيره من زعماء الباطنية، العوام من دراسة العلوم، والخواص من النظر في الكتب المتقدمة، وفعل الباب مثل ذلك فحرم في كتابه «البيان» التعليم وقراءة كتب غير كتبه، فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم، وما في أيديهم من كتب العلم.. ولكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته، فنسخ ذلك التحجير، وذلك حيث يقول في كتابه المسمى بـ «الأقدس»: «قد عفا الله عنكم ما نزل في البيان من محو الكتب، وأذننا بكم بأن تقرأوا من العلوم ما ينفعكم» (١).

ثالثاً: من الباطنية من يدعى حلول الإله في بعض الأشخاص، كالقرامطة الذين يدعون حلول الإله في إمامهم محمد بن إسماعيل. ونجد مثل هذه الدعوى متجلية في بعض مقالات البابية، فهذا بهاء الله يقول في «الكتاب»: «لنا مع الله حالات نحن فيها هو، وهو نحن، ونحن نحن» (٢).

وهذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجيء رب الجنود والأب الألى، ومخلص العالم الذي لا بد منه في آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه في الهيكل البشرى، كما تجلى في هيكل عيسى الناصرى، إلا أن تجليه في هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيأوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم» (٣).

يريد بهذا: أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه في أجسام الأنبياء على ما يزعم. وهذا أبو الفضل الإيراني أحد دعواتهم يقول: «... فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويسند إلى الله من العزة، والعظمة، والقدرة، والعلم، والحكمة، والإرادة، والمشية... وغيرها من الأوصاف، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره، ومطالع نوره، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره» (٤). ومثل هذا كثير في كلام زعمائهم ودعاتهم.

رابعاً: يدعى الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، ويحصرن مدارك الحق في أقواله. والبهائية يقولون هذا القول ويثبتونه في كتبهم.

يقول بهاء الله في الكتاب: «يسند القائم ظهره إلى الحرم، ويمد يده المباركة، فترى بيضاء من غير سوء، ويقول: هذه يد الله، ويمين الله، وعين الله.. وبأمر الله أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة، ظاهري إمامة، وباطني غيب لا يدرك» (٥).

(١) رسائل الإصلاح: ١٠٠/٣.

(٢) «الكتاب» ص ٣٣.

(٣) رسائل الإصلاح: ١٠٠/٢.

(٤) المرجع السابق. (٥) «الكتاب» ص ٨٣.

وقد عرفت أن البابية والبهائية يعبرون عن الإمام المعصوم بـ «مَنْ سَيُظْهِرُهُ اللَّهُ»، ويزعمون أنه هو الذى يعرف تأويل ما جاءت به الرسل عليهم السلام.
خامساً: من مبادئ قدماء الباطنية التفرس. وعلى هذا المبدأ منعوا التكلم بآرائهم فى بيت فيه سراج - أى فقيه أو متعلم - والبهائية يسيرون على هذا المبدأ وإليك ما يثبت ذلك:

أرسل إلى أبى الفضائل الإيرانية بعض إخوانه كتاباً يرجوه فيه أن يرد على مقال كتبه جرجس صال الإنجليزية بإمضاء هاشم الشامى، والمقال يتضمن توجيه الاعتراضات على فصاحة القرآن الكريم، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك فى رسالة أرسل بها إلى صاحبه يقول فيها:

«... إن هناك موانع جمّة، أعظمها وأشدّها مانع كبير لا يستسهل العاقل تدليل صعوباته، ولا يتسّم النبىه متن سهواته، حيث إن قلوب الذين اكتفوا من الإسلام باسمه، ومن القرآن برسمه، تغذت فى مدة مديدة، وأزمنة غير وجيزة بقشور المطالب، وألفت سفاسف المسائل حتى بعدت عن لباب الكتاب، وجهلت حقيقة معانى الخطاب، فلو كشفنا عن حقائق الإشارات، وأظهرنا المعانى المقصودة من ظواهر العبارات، فطلعت صور الحقائق المقصورة فى قصر الآيات، وتهللت وجوه المعانى المستورة فى خدور الاستعارات، لندفع تلك الردود والاعتراضات، ونظهر بطلان تلك الإيرادات والانتقادات، ثور أولاً أحقاد جهلائنا، ويرتفع نعيب سفهائنا، وينادون بالويل والثبور، ويشيرون الأحقاد الكامنة فى الصدور...».

ثم يقول لصاحبه فى آخر الرسالة: «... لتعلم حق العلم أنى ما نسيت ولم أكره صفة من صفاتك، ولا خلة من خلالك، ولكن - والحق يقال - إنك نسيت وصية روح الله الواردة فى سفر مئى: «لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنازير» حيث تجاهر بجواهر الأسرار ومعالى المعانى، عند مَنْ لا يستحق أن تخاطبه وتلاطفه، وتجالسه وتؤانسسه، فكيف أنه يكون مستودع الحكمة الإلهية، والأسرار الربانية، فتمسك بالحكمة، وكن على جانب عظيم من الفطنة»^(١).

ويقول فى رسالة أرسلها إلى الشيخ فرح الله زكى الكردى أحد أتباعهم فى مصر: «... واعلم يا حبیبى أنه سيدخل عليكم كثيرون، ويتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث، ويظهرون السلم والوفاق، وهم أهل النفاق وأصل الشقاق، ومقصودهم معرفة أهل الإيمان، وإضطهاد أصحاب الإيقان كما تصریح وتنادى آى الفرقان، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ

أرجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴿ [الحديد: ١٣ - ١٥] ... إلى آخر الآيات، فتحكم الآية المباركة أنه لا بد من دخول أهل النفاق على أصحاب الوفاق، للاستطلاع والاستراق، فلا يغرنك تحببهم وترفقهم، ولا يخذعنك ملاينتهم وتملقهم، فإن التهور والتعجل يوجب الندم والافتضاح، والتروى يكفل النجاح والفلاح. ومن الحكم الماثورة: «العجلة من الشيطان، والتأني من الرحمن» (١).

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح: أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة في تعاليمها ومعتقداتها، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الديني، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن - علاوة على ما سبق - أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول، ويترسمون خطاهم في تحريفهم لكتاب الله، والعبث بآياته!!

● موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم:

لم تحل عقائد البابية والبهائية بينهم وبين الاعتراف بالقرآن الكريم، ولم يمنعمهم موقفهم الشاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد على دعاواهم الباطلة، ومذاهبهم الفاسدة، تمويهاً على العامة، وتخريراً بعقول الأعمار الجهلة.

● أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السنة:

ولم يكن في وجوههم قطرة من الحياء تمنعهم من التنديد بتفاسير علماء أهل السنة وتحقيرها، فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيراني، نجده في رسالة أرسلها لصديق له، يعيب على تفاسير أهل السنة فيقول: «.. ولقد يدهش الإنسان ويتحير يا حبيبي من تعاليمهم الباطلة، وتفاسيرهم المضحكة، فإن أجبنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود على الأرض المقدسة في هذه الأيام الأخيرة، قابلناهم في بيروت، وسافرنا معهم إلى الأرض الفيحاء مدينة حيفاً، أخبرونا بما يتحير منه الأريب، ويدهش منه اللبيب، كيف تقدمت كلمة الله في تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة، من النفوس الجاهلة الخادعة؟ أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشديد قوته؟ وسطوع آياته وظهور بيئاته؟» (٢).

يعيب أبو الفضائل تفسير أهل السنة، لأن يرى في زعمه أنه وأهل نحلته خير من يفهم القرآن، ويعلم ما فيه من أسرار ورموز، ويرى أنه ومن شاكله هم الراسخون في العلم، الذين يقفون على عجائب القرآن التي لا يدل عليها إلا باطنه، أما ما يعنى به

(٢) رسائل أبي الفضائل ص ٦٦.

(١) رسائل أبي الفضائل ص ١٣٨ - ١٣٩.

مفسرو أهل السنة من الظواهر فليس في زعمه من المعاني التي يرمى إليها القرآن، وفي هذا يقول ما نصه:

«... لو كان معاني آيات القرآن ما هو ظاهر يعرفه كل من يعرف اللغة العربية، ويتلذذ منه كل من له إلمام بالعلوم الأدبية، كيف يتم هذا القول - يريد قول رسول الله ﷺ في شأن القرآن: «إنه لا تنقض عجائبه» - وكيف يصدق قول الله في الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (١).

● إنتاج الباطنية والبهائية في التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة:

ولكن هل وصل إلى أيدينا شيء من كتب هذه الطائفة في تفسير القرآن؟ لم نسمع ولم نقرأ أنهم ألفوا تفسيراً متناولاً للقرآن آية آية، وإنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسر سورة البقرة، وسورة الكوثر، ولكن لم يصل إلى أيدينا شيء من ذلك، وكل ما وصل إلينا هو نبذ من تفسيره، وتفسير بعض أشياعه ودعاته، قرأناها في كتبهم أنفسهم، وفي الكتب والمقالات التي كتبت عنهم، وهذه النبذ مع قلتها تصور لنا مقدار تهجمهم على تحريف القرآن الكريم، والميل بنصوصه إلى ما يرضى أهواءهم، ويُسبغ أطماعهم. وإليك بعض التأويلات، لتقف بنفسك على مقدار هذيان القوم، وتلاعبهم بالقرآن وبالعقول!!

● من تأويلات الباب:

فسر الباب سورة يوسف، فمشى فيها على طريقة التأويل الذي لا يقره الشرع ولا يقبله العقل، ولا يمكن أن يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين (٢) كما قيل. وإليك بعض ما قاله الباب في تفسيره لسورة يوسف، لتقف على مقدار هذيانه، وتلاعبه بالنصوص القرآنية:

عند قوله تعالى في الآية (٤): ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ .. يقول ما نصه: «وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول، وثمره البتول، حسين بن علي بن أبي طالب مشهوداً .. إذا قال حسين لأبيه يوماً: إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، وبالإحاطة على الحق لله القديم سجّاداً .. وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمداً، وبالنجوم أئمة الحق في أم الكتاب معروفاً، فهم الذين سيكون على يوسف بإذن الله سجّاداً وقياماً» (٣).

وفي قوله تعالى في الآية (٥): ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخْتَلِكُمْ فَاصْبِرُوا﴾

(٢) البرسام - بكسر الباء - : علّة يصحبها هذيان.

(١) رسائل أبي الفضائل ص ٦.

(٣) مفتاح باب الأبواب ص ٣٠٩.

لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٨﴾ .. يقول ما نصه: «إذ قال علي: يا بُنَيَّ لا تُخبر مما أراك الله من أمرك إخوتك ترحماً على إلفهم، وصبراً لله تعالى، وهو الله كان عزيزاً حميداً. إن كنت تخبر من أمرك في بعض مما قضى الله فيك، فيكيدوا لك كيداً، بأن يقتلوا أنفسهم في محبة الله من دون نفسك الحق شهيداً، وإن الله لوجهك بدمك محمراً على الأرض بالحق على الحق صبيغاً، وإن الله قد شاء كما شاء أن يراك مخضباً شعرك من دمك ونفسك على الأرض على غير الحق لدى الحق قتيلاً. وجسمك على الأرض عرياً. وإن الله شاء كما شاء بأن يرى بناتك وحرملك في أيدي الكافرين أسيراً» (١).

وعند قوله تعالى في الآية (٨): ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .. يقول منا نصه: «.. إذ قالوا حروف لا إله إلا الله. وأن يوسف أحب إلى أبينا منا بما قد سبق من علم الله حرفاً مستسراً مُقنعاً علي السر محتجبا في سطر، غايبا في سر السر مرتفعا عما في الدنيا وأيدي العالمين جميعاً. وإننا نحن عصبة فيما أراد الله في شأن يوسف النبي محمد العربي حول السطر مسطوراً. وإن الله قد فضّل أبانا بفضله نفسه وقدر الله سر المستسر من سر أمره بما في أيدي العالمين بالكشف المبين على أهل النار من سر «الباء» ضلالاً... إلخ» (٢).

● من تأويلات بهاء الله:

ويروى بهاء الله أن ما ورد في القرآن عن الصراط، والزكاة، والصيام، والحج، والكعبة، والبلد الحرام، وما إلى ذلك، كله لا يراد به ظاهره وإنما يراد به الأئمة. وفي هذا يقول في «الكتاب»: «قال أبو جعفر الطوسي: قلت لأبي عبد الله: أنتم الصراط في كتاب الله، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ قال: يا فلان؛ نحن الصراط في كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله» (٣).

وفي كتاب بهاء الله والعصر الجديد، ما يدل على أن البهائيين لا يعترفون بالبعث، ولا بالجنة والنار، حيث يفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجئ ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، قال في كتاب بهاء الله والعصر الجديد: «وطبقاً للتفاسير البهائية، يكون مجئ كل مظهر إلهي عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجئ المظهر الأعظم بهاء الله: هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التي نعيش فيها»، وقال: «ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية، بل هو يوم يتدئ بظهور المظهر، ويبقى ببقاء الدورة العالمية» (٤).

ويُفسر البهائية الجنة بالحياة بالحياة الروحانية، والنار بالموت الروحاني، فقد جاء في

(٢) نفس المرجع ص ٣١٢.

(٤) رسائل الإصلاح: ١٠٣/٣.

(١) المرجع السابق ص ٣١٠.

(٣) «الكتاب» ٨٣.

كتاب بهاء الله والعصر الجديد: «إن الجنة والنار في الكتب المقدسة حقائق مرموزة» فالجنة ترمز إلى حياة الكمال، والنار ترمز إلى حياة النقص، ولما كانت الحياة الروحية في نظر البهاء هي الإيمان به، والموت الروحي هو تكذيب دعوته. فإننا نراه يقرر ذلك فيقول: «.. منهم من قال: هل الآيات نزلت؟ قل: إى ورب السموات. قال: أين الجنة والنار؟ قل: الأولى لقائى، والأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب» (١).

• من تأويلات عبد البهاء عباس:

كذلك نجد عبد البهاء، يتكلم عن النبوة والوحي بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلّدوا الفلاسفة فيقول: «الأنبياء مرايا تنبئ عن الفيض الإلهي، والتجلى الروحاني، وانطبعت فيها أشعة ساطعة من شمس الحقيقة، وارتسمت فيها الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحسنى. ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهم معادن الرحمة، ومهابط الوحي، ومشارك الأنوار، ومصادر الإرسال. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (٢).

ونجد قرة العيون - إحدى أتباع الباب - تدعى أنها الصور الذي يُنفخ فيه يوم القيامة، وتقول: «إن الصور الذي ينتظرون في اليوم الأخير هو أنا» (٣).

وبين أيدينا رسائل أبي الفضائل، محمد بن رضا الجرفادقاني، المعروف بفضل الله الإيراني، أحد دعاة البابية المتعصبين، وكتاب الحجج البهية له أيضاً، وفيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية، بما يتفق ومذهبه الباطل.

فمن ذلك مثلاً أنه يُفسر الروح الأمين الذي ورد في القرآن بأنه الحقيقة المقدسة، ثم يُعرفها فيقول: «هي غيب في ذاتها، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات، فلا تُوصف بأوصاف الماديات، ولا تُذكر بخصائصها، ولا يُطلق عليها الخروج والدخول، ولا تُوصف بالتحيز والحلول، وإنما هي حقيقة تنجلي في مظاهر أمر الله تعالى، عرشها قلوب الأصفياء، ومرآة تجليها صدور الأولياء، وإنما مثل طلوعها وإشراقها في النفوس القدسية كممثل انطباع الشمس في المرايا، فلا يقال: إن الشمس حلت في المرآة، ولا إنها دخلت فيها، بل ولا يقال: إنها عُرِضت عليها، بل يقال: إن الشمس تجلّت في المرآة، وظهرت منها وأشرقت، وانطبعت بها» (٤).. وهذا بعينه مذهب قدماء الباطنية والفلاسفة.

ومن ذلك أيضاً أنه فسّر قوله تعالى في الآيتين (١٤٢ - ١٤٣) من سورة الأعراف: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾... الآيتين،

(٢) خطابات ومحادثات عبد البهاء.

(٤) رسائل أبي الفضائل ص ٣٩.

(١) كتاب بهاء الله ص ٩٧.

(٣) المبادئ البهائية ص ٢١.

تفسيراً باطنياً فقال: « المراد بالليل - كما سمعته منى مراراً - هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة، واليوم على حسب ما نزل في التوراة المقدس يُحسب كل يوم واحد بسنة واحدة، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر، وفر من فرعون وملئه إلى مدين، كان ابن ثلاثين، وأقام في مدين عشر سنوات يشتغل فيها برعى أغنام شعيب النبي عليه السلام، وكان في طي هذه المدة التي كانت كالليالي المظلمة، والدياجي الكالحة من ظلم الفراعنة، وأوهام الصابئة، مشتغلاً بتهذيب أخلاقه، وتطبيب أعراقه، وتنقية فؤاده، والمناجاة مع ربه في وحدته وانفراده، فلما طاب خلُقه، وتم خلُقه، بعثه الله نبياً لهداية بنى إسرائيل، وإنقاذهم من ذلك الويل. فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة. أقام موسى عليه السلام في أثنائها في مصر ومدين، ولا تنافى كلمة «واعدنا» هذا التفسير، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته، فإن أمثال هذه الكلمة كثيراً ما أطلقت على ما أُلقي في الرُوع، وألهم في القلب، حتى على الحيوانات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحِي رَبِّكَ إِلَى النُّحْلِ أَنْ آتِخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].. ظاهر الآية المباركة يدل على أن موسى عليه السلام أخلف أخاه هارون حينما كان مع الشعب في البرية، كما هو مذكور في التواريخ، إلا أن التواريخ القديمة مظلمة جداً، حيث إن المؤرخين اعتمدوا في هذه المسائل على ما جاء في التوراة وسائر الكتب العتيقة، ولكننا أثبتنا في كتاب الدرر البهية ضعف هذا المستند من حيث العلم، فيجوز أن يكون هارون مستخلفاً عن موسى عليهما السلام، لحفظ الشعب أيام غياب موسى في مدين، وقد كان بنو إسرائيل يحافظون على التوحيد من لدن جددهم إبراهيم عليه السلام، فلما غاب موسى وضع بنو إسرائيل رسم عجل أبيس أحد معبودات المصريين تزلفاً إلى فرعون وقومه، فكأنهم تجنسوا بالجنسية المصرية، واعتنقوا الديانة الوثنية، فلما رجع موسى عليه السلام ورآهم على تلك الحال السيئة والعبادة الباطلة، أنكر ذلك على هارون، كما ذكره المؤرخون، إذ لا يعقل أن بنى إسرائيل على ما عرفوا بصلافة الرأى يتركون ديانتهم الموروثة بسبب تأخير موسى عن الرجوع إليهم عشر ليالٍ.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أُنظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأعراف: ١٤٣].. اعلم - حفظك الله - أن علماءنا - سامحهم الله - اختلفوا في رؤية الله تعالى وعدم جواز رؤيته، فالشيعة والمعتزلة أنكروا جواز رؤيته، حيث تقتضى الجهة والمقابلة، وهى من مقتضيات الجسد والتحين والتحدد وأمثال ذلك، وهو منزّه

عن تلك الأوصاف، إذ لم يفهموا من لفظة «الله» سوى الذات، ولا شك أن الذات منزّهة عن تلك الصفات. وأهل السنّة والجماعة جوزوا رؤية الله تعالى اعتماداً على صريح الآيات، واستناداً على صريح الأحاديث والروايات، وكانوا على هذه العقيدة الصالحة إلى أواسط القرون الهجرية، فمزجوها بالعقائد الوهمية، حيث شاعت في تلك القرون بينهم المسائل الكلامية، والمعارف الناقصة العقلية، فإنهم قالوا: إن رؤية الله تعالى جائزة وواقعة في القيامة، إلا أنها ليست من قبيل الإحاطة بالنظر، فترى ذات الله تعالى من غير مواجهة ومقابلة، وكيفية وإحاطة، مما يرجع إلى الوهم الصريح، وإنكار الرؤية حقيقة. وأهل البهاء المستظلمين بظلال الفرع الكريم المتشعب من الدوحة المباركة العليا، لما عرفوا - على حسب ما يعلمون من القلم الأعلى - أن ذات الله بسبب تجردها وتقديسها الذاتي لا تُدرك، ولا تُوصف، ولا تُسمى باسم، ولا تُشار بإشارة، ولا تتعين بإرجاع ضمير. والأسماء والأوصاف وكل ما يُسند ويُضاف إليها راجعة في الحقيقة إلى مظاهرها ومطالعها، ولذلك سهل عليهم فهم معنى أمثال تلك الألفاظ التي نزلت في الكتب المقدسة والصحف المطهّرة، من قبيل رؤية الله تعالى، ولقاء الله وظهور الله ومجيئ الله وغيرها مما ليس بخاف على أهل التحقيق.. ثم اعلم أيها الحبيب اللبيب أن أهل البيان كثيراً ما أطلقوا في عباراتهم لفظ «جلّ» على أكابر الرجال استعارة، سواء أكانوا من صنّاديد الدولة والملك، أو من قروم أهل العلم والفضل، كما أطلق أمير المؤمنين عليه السلام على مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر، لما اشتهر ذكر وفاته، وأخبر بمماته، ومقامه عليه السلام معلوم لديك في الفصاحة والبراعة، ورسائله وخطبه مستغنية عن المدح والإطراء بالطلاوة والصناعة، وعبارته هذه مذكورة في نهج البلاغة. وهذه استعارة في غاية المناسبة واللطافة حيث إن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد، لاستقرار أرض المعارف والديانة، أو الأمة والدولة، وكثيراً ما أطلقه داود عليه السلام في مزاميره، وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل في كتبهم على الرب تعالى، كما جاء في مزمور (٤٢): «أقول لله صخرتي لماذا نسيتني»، وجاء في مزمور (٧١): «كن لي صخرة وملجأ أدخله دائماً. أمرت بخلاصي لأنك صخرتي وحصني».. إلى كثير من أمثالها، فإذا عرفت هذا، فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤيا الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله، كما يدل ذلك عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ﴾ [النساء: ١٥٣] إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم والإيمان في مكانهم من الإذغان، واليقين، ولكنهم بسبب عدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين من العلم والمعرفة واليقين فلا بد وأن تندك جبال وجودهم، ويتزعزع بنيان إذغانهم لمعبودهم حين لقائه فيتبدل إيمانهم بالكفر، ويقينهم بالشك، وإقبالهم بالإعراض، حيث لم تكمل بعد مراتب

عرفانهم، ولم يبلغ إلى الدرجة العليا بنیان إيمانهم، فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقاق الرؤية واللقاء، ولم يصعدوا إلى درجة الاستقرار والبقاء، فلا بد من ظهور الأنبياء، وقيام الأصفياء، لتربية أشجار الوجودات البشرية، وتكامل معارفهم بالإيمان على ممر الدهور وطي العصور. حتى يبلغوا إلى درجة التمكن والاستقرار، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض والسماء، ويتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة واللقاء. فخلاصة تفسير الآية الكريمة: أن موسى عليه السلام قال: رب أرني أنظر إليك، حيث إن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى فأجابه الله تعالى: بأنك لن تراني، لأن بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد درجة كمال وجودهم، ولم يستعدوا للقاء معبودهم، فانظر إلى جبال الوجودات، ومقادير استقرار الإيقان، فإن استقر جبل الوجود في مقام إيمانه وإيقانه حين تجلّى المعبود ولم يتزلزل ولم يتزعزع من مقامه حين الشهود، حينئذ استعد للقاء الله، واستحق للوقوف بين يدي الله، والتشرف برؤية الله. ثم تجلّى الرب لأحد من تلك الأمة ممن كان رؤساء الشعب، ومن جبال الإيمان والإيقان، فاندك وجوده، وتضعضع إيمانه، واضطرب إيقانه فانصعق موسى من ذلك الامتحان، وعرف مقدار صعبية مقام الافتتان، فنديم على ما سأل الرؤية للطالبيين ورجع في الحين. وقال: ﴿سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ (١).

فانظر إليه كيف أول الأربعين ليلة بأنها أربعين سنة، وهي التي يُبعث الأنبياء على رأسها، وكيف علل التعبير بلفظ «ليلة» بأن مدة الأربعين سنة كانت مظلمة كالليلالي بظلم فرعون وملئه، وكيف تخلّص من منافاة لفظ «واعدنا» للمعنى الذي يهذى به. وكيف اتهم التوراة وسائر الكتب العتيقة - بما فيها القرآن طبعاً كما سيأتي بعد - بأنها لا يُعوّل عليها في الروايات التاريخية، وكيف رمى المعتزلة وأهل السنة بعدم إصابة المعنى الحقيقي للرؤية الواردة في الآية، وكيف ادّعى أنه ومن على شاكلته من البهائيين هم الذين أصابوا المعنى الحقيقي للآية؛ وكيف صرف لفظ «الجبل» عن معناه المراد إلى معنى لا يُفهم من لفظ القرآن وسياق الآية!! .. ولست في حاجة إلى أن أبين ما فى هذا التفسير من خطأ وضلال، فإن الحق بيّن واضح (٢).

وفى كتاب الدرر البهية، صرح أبو الفضائل بأن قصص القرآن غير واقعة، وأنها فى الحقيقة رموز إلى معان خفية فقال: «لا يمكن للمؤرخ أن يستمد معارفه التاريخية من آيات القرآن» (٣)، وقال: «إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأمم فى معارفهم

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٩٦ - ١٠٣. (٢) رسائل الإصلاح: ١٦/٣.

(٣) المرجع السابق: ٦٦/٣.

التاريخية، وأقاصيصهم القومية، ومبادئهم العلمية، فتكلموا بما عندهم، وسترُوا الحقائق تحت أستار الإشارات، وسدلوا عليها ستائر بليغ الاستعارات» (١).

ولا شك أن هذه دعوى كاذبة يُراد بها إدخال الشك في قلوب المؤمنين، وإيهامهم بأن القرآن لا يُعتمد على ظاهره، وإنما يُعتمد على باطنه الذي عندهم علمه دون مَنْ عداهم من الناس. وإلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم ولن يقوم دليل تاريخي أو عقلي على عدم صحة قصة من قصص القرآن، وهو الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

كذلك نجد أبا الفضائل يعرض في كتابه المسمى «الدرر البهية» لقوله تعالى في الآية (٣٩) من سورة يونس: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، ولقوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ﴾ .. فيقول:

«ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللغوية، بل المراد المعاني الخفية التي أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية» .. ثم قال بعد هذا: «قرر الله تنزيل تلك الآيات على ألسنة الأنبياء وبيان معانيها وكشف السر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء»، وقال: «إنما بُعثوا - عليهم السلام - لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله، وينتهى سير الأفعدة إلى رتبة البلوغ فيظهر روح الله الموعود ويكشف لهم الحقائق المكونة فى اليوم المشهود»، وقال: «وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصلية المقصودة لا تظهر إلا فى اليوم الآخر، يعنى يوم القيامة، ومجئ مظهر أمر الله وإشراق أفاق الأرض ببهاء وجه الله». ثم قال: «ولذلك جاءت من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعدة محرّفة مفسدة» (٢).

ومعلوم أن لفظ التأويل فى الآيتين عبارة عن وقوع المخبر به ولكن يابى هذا المخرف المنحرف إلا أن يحمل التأويل على تأويل الآيات إلى المعانى الخفية، وعجيب بعد هذا أن يتهم الرسل بأنهم لا يعرفون تأويل الآيات، لأن وظيفتهم البلاغ فحسب، وأما كشف الستر عن المعانى الخفية فى روح الله حين نزوله. وروح الله فى نظره ونظر أشياعه: هو البهاء الذى يُعبّر عنه بالنقطة، ويدعى أن الرسل أرسلوا لسوق الخلق إليه، ويدعى أيضاً أن ظهوره يكون يوم القيامة، ولا شك أن هذا تفسير بارد عقيم، وجامد مضل، ولكنه لا يريد أن يعترف بهذا، بل نجده يتعسف فيرمى كل التفاسير من

لدى نزول التوراة إلى نزول البيان بأنها تافهة باردة، عقيمة جامدة، مضلة مبعدة، محرقة مفسدة، لأن أصحابها خاضوا فيما لا علم لهم به، والعلم فى نظره عند البهاء وحده .

كذلك نجد أبا الفضائل يُفسر قوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة المدثر: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما لا يقره شرع، أو يرضى به عقل فيقول: « إن لفظ الملك واحد الملائكة، والملائكة فى اللُّغة العربية توافق لفظاً ومعنى ما فى اللُّغة العبرانية، حيث إنها مأخوذة من الأصل السامى، الذى اشتقت منه اللُّغات: السريانية، والعبرانية، والعربية، والآشورية، والكلدانية، وهو يفيد معنى المالكية والاستيلاء على شئ، فكما أنه أطلق لفظ الملك والملائكة فى الكلمات النبوية المحفوظة فى الكتب السماوية على النفوس القدسية، والأئمة الهداة، لخلعهم ثياب البشريّة وتخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية، فملكوا زمام الهداية وصاروا ملوك ممالك الولاية، كأنهم أعطوا سلطة مطلقة فى سعادة الناس وشقاوتهم، وهدايتهم وضلالهم، وهذا هو معنى الولاية المطلقة التى جاءت فى الأخبار، ولذا سمى سيد الأبرار وأمير الأبرار، بقسيم الجنة والنار. كذلك أطلق هذا اللفظ فى الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار، وأئمة الضلال، حيث إنهم قادة الفُجَّار يقودونهم إلى النار ولذا أطلق عليهم لفظ الملائكة، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة فى قوله: ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص: ٤١]. ثم استدل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور والضلال، ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنة الله ورضوانه، كما أنها أبواب للدخول فى جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلاً . . ثم استطرده من هذا إلى أن الباب كما يُطلق أيضاً على الديانات، يُطلق أيضاً على الأنبياء وكبار الأولياء، واستدل على هذا بعبارة نقلها عن الجامعة وردت فى شأن الأئمة وهى: « أنتم باب الموتى والمأخوذ عنه » قال: وإليه أشير فى الآية الكريمة: ﴿ فضرِبَ بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ [الحديد: ١٣]، بعد أن قرر هذا، ادعى « أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر، وهى ثمانية عشر حروف « الحى » والنقطة الفردانية (١)، وبهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا، ودخلوا الجنة . . ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعين تسعة عشر إنساناً من رؤساء أصحابه ودهاة أحبائه، لإضلال أهل الإيمان، ومعارضة جمال الرحمن»، ثم قال: « فالمراد بملائكة النار فى الآية المباركة هو هذه الرجال من أصحاب الدجال وأئمة

(١) يريد الباب نفسه والثمانية عشر الذين استجابوا له أولاً.

الضلال» .. ثم ذكر بعد ذلك أن عدد أبواب النار صار فى هذا الدور الحميد (١)، والكون الحميد ثلاثة فقط وهى أيضاً ملائكة الجحيم، وقادة أصحاب الشمال إلى العذاب الأليم» .

واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١] .. ثم قال: «وفى كل دور وزمان تجد لكلمات الله تعالى مصاديق يعرفها أهل الإيمان، وحملة القرآن، ومخازن الحكمة، ومطالع البيان» (٢).

وفى الحجج البهية يقرر أبو الفضائل: أن جميع الديانات السماوية . وغير السماوية واحدة من ناحية الاتفاق على العقائد الأصلية، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية، وذلك حيث يقول فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾: «فانظروا - وفقكم الله - كيف اعتبر فى الآية الكريمة ديانات الصابغة والزردشتية والموسوية والنصرانية والإسلامية ديناً واحداً، كما اعتبر مؤسسها وشارعها إلهاً واحداً، على اختلافها فى الأحكام والحدود والآداب» (٣) وهذا منه كفر صريح، لأن الآية لا تدل على أكثر من اتحاد جميع الشرائع السماوية فى أصول العقائد، أما الديانة الصابغية، والديانة الزردشتية، فلم يقل أحل إنها شرائع الله، حتى يسوى بينهما وبين سائر الشرائع السماوية .

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة، ويريد بها: رجوع الحقيقة المقدسة التى هى الوحى، على معنى أن الوحى بعد انقطاعه بموت محمد ﷺ يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البهاء، ويُفسر القيامة: بأنها قيام مظهر الحقيقة المقدسة، والساعة: بساعة طلوعها وإشراقها بعد الغيبة ويقول: «وأما الرجعة والقيامة بالمعنى الذى تعتقد وتنتظره الأمم فهى أمر غير معقول، إذ هو مخالف للنواميس الطبيعية، ومباين للسنن الإلهية» (٤).

ويقول: «إن جميع ما نزل فى الكتب المقدسة من بشارات يوم الله، ويوم القيامة، وظهور الرب، وورود الساعة وأشراتها .. لا بد أن تكون لتلك الألفاظ مقاصد معقولة، ومفاهيم ممكنة ومعان غير المعانى الظاهرية، ومدلولات غير المدلولات الأولى» (٥).

(٢) رسائل أبى الفضائل ص ١٠٤ - ١٠٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١ .

(١) لعله يريد زمن بهاء الله .

(٣) الحجج البهية ص ٢٨ .

(٥) الحجج البهية ص ٥٨ .

وكأنى بأبى الفضائل - وقد قال بنبوة الباب والبهاء - نظر في كتاب البيان وكتاب بهاء الله، فلم يجدهما في رصانة القرآن وفصاحته، فأراد أن ينزل بالقرآن عن مستواه في البلاغة، ويسلب عنه إعجازه حتى يكون في درجة البيان والكتاب فقال: «ولا يُعرف ولا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته، وبلاغته، ووصف كلماته، وتسجيع عباراته، وترصيع جملة، ولطيف استعاراته، كما يدعيه قوم» (١).

كما أعتقد أنه - وقد ادعى نبوة الباب والبهاء - راح يفتش لهما عن معجزة تُصدّق دعواهما النبوة، فلم يعثر ولا على جزء معجزة، فجره ذلك أن ينكر معجزات الرسل، ويتأول ما ورد في القرآن منها بأنها من قبيل الاستعارات عن الأمور المعقولة، والحقائق الممكنة، مما يُجوزُه العقل السليم، كما جرّه إلى القول بأنه لا صلة بين دعوى الرسالة، وبين القُدرة على الإتيان بالخوارق فقال: «لا نسبة بين القُدرة على إتيان المعجزات والعجائب، وبين ادعاء النبوة والرسالة، فإن الرسالة والنبوة ليست إلا بعث إنسان من قبل الله تعالى لهداية الخلق، فما هو ارتباط هذا المعنى بالقُدرة على شق البحار، وجفاف الأنهار، وإنطاق الأحجار والأشجار مثلاً» (٢).

ولا يشك عاقل في أن هذا الزنديق يريد من وراء هذا أن يفتح باب شر عظيم، ليدخل منه كل من يدعى النبوة والرسالة، كما دخل منه أنبياء البابية والبهائية من قبل.

وكما تأول متعصبو الشيعة الشجرة المباركة، والشجرة الملعونة، فحملوا الأولى على آل البيت، والثانية على أعدائهم من بنى أمية، كذلك تأولهما أبو الفضائل، فقال في شرحه لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِّيٌّ يوقِدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ... الآية: «أطلق لفظ «شجرة مباركة زيتونة» على مظهر أمر الله، ومطلع شمس حقيقته وذاته. ومشرق أنوار أسمائه وصفاته، فإن من هذه السدرة المباركة وحدها تتألق وتضيئ الأنوار الإلهية، وتشرق وتلمع أشعة العلم والقوة، والقُدرة الملكوتية السماوية، وهذه استعارة في غاية الرقة واللطافة، وتجوز في نهاية اللطافة والبراعة، لم يوجد مثلها إلا في الكلمات النبوية، ولم يُسمع شبيهها إلا من نغمات طيور القدس. في الحدائق القدسية». قال: «وكذلك في الآية (٦٠) من سورة بنى إسرائيل، أطلق لفظ الشجرة الملعونة: استعارة على أعداء الله، ومحاربي رسول الله، من السلالة الأموية، والسلطة العضوضية

السِّفِيَانِيَّةِ حَيْثُ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ (١).

هذه نُبذ من تأويلات البابية للقرآن الكريم، تعطينا دليلاً قوياً، وبرهاناً صادقاً على أن المذهب الباطني، أو البهائي، يقوم على أطلال الباطنية، ويحمل في سريرته القصد إلى هدم شريعة الإسلام بمعول التأويل في آيات القرآن، ودعوى النبوة والرسالة، بعد أن ختمها الله برسالة محمد ﷺ. وإذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهي: إن البابية وأسلافهم من الباطنية، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنصوص الشريعة على هذه الصورة التي تأتي على بنیان الدين من قواعده، وإنما هو صنيع قلّدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم، فهذا هو «فيلون» الفيلسوف اليهودي المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد، نجده أُلّف كتاباً في تأويل التوراة، ذاهباً إلى أن كثيراً مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، ويقول الكاتبون في تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزي كان موجوداً ومعروفاً عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن «فيلون»، ويذكرون أمثلة من تأويلهم: أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين. إلى أمثال هذا من التأويل الذي لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون» (٢).

وبعد أن انتهينا من موقف الباطنية - قديمهم وحديثهم - من القرآن الكريم، نتكلم عن موقف الزيدية منه.. فنقول وبالله التوفيق:

* * *

(١) الحجج البهية ص ١٧٥، ١٧٦ - والآية من سورة الإسراء: ٦٠.

(٢) رسائل الإصلاح: ٩٧/٣ - ٩٨.

الزيدية .. وموقفهم من التفسير والقرآن الكريم

● تمهيد:

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، وبين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية وجمهور أهل السنة، والذي يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرّق الشيعة إلى مذهب أهل السنة، وما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكاد يذكر.

يرى الزيدية: أن علياً أفضل من سائر الصحابة، وأولى بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ويقولون: إن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج للإمامة صحت إمامته، ووجبت طاعته، سواء أكان من أولاد الحسن، أم من أولاد الحسين، ومع ذلك فهم لا يتبرأون من الشيخين، ولا يكفرونهما، بل يجوزون إمامتهما، لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية، والعصمة للأئمة، واختفائهم ثم رجوعهم في آخر الزمان. وغير ذلك من خرافات الإمامية ومن على شاكلتهم.

وكل الذي نلاحظه على الزيدية أنهم يشترطون الاجتهاد في أئمتهم ولهذا كثر فيهم الاجتهاد، وأنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت، والذي يقرأ كتاب (المجموع) للزيدية يرى أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد ابن علي زين العابدين عن آبائه من الأئمة عن رسول الله ﷺ وليس فيه بعد ذلك حديث يروي عن صحابي آخر من غير أهل البيت رضي الله عنهم كما يلاحظ على الزيدية أيضاً أنهم تأثروا إلى حد كبير بأراء المعتزلة ومعتقداتهم، ويرجع السرف في هذا إلى أن إمامهم زيد بن علي، تتلمذ على واصل بن عطاء، كما قلنا ذلك فيما سبق.

إذن فلا نطمع بعد ذلك أن نرى للزيدية أثراً مميزاً، وطابعاً خاصاً في التفسير كما رأينا للإمامية، لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسره. ويتخذ له طابعاً خاصاً، واتجاهاً معيناً، حينما يكون لصاحبه طابع خاص واتجاه معين. وليست الزيدية - بصرف النظر عن ميولهم الاعتزالية - بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السنة، وعقائدهم، حتى يكون لهم في التفسير خلاف كبير.

● أهم كتب التفسير عند الزيدية:

وإذا نحن ذهبنا نفتش عن تفاسير الزيدية في المكتبات التي تحت أبصارنا وفي متناول أيدينا، فإننا لا نكاد نظفر منها إلا بتفسير الشوكاني المسمى «فتح القدير» وهو تفسير متناول للقرآن كله، وجامع بين الرواية والدراية، وتفسير آخر في شرح آيات الأحكام اسمه «الثمرات اليانعة» لشمس الدين يوسف بن أحمد - من علماء القرن التاسع الهجري - هذا هو كل ما عثرنا عليه للزيدية من كتب في التفسير. ولكن هل هذا هو كل ما أنتجته هذه الطائفة؟ أو أن هناك كتباً أخرى ألفت في

التفسير ثم درست؟ أو ألفت وبقيت إلى اليوم غير أنه لم يكتب لها الذبوع والانتشار، ولذا لم تصل إلى أيدينا؟

الحق أنى وجهت هذا السؤال إلى نفسى، فرجحت أن تكون هناك كتب كثيرة فى التفسير لهذه الطائفة، منها ما درس، ومنها ما بقى إلى اليوم مطموراً فى بعض المكاتب الخاصة، إذ ليس من المعقول أن لا يكون لطائفة إسلامية قامت من قديم الزمان، وبقيت محتفظة بتعاليمها ومقوماتها إلى اليوم إلا هذا الأثر الضئيل فى التفسير.

رجحت هذا الرأى، فذهبت أفتش وأبحث فى بعض الكتب التى لها عناية بهذا الشأن، على أعثر على أسماء لبعض كتب فى التفسير لبعض من علماء الزيدية .. وأخيراً وجدت فى الفهرست لابن النديم: أن مقاتل بن سليمان - وعده من الزيدية - له من الكتب، كتاب التفسير الكبير، وكتاب نوادر التفسير (١).

ووجدت فى الفهرست أيضاً: أن أبا جعفر محمد بن منصور المرادى الزيدى، له كتابان فى التفسير، أحدهما: كتاب التفسير الكبير، والآخر: كتاب التفسير الصغير (٢).

وقرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية فى الفقه، وهى مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة فى شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجندارى، فخرجت منها بما يأتى:

١ - تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن على، جمعه بإسناده محمد بن منصور بن يزيد الكوفى. أحد أئمة الزيدية، المتوفى سنة نيف وتسعين ومائتين (٣).

٢ - تفسير إسماعيل بن على البستى الزيدى، المتوفى فى حدود العشرين وأربعمائة، قال: وهو فى مجلد واحد (٤).

٣ - التهذيب، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلى ثم الزيدى، المقبول سنة ٤٩٤ هـ (أربع وتسعين وأربعمائة). قال: وهذا التفسير مشهور ويمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق، فإنه يورد الآية كاملة، ثم يقول: القراءة ويذكرها، ويميز السبع من غيرها، ثم يقول: اللُّغة ويذكرها، ثم يقول: الإعراب ويذكره، ثم يقول: النظم ويذكره، ثم يقول: المعنى ويذكره ويذكر أقوالاً متعددة، وينسب كل قول إلى قائله من المفسرين، ثم يقول: النزول ويذكر سببه، ثم يقول: الأحكام ويستنبط أحكاماً كثيرة من الآية (٥).

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤.

(٤) المرجع السابق ص ٧.

(١) الفهرست: ص ٢٥٤.

(٣) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٦.

(٥) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٢.

٤ - تفسير عطية بن محمد النجواني الزيدى، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (خمسة وستين وستمائة). قال: وقد قيل إنه تفسير جليل، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية (١).

٥ - التيسير فى التفسير، للحسن بن محمد النحوى الزيدى الصنعانى، المتوفى سنة ٧٩١ هـ (إحدى وتسعين وسبعمائة) (٢).

هذا هو كل ما قرأت عنه فى كتب الزيدية فى التفسير، لكن هل بقيت هذه الكتب إلى اليوم؟ أو درّست بتقادم العهد عليها؟ سألت نفسى هذا السؤال، وحاولت أن أقف على جوابه، وأخيراً انتهزت فرصة وجود الوفد اليمنى فى مصر (٣) - وفيه الكثير من علماء الزيدية الظاهرين - فاتصلت بأحد أعضائه البارزين، وهو القاضى محمد بن عبد الله العامرى الزيدى، فسألته عن أهم مؤلفات الزيدية فى التفسير، وعن الموجود منها إلى اليوم، فأخبرنى بأن للزيدية كتباً كثيرة فى تفسير القرآن الكريم، منها ما بقى ومنها ما اندثر، وما بقى منها إلى اليوم لا يزال مخطوطاً، وموجوداً فى مكاتبهم، وذكر لى من تلك المخطوطات الموجودة عندهم ما يأتى:

١ - تفسير ابن الأَظْمَر . . أحد قدماء الزيدية.

٢ - شرح الخمسمائة آية « تفسير آيات الأحكام » لحسين بن أحمد النجرى، من علماء الزيدية فى القرن الثامن الهجرى.

٣ - الثمرات اليانعة « تفسير آيات الأحكام » للشيخ شمس الدين يوسف بن أحمد ابن محمد بن عثمان، من علماء الزيدية فى القرن التاسع الهجرى.

٤ - منتهى المرام، شرح آيات الأحكام، لمحمد بن الحسين بن القاسم، من علماء الزيدية فى القرن الحادى عشر الهجرى.

٥ - تفسير القاضى ابن عبد الرحمن المجاهد، أحد علماء الزيدية فى القرن الثالث عشر الهجرى.

قال: وهناك كتب أخرى لا يحضرنى اسمها، ولا اسم مؤلفيها، فسألته عن السر الذى من أجله بقيت هذه الكتب مخطوطة إلى اليوم؟ وأى شئ يحول بينكم وبين طبعها، حتى تصبح متداولة بين أهل العلم، وعشاق التفسير؟ فأجابنى بأن السر فى هذا أمران: أحدهما: عدم تقدم فن الطباعة عندهم. وثانيهما: أن كل اعتمادهم فى التفسير على كتاب « الكشاف » للزمخشري، نظراً للصلة التى بين الزيدية والمعتزلة، مما

(٢) نفس المرجع ص ١١.

(١) المرجع السابق ص ٢٣.

(٣) كان ذلك فى سنة ١٩٤٥.

جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ما عداه من كتب التفسير، ورجا ورجوت معه أن يهيئ الله لهذا التراث العلمي في التفسير من الأسباب ما يجعله متداولاً بين أهل العلم ورجال التفسير.

وبعد .. فما دامت أيدينا لم تصل إلى شيء من كتب التفسير عند الزيدية سوى كتاب «فتح القدير» للشوكانى، و«الثمرات اليانعة» لشمس الدين يوسف بن أحمد، فإننى سأقتصر على هذين الكتابين في دارستى وبحثى، وسأبدأ بتفسير الشوكانى، وإن كان لا يمثل لنا تفسير الزيدية تمثيلاً وافياً شافياً، وأرجئ الكلام عن «الثمرات اليانعة» إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله:

* * *

فتح القدير (للشوكاني)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

ومؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، وُلد في سنة ١١٧٣ هـ (ثلاث وسبعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية)، في بلدة هجرة شوكان. ونشأ - رحمه الله تعالى - بصنعاء، وتربى في حجر أبيه علي العفاف والظاهرة، وأخذ في طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام، وجدَّ في طلب العلم، واشتغل كثيراً بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب، وسار على هذه الطريقة ما بين مطالعة وحفظ، وما بين سماع وتلق، إلى أن صار إماماً يُعَوَّل عليه، ورأساً يُرحل إليه «فريداً في عصره، ونادرة لدهره، وقدوة لغيره، بحرّاً في العلم لا يُجارى، ومفسراً لا يُبارى، ومُحدَّثاً لا يشق له غبار، ومجتهداً لا يثبت أحد معه في مضمار».

ولقد خَلَفَ رحمه الله كتباً في العلم نافعة وكثيرة، أهمها: كتاب «فتح القدير» في التفسير، وهو الكتاب الذي نحن بصدد الكلام عنه، وكتاب «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» في الحديث، وكتاب «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات».. رد به على موسى بن ميمون الأندلسي اليهودي، وغير هذا كثير من مؤلفاته.

تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألَّفَ وأفتى. ثم خلع رِبْقَةَ التقليد، وتخلَّى بمنصب الاجتهاد، وألَّفَ رسالة سماها «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت، واثرت من أجل ذلك فتنة في صنعاء اليمن بين من هو مُقلِّد ومن هو مجتهد.

وعقيدة الشوكاني عقيدة السلف، من حمل صفات الله تعالى الواردة في القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألَّفَ في ذلك رسالة «التحف بمذهب السلف».

هذا وقد توفي الشوكاني رحمه الله سنة ١٢٥٠ هـ (خمسون بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية)، فرحمه الله وأرضاه (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أصول التفسير، ومرجعاً مهماً من مراجعه، لأنه جمع

(١) انظر ترجمة المؤلف في أول فتح القدير، وفي أول نيل الأوطار.

بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، فأجاد فى باب الدراية، وتوسّع فى باب الرواية، وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه شرع فيه فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية. كما ذكر أنه اعتمد فى تفسيره هذا على أبى جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقى، وابن عطية الأندلسى، والقرطبى، والزمخشرى، وغيرهم.

● طريقة الشوكانى فى تفسيره:

وطريقة الشوكانى التى سلكها فى تفسيره يكفيننا فى بيانها عبارته التى ذكرها فى مقدمة هذا التفسير مبينا بها منهجه فيه.

قال رحمه الله: «ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها، فأقول: إن غالب المفسرين تفرّقوا فريقين، وسلّكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية، والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللّغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاءوا به لم يصحوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب».

ثم قال بعد أن دلى على قوله هذا: «وبهذا يُعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذى وُطنت نفسى عليه، والمسلك الذى عزمتم على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين، وقد أذكر ما فى إسناده ضعف، إما لأن فى المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى. وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك، كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغى أن يُقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائر أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن، لأنهم لو كشفوا عنه فثبت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحُسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها، ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها. فليُنظر إلى أسانيدنا موفّقاً إن شاء الله.

«واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ، وتفاسير الصحابة ومن بعدهم،

وما فاته إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى بقولى: ومثله ونحوه، وضمنت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التى لاحت لى، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح .. فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد، وقواعد شرائد، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو اللباب، وعجب العُجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مآرب أولى الألباب .. وقد سميته «فتح القدير، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» (١).

مما تقدم يتضح لك جلياً طريقة المؤلف التى سلكها فى تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدته يذكر الآيات، ثم يفسرها تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السلف، وهو ينقل كثيراً عن ذكر من أصحاب كتب التفسير. ووجدته يذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والفراء، كما أنه يتعرض أحياناً للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية فى كل مناسبة، ويذكر اختلافهم وأدلتهم، ويُدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة فى الاستنباط، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

● نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:

غير أنى آخذ عليه - كرجل من أهل الحديث - أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ... الآية، وقوله فى الآية (٦٧) منها: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ... الآية، يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة على، ففى الآية الأولى يقول: ﴿.. وهم راكعون﴾ جملة حالية من فاعل للفاعل اللذين قبله، والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أى يقيمون الصلاة، ويؤتون

الزكاة، وهم خاشعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا منترفعين عليهم، وقيل: المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال» (١).

ثم نراه يذكر فى ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال: تصدَّق على بخاتم وهو راعع، فقال النبي ﷺ: «للسائل: «مَنْ أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾... الآية (٢)، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعه باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

وفى الآية الثانية نجده يروى عن أبي سعيد الخدرى أنه قال: «نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم «غدیر خم»، فى على بن أبى طالب رضى الله عنه»، ويروى عن ابن مسعود أنه قال: «كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: «يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك أن علياً مولى المؤمنين، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس» (٣) - ثم يمر على هاتين الروايتين أيضاً بدون أن يتعقبهما بشئ أصلاً.

● ذمه للتقليد والمقلدين:

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبّقها على مقلدى أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، مُعرضون عن سنة رسوله ﷺ. ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد من له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإمامه بشروطه إلا أننا لا ننكر أن فى الناس من ليس أهلاً للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد. ولست فى شك من أن الشوكانى مخطئ فى حملاته على المقلّدة، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات فى حق الكفرة على مقلّدى الأئمة وأتباعهم، وإليك بعض ما قاله فى تفسيره:

فمثلاً عندما تعرّض لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال ما نصه: «.. وإن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلّدة، الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].. والقائلون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾

(٢) الجزء الثانى صفحة ٥٠.

(١) الجزء الثانى صفحة ٤٨.

(٣) الجزء الثالث صفحة ٥٧.

[الأعراف: ٢٨] . . والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية، والنصرانى على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية أو النصرانية أو البدعة. وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص. فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفسد رأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا رسولاً واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته فقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧] ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله. ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، ومملكة العقل عندهم» (١).

وفي سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١): ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول ما نصه: «... وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستن بسنة من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبيأؤه، وهو كاتخاذ اليهود والنصارى الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله. للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرموا ما حرّموا. وحلّلوا ما حلّلوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء. فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله؛ ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده؟ فعلتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ

نداء، وتُصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذاناً صُماً، وقلوباً غلُفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولا مهیضة، وأذهاناً كليلية، وخواطر عليلية، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
 فدعوا - أرشدكم الله وإياي - كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا
 بها كتاب الله خالقهم وخالقكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم،
 واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى، بأقوال إمامكم
 وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر
 اللهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل .. اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى
 الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآيات (٥٢ - ٥٤) من سورة الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ
 لَأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال
 لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين ﴿ نجده يذم المقلدة، وأئمة المذاهب بما لا يليق
 أن يصدر من عالم في حق عالم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، وذلك حيث يقول:
 « .. وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، فإن العالم بالكتاب
 والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل .. قالوا: هذا قد قال به
 إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين، وبرأيه آخذين. وجوابهم هو ما أجاب به الخليل
 ههنا: ﴿لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين﴾ .. أى فى خسران واضح لا يخفى
 على أحد، ولا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضر ولا
 تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوى هذا الخسران
 خسران. وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنة رسوله كتاباً قد
 دُونت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما
 لقصور منه، أو لتقصير فى البحث، فوجد ذلك الدليل من وجدته، وأبرزه واضح المنار،
 كأنه علم فى رأسه نار، وقال: هذا كتاب الله، أو هذه سنة رسول الله،
 وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد
 فقالوا كما قال الأول:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح» (١)

● حياة الشهداء :

هذا .. وإن الشوكاني ليقرر فى تفسيره هذا: أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٦٩) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: «.. وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم؟ . فقيل: شهداء أحد. وقيل: فى شهداء بدر. وقيل: فى شهداء بئر معونة .. على فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة. ثم اختلفوا: فمنهم من قال: إنها تُرد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون. وقال مجاهد: يُرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها. وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، وأنهم فى الجنة يُرزقون ويأكلون ويتمتعون» (٢).

● التوسل :

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء موقف المعارضة، ويفيض فى الإنكار على من يفعل ذلك فى سورة يونس عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩): ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ .. يقول ما نصه: «.. وفى هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيره المناذرة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يُطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شئ، الخالق الرازق، المعطى المانع، وحسبك بما فى هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات

الذين صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عزَّ وجلَّ. كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حلَّ بهم من المخالفة لمعنى «لا إله إلا الله» ومدلول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

«وأعجب من هذا، اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، ويناديهم تارة علي الاستقلال، وتارة مع ذى الجلال، وكفأك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومُطَهِّر، شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر. ولقد توسل الشيطان - أخزاه الله - بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!! .. إنا لله وإنا إليه راجعون» (١).

● موقفه من المتشابه:

ثم إن المؤلف - كما قلنا في ترجمته - سلفى العقيدة، فكل ما ورد في القرآن من ألفاظ توهم التشبية حملها على ظاهرها، وفوض الكيف إلى الله، ولهذا نراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. يقول: «الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك. وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا فى ذلك خطأً بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً وقال بعض السلف: إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجح هذا القول ابن جرير. وقيل: كرسىه: قدرته التى يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً.. أى ما يعمده. وقيل: إن الكرسى هو العرش، وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له. وقيل: هو عبارة عن الملك. والحق القول الأول. ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾... الآية، يقول ما نصه: «قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولاها

بالصواب مذهب السلف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه» (١).

● موقفه من آراء المعتزلة:

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم فى غالب مسائل الكلام، فإننا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم، ويعارضهم معارضة شديدة فى كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾... الآية، يقول ما نصه: «... وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم، لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا. وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا والآخرة. وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا، ووقوعها فى الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة، وهى قطعية الدلالة، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم بنصيب نافع» (٢).

كذلك نراه يرد على الزمخشري فى دعواه: أن دخول الجنة مستحق بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: «... قال الكشاف: «بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطله». أقول: يا مسكين.. هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه: «سددوا وقاربوا واعملوا. إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطله. وفي التنزيل: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠]، وفيه: ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥] (٣).

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها فى المعين، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة يوسف: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾... الآية: «وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى، أن للعين تأثيراً، وليس هذا بمستنكر من هذين

(١) الجزء الثانى صفحة ٢٠١.

(٢) الجزء الثانى صفحة ١٩٦.

(٣) الجزء الأول صفحة ٧٢.

وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديد نهم، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة في عصر النبوة. ومنهم رسول الله ﷺ. وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف، لمجرد الاستبعاد العقلي، والتنطع في العبارات، كالزمخشري في تفسيره، فإنه في كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة في العبارة، على وجه يوقع المقصرين في الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة. وبالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة. وإجماع من يُعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً، وبما هو مُشاهد في الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنساني، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السب» (١).

ويقف الشوكاني من المعتزلة موقف المعارضة في مسألة غفران الذنوب. فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة الزمير: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾... الآية، نجده يقول: «... وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تفسير هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين. وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادي، وعلى نفسها براقش تحبني، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء ١١٦].. فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد ٦].. قال الواحدي: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ. قلت: هب أنها في هؤلاء فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم. ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله» (٢).

● موقف الشوكاني من مسألة خلق القرآن: ولم يرض الشوكاني موقف أهل السنة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف في هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى،

وراح ينحى باللائمة على من يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرّض لتفسير قوله تعالى في الآية (٢) من سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثًا إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يقول ما نصه: «.. وقد استدل بوصف الذكر بكونه مُحدَّثًا على أن القرآن مُحدَّث، لأن الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول، فالمعنى: محدث تنزيله « وإنما النزاع في الكلام النفسى ^(١). وهذه المسألة - أعنى قدم القرآن وحدثه - قد ابتلى بها كثير من أهل العلم.. ولقد أصاب أئمة السُنَّة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدثه، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم - رحمهم الله - جاوزوا ذلك إلى القول بقدمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفّروا من قال بالحدث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يُسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شئ من الكلام، ولا تُنقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه. هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه» ^(٢).

هذا هو أهم ما في تفسير الشوكاني من البحوث التي أعطى فيها لنفسه حرية واسعة. خوّل له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يُندد ببعض مواقف أهل السُنَّة. وأحسب أن الرجل قد دخله شئ من الغرور العلمي، فراح يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعاً موقف الحاكم النزيه، والناقد العف. وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية، ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم في التفسير، وأحسب أنه كثير. والكتاب مطبوع في خمس مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

* * *

(١) ليس هذا هو محل النزاع، لأن الكلام النفسى بمعنى أنه صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى ليست بحرف ولا صوت، منزهة عن التقديم والتأخير ولوازم الكلام اللفظي، ومنزهة عن السكوت النفسى وعن الآفة الباطنة.. الكلام النفسى بهذا المعنى يقول به الأشعرى وينفيه باقى الفرق - انظر محاضرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أبى دقيقة ص ١٢٨ - مطبعة الإرشاد سنة ١٩٣٦.

الخوارج .. وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

• كلمة إجمالية عن الخوارج:

بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، نشط أنصار على رضى الله عنه فى الدعوة له، حتى أخذوا له البيعة من المسلمين، ليكون خليفة لهم ... ولكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر، لاعتقادهم أن الحق فى غير جانبه. وهؤلاء الصحابة هم: معاوية بن أبى سفيان، وطلحة بن عبید الله، والزبير بن العوام.

وكان لعلى - رضى الله عنه - شيعه وانصار، وكان لمعاوية رضى الله عنه شيعه وانصار كذلك. وكانت حروب طاحنة بين الفريقين!! كان الغلب فيها لعلى وحزبه، إلى أن جاءت موقعة صفين، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية، وأوشكت الهزيمة أن تحدق به، لولا أن لجأ إلى حيلة رفيع المصاحف على أسنة الرماح، طلباً للهدنة، ورغبة فى التحكيم بين الحزبين. وبعد أخذ ورد بين جيش على فى قبول التحكيم وعدمه. رأى على رضى الله عنه قبول التحكيم، رغبة منه فى حقن الدماء. واختار معاوية: عمرو بن العاص ليمثله، واختار أصحاب على: أبى موسى الأشعري.

وكان قبول على - رضى الله عنه - لمبدأ التحكيم أول عامل من عوامل التصدع فى جيشه وحزبه إذ أن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ لأن الحق ظاهر فى جانب على، ولا يعتوره شك فى نظرهم، وقبول التحكيم دليل الشك من على فى أحقيته بالخلافة، وهم إنما قاموا معه فى حروبه لاعتقادهم بأن الحق فى جانبه، فكيف يشك هو فيه؟ لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم. فخرجوا على على، ولم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، لقبوله التحكيم، وإلا إذا نقض ما أبرم من الشروط بينه وبين معاوية، ولكن على رضى الله عنه لم يستحب لرغبتهم هذه، فأخذوا كلما خطب على أو ضممه وإياهم مكان جامع رفعوا أصواتهم بقولهم: « لا حكم إلا الله ».

وكان التحكيم، وفيه خدع عمرو بن العاص أبى موسى الأشعري، فلم يكن إلا تحكيماً فاشلاً، أمال قلوب كثير من الناس إلى ناحية الخوارج، وأخيراً وبعد يأس الخوارج من رجوع على إليهم اجتمعوا فى منزل أحدهم، وخطب فيهم خطبة حثهم على التمسك بمبادئهم والدفاع عنه، وطلب منهم الخروج من الكوفة إلى قرية بالقرب منها يقال لها « حروراء »، فخرجوا إليها وأمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي (١)،

(١) نسبة إلى راسب - حى من الأزدي.

ووقعت بينهم وبين عليّ حروب طاحنة هزمهم فيها، ولكن لم يقض عليهم. وأخيراً دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم.

وجاءت دولة الأمويين، فكان الخوارج شوكة في جنبها يهددون بها ويحاربونها، حتى كادوا يقضون عليها. ثم جاءت الدولة العباسية، فكان بينهم وبينها حروب كذلك، ولكن لم يكونوا في قوتهم الأولى، لتفرق كلمتهم وتشتت وحدتهم، وضعف سلطانهم، وخور قواهم.

دبت في وحدة الخوارج جرثومة التفرق، وأصيبوا بداء التحزب، فبلغ عدد أحزابهم عشرين حزباً، كل حزب يفارق الآخر في المبدأ والعقيدة.. ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

أحدهما: إكفار عليّ، وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضى بتحكيم الحكمين.

وثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج، وهو: الإكفار بارتكاب الكبائر^(١). هذا.. وقد وضع الخوارج مبدأ للخلافة فقالوا: «إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يُحكّم، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم، ولو كان عبداً حبشياً، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله، وإلا وجب عزله، ولهذا أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، ولم يكن قرشياً»^(٢).

وعلى هذا حكموا بصحة خلافة أبي بكر وعمر، وبصحة خلافة عثمان في سنيه الأولى، فلما غير وبدل ولم يسر سيرة الشيخين - كما زعموا - وجب عزله، وأقروا بصحة خلافة عليّ أولاً، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ في التحكيم، وكفر به كما يزعمون!!

ولا يسعنا في تلك العجالة إلا أن نطوى الحديث عن التعرض لكل فرقة من فرق الخوارج، ولكن نكتفي بالكلام عن أشهرها، وهي ما يأتي:

أولاً - الأزارقة: وهم أتباع نافع بن الأزرق، وهم يُكفرون من عداهم من المسلمين، ويُحرّمون أكل ذبائحهم ومناكحتهم، ولا يُجيزون التوارث بينهم، ويعاملونهم معاملة الكفار من المشركين.. إما الإسلام، وإما السيف، ودارهم دار حرب، ويحل قتل نساءهم وأطفالهم، ولا يقولون برجم الزاني المحصن، ولا يقولون بحد من

(٢) فجر الإسلام: ٣١٧/١.

(١) انظر الفرق بين الفرق ص ٥٥.

يقذف المحصنين من الرجال .. أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعاً . ولا يرون جواز التقية .

ثانيا - النجدات : وهم أتباع نجدة بن عامر، وهم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم، فإن رأوا أن الحاجة تدعو إلى إمام أقاموه، وإلا فلا . كما أنهم يكفرون من يقول بإمامة نافع ابن الأزرق، ويكفرون من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع وحزبه ويقولون: إن الدين أمران: أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة الرسول، والإقرار بما جاء به جملة، فهذا واجب معرفته على كل مكلف .

وثانيهما: ما عدا ما تقدم، فالناس معذورون بجهالته إلى أن تقوم عليهم الحجة . فمن استحل شيئاً حراماً باجتهاد فله عذره، وهم يعظمون جريمة الكذب، ويجعلونها أكبر جرماً من شرب الخمر والزنا .

ومن بدع «نجدة» أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه، وقال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم في غير نار جهنم، ثم يدخلهم الجنة، وزعم أن النار يدخلها من خالفه في دينه .

ثالثاً - الصفرية: وهم أتباع زياد بن الأصفر، وهم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما ترى الأزارقة ذلك . ومن الصفرية من يخالف في ذلك فيقول: كل ذنب له حد في الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركاً، ولا كافراً، بل يدعى باسمه المشتق من جريمته يقال: سارق، وقاتل، وقاذف .. وكل ذنب ليس فيه حد معلوم في الشريعة مثل الإعراض عن الصلاة فمرتكبه كافر .. ولا يُسمى مرتكب واحد من هذين النوعين جميعاً مؤمناً، ومنهم من يقول: إن صاحب الذنب لا يُحكم عليه بالكفر حتى يُرفع إلى الوالي فيحده ويحكم بكفره .

رابعاً - الإباضية: وهم أتباع عبد الله بن إباض، وهم أعدل فرق الخوارج، وأقربها إلى تعاليم أهل السنة، وهم يُجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين، ولا مؤمنين، ولكنهم كفار . ويروى عنهم أنهم يريدون: كفر النعمة، وأجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، ومناكحتهم، والتوارث معهم، وحرّموا دماءهم في السر دون العلانية . لأنهم محاربون لله ولرسوله، ولا يدينون دين الحق، ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، واستحلوا من غنائمهم: الخيل والسلاح، وكل ما فيه قوة حربية لهم . ولم يستحلوا غنائم الذهب والفضة، بل يردونها لأهلها .

واختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال :

فريق يرى أن النفاق براءة من الشرك والإيمان معاً، ويحتج بقوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة النساء: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ..

وفريق يرى أن كل نفاق هو شرك، لأنه ينافى التوحيد .

وفريق ثالث يرى أن النفاق لا يُسمى به غير القوم الذين سمّاهم الله تعالى منافقين .

وهناك مخالفة لبعض الإباضية فى بعض المسائل . لا نعرض لها هنا، مخافة

التطويل .

هذه هى أهم فرق الخوارج، وهذه هى أهم ما لهم من تعاليم وعقائد، نضعها بين

يدى القارئ قبل أن نتكلم عن موقفهم و من التفسير ليكون علي علم بها، وليعلم

بعد ذلك مقدار الصلة بينها وبين ما لهم من تفسير .

● مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم :

تعددت فرق الخوارج، وتعددت مذاهبهم وآراؤهم، فكان طبيعياً - وهم ينتسبون

إلى الإسلام، ويعترفون بالقرآن - أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم،

تبنى عليها مبادئها وتعاليمها، وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها، فما رآته فى

جانبها - ولو ادعاءً - تمسكت به، واعتمدت عليه، وما رآته فى غير صالحها حاولت

التخلص منه بصرفه وتأويله، بحيث لا يبقى متعارضاً مع آرائها وتعاليمها .

● سلطان المذهب يغلب على الخوارج فى فهم القرآن :

والذى يقرأ تاريخ الخوارج، ويقرأ ما لهم من أفكار تفسيرية، يرى أن المذهب قد

سيطر على عقولهم، وتحكّم فيها، فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا علي ضوئه، ولا

يدركون شيئاً من معانيه إلا تحت تأثير سلطانه، لا يأخذون منه إلا بقدر ما ينصر

مبادئهم ويدعو إليها .

فمثلاً نرى أن أكثر الخوارج يُجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر، ومخلّد فى نار

جهنم، ونقرأ فى الكتب التى تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبى الحديد - وهو ممن

تعرض لهم فى كتابه «شرح نهج البلاغة» - يسوق لنا أدلتهم التى أخذوها من القرآن،

وبنوا عليها رأيهم فى مرتكب الكبيرة، كما نجده يناقش هذه الأدلة، ويفندها دليلاً

بعد دليل . ونرى أن نمسك عن مناقشة ابن أبى الحديد لهذه الأدلة، ويكفى أن نسوق

للقارئ الكريم هذه الآيات التى استندوا إليها، ووجهة نظرهم فيها، فهى التى تعيننا

فى هذا البحث، وهى التى ترينا إلى أى حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة فى فهم

نصوص القرآن .. فمن هذه الأدلة ما يأتى :

قوله تعالى في الآية (٩٧) من سورة آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ .. قالوا: فجعل تارك الحج كافرًا.

ومنها قوله تعالى في الآية (٨٧) من سورة يوسف: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .. قالوا: والفاسق - لفسقه وإصراره عليه - آيس من روح الله، فكان كافرًا.

ومنها قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ .. قالوا: وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله .
ومنها قوله تعالى في الآيات (١٤ - ١٦) من سورة الليل: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ .. قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلى النار، فوجب أن يُسمى كافرًا.

ومنها قوله تعالى في الآية (١٠٦) من سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .. قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت، ووجب أن يُسمى كافرًا، لقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ومنها قوله تعالى في الآيات (٣٨) وما بعدها إلى آخر سورة عبس: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ * ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غُيْبَةٌ * تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ .. قالوا: والفاسق على وجهه غبرة، فوجب أن يكون من الكفرة الفجرة .

ومنها قوله تعالى في الآية (١٧) من سورة سبأ: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ .. قالوا: والفاسق لا بد أن يُجازى، فوجب أن يكون كفورًا .
ومنها قوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة الحجر: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، وقال في الآية (١٠٠) من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ .. قالوا: فجعل الغاوى الذى يتبعه مشرکًا .

ومنها قوله تعالى في الآية (٢٠) من سورة السجدة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَأَهُمُ النَّارُ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ .. قالوا: فجعل الفاسق مكذبًا .

ومنها قوله تعالى في الآية (٣٣) من سورة الأنعام: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .. قالوا: فثبت الظالم جاحدًا، وهذه صفة الكفار .

ومنها قوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة النور: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

ومنها قوله تعالى في الآيات (١٠٢ - ١٠٥) من سورة المؤمنون: ﴿فَمِنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾ * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * . قالوا: فنص سبحانه على أن من تخف موازينه يكون مكذبا، والفاسق تخف موازينه فكان مكذبا، وكل مكذب كافر.

ومنها قوله تعالى في الآية (٢) من سورة التغابن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ . قالوا: وهذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافرا (١).

هذه بعض الآيات التي تمسك بها الخوارج في موقفهم من مرتكب الكبيرة الذي لم يتب، والتي حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفيهم من المسلمين. ولا يسع الذي يعرف سياق هذه الآيات وسباقها، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة في شأن عصاة المؤمنين، ويتأمل قليلا في هذه التخريجات والاستنتاجات التي يقولون بها، لا يسعه بعد هذا كله: إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون، ومندفعون بدافع العقيدة، وسلطان المذهب.

وهناك نصوص من القرآن استغلها أفراد من الخوارج، لتدعيم مبادئهم التي يشذون بها عن عداهم من بعض فرق الخوارج، وهي في مظهرها التفسيرى أكثر تعصبا، وأبلغ تعنتا، فمن ذلك: أن نافع بن الأزرق كان لا يرى جواز التقية التي هي في الأصل من مبادئ الشيعة، ويستبدل على حرمتها بقوله تعالى في الآية (٧٧) من سورة النساء: ﴿.. إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ .

ويرى نجدة بن عامر جواز التقية، ويستبدل على ذلك بقوله تعالى في الآية (٢٨) من سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ .

وأظهر من هذا: أن نجدة بن عامر كان لا يُصوب نافع بن الأزرق فيما يقول به من إكفار القعدة، واستحلال قتل أطفال مخالفيه، وعدم رد الأمانات إلى مخالفيه، وغير ذلك من آرائه التي شذ بها، فأرسل نجدة إلى نافع رسالة يقول له فيها: «وأكفرت الذين عذرهم الله تعالى في كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم. قال الله عز وجل - وقوله الحق ووعد الصديق: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى

الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرْجًا إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، ثم سماهم - تعالى -
 أحسن الأسماء فقال: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١] .. ثم
 استحلت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله جل ثناؤه:
 ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال سبحانه في القعدة خيراً فقال:
 ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥]، ففضيله
 المجاهدين على القاعدتين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين أو ما سمعت قوله
 تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ [النساء: ٩٥] ..
 فجعلهم من المؤمنين، ثم إنك لا تؤدي الأمانة إلى من خالفك، والله تعالى قد أمر أن
 تؤدي الأمانات إلى أهلها، فاتق الله في نفسك، واتق يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا
 مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل.
 والسلام» .

فرد عليه نافع بكتاب جاء فيه: « .. وعبت ما دنت به من إكفار القعدة وقتل
 الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله ..
 أما هؤلاء القعدة .. فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ، لأنهم
 كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال
 بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد تفقهوا في الدين وقرأوا القرآن والطريق لهم نهج واضح،
 وقد عرفت ما قاله الله تعالى فيمن كان مثلهم إذ قالوا: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾
 [النساء: ٩٧]، فقال: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧]،
 وقال سبحانه: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨١]، وقال: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ
 الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٠] .. فأخبر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله.
 ثم قال: ﴿ سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٠] . فانظر إلى
 أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفال .. فإن نوحاً نبي الله كان أعلم بالله مني ومنك، وقد قال: ﴿ رَبِّ لَا
 تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَتْلُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
 كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧] .. فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا، فكيف كان
 ذلك في قوم نوح ولا نقوله في قومنا .. والله تعالى يقول: ﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَادِكُمْ
 أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣] .. وهؤلاء كمشركي العرب لا يقبل منهم جزية،
 وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات مَنْ خالفنا . فإن الله تعالى أحلّ لنا أموالهم كما أحلّ دماءهم لنا، فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فئ للمسلمين» (١).

ولا شك لدينا في أن نافع بن الأزرق متعصب في فهمه للآيات على النحو الذي جاء في رسالته هذه، وهو تعصب بلغ به إلى درجة المغالطة، وإلا فهو جهل منه بمواقع كلام الله، ومدلول آياته .

● مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن :

هذا .. وإن الخوارج عندما ينظرون إلى القرآن لا يتعمقون في التأويل ولا يغوصون وراء المعاني الدقيقة، ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث عن أهداف القرآن وأساره، بل يقفون عند حرفية ألفاظه، وينظرون إلى الآيات نظرة سطحية، وربما كانت الآية لا تنطبق على ما يقصدون إليه، ولا تتصل بالموضوع الذي يستدلون بها عليه، لأنهم فهموا ظاهراً معطلاً، وأخذوا بفهم غير مراد .

ولقد يعجب الإنسان ويدهش عندما يقرأ ما للقوم من سخافات في فهمهم لبعض نصوص القرآن، أوقعهم فيها التنطع والتمسك بظواهر النصوص، ولكي لا أتهم بالقسوة في حكمي هذا، أضع بين يدي القارئ الكريم بعض ما جاء عن القوم، حتى لا يجد مفراً من الحكم عليهم بمثل ما حكمت به .

« روى أن عبيدة بن هلال اليشكري أتته امرأة حدّاد رأوه يدخل منزله بغير إذنه، فأتوا قطرياً (٢) فذكروا ذلك له، فقال لهم: إن عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إننا لا نقاره على الفاحشة، فقال: انصرفوا... ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال: إننا لا نقار على الفاحشة، فقال: بهتوني يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إنني جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البرئ... فجمع بينهم فتكلموا، فقام عبيدة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾... الآية (١١) وما بعدها من سورة النور - فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه وقالوا: استغفر لنا... ففعل» (٣).

« ويروى أن واصل بن عطاء وقع هو وبعض أصحابه في يد الخوارج فقال لأصحابه: اعتزلوا ودعوني وإياهم - وكانوا قد أشرفوا على العطب - فقالوا: شأنك... فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال مشركون مستجرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلمونا، فجعلوا يعلمونه، أحكامهم وجعل يقول: قد قبلتُ أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال: ليس

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المجلد الأول ص ٣٨٢ .

(٢) هو قطري بن الفجاءة الزعيم الثالث للأزارقة . (٣) الكامل للمبرد: ٢/٢٣٦ .

ذلك لكم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]. فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن» (١).

ومن الخوارج من أداه تمسكه بظاهر النصوص إلى أن قال: «لو أن رجلاً أكل من مال يتيم فليس من وجبت له النار، لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾، ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار، لأن الله لم ينص على ذلك» (٢).

وهذا هو ميمون العجردى زعيم الميمونية (٣) من الخوارج، يرى جواز نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة والأخوات ويستدل على ذلك فيقول: «إنما ذكر الله تعالى في تحريم النساء بالنسب الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ولم يذكر بنات البنات ولا بنات البنين، ولا بنات أولاد الإخوة، ولا بنات أولاد الأخوات» (٤).

ويروى أن رجلاً من الإباضية أضاف جماعة من أهل مذهبه، وكانت له جارية على مذهبه قال لها: قد مئى شيئا، فأبطأت، فحلف لبييعها من الأعراب، فقيل له: تبيع جارية مؤمنة من قوم كفار، فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (٥) .. فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة.

وأيضاً نرى أن الخوارج خرجوا على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وقالوا: لم خرجت من بيتها، والله تعالى يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؟ (٦) .. فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب.

وأيضاً فإن الأزارقة قالوا: من قذف امرأة محصنة فعليه الحد، ومن قذف رجلاً محصناً فلا حد عليه (٧)، وهذا لأن الله تعالى نص على حد قاذف المحصنات، ولم ينص على حد قاذف المحصنين.

وقالوا - أيضاً - بأن سارق القليل يجب عليه القطع (٨)، أخذاً بظاهر قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾.

(١) الكامل للمبرد: ١٠٦/٢. (٢) تلبيس إبليس ص ٩٥.

(٢) يعدهم صاحب الفرق بين الفرق من غير المسلمين.

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٦٤، ٢٦٥. (٥) التبصير فى الدين ص ٣٥.

(٦) المرجع السابق ص ٣٦. (٧) نفس المرجع ص ٢٩.

(٨) التبصير فى الدين ص ٢٩.

وغير هذا كثير نجده عندهم في بطون الكتب، وهو لا يدع مجالاً للشك في أن الخوارج قوم سطحيون في فهمهم لآيات القرآن الكريم، وإدراك معانيه.

● موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة، وأثر ذلك في تفسيرهم للقرآن:

ولقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية. أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخاً لبعض آيات الكتاب. أو مخصصاً لبعض عموماته، أو زائداً على بعض أحكامه، ويظهر أن هذا المبدأ قد تملك قلوب الخوارج، وتسلبت على عقولهم، فنتج عنه أن وضع بعضهم على رسول الله ﷺ هذا الحديث، وهو: «إنكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله، وما خالفه فليس عنى» فقد قال عبد الرحمن المهدي: «الزنادقة والخوارج وضعوا حديث: ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله .. الخ»^(١).

كما كان من أثر هذا الجمود عند ظواهر القرآن أيضاً، أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع الأمة، ولم يقدروه عند فهمهم لنصوص القرآن، مع أن الإجماع في الحقيقة يستند إلى أصل من الكتاب أو السنة، وليس أمراً مبتدعاً في الدين، أو خارجاً على قواعده وأصوله.

وفي هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج، وهي مخالفة لإجماع الأمة. ومناقضة لما صح عن الرسول ﷺ، وقالوا: يبطلها القرآن .. فيقول:

«قالوا: حكم في الرجم يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ رجم، ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول في الإمامة: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، والرجم إتلاف للنفس لا يتبعض، فكيف يكون على الإمامة نصفه؟ .. وذهبوا إلى أن المحصنات: ذوات الأزواج .. قالوا: وفي هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد»^(٢).

«قالوا: حكم في الوصية يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «لا وصية لوارث»، والله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، والوالدان وارثان على كل حال لا يحجبهما أحد عن الميراث. وهذه الرواية خلاف كتاب الله عز وجل»^(٣).

«قالوا: حكم في النكاح يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «لا

(١) انظر القول الفصل لشيخ الإسلام صبرى، ص ٦٤، ٦٥ (هامش) وقد اغترب بهذا الحديث الموضوع كثير من المسلمين، وكان ذريعة لتشكيك بعض الناس في عقائدهم.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤١. (٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢.

تُنكح المرأة على عَمَّتِهَا، ولا على خَالَتِهَا»، وأنه قال: «يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يُحَرِّمُ مِنَ النِّسْبِ». والله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]... إلى آخر الآية، ولم يذكر الجمع بين المرأة وَعَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا، ولم يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا الْأُمَّ الْمُرْضِعَةَ وَالْأُخْتَ بِالرِّضَاعِ.. ثم قال: ﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٢٤] فدخلت المرأة على عَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا، وكل رضاع سوى الأم والأخت، فيما أحلَّهُ اللهُ تَعَالَى» (١).

يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم، ثم يتولى الرد عليهم في ذلك كله رداً مسهباً فيه إزالة كل شبهة، ودفع كل حجة وردت على ألسن القوم، ولا نظيل بذكر ذلك. ومن أراد الوقوف عليه، فليرجع إليه في تأويل مختلف الحديث (ص ٢٤١ - ٢٥٠).

● الإنتاج التفسيري للخوارج:

لم يكن للخوارج من الإنتاج التفسيري مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة أو غيرهما من فرق المسلمين، التي خلقت لنا الكثير من كتب التفسير، وكل ما وصل إلينا من تفسير الخوارج الأول لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، واشتملت عليها مناظراتهم، وذكرنا لك منها كل ما وصل إلى أيدينا، وجميع ما استخلصناه من بطون الكتب المختلفة.

ولكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير؟ وهل وقف إنتاجهم عند هذا المقدار الضئيل؟ أو كان لهم مع هذا كتب مستقلة في التفسير، ولكن فقدتها المكتبة الإسلامية على طول الأيام ومر العصور؟.

الحق أني وجهت لنفسي هذا السؤال، وكدت أعجز عن الجواب عنه.. ولكن هيا لله لى ظرفاً جمعني مع رجل من الإباضية المعاصرين (٢)، يقيم في القاهرة، فوجهت إليه هذا السؤال نفسه، فأفهمني أن الإنتاج التفسيري للخوارج كان قليلاً بالنسبة لإنتاج غيرهم من فرق الإسلام، ومع هذا فلم تحتفظ المكتبة الإسلامية من هذا النتاج القليل إلا ببعض منه. لبعض العلماء من الإباضية في القديم والحديث.

فسألته: وهل تذكر شيئاً من هذه الكتب؟ فذكر لي من الكتب ما يأتي:

- ١ - تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي.. من أهل القرن الثالث الهجري.
- ٢ - تفسير هود بن محكم الهواري.. من أهل القرن الثالث الهجري.
- ٣ - تفسير أبي يعقوب، يوسف بن إبراهيم الوردجاني.. من أهل القرن السادس الهجري.

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) هو الشيخ إبراهيم إطفيش، الموظف بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية.

٤ - داعى العمل ليوم الأمل .. للشيخ محمد بن يوسف إطفيش .. من أهل القرن الحاضر.

٥ - هميان الزاد إلى دار المعاد .. له أيضاً.

٦ - تيسير التفسير .. له أيضاً.

فقلت له : وهل يوجد شئ من هذه الكتب إلى اليوم؟

فقال لى : أما تفسير عبد الرحمن بن رستم، فغير موجود . وأما تفسير هود بن محكم، فموجود، ومتداول بين الإباضية فى بلاد المغرب .. وهو يقع فى أربع مجلدات، وقد أطلعنى منه على جزئين مخطوطين عنده، وهما الأول والرابع . أما الأول : فيبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى بآخر سورة الأنعام . وأما الرابع : فيبدأ بسورة الزمر، وينتهى بآخر القرآن .

قال : وأما تفسير أبى يعقوب الوردجلى، فغير موجود، ويذكر المحققون من علمائنا أنه من أحسن التفاسير بحثاً، وتحقيقاً، وإعراباً .

وأما تفسير داعى العمل ليوم الأمل، فلم يتمه مؤلفه، لأنه عزم على أن يجعله فى اثنين وثلاثين جزءاً، ثم عدل عن عزمه هذا، واشتغل بتفسير هميان الزاد إلى دار المعاد .

وقد أطلعنى مُحدثى على أربعة أجزاء من تفسير داعى العمل، فى مجلدين مخطوطين بخط المؤلف، أما أحد المجلدين : فإنه يحتوى على الجزء التاسع والعشرين، والجزء الثلاثين من أجزاء الكتاب، وهو يبدأ بسورة الرحمن، وينتهى بآخر سورة التحريم، وأما المجلد الثانى : فإنه يحتوى على الجزء الحادى والثلاثين، والجزء الثانى والثلاثين، وهو يبدأ بسورة تبارك، وينتهى بآخر القرآن . وقد وجدت بالمجلد الأخير بعض ورقات فيها تفسير أول سورة (ص)، ويظهر - كما قال مُحدثى - أن المؤلف قد ابتداءً تفسيره هذا بسورة الرحمن إلى أن انتهى إلى آخر سورة الناس، ثم بدأ بسورة (ص) ووقف عندها ولم يتم .

وأما تفسير هميان الزاد، فموجود ومطبوع فى ثلاثة عشر مجلداً كبيراً، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، ونسخة أخرى عند مُحدثى .

وأما تيسير التفسير، فموجود ومطبوع فى سبع مجلدات متوسطة الحجم، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى عند مُحدثى أيضاً .

● أسباب قلّة إنتاج الخوارج فى التفسير :

وأنت ترى أن هذه الكتب المذكورة، ما وُجد منها وما لم يُوجد، كلها للإباضية وحدهم، ولعل السر فى ذلك : أن جميع فرق الخوارج ماعدا الإباضية بادت ولم يبق لها أثر .

أما الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا، ومذهبهم منتشر في بلاد المغرب، وحضرموت، وعمان، وزنجبار.

ولكن بقي بعد هذا سؤال يتردد في نفسى، ولعله يتردد في نفس القارئ أيضاً وهو: ما السرف في أن الخوارج قلَّ إنتاجهم في التفسير؟

والجواب عن هذا السؤال - كما أعتقد - ينحصر في أمور ثلاثة وهي ما يأتي:
أولاً: أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية، ومن قبائل تميم على الأخص، وقليل منهم كان يسكن البصرة والكوفة مع احتفاظه ببدوته، فكانوا لغلبة البداوة عليهم أبعد الناس عن التطور الدينى، والعلمى، والاجتماعى، وكانوا يمثلون الإسلام الأول فى بساطته، وعلى فطرته، بدون أن تشوبه تعاليم الأمم الأخرى. أضف إلى ذلك: احتفاظهم بأهم خصائص أهل البدو من سذاجة التفكير، وضيق التصور، والبعد عن التأثر بحضارة الأمم المجاورة لهم.

ثانياً: أنهم شغلوا بالحروب من مبدأ نشأتهم. وكانت حروباً قاسية وطويلة، ومتتابعة.. أسلمتهم حروب على إلى حروب الأمويين، وأسلمتهم حروب الأمويين إلى حروب العباسيين التى تركتهم فى حالة تشبه الاحتضار، وتؤذن بالفناء، فكان من الطبيعى أن لا تدع الحرب لهم من الوقت ما يتسع للبحث والتصنيف.

ثالثاً: أن الخوارج - مع ما هم عليه من شذوذ - كانوا يخلصون لعقيدتهم، ويتمسكون بإيمانهم إلى حد كبير، ويرون أن الكذب جريمة من أكبر الجرائم، وبه - عند جمهورهم - يخرج الإنسان من عداد المؤمنين - فلعل هذا دعاهم إلى عدم الخوض فى تفسير القرآن، وجعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه، مخافة أن لا يصيبوا الحق فيكونوا قد كذبوا على الله.. وقد سئل بعضهم: لمَ لم تُفسر القرآن؟ فقال: «كلما رأيت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].. أحجمت عن التفسير».

من أجل هذا كله لم يكن ينتظر من الخوارج أن يؤلفوا لنا فى التفسير كما ألف غيرهم، وليس التفسير وحده هو الذى حُرِمَ من تصنيف الخوارج وتأليفهم، بل كل العلوم فى ذلك سواء، وما وُجد لهم من مؤلفات فى علم الكلام، أو الفقه، أو الأصول، أو الحديث، أو التفسير، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية وحدهم، لأن هذه الفرقة هى التى عاشت وانتشرت فى كثير من بلاد المسلمين، واستمرت إلى يومنا هذا، وتأثرت بتعاليم المعتزلة وغيرهم، وسأيرت التطور العلمى والاجتماعى.

وبعد.. فهذا هو تراث الخوارج فى التفسير، وهو تراث نادر عزيز، وما وُجد منه أندر وأعز، وأرى أن أكتفى بالكلام عن «هميان الزاد إلى دار المعاد» وحده، وعذرى

في ذلك : أن ما وجدناه من تفسير هود بن محكم، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه الاطلاع الكافي الذي يعطينا فكرة واضحة عنه، وعن مؤلفه، وذلك راجع إلى رداءة خطه، وضياع بعض أوراقه، وتآكل بعضها.

وما وجدناه من تفسير « داعي العمل ليوم الأمل ». لم يكن أكثر حظاً من تفسير هود بن محكم.

وأما « تيسير التفسير » .. فهو في الحقيقة خلاصة لما تضمنه « هميان الزاد » فلم يكن الكلام عنه بمعطينا فكرة جديدة عن التفسير عند الإباضية أو عند مفسره على الأقل.

* * *

هميان الزاد إلى دار المعاد لـ (محمد بن يوسف إطفيش)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير (١):

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبي (٢)، الإباضي، وهو من وادي ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب. نشأ بين قومه، وعُرف عندهم بالزهد والورع. واشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وانكب على القراءة والتأليف، حتى قيل إنه لم ينم في ليلة أكثر من أربع ساعات. وله من المؤلفات في شتى العلوم ثروة عظيمة تربو على الثلاثمائة مؤلف.. فمن ذلك: نظم المغنى لابن هشام خمسة آلاف بيت.. وكان ذلك في شبابه، وشرح كتاب التوحيد للشيخ عيسى بن تبغورين وهو من أهم مؤلفاته في علم الكلام، وشرح كتاب العدل والإنصاف في أصول الفقه لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني، وله في الحديث: وفاء الضمانة بأداء الأمانة، وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات، وجامع الشمل في حديث خاتم الرسل، وهو مطبوع في مجلد واحد. وله في الفقه شرح كتاب النيل. وهو مطبوع في عشر مجلدات، وله مؤلفات أخرى في النحو والصرف، والبلاغة، والفلك، والعروض، والوضع، والفرائض، وغيرها. وأما التفسير فله فيه «داعى العمل ليوم الأمل»، لم يتم.. و«هميان الزاد إلى دار المعاد»، وهو ما نحن بصددده.. و«تيسير التفسير»، وهو مختصر من السابق. هذا، وقد توفي المؤلف سنة ١٣٣٢ هـ (اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة)، وله من العمر ست وتسعون سنة.

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج، غير أنه لا يُصور لنا حالة التفسير عندهم في عصورهم الأولى، وذلك لقرب عهد مؤلفه، وتأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه، والذين خالفوه فيه.

ولقد جرت سنة الله بين المؤلفين أن يأخذ اللاحق من السابق، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم، وصاحبنا في تفسيره هذا، استمد من كتب من سبقه من المفسرين على اختلاف نحلهم ومشاربهم وإن كان يدعى في مقدمته أنه لا يُقلد فيه أحداً إلا إذا

(١) اعتمدنا في هذه الترجمة على ما حدثنا به الشيخ إبراهيم إطفيش، وهو تلميذ المؤلف

وابن أخيه.

(٢) الوهبي نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي، الزعيم الأول للخوارج.

حكى قولاً، أو قراءة، أو حديثاً، أو قصة، أو أثراً لسلف. وأما نفس تفاسير الآي، والرد على بعض المفسرين، والجواب، فمن عنده إلا ما نسبه لقاتله. كما يدعى أنه كان ينظر بفكره في الآية أولاً، ثم تارة يوافق نظر جبار الله الزمخشري، والقاضى البيضاوى - وهو الغالب - وتارة يخالفهما، ويوافق وجهاً أحسن مما أثبتناه أو مثله.

ومهما يكن من شئ فلا يسعنا إلا أن نقول: إن الرجل - وقد قرأ الكثير من كتب التفسير - تأثر بما جاء فيها، واستفاد الكثير من معانيها مما يدعوننا إلى القول بأن تفسيره يمثل التفسير المذهبي للخوارج الإباضية فى أواخر عصورهم فقط، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التى مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن.

نقرأ فى هذه التفسير فنجد أن صاحبه يذكر فى أول كل سورة عدد آياتها، والمكى منها والمدنى، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهداً لذلك فى الغالب بالأحاديث الموضوعية فى فضل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحاً وافياً، فيُسهب فى المسائل النحوية، واللغوية، والبلاغية، ويفيض فى مسائل الفقه، والخلاف بين الفقهاء، كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، وهو مكثراً إلى حد كبير من ذكر الإسرائيليات التى يؤيدها الشرع، ولا يصدقها العقل، كما يطيل فى ذكر تفاصيل الغزوات التى كانت على عهد رسول الله ﷺ. ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآية يمكن أن يجعلها فى جانبه إلا مال بها إلى مذهبه، وجعلها دليلاً عليه، ولا بآية تصارحه بالمخالفة إلا تلمس لها كل ما فى طاقته من تأويل، ليتخلص من معارضتها.. وقد يكون تأويلاً متكلفاً، وفاسداً، لا ينجيه من معارضة الآية له، لكنه التعصب الأعمى.. يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله، وي طرح تفكيره الصائب، ليمشى مع الهوى بعقل فارغ وتفكير خاطئ!! وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير، لتقف على مسلك صاحبه فى فهمه لآيات القرآن الكريم:

● حقيقة الإيمان:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢ - ٣) من سورة البقرة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾. نراه يقرر: «أن الإيمان يُطلق على مجموع الاعتقاد، والإقرار، والعمل»، ثم يقول: «فمن أخلَّ بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضاً من حيث أنه أظهر ما ليس فى قلبه، ومن أخلَّ بالإقرار وحده، أو بالإقرار والعمل، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا. وقال القليل: إنه إذا أخلَّ بالإقرار وحده، مسلم عند الله من أهل الجنة، وإن أخلَّ به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة، وإن أخلَّ بالعمل فقط،

فمنافق عندنا، فاسق ضال، كافر كفرةً دون شرك غير مؤمن بالإيمان التام» .. ثم قال: «واختلف الخوارج .. وهم الذين خرجوا عن ضلالة على، فقالت الإباضية الوهبية، وسائر الإباضية فيمن أخل بواحد من الثلاثة: ما تقدم من إشراكه بترك الاعتقاد، أو بترك الإقرار، وينافق بترك العمل. ويثبتون الصغيرة. وقال الباكون كذلك وإنه لا صغيرة. ومذهب المحدثين أن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن. ونحن نقول: انضمامهما إليه ركن، وهما جزء ماهيته» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ... الآية، نراه يحاول محاولة جدية في تحقيق أن العمل جزء من الإيمان، ولا يتحقق الإيمان بدونه. فيقول: «ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله - عزَّ وجلَّ - الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقروناً بالعمل الصالح؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى، إذ لا يخدم الإنسان مثلاً سلطاناً لا يعتقد بوجوده، وثبوت سلطته، فالعمل الصالح كالبناء النافع، المظلل المانع للحرج، والبرد والمضرات، والإيمان أس، ولا ينفع الأس بلا بناء عليه، ولو بنى الإنسان ألوفاً من الأسس ولم يبن عليها لهلك بالصوص، والحرج والبرد، وغير ذلك، فإن ذكر الإيمان مفرداً قيد بالعمل الصالح. وإذا ذكر العمل الصالح، فما هو إلا فرع الإيمان، إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده. وفي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان، دليل على أن كلاً منهما غير الآخر، لأن الأصل في العطف المغايرة بين المتعاطفين، ففي عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيذان بأن البشارة بالجنات، إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان» (٢).

● موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٨١) من سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .. يقول: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ خصلة قبيحة، وهي الذنب الكبير، سواء أكان نفاقاً أو إشراكاً، ومن الذنوب الكبيرة: الإصرار. فإنه نفسه كبيرة، سواء أكان على الصغيرة أو الكبيرة، والدليل على أن السيئة: الكبيرة قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .. ويحتمل وجه آخر وهو أن السيئة: الذنب صغيراً أو كبيراً، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ﴾

خَطِيئَتُهُ ﴿: وإن قلت روى قومنا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن السيئة هنا الشرك . وكذا قال الشيخ هود - رحمه الله - إنها الشرك . قلت : ما ذكرته أولى مما ذكره ، فإن لفظ السيئة عام ، وحمله على العموم أولى ، إذ ذلك تفسير منهما لا حديث ، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار ، ولم يحصروا دخولها على الشرك ، ومعترفون بأن لفظ الخلود يُطلق على المكث الكبير ، سواء أكان أبدياً ، أو غير أبدي ، وادعاء أن الخلود فى الموحدين بمعنى معنى المكث الطويل ، وفى الشرك بمعنى المكث الدائم ، استعمكال للكلمة فى حقيقتها ومجازها ، وهو ضعيف ، وأيضاً ذكر إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره ، لكنه أنسب بغيره ، لأن الشرك أقوى ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ . . ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار ، فصار لا خلاص له منها ، كمن أحاط به العدو ، أو الحرق ، أو حائط السجن ، وذلك بأن مات غير تائب ﴿ (١) .

● حملته على أهل السنة :

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يُعَذَّب فى النار على قدر معصيته ، ثم يدخل الجنة بعد ذلك ، ندّد بهم ولزهم .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة البقرة : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . . يقول : « . . وترى أقواماً ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود فى قولهم : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ (٢) .

● مغفرة الذنوب :

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل : بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها ، ويحمل على الأشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة وإن لم يتب .

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨٤) من سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفَوْهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يقول : « ولا دليل فى الآية على جواز المغفرة لصاحب الكبيرة الميت بلا توبة منها ، كما زعم غيرنا ، لحديث : هلك المصرّون ﴾ (٣) .

(٢) الجزء الأول صفحة ٢٢٨ .

(١) الجزء الثانى صفحة ١٤٠ .

(٣) الجزء الثالث صفحة ٤٤٣ .

وعند قوله تعالى في الآية (١٢٩) من سورة آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ .. يقول: « يغفر لمن يشاء الغفران له بأن يوفقه للتوبة، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ تعذيبه بأن لا يوفقه، وليس من الحكمة أن يُعَذِّبَ المطيع الموفى، وليس منها أن يرحم العصير المصّر، وقد انتفى الله من أن يكون ظالماً، وعد من الظلم: النقص من حسنات المحسن، والزيادة في سيئات المسيء، وليس من الجائر عليه ذلك، خلافاً للأشعرية في قولهم: يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين، والنار جميع الأبرار. وقد أخطأوا في ذلك ..» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة الزمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .. يقول: « بشرط التوبة منها بدليل التقييد بها في مواضع من القرآن والسنة، والمطلق يُحمل على المُقَيَّد. وقد ذُكرت في القرآن مرارا شرطاً للغفران، فذكرها فيما ذكرت. ذكر لها فيما لم تذكر، وإنما تحذف لدليل والقرآن في حكم كلام واحد لا يتناقض حاشاه، وأيضاً يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة مع أنه ناه عنها لأن ذلك يؤدي بهم إلى الاجترار عليها وقد أخفي الصغائر لئلا يجترأ عليها من حيث أنه غفرها، ويدل كذلك. تعقيب الآية بقوله: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] لئلا يطمع طامع كالقاضي - يريد البيضاوي - في حصول المغفرة بلا توبة. ويدل له أيضاً قراءة ابن مسعود وابن عباس: « يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء» أي لمن يشاءه بالتوبة، .. وأما قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فاستئناف معلل لمغفرة الذنوب بالتوبة، أي يغفرها، ويقبل التوبة منها. لأن من شأنه الغفران العظيم والرحمة العظيمة وملكه وغناه واسع لذلك، والمراد بالآية: التنبيه على أنه لا يجوز لمن عصى الله - أي عصيان كان - أن يظن أنه لا يغفر له، ولا يقبل توبته، وذلك مذهبنا معشر الإباضية، وزعم القاضي وغيره: أن الشرك يُغفر بلا توبة، ومشهور مذهب القوم: أن الموحد إذا مات غير تائب: يُرجى له، وأنه إن شاء عذبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة. وإن شاء غفر له. ومذهبنا: أن من مات على كبيرة غير تائب: لا يُرجى له» (٢).

● رأيه في الشفاعة:

ويرى المؤلف: أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين، ولا لأصحاب الكبائر، ومن خلال رأيه هذا ينظر آيات الشفاعة فلا يرى فيها إلا ما يتفق ومذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصرون﴾ .. يقول: « .. وإن قلت: فهل الشفاعة والفداء بالعدل وأقعان ولكن لا يقبلان؟ أم غير واقعين؟ قلت: غير واقعين، أما من تأهل للشفاعة من الملائكة والأنبياء والعلماء

والصالحين، فلا يتعرضون بها لمن ظهرت شقاوته لهم. فإن تعرضوا بها لهم قبل أن تظهر لهم، قيل لهم: إنهم بدّلوا وغيروا، وليسوا أهلاً لها، فتركوا التعرض لها. وأما من لم يتأهل لها فمشغول بنفسه لا يدرى ما يفعل به» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٢٣) من السورة نفسها: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾.. يقول:.. ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ لعدمها هناك، فالمراد أنه لا شفاعاة تنفعها، فالشفاعة هنالك منفية من أصلها، وليس المراد أنه هناك شفاعاة لا تُقبل. وإنما ساغ ذلك، لأن القضية السالبة تصدق بنفى الموضوع، كما تصدق بنفى المحمول، فكما تقول: ليس زيد قاعداً في السوق، وتريد أنه فيها لكنه قائم، كذلك تقول: ليس زيد قاعداً فيها، وتريد أنه ليس فيها أصلاً، وذلك مخصوص بالمشرك، فإنه لا شفاعاة له هنالك إلا شفاعاة القيام لدخول النار، ولا نفع له في دخول النار، وإنما الشفاعاة للموحد التائب» (٢).

وعند قوله تعالى في الآية (١٥٩) من سورة الأنعام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾... الآية، يقول: «فالآية نص - أو كالنص - في أن لا شفاعاة لأهل الكبائر. أى أنت برئ منهم على كل وجه، وقد علمت عن عمر وأبي هريرة أن الآية في أهل البدع من هذه الأمة» (٣).

● رؤية الله تعالى:

ويرى صاحبنا: أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقاً، ويُصرّح بذلك في تفسيره لآيات الرؤية، ويرد على أهل السنّة الذين يقولون بجوازها في الدنيا، ووقوعها للمؤمنين في الآخرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾... الآية، نراه يذكر ما ورد من الروايات في هذا الباب، ومن الروايات رواية تفييد: أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة، يعقب عليها فيقول: «وهذه الرواية تقتضى أن موسى يجيز الرؤية، حتى سألها ومُنَعها.. وليس كذلك، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك، فنهاهم عن ذلك وحرّمه، أو سكت انتظاراً للوحى في ذلك، فلما فرغ وخرج، عاودوه ذكر ذلك، فقال لهم: قد سألته على لسانكم كما تحبون، لأخبركم بالجواب الذى يقممعكم لا لجواز الرؤية، فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكاً، فكفروا بطلب الرؤية، لاستلزامها

(١) الجزء الثانى صفحة ١٧.

(٣) الجزء السادس صفحة ٢٧٤.

(٢) الجزء الثانى صفحة ٢٩٩.

اللون، والتركييب، والتحيز، والحدود، والحلول، وذلك كله يستلزم الحدوث، وذلك كله محال على الله، وإذا كان ذلك مستلزماً عقلاً لم يختلف دنيا وأخرى، فالرؤية محال دنيا وأخرى، ولا بالإيمان، والكفر، والنبوة، وعدمها»^(١).

وعند قوله تعالى في الآية (١٥٣) من سورة النساء: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾... الآية، يقول: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ بِظُلْمِهِمْ﴾ إذ سألوا رؤية الله جلّ وعلا الموجبة للتشبيه.. وقالت الأشعرية: الصاعقة إنما هي من أجل امتناعهم من الإيمان بما وجب إيمانه إلا بشرط الرؤية، لا من أجل طلب الرؤية. وهو خلاف ظاهر الآية، مع أن الرؤية توجب التحيز، والجهات، والتركييب، والحلول، واللون، وغير ذلك من صفات الخلق. ويدل لما قلته قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. والأشعرية لما أفحموا قالوا: بلا كيف. وحديث الرؤية - إن صح - فمعناه: يزدادون يقيناً بحضور ما وعد الله في الآخرة، فلا يشكون في وجود الله وكمال صدقه، وقدرته، كما لا يشكون في البدر»^(٢).

● أفعال العباد:

وإذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحياناً، فإنه يُصرِّح بمخالفتهم في بعض المسائل، فمثلاً نراه يقرر: أن فعال العباد كلها بإرادة الله تعالى وأن العبد لا يخلق أفعال نفسه. ونراه يرد على المعتزلة ولا يرضى موقفهم من هذه المسألة، فمثلاً عندما فسّر قوله تعالى في الآية (١٠٧) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾... الآية، يقول: «ولو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئاً، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله ومشيعته، وفيه رد على المعتزلة في قولهم: لم يرد معصية العاصي.. وزعموا أن المعنى: لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك. ولزم عليهم أن يكون مغلوباً على أمره إذا عصى ولم يرد المعصية، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع - تعالى الله عن ذلك - والحق أن المعصية بإرادته ومشيعته، مع اختيار العاصي، لا جبر، للذم عليها والعقاب والنهي عنها»^(٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦٢) من سورة الزمر: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. يقول: «من إيمان، وكفر، وخير، وشر، مما هو كائن دنيا وأخرى»^(٤).

(١) الجزء الثاني صفحة ٤٢.

(٢) الجزء الخامس صفحة ١٧٣.

(٣) الجزء السادس صفحة ٦٨.

(٤) الجزء الثاني عشر صفحة ٧٧.

● موقفه من المتشابه:

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل، ويعيب على من يقول بالظاهر، وإن فوض علمه وكيفيته لله.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢١٠) من سورة البقرة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .. يقول: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ على حذف مضاف: أى أمر الله. بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] .. والحاصل، أن مذهبنا ومذهب هؤلاء - يريد المعتزلة ومن وافقهم - تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤٢) من سورة المائدة: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .. نراه يذكر الحديث القائل: «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»، ثم يقول: «ويمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، والعرب تذكر اليمين في الأمر الحسن، ودل لذلك قوله: «وكلتا يديه يمين»، والتأويل فى مثل ذلك هو الحق. وأما قول سلف الأشعرية فى مثل ذلك: «إننا نؤمن به وننزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله، ونقول: هو على معنى يليق به .. وكذا طوائف من المتكلمين، فجمود وتعام عن الحق» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ .. الآية، يقول: «واستوى: بمعنى استولى بالملك، والغلبة والقوة، والتصرف فى كيف شاء، و«العرش»: جسم عظيم وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة، وأبى المعالى وغيره من حذاق المتكلمين، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته» (٣).

● موقفه من تفسير الصوفية:

ونجد المؤلف يبدى رأيه فى تفسير الصوفية بصراحة تامة، ويحمل على من يُفسر هذا التفسير، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: «.. قيل: ويحتمل أن يراد الإنفاق من جميع ما رزقهم الله من أنواع الأموال، والعلم، وقوة البدن، والجاه، وفصاحة اللسان .. ينفعون بذلك عيال الله سبحانه وتعالى على الوجه الجائز، وقيل: المعنى: ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله - جلَّ وعلا - يفيضون .. وهذا القول والذى قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف،

(١) الجزء الثانى صفحة ١٥٧.

(٢) الجزء الخامس صفحة ٣٣٩.

(٣) الجزء السادس صفحة ٣٦١.

وليس تفسير الصوفية عندي مقبولاً إذا خالف الظاهر، وكان تكلفاً، أو خالف أسلوب العربية ولا أعذر من يُفسر به ولا أقبل شهادته، وأتقرب إلى الله تعالى ببيغضه والبراءة منه، فإنه ولو كان في نفسه حقاً لكن جعله معنى للآية أو للحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر وأساليب العرب التي يتخاطبون بها وتكلف من التكلف الذي يبغضه الله، فإن القولين وإن ناسبهما قوله ﷺ: «إنَّ علماً لا يقال به ككنز لا يُنفق منه» الذي رواه الطبري في الأوسط، لكن لا يصحان تفسيراً للآية، إذ لا يتبادر ذلك ولا يجرى على أسلوب العرب والقول الأخير أبعد، وأنا أعد اعتقادي ذلك نورا ومعرفة أفاضها الله الرحمن الرحيم على. وقد أقبل القول الذي قبله لأنه قريب من أسلوب العرب. قليل التكلف، والصحيح أن المراد: النفقة الواجبة وغير الواجبة من المال» (١).

● موقفه من الشيعة:

وصاحبنا لا يسلم للشيعة استدلالهم على إمامة علي بقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ .. بل نراه يفند احتجاجهم بالآية فيقول: «وزعم الشيعة أن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ .. إلى: ﴿رَاكِعُونَ﴾ المراد به على ابن أبي طالب، وأن جملة ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ حال من واو ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وهي مقارنة، وأنه أعطى الزكاة وهو في الصلاة راع، سأل سائل وهو في ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه في حال ركوعه وأراد به الزكاة، وعبر عنه بالجمع تعظيماً، وهي دعوى بلا دليل عليها والأصل العموم، والأصل أن لا يُطلق لفظ الجمع على المفرد، ومن دعوى الشيعة أن المراد بالولي - في الآية - المتولى للأمر المستحق للتصرف فيها، وأن هذه الآية دليل على إمامة علي .. وهذا أيضاً تكلف بلا دليل» (٢).

● رأيه في التحكيم:

ونرى المؤلف يتأثر في تفسيره هذا بعقيدته في مسألة التحكيم بين علي ومعاوية رضی الله عنهما، فيفر من الآيات التي تعارضه، ويمكن أن تكون مستنداً لمخالفه. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٥) من سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمَا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ... الآية، نراه يقول: «ولا دليل في الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هي ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها، وأيضاً المراد هنا: الإصلاح مثلاً لا مجرد بيان الحق» (٣).

(٢) الجزء الخامس صفحة ٣٧٦.

(١) الجزء الأول صفحة ٢٢٠.

(٣) الجزء الرابع صفحة ٤٧٨.

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٩ - ١٠) من سورة الحجرات: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ... إلى قوله: ﴿ لِعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ .. يقول: والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله .. ثم يقول: وسمع على رجلاً يقول في ناحية المسجد: « لا حكم إلا لله » فقال: كلمة حق أريد بها باطل .. لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفرى ما دامت أيديكم في أيدينا، ولا نبدأكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم في مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، ولو كان علي أعلم عالم. ثم قال: قيل: وفي الآية دليل، علي أن البغي لا يزيل اسم مؤمن لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين وسماهم أخوة مؤمنين قلت: لا دليل أما: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فتسميتهم فيه مؤمنين: باعتبار ما يظهر لنا قبل ظهور البغي، أما: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فتسميتهم فيه مؤمنين إخوة: باعتبار ما ظهر لنا قبل البغي، فقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ ﴾ في معنى اهدوهم إلى الحال التي كانوا عليها قبل: أو المراد بالمؤمن: الموحد لا الموفى، بدليل: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ». وأما لفظ: آمن وإيمان، فلا يختصان بالموفى» (١).

● إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان وعلي ومن والاهما:

ثم إنه لا تكاد تأتي مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، ولا لذكر علي، أو عثمان، أو من يلوذ بهما إلا وغض من شأنهم، ورماهم بكل نقيصة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (١٠٥ - ١٠٦) من سورة آل عمران: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ ... إلخ، نراه يعيب على من يقول من المفسرين: إن الذين تفرقوا واختلفوا هم من خرج على علي عند قبوله التحكيم، ويقبول: إن أمر الحكّمين لم يكن حين نزلت الآية، بل في إمارة علي، ﴿ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ صيغتان ماضويتان، ولا دليل على صرفها للاستقبال، ولا على التعيين لمن ذكر، بل دلّت الآية على خلوصهم من ذلك، وعلي أنهم المحقّقون الذين تبيض وجوههم فمن خالفهم فهو داخل في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .. وهو يعم كل من كفر بعد إيمانه. وأعلم أنه قد خرج على علي حين أذعن للحكومة صحابة كثيرون - رضی الله عنهم - وتابعون كثيرون، فترى المخالفين يذمون ويشتمون من خرج عنه، ويلعنونه، غير الصحابة الذين خرجوا عنه، والخروج واحد: إما حق في حق الجميع، وإما باطل في حق الجميع .. فإذا كان حقاً في جنب الكل، فكيف يشتمون من خرج عليه غير الصحابة، وإن كان باطلاً في جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضاً ... عافاهم الله، ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله ﷺ، وقد يصح

الحديث ويزيدون فيه .، وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا . ثم سرد المؤلف بعض الأحاديث التي حملت عليهم، وردّها بعدم صحتها، أو بحملها على غلاة الخوارج كالصفرية، أو بحملها على من قبل التحكيم . ثم قال : « والدليل الأقوى على أن تلك الأحاديث ليست فينا ولا فيمن اقتدينا بهم، وأن الراضين بالتحكيم هم المبطلون، ما رواه أبو عمر، وعثمان بن خليفة: أن رجلاً من تلاميذ أبي موسى الأشعري - عبد الله ابن قيس - لقيه بعد ما وقع فيما وقع من أمر التحكيم، فقال له: قف يا عبد الله بن قيس أستفتك، فوقف . . وكان التلميذ قد حفظ عنه أنه حكى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « سيكون في هذه الأمة حكمان ضالان مضلان يضل من اتبعهما » قال: فلا تتبعهما وإن كنت أحدهما . ثم قال له التلميذ: إن صدقت فعليك لعنة الله، وإن كذبت فعليك لعنة الله .

ومعنى ذلك: إن كانت الرواية التي رواها عن رسول الله ﷺ صحيحة ثم وقع فيها، فعليه لعنة الله، وإن كان كاذباً على رسول الله ﷺ، فعليه لعنة الله، لنقله الكذب عن رسول الله، لا محيص عن الأمرين جميعاً» (١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٩) من سورة التوبة ﴿إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ . . الآية، نراه يحاول الغض من شأن عثمان الذي بذل ماله في غزوة تبوك دفاعاً عن رسول الله ﷺ، ونصرة لدين الله فيقول: « . . وعن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم، وجّه مع أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهّز عيراً إلى الشام، فقال: يا رسول الله؛ هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية . قال صاحب المواهب: قال عمران ابن حصين: فسمعتة يقول: « لا يضر عثمان ما عمل بعدها » - والعهد على القسطلاني وعمران - فإن صح ذلك فمعنى ذلك: الدعاء له بالخير، لا القطع بأنه من أهل الجنة . وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كفه حين جهّز جيش العسرة، فنثرها في حجره - ﷺ -، فرأيت رسول الله ﷺ يقبلها في حجره ويقول: « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، فإن صح هذا فذلك أيضاً دعاء، وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ» (٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠٣) وما بعدها من سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ . . . الآيات إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم جَهَنَّمَ بِمَا

(٢) الجزء السابع صفحة ٣١٣ .

(١) الجزء الرابع ص ١٨٥ - ١٨٦ .

كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ﴿ [الكهف: ١٠٦] .. يقول: .. وزعم على أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه، لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم. وسأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء. وسئل: أهم مشركون؟ فقال: لا، فقال: أمنافقون؟ فقال: لا، بل إخواننا بغوا علينا .. وذلك خطأ تشهد به عبارته، لأنه ليس الإنسان إلا مؤمناً أو مشركاً أو منافقاً، فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون. والمؤمن لا يُوصف بالبغى وهو مؤمن، ومن بغى دخل في حدود النفاق. وأيضاً الباغي من يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم، والسافك دماء من لم يتبعه على هذه الزلة. وأيضاً أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله، ولا بلفائه، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث. والأخسر من أعمالاً قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء، ولست أقول ذلك معجباً بنفسى، ولا متعجباً ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرحتُ به» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٥٥) من سورة النور: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ... الآية، يقول: «قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وإن استخلافهم: إمامتهم العظمى، وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلي في ذلك .. ثم قال: وفي أيام أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. وبعدهم، كانت الفتوح العظيمة، وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل في ذلك على إصابة عثمان وعلي. فإنهما وإن كانت خلافتهما برضا الصحابة، لكن ما ماتا إلا وقد بدلاً وغيراً فسحقاً .. كما في أحاديث عنه - ﷺ - أنهما مفتونان» (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى في آخر الآية السابقة: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .. يقول: «أقول - والله أعلم بغيبه - إن أول من كفر بتلك النعمة وجحد حقها: عثمان بن عفان؛ جعله المسلمون على أنفسهم، وأموالهم، فخانهم في كل ذلك. زاد في مسجد رسول الله ﷺ ووسعه، وابتاع من قوم وأبى آخرون فغضبهم، فصاحوا به فسيرهم للحبس، وقال: قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا به، فكلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن، وقد جمع في ذلك: غضب المال، وقذف عمر رضى الله عنه. واستعمل أخاه لأمه وهو الوليد بن عتبة. ونزل: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] بحضرة أبي بكر، وعمر - رضى الله عنهما - وعثمان، وعلي، فقال لعثمان: «بك تفتح وبك تُشَبَّ»، وقال لعلي: «أنت إمامها وزمامها

وقائدها، تمشى فيها مشى البعير فى قيده» وقال: «لأضرس بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أحد». وقال: «يثور دخانها تحت قدمى رجل يزعم أنه منى وليس منى، إلا إن أوليائى المتقون» .. إلى آخر ما ذكره من النقائص فى حق على وعثمان - رضى الله عنهما» (١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ... الآية، يقول: «فموَدَّة قرابته ﷺ من لم يُبدل منهم ولم يُغَيَّر، مثل فاطمة، وحمزة، والعباس، وابنه - رضى الله عنهم - واجبة» ... ثم ذكر روايات كثيرة فى الحث على حب آل البيت ومودتهم ... وبعدهما فرغ منها قال: «لكن المراد بآله: آله الذين لم يُبدلوا، فخرج على ونحوه ممن بدل، فإنه قتل من قال ﷺ: «لا يدخل قاتله الجنة». ولم يصح عندنا معشر الإباضية رواية: أنه لما نزلت قيل: من قرابتك الذين تجب علينا مودتهم؟ فقال: «على، وفاطمة، وابناهما» (٢).

● اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين:

هذا .. وإن المؤلف ليفخر كثيراً فى مواضع من تفسيره بنفسه وبأهل نحلته، ويرى أنه وحزبه أهل الإيمان الصادق، والدين القويم، والتفكير السليم، وأما من عداهم: فضالون مضلون، مبتدعون مخطئون.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ... الآية، يقول ما نصه: «واعلم أن الحق هو القرآن والسنة، وما لم يخالفهما من الآثار، فمن قام بذلك. فهو الجماعة والسواد الأعظم، ولو كان واحداً، لأنه نائب النبی ﷺ والصحابه، والتابعين الذين اهتدوا، وكل مهتد. ومن خالف ذلك، فهو مبتدع ضال، ولو كان جمهوراً. هذا ما يظهر لى بالاجتهاد، وكنت أقرره للتلاميذ عام تسع وسبعين ومائتين وألف .. فأصحابنا الإباضية الوهبية هم الجماعة والسواد الأعظم وأهل السنة ولو كانوا أقل الناس. لأنهم المصيبون فى أمر التوحيد، وعلم الكلام، والولاية، والبراءة، والأصول دون غيرهم» (٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من سورة هود: ﴿فَأَسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ .. الآية، يقول ما نصه: «واعلم يا أخى - رحمك الله - أنى

(٢) الجزء الثانى عشر صفحة ٢٢٧.

(١) الجزء العاشر ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) الجزء الثانى ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

استقرت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الإباضية، ومذهب المالكية، ومذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، ومذهب الحنبلية، بالمنقول والمعقول، فلم أر مستقيماً منها في علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل. حُججه لا تقاومها حُجّة. ولا تثبت لها، والحمد لله وحده» (١).

هذا هو مفسرنا الإباضي، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجارة المعتزلة في بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التي جرت على ألسن وضّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويروّجوا له بين الناس.

* * *

هذا هو مفسرنا الإباضي، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجارة المعتزلة في بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التي جرت على ألسن وضّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويروّجوا له بين الناس.

هذا هو مفسرنا الإباضي، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجارة المعتزلة في بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التي جرت على ألسن وضّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويروّجوا له بين الناس.

هذا هو مفسرنا الإباضي، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجارة المعتزلة في بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التي جرت على ألسن وضّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويروّجوا له بين الناس.

هذا هو مفسرنا الإباضي، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجارة المعتزلة في بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التي جرت على ألسن وضّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويروّجوا له بين الناس.

هذا هو مفسرنا الإباضي، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجارة المعتزلة في بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التي جرت على ألسن وضّاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم، ويروّجوا له بين الناس.

الفصل الخامس

تفسير الصوفية

● أصل كلمة تصوف:

وقع الاختلاف في أصل هذه الكلمة « تصوف » فقيل: إنها مشتقة من الصوف، وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس في لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفاً وزهداً. وقيل: إنه من الصفاء، وذلك لصفاء قلب المرید، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه. وقيل: إنه مأخوذ من الصُفَّة التي يُنسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصُفَّة. ويرى غيرهم أنه لقب غير مشتق. قال القشيري رحمه الله: « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب. ومن قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصُفَّة فبعيد من جهة القياس اللُّغوي. قال: وكذلك من الصوف، لأنهم لم يُختصوا به » (١).

● معنى التصوف:

وأما معنى التصوف .. فقيل: « هو إرسال النفس مع الله على ما يريد » (٢). وقيل: « هو مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفي هذه المناجاة طهارة لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس، وفي تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة، وصعود إلى عالم الفيض والإلهام. وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر، والتدبر في ملكوت السموات والأرض. بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمين لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر. فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف إذن: فكر، وعمل، ودراسة، وسلوك » (٣).

● نشأة التصوف وتطوره:

والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام، فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف، مبالغين في العبادة، فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار، ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيباً لروحه، غير أنهم لم يُعرفوا في زمنهم باسم الصوفية، وإنما اشتهر بهذا

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢.

(٢) دائرة المعارف للبستاني - المجلد السادس - ص ١٣٣.

(٣) دروس في تاريخ الفلسفة للدكتور مذكور، ويوسف كرم ص ١٤٠.

اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى، وكان هذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى، وأول من سُمى بالصوفى: أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ (خمسين ومائة من الهجرة) (١).

وفى هذا القرن وما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقدم العهد عليها. وبمقدار ما اقتبسها القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات.

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التطور الصوفى، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل وكونوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنّة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها. . وما زال أهل السنّة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى.

ومن ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، وتحلّوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت التعليم الصوفية عند دائرة محدودة، هى دائرة الأوراد والأذكار وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث.

● أقسام التصوف:

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين:
تصوف نظرى: وهو التصوف الذى يقوم على البحث والدراسة.
وتصوف عملى: وهو التصوف الذى يقوم على التقشف والزهد والتفانى فى طاعة الله. وكل من القسمين كان له أثره فى تفسير القرآن الكريم، مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضاً إلى قسمين: تفسير صوفى نظرى، وتفسير صوفى فيضى أو إشارى ..
 وستكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به ويوفق إليه:

أولاً التفسير الصوفى النظرى

وُجد من المتصوفة - كما قلنا - من بنى تصوفه على مباحث نظرية، وتعاليم

فلسفية، فكان من البدهى أن ينظر هؤلاء المتصوفة إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم، وتتفق وتعاليمهم.

وليس من السهل أن يجد الصوفى فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته التى يقول بها، إذ أن القرآن عربى جاء لهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات، ربما كانت فى الغالب مستحدثة وبعيدة عن روح الدين وبداهة العقل.

غير أن الصوفى حرصاً منه على أن تسلم له تعاليمه ونظرياته، يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه، فتراه من أجل هذا يتعسف فى فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحاً يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع، وتشهد له اللُّغة.

● ابن عربى شيخ هذه الطريقة:

ونستطيع أن نعتبر الأستاذ الأكبر محيى الدين بن عربى شيخ هذه الطريقة فى التفسير، إذ أنه أظهر من حَبِّ فيها ووضع، وأكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظرى. وإن كان له من التفسير الإشارى ما يجعله فى عداد المفسرين إن لم يكن شيخهم أيضاً.

● تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية:

نقرأ لابن عربى فى الكتب التى يُشكِّ فى نسبتها إليه، كالتفسير المشهور باسمه، وفى الكتب التى تُنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية، والفصوص، فنراه يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية.

فمثلاً يُفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية، فعند قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن إدريس عليه السلام: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .. نجده يقول: «وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحتة سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر»..

ثم ذكر الأفلاك التى تحتة، والتى فوقه، ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا - أعنى الحمدين - كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] فى هذا العلو، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة»^(١).

وعند قوله تعالى فى الآية (٨٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرِّسْلِ ﴾ ... إلى قوله: ﴿ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١]

يقول: « .. والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعّال، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التي هي أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى» (١).

وعند قوله تعالى في الآيتين (١٩ - ٢٠) من سورة الرّحمن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ .. يقول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج، و﴿بِحَرِّ الرُّوحِ المَجْرَدِ الذى هو العذب الفُرات، ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ فى الوجود الإنسانى، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجرّدة ولطافتها، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها، ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مادياً ... سبحانه خالق الخلق القادر على ما يشاء» (٢).

● تأثره فى تفسيره بنظرية وحدة الوجود:

كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود، التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه، فنراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية، حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى .
فمثلاً عندما تعرّض لقوله تعالى فى أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ .. الآية، نجده يقول: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم، فإن الأمر ذم وحمد، فكونوا وقايته فى الدم، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين» (٣).

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٩ - ٣٠) من سورة الفجر: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ... يقول: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ التى هى ستري، وليست جنتى سواك، فأنت تسترنى بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلا بك، كما أنك لا تكون إلا بى، فمن عرفك عرفنى، وأنا لا أعرف فأنت لا تُعرف، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أُخرى، غير المعرفة التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من

(١) تفسير ابن عربى: ٥١/١.

(٢) تفسير ابن عربى: ٢٨٠/٢.

(٣) الفصوص: ٥٠/١.

حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت رباً، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد»... إلخ^(١).

وفي سورة آل عمران عند قوله تعالى في الآية (١٩١): ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ .. يقول: «أي شيئاً غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك، ﴿سبحانك﴾ ننزهك أن يوجد غيرك، أي يقارن شئ فردانيتك أو يثنى وحدانيتك»^(٢).

ومثلاً عند قوله تعالى في الآيتين (٩ - ١٠) من سورة الشمس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ * وقد خاب من دسَّاهَا * .. يقول: «تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها، فيه تشريف وتعظيم في ذاتها، لأن الزكاة ربو، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، والصورة في الشاهد صورة خلق، فقد زكت نفس من هذا نعته، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كالأسماء الإلهية لله. والخلق كله بهذا النعت في نفس الأمر، ولولا أنه هكذا في نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود، ولذلك خاب من دسَّاهَا، لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسَّاهَا في هذا النعت، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتي لا ينفك عنه ويستحيل زواله. لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا، ولذلك قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ * ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا الله، أو لما كان عند الله، وما ثمَّ إلا الله، أو ما هو عنده، فخرائنه غير نافذة، فليس إلا صور تعقب صوراً»^(٣).

وغير هذا كثير من قسر الآيات وإخضاعها لنظرية وحدة الوجود التي يدين بها ابن عربي.

● قياسه الغائب على الشاهد:

كذلك نجد ابن عربي يفهم بعض النصوص القرآنية فهماً خيالياً منتزِعاً من المشاهد المحسوس، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسْبَابٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٩]. يقول ما نصه: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ على أي قلب نزل، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ فعين له الصنف المنزل عليه، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي نزل له البيان، فأبان عن المراد الذي في الغيب، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسْبَابٍ﴾ ميزان حركات الأفلاك، ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ لهذا الميزان، أي

(٢) تفسير ابن عربي: ١/١٤١.

(١) الفصوص: ١/١٩١ - ١٩٣.

(٣) الفتوحات: ٤/١١٩.

من أجل هذا الميزان، فمنه ذو ساق وهو الشجر، ومنه ما لا طاق له وهو النجم، فاختلفت السجدتان، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ وهى قبة الميزان، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ليزن به الثقلان، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ بالإفراط والتفريط من أجل الخسران، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ مثل اعتدال نشأة الإنسان، إذ الإنسان لسان الميزان، ﴿وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].. فاعلم أنه، ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علماً وعملاً، فللمعاني ميزان بيد العقل يُسمى المنطق، يحتوى على كفتين تُسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يُسمى النحو يُوزن به الألفاظ لتحقيق المعانى التى تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذي لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧].. وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه: يمينه وشماله، وجعل لسانه: قائمة ذاته. فهو لأى جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذى يوزن بالأعمال على شكل القبان، ولهذا وُصف بالثقل والخفة، ليجمع بين الميزان العدى وهو قوله تعالى: ﴿بِحِسَابٍ﴾، وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا فى القبان، فلذلك لم يعين الكفتين، بل قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٦] فى حق السعداء، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٨] فى حق الأشقياء، ولو كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا. وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضاً إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان ..» (١).

● إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية:

وكذلك يخضع ابن عربى التفسير الصوفى النظرى إلى القواعد النحوية، أحياناً، ولكنه خضوع يكيفه الصوفى على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه، فنجده ابن عربى مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الحج: ﴿وَمَنْ يَعِظْ حُرَمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.. يقول: «وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ العامل فى هذا الظرف فى طريقنا قوله: ﴿وَمَنْ يَعِظْ﴾، أى من يعظها عند ربه، أى فى ذلك الوطن، فلتبحث فى المواطن التى تكون فيها عند ربك ما هى؟ .. كالصلاة مثلاً، فإن المصلى يناجى ربه، فإذا عظم حُرمة الله فى هذا الوطن كان خيراً له .. والمؤمن إذا نام

على طهارة فروحه عند ربه، فَيُعَظَّمُ هناك حُرْمَةُ الله، فيكون الخير الذى له فى مثل هذا الموطن المبشرة التى تحصل له فى نومه أو يراها له غيره. والمواطن التى يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فَيُعَظَّمُ فيها حُرْمَاتُ الله على الشهود» (١).

● التفسير الصوفى النظرى فى الميزان :

من هذه الأمثلة السابقة كلها نستطيع أن نقرر فى صراحة واطمئنان: أن التفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن - فى الغالب - عن هدفه الذى يرمى إليه!! . . . يقصد القرآن هدفاً معيناً بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفى هدفاً معيناً بأبحاثه ونظرياته. وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفى إلا أن يُحوّل القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يقصده هو ويرمى إليه، وغرضه بهذا كله: أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه على أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدّم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئاً، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين وإلحاد فى آيات الله!!

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود، ورأينا غيره كأبى يزيد البسطامى، والحلاج، وغيرهما، يسلك هذا المسلك نفسه أو قريباً منه. ووحدة الوجود - عندهم - معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد كل العالم مظاهر ومجال له، فالله سبحانه هو الموجود الحق، وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز، وهذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله فى أئمتهم، وصوروه - أعنى الصوفية - بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة، وإن اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ! (٢).

هذا المذهب الذى حوّل لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، ولمثل ابن عربى أن يقول: إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحلّ فيها، والذى جرّه فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى وغير سماوى، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذى يُذهب بالدين من أساسه .. هل يكون سائغاً ومقبولاً أن نجعله أصلاً نبينى عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم؟ .. وهل يليق بابن عربى وهو الأستاذ

(١) الفتوحات: ١١٥/٤.

(٢) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون إلى فريقين: فريق يقول بالحلول، وفريق لا يقول به (انظر الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧).

الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى في الآيتين (٦ - ٧) من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴿١﴾

فيقول شارحاً لهذا النص القرآني: «يا محمد؛ إن الذين كفروا ستروا محبتهم في، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به، أو لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك، فإنهم لا يعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقى وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً فى العالم إلا منى، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى، فلا يبصرون سواى، ولهم عذاب عظيم عندى . . أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك وأحجبهم عنى، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قريباً . . أنزلتك إلى من يكذبك، ويرد ما جئت به إليه منى فى وجهك، وتسمع فى ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائيل؟ فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضى عنهم» (١).

وهل يجدر بمثل هذا الصوفى الكبير أن يتأثر بمذهبه فى وحدة الوجود فيقول فى قوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾: «. . فعلماء الرسوم يحملون لفظ «قضى» على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفاً وهو الصحيح، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهر بصورة من استنابهم، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم. ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم، وإن أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام، ولهذا قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا﴾ [النجم: ٢٣] . . أى أنتم قلتم عنها إنها آلهة، وإلا فسموهم، فلو سموهم لقالوا: هذا حجر، أو شجر، أو ما كان، فتتميز عندهم بالإسمية، إذا ما كان حجر عبد ولا أتخذ إلهاً، ولا كل شجر، ولا كل جسم منير، ولا كل حيوان، فلله الحجة البالغة عليهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُوهُمْ﴾ (٢).

وأصبح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة: ﴿وَالْهَكْمَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ . . قال: «إن الله تعالى خاطبهم فى هذه الآية المسلمين، والذين عبدوا غير الله قرابة إلى الله، فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذى يطلب

(١) الفتوحات: ١/١١٥.

(٢) الفتوحات: ٣/١١٧ - والآية من سورة الرعد: ٣٣.

المشرك القُربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم فى أحديته .. فقال: ﴿وَالْهَكْمُ﴾ فجمعنا وإياهم إله واحد، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم. ومن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبتك لأمر أو أحبك لأمر ولئى بانقضائه، ولهذا ذكر الله أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة. وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم، لا أنهم جهلوا قدر الله فى ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾؟ ونبههم فقال: ﴿قُلْ سَمُوهُمْ﴾ فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً، أو مبيناً، لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة، لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئاً، فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم. ثم أخبرنا الله أنه قضى ألا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الألوهية لهم أى جعلوهم كالتنوّاب لله والوزراء، كأن الله استخلفهم، ومن عادة الخليفة أن يكون فى رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه، فلهذا نسبوا الألوهية لهم ابتداءً من غير نظر فيمن جعل ذلك. وقول من قال: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدهوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع، فأشبهه هذا القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلّى، ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هى هذه الصورة، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها: إنها الله. لكن لما كان هذا من عند الله، وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم فى ذلك، كما ثبت فى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].. هذا حقيقة، فوجه الله موجود فى كل جهة يتولّى أحد إليها، ومع هذا لو تولّى الإنسان فى صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تُقبل صلاته، لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولّى فى غير هذه العبادة التى لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة، فإن الله يقبل ذلك التولّى، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولّى إليها ما فيها وجه الله لكان كافراً وجاهلاً، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله، ولهذا اختلفت الشرائع، فما كان محرماً فى شرع ما، حلّه الله فى شرع آخر، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر فى عين ذلك المحكوم عليه، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨]، فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمّى هوئى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ يعنى الحق الذى أنزلته إليك، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ وهو ما خالف شرعك، ﴿فِيضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وهو ما شرعه الله لك على الخصوص. فإذا علمت هذا وتقرر لديك،

علمت أن الله إله واحد في كل شرع عيناً، وكثير صورة وكوناً، فإن الأدلة العقلية تُكثِّره باختلافها فيه، وكلها حق ومدلولها صدق، والتجلى في الصورة كثرة أيضاً لاختلافها. والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع؟ أو كيف يصح لى أن أخطئ قائلاً؟ ولهذا لا يصح الخطأ من أحد فيه، وإنما الخطأ في إثبات الغير وهو القول بالشريك، فهذا القول بالعدم، لأن الشريك ليس ثمَّ، وذلك لا يغفره الله، لأن الغفر السُّبْر، ولا يُسْبَرُ إلا مَنْ له وجود، والشريك عدم يُسْتَر. . فهي كلمة تحقيق، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، لأنه لا يجده. فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها، وما فى الوجود من يقبل الأضداد إلا العالم من حيث ما هو واحد وفي هذا الواحد ظهرت الأضداد، وما هى إلا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود التى بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها» (١).

● رأينا فى التفسير الصوفى النظرى:

ورأى الذى أدين لله عليه: أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله.

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة، وما وراء الطبيعة، والذى جرى عليه ابن عربى وغيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية. لانقبله على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله، وإن كنا نقبله - إن صح - على أنه مما تحتمله الآية ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه. على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون ظنياً، وقد يظهر خطؤه فى يوم من الأيام، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

أما التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة، فهذا أيضاً ضرب من التخمين، والتخمين لا يجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم صلى الله عليه وسلم.

وأما التفسير الذى يبنى على قواعد نحوية أو بلاغية، فهذا إن ساعده السياق والسباق قبل، وإلا أعرضنا عنه، وأخذنا بما يصححه النظر ويقويه الدليل.

هذا هو رأينا فى التفسير الصوفى النظرى، وليس لدينا من المعاذير ما نستطيع ان نتلمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير الذى يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه. وإذا صح - وما أرائى أرتضى ذلك - أن نغض الطرف عما

قالوه فى التفسير من بيان لحقائق الموجودات علويها وسفليها، وحقائق الملائكة، والروح، والعرش، والكرسى، وأمثال ذلك، فلا يصح أن نغض الطرف بحال عما قالوه من التفسير المبني على وحدة الوجود. وإذا أمكننا - على كره - أن نتسامح فى بعض عبارات شديدة جرى بها لسان صوفى أخذه الوجد، وارتفع به الحال، وغاب عن نفسه، وشاهد ما لا نشاهد، فقال فى لحظة نسى فيها نفسه فلم ير إلا الله: أنا الحق، أو أنا الله، فليس فى مقدورنا أن نتسامح فى مثل هذه التفاسير التي جرت بها ألسنة القوم وأقلامهم وهم فى حالة الهدوء النفسى، يقدرون ما يقولون، ويشعرون بكل ما ينطقون أو يكتبون.

هذا.. ولم نسمع بأن أحدا ألف فى التفسير الصوفى النظرى كتابا خاصا يتتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشارى، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربى، وكتاب «الفتوحات المكية» له، وكتاب «الفصوص» له أيضا، كما يوجد بعض من ذلك فى كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب.

* * *

ثانياً: التفسير الصوفي أو الإشاري

● حقيقته:

التفسير الفيضي أو الإشاري.. هو تأويل آيات القرآن الكريم علي خلاف ما يظهر منها بمقتضي إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

● الفرق بينه وبين التفسير الصوفي النظري:

وعلي هذا فالفرق بين التفسير الصوفي الإشاري والتفسير الصوفي النظري من وجهين:

أولاً: أن التفسير الصوفي النظري، يبنى علي مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك. أما التفسير الإشاري.. فلا يرتكز علي مقدمات علمية بل يرتكز علي رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتي يصل إلي درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل علي قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

ثانياً: أن التفسير الصوفي النظري، يري صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعاني، وليس وراءه معني آخر يمكن أن تحمل الآية عليه.. هذا بحسب طاقته طبعاً. أما التفسير الإشاري.. فلا يري الصوفي أنه كل ما يراد من الآية، بل يري أن هناك معني آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شيء، وذلك هو المعني الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره.

● هل للتفسير الإشاري أصل شرعي؟

ربما يجول بخاطر القارئ الكريم هذا السؤال وهو: هل للتفسير الإشاري أصل شرعي يقوم عليه، أو هو أمر جد بعد ظهور المتصوفة وذيوخ طريقتهم؟ وللجواب عن هذا السؤال نقول:

لم يكن التفسير الإشاري بالأمر الجديد في إبراز معاني القرآن الكريم بل هو أمر معروف من لدن نزوله علي رسول الله ﷺ أشار إليه القرآن ونبه عليه الرسول عليه الصلا والسلام، وعرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقالوا به.

أما إشارة القرآن إليه، ففي قوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، وقوله في الآية (٨٢) منها أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وقوله في الآية (٢٤) من سورة محمد عليه السلام: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

فهذه الآيات كلها تشير إلي أن القرآن له ظهر وبطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعي علي الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً، ويحضهم علي التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم علي فهم ظاهره لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك. وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب وحضهم علي أن يتدبروا في آياته حتي يقفوا علي مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم. (١)

وأما تنبيه الرسول ﷺ، فذلك في الحديث الذي أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، وكل حد مطلع) وفي الحديث الذي أخرجه الديلمي من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً إلي رسول الله ﷺ أنه قال: (القرآن تحت العرش، له ظهر وبطن يحاج العباد). ففي هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن، ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء في بيان ذلك:

فقيل: ظاهرها - أي الآية - لفظها. وباطنها: تأويلها.

وقال أبو عبيدة: إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وحديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخريين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعالهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم...، ولكن هذا خاص بالقصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

وحكي ابن النقيب قولاً ثالثاً: وهو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل في معني الظهر والبطن. وأما قوله في الحديث الأول: «ولكل حرف حد» فمعناه علي ما قيل: لكل حرف حد، أي منتهي فيما أراد الله من معناه، أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب والأول أظهر، وقوله: «ولكل حد مطلع»، معناه علي حكم ما قيل أيضاً: لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلي معرفته ويوقف علي المراد به. وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة. والأول أظهر أيضاً.

وأما الصحابة فقد نقل عنهم من الأخبار ما يدل علي أنهم عرفوا التفسير الإشاري وقالوا به، أما الروايات الدالة علي أنهم يعرفون ذلك فمنها:

(١) انظر الموافقات: ٣/٣٨٢ - ٣٨٣.

ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطن، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجأ، ومن أخبر فيه بعنف هوي، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء».

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتي يجعل للقرآن وجوها».

وعن ابن مسعود أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن». وهذا الذي قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وأما الروايات الدالة علي أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشارياً، فما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فيما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].. فقال عمر: ما أعلم إلا ما تقول» (١).

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر، أما ابن عباس وعمر، فقد فهما معني آخر وراء الظاهر، هو المعني الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

وأيضاً ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى في الآية (٣) من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.. فرح الصحابة وبكي عمر رضي الله تعالى عنه وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا نعيه عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج ابن أبي شيبه: «أن عمر رضي الله تعالى عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النبي ﷺ (ما يبكيك)؟ قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال عليه الصلاة والسلام: «صدقت» (٢).

(٢) تفسر الألوسي: ٦٠/٦.

(١) البخاري، باب التفسير: ١٧٩/٦.

فعمد رضي الله عنه أدرك المعني الإشاري: وهو نعي رسول الله ﷺ وأقره النبي علي فهمه هذا.. وأما باقي الصحابة، فقد فرحوا بنزول الآية لأنهم لم يفهموا أكثر من المعني الظاهر لها.

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن.. ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي... وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر غير أن المعاني الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور. ولقد فهم ابن مسعود أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً وامتساعاً بالغاً فقال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن» وإلي هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

● التفاوت في إدراك المعاني الباطنة وإصابتها:

غير أنه هذه المعاني المتكاثرة التي يشمل عليها باطن القرآن لم تكن في متناول المفسرين جميعاً، كما أنهم لم يكونوا متساوين في القدر الذي أدركوه منها، بل تفاوتوا في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في الأخذ بالأسباب، كما أنهم لم يكونوا جميعاً مصيبين فيما وصلوا إليه منها وأدركوه، بل أصابوا في بعض منها وأخطأوا في بعض آخر، وما أخطأوا فيه: بعضه عن جهل، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر علي ما به، قالوا بالباطن أيضاً، ولكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن علي ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة.. والباطنية لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، ولكنهم أيضاً تعمدوا أن يفسروا الباطن علي ما يتفق ونواياهم السيئة، وكلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية.. أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعاني الباطنة خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فبينما تجد لهم أفهاماً مقبولة سائغة، تجد لهم بجوارها أفهاماً لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضي بها الشرع، ولهذا أرى أن استعرض بعض ما للقوم من أفهام في التفسير، ثم أحكم عليها حكماً مجرداً عن كل شيء إلا عن الحق والإنصاف، ثم بعد هذا أذكر شروط التفسير الإشاري، وهي الشروط التي إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله والأخذ به وإلا أسقطناه ورفضناه مهما كان لقائله من المكانة في نفوسنا أو في نفوس القوم.

● التفسير الإشاري في الميزان:

قلنا: إن القرآن له ظهر وبطن وذكرنا لك أهم الأقوال في معني الظاهر

والباطن، ومهما يكن من شيء فإن ظاهر القرآن - وهو المنزل بلسان عربي مبين - هو المفهوم العربي المجرد. وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، هذا هو خير ما يقال في معني الظاهر والباطن.

وعلي ذلك نقول: إن كل ما كان من المعاني العربية التي لا يبنى فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر، فالمسائل البيانية، والمنازع البلاغية، لا معدل لها عن ظاهر القرآن، فإذا فهم الإنسان مثلاً الفرق بين (ضيق) في قوله تعالى في الآية (١٢٥) من سورة الأنعام ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾. وبين (ضائق) في قوله تعالى في الآية (١٢) من سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾. . . وعرف أن (ضيق) صفة مشبهة دالة علي الثبوت والدوام في حق من يرد الله أن يضلّه، وأن (ضائق) اسم فاعل يدل علي الحدوث والتجدد وأنه أمر عارض له ﷺ إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن.

إذن فلا يشترط في فهم ظاهر القرآن زيادة علي الجريان علي اللسان العربي، وإذن كل معني مستنبط من القرآن غير جار علي اللسان العربي فليس من تفسير القرآن في شيء. . لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به. ومن ادعي فيه ذلك فهو مبطل في دعواه.

أما المعني الباطن، فلا يكفي فيه الجريان علي اللسان العربي وحده، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصر سليم التفكير، ومعني هذا أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجاً عن مدلول اللفظ القرآني، ولهذا اشترطوا لصحة المعني الباطن شرطين أساسيين.

أولهما: أن يصح علي مقتضي الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري علي المقاصد العربية.

وثانيهما: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربياً بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً، إذ ليست نسبته إليه علي أنه مدلوله أولي من نسبة ضده إليه. ولا مرجح يدل علي أحدهما، فإثبات أحدهما تحكّم وتقول علي القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم.

وأما الشرط الثاني: فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أو كان وله معارض صار من جملة الدعاوي التي تدعي علي القرآن، والدعوي المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء (١).

إذا توافر هذان الشرطان في معني من المعاني الباطنة قبل، لأنه معني باطن صحيح، وإلا رفض رفضاً باتاً، لأنه معني باطن فاسد وتقول علي الله بالهوي والتشهبي .
إذا عرفنا هذا كله ثم ذهبنا نستعرض علي ضوئه أقوال القوم في معاني القرآن الباطنية، وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح، وكثير منها أيضاً هو من قبيل الباطن الفاسد المرفوض، وكبري المشاكل أن بعضها منسوب إلي رجال من أهل العلم لهم مكانة علمية ودينية في نفوسنا، بل وبعضها منسوب إلي رجال من الصحابة، وهم أعرف الناس بكتاب الله وما يحويه من المعاني والأسرار.

فمن الأفهام الباطنة المنقولة عنهم ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول: ما جاء في قوله تعالي في الآية (٢٢) من سورة البقرة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . . من قول سهل التستري: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ أي أضداداً، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء المتطلعة إلي حظوظها ومناها بغير هدي من الله (٢).

فهذا القول من سهل يشير إلي أن النفس الأمارة داخله تحت عموم الأنداد حتي لو فصل لكان المعني: فلا تجعلوا لله أنداداً لا صنماً، ولا شيطاناً، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا. . وهذا مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل علي أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان صنماً أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، ولم يعرف أنهم اتخذوها أرباباً من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك:

إن الناظر في القرآن الكريم، قد يأخذ من معني الآية معني باب الاعتبار، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه، وسهل التستري - رحمه الله - حين قال في الآية ما قال، لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتى بما هو ند في الاعتبار الشرعي، وذلك أن حقيقة الند: أنه المضاد لنده الجاري علي مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي يعني به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعني بعينه، وعلي هذا فلا غبار علي قول سهل في الآية، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين

— جهة حمل الأنداد علي الأنفس الأمانة — اعتباراً، وجهة كون الخطاب — وإن كان موجهاً للمشركين — فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولى: فقولته تعالي في الآية (٣١) من سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .. وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله. ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حليلوه، وفاتهم أن الحلل والحرم هو الله، فقال الله سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوي نفسه.

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية: فهو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾؟ وكان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالي: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٠]... الآية، فعمد رضي الله عنه، له في الآية نظر واعتبار، فأخذ من معناها معني أجري الآية فيه وإن لم تنزل فيه، حذراً منه وخوفاً أن يكون التوسع في المباحات سبباً في الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها، فإذا صح لعمد رضي الله عنه أن ينزل الآية علي المتوسعين في المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم، صح لسهل أيضاً أن ينزل الآية علي النفس الأمانة وإن لم تنزل فيها كذلك.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .. من قول سهل رحمه الله: «لم يرد الله معني الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معني مساكنة الهمة لشئ هو غيره.. أي لا تهتم بشئ هو غيري، قال: فآدم عليه السلام لم يعصم من الهمة والفعل في الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، قال: وكذلك كل من ادعي ما ليس له وساكنة قلبه ناظراً إلي هوي نفسه، لحقه الترك من الله عز وجل مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله، فيعصمه من تدبيره وينصره علي عدوه وعليها.. قال وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلي تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة، ألا تري أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلي ما وسوست به نفسه، فغلب الهوي والشهوة العلم والعقل والبيان ونور القلب، لسابق القدر من الله تعالي، كما قال عليه السلام، «الهوي والشهوة يغلبان العلم والعقل» (١).

وبالنظر في كلام سهل هذا نري أنه ادعي في الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن

المراد النهي عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله. وإن كان هذا منهيًا عنه أيضاً، لكن يمكن أن يكون لهذا الكلام الذي قاله سهل وجه يجري عليه، وذلك أن النهي في الآية لا يصح حمله علي نفس القرب مجرداً، إذ لا مناسبة فيه ظاهرة، ولأنه لم يقل به أحد، وإنما النهي عن معني في القرب وهو إما تناول والأكل. وإما غيره وهو شئ ينشأ الأكل عنه.

وذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل في تحصيل الأكل، ولاشك في أن السكون لغير الله جلب منفعة أو دفع مفسدة منهي عنه.

فهذا التفسير له وجه ظاهر فكأنه يقول: لم يقع النهي عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهى الله عنه لكان ساكناً لله وحده، فلما لم يفعل وسكن إلي أمر في الشجرة غره به الشيطان وهو الخلود في الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان فقال في الآيتين (١٢١ - ١٢٢) من سورة طه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى * .
مثل هذا - وهو كثير في كلام الصوفية - لا نعدم له وجهاً نحمله عليه حتى يكون تفسيراً صحيحاً ومقبولاً.

ولكن هناك أقوال لهم في التفسير الإشاري يقف أمامها العقل حائراً وعاجزاً عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة، فمن ذلك .
ما يروونه عن ابن عباس أنه فسر ﴿آلم﴾ فقال: (الألف: الله، واللام جبريل، والميم: محمد ﷺ) . . وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام^(١) .
وهذا إن صح نقله فهو مشكل إلي حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلي الكلمة بحرف ليس معهوداً في كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظي أو الحالي كقول الشاعر:

* فقلت لها قفي فقالت قاف *

أراد: قالت: وقفت.

وقول زهير:

بالخير خيرات وإن شراً فإلا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شراً فشر، وأراد: إلا أن تشاء.

وقول الآخر:

نادوهموا إلا الجموا إلا تا قالوا جميعاً كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون. قالوا: ألا فاركبوا.

(١) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٢.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «كفي بالسيف شا» أزد شافياً^(١).

.... ولكن أين الدليل علي ما ذكر في قوله: ﴿آلم﴾؟

علي أنه لم يقم دليل من الخارج يدل علي هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التي تتوفر الدواعي علي نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه.... ولما لم يثبت شيء من ذلك دل علي أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا.

ومثل هذا المروي عن ابن عباس - ولعله أشكل منه - ما قاله سهل التستري في تفسيره للبسملة حيث قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. الباء: بهاء الله عز وجل، والسين: سناء الله عز وجل، والميم: مجد الله عز وجل، والله هو الاسم الأعظم الذي حوي الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكني غيب من غيب إلي غيب، وسر من سر إلي سر، وحقيقة من حقيقة إلي حقيقة لا ينال فهمه إلا الظاهر من الأدناس، الأخذ من الحلال قوامة ضرورة الإيمان، والرحمن: اسم فيه خاصية من الحرف المكني بين الألف واللام، والرحيم: هو العاطف علي عباده بالرزق في الفرع، والابتداء في الأصل، رحمة لسابق علمه القديم^(٢).

وما فسره ﴿آلم﴾. فاتحة البقرة وهو قوله: ﴿آلم﴾ اسم الله عز وجل، فيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به، غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة، فأما هذه الحروف إذا انفردت، فالألف: تأليف الله عز وجل. ألف الأشياء كما شاء، واللام: لطفه القديم. والميم: مجده العظيم)، وقال: (لكل كتاب أنزله الله تعالي سر، وسر القرآن فواتح السور، لأنها أسماء وصفات، مثل قوله: ﴿المص﴾، و﴿الر﴾، و﴿المر﴾، و﴿كهيعص﴾، و﴿حمعسق﴾، و﴿طسم﴾، فإذا جمعت هذه الحروف بعضها إلي بعض كانت اسم الله الأعظم، أي إذا أخذ من كل سورة حرف علي الولاء، أي علي ما أنزلت السورة وما بعدها علي النسق: ﴿آلم﴾، و﴿حم﴾، و﴿ن﴾ معناه: الرحمن وقال ابن عباس والضحاك: ﴿آلم﴾: معناه أنا الله أعلم. وقال علي رضي الله عنه: هذه أسماء مقطعة، إذ أخذ من كل حرف حرفاً لا يشبه صاحبه فجمعن كان اسم من أساء الرحمن، إذا عرفوه ودعوه به كان الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب^(٣).

وكما قاله أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير: ﴿آلم﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: ﴿آلم﴾.. قيل: إن الألف ألف الوجدانية، واللام: لام اللطف والميم: ميم الملك، معناه: من وجدني علي الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له.. فأخرجته من

(١) انظر تفسير القرطبي: ١٥٥/١ - ١٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم للتستري: ٩ - ١٢.

(٣) المرجع السابق.

رق العبودية إلي الملاء الأعلي، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشئ من الملك.. وقيل: ﴿آلم﴾ .. معني الألف: أي أفرد سرك، واللام: ليت جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك، أزينك بصفات الأنس بي، والمشاهدة إياي والقرب مني»^(١).

فهذا الذي قاله سهل التستري والذي قاله أبو عبد الرحمن السلمي مشكل كالمروي عن ابن عباس، بل وأعظم منه إشكالاً حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلي أسرار غيبية ومعان مكنية، وإذا جمعت هذه الحروف علي طريقة مخصوصة كان كذا وكذا، بل ويدعون أحياناً أن هذه الحروف هي أصل العلوم ومنبع المكاشفات علي أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلي أنه مراد الله تعالي في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئاً من ذلك، وهذه كلها دعاوي يدعونها علي القرآن، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلي دليل برهاني أو إقناعي، وكل ما أقوله فيها: إنها دعاوي محالة علي الكشف والإطلاع، ودعوي الكشف والإطلاع لا تصلح دليلاً شرعياً بحال من الأحوال.

ومن المواضع المشككة أيضاً، ولكنها أخف إشكالاً مما مر.. ما جاء عنهم من نحو تفسير سهل التستري لقوله تعالي في الآية (٩٦) من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾... الآية، بقوله: «أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها: الرسول يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس»^(٢).

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة النساء: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ .. حيث يقول - بعد ذكره للتفسير الظاهر: «وأما باطنها، فالجار ذي القربى: هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدي بالشرعية، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله»^(٣).

وتفسيره لقوله تعالي في الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ .. بقوله: (مثل الله الجوارح بالبر، ومثل القلب بالبحر، وهم أعم نفعاً وأكثر خطراً، هذا هو باطن الآية، ألا تري أن القلب إنما سمي قلباً لتقلبه وبعد غوره»؟^(٤).

وتفسير ابن عطاء الله السكندري لقوله تعالي في الآية (٣٣) من سورة يس: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بقوله: «القلوب

(٢) تفسر القرآن العظيم للتستري ص ٤١ - ٤٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم للتستري ص ٤١-٤٥ .

(١) حقائق التفسير ص ٩ .

(٣) المرجع السابق .

الميتة بالغفلة أحيانها بالتيقظ والاعتبار والموعظة، وأخرجنا منها حبا معرفة صافية تضيء أنوارها علي الظاهر والباطن» (١).

هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التي تحمل عليها لا غير، لكان هو بعينه مذهب الباطنية، وذلك لأن المعاني التي حملوا عليها الألفاظ في الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ، لا بالوضع الحقيقي ولا بالوضع المجازي المناسب، وليس في مساق الآيات ما يدل علي هذه المعاني المذكورة ومعلوم أن القرآن عربي ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه، فهذه الآيات المذكورة آنفاً لا يفهم منها العربي أكثر من المعاني المتبادرة إلي فهمه، والتي تنساق إلي ذهنه ابتداءً فلا يفهم من البيت الحرام، ولا من الجار ذي القربي، والجار الجنب، والصاحب بالجنب. وابن السبيل ولا من البر والبحر، ولا من الأرض والحب، إلا ما يفهمه العربي من هذه الألفاظ، وما وراء ذلك فليس عليه دليل.

وأيضاً لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفاً لنقل، لأنهم أدري بمعاني القرآن ظاهرها وباطنها باتفاق الأمة، وغير معقول أن يأتي آخر هذه الأمة بأهدي مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم، ولا أدري بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم وعلي لغتهم.

ولكن إجلالنا لهؤلاء المفسرين ووثوقنا بهم من الناحية العلمية والدينية واعترافهم في تفاسيرهم - التي نقلنا عنها - بالمعاني الظاهرية للقرآن وإنكارهم علي من يقول بباطن القرآن دون ظاهره.. كل هذا يجعلنا نحسن الظن بالقوم، فنحمل أمثال هذه المعاني علي أنها ليست من قبيل التفسير، وإنما هي ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير كما قال ابن الصلاح في فتاواه (٢).

● مقالة الشاطبي في التفسير الإشاري:

ولزيادة الإيضاح أذكر لك ما قاله الشاطبي في هذا الموضوع:
قال رحمه الله: الاعتبارات القرآنية الواردة علي القلوب، الظاهرة. للبصائر، إذا صحت علي كمال شروطها فهي علي ضربين:

أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق نور البصيرة فيه حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل، حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك.

والثاني: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات: جزئياً أو كليها، ويتبعه الاعتبار في القرآن.

فإن كان الأول.. فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال، لأن فهم القرآن إنما يرد علي القلوب علي وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة علي ما يليق بكل واحد من المكلفين وبحسب التكليف وأحوالها، لا بإطلاق، وإذا كانت كذلك فالمشي علي طريقها مشي علي الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآن قلما يجده إلا من كان من أهله عملاً به علي تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه علي توازي أحكامه، ويلزمه من ذلك أن يكون معتداً به، لجريانه علي مجاريه. والشاهد علي ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار علي ما تقضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.

وإن كان الثاني.. فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، وأخذه علي إطلاقه فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره في فهم القرآن، فنقول:

﴿إِنَّ تِلْكَ الْأَنْظَارَ الْبَاطِنَةَ فِي الْقُرْآنِ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ - يريد: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾﴾ [النساء: ٣٦] وما ذكره معها - مما تقدم لنا ذكره - إذا لم يظهر جريانها علي مقتضي الشروط المتقدمة فهي راجعة إلي الاعتبار غير القرآني وهو الوجودي^(١) ويصح تنزيله علي معاني القرآن لأنه وجودي أيضاً. فهو مشترك من تلك الجهة غير خاص، فلا يطالب فيه بالمعبر بشاهد موافق إلا ما يطلبه المربي، وهو أمر خاص منفرد بنفسه، لا يختص بهذا الموضوع. فلذلك يوقف علي محله، فكون القلب جاراً ذا قربي، والجار الجنب هو النفس الطبيعي.. إلي سائر ما ذكر يصح تنزيهه اعتبارياً مطلقاً، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض في هذا النمط صحيح وسهل جداً عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ.

(١) مثال الاعتبار الخارجي: ما يروونه عن بعضهم في معني قوله تعالي في الآية (٣) من سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: ألف شهر: هي مدة الدولة الأموية، لأنها مكثت ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، وأن ذلك من الله تسلياً لرسوله ﷺ حيث أطلعه علي ملوك بني أمية واحداً واحداً، فسري عنه بهذه السورة.

هذا المعني لم يؤخذ من القرآن، بل أخذ من الخارج والواقع في ذاته، بمصادفة مطابقة العدد، واللفظ لا ينبو عنه. لكنه لا دليل من الشرع علي كونه هو المعني المقصود (انتهي من هامش الموافقات: ٣/ ٤٠٤).

وأيضاً فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعني المقصود المخاطب به الخلق، بل أجراه مجراه وسكت عن كونه هو المراد، وإن جاء شيء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآني والوجودي، وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو بعد في السلوك، سائر علي الطريق، لم يتحقق بمطلوبه. ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم»^(١).

فالشاطبي - رحمه الله - يقرر في كلامه هذا: أن مثل هذا النوع الأخير من كلام الصوفية راجع إلي الاعتبار غير القرآني، ومع ذلك يمكن تنزيله علي معاني القرآن، كما أنه يقرر: أن من قال هذا لم يذكر عنه أنه قاله علي أنه تفسير للآية وبيان للمقصود منها، وهذا من حسن ظنه بالقوم.

● مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري:

وإذا نحن رجعنا إلي أقوال العلماء التي قالوها في تفسير الصوفية وجدناها جميعاً تقوم علي حسن الظن بهم، وإليك بعضها منها:

* مقالة ابن الصلاح:

قال ابن الصلاح في فتاواه - وقد سئل عن كلام الصوفية في القرآن «وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي (حقائق التفسير)، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في الآية المذكورة - يريد قوله تعالى في الآية (١٢٣) من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.. فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس»^(٢).

* مقالة سعد الدين التفتازاني:

وقد علق التفتازاني علي قول النسفي في كتابه (العائد): «والنصوص علي ظواهرها، فالعدول عنها إلي معان يدعيها أهل الباطن إلحاد» فقال رحمه الله: «وسموا الباطنية لادعائهم أن النصوص ليست علي ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدتهم بذلك نفي الشريعة بالكلية».. ثم قال: «وأما ما يذهب إليه بعض

(١) الموافقات: ٤٠٣/٣ - ٤٠٥.

(٢) فتاوي ابن صلاح ص ٢٩.

المحققين من أن النصوص محمولة علي ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلي دقائق تنكشف علي أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان»^(١).

✽ مقالة ابن عطاء الله السكندري:

ونقل السيوطي عن ابن عطاء الله السكندري أنه قال في كتابه (لطائف المنن) «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن»، فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله.. فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معني للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر علي ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالي ما أفهمهم»^(٢).

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التي قالوها في القرآن علي أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن، أو علي أنها إشارات خفية، ومعان إلهامية، تنهل علي قلوب العارفين، وتزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقي لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التي نقلت عنهم، وهذا عمل حسن وصنع جميل من هؤلاء العلماء، وقد تايعناهم عليه حملاً لحال المؤمن علي الصلاح.. ولكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم علي أثر تلك المقالة التي قرأناها لابن عربي في فتوحاته.. وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية في كتاب الله ليست إلا تفسيراً حقيقياً لمعاني القرآن، وشرحاً لمراد الله من ألفاظه وآياته، ويذكر لنا أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية والمدارة لعلماء الرسوم أهل الظاهر.. وفي هذه المقالة يحمل حملة شعواء علي أهل الرسوم - علي حد تعبيره - الذين ينكرون عليه وعلي غيره من الصوفية. وإليك ما قاله بالنص لتقف علي رأيه الصريح الذي لا مواربة فيه ولا التواء.

✽ مقالة ابن عربي في التفسير الإشاري:

قال رحمه الله: «اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطواراً، فمننا العالم والجاهل، ومننا المنصف والمعاند، ومننا القاهر ومننا المقهور، ومننا الحاكم ومننا المحكوم، ومننا المتحكم ومننا المتحكم فيه، ومننا الرئيس والمرؤوس، ومننا الأمير والمأمور،

(١) العقائد النسفية وشرحها لسعد الدين التفتازاني ص ١٤٢.

(٢) الاتقان: ٢/ ١٨٥.

ومنا الملك والسوقة، ومنا الحاسد والمحسود.. وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم علي أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسرارهم في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسول عليهم السلام. لما كان الأمر في الوجود الواقع علي ما سبق به العلم القديم - كما ذكرنا - عدل أصحابنا إلي الإشارات. فكلامهم - رضي الله عنهم - في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلي أنفسهم مع تقريرهم إياه في العموم، وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].. يعني الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يروونه في نفوسهم ووجه آخر يروونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يروونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلي ذلك، ولا يقولون في ذلك إنه تفسير، وقاية لشهرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق، واقتدوا في ذلك بسنن الهدى، فإن الله كان قادراً علي تنصيب ما تأوله أهل الله في كتابه، ومع ذلك فما فعل، بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامة علوم معاني الاختصاص التي فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم.

ولو كان علماء الرسوم ينصفون، لاعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم، فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك، ويعلو بعضهم علي بعض في الكلام في معني تلك الآية، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها، وكلهم في مجري واحد. ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك. ينكرون علي أهل الله إذا جاءوا بشيء مما يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء، وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف، وصدقوا، فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحماني الرباني قال تعالى ﴿قَرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] فإنه القائل: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤] فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا شك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام، والله يقول في حق الرسول: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال في حق عيسى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال

في حق خضر صاحب موسى عليهما السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].. فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا: إن العلم لا يكون إلا بالتعليم، وأخطأوا في اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبي ولا رسول، يقول الله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وهي نكرة. ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا علي الآخرة، وآثروا جانب الخلق علي جانب الحق، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم، ورأوا في زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبادة تولى الله تعليمهم في سائرهم بما أنزله في كتبه وعلي السنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذي لا يشك مؤمن في كمال علمه ولا غير مؤمن، فإن الذين قالوا: إن الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفي العلم عنه، وإنما قصدوا بذلك أنه تعالي لا يتجدد له علم بشيء، بل علمها مندرجة في علمه بالكلية، فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين، وقصدوا تنزيهه سبحانه في ذلك وإن أخطأوا في التعبير عن ذلك، فنولي الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم ﴿فَأَلَّهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، في أثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧]، فبين لها الفجور من التقوي إلهاما من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوي.

وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله علي أنبيائه، كان تنزيل الفهم علي قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت علي الله ما لم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها، ولا تعلمت فيه، بل جاءت من عنده الله، كما قال تعالي: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وقال فيه: إنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]. (علي التقديم والتأخير) وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله، لا من فكر الإنسان ورويته - وعلماء الرسوم يعلمون ذلك - فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضاً تنزيلاً من عند الله علي قلوب أهل العلم كما كان الأصل. وكذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب: «ما هو إلا فهم يؤتیه الله من يشاء من عباده في هذا القرآن». فجعل ذلك عطاء من الله، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولي به من غيرهم، فلما رأي أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم، وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون - وهم في إنكارهم علي أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعا - سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات، فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الكل، كما قال القائل:

سوف تري إذا انجلي الغبار أفرس تحتك أم حمار
كما يتميز الحق من أهل الله، من المدعي في الأهلية غدا يوم القيامة وقال بعضهم:

فإذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكي

أين عالم الرسوم من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرأ؟ هل هذا إلا من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن؟ فاسم الفقيه أولي بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم، فإن الله يقول فيهم: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].. فأقامهم مقام الرسول في التفقه في الدين والإنذار، وهو الذي يدعو إلي الله علي بصيرة كما يدعو رسول الله ﷺ علي بصيرة، لا علي غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله علي بصيرة منه في دعائه إلي الله وهو علي بينة من ربه، وبين من يفتي في دين الله بغلبة ظنه».

ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول: فهسي ربي، ويرى أنه أفضل منه، وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى في سري مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ في واقعتي فأعلمني بصحة هذا الخبر المروي عنه وبحكمه عنده. قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه في هذا المقام - يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات. عن فلان: وأين هو؟ قالوا: مات. وكان الشيخ أبو مدين - رحمه الله - إذا قيل له: قال فلان، عن فلان، عن فلان يقول: «ما نريد ناكل قديداً أئتوني بلحم طري - يرفع همم أصحابه - فأولئك أكلوه لحمًا طرياً، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد».

والفيض الإلهي والمبشرات ما سد بابها، وهي من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع، والله يهرول لتلقي من أتى إليه يسعي، وما يكون من نجوي ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب - مع دعواك العلم بذلك والإيمان به - لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه، فتكون حديث عهد بربك» (١).

● رأينا في مقالة ابن عربي :

ونحن لا ننكر علي ابن عربي أن ثم أفهاماً يلقيها الله في قلوب أصفياؤه وأحبابه . ، ويخصهم بها دون غيرهم، علي تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبيانا لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربي القرآني ، وأن يكون لها شاهد يؤيدها، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله علي أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالي، لأن القرآن عربي قيل كل شيء كما قلنا، والله سبحانه وتعالى يقول في شأنه: ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]. وحاشا لله أن يبلغ في آياته، أو يعمي علي عباده طريق النظر في كتابه، وهو يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧] (١).

هذا هو ما أدين الله عليه بالنسبة لكلام الصوفية . ، وعذري في ذلك أني لم أسلك مسلك القوم، ولم أذق ذوقهم، ولم أعرف اصطلاحاتهم التي يصطلحون عليها، ولعلي إذا سلكت هذا الطريق، وانكشف لي من آستار الغيب ما انكشف لهم، أو علي الأقل فهمت لغة القوم ووقفت علي مصطلحاتهم . لعلي إذا حصل لي شيء من هذا تبدل رأبي وتغير حكمي فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيدا وغريبا، وقد سأل رجل بعض العلماء أن يقرأ عليه تائبة ابن الفارض فقال له: « دع هذا، من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأي ما رأوا » (٢).

يقولون: إنهم يدركون بعض المعاني بعين اليقين، وما من شأنه أن يدرك بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، إذن فلا بد لمن يريد أن يحكم علي القوم حكما صحيحا أن يجتهد في الوصول إلي ما وصلوا إليه بالعيان ، دون أن يطلبه عن طريق البيان، فإنه طور وراء طور العقل، والشاعر يقول:

علم التصوف علم ليس بعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف

وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف (٣)

ويقول ابن خلدون: « وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات » (٤).

ويقول الألويسي في مقدمة تفسيره (الجزء الأول ص ٨) « فالإنصاف كل الإنصاف

(١) وفي مواضع أخرى من السورة نفسها .

(٢) شذرات الذهب: ١٩١/٥ .

(٣) كشف الظنون: ١/٢٢٢ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٥ .

التسليم للسلادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه، و اتهام ذهك السقيم فيما لم يصل - لكثرة العوائق - إليه:

وإذا لم تر الهلال فسلم - لأناس رأوه بالأبصار

ويقول الألوسي أيضا بعد أن نقل عن ابن عربي ما قاله في تفسير الفاتحة في فتوحاته: «فإذا وقع الجدار، وإنهدم الصور، وامتزجت الأنهار والتقي البحران، ومعدم البرزخ، وصار العذاب نعيماً، وجهنم جنة، ولا عذاب ولا عقاب، إلا نعيم وأمان، بمشاهدة العيان».. إلخ. يقول الألوسي بعد نقله لهذا الكلام الغريب: «وهذا وأمثاله محمول علي معني صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافي ما وردت به القواطع: ثم قال: وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه، وكلمنا وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى، فسلمه لهم بالمعني الذي أرادوه، مما لا تعلمه أنت ولا أنا لا بالمعني الذي يتقدح في عقلك، المشوب بالأوهام، فالأمر والله وراء ذلك» (١).

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا علي قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت في البعد والغرابة، وتورط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير ما لهم في نفوسنا من المكانة العلمية والدينية، ومهما يكن من شئ فأنا عند رأبي لا أتحوّل عنه، حتي إذا ما جعت جوع القوم وسهرت سهرهم، ووجدت مواجيدهم، سلمت لهم بكل ما يقولون (ومن ذاق عرف).

والخلاصة.. أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم، ولم يذيعوها علي الناس فيوقعوهم في حيرة واختلاف، منهم من يأخذها علي ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل في كتب التفسير علي خلافه فرمما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذبها علي الإطلاق، ويرى أنها تقول علي الله وبهتان، ليتهم فعلوا ذلك، إذن لأراحونا من هذه الحيرة، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم، وقذف البعض لهم الكفر والإلحاد في آيات الله!!

● شروط قبول التفسير الإشاري:

تبين لنا فيما سبق أن التفسير الإشاري منه ما هو مقبول، ومنه ما ليس بمقبول، فعلينا بعد ذلك أن نذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في التفسير الإشاري - وإن كنا تعرضنا لأهمها فيما سبق - حتي يكون تفسيراً مقبولاً وإليك هذه الشروط:

أولاً: أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآني الكريم.

ثانياً: أن يكون له شاهد شرعي يؤيده .

ثالثاً: أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي .

وهذه الشروط الثلاثة قد أوضحناها فيما سبق، فلا حاجة بنا إلي إعادة توضيحها .

رابعاً: أن يدعي أن التفسير الإشاري هو المراد وحده دون الظاهر، بل لابد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولاً، إذ لا يطمع في الوصول إلي الباطن قبل أحكام الظاهر «ومن ادعي فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعي البلوغ إلي صدر البيت قبل أن يجاوز الباب» (١).

إذا علمت هذا، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض المتصوفة من أنه فسر قوله تعالى في الآية (٢٢٥) من سورة البقرة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فقال: معناه: (من ذل) من الذل (ذي) إشارة إلي النفس (يشف) (من الشفاء) (ع) أمر من الوعي (٢).

وما نقل عن بعضهم من أنه فسر قوله تعالى في الآية (٦٩) من سورة العنكبوت: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فجعل (لمع) فعلاً ماضياً بمعنى أضاء، و(المحسنين) مفعوله (٣).

هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].. قال الألوسي في تفسير هذه الآية: «أي ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها علي المحامل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: «يضعون الكلام في غير موضعه» (٤).

هذه هي الشروط التي إذا توفرت في التفسير الإشاري كان مقبولاً، ومعني كونه مقبولاً عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية .

وأما عدم وجوب الأخذ به، فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم علي دليل ولا مستند إلي برهان، وإنما هي أمر يجده الصوفي من نفسه، وسر بينه وبين ربه. فله أن يأخذ به ويعمل علي مقتضاه، دون أن يلزم به أحداً من الناس .
سواه .

* * *

(١) الإتيان: ١٨٤/٢ .

(٢) الإتيان: ١٨٤/٢ .

(٣) مبادئ التفسير للخضري ص ٩ .

(٤) تفسير الألوسي: ١١٢/٢٤ .

أهم كتب التفسير الإشاري

من العلماء من وجه همته إلي التفسير الظاهر ولم يتعرض للتفسير الإشاري كالبيضاوي ، والزمخشري مثلاً .
ومنهم من جعل غالب همه في التفسير الظاهر وتعرض للتفسير الإشاري بقدر ، كما فعل النيسابوري ، والألوسي .
ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشاري ، ومع ذلك فهو يتعرض أحياناً للتفسير الظاهر ، كما فعل سهل التستري .
ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الإشاري ، ولم يحم حول المعاني الظاهر ، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي .
ومنهم من أعراض عن الظاهر وجمع في تفسيره بين التفسير الصوفي النظري والتفسير الصوفي الإشاري ، كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربي .
وليس ضرورياً أن نتكلم عن تفسير النيسابوري والألوسي من ناحية ما فيهما من التفسير الإشاري ، لأنهما أقرب إلي أهل الظاهر منهما إلي أهل الإشارة إذ كان كلامهما عن التفسير الإشاري أمراً عارضاً وتابعاً لغيره ، وقد سبق الكلام عنهما في كتب التفسير بالرأي الحمود .
ويكفي هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم أو جلها نحو التفسير الإشاري . وإليك أهم هذه الكتب :

* * *

١ - تفسير القرآن العظيم (للتستري)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله ، التستري ، المولود بتُستَر (١) سنة ٢٠٠ هـ (مائتين) وقيل سنة ٢٠١ (إحدي ومائتين من الهجرة) .

كان - رحمه الله - من كبار العارفين ، ولم يكن له في الورع نظير وكان صاحب كرامات ، ولقي الشيخ ذا النون المصري - رحمه الله - بمكة وكان له اجتهاد وافر ورياسة عظيمة . أقام بالبصرة زمناً طويلاً ، وتوفي بها سنة ٢٨٣ هـ (ثلاث وثمانين ومائتين) قيل سنة ٢٧٣ هـ (ثلاث وسبعين ومائتين) ، فرحمه الله رحمة واسعة . (٢)

(١) تستر - بضم التاء الأولي ، وسكون السين المهملة ، وفتح التاء الثانية - بلد من الأهواز .

(٢) انظر وفيات الأعيان : ١ / ٣٨٩ .

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، ولم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة. ويظهر لنا أن سهلاً - رضي الله عنه - لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هي أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، المذكور في أول الكتاب، الذي يقول كثيراً: قال أبو بكر: سئل سهل عن معني كذا. فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ في هذا الكتاب، فتجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معني ظاهر القرآن وباطنه، ومعني الحد والمطلع، فيقول: « ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب علي المراد بها. فقهاً من الله عز وجل. فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص.. قال تعالي في الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾: أي لا يفقهون خطاباً»^(١).

ويقول في موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالي ما استولي ولياً من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن، إما ظاهراً وإما باطناً. قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد»^(٢).

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلاً التستري يري: أن الظاهر هو المعني اللغوي المجرد، وأن الباطن هو المعني الذي يفهم من اللفظ ويريده الله تعالي من كلامه.. كما نأخذ منه: أنه يري أن المعاني الظاهرة أمر عام يقف عليها كل من يعرف اللسان العربي، أما المعاني الباطنية، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه. كذلك نجد سهلاً - رضي الله عنه - لم يقتصر في تفسيره علي المعاني الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحياناً المعاني الظاهرة، ثم يعقبها بالمعاني الإشارية، وقد يقتصر أحياناً علي المعني الإشاري وحده، كما يقتصر أحياناً علي المعاني الظاهري، بدون أن يعرج علي باطن الآية.

وحين يعرض سهل للمعاني الإشارية لا يكون واضحاً في كل ما يقوله، بل تارة بالمعاني الغريبة التي نستبعد أن تكون مرادة لله تعالي، وذلك كالمعاني التي نقلناها عنه

(١) ص ٣.

(٢) ص ٧ ولعلك تجد في هذه العبارة ما يؤكد ما قلناه من أن الكتاب من وضع أحد

تلاميذه: أبو بكر محمد بن أحمد البلدي.

سابقاً في معني البسملة و(آلم) فاتحة البقرة، وتارة يأتي بالمعاني الغريبة التي يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ، وذلك هو الغالب في تفسيره .
كذلك نجد المؤلف ينحو في كتابه هذا منحي تزكية النفوس ، وتطهير القلوب ، والتحلي بالأخلاق والفضائل التي يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة .. وكثيراً ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهداً لما يذكره، كما أنه يتعرض في بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد علي ظاهر اللفظ الكريم، وإليك نماذج من تفسيره .

في سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٤٨) : ﴿ وَأَتَّخِذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ ﴾ يقول ما نصه : «عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس» (١).

وفي سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٧٨ - ٨٢) حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .. يقول ما نصه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي الذي خلقني لعبوديته يهديني إلي قربه، ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ قال : يطعمني لذة الإيمان ويسقيني شراب التوكل والكفاية ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال يعني إذا تحركت بغيره لغيره عصمني، وإذا ملت إلي شهوة الدنيا منعها علي، ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ قال : الذي يميتني ثم يحييني بالذكر، ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ قال : أخرج كلامه علي شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة» (٢).

وفي سورة الصافات عند قوله تعالى في الآية (١٠٧) : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ما نصه : «إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتي أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلس السر له، ورجع عن عادة الطبع، فذاه بذبح عظيم» (٣).

فهذه المعاني كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلي اللفظ القرآني بدون

معارضة شرعية أو عقلية.. والكتاب - في الغالب - يسير علي هذه الطريقة، وهي لا شوب فيها.

٢ - حقائق التفسير (للسلمي)

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، المولود سنة ٣٣٠هـ (ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة)، وقيل غير ذلك. كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولي في التصوف، والعلم الغزير، والسير علي سنن السلف، أخذ الطريق عن أبيه فكان موفقاً في جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف. وكان علي جانب عظيم من العلم بالحديث، حتي قيل: إنه حدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة. وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق، والحجاز، وصنف سنناً لأهل خراسان، وأخذ عنه بعض الحفاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيري، وغيرهما، ولقد خلف - رحمه الله - من الكتب ما يزيد علي المائة: منها ما هو في علوم القوم، ومنها ما هو في التاريخ ومنها ما هو في الحديث، ومنها ما هو في التفسير.

ولكن السلمي مع وفرة جلالته، وعظيم منزلته بين مريديه لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه، قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابوري القيطان: كان السلمي غير ثقة، يضع للصوفية، وكان الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: «قدر أبي عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محموداً صاحب حديث».

قال ابن السبكي صاحب طبقات الشافعية: «قول الخطيب فيه هو الصحيح، وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه» هذا. . . وقد كانت وفاته سنة ٤١٢هـ (اثنى عشرة وأربعمائة من الهجرة)، فرحمه الله رحمة واسعة (١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في مجلد واحد كبير الحجم، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية.

قرأت في هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن ولكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها ويغضي عن بعضها الآخر، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جري في جميع ما كتبه علي نمط واحد، وهو التفسير الإشاري،

(١) رجعنا في هذه الترجمة إلي طبقات المفسرين للسيوطي ص ٣١، وإلي طبقات الشافعية للسبكي: ٦٠/٣ - ٦٢.

وهو إذ يقتصر علي ذلك لا يعني أن التفسير الظاهر غير مراد، لأنه يصرح في مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر.

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمي . لم يكن له مجهود في هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلي بعض ، ورتبها علي حسب السور والآيات ، وأخرجها للناس في كتاب سماه (حقائق التفسير) .

وأهم من ينقل عنه السلمي في حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندري، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهم كثير.

وإليك بعض ما قاله في مقدمته لتعلم أن السلمي حين اقتصر علي المعاني الإشارية لم يجحد المعاني الظاهرة للقرآن، ولتعلم أيضا أن مجهوده في هذا التفسير إنما هو الجمع والترتيب.

قال رحمه الله: « . . لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا في أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه علي لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نسبت إلي أبي العباس ابن عطاء، وآيات ذكر أنها عن جعفر ابن محمد، علي غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفاً استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلي مقالاتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلي ذلك، وأرتبه علي السور حسب وسعي وطاقتي، واستخرت الله في جمع شيء من ذلك، واستعنت به في ذلك وفي جميع أموري، وهو حسبي ونعم المعين» (١).

● طعن بعض العلماء علي هذا التفسير:

غير أن الاقتصار علي المعاني الإشارية، والإعراض عن المعاني الظاهرة في هذا المؤلف، ترك للعلماء مجالاً للطعن علي هذا التفسير وعلي صاحبه من أجله، فالجلال السيوطي رحمه الله يذكر أبا عبد الرحمن السلمي في كتابه (طبقات المفسرين) ضمن من صنف في التفسير من المبتدعة ويقول: « وإنما أوردته في هذا القسم لأن تفسيره غير محمود» (٢). والحافظ الذهبي رحمه الله يقول عن السلمي: « . . وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يصنفه. فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فستري العجب» (٣). ويقول السبكي في (طبقات الشافعية): « وكتاب حقائق

(٢) طبقات المفسرين ص ٣١ .

(١) ص: ١، ٢ .

(٣) طبقات الشافعية للسبكي: ٣/ ٦١ .

التفسير، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه علي ذكر تأويلات، ومحال للصوفية ينبو عنها اللفظ»^(١).

وقد مريبك أنفا أن الإمام أبا الحسن الواحدي قال: «صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر».

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن علي تفسير السلمي من ناحية أخرى فيقول: «وما ينقل في حقائق السلمي عن جعفر الصادق عامته كذب علي جعفر كما قد كذب عليه في غير ذلك»^(٢).

● رأينا في هذه الطعون:

هذا.. وإن عد السيوطي السلمي في ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف.

وما قاله الذهبي من أن ما في الحقائق تحريف وقرمطة - يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية - فهذا غير صحيح، لأن الرجل يقر الظواهر علي ظواهرها، والقرامطة بخلاف ذلك.

وأما ما قاله السبكي من أن السلمي قد اقتصر في حقائقه علي تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدي: إنه لو اعتقد أن ما في الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا، فنقول فيه: إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير، وإنما قال إنه إشارات تخفي وتدق إلا علي أربابها، كما صرح بذلك في مقدمة حقائق التفسير^(٣).

وأما قول ابن تيمية: إن ما ينقل في حقائق السلمي من التفسير عن جعفر عامته كذب علي جعفر، فهذه كلمة حق من ابن تيمية، إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، ولست أدري كيف اغتر السلمي وهو العالم المحدث بمثل هذه الروايات المختلفة الموضوع.

● نماذج من تفسير السلمي:

وإذ قد فرغنا من الحديث علي حقائق التفسير فاسمع بعض ما جاء فيه لتحكم أنت بدورك عليه.

في سورة النساء عند قول الله تعالى في الآية (٦٦): ﴿لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ .. يقول «قال محمد بن الفضل: ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها، ﴿أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي أخرجوا

(١) طبقات الشافعية للسبكي: ٣/٦١. (٢) منهاج السنة: ٤/١٥٥. (٣) ص ١.

حب الدنيا من قلوبكم ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ في العدد ، كثير في المعاني ، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة» (١).

وفي سورة الرعد عند قوله تعالى في الآية (٣) : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي﴾ .. يقول : «قال بعضهم : هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتاداً من أوليائه وسادة من عبده فإليهم الملجأ ، وبهم النجاة فمن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا ، ومن كان بغتية لغيرهم خاب وخسر . سمعت علي بن سعيد يقول : سمعت أبا محمد الحريري يقول : كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة ، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة ، فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعا من الأرض عالياً ، فاستقبلني بوجهه وقال : يا أبا محمد إني لراجع إلي تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد ، ثم أنشد شعراً :

وما أسفي من فراق قوم	هم المصابيح والحصون
والمدن والمزن والرواسي	والخير والأمن والسكون
لم تتغير لنا الليالي	حتي توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب	وكل ماء لنا عيون (٢)

وفي سورة الحج عند قوله تعالى في الآية (٦٣) : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ .. يقول قال بعضهم : أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة ، وفتح إلي قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة ، فأنبتت فأخضرت بزينة المعرفة ، وأثمرت الإيمان ، وأينعت التوحيد ، أضاءت بالحببة فهامت إلي سيدها ، واشتاق إلي ربها فطارت بهمتها ، وأناخت بين يديه ، وعكفت فأقبلت عليه ، وانقطعت عن الأكوان أجمع ، ذاك أواها الحق إليه ، وفتح لها خزائن أنواره ، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأنس ، ورياض الشوق والقدس» (٣).

وفي سورة الرحمن عند قوله تعالى في الآية (١١) : ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ .. يقول : «قال جعفر : جعل ألحق تعالى في قلوب أوليائه رياض أنسه ، فغرس فيها أشجار المعرفة ، أصولها ثابتة في أسرارهم ، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد فهم يجنون ثمار الأنس في كل أوان ، وهو قوله تعالى : ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي ذات الألوان ، كل يجتني منه لونا علي قدر سعته ، وما كوشف له من بوادي المعرفة وآثار الولاية» (٤).

وفي سورة الانفطار عند قوله تعالى في الآيتين (١٣ ، ١٤) : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ

(١) صفة ٤٩ . (٢) صفة ١٣٨ . (٣) صفة ٢١٢ .

(٤) صفة ٣٤٤ .

* وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١﴾ .. يقول: قال جعفر: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس، فإن لها نيران تتقد ﴿١﴾ .
وفي سورة النصر عند قوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ .. يقول: «قال ابن عطاء الله: إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى، والفتح هو النجاة من السجن البشري بقاء الله تعالى» ﴿٢﴾ .

٣ - عرائس البيان في حقائق القرآن (لأبي محمد الشيرازي)

● التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبي النصر، البقلي، الشيرازي الصوفي، المتوفي سنة ٦٦٦ هـ (سنة وستون وستمئة من الهجرة النبوية) ﴿٣﴾ .
● التعريف بهذا التفسير:

جري مؤلف هذا التفسير علي نمط واحد وهو التفسير الإشاري ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً، يدل علي ذلك قوله في المقدمة: (ولما وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلي كماله وغاية معانيه، لأن تحت كل حرف من حروفه بحراً من بحار الأسرار، ونهراً من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم، وكمال لا نهاية لصفاته .. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلامٍ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، وقال: ﴿قَل لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء، وأسوة بالخلفاء، وسنة للأصفياء، وصنفت في حقائق القرآن، ولطائف البيان وإشارة الرحمن في القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي مما عباراتها أطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم، وتركت كثيراً منها ليكون كتابي أخف محملاً وأحسن تفصيلاً، واستخرت الله تعالى في ذلك، واستعنت به، ليكون موافقاً لمراده، ومواطئاً لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيف .. وسميته بـ (عرائس البيان في حقائق القرآن) إلخ ﴿٤﴾ .

(٢) صفحة: ٤٠٢ .

(١) صفحة: ٣٨٥ .

(٣) كشف الظنون: ٢/٢١ ولم نقف علي أكثر من هذا في ترجمته .

(٤) الجزء الأول ص ٢، ٣ .

فأنت تري من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعاني الظاهرة للقرآن ويقرر أن ما ذكره في كتابه ما هو إلا سوائح سنحت له من حقائق القرآن وإشارات تجلت له من جانب الرحمن، كما تري فيها وصفه لكتابه والمسلك الذي سلكه فيه، غير أنني ألاحظ في قوله: (واستعنت به لمراده، ومواطئاً لسنة رسوله) أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعاني ليس إلا تفسيراً لكتاب الله وبياناً لمراده منه، وهذا هو ما لا نقره عليه، ولا نسلّمه له، لأن هذه المعاني الغريبة التي يأتي بها في تفسيره لا يمكن أن تكون داخلية تحت مدلول اللفظ القرآني، ولا يعقل أن تكون مراده الله تعالى من خطابه لأفراد الأمة، وحسبه أن نقره علي أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

في سورة التوبة عند قوله تعالى في الآية (٩١) ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ .. يقول (وصف الله زمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات. والمستغرقين في بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسمومهم بالمجاهدات، وأمروا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأنس ورياض الإيقان، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ﴾ يعني الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبابات ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد، ﴿حَرَجٌ﴾: عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا» (١).

وفي سورة النحل عند قوله تعالى في الآية (٨١): ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظَلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ﴾ .. يقول: «يعني ظلال أوليائه، ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان لأنهم ظلال الله في أرضه، لقوله عليه السلام: «السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم»، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أكنان الجبال: قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة، يسكن فيها المنقطعون إلى الله، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الأنس، لئلا يحترقوا

(١) الجزء الأول ص ٣٣٩.

بنيران القدس ﴿ وَسَرَّائِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْمِكُمْ ﴾ سراييل المعرفة وأسلحة الحية، لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين، ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله: ﴿ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١).

وفي سورة النمل عند قوله تعالى في الآيتين ٢٠، ٢١): ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَىٰ هَدَىٰ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ * لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطانٍ مبينٍ . . يقول: « إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقدته ساعة، وكان قلبه غائبا في غيب الحق، مشغولا بالمذكور عن الذكر، فتفقدته وما وجده. فتعجب من شأنه . . أين قلبه إن لم يكن معه؟ . . فظن أنه غائب عن الحق وكان في الحق غائبا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله، فقال ﴿ لِأَعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ : لأعذبه بالصبر علي دوام المراقبة والرعاية، وألقينه في بحر النكرة من المعرفة، ليفني ثم يفني عن الفناء، أو أذبحه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتيني من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل . . . » (٢).

هذا . . والكتاب مطبوع في جزئين ويضمها مجلد كبير، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية.

٤ - التأويلات النجمية

(لنجم الدين داية، وعلاء الدولة السمناني)

● التعريف بمؤلفي هذا التفسير:

ألف هذا التفسير نجم الدين داية، ومات قبل أن يتمه، فأكملة من بعده علاء الدولة السمناني، وسوضح ذلك فيما بعد عند الكلام عن هذا التفسير، إذن فقد اشترك نجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني في هذا التفسير، وإذن لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين.

* أما نجم الدين داية:

فهو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهر الأسدي الرازي المعروف بـ (داية)، المتوفي سنة ٦٥٤ هـ (أربع وخمسون وستمائة من الهجرة).

كان من خيار الصوفية « أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبي الجناح المعروف بالبكري، وكان مقيماً أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيز خان إلي بلاد الروم، وهناك لقي صدر الدين القنوي وأخذ عنه، ويقال: إنه استشهد في حروب

جنيكز خان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد، قرب السري السقطي والجنيد»^(١).

* وأما علاء الدولة السمناني:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمناني، البیانانكي، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، والمولود سنة ٦٥٩هـ (تسع وخمسين وستمئة). تفقه وطلب الحديث علي كثير من شيوخ عصره، حتي برع في العلم، قال الذهبي: «كان إماماً جامعاً . . . كثير التلاوة، وله وقع في النفوس، وكان يحط علي ابن عربي ويكفره، وكان مليح الشكل، حسن الخلق غزير الفتوة، كثير البر، يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفاً فينفقها في القرب. أخذ عن صدر الدين بن حمويه، وسراج الدين القزويني، وإمام الدين بن علي مبارك البكري. وذكر أن مصنفاته تزيد علي ثلاثمئة»^(٢).

وذكره الأسنوي في طبقاته وقال: «كان عالماً مرشداً، له كرامات وتصانيف في التفسير والتصوف وغيرهما»^(٣)، ومن مصنفاته مدارج المعارج وتكملة التأويلات النجمية. وذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيراً كبيراً في ثلاثة عشر مجلداً^(٤)، ولكن لم يبين لنا إن كان هذا التفسير علي طريقة القوم أو طريقة المفسرين. وكان رحمه الله قد دخل بلاد التتار، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد، ومات في رجب سنة ٧٣٦هـ (ست وثلاثين وسبعمئة من الهجرة).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:

يقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب، وهي التي رجعنا إليها. ينتهي المجلد الرابع عند قوله تعالي في الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الذاريات: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ . . . وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية في تفسيره، أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير كتبه علاء الدولة وجعله تنمة لكتاب نجم الدين داية، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم، ولهذا يقول فيها: « . . . ولا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان . . . »^(٥)، ثم بعد أن فرغ من المقدمة، فسر الفاتحة علي طريقة القوم، مع

(٢) الدرر الكامنة: ١/ ٢٥٠ - ٢٥٢.

(١) انظر نفحات الأنس ص ٤٩١.

(٤) كشف الظنون: ١/ ٢٣٨.

(٣) طبقات المفسرين للداودي ص ٢٨.

(٥) الجزء الخامس. ويلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات. لأن النسخة التي بأيدينا لم ترقم

صفحاتها.

أن نجم الدين فسرها أول الكتاب . ثم بعد ذلك ابتداء بسورة الطور، وانتهى عند آخر القرآن . ويلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التي مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها .

والذي يقرأ في هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية، وبين ما كتبه السمناني، يلاحظ أن هناك فرقاً بين التفسيرين، ذلك أن الجانب الذي كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحياناً للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلاً: «والإشارة فيه إلي كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشاري سهل المأخذ، لأنه لا يقوم علي قواعد من الفلسفة الصوفية . كما أنه يربط بين الآيات .

أما الجانب الذي كتبه السمناني فلا يعرج فيه علي المعاني الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التي في الجانب الذي كتبه نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، والسر في ذلك: أنه بناه علي قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة، وهي يطول ذكرها، ويصعب فهمها، ويكفي أن أشير هنا إلي بعض منها .

فمثلاً نراه يقرر في هذه المقدمة: أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر . فالمعني الذي يجري علي هذا البطن يغاير المعني الذي يجري علي البطن الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القلبية، وبطن مخصوص باللطفية النفسية، وبطن مخصوص باللطفية الروحية، وبطن مخصوص باللطفية الحفية، وبطن مخصوص باللطفية الحقية، ولتوضيح ذلك فسّر لنا قوله تعالي في الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ . الآية، علي هذه البطون السبعة سبع تفسيرات، كل يخالف الآخر . ثم هو لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلي القول بأن لكل آية سبعين بطناً بل سبعمائة، ووضح ذلك بكلام يطول ذكره .

وعلي الجملة . . فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشاري، وهو أقرب إلي الفهم من غيره لولا هذه التكملة . وإليك نماذج منه . بعضها لنجم الدين وبعضها لعلاء الدولة، لتعرف الفرق بين التفسيرين وتلمس اختلاف المشربين:

● من تأويلات نجم الدين:

في سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ . . يقول: «والإشارة فيها: أن الله تعالي ابتلي الخلق بنهر الدنيا، وماء

زِينَتِهَا، وما زين للخلق فيها، لقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، ليظهر المحسن من الميسئ، وليميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].. ثم امتحنهم وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني من أوليائه، ومحبي وطلابي، وله اختصاص بقربي، وقبولي، والتخلق بأخلاقي، ونيل الكرامة مني، كان النبي ﷺ يقول: «أنا من الله، والمؤمنون مني»، ﴿إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾: يعني: من قنع من متاع الدنيا علي ما لا بد منه: من المأكل والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق. علي حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبي ﷺ وأصحابه، وكان يقول: «اللهم ارزق آل محمد قوتا» - أي ما يمك رمقهم^(١).

وفي سورة التوبة عند قوله تعالى في الآية (١٢٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .. يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا محمداً ﷺ فيما دلهم إلي الله بإذنه، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديلها وجميلها علي طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، فإنها تحجبك عن الله ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي عزيمة صادقة في فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها، ومنازعتها في هواها، وحملها علي المتابعة في طلب الحق، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه كما يتقي المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف^(٢).

وفي سورة يوسف عن قوله تعالى في الآيتين (٣٠، ٣١): ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم^(٣).. يقول «يشير بالنسوة إلي صفات البشرية النفسانية من البهيمية، والسبعة، والشيطانية في مدينة الجسد، ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وهي الدنيا، ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ عن نفسه ﴿تطالب عبدها وهو القلب. كان عبداً في البداية لحاجته إليها للتربية. فلما كمل القلب وصفا عن دنس البشرية استأهل المنظر الإلهي، فتجلي له الرب تبارك وتعالى فتنور القلب بنور جماله وجلاله، فاحتاج إليه كل شيء، وسجد له حتي الدنيا، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي أحبته الدنيا غاية الحب، لما تري عليه آثار جمال الحق،

ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاق علي جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا علي محبته، فقلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴿زَلِيخَا الدُّنْيَا بِمَكْرِهِنَّ﴾ فِي مَلَامَتِهَا، ﴿أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أَي الصِّفَاتِ، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً﴾ أَي هَيَاتَ طَعْمَةٍ مَنَاسِبَةٍ لِكُلِّ صِفَةٍ مِنْهَا، ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾ وَهُوَ سَكِينُ الذِّكْرِ، ﴿وَقَالَتْ﴾ زَلِيخَا الدُّنْيَا لِيُوسُفَ القَلْبِ، ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى غَلْبَةِ أَحْوَالِ القَلْبِ عَلَي صِفَاتِ البَشَرِيَّةِ، ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ﴾ أَي وَقَعْنَ عَلَي جَمَالِهِ وَكَمَالِهِ، ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أَكْبَرْنَ جَمَالَهُ أَنْ يَكُونَ جَمَالَ البَشَرِ، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أَي جَمَالَ بَشَرٍ، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مَا هَذَا إِلَّا جَمَالَ مَلِكٍ كَرِيمٍ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ مَلِكًا - بِكَسْرِ اللَّامِ ﴿١﴾.

وَفِي سُوْرَةِ النَّمْلِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَتَيْنِ (١٧، ١٨): ﴿وَحَشِرٍ لِّسَلِيمَانَ جُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَيَّ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ لَأَيْحَطَّ بِكُمْ لَسَلِيمَانَ وَجُنُودِهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَقُولُ: ﴿وَحَشِرٍ لِّسَلِيمَانَ جُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ﴾ أَي صِفَتِهِ الشَّيْطَانِيَّةِ، ﴿وَالْإِنْسِ﴾ أَي صِفَتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ، ﴿وَالطَّيْرِ﴾، أَي صِفَتِهِ الْمَالِكِيَّةِ، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عَنِ طَبِيعَتِهِمْ بِالشَّرِيعَةِ لِيَسْخَرُوا لِسَلِيمَانَ القَلْبِ وَيُنْقَادُوا لَهُ، ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَيَّ وَادِ النَّمْلِ﴾ وَهُوَ هَوِي النَّفْسِ الحَرِيصَةِ عَلَي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وَهِيَ النَّفْسُ اللُّوَامَةُ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أَي الصِّفَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ﴾ مَحَالِكُمْ الْمُخْتَلِفَةَ وَهِيَ الْحَوَاسِ الخَمْسُ، ﴿لَأَيْحَطَّ بِكُمْ﴾ لَأَيُهْلِكَنَّكُمْ، ﴿سَلِيمَانَ﴾ القَلْبِ، ﴿وَجُنُودَهُ﴾ الْمَسْخَرَةَ لَهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ الحَقُّ، وَأَنْتُمْ البَاطِلُ، فَإِذَا جَاءَ الحَقُّ زَهَقَ البَاطِلُ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَبْطُلُ الظُّلْمَةُ وَتَنْفِيهَا، وَهِيَ لَا تَشْعُرُ بِحَالِ الظُّلْمَةِ وَمَا أَصَابَهَا ﴿٢﴾.

● من تأويلات السمناني:

فِي سُوْرَةِ التَّحْرِيمِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١١): ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .. يَقُولُ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي القَوِي الْمُؤْمِنَةَ مِنَ النَّفْسِ اللُّوَامَةِ، ﴿امْرَأَاتِ فِرْعَوْنَ﴾ يَعْنِي القُوَّةَ الصَّالِحَةَ القَابِلَةَ تَحْتَ القُوَّةِ الفَاسِدَةِ الفَاعِلَةَ الْمُسْتَكْبِرَةَ، مَا ضَرَّهَا كَفَرِ القُوَّةِ الفَاعِلَةَ الفَاسِدَةَ إِذَا كَانَتْ صَالِحَةً هِيَ بِنَفْسِهَا ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي إِذْ قَالَتْ اللطيفة الصالحة القابلة في مناجاتها مع

ربها: ابن لي بيتا في أخص أطوار القلب، وقالت أيضا في مناجاتها: نجني من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها. ونجني من أنوائها وقواها الظالمة..» (١).

وفي سورة الشَّمْسِ عند قوله تعالى في الآيات (١١) وما بعدها ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * ﴿...﴾ «إلى آخر السورة يقول: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ يعني إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلي الطاغية انبعث أشقي قوي النفس علي إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي اللطيفة، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكّر، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق ﴿فَدَمِدْمْ عَلَيْهِمْ رَبِّهِمْ بِذَنبِهِمْ﴾ ، أي أهلكهم الله، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي عمهم بذلك العذاب ﴿وَلَا يَخَافُ عَقَابَهَا﴾ ولا يخاف القوي العاقرة في عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه».

٥ - التفسير المنسوب لابن عربي

● من مؤلف هذا التفسير؟

هذا التفسير طبع مجردا من مجلدين، وطبع علي هامش عرائس البيان في حقائق القرآن، لأبي محمد بن أبي النصر الشيرازي، الصوفي، الذي تكلمنا عنه فيما مضى. وكلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربي، وبعض الناس يصدق هذه النسبة، ويعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربي نفسه، والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربي، بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق القاشاني، وإنما نسب لابن عربي ترويجا له بين الناس، وتشهيرا له بشهرة ابن عربي. ومن يرى هذا الرأي الأخير: المرحوم الشيخ محمد عبده في مقدمة التفسير التي اقتبسها المرحوم الشيخ رشيد رضا من درسه، ورواها عنه بالمعني، ووضعها في مقدمة تفسير المنار. وذلك حيث يذكر وجوه التفسير يعد منها التفسير الإشاري، ثم يقول: «وقد اشتبه علي الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك: التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز» (٢).

ونحن مع الأستاذ الإمام في أن هذا التفسير للقاشاني، لا (لابن عربي) وإن كنا لا نوافق علي دعواه أن القاشاني من الباطنية، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالى.

هذا.. وإني حين أميل لهذا الرأي - أعني كون التفسير للقاشاني - أؤيده بما يأتي:
أولاً: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشاني، والاعتماد علي النسخ المخطوطة
أقوي، لأنها الأصل الذي أخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانياً: قال في كشف الظنون: (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشاني، هو
تفسير بالتأويل علي اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين
أبي الغنائم عبد الرزاق جمال الدين الكاشي السمرقندي، المتوفي سنة ٧٣٠هـ^(١)
(ثلاثين وسبعمائة)، أوله: الحمد لله الذي جعل مناظم كلامه مظاهر حسن
صفاته... إلخ^(٢)، وقد رجعنا إلي مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي، فوجدنا أوله
هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثاً: في تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالي في الآية (٣٢)
﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ يقول: «.. وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد
الصمد قدس روحه العزيز في شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه.. إلخ»^(٣).
ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد ابن علي النطنزي الأصفهاني، والمتوفي في
أواخر القرن السابع، وكان شيخاً لعبد الرزاق القاشاني، المتوفي سنة ٧٣٠هـ (ثلاثين
وسبعمائة من الهجرة) كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس^(٤) في مناقب
الأولياء (ص ٥٣٤ - ٥٣٧)، وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزي
المتوفي في أواخر القرن السابع الهجري شيخاً لابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨هـ (ثمان
وثلاثين وستمائة من الهجرة).

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربي، وإنما هو لعبد الرزاق
القاشاني الصوفي.

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفي النظري، وبين التفسير الإشاري،
ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال.
أما ما فيه من التفسير الصوفي النظري: فغالبه يقوم علي مذهب وحدة الوجود،
ذلك المذهب الذي كان له أثره السيء في تفسير القرآن الكريم.

(١) في الأصل سنة (٨٨٧) وهو خطأ.

(٢) كشف الظنون ص ١٨٧. ولكن لم نعرف من أتم هذا التفسير، والكتاب من أوله إلي

آخره يسير علي طريقة واحدة. (٣) تفسير ابن عربي: ١١٦/٢.

(٤) هذا الكتاب باللغة التركية، وقد رجعنا إليه بمعونة الأستاذ الشيخ زاهد الكوثري وكيل
الشيخة الإسلامية العثمانية بدار الخلافة سابقاً.

وأما ما فيه من تفسير إشاري ، فكثير منه لا نفهم له معني ، ولا نجد له في سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه ، ولو أن المؤلف - رحمه الله - كان واضحاً في كلامه ، كما كان التستري واضحاً ، أو جمع بين التفسير الظاهر والتفسير الباطن لهان الأمر ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، مما جعل الكتاب مغلقاً ، وموهماً لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه ، كما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال الأستاذ الإمام في القاشاني : إنه باطني . وأنا مع اعترافي بأن الكتاب في جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية ، من ناحية ما فيه من المعاني التي تقوم علي نظرية وحدة الوجود ، وما فيه من المعاني الإشارية البعيدة - مع اعترافي بهذا - أخالف كل من يقول : إن القاشاني من الباطنية ، ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد والورع ، وأيضاً فإننا نعلم أن الباطنية ينكرون المعاني الظاهرية للقرآن ويقولون : إن المراد هو الباطن وحده ، أما صاحبنا ، فلم يذهب هذا المذهب : بل نجده في مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد ولا بد منه أولاً ، كما نبه علي أنه لا يحوم في كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر ، ولعله فعل ذلك لأنه وجد من المفسرين من اعتنى بالظواهر دون الإشارات ، فأراد هو أن يعتني بالناحية الإشارية ، دون الناحية الظاهرية للقرآن ، فألف كتابه علي النحو الذي نراه ، وإليك بعض ما جاء في هذه المقدمة ، لتعلم أن الرجل ليس باطنياً ، ولتعلم أيضاً منهجه الذي نهجه في تفسيره ، وطريقته التي سار عليها في شرحه لكتاب الله . قال رحمه الله .

« وبعد . . . فإني طالما تعهدت تلاوة القرآن وتدبرت معانيه بقوة الإيمان وكنت مع المواظبة علي الأوراد ، حرج الصدر ، قلق الفؤاد ، لا ينشرح بها قلبي ولا يصرفني عنها ربي ، حتي استأنست بها فألفتها ، وذقت حلاوة كأسها وشربتها ، فإذا أنا بها نشيط النفس ، فلج الصدر ، متسع البال ، منبسط القلب ، فسيح السر ، طيب الوقت والحال ، مسرور الروح بذلك الفتوح ، كأنه دائماً في غبوق وصبوح ، تنكشف لي تحت كل آية من المعاني ما يكل بوصفه لساني لا القدرة تفي بضبطها وأحصائها ، ولا القدرة تصبر عن نشرها وإفشائها ، فتذكرت خبر من أتى ما ازدهاني ، مما وراء المقاصد والأمانى ، قول النبي الأمي الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق : « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » فهدمت منه أن الظاهر : هو التفسير ، والبطن : هو التأويل ، والحد : ما ينتهي إليه المفهوم من معني الكلام ، والمطلع : ما يصعد إليه منه فيطلع علي شهود الملك العلام ، وقد نقل عن الإمام المحقق الساق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : لقد تجلي الله لعباده في كلامه ، ولكن لا يبصرون ، وروي عنه عليه السلام أنه خر مغشياً عليه وهو في الصلاة فسئل

عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتي سمعتها من المتكلم بها... فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لي في الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود، فإنه قد عين لها حد محدد، وقيل: من فسر برأيه فقد كفر، وأما التأويل فلا يبقى ولا يذر، فإنه يختلف بحسب أحوال المستمع وأوقاته، في مراتب سلوكه وتفاوت درجته، وكلما ترقى عن مقامه انفتح له باب فهم جديد، واطلع به علي لطيف معني عتيد، فشرعت في تسويد هذه الأوراق بما عسي يسمح به الخاطر علي سبيل الاتفاق، غير حائم بقيعة التفسير، ولا خائض في لجة من المطلعات ما لا يسعه التقرير مراعيًا لتطوق الكتاب وترتيبه، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه في أساليبه، وكل ما لا يقبل التأويل عندي، أو لا يحتاج إليه فما أوردته أصلاً ولا أزعم أنني بلغت الحد فيما أوردته كاملاً، فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت وعلم الله لا يتقيد بما علمت، ومع ذلك فما وقف الفهم مني علي ما ذكر فيه، بل ربما لاح لي فيما كتب من الوجوه ما تهت في محابيه، وما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلاً، ليعلم به أن للفهم إليه سبيلاً، ويستدل بذلك علي نظائرها إن جاوز مجاوز عن ظواهرها، إذ لم يكن في تأويلها بد من تعسف، وعنوان المروءة ترك التكلف، وعسي أن يتجه لغيري وجوه أحسن منها طوع القياد، فإن ذلك سهل لمن تيسير له من أفراد العباد. والله تعالي في كل كلمة كلمات ينفذ البحر دون نفاذها، فكيف السبيل إلي حصرها وتعدادها.. ولكنها أنموذج لأهل الذوق والوجدان، يحتذون علي حذوها عند تلاوة القرآن، فينكشف لهم ما استعدوا له من مكنونات علمه، ويتجلي عليهم ما استطاعوا له من خفيات غيبه، والله الهادي لأهل المجاهدة، إلي سبيل المكاشفة والمشاهدة، ولأهل الشوق إلي مشارب الذوق، إنه ولي التحقيق، وبيده التوفيق» (١).

فمن هذه المقدمة يمكنك أن تحكم علي القاشاني بأنه صوفي لا باطني، كما أنك تجد فيها منهجه الذي سار عليه في تفسيره، ولو تصفحت الكتاب لوجدت أنه سار علي الطريقة التي رسمها لنفسه ولم يحد عنها، وإليك نماذج منه:

● نماذج من التفسير الإشاري:

في سورة البقرة عند قوله تعالي في الآية (١٢٦): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.. يقول ما نصه: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا الصدر الذي هو حرم القلب، بلدًا آمنًا من استيلاء صفات

النفس، واغتيال العدو اللعين، وتخطف جن القوي البدينية أهله، وارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره، ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ من وحد الله منهم وعلم المعاد، ﴿قال ومن كفر﴾ أي: ومن احتجب أيضا من الذين سكنوا الصدر، ولا يجاوزون حده بالترقي إلي المقام العين لاحتجابهم بالعلم الذي وعاؤه الصدر، فأمتعه قليلاً من المعاني العقلية، والمعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالم الروح علي قدر ما تعيشوا به، ثم أضطره إلي عذاب نار الحرمان والحجاب، وبئس المصير مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم، وتألمهم بحرمانهم (١).

وفي سورة الأنعام عند قوله تعالى في الآية (٩٥): ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُفَكِّرُونَ﴾ .. يقول ما نصه: ﴿إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف .. ونور النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم، ويخرج حي القلب عن ميت النفس تارة استيلاء نور الروح عليها ومخرج ميت النفس عن حي القلب أخري بإقباله عليها، واستيلاء الهوي وصفات النفس عليه، ذلكم الله القادر علي تقليب أحوالكم، وتقليبكم في أطواركم، فأنتي تصرفون عنه إلي غيره﴾ (٢).

● نماذج من التفسير المبني علي وحدة الوجود:

في سورة آل عمران عن قوله تعالى في الآية (١٩١): ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .. يقول: «ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلا، أي شيئاً غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك . سبحانك: نزهك أن يوجد غيرك، أي يقارن شئ فردانيتك أو يثني وحدانيتك ..» (٣).

وفي سورة الواقعة عند قوله تعالى في الآية (٥٧): ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ .. يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا في صوركم» (٤).

وفي سورة الحديد عند قوله تعالى في الآية (٤): ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ .. يقول: «وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به، وظهوره في مظاهركم» (٥).

وفي سورة المجادلة عند قوله تعالى في الآية (٧): ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ... الآية، يقول: «لا بالعدد والمقارنة، بل بامتيازهم عنه بتعييناتهم. واحتجابهم عنه بمهاياتهم ونياتهم، وافتراقهم منه بالإمكان اللازم لمهاياتهم وهوياتهم، وتحققهم بوجوده اللازم لذاته واتصاله بهم بهويته المندرجة في هوياتهم، وظهوره في

(١) الجزء الأول ص ٥٧ . (٢) الجزء الأول ص ٢١٥ .

(٣) الجزء الأول ص ١٤١ . (٤) الجزء الثاني ص ٢٩١ .

(٥) الجزء الثاني ص ٢٩٤ .

مظاهرهم، وتستره بماهياتهم ووجوداتهم المشخصة، وإقامتها بعين وجوده، وإيجابهم بوجوبه، فهذه الاعتبارات هو رابع معهم، ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم، ولهذا قيل: لولا الاعتبارات لارتفعت الحكمة»^(١).

وفي سورة المزمل عند قوله تعالى في الآيتين (٨، ٩): ﴿وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿... يقول: «واذكر اسم ربك الذي هو أنت - أي اعرف نفسك - واذكرها، ولا تنسها، فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي الذي ظهر عليك نوره، فطلع من أفق وجودك بإيجادك، أو المغرب الذي اختفي بوجودك، وغرب نوره فيك واحتجب بك»^(٢).

هذه بعض النماذج التي تكشف لك عن روح هذا التفسير، ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم في الغالب علي مذهب صاحبه في وحدة الوجود، ولعل هذا هو السر الذي من أجله نسب الكتاب لابن عربي، فإن ابن عربي يقول بوحدة الوجود، ويبني كثيراً من تفسيره لبعض الآيات علي هذا المذهب، فالاتحاد المذاهب وتشابه التفسير وقع الالتباس، فنسب التفسير لابن عربي، أو قصدت النسبة ليروج الكتاب كما قلنا، وأمن من فعل ذلك من افتضاح أمره، اعتمادا علي الاتحاد في المذهب، والتشابه في التفسير.

وإذ قد جردنا الحديث إلي ابن عربي، فأري إتماماً للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة هذا الرجل، وعن مذهبه في التفسير، وليقف القارئ بعد ذلك علي مقدار التشابه بين ابن عربي والقاشاني في فهم كتاب الله تعالى، والكشف عن معانيه.

ابن عربي ومذهبه في تفسير القرآن الكريم

● ترجمة ابن عربي: ^(٣)

هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي، الأندلسي، المعروف بابن عربي - بدون أداة التعريف - كما اصطاح علي ذلك أهل المشرق، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي صاحب أحكام القرآن. وكان بالمغرب يعرف بابن العربي - بالألف واللام - كما كان يعرف في الأندلس بـ (ابن سراقه).

ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ (ستين وخمسمائة من الهجرة) ثم انتقل إلي إشبيلية سنة

(١) الجزء الثاني ص ٣٠٠. (٢) الجزء الثاني ص ٣٥٢.

(٣) رجعنا في هذه الترجمة لترجمته المذكورة في آخر الفتوحات، وهي ملخصة من نفع الطيب، وإلي شذرات الذهب: ٥/ ١٩١، وإلي دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول، العدد الثالث، ودائرة المعارف للبستاني المجلد الأول ص ٥٩٩.

٥٦٨هـ (ثمانين وستين وخمسمائة) وبقي بها نحواً من ثلاثين عاماً ، تلقى فيها العلم علي كثير من الشيوخ حتي ظهر نجمه، وعلا ذكره، وفي سنة ٥٩٨هـ (ثمان وتسعين وخمسمائة) نرح إلي المشرق وطوف في كثير من البلاد، فدخل الشام، ومصر، والموصل، وآسيا الصغرى، ومكة وأخيراً ألقى عصاه واستقر به النوي في دمشق، وتوفي بها في سنة ٦٣٨هـ (ثمان وثلاثين وستمائة)، ودفن بها، فرحمه الله رحمة واسعة.

● ابن عربي بين أعدائه ومريديه :

كان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته، وكان له أتباع ومريدون، يعجبون به إلي حد كبير، حتي لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر، والعارف بالله.

كما كان له أعداء ينقمون عليه، ويرمون بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر والزندقة، فمن المعجيين بابن عربي : قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزآبادي صاحب القاموس، وقد كتب كتاباً يدافع فيه عنه، رداً علي رضي الدين به الخياط الذي كتب عن عقيدة ابن عربي ورماه بالكفر. وكمال الدين الزملكاني، من أكابر مشايخ الشام، والشيخ صلاح الدين الصفدي، والحافظ السيوطي، الذي ألف في الدفاع عنه كتاباً سماه (تنبيه الغبي علي تنزيه ابن عربي)، وسراج الدين البلقيني، وتقى الدين بن السبكي، وغيرهم.

ومن الناقمين عليه : ابن الخياط السابق ذكره، والحافظ الذهبي وابن تيمية عدو الصوفية علي الإطلاق، ولقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربي أنهم حاولوا اغتياله بمصر، ولكن الله سلمه وأنجاه.

● مكانته العلمية :

لم تقتصر براعة ابن عربي علي التصوف، بل برع مع ذلك في كثير من العلوم، فكان عارفاً بالآثار والسنن. أخذ الحديث عن جمع من علمائه، وكان شاعراً وأديباً، ولذلك كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك الغرب. وقد بلغ مبلغ الاجتهاد والاستنباط، وتأسيس القواعد والمقاصد التي لا يحيط بها إلا من طالعها، ووقف علي حقيقتها. ويقال إنه كان من أنصار مواطنه ابن حزم ومذهبه الظاهري، ولكنه مع ذلك أبطل التقليد.

● مذهب ابن عربي في وحدة الوجود :

أما مذهبه في وحدة الوجود فهو : أنه يري أن الوجود حقيقة واحدة ويعد التعدد

والكثرة أمراً قضت به الحواس الظاهرة «وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلي قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها وغير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم، وصور جميع المعبودات والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه وإنما الباطل من العبادة: أن يقصر العبد ربه علي مجلي واحد دون غيره، ويسميه إلهاً»^(١).

(وبالجملة، فمنزلة ابن عربي العلمية كبيرة، ولا أدل علي ذلك من مؤلفاته الكثيرة التي تدل علي سعة باعه، وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة، وقد بلغ ما بقي منها إلي اليوم مائة وخمسون كتاباً، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربي في الواقع)^(٢). وأهم هذه المؤلفات (الفتوحات المكية) الذي ذاع صيته. وكلف به كثير من الرجال، ثم (فصوص الحكم)، وله ديوان في الأشعار الصوفية، وكتاب (الأخلاق)، وكتاب (مجموع الرسائل الإلهية) وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

غير أن هذه المؤلفات يوجد في تضاعفها كثير من الكلمات المشككة، التي سببت خوض الناس في عقيدته، ورميهم إياه بالكفر والزندقة، ولكن أتباعه ومريديه ومن أعجب به من العلماء لم يأخذوا هذه الألفاظ علي ظواهرها بل قالوا: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلاح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها. حتي لا يدعيها الكذابون. وقد قال السيوطي في كتابه (تنبيه الغبي علي تنزيه ابن عربي): «والقول الفصل في ابن عربي): اعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه، فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا. قال السيوطي: وذلك لأن الصوفية تواضعوا علي ألفاظ اصطلاحوا عليها. وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم علي معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نص علي ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة، من حمله علي ظاهره كفر»^(٣).

ومما استدلوا به علي أن ابن عربي لا يريد الظاهر الموهوم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

فاعترض عليه السامع وقال: كيف تقول إنه لا يراك، وأنت تعلم أنه يراك؟ فقال

مرتجلاً:

(١) هامش دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٦. (٣) شذرات الذهب: ١٩١/٥.

يا من يراني مجرماً ولا أراه آخذاً
كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائذاً^(١)

قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره، وإنما له محامل تليق به. ومن العلماء من ينزه ابن عربي عن هذه العبارات الموهمة ويقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، ويروون في ذلك أن الشعراني الذي اختصر الفتوحات قال: «وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه، لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة. فحذفتها من هذا المختصر وربما سهوت فتبعت ما في الكتاب، كما وقع للبيضاوي مع الزمخشري ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التي حذفت ثابتة عن الشيخ محيي الدين حتي قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبي الطيب المدني المتوفي سنة ٩٥٥ هـ (خمسة وخمسون وتسعمائة من الهجرة) فذاكرته في ذلك، فأخرج إلي نسخة من الفتوحات التي قابلها علي النسخة التي عليها خط للشيخ محيي الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسوا علي الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره»^(٢).

ومهما يكن من شيء، فابن عربي معقد في أفكاره، موهم في ألفاظه وتعبيره، مشكل في أكثر ما يقول. ومع كل هذا فلا أتهمه في عقيدته الجهلي باصطلاحات القوم ورموزهم. وكلمة الإنصاف فيه - كما أعتقد - قول الحافظ الذهبي عنه: «وله توسع في الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة وتدقيق في التصوف، وتأليفه جملة في العرفان، ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس»^(٣).

● مذهب ابن عربي في تفسير القرآن الكريم:

يقوم مذهب ابن عربي في التفسير غالباً علي نظرية وحدة الوجود التي يدين بها، وعلي الفيوضات والوجدانيات التي تنهل عليه من سحائب الغيب الإلهي، وتنقذ في قلبه من ناحية الإشراق الرباني.

أما من الناحية الأولي: ناحية التأثير، بمذهب وحدة الوجود. فإننا نراه في كثير من الأحيان يتعسف في التأويل، ليجعل الآية تتمشي مع هذه النظرية. وهذا - فيما أعتقد - منهج كله شر في التفسير، فهو يبدل فيما أراد الله من آياته، ويقسرها علي

(١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات: ٤/ ٥٥٧.

(٢) خاتمة الفتوحات ص ٥٥٥.

(٣) دائرة المعارف للبيستاني ص ٥٩٩.

أن تتضمن مذهبه، وتكون أسانيد له، وهذا ليس من شأن المفسر المنصف، الذي يبحث في القرآن بحثاً مجرداً عن الهوي والعقيدة.

وأما من الناحية الثانية: ناحية الفيض الإلهي، فهو واسع الباع فيها، وقد مرت بك مقالته في التفسير الإشاري، ورأيت كيف ادعي أن كل ما يجري علي لسان أهل الحقيقة من المعاني الإشارية في القرآن هو في الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله وإنما عبر عنها بالإشارة. تقيّة من أهل الظاهر، ورأيت كيف ادعي أن أهل الله - وهم الصوفية - أحق الناس بشرح كتابه، لأنهم يتلقون علومهم عن الله، فهم يقولون في القرآن علي بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين.

ثم هو لا يري فرقا بين القرآن نفسه، وبين تفسير أهل الله له، من ناحية أن كلا منهما حق ثابت، وصدق لا يعتريه شك، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه من عند الله، فكذلك أقوال أهل الحقيقة في التفسير، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها منزلة علي قلوبهم من عند الله.

يقرر ابن عربي كل هذه المبادئ، ويصرح بها في فتوحاته، وأنا لا زلت واقفاً عند رأبي الذي قررته آنفاً، وهو: أن دعوي الفيض والإلهام لا يصح أن تكون أصلاً يحكم به علي كتاب الله تعالى.

هذا... وإن ابن عربي لم نظفر له بكتاب في التفسير، ولكن نجد صاحب كشف الظنون يقول: إنه « صنف تفسيراً كبيراً علي طريقة أهل التصوف في مجلدات. قيل إنه في ستين سفراً، وهو إلي سورة الكهف، وله تفسير صغير في ثمانية أسفار علي طريقة المفسرين »^(١)، وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإننا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، وهو تفسيره لبعض الآيات التي وجدناها متفرقة في غضون مؤلفاته، كالفصوص، والفتوحات إليك بعضاً منها لتكون علي بصيرة، ولتطمئن إلي حكمي علي الرجل في شرحه لكتاب الله تعالى.

● نماذج من التفسير الصوفي النظري له:

في سورة نوح عند قوله تعالى في الآية (٢٥) ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ .. يقول: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ فهي التي خَطَّتْ بِهِمْ فِغْرَفُوا فِي بَحَارِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَهُوَ الْحَيْرَةُ، ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ في عين الماء، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلي الأبد»^(٢).

وعند قوله تعالى في الآيتين (٢٧، ٢٨) من سورة نوح أيضاً: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرِهِمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا

(١) كشف الظنون: ١/٢٣٣.

(٢) فصوص الحكم: ١/٢١٩.

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿١٠٠﴾ يقول ما نصه: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ﴾ أي تدعهم وتتركهم، ﴿يَضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلي ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أربابا، بعدما كانوا عبيدا، فهم العبيد الأرباب، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجْرًا﴾ أي لا ينتجوا ولا يظهروا، ﴿إِلَّا فَاَجْرًا﴾ أي مظهرها ما ستر، ﴿كفارا﴾ أي ساترا ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما ستر فيهم، ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر، ولا يعرف قدر الفاجر في فجوره، ولا الكافر في كفره، والشخص واحد، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي استرني واستر من أجلي، فيجهل مقامي وقدري، كما جهل قدرك - ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] - ﴿وَلِوَالِدِي﴾ كنت نتيجة عنهما، وهما العقل والطبيعة، ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ أي قلبي، ﴿مُؤْمِنًا﴾ أي مصدقا بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية، وهو ما حدثت به أنفسهم، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العقول، ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من النفوس، ﴿وَلَا تَزِدُ الظَّالِمِينَ﴾ من الظلمات أهل الغيب المكتنفين خلف الحجب الظلمانية، ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكا، فلا يعرفون نفوسهم وشهودهم وجه الحق دونهم» (١).

وفي سورة النساء عند قوله تعالى في الآية (٨٠) ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ .. يقول: «لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته» (٢).

● نماذج من التفسير الإشاري له:

في سورة الأعراف عند قوله تعالى في الآيتين (٥٧، ٥٨): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ..

نراه يذكر: أنه لما أدركته الفطرة التي لا بد منها لكل داخل في الطريق وتحكمت فيه، رأى الحق سبحانه، فتلا عليه هاتين الآيتين، قال: فعلمت أنني المراد بهذه الآية، وقلت: ينبه بما تلاه علينا علي التوفيق الأول الذي هدانا الله به علي يد عيسى وموسي ومحمد سلام الله عليهم جميعهم، فإن رجوعنا إلي هذا الطريق، كان بمبشرة علي يد عيسى، وموسي، ومحمد عليهم السلام، ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهي العناية بنا، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ وهو ترادف التوفيق، ﴿سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وهو أنا ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩] - وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول،

(١) فصوص الحكم: ١/١٢٣.

(٢) الفتوحات: ٤/١٢٢.

والعمل الصالح، والتعشق به. ثم مثل فقال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يشير بذلك إلي خبر ورد عن النبي ﷺ في البعث - أعني حشر الأجسام - من أن الله يجعل السماء تمطر مثل مني الرجال... (الحديث). قال ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وليس سوي الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل ﴿وَالَّذِي خَبثَ﴾ وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع، وهو معتنى به في نفس الأمر، ﴿لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ مثل قوله: ﴿إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَقَادُونَ إِلَيَّ الْجَنَّةَ بِالسَّلَاسِلِ﴾ وقوله في الآية (١٥) من سورة الرعد: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فقلنا: طوعاً يا إلهنا» (١).

وفي سورة الحج عند قوله تعالى في الآيتين (٣٢، ٣٣): ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ .. نجده يفسر: ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فيقول ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أعلامه، وأعلامه الدلالة الموصلة إليه، ويفسر قوله ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ .. فيقول: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله» (٢).

وفي سورة لقمان عند قوله تعالى في الآية (١٦): ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ ... الآية، نجده يفسر قوله تعالى: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ .. فيقول: «أي عند ذي قلب قاس لا شفقة له علي خلق الله. قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]» (٣).

● نماذج من التفسير الظاهر لابن عربي:

في سورة الأنعام عند قوله تعالى في الآية (١٥٣): ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .. يقول: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ فأضافه إليه، ولم يقل: صراط الله، ووصفه بالاستقامة .. ثم قال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ الضمير يعود علي صراطه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ يعني شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هي شرائع لهم، إلي إن وجد حكم فيها من شرعي فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعا لهم، ﴿فَتَفْرُقَ بَكُمْ﴾ يعني تلك الشرائع، ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي عن طريقه الذي جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله، لأن الكل سبيل الله، إذ كان الله غايتها، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشي علي غيره» (٤).

(٢) الفتوحات: ٤/ ١٠٩.

(١) الفتوحات: ٤/ ١٧٢.

(٤) الفتوحات: ٢/ ٢١٧.

(٣) الفتوحات: ٤/ ١١٤.

وهذا تفسير مقبول، لجريانه علي مقتضي الظاهر من الآية، ولكن نجد صاحبنا أحيانا يشطح في فهمه لظاهر الآيات شطحات لا نستطيع أن نسلمها له علي ظاهرها، وإنما أقول (علي ظاهرها) لأنه ربما كان يعني من وراء هذا الظاهر معني لا غبار عليه - أرادته هو، وجهلته أنا فمن ذلك أنه يقول: «اعلم . وفقك الله - أن الله أخبر عن نبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام في كتابه أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، فوصف نفسه بأنه علي صراط مستقيم، وما أخطأ هذا الرسول في هذا القول، ثم إنه ما قال ذلك إلا بعد قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فما ثم إلا من هو مستقيم علي الحقيقة علي صراط الرب، لأنه ما ثم إلا من الحق آخذ بناصيته، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو علي صراط مستقيم، ونكر لفظ (دابة) فعم، فأين المعوج حتي نعدل عنه؟ فهذا جبر، وهذه استقامة فالله يوفقنا في إنزال كل حكمة في موضعها».

هذه بعض النماذج من تفسير ابن عربي . ومنها تستطيع أن تحكم علي فهمه لمعاني القرآن، كما تستطيع أن تقارن بينها وبين ما في تأويلات القاشاني المنسوبة لابن عربي، لتقف علي مقدار التشابه بين التفسيرين، وتأثر كل منهما بعقيدته في وحدة الوجود.

وبعد . . فهذا هو تفسير الصوفية، وهؤلاء هم أهم مفسريه، وهذه هي أهم الكتب المؤلفة فيه، ولعلي أكون قد أوفيت البحث حقه، وألمت بالموضوع من جميع نواحيه.

الفصل السادس

تفسير الفلاسفة

• كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة؟

في إبان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، ويرجع الفضل الأكبر في هذا العمل إلى العباسيين وحدهم إذ أنهم نظموا الترجمة الإسلامية وشجعوها.

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة، وتعهدها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبلغ بها المأمون - خاصة - القمة، وأضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان.

ولكي يحقق العباسيون غايتهم استخدموا طائفة من الفرس والهنود والصابئة والمسيحيين، الذين كانوا علي اتصال وثيق بالدراسات القديمة فنقلوا إلى اللغة العربية كتب فلاسفة اليونان، والهند، والفرس، وغيرهم، ثم أذيعت هذه الكتب بين المسلمين فقرأوها قراءة النهم المتعطش لهذا النوع من العلم الذي لم يكن لهم به عهد من قبل. قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث، لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين، ولا تتفق معه بحال من الأحوال، فكرسوا حياتهم للرد عليها، وتنقيير الناس منها، وكان علي رأس هؤلاء: الغزالي، والفخر الرازي، الذي تعرض في تفسيره لنظريات الفلاسفة التي تبدو في نظره متعارضة مع الدين، ومع القرآن علي الأخص فردها وأبطلها بمقدار ما أسعفته الحجة، وانقاد له الدليل.

وقرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلى حد كبير، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، وتعاليمه التي لا يلحقها الشك، ولا تحوم حولها الشبهة.. نعم أعجبوا بها رغم هذا، لأنهم وجدوا أن في مقدورهم أن يوفقوا بين الحكمة والعقيدة، أو بين الفلسفة والدين، وأن يبينوا للناس أن الوحي لا يناقض العقل في شيء، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفوس، وثبتت أمام الخصوم.. رأوا أن هذا في مقدورهم، فبدلوا كل ما يستطيعون من حلول ليصلوا الفلاسفة بالدين، ويؤاخوا بينهما، حتي يصبح الدين فلسفة، والفلسفة ديناً، وفعلاً وصل فلاسفة المسلمين إلى هذا التوفيق، ولكنه توفيق إن أرضي بعض المسلمين، فقد أغضب الكثير منهم، ذلك لأنهم لم يصلوا في توفيقهم إلا إلى حلول وسطي، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويراً يبعد كثيراً عن الصور الثابتة الماثورة، ومثل هذه

الحلول لا تصلح للتوفيق بين جانبيين متقابلين وطرفين متنافرين، ولذلك لم يجد الغزالي ومن لف لفه صعوبة في الرد علي هؤلاء الفلاسفة الموفقين، وإبطال محاولاتهم، التي ظنوا أنهم أرضوا بها رجال الدين الواقفين عند حدوده وتعاليمه.

● كيف كان التوفيق بين الدين والفلسفة:

ثم إن الفلاسفة الموفقين بين الدين والفلسفة، كانت لهم طريقتان يسيرون عليهما في توفيقهم.

بعض في تلك الطريقة يكون الأراء الفللسفية صالحة !!

أما الطريقة الأولى: فهي طريقة التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية، ومعني هذا إخضاع تلك النصوص والحقائق إلي هذه الآراء حتي تسايروهم وتتمشي معها.

وأما الطريقة الثانية: فهي شرح النصوص الدينية والحقائق الشرعية بالآراء والنظريات الفلسفية، ومعني هذا أن تطغي الفلسفة علي الدين وتتحكم في نصوصه، وهذه الطريقة أخطر من الأولى، وأكثر شراً منها علي الدين.

● الأثر الفلسفي في تفسير القرآن الكريم:

مما تقدم يتضح لك أن علماء المسلمين لم يكونوا جميعاً علي مبدأ واحد بالنسبة للآراء الفلسفية، بل وجد منهم من وقف منها موقف الرفض وعدم القبول، كما وجد منهم من وقف موقف الدفاع عنها والقبول لها، وكان من هؤلاء وهؤلاء أثر ظاهر في تفسير القرآن الكريم.

أما الفريق المعاند للفلسفة: فإنه لما فسر القرآن اصطدم بهذه النظريات الفلسفية، فرأي من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات ويمزجها بالتفسير. إما علي طريق الدفاع عنها وبيان أنها لا تتعارض مع نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات الصحيحة عنده والمسلمة لديه، وإما علي طريق الرد عليها وبيان أنها لا يمكن أن تسايرو نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات التي لا يسلمها ولا يقول بها.

وهو في الحال الأول يشرح القرآن علي ما يوافق هذه النظريات التي لا يراها متعارضة مع الدين، وفي الحالة الثانية لا يمشي علي ضوء النظريات الفلسفية في تفسيره، بل يفسر النصوص علي ضوء الدين والعقل وحدهما، دون أن يكون للرأي الفلسفي دخل في شرح النص القرآني وبيان معناه، ومن فعل هذا في تفسيره الإمام فخر الدين الرازي، ودونك التفسير فستري فيه ما ذكرته.

وأما الفريق المسالم للفلسفة، المصدق بكل ما فيها من نظريات وآراء فإنه لما فسر القرآن سلك طريقاً كله شر وضلال، إذ أنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينه، ثم نظر من

خلالها إلي القرآن . فشرح نصوصه علي حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شيء إلا من التعصب الفلسفي .

وأخيرا وجدنا أنفسنا أمام شروح لبعض آيات القرآن، هي في الحقيقة شروح لبعض النظريات الفلسفية، قصد بها تدعيم الفلسفة وخدمتها علي حساب القرآن الكريم، الذي هو أصل الدين ومنبع تعاليمه .

● من تفسير الفارابي :

فمن هذه الروح التي طغت عليها الفلسفة، ما تجده للفارابي المتوفي سنة ٣٣٩هـ (تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة) في كتابه (فصوص الحكم)، من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التي جاء بها القرآن . تفسيراً فلسفياً بحثاً فمن ذلك أنه يفسر الأولية والآخرة الواردة في قوله تعالي في الآية (٣) من سورة الحديد: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ تفسيراً أفلوطينياً مبنياً علي القول بقديم العالم فيقول: أنه «الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربه منه، أول من جهة أن كان زمني ينسب إليه بكون، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشيء، ووجد إذ وجد معه لا فيه . هو أول، لأنه إذا اعتبر كل شيء كان فيه أولاً أثره، وثانياً قبوله لا بالزمان . هو الآخر، لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومباديها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية في كل طلب، فالغاية مثل السعادة في قولك: لم شربت الماء؟ فتقول: لتغيير المزاج، فيقال: ولم أردت أن يتغير المزاج؟ فتقول: للصحة، فيقال: لم طلبت الصحة؟ فتقول: للسعادة والخير، ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه، لأن السعادة والخير تطلب لذاته لا لغيره .. فهو المعشوق الأول، فلذلك هو آخر كل غاية، أول في الفكرة آخر في الحصول، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق..»^(١) .

ويشرح الظاهر والباطن الوارد في قوله تعالي في الآية (٣) من سورة الحديد أيضاً: ﴿الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ .. فيقول: «لا وجود أكمل من وجوده، فلا خفاء به من نقص الوجود فهو في ذاته ظاهر، ولشدة ظهوره باطن، وبه يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفي وتستبطن لا عن خفاء»^(٢) .

كما يشرح هذه الجملة مرة أخرى فيقول: «هو باطن لأنه شديد الظهور، غلب ظهوره علي الإدراك فخفي، وهو ظاهر من حيث أن الآثار تنسب إلي صفاته، وتجب عن ذاته فتصدق بها»^(٣) .

(١) فصوص الحكم ص ١٧٤ - ١٧٥ ضمن المجموع من مؤلفات أبي نصر الفارابي .

(٢) فصوص الحكم ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) فصوص الحكم ص ١٧٠ .

ويفسر الوحي بقوله: «والوحي لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة، وذلك هو الكلام الحقيقي، فإن الكلام إنما يراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطب في باطن المخاطب ليصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مس باطن المخاطب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه، اتخذ فيما بين الباطنين سفيرا من الظاهرين، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار. وإذا كان المخاطب لا حجاب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاق الشمس علي الماء الصافي فانتقش منه، لكن المنتقش في الروح من شأنه أن يسيح إلي الحس الباطن إذا كان قويا، فينتطب في القوة المذكورة فيشاهد، فيكون الموحي إليه يتصل بالملك باطنه، ويتلقي وحيه الكلي بباطنه» (١).

كما يشرح الملائكة بأنها «صورة علمية، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها، تلحظ الأمر الأعلى فينتطب في هويتها ما تلحظ، وهي مطلقة لكن الروح القدسية تخاطبها في اليقظة، والروح البشرية تعاشرها في النوم» (٢).

● من تفسير إخوان الصفا:

ومن الشروح الفلسفية للقرآن أيضا ما نجده في رسائل إخوان الصفا، الذين لا زلنا نجهل الكثير عن تاريخ نشأتهم وتكوينهم، والذين كانوا يمتون في أغلب الظن بصلة إلي الباطنية الإسما عيلية.

فمن ذلك أنهم يشرحون الجنة والنار، بما يفهم منه أن الجنة هي عالم الأفلاك، وأن النار هي عالم ما تحت فلك القمر، وهو عالم الدنيا، ففي حديثهم عن تجرد النفس واشتياقها إلي عالم الأفلاك، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلي ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف، ويقولون: «إن النفس إذا فارقت هذه الجنة، ولم يعقها شيء من سوء أفعالها، أو فساد آرائها، وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها، فهي هناك في عالم الفلك في أقل من طرفة عين بلا زمان، لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه، فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد ومعشوقها هو الملذات المحسوسة المموهة الجرمانية، وشهواتها هذه الزينات الجسمانية، فهي لا تبرح من ههنا ولا تشتاق الصعود إلي عالم الأفلاك، ولا تفتح لها أبواب السماء ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة، بل تبقى تحت فلك القمر سائحة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة، تارة من الكون إلي الفساد، وتارة من الفساد إلي الكون: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ في الآية (٥٦) من سورة النساء، ﴿لَا بَيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ - الآية (٢٣) من سورة النبأ - ما دامت السموات والأرض لا يذوقون فيها برد عالم الأرواح الذي هو الروح والريحان، ولا يجدون لذة

(١) فصوص الحكم ص ١٦٣.

(٢) فصوص الحكم ص ١٤٦.

شَرَابِ الْجَنَانِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ - الآية (٥٠) من سورة الأعراف - الظالمين لأنفسهم.. ويروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجنة في السماء، والنار في الأرض»^(١).

ومن ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون: «إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته.. خلقهم الله تعالي لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه، وسياسة بريته، وهم خلفاء الله في أفلاكه، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه»^(٢).

كذلك يري إخوان الصفا «أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلي ملكوت السماء وتدخل في زمرة الملائكة، وتحيا بروح القدس، وتسبح في فضاء الأفلاك. في فسحة السموات، فرحة، مسرورة، منعمة، متلذذة، مكرمة، مغتبطة»، ويقولون إن ذلك هو معني قول الله عز وجل في الآية العاشرة من سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣).

كذلك يشرح إخوان الصفا الشياطين شرحاً فلسفياً بحثاً لا يتفق مع ما جاء به الدين فيقولون: «إن الله أشار إلي النفوس ووساوسها بقوله - في الآية (١١٢) من سورة الأنعام: ﴿شَیْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فشياطين الجن هي النفوس المفارقة الشريرة التي قد استجنت عن إدراك الحواس، وشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد»^(٤).

ثم يقولون «بأمثال هذه النفوس التي ذكرناها - يعنون النفوس الخبيثة هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل»^(٥).

كما يفهمون أن تسمية الله الشهداء في قوله في الآية (٦٩) من سورة النساء: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ بهذا الاسم إنما هو لشهادتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولي، ويعنون بها جنة الدنيا ونعيمها»^(٦).

ثم إن إخوان الصفا يعتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان

(١) رسائل إخوان الصفا: ١/٩١ - ٩٢ المطبعة العربية سنة ١٩٢٨.

(٢) المصدر السابق: ١/٩٨.

(٣) نفس المصدر: ٤/١١٠، ١١١. مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦ هـ.

(٤) رسائل إخوان الصفا: ٤/١٧٢، مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦ هـ.

(٥) المرجع السابق: ٤/١٧٤. (٦) نفس المرجع: ٤/١٨٦.

العامة، ويقولون: إن النبي ﷺ يخبر خواص أمته بما جاء به واعتقده بالتصريح في السر والعلن، غير مرموز ولا مكتوم، ثم يشير إليها، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة، والمعاني المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور، وتقبلها نفوسهم^(١)، وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة.

هذه بعض شروح الفلاسفة من المسلمين لآيات القرآن الكريم، وهي كما تري شروح تقوم علي نظريات فلسفية بحثة، لا يمكن أن يحتملها النص القرآني بحال من الأحوال.

هذا... ولم نسمع أن فيلسوفاً من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة في عقولهم، ألف لنا تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، وكل ما وجدناه لهم في ذلك لا يعدو بعض أفهام قرآنية مفرقة في كتبهم التي ألفوها في الفلسفة وأكثر من وجدنا له أثراً في التفسير من هؤلاء الفلاسفة هو الرئيس أبو علي ابن سينا، إذ قد عثر له علي تفسير قوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية^(٢) وعلي تفسير سورة الإخلاص، والمعوذتين^(٣) وبعض آيات أخري، ولهذا ساعتر ابن سينا الشخصية الأولي التي كان لها أكبر أثر في التفسير الفلسفي، فأذكر نبذة عن حياته، ثم أعرض لمسلكه في التفسير فأقول:

● ترجمة ابن سينا:

هو الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا. كان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلي بخاري، وفي قرية من قراها ولد له أبو علي ابن سينا سنة ٣٧٠هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة). ثم انتقل مع أهله إلي بخاري، ثم طوف أبو علي بعد ذلك في البلاد، واشتغل بالعلوم، وحصل كثيراً من الفنون. حفظ القرآن وله من العمر عشر سنين، وأتقن الأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، والحساب والجبر، ثم تعلم المنطق علي أبي عبد الله الناتلي، وفاقه، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والإلهية، ثم رغب في علم الطب فقرأ الكتب المؤلفة فيه، حتي أصبح بارعا لا يعدله أحد فيه. كل هذا ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم التي عاناها، مما يدل علي ذكائه الخارق وذهنه الثاقب، أما تصانيفه فكثيرة، تقارب المائة مصنف، ومن أهمها: كتاب الشفاء في الحكمة،

(١) المرجع نفسه: ٤/ ١٨٥.

(٢) يوجد هذا التفسير في كتاب جامع البدائع.

(٣) يوجد تفسير هذه السور الثلاث في رسائل ابن سينا.

والنجاة، والإشارات، والقانون، وغير ذلك من كتبه القيمة، التي انتفع الناس بها كثيرا.

ولقد جمع أبو علي ابن سينا إلي شهرته العلمية شهرة أخرى سياسية، إذ أنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان، ولما اضطرت أمور الدولة أخرج أبو علي من بخاري، وطوف ببلاد كثيرة حتي وصل إلي همدان، وهناك تقلد الوزارة لشمس الدولة. ثم ثار الجند عليه، وأغاروا علي داره، ونهبوها، وقبضوا عليه، وسألوا شمس الدولة قتله فامتنع، ثم أطلق فتواري، ثم أعاده شمس الدولة وزيرا بعد ذلك، ولما مات شمس الدولة توجه إلي أصفهان، ثم أدركه مرض شديد مات علي أثره، وكانت وفاته بهمدان سنة ٤٢٨ هـ (ثمان وعشرين وأربعمائة من الهجرة)، ودفن بها، فرحمه الله (١).

● مسلك ابن سينا في التفسير

ابن سينا كمسلم يدين بالقرآن، وفيلسوف محب للفلسفة حريص علي سلامة ما فيها من آراء، كان حريصا كل الحرص علي أن يوفق بين الدين والفلسفة، حتي يرضي ناحيته الدينية والفلسفية. وكان طبيعيا - والقرآن هو الدعامة الأولى من دعائم الإسلام - أن يوفق ابن سينا بين نصوص القرآن والنظريات الفلسفية التي تبدو معارضة لها، وفعلا قام بهذه العملية التي كانت - فيما أعتقد - شرا علي الدين، وإبطالا لحقائق القرآن الصريحة الثابتة.

نظر ابن سينا إلي القرآن، ونظر إلي الفلسفة، فحكم النظريات الفلسفية في النصوص القرآنية، فشرحها شرحا فلسفيا بحثا، وكانت طريقته التي يسلكها في شرحه غالبا هي شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبي ﷺ لحقائق تدق علي أفهام العامة، عجزت أفهامهم عن إدراكها، فرمز إليها النبي بما يمكنهم أن يدركوه، وأخفي عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم، وهو يقول: «إن المشتراط علي النبي أن يكون كلامه رمزا، وألفاظه إيماء، وكما يذكر أفلاطون في كتاب النواميس: أن من لم يقف علي معاني رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهي، وكذلك أجلة فلاسفة يونان وأنبيأؤهم كانوا يستعملون في كتبهم الرموز والإشارات، التي حشوا فيها أسرارهم، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون.. وما كان يمكن النبي محمد ﷺ أن يوقف علي العلم أعرابيا جافيا، ولا سيما البشر كلهم، إذ كان مبعوثا إليهم كلهم» (٢).

وعلي هذا الأساس نظر ابن سينا إلي نصوص القرآن كرموز لا يعرف حقيقتها إلا

(١) انظر وفيات الأعيان ص ٢٧١ - ٢٧٥، وشذرات الذهب: ٣/ ٢٣٤ - ٢٣٧.

(٢) رسائل ابن سينا ص ١٢٤ - ١٢٥، مطبعة هندية سنة ١٩٠٨.

الخواص أمثاله ففسرها تفسيرا حكم فيه ما لديه من نظريات فلسفية، فكان في عمله هذا فاشلا، وبعيدا عن حقيقة الدين، وروح القرآن الكريم. وإليك بعض ما قاله ابن سينا في بعض نصوص القرآن الكريم، لتقف علي مقدار تهافته، وبعده عن حقائق القرآن الثابتة.

عَرَضَ ابْنُ سِينَا لِشَرْحِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٧) مِنْ سُورَةِ الْحَاقَّةِ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ﴾. ففسر العرش بأنه الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، وفسر الملائكة الثمانية التي تحمل العرش بأنها الأفلاك الثمانية التي تحت الفلك التاسع. وإليك عبارته بنصها:

قال: «وأما ما بلغ النبي ﷺ عن ربه عز وجل من قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ﴾ (نقول: إن الكلام المستفيض في استواء الله تعالى علي العرش من أوضاعه: أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية، وتدعي المشبهة من المتشرعين أن الله تعالى علي العرش لا علي سبيل حلول. هذا، وأما في كلام الفيلسفي فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، ويذكرون أن الله تعالى هناك، وعليه لا علي حلول، كما بين أرسطو في آخر كتاب سماع الكيان. والحكماء المتشرعون أجمعوا علي أن المعني بالعرش هو هذا الجرم. هذا. وقد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس، لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية. والذاتية إما طبيعية، وإما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفني ولا تتغير أبد الدهر، وقد ذاع في الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعاً، لا يموتون كالإنسان الذي يموت فإذا قيل أن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت، والحي الناطق الغير الميت يسمي ملكاً، فالأفلاك تسمي ملائكة. فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول علي ثمانية، ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك. والحمل يقال علي وجهين: حمل بشري، وهو أولي باسم الحمل كالحجر المحمول علي ظهر الإنسان، وحمل طبيعي كقولنا: الماء محمول علي الأرض، والنار علي الهواء. والمعني هنا الحمل الطبيعي لا الأول. وقوله: يومئذ، والساعة، والقيامة، فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته، ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة أكد جعل الوعد والوعيد وأشباههما إلي ذلك الوقت»^(١).

كذلك نجد ابن سينا يفسر الجنة والنار والصراط تفسيرا فلسفيا بعيدا عن المآثور الثابت الصحيح، فيقسم العوالم إلي ثلاثة أقسام: عالم حسي، وعالم خيالي وهمي، وعالم عقلي، والعالم العقلي عنده هو الجنة، والعالم الخيالي هو النار، والعالم الحسي

هو عالم القبور. أما الصراط فيقول في شرحه: «اعلم أن العقل يحتاج في تصور أكثر الكليات إلي استقرار الجزئيات، فلا محالة أنها تحتاج إلي الحس الظاهر، فتعلم أنه يأخذ من الحس الظاهر إلي الخيال إلي الوهم، وهذا هو من الجحيم طريق وصراط دقيق صعب حتي يبلغ ذاته العقل، فهو إذن يري كيف الحد صراطا وطريقا في عالم الجحيم، فإن جاوزه بلغ عالم العقل، فإن وقف فيه وتخيل الوهم عقلا، وما يشير إليه حقاً، قد وقف علي الجحيم، وسكن في جهنم وهلك، وخسر خسرانا مبينا».

كذلك يفسر ابن سينا قوله تعالي في الآية (٣٠) من سورة المدثر: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ تفسيرا فلسفيا بعيدا عن هدف القرآن، فيقرر أن النفس الحيوانية هي الباقية الدائمة في جهنم، وهي منقسمة إلي قسمين: إدراكية، وعملية. والعملية: شوقية، وغضبية، والعلمية: هي تصورات الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة، وتلك المحسوسات ستة عشر، والقوة الوهمية الحاكمة علي تلك الصور حكما غير واجب واحدة - ذاتيان، وستة عشر، وواحدة تسعة عشر. ثم يقول: «وأما قوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ [المدثر: ٣١]، فمن العادة في الشريعة تسمية القوي اللطيفة الغير المحسوسة ملائكة»^(١).

كما يفسر أبواب الجنة الثمانية، وأبواب النار السبعة تفسيرا فلسفيا صرفا، فيقول: «وأما ما بلغ النبي محمد عن ربه عز وجل أن للنار سبعة أبواب، وللجنة ثمانية أبواب، فإذا قد علم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة وهي خمسة، وإدراكها الصور مع المواد، أو مدركة متصورة بغير مواد كخزانة الحواس المسماة بالخيال، وقوة حاكمة عليها حكما غير واجب وهو الوهم، وقوة حاكمة واجبا وهو العقل، فذلك ثمانية. فإذا اجتمعت الثمانية جملة أدت إلي السعادة السرمدية، والدخول في الجنة وإن حصل سبعة منها لا تتسم إلا بالثامن أدت إلي الشقاوة السرمدية. والمستعمل في اللغات أن الشيء المؤدى إلي الشيء يسمى بابا، فالسبعة المؤدية إلي النار سميت أبوابا لها، والثمانية المؤدية إلي الجنة سميت أبوابا لها»^(٢).

ويفسر ابن سينا قوله تعالي في الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

(١) رسائل ابن سينا ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢.

تَمْسِسُهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾

فيقول: «النور اسم مشترك لمعنيين: ذاتي ومستعار، والذاتي هو كمال المشف من حيث هو مشف كما ذكرها أرسطاطاليس، والمستعار علي وجهين: إما الخير، وإما السبب الموصل إلي الخير، والمعني ههنا هو القسم المستعار بكلي في قسميه. أعني أن الله تعالي خير بذاته وهو سبب لكل خير كذلك الحكم في الذاتي وغير الذاتي. وقوله: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عبارة عن الكل، وقوله: ﴿كَمِشْكَاتٍ﴾ فهو عبارة عن العقل الهيولاني والنفس الناطقة، لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهئ للاستضاءة، لأن كل ما يقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد، والضوء أكثر. وكما أن العقل بالفعل مشبه بالنور، كذلك قابله مشبه يقابله وهو المشف، وأفضل المشفات الهواء، وأفضل الأهوية هو المشكاة، فالمرموز بالمشكاة هو العقل الهيولاني الذي نسبته إلي العقل المستفاد كنسبة المشكاة إلي النور، والمصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل، لأن النور كما هو كمال للشف كما حد به الفلاسفة ومخرج له من القوة إلي الفعل، ونسبة العقل المستفاد إلي العقل الهيولاني كنسبة المصباح إلي المشكاة. وقوله: ﴿فِي زَجَاجَةٍ﴾ لما كان بين العقل الهيولاني والمستفاد مرتبة أخري وموضع آخر نسبته كنسبة الذي بين المشف والمصباح، فهو الذي لا يصل في العيان المصباح إلي المشف إلا بتوسط وهو المسرجة، ويخرج من المسارج الزجاجة لأنها من المشفات القوابل للضوء. ثم قال بعد ذلك: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ﴾ ليجعلها الزجاج الصافي المشف، لا الزجاج الذي لا يستشف، فليس شئ من المتلونات يستشف، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يعني به القوة الفكرية التي هي موضوعة ومادة للأفعال العقلية، كما أن الدهن موضوع ومادة للسراج...»^(١) وهكذا استمر ابن سينا في شرح هذه الآية فارجع إليه إن شئت، وستري أن شرحه هذا مزيج من فكرتي أفلاطون وأرسطو حيث جمع فيه بين ما يعرف لأفلاطون من التعبير بـ (الخير) و (الكل)، وما يعرف لأرسطو من أقسام العقل.

ويقول في تفسير قوله تعالي في الآية (٤) من سورة الفلق: ﴿وَمِنَ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾: «قوله تعالي: ﴿وَمِنَ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ إشارة إلي القوة النباتية: فإن النباتية موكلة بتدبير البدن ونشوه ونموه، والبدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة المختلفة المتنازعة إلي الانفكاك، لكنها من شدة انفعال بعضها عن بعض صارت بدنا حيوانياً. والنفاثات فيها هي القوي النباتية، فإن النفث سبب لأن يصير

جوهر الشيء زائداً في المقدار من جميع جهاته أي الطول والعرض والعمق. وهذه القوي هي التي تؤثر في زيادة الجسم المغتذي والنامي من جميع الجهات المذكورة... إلخ^(١).

ويفسر قوله تعالى في الآية (٥) من سورة الفلق أيضاً: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.. فيقول: «عني به النزاع الحاصل بين البدن وقواه كلها، وبين النفس»^(٢). وفي سورة الناس يفسر قوله تعالى في الآية (٤): ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾.. فيقول: «هذه القوة التي توقع الوسوسة هي القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية، ثم إن حركتها تكون بالعكس فإن النفس وجهها إلي المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيلة إذا جذبتها إلي الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك القوة تخنس - أي تتحرك - بالعكس وتجذب النفس الإنسانية إلي العكس، فلهذا سمي خناساً»^(٣).

ويفسر قوله تعالى في الآية (٦) من سورة الناس أيضاً: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.. فيقول: «الجن هو الاستتار، والإنس هو الاستئناس، فالأمور المستترة هي الحواس الباطنة، والمستأنسة هي الحواس الظاهرة»^(٤).

● رأينا في تفسير الفلاسفة:

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا في شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم، وهو كما تري عين ما يذهب إليه الباطنية في تأويلاتهم للآيات القرآنية، ولا أحسب أن مسلماً مهما كان محباً للفلسفة والفلاسفة يقر ابن سينا وأمثاله علي دعوي أن الحقائق القرآنية رموز وإشارات لحقائق أخرى، دقت عن أفهام العامة، وخفيت علي عقولهم القاصرة، فرمز إليها النبي بآيات القرآن الكريم.

هذا.. ولعل القارئ الكريم يلحظ معي أن الإمامية الإثنا عشرية والباطنية الإسماعيلية، ومتطرفي الصوفية، ورجال الفلسفة الإسلامية، كلهم يسرون علي نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز أو الإشارة أو الباطن. ويظهر لنا أنها عدوي سرت إلي المسلمين من قدماء الفلاسفة^(٥)، ثم تلتتها هذه الفرق بصدر رحب، وتقبلتها بقبول حسن لأنهم رأوا فيها عوناً كبيراً علي ترويج بدعهم، ونشر ضلالتهم بين المسلمين!!

(١) جامع البدائع ص ٢٧، ٢٨ - مطبعة السعادة سنة ١٩١٧.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨. (٣) جامع البدائع ص ٣١.

(٤) المرجع السابق ص ٣١، ٣٢.

(٥) انظر ما قلناه عن (فيلون) اليهودي عند كلامنا عن الباطنية.

الفصل السابع

تفسير الفقهاء

● كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي :

١- التفسير الفقهي من عهد النبوة إلى مبدأ قيام المذاهب الفقهية :

نزل القرآن الكريم مشتملا على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم ، وكان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله ﷺ .

ولما توفي رسول الله ﷺ جدت للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكما شرعيا صحيحا، فكان أول شيء يفرعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم، ينظرون في آياته ويعرضونها على عقولهم وقلوبهم، فإن أمكن لهم أن ينزلوها على الحوادث التي جدت فيها ونعمت، وإلا لجأوا إلى سنة رسول الله ﷺ، فإن لم يجدوا فيها حكما اجتهدوا وأعملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة، ثم خرجوا بحكم فيما يحتاجون إلى الحكم عليه .

غير أن الصحابة في نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقون أحيانا على الحكم المستنبط، وأحيانا يختلفون في فهم الآية، فتختلف أحكامهم في المسألة التي يبحثون عن حكمها، كالخلاف الذي وقع بين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في عدة الحامل المتوفي عنها زوجها، فعمر رضي الله عنه حكم بأن عدتها وضع الحمل، وعلي حكم بأن عدتها أبعده الأجلين: وضع الحمل، ومضي أربعة أشهر وعشرة أيام. وسبب هذا الخلاف تعارض نصين عامين في القرآن، فإن الله سبحانه جعل عدة المطلقة الحامل وضع الحمل وجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا من غير تفصيل، فذهب علي رضي الله عنه إلى العمل بالآيتين معا، وأن كل آية منهما مخصصة لعموم الأخرى وذهب عمر رضي الله عنه إلى أن آية الطلاق مخصصة لآية الوفاة، وقد تأيد رأي عمر رضي الله عنه بما ورد أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية مات عنها زوجها، فوضعت الحمل بعد خمسة وعشرين يوما من موته، فأحلها رسول الله ﷺ للأزواج (١).

وكالخلاف الذي وقع بين ابن عباس وزيد بن ثابت في تقسيم ميراث من مات عن زوج وأبوين، فابن عباس رضي الله عنه أفتى بأن للزوج النصف، وللأم الثلث، وللأب

(١) انظر تاريخ التشريع للخضري ص ١١٣ .

الباقِي تعصيباً، وتمكسباً بظاهر قوله تعالى في الآية (١١) من سورة النساء: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلَأُمَّهُ الثَّلَاثُ﴾، وزيد بن ثات رضي الله عنه ومعه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقي بعد فرض الزوج، نظراً لأن الأب والأم ذكر وأنثي ورثا بجهة واحدة فللذكر مثل حظ الأنثيين^(١)

مثل هذا الخلاف كان يقع مع الصحابة رضي الله عنهم حسبما يفهمه كل منهم في النص القرآني، وما يحيط به من أدلة خارجية، ومع هذا الاختلاف فقد كان كل واحد من المختلفين يطلب الحق وحده، فإن ظهر له أنه في جانب من خالفه رجع إلي رأيه وأخذ به.

● التفسير الفقهي في مبدأ قيام المذاهب الفقهية:

ظل الأمر علي هذا إلي عهد ظهور أئمة المذاهب - الأربعة وغيرها - وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها، لأنها لم تكن علي عهدهم، فأخذ كل إمام ينظر إلي هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة، وغيرهما من مصادر التشريع، ثم يحكم عليها بالحكم الذي ينقده في ذهنه، ويعتقد أنه هو الحق الذي يقوم علي الأدلة والبراهين وكانوا يتفقون فيما يحكمون به أحياناً، وأحياناً، يختلفون حسبما يتجه لكل منهم من الإدلة، غير أنهم مع كثرة اختلافهم في الأحكام لم تظهر منهم بادرة للتعصب للمذاهب، بل كانوا جميعاً ينشدون الحق ويطلبون الحكم الصحيح، وليس بعزيز علي الواحد منهم أن يرجع إلي رأي مخالفه إن ظهر له أن الحق في جانبه، فهذا هو الشافعي رضي الله عنه كان يقول: إذا صح الحديث فهو رأيي، وكان يقول: الناس عيال في الفقه علي أبي حنيفة، وكان يقول لأحمد بن حنبل وهو تلميذه في الفقه: إذا صح الحديث عندك فأعلمني به، وكان يقول: إذا ذكر الحديث فمالك النجم الثاقب... إلي غير ذلك مما يدل علي انتشار روح التقدير والحب بين أولئك الفقهاء، وهذه هي سنة أسلافهم من الصحابة والتابعين^(٢).

● التفسير الفقهي بعد ظهور التقليد والتعصب المذهبي:

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة.. التقليد الذي يقوم علي التعصب المذهبي، ولا يعرف التسامح ولا يطلب الحق لذاته ولا ينشده تحت ضوء البحث الحر، والنقد البرئ.

ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلدة إلي أن نظروا إلي أقوال أئمتهم كما ينظرون إلي نص الشارع، فوقفوا جهدهم العلمي علي نصرة مذهب إمامهم وترويجه، وبدلوا كل

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للأساتذة: السبكي والسايس والبربري ص ٩٦.

(٢) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ٣٥٣، ٣٥٤.

ما في وسعهم لإبطال مذهب المخالف وتفنيده، وكان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلي آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل، وإلا فلا أقل من أن يؤولها تأويلاً يجعلها به لا تصلح أن تكون في جانب مخالفه، وأحياناً يلجأ إلي القول بالنسخ أو التخصيص، وذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل، فهذا عبد الله الكرخي المتوفي سنة ٣٤٠ هـ وهو أحد المتعصبين لمذهب أبي حنيفة يقول: « كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ »^(١).

ومع هذا الغلو في التعصب المذهبي، فإننا لم نعدم من المقلدين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة، فنظر في أقوالهم نظرة الباحث الحر الذي يساير الدليل حتي يصل به إلي الحق أياً كان قائله.

وكان لهؤلاء وهؤلاء - أعني المتعصبين وغير المتعصبين - أثر ظاهر في التفسير الفقهي، فالمتعصبون ينظرون إلي الآيات من خلال مذهبهم فينزلونها عليه، وغير المتعصبين ينظرون إليها نظرة خالية من الهوي المذهبي فينزلونها علي حسب ما يظهر لهم، وينقدح في ذهنهم.

● تنوع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية:

وإذا نحن تتبعنا التفسير الفقهي في جميع مراحلها، وجدناه يسير بعيداً عن الأهواء والأغراض من مبدأ نزول القرآن إلي وقت قيام المذاهب المختلفة ثم بعد ذلك يسير تبعاً للمذاهب، ويتنوع بتنوعها، فلأهل السنة تفسير فقهي متنوع بدأً نظيفاً من التعصب، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا وللظاهرية تفسير فقهي يقوم علي الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها وللخوارج تفسير فقهي يخصهم، وللشيعية تفسير فقهي يخالفون به من عداهم... وكل فريق من هؤلاء يجتهد في تأويل النصوص القرآنية حتي تشهد له أو لا تعارضه علي الأقل... مما أدي ببعضهم إلي التعسف في التأويل والخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها ومدلولاتها.

● الإنتاج التفسيري للفقهاء:

هذا وإنا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات في التفسير الفقهي، فإننا لا نكاد نعثر علي شيء من ذلك قبل عصر التدوين. اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء علي اختلاف مذاهبهم في التفسير الفقهي.

● فمن الحنفية:

ألف أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص والمتوفي سنة ٣٧٠ هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة): (أحكام القرآن) وهو مطبوع في ثلاث مجلدات كبار، وامتداول بين أهل العلم.

(١) تاريخ التشريع الإسلامي للأستاذة: السبكي والسايس والبربري ص ٢٨١.

وألف أحمد بن أبي سعيد المدعوب (ملاجيون) من علماء القرن الحادي عشر الهجري: (التفسيرات الأحمديّة في بيان الآيات الشرعية) وهو مطبوع بالهند في مجلد كبير، ومنه نسخة في مكتبة الأزهر، وأخرى في مكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

* ومن الشافعية:

ألف أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي المتوفي سنة ٥٠٤هـ (أربع وخمسمائة من الهجرة): كتابه (أحكام القرآن)، وهو مخطوط في مجلد كبير، وموجود في دار الكتب المصرية، وفي المكتبة الأزهرية.

وألف شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبي، المعروف بالسمن، والمتوفي سنة ٧٥٦هـ (ست وخمسين وسبعمائة من الهجرة): كتابه (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز) ويوجد منه في مكتبة الأزهر الجزء الأول، وهو ينتهي عند قوله تعالي في الآية (١٩٤) من سورة البقرة: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾... الآية، وهو مخطوط بخط المؤلف.

وألف علي بن عبد الله محمود الشنفكي من علماء القرن التاسع الهجري كتابه (أحكام الكتاب المبين) وتوجد منه نسخة في المكتبة الأزهرية، مخطوطة بخط المؤلف، في مجلد متوسط الحجم.

وألف جلال الدين السيوطي، المتوفي سنة ٩١١هـ (إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة): كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل)، وهو موجود في المكتبة الأزهرية، ومخطوط في مجلد متوسط الحجم.

* ومن المالكية:

ألف أبو بكر بن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ (ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة): كتابه (أحكام القرآن)، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين ومتداول بين أهل العلم.

وألف أبو عبد الله القرطبي المتوفي سنة ٦٧١هـ (إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة): كتابه (الجامع لأحكام القرآن) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وقد قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلي الآن أربعة عشر جزءاً ينتهي الجزء الرابع عشر آخر سورة (فاطر) وما بقي منه علي أهبة الطبع^(١).

(١) كان هذا وقت تأليف الكتاب، أما الآن فقد تم طبع هذا التفسير ولما نفذت نسخته أخذت دار الكتب في طبعه للمرة الثانية، كما قامت دار الشعب بطبعه ضمن سلسلة (كتاب الشعب).

* ومن الزيدية:

ألف حسين بن أحمد النجري، من أهل القرن الثامن الهجري: كتابه (شرح الخمسمائة آية) ولم يصل إلي أيدينا هذا التفسير.

وألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجري: (الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة) ومنه نسخة في دار الكتب المصرية، مخطوطة في ثلاث مجلدات، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني منه في مجلد واحد مخطوط.

وألف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادي عشر الهجري كتابه (منتهي المرام، شرح آيات الأحكام) ولم نقف علي هذا التفسير.

* ومن الإمامية الإثنا عشرية:

ألف مقداد السيوري، من أهل القرن الثامن الهجري: كتابه (كنز الفرقان في فقه القرآن) ومنه نسخه بدار الكتب المصرية، مطبوعة في مجلد صغير علي هامش تفسير الحسن العسكري.

وهناك كتب أخرى في تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون لا نطيل بذكرها، كما لا نطيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب، ويكفي أن نعرض لأهمها وهو ما يأتي:

١ - أحكام القرآن - للجصاص (الحنفي)

● ترجمة المؤلف:

هو أبو بكر، أحمد بن علي الرازي، المشهور بالجصاص^(١) ولد رحمه الله تعالى ببغداد سنة ٣٠٥ هـ (خمسة وثلاثمائة من الهجرة).

كان إمام الحنفية في وقته، وإليه انتهت رئاسة الأصحاب. أخذ عن أبي سهل الزجاج، وعن أبي الحسن الكرخي، وعن غيرهما من فقهاء عصره. واستقر التدريس له ببغداد، وانتهت الرحلة إليه، وكان علي طريق الكرخي في الزهد، وبه انتفع، وعليه تخرج، وبلغ من زهده أنه خوطب في أن يلي القضاء فامتنع، وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل. أما مصنفاة فكثيرة أهمها كتاب (أحكام القرآن) وهو ما نحن بصدد الآن، وشرح مختصر الكرخي، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع الكبير للإمام محمد ابن الحسن الشيباني، وكتاب أصول الفقه، وآخر في أدب القضاء، وعلي الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل في تدعيم مذهب الحنفية علي البراهين والأدلة.

(١) الجصاص نسبة إلي العمل بالجص.

هذا وقد ذكر المنصور بالله في طبقات المعتزلة ^(١)، وسيأتيك في تفسيره ما يؤيد هذا القول.

أما وفاته فكانت سنة ٣٧٠هـ (سبعين وثلاثمائة من الهجرة)، فرحمه الله ورضي عنه ^(٢).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهي خصوصا عند الحنفية، لأنه يقوم علي تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه. وهو يعرض لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التي لها تعلق بالأحكام فقط، وهو - وإن كان يسير علي ترتيب سور القرآن - مبوب كتبويب الفقه، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تندرج فيه المسائل التي يتعرض لها المؤلف في هذا الباب.

● استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:

هذا... وإن المؤلف - رحمه الله - لا يقتصر في تفسيره علي ذكر الأحكام التي يمكن أن تستنبط من الآيات - بل نراه يستطرد إلي كثير من مسائل الفقه والخلافات بين الأئمة مع ذكره للأدلة بتوسع كبير، مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن، وكثيرا ما يكون هذا الاستطراد إلي مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بعد.

فمثلاً نجدّه عندما عرض لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يستطرد لمذهب الحنفية في أن من قال لعبده: من بشرني بولادة فلانة فهو حر، فبشره جماعة واحداً بعد واحد أن الأول يعتقد دون غيره ^(٣).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٦) من سورة يوسف ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل﴾... الآية، نجدّه يستطرد لخلاف الفقهاء في مدعي اللقطة إذا ذكر علامتها، وخلافهم في اللقيط إذا ادعاه رجلان ووصف أحدهما علامة في جسده، وخلافهم في متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسه وادعته الزوجة لنفسها، وخلافهم في مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار والمستأجر.. وغير ذلك من مسائل الخلاف التي لا تتصل بالآية إلا عن بعد ^(٤).

● تعصبه لمذهب الحنفية:

ثم إن المؤلف - رحمه الله وعفا عنه - متعصب لمذهب الحنفية إلي حد كبير، مما جعله في هذا الكتاب يتعسف في تأويل بعض الآيات حتي يجعلها في جانبه،

(١) شرح الأزهار: ٤/٢.

(٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٢٧-٢٨.

(٣) الجزء الأول ص ٣٣. (٤) الجزء الثالث ص ٣١٠-٣١٢.

أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفه، والذي يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه في كثير من المواقف.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.. نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة علي أن من دخل في صوم التطوع لزم إتمامه (١).

ومثلاً عند ما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٣٢) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾... الآية نجده يحاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه علي أن للمرأة أن تعقد علي نفسها بغير الولي وبدون إذنه (٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢) من سورة النساء: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾... الآية، وقوله في الآية (٦) منها: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾... الآية، نجده يحاول أن يأخذ من مجموع الآيتين دليلاً لمذهب أبي حنيفة القائل بوجوب دفع المال لليتيم إذا بلغ خمسا وعشرين سنة، وإن لم يؤنس منه الرشد (٣).

● حملة الجصاص علي مخالفه:

ثم إن الجصاص مع تعصبه لمذهبه وتعسفه في التأويل، ليس عف اللسان مع الطليان مع الإمام الشافعي رضي الله عنه ولا مع غيره من الأئمة، وكثيرا ما نراه يرمي الشافعي وغيره من مخالفه الحنفية بعبارات شديدة، لا تليق من مثل الجصاص في مثل الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله.

فمثلاً عندما عرض لآية المحرمات من النساء في سورة النساء نجده يعرض للخلاف الذي بين الحنفية والشافعية في حكم من زني بامرأة، هل يحل له التزوج ببنتها أو لا؟ ثم يذكر مناظرة طويلة جرت بين الشافعي وغيره في هذه المسألة، ويناقش الشافعي فيما يرد به علي مناظره، ويرميه بعبارات شنيعة لاذعة كقوله: «فقد بان أن ما قاله الشافعي وما سلمه له السائل كلام فارغ لا معني تحته في حكم ما سئل عنه» (٤).

وقوله: «ما ظننت أن أحدا ممن ينتدب لمناظرة خصم يبلغ به الإفلاس من الحجاج أن يلجأ إلي مثل هذا، مع سخافة عقل السائل وغباوته» (٥).

(١) الجزء الأول ص ٢٧٤ - ٢٨٥.

(٢) الجزء الأول ص ٤٧٢ - ٤٧٤.

(٣) الجزء الثاني ص ٥٦ - ٥٩.

(٤) الجزء الثاني ص ١٤٣.

(٥) الجزء الثاني ص ١٤٣.

وقوله حين لم يرقه أحد أجوبة الشافعي علي سؤال مناظره: «ولو كلم بذلك المبتدئون من أحداث اصحابنا لما خفي عليهم عوار هذا الحجاج وضعف السائل والمسؤول فيه»^(١).

ومثلاً عند ذكره لمذهب الشافعي في الترتيب بين أعضاء الوضوء نجده يقول: «وهذا القول مما خرج به الشافعي عن إجماع السلف والفقهاء»^(٢) كأن الشافعي في نظر الجصاص ممن لا يعتد برأيه، حتى ينعقد الإجماع بدونه.

● تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة:

كذلك نجد الجصاص يميل إلى عقيدة المعتزلة، ويتأثر بها في تفسيره فمثلاً عندما تعرض لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٠٢) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾... الآية، نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه: «متي أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا حقيقة له ولا ثبات»^(٣)، كما ينكر حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ، ويقر أنه من وضع الملاحدة^(٤).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة الأنعام ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾... الآية، نجده يقول: «معناه لا تراه الأبصار. وهذا تمدح بنفي رؤية الأبصار كقوله تعالى - في الآية (٢٥٥) من سورة البقرة: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةً وَلَا نَوْمًا﴾ - وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال... فلما تمدح بنفي رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال، إذ كان فيه إثبات صفة نقص، ولا يجوز أن يكون مخصوصاً بقوله تعالى في الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روي عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملاً للتأويل لم يجز الاعتراض به علي ما لا مساغ للتأويل فيه. والأخبار المروية في الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت، وهو علم الضرورة الذي لا تشوبه شبهة، ولا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة في اللغة»^(٥).

● حملة الجصاص علي معاوية رضي الله عنه:

كما أننا نلاحظ علي الجصاص أنه تبدو منه البغضاء لمعاوية رضي الله عنه، ويتأثر بذلك في تفسيره. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيات (٣٩ - ٤١) من سورة الحج ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا

(٢) الجزء الثاني ص ٤٤٠ - ٤٤١.

(٤) الجزء الثاني ص ٥٥.

(١) الجزء الثاني ص ٢٤٥.

(٢) الجزء الأول ص ٤٨.

(٥) الجزء الثالث ص ٥.

من ديارهم بغير حقٍ ﴿﴾ إلي قوله: ﴿﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿﴾ ... يقول: «... وهذه صفة الخلفاء الراشدين، الذين مكنهم الله في الأرض وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وفيه الدلالة الواضحة علي صحة إمامتهم، لإخبار الله تعالى بأنهم إذا مكنوا في الأرض قاموا بفروض الله عليهم، وقد مكنوا في الأرض فوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتهين عن زواجه ونواهيه، ولا يدخل معاوية في هؤلاء، لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وليس معاوية من المهاجرين، بل هو من الطلقاء» (١).

ومثلاً في سورة النور عند قوله تعالى في الآية (٥٥): ﴿﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿﴾ ... الآية يقول: «وفي الدلالة علي صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضاً، لأن الله استخلفهم في الأرض ومكن لهم كما جاء الوعد، ولا يدخل فيهم معاوية، لأنه لم يكن مؤمناً في ذلك الوقت» (٢).

وفي سورة الحجرات عند قوله تعالى في الآية (٩): ﴿﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴿﴾ ... الآية، نجده يجعل علياً رضي الله عنه هو المحق في قتاله، أما معاوية ومن معه فهم الفئة الباغية. كذلك كل من خرج علي علي (٣). وما كان أولي بصاحبنا أن يترك هذا التحامل علي معاوية الصحابي ويفوض أمره إلي الله، ولا يلوي مثل هذه الآيات إلي ميوله وهواه.

هذا.. والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

٢ - أحكام القرآن - للكنيا الهراسي (الشافعي)

• ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بالكنيا (٤) الهراسي، الفقيه الشافعي، المولود سنة ٤٥٠ هـ (خمسين وأربعمئة من الهجرة). أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلي نيسابور، وتفقه علي إمام الحرمين الجويني مدة حتي برع، ثم خرج من نيسابور إلي بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلي العراق، وتولي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلي أن توفي سنة ٥٠٤ هـ (أربع

(٢) الجزء الثالث ص ٤٠٦.

(١) الجزء الثالث ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) الجزء الثالث ص ٤٩٢.

(٤) الكيا - بكسر الكاف وفتح الياء المخففة - معناه في اللغة العجمية: الكبير القدر المقدم

بين الناس (وفيات الأعيان: ١/ ٥٩٠).

وخمسة من الهجرة). وكان رحمه الله فصيح العبارة، حلو الكلام، محدثاً، يستعمل الأحاديث في مناظراته، ومجالسه، فرضي الله عنه وأرضاه (١).
● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - أهمية هذا التفسير ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعي:

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية وذلك لأن مؤلفه شافعي لا يقل في تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام علي وفق قواعد مذهبه الشافعي، ويحاول أن يجعلها غير سالحة لأن تكون في جانب مخالفه.

وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التي يقرر فيها: «إن مذهب الشافعي رضي الله عنه أسد المذاهب وأقوامها، وأرشدتها وأحكمها، وإن نظر الشافعي في أكثر آرائه ومعظم أبحاثه يترقي عن حد الظن والتخمين، إلي درجة الحق واليقين، والسبب في ذلك أنه - يعني الشافعي - بني مذهبه علي كتاب الله تعالي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح له درك غوامض معانيه، والغوص علي تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالي فتح له من أبوابه ويسر عليه من أسبابه، ورفع له من حجابيه ما لم يسهل لمن سواه، ولم يتأت لمن عداه» (٢).

يقرر صاحبنا هذا، وأنا لا أنكره عليه، ولا أغض من مقام الشافعي رحمه الله، ولكنني أقول: إن تقديم الكتاب بمثل هذا الكلام ناطق بأن الرجل متعصب لمذهبه، وشاهد عليه بأنه سوف يسلك في تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعي، وفروع مذهبه، وإن أداه ذلك إلي التعسف في التأويل.

وإذا لم يكفك هذا دليلاً علي تعصب الرجل فدونك الكتاب، لتقف بعد القراءة فيه علي مبلغ تعصب صاحبه وتعسفه.

● تأدبه مع الأئمة وحملته علي الجصاص:

غير أن الهراسي - والحق يقال - كان عفاً للسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى، ومع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخص فيهم كما خاض الجصاص في الشافعي وغيره، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفاً كان فيه شديد المراس، قوي الجدال، قاسي العبارة إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التي ذكرها الجصاص في تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعي، ففند كل شبهة أوردها، ودفع كل ما وجهه إلي مذهب الشافعي، بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه

اقتصر للشافعي من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة، والألفاظ المقدعة (والجزاء من جنس العمل).

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٣) من سورة النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾... الآية، نجده يرد علي الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل بأن الزنا بامرأة يحرم علي الزاني أصول المرأة وفروعها، ويفند ما رد به الجصاص علي الشافعي في هذه المسألة، ثم يقول في شأن الجصاص: «إنه لم يفهم معني كلام الشافعي رضي الله عنه، ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال، ولتفهم معاني كتاب الله رجال، وليس هو منهم»^(١).

كما يقول: «وقد ذكر الشافعي مناظرة بينه وبين مسترشد طلب الحق في هذه المسألة، فأوردها الرازي متعجبا منها، ومنبها علي ضعف كلام الشافعي فيها، ولا شيء أدل علي جهل الرازي وقلة معرفته بمعاني الكلام من سياقه لهذه المناظرة، واعتراضاته عليها»^(٢).

ويقول بعد قليل: «ولم يعلم هذا الجاهل معني كلام الشافعي رضي الله عنه فاعترض عليه بما قاله، وعجب الناس من ذلك، فقال: في هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل. فكان كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم»^(٣)

كما يقول في موضع آخر: «وكيف يتصدي للتصنيف في الدين من هذا مبلغ علمه ومقدار فهمه، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول.. ثم يعترض للطعن فيمن لو عمر عمر نوح ما اهتدي إلي مبادئ نظره في الحقائق، فنسأل الله تعالي التوفيق، ونعوذ به من عمي البصيرة واتباع الهوي»^(٤).

هذا. وإن المؤلف - رحمه الله - ليبين لنا في مقدمة تفسيره الحامل له علي تأليفه، ومنهجه الذي سلكه، وتقديره لكتابه فيقول: «ولما رأيت الأمر كذلك - يريد رجحان مذهب الشافعي علي غيره - أردت أن أصنف كتاباً في أحكام القرآن، أشرح ما ابتدعه الشافعي رضي الله عنه من أخذ الدلائل في غوامض المسائل، وضمنت إليه ما نسجته علي منواله، واحتذيت فيه علي مثاله، علي قدر طاقتي وجهدي، ومبلغ وسعي وجدي.. ولا يعرف قدر هذا الكتاب، وما فيه من العجب العجيب، ولباب الألباب، إلا من وفر حظه من علوم المعقول والمنقول، وتبحر في الفروع والأصول، ثم انكب علي مطالعه هذه الفصول، بمسكة صحيحة، وقريحة همة غير قريحة»^(٥).

(٣) صفحة: ٢١٥.

(٢) صفحة: ٢١٤.

(١) صفحة: ٢١٣.

(٥) صفحة: ٢.

(٤) صفحة: ٢٢٦.

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما في جميع السور. والكتاب مخطوط في مجلد كبير، وموجود في دار الكتب المصرية، وفي المكتبة الأزهرية.

٣ - أحكام القرآن - لابن العربي (المالكي)

● ترجمة المؤلف :

هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري، الأندلسي، الإشبيلي، الإمام، العلامة، المتبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها.. وكان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها.

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨ هـ (ثمان وستين وأربعمائة من الهجرة)، وتأدب بلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلي مصر، والشام، وبغداد، ومكة. وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتي أتقن الفقه، والأصول، وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر.. وأخيراً عاد إلي بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله، ممن كانت له رحلة إلي المشرق.

وعلي الجملة.. فقد كان - رحمه الله - من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، والجمع لها، متقدماً في المعارف كلها، متكلماً في أنواعها، نافذاً في جمعها، حريصاً علي أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلي ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود سكن بلده، وشوور فيه، وسمع، ودرس الفقه والأصول - وجلس للوعظ والتغسير، ورحل إليه للسمع، قال القاضي عياض - وهو ممن أخذوا عنه - : (استقضي ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل علي نشر العلم وبثه).

هذا.. وقد ألف رحمه الله - تصانيف كثيرة مفيدة، منها (أحكام القرآن) وهو ما نحن بصده الآن، وكتاب المسالك في شرح موطأ مالك، وكتاب القبس علي شرح موطأ مالك بن أنس، وعارضة الأحوذ علي كتاب الترمذي، والقواصم والعواصم، والمحصول في أصول الفقه، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وتخليص التخليص، وكتاب القانون في تفسير القرآن العزيز، وكتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن. وقيل: إنه ألفه في عشرين سنة، ويقع في ثمانين ألف ورقة، وذكر بعضهم أنه رأي هذا التفسير وعد

أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلداً، وبالجملة فقد خلف - رحمه الله - كتباً كثيرة، انتفع الناس بها بعد وفاته، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه في حياته. وهذا... وقد كانت وفاته - رحمه الله - سنة ٥٤٣ هـ «ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة» منصرفه من مراکش، وحمل ميتاً إلى مدينة فاس ودفن بها. فرضي الله عنه وأرضاه»^(١).

● التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يتعرض هذا الكتاب لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، وطريقته في ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية آية.. قائلًا: الآية الأولى وفيها خمس مسائل (مثلاً) الآية الثانية وفيها سبع مسائل (مثلاً)... وهكذا حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة في السورة

● تفسير ابن العربي بين انصافه واعتسافه :

هذا... وإن الكتاب يعتبر مرجعاً مهماً للتفسير الفقهي عند المالكية، وذلك لأن مؤلفه مالكي تأثر بمذهبه، فظهرت عليه في تفسيره روح التعصب له، والدفاع عنه، غير أنه لم يشتط في تعصبه إلي الدرجة التي يتغاضي فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكي، ولم يبلغ به التعسف إلي الحد الذي يجعله يفند كلام مخالفه إذا كان وجيهاً ومقبولاً، والذي يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفه أحياناً، كما يلمس منه روح التعصب المذهبي التي تستولي علي صاحبها فتجعله أحياناً كثيرة يرمي مخالفه وإن كان إماماً له قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح. ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه، فأحياناً يتغلب العقل علي التعصب، فيصدر حكمه عادلاً لا تكدره شائبة التعصب، وأحياناً - وهو الغالب - تتغلب العصبية المذهبية علي العقل، فيصدر حكمه مشوباً بالتعسف، بعيداً عن الإنصاف.

● طرف من إنصافه :

وإذا أردت أن أضع يدك علي شيء من إنصاف الرجل واستعماله لعقله، فإنظر إليه عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة السادسة عشرة: قوله تعالي: ﴿وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: الاعتكاف في اللغة هو اللبث، وهو غير مقدر عند الشافعي، وأقله لحظة، ولا حد لأكثره. وقال مالك وأبو حنيفة: هو

(١) انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٢٨١ - ٢٨٤.

مقدر بيوم وليلة، لأن الصوم عندهما من شرطه. قال علماؤنا: لأن الله تعالى خاطب الصائمين. وهذا لا يلزم في الوجهين: أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالى لمن صام فلا يلزم بظاهره ولا باطنه، لأنها حال واقعة لا مشترطة، وأما تقديره بيوم وليلة لأن الصوم من شرطه فضعيف، فإن العبادة لا تكون مقدرة بشرطها، ألا ترى أن الطهارة شرط في الصلاة، وتنقضي الصلاة، وتبقي الطهارة...؟^(١)

فأنت ترى أن المؤلف - رحمه الله لم يرقه هذا الاستدلال الذي أظهر بطلانه، وهذا دليل علي أنه يستعمل عقله الحر أحيانا، فلا يسكت علي الزلة العلمية فيما يعتقد، وإن كان فيها ترويج لمذهبه.

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة والعشرون في قوله تعالى: ﴿برء وسكم﴾، ثم يذكر أن العلماء اختلفوا في مسح الرأس علي أحد عشر قولاً، ثم يأخذ في بيانها واحداً واحداً، ثم يقول: «ولكل قول من هذه الأقوال، مطلع من القرآن والسنة» ثم يذكر لنا مطلع كل قول، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: «وليس يخفي علي أحد عند اطلاعه علي هذه الأقوال والانحاء والمطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات في مقصود الشريعة، ولا جاوز طرفيها إلي الإفراط، فإن الشريعة طرفين، أحدهما طرف التخفيف في التكليف، والآخر طرف الاحتياط في العبادات، فمن احتاط استوفي الكل، ومن خفف أخذ بالبعض»^(٢).

فأنت ترى أنه يصوب كل ما قيل في مسح الرأس. وانظر إليه في الآية السابقة حيث يقول: «المسألة السادسة والأربعون: نزع علماؤنا بهذه الآية إلي أن إزالة النجاسة غير واجبة، لأنه قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾، تقديره - كما سبق (وأنتم محدثون)، ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ فلم يذكر الاستنجاء وذكر الوضوء، ولو كان واجبا لكان أول مبدوء به... وهي رواية أشهب عن مالك. وقال ابن وهب: لا تجزئ الصلاة بها لا ذاكرا ولا ناسيا... والصحيح رواية ابن وهب، ولا حجة في ظاهر القرآن، لأن الله سبحانه وتعالى إنما بين في آية الوضوء صفة الوضوء خاصة، وللصلاة شروط: من استقبال الكعبة، وستر العورة، وإزالة النجاسة... وبيان كل شرط منها في موضعه»^(٣).

فأنت ترى أنه لا يميل إلي رواية أشهب عن مالك ولا يري في ظاهر الآية ما يشهد له.

● طرف من تعصبه لمذهبه:

وإن أردت أن أضع يدك علي شئ من تعصب ابن العربي، فانظر إليه عندما تعرض

لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٨٦) مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَنَاهَا أَوْ رَدُّوهَا﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة: إذا كان الرد فرضاً بلا خلاف، فقد استدل علماءنا علي أن هذه الآية دليل علي وجوب الثواب في الهبة للعين، وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن أن يرد مثل الهبة، وقال الشافعي: ليس في هبة الأجنبي ثواب... وهذا فاسد، لأن المرء ما أعطي إلا ليعطي، وهذا هو الأصل فيها، وإنما لا نعمل عملاً لمولانا إلا ليعطينا، فكيف بعضنا لبعض؟»^(١).

● حملته علي مخالفتي مذهبه:

وإن أردت أن تقف علي مبلغ قسوته علي أئمة المذاهب الأخرى وأتباعهم فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: ﴿الطَّلَاقِ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة الرابعة عشرة: هذا يدل علي أن الخلع طلاق، خلافاً لقول الشافعي في القديم إنه فسخ. وفائدة الخلاف أنه إن كان فسخاً لم يعد طلاقاً. قال الشافعي: لأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين وذكر الخلع بعده، وذكر الثالث بقوله تعالى ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وهذا غير صحيح، لأنه لو كان كل مذکور في معرض هذه الآيات لا يعد طلاقاً لوقوع الزيادة علي الثالث لما كان قوله تعالى ﴿أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ طلاقاً، لأنه يزيد به علي الثالث، ولا يفهم هذا إلا غبي أو متغاب... إلخ»^(٢).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة الثامنة والعشرون: قوله تعالى: (ماء).. قال أبو حنيفة: هذا نفى في نكرة وهو يعم لغة، فيكون مفيداً جواز الوضوء بالماء المتغير وغير المتغير لانطلاق اسم الماء عليه.. قلنا: استنوق الجمل إلي أن يستدل أصحاب أبي حنيفة باللغات، ويقولون علي ألسنة العرب وهم ينبذونها في أكثر المسائل بالعراء. واعلموا أن النفي في النكرة يعم كما قلتم، ولكن في الجنس، فهو عام في كل ما كان من سماء، أو بئر، أو عين، أو نهر، أو بحر عذب أو ملح، فأما غير الجنس فهو المتغير فلا يدخل فيه، كما لم يدخل فيه ماء الباقلاء»^(٣).

ونجده في موضع من كتابه يرمي أبا حنيفة بأنه كثيراً ما يترك الظواهر والنصوص

(٢) الجزء الأول ص ٨٢.

(١) الجزء الأول ص ١٩٤، ١٩٥.

(٣) الجزء الأول ص ١٨٦.

للأقيسة^(١)، ويقول عنه في موضع آخر إنه: «سكن دار الضرب فكثرت عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله للملك، لما صدر عنه إلا إبريز الدين وإكسير الملة، كما صدر عن مالك»^(٢).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾... الآية، حيث يقول في تعريض ساخر: (المسألة الحادية عشرة: قوله عز وجل: ﴿فَاغْسِلُوا﴾، وظن الشافعي - وهو عند أصحابه معد بن عدنان في الفصاحة بله أبي حنيفة وسواه - أن الغسل صب الماء علي المغسول من غير عرك، وقد بينا فساد ذلك في مسائل الخلاف. وفي سورة النساء، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء، أو ما في معنى اليد»^(٣).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة النساء ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوَلُوا﴾... حيث يقول: «المسألة الثانية عشرة: قوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوَلُوا﴾ اختلف الناس في تأويله علي ثلاثة أقوال: الأول أن لا يكثر عيالكم، قاله الشافعي. الثاني: أن لا تضلوا، قاله مجاهد. الثالث: أن لا تميلوا، قاله ابن عباس والناس... قلنا: أعجب أصحاب الشافعي بكلامه هذا، وقالوا هو حجة، لمنزلة الشافعي في اللغة، وشهرته في العربية، والاعتراف له بالفصاحة، حتي قال الجويني: هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه علي المعاني ومعرفته بالأصول... واعتقدوا أن معنى الآية: فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم، فذلك أقرب إلي أن تنتفي عنكم كثرة العيال... قال ابن العربي: «كل ما قاله الشافعي، أو قيل عنه، أو وصف به، فهو كله جزء من مالك ونغبة من بحره، ومالك أوعي سمعاً، وأثقب فهماً، وأفصح لساناً، وأبرع بياناً، وأبدع وصفاً، ويدلك علي ذلك مقابلة قول بقول في كل مسألة وفصل».

ثم تكلم بعد ذلك عن معنى لفظ (عال) في اللغة. ثم قال: «والفعل في كثرة العيال رباعي لا مدخل له في الآية، فقد ذهب الفصاحة، ولم تنفع الضاد المنطوق بها علي الاختصاص»^(٤).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة النساء ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾... الآية، حيث يقول: «المسألة الخامسة: قال أبو بكر الرازي إمام الحنفية في كتاب أحكام القرآن: ليس نكاح الأمة ضرورة، لأن الضرورة ما يخاف منه تلف النفس، أو تلف عضو، وليس في مسألتنا

(٢) الجزء الأول ص ٣١٨.

(٤) الجزء الأول ص ١٣١.

(١) الجزء الأول ص ١٧٦.

(٣) الجزء الأول ص ٢٣٢.

شئ من ذلك. قلنا: هذا كلام جاهل بمنهاج الشرع، أو متهمكم لا يبالي بموارد القول. نحن لم نقل إنه حكم نيط بالضرورة، إنما قلنا: إنه حكم علق بالرخصة المقرونة بالحاجة، ولكل واحد منهما حكم يختص به. وحالة يعتبر فيها. ومن لم يفرق بين الضرورة والحاجة التي تكون معها الرخصة، فلا يعني بالكلام معه، فإنه معاند أو جاهل، وتقرير ذلك إتعاب للنفس عند من لا ينتفع به»^(١).

فأنت تري من هذه الأمثلة كلها. أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة ولا مع أتباعهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبي، الذي يقود صاحبه إلي ما لا يليق به، ويدفعه إلي الخروج عن حد اللطافة والكياسة.

● احتكامه إلي اللغة:

ثم إن المؤلف - رحمه الله - كثيرا ما يحتكم إلي اللغة في استنباط المعاني من الآيات، وفي الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة^(٢).

● كراهته للإسرائيليات:

كما أنه شديد النفرة من الخوض في الإسرائيليات، ولذلك عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٦٧) من سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾... الآية، نجده يقول: «المسألة الثانية: في الحديث عن بني إسرائيل: كثر استرسال العلماء في الحديث عنهم في كل طريق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» ومعني هذا الخبر: الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم، لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلي العدالة، والثبوت إلي منتهي الخبر، وما يخبرون به عن أنفسهم، فيكون من باب إقرار المرء علي نفسه أو قومه فهو أعلم بذلك، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزمه قبوله، ففي رواية مالك عن عمر رضي الله عنه أنه قال: رأني رسول الله ﷺ وأنا أمسك مصحفا قد تشرمت حواشيه، قال: ما هذا؟ قلت: جزء من التوراة، فغضب وقال: «والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»^(٣).

● نفرته من الأحاديث الضعيفة:

كذلك نجد ابن العربي شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة، وهو يحذر منها في

(١) الجزء الأول ص ١٦٤.

(٢) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالي في سورة النساء: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] الجزء الأول، ص ١٣١، وما قاله عند تفسير قوله تعالي في الآية ٣٤ من سورة النساء أيضا: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ الجزء الأول، ص ١٧٥.

(٣) الجزء الأول ص ١١.

تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله ﷺ توضع مرة وقال « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به »، وتوضأ مرتين مرتين، وقال: « من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين »، ثم توضأ ثلاثاً ثلاثاً، وقال: « هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء أبي إبراهيم » يقول لهم بعد ما بين ضعف هذا الحديث: « وقد ألقيت إليكم وصيتي في كل ورقة ومجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده » (١).

هذا والكتاب مطبوع في مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.

٤ - الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبد الله القرطبي (المالكي)

• ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير : هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح - بإسكان الراء والحاء المهملة - الأنصاري، الحزرجي، الأندلسي القرطبي المفسر. كان - رحمه الله - من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة، وبلغ من زهده أن أطرح التكلف، وصار يمشي بثوب واحد وعلي رأسه طاقية، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتباً انتفعوا بها. ومن مصنفاته: كتابه في التفسير المسمي بـ (الجامع لأحكام القرآن)، وهو ما نحن بصدده، وشرح أسماء الله الحسني، وكتاب التذكار في أفضل الأذكار، وكتاب التذكرة بأمور الآخرة، وكتاب شرح التقصي، وكتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة. قال ابن فرحون: لم أقف علي تأليف أحسن منه في بابيه وله كتب غير ذلك كثيرة ومفيدة.

سمع من الشيخ أبي العباس بن عمر القرطبي، مؤلف «المفهم في شرح صحيح مسلم» بعض هذا الشرح، وحدث عن أبي علي الحسن بن محمد البكري، وغيرهما. وكان مستقراً بمنية ابن خصيب، وتوفي ودفن بها في شوال سنة ٦٧١هـ (إحدي وسبعين وستمائة من الهجرة) فرحمه الله رحمة واسعة (٢).

• التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: « هو من أجل التفاسير وأعظمها

(١) الجزء الأول ص ٢٤١.

(٢) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٣١٧، ٣١٨.

نفعاً، وأسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ»^(١)، وذكر المؤلف رحمه الله في مقدمة هذا التفسير السبب الذي حمله علي تأليفه، والطريق الذي رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، وشروطه التي اشترطها علي نفسه في كتابه فقال: «وبعد... فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلي أمين الأرض رأيت أن اشتغل به مدي عمري، وأستفرغ فيه منيتي»^(٢)، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد علي أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبين ما أشكل منها بأقوال السلف ومن تبعهم من الخلف... وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلي قائلها، والأحاديث إلي مصنفها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلي قائله، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتاب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطع علي كتب الحديث، فيبقي من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتي يضيفه إلي من أخرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلي جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه، وما لا غني عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبين آي الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلي مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل... وهكذا إلي آخر الكتاب، وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان)^(٣).

والذي يقرأ في هذا التفسير يجد أن القرطبي - رحمه الله - قد وفي بما شرط علي نفسه في هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، وبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيرا إلي اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد علي المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولم

(٢) المنة: القوة.

(١) الديباج المذهب ص ٣١٧.

(٣) القرطبي: ١/٢، ٣.

يسقط القصص بالمرّة، كما تفيدّه عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما ذكر في مقدمة تفسيره، ولهذا نلاحظ عليه أنه يروي أحيانا ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلي.

هذا.. وإن المؤلف - رحمه الله - ينقل عن السلف كثيرا مما أثر عنهم في التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلي قائله وفاء بشرطه، كما ينقل عن تقدمه في التفسير، خصوصا من ألف منهم في كتب الأحكام، مع تعقيب علي ما ينقل منها، ومن ينقل عنهم كثيرا: ابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي، والكياسي، وأبو بكر الجصاص.

وأما من ناحية الأحكام فإننا نلاحظ عليه أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

● إنصاف القرطبي وعدم تعصبه:

وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل حتي يصل إلي ما يري أنه الصواب أيا كان قائله.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾.. نجدّه عند المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصغير، ويذكر أقوال من يجيزها ومن يمنعها، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكا، والثوري وأصحاب الرأي، ولكننا نجدّه يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل علي جوازها، وذلك حين يقول: «قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئاً ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله.. أوحى إليه كذا.. أوحى إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام فكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامها فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتمكم والله من عند نبي الله حقاً، قال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنا» فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآنا، لما كنت أتلقني من الركبان. فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشئ فرحي بذلك القميص»^(١).

ومثلاً عندما تعرض لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٧٣) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ .. نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية في اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية فيذكر أن مالكا حظر ذلك عليه. وكذا الشافعي في أحد قوليه، وننقل عن ابن العربي أنه قال: «عجبا ممن أبيح له ذلك مع التماذي علي المعصية وما أظن أحدا يقوله، فإن قاله فهو مخطئ قطعاً» ثم يعقب القرطبي علي هذا كله فيقول: «قلت: الصحيح خلاف هذا. فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالى في الآية (٢٩) من سورة النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وهذا عام ولعله يتوب في ثاني الحال فتمحو التوبة عنه ما كان» (١).

ومثلاً عندما تعرض لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٨٥) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ... الآية، نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التي تتعلق بهذه الآية في اختلاف العلماء في حكم صلاة عبد الفطر في اليوم الثاني، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلي صلاة العيد في غير يوم العيد، ويذكر عنه أيضا أنه قال: «لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تقضي، فهذه مثلها»، ثم يعقب القرطبي علي هذا فيقول: «قلت: والقول بالخروج - يعني لصلاة العيد في اليوم الثاني - إن شاء الله أصح، للسنة الثابتة في ذلك، ولا يمتنع أن يستثني الشارع من السنن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، وقد روي الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يصل ركعتي الفجر فليصلهما بعد ما تطلع الشمس» قلت: وقد قال علماؤنا: من ضاق عليه الوقت: وصلي الصبح، وترك ركعتي الفجر، فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء، وقيل: لا يصلهما حينئذ، ثم إذا قلنا يصليهما.. فهل ما يفعله قضاء؟ أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتي الفجر؟ قال الشيخ أبو بكر: وهذا الجاري علي أصل المذهب، وذكر القضاء تجوز قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر في اليوم الثاني علي هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة في السنة، مع ما ثبت من السنة، ثم روي عن النسائي بسنده: «أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبي ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار، وأن يخرجوا إلي العيد من الغد، وفي رواية: ويخرجوا لمصلاهم من الغد» (٢).

ومثلاً نجده عندما تعرض لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٨٧) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ .. الآية، نجده في المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه

الآية يذكر خلاف العلماء في حكم من أكل في نهار رمضان ناسيا . . فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القضاء، ولكنه لا يرضي ذلك الحكم فيقول: «وعند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسيا لصومه. قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسيا فلا قضاء عليه، وإن صومه تام، لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل الصائم ناسيا، أو شرب ناسيا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، ولا قضاء عليه» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٣٦) من سورة البقرة ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، نجد أنه يذكر في المسألة السادسة من مسائل هذه الآية اختلاف العلماء في حكم المتعة، فيذكر من يقول بوجوبها ويذكر من يقول بندوبها، ويعد في ضمن القائلين بالندب مالكاً رحمه الله، ثم يقول: (تمسك أهل القول الأول بمقتضي الأمر، وتمسك أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

ولو كانت واجبة لأطلقها علي الخلق أجمعين. والقول الأول أولي لأن عمومات الأمر بالامتناع في قوله: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾، وإضافة الإمتاع إليهم بـ (لام التمليك) في قوله: ﴿وَلِلْمَطْلُقاتِ مَتَاعٌ﴾ [البقرة: ٢٤١] أظهر في الوجوب منه في الندب. وقوله: ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] تأكيد لإيجابها، لأن كل واحد يجب عليه أن يتقي الله في الإشراف به ومعاصيه، وقد قال تعالى في القرآن في الآية (٢) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

● موقفه من حملات ابن العربي علي مخالفيه:

كذلك نجد القرطبي - رحمه الله - كثيراً ما يدفعه الإنصاف إلي أن يقف موقف الدفاع عن مهاجمهم ابن العربي من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحيانا، علي ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين، الداهيين إلي ما لم يذهب إليهم. فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة النساء: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ . . نراه يروي عن الشافعي أنه فسرها علي معني: ألا تكثر عيالكم، ثم يقول: «قال الثعلبي: وما قال هذا غيره وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله، وزعم ابن العربي: أن عال علي سبعة معان لا ثامن لها، يقال عال: مال، الثاني: زاد، الثالث: جار.

الرابع: افتقر. الخامس: أثقل.. حكاة ابن دريد. قالت الخنساء: «ويكفي العشيرة ما عالها». السادس: عال: قام بمؤنة العيال، ومنه قوله عليه السلام: (وابدأ بمن تعول). السابع: عال: غلب، ومنه: عيل صبره أي غلب، ويقال: أعال الرجل: كثر عياله. وأما (عال) بمعنى كثر عياله فلا يصح، قلت: أما قول الثعلبي: (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطني في سننه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد.. فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعي إليه. وأما ما ذكره ابن العربي من الحصر وعدم الصحة فلا يصح. وقد ذكرنا: عال الأمر: اشتد وتفاقم.. حكاة الجوهري. وقال الهروي في غريبه: «وقال أبو بكر: يقال: عال الرجل في الأرض يعيل فيها: إذا ضرب فيها. وقال الأحمر: يقال: عالني الشيء يعيلني عيلا ومعيلا: إذا أعجزك، وأما (عال): كثر عياله، فذكره الكسائي وأبو عمرو الدوري وابن الأعرابي. قال الكسائي أبو الحسن علي ابن حمزة: العرب تقول عال يعول وأعال يعيل أي كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا.. ولعله لغة. قال الثعلبي المفسر: قال أستاذنا أبو القاسم ابن حبيب: سألت أبا عمرو الدوري عن هذا - وكان إماما في اللغة غير مدافع - فقال: هي لغة حمير وأنشد:

وإن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشي وعالا

يعني: وإن كثر ماشيته وعياله. وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتي خشيت أن آخذ علي لاحن لحنا. وقرأ طلحة بن مصرف: (ألا تعيلوا) وهي حجة الشافعي رضي الله عنه. وقدح الزجاج وغيره في تأويل (عال) من العيال بأن قال: إن الله تعالي قد أباح كثرة السراري وفي ذلك تكثير العيال. فكيف يكون أقرب إلي ألا تكثر العيال؟ وهذا القدح غير صحيح، لأن السراري إنما هي مال يتصرف فيه بالبيع، وإنما القادح: الحرائر ذوات الحقوق الواجبة. وحكي ابن الأعرابي: أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله»^(١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٦٧) من سورة النحل: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.. نراه يعيب علي ابن العربي تشنيعه علي من يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: «وهذا تشنيع شنيع، حتي يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار»^(٢).

وعلي الجملة.. فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حر في بحثه، نزيه في نقده، عف في مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه.

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلي زمن قريب، ثم أراد الله له الذيوع بين أولي العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه، فتم منه إلي الآن أربعة عشر جزءاً تنتهي بآخر سورة فاطر، وعسي أن يعجل الله بإتمام ما بقي منه، حتي يتم به النفع، إنه سميع مجيب (١).

٥ - كنز العرفان في فقه القرآن لمقداد السيوري (من الإمامية الإثنا عشرية)

• ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير ، هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيوري (٢) أحد علماء الإمامية الإثنا عشرية، والمعروف بينهم بالعلم والفضل، والتحقيق والتدقيق، وله مؤلفات كثيرة، منها: تفسيره هذا، ومنها التنقيح الرائع في شرح مختصر الشرائع وشرح مبادئ الأصول.. وغير ذلك، وكان في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري (٣).

• التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، وهو لا يتمشي مع القرآن سورة سورة علي حسب ترتيب المصحف ذاكراً ما في كل سورة من آيات الأحكام كما فعل الجصاص وابن العربي مثلاً، بل طريقته في تفسيره: أنه يعقد فيه أبواباً كآبواب الفقه، ويخرج في كل باب منها الآيات التي تدخل تحت موضوع واحد، فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد في الطهارة من الآيات القرآنية، شارحاً كل آية منها علي حدة، مبيناً ما فيها من الأحكام علي حسب ما يذهب إليه الإمامية الإثنا عشرية في فروعهم، مع تعرضه للمذاهب الأخرى، ورده علي من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الإثنا عشرية.

هذا.. وإن طريقته التي يسلكها في تدعيم مذهبه وترويجه، وإبطال مذهب مخالفه، لا تخرج عن أمرين اثنين:

أولهما: الدليل العقلي.

ثانيهما: دعوي أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت.

أما الدليل العقلي، فيندر أن يسلم له كمستند يستند إليه في صحة ما يشذ به.

(١) وقد حقق الله الرجاء وتم طبع الكتاب كما قدمنا.
(٢) السيوري: نسبة إلي السيور، وهو ما يقدر من الجلد، أو إلي بلد من بلاد اليمن كما في روضات الجنات.

(٣) انظر روضات الجنات ص ٥٦٦، ٥٦٧.

وأما دعوي أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت، فتلك دعوي كثيراً ما تكون كاذبة، يلجأ إليها الشيعة عندما يعوزهم الدليل، وتخونهم الحجة وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير لتقف علي مقدار شذوذ صاحبه:

فمثلاً عند قوله تعالى في الآية (٤٣) مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ .. يقول: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: أي فتعمدوا واقصدوا، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: أي شيئاً من وجه الأرض - كقوله: ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]: (طيباً) أي طاهراً، ولذلك قال أصحابنا: لو ضرب التيمم يده علي حجر صلب ومسح: أجزأه، وبه قالت الحنفية. وقالت الشافعية: لا بد أن يعلق باليد شيء، لقوله ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦] وفيه نظر، لجواز كون (من) هنا ابندائية. والوجه المراد بغضه، وهو الجبهة عند أكثر أصحابنا، إما لكون الباء للتبعيض أو للنصوص عن أهل البيت عليهم السلام. فمسح الجبهة إلي طرف أنفه الأعلى، وكذا المراد باليدين: ظهر اليد من الزند إلي أطراف الأصابع»^(١).

ويقول عندما تعرض لآية التيمم في سورة المائدة: «وتجب ضربة واحدة للوضوء واثنان للغسل»، ثم يرد علي الحنفية والشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه وأخرى لليدين، وأن المراد بالوجه كله، وباليدين إلي المرفقين... يرد عليهم فيقول: «وروايات أهل البيت تدفع ذلك»^(٢).

وعندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٣٠) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ .. يقول: «مدلول الآية أنه إذا طلقها الزوج عقيب المطلقتين تنكح زوجاً غير ذلك المطلق، وهذا الحكم عند أصحابنا مخصوص بما عدا طلاق العدة، فإن ذلك يحرم في التاسعة أبداً - وطلاق العدة هو أن يطلق المدخول بها علي الشرائط ثم يراجعها في العدة، ثم يطلقها مرة ثانية ويفعل كما فعل أولاً، ثم يطلقها ثالثة، فإذا فعل ذلك ثلاثة أدوار حرمت عليه عندهم أبداً»^(٣).

وهكذا يسير الولف بهذا الشذوذ في كثير من الأحكام، وبهذا التعسف والتخبط في فهم نصوص القرآن، والذي يقرأ الكتاب يري الكثير من ذلك، ويعجب من محاولاته الفاشلة في استنباط ما يشذبه من الآيات التي تجبهه، ولا يمكن أن تتمشي مع مذهبه بحال من الأحوال. هذا... وإن الكتاب مطبوع علي هامش تفسير الحسن العسكري، وموجود بدار الكتب.

* * *

٦ - الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوسف الثلاثي (الزبيدي)

• ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير هو شمس الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عثمان الثلاثي، الزبيدي الفقيه، أحد أصحاب الإمام المهدي، وأحد أساطين العلم وجبال التحقيق عند أصحابه. ارتحل الناس إليه من الأقطار إلي (ثلا)، وكان إذا قرأ امتلاء الجامع بالطلبة، وباقيهم بكتبهم في الطاقات من خارج المسجد. أخذ عن الفقيه حسن النحوي وله تصانيف، منها: الزهور والرياض، و (الثمرات اليانعة)، وهو أجل مصنف عند الزيدية، وهو ما نحن بصدده الآن، وتوفي رحمه الله بـ (ثلا) في شهر جمادي الآخرة سنة ٨٣٢هـ (اثنين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة) (١).

• التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يقع هذا التفسير في ثلاثة أجزاء كبار، ومنه نسخة خطية كاملة بدار الكتب المصرية، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثاني فقط، وهو مخطوط في مجلد كبير، يبدأ من قوله تعالي في الآية (٤) من سورة المائدة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ . . . الآية، وينتهي عند قوله تعالي في الآية (٣٦) من سورة النور: ﴿فِي بَيْتِ أذنَ اللّٰهِ أَنْ ترفعَ وَيذِكرَ فيها اسمَهُ﴾ .

قرأت في هذا التفسير فوجدت المؤلف يقتصر علي آيات الأحكام، متمشياً مع ترتيب المصحف في سوره وآياته. ويذكر الآية أولاً، ثم يذكر ما ورد في سبب نزولها إن كان لها سبب، ثم يقول: ولهذه الآية ثمرات هي أحكام شرعية: الأولي: كذا، والثانية: كذا. . . إلي أن ينتهي من كل ما يتعلق بالآية من الأحكام.

• اعتماد المؤلف علي الروايات التي لا تصح :

ويلاحظ علي هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحري الصحة فيما ينقله من الأحاديث. وما يذكره من ذلك يمر عليه مرأ سابرياً بدون أن يعقب عليه بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو وضعه، فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ . . . نراه يذكر الروايات الواردة في سبب نزول هذه الآية، ويذكر ضمن ما يذكر: أنها نزلت في علي بن أبي طالب لما تصدق بخاتمه في الصلاة وهو راکع (٢). وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة، ولكن

(١) انظر شرح الأزهار: ٤٣/١.

(٢) الجزء الثاني ص ٥٨.

المؤلف يذكرها، ثم يأخذ في تفريع الأحكام علي هذه القصة المكذوبة، كأنها عنده من الثابت الصحيح.

● تقديره لكشاف الزمخشري:

كذلك يلاحظ علي المؤلف في تفسيره هذا أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشري، مما يدل علي أنه معجب به وبتفسيره إلي حد كبير، ولعل ذلك ناشئ عما بين الرجلين من صلة التمدد بذهب الاعتزال.

● مسلكه في أحكام القرآن:

أما مسلك المؤلف في أحكام القرآن، فإنه يسرد أقوال السلف والخلف في المسألة، فيعرض لما ورد عن الصحابة والتابعين، ويعرض لمذهب الشافعية والحنفية، والمالكية، والظاهرية، والإمامية... وغيرهم من فقهاء المذاهب ذاكرا لكل مذهب دليله ومستنده في الغالب. كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية واختلاف علمائهم في المسألة التي يعرض لها، مع الإفاضة في بيان أدلتهم التي استندوا إليها، والرد علي من يخالفهم فيما يذهبون إليه.. كل هذا بدون أن نلاحظ علي الرجل شيئا من القدر في مخالفته، كما يفعل غيره ممن سبق الكلام عنهم. وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير لتقف علي مقدار دفاع المؤلف عن مذهبه، وعمله علي تأييده بالبراهين والأدلة:

✽ رأيه في نكاح الكتابيات:

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلي قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾... الآية، نراه يعرض لأقوال العلماء في حكم نكاح الكتابيات فيقول: «ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية، وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين، ورواية عن زيد بن علي، والصادق، والباقر، واختاره الإمام يحيى بن حمزة وقال: إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة، وإن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة وهي نصرانية، فلما توفي عثمان خطبها معاوية، فقالت: وما يعجبك مني؟ قال: ثنياتك، فقلعتهما وأمرت بهما إليه، ونكح طلحة نصرانية، ونكح حذيفة يهودية. وقال القاسم، والهادي، والناصر، ومحمد بن عبد الله، وعامة القاسمية وهو مروى عن ابن عمر: إنه لا يجوز لمسلم نكاح كافرة، كتابية كانت أو غيرها، واحتجوا بقوله تعالي في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١].. قالوا هذا في المشركات لا في الكتابيات قلنا: اسم المشرك ينطلق علي أهل الكتاب، بدليل قوله تعالي - بعد ذكر اليهود والنصارى في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣١﴾.

وعن ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من قول النصارى إن ربها عيسى. وعن عطاء: قد كثر الله المسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ. قالوا: إنه تعالى عطف أحدهما علي الآخر فدل أنهما غيران حيث قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١].. قلنا هذا كقوله تعالى ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادِ مِنَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].. قالوا: الآية مصرحة بالجواز في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].. قلنا قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿وَلَا تَمْسُكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله تعالى في سورة النور: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]. فشرط الإيمان في هذا يقتضي التحريم، فتأول هذه الآية بأنه أراد المحصنات من أهل الكتاب الذين قد أسلموا، لأنهم كانوا يتكفرون ذلك، فسماهم باسم ما كانوا عليه. وقد ورد مثل هذا في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] - قالوا: سبب النزول وفعل الصحابة يدل علي الجواز، وإنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] عام ونخصه بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. أو نقول: أراد بالمشركات الوثنيات، وبالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ما أفاده الظاهر. أو يكون قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ ناسخاً لتحريم الكتابيات بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾.. قلنا: نقل ما ذكرتم بما روي أن كعب بن مالك أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية فسأل النبي ﷺ وآله عن ذلك فقال: «إنها لا تحسن ماءك». ويروي أنه نهاه عن ذلك. وبأنا نتأول قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، فنجمع ونقول: وتخصيص المشركات بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب متراخ، والبيان لا يجوز أن يتراخي.. قالوا: روي جابر بن عبد الله عن النبي عليه السلام أنه قال: «أحل لنا ذبائح أهل الكتاب وأحل لنا نساؤهم، وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا»، قال في الشفاء: قال علماءنا: هذا حديث ضعيف النقل. قالوا: قوله صلي الله عليه وآله وسلم في الجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»... الخبر، فأفاد جواز

ذبائحهم، ونكاح نسائهم. قلنا: الجواز منسوخ بأدلة التحريم. ثم إنا نقوي أدلتنا بالقياس، فنقول: كافرة فأشبهت الحربية، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة، أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس. قالوا: لا حكم للاعتبار مع الأدلة»^(١).

* رأيه في المسح علي الخفين:

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾. الآية، نراه يعرض لمسألة المسح علي الخفين فيقول: «إن المسح علي الخفين والجوربين لا يجوز، وهو مروى عن علي عليه السلام وابن عباس، وعمار بن ياسر، وأبي هريرة، وعائشة. وقال عامة الفقهاء: إنه يجوز المسح عليهما. حجتنا هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ فأمرت بتطهير الرجلين، والمسح علي الخفين لا يكون مطهراً لهما، وكذلك الأخبار التي دلت علي الغسل للقدمين فأما ما زوي أنه صلي الله عليه وآله مسح علي الخفين وأمر به، فهذه الأخبار كانت بمكة وبعد هجرته صلي الله عليه وآله، ثم نزلت سورة المائدة بعد ذلك فكانت ناسخة، ويدل علي هذا ما رواه زيد بن علي عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال: لما كان في ولاية عمر جاء سعد بن أبي وقاص فقال: يا أمير المؤمنين، ما لقيت من عمار، قال: وما ذاك؟ قال: خرجت وأنا أريدك ومعني الناس، فأمرت منادياً فنادي بالصلاة، ثم دعوت بطهور فتطهرت ومسحت علي خفي، وتقدمت أصلي، فاعتزلني عمار، فلا هوي اقتدي بي ولا هو تركني، فجعل ينادي من خلفي: يا سعد؛ أصلاة من غير وضوء؟ فقال عمر: يا عمار؛ اخرج مما جئت به، فقال: نعم. . . كان النسخ قبل المائدة، قال عمر: يا أبا الحسن؛ ما تقول؟ قال: أقول إن المسح كان من رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم في بيت عائشة، والمائدة نزلت في بيتها، فأرسل عمر إلي عائشة فقالت: كان المسح قبل المائدة، فقل لعمر: والله لأن يقطع قدماي بعقبهما أحب إلي من أن أمسح عليهما، فقال عمر: لا نأخذ بقول امرأة، ثم قال: أنشد الله امرأةً شهد المسح من رسول الله لما قام، فقام ثمانية عشر رجلاً كلهم رأي رسول الله صلي الله عليه وآله ويمسح وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فأخرج يده من تحتها ثم مسح علي خفيه، فقال عمر: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال سلمة" أقبل المائدة أم بعدها؟ فسألهم، فقالوا: ما ندري، فقال علي عليه السلام: أنشد الله امرأةً مسلماً علم أن المسح قبل المائدة لما قام، فقام اثنان وعشرون رجلاً، فتفرق القوم وهؤلاء يقولون: لا نترك ما رأينا.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: والله ما مسح رسول الله بعد المائدة ولأن أمسح علي ظهر غير بالفلاة أحب إلي من أن أمسح علي الخفين. وعن علي عليه السلام، سبق الكتاب الخفين - قيل معناه: قطع - وعن أبي هريرة ما أبالي علي خفي مسحت أو علي ظهر حمار. فثبت للنسخ بما ذكر وأما قول جرير: رأيت رسول الله يمسح، وكان إسلامه بعد المائدة فروايته لا تقبل مع إنكار أمير المؤمنين، لأنه لحق بمعاوية فكان ذلك قدحاً. هذا كلام أهل المذهب والمسألة إجماعية من أهل البيت عليهم السلام^(١).

وهكذا نجد المؤلف - رحمه الله - يناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، وإن دلت علي شيء فهو قوة ذهن الرجل، وسعة اطلاعه. هذا.. ولا يكاد القارئ لهذا التفسير يجد فيه خلافاً كبيراً للمذاهب الفقهية الأخرى، كما هو الشأن في كتب التفسير الفقهي للإمامية الإثنا عشرية، وهذا راجع إلي تقارب وجهات النظر بين الزيدية وأهل السنة

* * *

الفصل الثامن

التفسير العلمي

● معنى التفسير العلمي:

نريد بالتفسير العلمي: التفسير الذي يحكّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

● التوسع في هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به:

وقد وقع هذا النوع من التفسير، واتسع القول في احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما يكون، فالقرآن في نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل - إلي جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعلمية - سائر علوم الدنيا علي اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها.

● الإمام الغزالي والتفسير العلمي:

ويظهر لنا - علي حسب ما قرأنا - أن الإمام الغزالي كان - إلي عهده أكثر من استوفي بيان هذا القول في تفسير القرآن، وأهم من أيده وعمل علي ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية، علي رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن.

وبين أيدينا كتاب (الإحياء) للغزالي نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن، في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل وفيه ينقل عن بعض العلماء « أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع»^(١)، ثم يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « من أراد علم الأولين و الآخريين فليتدبر القرآن»^(٢)، ثم يقول بعد ذلك كله: « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلي مجامعها»^(٣)، ثم يزيد علي ذلك فيقول: « بل كل ما أشكل فهمه علي النظر، واختلف فيه الخلائق في النظريات، والمعقولات في القرآن إليه رمز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»^(٤).

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذي ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذي قرره في الإحياء بيانا وتفصيلا، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاهما لا نطيل بذكرها، ويكفي أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلي قسمين:

(١) الإحياء ٣/ ١٣٥ مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) نفس المرجع.

(٤) المرجع السابق.

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته: علم اللغة. وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف. وعلم التفسير الظاهر.

والثاني: علم اللباب. وجعل من مشتملاته: علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراف المستقيم، وطريق السلوك (١)

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات.. وغير ذلك، ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أخري، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلي ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتماري فيها أن في الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد في هذه الأعصار علي بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا إدراكها والإحاطة بها، ويحظي بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان في حق الآدمي محدود والإمكان في حق الملك محدود إلي غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهي العلم في حقه» (٢).

ثم يقول بعد ذلك: «ثم هذه العلوم ما عددنا وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الإفعال - مثلاً - الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معني للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه، ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وقال: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ وجمع الشمس والقمر ﴿[القيامة: ٨-٩]، وقال: ﴿يُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَيُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١، لقمان: ٢٩] وقال: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [يس: ٣٨].. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما

(١) جواهر القرآن ص ٢١ - ٣١ مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩ هـ.

(٢) جواهر القرآن ص ٣١ - ٣٢.

علي الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معني قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦- ٨] إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها. وقد أشار في القرآن في مواضع إليها وهي من علوم الأولين والآخرين؛ وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين. وكذلك لا يعرف معني قوله: ﴿سُوَيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَفَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] ما لم يعلم التسوية، والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلا إلي مجامعها.. فتفكر في القرآن، والتمس غرائب لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين»^(١).

● الجلال السيوطي والتفسير العلمي:

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطي ينحو منحى الغزالي في القول بالتفسير العلمي، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع في كتابه (الإتقان) في النوع الخامس والستين منه، كما يقرر ذلك أيضا بمثل هذا الوضوح والتوسع في كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) ونجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به علي أن القرآن مشتمل علي كل العلوم.

فمن الآيات: قوله تعالي في الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وقوله في الآية (٨٩) من سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

ومن الأحاديث: ما أخرجه الترمذي وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن»، قيل: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله.. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»^(٣).

وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والحردلة والبعوضة»^(٤).

ومن الآثار: ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين»^(٥).

وما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن»^(٦).

(٢) الإتقان: ٢/١٣٥.

(٤) الإكليل ص ٢.

(٦) الإكليل ص ٢.

(١) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤.

(٣) الإتقان: ٢/١٣٦.

(٥) الإتقان: ٢/١٢٦.

ثم نجد بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي ﷺ ثلاث وستين سنة من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة المنافقون: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بـ (التغابن) ليظهر التغابن في فقده» (١).

● أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي:

ثم ذكر عن أبي الفضل المرسي أنه قال في تفسيره: «جمع القرآن علوم الأولين والآخريين، بحيث لم يحظ بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس حتي قال: لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتني قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجدياته، والتعظيم عند كل عشر آيات... إلي غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتني النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال. واللازم، والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتي إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتني المفسرون بالفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل علي معني واحد، ولفظاً يدل علي معنيين، ولفظاً يدل علي أكثر، فأجروا الأول علي حكمه، وأوضحوا معني الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد احتمالات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتني الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]... إلي غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة علي وحدانية الله، ووجوده، وبقائه، وقدمه، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي

الخصوص، إلي غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص، والإضمار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهي، والنسخ... إلي غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال، والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا، وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتي ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ. وتبته آخرون لما فيه من الحكم، والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد، والوعيد والتحذير، والتبشير، وذكر الموت، والمعاد، والنشر، والحشر، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، فصولا من المواعظ، وأصولا من الزواجر فسموا بذلك الخطباء والوعاظ واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عز فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلي اصطلاح العوام في مخاطبتهم وعرف عاداتهم، الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [لقمان: ١٧].

أخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك، علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والرابع، والسدس، والثمن، حساب الفرائض، ومسائل العدل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلي ما فيه من الآيات الدالات علي الحكم الباهرة، في الليل، والنهار، والشمس، والقمر، ومنازله، والبروج، وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلي ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ، والمقاطع، والمخالص، والتلوين في الخطاب والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك واستنبطوا منه المعاني، والبيان، والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاما اصطلاحوا عليها، مثل: الفناء، والبقاء، والحضور. والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه، وقد احتوي علي علوم أخر من علوم

الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم.

أما الطب: فمداره علي نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالي: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالي: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].. ثم زاد علي طب الأجسام بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة: ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.
وأما الهندسة: ففي قوله تعالي: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١].. فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأهم سالفة. وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة: ففي قوله تعالي: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليه، كالخياطة في قوله: ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢، طه: ١٢١]، والجداة: ﴿آتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] والبناء في آيات، والنجارة: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، والغزل: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢]، والنسيج: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] والفلاحة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ﴾... الآيات [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، والصيد في آيات والغوص: ﴿وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ [ص: ٣٧]، وتسخير جوا منه حلية: [النحل: ١٤]، والصياغة: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمَ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عَجَلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] والزجاجة: ﴿مَمْرَدٍ مِّنْ قَوَارِيرٍ﴾ [النمل: ٤٤]، المصباح في

زُجَاجَةٌ ﴿ [النور: ٣٥]، والفخارة: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ ﴾ [القصص: ٣٨]، والملاحه: ﴿ أَمَا السَّفِينَةُ ﴾ ... الآية [الكهف: ٧٩]، والكتابة ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ٤] وفي آيات أخر، والخبز: ﴿ أَحْمِلْ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ [يوسف: ٣٦]، والطبخ: ﴿ بَعْجَلٍ حَنِيدٍ ﴾ [هود: ٦٩]، والقصاره: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤]، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴿ [آل عمران: ٥٢] [المائدة: ١١٢] [الصف: ١٤] وهم القصارون، والجزارة: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ٣]، والبيع والشراء في آيات، والصبيغ: ﴿ صَبِغَةَ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿ جَدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ ﴾ [فاطر: ٢٧]، والحجارة ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، والكيالة والوزن في آيات كثيرة، والرمي: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوجات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معني قوله: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال السيوطي: انتهى كلام المرسي ملخصا مع زيادات (١).

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة، نجد أنه يذكر عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه (قانون التأويل): « علوم القرآن خمسين علما، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، علي عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينهما من روابط، وهذا مالا يحصي، وما لا يعلمه إلا الله » (٢).

وأخيرا عقب السيوطي علي هذه النقول وغيرها فقال: « وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز علي كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصلا إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلي وما تحت الثري و... و... إلي غير ذلك مما يحتاج شرحه إلي مجلدات » (٣).

ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين في تفسير القرآن الكريم، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ما جد وما يجد إلي يوم القيامة.

ولو أنا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة - نزعة التفسير العلمي - تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلي يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت في أول الأمر عبارة عن محاولات، يقصد منها التوفيق بين القرآن،

(١) الأكليل ص ٢ - ٥، والإتقان ٣/ ١٢٦ - ١٢٨.

(٢) الإتقان: ٢/ ١٣٨. (٣) الإتقان: ٢/ ١٢٩ - ١٣٢.

وما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة علي لسان الغزالي، وابن العربي، والمرسي، والسيوطي، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت علميا، وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألفت بعض التفاسير التي تسيّر علي ضوء هذه الفكرة. ونري أن نؤجل البحث عن التفسير العلمي في هذه المرحلة الأخيرة إلي خاتم الرسالة، حيث نعرض لألوان التفسير في العصر الحديث إن شاء الله تعالى.

● إنكار التفسير العلمي:

إذا كانت فكرة التفسير العلمي قد راجت عند بعض المتقدمين، وازدادت رواجاً عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجاً عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجاً عند بعض المتأخرين منهم أيضا.

● إنكار الشاطبي للتفسير العلمي:

ويظهر لنا علي حسب ما قرأنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة في العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الأندلسي، المتوفي سنة ٧٩٠هـ (تسعين وسبعمائة من الهجرة)، وذلك أنا نجد في كتابه (الموافقات) يعقد بحثاً خاصاً لمقاصد الشارع، وينوع هذه المقاصد إلي أنواع تولي شرحها وبيانها، والذي يهمننا هنا النوع الثاني منها وهو «بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للأفهام» وفي المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجد يقرر أن «هذه الشريعة المباركة أمية، لأن أهلها كذلك»^(١) فهو أجري علي اعتبار المصالح^(٢). ثم دلل علي ذلك بأمر ثلاثاً لا نطيل بذكرها، ثم عقب بفصل ذكر فيه: «إن العرب كان لها أعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه»، ثم ذكر من العلوم الصحيحة التي كان للعرب اعتناء بها: علم النجوم وما يختص به من الاهتداء في البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلق بهذا المعني. ثم قال: «وهو معني مقرر في أثناء القرآن

(١) يريد أن تنزيل الشريعة علي مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التي يقصدها الشارع الحكيم (انتهى من الشارح: ٦٩/٢).

(٢) الموافقات: ٦٩/٢.

في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقوله: ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]، وقوله ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٩ - ٤٠]، وقوله ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]، وقوله ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتِينَ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾... الآية [الإسراء: ١٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩]... وما أشبه ذلك من الآيات.

وذكر علم الأنواء، وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد في ذلك من القرآن مثل قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يَرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيَسِيحُ الرُّعْدَ بِحِمْدِهِ ﴾... الآية [الرعد: ١٢ - ١٣]، وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٦٩]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر: ٩]... وغير ذلك من الآيات.

وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، وفي القرآن من ذلك ما هو كثير... قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمِمْهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾... الآية [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود: ٤٩].

وذكر علم الطب، وبين أنه كان في العرب منه شيء مبني علي تجارب الأميين، لا علي قواعد الأقدمين. قال: «وعلي ذلك المساق جاء في الشريعة لكن علي وجه جامع، شاف، قليل يطلع منه علي كثير، فقال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١].

وذكر التفنن في علم فنون البلاغة، والخوض في وجوه الفصاحة، والتصرف في أساليب الكلام.. قال: «وهو أعظم منتجلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]..

وذكر ضرب الأمثال، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨]..

وذكر من العلوم التي عني بها العرب وأكثرها باطل أو جميعها: علم العيافة. والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصى، والطيرة، قال: « فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل، ونهت عنه كالكهانة، والزجر، وخط الرمل. وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب، فإن الكهانة والزجر كذلك، وأكثر هذه الأمور تخرض علي علم الغيب من غير دليل، فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض، وهو الوحي والإلهام، والفراسة» (١).

ثم بعد هذا البيان الذي أوضح فيه الشاطبي أن الشريعة في تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلي ما تعرفه العرب من العلوم، ولم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهابا وإيضاحا، ويتوجه بالعلوم إلي من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخريين، مفندا هذا الزعم، الذذي اعتقد أن قائله قد تجاوزوا به الحد في دعواهم علي القرآن. وذلك حيث يقول في المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني من المقاصد - أعني مقاصد وضع الشريعة للإفهام - « ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية علي مذاهب أهلها - وهم العرب - ينبني عليه قواعد: منها: أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوي علي القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظرفيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها، وهذا إذا عرضناه علي ما تقدم لم يصح» (٢).

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن فيقول: «... إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وبعلمومه وما أودع فيه، ولم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شئ من هذا المدعي سوي ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا علي أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل علي أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل علي أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا. نعم تضمن علومنا من جنس علوم العرب أو ما ينبني علي معهودها مما يتعجب منه أولوا الأبواب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، وأما أن فيه ما ليس من ذلك فلا» (٣).

ثم أخذ الشاطبي بعد هذا في ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمي من الأدلة فقال: « وربما استدلو علي دعواهم بقوله تعالي: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ

(١) الموافقات: ٢/٧١ - ٧٦.

(٢) الموافقات: ١/٧٩.

(٣) الموافقات: ٢/٧٩، ٨٠.

شَيْءٍ ﴿ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ونحو ذلك، وبفواتح السور - وهي ما لم يعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء» (١).

ثم أخذ الشاطبي رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال:

(فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾: اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور.. فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهدا كعدد الحمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها علي ما ادعوا، وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلي القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة علي فهمه علي كل ما يضاف علمه إلي العرب خاصة، فبه يوصل إلي علم ما أودع من الأحكام الشرعية، من طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول علي الله ورسوله فيه، والله أعلم وبه التوفيق) (٢).

هذه هذ الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبي في هذا الموضوع، وذلك هو رأيه، في التفسير العلمي الذي شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين وأحسب أنني - وقد وضعت بين يدي القارئ مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة - قد أنرت له الطريق، وأوضحت له السبيل، ليختار لنفسه ما يحلو، بعد أن يحكم علي أحدهما بأنه خير مقالة وأحسن دليلا.

● اختيارنا في هذا الموضوع:

أما أنا فاعتقادي أن الحق مع الشاطبي رحمه الله، لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية، لا يعترها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل. ولأن ما أجاب به علي أدلة مخالفه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مدعاهم. وهناك أمور أخرى يتقوي بها اعتقادنا أن الحق في جانب الشاطبي ومن لف لفه، فمن ذلك ما يأتي:

أولا - الناحية اللغوية:

وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معني واحد من لدن استعمالها إلي اليوم،

(٢) الموافقات: ٢/ ٨١ - ٨٢.

(١) الموافقات: ٢/ ٨٠.

بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، ونحن وإن كنا لا نعرف شيئا عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعاني للكلمة الواحدة حاد بصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لغوية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عرفية، وهذه المعاني كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظرا لحدوثه وطوره علي اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل علي معان جدت بصطلاح حاد، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أن الله تعالي إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعاني التي حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، في الوقت الذي نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتليت أول ما تليت علي من كان حول النبي ﷺ؟ .. أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلي من سفه نفسه، وأنكر عقله.

ثانيا - الناحية البلاغية :

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضي الحال، ومعلوم أن القرآن في أعلي درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمي وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعاني المستحدثة لأوقعنا أنفسنا في ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدم بلاغة القرآن أو يذهب ببطانة العرب، وذلك لأن من خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني وكان الله يريدنا من خطابه إياهم لزم علي ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوي علوم الأولين والآخرين؟ ولم لم تقم نهضتهم علي هذه الآيات الشارحة لختلف العلوم وسائر الفنون؟ .. وهذا أيضا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم.

ثالثا - الناحية الاعتقادية :

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلي عقول الناس جميعا من لدن نزوله إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذي جعله الله خاتم شرائع السموات إلي أهل الأرض.

هذا ما يجب علي كل مسلم أن يعتقد ويدين به، حتي يسلم له دينه، ولا يرتاب

فيه، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء، وجعلناه مصدرا لجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، وما إلي ذلك من العلوم المختلفة، لكننا بذلك قد أوقعنا الشك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات، لا قرار لها ولا بقاء، فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير، لأنه ظهر له خطأها. وأمام سمعنا وبصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيرا من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك، وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تناف وتضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملا لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية علي ما بينها من التنافي والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولا، فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا، ويكون علي يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

الحق أن القرآن لا يعني بهذا اللون من حياة الناس، ولا يتعهد بالشرح ولا يتولاه بالبيان، حتي يكون مصدرهم الذي يرجعون إليه في تعرف حياتهم العلمية الدنيوية.

ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة - فكرة التفسير العلمي - لم يقولوا بها، ولم يعملوا علي تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم. وبيان صلاحيته للحياة، وتمشيه معها علي اختلاف أحوالها وتطور أزمانها. ولكن «ما هكذا ياسعد تورد الإبل» فإن إعجاز القرآن غني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف، الذي قد يذهب بالإعجاز، وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل علي محمد ﷺ.

وإذا كان أرباب هذا المسلك في التفسير يستندون إلي ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده، ودعوة الله لهم بالنظر في كتاب الكون وآياته التي بثها في الآفاق وفي أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلي مثل هذا في دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخريين، فهم مخطئون ولا شك، وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده، ودعوته إلي النظر في ملكوت السموات والأرض وفي أنفسهم، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس، وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلي مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلي آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة في النفس وجلال في اللب، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة.

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي

يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي، في إصلاح الحياة، ورياضة النفس، والرجوع بها إلى الله تعالى. وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضا، أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى في تفسيرهم، رغبة منهم في إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشي مع التطور الزمني، وحسبهم أن لا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين علمية، تقوم علي أساس من الحق، وتستند إلي أصل من الصحة.

* * *

الخاتمة

كلمة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث

● التفسير بين ماضيه وحاضره:

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومراميها، إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذي جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراساتهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن علي تدرج ملحوظ، وتلون بألوان مختلفة مرت بك كلها. أو مربك علي التحقيق ما وصلنا إليه في دراستنا وقراءتنا الواسعة المستفيضة.

والذي يقرأ كتب التفسير علي اختلاف ألوانها، لا يدخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية المذهبية، والناحية الكونية، الفلسفية. كل هذه النواحي وغيرها، تناولها المفسرون الأول بتوسع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلي ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللهم إلا عملاً ضئيلاً لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحاً لغامضها، أو نقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحاً للرأي علي رأي، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

● مميزات التفسير في العصر الحديث:

ولقد ظل الأمر علي هذا، وبقي التفسير واقفاً عند هذه المرحلة - مرحلة الركود والجمود - لا يتعدها، ولا يحاول التخلص منها. حتي جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلي أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كان لها اعتماد كبير علي ما دونه الأوائل في التفسير - أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن تأثيراً لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل علي التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حشرت في التفسير حشراً ومزجت به علي غير ضرورة لازمة، والعمل علي تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية علي رسول الله ﷺ، أو علي أصحابه عليهم رضوان الله تعالي، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً،

يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة، علي تفاوت بين الموفقين في الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشي مع الزمن في جميع أطواره ومراحلته.. وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمي، والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذي قام علي حرية الرأي الفاسد.

● ألوان التفسير في العصر الحديث:

وعلي ضوء ما تقدم، نستطيع أن نجمل ألوان التفسير في العصر الحديث في الألوان الأربعة الآتية وهي أهمها:

أولاً: اللون العلمي.

ثانياً: اللون المذهبي.

ثالثاً: اللون الإلحادي.

رابعاً: اللون الأدبي الاجتماعي.

وسأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتفسير في العصر الحديث، علي حسب ترتيبها، وبمقدار ما استفدت من قراءتي في كتب التفسير وما يتصل به من مؤلفات جدت في هذا العصر، والله ولي التوفيق:

اللون العلمي للتفسير في عصرنا الحاضر

تكلمنا عن التفسير العلمي فيما سبق، وبيننا أن هذا اللون من التفسير كان موضع أخذ ورد بين العلماء الأقدمين، فمنهم من أيده وقال به، ومنهم من فنده ومنع منه. وقلنا: إن التفسير العلمي كان أكثر رواجاً وأعظم قبولا لدي المتأخرين وأجملنا القول في هذه النقطة الأخيرة. ووجدنا بالتوسع فيها عندما نعرض لهذه الخاتمة التي نحن بصدددها، ووفاء بوعدتي أقول:

● رواج التفسير العلمي في عصرنا الحاضر:

إن هذا اللون من التفسير - أعني التفسير العلمي الذي يرمي إلي جعل القرآن مشتملا علي سائر العلوم ما جد منها وما يجد - قد استشري أمره في هذا العصر الحديث، وراج لدي بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم وعناية بالقرآن الكريم، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت علي قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيرا من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحمّلوا القرآن كل علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح، اعتقادا منهم - كما قلنا - أن هذا بيان لناحية من أهم نواحي صدقه، وإعجازه، وصلاحيته للبقاء.

● أهم الكتب التي عنيت بهذا اللون :

ومن أهم هذه الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل، والطبيب البارع، محمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري، وهو كتاب كبير الحجم، يقع في ثلاثة مجلدات. ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧هـ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

ورسالة عبد الله باشا فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة، بالوارد في النصوص الشرعية، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ.

وبين أيدينا كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) لرجل الإصلاح الإسلامي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي، وهو عبارة عن مجموع مقالات له، نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨ هـ، وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له (الرحالة ك) وفي هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - ينحاز انحيازاً بليغاً إلي هذا اللون من ألوان التفسير، فيصف القرآن بأنه «شمس العلوم وكنز الحكم»^(١)، ويقرر بأن السر في إحجام العلماء عن تفسير قسيمي الآلاء والأخلاق من القرآن، وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو (أنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون) ، ثم يقول: (وهذه مسألة إعجاز القرآن، وهي أهم مسألة في الدين، لم يقدرُوا أن يوفوها حقها من البحث، واقتصروا علي ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحتها، وبلاغته، وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون»^(٢).

ثم نراه يأخذ في بيان اشتمال القرآن علي ما جد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن، فيقول: «إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات، لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز.. لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن علي إعجازه بصدق قوله تعالي: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].. برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان، ومثال ذلك، أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة، تعزي لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه.

وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة، والقرآن يقول: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ إلي أن يقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .. [يس: ٣٣ - ٤٠].
وحققوا أن الأرض منفتحة من النظام الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وحققوا أن القمر منشق من الأرض، والقرآن يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، ويقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضي الثقل النوعي أن تميد الأرض، أي تترج في دورتها، والقرآن يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].
وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيماوي - بل والمعنوي - ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].
وكشفوا أن للجومات حياة قائمة بماء التبلور، والقرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وحققوا أن العالم العضوي - ومنه الإنسان - ترقى من الجماد، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنين: ١٢].

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات، والقرآن يقول: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا نَبَتِ الْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٦] ويقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]، ويقول: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ويقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

وكشفوا طريقة إمساك الظل - أي التصور الشمسي - والقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥].

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، والقرآن يقول - بعد ذكره الدواب والجواري بالريح - : ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

وكشفوا وجود الميكروب وتأثيره كالجذري وغيره من المرض، والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]: أي متتابعة مجتمعة ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]: أي من طين المستنقعات اليابس .. إلي غير ذلك من

الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية، وبالقياس علي ما تقدم ذكره يقتضي أن كثيرا من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون، تجديدا لإعجازه ما دام الزمان وما كر الجديدان» (١).

وبين أيدينا كتاب (إعجاز القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعي وهو من أنصار هذه النزعة التفسيرية ومن المؤيدين لها، وفي هذا الكتاب نجد المؤلف - رحمه الله - يعقد بحثا خاصا لموضوع (القرآن والعلوم) وفيه يقرر أن القرآن (بآثاره النامية، معجزة أصلية في تاريخ العلم كله علي بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلي ما شاء الله) (٢)، ثم يستطرد إلي ذكر بعض ما نقله السيوطي في الإتيان والإكليل عن العلامة المرسي في اشتمال القرآن علي سائر العلوم، وهنا نجده يعلق استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول: (قال بعض المتأخرين: إن الميقات مشار إليه في القرآن بقوله تعالي: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥].. قال: فإن عدد ﴿رَفِيعِ﴾ بحساب الجمل ثلاثمائة وستون، وهي عدد درج الليل والنهار) ثم يقول الرافعي نفسه بعد هذا: «وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور، وتوار يخها، وأسرارها، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث» (٣).

ثم نري الرافعي - رحمه الله - يسترسل في حديثه إلي أن يقول: (وقد استخراج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلي مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه (٤). علي أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولحة، ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن، وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوي عليه أمره، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلي حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها»، ثم يقول: «وقد أشار القرآن إلي نشأة هذه العلوم إلي تمحيصها وغايتها علي ما وصفناه آنفا، وذلك قوله تعالي: ﴿سَرِّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِينَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالي: ﴿فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى،

(١) صفحة ٢٣ - ٢٥.

(٢) صفحة: ١٠٨.

(٣) صفحات ١١٣، ١١٤ (هامش) مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٩هـ.

(٤) وهنا نري المؤلف يعلق علي قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد

للكواكبي من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم.

فإن لم يكن هذا التعبر من الإعجاز الظاهر بذاهة فليس يصح في الأفهام شيء» (١).

كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، الطبيب المعروف ينحاز إلي هذا اللون من ألوان التفسير في كتابه (الإسلام والطب الحديث)، الذي جمع فيه مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر. وبين أيديها هذا الكتاب وهو مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٣٥٧ هـ، وفيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن القرآن « ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحيانا إلي سنن طبيعية ترجع إلي هذه العلوم» (٢)، كما يقرر أن كثيرا من آيات القرآن « لا يفهم شيئا من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة» (٣).

كما يؤكد أن العلم الحديث « كشف عن معني بعض الآيات، وسينكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلي الدين» (٤).

وفي هذا كما تري اتهام للصحابة ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعاني الحقيقية لبعض الآيات القرآنية، لجهلهم بهذه العلوم المستحدثة، وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله ﷺ، وسلف الأمة رضوان الله عليهم. وإذا نحن تتبعنا ما في هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأمية.

فمثلا نجده يعرض لقوله تعالى في الآية (٢٢) من سورة البقرة: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ .. تحت عنوان: (الحياة تحت ضوء القرآن).

وفيه يقول: « .. هذه الآية الكريمة معناها - والله أعلم - (وتأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان .. إلخ، أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة، وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع، لأن هذا يجب أن لا يكون سببا مهما للأفضلية...».

ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية، وما فيها من نسبة المواد الزلالية. ثم يقول: « وقد اهدت أخيرا لجنة الأبحاث بإجلترا إلي أن قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها، وفي المقدار منها الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالي:

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

ثم يقول: «إن هذه النتيجة التي لخصها القرآن الشريف - واعجب لقوله: لخصها القرآن الشريف - لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة»^(١).

وغير هذا كثير في كتاب (الإسلام والطب الحديث) مما لا نصدق أنه مراد الله من خطابه للعرب بالقرآن، وإن كان لا يتعارض - كما قلنا - مع ما ثبت من ذلك علمياً وتحققت صحته.

هذا.. وإن أعظم علماء العصر الحديث تشيعاً للنزعة التفسيرية العلمية، وأكثرهم إنتاجاً لهذا التفسير العلمي، هو المرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى، إذ أنه علي حسب ما رأينا أكثر من جمع في هذا وأطال في تفسيره (الجواهر) الذي يقع في خمسة وعشرين جزءاً كباراً، والمطبوع بمصر سنة (١٣٤١هـ - ١٣٥١هـ) ولهذا أرى أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقه مؤلفه ومنهجه الذي سلكه فيه.

* * *

(١) صفحات: ١٣-١٥.

الجواهر في تفسير القرآن الكريم (للشيخ طنطاوي جوهرى) (١)

• الدوافع التي حملت المؤلف علي كتابة هذا التفسير:

خلق الفيلسوف الإسلامي المرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى - كما يقول هو عن نفسه - «مغرماً بالعجائب الكونية معجبا بالبدايع الطبيعية، مشوقاً إلي ما في السماء من جمال، وما في الأرض من بهاء وكمال»، ثم كان منه - كما يقول - أنه لما تأمل الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية، ألقى أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعاني معرضين، وعن التفرج عليها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم وما أودع فيها من الغرائب، فدفعه ذلك إلي أن ألف كتباً كثيرة مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعل آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع، وحكم الخلق، وكان من أهم هذه الكتب كتاب (نظام العالم والأمم) و (جواهر العلوم) و (التاج المرصع) و (جمال العالم) و (النظام والإسلام) و (الأمة وحياتها) ولكنه وجد أن هذه الكتب - رغم كثرتها، وانتشارها، وترجمتها إلي اللغات الأجنبية، لم تشف غليله، فتوجه إلي ذي العزة والجلال، أن يوفقه إلي أن يفسر القرآن تفسيراً ينطوي علي كل ما وصل إليه البشر من علوم، فاستجاب الله دعاءه، وتم له ما أراد.

• متي وكيف شرع المؤلف في كتابة هذا التفسير؟

ابتدأ المؤلف هذا التفسير أيام أن كان مدرساً بمدرسة دار العلوم، فكان يلقي تفسير بعض آيات علي طلبتها. وبعضها كان يكتب في مجلة الملاجئ العباسية ثم والي سيره في التفسير حتي أخرج لنا هذه الموسوعة الكبيرة.

• غرض المؤلف من تفسيره:

ولقد أمل المؤلف - رحمه الله - من وراء هذا التفسير - كما يقول - «أن يشرح الله به قلوباً، ويهدي به أئمة، وتنشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية»، وقال «وإني لعلي رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، وينسج علي منوال هذا التفسير المسلمون، وليقرأن في مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية والبدايع الأرضية الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيتهم إلي العلا وليكونن داعياً حثيثاً إلي درس العوالم العلوية والسفلية،

(١) ولد سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وتوفي سنة ١٣٥٨هـ (١٩٤٠م) عن كتاب الأعلام للزركلي: ٣/٣٣٣، ٣٣٤. طبعة ثانية. وفي كتاب الأعلام الشرقية للأستاذ (زكي مجاهد): ١١٦/٢، ١١٧، طبع القاهرة: أنه توفي في سنة ١٣٥٩هـ (١٩٣٩م)، وفيه نظر.

وليقومون من هذه الأمة من يفوقون الفرنجية في الزراعة، والطب، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات».

● مسلك المؤلف في تفسيره:

ولقد وضع المؤلف في تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق مما يشوق المسلمين والمسلمات - كما يقول - إلي الوقوف علي حقائق معاني الآيات البينات في الحيوان والنبات، والأرض والسماوات.

هذا.. وإن المؤلف - رحمه الله - ليقرر في تفسيره أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو علي سبعمائة وخمسين آية، في حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة علي مائة وخمسين آية، كما يقرر «أن الإسلام جاء لأهم كثيرة وأن سور القرآن متممات لأمر أظهرها العلم الحديث» (١).

وكثيرا ما نجد المؤلف - رحمه الله - في تفسيره يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلي علوم الكون، ويحثهم علي العمل بما فيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات علي كثرتها، وينعي علي من أغفلها من السابقين الأولين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمر العقيدة.

نجد المؤلف يكرر هذه النعمة في كثير من مواضع الكتاب فيقول في موضع منه: «يا أمة الإسلام؛ آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعري.. لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ ولكنني أقول: الحمد لله.. الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها لازدياد في معرفة الله وهي فرض عين علي كل قادر... إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن، هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلي صراط مستقيم» (٢).

ويقول في موضع آخر: «إن نظام التعليم الإسلامي لابد من ارتقائه، فعلمو البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن، بل هي علوم لفظه، وما نكتبه اليوم علوم معناه، وانطباقها علي العلوم التي أظهرها الله في الأرض، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من

(١) رجعنا في هذا إلي مقدمة الكتاب وخاتمته وجمعناه ملخصا.

(٢) الجواهر: ١٩/٣.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] فإن البيان المذكور في سورة القيامة فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وبمعنى أنه إذا أشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والعجائب ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر في هذا التفسير وما لم يذكر، من البيان الذي أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام، فالحمد لله الذي وفق في هذا التفسير لبعض العرفان تصديقا لما ذكر الله من أن عليه البيان» (١).

ويقول في موضع آخر: «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه.. وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جدا في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة. وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة. فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة. ويجهلوا علما آياته كثيرة جدا؟ إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات.. لنقم به لترقي الأمة» (٢).

● لم يلق تفسير الجواهر قبولا لدى كثير من المثقفين:

هذه المقالات - وغيرها كثير في تفسير الجواهر - نجد أغلبها قد صدر من المؤلف في مقام الرد علي من كان يوجه إليه اللوم والاعتراض علي ما كان منه من تحمیل القرآن الكريم علوما ونظريات مستحدثة لا عهد للعرب بها، ولا صلة للقرآن بشيء منها.

ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف - رحمه الله - لاقى الكثير من لوم العلماء علي مسلكه الذي سلكه في تفسيره، مما يدل علي أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولا لدى كثير من المثقفين.

● مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر:

ولعل هذا المنزع في تفسير القرآن الكريم هو السر الذي من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، ولم تسمح بدخوله إلي بلادها، كما يجد القارئ ذلك في نص الكتاب المرسل من المؤلف إلي الملك عبد العزيز آل سعود، ملك نجد والحجاز (ص ٢٣٨ من الجزء الخامس والعشرين).

● طريقة المؤلف في هذا التفسير:

هذا وإني - بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير - أستطيع أن أعطيك صورة

واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التي سلكها فيه، وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيراً لفظياً مختصراً، لا يكاد يخرج عما في كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه لفظياً، ويدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو (لطائف) أو (جواهر). هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، أتى بها المؤلف، ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلي هذه الأبحاث ونبيه علي تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة.

ثم إننا نجد المؤلف - رحمه الله - يضع لنا في تفسيره هذا كثيراً من صور النباتات، والحيوانات، ومناظرة الطبيعة، وتجارب العلوم، بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحاً يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس.

كذلك نجد المؤلف - رحمه الله - يستشهد أحياناً علي ما يقول بما جاء في الإنجيل، واعتماده فيما ينقل علي إنجيل (برنابا) لأنه - كما يري - أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذي لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قبل. وكثيراً ما نري المؤلف - رحمه الله - يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم وهو حين ينقلها يبدي لنا رضاه عنها، وتصديقه بها، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ.

كما أنه يستخرج كثيراً من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذي لا نصدق أنه يوصل إلي حقيقة ثابتة، وإنما هي عدوي تسربت من اليهود إلي المسلمين، فتمسّط علي عقول الكثير منهم.

هذا. وإنا لنجد المؤلف - رحمه الله - يفسر آيات القرآن تفسيراً علمياً يقوم علي نظريات حديثة، وعلوم جديدة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل، ولست أري هذا المسلك في التفسير إلا ضرباً من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله.

وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

● نماذج من هذا التفسير:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٦١) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ...﴾

الآية، نجده يقول: «(الفوائد الطبية في هذه الآية) ثم يأخذ في بيان ما أثبتته الطب الحديث من نظريات طبية، ويذكر مناهج أطباء أوروبا في الطب، ثم يقول: «أو ليست هذه المناهج هي التي نحا نحوها القرآن؟ أو ليس قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ رمزا لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية علي المن والسلوي.. وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما، مع الهواء النقي والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل واللحم، والإكثار من ألوان الطعام، مع الذلة، وجوز الحكام، والجبن وطمع الجيران من الممالك، فتخطفكم في حين غفلة وأنتم لا تشعرون بمثل هذا تفسير هذه الآيات. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآيات (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾... الآيات إلي آخر القصة، نجده يعقد بحثا في عجائب القرآن وغرائبها، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر - فيما يذكر - علم تحضير الأرواح فيقول: «... وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجها، إن هذه الآية تتلي، والمسلمون يؤمنون بها، حتي ظهر علم الأرواح بأمريكا أولا، ثم بسائر أوروبا ثانيا».. ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، ثم قال أخيرا: «ولما كانت السورة التي نحن بصددنا قد جاء فيها حياة للعزير بعد موته، وكذلك حمارة، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون، فماتوا ثم أحياهم.. وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلي استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأت ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها. فلا تياسوا من ذلك، فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص علي قدم الأنبياء والمرسلين، كالعزير، وإبراهيم، وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعينة، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿فبهذا هم اقتنوه﴾ [الأنعام: ٩٠] (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿الْم﴾ نجده يعقد بحثا طويلا عنوانه: «الأسرار الكيميائية، في الحروف الهجائية، للأهم الإسلامية، في أوائل السور القرآنية» وفيه يقول: «انظر عاك الله - تأمل - يقول الله: ﴿أ. ل. م.﴾، ﴿طس﴾، ﴿حم﴾.. وهكذا يقول لنا أيها الناس؛ إن الحروف الهجائية، إليها تحلل

الكلمات اللغوية، فما من لغة في الأرض إلا وأرجعها أهلها إلي حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية، أم اللغات الأعجمية، شرقية وغربية، فلا صرف، ولا إملاء، ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلي حروفها، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون في سائر العلوم والفنون.

ولا جرم أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم، لأنها وسيلة إلي معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلي أصولها فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهي أولي بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلي أصولها الأولية التي لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلي تحليل العلوم»^(١).

ومثلاً نراه يعرض لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (٢٤) مِنْ سُورَةِ النُّورِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ..

وَقَوْلِهِ فِي الْآيَاتِ (٢٠ - ٢٢) مِنْ سُورَةِ فَصَلتْ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وَقَوْلِهِ مِنَ الْآيَةِ (٦٥) مِنْ سُورَةِ يَس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ثم يقول: «أوليس الاستدلال بآثار الأقدام، وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة، هو نفس الذي صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للإنسان: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، والقائل: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلي أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين؟ وأن هناك ما هو أفضل منها؟. وهي التي يحكم بها الله فاحكموا بها. ويكون ذلك القول لينبها ويفهمنا أن الأيدي فيها أسرار، وفي الأرجل أسرار، وفي النفوس أسرار: فالأيدي لا تشته، والأرجل لا تشته، فاحكموا علي الجانين والسارقين بآثارهم.. أو ليس في الحق أن أقول: إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها»^(٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآيتين (٥، ٦) مِنْ سَوْرَةِ طه ﴿الرَّحْمَنُ عَلِيَّ الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ * له ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ .. نجده يقول: «قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ دخل في ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمي (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعية قديماً وحديثاً، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ يشير لعلمين لم يعرفا إلا في زماننا، وهما علم طبقات الأرض، المتقدم مراراً في هذا التفسير، وعلم الآثار، المتقدم بعضه في سورة يونس.. فالله هنا يقول: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ليحرص المسلمون علي دراسة علوم المصريين التي تظهر الآن تحت الثرى» (١).

ومثلاً عند قوله تعالى في الآية (٣٠) مِنْ سَوْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ .. الآية، يقول «ها أنت قد اطلعت علي ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أن السموات والأرض - أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم - كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى، وقلنا إن هذه معجزة، لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا في هذه العصور، ألا تري أن كثيراً من المفسرين قالوا: إن الكفار في ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم، فكان جوابهم علي ذلك أنهم أخبروا به في نفس هذه الآية، فكان الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به، وذلك أن هذه الأمور لم تخلق. وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله، وها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله، علي أيدي الفرنجة، كما نطق القرآن هنا، كأنه يقول: سيرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو وإن ذكرها بلفظ الماضي فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [أول سورة النحل].. وهذه معجزة تامة للقرآن، وعجيبية من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا» (٢).

ومثلاً عند قوله تعالى في الآية (١٥) مِنْ سَوْرَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ .. نجده يقول: «والمارج المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات، وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه. فلفظ المارج يشير إلي تركيب الأضواء من ألوانها السبعة، وإلي أن اللهب مضطرب دائماً، وإنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلي أن نفوس الجان لا تزال في حاجة إلي التهذيب والتكميل. تأمل في مقال علماء الأرواح الذين

استحضروها إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة»^(١).

وعند قوله تعالى في الآية (٣٥) من السورة نفسها: ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرُونَ﴾.. يقول: «إنه عبر هنا بـ ﴿شَوَاطِئَ مِّن نَّارٍ﴾ وفيما تقدم بقوله: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، والشواطئ والمارج كلاهما اللهب الخالص، فلماذا جعل الجان مخلوقا من مارج ولم يقل من شواطئ؟ فاعلم أن المارج فيه معني الاضطراب كما تقدم.

وقد أبنت ذلك هناك، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح، وأيضا اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل.. وهذه الفكرة لم تعرف قط إلا في زماننا هذا، فإن تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط، والاطلاع علي عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة، لم يكن إلا في زماننا، وهذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف، فلا أصحاب المعلقات يدركونها، ولا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرئ القيس أو لأبي العلاء، أو المتنبي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم؟ كلا.. فهذه بلاغة لا تخطر ببالهم، وأني لهم علم الروح حتي يخصصوها بلفظ مارج؟ وعند إنزال العذاب يذكرون الشواطئ»^(٢).

ومثلا في سورة الزلزلة نجد يفسرها تفسيراً لفظياً مختصراً، ثم يذكر ما فيها من لطائف، مستعرضاً ما وقع من حوادث الزلزال في إيطاليا، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبتروول من الأرض وما كثر في هذا الزمان من استخراج الدفائن من الأرض، مثل ما كشف في مصر من آثار قدمائها، ثم يقول - بعد ما يفيض في هذا وغيره: «ألست تري أن هذه السورة - وإن كانت واردة لأحوال الآخرة - تشير من طرف خفي إلي ما ذكرنا في الدنيا؟ فالأرض الآن كأنها في حال زلزلة، وقد أخرجت أثقالها، كنوزها وموتاتها وغيرها، والناس الآن يتساءلون، وما هم أولاء يلهمون الاختراع، وما هم أولاء مقبلون علي زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة في عمل يناسبها، وكل إنسان في عمله الخاص به وينتفع به»^(٣).

ومثلا نجد بعد أن يفرغ من تفسير سورة الكوثر، وسورة الكافرون، وسورة النصر، يذكر لنا بحثاً مستفيضاً عنوانه: «تطبيق عام علي سورة الكوثر والنصر وما بينهما» وفيه نجدة يتأثر بنزعتة التفسيرية العلمية إلي درجة جعلته يحمل نصوص الشارع من

(٢) الجواهر: ٢٤/٢٧.

(١) الجواهر: ٢٤/١٧.

(٣) الجواهر: ٢٥/٢٤٩ - ٢٥١.

المعاني الرمزية ما يستبعد أن يكون مرادها لها. وذلك أنه يقرر أولاً أن هذه السور لم تكن خاصة بزمان النبوة، ولا بفتح مكة ونصر جيشها، لأن هذه الأمة كانت عند نزول هذه السور في أول عمرها، وسيطول إن شاء الله، وكم سيكون لها من فتوح وانتصارات.

ثم قال: «وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب، وورثة النبي الذي جاء منا ﷺ، ولغتنا في مصر، والشام، والعراق، وشمال إفريقيا، هي لغة القرآن فلنبن للناس بعدنا سر هذه السور، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها، خوفاً من أهل زمانهم، ولكننا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره، لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة، وقسطها من الإصلاح».

ثم أخذ يبين لنا الكوثر، وأوصاف كيزانه، وطيره، وأوصاف من سيرد عليه من المسلمين، بما جاء في الأحاديث عن رسول الله ﷺ. ثم قال - بعد هذا كله: «اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى مما يراها الذين لا يفكرون، كم أم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون، فماذا فعلوا؟ ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة، وصورة مفرحة، وبهجة وجمال. ولا نزال نري كل أمة حاضرة كفاتة. جميعهم يصيغون ما يريدون من الجمال، والحكمة والعلم، وأرقى الأمة بهيئة تسر الجمهور».

ثم يقول: «الجاهل يسمع الدر والياقوت، وشراباً أحلي من العسل، فيفرح ويعبد الله ليصل إلي هذه اللذات التي تقر بها عينه. . . والعالم ينظر فيقول: إن هذا القول وراءه حكمة ووراءه علم، لأنني أرى في خلال القول عجائب. فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء! وأي دخل لنجوم السماء هنا؟ ولماذا عبر به؟» . . . ثم يقول: «لماذا ذكر أن الذين يردون الحوض عليهم آثار الوضوء؟ ولم؟ . . . ولم؟ . . . الحق أن نبينا محمداً ﷺ يريد أمرين: أمراً واضحاً جلياً يفرح به جميع الناس، وأمراً يختص بالقواد والعظماء.

إن النبوة بأمر الله، والله جعل في أهل الأرض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر، وحكماء يستخرجون علومها، وكل لا يعرف إلا علمه، فالطبيب يشارك الفلاح في أنه يأكل، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطيبة. وهكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء في أنهم يفهمون الحوض كما فهموه، ويردونه معهم كما يردونه، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها. فماذا يقولون؟ يقولون إن النبي ﷺ يريد معاني أرقى. إن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فليس الماء الذي هو أحلي من العسل وأبيض من الثلج كل شيء هناك، ثم إن الجنة لا ظمأ فيها، وأي شيء عدد

نجوم السماء؟ ولماذا اختصت التجوم بالعدد والوضوء بالأثر؟ والذي نقوله: إن الحوض يرمز به للعلم مع بقاءه علي ظاهره، فلا المسك الإذفر، ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت، ولا حلاوة العسل الذي في ذلك الماء، ولا اتساع الحوض إلا أفانين العلم ومناظر بدائعه المختلفة المناهج، العذبة المشارب، السارة للناظرين...»، ثم يخلص من هذا كله إلي الاستدلال علي أن ما ذهب إليه من قبيل الكناية التي هي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعني الأصلي، ثم يقول - بعد بيان هذه الكناية: «.. هنا يكون النصر ولا يكون إلا بعد أن يتجافي الناس عن أفعال الملحددين والكافرين، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سنورة الكافرون. هنا يكون نصر الله والفتح، ويدخل الناس في هذه العلوم الحقيقية أفواجا. وعلي حكماء المسلمين الذين بعدنا متي نشرنا هذه الآراء العلمية وأمثالها، ورأوا المسلمين تقدموا ونصروا العلم علي الجهل في العالم الإنساني، وأصبح المسلمون قائلين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم رحمة للعالمين، متي رأي العلماء ذلك فيعلموا أن هذا هو النصر في زماننا، وهو الفتح، وإذن فعلي القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه»... إلخ^(١).

هذا هو تفسير الجواهر، وهذه نماذج منه وضعتها أمام القارئ، ليقف علي مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية علي قلم مؤلفه وقلبه.

والكتاب - كما تري - موسوعة علمية، ضربت في كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازي، فقليل عنه: «فيه كل شيء إلا التفسير» بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولي به، وإذا دل الكتاب علي شيء، فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيرا ما يسبح في ملكوت السموات والأرض بفكره، ويطوف في نواح شتي من العلم بعقله وقلبه، ليجلي للناس آيات الله في الآفاق في نواح شتي من العلم بعقله وقلبه، ليجلي للناس آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنا لكل ما جاء ويحيى به الإنسان من علوم ونظريات، ولكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث، تحقيقا لقول الله تعالي في كتابه: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].. ولكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه وقد عرفت رأينا في المسألة فلا نعيده.

● إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير:

لم يقف العلماء في هذا العصر موقف الإجماع علي قبول هذا اللون من التفسير،

بل نراهم مختلفين في قبوله والقول به، كما كان الشأن بين من سبقهم من العلماء الأقدمين...

وإذا كنا قد وجدنا من العلماء المحدثين من انحاز إلي هذه الفكرة في التفسير وتأثر بها في مؤلفاته، فإننا نجد بجوار هؤلاء أيضا كثرة من العلماء لم ترض عن هذا اللون من التفسير، ولم تستسغ أن تشرح به كتاب الله تعالى، ولم تغمض عينها أو تمسك قلمها عن رد هذه الفكرة علي أهلها وتناولهم إياها بالنقد والتفنيد.

نجد هذه المعارضة في كثير من المحاورات والاعتراضات التي وجهت إلي صاحب الجواهر، وذكرها لنا في تفسيره.

كما نجد بعض أساتذنا المعاصرين ينعون علي من يأخذ بهذه الفكرة ويقول بها، ومن بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت. فقد تناول هذا الموضوع بالبحث في العدد (٤٠٧)، (٤٠٨) من السنة التاسعة لمجلة الرسالة - إبرایل سنة ١٩٤١ - وفيه يرد علي من يذهب إلي هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة.

وهذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولي يتناول هذا الموضوع في كتابه «التفسير: معالم حياته. منهجه اليوم» وفيه يرد علي أنصار هذا المذهب في التفسير بحجج قوية واضحة، استفدنا منها كثيرا في تأييد ما اخترنا من المذهبين.

وهذا هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا. نجده في مقدمة تفسيره ينعي علي من تأثروا في تفسيرهم بنزعاتهم العلمية، فشغلوا تفاسيرهم بمباحث النحو، والفقه، ونكت المعاني، والبيان، والإسرائيليات... وغير ذلك ويعد هذا صارفا يصرف الناس عن القرآن وهديه، ثم ينعي علي الفخر الرازي ما أورده في تفسيره من العلوم الحادثة في الملة، ويعد هذا صارفا يصرف الإنسان عن القرآن وهديه، كما يتوجه بمثل هذا اللوم علي من قلد الفخر الرازي في مسلكه من المعاصرين، وأظنه أراد صاحب الجواهر وذلك حيث يقول: «وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن، هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآيات فصولا طويلة. بمناسبة كلمة مفردة كالسمااء والأرض - من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن»^(١).

وأخيرا.. فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي - رحمه الله رحمة واسعة - نجده في تقريره لكتاب (الإسلام والطب الحديث) لا يرضي عن هذا المسلك في التفسير، رغم أنه مدح الكتاب وأشاد بمجهود مؤلفه،

وذلك حيث يقول: «لست أريد من هذا - يعني ثناءه علي الكتاب ومؤلفه - أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل علي جميع العلوم جملة وتفصيلا بأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبليغ درجة الكمال جسدا وروحا وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عايشون فيه»^(١).

وفي موضع آخر يقول: «يجب أن لا نجر الآية إلي العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلي الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»^(٢). ومن هذا كله يتبين أن التفسير العلمي في العصر الحديث إن كان قد لقي قبولا ورواجا عند بعض العلماء، فإنه لم يلق مثل هذا القبول والرواج عند كثير منهم، وقد علمت فيما سبق أي الرأيين أقرب إلي الحق وأحري بالقبول

اللون المذهبي للتفسير في عصرنا الحاضر

لم يبق من الفرق المنسوبة إلي الإسلام في هذا العصر الحديث من له كيان أو شئ من الكيان - حسبما نعلم - إلا أهل السنة، والإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية، والزيدية، والإباضية من الخوارج، والبهائية من الباطنية. هذه هي الفرق التي لا تزال في اعتبارنا قائمة إلي يومنا هذا، محتفظة بتعاليمها وعقائدها التي تسير عليها من أول عهدها ومبدأ ظهورها.

وإذا كنا قد وقفنا لكل فرقة من هذه الفرق في عصورها السابقة علي عمل ظاهر في تفسير كتاب الله، وشرحه علي حسب ما تمليه عقيدة المفسر، وما يوحي به إليه، فإننا لا نعدم هذا اللون المذهبي لتفسير القرآن الكريم في هذا العصر الحديث، ولكن بمقدار ما بقي من هذه المذاهب قائما إلي هذا العصر الذي نتكلم عنه، ونتحدث عن ألوان التفسير فيه.

نعم.. بقي اللون المذهبي لتفسير القرآن الكريم قائما في هذا العصر الحديث، بمقدار ما بقي قائما من المذاهب الإسلامية.

فأهل السنة فسروا القرآن، وألفوا الكتب فيه بما يتفق وعقيدتهم، كما نري ذلك واضحا فيما خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب في التفسير.

والإمامية الإثنا عشرية فسروا القرآن وألفوا الكتب فيه بما يتمشي مع مذهبهم، ويتفق مع أهوائهم ومشاربهم، ومن أحدث كتبهم التي اطلعنا عليها في التفسير:

(٢) المرجع السابق ص ٣.

(١) الإسلام والطب الحديث ص (د).

كتاب (بيان السعادة في مقامات العبادة) للشيخ سلطان محمد الخراساني، من أهل القرن الرابع عشر الهجري، وقد سبق لنا الكلام عنه مفصلاً، وكتاب (ألاء الرحمن في تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد النجفي، المتوفي سنة ١٣٥٢ هـ، وقد سبق الكلام عنه بإيجاز عند الكلام علي أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية.

والإباضية من الخوارج فسروا القرآن وألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم ويساير مذهبهم، كما نجد ذلك في كتاب (هميان الزاد إلي دار المعاد) للشيخ محمد بن يوسف إطفيش، المتوفي سنة ١٣٢٢ هـ، وقد مر الكلام عنه أيضاً.

والبهائية من الباطنية نظروا إلي القرآن من خلال عقيدتهم، فأولوا وحرفوا كما نجد ذلك جلياً في رسائل أبي الفضائل الجرفادقاني، أحد رجال البهائية في هذا العصر.

أما الزيدية فهي وإن كانت لا تزال قائمة إلي يومنا هذا، إلا أننا لم نقف لها علي شئ في التفسير في هذا العصر الحديث.

وأما المعتزلة.. فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامها في هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومقومات، إلا أننا نرى أثراً كبيراً لتعاليمها في تفسير القرآن في العصر الحديث، كما يظهر ذلك جلياً في تفاسير الإمامية الإثنا عشرية، والإباضية، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة في هذا العصر، أضفت علي التفسير لونا مذهبياً، يقوم علي تأييد العقيدة، وخدمتها علي حساب القرآن الكريم، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيري، إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التي ذكرتها، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبي في هذا العصر.

اللون الإلحادي للتفسير في عصرنا الحاضر

مني الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون علي هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم، وكان من أهم الأبواب التي طرقوها ليصلوا منها إلي نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم علي وجوه غير صحيحة، تتنافي مع ما في القرآن من هداية، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء، وتهدف إلي ما سولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء!!

مني الإسلام بهذا من أيامه الأولي، ومني بمثل هذا في أحدث عصوره، فظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن علي غير تأويله، ويلوونه إلي ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيطة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض الخدوعين من العامة وأشباه العامة، ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

● الباعث علي هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلي ما ذهبوا إليه من أفهام زائغة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور علي قدماء المفسرين ويرميهم جميعا بالسفه والغفلة ثم طلع علي الناس بجديده في تفسير كتاب الله.. جديد لا تفره لغة القرآن، ولا يقوم علي أصل من الدين.

ومنهم من تلقي من العلم حظا يسيرا، ونصيبا قليلا، ولا يرقى به إلي مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسي أنه قل في علم اللغة نصيبه، وخف في علم الشريعة وزنه فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأي أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذي بأفهام فاسدة، تتنافي مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلي حجة، ولا تتكئ علي دليل.

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر علي عقيدة معروفة ولكنه لعبت برأسه الغواية، وتسلطت علي قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلي القرآن وهو يحمل في قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما يتفق معها، تأويلا لا يقره العقل ولا يرضاه الدين.

هؤلاء جميعا خاضوا في القرآن علي عماية، فلم يراعوا في فهمه قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلي تفسيره من باب السنة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأي الطليق.

ولولا أن الله قيض لهذا الدين رجالا يدرسونه ببصائر تنفذ إلي لبابه، ويدفعهم الإيمان والإخلاص إلي أن يبعدوا عنه هذه الخبائث، التي يراد أن تلصق به أو تنزل في

رحابه .. لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شر مستطير، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة في الأرض وفساد كبير.

وأنا إذ أعرض لهذا اللون من التفسير، لا أريد أن أذكر أحدا من أصحابه باسمه ولقبه، إذ ربما كان هذا سببا للفتنة، وباعثا علي العداوة، وكثير منهم أحياء يرزقون، ويكفي أن أضع يد القارئ علي المراجع التي أنقل عنها تفسير هؤلاء القوم، وآراءهم في القرآن الكريم، وهي مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها ويطلع عليها.

وجدنا من أصحاب هذا اللون من ألوان التفسير، رجلا يكتب بحثا طويلا تحت عنوان: (القرآن والمفسرون) وفيه يعرض لنواحي التقصير في تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالى، ويحمل عليهم حملة شديدة نكراء، ويوجه إليهم جميعا نقده الساخر، ولومه اللاذع، بدون أن يستثني منهم مفسرا واحدا علي كثرتهم، وكثرة المعتدلين منهم.

رأيناهم يتهم المفسرين جميعا بأنهم تأثروا في تفاسيرهم بعقائدهم، فأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم، في تعسف ظاهر، وتكلف غير مقبول^(١). ورأيناهم يرميهم جميعا بأنهم كثيرا ما يكتفون بذكر إسرائيلييات ليس لها سند أصلا، فضلا عن طمعهم في تصحيح هذه الأسانيد المكذوبة، ونراه يذكر لهذا الاتهام الأخير مثلا من أقوالهم في تفسير قصة أيوب عليه السلام، ثم يأخذ في تفنيد ما ذهبوا إليه، وإبطال ما قالوا به، بأدلة كثيرة ذكرها، وبعد هذا كله تناول هو قوله تعالى في الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة (ص): ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانَ يَنْصِبْ وَعِذَابٌ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَيْنِ لَأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخَذَ بِيَدِكَ ضِغْنًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

تناول الكاتب هذه الآيات، فشرحها شرحا يخالف ما ذهب إليه المفسرون جميعا، مدعيا أن ما ذهب إليه هو الذي يساير كل ما ورد من آيات القصص في القرآن، ومؤكدا أنه هو الذي يتفق مع بلاغة القرآن، وقدسية الأنبياء، فقال: «يجب أن ننظر في الآية نظرة أخري - يعني خلاف ما عليه المفسرون - تساير بها نظائرها من آيات القصص، ونحن إذا التفتنا إلي ما في هذه الآية من أن أيوب عليه السلام قد عزي النصب والعذاب للشيطان فقال: ﴿مَسْنِي الشَّيْطَانَ يَنْصِبْ وَعِذَابٌ﴾ كان ذلك مانعا كل المنع من أن يراد بالنصب والعذاب داء أصاب أيوب، وكان من نتائجه ما ذكره المفسرون .. إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه، ويوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلي الشر، وعن العزم في سبيل الغاية إلي التردد والهزيمة، وإنه ما من نبي ولا رسول إلا وقد نزل به هذا المصاب .. مصاب إعراض الناس واستهوائهم بالدعوة والداعين، وصد

الشيطان لهم عن سبيل الله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ . . . الآية [الحج: ٥٢]، وما كانت شكوي الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، ولا كان حزنهم الذي كان يبلغ أحيانا حد الإهلاك للنفس إلا لبطء في سير الدعوة إلى الله تعالى، انظر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

ولما كانت الشكوي تشعر بوهن في العزيمة، وضعف في الثقة، وعدم القوة في السير إلى الغاية، كان جواب تلك الشكايه أن قيل له: ﴿ اركض برحلك ﴾ فالمراد بالركض هنا، عقد العزيمة وتأكيدهما، واستتمام الثقة وإكمالها، والمضاء بقوة وبغير تردد ولا توان إلى الغاية، فهي كناية من أعذب الكنايات وأروعها، وهي من وادي - شمر عن ساعد الجد - شمر عن ساقيك - غير أنها أوفر منها صياغة وترفعا. إذ من المعروف المشاهد أن السائر إلى جهة بغير تردد، بل بقوة وعزيمة، تري لرجليه ضربا، وتسمع لقدميه علي الأرض وقعا، ولما كان تردد المرء في غايته ووهن عزيمته إليها وضعف ثقته بها، صداً يغشي الأرواح، ومرضا يتعب النفوس ويضايق الصدور كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلا للروح من صيدئها وشفاء للنفس من مرضها، ونفعا لغلة الصدور لذلك قال الله لرسوله أيوب: ﴿ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾، الآية كما تري ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا الركن المفهوم من قوله: ﴿ اركض ﴾ المكني به عن توثيق العزم، والأخذ بالحزم، كما هو مقتضى النظم الكريم، الجاري لقواعد اللغة، التي تأتي أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء والعين، كما يقتضيه تفسير المفسرين، إذ ليس في النظم ما يدل عليهما بأي وجه من وجوه الدلالة ولما كان أيوب عليه السلام باعتباره رسولا لا بد أن يأتمر في إخلاص الأنبياء بأمر ربه، بين الله ثمرة جهاده وصبره، ومضاء عزمه، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أي هدينا له أهله فأمنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق والإيجاد، بل هبة الهداية والإرشاد، بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذرية والولد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣]، إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهدي الله بهم، لا أن يولد لهم. ولم يتحدث القرآن عن هبة يحيى لذكريا، وإسحاق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فيهما قد تضمنت أمرين عظيمين، الأول: أنه قد ولد لإبراهيم ولذكريا عن كبر وشيخوخة ويأس وقنوط.

والثاني: أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادي.

فموضع المنة في هذا: كونهما رسولين لا كونهما ولدين.

« ثم بين الله بعد ذلك سيرة أيوب التي أمره أن يسير بها في قومه، وهي اللين في القول، والرفق في الدعوة، والعظمة بالحسني، وتلك هي الخطة التي رسمها الله لجميع

أَنْبِيَاءَهُ، انْظُرْ كَيْفَ يَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿ [طه: ٤٣ - ٤٤] ويقول لرسوله الكريم: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وبين الله ذلك فقال: ﴿وَخَذَ بِيَدِكَ ضَغْنًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ [ص: ٤٤]، أي لا ترفع في وجوه قومك رمحا ولا عصا، ولا تغلظ لهم القول، ولا تخاشنهم في الطلب، بل لوح في وجوههم بالرياحين والأزهار ولا تأثم بالغلظة والجفوة، فإنك بخفض الجناح والجدال بالتي هي أحسن تبلغ منهم ما لا تبلغه بالسيف، والعصا، والخشونة، والغلظة.. فانظر إلي ما في الآية من كناية ما أجملها وأعلاها، وما أخصبها وأرواها، وانظر كم تعطيك علي هذا الوجه من فنون البلاغة وكم تمنحك من جزالة في الأسلوب، ثم هم - يريد المفسرين - بعد ذلك يمسخونها ويشوهونها، فيجعلونها منقطعة عما قبلها، وما بعدها، فتتعلق في مرقدها، وتنبو في مضجعها، إذ يجعلونها متوقفة في فهمها علي معونة أجنبية من الكلام الذي هي فيه، وذلك من أدعي الدواعي لانحطاط الكلام عن المستوي العالي لكلام البشر، فضلا عن مستوي الإعجاز الذي يجب أن يكون عليه القرآن الكريم». «هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات، استنادا إلي ما جري عليه قصص القرآن، وتحاميا لما يترتب علي ما فسر به المفسرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام،، باعتباره نبيا رسولا، ومن منافية ذلك لحكمته السامية، وتفاديا من أن يحدثنا القرآن عن أمر عادي، وهو أن شخصا مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه.. ذلك الحديث الذي لا يتحدث به عظيم من الناس فضلا عن الله تعالي، ولا يحدث به عن رجل عادي فضلا عن أيوب الرسول الكريم»^(١).

هذا هو التفسير الصحيح في نظر صاحبه، وأحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد في الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن، ومخالف لظاهره الذي عرف منذ عهد الصحابة والتابعين، وأي شئ يقف في سبيل المعني الظاهر حتي نعدل عنه إلي مجاز أو كناية فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول؟ اللهم لا شئ إلا دعوي التجديد، والثورة علي القديم، والعمل علي هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم، ودفاعهم عن الدين.

ولا أطيل بذكر ما أفند به هذا الرأي الشاذ وما يحمله من دعاوي غير صحيحة علي المفسرين جميعا، فقد سبقني إلي هذا أحد أساتذتي الأجلاء ولست ببالغ مبلغه من العلم، ولا بات بأكثر مما أتى به في الرد علي صاحب هذا الرأي^(٢).

(١) مجلة الإيمان، العدد الثالث من السنة الثانية، سنة ١٣٥٤هـ.

(٢) صاحب الرد المفحم هو أستاذنا العلامة الشيخ محمد الحضر حسين، وقد نشره في مجلة الهداية الإسلامية - العدد العاشر والثاني عشر من المجلد السابع - والعدد الثاني والثالث والرابع من المجلد الثامن.

ووجدنا من أصحاب هذا اللون رجلا آخر دفعه حب التجديد المزيف إلي أن يساير روح الإلحاد ويجاري من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة في أحكامها وحدودها. فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوي أصحابه، فحمل الأمر فيها علي الإباحة.. وجعل الأمر في ذلك مفوضا إلي رأي ولي الأمر وحده، وهو وإن كان قد استعمل الأسلوب اللولبي فيما أبداه، وطرح الموضوع الذي عالجه في صورة سؤال ألقاه شخص خالي الذهن ليتعرف وجه الحق في المسألة، وهو وإن كان قد فعل ذلك مفضوح أمره فصدر المقال يكشف لنا عن نية صاحبه، ويفيدنا بكل صراحة أن الكاتب يريد أن يتأول آيات الحدود بحمل الأوامر الواردة فيها علي الإباحة، وإليك ما جاء في هذه المقالة لتقف علي حقيقة الأمر، ولتعرف نية الكاتب وما يهدف إليه في مقاله..

قال هذا الكاتب تحت عنوان (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي):
«قرأت في السياسة الأسبوعية الغراء مقالا بهذا العنوان^(١)، حوي أفكارا أثارت في نفسي من الرأي ما كنت أريد أن أرجئه إلي حين، فإن النفوس لم تنتهياً بعد لفتح باب الاجتهاد، حتي إذا ظهر المجتهد في هذا العصر برأي جديد، كتلك الآراء التي كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون في عصور الاجتهاد، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء والسكون، وإن بدا عليها ما بدا من الغرابة والشذوذ، لأن الناس في تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد وكانوا يألفون شذوذه وخطأه، إلفهم لصوابه وتوفيقه، أما في هذا العصر، فإن الناس قد بعد بهم العهد بالاجتهاد، حتي صار كل جديد يظهر فيه شاذا في نظرهم، وإن كان في الواقع صوابا، وما أسرعهم في ذلك إلي التشنيع والطعن في الدين، والمحاربة في الرزق، فلا يجد من يري شيئا من ذلك إلا أن يكتمه أو يظهره بين أخصائه، ممن يأمن شرهم ولا يخاف كيدهم، وتضيع بهذا علي الأمة آراء نافعة في دينها ودنياها، ولكي سأقدم علي ما كنت أريد إخفاءه من ذلك إلي حين، وسأجتهد ما أمكنني في أن لا أدع لأحد مجالا في ذلك التشنيع الذي يقف عقبة في سبيل كل جديد». ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه ثم قال:
«ولكن يبقي بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذي سنشير فيها، ليبحث في هدوء وسكون فقد نصل فيه إلي تذليل تلك العقبة التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد.. وسيكون هذا بإعادة النظر في النصوص التي وردت فيها تلك الحدود، لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة، وسأقتصر في ذلك - الآن - علي ذكر ما ورد في تلك الحدود من

(١) هذا المقال المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة (سنة ١٩٧٣).

النصوص القرآنية، وذلك قوله تعالى في حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفورٌ رحيم ﴿ [المائدة: ٣٨ - ٣٩]، وقوله تعالى في حد الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] . . فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة وهو قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾، والأمر الوارد في حد الزنا وهو قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فيهما مثل الأمر في قوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فلا يكون قطع يد السارق حدا مفروضا، لا يجوز العدول عنه في جميع حالات السرقة، بل يكون القطع في السرقة هو أقصى عقوبة فيها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلي عقوبات أخرى رادعة، ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولي الأمر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان. وهكذا في حد الزنا سواء أكان رجما أم جلدا، مع مراعاة أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج، لعدم النص عليه في القرآن الكريم، وهل لنا أن ندلل بهذا عقبة من العقوبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي، مع أنا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا ولا ألغينا حدا، وإنما وسعنا الأمر توسيعا يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عرف عنها من إثارة التيسير علي التعسير. والتخفيف علي التشديد» (١).

فأنت تري من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة علي كتاب الله، إذ أول آية السرقة وآية الزنا تأويلا غير مقبول بأي حال من الأحوال ومن ينظر إلي آية السرقة وآية الزنا لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقا، وذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾، وقوله: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ واردة في الوجوب القطع، فإن بناء الأمر بالقطع في آية السرقة علي قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾، وبناء الأمر بالجلد في آية الزنا علي قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ يصرفه عن احتمال الإباحة إلي الوجوب، وهذا لأن تعليق الحكم علي شخص، موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضي للحكم هو ذلك الوصف الذي قام بالشخص، وإذا كان ذلك الوصف جنائية مثل السرقة والزنا ووضع الشارع لهما حكما في صيغة الأمر ولم يذكر حكما غيره، لا يصح أن يقال: إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . . الآية.

(١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (فبراير سنة ١٩٣٧).

ثم إن قوله تعالى في آية السرقة: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ وقوله في آية الزنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ، وقوله ﴿وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤكد أن الأمر في الآيتين للوجوب لا للإباحة.

ثم إن هناك من سنة رسول الله ﷺ القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب في الآيتين.

فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم علي آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذي تنكره اللغة. ولا تقره السنة ولا يتفق وحكمة التشريع؟ اللهم إن هذا التأويل لا يجوز، ولهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء وأقلامهم، فقام كثير منهم بالرد علي صاحبه، وتفنيده ما ذهب إليه (١).

ولقد تنبه القائمون علي أمر الأزهر حينئذ إلي خطر هذا الرأي وما يجره علي الدين من بلاء، فجوزي صاحب المال علي ما كان منه جزاء إن كان بسيطا في حد ذاته، فهو يدل علي أن أفكار الكاتب لم تلق قبولا ولم تجد رواجا في محيط العلماء.

ووجدنا غير هذا وذلك من تأثر ببعض الآراء الفلسفية فراح ينكر بعض الحقائق الدينية الثابتة، ويتأول ما ورد منها في القرآن بما يتمشي مع مذاهب الفلاسفة، فأنكر حقيقة الشيطان، وتأول ما جاء من لفظ الشيطان في قوله تعالى في الآية (١١٧) من سورة النساء: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾، فقال ما نصه: «والمعني أن هؤلاء لم يجيبوا حين أشركوا بالله داعي العقل أو داعي الفطرة، وإنما أجابوا نزعات الشر المنبثة في العالم علي مقتضي سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير وعوامل الشر، فهم بذلك يتبعون قوة خفية أطلق عليها كلمة (شيطان) جريا علي عادة العرب المألوفة، إذ كانوا يتصورون قوي الشر شياطين تتحدق وتناجي وتغري وتدفع إلي ما تريد».

ثم قال: «هذا هو الشيطان الذي يلبي المشرك بإشراكه أمره، ويتخذة وليا يأمره وينهاه» (٢).

وفي موضع آخر (٣) نجد صاحب هذا الرأي يعود إليه فيؤكدده، ولست أدري ماذا يفعل في سياق الآية. وفي القرائن التي احتفت بها، والصفات التي انتظمتها مما يؤكد أن المراد هو إبليس، ذلك الكائن الخارجي المستقل المستتر عن أعين الناس، كما

(١) خير من رد عليه أستاذنا الشيخ محمد الخضر حسين في مجلة الهداية الإسلامية العدد السابع من المجلد التاسع (مارس سنة ١٩٣٧).

(٢) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢١ ص ١١.

(٣) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢٤.

لا أدري كيف يفعل بالأحاديث الثابتة عن الرسول ﷺ والتي تقرر أن الشيطان حقيقة لها وجود خارجي .

وأنكر بعضهم وجود عالم الجن، وتأول ما جاء من ذلك صريحاً في آيات القرآن الكريم، ففسر قوله تعالي في أول سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾... الآية، بأن الجن قبيلة من العرب (١).

وهذا تأويل ينافي صريح القرآن في مواضع كثيرة، فضلاً عن أنه لا يقوم علي دليل يصححه.

ووجدنا غير هؤلاء جميعاً رجلاً نكس علي رأسه، فطوعت له نفسه أن يخوض في تفسير كتاب الله علي ما به من غواية وعماية، وأخيراً طلع علي الناس بكتاب مختصر في تفسير القرآن الكريم، تفسيراً جمع فيه الكثير من وساوسه وأوهامه، ثم سول له الغرور أن يسميه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن).

أحدث هذا التفسير ضجة كبرى في المحيط العلمي، وقام رجال الأزهر وقعدوا من أجله، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنظر في هذا الكتاب ثم لتحكم عليه بما تري فيه، ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليه بأنه (أفك خراص، اشتهي أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفي بغرضه من الإلحاد في الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلي الحديث في شأنه وترديد سيرته).

ثم صودر الكتاب واختفي عن أعين الناس ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

قرأت ما جاء في تقرير اللجنة الأزهرية، ولكنني أردت أن أطلع علي الكتاب نفسه، فعملت كل ما أستطيع حتي استصدرت تصريحاً من دار الكتب المصرية بالاطلاع علي هذا الكتاب الذي منع من التداول بين الناس.

● حملته علي جميع المفسرين:

جاءني الكتاب وقرأت فيه، فوجدت مؤلفه قد قدم له بمقدمة عاب فيها المفسرين وكتب التفسير جميعاً فقال: «وقد بلغ الدس والحشو في التفاسير أنك لا تجد أصلاً من أصول القرآن إلا وتجد بجانبه رواية موضوعة، لهدمه وتبديله، والمفسرون قد وضعوا هذا في كتبهم من حيث لا يشعرون» (٢).

● طريقته في التفسير:

ثم قال بعد ذلك: «فهذا كله - يعني الدس والحشو في التفاسير - دعاني إلي

(١) انظر مجلة الهداية الإسلامية، المجلد الثامن، العدد الحادي عشر. (٢) صفحة (ب).

تفسيرية، وأن تكون طريقتي فيه كشف الآية، وألفاظها بما ورد في موضوعها من الآيات والسور، فيكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن، ويكون القرآن هو الذي ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله في الكون ونظامه في الاجتماع، وقد اخترت أن تكون علي عدد الآيات في المصحف لتبقي الهداية بالترتيب الذي اختاره الله، وليمكن الباحث عن معني الآية أن يلاحظ سياقها فيقرأ ما سبقها وما لحقها من الآيات ليكون علي علم تام وهداية واعظة» (١).

ولعل القارئ الكريم يلحظ كما ألاحظ أن المؤلف يرمي من وراء قوله «... ويكون القرآن هو الذي يفسر نفسه كما أخبر الله، ولا يحتاج إلي شيء من الخارج غير الواقع الذي ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله في الكون ونظامه في الاجتماع». أنه يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم، وينفي أن منزلتها منه منزلة المبين من المبين. والله تعالي يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].
ويظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم سنة رسول الله ﷺ، ولا يعترف بما لها من مكانة في تفسير القرآن الكريم، فقال مقالته السابقة كما أنه راح يهدم ما للسنة من المكانة في التشريع الإسلامي فقال في قوله تعالي في الآية (٦٣) من سورة النور: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: «يفيدك أن المخالفة المحذورة هي التي تكون للإعراض عن أمره، وأما التي تكون للرأي والمصلحة فلا مانع منها بل هي من حكمة الشوري» (٢). فأنت ترى أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة، وهذا عناد ومكابرة ومخالفة صريحة لقوله تعالي ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر: ٧] ولغير هذا من الآيات التي وزدت في وجوب طاعته - عليه السلام وهي كثيرة. ثم أي مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله ﷺ؟

هذا... ولا أريد أن أطيل بذكر ما جاء في هذا الكتاب من أباطيل وأضاليل ويكفي أن أذكر طرفا مما حواه من ذلك ليتبين القارئ أن الرجل «جامد علي المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم».

● إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:

وقف هذا الرجل من معجزات الأنبياء عليهم السلام موقفا شاذا غريبا يقوم علي إنكارها وجحدها والذهاب بها - عن طريق التأويل الفاسد - إلي أن تكون من قبيل الممكن الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، رسول أو غير رسول، وهو يصرح بهذا

في كثير من المواضع، فيقول في بعض المواضع: «وبعد هذا تعلم أن الله ينادي الناس بأنهم لا ينبغي أن ينتظروا من الرسول آية علي صدقه في دعوته غير ما في سيرته ورسالته»^(١).

وفي موضع آخر يقول: «واعلم أن آيات الله في نصر أنبيائه لا تناقض سنته في خلقه وكونه»^(٢).

وفي موضع ثالث يقول: «وقد كانت كل آياتهم حججا وبراهين من سيرتهم ورسالتهم. فلا يمكن أن يأتوا بدليل علي صدقهم من غير الدعوة ودليلها فتدبر»^(٣).

وفي موضع رابع يقول: «وإن آيتهم علي صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول، ولا بما يبطل سنته ونظامه في كونه»^(٤).

علي هذا الأساس تناول الرجل آيات المعجزات فخرج بها عن مدلولها الحقيقي الذي أراده الله تعالى.

● موقفه من معجزات عيسي عليه السلام:

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٩) من سورة آل عمران في شأن عيسي عليه السلام: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ .
نجده يقول ما نصه: ﴿كهية الطير﴾ يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلي خفة العلم ونوره، ﴿الأكمه﴾ من ليس عنده نظر، ﴿والأبرص﴾ المتلون بما يشوه الفطرة، فهل عيسي يبرئ هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحي والفكري بالهداية الدينية؟ ﴿في بيوتكم﴾ يعلمهم التدبير المنزلي»^(٥).

وإذا كان المؤلف قد تردد في معني إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسماني بالأعمال الطيبة، وبين تكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية، فإنه ليس تردد الشاك في أي الأمرين كان. وإنما هو تردد يبدو به في صراحة ووضوح ميله إلي أن المراد هو التكوين الروحي لا غير، وإنك لتجده يصرح في موضع آخر بأن المراد هو تكميل التكوين الروحي بالهداية الدينية، وذلك عندما تعرض لقوله تعالى في الآية

(١) صفحة ١٦١ .

(٢) صفحة ٢٩٠ .

(٣) صفحة ٢٩٧ .

(٤) صفحة ٢٠٦ .

(٥) صفحة ٤٥ .

(١١٠) من سورة المائدة: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ : « من هذا تعرف أن عيسى نبي أرسله الله إلي بني إسرائيل ليشفي نفوسهم، ويحيي موت قلوبهم، فأيته في دعوته وسيرته وهدايته. عاش ومات كغيره من الأنبياء في بشريته، فلم يكن خارقاً في سنته، ولا ممتازاً بما يدعو إلي ألوهيته وعبادته » (١).

كذلك تجده ينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم في المهدي وذلك حيث يؤول قوله تعالى في الآية (٤٦) من سورة آل عمران: ﴿ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ ما نصه: « في المهدي: في دور التمهيدي للحياة وهو دور الصبا، علامة علي الجراءة وقوة الاستعداد في الصغر. وكهلاً: علامة علي أنه لا يفل عزمه بالشيخوخة والكبر - ويصح أن يكون المعني: يكلم الناس الصغير منهم والكبير، علامة علي تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه » (٢).

وتأول أيضاً قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة مريم: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ فقال: « أي كان ذلك النهار ولدا صغيراً فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم فهذا ابن حرام » (٣).

ولما رأي أن قوله تعالى قبل ذلك في الآية (٢٧) : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ لا يتفق مع تأويله السابق أيضاً فقال: « تحمله علي ما يحمل عليه المسافر، ومنه تفهم أنه كان في سياحة طويلة » (٤).

● موقفه من معجزات موسى عليه السلام:

وعندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٦٠) من سورة الأعراف: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ . قال: « ويصح أن يكون الحجر اسم مكان، واضرب بعصاك الحجر، معناه: اطرقه واذهب إليه، والغرض أن الله هداه إلي محل الماء وعيونه » (٥).

وعندما تعرض لقوله في الآية (٦٣) من سورة الشعراء: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴾ قال ما نصه: ﴿ البحر الماء الواسع، ﴿ اضرب بعصاك البحر ﴾ اطرقه واذهب إليه، ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ هذا بيان لحالة البحر، يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة، راجع (١٦٠ في الأعراف)، ثم راجع (طه في ٧٧، ٧٨) ولتعرف كيف

(٣) صفحة ٢٣٩.

(٢) صفحة ٤٤.

(١) صفحة ٩٧.

(٥) صفحة ١٣١.

(٤) صفحة ٢٣٩.

اهتدي إلي طريق يبس مر منه، واقرأ استعمال الضرب في السير في قصة أيوب في (سورة ص) (١).

وفي سورة الأعراف عند قوله تعالى في الآيتين (١٠٧، ١٠٨) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٢).

وعند قوله تعالى في الآيات (١١٨ - ١٢٢) من نفس السورة ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .. إلي قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .. يقول: «يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجتهم حتي سلموا له وآمنوا به» (٣).

● موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى في الآية (٦٩) من سورة الأنبياء: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ .. إلخ، نجد ينكر أن يكون إبراهيم عليه السلام قد ألقى في النار وخرج منها سالماً، وذلك حيث يؤول الآية بما يخالف الظاهر فيقول: ومعناه نجاه من الوقوع فيها - راجع (٦٤ - المائة)، (٢٦ - النحل) وترى في الآية وباقي القصة أن الله نجاه بالهجرة وخيب تدبيرهم» (٤).

● موقفه من معجزات داود عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى في الآية (٧٩) من سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ .. يقول: ﴿يسبحن﴾ يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التي كان يسخرها داود في صناعتها الحربية، ﴿والطير﴾ يطلق علي ذي الجناح وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطائرات الهوائية» (٥).

● موقفه من معجزات سليمان عليه السلام:

وعندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٨١) من سورة الأنبياء: ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ نجد يقول: ﴿تجري بأمره﴾ الآن تجري بأمر الدول الأوروبية وإشارتها، في التلغرافات والتليفونات الهوائية .. اقرا سبأ» (٦).

وفي سورة النمل عند قوله تعالى في الآية (١٦): ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتَظِقِ الطَّيْرِ﴾ .. يقول: ﴿منطق الطير﴾ كل من يربي الطير ويؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقهم وماذا يريد، ويمكنهم أن يستعملوه في الرسائل وغيرها» (٧).

وفي قوله تعالى في الآية (١٨) من السورة نفسها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾

(١) صفحة ٢٩٠ . (٢) صفحة ١٢٦ . (٣) صفحة ١٢٦ .

(٤) صفحة ٢٥٦ . (٥) صفة ٢٥٧ . (٦) صفحة ٢٥٧ .

(٧) صفحة ٢٩٧ .

قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴿١﴾ نَجْدَهُ يَقُولُ ﴿نَمْلَةٌ﴾ قَبِيلَةٌ، ﴿النَّمْلُ﴾ قبائل الوادي» (١).

وفي قوله تعالي بعد ذلك في الآية (٢٠) من السورة أيضا ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ .. نجده يقول: ﴿الهدهد﴾ اسم طائر فهل يكون من ذوي الجناحين؟ ويكون كلامه كناية عما يحمل من رسائل؟ أم من الخيالة؟ السواري؟ أو الطيارين الآخرين؟ .. راجع الأنبياء» (٢).

وفي قوله بعد ذلك في الآيات من (٣٨ - ٤٢) من السورة نفسها: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قال عفریت من الجن أنا آتیک به قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِينٌ ﴿٣﴾ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتیک به قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿٥﴾ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿٦﴾. في هذه الآيات نراه يقول: ﴿بعرشها﴾ بملكها، يريد أن يضع خطط الحرب ونظام الدخول في البلاد، فطلب الخريظة التي فيها مملكة سبأ ليهاجمها، ويربها أنه جاد غير هازل، ﴿عفریت من الجن﴾ أحد القواد، ويظهر أنه لم يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج إلي الذي عنده علم من الكتاب ﴿من الكتابة والرسم والتخطيط﴾، ﴿قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ الغرض أنه يأتي به حالا وقد أتى به، ويحتمل أنه رسمه في الحال أو كان عنده مرسوما، ولو كان عهد الفوتوغرافيا قديما لصح أن يكون ذلك الرسم بها، وتري أن سليمان يشكر الله علي ما في المملكة من العلماء العاملين في كل فن، ونأخذ من القصة أن الله يعظم شأن العلم ويدعونا إلي التمسك بالأسباب الكونية لتشييد الملك وإقامة الدولة، ﴿وأوتينا العلم﴾ يؤيد لك أن المسألة علمية، ﴿مسلمين﴾ منقادين لله، يعني أنهم جمعوا بين العلم والتربية علي الخلق العظيم، وهذا أحسن حافظ لنظام الملك وعزة الدولة» (٣).

● موقفه من معجزة الإسراء:

وعندما تعرض لقوله تعالي في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. نجده يقول: ﴿أسرى﴾ الإسراء يستعمل في هجرة الأنبياء .. انظر (٧٧ في طه)، (١٣٨ في الأعراف) و (٥٢ في الشعراء) و (٢٣ الدخان) و (٨١ في هود)

و(٦٥ في الحج)، ثم تدبر آخر النحل وعلاقته بالإسراء: ﴿المسجد الحرام﴾ الذي له حرمة يحترم بها عند جميع الناس (٢١٧، ٢١٨ في البقرة) و(٢٥ في الحج)، ﴿المسجد الأقصى﴾ الأبعد، مسجد المدينة قد بارك الله حوله، فكان للنبي ﷺ هناك ثمرة وقوة، وكان بالإسراء الفتح والنصر فكان ذلك من آيات الله.. انظر (٢٠ يس) و(١٠٨ التوبة) ثم ارجع إلي الإسراء فاقراً إلي (٦٠، ٩٣) (١).

● إنكاره للملائكة والجن والشياطين:

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة، والجن، والشياطين، بما لا يتفق والحقائق الشرعية الثابتة.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالي في الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.. نجده يقول: ﴿للملائكة﴾ رسل النظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له.. راجع (٢٩ في البقرة)، ثم انظر (الملك في ١٥)، ﴿إبليس﴾ اسم لكل مستكبر علي الحق ويتبعه لفظ الشيطان والجان، وهو النوع المستعصي علي الإنسان تسخيره» (٢).

وعند قوله تعالي في الآية (٧١) من سورة الأنعام: ﴿قل أَدْعُو من دُون الله مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾... الآية، نجده يقول: ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ تطلق علي الحيات والثعابين، تستهوي من يتبعها ليقتلها فيهوي معها وتضله بتعرجها.. راجع (٢٧٥ في البقرة) (٣).

وعند قوله تعالي في الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾.. يقول: «يمثل لك بوصف الإنسان، النوع الهادئ صاحب الطبع الطيني الذي تشكله كما تريد، ﴿والجان﴾ النوع المتشرد صاحب الطبع الناري، إذا قاربتة يؤذيك ويغويك، ولا تستطيع أن تمسكه وتعده، والنوعان موجودان في كل أمة، فتدبر السياق من أول السورة وراجع القصة في البقرة» (٤).

وعند قوله تعالي في الآية (١٧) من سورة النمل: ﴿وَحِشْرٌ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾... يقول: ﴿الجن﴾ يطلق علي العالم الخفي والظاهر القوي، وجن كل شيء أوله ومقدمته، وجن الجيش قواده ورؤساؤه، ﴿والإنس﴾ طاعوه ومرعوسوه.. اقرأ الجن» (٥).

(١) صفحة ٢١٩ . (٢) صفحة: ٧ . (٣) صفحة ١٠٥ . (٤) صفحة ٢٠ .

(٥) صفحة ٢٩٧ .

وعند قوله تعالي في الآية (١٥٨) من سورة الصافات: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ .. يقول «الجنة أو الجن: سادتهم وكبرائهم» (١).

وعند قوله تعالي في الآيتين (٣٧، ٣٨) من سورة (ص): ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ .. نجده يقول: ﴿الشياطين﴾ يطلقون علي الصناعات الماهرين والأشقياء المجرمين، ﴿مقرنين في الأصفاد﴾ مسلوكين في القيود، ومنها تفهم أن سليمان كان يشغل المسجونين من أصحاب الصناعات للانتفاع بهم» (٢).

● إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين:

ولقد سولت للمؤلف نفسه أن يتأول بعض آيات الأحكام علي غير ما أراد الله، وعلي مقتضي هواه الذي لا يخضع لقواعد اللغة ولا لأصول الشريعة !!

● حد السرقة:

فمثلا عند قوله في الآية (٣٨) من سورة المائد: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ ... الآية، يقول: «واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطي معني التعود. أي أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعني: أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر في السرقة ولم يتعود للصوصية لا يعاقب بقطع يده، لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه» (٣).

● حد الزنا:

وعند قوله تعالي في الآية (٢) من سورة النور: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ ... الآية، نجده يقول: ﴿الزانية والزاني﴾ يطلق هذا الوصف علي المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنا وكان من عادتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد» (٤).

● تعدد الزوجات:

في الآية (٣) من سورة النساء: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ .. الآية، نجده يقول: ﴿من النساء﴾ نساء اليتامي الذين فيهم الكلام - هكذا بالأصل - لأن الزواج منهن يمنع الحرج في أموالهن، ومن هذا تفهم أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا للضرورة التي يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضررا علي المجتمع من تركه، لتعلم أن التعدد لم

(٣) صفحة ٨٨.

(٢) صفحة: ٣٥٩.

(١) صفحة ٢٥٦.

(٤) صفحة ٢٧٤.

يشرع إلا في هذه الآية بذلك الشرط السابق واللاحق ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾: (فإن خفتم ألا تعدلوا) (١).

فهو يريد أن يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامي في حجره، وأمن من نفسه عدم الجور، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقاً، ومن يطلع علي سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط في التعدد.

● التسري:

وعند قوله تعالي في نفس الآية السابقة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ﴾ .. نجده يقول: انظر آية (٢٥ : ٢٨ من النساء) (٢)

وفي الآية (٢٥) وهي قوله تعالي: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ .. يقول: «فيه عناية بالخدمات، وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات علي ذوات البيوتات، انظر (٣٣ في النور)، (٦٠ في الكهف) ثم (٣٠، ٣٦، ٤٢، ٦٣ في يوسف)، ﴿العنت﴾ الحرج: انظر (٢٢٠ في البقرة) و (٧ في الحجرات)، (١٢٨ في التوبة) و (١١٨ آل عمران) وفي هذه الآية رد علي الذين يتخذون ملك اليمين من الخدمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات، بحجة أنهن مشتريات بالمال، أو أسيرات بالحرب، فليس في الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج، مملوكة كانت أو مالكة، فتدبر ذلك في الآيات» (٣).

وفي قوله تعالي في الآيتين (٥، ٦) من سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ .. الآية، يقول: «اقرأ المعارج، والنور، وأوائل البقرة» (٤)

ثم قبال في المعارج عند قوله تعالي في الآيتين (٢٩، ٣٠): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ما نصه: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ من الخدم، فإن لهم ما ليس لغيرهم، فقد يكون في الإنسان فروج - أي عيوب ونقائص - يسيئه أن يراها الناس فيه، ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه» (٥).

فأنت تري من هذا أنه يحرم التسري، ويفسر الفروج بالعيوب، وهذا بعد عن قوانين اللغة، ومبادئ الشريعة.

● الربا:

كذلك نجد المؤلف يميل إلي أن الربا المحرم شرعا هو الفاحش فقط، ولهذا نراه عندما

(٣) صفحة ٤٥٥ .

(٢) صفحة ٦١ .

(١) صفحة ٦١ .

(٥) صفحة ٤٥٥ .

(٤) صفحة ٢٦٧ .

يعرض آيات الربا في سورة البقرة يفسر (الربا) فيقول: «الربا هو الزيادة من الربح في رأس المال، وهو معروف ومقيد بالآية (١٣٠ في آل عمران)، فإنظرها أولاً» (١) يريد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ .. ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ﴿فَلَكُمْ رِعْوَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. كل ذلك يفيدك أن الكلام في المعاملة الحاضرة، ويبشر من يتوب بأنه لا يحاسب علي ما كسبه من قبل، ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].. انظر (٣٨ في الأنفال) (٢) يريد قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ثم قال بعد ذلك عندما عرض لقوله تعالى في الآية (١٣٠) من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: ﴿الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ أي الربا الفاحش وبمعني آخر: الربح الزائد عن حده في رأس المال. وتقدره كل أمة بعرفها. راجع في جزائه أواخر البقرة، وقصة اليهود في أواخر النساء، ثم ارجع إلي (٥ في النساء و ٤٣) (٣).

● زكاة الزروع:

كذلك نجد المؤلف يذهب في زكاة الزروع مذهبا لم يقل به أحد من المجتهدين فضلا عن أنه يصادم ما جاء من السنة الصحيحة في بيان المقدار الواجب في زكاة الزروع، وذلك حيث يفسر قوله تعالى في الآية (١٤١) من سورة الأنعام: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ .. فيقول: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ يفيد أن في كل هذا الخارج من الأرض حقا لا بد من إعطائه، ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ زمن تحصيله، وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق، أمر الحاكم العام بأخذه، والعمل علي جبايته لبيت المال، وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحال» (٤).

«أقول: وليس للأمة دخل في تقدير مقررات الزكاة بعد أن قدرها الرسول عليه الصلاة والسلام، وقررها علي الأمة».

● مصارف الزكاة:

كذلك تخط المؤلف في شرحه لبعض مصارف الزكاة، وذلك حيث فسر قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة التوبة ﴿..... وفي الرقاب﴾، فقال: «في خلاصها من الاستعباد. وفي هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم، وفي الزكاة حق لهذا التعاون» (٥).

(١) صفحة ٣٧. (٢) صفحة ٣٨. (٣) صفحة ٥٣. (٤) صفحة ١١٣.

(٥) صفحة ١٥٠.

● الطلاق:

كذلك نجد المؤلف يذهب إلي أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمرا يخل بنظام العشرة، وآتيا من قبل المرأة، وذلك حيث يقول في قوله تعالى في الآية (١) من سورة الطلاق: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ ما نصه: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ بيوت الزوجية.. راجع (البقرة من ٢٢٦ - ٢٤٢)، و(الأحزاب ٤٠)، و(التحریم ٥)، و(النور ٥ - ١٠) لتعرف أن الطلاق وإن كان في يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية»^(١).

هذا بعض ما جاء في هذا الكتاب الذي هذي به صاحبه، وفيه غير هذا كثير مما يدل علي أن الرجل قد ركب متن الغواية، ومشى يخطب خطب الأعشي في مهمه متسع من الضلالة!!

وحسبى أن أكون قد أطلعت القارئ علي بعض ما جاء في هذا الكتاب ولست في حاجة إلي أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام ويفندها، فإني لست في مقام الرد والتفنيد، وإنما أنا في مقام بيان لون من ألوان التفسير في هذا العصر، وإذا كان القارئ الكريم يود أن يقف علي إبطال هذه المزاعم التي حشا بها المؤلف كتابه، فليرجع إلي قرار اللجنة الأزهرية، التي ألفت للرد علي هذا الكتاب^(٢)، وليرجع إلي ما كتبه شيخنا العلامة الشيخ محمد الخضر حسين في الجزء الثالث من رسائل الإصلاح^(٣)، ولا شك أنه سيجد فيما كتب هنا وهناك ما يكفي لأن يذهب بتلك التأويلات أدراج الرياح، وما ينادي بأن صاحب هذه التأويلات قد انحرف عن الهدى، فهوى إلي مكان سحيق ..

* * *

(١) صفحة ٤٥٥ .

(٢) العدد الثالث والرابع من المجلد الثاني من مجلة نور الإسلام (الأزهر سنة ١٣٥٠هـ).

(٣) ص ١٤٠ - ١٦٠ .

اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر

يمتاز التفسير في هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجاف الذي يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر وتلون بلون يكاد يكون جديدا وطارئا علي التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولا وقبل كل شيء علي إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآني علي ما في الكون من سنن الاجتماع، ونظم العمران.

● مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأثرها في التفسير:

وإذا كان هذا اللون الأدبي الاجتماعي يعتبر في نظرنا عملا جديدا في التفسير، وابتكارا يرجع فضله إلي مفسري هذا العصر الحديث، فإننا نستطيع أن نقول بحق: إن الفضل في هذا اللون التفسيري يرجع إلي مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير. هذه المدرسة التي قام زعيمها - ورجالها من بعده - بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالى، وهداية الناس إلي ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة. نعم.. قامت هذه المدرسة بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالى مجهود نحمد لها الكثير منه، ولا نوافقها علي بعض منه قليل.

● محاسن هذه المدرسة:

فالذي نحمده لهذه المدرسة: أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثر بالمذهب إلي الدرجة التي تجعل القرآن تابعا لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلا متكلفا وبعيدا.

كما أنها وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تشوه التفسير بما شوه به في كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التي أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرأت الطاعنين عليه!!

كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي كان لها أثر سئ في تفسير القرآن الكريم!! ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث

الموضوعة . أنها لم تخض في تعيين ما أبهمه القرآن، ولم تجرؤ علي الخوض في الكلام عن الأمور الغيبية، التي لا تعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملا ومنعت من الخوض في التفصيلات والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزا منيعا دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلي المعقول والعقائد .

كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون، التي زج بها في التفسير بدون أن يكون في حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلي حسب الضرورة فقط .

ثم إن هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجا أدبيا اجتماعيا، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومرامييه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية وتعاليم، جمعت بين خيري الدنيا والآخرة، ووفقت بين القرآن وما أثبتته العلم من نظريات صحيحة، وجلت لناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني والبشري، إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شبه علي القرآن، وفندت ما أثير حوله من شكوك وأهام، بحجج قوية قذفت بها علي الباطل فدمغته فإذا هو زاهق . . كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوي القارئ، ويستولي علي قلبه، ويحبب إليه النظر في كتاب الله ويرغبه في الوقوف علي معانيه وأسراره .

هذا ما نحمده لهذه المدرسة، ولا نستطيع أن نغمطها عليه أو نقلل من فضلها فيه .

● عيوب هذه المدرسة:

أما ما نأخذه علي هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلي المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا من جهل قدرة الله وصلاحتها لكل ممكن .

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها . وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهودا عند العرب في زمن نزول القرآن وطعنت في بعض الأحاديث: تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها

أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، في كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يستهان بها.

وما يقال من أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعاً. فيه نظر من وجوه:
الأول: أن دعوي الإجماع باطلة، فإن للعلماء أربعة أقوال في إفادة خبر الواحد العلم:

١ - يفيد الظن مطلقاً.

٢ - يفيد العلم بقرينة.

٣ - يفيد العلم من غير قرينة باطراد.

٤ - يفيد العلم من غير قرينة لا باطراد.

الثاني: إذا جرينا علي أن خبر الواحد يفيد العلم، أمكن أن تثبت به عقيدة، وإذا جرينا علي أنه يفيد الظن، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتفت به قرائن - علي المختار - لإفادته العلم حينئذ، ومن هنا جزم ابن الصلاح وغيره بأن أحاديث الصحيحين التي لم تنتقد عليهما تفيد العلم، فإن الأمة قد تلتقتهما بالقبول، وهي معصومة من الخطأ، وظن المعصوم لا يخطئ^(١).

الثالث: أنه ليس المراد من العقيدة كل ما يعتقد، وإلا لتناول ذلك الفروع الفقهية، فإنه لا يسوغ العمل بها إلا بعد اعتقاد صحة الحكم فيها، وإنما المراد بالعقائد أصولها، وهو ما كان الإخلال بها موجبا للكفر، كالإيمان بالله وباليوم الآخر. وأما الأحاديث الواردة في الحوادث الماضية، أو المستقبلية، أو المتعلقة بتفاصيل اليوم الآخر وما فيه، فلا يشترط فيها التواتر، لأن هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التي يترتب علي عدم تصديقها الكفر والعياذ بالله تعالى، ولكن يكتفي فيها بأن تكون من طريق صحيح.

● أهم رجال هذه المدرسة:

هذا.. وإن أهم رجال هذه المدرسة، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها وعميدها، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا، والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي. وهما خير من أنجبت هذه المدرسة، وخير من ترسم خطأ الأستاذ الإمام، وسار علي منهجه وطريقته في التفسير.

ولست أرى القارئ بحاجة إلي أن أترجم حياة هؤلاء الرجال الثلاثة، فالعهد بهم قريب، وليس يخفى علي من له صلة بالحركة العلمية في هذا العصر شئ من معالم حياتهم، ويكفي أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم في التفسير وعن منهجه الذي سلكه فيه، وسيقف القارئ - إن شاء الله تعالى - علي ما قلته عن هذه المدرسة، وما ذكرته لها من أثر محمود في التفسير، وما ذكرته عنها من أثر يؤخذ عليها ولا يحمد لها.

* * *

١ - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١)

● إنتاجه في التفسير :

إذا نحن ذهبنا نستقصي ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل في التفسير فإننا نجد له تفسير المشهور الجزء (عم) ذلك التفسير الذي ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعا لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء، وعاملا للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم، ولقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء في سنة ١٣٢١هـ (إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة)، ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول: «في أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف وكثرة الوجوه في الإعراب، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان» (٢).

كذلك نجد له تفسيراً مطولاً لسورة (العصر) كان قد ألقاه علي هيئة محاضرات، أو دروس علي علماء مدينة الجزائر ووجهائها في سنة ١٣٢١هـ (سنة ١٩٠٢م) (٣) - ويقول الأستاذ الإمام: إنه قرأ تفسير هذه السورة في سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة ونصف (٤).

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات، كشرحه لقوله تعالي في الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿وَإِنْ تَصِبُّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، وقوله في الآية (٧٩) من السورة نفسها: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وجمعه بينهما. وتوفيقه بين ما يظن فيهما من تناف وتضاد، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلي الله تعالي، وتارة إلي العبد.

وكشرحه لقوله تعالي في الآية (٥٢ - ٥٥) من سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ إلي قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، وإبطاله لقصة الغرانيق، وتفنيده لما بني عليها من

(١) ولد سنة ١٨٤٨، وتوفي في سنة ١٩٠٥.

(٢) مقدمة تفسر جزء (عم) صفحة ٢.

(٣) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، للشيخ محمد رشيد رضا.

(٤) تفسير المنار: ١٣/١.

تفسير يذهب بعصمة النبي ﷺ، ويرفع الأمان عن الوحي الذي تكفل الله بحفظه.

وكتفسيره لقوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخَشِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، وردة لما أُلصق بها من أحاديث باطلة، تصور النبي ﷺ بصورة الرجل الشهواني، وإبطاله لكل ما أثير حول هذه القصة - قصة زيد وزينب - من مطاعن رمي بها رسول الله ﷺ زورا وبهتانا.

وكذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف علي تلاميذه ومريديه، وكان ذلك بمشورة تلميذه السيد محمد رشيد رضا، وإقناعه به، كما يقول هو في مقدمة تفسيره (١).

وقد ابتداء الأستاذ الإمام بأول القرآن في غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ وانتهى عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٢٦) من سورة النساء: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.. وذلك في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ، إذ توفي - رحمه الله - لثمان خلون من جمادي الأولى من السنة نفسها (٢).

وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هذه الدروس في التفسير علي طلابه ولم يدون شيئا، فإننا لا نري حرجا من جعلها أثرا من آثاره في التفسير.

وذلك لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب في أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليحمله بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم قام بعد ذلك بنشر ما كتب في مجلته (النار) وكان - كما يقول هو في مقدمة تفسيره - يطلع الأستاذ الإمام علي ما أعده للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات. قال: «ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيا بالمكتوب، معجبا به» (٣).

هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام في التفسير، وهو وإن كان إنتاجا يعد قليلا بالنسبة لهذه الشخصية البارزة، إلا أنه - والحق يقال - كان له أثر بالغ في تطور التفسير واتجاهاته، كما سيظهر لك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(٢) تفسير النار: ٤/١.

(١) تفسير النار: ٤/١.

(٣) تفسير النار: ١٥/١.

● منهجه في التفسير :

كان الأستاذ الإمام هو الذي قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلي التجديد، والتحرر من قيود التقليد، فاستعمل عقله الحر في كتاباته وبحوثه، ولم يجز علي ما جمد عليه غيره من أفكار المتقدمين، وأقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقه، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم، وجمعت حوله قلوب مرديه والمعجبين به.

هذه الحرية العقلية، وهذه الثورة علي القديم، كان لهما أثر بالغ في المنهج الذي نهجه الشيخ لنفسه، وسار عليه في تفسيره.

وذلك أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدءا يسير عليه في تفسير القرآن الكريم، ويخالف به جماعة المفسرين المتقدمين. وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلي ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، وذلك لأنه كان يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله (١).

يقرر الأستاذ الإمام هذا المبدأ في التفسير، ثم يتوجه باللوم إلي المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن، وهو ما فيه من هداية وإرشاد وراحوا يتوسعون في نواح أخرى من ضروب المعاني، ووجوه النحو، وخلافات الفقه، وغير ذلك من المقاصد التي يرى الأستاذ الإمام أن الإكثار في مقصد منها « يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي » (٢).

لهذا نرى الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلي قسمين :

أحدهما : جاف مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية. قال : وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً. وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون، كالنحو، والمعاني، وغيرهما.

وثانيهما : ذهاب المفسر إلي فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، علي الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلي العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معني قوله تعالي : ﴿ وهدي ورحمة ﴾ [الأنعام : ١٥٧] ونحوهما من الأوصاف .. قال الأستاذ الإمام : « وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير » (٣)

(١) تفسير المنار: ١/ ١٧.

(٢) تفسير المنار: ١/ ١٨.

(٣) تفسير المنار: ١/ ٢٥.

هذا.. وإن الأستاذ الإمام لا يريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلا في تفسير القرآن، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسر - مثلا - من وجوه البلاغة، وضروب الإعراب بقدر ما يحتمله المعني، وعلي الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته. وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة.

ثم إننا نجد الأستاذ الإمام - وقد وضع لنفسه هذه الخطة في التفسير - يشترط شروطا لا بد من توفرها عند من يريد أن يفسر القرآن تفسيرا يحقق الغرض منه، وقد ذكرناها بجملتها عند كلامنا عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر.

● القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن:

ويري الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذي توزن به العقائد لتعرف قيمتها، ويقرر أنه يجب علي من ينظر في القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة، ويستنبط منه الرأي، وينعي علي ما كان من أكثر المفسرين، من تسلط العقيدة عليهم، ونظرتهم للقرآن من خلالها، حتي تأولوا القرآن بما يشهد لعقائدهم، ويتمشي معها، وفي هذا يقول: «إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالي، من غير أن ندخلها أولا فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن، وحشرناها فيه أولا، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون به.

» أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذي يحمل عليها. ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جري عليه المخذولون، وتاه فيه الضالون»^(١).

● كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه:

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف والتدريس، أما ناحية التأليف، فمحدودة ضيقة، كما ظهر لك فيما سبق، وأما ناحية التدريس فكانت أوسع إلي حد ما من ناحية التأليف، فقد ألقى - رحمه الله - دروسا في التفسير بالجامع الأزهر الشريف، مدة ست سنوات، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن، كما ألعنا إليه فيما تقدم.

كذلك ألقى دروسا في التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب، كما ألقى دروسا في التفسير أيضا في مساجد بيروت. في المسجد الكبير، وفي مسجد (الباشورة)^(٢) وكان من عادة الأستاذ الإمام في دروسه: أنه يراعي حال من يستمعون إليه، فإذا

حضره جماعة من البلغاء الخاملين الفكر شرح لهم المعني بكلمات قليلة، وإذا كان هناك من يتنبه لما يقول ويلقي له بالا، يفتح الله عليه بكلام كثير بهذا يحدث الأستاذ الإمام عن نفسه^(١).

ويحدثنا تلميذه السيد محمد رشيد رضا عن طريقة الأستاذ الإمام في دروس التفسير فيقول: « كانت طريقته في قراءة الدرس علي مقربة مما ارتآه في كتابه التفسير وهو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ، والإعراب، ونكت البلاغة وفي الروايات التي تدل عليها، ولا تتوقف علي فهمها الآيات»^(٢).

وكان الأستاذ الإمام يعتمد في دروسه وكتابه في التفسير علي عقله الحر وكان - كما يقول عنه بعض الكاتبين - « لا يلتزم في التفسير كتابا، وإنما يقرأ في المصحف، ويلقي ما يفيض الله علي قلبه»^(٣).

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلي كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حتي لا يتأثر بفهم غيره، وكل ما كان منه أنه إذا عرض له وجه غريب من الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة رجع إلي بعض كتب التفسير، ليري ما كتب في ذلك، وقد حدث عن نفسه بذلك فقال: «إنني لا أطلع عندما أقرأ، لكنني ربها أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب من الإعراب أو كلمة غريبة في اللغة»^(٤).

غير أننا نجد تلميذه السيد محمد رشيد رضا يذكر أن الأستاذ الإمام كان « يتوكأ في ذلك - يعني في دروسه في التفسير - علي عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرأها، أو ينتقد منها ما يراه منتقدا ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معني واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة»^(٥).

وسواء أقلنا إن الأستاذ الإمام كان يرجع إلي كتب التفسير أم لا يرجع إليها، فإنه كان يحكم عقله فيما يلقي وفيما يكتب، غير ملتفت إلي ما سبق به من أقوال في التفسير، ولا بواقف عند اعتبارات المؤلفين وأفهامهم وقوف من يخضع لها، ويسلم بها، علي ما فيها من غث وسمين.

نعم.. لم يجمد الأستاذ الإمام علي ما في كتب قدماء المفسرين، ولم يبلغ عقله أمام عقولهم، بل علي العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفي في التفسير بالنظر

(١) تفسير المنار: ١/١٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٥.

(٣) محمد عبده، لعثمان أمين ص ١١.

(٤) تفسير المنار: ١/١٤ ويظهر من سياق الكلام أن صحة العبارة (قبل أن أقرأ) كما نبه

علي ذلك في حاشية الكتاب.

(٥) تفسير المنار: ١/١٥.

في أقوال المتقدمين فيقول: «التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون، هو عبارة عن الإطلاع علي ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير، علي ما في كلامهم من اختلاف. يتنزه عنه القرآن: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وليت أهل العناية بالاطلاع علي كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معني تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب، ثم يبتثونه في الناس ويحملونهم عليه، ولكنهم لم يطلبوا ذلك، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم في طلبها، ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل.

«إن الله تعالي لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبينا الذي بين لنا ما نزل إلينا ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]..»

«يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتكم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتكم وما به أمرتم؟ وهل علمتم بإرشاد القرآن، واهتديتم بهدي النبي، واتبعتم سنته؟ عجبنا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا الإعراض عن القرآن وهديه، فيا للغفلة والغرور» (١).

كما وجدناه يعرف لنا الفهم الصحيح للقرآن فيقول: «.. وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه. لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذًا جافًا، لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان، اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر» (٢).

ومما يذكر في هذا المقام أنه «لما أبدى الأستاذ الإمام رأيا طريفا في تفسير بعض الآيات، قال له أحد المجاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل - يعني بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشي علي تفسير الجلالين - فقال الأستاذ علي الفور: إنني أقرر ما يدل عليه المعني الجليل، والكلام البليغ ولا يعنيني أوافق عليه الجمل أو الحمار» (٣).

كل هذا يدلنا علي أن الأستاذ الإمام كان حرا في تفكيره وفهمه للقرآن صريحا في نقده ونصحته للتفسير والمفسرين، جريئا في ثورته علي القديم ودعوته إلي التحرر مما أحاط بالعقول من القيود، وما أوغلت فيه من الركود والجمود.

هذا.. وإن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا بالإسرائيليات

(١) تفسير المنار: ٢٧/١.

(٢) تفسير المنار: ٢٧/١.

(٣) محمد عبده، لعثمان أمين ص ١٢٥.

فجعلوا منها شروحا لمبهمات القرآن، بل وجدناه علي العكس من ذلك نفورا منها، وشرودا من الخوض فيها، لاعتقاده أن الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهما في كتابه، ولو أراد منا ذلك لدلنا عليه في كتابه أو علي لسان نبيه، وهو يصزح بأن هذا هو « مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعي لا يتعداه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف علي سواه »^(١).

وإذا نحن تتبعنا أقواله في مبهمات القرآن وجدناه محافظا علي هذا المبدأ لا يعدل عنه ولا يحيد، إلا في مواضع قليلة نادرة.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآيتين: (١٠، ١١) من سورة الأنفطار: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ .. نجده يقول: « ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به في كتابه: أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات، ولكن ليس علينا أن نبحت عن حقيقة هؤلاء ومن أي شيء خلقوا، وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا.. وهو يبعد فهمه؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال؟ وهل الحروف والصور التي ترسم هي علي نحو ما نعهد؟ أو إنما هي أرواح تتجلي لها الأعمال فتبقي فيه بقاء المداد في القرطاس إلي أن يبعث الله الناس؟ كل ذلك لا نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه إلي الله، والذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل في عملنا، هو: أن أعمالنا تحفظ وتحصي، لا يضيع منها نكير ولا قطمير »^(٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ ... إلي آخر القصة يقول: « أما تعيين أصحاب الأخدود، وأين كانوا؟ ومن هم أولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات، والأشهر أن المؤمنين كانوا نصاري نجران، وعندما كان دينهم دين التوحيد، ليس فيه حدث ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية، غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلي أن يعرف القوم، والجهة، وخاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء، حتي يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، والأساطير المحشوة بالخرافات، وإنما الذي عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا، ولو علم الله خيرا في أكثر من ذلك لتفضل علينا به »^(٣).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآيتين (٦، ٧) من سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ .. نجده يقول: « وقد يروي المفسرون هنا حكايات

(١) تفسير المنار: ١/ ٣٢٠. (٢) تفسير جزء عم ص ٣٦. (٣) تفسير جزء عم ص ٥٩.

في تصوير إرم ذات العماد، وكان يجب أن ينزه عنها كتاب الله . فإذا وقع إليك شيء من كتبهم، ونظرت في هذا الموضوع منها، فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه» (١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآيات (٦ - ٩) من سورة القارعة ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ . . نجده يقول: «وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء في ذلك اليوم، إنما يكون علي حسب ما يعلم، لا طريقة ما نعلم، فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه علي الإيمان به، ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين: «إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله» فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتي يفوض العلم فيه إلي الله؟ والكلام فيه جراءة علي غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم، ولم يرد في الكتاب إلا كلمة (ميزان) وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لنتفجع بما نعتقد، وما عدا ذلك فعلمه إلي الله سبحانه. وقد قالوا: إن منكر الميزان بالمعني المعروف لا يكفر، إذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين، مع أن البشر اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفي ببيان الموزون. أفيأبي الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذي هدي العلم عقول البشر إلي ما هو أدق منه؟ أيأبي عالم الغيب والشهادة أن يستعمل في وزن المعاني والمعقولات إلا ذلك الميزان الذي اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة؟ علي أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف، وإنما هو معيار الأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة، وهلا يكون الأليق بالمقام الإلهي أن يكون ميزان المعاني المعقولة لديه أسمى وأعلي من أن يكون علي نمط ما يستعمله البشر، مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجروء علي القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذي تستعمله القبائل التي لم تنزل في مهده الإنسانية الأولى؟. ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار، الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب، ولا لحياة العقل من الله، وإطراقه عن أن ينظر إلي ما تشامخ من غيوب الله تعالي علمه، وتعاضمت قدرته.

«عليك أيها المؤمن المطمئن إلي ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال، ويميز لكل عمل مقداره. ولا تسل كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (٢).

● معالجته للمسائل الاجتماعية :

ثم إننا نجد الأستاذ الإمام لا يكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجاً للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض في ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التي يتكلم عنها، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها، كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يلقي به علي أسماع المسلمين وغير المسلمين، رجاء أن يعودوا إلى الصواب، ويثوبوا إلى الرشاد.

فمثلاً عندما تعرض لِقوله تعالى في الآية (٣) من سورة العصر من التفسير المطول لها: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ . . نجده يقول: « والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله، والرضا بما يكره في سبيل الحق . وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق ، وما أتى الناس من شيء مثل ما أتوا من فقد الصبر أو ضعفه . كل أمة ضعف الصبر في نفوس أفرادها . ضعف فيها كل شيء ، وذهبت منها كل قوة ، ولنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دقت النظر وجدت السبب فيه ضعيف الصبر، فإن من عرف بابا من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبراً علي التوسيع فيه، والتعب في تحقيق مسأله، وينام علي فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعباً، ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه، لاتخذهم أسوة له في عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين .

« ثم هو إذا تعلم لا يجد صبراً علي مشقة دعوة الناس إلي علم ما يعلم وحملهم علي عرفان ما يعرف، ولا جلدا علي تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متي لاقى أول معارضة قبع في بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون .

« يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه إلي حرفة أخرى يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب، ويذهب في الجهل كل مذهب، وكل هذا من ضعف الصبر .

« يبخل البخيل بماله، ويجهد نفسه في جمعه وكنزه، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها، ولا ينفق درهما في شيء منها، فيؤذي بذلك وطنه وملتته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته، ولو نظرنا إلي ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر، ولو صبر علي محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض انقاتل له ولأهله .

« يسرف المسرف في الشهوات، ويتهتك المتهتك في المنكرات، حتي ينفد المال،

وتسوء الحال، ويستبدل الذل بالعز، والفقر بالغني، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره في مقاومة الهوي، وضبط نفسه عن مواقع الردي، ولو صبر في مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله، وأفسد حاله.. وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل، وأبحث عن عللها الأولي، لوجدتموها تنتهي إلي ضعف الصبر أو فقدته، ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذي تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعا سوي الصبر، أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يخص بالذكر» (١).

ثم يبين بعد ذلك وسائل الدعوة إلي الخير فيقول: «.. يجب علي العلماء ومن يتشبه بهم، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، علي حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم، وأول ما يجب عليهم في ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، وعلم تكوين الأمم، وارتفاعها وانحطاطها، وعلم الأخلاق وأحوال النفس، وعلم الحس والوجدان ونحو ذلك مما لا بد منه في معرفة مداخل الباطل إلي القلوب، ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق، وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والأخروية، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلي جانب الخير، فإن لم يحصلوا علي ذلك كله فوزر العامة عليهم. ولا تنفعهم دعوي العجز، فإنهم ينفقون من أزمانهم في القيل والقال، والبحث في الألفاظ والأقوال ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم، وأعلام هدي ورشد، فليطلبوا العلم من سبله التي قام عليها السلف الصالح، والله كفيلا أن يمددهم بمعونته، أما وقد انقطعوا إلي ما يعجزهم عن القيام بأمره، فلن يقبل الله لهم عذرا، بل فليتربصوا حتي يأتي أمر الله.

«لو قضي الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل، وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان في الأرض ويمسحها بالطول والعرض، وأن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف علي ما فيها مما ينفعه فيستعمله، وما يخشي ضرره علي قومه فيدفعه، لوجب علي أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، ولهم في سلف الأمة من القرون الأولي. إلي نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة، وأفضل قدوة، وكل ما يهونون به علي أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هي وساوس شيطان. يشغلهم بها عن النظر في معاني القرآن، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن» (٢).

ومثلا عند قوله تعالي في الآية (١٣) من سورة الانفطار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.. نراه يوضح معني البر وما يكون به الإنسان من الأبرار، ثم يقول: فلا يعد

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٨٧ - ٨٩.

(٢) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٩٩، ١٠٠.

الشخص برا ولا بارا حتي يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالي الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات، وصيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين والمؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات، لا يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحدة منهم بشأن الدين قام أم أسقط، ارتفع أو انحط. ومع حرصه وطمعه لما في أيدي الناس، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم، لا لشيء سوي أنهم عاملوه في كسب المال وهو غير عامل، وهم يجرون علي سنة الحق وهو مستمسك بسنة الباطل، وهم يتجملون بحلية العمل وهو منها عاطل، فهؤلاء ليسوا من الأبرار، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار» (١).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في أول سورة العاديات: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا * فَوسْطُنَّ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١ - ٥]. نجد يقول: «وكان في هذه الآيات القارعات، وفي تخصص الخيل بالذكر في قوله: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفيما ورد في الأحاديث التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين علي أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل، ويبعث القادرين منهم علي قنية الخيل علي التنافس في عقائلها، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً. أفليس من أعجب العجب عندهم أن تري أما هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية، إلي أن صار يشار إلي راكبيها بينهم بالهزء والسخرية، وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلي بلاد أخري؟ أليس أغرب ما يستغرب أن أناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيال، وأبعدهم عن صفات الرجولية، حتي وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عندما كنت أكلمه في منافع بعض العلوم وفوائدها في علم الدين أن قال: «إذا كان كل ما يفيد في الدين نعلمه لطلبة العلم، كان علينا إذن أن نعلمهم ركوب الخيل!» يقول ذلك ليفحمني وتقوم له الحجة علي، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغي لطلبة العلم، وهم يقولون إن العلماء ورثة الأنبياء، فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب؟ أنصف ثم احكم» (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٣) من سورة الماعون: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَيَّ طَعَامُ الْمَسْكِينِ﴾ .. نجد يقرر: أن قوله: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَيَّ طَعَامُ الْمَسْكِينِ﴾، كناية

(١) تفسير جزء عم ص ٣٧.

(٢) تفسير جزء عم ص ١٤٢.

عن الذي لا وجود بشئ من ماله علي الفقير المحتاج إلي القوت الذي لا يستطيع له كسبا» .

ثم يقول: « وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين، ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه. وفيه حث للمصدقين بالدين علي إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهي طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت في الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله تعالي في الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الفجر: ﴿كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُونَ عَلَيَّ طَعَامَ الْمَسْكِينِ﴾، ونعمت الطريقة هي لإغاثة الفقراء، وسد شئ من حاجات المساكين» (١).

ومن أجل هذه الروح التي تسيطر علي الأستاذ الإمام في تفسيره، نجد الشيخ المراغي رحمه الله يقول: « وكانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيها تطبيق القرآن علي معارفهم» (٢).

● تفسيره للقرآن علي ضوء العلم الحديث:

كذلك نجد الأستاذ الإمام - رحمه الله - يتناول بعض آيات القرآن فيشرحها شرحا يقوم علي أساس من نظريات العلم الحديث، وغرضه بذلك: أن يوفق بين معاني القرآن التي قد تبدو مستبعدة في نظر بعض الناس، وبين ما عندهم من معلومات توشك أن تكون مسلمة عندهم، أو هي مسلمة بالفعل، وهو - وإن كان يرمي من وراء ذلك إلي غرض نبيل - يخرج أحيانا بمثل هذا الشرح والبيان عن مألوف العرب، وما عهد لديهم وقت نزول القرآن.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالي في أول سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ . . . نجده يقول: « انشقاق السماء، مثل انفطارها الذي مر تفسيره في سورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وهو فساد تركيبها، واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليه سير العالم، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأي غمام، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام، واختل نظامها حال ظهوره» (٣).

هذا التفسير من الأستاذ الإمام عمل جليل يشكر عليه، إذ غرضه من ذلك تقريب معاني القرآن وما يخبر به من عقول الناس، بما هو معهود عندهم ومسلم لديهم.

(٢) محمد عبده، لعثمان أمين ص ١٢٢ .

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٢ .

(٣) تفسير جزء عم ص ٤٩ .

ولكن هل لا بد في فساد الكون من أن يترتب علي مثل هذه الظاهرة الكونية؟ وهل يعجز الله عن إفساده وإخلاله بأمر آخر غير ذلك؟ أليس الأولي بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن، ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات كما هو مذهب الشيخ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلا، ولا يريد علي أنه لا بد منه.

ومثلا عندما يعرض لتفسير سورة الفيل، بعد أن ذكر ما قيل في إرسال الطير علي أبرهة، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذي أصابهم هو داء الجدري والحصبية يقول: «وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدري أو تلك الحصبية نشأت من حجارة يابسة سقطت علي أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن يكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالي في قهر الطاغين علي أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا علي أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا علي أن يكون له ألوان خاصة به، ولا علي معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فله جند من كل شيء.

وفي كل شيء له آية تدل علي أنه الواحد» (١)

وهنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته في مبهمات القرآن فراح يخوض في التفصيلات والجزئيات، ثم جوز أن تكون الطير هي ما يسمي اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض، وهذا ما لا نقره عليه، لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلي تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون.

وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطي لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم، فإننا نجد يغرق في هذه الحرية ويتوسع فيها، إلي درجة وصلت به إلي ما يشبه التطرف في أفكاره، والغلو في آرائه.

● موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس:

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالي في الآيات (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة:

(١) تفسير جزء عم ص ١٥٨.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ .. إلي آخر القصة، نجده يقول: « وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معني الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إتمام نبات وخلق حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك، فيه إيحاء إلي الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص، نفخة الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجادها، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكا، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسم هذه المعاني القوي الطبيعية، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة. والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه، هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن العاقل أن ينكره، إن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا، وزعم أنه لا دليل علي وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات، وإن كان المؤمن بالغيب يري للأرواح وجودا لا يدرك كنهه، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها، ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس، وكل يقرب بوجود شيء غير ما يرى ويحس، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم، ولا يصل بعقله إلي إدراك كنهه؟ وماذا علي هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب - وقد اعترف بما غيب عنه - لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره، وإن كنت لا أقدر قدره، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما يرد علي لسان صاحب الوحي، ويحظي بما يحظي به المؤمنون؟

« يشعر كل من فكر في نفسه، ووازن بين خواطره عندما بهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها علي مجلس شورى. فهذا يورد وذاك يدفع، واحد يقول أفع، وآخر يقول لا تفعل، حتي ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسبته قوة وفكرا، وهي في الحقيقة معني لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها، لا يبعد أن يسميه الله ملكا، أو يسمي أسبابه ملائكة، أو ماشاء من الأسماء، فإن التسمية لا حرج فيها علي الناس، فكيف يحجر بها علي صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ والعلم الواسع» (١).

ثم قال الأستاذ الإمام بعد ذلك (٢) «فإذا صح الجري علي هذا التفسير، فلا

(١) تفسير المنار: ١/١٦٧، ١٦٨.

(٢) غالب ما ينسب للإمام في هذا التفسير مروى بالمعني عنه.

يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلي أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوي الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوي مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعداه ولا يتعدي ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الإنسان، وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوي وتسخيرها في عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوي بالسجود الذي يفيد معني الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له، والتصرف الذي لم يعط لغيره، خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في الأرض، واستثنى من هذه القوي قوة واحدة، عبر عنها إبليس، وهي القوة التي لزمها الله بهذا العالم لزا، وهي التي تميل بالمستعد للكمال، أو بالكامل إلي النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلي العدم، أو تقطع سبيل البقاء، وتعود بالموجود إلي الفناء، أو التي تعارض في اتباع الحق، وتصد عن عمل الخير، وتنازع الإنسان في صرف قواه إلي المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته، فيصل إلي مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعدا للوصول إليها، تلك القوة التي ضللت آثارها قوما فزعموا أن في العالم إليها يسمي إله الشر، وما هي بإله، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكيمته إلا هو».

قال: «ولو أن أنفسنا مالت إلي قبول هذا التأويل، لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة علي اطمئنان القلب، وركون النفس إلي ما أبصرت من الحق»^(١).

ثم يعود في موضع آخر إلي تقرير التمثيل في القصة فيقول: «وتقرير التمثيل في القصة علي هذا المذهب هكذا: أن أخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوي هذا العالم وأرواحه، التي بها قوامه ونظامه، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره، ويعطي استعدادا في العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شئ في هذه الأرض، وانتفاعه به في استعمالها، وعرض الأسماء علي الملائكة، وسؤالهم عنها، وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدي وظيفته وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوي له، ينتفع في ترقية

الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك . وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، وإبطال داعية خواطر السوء، التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض ولولا ذلك لجاء علي الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري» (١).

والذي ينظر في هذا التأويل الذي جوزه الشيخ، وفي سياق الآية وألفاظها وما فيها من محاوراة ومقاولة، لا يسعه إلا أن يرده، وإن حاول قائله أن يروج له بجعله الأوامر التي وردت في الآية من قبيل الأمر التكويني، لا الأمر التكليفي.

● موقفه من السحر:

ولقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة في فهم القرآن الكريم أنا نجده يخالف رأي جمهور أهل السنة، ويذهب إلي ما ذهب إليه المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له، ولذلك عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٤) من سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ . . نجده بعد أن يفسر معنى النفث والعقد، يفسر المراد بالنفثات في الآية فيقول: «المراد بهم هنا هم النمامون، المقطعون لروابط الألفة، المحرقون لها بما يلحقون عليها من ضرام نائمهم، وإنما جاءت العبارة كما في الآية، لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه - مثلاً - فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوا، ليكون ذلك حلاً للعقد التي بين الزوجين. والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلي عداوة، بوسيلة خفية كاذبة، والنميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلّل الليل من يسير فيه بظلمته، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق» (٢).

● إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة:

ثم راح الشيخ - رحمه الله - يرد ما جاء من الروايات في سحر الرسول ﷺ فقال: «وقد رووا هنا أحاديث في أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، وأثر سحره فيه، حتي كان يخيل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه، وأن الله أنبأه بذلك، وأخرجت مواد السحر من بئر، وعوفي - ﷺ - مما كان نزل به من ذلك، ونزلت هذه السورة، ولا يخفي أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتي يصل به الأمر إلي أن يظن أن يفعل شيئاً وهو لا يفعله، ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية، بل هو ماس بالعقل، أخبذ بالروح، وهو مما يصدق قول المشركين فيه: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، وليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله، وخيل له أن

شيئا يقع وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، ولا يوحى إليه، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها: أن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فليزِم الاعتقاد به، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر، وقد جاء القرآن بصحة السحر، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح، والحق الصريح في نظر المقلد بدعة - ونعوذ بالله - يحتج بالقرآن علي ثبوت السحر، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه - ﷺ -، وعدة من افتراء المشركين عليه، ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقولون: إن الشيطان يلبسه عليه الصلاة والسلام، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم، وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلي لبيد، فإنه خولط في عقله وإدراكه في زعمهم .

«والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم - ﷺ -، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبت، وعدم الاعتقاد بما ينفيه، وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلي المشركين أعدائه، ووبخهم علي زعمهم هذا، فإذا هو ليس بمسحور قطعا. وأما الحديث - فعلي فرض صحته - هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها الظن والمظنون، علي أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد، إنما يحصل الظن عند من صح عنده، أما من قامت له الأدلة علي أنه غير صحيح، فلا تقوم به عليه حجة، وعلي أي حال، فلنا - بل علينا - أن نفوض الأمر في الحديث، ولا نحكمه في عقيدتنا، وتأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل، فإنه إذا خولط النبي في عقله - كما زعموا - جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئا وهو لم يبلغه، أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه، والأمر ظاهر لا يحتاج إلي بيان...» إلخ (١).

وهذا الحديث الذي يرده الأستاذ الإمام رواه البخاري وغيره من أصحاب الكتب الصحيحة، وليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة، فإن السحر الذي أصيب به عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر علي شئ من العقل، وقد قالوا إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعا من أنواع العقد عن النساء وهو الذي يسمونه (رباطا) فكان يخيل إليه أن عنده قدرة علي إتيان إحدي نساته، فإذا ما هم بحاجته عجز عن ذلك، أما السحر

الذي نفى عنه - ﷺ - فمراد به الجنون، وهو مخل ولا شك بمقام النبوة وقد قالوا ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦].

ثم إن الحديث رواية البخاري وغيره من كتب الصحيح، ولكن الأستاذ الإمام ومن علي طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره، فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري، كما أنه - لو صح في نظرهم - فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن، وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التي هي بالنسبة للكتاب في منزلة المبين من المبين، وقد قالوا: إن البيان يلتحق بالمبين، وليس هذا الحديث وحده هو الذي يضعفه الشيخ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسي، فمن ذلك أيضا حديث الشيخين: «كل بني آدم يمسسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها» .. فإنه قال فيه: «إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة»^(١).

فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له، ثم يتخلص من إرادة الحقيقة - علي فرض الصحة -، بجعل الحديث من باب التمثيل، وهو ركون إلي مذهب المعتزلة. الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له علي الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط.

وبعد .. فهذا هو إنتاج الأستاذ الإمام في التفسير، وهذا هو مسلكه ومنهجه فيه، ولعلي أكون قد أرضيت الحقيقة، ولم أتجن علي الشيخ، أو أتهمه بما هو منه برئ.

٢ - السيد محمد رشيد رضا^(٢)

● كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام:

نشأ السيد محمد رشيد رضا في طرابلس الشام، وفيها تلقى العلم عن شيوخها وعلمائها، وجلس يفيدهم بعلمه، ويرشدهم بنصحه ووعظه، وفي هذه الأثناء وقع في يده نسخة من جريدة (العروة الوثقى)، التي كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما في الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجابا شديدا، ورغب في الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغاني فلم يسعده الحظ ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ في هذه المرة، واتصل بالشيخ في رجب سنة ١٣١٥هـ وكان أول اقتراح عرضه عليه أن يكتب تفسيرا للقرآن علي نهج ما كان يكتب في جريدة (العروة الوثقى)، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروسا في التفسير

(١) تفسير المنار: ٢/٣٩٠. (٢) ولد في سنة ١٢٨٢هـ، وتوفي في سنة ١٣٥٤هـ.

بالجامع الأزهر، ولم يلبث إلا قليلا حتي قام بإلقاء دروسه في التفسير علي طلابه ومريديه .

وكان الشيخ رشيد - رحمه الله - ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم علي تلقيها وضبطها، فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب علي الناس في مجلته (المنار) ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب، وتناوله له بالتنقيح والتهذيب^(١) .

لهذا كله نستطيع أن نقول إن الشيخ رشيد هو الوارث لعلم الأستاذ الإمام، إذ أنه أخذ عنه فوعي ما أخذ، وألف في حياته وبعد وفاته، فكان لا يحيد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره . وليس غريبا ما يرويه الشيخ رشيد من أن الأستاذ الإمام - رحمه الله - كان يقول: «صاحب المنار ترجمان أفكاري»^(٢) ، كما أنه ليس غريبا ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيد بأنه «متحد معه في العقيدة، والفكر والرأي، والخلق . والعمل»^(٣) .

● إنتاج الشيخ رشيد في التفسير :

وإذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجا في التفسير، وذلك أنه كتب تفسيره المسمي بتفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار . . . ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالي في الآية (١٠١) من سورة يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ . . . ثم عالجته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله .

هذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلدا كبيرا، ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالي في الآية (٥٣) من سورة يوسف: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ . . . الآية .

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله .

هذا . . . وقد فسر الشيخ من القصص: سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص،

(١) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمة تفسير المنار: ١٠/١ - ١٥ .

(٢) الجزء الثاني صفحة ٤٩٨ .

(٣) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم في مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد بالعدد

١٢ من السنة الخامسة من مجلة نور الإسلام .

والمعوذتين، ولا نعرف له إنتاجا في التفسير أكثر من هذا وهو إنتاج لا بأس به، وفيه تتجلي روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هي المصادر، والهدف هو الهدف، والمنهج هو المنهج، والأفكار هي الأفكار، ولا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر.

● مصادره في التفسير :

أما مصادره في التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن علي فهم بعض آخر منه، خصوصا إذا تكررت الآيات في موضوع واحد، وكان يستعين أيضا بما صح عنده من بيان رسول الله ﷺ، وبما جري عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه^(١)، ومستعينا بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم، وأقوال شيخه علي الأخص، ويحدثنا بعض تلاميذه: «أنه كان لا يراجع ما يكتب في التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه في الآية، حذرا من تأثير أقوال المفسرين علي نفسه، وإذا آتاه الله فهما في القرآن لم يسبق إليه، أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلي إخوانه شاكرا، وقد يقصه علي أهل بيته مغتبطا مسرورا»^(٢).

● هدفه من التفسير :

وأما هدفه في التفسير فهو عين ما يهدف إليه الأستاذ الإمام، فإذا كان الأستاذ الإمام يصرح بأن هدفه من التفسير هو «فهم الكاتب من حيث هو دين يرشد الناس إلي ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة»^(٣). فإن صاحبنا يصرح بمثل ذلك في كثير من مواضع كتابه، فيقول بعد أن يوجه اللوم إلي من حشروا في التفسير من قواعد العلوم، ومسائل الفنون، وموضوعات الحديث، وخرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن، يقول: «إن حاجة الناس صارت شديدة إلي تفسير تتوجه العناية الأولي فيه إلي هداية القرآن علي الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه. وما أنزل لأجله، من الإنذار، والتبشير، والهداية، والإصلاح»^(٤). يريد أنه سيعمل تفسيره علي هذا النمط ليسد حاجة الناس، ويقول في موضع آخر، «إن قصدنا من التفسير بيان معني القرآن، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان»^(٥).

(١) انظر تفسير المنار: ٦/ ١٩٦.

(٢) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمن عاصم عن الشيخ رشيد من مجلة نور الإسلام السنة الخامسة العدد (١٢ سنة ١٣٥٤هـ).

(٣) تفسر المنار: ١/ ١٧. (٤) تفسير المنار: ١/ ١٠. (٥) تفسير المنار: ٤/ ٤٢.

● منهجه في التفسير:

وأما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا تقيد بأقوال المفسرين، ولا تحكم للعقيدة في نص القرآن، ولا خوض في إسرائيليات، ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلق بأحاديث موضوعة، ولا حشد لمباحث الفنون ولا رجوع بالنص إلي اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع وكشف عن المعاني بعبارة سهلة مقبولة، وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات، وبيان لهدايته، ودلالة إلي عظيم إرشاده، وتوقيف علي حكم تشريعه، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله في خليقته.

ولكنه نجد الشيخ رشيد رحمه الله - يحيد عن هذا المنهج بعض الشيء وذلك بعد وفاة شيخه، واستقلاله بالعمل، ويحدثنا هو بذلك فيقول:-

«وأنتي لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه - رحمه الله تعالي - بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء أكان تفسيراً لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلي تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حججهم علي خصومه من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيأ حلها. بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس» (١).

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذي كان من الشيخ رشيد - خصوصاً في المسائل الاجتماعية - لم يدفعه إليه إلا كونه رجلاً (صحفياً) اتصل عن طريق مجلته بالناس علي اختلاف منازعهم ومشاربهم، وفيهم المتدين، والملحد والكافر، فأراد أن يتمشي بكتابته مع الجميع، فيثبت المتدين علي دينه، ويرد الملحد عن إلحاده، ويكشف عن محاسن الإسلام، لعل الكافر أن يثوب إلي رشده ويرجع عن كفره (٢).

● آراؤه في التفسير:

أما آراؤه في التفسير فهي كآراء شيخه، تقوم علي حرية واسعة في الرأي واعتداد عظيم بالفهم، وثقة قوية بما عنده من العلم، وعدم تقيد ببعض المسلمات عند العلماء، ولهذا نجد له أفكاراً غريبة في تفسير القرآن استقل ببعض منها، وقلد شيخه في بعضها الآخر.

(١) تفسير المنار: ١/١٦.

(٢) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه في التفسير تباعاً بمجلته (المنار) ثم جمع ما كتب في كتاب واحد هو تفسيره المتداول بين أهل العلم.

● رأيه في أصحاب الكبائر:

فمثلاً عندما تعرض لقروله تعالى في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة في شأن المرابين: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.. نجده يخالف أهل السنة، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التي في درجه أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد في النار ولا يخرج منها أبداً فيقول: «أي: ومن عاد إلي ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم، الذي لا ينهاهم إلا عما يضرهم في أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلزمون بها كما يلزم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدين.

«وقد أول الخلود المفسرون، لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقهاء من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار، فقال أكثرهم: إن المراد: ومن عاد إلي تحليل الربا واستباحته اعتقاداً، ورده بعضهم بأن الكلام في أكل الربا، وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصراً علي الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد علي أكله بالفعل.

«والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء.. يجب إرجاع كل قول في الدين إليه، ولا يجوز تأويل شيء ليوافق كلام الناس، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمد، وليس هناك شبهة في اللفظ علي إرادة الاستحلال. ومن العجيب أن يجعل الرازي الآية هنا حجة علي القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار انتصاراً لأصحابه الأشاعرة وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث، أما عنه فنقول: ما كل ما يسمي إيماناً يعصم صاحبه من الخلود في النار، الإيمان إيماناً لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه. وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة في العقل بالبرهان مؤثرة في النفس بمقتضي الإذعان، حاكمة علي الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعاً لسلطانها في كل حال، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان. وليس الربا من المعاصي التي تنسي، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها في غمرة النسيان كالغيبية والنظرة، فهذا هو الإيمان الذي يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود في سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام علي كبائر الإثم والفواحش عمداً، إثارة لحب المال واللذة، عن دين الله وما فيه من الحكم والمصالح. وأما الإيمان الأول: فهو نصوري فقط، فلا قيمة له

عند الله تعالى، لأنه تعالى لا ينظر إلي الصور والأقوال، ولكن ينظر إلي القلوب والأعمال كما، ورد في الحديث، والشواهد علي هذا الذي قررناه في كتاب الله تعالى كثيرة جدا، وهو مذهب السلف الصالح، وإن جهله كثير ممن يدعون اتباع السنة حتي جرأوا الناس علي هدم الدين، بناء علي أن مدار السعادة علي الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به، حتي صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال: إنني لا أنكر أنني آكل الربا ولكنني مسلم أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد، وبأنه يرضي أن يكون محاربا لله ولرسوله، وظالما لنفسه وللناس كما سيأتي في آية أخري، فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟: نعوذ بالله من الخذلان» (١).

● تقليده لشيخه في قصة آدم:

كذلك نجد صاحب المنار يقلد شيخه في موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول:

« وهذا التفصيل مبني علي كون الأمر بالسجود للتكليف، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه وبين إبليس. وأما علي القول بأن الأمر للتكوين، وأن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين، فالمعني: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمرها بالسنن التي عليها مدار نظامها كما قال: ﴿فَالْمُدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] مُسَخَّرَةً لآدم وذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدا للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنن الله تعالى فيها، وبعلمه بمقتضي هذه السنن كخواص الماء، والهواء، والكهرباء، والنور، والأرض: معادنها، ونباتها، وحيونها، وإظهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها، ومستعدا لاصطفاء الله بعض أفرادها، واختصاصهم بوحيه ورسالته، وإقامة من اهتدي بهم لدينه وميزان شرعه، وقد أشير إلي ذلك في الآية (٣١) من سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، إلا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردا علي الإنسان بل عدواً له من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين علي طاعة الله وإقامة سنته في صلاح الخلق، وبين روح الجن الذي يغلب علي شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان. وقد أعطي الإنسان إرادة واختيارا من ربه في ترجيح ما به يصعد إلي أفق الملائكة وما به يهبط إلي أفق الشياطين» (٢).

(١) تفسير المنار: ٩٨/٣ - ٩٩، وراجع أيضا ما كتبه عن قتل العمدة: ٣٣٩/٥ - ٣٤٥.

(٢) تفسير المنار: ٣٣٢/٨.

● تذرعه بالمجاز والتشبيه:

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها، ويعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه، وذلك فيما يبدو مستبعدا ومستغربا لو أجرى علي حقيقته، وهذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، ومسلك الزمخشري وغيره من المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلا للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن، ولا تعجز عنها قدرة الله، وإن بعدت عن منال البشر.

فمثلا نجد صاحب المنار عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٤٧) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكُتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فِرْدَوْسَها عَلَىٰ أَدْبَارِها﴾... الآية، نراه يستظهر أن المعني المراد هنا هو: «آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها في كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذي جاء به الأنبياء، وقد كان لهم عند نزول الآية شيء من المكانة والمعرفة والقوة، فهذا ما نفسرها به، علي جعل الطمس والرد علي الأدبار معنويين».. ثم سرد بعض أقوال المفسرين في هذه الآية، ثم بين أن ما اختاره هو رأي شيخه الذي مال إليه في دروسه (١).

● رأيه في السحر:

ثم إن صاحب المنار لا يري السحر إلا ضربا من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله، ولهذا نراه عندما فسّر قوله تعالى في الآية (٧) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ﴾... نجده يقول: «والآية تدل علي أن السحر خداع باطل، وتخيل يري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق» (٢).

هذا.. ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ كما فعل شيخه، ولكنه تأول الحديث علي أنه كان من قبيل العقد عن النساء، وبين أن عذر من طعن في الحديث هو أن هشاما - راوي الحديث عن أبيه عن عائشة - مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل (٣).

(٢) تفسير المنار: ٣١١/٧.

(١) تفسير المنار: ١٥٤/٥، ١٤٦.

(٣) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة (تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن)

● رأيه في الشياطين:

وهو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها علي الإنسان إلا بالإغواء فقط ويقول: «كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجن علي بعض الناس، وقدرتهم علي نفعهم وضرهم، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدثهم»^(١).

● رأيه في الجن:

كما يرى أن الجن لا تري للإنسان علي أي حال من الأحوال، ويرجح أن من ادعي رؤية الجن فذلك وهم منه وتخيل ولا حقيقة له في الخارج، أولعله رأى حيوانا غريبا كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن^(٢). يقول هذا ثم يعرض في (الهامش) لذكر حديث أبي هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة وإخبار النبي له بأنه شيطان - وهو في البخاري - ولغيره من الأحاديث التي تدل علي أن الإنسان يري الجنى و يبصره، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات: «والصواب أنه ليس في هذه الروايات كلها حديث صحيح»^(٣).

بل ونجده يزيد علي ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعا من الجن. وذلك حيث يقول عندما تعرض لتفسير قوله تعالي في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .. الآية: «... المتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا تُرى، وقد قلنا في المنار غير مرة: إنه يصح أن يقال إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمي بالميكروبات، يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض»^(٤).

● رأيه في معجزات النبي ﷺ:

ولقد نجد صاحب المنار يذهب في معجزات النبي ﷺ مذهبا بعيدا، فيقرر أنه لا معجزة للنبي ﷺ غير القرآن الكريم وينكر بعض معجزاته الكونية، ويتأول ما يشهد لها من آيات، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها من الأحاديث، وما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو في نظره إكرام للنبي من ربه، وليس من قبيل المعجزة، أو الحجة علي صدق دعوته.

يذهب إلي هذا ويستدل له بمثل قوله تعالي في الآية (٥٩) من سورة

(١) تفسير سورة الناس من (مجموعة تفسير الفتحة وست سور من خواتيم القرآن)

(٢) انظر تفسير المنار: ٧/٥١٦.

(٤) تفسير المنار: ٣/٩٦.

(٣) المرجع السابق (هامش).

الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ﴾ ... الآية، وبمثل قوله عليه السلام من رواية أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

ولكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن والحديث لما ساقه من أدلة علي مدعاه فيقول: «وقد يعارضه - يعني الحديث السابق - آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشا سألوا النبي ﷺ آية علي نبوته فانشق القمر فكان فرقتين، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللا في متنها وأسانيدها، وإشكالات علمية، وعقلية، وتاريخية، فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار، وبيننا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء» (١).

وإذا كان الشيخ رشيد قد تخلص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه، فإنه قد تخلص في موضع آخر من معارضة الآية، حيث فسّر انشقاق القمر بظهور الحجة!! (٢).

● رأيه في مسائل من الفقه:

كذلك نجد صاحب المنار يعطي نفسه حرية واسعة في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، مما جعله يخالف جمهور الفقهاء، يسفههم فيما ذهبوا إليه، وإذا أردت مثالا لذلك فارجع إلي ما كتبه علي قوله تعالي في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، فستجد أنه لم يعبأ بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم هذه الآية منسوخ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواريث أو حديث: «لا وصية لوارث» الذي جنح الشافعي في الأم إلي أن متنه متواتر (٣)، فراح - رحمه الله - يؤكد بكل ما يملك من حجة: أن حكم الوصية للوالدين والأقربين باق لم ينسخ، كما راح يفند كل دليل تمسك به الجمهور. ولا أطيل بذكر ما قاله في هذا الموضوع، ويكفي أن أقول لك: إنه أنهى البحث في هذه المسألة بقوله: «وصفوة القول: أن الآية

(١) تفسير المنار: ٣٣٣/١١، وانظر الوحي الحمدي للمؤلف ص ٦٩، ٧٠ مطبعة المنار سنة

١٣٤٥ هـ.

(٢) انظر القول الفصل ص ١٦٣.

(٣) نيل الأوطار للشوكاني: ٤٠/٦، المطبعة العثمانية سنة ١٣٥٧ هـ.

غير منسوخة بآية المواريث، لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، ولا دليل علي أنها بعدها، ولا بالحديث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهي محكمة، وحكمها باق، ولك أن تجعله خاصا بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روي عن بعض الصحابة، وإن جعله علي إطلاقه، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوي النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر، ولا سيما بعد ما أكده بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وإن أردت مثالا آخر فارجع إلي ما ذهب إليه في آية التيمم من سورة النساء فستري أنه يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافرا، ويخالف بذلك جماعة الفقهاء، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء، كما ينكر علي من استشكل الآية من المفسرين، ويقول فيما يقول: «سيقول أدعياء العلم من المقلدين: نعم، إن الآية واضحة المعني، كاملة البلاغة علي الوجه الذي قررتم، ولكنها تقتضي عليه أن التيمم في السفر جائز ولو مع وجود الماء، وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا، فكيف يعقل أن يخفي معناها هذا علي أولئك الفقهاء المحققين؟ وكيف يعقل أن يخلفوها من غير معارض لظاهر ما أرجعوها إليه؟.. ولنا أن نقول لمثل هؤلاء - وإن كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له - : وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلا مشكلا؟ وأي الأمرين أولي بالترجيح؟ الطعن ببلاغة القرآن وبيانه. لحملة علي كلام الفقهاء؟ أو تجويز الخطأ علي الفقهاء، لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق للملتئم مع غيره من رخص السفر التي فيها قصر الصلاة وجمعها وإباحة الفطر في رمضان، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر في ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام في نظر الدين».

إلي أن قال: «ألا إن أعجب العجب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة في عبارة القرآن، التي هي أظهر وأولي من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر في رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام..».

ثم قال: «وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد، بطلت كل تلك التشديدات التي توسعوا في بنائها علي اشتراط فقد الماء، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه في السفر، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث» (٢).

(١) تفسير المنار: ١/١٤١.

(٢) تفسير المنار: ٥/١١٨ - ١٢٢.

● حملته علي بعض المفسرين:

هذا: . ولا يفوتنا أن نقول: إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحيانا قدماء المفسرين، خصوصا الفخر الرازي منهم، مع قسوة منه عليهم في الكثير الغالب^(١).

● حملته علي البدع والخرافات:

كما أنه كان كثير الاستطراد إلي تتبع بدع المسلمين والكشف عن عوارها والإرشاد إلي علاجها، مع تشدد وتعسف منه في كثير من الأحيان.

● شرحه لمبهمات القرآن بما جاء في التوراة والإنجيل:

كذلك لا يفوتنا أن ننبه علي أن صاحب المنار كان مع شدة لومه علي المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحا لكتاب الله، يخوض هو أيضا فيما هو من هذا القبيل ويتخذ منه شروحا لكتاب الله، وذلك أنه كثيرا ما ينقل عن الكتاب المقدس أخبارا وآثارا يفسر بها بعض مبهمات القرآن، أو يرد بها علي أقوال بعض المفسرين^(٢)، وكان الأجدر بهذا المفسر الذي يشدد النكير علي عشاق الإسرائيليات، أن يكف هو أيضا عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصا وهو يعترف أنه قد تطرق إليها التحريف والتبديل.

● دفاعه عن الإسلام:

وأخيرا فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل، وقد استعمل في ذلك لسانه وقلمه، وضمنه مجلته وتفسيره، وتلك مزية للرجل يحمد عليها، ولا ننسي ما له من أفكار جريئة ومتطرفة.

* * *

(١) انظر ما عقب به علي الزمخشري وغيره من المفسرين الذين فسروا (الركون): بالميل اليسير في قوله تعالي في الآية (١١٣) من سورة هود: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

(٢) انظر ما نقله عن الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج عن التابوت وما حواه (٤٨٢/٢، ٤٨٣) واستشهاده علي ما فسره به استجابة الله لدعاء موسى وهارون حيث قال: كما جاء في الآيتين (٨٨، ٨٩) من سورة يونس: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا * .. الآية، بما جاء في سفر الخروج (٤٧٤/١١).

٣ - الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي (٢)

● الأستاذ المراغي في مدرسة الشيخ محمد عبده:

لم نعرف من رجال هذه المدرسة رجلا تأثر بروح الأستاذ الإمام، ونهج علي طريقتة من التجديد واطراح التقليد، والعمل علي تنقية الإسلام من الشوائب التي ألصقت به، وتنبيه الغافلين عن هديه وإرشاده، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي عليه رحمة الله ورضوانه.

تربي هذا الرجل في مدرسة الأستاذ الإمام، وتخرج منها وهو يحمل بين جنبيه قلبا مليئا بالرغبة في الإصلاح، والثورة علي كل ما يقف في سبيل الإسلام والمسلمين. هذا القلب الفتى، العامر بما فيه من حب للخير ورغبة في الإصلاح دفع بالرجل إلي ميدان الحياة الاجتماعية، وترقي به في مراتب المناصب الدينية، وأخيرا وقف به عند الغاية، فإذا بالرجل شيخا للأزهر، وإذا بروح الإصلاح والتجديد تتدفق من فوق منبره، وعلي قلوب طلابه وغير طلابه، ثم تنساب جارية إلي نواح من الحياة مختلفة، فتعمل فيها عمل السحر، والحياة والنور.

لم يلازم الشيخ المراغي أستاذه الإمام ملازمة طويلة كما لازمه الشيخ رشيد، ولم يجلس إليه كثيرا مثلما جلس، ولكنه كان علي رغم ذلك أعمق أثرا وأكثر تحقيقا لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الإصلاح وصنوف التجديد، والسرفي ذلك - كما يظهر لنا - هو تقلب الشيخ في مختلف المناصب الدينية الكبيرة، ثم ما كان فيه من جاذبية وقدرة علي استجلاب قلوب سامعيه واستمالتها إليه، مما أجلس بين يديه الملك، والأمير، والوزير، والشيخ الكبير، والطالب الصغير، ورجل الشارع.

جلس هؤلاء جميعا يستمعون إليه ويأخذون عنه، فكان الميدان فسيحا أمام الشيخ، يلقي فيه بآرائه وأفكاره، فتجد الدعوي قبولاً من مستمعيه، ورواجا عند مريديه.. ثم لا تلبث أن تنتشر فتعم كل شيء.

وإذا كان كتاب الله هو الدستور الذي شرعه الله تعالي للأمة الإسلامية، وجعل فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، فلم لا يكون هو الباب الذي يصل منه الشيخ إلي ما يرجوه من خير، وما يهدف إليه من إصلاح.

● إنتاجه في التفسير:

طرق الشيخ هذا الباب، فعقد دروسا دينية في تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس علي اختلاف طبقاتهم، من الملك إلي رجل الشارع كما قلت، وأذعيت هذه الدروس أيضا في كثير من ممالك الأرض، ودول الإسلام، وأخيرا طبعت هذه الدروس، ووزعت علي الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها.

(١) ولد في سنة ١٨٨١، وتوفي في سنة ١٩٤٥.

لم تكن هذه الدروس علي شئ من الكثرة، ولم يكن مقدار ما تناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير، الذي كنا نرغب ونطمع في أن تزود به المكتبة الإسلامية.

نعم.. لم تتناول هذه الدروس من آيات القرآن إلا مقداراً قليلاً، وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإننا لا نجدُه أكثر من شرحه لقوله تعالى في الآية (١٧٧) من سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾... إلي قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١).

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (١٣٣-١٣٨) من سورة آل عمران ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾... إلي قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

وشرحه لقوله تعالى في الآيتين (١٣، ١٤) من سورة الشوري: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾... إلي قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَرِيْبٌ﴾ (٣).

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (١٥١-١٥٣) من سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾.. إلي قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٤).

وشرحه لقوله تعالى في الآيات (١٨٣-١٨٦) من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾... إلي قوله: ﴿وَلِيُؤْمِنُوا بِبِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٥).

وشرحه لقوله تعالى في الآيات: (٢٤-٢٩) من سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾... إلي قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٦).

وشرحه لسورة الحجرات (٧)، وشرحه لسورة الحديد (٨)، وشرحه لسورة لقمان (٩).

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيري بالإسكندرية في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٢) ألقى هذا الدرس بمسجد الحسين بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٣) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان أبي العلاء بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٤) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان الحنفي بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٥) ألقى هذا الدرس بمسجد السيدة زينب بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٦) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيري بالإسكندرية في رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

(٧) في دروس ثلاثة في شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ.

(٨، ٩) ألقى تفسير هذه السورة في رمضان سنة ١٣٥٩، ١٣٦٠هـ.

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (١٦٥ - ١٦٠) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا﴾... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ (١).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (٢٠٦ - ١٩٩) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ (٢).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (٣٤ - ٣٠) مِنْ سُورَةِ فَصَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾... إِلَى قَوْلِهِ ﴿كَانَ وَلِيًّا حَمِيمًا﴾ (٣).

وشرحه لِأَوَائِلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ (٩): ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلَمُونَ﴾ (٤).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (١٢٣ - ١٢٢) مِنْ سُورَةِ هُودٍ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ (٥).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَتَيْنِ (٥٨، ٥٩) مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٦).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٧) مِنْ سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقُدْرَتِهَا﴾... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٧).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (٨٣ - ٨٨) مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ (٨).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (١٠ - ١) مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قَصُورًا﴾ (٩).

وشرحه لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ (٦٣ - ٧٧) مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ أَيْضًا: ﴿وَعِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (١٠).

(١) ألقى تفسيرها في رمضان سنة ١٣٦١هـ.

(٢) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦١هـ.

(٣) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٢هـ.

(٤) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٢هـ.

(٥) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٦) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٧) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٨) ألقى هذا التفسير في رمضان سنة ١٣٦٣هـ، وقد قدم شرحه لهذه الآيات بالكلام عن

قصة قارون مع قومه وبين موضع العبرة فيها.

(٩) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٣٦٠هـ.

(١٠) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٣٥٩هـ.

وشرحه لسورة العصر^(١). وشرحه لسورة الملك^(٢). هذا هو كل ما للأستاذ المراغي - رحمه الله - من إنتاج في التفسير، وهو علي قلبه عمل كبير وعظيم، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح، وما يحمل في طياته من توجيه حسن في التفسير.

وحسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثير من المسلمين إلي القرآن بعد أن أعرضوا عن هديه، وضلوا عن إرشاده، وتلك حسنة نرجو له برها وذخرها عند الله.

● منهجه في التفسير:

يتتبع الإنسان إنتاج الأستاذ الأكبر في التفسير، ويستقصي ما عرض له من آيات القرآن الكريم، فيلاحظ أن الشيخ - رحمه الله تعالى - كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلي فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمتة وما تظهر فيه وسائل هداية البشر، ومواضع العظة والعبرة، كما يلحظ أيضا أنه وجه جانبا كبيرا من عنايته إلي الآيات التي يجمعها وقضايا العلم الحديث صلة القربي، ليظهر للناس أن القرآن لا يقف في سبيل العلم، ولا يصادم ما صح من قواعده ونظرياته، وذلك بما يهديه الله إليه من الدقة في التوفيق بين قضايا القرآن، وقضايا العلم الحديث.. دقة لا يبلغ شأوها ولا يدرك خطرها إلا من شغل نفسه، وكد فهمه في هذا السبيل.

● مصادره في التفسير:

وأعتقد أن الشيخ - رحمه الله - كان يستند في تحضير دروسه علي كتاب الله تعالى بجمع ما كان من الآيات في موضوع واحد، لعل ما أجمل في موضع فسر في موضع آخر، وما أبهم في آية بين في آية أخرى، وكان يستند أيضا إلي ما صح من بيان الرسول ﷺ، وبيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ثم علي أساليب اللغة وسنن الله في الكون، ثم علي ما كتبه قدماء المفسرين، ولكنه لم يبلغ عقله في هذا كله، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره، ويعرض ما فيها علي قلبه وعقله، فما أعجبه منها أقره، وما لم يطمئن إليه نبذه وأعرض عنه.

لم نسمع عن الأستاذ المراغي - رحمه الله - أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولا فيما كتبه المفسرون، ولم يبلغنا عنه أنه ادعي لنفسه أنه أتى بما لم يأت به الأوائل في التفسير، بل علي العكس من ذلك وجدناه يعترف بالفضل للأقدمين، ولا ينسي ما

(١) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٣٦١هـ.

(٢) وهو آخر دروسه في التفسير رحمه الله، إذ توفي في رمضان سنة ١٣٦٤هـ، ولم يقع لنا تفسير هذه السورة، وقد اعتمدت فيما نقلته عنه فيها علي ما سمعته بنفسه من دروسه في تفسيرها.

كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود، وذلك حيث يقول عن تفسيره: «ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين، وزهرات من رياضهم» (١).

لم يتحامل الشيخ - رحمه الله - علي المفسرين كما تحامل غيره، ولم يرم في وجوههم بالعبارات القاذعة، اللاذعة بل كان عفا في نقده، نزيها في عبارته، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء، وبخاصة مع أسلافنا ومتقدميهم.

● موقفه من مبهمات القرآن:

هذا .. وإن الأستاذ المراغي - رحمه الله - قد نهج في تفسيره منهج شيخه، فوجدناه لا يخوض في مبهمات القرآن بالتفصيل، ولا يدخل في جزئيات سكت عنها القرآن، وأعرض عنها الرسول ﷺ، فلا الروايات الموضوعة أو الضعيفة بكافية عنده حتي يزج بها في تفسيره، ولا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه، حتي يجعل منها شروحا لما أجمله القرآن وسكت عن تفصيله، فلهذا نراه عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . نجده يقول بعد أن ينتهي من تفسير الآية ما نصه: «والآية تدل بظاهرها علي أن الجنة مخلوقة الآن، لأن الفعل الماضي يفهم هذا. غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا يدل علي خلقها الآن، والبحث في هذا لا فائدة له، ولا طائل تحته» (٢).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٣) من سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ .. الآية، وجدناه يقول: « .. ونحن لا نعلم ما هو الذي فرضه الله علي الأمم السابقة من قبل أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس؟ أم غيره؟ وليس لنا ما يهدينا إلي شيء معين من دليل يطمئن إليه القلب. والتشبيه لا يدل علي المماثلة في كل شيء، فنحن نؤمن بأن صوما فرض علي الأمم السابقة، لا نعلم مقداره ولا كلفيته. ولا يزال الصوم معروفا عند الأمم الأخرى علي أوضاع مختلفة» (٣).

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٢) من سورة لقمان: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ .. الآية، وجدناه يقول ما نصه «اختلف الناس في لقمان هذا هو من هو؟ ومن أي الأمم هو؟ فقيل: إنه من بني إسرائيل، وقيل: إنه كان عبدا حبشيا. وقيل: إنه أسود من السودان مصر. وقيل: إنه يوناني. ومن الناس من

(١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد.

(٢) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨م.

(٣) ص ٦ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ، مطبعة الأزهر سنة ١٩٣٩م.

جعله نجارا، ومنهم من جعله راعي غنم، ومنهم من قال إنه نبي، ومنهم من قال إنه حكيم، وكل هذه أقوال ليس لها سند يعزل عليه، وبعد أن وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيا مملوكا» (١).

● عنايته بإظهار أسرار التشريع:

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم في تفسيره اهتماما كبيرا بإظهار سر التشريع الإسلامي، وحكمة التكليف الإلهي، ليظهر محاسن الإسلام، ويكشف عن هدايته للناس.

فمثلا عندما تعرض لآيات الصوم في سورة البقرة، نجده يفيض في سر الصوم وحكمته فيقول: «الصيام أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، وهو رياضة بدنية، وتهذيب خلقي، وتطهير روحي، وذلك أن الاسترسال في الشهوات، والانغماس في اللذات حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهي، يعوقها عن تلقي الإلهام وعن لذة الاتصال ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون إلي الصوم، كلما أحسوا بعدا عن الذات الإلهية، وانزعج خاطرهم شوقا إلي القرب منها.

«وفي الصبر علي الحرمان من اللذات التي تنازع إليها النفس، وتقتضيها الطبيعة، تربية للإرادة، وتقوية علي المضي في العزم، وعدم نقض العقد والعهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن العهود، لما فيها من المشقات، وفي تقوية الإرادة علي هذا النحو إعداد لتلقي التكليف الإلهي بالقبول والطمأنينة وثبتت لملكة المراقبة والخوف من الله، وتقوية لخلق الحياة، وفي هذا كل الخير، وبه تتحقق تقوي الله، وتستعد النفس للسخاء والبذل والتضحية، إذ دعا الداعي، وحان وقت الفصل بين شجعان الرجال وجبنائهم، وبين كرامهم وأندالهم.

«وليس يخفي أن كل شيء في هذه الحياة ممكن، الفقير بعد الغني والمرض بعد الصحة، والذلة بعد العز، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها، وتغلب الأعداء بعد الغلب عليهم وقهرهم.. وما إلي ذلك ما هو بسبيل أن يعرض للإنسان. وعروض هذه الأشياء علي نفس مدللة، وجسم مترف، ينام بقدر، يأكل بقدر، ويمرح في اللذات بين أهل والعشيرة قد يصدمه صدمة لا يقوي علي احتمالها، أو يسوق إليهِ الجزع ويورثه اليأس.

لذلك كله اقتضت حكمة الحكيم العليم، أن يجعل من العبادات ما يروض

الأجسام ويهذب الأخلاق، ويطهر الأرواح ويزكئها.. وكان من هذه العبادات الصوم.

« وكما عني الإسلام بتزكية الأرواح وتهذيب الأخلاق، فقد عني بتربية الأجسام، وحرّم كل ما هو ضار بها، وأباح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد، ذلك أن الإسلام يريد رجلا عاملا في الحياة، مهذب الأخلاق، طاهر الأعراق، قويا لا يهاب الموت، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن، ويزود عن العشيرة، ويريد رجلا رحيفا حسن المعاشرة، سلس القياد لأهله، وعشيرته، وبني وطنه، يريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه.. » إلخ (١).

● معالجته للمشاكل الاجتماعية:

كذلك نجد الشيخ المراغي - رحمه الله - يعرض لمشاكل المجتمع وأسباب الانحطاط في دول الإسلام، فيعالج كل ذلك بما يفرضه الله علي قلبه وعقله ولسانه، من هداية القرآن وإرشاده.

ولقد كان الأستاذ - رحمه الله - بصيرا بمواطن الداء - وأسباب الشفاء، فكان يهدف في دروسه إلي علاجها واستئصالها، وكان كثيرا ما يوجه الخطاب إلي أرباب الحل والعقد في الدولة - وهم غالبية المستمعين له - ويلفت أنظارهم إلي ما في أعناقهم من أمانات، وما عليهم من تبعات، ثم يأخذ بيدهم إلي حيث يكون صلاحهم، وصلاح من تحت إمرتهم ورعايتهم.. يدفعه في هذا كله إخلاصه لربه، ولوطنه، ولأمته.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٣) من سورة الشوري: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾.. الآية، نجده يقول: «.. والحكمة في هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا ترك إلي مداركه الحسية ونظرياته العقلية، ضل وكره الحياة، وكان أشقى من أنواع الحيوان، وشقاوة يكون من ناحية العقل نفسه، فقد دلت التجارب علي أن العقل غير المؤيد بالشرع الإلهي يذهب مذاهب شتى، منها الصواب ومنها الضلال، وهو فيما عدا المحسبات والماديات ضلاله أكثر من صوابه. وهذه آراء العلماء في الفلسفة والأخلاق، يشبه بعضها هذيان المحموم، وبعضها لا يدرك له محصل علي كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين. وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها، لم تسعد الأمم بها، فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلي الحكيم وقد دلت التجارب أيضا علي أن الأمم التي عملت بالهدي كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدي الذي عملت به.

« وأما أنه لولا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة، فإنها علي قصرها مملوءة

بالمصائب والويلات، فمن فقر مدقع، إلي مرض مزمن، ومن فقد الأهل والعشيرة، إلي فقد العزة والجاه، ومن شرف رفيع، إلي ذلة ومهانة. . . واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الإنسان أمل ينتظره، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ليس في طاقة الإنسان، فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش، ويجعل المؤمن في سعادة نفسية، ويقويه علي احتمال الصعاب، وعلي الصبر علي معاشرة الناس، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما، فإن دائرة العقل محدودة، وهي قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل.

«وإذا قيل: إن التدين مقيد للحرية، ومانع من التمتع باللذات، فكيف تكون فيه السلوي والعزاء؟ فالجواب: أن الإسلام أباح الطبيبات وحرم الخبائث، ولم يحظر من اللذات إلا ما يضر الإنسان، وليست السعادة في حرية البهائم، بل في حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه، وقوام آداب الأمم وفضائلها، التي قامت عليها صروح المدنية الحقنة مستند إلي الدين، وبعض العلماء يحاول تحويلها عن أساس الدين، وبناءها علي أساس العقل والعلم، غير أنه لا شبهة في أن الأمم التي تروم هذا التحول تقع في اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتهم، وليس من الميسور أن تُبني للعامّة قواعد الفضيلة علي أساس علم الأخلاق أو أية قاعدة علمية أخرى، ولكن من الميسور دائماً أن تبني قواعد الفضيلة علي أساس العصمة للدين، فالذي يحاول العلماء: وهم وخيال»^(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ . . . نجد بعد أن يشرح الآية، ويذكر ما في القرآن من هداية يقول: «هذا هو القرآن الذي سعد به المسلمون بحياة روحية هي المثال الأعلي للنفس الإنسانية، وحياة جثمانية طاهرة بريئة، وحياة علمية لا يزال ما بقي من نورها يستمتع به الناس، وهو موضع للعجب، ومثار للإكبار والإجلال».

«سعدوا به حقبة، ثم انحرفوا عنه فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان، حتي أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم، وصاروا في حاجة إلي غيرهم في كل مرافق الحياة، ووصل بهم الجهل إلي حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب، وكل ما عندهم شر ينبذ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة. . . القدوة حتي فيما علم غيرهم شره وفساده، وحاولوا نبذه وطرحه، وقد أصبح المسلمون مثلاً سيئة للإسلام، يحتج بهم عليه والدين منهم برئ».

«الدين يطلب رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من

ينتظر، رجالا باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، رجالا خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله في الأرض، يعلمون سرها، ويسخرونه للخير ودفع الأذى، يدعون عوادي الزمان بمناكبهم كأنهم بنيان مرصوص، يعرفون للكرامة قدرها، وللعزة موضعها، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل، وأن الآخرة خير وأبقى» (١).

وعندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٥) من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ .. الآية.

وجدناه يقول بعد ما شرح الآية: «ذكر الله - سبحانه - الكتاب والميزان والحديد وقرنها بعضها ببعض، فالكتاب: إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف. والميزان: إشارة إلى سلوك الناس علي وفق هذه الأحكام والحديد: إشارة إلى ما يجعلهم علي اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا، والله سبحانه - وهو العليم الحكيم - لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم، وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه، وغيرهم لا بد له من وازع، وهو سلطان الحاكم المشار إليه بالحديد، ولذلك وجدت التعاذير في الإسلام، ووجدت الحدود. أما ترك الناس أحرارا من غير وازع. فهو ضار بالمجتمع الإنساني، وموجب للتراخي في إقامة العدل واتباع القانون، جرب هذا في العصور المختلفة، وقامت الشواهد الناطقة في العصر الحديث عليه. وعلم أن الأمم التي لم تحط أخلاقها بوازع انحدرت إلى الدرك الأسفل وأضلتها الشهوات وقد كانت درة (عمر) سلكا قويا للنظام الإسلامي فلما رفعت ضعف ذلك الرباط» (٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة لقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ .. الآية، نجده يقول: «.. من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالا وبرسالة محمد، ويعظمهما ويجلها فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق؟ وتحذ القاذف؟ ولم لا تحكم القرآن في الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كتفيه وابتسم أو زاد: إنها رجعية لا يحتملها تمدن العصر الحديث!!.. أليس هذا استهزاء بالآيات؟ واشتراء للباطل؟ وضلالا عن سبيل الله؟

«هناك مقلدين للمذاهب في العقائد والأحكام، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة علي فساد مذاهبهم، ولوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها، بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعا للحق بغير علم؟

(١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧هـ، ص ١٥، ١٦.

(٢) تفسير سورة الحديد ص ٤٢، ٤٣.

«هناك مذاهب ابتدعت في الدين للضلال والإضلال بسبب السياسة، وفسر مبتدعوها الآيات في التأويل ليردوها إلي مذهبهم المبتدعة وجاء أتباعهم فقلدوهم».

(أما المبتدعون فأمرهم واضح... اشتروا الضلالة بالهدى!

وأما الاتباع فكان عليهم أن ينظروا في الآيات ويتدبروها عملاً بقبوله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فهم أيضاً اشتروا الضلالة بالهدى ولهم بعض العذر» (١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٦) من سورة الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾... الآية، نجده يقول: «... وللتثبت في الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفي على أشد الناس تثبتاً من الأخبار»

«وكثيراً ما يقع عدم التثبت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر يجيئهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم وهو مدخل للخطر عظيم».

«والذين هم في أشد الحاجة إلي العمل بهذه الآية هم الذين بيدهم مقاليد الأمور؟ وبيدهم الضر والنفع، أما الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً فحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء».

«والآية - علي العموم - أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس، وإعدادها لتعرف الحق والبعد عن مواطن الباطل» (٢).

● توفيقه بين القرآن والعلم الحديث :

هذا.. وإن الأستاذ المراغي - رحمه الله - كان مع اعتقاده أن القرآن قد أتى بأصول عامة، لكل ما يهم الإنسان معرفته والعلم به، يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية، إلى العلوم أو العلوم إلى الآية، كي يفسرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحديث.

نعم... كره الشيخ هذا المسلك في التفسير، وجهر بخطأ أصحابه المولعين به، وكرر هذا في مواضع كثيرة، فكان مما قاله في بعض المواضع من دروسه في التفسير: «وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية. ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليهم وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم علي الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد علي هذيان المصاب بالحمي، والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله» (٣).

ولكن الأستاذ المراغي مع هذا كله كان يري أن يكون مفسر كتاب الله علي شئ من

(٢) تفسير سورة الحجرات ص ١١.

(١) تفسير سورة لقمان: ٩، ١٠.

(٣) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، ص ٤٢.

العلم ببعض نظريات العلم الحديث، ليستطيع أن يأخذ منها دليلا علي قدرة الله، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة.

كان الشيخ يري هذا، ويعتقد أنه هو المسلك السليم لفهم القرآن الكريم، فجهر به في أحد دروسه في التفسير فقال: «ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات، ومادته، وأبعاده، وأقداره، وأوزانه، لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به علي القدرة الإلهية ويشير إليه للعظة والاعتبار» (١).

ثم وجدنا الأستاذ المراغي بعد هذا يشرح قوله تعالي في الآية (١٠) من سورة لقمان ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ شرحا يقوم علي هذا المبدأ الذي ارتضاه فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ السموات مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات، ونجوم وسدائم وهي مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة في الفضاء، كل شئ منها في مكانه المقدر له بالناموس الإلهي ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمد، والله هو ممسكها ومجريها إلي الأجل المقدر لها.. فإذا قيل: إن نظام الجاذبية وهو الناموس الإلهي قائم مقام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز أن نقول: إن لها عمدا غير منظورة، وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شئ مادي تعتمد عليه، وجب أن نقول: إنه لا عمد لها، وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها، والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة في الفضاء».

ثم قال: «قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءا من السموات وانفصلت عنها، وقرر الكتاب الكريم أن الله ﴿ استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم وقد قال العلماء: إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبته، والأرض واحدة من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات.. فليست الأرض هي مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هي مركز هذه المجموعة، والشمس وتوابعها قوي صغيرة في العالم السماوي، وأين هي من الشعري اليمانية التي قال الله سبحانه فيها: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴾ [النجم: ٤٩]، فهذا النجم قدرته علي إشعاع الضوء تساوي قوة الشمس (٢٦) مرة، وقدرته علي إشعاع الحرارة مثل قدرته علي إشعاع الضوء، فلو فرض أن الشعري اليمانية حلت محل الشمس يوما من الأيام، لانتهد الحياة فجأة، بغليان الأنهار، والمحيطات والقارات الجليدية التي حول القطبين،

وضوء الشعري اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق فانظر إلي هذا البعد السحيق.

« وليست الشعري اليمانية أكبر نجم في السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد علي قدرة الشعري أكثر من عشرة آلاف مرة.

« وعظمة السماء ليست في الشمس وتوابعها، كلا.. إن عظمتها في مدنها النجومية، في أقدارها، وأوزانها، وأضوائها، وأبعادها، علي اختلاف أنواعها.»

« وهناك نجم يسمى (الميرة) أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليوناً من المرات، وهناك السدائم، وهي قريبة من الخلقِ أول الأمر، ثم يقف علم الإنسان، والله تعالى وحده الذي يعلم خلقه: ﴿ مَا أَشْهَدُ تَهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾

[الكهف: ٥١]

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠]: أي خلق الجبال في الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب، ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس، وعكوفها علي الدوران حولها علي بعد منها، وصلت بعض موادها إلي حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتبهة كالشمس، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة علي القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار، فالجبال الأولي نتوء القشرة الصلبة التي غلفت الأرض، وهناك جبال جدت عن اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحر، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها في الطبقات. حتي صارت كأوتاد مغروزة فيها.»

« والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية علي جدرانها، وتوزعها، وتغير اتجاهها، وتكسر حدتها، وتساعد بذلك علي بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات، والتي يتغذي بواسطتها الحيوان والإنسان، وتحفظها من أن تمور.»

« فالجبال أولاً حبست النار في جوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح، فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح»... وهكذا مشي الشيخ إلي آخر الآية (١).

● حرية الرأي في تفسيره:

ثم إن الشيخ المراغي - رحمه الله - كان كغيره من رجال هذه المدرسة لا يتقيد بأقوال الأئمة، ولا يقف عند مذهب مخصوص، ولا يقول برأي معين إلا إذا اقتنع به، وإلا فلا عليه أن يتركه إلي ما هو صواب في نظره.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٤) من سورة البقرة ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. . . نجده يقول بعد أن يذكر خلاف علماء الفقه في السفر المبيح للفطر: «وقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال. وروي عن ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه كان يقصر في الميل الواحد، وإذا نظرنا إلي أن نص القرآن مطلق، وأن كل ما رواه في التخصيص أخبار آحاد، وأنهم لم يتفقوا في التخصيص، جاز لنا أن نقول: إن السفر مطلقاً مبيح للفطر، وهذا رأي أبي داود وغيره من الأئمة» (١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. . . الآية، نجده بعد أن يبين أن عدد السبعة في الآية مراد به الكثرة يقول: «وعلي هذا يمكن أن يقال في أبواب النار، أما الأبواب الثمانية للجنة، فقد أريد بالزيادة فيها علي النار أن يدل علي أن مسالكها أكثر من مسالك النار، لراحة أهلها، وزيادة العناية بهم.

«وكذلك يقال في السموات السبع، والأرضين السبع، والعرب تذكر السبعة للكثرة، وتذكر السبعين للكثرة كذلك، ومنه: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم في السبعين، ولا في السبعة الآلاف، ونظيره: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢] يراد في سلسلة طويلة هائلة، ولا يراد التقدير بهذا العدد» (٢).

والواقع أن هناك فرقاً بين ما ورد من نحو قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. . . إلخ، وقوله: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، وبين ما ورد في عدة أبواب الجنة والنار، وعدة السموات والأرض، فإن الأول ذكر في مقام التهويل، فلا يراد التحديد وإنما يراد الكثيرة، بخلاف الثاني فإنه ليس كذلك.

ومثلاً نجد الأستاذ المراغي في دروسه الأخيرة عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (٥) من سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾. . . الآية، يشرح كون النجوم رجوماً للشياطين بما معناه: «أن ما في السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بهذه الكواكب، وجعلها على هيئات مخصوصة ونظام مُحكم، لتكون

حُججا دامغة، وأدلة قوية على مَنْ يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده». سمعناه يقول ما هذا معناه، ثم يستدل على ما ذهب إليه بأنهم يقولون: «ألقمته حجراً» يعنى أقمتم عليه الحجة فلم يحر جواباً، ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن فى القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم، كقوله تعالى فى الآيات (٦ - ١٠) من سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنِ خَظَفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وكقوله فى الآيتين (٨ - ٩) من سورة الجن: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾. . . يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه: «وهناك آيات أخرى فى هذا المقام، تبدو مخالفة لهذا المعنى، ولكن يمكن حملها عليه، وليس فى الوقت متسع لذلك، وسنعرض لها فى موضع غير هذا».

ولست أدرى كيف كان يستطيع الشيخ - رحمه الله - أن يحمل كل الآيات الواردة فى هذا الموضوع على المعنى الذى قاله حملاً صحيحاً، وهى كما ترى صريحة فى أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع، ثم مُنعوا من ذلك عند رسالة محمد ﷺ، فَمَنْ حاول منهم استراق السمع - كما كانوا يفعلون من قبل - رُمى بشهاب من السماء فحال بينه وبين ما يريد.

وخاتمة المطاف فى هذه الدروس التى ألقاها الأستاذ الأكبر فى التفسير: أنه كان منها - كما قيل - أمران عظيمان لهما خطرهما فى الحياة الدينية: كانت عاملاً قوياً فى توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الطاهر إلى الجانب الدينى، ولفت أنظارهم إلى ما فى كتاب الله من تشريع حكيم، وأدب جم كريم، وإشاد قيم مفيد، فحُببت إليهم الدين، وزينته فى قلوبهم وهرعوا إليه يتعرفون حكمه وأحكامه، ويتلمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية، أساسها الدين والخلق الكريم.

وكانت هذه الدروس أيضاً: منار هدى وإرشاد، يلقى أشعته الوضأة على عقول المشتغلين بتفسير القرآن، فيضئ لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فى فهم كتاب الله، واستخلاص آدابه وأحكامه، خالصة مما جاورها من إسرائيليات وتأويلات أبعدت أهل الدين عن الدين، وشغلتهم فى تفسير القرآن بما لا يمت إلى روحه ومعناه،

وكذلك صوّرت الدين لغير أهله الذين يتحسسون له عيباً صورة لا تتفق وما له من جلال وجمال^(١).

هذا .. وإنما لندرجو للشيخ المراغى عند ربه ما كان يرجوه هو لنفسه من وراء مجهوده فى التفسير وهو:

أن يضعه الله سبحانه فى كفة الحسنات من ميزان أعماله، وأن يجعله ضياءً ونوراً يسعى بين يديه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾

[الحديد: ١٢]

* * *

رجاء واعتذار

وبعد .. فهذا ما يسره الله لى وأعاننى عليه، ولعلنى أكون وقد طوّفتُ بالقارىء الكريم فى نواح شتى من مناهج التفسير، وأخذتُ بيده إلى حيث أطلعتُه على ألوان مختلفة منه، من مبدأ نزول القرآن إلى عصرنا هذا، وكشفتُ له عن طرائق القوم فى فهمهم لنصوص كتاب الله، وأريته كيف حاول كل ذى نحلة أن يقيم نحلته على أساس من القرآن . وكيف تحايل على فهم آياته، وتصرف فى تأويل عباراته، كل من حاول أن يجعل القرآن شاهداً له، ودليلاً على ما يهدف إليه، من حق تبليج، أو باطل تبليج .. لعلنى بعد هذا كله أكون قد أرضيتُ عشاق التفسير خاصة، وأهل العلم عامة، وحققتُ رغبة طالماً ترددت فى صدورهم، وقضيتُ حاجة كثيراً ما تطلعت لها نفوسهم، وأشرأبت إليها أعناقهم.

ولعلنى بعد ذلك أن لا أكون قد أسأمت القارىء الكريم، من طول دعتنى إليه ضرورة البحث، ودفعتنى إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء.

واعتقادى - رغم هذا الطول - أن فى هذا البحث تركيزاً كبيراً، واختصاراً كثيراً، إذ أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يصلح لأن يكون كتاباً وحده، وكتاباً موسعاً مسهباً.

وأرجو، أن يهيه الله لى رشداً من أمرى، ومنتسحاً من وقتى، لأجعل من هذا الكتاب كتاباً متعددة، فيها إسهاب أوسع من هذا الإسهاب، واستيفاء أشمل من هذا الاستيفاء.

وحسبى بهذا العمل الذى يُعتبر باكورة عملى فى التأليف أن أكون قدّمت إلى المكتبة الإسلامية بحثاً فيه جدة وطرافة، وفيه متعة علمية، ولذّة روحية، تستهوى القارىء، وتستحوذ على مشاعره وحسه.

حسبى هذا، وحسبى أن أكون قد أرضيتُ رغبتى العلمية، التى لم آل فى إرضائها جهداً، ولم أدخر فى إشباعها وسعاً، فإن رضى الناس بعد ذلك، فذلك من فضل الله، وإن كانت الأخرى، فذلك هو جهدُ المُقل، وطاقة الناشئ، الذى لا يزال يرقب من وراء الغيب أملاً فسيحاً، وكمالاً صريحاً.

هذا .. ولا يفوتنى أن أعتذر إلى القارىء الكريم عما قد يكون فى هذا الكتاب من أخطاء هينة لا تخفى على فطانتِه، ولا تدق عن إدراكه، فإن مرّبها فرجائى إليه أن يتلمس لها عذراً، وأن يصححها مشكوراً، وتلك شيمة الكرام أهل الخلق الطاهر والأدب الحميد، وأن لا يكون ممن قال فيهم الشاعر:

فإن رأوا زلّة طاروا بها فرحاً عنى وما وجدوا من صالح دفنوا
والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، وأن ينفع به أناساً
أخلصوا قلوبهم لله، وأن ينفعنى به فى دنياى وآخرتى، وأن يحقق لى به ما تصبو إليه
نفسى، وتسمو إليه همتى.. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن
هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم ومن تبعهم بإحسان
إلى يوم الدين.

حدائق حلوان فى عصر الجمعة ١٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ -

الموافق (٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦١)

محمد حسين الذهبى

* * *

المراجع

• كتب التفسير بالمأثور :

- ١ - جامع البيان فى تفسير القرآن: ابن جرير الطبرى، الأميرية ١٣٢٣ هـ.
- ٢ - بحر العلوم: أبو الليث السمرقندى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣).
- ٣ الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أبو إسحاق الثعلبى، بعض نسخه مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٣٦) ٥٥٦١
- ٤ - معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغدادي، المنار ١٣٤٥ هـ.
- ٥ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (١٠) ٣٥٦
- ٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير: للحافظ عماد الدين ابن كثير، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦ هـ.
- ٧ - الجواهر الحسان: عبد الرحمن الثعالبى، طبع الجزائر ١٣٢٣ هـ.
- ٨ - الدر المنثور: جلال الدين السيوطى، الميمنية ١٣١٤ هـ.
- ٩ - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: أبو طاهر الفيروزآبادى، الأزهرية ١٣٤٤ هـ.

• كتب التفسير بالرأى المحمود :

- ١ - مفاتيح الغيب: الفخر الرازى، الأميرية ١٢٨٩ هـ.
- ٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوى، دار الكتب العربية ١٣٣٠ هـ.
- ٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفى، السعادة ١٣٢٦ هـ.
- ٤ - لباب التأويل فى معانى التنزيل: الخازن، التقدم ١٣٢١ هـ.
- ٥ - البحر المحيط: أبو حيان، السعادة ١٣٢٨ هـ.
- ٦ - تفسير الجن: الجلال المحلى والجلال السيوطى، دار إحياء الكتب ١٣٤٥ هـ.
- ٧ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابورى، الأميرية ١٣٢٣ هـ.
- ٨ - السراج المنير: الخطيب الشربينى، الأميرية ١٢٩٩ هـ.
- ٩ - إرشاد العقل السليم: أبو السعود، المصرية ١٣٤٧ هـ.
- ١٠ - روح المعانى: الألوسى، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأخيرة.

• كتب تفسير المعتزلة :

- ١ - تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضى عبد الجبار، الجمالية ١٣٢٩ هـ.

- ٢ - أمالي الشريف المرتضى: الشريف المرتضى، السعادة ١٣٢٥ هـ.
- ٣ - الكشاف: الزمخشري، مطبعة مصطفى محمد ١٣٠٨ هـ.
- كتب تفسير الإمامية الإثنا عشرية:
- ١ - مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: عبد اللطيف الكازراني، طبع العجم ١٣٠٣ هـ.
- ٢ - تفسير العسكري: الحسن العسكري، طبع تبريز ١٣١٤ هـ.
- ٣ - مجمع البيان: أبو علي الطبرسي، طبع طهران ١٣١٤ هـ.
- ٤ - الصافي: ملا محسن الكاشي، طبع فارس ١٢٤٤ هـ.
- ٥ - تفسير القرآن: السيد عبد الله العلوي، طبع طهران ١٣٥٢ هـ.
- ٦ - بيان السعادة: سلطان الخراساني، طبع طهران ١٣١٤ هـ.
- كتب تفسير الزيدية:
- ١ - فتح القدير: الشوكاني، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٩ هـ.
- كتب تفسير الخوارج:
- ١ - هميان الزاد إلى دار المعاد: محمد إطفيش، طبع زنجبار ١٣١٤ هـ.
- تفاسير الصوفية:
- ١ - تفسير القرآن الكريم: سهل التستري، السعادة ١٩٠٨ هـ.
- ٢ - حقائق التفسير: أبو عبد الرحمن السلمى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٠٩٣).
- ٣ - عرائس البيان في حقائق القرآن: أبو محمد روزبهان، طبع الهند ١٣١٥ هـ.
- ٤ - التأويلات النجمية: نجم الدين داية وعلاء الدولة البيانانكي، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٢٦) م.
- ٥ - تفسير ابن عربي (تأويلات القاشاني): عبد الرزاق القاشاني، الأميرية ١٢٨٣ هـ.
- تفاسير الفقهاء:
- ١ - أحكام القرآن (حنفي): الجصاص، البهية المصرية ١٣٤٧ هـ.
- ٢ - أحكام القرآن (شافعي): الكيا الهراسي، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦.
- ٣ - الإكليل في استنباط التنزيل (شافعي): الجلال السيوطي، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٧٨٥) بخيت.
- ٤ - أحكام القرآن (مالكي): أبو بكر بن العربي، السعادة ١٣٣١ هـ.

- ٥ - الجامع لأحكام القرآن (مالكى): القرطبي، دار الكتب ١٩٣٥ - ١٩٤٥ م.
 ٦ - كنز العرفان في فقه القرآن (إثنا عشرى): مقداد السيورى، طبع تبريز ١٣١٤ هـ.
 ٧ - الثمرات اليانعة (زيدى): الفقيه يوسف الثلاثى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٤١) م.

● كتب التفسير فى العصر الحديث :

- ١ - الجواهر فى تفسير القرآن الحكيم، طنطاوى جوهرى، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٠ - ١٣٥١ هـ.
 ٢ - الهداية والعرفان: أبو زيد الدمنهورى، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٤٩ هـ.
 ٣ - تفسير جزء «عم»: الشيخ محمد عبده، مطبعة مصر ١٣٤١ هـ.
 ٤ - تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن: الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، المنار ١٣٥٣ هـ.
 ٥ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): السيد محمد رشيد رضا، المنار ١٣٤٦ هـ.
 ٦ - الدروس الدينية: الشيخ محمد مصطفى المراغى، مطبعة الأزهر ١٣٥٦ - ١٣٦٤ هـ.

● علوم القرآن :

- ١ - مقدمة التفسير: الراغب الأصطفهاني، الجمالية ١٣٢٩ هـ.
 ٢ - مقدمة فى أصول التفسير: ابن تيمية، الترقى بدمشق ١٩٣٩ م.
 ٣ - جواهر القرآن: الغزالي، كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ.
 ٤ - الإيتقان: الجلال السيوطى، مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٣٥ م.
 ٥ - الفوز الكبير فى أصول التفسير: ولى الله الدهلوى، إدارة الطباعة المنبرية ١٣٤٦ هـ.
 ٦ - مبادئ التفسير: محمد الخضرى الدمياطى، التيل ١٣٢١ هـ.
 ٧ - المدخل المنير: محمد حسين مخلوف العدوى، مطبعة المعاهد ١٣٥١ هـ.
 ٨ - التفصيل فى الفرق بين التفسير والتأويل: حامد العمادى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣٤٤٤) مجاميع.
 ٩ - التفسير: معالم حياته .. منهجه اليوم: أمين الخولى، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤ م.
 ١٠ - المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم (جزء أول): جولدزيهر، تعريب على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٤ م.

- ١١ - إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي، الاستقامة ١٩٤٠ م.
- ١٢ - منهج الفرقان: محمد أبو سلامة، مطبعة شبرا ١٩٣٨ م.
- ١٣ - مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، مطبعة شبرا ١٣٥٩ هـ.
- كتب الحديث وعلومه:
- ١ - صحيح البخارى: أبو عبد الله البخارى، الخيرية ١٣٢٠ هـ.
- ٢ - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
- ٣ - سنن الترمذى: أبو عيسى الترمذى، الأميرية ١٢٩٢ هـ.
- ٤ - مسند الإمام أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، الميمنية ١٣١٣ هـ.
- ٥ - نيل الأوطار. الشوكاني، العثمانية ١٣٥٧ هـ.
- ٦ - فتح البارى، شرح البخارى: ابن حجر العسقلانى، الخيرية ١٣١٩ هـ.
- ٧ - إرشاد السارى، شرح البخارى: القسطلانى، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
- ٨ - شرح صحيح مسلم: محيى الدين النووى، الأميرية ١٣٢٥ هـ.
- ٩ - تأويل مختلف الحديث: ابن قتيبة، كردستان ١٣٢٦ هـ.
- ١٠ - منهاج السنّة: ابن تيمية، الأميرية ١٣٢٢ هـ.
- ١١ - معرفة علوم الحديث: الحاكم النيسابورى، دار الكتب المصرية ١٩٣٧ م.
- ١٢ - مقدمة ابن الصلاح: أبو عمر بن الصلاح، طبع الهند ١٣٥٧ هـ.
- ١٣ - تدريب الراوى: الجلال السيوطى، الخيرية ١٣٠٧ هـ.
- ١٤ - هدى السارى مقدمة فتح البارى: ابن حجر العسقلانى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧ هـ.

١٥ - الأسلوب الحديث: أمين الشيخ، مطبعة شبرا ١٩٤٠ م.

● كتب اللّغة:

- ١ - القاموس المحيط: مجد الدين الفيروزآبادى، المصرية ١٩٣٥ م.
- ٢ - تاج العروس شرح القاموس: السيد مرتضى الزبيدى، الخيرية ١٣٠٦ هـ.
- ٣ - لسان العرب: ابن منظور، الأميرية ١٣٠٢ هـ.
- ٤ - أساس البلاغة: الرمخشى، الأميرية ١٣٢٧ هـ.

● كتب الفقه والأصول:

- ١ - فتاوى ابن تيمية: ابن تيمية، كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ.
- ٢ - أعلام الموقعين: ابن القيم، مطبعة فرج الله الكردى ١٣٢٥ هـ.
- ٣ - الموافقات: أبو إسحاق الشاطبى، مطبعة المكتبة التجارية، الطبعة الأخيرة.
- ٤ - المستصفى: أبو حامد الغزالى، الأميرية ١٣٢٤ هـ.

٥ - مسلم الثبوت وشرحه: محب الله عبد الشكور وعبد العلي الأنصاري،
الأميرية ١٣٢٤ هـ.

٦ - شرح التلويح: سعد الدين التفتازاني، دار الكتب العربية ١٣٢٧ هـ.

٧ - جمع الجوامع وشرحه: ابن السبكي، والجلال المحلى، الأزهرية ١٢٣١ هـ.

● كتب التاريخ والرجال :

١ - الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي العسقلاني، الشرقية ١٩٠٧ م.

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير الجزري، الوهيبية ١٢٨٠ هـ.

٣ - تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني، طبع الهند ١٣٢٥ هـ.

٤ - ميزان الاعتدال: الحافظ الذهبي، السعادة ١٣٢٥ هـ.

٥ - لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، طبع الهند ١٣٣١ هـ.

٦ - خلاصة تذهيب الكمال: صفى الدين الخزرجي، الخيرية ١٣٢٢ هـ.

٧ - طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، الطبعة الأولى.

٨ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: ابن فرحون، السعادة

١٣٢٩ هـ.

٩ - نيل الابتهاج: أحمد باب التبنكي، السعادة ١٣٢٩ هـ.

١٠ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية: محمد اللكنوي، السعادة ١٣٢٤ هـ.

١١ - الفهرست: ابن النديم، الرحمانية ١٣٤٨ هـ.

١٢ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي، مطبعة القدسي

١٣٥٥ هـ.

١٣ - شذرات الذهب: عبد الحى بن العماد، مطبعة القدسي ١٣٥٠ هـ.

١٤ - مروج الذهب: أبو الحسن المسعودي، البهية ١٣٤٦ هـ.

١٥ - مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، الشرفية ١٣٢٧ هـ.

١٦ - طبقات المفسرين: الجلال السيوطي، طبع ليدن ١٨٣٩ م.

١٧ - طبقات المفسرين: الداودي، نسخة مخطوطة بدار الكتب نمرة (١٦٨).

١٨ - تهذيب الأسماء واللغات: محيي الدين النووي، إدارة الطباعة المنيرية،

الطبعة الأخيرة.

١٩ - وفيات الأعيان: ابن خلكان، الأميرية ١٢٩٩ هـ.

٢٠ - فوات الوفيات: محمد بن شاکر الكتبي، الأميرية ١٢٨٣ هـ.

٢١ - العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم: علي بن لالي بالي، الميمنية ١٣١٠ هـ.

٢٢ - معجم الأدباء: ياقوت الحموي، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٦ م.

- ٢٣ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، طبع الهند ١٣٤٨ هـ.
- ٢٤ - روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الموسوي، طبع فارس ١٣٠٧ هـ.
- ٢٥ - بُغية الوعاة في طبقات النحاة: الجلال السيوطي، السعادة ١٣٢٦ هـ.
- ٢٦ - أعيان الشيعة: السيد محمد الأمين الحسيني، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٢٥٣ هـ.
- ٢٧ - ترجمة الرجال المذكورة في شرح الأزهار: أحمد بن عبد الله الجنداري، التمدن ١٣٣٢ هـ.
- ٢٨ - تاريخ التشريع الإسلامي: محمد (بك) الخضري، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٠ م.
- ٢٩ - مذكرة تاريخ التشريع الإسلامي: السبكي، السائس، البربري، وادي الملوك ١٩٣٦ م.
- ٣٠ - نظرة عامة في تاريخ التشريع الإسلامي: علي حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٢ م.
- ٣١ - تاريخ الجدل: محمد أبو زهرة، العلوم ١٩٣٤ م.
- كتب التوحيد والملل والنحل:
- ١ - الفرق بين الفرق: أبو منصور البغدادي، المعارف ١٣٢٨ هـ.
- ٢ - التبصير في الدين: أبو المظفر الإسفراييني، الأنوار ١٩٤٠ م.
- ٣ - شرح المواقف: السيد الشريف، السعادة ١٩٠٧ م.
- ٤ - تبين كذب المقترى: ابن عساكر، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧ هـ.
- ٥ - إيثار الحق على الخلق: أبو عبد الله اليماني، الآداب ١٣١٨ هـ.
- ٦ - شرح العقائد النسفية: سعد الدين التفتازاني، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٢١ هـ.
- ٧ - الإكليل في المتشابه والتنزيل.. ضمن مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية، العامرة الشرفية ١٣٢٣ هـ.
- ٨ - الفصل: علي بن حزم، الأدبية ١٣٢٠ هـ.
- ٩ - الملل والنحل: محمد الشهرستاني، الأدبية ١٣٢٠ هـ.
- ١٠ - كشف أسرار الباطنية: محمد بن مالك اليماني، الأنوار ١٣٥٧ هـ.
- ١١ - فضائح الباطنية: أبو حامد الغزالي، طبع ليدن ١٩١٦ م.
- ١٢ - تعريف الشيعة: عبد الرزاق الحسني، العرفان ١٣٥٢ هـ.

- ١٣ - الوشيعة في نقد عقائد الشيعة: موسى جاد الله، الشرق ١٣٥٥ هـ.
 ١٤ - كتاب بهاء الله: بهاء الله، السعادة ١٩٢٠ م.
 ١٥ - رسائل أبي الفضائل: أبو الفضائل الإيراني، السعادة ١٩٢٠ م.
 ١٦ - مفتاح باب الأبواب: ميرزا محمد مهدي خان، المنار ١٣٢١ هـ.
 ١٧ - خطابات ومحادثات عبد البهاء: عبد البهاء عباس، جمع ع. ج. س، السعادة ١٩٢٠ م.
 ١٨ - المبادئ البهائية: معرب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية، رعمسيس ١٩٢١ م.
 ١٩ - الحجج البهية: أبو الفضائل الإيراني، السعادة ١٩٢٥ م.
 ٢٠ - محاضرة عن البهائية: عبد العزيز نصحي، السلفية ١٣٥٢ هـ.

● كتب التصوف:

- ١ - الفتوحات المكية: ابن عربي، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ.
 ٢ - الفصوص: ابن عربي، الزمان ١٣٠٤ هـ.
 ٣ - إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦ هـ.
 ٤ - تلبيس إبليس: ابن الجوزي، النهضة ١٩٥٢ م.

● كتب الفلسفة:

- ١ - رسائل إخوان الصفا: إخوان الصفا، الآداب ١٣٠٦ هـ.
 ٢ - فصوص الحكم: الفارابي، السعادة ١٩٠٧ م.
 ٣ - رسائل ابن سينا: أبو علي بن سينا، مطبعة هندية ١٩٠٨ م.
 ٤ - جامع البدائع: ابن سينا، السعادة ١٩١٧ م.
 ٥ - تاريخ الفلسفة: الدكتور مدكور، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م.

● كتب المعلومات العامة:

- ١ - الكتاب المقدس: المطبعة الأمريكية ببيروت ١٩٣٠ م.
 ٢ - شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ.
 ٣ - الحيوان: الجاحظ، السعادة ١٣٢٥ هـ.
 ٤ - الكامل: المبرد، الخيرية ١٣٠٨ هـ.
 ٥ - كشف الظنون: ملا كاتب جليبي، دار الطباعة ١٢٧٤ هـ.
 ٦ - فجر الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ م.

- ٧ - ضحى الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣ هـ.
- ٨ - رسائل الإصلاح: محمد الخضر حسين، مطبعة القدس ١٣٥٨ هـ.
- ٩ - القول الفصل: شيخ الإسلام صبري، مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦١ هـ.
- ١٠ - الرسالة المستطرفة: محمد الكنانى، طبع بيروت ١٣٢٢ هـ.
- ١١ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: عبد الرحمن الكواكبي، الجمالية.
- ١٢ - اللؤلؤ المنظوم فى مبادئ العلوم: أبو عليان، الحسينية ١٣٢٥ هـ.
- ١٣ - المبادئ النصرية: نصر الحويجى، الخيرية ١٣٢٠ هـ.
- ١٤ - محمد عبده: عثمان أمين، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٤٤ م.
- ١٥ - الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل (باشا)، الاعتماد ١٣٥٧ هـ.
- ١٦ - النماذج الخيرية: منير الدمشقى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ هـ.
- ١٧ - دائرة المعارف الإسلامية: أحمد الشتناوى وآخرين، مطبعة لجنة الترجمة ١٩٣٣ م.
- ١٨ - دائرة المعارف للبستاني: المعلم بطرس البستاني، طبع بيروت ١٨٧٦ م.
- ١٩ - مجلة الإيمان: علماء الوعظ والإرشاد.
- ٢٠ - مجلة نور الإسلام: علماء الوعظ والإرشاد.
- ٢١ - مجلة نور الإسلام (الأزهر): الأزهر الشريف.
- ٢٢ - مجلة الهداية الإسلامية: جمعية الهداية الإسلامية.
- ٢٣ - مجلة المقتطف: دار المقطم.
- ٢٤ - مجلة السياسة الأسبوعية: محمد حسين هيكل (باشا).
- (مجموع المراجع ١٧١ مرجعاً)

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥	مخلصهم من تناقض أقوالهم في التفسير		الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم
٢٦	٢ - موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم	(٥ - ١٨)	
٢٦	وأعدائهم	٥	كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم ...
٢٧	٣ - تحريف القرآن وتبديله	٦	الزيدية
٢٩	٤ - موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة	٧	قوام مذهب الزيدية
٣٠	أهم الكتب التي يعتمدون عليها في رواية الأحاديث والأخبار	٧	الإمامية
٣٢	أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنا عشرية	٨	الإمامية الإثنا عشرية - أشهر تعاليم
٣٥	١ - مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: للمولى عبد اللطيف الكازراني	٩	الإمامية الإسماعيلية
٣٥	التعريف بمؤلف هذا التفسير - التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه	٩	موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم .
٣٥	والمؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليفه وعلى منهجه الذي سلكه فيه	١٠	من تأويلات السبئية - من تأويلات البيانية
٥٨	٢ - تفسير الحسن العسكري	١٢	من تأويلات المغيرية
٥٨	التعريف بمؤلف هذا التفسير	١٣	من تأويلات المنصورية
٥٩	التعريف بهذا التفسير	١٣	من تأويلات الخطابية - من تأويلات العبيدين
٦٣	ولاية علي		الإمامية الإثنا عشرية وموقفهم من تفسير القرآن الكريم
٦٥	روايات مكذوبة في فضل أهل البيت ..	(١٩ - ١٧٣)	
٦٩	الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها ..		موقفهم من الأئمة وأثر ذلك في تفسيرهم
٦٩	توسل الأنبياء والأمم السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت	١٩	تأثير الإمامية الإثنا عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك في تفسيرهم
٧١	التقية	٢٠	تأثيرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية في تفاسيرهم
٧٢	تأثره بمذهب المعتزلة	٢١	احتياهم على تركيز عقائدهم وترويجها
٧٢	تأثره في تفسيره بآراء الشيعة في الفروع الفقهية	٢٢	١ - ظاهر القرآن وباطنه
٧٤	٣ - مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي ترجمة المؤلف ومكانته العلمية	٢٣	حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه
٧٤	الكلام عن هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه - الدواعي التي حملت الطبرسي على كتابة هذا التفسير	٢٣	حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن
٧٥	وصف الطبرسي لتفسيره	٢٣	أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن
٧٦		٢٤	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢١	طعن المؤلف على الصحابة	منهج الطبرسي في تفسيره - مقدمات	
١٢١	طعنه على عثمان رضى الله عنه	٧٧	الكتاب
١٢٣	طعنه على أبي بكر	٧٨	إمامة علي
	طعنه على أبي بكر وعمرو وعائشة	٨٢	عصمة الأئمة
١٢٣	حفصة	٨٣	الرجعة - المهدي
١٢٤	صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها	٨٣	التقية
١٢٤	دفاع المؤلف عن أصول مذهبه		تأثر الطبرسي بفقهاء الشيعة في تفسيره -
١٢٥	ولاية علي	٨٤	نكاح المتعة
١٢٦	أولوا الأمر الذين تجب طاعتهم	٨٦	فرض الرجلين في الوضوء
١٢٨	الإمام يوصى لمن بعده	٩٠	نكاح الكتابيات
١٢٨	استدلاله على الرجعة	٩٢	الغنائم
	الإيمان بالرجعة وقيام القائم من الإيمان	٩٣	ميراث الأنبياء
١٢٩	بالغيب - التقية	٩٥	الإجماع
	تأثره في تفسيره بالفروع الفقهية	٩٦	تأثر الطبرسي بمذهب المعتزلة في تفسيره
١٣٠	للإمامية - المتعة	٩٦	الهدى والضلال
١٣١	نكاح الكتابيات	٩٨	رؤية الله
	فرض الرجلين في الوضوء وحكم المسح	١٠٠	السحر
١٣٣	على الحُفَيْن	١٠١	الشفاعة
١٣٤	الغنائم	١٠٢	حقيقة الإيمان
١٣٥	الاستنباط	١٠٢	روايته للأحاديث الموضوعية
	موقف المؤلف من مسائل علم الكلام -	١٠٤	موقفه من الإسرائيليات
١٣٦	أفعال العباد	١٠٥	التفسير الرمزي
١٣٦	رؤية الله	١٠٦	اعتداله في تشييعه
١٣٦	الشفاعة		٤ - الصافي في تفسير القرآن الكريم لملا
١٣٧	السحر - روايته للأحاديث الموضوعية	١٠٨	محسن الكاشي
	٥ - تفسير القرآن للسيد عبد الله	١٠٨	التعريف بصاحب هذا التفسير
١٣٨	العلوى	١١٠	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
١٣٨	التعريف بمؤلف هذا التفسير		آل البيت هم تراجمة القرآن، لأنهم
	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه	١١١	جمعوا علمه كله دون من عداهم
	تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك	١١٣	من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه
١٣٨	في تفسيره - الإمامة		المؤلف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن
	كل إمام يوصى لمن بعده - وجود الأئمة	١١٣	أهل البيت هو التفسير المثالي، ويطعن
	في كل زمان وعصمتهم، ووجوب		في بقية الصحابة وفي تفسيرهم
	الرجوع إليهم عند الاختلاف دون	١١٥	وأعدائهم
١٤٠	غيرهم	١١٦	رأى المصنف في تحريف القرآن وتبديله
١٤١	الرجعة	١١٨	طريقة المؤلف في تفسيره
	التقية - تحريف القرآن - آيات	١١٩	القرآن وأهل البيت
١٤١	العتاب		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٢	الإمامية الإسماعيلية «الباطنية» وموقفهم من تفسير القرآن الكريم (١٧٤ - ١٨٨)	١٤٢	طعنه على الصحابة
١٧٤	كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم - مؤسسو هذه الطائفة	١٤٣	تعصبه لآل البيت
١٧٤	احتياهم على الوصول إلى أغراضهم ..	١٤٣	علم القرآن كله عند آل البيت - تأثر المؤلف في تفسيره بفروع الإمامية الفقهية
١٧٥	مراتب الدعوة عند الباطنية	١٤٣	نكاح المتعة
١٧٧	إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم ..	١٤٤	فرض الرجلين في الوضوء - الغنائم
١٧٨	موقف متقدمى الباطنية من تفسير القرآن الكريم	١٤٤	ميراث الأنبياء - نكاح الكتابيات
١٧٨	من تأويلات الباطنية القدامى	١٤٦	تأثره بمذهب المعتزلة في تفسيره - حرية الإرادة وخلق الأفعال
١٨٣	مقالة محمد بن مالك اليماني في الباطنية	١٤٧	رؤية الله - غفران الذنوب
١٨٣	موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم	١٤٧	٦ - بيان السعادة في مقامات العبادة لسلطان محمد الخراساني
١٨٨	تمهيد في بيان انتشار الباطنية في البلاد وتعدد ألقابهم	١٤٧	التعريف بمؤلف هذا التفسير - قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
١٨٨	البابية والبهائية (١٨٩ - ٢٠٦)	١٤٧	الإمامية الإثنا عشرية والمهدى المنتظر - القرآن والعترة - علم القرآن جميعه عند محمد والأوصياء
١٨٩	كلمة إجمالية عن نشأة البابية والبهائية . بهاء الله	١٤٩	تحريف القرآن وتبديله
١٩٠	الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى	١٥٠	نزول القرآن في شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم
١٩٠	موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم	١٥١	من التفسير الصوفى
١٩٥	أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السنة	١٥٥	من التفسير الفلسفى
١٩٥	إنتاج البابية والبهائية في التفسير ومثل من تأويلاتهم الفاسدة	١٥٨	آل البيت والأم السابقة
١٩٦	من تأويلات الباب	١٥٩	قصص القرآن
١٩٧	من تأويلات بهاء الله	١٦٢	الإمامة
١٩٨	من تأويلات عبد البهاء عباس	١٦٤	الرجعة - تحريف القرآن
٢٠٧	الزيدية: وموقفهم من تفسير القرآن الكريم (٢٠٧ - ٢٢١)	١٦٤	موقف المؤلف من الصحابة
٢٠٧	تمهيد	١٦٧	عتاب النبي ﷺ
٢٠٧	أهم كتب التفسير عند الزيدية	١٦٧	الناحية الفقهية في هذا التفسير - نكاح الكتابيات
		١٦٨	المتعة - فرض الرجلين في الوضوء
		١٦٨	ميراث الأنبياء
		١٦٩	الغنائم
		١٧٠	موقف المؤلف في تفسيره من المسائل الكلامية - رؤية الله
		١٧٠	السحر
		١٧٢	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٤٤	موقفه من الشيعة	٢١١	فتح القدير: للشوكاني - التعريف بمؤلف هذا التفسير
٢٤٤	رأيه في التحكيم	٢١١	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
	إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان	٢١٢	- طريقة الشوكاني في تفسيره
٢٤٥	وعلى ومن والأهما	٢١٣	نقله للروايات الموضوعة والضعيفة
	اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين	٢١٤	ذمه للتقليد والمقلدين
٢٤٨	المسلمين	٢١٧	حياة الشهداء
	الفصل الخامس: تفسير الصوفية (٢٥٠ - ٣٠٧)	٢١٧	التوسل
٢٥٠	أصل كلمة تصوف - معنى التصوف ..	٢١٨	موقفه من المتشابه
٢٥٠	نشأة التصوف وتطوره	٢١٩	موقفه من آراء المعتزلة
٢٥١	أقسام التصوف	٢١٩	موقف الشوكاني من مسألة خلق القرآن
٢٥١	أولاً: التفسير الصوفي النظري	٢٢٠	القرآن
	ابن عربي شيخ هذه الطريقة - تأثر ابن عربي بالنظريات الفلسفية		الخوارج: وموقفهم من تفسير القرآن (٢٢٢ - ٢٤٩)
٢٥٢	تأثره في تفسيره بنظرية وحدة الوجود ..	٢٢٢	كلمة إجمالية عن الخوارج
٢٥٣	قياسه الغائب على الشاهد	٢٢٤	الأزارقة - النجدات
٢٥٤	إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية ..	٢٢٤	الصفيرية - الإباضية
٢٥٦	التفسير الصوفي النظري في الميزان	٢٢٥	مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم ..
٢٥٩	رأينا في التفسير الصوفي النظري		سلطان المذهب يغلب على الخوارج في فهم نصوص القرآن
	ثانياً: التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري	٢٢٥	مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن
٢٦١	حقيقته - الفرق بينه وبين التفسير الصوفي النظري - هل للتفسير الإشاري أصل شرعي؟	٢٢٩	موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة، وأثر ذلك في تفسيرهم للقرآن
٢٦١	التفاوت في إدراك المعاني الباطنة وإصابتها	٢٣١	الإنتاج التفسيري للخوارج
٢٦٤	التفسير الإشاري في الميزان	٢٣٣	أسباب قلة إنتاج الخوارج في التفسير ..
٢٦٤	مقالة الشاطبي في التفسير الإشاري ...		هميان الزاد إلى دار المعاد لمحمد بن يوسف أطفيش
٢٧١	مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري	٢٣٦	التعريف بمؤلف هذا التفسير
٢٧٣	مقالة ابن الصلاح - مقالة سعد الدين التفتازاني	٢٣٦	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٢٧٣	مقالة ابن عطاء الله السكندري	٢٣٦	حقيقة الإيمان
٢٧٤	مقالة ابن عربي في التفسير الإشاري ...	٢٣٨	موقفه من أصحاب الكبائر
٢٧٨	رأينا في مقالة ابن عربي		حملته على أهل السنة - مغفرة الذنوب
٢٧٩	شروط قبول التفسير الإشاري	٢٣٩	رأيه في الشفاعة
٢٨١	أهم كتب التفسير الإشاري	٢٤١	رؤية الله تعالى
٢٨١	١ - تفسير القرآن العظيم للتستري ..	٢٤٢	أفعال العباد
		٢٤٣	موقفه من المتشابه
		٢٤٣	موقفه من تفسير الصوفية

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٠٩	كيف كان التوفيق بين الدين والفلسفة؟		التعريف بمؤلف هذا التفسير - التعريف
٣٠٩	الأثر الفلسفى فى تفسير القرآن الكريم .	٢٨١	بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
	الفريق المعاند للفلسفة - الفريق المسالم	٢٨٤	٢ - حقائق التفسير للمسلمى
٣٠٩	للفلسفة	٢٨٤	التعريف بمؤلف هذا التفسير
٣١٠	من تفسير الفارابى	٢٨٤	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٣١١	من تفسير اخوان الصفا	٢٨٥	طعن بعض العلماء على هذا التفسير ...
٣١٣	ترجمة ابن سينا	٢٨٦	رأينا فى هذه الطعون
٣١٤	مسلك ابن سينا فى التفسير	٢٨٦	نماذج من تفسير المسلمى
٣١٥	نماذج من تفسير ابن سينا	٣	٣ - عرائس البيان فى حقائق القرآن لأبى
٣١٨	رأينا فى تفسير الفلاسفة	٢٨٨	محمد الشيرازى
	الفصل السابع: تفسير الفقهاء		التعريف بمؤلف هذا التفسير - التعريف
	(٣١٩ - ٣٤٨)	٢٨٨	بهذا التفسير
	كلمة إجمالية عن تطور التفسير	٢٨٩	بعض ما جاء فى هذا التفسير
٣١٩	الفقهى		٤ - التأويلات النجمية لنجم الدين
	التفسير الفقهى من عهد النبوة إلى مبدأ	٢٩٠	داية، وعلاء الدولة السمنانى
٣١٩	قيام المذاهب الفقهية	٢٩٠	التعريف بمؤلفى هذا التفسير
	التفسير الفقهى فى مبدأ قيام المذاهب		التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه
٣٢٠	الفقهية	٢٩١	من تأويلات نجم الدين
	التفسير الفقهى بعد ظهور التقليد	٢٩٤	من تأويلات السمنانى
٣٢٠	والتعصب المذهبى	٢٩٥	٥ - التفسير المنسوب لابن عربى
	تنوع التفسير الفقهى تبعاً لتنوع الفرق	٢٩٥	من مؤلف هذا التفسير؟
٣٢١	الإسلامية	٢٩٦	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٣٢١	الإنتاج التفسيري للفقهاء	٢٩٨	نماذج من التفسير الإشارى
	١ - أحكام القرآن للجصاص «الحنفى»		نماذج من التفسير المبني على وحدة
٣٢٣	ترجمة المؤلف	٢٩٩	الوجود
٣٢٤	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه		ابن عربى ومذهبه فى تفسير القرآن الكريم
	- استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه	٣٠٠	ترجمة ابن عربى
٣٢٤	القرآن		ابن عربى بين أعدائه ومريديه - مكانته
٣٢٤	تعصبه لمذهب الحنفية	٣٠١	العلمية
٣٢٥	حملة الجصاص على مخالفيه	٣٠١	مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود ...
٣٢٦	تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة	٣٠٣	مذهب ابن عربى فى تفسير القرآن الكريم
	جملة الجصاص على معاوية رضى الله	٣٠٤	نماذج من التفسير الصوفى النظرى له ..
٣٢٦	عنه	٣٠٥	نماذج من التفسير الإشارى له
	٢ - أحكام القرآن للكيان الهراسى	٣٠٦	نماذج من التفسير الظاهر لابن عربى ...
٣٢٧	«الشافعى»		الفصل السادس: تفسير الفلاسفة
	ترجمة المؤلف - التعريف بهذا التفسير		(٣٠٨ - ٣١٨)
	وطريقة مؤلفه فيه - أهمية هذا التفسير		كيف وجدت الصلة بين التفسير
٣٢٧	ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعى :	٣٠٨	والفلسفة؟

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٥٦	إنكار التفسير العلمي - إنكار الشاطبي للتفسير العلمي	٣٢٨	تأديه مع الأئمة وحملته على الجصاص . ٣ - أحكام القرآن لابن العربي «الملكي»
٣٥٩	اختيارنا في هذا الموضوع الخاتمة .. كلمة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث (٣٦٣ - ٤٤٧)	٣٣٠	ترجمة المؤلف
٣٦٣	التفسير بين ماضيه وحاضره - مميزات التفسير في العصر الحديث	٣٣١	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٣٦٤	ألوان التفسير في العصر الحديث	٣٣١	- تفسير ابن العربي بين إنصافه واعتسافه طرف من إنصافه
٣٦٤	اللون العلمي للتفسير في عصرنا الحاضر	٣٣١	طرف من تعصبه لمذهبه - حملته على مخالفي مذهبه
٣٦٤	رواج التفسير العلمي في عصرنا الحاضر	٣٣٢	احتكامه إلى اللغة - كراهيته للإسرائيليات
٣٦٥	- أهم الكتب التي عنيت بهذا اللون .. الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى	٣٣٥	نفرته من الأحاديث الضعيفة
٣٧٠	الدوافع التي حملت المؤلف على كتابة هذا التفسير	٣٣٥	٤ - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي «الملكي»
٣٧٠	متى وكيف شرع المؤلف في كتابه هذا التفسير - غرض المؤلف من تفسيره -	٣٣٦	ترجمة المؤلف
٣٧١	مسلك المؤلف في تفسيره	٣٣٦	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٣٧٢	عدم قبول المثقفين لهذا التفسير مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر - طريقة المؤلف في تفسيره ...	٣٣٦	إنصاف القرطبي وعدم تعصبه
٣٧٢	نماذج من هذا التفسير	٣٣٨	موقفه من جملات ابن العربي على مخالفيه
٣٧٢	إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير	٣٤٠	٥ - كنز العرفان في فقه القرآن لمقداد السيورى «من الإمامية الإثنا عشرية» ..
٣٧٩	اللون المذهبي للتفسير في عصرنا الحاضر	٣٤٢	ترجمة المؤلف
٣٨١	اللون الإلهادي للتفسير في عصرنا الحاضر	٣٤٢	التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٣٨٣	الباعث على هذا اللون من التفسير	٣٤٢	٦ - الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوסף الثلاثي «الزيدى» ...
٣٨٤	نماذج من التفسير الإلهادي	٣٤٤	ترجمة المؤلف - التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه
٣٨٣	كتاب الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن - حملته على جميع المفسرين .	٣٤٤	اعتماد المؤلف على الروايات التي لا تصح - تقديره لكشاف الزمخشري ..
٣٩٠	طريقته في التفسير	٣٤٥	مسلكه في أحكام القرآن - رأيه في نكاح الكتابيات
٣٩١	إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام .	٣٤٥	رأيه في المسح على الخُفِّين
٣٩٢	موقفه من معجزات عيسى عليه السلام	٣٤٧	الفصل الثامن: التفسير العلمي (٣٤٩ - ٣٦٢)
٣٩٣	موقفه من معجزات موسى عليه السلام	٣٤٩	معنى التفسير العلمي - التوسع في هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به
٣٩٤	موقفه من معجزات إبراهيم عليه السلام	٣٤٩	الإمام الغزالي والتفسير العلمي
		٣٥١	الجلال السيوطي والتفسير العلمي
		٣٥٢	أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٢٢	كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام	٣٩٤	موقفه من معجزات داود عليه السلام ..
٤٢٣	إنتاج الشيخ رشيد في التفسير	٣٩٤	موقفه من معجزات سليمان عليه السلام
٤٢٤	مصادره في التفسير - هدفه في التفسير	٣٩٥	موقفه من معجزة الإسراء
٤٢٥	منهجه في التفسير	٣٩٦	إنكاره للملائكة والجن والشياطين ...
٤٢٥	آراؤه في التفسير		إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها
٤٢٦	رأيه في أصحابه الكبار - تدرعه		أحد من المجتهدين - حد السرقة - حد
	تقليده لشيخه في قصة آدم - تدرعه	٣٩٧	الزنا - تعدد الزوجات
٤٢٧	بالمجاز والتشبيه	٣٩٨	التسرى
٤٢٨	رأيه في السحر	٣٩٨	الربا
٤٢٩	رأيه في الشياطين - رأيه في الجن	٣٩٩	زكاة الزروع - مصارف الزكاة
٤٢٩	رأيه في معجزات النبي ﷺ	٤٠٠	الطلاق
٤٣٠	رأيه في مسائل من الفقه		اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في
٤٣٢	حملته على بعض المفسرين	٤٠١	عصرنا الحاضر
	حملته على البدع والخرافات - شرحه		مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
	لمهمات القرآن بما جاء في التوراة	٤٠١	وأثرها في التفسير
٤٣٢	والإنجيل - دفاعه عن الإسلام	٤٠١	محاسن هذه المدرسة
	٣ - الأستاذ الأكبر الشيخ محمد	٤٠٢	عيوب هذه المدرسة
٤٣٣	مصطفى المراغي	٤٠٣	أهم رجال هذه المدرسة
	الأستاذ المراغي في مدرسة الشيخ محمد	٤٠٥	١ - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .
٤٣٣	عبده	٤٠٥	إنتاجه في التفسير
٤٣٣	إنتاجه في التفسير	٤٠٧	منهجه في التفسير
٤٣٦	منهجه في التفسير		القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة
	مصادره في التفسير - موقفه من	٤٠٨	من القرآن
٤٣٦	مبهمات القرآن		كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير
٤٣٨	عنايته بإظهار أسرار التشريع	٤٠٨	ويكتبه
٤٣٩	معالجته للمشاكل الاجتماعية	٤١٣	معالجته للمسائل الاجتماعية
٤٤٢	توفيقه بين القرآن والعلم الحديث	٤١٦	تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث
٤٤٤	حرية الرأي في تفسيره	٤١٧	موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس
٤٤٨	رجاء واعتذار	٤٢٠	موقفه من السحر
٤٥٠	المراجع	٤٢٠	إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة
٤٥٨	محتويات الكتاب	٤٢٢	٢ - السيد محمد رشيد رضا

التفسير والمفسرون

تفسير القرآن الكريم، تفسير المفسرين، والتراجم والتاريخ،
نوع من شأنه لا يتم التفسير، وأما من أجل أهم كتب التفسير
من غير العظماء من التفسيرية، والقرآن الكريم

المؤلف: الدكتور محمد حسين النجدي

الموضوع: التفسير

مكتبة وهبة

الشارع الجمهورية، القاهرة

القاهرة، طبع في ١٩٧٠

النفسير والمفسرون

بحر تفصيلي عن نشأة التفسير وطوره . والوانه ومذاهبه .
مع عرض شامل لأشهر المفسرين . وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

تأليف
الدكتور محمد حسين الذهبي

الجزء الثالث

الناشر

مكتبة وهبة

٤ اشاع الجمهورية . عابدين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.
والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله. الذي أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً،
وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.
وبعد ...

فعقب استشهاد المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي في يوليو من عام ١٩٧٧،
عشرت أسرته بين أوراقه على كراستين كتبهما فضيلته بخطه، عبارة عن نُقُول أعدّها
في الفترة من (١٩٦٠ - ١٩٦٣) أثناء عمله أستاذاً بكلية الشريعة ببغداد.
ويبدو أنه - رحمه الله - كان يمهّد بهذه النقول للتعليق عليها لتكون إضافة
جديدة إلى بحثه الشامل عن «التفسير والمفسرون» عند الشيعة الإثني عشرية
والإسماعيلية - ولكن قضاء الله سبق فلم يتيسر له ذلك، وبقيت النقول على حالتها
كما كتبها دون إضافة أو تعليق.
ولما كانت هذه النُقول مما ينطبق عليه وصف فضيلته من أنها «تحتوى على
اتجاهات منحرفة في التاويل، فالكثير منها مملوء بخرافات وأباطيل لا يقرها عقل ولا
شرع، وكم فيها من لفظ قرآني حُرّف عن مدلوله الحقيقي، إلى مدلولات لا وجود لها
إلا في عقول أصحابها» (١).

لهذا رأينا نشر هذه النُقول كما كتبها فضيلته، لما لها من قيمة كبيرة في موضوع:
التفسير والمفسرون، وذلك بعد نقل صورة قلمية للشيعة - كما خطتها براءة ابن حزم
الظاهري (المتوفى عام ٤٥٦ هـ)، والشهرستاني (المتوفى عام ٥٤٨ هـ) - لتكون
كمقدمة تاريخية تضع أمام القارئ صورة واضحة المعالم للشيعة منذ قيامها حتى
عصرنا الحالي، مروراً بالفرق التي نشأت عنها - مع التعليق على مواضع منها حين
يجب التعليق.

يلى ذلك نبذة عن الشيعة وموقفها من تفسير القرآن الكريم - خاصة الإمامية
الإثني عشرية والإسماعيلية - مما كتبه الدكتور محمد حسين الذهبي في الجزء الثاني
من «التفسير والمفسرون» كتمهيد بين يدي البحث.

(١) انظر: الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم - للدكتور محمد حسين الذهبي - نشر
مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦، ص ٦١

وحين نشأت الحاجة إلى التعليق على بعض هذه النقول، رأينا أن يكون التعليق من نفس كلام فضيلته - ما أمكن ليكون البحث كله مستلهماً من فكره، ما دمنا لا نملك الإضافة إليه من عند أنفسنا، ولهذا استعنا بنفس الجزء من «التفسير والمفسرون».

وقد خرجنا الآيات القرآنية التي وردت في هذه النقول بعد ضبطها وتصحيح الأخطاء التي وردت في الكثير منها.

أما بالنسبة للنقول - موضوع البحث - فقد كتبها فضيلته بالقلم الرصاص في كراستين:

الأولى منهما تتكون من ٢٩ صفحة - وبالصفحة ٢٠ سطراً، ومرقمة من ١ إلى ٢٩ - وبأعلى الصفحة الأولى عبارة «سنة ١٩٦٠ .. ثم:

«كتاب: «أساس التأويل»، طبع منشورات دار الثقافة ببيروت، تأليف الداعي الإسماعيلي النعمان بن حيون التميمي المغربي قاضي قضاة الدولة الفاطمية المتوفى سنة ٣٦٣ هـ».

- وتنتهي الكتابة في صفحة ٣ في وسط الصفحة بعبارة:

«وقال: ومهما يكن من أمر.....».

ثم عبارة: «يُرجع إلى كتاب «أساس التأويل». وكتاب «الرياض» ليكمل البحث». وبقية الصفحة خالية من الكتابة.

- وفي أول صفحة ٤ كتب فضيلته:

«أربعة كتب إسماعيلية منقولة عن النسخة الخطية هـ ٧٥، المحفوظة في مكتبة أمبروسيانة - ميلانو، عنى بتصحيحها الدكتور شتروطمان للمجمع العلمي - غوتنبفن».

«الرسالة الأولى: مسائل مجموعة من الحقائق العالمية والدقائق والأسرار السامية، لمؤلف مجهول».

«الرسالة الثانية: رسالة الإيضاح والتبيين في كيفية تسلسل ولادتي الجسم والدين، لعلی بن محمد بن الوليد».

«الرسالة الثالثة: رسالة تحفة المرتاد وُعصّة الأضداد، لعلی بن محمد بن الوليد».

«الرسالة الرابعة: رسالة الاسم الأعظم، لمؤلف مجهول، طبعت بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة ١٢٨١ هـ».

- وفي نهاية صفحة ١٥ كتب فضيلته:

«نقول من رسالة تحفة المرتاد وُعصّة الأضداد .. قال: لا شيء».

- وفي صفحة ١٦:

«نُقول من كتاب: «مزاج التنسيم»، تأليف ضياء الدين إسماعيل ابن هبة الله بن إبراهيم الإسماعيلي السليمانى، عنى بتصحيحه الدكتور شتروطمان للمجمع العلمى غوتينفن، عن النسخة الخطية هـ ٧٦ المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة - ميلانو» .
وقد عنى فضيلة الدكتور الشيخ الذهبى - رحمه الله - فى هذه الصفحة بفك رموز الكتابة السرية الموجودة بالكتاب - كما نقلها فى ص ٢٩ فى نهاية النصوص .. وفى آخر صفحة ٢٩ عبارة «بغداد ٦ / ٥ / ١٩٦٢» ثم الإمضاء .

● أما الكراسة الثانية فهى مكونة من ٦٢ صفحة - وبالصفحة ٢٠ سطرًا - ومرقمة من (١ - ٦٠)، ويوجد تكرار فى الترقيم عند ص ٣١، ص ٥٠ - وقد كتبها فضيلته أيضاً بالقلم الرصاص .

- وجاء فى الصفحة الأولى منها:

«نُقول عن كتاب «الكافى» لأبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى الرازى (المتوفى سنة ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ)، طبع فى إيران سنة ١٣٨١ هـ، الناشر مكتبة الصدوق» .

- وبصفحة ٢٤ عبارة «انتهى النقل من «الكافى» - إمضاء - كلية الشريعة - بغداد ٢٤ / ١ / ١٩٦٣» .

- ص ٢٥: «ترجمة مؤلف «مرآة الأنوار، مشكاة الأسرار» ملخصة من المقدمة التى كتبها محمود بن جعفر الموسوى الزرندى لمرآة الأنوار التى ذيلها بتوقيعه، وبأنه كتبها فى طهران بتاريخ ٢٢ محرّم سنة ١٣٧٥ هـ، ومرآة الأنوار طبع كالمقدمة لتفسير البرهان للبحرانى فى طهران فى سنة ١٣٧٤ هـ» .

- ص ٣٠: «إمضاء - كلية الشريعة - بغداد سنة ١٩٦٣» .

- ص ٣١: «البرهان فى تفسير القرآن للسيد هاشم بن السيد سليمان بن سيد إسماعيل بن سيد عبد الجواد الحسينى البحرانى التوبلى (المتوفى سنة ١٩٠٧ / أو ١٩٠٩ م)، والكتاب طبع للمرة الأولى على الحجر فى طهران سنة ١٢٩٥ هـ فى مجلدين يبلغ عدد صفحاتهما ١١٤٨ صفحة، وطبع للمرة الثانية فى أربع مجلدات يبلغ عدد صفحاتها ١٩٩٦ صفحة، وذلك فى سنة ١٣٧٥ هـ». وتنتهى النُقول بالصفحة المرقمة (٦٠) من الكراسة الثانية، وبهذا علمنا أن فضيلته قد كتبها فى الفترة من عام (١٩٦٠ - ١٩٦٣)، أثناء عمله أستاذًا بكلية الشريعة ببغداد، كما قدمنا .

والمطالع لهذه النقول يلمس لأول وهلة اتجاه أصحابها إلى إخضاع النص القرآنى لمذهبهم، وقسره على موافقة آرائهم وأهوائهم، وتأويل ما يصادمهم من ذلك تأويلاً لا ينافى مذهبهم ولا يعارض عقيدتهم .

ولقد استفحل الأمر إلى حد جعلهم يتسعون في حماية مذهبهم وأهوائهم والترويج لها في غير محيطهم، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله - سبحانه - على وفق أهوائهم، ومقتضى نزعتهم ونحلتهم.

« وكان طبيعياً وهم ينتسبون إلى الإسلام ويعترفون بالقرآن - ولو في الجملة - نقول: ولو في الجملة، لأن أكثر الإمامية الإثنى عشرية يقولون: بأن القرآن الكريم وقع فيه التحريف بالزيادة والنقصان، وهو قول باطل من أساسه - كان طبيعياً والأمر كذلك - أن يبحثوا عن مستند يستندون إليه من القرآن الكريم، ويحرصون كل الحرص على أن يكون القرآن شاهداً لهم لا عليهم، فما وجدوه من الآيات القرآنية يمكن أن يكون - في نظرهم - دليلاً على مذهبهم تمسكوا به، وما وجدوه مخالفاً لمذهبهم، حاولوا بكل ما يستطيعون أن يجعلوه موافقاً له، أو على الأقل غير معارض، ولو أدى ذلك إلى الخروج بالنص القرآني عن معناه الذي سيق من أجله» (١).

وهم في أخذهم بالتقية - التي هي المدارة والمصانعة، وهي عندهم مبدأ أساسى وجزء من الدين، في حين أنها لا تعدو أن تكون مبدأ سياسياً، وباباً من أبواب النفاق والخداع تجل عنه رحمة الله سبحانه وتعالى - لا يتورعون عن الانحراف بالتأويل عن النهج القويم لفهم كتاب الله تعالى، بما ينبو عن سياق السورة، خدمة لمذهبهم وتركيزاً لعقيدتهم، ولو خالفوا في ذلك ما عليه جمهور المفسرين، أو تعارضوا مع أصول اللغة.

رحم الله الدكتور محمد حسين الذهبي، وجزاه عن الإسلام خيراً. ونسأله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يسدد خطانا ويحقق رجاءنا، إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

القاهرة في: السبت ٧ شعبان سنة ١٤٠٨ هـ (الموافق ٢٦ مارس سنة ١٩٨٨ م).

محمد الأنور أحمد البلتاجي

* * *

(١) عن الانحرافات المحرفة، مرجع سابق، ص ٥٣ (بتصرف).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمام بحر الأنوار احمد العلي

مقدمة : في تاريخ الشيعة (*)

الشيعة: هم الذين شايعوا علياً - كرم الله وجهه - على الخصوص وقالوا بخلافته نصاً ووصاية، إما جلياً وإما خفياً^(١)، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده.

(*) قدمنا للبحث بهذه المقدمة التاريخية، لنضع أمام القارئ صورة واضحة المعالم للشيعة منذ قيامها إلى عصرنا الحالي - مروراً بالفرق التي نشأت عنها - وكان فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي - رحمه الله - قد اكتفى في بحثه بالتعريف بثلاث فرق منها فقط وهي: الإمامية الإثنى عشرية، والإمامية الإسماعيلية، والزيدية... وهي الفرق التي لا تزال موجودة إلى اليوم محتفظة بتعاليمها وآرائها.

(١) يستند الشيعة في دعواهم بخلافة علي كرم الله وجهه بالنص والوصاية على الحديث الذي أخرجه الطبراني عن زيد بن أرقم قال: «خطب رسول الله ﷺ، بغدير خم (نبع في واد قريب من الجحفة على الطريق بين مكة والمدينة، مسكن بني خزاعة وكنانة) ويقولون: إن النبي ﷺ نزل به منصرفه من حجة الوداع، تحت شجرات فقال: «أيها الناس: يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسئول وإنكم مسئولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً، فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وأن ناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم أشهد». ثم قال: «يا أيها الناس: إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاة فهذا مولاة - يعني علياً - اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»، ثم قال: «يا أيها الناس: إني فرطكم، وإنكم واردون على الحوض، حوض أعرض مما بين بصرى إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فضة، وإني سائلكم حين تردون على الثقلين، كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله عز وجل، سبب طرفه بيد الله تعالى، وطرفكم بأيديكم فاستمسكوا به لا تفلوا ولا تبدلوا، وعشرتي وأهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا على الحوض» أهـ.

ويدفع أهل السنة هذا الحديث بعدم تواتره عند أهل السنة، ثم يقولون: «إن حمل الصحابة على الصخرة يستوجب تأويل حديث الغدير متواتراً كان أو غير متواتر، ولذا قال أهل السنة: لفظ «المولى» يستعمل في معاني محدودة ورد بها القرآن العظيم، فتارة يكون بمعنى الأولي، كقوله تعالى مخاطباً للكفار: ﴿مَا أُولَى النَّارُ مِنْ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٥]، أي أولى بكم، وتارة بمعنى الناصر، كقوله عز اسمه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وبمعنى الوارث كقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ =

= وَالْأَقْرَبُونَ ﴿ [النساء: ٣٣] ، أى ورثة، وبمعنى العصبية نحو قوله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَّ مِنْ وَرَائِي ﴾ [مريم: ٥] ، وبمعنى الصديق: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ [الدخان: ٤١] .

وكذلك لفظ « الولي » يجيء بمعنى الأولي بالتصرف كقولنا: فلان ولي القصر، وبمعنى الناصر والمحبوب، قالوا: فعلل معنى الحديث: « من كنت ناصره، أو صديقه، أو حبيبه، فإنّ علياً كذلك »، وهذا المعنى يوافق كرامة السلف الصالح، وإمامة الخلفاء الثلاثة رضی الله عنهم جميعاً .

وربما جعلوا القرينة على إرادته من الحديث، أن بعض من كان مع عليّ في اليمن رأى منه شدة في ذات الله، فتكلم فيه ونال منه، وبسبب ذلك قام النبي ﷺ يوم الغدير بما قام فيه من الثناء على الإمام، وأشاد بفضلته تنبيهاً إلى جلالته قدره، ورداً على من تحامل عليه، ويرشد بذلك أنه أشاد في خطابه بعليّ خاصة . فقال: « من كنت وليه فعليّ وليه » . وبأهل البيت عامة فقال: « إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي » . فكان كالوصية لهم يحفظه في عليّ بخصوصه، وفي أهل بيته عموماً، وقالوا: وليس فيها عهد بخلافة، ولا دلالة على إمامة (المراجعات: أبحاث جديدة في أصول المذهب والإمامة العامة، من مطبوعات النجاح بالقاهرة. الطبعة ١٧ . سنة ١٩٧٦ . ص ٢٣٠ المراجعة (٥٧)) للشيخ سليم البشري، شيخ الأزهر كتبها لإمام الشيعة في مصر عبد الحسين شرف الدين العاملي ، في الخامس والعشرين من المحرم سنة ١٣٣٠ هـ) .

كما يحتج الشيعة في الوصاية لعليّ كرم الله وجهه بالحديث الذي أخرجه محمد بن حميد الرازي، عن سلمة الأبرش عن ابن إسحاق عن أبي ربيعة الإيادي، عن ابن بريدة، عن أبيه بريدة، عن الرسول ﷺ أنه قال: « لكل نبي وصي ووارث، وإن وصيى ووارثي عليّ بن أبي طالب » . وبالحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير والإسناد إلي سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن وصيى وموضع سرى، وخير من أترك بعدي، ينجز عدتي ويقضى ديني: عليّ بن أبي طالب »، ويرون هذا نصاً صريحاً في أنه الوصي، وأنه أفضل الناس بعد النبي ﷺ، وأن فيه الدلالة الالتزامية على خلافته، ووجوب طاعته .

ويستشهدون على مكانة عليّ كرم الله وجهه، بأن الرسول ﷺ كان إذا ألمّ بالسيدة فاطمة رضی الله عنها، كان يذكّرها بنعمة الله ورسوله عليها، إذ زوجها من أفضل أمته، ليكون ذلك عزاءً لها، وسلوة عما يصيبها من طوارق الدهر، ويسوقون الحديث الذي أخرجه أحمد في الجزء الخامس من مسنده عن معقل بن يسار، أن النبي ﷺ عاد فاطمة رضی الله عنها في مرض أصابها على عهده، فقال لها: « كيف تجدينك »؟ قالت: والله لقد اشتد حزني واشتدت فاقتي وطال سقمي، قال ﷺ: « أو ما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلاً »؟

وينكر أهل السنة والجماعة أحاديث الوصية، بما رواه البخاري في صحيحه عن الأسود، قال: ذكّر عند عائشة رضی الله عنها، أن النبي ﷺ أوصى إلى عليّ رضی الله عنه، فقالت: « من قاله؟ لقد رأيت النبي ﷺ وإني لمسندته إلى صدرى فدعا بالطست فانخنست فمات، فما شعرت، فكيف أوصى إلى عليّ؟ »

كما أخرج البخاري في الصحيح عنها من عدة طرق أنها كانت تقول: « مات رسول الله ﷺ بين حاقنتي وذاقنتي »، وكثيراً ما قالت: « مات بين سحري ونحري »، وربما قالت: « نزل به ورأسه على فخذي »، فلو كانت ثمة وصية لما خفيت عليها .

ويقولون: إنَّ الإمامة ليست قضية مصلحة تُناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصهم، بل هي قضية أصولية هو ركن الدين، ولا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله وتفويضه إلى العامة وإرساله.

ويجمعهم القول بوجود التعيين والتنصيب، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً وعقداً إلا في حالة التقيّة. ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك، ولهم في تعدية الإمامة كلام وخلاف كثير، وعند كل تعدية وتوقف مقالة ومذهب وخط.

وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية. وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنّة، وبعضهم إلى التشبيه.

١ - الكيسانية (١)

أصحاب كيسان (٢) مولى أمير المؤمنين عليّ - كرم الله وجهه - وقيل: تلميذ للسيد محمد ابن الحنفية (٣)، ويعتقدون فيه اعتقاداً بالغاً من إحاطته بالعلوم كلها واقتباسه من السيدين الأسرار كلها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس. ويجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان

= وبما في صحيح مسلم عن عائشة رضی الله عنها قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً، ولا شاة ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء».

وبما جاء في الصحيحين عن طرحة بن مصرف قال: «سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل كان النبي ﷺ أوصى؟ قال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية ثم تركها؟ قال: أوصى بكتاب الله». ويرون أن هذه الأحاديث أصح من الأحاديث التي يوردها الشيعة لثبوتها في الصحيحين، دون تلك المقدّمة عند التعارض وأن عليها المعول. (انظر: المراجعات، المراجعة (٦٩) ص ٢٥٧). وإنما توسعنا في الكلام عن هذا الموضوع لأنه الأساس الذي تقوم عليه دعوى الشيعة بأن الخلافة لعليّ كرم الله وجهه. منصوص عليها موصى بها من الرسول ﷺ، وعلى هذا فالإمامة عندهم لا تخرج من أولاده، ويرون أنها قضية أصولية من أركان الدين. وبهذا تثبت عندهم عصمة الأئمة في الكبائر والصغائر كما جاء بنص الشهرستاني (البلتاجي).

(١) فرقة إسلامية منقرضة، كانت تقول بإمامة محمد بن عليّ بن أبي طالب رضی الله عنهما، المعروف بابن الحنفية.

(٢) كيسان مولى عليّ بن أبي طالب، وكيسان هذا هو الذي دلّ المختار بن أبي عبيد الثقفي على قتلة الحسين فانتقم منهم المختار وقتلهم شرقلة، وهناك من يقول: إن الكيسانية سميت بهذا الاسم نسبة إلى المختار السالف الذكر، فقد قيل: إنه كان يسمى كيسان. (إسلام بلا مذاهب، للدكتور مصطفى الشكعة، طبع الدار المصرية للطباعة والنشر، ص ١٧٠).

(٣) محمد ابن الحنفية: هو محمد بن عليّ بن أبي طالب (١٦ - ٨١ هـ)، ونسب إلى أمه - امرأة من بني حنيفة اسمها خولة - قضى معظم حياته في الحجاز بين مكة والمدينة، عُرف بالفقه واعتزل الفتن، ويرى بعض الشيعة أنه المهدي المنتظر.

الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها على رجال... فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل، وحمل بعضهم على ضعف الاعتقاد بالقيامة، وحمل بعضهم على القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت، فمن مقتصر على واحد معتقد أنه لا يموت ولا يجوز أن يموت حتى يرجع، ومن معد حقيقة الإمامة إلى غيره ثم متحير عليه متحير فيه، ومن يدع حكم الإمامة فليس من الخيرة وكلهم خيارى منقطعون، ومن اعتقد أن الدين طاعة رجل ولا رجل له فلا دين له، ونعوذ بالله من الخيرة والجور بعد الكور.

● المختارية :

أصحاب المختار بن أبي عبيد^(١)، كان خارجياً ثم صار زبيرياً، ثم صار شيعياً وكيسانياً، قال بإمامة محمد ابن الحنفية بعد أمير المؤمنين على رضي الله عنهما، وقيل: لا، بل بعد الحسن والحسين، وكان يدعو الناس إليه ويظهر أنه من رجاله ودعائه، ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به.

ولما وقف محمد ابن الحنفية على ذلك تبرأ منه خاصة، وأظهر لأصحابه عند العامة براءته ليصرف الناس عنه ليمشى أمره على إمارة الحسين، وليجمع أمر زين العابدين^(٢) على أعداء أهل الدين، وأنه إنما يبث على الخلق ذلك ليتمشى أمره ويجتمع الناس عليه، وإنما انتظم له ما انتظم بأمرين:

أحدهما: انتسابه إلى محمد ابن الحنفية علماً ودعوة.

والثاني: قيامه بثأر الحسين رضي الله عنه، واشتغاله ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين.

ومن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى.. والبداء له معان، فالبداء في العلم - وهو أن يظهر له خلاف ما علم - ولا أظن عاقلاً يعتقد هذا الاعتقاد، والبداء في الإرادة - وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم، والبداء في الأمر -

(١) المختار بن أبي عبيد الثقفي (توفي سنة ٦٧ هـ)، من زعماء الثائرين على بني أمية، اشترك في ثورة «مسلم بن عقيل» فسجنه «عبيد الله بن زياد» ونفاه، ثم ثار في الكوفة طلباً بثأر الحسين رضي الله عنه، وانتصر قائده «إبراهيم بن مالك الأشتر» على الجيش الأموي في معركة «الخانز» . حيث قُتل «عبيد الله بن زياد» في محاولة يائسة للدفاع عن الكوفة، وقد حاصره فيها «مصعب بن عمير» .

(٢) زين العابدين: هو علي بن الحسين (٣٨ - ٩٥ هـ)، رابع الأئمة عند الشيعة، ولد وتوفي بالمدينة، يعتبر المؤسس الثاني للمدرسة في الإسلام، تميز بإنجازاته في تحرير العبيد، كما تميز بأدب الدعاء جمعت أدعيته في الصحيفة السجادية.

وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بعده بخلاف ذلك . ومن لم يُجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة في الأوقات المختلفة متناسخة .

وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال، إما بوحى يُوحى إليه، وإما برسالة من قبل الإمام . فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة، فإن وافق كونه قوله، جعله دليلاً على صدق دعواه . وإن لم يوافق قال : قد بدا لربكم !!

وكان لا يُفرق بين النسخ والبداء، قال : إذا جاز النسخ في الأحكام جاز البداء في الأخبار .

وقيل : إن السيد محمد ابن الحنفية تبرأ من المختار حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس أنه من دعائه ورجاله، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعتها المختار من التأويلات الفاسدة، والمخاريق المموهة .

فمن مخاريقه : أنه كان عنده كرسي قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : « هذا من ذخائر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل » . فكان إذا حارب خصومه يضعه في الصف ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصر، وهذا الكرسي محله فيكم محل التابوت في بني إسرائيل، وفيه السكينة والبقية، والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم » .

وجديث الحمامات البيض التي ظهرت في الهواء -- وقد أخبرهم قبل ذلك بأن الملائكة تنزل على صورة الحمامات البيض - معروف، والأسجاع التي ألفتها أبرد تأليف مشهور .

وأما حمله على الانتساب إلي محمد ابن الحنفية حسن اعتقاد الناس فيه وامتناء القلوب بحبه، والسيد كان كثير العلم غزير المعرفة وقاد الفكر مصيب الخاطر في العواقب، وقد أخبره أمير المؤمنين عن أحوال الملاحم، وأطلعته على مدارج المعالم، قد اختار العزلة وآثر الخمول على الشهرة، وقد قيل إنه كان مستودعاً علم الإمامة حتى سلم الأمانة إلى أهلها، وما فارق الدنيا حتى أقرها في مستقرها، وكان « السيد الحميري » « وكثير » الشاعر من شيعته، قال « كثير » فيه :

الأإن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
علي ، والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط ، سبط إيمان وبر	وسبط غيبتته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمه اللواء
يغيب ، ولا يرى فيهم زماناً	برضوى ، عنده غسل وماء

وكان « السيد الحميري » أيضاً يعتقد أنه لم يميت، وأنه في جبل رضوى بين أسد

ونمر يحفظانه، وعنده نضاًختان تجريان بماء وعسل، ويعود بعد الغيبة فيملاً العالم عدلاً كما ملئت جوراً، وهذا هو الأول حكم بالغيبة، والعود بعد الغيبة حكم به الشيعة وجرى ذلك في بعض الجماعة حتى اعتقدوه ديناً وركناً من أركان التشيع.

ثم اختلف الكيسانية بعد انتقال محمد ابن الحنفية في سوق الإمامة، وصار كل اختلاف مذهباً.

● الهاشمية :

أتباع أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية، قالوا بانتقال محمد ابن الحنفية إلى رحمة الله ورضوانه، وانتقال الإمامة منه إلى ابنه هاشم.

قالوا: فإنه أفضى إليه أسرار العلوم، وأطلعته على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس، وتقدير التنزيل على التأويل، وتصوير الظاهر على الباطن.

وقالوا: إن لكل ظاهر باطناً، ولكل شخص روحاً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني، وهو العلم الذي استأثر على (كرم الله وجهه) به ابنه محمد ابن الحنفية، وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي هاشم، وكل من احتتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً.

واختلف بعد أبي هاشم شيعته خمس فرق:

قالت فرقة: إن أبا هاشم مات منصرفاً من الشام بأرض الشراة، وأوصى إلى محمد ابن عبد الله بن عباس، وأنجزت في أولاده الوصية حتى صارت الخلافة إلى أبي العباس.

قالوا: ولهم في الخلافة حق لاتصال النسب، وقد توفي رسول الله ﷺ وعمه العباس أولى بالوراثة.

وفرقة قالت: إن الإمامة بعد موت أبي هاشم لابن أخيه الحسن بن علي ابن محمد ابن الحنفية.

وفرقة قالت: لا، بل إن أبا هاشم أوصى إلى أخيه علي بن محمد، وعلي أوصى إلى ابنه الحسن. فالإمامة عندهم في بني الحنفية لا تخرج إلى غيرهم.

وفرقة قالت: إن أبا هاشم أوصى إلى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي، وأن الإمامة خرجت من بني هاشم إلى عبد الله، وتحولت روح أبي هاشم إليه.

والرجل ما كان يرجع إلى علم وديانة، فاطلع بعض القوم على خيانتة وكذبه فأعرضوا عنه، وقالوا بإمامة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان من مذهب عبد الله: أن الأرواح تتناسخ من شخص إلى شخص، وأن الثواب والعقاب في هذه الأشخاص، إما أشخاص بني آدم، وإما أشخاص الحيوانات!!

قال: وروح الله تناسخت حتى وصلت إليه وحلت فيه، وادعى الألوهية والنبوة معاً، وأنه يعلم الغيب، فعبدته شيعته الحمقى، وكفروا بالقيامة لاعتقادهم أن التناسخ يكون في الدنيا، والثواب والعقاب في هذه الأشخاص.

وتأول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ [المائدة: ٩٣]... الآية، على أن من وصل إلى الإمام وعرفه، ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم ووصل إلى الكمال والبلاغ.

وعنه نشأت الخرمية والمزدكية بالعراق... ومات عبد الله بخراسان وافتقرت أصحابه، فمنهم من قال: إنه بعد حى لم يمّت ويرجع، ومنهم من قال: بل مات وتحوّلت روحه إلى إسحاق بن زيد بن الحارث الأنصارى، وهم الحارثية الذين يبيحون الحرّات، ويعيشون عيش من لا تكليف عليه.

وبين أصحاب عبد الله بن معاوية، وبين أصحاب محمد بن علىّ خلاف شديد في الإمامة، فإن كل واحد منهما يدعى الوصية من أبى هاشم إليه، ولم يثبت الوصية على قاعدة تعتمد.

● البيانية (١):

أتباع بيان بن سمعان النهدي، قالوا بانتقال الإمامة من أبى هاشم إليه، وهم من الغلاة القائلين بالألوهية أمير المؤمنين علىّ (كرم الله وجهه) قال: حلّ في علىّ جزء إلهى واتحد بجسده، فبه كان يعلم الغيب إذا أخبر عن الملاحم وصح الخبر، وبه كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر، وبه قلع باب خبير.

وعن هذا قال: «والله ما خلعتُ باب خبير بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية، ولكن قلعته بقوة ملكوتية بنور ربها مضيئة». فالقوة الملكوتية في نفسه كالمصباح في المشكاة، والنور الإلهى كالنور فى المصباح. قال: وربما يظهر علىّ فى بعض الأزمان.

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]: أراد به علىاً فهو الذى يأتى فى ظلل، والرعد صوته، والبرق تبسمه!! (٢).

ثم ادعى «بيان» أنه قد انتقل إليه الجزء الإلهى بنوع من التناسخ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة، وذلك الجزء هو الذى استحق به آدم سجود الملائكة.

(١) أتباع بيان بن سمعان التميمى، وقد ألهوا علىاً وقالوا: إن الألوهية انتقلت إليه بالتناسخ (إسلام بلا مذاهب، ص ١٧٥).

(٢) لا شك أن مثل هذه الترهات قد أساءت إلى أهل البيت وأسأت إلى الشيعة أنفسهم، ومن المضحك أن يظن بعض الشيعة أن علىاً كرم الله وجهه لا يزال يعيش فى السحاب، فإذا =

وزعم أن معبوده على صورة إنسان، عضواً فعضواً، وجزءاً فجزءاً، وقال: يهلك كله إلا وجهه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ !! [القصص: ٨٨].

ومع هذا الخزي الفاحش، كتب إلى محمد بن علي بن الحسين الباقر ودعاه إلى نفسه، وفي كتابه: «أسلم تسلم وترتقى من سلم، فإنك لا تدري حيث يجعل الله النبوة»، فأمر الباقر أن يأكل رسوله «عمر بن أبي عفيف» - قرطاسه الذي جاء به، فأكله فمات في الحال.. وقد اجتمعت طائفة على بيان ابن سمعان ودانوا بمذهبه، فقتله خالد بن عبد الله القسري على ذلك.

● الرزامية :

أتباع رزام، ساقوا الإمامة من علي إلى ابنه محمد ثم إلى ابنه أبي هاشم ثم منه إلى علي بن عبد الله بن عباس بالوصية، وهؤلاء ظهروا بخراسان في أيام أبي مسلم، حتى قيل إن أبا مسلم كان على هذا المذهب لأنهم ساقوا الإمامة إلى أبي مسلم فقالوا: له حظ في الإمامة، وادّعوا حلول روح الإله فيه، ولهذا أيدته علي بنى أمية حتى قتلهم عن بكرة أبيهم.

وقالوا بتناسخ الأرواح، وللمقنع الذي ادّعى الإلهية لنفسه مخاريق أخرجها، كان في الأول على هذا المذهب وتابعه مبيضة ما وراء النهر، وهؤلاء صنعة من الخرمية دانوا بترك الفرائض، وقالوا: الدين معرفة الإمام فقط.

ومنهم من قال: الدين أمران: معرفة الإمام، وأداء الأمانة، ومن حصل له الأمران فقد وصل إلى حال الكمال وارتفع عنه التكليف !!

ومن هؤلاء من ساق الإمامة إلى محمد بن عبد الله بن عباس، من ابنه أبي هاشم ابن محمد ابن الحنفية وصية إليه لا من طريق آخر.

وكان أبو مسلم - صاحب الدولة - على مذهب الكيسانية في الأول واقتبس من دعواتهم العلوم التي اختصوا بها، وأحسن منهم أن هذه العلوم مستودعة فيهم، وكان يطلب المستقر فيه فأنفذ إلى الصادق جعفر بن محمد: «إني قد أظهرت الكلمة ودعوة الناس عن موالاة بنى أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فلا مزيد عليك»، فكتب إليه الصادق: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زمانى». فحاد إلى أبي العباس ابن محمد وقلده الخلافة، وكذلك كتب إليه أبو مسلم فأحرق كتابه.

=أظلت سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن، وهؤلاء السحابيون يعرفون بالمنصورية - نسبة إلى رئيسهم أبي المنصور الكسيف الذي سمي بذلك - لأنه كان يتأول قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، فالكسيف عندهم هو علي وهو في السحاب. (إسلام بلا مذاهب، ص ١٧٥، ١٧٦).

٢ - الزيدية

أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي (كرم الله وجهه) (١)، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة (رضي الله عنهما) ولم يجوزوا ثبوت إمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة يكون إماماً واجب الطاعة، سواء أكان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين.

وعن هذا قالت طائفة منهم بإمامة محمد وإبراهيم الإمامين ابني عبد الله بن الحسن ابن الحسين اللذين خرجا في أيام المنصور وقتلا علي ذلك. وجوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة.

وزيد بن علي، لما كان مذهبه هذا المذهب، أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم فتعلم في الأصول لواصل بن عطاء الغزال (٢) رأس المعتزلة، مع اعتقاد واصل بأن جده علي بن أبي طالب في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأصحاب الشام ما كان علي يقين من الصواب، وأن أحد الفريقين منهما كان علي الخطأ لا بعينه، فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلها معتزلة، وكان من مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، فقال: كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها من تسكين نائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً، وسيف أمير المؤمنين عليه السلام عن دماء المشركين من قريش لم يحف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن من عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ، ألا ترى أنه لما أراد في مرضه الذي مات فيه تقليد الأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه زعق الناس وقالوا: لقد وليت علينا فظاً غليظاً. فما كانوا يرضون بأمر المؤمنين عمر

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٨٠ - ١٢٢ هـ) دعا إلى الثورة في عهد هشام بن عبد الملك وحدد منهاجاً لثورته أهم ما جاء فيه: جهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفئء بين أهله بالسواء، ورد المظالم... وفشلت ثورته وقتل.

(٢) واصل بن عطاء، أبو حذيفة (توفي سنة ١٣١ هـ)، رأس متكلمي المعتزلة وأكبر أركان هذه النحلة، وإليه تنسب «الواصلية»، ولد بالمدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتصل بالحسن البصري وعمرو بن عبيد، لقب بالغزال لتصدقه على فقيرات معامل الغزل، له: «السبيل إلى معرفة الحق»، و«الخطب في التوحيد والعدل».

لشدة وصلابة وغلظ له في الدين وفضاظة علي الأعداء، حتى سَكَنَهُم أبو بكر رضي الله عنه. وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائم، فيرجع إليه في الأحكام ويحكم بحكمه في القضايا».

ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، وعرفوا أنه لا يتبرأ عن الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه فسميت رافضة، وجرت بينه وبين أخيه محمد الباقر مناظرة، لا من هذا الوجه بل من حيث كان يتلمذ لواصل بن عطاء، ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده في قتال الناكثين والقاسطين، ومن يتكلم في القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت، ومن حيث أنه كان يشترط الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً، حتى قال له يوماً: «على قضية والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج».

ولما قُتِلَ زيد بن عليّ وصُلب، قام بالإمامة بعده يحيى بن زيد ومضى إلى خراسان، واجتمعت عليه جماعة كثيرة، وقد وصل إليه الخبر من الصادق جعفر بن محمد رضي الله عنه بأنه يقتل كما قُتِلَ أبوه، ويُصَلب كما صُلب أبوه، فجرى عليه الأمر كما أخبر، وقد فوّض الأمر بعده إلى محمد وإبراهيم الإمامين وخرجا بالمدينة، ومضى إبراهيم إلى البصرة واجتمع الناس عليهما فقتلا أيضاً، وأخبرهم الصادق بجميع ما تم عليهم وعرفهم أن آباءه رضي الله عنهم أخبروه بذلك كله، وأن بني أمية يتناولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها وهم يستشعرون بغض أهل البيت، ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم.

وكان يشير إلى أبي العباس وأبي جعفر ابني محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، إننا لا نخوض في الأمر حتى يتلاعب بها هذا وأولاده - إشارة إلى المنصور - فزيد بن عليّ قُتِلَ بكناسة الكوفة، قتله هشام بن عبد الملك، ويحيى بن زيد قُتِلَ بجوزجان خراسان، قتله أميرها، ومحمد الإمام قتله بالمدينة عيسى بن ماهان، وإبراهيم الإمام قُتِلَ بالبصرة، أمر بقتلهما المنصور.

ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلم والجيل لم يتحلوا بدين الإسلام بعد، فدعى الناس دعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن عليّ فدانوا بذلك ونشأوا عليه، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين.

وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلي أمرهم، وخالفوا بنى أعمامهم من الموسوية في مسائل الأصول، ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول. وطعنت في الصحابة طعن الإمامية، وهم أصناف ثلاثة: جارودية، وسليمانية، وبترية.. والصالحية منهم والبترية على مذهب واحد.

● الجارودية :

أصحاب أبي الجارود^(١)، زعموا أنّ النبي ﷺ نصّ على عليّ كرم الله وجهه بالوصف دون التسمية، والإمام بعده عليّ، والناس قصّروا حيث لم يتعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم فكفروا بذلك.. وقد خالف أبو الجارود في هذه المقالة إمامة زيد بن عليّ، فإنه لم يعتقد بهذا الاعتقاد.

واختلفت الجارودية في التوفيق والسوق، فساق بعضهم الإمامة من عليّ إلى الحسن ثم الحسين ثم إلى عليّ بن الحسين زين العابدين ثم إلى زيد بن عليّ ثم منه إلى الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين وقالوا بإمامته.

وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته ومن جملة شيعته حتى رفع الأمر إلى المنصور فحبسه حبس الأبد حتى مات في الحبس، وقيل: إنه إنما بايع محمد بن عبد الله الإمام في أيام المنصور، ولما قُتل محمد بالمدينة بقى الإمام أبو حنيفة على تلك البيعة يعتقد موالاته أهل البيت، فرفع حاله إلى المنصور فتم عليه ماتم.

والذين قالوا بإمامة محمد الإمام اختلفوا، فمنهم من قال: إنه لم يُقتل وهو بعد حي وسيخرج فيملاً الأرض عدلاً، ومنهم من أقر بموته وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن عليّ بن الحسين بن عليّ صاحب الطالقان، وقد أسر في أيام المعتصم وحمل إليه فحبسه في داره حتى مات.

ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر صاحب الكوفة، فخرج ودعى الناس واجتمع عليه خلق كثير، وقُتل في أيام المستعين وحمل رأسه إلى محمد بن عبد الله بن ظاهر، حتى قال فيه بعض العلوية:

قتلت أعزُّ من ركب المطايا وجئتك أستلينك في الكلام
وعزُّ عليّ أن ألقاك إلا وفيما بيننا حد الحسام

وهو يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين زيد بن عليّ.

وأما أبو الجارود، فكان يسمى «سرحوب»، سماه بذلك أبو جعفر محمد بن عليّ الباقر رضي الله عنه، وسرحوب شيطان أعمى يسكن البحر، قاله الباقر تفسيراً.

ومن أصحاب أبي الجارود: فضيل الرسان، وأبو خالد الواسطي، وهم مختلفون في الأحكام والسير، فزعم بعضهم أن علم ولد الحسن والحسين رضي الله عنهما كعلم النبي ﷺ، فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة، وبعضهم يزعم أن العلم مشترك فيهم وفي غيرهم، وجائز أن يؤخذ عنهم وعن غيرهم من العامة.

(١) أبو الجارود: هو زياد بن أبي زياد المنذر (توفي سنة ١٥٠ هـ)، كان من الغلاة من أهل الكوفة، وافترق أصحابه فرقا متعددة.

● السليمانية :

أصحاب سليمان بن جرير، وكان يقول: إن الإمامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنها تصح في المفضول مع وجود الأفضل، وأثبت إمامة أبي بكر وعمر حقاً باختيار الأمة حقاً اجتهادياً، وربما كان يقول: إن الأمة أخطأت في البيعة لهما مع وجود عليّ خطأ لا يبلغ درجة الفسق، وذلك الخطأ خطأ اجتهادي، غير أنه طعن في عثمان بالأحداث التي أحدثها وكفره لذلك، وكفر عائشة والزبير وطلحة بإقدامهم على قتال عليّ، ثم إنه طعن في الرافضة فقال: إن أئمة الرافضة قد وضعوا مقالاتين لشيعتهم لا يظهر أحد قط عليهم. إحداهما: القول بالبداء، فإذا أظهروا قولاً أنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهور، ثم لا يكون الأمر على ما أخبروه قالوا: بدا لله تعالى في ذلك. والثانية: التقيّة، وكل ما أرادوا تكلموا به، فإذا قيل لهم ذلك ليس بحق وظهر لهم البطلان قالوا: إنما قلناه تقيّة وفعلناه تقيّة.

وتابعه على القول بجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل قوم من المعتزلة، منهم جعفر بن مبشر، وجعفر بن حرب، وكثير النوى - وهو من أصحاب الحديث. قالوا: الإمامة من مصالح الدين ليس يحتاج إليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل، لكنها يحتاج إليها لإقامة الحدود والقضاء بين المتحاكمين وولاية اليتامى والأيامى وحفظ البيضة وإعلاء الكلمة ونصب القتال مع أعداء الدين، وحتى يكون للمسلمين جماعة ولا يكون الأمر فوضى بين العامة، فلا يشترط فيها أن يكون الإمام أفضل الأمة علماً وأقومهم رأياً وحكمة، إذ الحاجة تنسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل.

ومالت جماعة من أهل السنّة إلى ذلك حتى جوزوا أن يكون الإمام غير مجتهد ولا خبير بمواقع الاجتهاد، ولكن يجب أن يكون معه من أهل الاجتهاد فيراجعه في الأحكام ويستفتى منه في الحلال والحرام، ويجب أن يكون في الجملة ذا رأى متين وبصر في الحوادث نافذ.

● الصاحلية والبشرية :

أصحاب الحسن بن صالح بن حى، والبشرية أصحاب كثير النوى الأبر، وهما متفقان في المذهب، وقولهم في الإمامة كقول السليمانية، إلا أنهم توفقوا في أمر عثمان أهو مؤمن أم كافر. قالوا: إذا سمعنا الأخبار الواردة في حقه وكونه من العشرة المبشرين بالجنة، قلنا: يجب أن يُحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة، وإذا رأينا الأحداث التي أحدثها من استهتاره بتربية بنى أمية وبنى مروان واستبداده بأمور لم توافق سيره الصحابة قلنا: يجب أن يُكم بكفره، فتحيرنا في أمره وتوقفنا في حاله، ووكلناه إلى أحكم الحاكمين.

وأما عليّ.. فهو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة، لكنه سلّم الأمر لهم راضياً وفوض الأمر إليهم طائعاً، وترك حقه راغباً فنحن راضون بما رضي، مسلمون لما سلّم، لا يحل لنا غير ذلك، ولو لم يرض عليّ بذلك لكان أبو بكر هالكاً. وهم الذين جوزوا إمامة المفضول وتأخير الفاضل والأفضل إذا كان الأفضل راضياً بذلك، وقالوا: من شهر سيفاً من أولاد الحسن والحسين وكان عالماً زاهداً شجاعاً فهو الإمام، وشرط بعضهم صباحة الوجه، ولهم خبط عظيم في إمامين وجد فيهما هذه الشرائط وشهراً سيفيهما، ينظر إلى الأفضل والأزهد، وإن تساوى ينظر إلى الأمتن رأياً والأحزم أمراً، وإن تساوى تقابلاً، فينقلب الأمر عليهم كلاً ويعود الطلب جدعاً، والإمام مأموماً والأمير مأموراً، ولو كانا في قطرين انفرد كل واحد منهما بقطره ويكون واجب الطاعة في قومه، ولو أفتى أحدهما بخلاف ما يفتى الآخر كان كل واحد منهما مصيباً، وإن أفتى باستحلال دم الآخر.

وأكثرهم في زماننا^(١) مقلّدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد، أما في الأصول فيرون رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت.

وأما في الفروع، فهم على مذهب أبي حنيفة إلا في مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعي رحمه الله.

والشيعة رجال الزيدية: أبو الجارود زياد المنذر العبدى جعفر بن محمد، والحسن ابن صالح، ومقاتل بن سليمان، والداعى ناصر الحق الحسن بن عليّ بن الحسن بن زيد ابن عمرو بن الحسن بن عليّ، والداعى الآخر صاحب طبرستان، الحسين بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ، ومحمد بن نصر.

٣ - الإمامية

هم القائلون بإمامة عليّ (كرم الله وجهه) بعد النبي ﷺ نصاً ظاهراً ويقىناً صادقاً من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين. قالوا: وما كان في الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقتة الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة، فإنه إذا بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملاً يرى كل واحد منهم رأياً ويسلك كل واحد طريقاً لا يوافقه في ذلك غيره، بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع إليه، وينص عليّ واحد هو الموثوق به والمعول عليه، وقد عين علياً (كرم الله وجهه) في مواضع تعريضاً، وفي مواضع تصريحاً.

(١) أى زمن الشهرستاني المتوفى عام ٥٤٨ هـ.

أما تعريضاته، فمثل أن بعث أبا بكر ليقرأ سورة البراءة على الناس في المشهد، وبعث بعده علياً ليكون هو القارئ عليهم والمبلغ عنه إليهم، وقال: «نزل على جبريل فقال: يبلغه رجل منك» - أو قال: «من قومك» - وهو يدل على تقديمه علياً (كرم الله وجهه)، ومثل ما كان يؤمر على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة في البعث، وقد أمر عليهما عمرو بن العاص في بعث، وأسامة بن زيد في بعث، وما أمر على علياً أحداً قط.

وأما تصريحاته، فمثل ما جرى في نأثة الإسلام حين قال: «من الذي يبايعني على ماله؟» فبايعته جماعة، ثم قال: «من الذي يبايعني على روحه وهو وصيى وولى هذا الأمر من بعدى؟» فلم يبايعه أحد حتى مد أمير المؤمنين علي (كرم الله وجهه) يده إليه فبايعه على روحه ووفى بذلك حتى كانت قريش تُعير أبا طالب أنه أمر عليك ابنك.

ومثل ما جرى في كمال الإسلام وانتظام الجبال حين نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. فلما وصل إلى غدير خم أمر بالدرجات فقم، ونادوا: الصلاة جامعة، ثم قال عليه السلام وهو على الرحال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا هل بلغت؟... ثلاثاً.

فادعت الإمامية أن هذا نص صريح، فإننا ننظر من كان النبي ﷺ مولى له وبأى معنى فطرد ذلك في حق على وقد فهمت الصحابة من التولية ما فهمناه، حتى قال عمر حين استقبل علياً: «طوبى لك يا على، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة».

قالوا: وقول النبي ﷺ: «أقضاكم على»، نص في الإمامة، فإن الإمامة لا معنى لها إلا أن يكون أفضى القضاة في كل حادثة، الحاكم علي المتخاضمين في كل واقعة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فأولوا الأمر من إليه القضاء والحكم حق في مسألة الخلافة، لما تخاضمت المهاجرون والأنصار كان القاضى فى ذلك هو أمير المؤمنين على دون غيره، فإن النبي ﷺ كما حكم لكل واحد من الصحابة بأخص وصف له فقال: «أفرضكم زيد، أقرأكم أبى، أعرّفكم بالحلال والحرام معاذ»، كذلك حكم لعلّى بأخص وصف وهو قوله: «أقضاكم على»، والقضاء يستدعى كل علم وليس كل علم يستدعى القضاء.

ثم إن الإمامية تخطت عن هذه الدرجة إلى الوقيعة فى كبار الصحابة طعناً وتكفيراً، وأقله ظلماً وعدواناً وقد شهدت نصوص القرآن على عدالتهم والرضا عن جملتهم، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وكانوا إذ ذاك ألفاً وأربعمائة.

وقال تعالى ثناءً على المهاجرين والأنصار: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعَسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] ، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] ، وفي ذلك دليل على عظم قدرهم عند الله وكرامتهم ودرجتهم عند الرسول، فليت شعري كيف يستجيز ذو دين الطعن فيهم ونسبة الكفر إليهم وقد قال النبي ﷺ: «عشرة في الجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح»؟! ... إلى غير ذلك من الأخبار الواردة في حق كل واحد منهم على الانفراد، وإن نُقلت هنأت من بعضهم فليتدبر النقل، فإن أكاذيب الروافض كثيرة.

ثم إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بين الحسن والحسين وعلي بن الحسين على رأى واحد، بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها حتى قال بعضهم: إن نيفاً وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الخبر هو في الشيعة خاصة ومن عداهم فهم خارجون عن الأمة، وهم متفقون في سوق الإمامة إلى جعفر بن محمد الصادق، مختلفون في المنصوص عليه بعده من أولاده، إذ كان له خمسة أولاد - وقيل ستة: محمد وإسحاق وعبد الله وموسى وإسماعيل وعلي، ومن ادعى منهم النص والتعيين: محمد وعبد الله وموسى وإسماعيل وعلي.. ثم منهم من مات وأعقب، ومنهم من لم يعقب... ومنهم من قال بالتوقف والانتظار والرجعة، ومنهم من قال بالسوق والتعدية كما سيأتي في اختلافاتهم عند ذكر طائفة طائفة، وكانوا في الأول على مذهب أئمتهم في الأصول، ثم لما اختلفت الروايات عن أئمتهم وتمادى الزمان، اختار كل فرقة طريقة، وصارت الإمامية بعضها معتزلية - إما وعيدية وإما تفضيلية، وبعضها إخبارية - إما مشبهة وإما سلفية، ومن ضل الطريق وتاه لم يبال الله به في أى واد هلك.

● الباقرية والجعفرية الواقفة :

أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر وابنه جعفر الصادق وقالوا بإمامتهما وإمامة والدهما زين العابدين، إلا أن منهم من توقف على واحد منهما وما ساق الإمامة إلى أولادهما، ومنهم من ساق، وإنما ميزنا هذه فرقة دون الأصناف المتشعبة التي نذكرها لأن من الشيعة من توقف على الباقر وقال برجعته، كما توقف القائلون بإمامة أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه،

ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثم دخل العراق وأقام بها مدة، ما تعرّض للإمامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة، ومَن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط، ومَن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط، وقيل: مَن أنس بالله توخّش عن الناس، ومَن استأنس بغير الله نهبه الوسواس.. وهو من جانب الأب ينتسب إلى شجرة النبوة، ومن جانب الأم ينتسب إلى أبي بكر رضی الله عنه. وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه وتبرأ عنه ولعنهم وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحمقاتهم من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه، لكن الشيعة بعده افرقوا وانتحل كل واحد منهم مذهباً وأراد أن يروّجه على أصحابه ونسبه إليه وربطه به، والسيد برىء من ذلك ومن الاعتزال والقدر أيضاً، هذا قوله في الإرادة: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِنَا شَيْئاً وَأَرَادَ مَنَا شَيْئاً، فَمَا أَرَادَهُ بِنَا طَوَاهُ عَنَا، وَمَا أَرَادَهُ مَنَا أَظْهَرَ لَنَا، فَمَا بَالُنَا نَشْتَفِلُ بِمَا أَرَادَهُ بِنَا عَمَا أَرَادَ مَنَا».

وهذا قوله في «القدر»: «هو أمر بين أمرين، لا جبر ولا تفويض». وكان يقول في الدعاء: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ إِنْ أَطَعْتَكِ، وَلَكَ الْحُجَّةُ إِنْ عَصَيْتَكِ، لَا صَنَعَ لِي وَلَا لغيري في إحسان، وَلَا حُجَّةَ لِي وَلَا لغيري في إساءة». فنذكر الأصناف الذين اختلفوا فيه وبعده، لا على أنهم من تفاصيل أشياعه، بل على أنهم منتسبون إلى أصل شجرته وفروع أولاده.

● الناوسية :

أتباع رجل يقال له «ناوس»، وقيل: نسبوا إلى قرية «ناوسا».. قالت: إن الصادق حتى بعد ولن يموت حتى يظهر فيظهر أمره، وهو القائم المهدي.. ورووا عنه أنه قال: «لو رأيتم رأسي يدهده عليكم في الجبل فلا تصدقوا، فإنني صاحبكم صاحب السيف».

وحكى أبو حامد الزوزوني أن الناوسية زعمت أن علياً مات وستنشق الأرض عنه يوم القيامة فيملا العالم عدلاً.

● الأبطحية :

قالوا بانتقال الإمامة من الصادق إلى ابنه عبد الله الأبطح، وهو أخو إسماعيل من أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي، وكان أسن أولاد الصادق زعموا أنه قال: الإمامة في أكبر أولاده الإمام، وقال: الإمام: مَن يجلس مجلسي، وهو الذي جلس مجلسه، وقال: الإمام لا يُغسله ولا يُصلى عليه ولا يأخذ خاتمه ولا يواريه إلا الإمام، وهو تولى ذلك كله، ودفع الصادق ودبعة إلى بعض أصحابه وأمره أن يدفعها إلى مَن يطلبها منه وأن يتخذها إماماً، وما طلبها منه أحد إلا عبد الله، ومع ذلك ما عاش بعد أبيه إلا سبعين يوماً ومات ولم يعقب ولداً ذكراً.

● الشميطية :

أتباع يحيى بن أبي شميطة، قالوا: إن جعفرأ قال: «إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم»، وقد قال له والده: إن ولدك ولد فسميته باسمي فهو إمام، فالإمام بعده ابنه محمد.

● الموسوية أو المفضلية :

فرقة واحدة قالت بإمامة موسى بن جعفر نصاً عليه بالاسم حيث قال الصادق: «سابعكم قائمكم»، وقيل: «صاحبكم قائمكم، ألا وهو سمي صاحب التوراة». ولما رأت الشيعة أن أولاد الصادق على تفرق، فمن ميت في حال أبيه لم يعقب، ومن مختلف في موته، ومن قائم بعد موته مدة يسيرة غير معقب.. وكان موسى هو الذي تولى الأمر وقام به بعد موت أبيه رجعوا إليه واجتمعوا عليه مثل المفضل بن عمر، وزرارة بن أعين، وعمارة السباطي.

وروت الموسوية عن الصادق (رضي الله عنه) أنه قال لبعض أصحابه: عد الأيام، فعدها من الأحد حتى بلغ السبت، فقال له: كم عددت؟ فقال: سبعة، فقال جعفر: سبت السبوت وشمس الدهور ونور الشهور، من لا يلهو ولا يلعب، وهو سابعكم قائمكم هذا» - وأشار إلى موسى. وقال فيه أيضاً: إنه شبيه بعيسى.

ثم إن موسى لما خرج وأظهر الإمامة حمله هارون الرشيد من المدينة فحبسه عند عيسى بن جعفر، ثم أشخصه إلى بغداد فحبسه عند السندي بن شاهك، وقيل: إن يحيى بن خالد بن يرمك سمّه في رطب فقتله وهو في الحبس، ثم أخرج ودُفن في مقابر قريش ببغداد. واختلف الشيعة بعده، فمنهم من توقف في موته وقال: لا ندري أمات أم لم يمّت - ويقال لهم «المطورة» - سماهم بذلك علي بن إسماعيل فقال: ما أنتم إلا كلاب ممطورة. ومنهم من قطع بموته - ويقال لهم «القطعية»، ومنهم من توقف عليه وقال: إنه لم يمّت وسيخرج بعد الغيبة، ويقال لهم «الواقفية».

● وأسماء الأئمة الإثني عشر عند الإمامية: المرتضى، والمجتبي، والشهيد، والسجاد، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضي، والتقي، والنقي، والزكي، والحجة، والقائم، والمنتظر^(١).

(١) المرتضى: علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) (توفي سنة ٤٠ هـ) رابع الخلفاء الراشدين، ربيب النبي ﷺ وابن عمه وصهره علي ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، من أبطال المعارك الأولى التي خاضها المسلمون في «بدر» و«أحد» و«خيبر» و«الخندق» و«حنين»، وكان من رأى فريق من المسلمين مبايعته بالخلافة بعد وفاة النبي ﷺ لكن بيعته تمت بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أنهى بسرعة عصيان البصرة في معركة الجمل وكاد ينهي عصيان معركة صفين لولا شبهات الخوارج، وبينما هو يتهيأ لحسم الموقف اغتاله عبد الرحمن =

= ابن ملجم - أحد الخوارج - ويعتبر صاحب المدرسة الأولى في الإسلام التي انبثقت منها مجرى ثقافي عريض، وبموته انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

- المجتبي: الحسن بن علي رضي الله عنه (٣ - ٥٠ هـ) بكر أبناء علي وفاطمة رضي الله عنهما، بايعه أهل الكوفة بعد مقتل أبيه، ولكنه آثر عدم القتال وترك الخلاف، فكاتب معاوية على الصلح بعد أن أيقن أن أهل العراق ليسوا جادين في نصرته، ثم عاد إلى المدينة حيث عاش بها بقية حياته.

- الشهيد: الحسين بن علي رضي الله عنه، (٤ - ٦١ هـ) الابن الثاني لعلي وفاطمة رضي الله عنهما، امتنع هو وعبد الله بن الزبير عن مبايعة يزيد بن معاوية، بايعه أهل الكوفة فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل لأخذ البيعة، فبايعه ٣٠.٠٠٠ شخص، ولما تولى عبد الله بن زياد على الكوفة - من قبل يزيد بن معاوية - قبض على مسلم وأمر بقتله، فسار الحسين رضي الله عنه إلى العراق - في مائة من أهل بيته - ودارت معركة « كربلاء » التي انتهت باستشهاد الحسين رضي الله عنه في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ، ولما حُملت رأسه إلى يزيد غضب لذلك وتآلم، ودُفن الرأس بالمدينة، وقيل: بعسقلان، وقيل: إن طلّاح بن رزبك الوزير الفاطمي نقلها إلى القاهرة وبنى عليها مسجد الإمام الحسين، أما الجسد فقد دُفن في كربلاء.

- السجّاد: علي بن الحسين (زين العابدين)، (٣٨ - ٩٥ هـ)، رابع الأئمة عند الشيعة، لقب بزین العابدين لكثرة عبادته وورعه حتى قيل إنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، أمه من سبايا الفرس من عقب أنوشروان، اشترك مع أبيه في موقعة كربلاء التي قُتل بها الحسين، وعاد بعدها إلى المدينة، اشتهر ببره بالفقراء ومُحرير العبيد وشدة حلمه، وهو الذي قال فيه الفرزدق قصيدته المشهورة التي مطلعها: « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته » ويعتبر المؤسس الثاني للمدرسة في الإسلام.

- الباقر: محمد بن علي زين العابدين (٥٧ - ١١٤ هـ)، الإمام الخامس للشيعة، ولد وتوفي بالمدينة، تابع توسيع مدرسة أبيه وتخرج العلماء فيها من كل الأقطار الإسلامية.

- الصادق: جعفر بن محمد الباقر (٨٠ - ١٤٨ هـ)، الإمام السادس للشيعة، وإليه ينسب المذهب الجعفري الشيعي وعليه معظم الشيعة، ولد وتوفي بالمدينة، كانت مدرسته امتداداً للمدرسة أبيه الباقر ونجحت نجاحاً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية وبلغ عدد المنتمين إليها في المدينة أربعة آلاف من كل الأقطار الإسلامية وكان لها فرع في الكوفة، من أعظم إنجازات الصادق دعوته إلى التأليف والتدوين - وكان قبله قليل الحدوث - وبلغ ما ألف تلاميذه أربعمئة كتاب لأربعمئة مؤلف.

- الكاظم: موسى بن جعفر الصادق (١٢٨ - ١٨٣ هـ)، الإمام السابع للشيعة، ولد في الأبواء قرب المدينة، ومات مسموماً في سجن هارون الرشيد في بغداد، إليه تنسب ضاحية بغداد « الكاظمية » التي تضم قبره وقبر حفيده محمد الجواد.

- الرضي: علي الرضا بن موسى الكاظم (١٥٣ - ٢٠٣ هـ)، الإمام الثامن للشيعة، ولد في المدينة وتوفي بطوس (خراسان)، وكان قبره اليوم مدينة مقدسة في إيران تسمى « مشهد »، جعله المأمون ولياً لعهدده واستدعاه إلى « مرو » ثم توفي بطريق عودته مع المأمون إلى بغداد، وقيل إن المأمون هو الذي سمّه.

- التقى: محمد الجواد بن علي الرضا (١٩٥ - ٢٢٠ هـ)، الإمام التاسع للشيعة، ولد في المدينة وتوفي ببغداد، ودُفن مع جده موسى الكاظم فيما عُرف بعد ذلك باسم «الكاظمية» التي أصبحت من العتبات المقدسة.

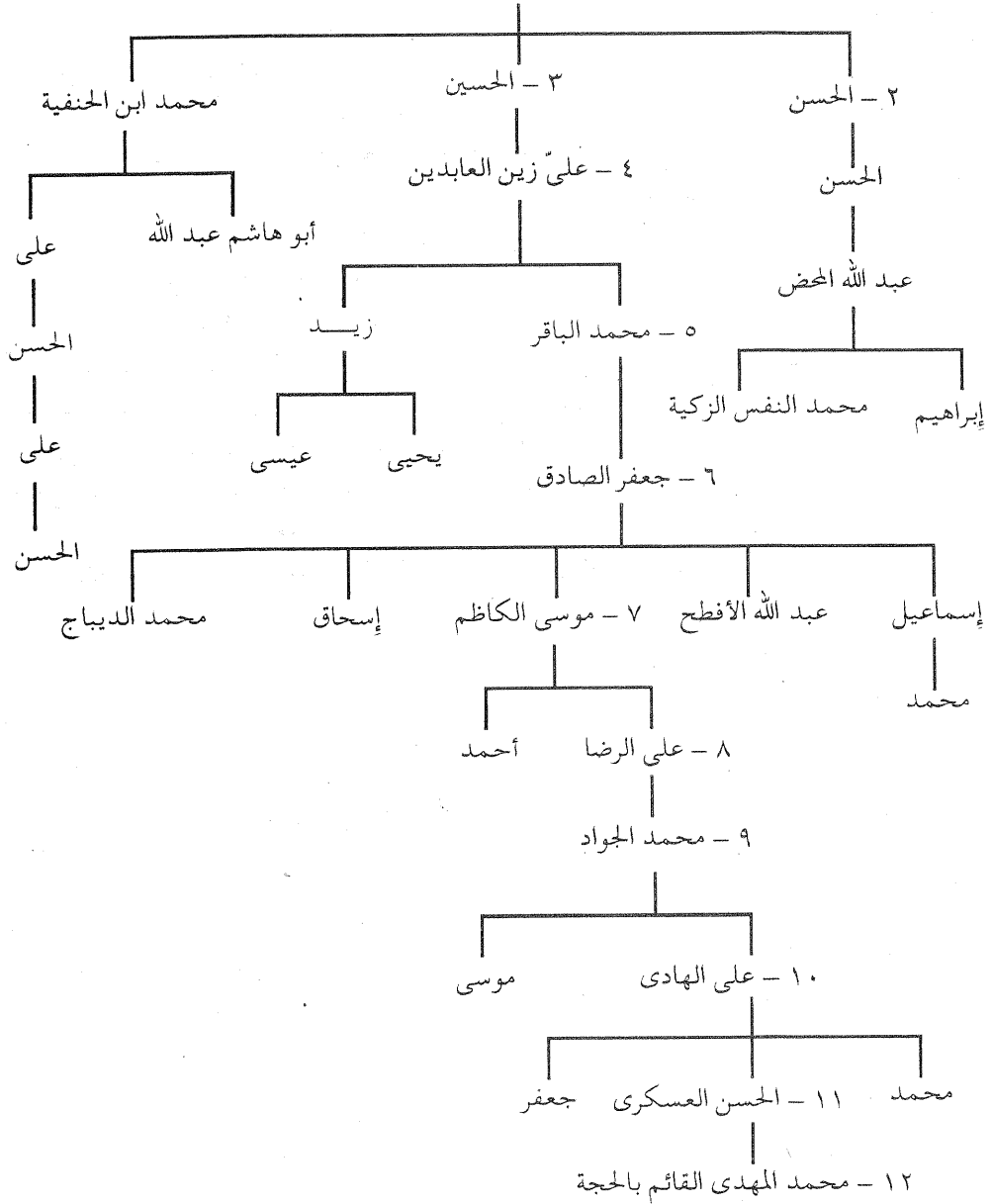
- النقي: علي الهادي بن محمد الجواد (٢١٤ - ٢٥٤ هـ)، الإمام العاشر للشيعة، ولد في المدينة وتوفي في سامراء، خاف المتوكل العباسي من ميل الناس إليه في المدينة فاستدعاه إلى سامراء، ولما دخل عليه استنشده المتوكل شعراً، فأنشده قصيدة مطلعها:
باتوا على قلل الجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
فبكى المتوكل ومن في مجلسه تأثراً.

- الزكي: الحسن العسكري ابن علي الهادي (٢٣١ - ٢٦٠ هـ)، الإمام الحادي عشر للشيعة، لقب بالعسكري لسكنه وأباه في محلة تعرف بالعسكر بـ «سامراء»، ولد في المدينة وجاء سامراء مع أبيه الإمام علي الهادي حين استدعاه المتوكل وتوفي فيها.

- الحجّة، والقائم، والمنتظر: محمد المهدي بن الحسن العسكري، وهو الذي يزعم الشيعة أنه دخل سرداباً في دار أبيه بـ «سر من رأى» واختفى عام (٢٦٠ هـ) في حياة أبيه، وينتظر الشيعة خروجه ليملاً الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

وانظر: شجرة نسب الأئمة من ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (البلتاجي).

١ - علي بن أبي طالب



شجرة نسب الأئمة من ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

● الإسماعيلية الواقفية :

قالوا: إن الإمام بعد جعفر: «إسماعيل»، نصاً عليه باتفاق من أولاده، إلا أنهم اختلفوا في موته في حال حياة أبيه، فمنهم من قال: لم يمّت إلا أنه أظهر موته تقيّة من خلفاء بني العباس وعقد محضراً وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة، ومنهم من قال: الموت صحيح، والنص لا يرجع قهقري، والفائدة في النص بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه دون غيره، فالإمام بعد إسماعيل محمد ابن إسماعيل، وهؤلاء يقال لهم «الباركية».

ثم منهم من وقف على محمد بن إسماعيل وقال برجعته بعد غيبته، ومنهم من ساق الإمامة في المستورين منهم، ثم في الظاهرين القائمين من بعدهم وهم «الباطنية» وسنذكر مذهبهم على الانفراد، وإنما هذه فرقة الوقف على إسماعيل بن جعفر ومحمد ابن إسماعيل المشهورة في الفرق هم الباطنية التعليمية الذين لهم مقالة مفردة.

● الإثنا عشرية أو الجعفرية :

إن الذين قطعوا بموت موسى بن جعفر الكاظم وسموا «قطعية» ساقوا الإمامة بعده في أولاده، فقالوا: الإمام بعد موسى عليّ الرضا ومشهده بـ «طوس»، ثم بعده محمد التقى وهو في مقابر قریش، ثم بعده عليّ بن محمد النقي ومشهده بـ «قم»، وبعده الحسن العسكري الزكي، وبعده ابنه القائم المنتظر الذي هو بـ «سرمن رأى»، وهو الثاني عشر.. هذا هو طريق الإثني عشرية في زماننا^(١) إلا أن الاختلافات التي وقعت في حال كل واحد من هؤلاء الإثني عشر والمنازعات التي جرت بينهم وبين إخوانهم وبني أعمامهم وجب ذكرها لئلا يشذ عنها مذهب لم نذكره ومقالة لم نوردتها.

فاعلم أن من الشيعة من قال بإمامة أحمد بن موسى بن جعفر دون أخيه عليّ الرضا، ومن قال بـ «عليّ» شك أولاً في محمد بن عليّ إذ مات أبوه وهو صغير غير مستحق للإمامة ولا علم عنده بمناهجها، فثبت قوم على إمامته واختلفوا بعد موته. فقال قوم بإمامة موسى بن محمد، وقال قوم بإمامة عليّ بن محمد ويقولون هو «العسكري».

واختلفوا بعد موته أيضاً، فقال قوم بإمامة الحسن بن عليّ، وكان لهم رئيس يقال له عليّ بن فلان الطاحن وكان من أهل الكلام قوى أسباب جعفر بن عليّ وأمال الناس إليه، وأعاناه فارس بن حاتم بن ماهوية، وذلك أن محمداً قد مات وخلف الحسن العسكري قالوا: امتحننا الحسن ولم نجد عنده علماً، ولقبوا من قال بإمامة الحسن: «الحمارية»، وقووا أمر جعفر بعد موت الحسن واجتمعوا بأن الحسن مات بلا خلف

(١) أي زمن الشهرستاني المتوفى عام ٥٤٨ هـ.

فبطلت إمامته لأنه لم يعقب، والإمام لا يكون إلا ويكون له خلف وعقب، وجاز جعفر ميراث الحسن بعد دعوى ادعاها عليه أنه فعل ذلك من حبل في جواريه وغيره، وانكشف أمرهم عند السلطان والرعية وخواص الناس وعوامهم وتشتت كلمة من قال بإمامة الحسن وتفرقوا أصنافاً كثيرة فتثبتت هذه الفرقة على إمامة جعفر ورجع إليهم كثير ممن قال بإمامة الحسن، منهم الحسن بن علي بن فضال وهو من أجل أصحابهم وفقهائهم كثير الفقه والحديث.

ثم قالوا بعد جعفر بعلي بن جعفر وفاطمة بنت علي أخت جعفر. وقال قوم بإمامة علي بن جعفر دون فاطمة السيدة، ثم اختلفوا بعد موت علي وفاطمة اختلافاً كثيراً، وغلا بعضهم في الإمامة غلو أبي الخطاب الأسدي، وأما الذين قالوا بإمامة الحسن فقد اختلفوا بعد موته إحدى عشرة فرقة وليست لهم ألقاب مشهورة، ولكننا نذكر أقاويلهم:

الفرقة الأولى: قالت إن الحسن لم يموت وهو القائم، ولا يجوز أن يموت ولا ولد له ظاهراً لأن الأرض لا تخلو من إمام، وقد ثبت عندنا أن القائم له غيبتان، وهذه إحدى الغيبتين وسيظهر ويُعرف ثم يغيب غيبة أخرى.

الثانية: قالت إن الحسن مات لكنه يجي وهو القائم، لأننا رأينا أن معنى القائم هو القيام بعد الموت، فنقطع بموت الحسن لا نشك فيه، ولا ولد له فيجب أن يجيء بعد الموت.

الثالثة: قالت إن الحسن قد مات وأوصى إلى جعفر أخيه ورجعت إمامة جعفر. **الرابعة:** قالت إن الحسن قد مات والإمام جعفر وإننا كنا مخطئين في الائتمام به إذ لم يكن إماماً، فلما مات ولا عقب له تبيّن أن جعفر كان محقاً في دعواه والحسن مبطلاً.

الخامسة: قالت إن الحسن قد مات وكنا مخطئين في القول، وإن الإمام كان محمد ابن علي أخو الحسن وجعفر لما ظهر لنا فسق جعفر وإعلانه به وعلمنا أن الحسن كان على مثل حاله إلا أنه كان يتستر، عرفنا أنهما لم يكونا إمامين فرجعنا إلى محمد ووجدنا له عقباً وعرفنا أنه كان هو الإمام دون أخويه.

السادسة: قالت: إن للحسن ابناً، وليس الأمر على ما ذكروا أنه مات ولم يعقب، ولد قبل وفاة أبيه بسنتين فاستتر خوفاً من جعفر وغيره من الأعداء واسمه محمد وهو الإمام القائم المنتظر.

السابعة: قالت: إن له ابناً ولكنه ولد بعد موته بثمانية أشهر، وقول من ادعى أنه مات وله ابن باطل لأن ذلك لم يخف ولا يجوز مكابرة العيان.

الثامنة: قالت: صحّت وفاة الحسن وصحّ أنه لا ولد له وبطل ما ادعى من الخبل في

سرية له وثبت أنه لا إمام بعد الحسن وهو جائز في المعقول أن يرفع الله الحجة عن أهل الأرض لمعاصيهم وهي فترة وزمان لا إمام فيه والأرض اليوم بلا حجة كما كانت الفترة قبل مبعث النبي ﷺ .

التاسعة: قالت: إن الحسن قد مات وصحَّ موته، وقد اختلف الناس هذا الاختلاف ولا ندري كيف هو، ولا نشك أنه قد وُلد له ابن، ولا ندري قبل موته أو بعد موته، إلا أننا نعلم يقيناً أن لا تخلو عن حجة وهو الخلف الغائب، فنحن نتوالاه ونتمسك باسمه حتى يظهر بصورته .

العاشرة: قالت: نعلم أن الحسن قد مات ولا بد للناس من إمام ولا تخلو الأرض من حجة ولا ندري من ولده أو من غيره .

الحادية عشرة والثانية عشرة: فرقة توقفت في هذه المخاطب وقالت: لا ندري على القطع حقيقة الحال لكننا نقطع في «الرضا» ونقول بإمامته، وفي كل موضع اختلفت الشيعة فيه فنحن من الواقفية في ذلك إلى أن يظهر الله الحجة ويظهر بصورته فلا يشك في إمامته من أبصره ولا يحتاج إلى معجزة وكرامة وبينه، بل معجزته اتباع الناس بأسرهم إياه من غير منازعة ومدافعة .

فهذه جملة فرق الإثنا عشرية، قطعوا على واحد واحد منهم ثم قطعوا على كل بأسرهم .

ومن العجب أنهم قالوا: الغيبة قد امتدت مائتين ونيفاً وخمسين سنة، وصاحبنا قال: إن خرج القائم وقد طعن في الأربعين فليس بصاحبكم، ولسنا ندري كيف ينقضى مائتان وخمسون سنة في أربعين سنة^(١)، وإذا سئل القوم عن مدة الغيبة كيف يتصور؟ قالوا: أليس الخضر وإلياس عليهما السلام يعيشان في الدنيا من آلاف السنين لا يحتاجان إلى طعام وشراب؟ فلم لا يجوز ذلك في واحد من أهل البيت؟ قيل لهم: ومع اختلافكم هذا، كيف يصح لكم دعوى الغيبة؟ ثم الخضر عليه السلام مكلفاً بضمان جماعة والإمام عندكم ضامن مكلف بالهداية والعدل، والجماعة مكلفون بالاعتداء به والاستئنان بسنته، ومن لا يرى كيف يُقتدى به؟ فلهذا صارت الإمامية متمسكين بالعدلية في الأصول وبالمشبهة في الصفات، متحيرين تائهين، وبين الإخبارية منهم والكلامية سفنه وتكفير، وكذلك بين التقضيلية والوعيدية قتال وتضليل . . أعاذنا الله من الحيرة .

(١) يعجب الشهرستاني من مرور أكثر من ٢٥٠ عاماً على غيبة الإمام الثاني عشر للشيعة وعدم ظهوره حتى عصره، وقد مضت الآن (سنة ١٤٠٨ هـ) على غيبته ما ينيف على الـ (١١٤٨ سنة)، ومع هذا لا يزالون ينتظرون رجوعه - في سن الأربعين - ليملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً!! (البلتاجي) .

ومن العجب أن القائلين بإمامة المنتظر - مع هذا الاختلاف العظيم - لا يستحيون فيدعون فيه أحكام الإلهية ويتأولون قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُتْرُدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [التوبة: ١٠٥] عليه، قالوا: هو الإمام المنتظر الذي يُرد إليه علم الساعة، ويدعون فيه أنه لا يغيب عنا ويخبرنا بأحوالنا حين يُحاسب الخلق، إلى تحكيمات باردة وكلها عن العقول ردة:

لقد طفت تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أراً إلا واضعاً كف حائر على ذقن، أو قارعاً سن نادم

٤ - الغلاة

الغالية هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبَّهوا واحداً من الأئمة بالإله، وربما شبَّهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير، وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى، إذ اليهود شبَّهت الخالق بالخلق، والنصارى شبَّهت الخلق بالخالق، فسرت هذه الشبهات في أذهان الشيعة الغلاة حتى حكمت بأحكام إلهية في حق بعض الأئمة، وكان التشبيه بالأصل والوضع في الشيعة، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك وتمكن الاعتزال فيهم لما رأوا أن ذلك أقرب إلى المعقول وأبعد من التشبيه والحلول.

وبدع الغلاة محصورة في أربع: التشبيه، والبداء، والرجعة، والتناسخ. ولهم ألقاب، وبكل بلد لقب، يقال لهم بأصفهان: «الخرمية» و«الكودية»، وبالري «المزكية» و«السنبارية» وبأذربيجان: «الذقولية»، وبموضع الحمرة وبما وراء النهر: «المبيضة».

● السبئية:

أصحاب عبد الله بن سبأ^(١) الذي قال لعليّ (كرم الله وجهه): أنت أنت الإله، فنفاه إلى المدائن وزعموا أنه كان يهودياً فأسلم، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن

(١) عبد الله بن سبأ اليهودي: أول من دعا إلى تأليه عليّ (كرم الله وجهه)، ونشر هذه الفتنة في حياة عليّ نفسه، ولم يكن يقصد من ذلك إلا الإساءة إلى الإسلام، وقد نسبت إليه أموراً شيطانية هدامة، فقد طوف في الأمصار الإسلامية يمهد لدعوته الخبيثة فكان يطرد حيناً ويوقف حيناً آخر، ومن أهم تعاليمه الوصاية والرجعة، فأما الوصاية: فهي أن لكل إمام وصي من قبله أي أن علياً وصي الرسول، والحسن وصي عليّ، والحسين وصي الحسن وهكذا. وأما الرجعة: فهي أن محمداً ﷺ سيرجع، ثم تحول بعد ذلك فقال إن علياً سيرجع، وكان يقول حين قتل عليّ: لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته، ولا يموت من يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. واتخذ ابن سبأ من الوصاية ذريعة لتأليب المسلمين على عثمان، فذكر لهم أن عثمان قد =

نون وصي موسى مثل ما قال في عليّ (كرم الله وجهه)، وهو أول من أظهر القول بالغرض بإمامة عليّ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة، وزعموا أن علياً حتى لم يُقتل، وفيه الجزء الإلهي، ولا يجوز أن يُستولى عليه، وهو الذي يجيء من السحاب، والرعْد صوته، والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد ذلك فيملاً الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً.

وإنما أظهر ابن سبأ هذه المقالة بعد انتقال عليّ (كرم الله وجهه) واجتمعت عليه جماعة وهم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة، وقالت بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد عليّ.

● الكاملية :

أصحاب أبي كامل، أكفر جميع الصحابة بتركها بيعة عليّ (كرم الله وجهه) وطعن في عليّ أيضاً بتركه طلب حقه ولم يعذره في القعود. قال: وكان عليه أن يخرج ويُظهر الحق، علي أنه غلا في حقه وكان يقول: الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص، وذلك النور في شخص يكون نبوة، وفي شخص يكون إمامة، وربما تتناسخ الإمامة فتصير نبوة.. وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت.

والغلاة على أصنافها كلهم متفقون على التناسخ والحلول، ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة في كل أمة تلقوها من المجوس والمزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصائبة. ومذهبهم أن الله تعالى قائم بكل مكان، ناطق بكل لسان، ظاهر بشخص من أشخاص البشر، وذلك معنى الحلول. وقد يكون الحلول بجزء وقد يكون بكل، أما الحلول بجزء فهو كإشراق الشمس في كوة، أو كإشراقها على البللور.. وأما الحلول بالكل فهو كظهور ملك بشخص أو كشيطان بحيوان.

ومراتب التناسخ أربعة: النسخ، والمسح، والفسخ، والرسخ^(١).

= اغتصب الخلافة من عليّ بن أبي طالب، وما فتىء يؤلب الناس على عثمان وينسب إليه من الأخطاء ما جعل حياته تنتهي بالشكل الذي انتهت به: قتيلاً يتلو كتاب الله. ولم يقف الأمر بابن سبأ عند ذلك، بل إمعاناً في الكيد للعقيدة وضع علياً بن أبي طالب موضع الإله، ولم يكن أمر الغالين الذين بذر فيهم ابن سبأ بدور الحثب والزيف ليوقف عند حد، فقد ألّهوا أبناء عليّ: الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية، ثم ألّهوا أبناءهم بعد ذلك، وأدخلوا إلى الدين كثيراً من العادات الفارسية والمجوسية والبوذية، فقالوا بتناسخ الأرواح، وتحلّلوا من بعض أحكام الدين - إلى غير ذلك - غير أن كل ما أتوا به من بدع وانحرافات يتضاءل إلى جانب الإشراك بالله وتأليه عليّ وأبنائه. (إسلام بلا مذاهب، ص ١٦٦، ١٦٧).

(١) يقول مذهب التناسخ: إن الأرواح تناسخ في الأجساد وتنتقل من شخص إلى شخص، وما يلقي من الراحة والتعب، والدعة والنصب فمرتب على ما أسلفه قبل، وهو في بدن آخر جزاء على ذلك، والإنسان - عندهم - أبداً في أحد أمرين، أما في فعل وإما في جزاء وهو ما فيه، فإما مكافأة على عمل قدّمه وإما عمل ينتظر المكافأة عليه، والجنة والنار في هذه الأبدان، وأعلى =

وأعلى المراتب مرتبة الملكية أو النبوة، وأسفل المراتب الشيطانية والجنية... وهذا أبو كامل كان يقول بالتناسخ ظاهراً من غير تفصيل مذهبهم.

● العليانية :

أصحاب العلياء بن ذراع الدوسي، وقال قوم: هو الأسدى، وكان يُفضّل علياً علي النبي ﷺ، وزعم أنه الذي بعث محمداً، وسماه إلهاً، وكان يقول بدم محمد، وزعم أنه بعث ليدعو إلي علي فدعا إلي نفسه، ويسمون هذه الفرقة «الذمية» ومنهم من قال بألهيتهما جميعاً ويقدمون علياً في أحكام الإلهية ويسمونهم «العينية»، ومنهم من قال بألهيتهما جميعاً ويقدمون محمداً في الإلهية ويسمونهم «الميمية»، ومنهم من قال بالإلهية خمسة أشخاص أصحاب الكساء: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وقالوا: خمستهم شيء واحد والروح حالة فيهم بالسوية، فلا فضل لواحد على الآخر. وكرهوا أن يقولوا فاطمة - بالتأنيث - بل قالوا: فاطم، وفي ذلك يقول بعض شعرائهم:

توليتُ بعد الله في الدين خمسة نبياً وسبطيه وشيخاً وفاطماً

● المغيرية :

أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي، ادعى أن الإمام بعد محمد بن علي بن الحسين: محمد بن عبد الله بن الحسين الخارج بالمدينة^(١). وزعم أنه حتى لم يمت^(٢). وكان المغيرة مولى لخالد بن عبد الله القسري، وادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد، وبعد

= عليين درجة الملائكية أو النبوة، وأسفل السافلين ذرعة الشياطين والجن، فلا وجود أعلى من درجة الرسالة، ولا وجود أسفل من درجة الشياطين (البلتاجي).

(١) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي - المعروف بمحمد النفس الزكية - وكان قد استولى علي مكة والمدينة أيام في مستهل الدولة العباسية، كما استولى أخوه إبراهيم علي البصرة وما جاورها، واستولى أخوهما الثالث - إدريس - علي جزء من بلاد المغرب. فأرسل أبو جعفر المنصور - الملك العباسي - إلي محمد النفس الزكية، جيشاً كثيفاً والتحم الجيشان بالمدينة في معركة كبيرة قُتل فيها محمد النفس الزكية، ثم ثنى المنصور بجيش آخر أنفذه إلي العراق حتى التحم مع جيش إبراهيم في معركة عرفت باسم «باب خميرين» أو «باخمرا» قُتل فيها إبراهيم.

وقال أنصار محمد النفس الزكية بإمامته بعد موت محمد الباقر مستندين إلي حديث نسبوه إلي الرسول ﷺ يقول في المهدي: «إن اسمه يُوافق اسمي واسم أبيه اسم أبي» فلما قُتل في المعركة السالفة الذكر زعموا أنه لم يُقتل ولم يمت، وأنه في جبل «حاجر» من ناحية نجد مقيم هناك إلي أن يُؤمر بالخروج ويملك الأرض وتُعقد له البيعة بمكة بين الركن والمقام. (إسلام بلا مذاهب، ص ١٧٨، ١٧٩).

(٢) يزعم أنصار النفس الزكية أن الذي قتلته جيوش المنصور لم يكن النفس الزكية نفسه، وإنما هو شيطان تمثل في صورته.

ذلك ادعى النبوة وغلا في حق علي (كرم الله وجهه) غلواً لا يعتقدده عاقل، وزاد على ذلك قوله بالتشبيه، فقال: إن الله تعالى صورة وجسم ذو أعضاء على حروف الهجاء، وصورته صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور، وله قلب ينبع منه الحكمة...

وزعم أن الله تعالى لما أراد خلق العالم تكلم بالاسم الأعظم فطار فوق علي رأسه تاجاً، قال: وذلك قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ١-٢]، ثم اطلع على أعمال العباد وقد كتبها على كفه، فغضب من المعاصي فغرق فاجتمع من عرقه بحران، أحدهما مالح والآخر عذب، والمالح مظلم والعذب نير، فاطلع في البحر النير فأبصر فانتزع عين ظله فخلق منها الشمس والقمر، وأفنى باقي ظله وقال: لا ينبغي أن يكون معي إله غيري.

قال: ثم خلق الخلق كله من البحرين، فخلق المؤمنين من البحر النير، والكفار من البحر المظلم، وخلق ظلال الناس.

وأول ما خلق هو ظل محمد وعلي قبل ظلال الكل، ثم عرض علي السموات والأرض والجبال أن يحملن الأمانة، وهي أن يمين علي بن أبي طالب من الإمامة فأبين ذلك، ثم عرض علي الناس فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك، وضمن أن يعينه علي الغدر به علي شرط أن يجعل الخلافة له من بعده، فقبل منه وأدما علي المنع متظاهرين، فذلك قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأجزاء: ٧٢].

وزعم أنه نزل في عمر قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦].

ولما أن قتل المغيرة، اختلف أصحابه، فمنهم من قال بانتظاره ورجعته، ومنهم من قال بانتظار إمامة محمد، كما كان يقول هو بانتظاره، وقد قال المغيرة لأصحابه: انتظروه، فإنه يرجع وجبريل وميكائيل يبایعانه بين الركن والمقام.

● المنصورية:

أصحاب أبي منصور العجلي، وهو الذي عزا نفسه بين أبي جعفر محمد بن علي الباقر في الأول، فلما تبرأ عنه الباقر وطرده زعم أنه هو الإمام ودعا الناس إلى نفسه،

= وقد ردّ بعض رجال السنة عليهم قائلين لهم: إن أجزتم أن يكون المقتول بالمدينة غير محمد النفس الزكية وأجزتم أن يكون المقتول هنا شيطاناً تصوّر في صورته، فأجيزوا بأن يكون المقتولون بكريلاء غير الحسين وأصحابه، وإنما كانوا شياطين تصوّروا للناس بصور الحسين وأصحابه، وانتظروا حسيناً كما انتظرتهم محمداً النفس الزكية، وانتظروا علياً كما انتظرته السبئية منكم الذين زعموا أنه في السحاب والذي قتله عبد الرحمن بن ملجم كان شيطاناً تصوّر بصورة علي للناس. (بلا مذاهب، ص ١٧٩).

ولما توفي الباقر قال: انتقلت الإمامة إليّ، وتظاهر بذلك وخرج جماعة منهم بالكوفة في بنى كندة حتى وقف يوسف بن عمر الثقفي والى العراق في أيام هشام بن عبد الملك على قصته وخبث دعوته، فأخذه وصلبه.

زعم العجلي أن علياً (كرم الله وجهه) هو الكسف الساقط من السماء، وربما قال: الكسف الساقط من السماء هو الله عز وجل!!

وزعم حين ادّعى الإمامة أنه عُرِجَ به إلى السماء، ورأى معبوده فمسح بيده رأسه وقال له: يا بنى أنزل فبلغ عني، ثم أهبطه إلى الأرض، فهو الكسف الساقط من السماء!!

وزعم أيضاً أن الرسل لا تنقطع أبداً والرسالة لا تنقطع!!
وزعم أن الجنة رجل أمرنا بمولاته وهو إمام الوقت، وأنه النار رجل أمرنا بمعاداته وهو خصم الإمام!!

وتأول المحرّمات كلها على أسماء رجال أمر الله تعالى بمعاداتهم، وتأول الفرائض على أسماء رجال أمرنا بمولاتهم!!

واستحل أصحابه قتل مخالفيهم وأخذ أموالهم واستحلّ نساءهم، وهم صنف من الخرمية، وإنما مقصودهم من حمل الفرائض والمحرّمات على أسماء رجال هو أن من ظفر بذلك الرجل وعرفه فقد سقط عنه التكليف وارتفع عنه الخطاب أو وصل إلى الجنة وبلغ إلى الكمال.

ومما أبدعه العجلي أن قال: أول ما خلق الله هو عيسى ابن مريم ثم علي بن أبي طالب!!

● الخطابية :

أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، وهو الذي عزا نفسه إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل في حقه تبرأ منه ولعنه وأخبر أصحابه بالبراءة منه وشدّد القول في ذلك وبالغ في التبري عنه واللعن عليه، فلما اعتزل عنه ادّعى الأمر لنفسه، وزعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بالهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه، وهم أبناء الله وأحباؤه، والإلهية نور في النبوة، والنبوة نور في الإمامة، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار.

وزعم أن جعفر هو الإله في زمانه، وليس هو المحسوس الذي يرونه، ولكن لما نزل إلى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها!!

ولما وقف عيسى بن موسى صاحب المنصور على خبث دعوته قتله بسبخة الكوفة، وافتترقت الخطابية بعده فرقاً، فزعمت فرقة أن الإمام بعد أبي الخطاب رجل يقال له «معمر» ودانوا به كما دانوا بأبي الخطاب.

وزعموا إن الدنيا لا تفتنى، وأن الجنة هي التي تصيب الناس من خير ونعمة وعافية، وأن النار هي التي تصيب الناس من شر ومشقة وبلية.

واستحلوا الخمر والزنا وسائر المحرمات، ودانوا بترك الصلاة والفرائض، وتسمى هذه الفرقة «معمرية».

وزعمت طائفة أن الإمام بعد أبي الخطاب «يزيغ»، وكان يزعم أن جعفرًا هو الإله، أي ظهر بصورته للخلق، وزعم أن كل مؤمن يوحى إليه، وتأول قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] : أي بوحى من الله إليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وزعم أن في أصحابه من هو أفضل من جبريل وميكائيل، وزعم أن الإنسان إذا بلغ الكمال لا يقال إنه مات، لكن الواحد منهم إذا بلغ النهاية قيل: رُفِعَ إلى الملكوت. وأدعوا كلهم معارضة أمواتهم، وزعموا أنهم يرونهم بكررة وعشياً، وتسمى هذه الطائفة «اليزيغية».

وزعمت طائفة أن الإمام بعد أبي الخطاب «عمير بن بنان العجلي»، وقالوا كما قالت الطائفة الأولى إلا أنهم اعترفوا بأنهم يموتون، وكانوا قد نصبوا خيمة بكناسة الكوفة. يجتمعون فيها على عبادة الصادق، فرُفِعَ خبرهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، فأخذ عميراً فضلبه في كناسة الكوفة، وتسمى هذه الطائفة «العجلية».

وزعمت طائفة أن الإمام بعد أبي الخطاب «مفضل الصيرفي» وكان يقول بربوبية جعفر دون نبوته ورسالته.

وتبرأ من هؤلاء كلهم جعفر بن محمد الصادق وطردهم ولعنهم، فإن القوم كلهم حيارى جاهلون، بحال الأئمة تائهون.

● الكيالية :

أتباع أحمد بن الكيال، وكان من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر بن محمد الصادق، وأظنه من الأئمة المستورين، ولعله سمع كلمات علمية فخلطها برأيه الفائل وفكره العاطل، وأبدع مقالة في كل باب علمي على قاعدة غير مسموعة ولا معقولة، وربما عانده الحسن في بعض المواضع، ولما وقفوا على بدعته تبرأوا منه ولعنوه، وأمروا شيعتهم بمنازحته وترك مخالطته، ولما عرف الكيال ذلك صرف الدعوة إلى نفسه وأدعى الإمامة أولاً، ثم ادعى أنه القائم ثانياً.

وكان من مذهبه أن كل من قدر الآفاق علي الأنفس وأمكنه أن يبين مناهج العالمين - أعنى عالم الآفاق وهو العالم العلوي، وعالم الأنفس وهو العالم السفلي، كان هو الإمام، وأن من قرر الكل في ذاته، وأمكنه أن يبين كل كلي في شخصه المعين الجزئي، كان هو القائم، قال: ولم يوجد في زمن من الأزمان أحد يقرر هذا التقرير إلا أحمد

الكيال، فكان هو القائم، وإنما قبله من انتمى إليه أولاً على بدعته، ذلك أنه الإمام ثم القائم، وبقيت من مقالته في العالم تصانيف عربية وعجمية كلها مزخرفة مردودة شرعاً وعقلاً:

قال الكيال: العوالم ثلاثة: العالم الأعلى، والعالم الأدنى، والعالم الإنساني، وأثبت في العالم الأعلى خمسة أماكن: الأول مكان الأماكن وهو مكان فارغ لا يسكنه موجود ولا يدبره روحاني وهو محيط بالكل.

قال: والعرش الوارد في الشرع عبارة عنه، ودونه مكان النفس الأعلى، ودونه مكان النفس الناطقة، ودونه مكان النفس الحيوانية، ودونه مكان النفس الإنسانية.

قال: وأرادت النفس الإنسانية الصعود إلى عالم النفس الأعلى فصعدت وخرقت المكانين - أعنى الحيوانية والناطقية - فلما قربت من الوصول إلى عالم النفس الأعلى كلت وانحسرت وتحيّرت وتعفنت واستحالت أجزاءها، فاهبطت إلى العالم السفلي ومضت عليها أكوار وأدوار وهي في تلك الحالة من العفونة والاستحالة، ثم ساحت عليها النفس الأعلى وأفاضت عليها من أنوارها جزء التراكيب في هذا العالم، فحدثت وحدثت السموات والأرض والمركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان، ووقعت في بلايا هذا التركيب تارة سروراً وتارة غماً، وتارة فرحاً وتارة ترحاً، وطوراً سلامة وعافية، وطوراً بليّة ومحنة، حتى يظهر القائم ويردها إلى حال الكمال وتنحل التراكيب وتبطل المتضادات ويظهر الروحاني على الجسماني وما ذلك القائم إلا أحمد الكيال.

ثم دلّ على تعيين ذاته بأضعف ما يتصور وأوهي ما يقدر، وهو أن اسم أحمد مطابق للعوالم الأربعة، فالألف من اسمه في مقابلة النفس الأعلى، والحاء في مقابلة النفس الناطقة، والميم في مقابلة النفس الحيوانية، والذال في مقابلة النفس الإنسانية.

قال: فالعوالم الأربعة هي المبادئ والبسائط وأما مكان الأماكن فلا وجود فيه البتة. ثم أثبت في مقابلة العوالم العلوية العالم السفلي الجسماني. قال: فالسماء خالية وهي في مقابلة مكان الأماكن، ودونها النار ودونها الهواء ودونها الأرض ودونها الماء، وهذه الأربعة في مقابلة العوالم الأربعة.

ثم قال: الإنسان في مقابلة النار، والطائر في مقابلة الهواء، والحيوان في مقابلة الأرض، والحوث في مقابلة الماء، فجعل مركز الماء أسفل المراكز والحوث أخس المركبات.

ثم قابل العالم الإنساني الذي هو أحد الثلاثة وهو عالم الأنفس مع آفاق العالمين الأولين الروحاني والجسماني.

قال: الحواس المركبة فيه خمس. فالسمع في مقابلة مكان الأماكن إذ هو فارغ، وفي مقابلة السماء والبصر في مقابلة النفس الأعلى من الروحاني، وفي مقابلة النار من الجسماني وفيه إنسان العين، لأن الإنسان مختص بالنار، والشم في مقابلة الناطق من الروحاني والهواء من الجسماني، لأن الشم من الهواء يتروح وبيتسم والذوق في مقابلة الحيواني من الروحاني والأرض من الجسماني، والحيوان مختص بالأرض والطعم بالحيوان، واللمس في مقابلة الإنساني من الروحاني والماء من الجسماني، والحوت مختص بالماء واللمس بالحوت، وربما عبر عن اللمس بالكناية.

ثم قال: «أحمد: ألف وحاء وميم ودال، وهو في مقابلة العالمين، أما في مقابلة العالم العلوي الروحاني فقد ذكرنا، وأما في مقابلة العالم السفلي الجسماني، فالألف يدل علي الإنسان، والحاء علي الحيوان، والميم علي الطائر والدال علي الحوت، فالألف من حيث استقامة القامة كالإنسان، والحاء كالحيوان لأنه معوج منكوس ولأن الحاء من ابتداء اسم الحيوان، والميم يشبه رأس الطير، والدال يشبه ذنب الحوت».

ثم قال: «إن الباري تعالي إنما خلق الإنسان علي شكل اسم أحمد. فالقامة مثل الألف، واليدان مثل الحاء، والبطن مثل الميم، والرجلان مثل الدال».

ثم من العجب أنه قال: الأنبياء هم قادة أهل التقليد، وأهل التقليد عميان والقائم قائد أهل البصيرة، وأهل البصيرة أولو الأبواب، وإنما يحصلون البصائر بمقابلة الآفاق والأنفس، والمقابلة كما سمعتها من أخس المقالات وأوهي المقابلات، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسمعه فكيف يرضي أن يعتقدها.

وأعجب من هذا كله تأويلاته الفاسدة ومقابلاته بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية وبين موجودات عالمي الآفاق والأنفس، وادعاؤه أنه متفرد بها، وكيف يصح له ذلك وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك، لا علي الوجه المزيف الذي قرره الكيال، وحمله الميزان علي العالمين والصراط علي نفسه، والجنة علي الوصول إلي علمه من البصائر، والنار علي الوصول إلي ما يضاذه.. ولما كانت أصول علمه ما ذكرناه، فانظر كيف يكون حال الفروع!!

● الهشامية:

أصحاب الهشامين: هشام بن الحكم^(١) صاحب المقالة في التشبيه، وهشام بن سالم الجواليقي الذي نسج علي منواله في التشبيه، وكان هشام بن الحكم من

(١) هشام بن الحكم (توفي سنة ١٩٠هـ)، كوفي من كبار أصحاب الإمام جعفر الصادق، برع في المناظرة والجدل وتقدم بذلك وهو شاب علي شيوخ الشيعة، وهو من أوائل المؤلفين في الإسلام، له كتاب (الألفاظ) في أصول الفقه (البلتاجي).

متكلمي الشيعة وجرت بينه وبين أبي الهذيل مناظرات في علم الكلام منها في التشبيه، ومنها في تعلق علم الباري تعالى .

حكى ابن الراوندي عن هشام أنه قال: إن بين معبوده وبين الأجسام تشابها ما بوجه من الوجوه، ولولا ذلك لما دلت عليه. حكى الكعبي عنه أنه قال: هو جسم ذو أبعاد له قدر من الأقدار، ولكن لا يشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبهه شيء. وقيل عنه وإنه قال: هو سبعة أشبار بشبر نفسه، وأنه في مكان مخصوص وجهة مخصوصة، أنه يتحرك وحركته فعله وليست من مكان إلي مكان، وقال: هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة.

وحكى عنه أبو عيسى الوراق أنه قال: إن الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل منه شيء من العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه.

ومن مذهب هشام: أنه لم يزل عالما بنفسه ويعلم الأشياء بعد كونها بعلم لا يقال فيه: محدث أو قديم، لأنه صفة والصفة لا توصف ولا يقال فيه هو أو غيره أو بعضه، وليس قوله في القدرة والحياة كقوله في العلم، لأنه لا يقول بحدوثهما. قال: ويريد الأشياء وإرادته حركة ليست غير الله ولا هي عينه.

وقال في كلام الباري وتعالى: إنه صفة لله تعالى، ولا يجوز أن يقال هو مخلوق ولا غير مخلوق.

وقال: الأعراض لا تصلح دلالة علي الله تعالى، لأن منها ما يثبت استدلالا، وما يستدل به علي الباري تعالى يجب أن يكون ضروري الوجود.

وقال: الاستطاعة كل ما لا يكون الفعل إلا به كالألات والجوارح والوقت والمكان.

وقال هشام بن سالم: إنه تعالى علي صورة إنسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت، وهو نور ساطع يتلأأ، وله حواس خمس ويد ورجل وأنف وأذن وعين وفم، وله وفرة سوداء، وهو نور أسود لكنه ليس بلحم ولا دم.

وقال هشام: الاستطاعة بعض المستطيع، وقد نقل عنه أنه أجاز المعصية علي الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة، ويفرق بينهما بأن النبي يوحى إليه فينبه علي وجه الخطأ فيتوب منه، والإمام لا يوحى إليه فيجب عصمته.

وغلا هشام بن الحكم في حق علي حتي قال: إنه إله واجب الطاعة، وهذا هشام ابن الحكم صاحب غور في الأصول لا يجوز أن يغفل عن إزماته علي المعتزلة، فإن الرجل وراء ما يلزمه علي الخصم ودون ما يظهره من التشيينه، وذلك أنه ألزم العلاف فقال: إنك تقول: الباري عالم بعلمه وعلمه ذاته فيشارك المحدثات في أنه عالم بعلم، وبيانها في أن علمه ذاته فيكون عالما لا كالعالمين، فلم لا تقول هو جسم لا كالأجسام وصورة لا كالصور وله قدر لا كالأقدار؟... إلي غير ذلك.

ووافقه ذرارة بن أعين في حدوث علم الله تعالى، وزاد عليه بحدوث قدرته وحياته وسائر صفاته، وأنه لم يكن قبل خلق هذه الصفات عالما ولا قادرا ولا حيا ولا سميعا ولا بصيرا ولا مريدا ولا متكلمًا.

وكان يقول بإمامة عبد الله بن جعفر، فلما فاوضه في مسائل ولم يجده بها مليا رجع إلي موسى بن جعفر وقيل أيضا، إنه لم يقل بإمامته، إلا إنه أشار إلي المصحف فقال: هذا إمامي، وأنه كان قد التوي علي جعفر بعض الالتواء، وحكي عن الزرارية: أن المعرفة ضرورية، وأنه لا يسع جهل الأئمة، فإن معارفهم كلها ضرورية وكل ما يعرفه غيرهم بالنظر فهو عندهم أولي ضروري ونظرياتهم لا يدركها غيرهم.

● النعمانية:

إصحاب محمد بن النعمان أبي جعفر الأحول، الملقب بشيطان الطاق، والشيعة تقول: هو مؤمن الطاق، وافق هشام بن الحكم في أن الله تعالى لا يعلم شيئا حتي يكون، والتقدير عنده الإدارة، والإرادة فعله تعالى.

وقال: إن الله تعالى نور علي صورة إنسان، ويأبي أن يكون جسما، لكنه قال: قد ورد في الخبر أن الله قد خلق آدم علي صورته، وعلي صورة الرحمن، فلا بد من تصديق الخبر.

ويحكي عن مقاتل بن سليمان مثل مقالته في الصورة، وكذلك يحكي عن داود الجواربي ونعيم بن حماد المصري وغيرهما من أصحاب الحديث، أنه تعالى ذو صورة وأعضاء.

ويحكي عن داود أنه قال: اعفوني عن الفرج واللحية، واسألوني عما وراء ذلك فإن في الأخبار ما يثبت ذلك.

وقد صنف ابن النعمان كتبا جملة للشيعة منها: أفعال لم فعلت.. ومنها أفعال لا تفعل ويذكر فيها أن كبار الفرق أربعة: القدرية، والخوارج والعامية، والشيعة، ثم عين الشيعة بالنجاة في الآخرة من هذه الفرق.

وذكر عن هشام بن سالم ومحمد بن النعمان أنهما أمسكا عن الكلام في الله، ورويا عن يوجبان تصديقه أنه سئل عن قول الله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. قال: إذا بلغ الكلام إلي الله فأمسكوا، فأمسكا عن القول في الله والتفكر فيه حتي ماتا، هذا نقل الوراق.

● اليونسية:

أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمي مولي آل يقطين، زعم أن الملائكة تحمل العرش، والعرش يحمل الرب تعالى، إذ قد ورد في الخبر: أن الملائكة تخط أحيانا من

وطأة عظمة الله تعالى علي العرش، وهو من مشبهة الشيعة وقد صنف لهم كتباً في ذلك.

● النصيرية والإسحاقية (١)

من غلاة الشيعة، ولهم جماعة ينصرون مذهبهم وينوبون عن أصحاب مقالاتهم، وبينهم خلاف في كيفية إطلاق اسم الإلهية علي الأئمة من أهل البيت قالوا: « ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمر لا ينكره عاقل، إما في جانب الخير كظهور جبريل عليه السلام ببعض الأشخاص والتصور بصورة أعرابي، والتمثيل بصورة البشر، وإما في جانب الشر كظهور الشيطان بصورة الإنسان حتي يعمل الشر بصورته، وظهور الجن بصورة بشر حتي يتكلم بلسانه، فلذلك نقول: إن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص، ولما لم يكن بعد رسول الله ﷺ شخص أفضل من علي عليه السلام، وبعده أولاده المخصوصون هم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم ونطق بالسنتهم وأخذ بأيديهم، فعن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم، وإنما أثبتنا هذا الاختصاص لعلي دون غيره، لأنه كان مخصوصاً بتأييد من عند الله تعالى مما يتعلق بباطن الأسرار، قال النبي ﷺ (أنا أحكم بالظاهر والله يتولي السرائر) وعن هذا كان قتال المشركين إلي النبي ﷺ وقتال المنافقين إلي علي، وعن هذا شبهه بعيسي ابن مريم، وقال: (لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسي ابن مريم وإلا قلت فيك مقالا)، وربما أثبتوا له شركة في الرسالة إذ قال: (فيكم من يقاتل علي تأويله كما قاتلت علي تنزيله، ألا وهو خاصف النعل) فعلم التأويل، وقتال المنافقين ومكالمة الجن، وقلع باب خيبر لا بقوة جسدانية، من أدل الدليل علي أن علي فيه جزء إلهيا وقوة ربانية أو يكون هو الذي أظهر الإله بصورته وخلق بيده وأمر بلسانه، وعن هذا قالوا: كان هو موجوداً قبل خلق السموات والأرض، قال: كنا أظلة علي يمين العرش فسبحنا فسبحت الملائكة بتسييحنا، فتلك الظلال وتلك الصورة العرية عن الأضلال هي حقيقة وهي مشرقة بنور الرب تعالى إشراقاً لا ينفصل عنها سواء أكانت في هذا العالم أو في ذلك العالم وعن هذا قال: أنا من أحمد كالضوء من الضوء، يعني لا فرق بين النورين إلا أن أحدهما أسبق والثاني لاحق به. قال له: وهذا يدل علي نوع شركة، فالنصيرية أميل إلي تقرير الجزء الإلهي، والإسحاقية أميل إلي تقرير الشركة في النبوة، ولهم اختلافات أخر لم نذكرها.

وقد نُجِزَت الفرق الإسلامية ومابقت إلا فرقة الباطنية، وقد أوردتهم أصحاب

(١) النصيرية (أو العلويون) طائفة تقطن جبل العلويين وشمال سوريا (سهول حمص وحماة وحلب) دعوا كذلك نسبة إلي محمد بن نصير مؤسس الطائفة أو راعيها (توفي سنة ٢٦٠هـ).

التصانيف في كتب المقالات ، إما خارجة عن الفرق وإما داخلة فيها . . وبالجملة هم قوم يخالفون اثنتين وسبعين فرقة .

● رجال الشيعة ومصنفو كتبهم :

من الزيدية : أبو خالد الواسطي ، ومنصور بن الأسود ، وهارون بن سعيد العجلي ، ووكيع بن الجراح ، ويحيى بن آدم ، و عبد الله بن موسى ، وعلي بن صالح ، والنضل بن دكين من الجارودية ، وأبو حنيفة بشرية ، وخرج محمد بن عجلان مع الإمام ، وخرج إبراهيم بن عباد بن عوام ، ويزيد بن هارون والعلاء بن راشد ، وهشيم بن بشر ، والعوام بن حوشب ، ومسلم بن سعيد مع إبراهيم الإمام .

ومن الإمامية وسائر أصناف الشيعة : سالم بن أبي الجعد ، وسالم بن أبي حفصة ، وسلمة بن كميل ، وتوبة بن أبي فاخنة ، وحبيب بن أبي ثابت أبو المقدام ، وشعبة ، والأعمش ، وجابر الجعفي ، وأبو عبد الله الجدلي ، وأبو إسحاق السبيعي ، والمغيرة ، وطاووس ، والشعبي ، وعلقمة ، وهبيرة بن برهم ، وحببة الغرني ، والحارث الأعور .

ومن مؤلفي كتبهم : هشام بن الحكم ، وعلي بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وشكال ، والفضل بن شاذان ، والحسين بن إشكاب ، ومحمد بن عبد الرحمن بن رقية ، وأبو سهل النوبختي ، وأحمد بن يحيى الراوندي .
ومن المتأخرين : أبو جعفر الطوسي .

* * *

٥ - الإسماعيلية (١)

ذكرنا أن الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الإثنا عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر، وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر، قالوا: ولم يتزوج الصادق علي أمه بواحدة من النساء ولا اشتري جارية كسنة رسول الله ﷺ في حق خديجة وكسنة علي في حق فاطمة.

وذكرنا اختلافهم في موته في حال حياة أبيه، فمنهم من قال: إنه مات وإنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلي أولاده خاصة، كما نص موسى إلي هارون عليهما السلام، ثم مات هارون في حال حياة أخيه، وإنما فائدة النص انتقال الإمامة منه إلي أولاده، فإن النص لا يرجع قهقري، والقول بالبداء محال، ولا ينص الإمام

(١) الإسماعيليون: هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه، ولم يختلفوا عن بقية المذاهب الإسلامية إلا بهذا القول حتي خلافة المستنصر الفاطمي، فلما تولي الخلافة بعده ابنه أحمد المستعلي انشق عن خلفته فريق من الإسماعيليين بزعامة الحسن بن الصباح، وبايعوا لأخيه نزار، وبعد أن فشلت ثورتهم في الإسكندرية، انتقل الحسن بن الصباح إلي قلعة (الموت) وعندما أعلن الحسن بن محمد زعيم النزاريين (عام ٥٥٨ هـ) إلغاء الشعائر الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض، أصبح النزاريون (أو الحشاشون) مغايرين لأصحاب المذهب الإسماعيلي الفاطمي، في حين ظلوا يحملون اسم الإسماعيلية حتي الآن، وهم أتباع أغاخان، أما الآخرون فهم المعروفون اليوم باسم البهوية أو السبعية.

وتسميتهم (الحشاشون) مأخوذة من الكلمة الإفرنجية (Assassins) وهي بمعنى (فاتك) أطلقتها عليهم الصليبيون لاشتهارهم بالاعتقال، ويبدأ تاريخهم باحتلال (الموت) (عام ٤٨٣ هـ) علي يد الحسن الصباح، واشتد نفوذهم بعد اغتيالهم للوزير السلجوقي نظام الملك (عام ٤٨٥ هـ)، وعمل السلاجفة علي إخضاعهم عبثاً، فاستولوا علي قلاع مصياف، وعليقة وقدموس (عام ٥٣٦ هـ)، عرف رئيسهم بـ (شيخ الجبل) وقد قضي عليهم المغول (٦٥٤ - ٦٥٩ هـ) ووجه إليهم بيبيرس الضربة القاتلة (عام ٦٧١ هـ).

والسبعية: اسم يطلق علي الإسماعيلية المستعلية، لأنهم انفصلوا عن الشيعة ابتداء من الإمام السابع، وهم المعروفون اليوم باسم (البهرة) وعلي هذا الرأي كان الخلفاء الفاطميون.

والدعوة عند الإسماعيلية علي درجات لكل درجة اسم خاص بمن يشغلها.. فهناك: الناطق والأساس والحجة، فالناطق يبلغ الكلام المنزل، والأساس يقول، والحجة يثبت صدق رسالة الأساس فالنبي محمد ﷺ عندهم ناطق، وعلي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) أساس.

وتقوم فلسفتهم علي اعتبار العقل الكلي مجمع صفات الله، وتنال السعادة بالعلم ولا ينال العلم إلا بحلول العقل الكلي في الأئمة بعد الناطق. ويلاحظ أن نظرية الفيض تلعب دوراً هاماً، ولهم كتب كثيرة ما يزال أغلبها مخطوطاً ويوجد الإسماعيليون الآن في إيران وأواسط آسيا وأفغانستان والهند وعمان والشام وزنجبار وتنزانيا (البلتاجي).

علي واحد من ولده إلا بعد السماع من آبائه والتعيين لا يجوز علي الإبهام والجهالة.

ومنهم من قال: إنه لم يمت، لكن أظهر موته تقية عليه، حتي لا يقصد بالقتل، ولهذا القول دلالات، منها أن محمداً كان صغيراً وهو أخوه لأمه مضي إلي السرير الذي كان إسماعيل نائماً عليه ورفع الملاء فأبصره وهو قد فتح عينه، وعدا إلي أبيه مفزعا وقال: عاش أخي، عاش أخي، قال والده: إن أولاد الرسول كذا يكون حالهم في الآخرة. قالوا: وما السبب في الاستشهاد علي موته وكتب المحضر عليه، ولم يعهد ميتا سجل علي موته؟!.

وعن هذا، لما رفع إلي المنصور أن إسماعيل بن جعفر مر بالبصرة علي مقعد فدعا فبرئ بإذن الله، بعث المنصور إلي الصادق أن إسماعيل في الأحياء وأنه رؤي بالبصرة، فأنفذ السجل إليه وعليه شهادة عامله بالمدينة. قالوا: وبعد إسماعيل، محمد، ابن إسماعيل السابع التام، وإنما تم دور السبعة به، ثم ابتداء بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد ويظهرون الدعاة جهرا.

وقالوا ولن تخلو الأرض قط من إمام حي قاهر، إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور.. فإذا كان الإمام ظاهرا يجوز أن تكون حجته مستورة، وإذا كان الإمام مستورا فلا بد أن تكون حجته ودعائه ظاهرين. وقالوا: إنما الأئمة تدور أحكامهم علي سبعة، كأيام الأسبوع والسماوات السبع والكواكب السبع.

والنقباء تدور أحكامهم علي اثني عشر، قالوا: وعن هذا وقعت الشبهة للإمامية القطعية حيث قرروا عدد النقباء للأئمة.

ثم بعد الأئمة المستورين كان ظاهر المهدي والقائم بأمر الله وأولادهم نصا بعد نص علي إمام بعد إمام، ومذهبهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية، وكانت لهم دعوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان، فتذكر مقالاتهم القديمة وتذكر بعدها دعوة صاحب الدعوة الجديدة.

وأشهر ألقابهم (الباطنية) وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا، ولهم ألقاب كثيرة سوي هذه علي لسان قوم قوم.

فبالعراق: يسمون الباطنية (١) والقرامطة (٢)، والمزدكية. وبخراسان: التعليمية، والملحدة...

وهم يقولون: نحن إسماعيلية، لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص.. ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم علي ذلك المنهاج.. فقالوا في الباري تعالي: إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، وكذلك في جميع الصفات، فإن الإثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه وبين سائر الموجودات في الجهة التي أطلقنا عليه، وذلك تشبيهه، فلم يكن الحكم بالإثبات المطلق والنفي المطلق، بل هو إله المتقابلين والحاكم بين المتضادين.

ويقولون في هذا أيضا عن محمد بن علي الباقر أنه قال: لما وهب العلم للعالمين قيل: هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قيل: هو قادر، فهو عالم وقادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة، أو وصف بالعلم والقدرة.

فقيل فيهم: إنهم نفاة الصفات حقيقة، معطلة الذات عن جميع الصفات.

قالوا: وكذلك نقول في القدم إنه ليس بقديم ولا محدث، بل القديم أمره وكلمته، والمحدث خلقه وفطرته، أبداع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل ثم بتوسطه أبداع النفس الثاني الذي هو غير تام، ونسبة النفس إلي الفعل إما نسبة

(١) الباطنية: فرق إسماعيلية تقول بالوحدانية ويشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ولكنهم في نفس الوقت يقولون أن لكل ظاهر باطنا، وأن لكل تنزيل تأويلا، وتأويلا ظاهرا وتأويلا باطنا، فالتأويل الظاهر للإيمان وللقرآن يتفق إلي حد كبير مع التشريعات السنية، ولعلمهم قد عمدوا إلي هذه التأويلات الظاهرية لكي يردوا علي أهل السنة ممن رموهم بالزيف والكفر، وقد جعلوا من شروط الإيمان أن يؤمن الإسماعيلي بالظاهر والباطن معا، والإيمان بواحد منهما دون الآخر يعتبر خروجا علي المذهب وكفرا. (إسلام بلا مذاهب ص ٢٣٥).

(٢) القرامطة: أصحاب دعوة كانوا يدينون بمذهب الإسماعيلية، اتخذوا الدعوة إلي إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضهم، عرفوا بذلك نسبة إلي أحد دعواتهم، حمدان ابن الأشعث الملقب بقرمط، انتشرت دعوتهم باليمن حين بعث الإمام الإسماعيلي، الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، اثنين من الدعوة إلي اليمن هما علي ابن الفضل الحميري اليمني الأصل، ومنصور بن حسن الكوفي، للدعوة له، ونجح علي بن الفضل نجاحا كبيرا في نشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن، أما منصور بن حسن فتغلب علي جزء من بلاد اليمن، وجعل مركز دعوته في «مسور» (البلتاجي).

النطفة إلي تمام الخلقة. والبيض إلي الطير، وإما نسبة الولد إلي الوالد والنتيجة إلي المنتج، وإما نسبة الأنثي إلي الذكر والزوج إلي الزوج (١).

قالوا: ولما اشتاقت النفس إلي كمال العقل احتاجت إلي حركة من النقص إلي الكمال، واحتاجت الحركة إلي آلة الحركة.، فحدثت الأفلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها وتحركت حركة استقامت بتدبير النفس أيضا فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان (٢).

وكان نوع الإنسان متميزا عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض تلك الأنوار، وكان عالمه في مقابل العالم كله.

وفي العالم العلوي عقل ونفس كلي، وجب أن يكون في هذا العالم عقل شخص هو كل، وحقمه حكم الشخص الكامل البالغ، ويسمونه الناطق وهو النبي، ونفس

(١) وبهذا ينكرون صفات الله أو يكادون، ويعلمون ذلك بأن الله تعالي فوق متناول العقل، ومن أجل ذلك يقولون: لا نقول موجود ولا نقول غير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، وعلي ذلك فلا يقولون بالإثبات المطلق ولا بالنفي المطلق، بل هو إله المتقابلين، وخالق المتخاصمين، والحاكم بين المتضادين، وليس هو بالقديم، كما أنه ليس بالحدث، فالقديم أمره وكلمته، وبالحدث خلقه وفطرته (البلتاجي).

(٢) هنا يقول الإسماعيليون: إن الله تعالي لم يخلق العالم خلقا مباشرا، بل أبدع العقل الكلي بعمل من أعمال الإرادة، والعقل الكلي محل لجميع الصفات الإلهية، وفي نظرهم الإله ممثلا في مظاهره الخارجية، ويعلمون هذه الفلسفة فيقولون: لما كانت الصلاة لا يمكن أن تؤدي لكائن لا يدرك، فهي تؤدي - في رأيهم - لمظهره الخارجي وهو العقل الذي أصبح تبعا لذلك الإله الحقيقي من وجهة نظرهم، ولما كان الإنسان غير قادر علي معرفة ذات الله وإنما يعرف العقل وحده، فإنهم يسمون العقل (الحجاب) أو (المحل) أو (الصلة)، ولبلوغ السعادة عندهم ينبغي علي الإنسان تحصيل العلم، ولا يمكن تحصيل السعادة التي هي العلم إلا بحلول العقل الكلي في إنسان هو النبي، وفي الأئمة الذين يخلفونه، والعقل الحال يسمى (ناطقا)، والنفس الحالة تسمى (أساسا)، والناطق هو النبي الذي يبلغ الكلام المنزل، والأساس هو الإمام الذي يفسره معتمدا علي التأويل، ولذلك يقولون إن محمدا ﷺ هو (الناطق) وعلياً (كرم الله وجهه) هو الأساس. فالخالق إذن - عندهم - تبعا لهذا الاعتقاد هو العقل الكلي والنفس الكلية، ومعني آخر أن ما يقوله جمهور المسلمين عن الله تعالي خلعه الإسماعيليون علي العقل الكلي الذي هو الإله عندهم، وهم لم يذهبوا هذا المذهب في التعريف بالله ولم يركبوا هذا المركب الصعب عبثا، بل عمدوا إلي ذلك لإسباغ صفة خاصة علي الإمام الذي قالوا إنه من البشر، فقالوا إن العقل الكلي في العالم العلوي، يقابله الإمام في العالم الجسماني، وانتهاوا من ذلك إلي أن جميع الأسماء والصفات التي خلعت علي العقل الكلي هي أيضا أسماء وصفات خلعت علي الإمام، لأن الإمام مثل للعقل الكلي، فأسماء الله تعالي جميعا هي أسماء للإمام. (إسلام بلا مذاهب ص ٢٣٦، ٢٣٧).

مشخصه هو كل أيضا وحكمها حكم الطفل الناقص التوجه إلي الكمال، أو حكم النطفة المتوجهة إلي التمام، أو حكم المزدوج الذكر، ويسمونه الأساس وهو الوصي . قالوا: ولما تحركت الأفلام بتحريك النفس والعقل والطبائع، كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبي، والوصي في كل زمان دائرا علي سبعة سبعة، حتي ينتهي إلي الدور الأخير ويدخل زمان القيامة وترتفع التكاليف وتضمحل السنن والشرائع.

وإنما هذه الحركات الفلكية والسنن الشرعية لتبلغ النفس إلي حال كمالها، وكمالها بلوغها إلي درجة العقل واتحادها ووصولها إلي مرتبة فعلا، وذلك هو القيامة الكبرى، فتتحل تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات، وتنشق السماء وتتناثر الكواكب وتبدل الأرض غير الأرض، وتطوي السموات كطي السجل للكتاب المرقم فيه، ويحاسب الخلق ويتميز الخير عن الشر والمطيع عن العاصي، وتتصل جزئيات الحق بالنفس الكلبي، وجزئيات الباطل بالشیطان المبطل، فمن وقت الحركة إلي السكون هو المبتدأ، ومن وقت السكون إلي ما لا نهاية له هو الكمال.

ثم قالوا: ما من فريضة وسنة وحكم من أحكام الشرع، من بيع وإجازة وهبة ونكاح وطلاق وجراح وقصاص ودية، إلا وله وزان من العالم عددا في مقابلة عدد، وحكما في مقابلة حكم، فإن الشرائع عوالم روحانية أمرية، والعوالم شرائع جسمانية خلقية.

وكذلك التركيبات في الحروف والكلمات علي وزان تركيبات الصور والأجسام والحروف المفردة نسبتها إلي التركيبات من الكلمات كالبسائط المجردة إلي المركبات من الأجسام، ولكل حرف وزان في العالم وطبيعة يخصها وتأثير من حيث تلك الخاصية في النفوس، فعن هذا صارت العلوم الاستفادة من الكلمات التعليمية غذاء للنفوس كما صارت الأغذية الاستفادة من الطبائع الخلقية غذاء للأبدان، وقد قدر الله تعالي أن يكون غذاء كل موجود مما خلقه منه.

فعلي هذا الوزان صاروا إلي ذكر أعداد الكلمات والآيات، وأن التسمية مركبة من سبعة واثنى عشر، وأن التهليل مركب من أربع كلمات في إحدي الشهادتين وثلاث كلمات في الشهادة الثانية، وسبع قطع في الأولي وست في الثانية واثنا عشر حرفا في الثانية، وكذلك في كل آية أمكنهم استخراج ذلك مما لا يعمل العاقل فكرته فيه إلا ويعجز عن ذلك خوفا عن مقابلته بضده.

وهذه المقابلات كانت طريقة أسلافهم، قد صنفوا فيها كتبا، ودعوا الناس إلي إمام في كل زمان يعرف موازنات هذه العلوم ويهتدي إلي مدارج هذه الأوضاع والرسوم.

ثم أصحاب الدعوة الجديدة تنكبوا هذه الطريقة حين أظهر الحسن بن الصباح (١) دعوته، وقصر عن الإلزامات كلمته، واستظهر بالرجال وتحصن بالقلع. وكان بدء صعوده إلي قلعة الموت في شعبان سنة (٤٨٣هـ) وذلك بعد أن هاجر إلي بلاد إمامه وتلقي منه كيفية الدعوة لأبناء زمانه، فعاد ودعا الناس أول دعوة إلي تعيين إمام صادق قائم في كل زمان، وتمييز الفرقة الناجية من سائر الفرق بهذه النكته، وهو أن لهم إماما وليس لغيرهم إمام، وإنما يعود خلاصة كلامه بعد ترديد القول فيه عودة علي بدء بالعربية والعجمية علي هذا الحرف، ونحن ننقل ما كتبه بالعجمية إلي العربية ولا معاب علي الناقل والموقف من اتباع الحق واجتناب الباطل، والله الموفق والمعين.

فنبداً بالفصول الأربعة التي ابتداء الدعوة بها وكتبها عجمية فعربتها... قال للمفتي: في معرفة الباري تعالي أحد قولين، إما أن يقول: أعرف الباري تعالي بمجرد العقل والنظر من غير احتياج إلي تعليم معلم، وإما أن يقول: لا طريق إلي المعرفة مع العقل والنظر إلا بتعليم معلم صادق. قال: ومن أفتي بالأول فليس له الإنكار علي عقل غيره ونظره، فإنه متي أنكر فقد علم، والإنكار تعليم ودليل علي أن المنكر عليه يحتاج إلي غيره. قال: والقسمان ضروريان، فإن الإنسان إذا أفتي بفتوي أو قال قولاً فيما أن يقول من نفسه أو من غيره، وكذلك إذا اعتقد عقداً، فيما أن يعتقده من نفسه أو من غيره. هذا هو الفصل الأول وهو كسر علي أصحاب الرأي والعقل.

(١) الحسن بن الصباح (توفي سنة ٥١٨هـ) داع فاطمي، عارض أنصار المستعلي وأيد اتباع نزار وهرب به من القاهرة إلي الإسكندرية فثار هناك ففشلت ثورته وقتل نزار، ففر إلي إيران حيث أسس طائفة (الحشاشين) عام (٤٨٣هـ) في قلعة الموت الجبلية التي اتخذها مقراً لدعوته، وكان أهم ما يميز هذه الفرقة الإسماعيلية هو اتخاذ الاغتيال وسيلة للتخلص من أعدائها، وكان يرأسها (السيد) أو (شيخ الجبل) صاحب الأمر والنهي، ويليه الدعاة الذين يتلقون أوامره منه وينفذون تعليماته، وكان الدعاة منقسمين إلي مراتب حسب إطلاعهم علي أسرار الفرقة. وكانت مرتبة الفدائيين أهم المراتب وذلك لقيامهم باغتيال الأعداء، وكان شيخ الجبل يكافئهم علي أعمالهم التي كانوا يتدربون عليها - بإدخالهم من حين لآخر في جنة غناء قائمة داخل الحصن، حيث يسمح لهم بتعاطي الحشيش وممارسة كل أنواع الملذات الحسية. وقد خلف ابن الصباح بعد وفاته ستة من شيوخ الجبل، كان لهم أهمية سياسية كبيرة، واتسع نطاق دعوتهم حتي شمل الشام، وفي عام (٦٥٤هـ) هاجم هولاء قلع الموت وقضي علي الفرقة، كما قضي عليهم في الشام بيبرس سلطان الماليك عام (٦٧١هـ) وقد بقيت منهم فئات متفرقة في سوريا وإيران والهند.

وذكر في الفصل الثاني: أنه إذا ثبت الاحتياج إلي معلم، أفصلح كل معلم علي الإطلاق، أم لا بد من معلم صادق؟ قال: ومن قال إنه يصلح كل معلم ما ساغ له الإنكار علي معلم خصمه، وإذا أنكر فقد سلم أنه لا بد من معلم معتمد صادق.. قيل: وهذا كسر علي أصحاب الحديث.

وذكر في الفصل الثالث: أنه إذا ثبت الاحتياج إلي معلم صادق، أفلا بد من معرفة المعلم أولا والظفر به ثم التعلم منه، أم جاز من كل معلم من غير تعيين شخصه وتبين صدقه؟ والثاني رجوع إلي الأول ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق، فالرفيق ثم الطريق.. وهو كسر علي الشيعة.

وذكر في الفصل الرابع: أن الناس فرقتان، فرقة قالت: يحتاج في معرفة الباري تعالي إلي معلم صادق ويجب تعيينه وتشخيصه أولا، ثم التعلم منه.. وفرقة أخذت من كل علم من معلم وغير معلم.

وقد تبين بالمقدمات السابقة أن الحق مع الفرقة الأولى، فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين، وإذا تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية، فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين.

قال: وهذه الطريقة التي عرفتنا الحق بالحق معرفة مجملة، ثم نعرف بعد ذلك الحق بالحق معرفة مفصلة حتي لا يلزم دوران المسائل، وإنما عني بالحق ههنا الاحتياج وبالحق المحتاج إليه.

وقال: بالاحتياج عرفنا الإمام، وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج، كما بالجواز عرفنا الوجوب، أي واجب الوجود، وبه عرفنا مقادير الجواز من الجائزات، قال: والطريق إلي التوحيد كذلك حذو القذة بالقذة.

ثم ذكر فصولا في تقرير مذهبه، إما تمهيدا وإما كسرا علي المذاهب وأكثرها كسر وإلزام واستدلال بالاختلاف علي البطلان، وبالاتفاق علي الحق، منها فصل الحق والباطل، والصغير والكبير.

يذكر أن في العالم حقا وباطلا، ثم يذكر أن علامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل هي الكثرة، وأن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي، والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الإمام، والرأي مع الفرق المختلفة وهي مع رؤسائهم وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه، والتمايز بينهما من وجه التضاد في الطرفين، والترتيب في أحد الطرفين ميزانا يزن به جميع ما يتكلم فيه.

قال: وإنما أنشأت هذا الميزان من كلمة الشهادة وتركيبها، من النفي والإثبات، أو النفي والاستثناء، قال: فما هو مستحق النفي باطل، وما هو مستحق الإثبات حق.

ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات، ونكتته أن يرجع في كل مقالة وكلمة إلي إثبات المعلم، وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة معا حتي يكون توحيدا، وأن النبوة هي النبوة والإمامية معا حتي تكون نبوة، وهذا هو منتهي كلامه، وقد منع العوام عن الخوض في العلوم، وكذلك الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة إلا من عرف كيفية الحال في كل كتاب ودرجة الرجال في كل علم، ولم يتعد بأصحابه في الإلهيات عن قوله: إن إلهنا إله محمد.

قال: أنا وأنتم تقولون إلهنا إله العقول: أي ما هدي إليه عقل كل عاقل. فإن قيل لواحد منهم: ما تقول في الباري تعالي وأنه هل هو واحد أم كثير؟ عالم قادر أم لا؟ لم يجب إلا بهذا القدر: إن إلهي إله محمد وهو الذي أرسل رسوله بالهدى، والرسول هو الهادي إليه.

يقول الإمام الشهرستاني... وكم قد ناظرت القوم علي المقدمات المذكورة فلم يتخطوا عن قولهم: أفنحتاج إليك أو نسمع هذا منك أو نتعلم عنك، وكم قد ساهلت القوم في الاحتياج وقلت: أين المحتاج إليه؟ وإيش يقدر لي في الإلهيات؟ وماذا يرسم في المعقولات؟ إذ المعلم لا يعني لعينه، وإنما يعني ليعلم، وقد سدتم باب العلم وفتحتم باب التسليم والتقليد، وليس يرضي عاقل بأن يستفد مذهبا علي غير بصيرة، وأن يسلك طريقا من غير بينة، فكانت مبادئ الكلام تحكيمات وعواقبها تسليمات: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [النساء: ٦٥].

ويقول أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (المتوفي سنة ٤٥٦ هـ) تحت عنوان (ذكر شنع الشيعة): أهل الشنع من هذه الفرقة ثلاث طوائف أولها الجارودية من الزيدية، ثم الإمامية من الرافضة، ثم الغالية.

فأما الجارودية: فإن طائفة منهم قالت: إن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب القائم بالمدينة علي أبي جعفر المنصور، فوجه إليه المنصور عيسى بن موسي بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فقتل محمد بن عبد الله ابن الحسن رحمه الله.. فقالت هذه الطائفة: إن محمدا المذكور حي لم يقتل ولا مات ولا يموت حتي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا.

وقالت طائفة أخرى منهم: إنه يحيي بن عمر بن يحيي بن الحسين بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب القائم بالكوفة أيام المستعين فوجه إليه محمد بن عبد الله بن طاهر ابن الحسين بأمر المستعين ابن عمه الحسن ابن إسماعيل بن الحسين، وهو ابن أخي طاهر بن الحسين، فقتل يحيي بن عمر رحمه الله..

فقال الطائفة المذكورة: إن يحيى بن عمر هذا حي لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وقالت طائفة منهم: إن محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القائم بالطالقان أيام المعتصم، حي لم يموت ولا يقتل ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وقال الكيسانية - وهم أصحاب المختار بن أبي عبيد - وهم عندنا شعبة من الزيدية في سبيلهم: إن محمد بن علي بن أبي طالب - وهو ابن الحنفية - حي بجبال رضوي عن يمينه أسد وعن يساره نمر، تحدته الملائكة، يأتيه رزقه غدواً وعشيا، لم يموت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وقال بعض الروافض الإمامية - وهي الفرقة التي تدعي المطورة - إن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ^(١) حي لم يموت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وقال طائفة منهم - وهم الناوسية - أصحاب ناوس المصري مثل ذلك في أبيه جعفر بن محمد ^(٢)، وقالت طائفة منهم مثل ذلك في أخيه إسماعيل ابن جعفر.

وقالت السبئية - أصحاب عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي - مثل ذلك في علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وزادوا أنه في السحاب . . فليت شعري في أي سحابة هو من السحاب والسحاب كثير في أقطار الهواء، مسخر بين السماء والأرض كما قال الله تعالى . . وقال عبد الله بن سبأ إذ بلغه قتل علي رضي الله عنه: لو أتيتمونا بدماعه سبعين مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وقال بعض الكيسانية: بأن أبا مسلم السراج حي لم يموت، وسيظهر ولا بد، وقال بعض الكيسانية بأن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حي بجبال أصبهان إلي اليوم ولا بد له من أن يظهر، وعبد الله هذا هو القائم بفارس أيام مروان بن محمد، وقتله أبو مسلم بعد أن سجنه دهراً، وكان عبد الله هذا ردي الدين، معطلاً، مستصحباً للدهرية .

قال أبو محمد ^(٣): فصار هؤلاء في سبيل اليهود القائلين بأن ملكصيدوق بن عامر بن أرفخشذ بن سام بن نوح، والعبد الذي وجهه إبراهيم عليه السلام ليخطب

(١) يقصد موسى الكاظم سابع الأئمة الإثني عشر.

(٢) يقصد جعفر الصادق سادس الأئمة الإثني عشر.

(٣) يعني ابن حزم نفسه.

(ريقا) بنت بنؤال بن ناخور بن تارخ علي إسحاق ابنه عليه السلام، والياس عليه السلام السلام، وفتحاس بن العازار بن هارون عليه السلام، أحياء إلي اليوم، وسلك هذا السبيل بعض تركي الصوفية، فزعموا أن الخضر والياس عليهما السلام حيان إلي اليوم، وادعي بعضهم أنه يلقي إلياس في الفلوات والخضر في المروج والرياض، وأنه متي ذكر حضر علي ذكراه .

قال أبو محمد: فإن ذكر في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، وفي ألف موضع في دقيقة واحدة كيف تصنع؟

ولقد لقينا من يذهب إلي هذا خلقا وكلمناهم ، منهم المعروف بابن شق الليل المحدث بـ (طلبيرة) وهو مع ذلك من أهل العناية وسعة الرواية، ومنهم محمد بن عبد الله الكاتب، وأخبرني أنه جالس الخضر وكلمه مرارا أو غيره كثير .
هذا مع سماعهم قول الله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقول رسول الله ﷺ: (لا نبي بعدي) فكيف يستجيز مسلم أن يثبت بعده - عليه السلام - نبيا في الأرض، حاشا ما استثناه رسول الله ﷺ في الآثار المسندة الثابتة في نزول عيسي ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان!؟

وكفار برغواطة إلي اليوم ينتظرون صالح بن طريف الذي شرع لهم دينهم .
وقال القطيعية من الإمامية الراضية كلهم، وهم جمهور الشيعة، ومنهم المتكلمون والنظاريون والعدد العظيم ، بأن محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (١) حي لم يموت ولا يموت حتي يخرج فيملا الدنيا عدلا كما ملئت جورا، وهو عندهم المهدي المنتظر .
ويقول طائفة منهم: إن مولد هذا الذي لم يخلق قط في سنة سنتين ومائتين، سنة موت أبيه، وقالت طائفة منهم: بل بعد موت أبيه بمدة، وقالت طائفة منهم: بل في حياة أبيه، ورووا ذلك عن حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى، وأنها شهدت ولادته وسمعته يتكلم حين سقط من بطن أمه يقرأ القرآن، وأن أمه (نرجس) وأنها كانت هي القابلة . وقال جمهورهم: بل أمه (صقيل) وقالت طائفة منهم: بل أمه (سوسن) .

وكل هذا هوس، ولم يعقب الحسن المذكور لا ذكرا ولا أنثي، فهذا أول نوك (٢) الشيعة ومفتاح عظيمااتهم وأخفها وإن كانت مهلكة .

(١) يقصد محمد المهدي بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر من أئمتهم، والذي دخل السرداب، ولا يزالون ينتظرون عودته!!

(٢) النوك: الحمق، يقال: نوك نوكا، ونواكا: حمق .

ثم قالوا كلهم إذ سئلوا عن الحجة فيما يقولون؟ يقولون: حجتنا الإلهام وأن من يخالفنا ليس لرشدة (١) فكان هذا طريفا جدا.

ليت شعري ما الفرق بينهم وبين عيار مثلهم يدعي في إبطال قولهم الإلهام وأن الشيعة ليسوا لرشدة، أو أنهم نوكة، أو أنهم جملة ذوو شعبة من جنون في رؤوسهم؟

وما قولهم فيمن كان منهم ثم صار في غيرهم، أو من كان في غيرهم فصار منهم، أترأه ينتقل من ولادة الغيبة إلي ولادة الرشدة، ومن ولادة الرشدة إلي ولادة الغيبة؟

فإن قالوا: حكمه لما يموت عليه، قيل لهم: فلعلكم أولاد غيبة إذ لا يؤمن رجوع الواحد فالواحد منكم إلي خلاف ما هو عليه.

والقوم بالجملة ذوو أديان فاسدة وعقول مدخولة وعديمو حياء، ونعوذ بالله من الضلال.

وذكر عمرو ابن خولة الجاحظ - وهو وإن كان أحد المجان ومن غلب عليه الهزل وأحد الضالين المضلين، فإننا ما رأينا له في كتبه تعمد كذبة يوردها مثبتا لها وإن كان كثيرا لا يراد كذب غيره - قال: أخبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام، وبشر بن خالد، أنهما قالا لمحمد بن جعفر الراضي - المعروف بشيطان الطاق - ويحك، أما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة: إن الله تعالى لم يقل قط في القرآن: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] قالوا: فضحك والله شيطان الطاق ضحكا طويلا حتى كأننا نحن الذين أذنبنا:

قال النظام: وكنا نكلم علي بن ميثم الصابوني وكل من شيوخ الرافضة ومتكلميهم، فنسأله: أراي أم سماع عن الأئمة؟ فينكر أن يقوله يرأي فتخبره بقوله فيها قبل ذلك، فوالله ما رأيت خجل من ذلك ولا استحيا لفعله هذا قط.

ومن قول الإمامية كلها قديما وحديثا: أن القرآن مبدل زيد فيه ما ليس منه، ونقص منه كثير - حاشا علي بن الحسن بن موسى بن محمد ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وكان إماميا يظاهر بالاعتزال مع ذلك، فإنه كان ينكر هذا القول ويكفر من قاله، وكذلك صاحبه أبو يعلي ميلاد الطوسي وأبو القاسم الرازي.

قال أبو محمد: القول بأن بين اللوحين تبديلا كفر صريح، وتكذيب لرسول الله

ﷺ

(١) يقال: ولد رشدة، ولرشدة: صحيح النسب، أو من نكاح صحيح، وفي الحديث: «من ادعي ولدا لغير رشدة، فلا يرث ولا يورث» ويقال في نقبضه: هو ولد غيبة: أي ولد زنية.

وقال طائفة من الكيسانية بتناسخ الأرواح: وبهذا يقول السيد الحميري الشاعر - لعنه الله - ويبلغ الأمر بمن يذهب إلي هذا أن يأخذ أحدهم البغل أو الحمار فيعذبه ويضربه ويعطشه ويجيعه، علي أن روح أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فيه!! فاعجبوا لهذا الحمق الذي لا نظير له، وما الذي خص هذا البغل الشقي أو الحمار بنقل الروح إليه دون سائر البغال والحمير.

وكذلك يفعلون بالعنز علي أن روح أم المؤمنين^(١) رضي الله عنها فيها!! وجمهور متكلميهم كهشام بن الحكم الكوفي، وتليمذه أبي علي الصكاك وغيرهما، يقول: إن علم الله تعالي محدث، وإنه لم يكن يعلم شيئاً حتي أحدث لنفسه علماً وهذا كفر صريح.

وقد قال هشام هذا في حين مناظرته لأبي الهذيل العلاف: إن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه، وهذا كفر صريح.

وكان داود الجوازي من كبار متكلميهم يزعم أن ربه لحم ودم علي صورة الإنسان، ولا يختلفون في أن الشمس ردت علي علي بن أبي طالب مرتين، أفيكون في صفاقة الوجه وصلابة الخد وعدم الحياء والجرأة علي الكذب أكثر من هذا علي قرب العهد وكثرة الخلق؟!

وطائفة منهم تقول: إن الله تعالي يريد الشيء ويعزم عليه، ثم يبدو له فلا يفعله، وهذا مشهور للكيسانية.

ومن الإمامية من يجيز نكاح تسعة نسوة!!

ومنهم من يحرم الكرنب لأنه إنما نبت علي دم الحسين ولم يكن قبل ذلك وهذا من قلة الحياء قريب مما قبله.

وكما يزعم كثير منهم أن علياً لم يكن له سمي قبله، وهذا جهل عظيم، بل كان في العرب كثير يسمون بهذا الاسم، كعلي بن بكر بن وائل، وإليه يرجع كل بكري في العالم في نسبه، وفي الأزدي علي، وفي بجيلة علي وغيرها، كل ذلك في الجاهلية مشهور، وأقرب من ذلك: عامر بن الطفيل يكني أبا علي... ومجاهراتهم أكثر مما ذكرنا.

ومنهم طائفة تقول بفناء الجنة والنار، وفي الكيسانية من يقول إن الدنيا لا تفني أبداً.

ومنهم طائفة تسمي النحلية - نسبوا إلي الحسن بن علي بن ورسند

(١) يقصد السيدة عائشة رضي الله عنها.

النحلي - كان من أهل نطفة من عمل قفصة وقسطيلية من كور إفريقيا، ثم نهض هذا الكافر إلي السوس في أقاصي بلاد المصامدة، فأضلهم وأضل أمير السوس أحمد ابن إدريس بن يحيى بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهم هناك كثير سكان في ربض مدينة السوس، معلنون بكفرهم، وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين، لا يأكلون شيئاً من الثمار زبل أصله، ويقولون أن الإمامة في ولد الحسن دون ولد الحسين - ومنهم أصحاب أبي كامل - ومن قولهم: إن جميع الصحابة (رضي الله عنهم) كفروا بعد موت النبي ﷺ، إذ جحدوا إمامة علي، وأن علياً كفر إذ سلم الأمر إلي أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم قال جمهورهم: إن علياً ومن اتبعه رجعوا إلي الإسلام إذ دعا إلي نفسه بعد قتل عثمان، وإذ كشف وجهه وسل سيفه، وأنه وإياهم كانوا قبل ذلك مرتدين عن الإسلام كفاراً مشركين، ومنهم من يرد الذنب في ذلك إلي النبي ﷺ إذ لم يبين الأمر بياناً رافعاً للإشكال.

قال أبو محمد: وكل هذا كفر صريح لا خفاء به.

فهذه مذاهب الإمامية - وهي المتوسطة في الغلو، من فرق الشيعة - وأما الغالية من الشيعة فهم قسمان: قسم: أوجبوا النبوة بعد النبي ﷺ لغيره، والقسم الثاني: أوجبوا الإلهية لغير الله عز وجل فلحقوا بالنصارى واليهود، وكفروا أشنع الكفر.

فالتائفة التي أوجبوا النبوة بعد النبي ﷺ فرق: فمنهم الغرابية، وقولهم إن محمداً ﷺ كان أشبه بعلي من الغراب بالغراب، وإن الله عز وجل بعث جبريل عليه السلام بالوحي إلي علي، فغلط جبريل بمحمد، ولا لوم علي جبريل في ذلك لأنه غلط، وقالت طائفة منهم: بل تعمد ذلك جبريل وكفروه ولعنوه لعنهم الله.

قال أبو محمد: فهل سمع بأضعف عقولاً وأتم رقاعة من قوم يقولون إن محمداً ﷺ كان يشبه علي بن أبي طالب، فيالناس!! أين يقع شبه ابن أربعين سنة من صبي ابن إحدى عشرة سنة حتى يغلط به جبريل عليه السلام!؟

ثم محمد عليه الصلاة والسلام فوق الربعة إلي الطول، قويم القناة، كث اللحية، أدعج العينين، ممتلئ الساقين - ﷺ - قليل شعر الجسد، أفرع، وعلي دون الربعة إلي القصر، منكب شديد الانكباب كأنه كسر ثم جبر، عظيم اللحية قد ملأت صدره من منكب إلي منكب إذ التحي، ثقيل العينين دقيق الساقين، أصلع عظيم الصلغ، ليس في رأسه شعر إلا في مؤخره يسير، كثير شعر اللحية، فاعجبوا لحمق هذه الطبقة!!

ثم لو جاز أن يغلط جبريل - وحاشا لروح القدوس الأمين - كيف غفل الله عز

وجل عن تقويمه وتنبئيه وتركه علي غلظه ثلاثا وعشرين سنة. ثم أظرف (١) من هذا كله من أخبرهم بهذا الخبر ومن خرفهم بهذه الخرافة، وهذا لا يعرفه إلا من شاهد أمر الله تعالى لجبريل عليه السلام، ثم شاهد خلافه، فعلي هؤلاء لعنة الله ولعنة اللاعنين ولعنة الناس أجمعين، ما دام الله في عالمه خلق.

وفرقة قالت بنبوة علي، وفرقة قالت بأن علي بن أبي طالب والحسن والحسين رضي الله عنهم، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسي بن جعفر، وعلي بن موسي، ومحمد بن علي، والحسن بن محمد، والمنتظر ابن الحسن أنبياء كلهم.

وفرقة قالت بنبوة محمد بن إسماعيل بن جعفر فقط، وهم طائفة من القرامطة، فرقة قالت بنبوة علي وبنيه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية فقط وهم طائفة من الكيسانية. وقد حام المختار حول أن يدعي النبوة لنفسه، وسجع أسجاعا وأنذر بالغيوب عن الله، واتبعه علي ذلك بطوائف من الشيعة الملعونة، وقال بإمامة محمد ابن الحنفية.

وفرقة قالت بنبوة المغيرة بن سعيد، مولى بجيلة بالكوفة وهو الذي أحرقه خالد بن عبد الله القسري بالنار، وكان لعنه الله يقول: إن معبوده صورة رجل علي رأسه تاج، وأن أعضائه علي عدد حروف الهجاء، الألف للساقين ونحو ذلك مما لا ينطق لسان ذي شيعة من دين به - تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا.

وكان لعنه الله يقول: إن معبوده لما أراد أن يخلق الخلق تكلم باسمه الأكبر فوق علي تاجه، ثم كتب بأصبعه أعمال العباد من المعاصي والطاعات، فلما رأي المعاصي ارفض به عرقا فاجتمع من عرقه بحران أحدهما ملح مظلم والثاني نير عذب، ثم اطلع في البحر فرأي ظله فذهب ليأخذه فطار، فأخذه فقلع عين ذلك الظل ومحقه، فخلق من عينيه الشمس وشمسا أخرس، وخلق الكفار من البحر المالح وخلق المؤمنين من البحر العذب، في تخليط له كثير!

وكان مما يقول: إن الأنبياء لم يختلفوا قط في شيء من الشرائع.

وقد قيل: إن جابر بن يزيد الجعفي الذي يروي عن الشعبي، كان خليفة المغيرة بن سعيد إذ حرقه خالد بن عبد الله القسري، فلما مات جابر خلفه بكر الأعرور الهجري، فلما مات فوضوا أمرهم إلي عبد الله بن المغيرة رئيسهم المذكور، وكان لهم عدد ضخم بالكوفة.

وآخر ما وقف عليه المغيرة بن سعيد القول بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وتحريم ماء الفرات، وكل ماء نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة، فبرئت منه عند ذلك القائلون بالإمامة في ولد الحسين.

وفرقة قالت بنبوة بيان بن سمعان التميمي، صلبه وأحرقه خالد بن عبد الله القسري مع المغيرة بن سعيد في يوم واحد، وجبن المغيرة بن سعيد عن اعتناق حزمة الحطاب حينما شديدا حتى ضم إليها قهرا، وبادر بيان بن سمعان إلي الحزمة فاعتنقها من غير إكراه ولم يظهر منه جزع، فقال خالد لأصحابهما: في كل شيء أنتم مجانين، هذا كان ينبغي أن يكون رئيسكم لا هذا الفسل. وكان بيان - لعنه الله - يقول: إن الله تعالى يفني كلبه جاشا وجهه فقط، وظن المجنون أنه تعلق في كفره هذا بقول الله تعالى ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ولو كان له أدني عقل أو فهم لعلم أن الله تعالى إنما أخبر بالفناء عما علي الأرض فقد بنص قوله الصادق: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ﴾، ولم يصف عز وجل بالفناء غير ما علي الأرض، ووجه الله تعالى هو الله وليس هو شيئا غيره، وحاشا لله من أن يوصف بالتبعض، والتجزئ، هذه صفة المخلوقين المحدودين لا صفة من لا يحد، ولا له مثل.

وكان لعنه الله يقول: إنه المعني بقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وكان يذهب إلي أن الإمام هو هاشم بن عبد الله بن محمد ابن الحنفية، ثم هي في سائر ولد علي كلهم.

وقالت فرقة منهم بنبوة منصور المستير العجلي، وهو الملقب بالكسف، وكان يقال أنه المراد بقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ [الطور: ٤٤]، وصلبه يوسف بن عمر بالكوفة.

وكان لعنه الله يقول: إنه عرج به إلي السماء، وأن الله تعالى مسح رأسه بيده وقال له: ابني، اذهب فبلغ عني، وكان يمين أصحابه: لا والكلمة.

وكان لعنه الله يقول: بأن أول من خلق الله تعالى عيسي ابن مريم، ثم علي بن أبي طالب.

وكان يقول بتواتر الرسل، وأباح المحرمات من الزنا والخمر والميتة والخنزير والدم، وقال: إنما هم أسماء رجال، وجمهور الرافضة اليوم علي هذا، وأسقط الصلاة والزكاة والصيام والحج، وأصحابه كلهم خناقون رضاخون، وكذلك أصحاب المغيرة بن سعيد.

ومعناهم في ذلك، أنهم لا يستحلون حمل السلاح حتي يخرج الذي ينتظرونه، فهم يقتلون الناس بالخنق وبالحجارة، والخشبية بالخشب فقط.

وذكر هشام بن الحكم الرافضي في كتابه المعروف بـ (الميزان) - وهو أعلم الناس بهم لأنه جارهم بالكوفة وجارهم في المذهب - أن الكسفية خاصة يقتلون من كان منهم ومن خالفهم، ويقولون: نعجل المؤمن إلي الجنة والكافر إلي النار.

وكانوا بعد موت أبي منصور يؤدون الخمس مما يأخذون ممن خنقوه إلي الحسن ابن أبي المنصور، وأصحابه فرقتان، فرقة قالت: إن الإمامة بعد محمد بن علي بن الحسن صارت إلي محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وفرقة قالت: بل إلي أبي المنصور الكسفي ولا تعود في ولد علي أبدا.

وقالت فرقة بنبوة بزيع الحائك بالكوفة، وإن وقع هذه الدعوة لهم لفي حائك لظريفة (١).

وفرقة قالت بنبوة معمر بائع الخنطة بالكوفة.

وقالت فرقة بنبوة عمير التبان بالكوفة، وكان لعنه الله يقول لأصحابه: لو شئت أن أعيد هذا التبن تبرأ لفعلت، وقدم إلي خالد بن عبد الله القسري بالكوفة فتجلد وسب خالدا، فأمر خالد بضرب عنقه فقتل إلي لعنة الله.

وهذه الفرق الخمس كلها من فرق الخطابية.

وقالت فرقة في أولئك - شعبة بني العباس - بنبوة عمار الملقب بخدش فظفر به أسد بن عبد الله أخو خالد بن عبد الله القسري فقتله إلي لعنة الله.

والقسم الثاني من فرقة الغالية، الذين يقولون بالإلهية لغير الله عز وجل فأولهم قوم من أصحاب عبد الله بن سبأ الحميري لعنه الله، أتوا إلي علي بن أبي طالب فقالوا مشافهة: أنت هو. فقال لهم: ومن هو؟ قالوا: أنت الله، فاستعظم الأمر وأمر بنار فأججت وأحرقهم بالنار، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار: الآن صح عندنا أنه الله، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله.. وفي ذلك يقول رضي الله عنه:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت نارا ودعوت قنبرا

يريد قنبر مولاه، وهو الذي تولي طرحهم في النار.. نعوذ بالله من أن نفتتن بمخلوق أو يفتتن بنا مخلوق فيما جل أو دق، فإن محنة أبي الحسن رضي الله عنه من بين أصحابه رضي الله عنهم كمحنة عيسى عليه السلام بين أصحابه من الرسل عليهم السلام.

وهذه الفرقة باقية إلى اليوم (١) فاشية عظيمة العدد، يسمون العليائية، منهم كان إسحاق بن محمد النخعي الأحمر الموفي وكان من متكلميهم، وله في ذلك كتاب سماه (الصراط) نقض عليه البهنكي والفياض لما ذكرنا ويقولون إن محمدا رسول علي.

وقالت طائفة من الشيعة - يعرفون بالمحمدية - إن محمدا عليه السلام هو الله - تعالي الله عن كفرهم - ومن هؤلاء كان البهنكي والفياض بن علي، وله في هذا المعنى كتاب سماه (القسطاس) وأبوه الكاتب المشهور الذي كتب لإسحاق بن كنداج أيام ولاته، ثم لأمير المؤمنين المعتضد، وفيه يقول البحتري القصيدة المشهورة التي أولها:

شط من ساكن الغدير فراره وطوته البلاد والله حاره

والفياض هذا - لعنه الله - قتله القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب، لكونه من جملة من سعي به أيام المعتضد، والقصة مشهورة.

وفرقة قالت بالهية آدم عليه السلام والنبين بعده نبيا نبيا إلى محمد عليه السلام، ثم بالهية علي، ثم بالهية الحسن ثم الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ووقفوا ههنا، وأعلنت الخطابية بذلك نهارا بالكوفة في ولاية عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فخرجوا صدر النهار في جموع عظيمة في أزر وأردية محرمين ينادون بأعلي أصواتهم لبيك جعفر، لبيك جعفر. قال ابن عياش وغيره: كأنني أنظر إليهم يومئذ، فخرج إليهم عيسى بن موسى فقاتلوه فقتلهم واصطلمهم.

ثم زادت فرقه علي ما ذكرنا فقالت بالهية محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد وهم القرامطة وفيهم من قال بالهية أبي سعيد الحسن بن بهرام الجبائي وأبنائه بعده، ومنهم من قال بالهية أبي القاسم النجار القائم باليمن في بلاد همدان المسمي بالمنصور.

وقالت طائفة منهم بالهية عبيد الله ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا (٢) وقالت طائفة بالهية أبي الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد بالكوفة، وكثر عددهم بها حتى تجاوزوا الألوف، وقالوا: هو إله، وجعفر بن محمد إله، إلا أن أبا الخطاب أكبر منه.

وكانوا يقولون: جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحبائه، وكانوا يقولون: إنهم لا

(١) أي إلى أيام ابن حزم الذي مات عام ٤٥٦ هـ.

(٢) أي في عهد ابن حزم.

يموتون ولكنهم يرفعون إلي السماء، وأشبه علي الناس بهذا الشيخ الذي ترون. ثم قالت طائفة منه بإلهية معمر بائع الحنطة بالكوفة وعبدوه، وكان من أصحاب أبي الخطاب، لعنهم الله أجمعين.

وقال طائفة بإلهية الحسن بن منصور حلاج القطن المصلوب ببغداد بسعي الوزير ابن حامد بن العباس رحمه الله أيام المقتدر.

وقالت طائفة بإلهية محمد بن علي بن السمعاني الكاتب المقتول ببغدا أيام الراضي، وكان أمر أصحابه أن يفسق الأرفع قدرا منهم به ليولوج فيه النور، وكل هذه الفرق تري الاشتراك في النساء.

وقالت طائفة منهم بإلهية شباس المقيم في وقتنا هذا حيا بالبصرة، وقالت طائفة منهم بإلهية أبي مسلم السراج، ثم قالت طائفة من هؤلاء بإلهية المقنع الأعور القصار القائم بثأر أبي مسلم، واسم هذا القصار هاشم، وقتل لعنه الله أيام المنصور، وأعلنوا بذلك فخرج المنصور فقتلهم وأفناهم إلي لعنة الله.

وقالت الرنودية بإلهية أبي جعفر المنصور، وقالت طائفة منهم بإلهية عبد الله بن الخرب الكندي الكوفى وعبدوه، وكان يقول بتناسخ الأرواح، وفرض عليهم تسعة عشر صلاة في اليوم واللييلة، في كل صلاة خمسة عشر ركعة، إلي أن ناظره رجل من متكلمي الصفرية، وأوضح له براهين الدين فأسلم وصح إسلامه وتبرأ من كل ما كان عليه، وأعلم أصحابه بذلك وأظهر التوبة فتبرأ منه جميع أصحابه الذين مانوا يعبدونه ويقولون بإلهيته ولعنوه وفارقوه، ورجعوا كلهم إلي القول بإمامة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

وبقي عبد الله بن الخرب علي الإسلام وعلي مذهب الصفرية إلي أن مات وطائفته اليوم تعرف بالخرية وهي من السبائية القائلين بإلهية علي، وطائفة تدعي النصرية غلبوا في وقتنا هذا علي جند الأردن بالشام وعلي مدينة طبرية خاصة (١).

ومن قولهم لعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولعن الحسن والحسين ابني علي رضي الله عنهم وسبهم بأقذع السب وقذفهم بكل بلية، والقطع بأنها وابنيها - رضي الله عنهم ولعن مبغضهم - شياطين تصوروا في صورة الإنسان، وقولهم في عيد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي رضي الله عنه: علي علي لعنة الله ورضي الله عن ابن ملجم - فيقول هؤلاء: إن عبد الرحمن بن ملجم المرادي أفضل أهل الأرض وأكرمهم في الآخرة، لأنه خلص روح اللاهوت مما كان يتشبث فيه من ظلمة الجسد وكدره.

(١) كل ذلك كان أيام ابن حزم.

فاعجبوا لهذا الجنون، واسألوا الله العافية من بلاء الدنيا والآخرة، فهي بيده لا بيد أحد سواه، جعل الله حظنا منها الأوفي.

واعلموا أن كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ممن ينتمي إلي الإسلام، فإنما عنصرهم الشيعة والصوفية، فإن من الصوفية من يقول: إن من عرف الله تعالى سقطت عنه الشرائع، وزاد بعضهم: واتصل بالله تعالى!!

وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلا يكني أبا سعيد أبا الخير - هكذا معا - من الصوفية، مرة يلبس الصوف ومرة يلبس الحرير المحرم علي الرجال، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة ومرة لا يصلي لا فريضة ولا نافلة وهذا كفر محض، نعوذ بالله من الضلال» (١).

وبعد..

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ويقول جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر. وذراعا بذراع، حتي لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتمهم» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ (٢).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترق اليهود علي إحددي وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى علي ثنتين وسبعين فرقة، فإحددي وسبعون في النار، وواحدة في الجنة.. والذي نفسي بيده، لتفترقن أمتي علي ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة واثنان وسبعون في النار»، قيل: يا رسول الله من تراهم؟ قال: «الجماعة» (٣).

(١) انظر: الفصل بين الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ٤/ ١٣٧ - ١٤٤ نشر مكتبة السلام العالمية، وكذا: الملل والنحل للشهرستاني - مطبوع بهامش الفصل المذكور: ١/ ١٥١ - ٦١/ ٢ - ٣٠.

(٢) رواه البخاري. (٣) رواه ابن ماجه.

وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» (١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس... فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمي يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمي، ألا وإن حمي الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» (٢).

صدق الله العظيم... وصدق رسوله الكريم.

فاللهم ربنا: أصلح فساد قلوبنا، وأرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، وجنبنا يا رب الشبهات، واحفظ قلوبنا من الزيغ والضللال، واهدنا إلى الصراط المستقيم.

محمد الأنور أحمد البلتاجي

بين يدي البحث

الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن

● كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم:

الشيعة في الأصل، هم الذين شايعوا علياً وأهل بيته ووالوهم، وقالوا: إن علياً هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وإن الخلافة حق له، استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، وهي لا تخرج عنه في حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلي واحد من أمرين.

أحدهما: أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه.

ثانيهما: أن يتخلي صاحب الحق عنه في الظاهر، تقية منه، ودرءاً للشر عن نفسه وعن أتباعه.

وهذا المذهب الشيعي، من أقدم المذاهب الإسلامية، وقد كان مبدأ ظهوره في آخر عهد عثمان رضي الله عنه (١) ثم نما واتسع علي عهد علي رضي الله عنه، إذ كان كلما اختلط - رضي الله عنه - بالناس تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة، مما يظهر لهم من قوة دينه، ومكنون علمه، وعظيم مواهبه، فاستقل الدعاة كل هذا الإعجاب وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس.

ثم جاء عصر بني أمية وفيه وقعت المظالم علي العلويين، ونزلت بهم محن قاسية، أثارت كامن المحبة لهم، وحركت دفين الشفقة عليهم، ورأي الناس في علي وذريته شهداء هذا الظلم الأموي، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعي وكثر أنصاره، ويظهر لنا أن هذا الحب لعلي وأهل بيته، وتفضيلهم علي من سواهم ليس بالأمر الذي جد وحدث بعد عصر الصحابة، بل وجد من الصحابة من كان يحب علياً ويرى أنه أفضل من سائر الصحابة، وأنه أولي بالخلافة من غيره، كعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله... وغيرهم كثير.

غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا علياً رضي الله عنه، لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لا بد له من شمل متحد وكلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلي القول بالمبدأ الذي تكاد تتفق عليه كلمة الشيعة، ويروونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو: «أن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفوض إلي نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفاله ولا تفويضه إلي الأمة، بل

(١) وقيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ.

يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليا رضي الله عنه، هو الذي عينه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه» (١).

لم يكن الشيعة جميعا متفقين في المذهب، والعقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلي فرق عدة، يرجع أساس اختلافها وانقسامها إلي عاملين قويين كان لهما كل الأثر تقريبا في تعدد ففرق الشيعة وتفرق مذاهبهم.

أولهما: اختلافهم في المبادئ والتعاليم فمنهم من تغالي في تشييعه وتطرف فيه إلي حد جعله يلقي علي الأئمة نوعا من التقديس والتعظيم، ويرمي كل من خالف عليا وحزبه بالكفر. ومنهم من اعتدل في تشييعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة وخطأ من خالفهم، ولكن ليس بالخطأ الذي يصل بصاحبه إلي درجة الكفر.

وثانيهما: الاختلاف في تعيين الأئمة، وذلك أنهم اتفقوا جميعا علي إمامة علي رضي الله عنه، ثم علي إمامة ابنه الحسن من بعده، ثم علي إمامة الحسين من بعد أخيه، ولما قتل الحسين علي عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهة نظر الشيعة فيمن يكون الإمام بعد الحسين رضي الله عنه:

ففرق يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلي أخيه من أبيه، محمد بن علي، المعروف بابن الحنفية، فبايعوه بها.

وفريق ثان: يرى حصر الإمامة في ولد علي من فاطمة، وقد أصبحت بعد قتل الحسين حقا لأولاد الحسن، لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر بها غير أولاده، وهم ينتظرون كبرهم ليبايعوا أرشدهم.

وفريق ثالث: يرى ما يراه الفريق الثاني من حصرها في ولد علي من فاطمة غاية الأمر أن يقول: أن الحسن قد تنازل عنها فسقط حق أولاده فيها، وبقيت الإمامة حقا لأولاد الحسين الذي قتل من أجلها فهم أولي بالانتظار.

بلغ عدد الفرق التي انقسم إليها الشيعة حدا كبيرا من الكثرة، منها من تغالي في تشييعه وتجاوز بمعتقداته حد العقل والإيمان، ومنها من اعتدل في تشييعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها.

ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكنني سأقتصر علي فرقتين هما: الزيدية والإمامية (الإثنا عشرية)، و (الإسماعيلية)، لأنني لم أعر علي مؤلفات في التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

● الزيدية:

أما الزيدية.. فهم أتباع زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، طمحت نفسه

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨.

إلي استرداد الخلافة، فخرج علي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرقوا عنه فقتل وصلب، ثم أحرق جسده، وقد ورد في سبب تفرق أصحابه عنه وخذلانهم له « أنه لما اشتد القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: أثني عليهما جدي علي، وقال فيهما حسنا، وإنما خروجي علي بني أمية، فإنهم قاتلوا جدي عليا، وقتلوا جدي حسينا، فخرجوا عليه ورفضوه، فسموا رافضة بذلك السبب» (١).

والزيدية أقرب فرق الشيعة إلي الجماعة الإسلامية، إذ أنها لم تغل في معتقداتها، ولم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ترفع الأئمة إلي مرتبة الإله أو إلي درجة النبيين.

● قوام مذهب الزيدية:

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلي ما قبل طرؤ التغيير عليه والتفرق بين أصحابه هو ما يأتي:

١ - أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وهذه الأوصاف هي: كونه فاطميا، ورعا، سخيا، يخرج داعيا الناس لنفسه.

٢ - أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه. وبنوا علي هذا أنه لو وقع اختيار أولي الحل والعقد علي إمام تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود من تتوفر فيه صحت إمامته، ولزمت بيعته، ولهذا قالوا بصحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما.

ولقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين في قطرين مختلفين لا في قطر واحد، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مخلد في النار وهذا هو عين مذهب المعتزلة. ويظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلي الزيدية فقالوا بها كما قالوا بكثير من مبادئهم، والسرف في ذلك هو أن زيدا رحمه الله تتلمذ لواصل ابن عطاء، فأخذ عنه آراء الاعتزالية وقال بها (٢).

غير أن الزيدية لم يدوموا علي وحدتهم المذهبية زمنا طويلا، بل تفرقوا واختلفت عقائدهم. وقد ذكر لنا صاحب المواقف أنهم تفرقوا إلي ثلاث فرق، وذكر لكل فرقة خصائصها ومميزاتها وعقائدها. (٣)

ولا نظيل بذكر ذلك. ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إليه في موضعه.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني: ٢٠٨/٢.

(١) التبصير في الدين ص ١٨.

(٣) المواقف: ١٠/٢.

● الإمامية: (١)

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبي ﷺ نص علي إمامة علي رضي الله عنه نصا ظاهرا، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد علي في ولده من فاطمة رضي الله عنها.

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا في تشيعهم وتعدوا حدود العقل والشرع فكفروا الكثير من الصحابة، واعتبروا أبا بكر وعمر معتصبين للخلافة ظالمين لعلي رضي الله عنه، فأوجبوا التبرؤ منهما، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسي صاحب التفسير.

وقد اتفق الإمامية علي إمامة علي رضي الله عنه، ثم انتقلت الإمامة إلي ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلي أخيه الحسين من بعده، ثم إلي ابنه علي زين العابدين، ثم إلي ابنه محمد الباقر، ثم إلي ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك في سوق الإمامة، وانقسموا إلي فرق عدة أشهرها فرقتان الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية.

● الإمامية الإثنا عشرية:

أما الإمامية الإثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلي ابنه موسي الكاظم، ثم إلي ابنه علي الرضا، ثم إلي ابنه محمد الجواد، ثم إلي ابنه علي الهادي، ثم إلي ابنه الحسن العسكري، ثم إلي ابنه محمد المهدي المنتظر وهو الإمام الثاني عشر، ويزعمون أنه دخل سردابا في دار أبيه بـ (سر من رأي) ولم يعد بعد، وأنه سيخرج في آخر الزمان، ليمأ الدنيا عدلا وأمنا، كما ملكت ظلما وخوفا.

وهؤلاء قد جاوزوا الحد في تقديسهم للأئمة، فزعموا أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء. وقالوا: أن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت علي الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة في الأئمة.

● أشهر تعاليم الإمامية الإثني عشرية:

وأشهر تعاليم الإمامية الإثني عشرية أمور أربعة: العصمة، والمهدية والرجعة، والتقية.

أما العصمة: فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر في كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شيء من الخطأ والنسيان.

(١) الإمامية نسبة إلي «الإمام» لأنهم أكثروا من الاهتمام به، وركزوا كثيرا في تعاليمهم حوله.

وأما المهديّة: فيقصدون منها الإمام المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان فيملا الأرض أمنا وعدلا، بعد أن ملئت جورا وخوفا، وأول من قال بهذا هو كيسان مولي علي بن أبي طالب في محمد ابن الحنفية، ثم تسربت إلي طوائف الإمامية فكان لكل منها مهدي منتظر^(١).

وأما الرجعة: فهي عقيدة لازمة لفكرة المهديّة ومعناها: أنه بعد ظهور المهدي المنتظر، يرجع النبي ﷺ إلي الدنيا، ويرجع علي، والحسن، والحسين بل وكل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبي بكر وعمر، فيقتصص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعا، ثم يحييون يوم القيامة.

وأما التقيّة: فمعناها المداراة والمصانعة، وهي مبدأ أساسي عندهم، وجزء من الدين يكتمون به عن الناس، فهي نظام سري يسيرون علي تعاليمه، فيدعون في الخفاء لإمامهم المختفي ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة في وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه هي أهم تعاليم الإمامية الإثني عشرية، وهم يستدلون علي كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لاتسلم لهم، ولا تثبت مدعاهم، ونحن نتمسك عنها وعن ردها خوف الإطالة، وسيمر بك - إن شاء الله تعالى - شئ من ذلك.

● الإمامية الإسماعيلية:

وأما الإمامية الإسماعيلية فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلي ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه علي ذلك، قالوا: وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة في عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلي ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعده تتابع أئمة مستورون إلي أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدي رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لقبوا بسبعة ألقاب، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم، وهذه الألقاب هي ما يأتي:

١ - الإسماعيلية: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

(١) وردت بعض الأحاديث في شأن المهدي، رواها الترمذي وأبو داود وابن ماجه وغيرهم كقوله عليه الصلاة والسلام: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك حتي يبعث فيه رجلا مني أو من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي) ومثل قوله: (لو لم يبق إلا يوم، لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جورا) وقد وقع بين المسلمين خلاف في شأن المهدي هذا، فمنهم من يقول به، ومنهم من ينكره، ولكن لم نر من المسلمين من ذهب مذهب الإمامية في تعيين المهدي ودعواهم أنه الإمام الثاني عشر الذي اختفي حيا وسيعود في آخر الزمان.

- ٢ - الباطنية: لقولهم بالإمام الباطن - أي المستور - أو لقولهم بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، والمراد منه باطنه دون ظاهره.
- ٣ - القرامطة: لأن أولهم الذي دعا الناس إلي مذهبهم رجل يقال له حمدان قرمط^(١).
- ٤ - الحرمية: لإباحتهم المحرمات والمحارم.
- ٥ - السبعية: لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم، ونوح وإبراهيم، وموسي، وعيسي، ومحمد، ومحمد المهدي المنتظر سابع النطقاء وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، ولا بد في كل عصر من سبعة بهم يقتدي وبهم يهتدي.
- ٦ - البابكية أو الحرمية: لاتباع طائفة منهم بابك الخرمي الذي خرج بأذربيجان.
- ٧ - الحمرة: للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميراً^(٢). هذا ولا يفوتنا أن نقول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، وأشهر ما بقي منها إلي اليوم ثلاث فرق، هي: الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية (وهم المسمون بالباطنية)، والزيدية.
- أما الإمامية الإثنا عشرية.. فينتشرون اليوم في بلاد إيران، وبلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام.
- وأما الإسماعيلية.. فينتشرون في بلاد الهند، كما يوجدون في نواح أخرى متفرقة وزعيمهم أغاخان الزعيم الهندي الإسماعيلي المعروف، وهو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت، والحسن هذا من نسل علي بن أبي طالب^(٣).
- وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.
- إذن فالأجدربنا أن نمسك عن موقف هذه الفرق البائدة من تفسير القرآن ما دامت قد بادت ولم يبق لها أثر، وما دمنا لم نقف لها علي شئ في التفسير أكثر من هذه النبذ المتفرقة التي وجدناها لبعض منهم وجمعناها من بطون الكتب المختلفة.
- والذي يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك، هو تلك الفرق الثلاث التي لا تزال موجودة إلي اليوم محتفظة بتعاليمها وآرائها، وسنبداً أولاً بالإمامية الإثني عشرية، ثم بالإمامية الإسماعيلية، ثم بالزيدية.

(١) قرمط: قرية من قري واسط، أو نسبة لقرمطة في خطوه - وقيل في خطه، وقرمطة الخطي: تتابعها.

(٢) المواقف: ٣٨٨/٨ - ٣٨٩.

(٣) ضحي الإسلام: ٣/٢٢٥.

● موقف الإمامية الإثني عشرية من تفسير القرآن الكريم:

للإمامية الإثني عشرية معتقدات يدينون بها، وينفردون بها عما عداهم من طوائف الشيعة، وهم حين يعتقدون هذه المعتقدات لابد لهم - ما داموا يقرون بالإسلام ويعترفون بالقرآن ولو بوجه ما - أن يقيموا هذه العقائد علي دعائم من نصوص القرآن الكريم، وأن يدافعوا عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل وقوة الدليل.

● موقفهم من الأئمة وأثر ذلك في تفسيرهم:

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يلقون علي الأئمة نوعاً من التقديس والتعظيم ويرون أن الأئمة (أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجة الله البالغة علي من فوق الأرض ومن تحت الثرى) ويرون أن الإمامة (زام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين) (١).

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يحكم عليه، وفوق الناس في طينته وتصرفاته، فإننا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالي كتلك الصلة التي للأنبياء والرسل وأنه مشرع ومنفذ، وأن الله قد فوض النبي والإمام في الدين ويروون عن الصادق أنه قال: (إن الله خلق نبيه علي أحسن أدب وأرشد عقل، ثم أدب نبيه فأحسن تأديبه فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ثم أثني الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثم بعد ذلك فوض إليه دينه، فوض إليه التشريع فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿مَنْ يَطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨]، الله فوض دينه إلي نبيه، ثم إن نبي الله فوض كل ذلك إلي علي وأولاده سلمتم وجحده الناس، فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله، وما جعل الله لأحد خيراً في خلاف أمرنا) (٢).

وحيث إن الله تعالي خلق النبي وكل إمام بعده علي أحسن أدب وأرشد عقل، فلا يختار النبي ولا الإمام إلا ما فيه صلاح وثواب، ولا يخطر بقلب النبي ولا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأمة. فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلي رأي النبي ورأي الإمام مثل الزيادة في عدد ركعات الفرض ومثل تعيين النوافل من الصلاة والصيام، وذلك إظهاراً لكرامة النبي والإمام، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحي، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام وله في الشرع شواهد: حرم الله الخمر، وحرم النبي كل مسكر فأجازة الله، وفرض الله الفرائض ولم يذكر الجد، فجعل النبي للجد السدس وكان النبي يبشر ويعطي الجنة علي الله ويجيزه الله.

(١) ضحي الإسلام: ٣/٢١٥ - نقلاً عن أصول الكافي ص ٩٣. (٢) الوشيعة ص ٨٧.

وأيضاً فوض الله النبي والأئمة من بعده أمور الخلق، وأمور الإدارة والسياسة من التأديب والتكميل والتعليم، وواجب علي الناس طاعتهم في كل ذلك، قالوا: وهذا حق ثابت دلت الأخبار عليه.

وأيضاً فوضهم الله تعالي في البيان، بيان الأحكام والإفتاء وتفسير آيات القرآن وتأويلها، ولهم أن يبينوا ولهم أن يسكتوا، ولهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا وعلي أي وجه شاءوا تقية منهم وعلي حسب الأحوال والمصلحة. والتفويض بهذا المعني يدعون أنه حق ثابت لهم، والأخبار ناطقة به وشاهدة عليه. يقول صاحب (الكافي) : «سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة في كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب، أجاب ثلاثة بأجوبة ثلاثة. واختلاف الأجوبة في مسألة واحدة كان يقع إما علي سبيل التقية وإما علي سبيل التفويض» (١).

وهناك نوع آخر من التفويض يشبثونه للنبي والأئمة، ذلك هو أن النبي أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة، وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق في كل واقعة، كما كان لصاحب موسى في قصة الكهف، وكما وقع لذي القرنين (٢).

ثم كان من توابع هذه العقيدة التي يعتقدونها في أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة، وقالوا بالمهدي المنتظر، وقالوا بالرجعة، وقالوا بالتقية، وهذه كلها عقائد رسخت في أذهانهم وتمكنت من عقولهم، فأخذوا بعد هذا ينظرون إلي القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسروا القرآن وفقاً لهوهم، وفهموا نصوصه وتأولوها حسبما تمليه عليهم العقيدة ويزينه لهم الهوي. وهذا تفسير بالرأي المذموم، تفسير من اعتقد أولاً، ثم فسر ثانياً بعد أن اعتقد.

● تأثير الإمامية الاثنا عشرية بأراء المعتزلة وأثر ذلك في تفسيرهم:

هذا وإن الإمامية الإثني عشرية لهم في نصوص القرآن التي تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تتفق إلي حد كبير مع نظرة المعتزلة إلي هذه النصوص نفسها ولم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا في مسائل قليلة، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذي كان بين الفريقين راجع إلي تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ المعتزلة، كما يظهر لنا جلياً أن هذا الارتباط في التفكير شيء قديم غير جديد، فالحسن العسكري، والشريف المرتضي، وأبو علي الطبرسي وغيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية في تفاسيرهم التي بأيدينا، والتي تعرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها آخر قريباً، بل إننا نجد الشريف المرتضي في أماليه يحاول محاولة جديدة أن

يجعل عليا رضي الله عنه معتزليا أو رأس المعتزلة علي الأصح، وقد تقدمت لنا مقالته التي عرضنا لها عند الكلام عن أماليه (١). وليس من شك في أن هذه النظرات الاعتزالية كان لها أثر كبير في تفسيرهم، وسنقف علي شئ من ذلك إن شاء الله تعالى.

● تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية في تفاسيرهم:

ثم إن الشيعة لهم في الفقه وأصوله آراء خالفوا بها من سواهم، فمثلا نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل. أما الكتاب فلهم رأي فيه سنعرض له فيما بعد. وأما السنة فهم غير أمناء عليها ولا ملتزمين ما صح منها، وسنعرض لها فيما بعد أيضا.

وأما الإجماع فليس حجة بنفسه، وإنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم في المجمعين، أو كان الإجماع كاشفا عن رأيه في المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر فهو في الحقيقة داخل في الكتاب أو السنة. وأما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس ولا الاستحسان، ولا المصالح المرسله، لأن ذلك كله ليس حجة عندهم (٢).

وفي الفقه لهم مخالقات يشذون بها، فمثلا تراهم يقولون: إن فرض الرجلين في الوضوء هو المسح دون الغسل، ولا يجوزون المسح علي الخفين، وجوزوا نكاح المتعة، وجوزوا أن تورث الأنبياء، ولهم مخالقات في نظام الإرث كإنكارهم للعلول مثلا، ولهم مخالقات كثيرة غير ذلك في مسائل الاجتهاد. لهذا كان طبيعيا أن يقف الإمامية الإثنا عشرية من الآيات التي تتعلق بالفقه وأصوله موقفا فيد تعصب وتعسف، حتي يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص ويجعلوها أدلة لآرائهم

(١) يرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله - والحسن - ابنا محمد ابن الحنفية - وعن أبي هاشم أخذ واصل بن عطاء (مقدمة تبين كذب المفتري ص ١٠، ١١) ويقول أبو الحسن الطرثافي الشافعي (المتوفي سنة ٣٧٧هـ) في كتابه (رد أهل الأهواء والبدع): عندما بايع الحسن بن علي معاوية وسلم له الأمر، اعتزل جماعة من أصحاب علي الحسن ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة، فسموا بذلك معتزلة (انتهي من هامش تبين كذب المفتري ص ١٠).

(٢) انظر: أعيان الشيعة: ١/٤٧٧، وقد مثل لدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. (انظر ص ٢٣٦ من كتاب (أصول الاستنباط) للسيد علي تقي الحيدري، طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠).

ومذاهبهم، كما كان طبيعياً، أن يتأولوا ما يعارضهم من الآيات والأحاديث، بل ووجدناهم أحياناً يزيدون في القرآن ما ليس منه ويدعون أنه قراءة أهل البيت، وهذا إمعان منهم في اللجاج، وإغراق في المخالفة والشذوذ.

● احتيالهم علي تركيز عقائدهم وترويجها:

ويظهر لنا أن الإمامية الإثني عشرية لم يجدوا في القرآن كل ما يساعدهم علي أغراضهم وميولهم، فراحوا - أولاً - يدعون أن القرآن له ظاهر وباطن بل وباطن كثيرة، وأن علم جميع القرآن عند الأئمة، سواء في ذلك ما يتعلق بالظواهر وما يتعلق بالباطن، وحجروا علي العقول فمنعوا الناس من القول في القرآن بغير سماع من أئمتهم. وراحوا - ثانياً - يدعون أن القرآن وارد كله أو جله في أئمتهم ومواليهم وفي أعدائهم ومخالفهم كذلك.

وراحوا - ثالثاً - يدعون أن القرآن حرف وبدل عما كان عليه زمن النبي ﷺ وكل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال علي تركيز عقائدهم وإيهام الناس أنها مستقاة من القرآن الذي هو المنبع الأساسي والأول للدين.

وأعجب من هذا أنهم أخذوا يموهون علي الناس، ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث علي رسول الله ﷺ وعلي أهل بيته، وطعنوا علي الصحابة إلا نفراً قليلاً منهم، ورموهم بكل نقيصة في الدين، ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عندما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التي يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله ﷺ.

ويحسن بنا الأمر سراعاً علي هذه النقاط الأربعة بالذات، بل علينا أن نقف أمامها وقفة طويلة ودقيقة حتي نستطيع أن نقف علي مدي هذه الأوهام والدعاوي التي كان لها أكبر الأثر في اتجاه التفسير عند الإمامية الإثني عشرية، فنقول وبالله التوفيق:

١ - ظاهر القرآن وباطنه

يقول الإمامية الإثنا عشرية: إن القرآن له ظاهر وباطن، وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعد ما صح لدينا من الأحاديث التي تقر هذا المبدأ في التفسير، غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد، بل تجاوزوا إلي القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطناً، ولم يقتصروا علي ذلك بل تبادوا وادعوا أن الله تعالي جعل ظاهر القرآن في الدعوة إلي التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه في الدعوي إلي الإمامة والولاية وما يتعلق بهما.

● حرصهم علي التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه:

ولقد كان من أثر هذا الرأي في القرآن، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به علي أن يعقدوا صلة بين المعاني الظاهرة والمعاني الباطنة للقرآن، ويعملوا بكل ما في وسعهم

وطاقتهم علي إيجاد مناسبة بينهما حتي يقربوا هذا المبدأ من عقول الناس ويجعلوه أمرا سائغا مقبولاً. ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥] ، فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى، ومراد له مع هذا الظاهر معني آخر باطني هو علوم الأئمة عليهم السلام، ويقولون: إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما وبمثل هذا يوفقون بين المعاني الظاهرة والباطنة، حتي لا يكون مستبعداً إرادة الله لمعني خاص بحسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، وإرادته لمعني آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

● حملهم الناس علي التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن:

وكأني بالإمامية الإثني عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه.. كأني بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا يكفي في حمل الناس علي أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوه عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الديني، الذي يشبه الإرهاب الكنسي للعامة في العصور المظلمة، من حمل الناس علي ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم أعمال العقل وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية، فقالوا إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه علي السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ولا بد أن يكون ذلك علي سبيل التفصيل إن وصل إليه علم ذلك مفصلاً عن آل البيت، ويكفي فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل، قالوا: ولا يجوز أن ينكر الباطن بحال، وعليه أن يسلم بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت وإن لم يفهم معناه،، ولو أن إنساناً آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن أو الظاهر والباطن جميعاً.

وحرصاً منهم علي تعطيل عقول الناس ومنعهم من النظر الحر في نصوص القرآن الكريم، قالوا: إن جميع معاني القرآن، سواء منها ما يتعلق بالظاهر وما يتعلق بالباطن، اختص بها النبي ﷺ والأئمة من بعده، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله، لأن القرآن نزل في بيتهم (وأهل البيت أدري بما في البيت) أما من عداهم من الناس فلا يرون أدني شبهة في قصور علمهم، وعدم إدراكه لكثير من معاني القرآن الظاهرة، فضلاً عن معاني الباطنة، قالوا: ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول في القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم، غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ولرسوله ولأهل البيت واستمد علومه من أهل البيت حتي أنس من نفسه العلم والمعرفة.. جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له، لأنه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم وقد قيل: «سلمان منا آل البيت».

● أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن :

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطني للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطربا بالغا ومجالا رحبا، يتسع لكل ما يشاؤه الهوي وتزينه لهم العقيدة، فأخذوا يتصرفون في القرآن كما يحبون، وعلي أي وجه يشتهون، بعد ما ظنوا أن العامة قد انخدعت بأوهامهم وسلموا بأفكارهم ومبادئهم.

فقالوا - مثلا - إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعاني الباطنة لبعض الآيات إلي ما سيحدث في المستقبل من حوادث، ويعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يفرعون علي هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوي، وما يزينه في أعينهم داعي العقيدة وسلطانها، فيقولون مثلا في قوله تعالى: ﴿لتركين طبقا عن طبق﴾ [الانشقاق: ١٩]، إنه إشارة إلي أن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كذلك مكن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللفظ الذي يراد به العموم ظاهرا كثيرا ما يراد به الخصوص بحسب المعني الباطن فمثلا لفظ (الكافرين) الذي يراد به العموم، يقولون: هو في الباطن مخصوص بمن كفر بولاية علي.

كما مكنهم أيضا من أن يصرفوا الخطاب الذي هو موجه في الظاهر إلي الأمم السابقة أو إلي أفراد منها، إلي من يصدق عليه الخطاب في نظرهم من هذه الأمة بحسب الباطن، فمثلا قوله تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: ١٥٩] يقولون فيه: قوم موسى في الباطن هم أهل الإسلام.

ولقد مكنهم أيضا من أن يتركوا أحيانا المعني الظاهر ويقولوا بالباطن وجمده، كما في قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾ إذا لأذناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾ [الإسراء: ٧٤ - ٧٥]، فالظاهر غير مراد عندهم، ويقولون: عني بذلك غير النبي، لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجهها للنبي ﷺ، وإنما هو معني به من قد مضى، أو هو من باب. «إياك عني واسمعي يا جارة» كذلك مكنهم هذا المبدأ من إرجاع الضمير إلي ما لم يسبق له ذكر كما في قوله تعالى: ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقران غير هذا أو بدله﴾ [يونس: ١٥] حيث يفسرون: (أو بدله) بمعنى أو بدل عليا. ومعلوم أن عليا لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقا في شأن خلافته وولايته.

ومما ساع لهم أن يقولوه بعد تقريرهم لمبدأ القول بالباطن: أن تأويل الآيات القرآنية لا يجري علي أهل زمان واحد، بل عندهم أن كل فقرة من فقرات القرآن لها تأويل يجري في كل آن، وعلي أهل كل زمان، فمعاني القرآن علي هذا متجددة. حسب تجدد الأزمنة وما يكون فيها من حوادث. بل وساع لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: إن الآية الواحدة لها تأويلات كثيرة مختلفة متناقضة، وقالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن

يكون أولها في شيء وآخرها في شيء آخر. ولا شك أن باب التأويل الباطني باب واسع يمكن لكل من ولجه أن يصل منه إلي كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره. وليس لقائل أن يقول: إن رسول الله ﷺ صرح بأن للقرآن باطنا، وإن المفسرين جميعا يعترفون بذلك ويقولون به، فكيف توجه اللوم إلي الإمامية وحدهم؟ ليس لقائل أن يقول ذلك لأن الباطن الذي أشار إليه الحديث وقال به جمهور المفسرين، هو عبارة عن التأويل الذي يحتمله اللفظ القرآني، ويمكن أن يكون من مدلولاته. أما الباطن الذي يقول به الشيعة فشيء يتفق مع أذواقهم ومشاربهم، وليس في اللفظ القرآني الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

● مخلصهم من تناقض أقوالهم في التفسير:

ثم إن الإمامية الإثني عشرية، أحسوا بخطر موقفهم وتجرجه عندما جوزوا أن يكون للآية الواحدة أكثر من تفسير واحد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفاسير. فأخذوا يوهون علي العامة ويضللونهم فقرروا من المبادئ ما أوجبوا الاعتقاد به أولا علي الناس ليصلوا بعد ذلك إلي مخلص يتخلصون به من هذا المأزق الحرج، فكان من هذه المبادئ التي قرروها وأوجبوا الاعتقاد بها ما يأتي:

أولا: أن الإمام مفوض من قبل الله في تفسير القرآن.

ثانيا: أنه مفوض في سياسة الأمة.

ثالثا: التقية.

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصا للخروج من هذا التناقض الذي وقع في تفاسيرهم التي يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوضا من قبل الله في تفسير القرآن مخلص لهم، لأن باب التفويض واسع. وكونه مفوضا في سياسة الأمة مخلص أيضا، لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسامع، فهو يجيب كل إنسان علي حسب ما يري فيه صلاح حاله، والقول بالتقية مخلص أوسع من سابقه، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب. تقية منه « قيل عن الباقر: أن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذي ريح بطونهم أهل النار، فقال الباقر: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتوما منذ بعث الله نوحا، فليذهب الحسن يمينا وشمالا، لا يوجد العلم إلا ههنا .. وأشار إلي صدره» (١).

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال وما يري فيه المصلحة .. تقية منه أيضا، وبنوا علي هذا « أن الإمام إن قال قولا علي سبيل التقية فللشيعة أن يأخذ به ويعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعة إلي أن قول الإمام كان علي سبيل التقية» (٢).

ونحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجأون إلي هذه التقية . . تقية الخداع في الأخبار، والنفاق في الأحكام، وإنما هي تمحلات يتمحلونها، ليخلصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذي وقعوا فيه.

٢ - موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم

ثم إن الإمامية الإثني عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة علي ومن بعده من الأئمة والتزام حبهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقي الأصول، كما قرروا وجوب طاعة الأئمة، واعتقاد أفضليتهم علي الخلائق أجمعين.

قرر الإمامية هذا كله، ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن علي ما قرروه، بل وزادوا علي ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت في الأئمة ومن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت في مخالفيهم وأعدائهم، بل ويدعون ما هو أكثر من ذلك فيقولون: إن جل القرآن بل كله، أنزل في الإرشاد إليهم والإعلان بهم، والأمر بموافقتهم، والنهي عن مخالفتهم.

ولقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جله أو كله وارد في أئمتهم ومن والاهم وفي أعدائهم ومن وافقهم، أن قالوا: إن ما نُسبه الله إلي نفسه بصيغة الجمع أو ضميره سره أن أراه إدخال النبي ﷺ والأئمة معه. قالوا: وهو مجاز شائع معروف، بل وبالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحيانا كما في قوله تعالي: ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [البقرة: ٥٧]، حيث روي عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال فيها: إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم ولكن خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ [المائدة: ٥٥] بمعنى: الأئمة منا (١).

وأعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة، والإله والرب، مراداً به الإمام وكذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه، وتأولوا ما أضافه الله إلي نفسه من الإطاعة والرضا والغني والفقر مثلا، بما يتعلق بالإمام كإطاعته، ورضاه وغناه وفقره . . إلخ، ويعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف. ولكن لا شيوخ لمثل هذا المجاز ولا معرفة لنا به إذ المجاز المتعارف عليه بين العلماء هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعني الأصلي، وأين العلاقة هنا؟ وإذا تكلفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم . . لم هذا التكلف والعدول إلي المجاز، وقد تقرر أنه لا يعدل إلي المجاز إلا عند تعذر الحقيقة؟

(١) مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٣٩.

٣ - تحريف القرآن وتبديله

وأحسب أن الإمامية الإثني عشرية، عز عليهم أن يكون القرآن غير صحيح في عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفينهم، وكأني بهم وقد تساءلوا فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جله واردا في شأن الأئمة وشيعتهم، وفي شأن أعدائهم ومخالفينهم، فلم لم يأت القرآن بذلك صريحا في أنه المقصود أولا وبالذات؟ ولم اكتفي بالإشارة الباطنة فقط؟.. كأني بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا الاعتراض الذي أخذ بخناقهم، راحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا: إن القرآن الذي جمعه علي عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذي لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرّف وبمدل، حذف منه كل ما ورد صريحا في فضائل آل البيت، وكل ما ورد صريحا في مثالب أعدائهم ومخالفينهم وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم في ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروى الكافي عن الصادق: أن القرآن الذي نزل به جبريل علي محمد - عليه السلام - سبعة عشر ألف آية، والتي بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقى مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه علي ^(١).

ويقولون: إن سورة (لم يكن) كانت مشتملة علي اسم سبعين رجلا من قريش بأنسابهم وآبائهم، وإن سورة (الأحزاب) كانت مثل سورة (الأنعام) أسقطوا منها فضائل أهل البيت. وإن سورة (الولاية) أسقطت بتمامها وغير ذلك من خرافاتهم.

وأخف ما لهم في هذا الموضوع هو (أن جميع ما في المصحف كلام الله إلا أنه بعض ما نزل والباقي مما نزل عند المستحفظ لم يضع منه شيء وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله علي ما جمعه أمير المؤمنين علي) ^(٢).

ولقد اصطدم مدعو التحريف والتبديل، بنصوص من القرآن صريحة في هدم مدعيهم هذا، فمن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولكن سرعان ما تخلصوا منها بالتأويل فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.. أي عند الأئمة، وبمثل هذا التأويل يتخلصون من باقي النصوص المعارضة لهم.

واصطدموا أيضا بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر علي عقائدهم ومبادئهم. أولهما: كيف تعتمدون في تعاليمكم ومعتقداتكم علي هذا القرآن الذي بأيدينا وقد جزمتم بوقوع التحريف والتبديل فيه؟

(١) الشيعة ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧.

ثانيهما: كيف توجبون علي الناس أن يعترفوا بفضائل آل البيت وتبترأوا من أعدائهم ومخالفاتهم، والحجة غير قائمة عليهم بعد أن حذف كل ذلك من القرآن؟

وقد أجابوا عن الأول: بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم علي، وآل محمد، وأسماء المنافقين.

وأجابوا عن الثاني: بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف والتبديل في القرآن، فلم يكتف بما جاء صريحا في فضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم، بل أشار إلي ذلك ودل عليه بحسب بطون القرآن وتأويله، وهذا قد سلم من التحريف والتبديل قطعا، فبقية الحجة قائمة علي الناس، وإن بدلوا الظاهر وحرفوه.

والحق أن الشيعة هم الذين حرفوا وبدلوا فكثيرا ما يزيدون في القرآن ما ليس منه، ويدعون أنه قراءة أهل البيت، فمثلا نراهم عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، يزيدون: (في شأن علي)، وهي زيادة لم ترد إلا من طريقهم، وهي طريق مطعون فيها.

وهم الذين حرفوا القرآن أيضا حيث تأولوه علي غير ما أنزل الله (قيل للصادق: ألم يكن علي قويا في دين الله؟ قال: بلي. قيل: فكيف ظهر عليه القوم ولم يدفعهم؟ وما منعه من ذلك؟ قال الصادق: آية في كتاب الله منعه. قيل: أي آية؟ قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].. كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن علي يقتل الآباء حتي تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر علي من ظهر فقتلهم (١).

وروي العياشي عن الباقر أنه قال: لما قال النبي ﷺ: (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام) أنزل الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتَّخِذُ الْمَضِلِّينَ عِزًّا﴾ [الكهف: ٥١] (٢).

وتقول أصول الكافي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ [النساء: ١٣٧]: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبي أولا ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية علي، ثم آمنوا بالبيعة لعلي، ثم كفروا بعد موت النبي. ثم ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة (٣).

هذه أمثلة نذكرها ونضعها بين يدي القارئ الكريم ليحكم بنفسه حكما صادقا: أن هؤلاء الشيعة، الذين يدعون التحريف والتبديل للقرآن، هم أنفسهم المحرفون لكتاب

(١) الوشيعة ص ٦٥ (٢) الوشيعة ص ٦٤ - والآية من سورة الكهف: ٥١.

(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلا عن أصول الكافي ٣/٣٢٥.

الله، المبدلون فيه، بصرفهم ألفاظ القرآن إلي غير مدلولاتها وتقولهم علي الله بالهوي والتشهي .

٤ - موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة

ولقد رأي الإمامية الإثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ وأمام كثرة من الروايات الماثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وفي تلك الأحاديث وهذه الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة، لذا كان بدهيا أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها، وإما بطريق تأويلها، والرد عندهم سهل ميسور، ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولاً لصحابي، وإما أن تكون قولاً لرسول الله ﷺ عن طريق صحابي، وهم يجرحون معظم الصحابة، بل ويكفرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولاً، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما . . وأما التأويل فباب واسع . . وهم أهله وأربابه .

فمثلاً نجدهم يردون الأحاديث والآثار التي ثبتت في تحريم نكاح المتعة ونسخ حله، كما نجدهم يردون أحاديث المسح علي الخفين ويقولون: إنها من رواية المغيرة بن شعبة رأس المنافقين . ثم نجدهم يسلمون صحة الرواية جدلاً ولكنهم يتأولونها فيقولون: إن الخف الذي كان يلبسه النبي ﷺ كان مشقوقاً من أعلي، فكان يمسح علي ظاهر قدمه من هذا الشق . . وظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف .

فإذا كان هؤلاء لا يقبلون أقوال الصحابة، ولا يثقون بروايتهم عن رسول الله ﷺ، إذن فمن يقبلون قوله؟ ومن يثقون بروايته .

الذي عليه الشيعة إلي اليوم، أنهم لا يأخذون الحديث إلا من كان شيعياً ولا يقبلون تفسيراً إلا من كان شيعياً، ولا يثقون بشئ مطلقاً إلا إذا وصل لهم من طريق شيعي!! وبهذا حصروا أنفسهم في دائرة خاصة، حتي كأنهم هم المسلمون وحدهم، فإن عاشوا وسط السنيين فباطنهم لأنفسهم، وظاهرهم للتقية .

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد - حد الثقة بأشياعهم والاتهام لمن عداهم - بل وجدنا الرؤساء من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفي وغيره، قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، وقلوبهم الطيبة الطاهرة، وحبهم لآل بيت رسول الله ﷺ، فراحوا يضعون الأحاديث علي رسول الله ﷺ وعلي آل بيته، ويضمنونها ما يرضي ميولهم المذهبية، وأغراضهم السيئة الدنيئة، ولم يفهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم .

ويعجبني هنا ما ذكره أبو المظفر الإسفرائيني في كتابه (التبصير في الدين) وهو:
 أن الروافض «لما رأوا الجاحظ يتوسع في التصانيف، ويصنف لكل فريق، قالت له
 الروافض: صنف لنا كتابا، فقال لهم: لست أدري لكم شبهة حتي أرتبها وأتصرف
 فيها، فقالوا له: إذن دلنا علي شيء نتمسك به، فقال: لا أري لكم وجها إلا أنكم إذا
 أردتم أن تقولوا شيئا تزعمونه، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف
 لكم سببا تستندون إليه غير هذا الكلام .. فتمسكوا بحمقهم وغبارتهم بهذه السوءة
 التي دلهم عليها، فكلما أردوا أن يخلتقوا بدعة أو يخرعوا كذبة، نسبوها إلي ذلك
 السيد الصادق، وهو عنها منزه ومن مقالتهم في الدارين برئ»^(١).

* * *

(١) التبصير في الدين ص ٢٦، وانظر التفسير والمفسرون: ٣/٢ - ١٠، ٢٠ - ٣٦.

الإمامية الإسماعيلية (الباطنية) وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

قلنا إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلي إسماعيل بن جعفر الصادق، وقلنا: إنهم يلقبون بالباطنية أيضا لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخلة في عداد طوائف المسلمين وإنما هي في الأصل جماعة من المجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لا تقهر وأبصروا عزة المسلمين فتية لا تغلب ولا تكسر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد علي الإسلام والمسلمين، ورأوا أنه لا سبيل لهم إلي الغلب علي المسلمين بقوة الحديد والنار، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرار، فسلكوا طريق الاحتيال الذي يوصلهم إلي مآربهم وأهوائهم، ليطفئوا نور الله بأفواههم، وخفي علي هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

● مؤسسو هذه الطائفة:

ظهرت بوادر هذه الفتنة، ونبتت نواة هذه الطائفة: زمن المأمون، وبيد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القداح، وكان مولي جعفر بن محمد الصادق، ومحمد بن الحسين المعروف بذيذان، وجماعة كانوا يدعون (الجهاريجة)^(١).

اجتمع هؤلاء النفر، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده، فلما خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، واستطار خطرها إلي كثير من بلاد المسلمين. وما زالت لها بقية إلي يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام^(٢).

● احتيالهم علي الوصول إلي أغراضهم:

رأي المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف في وجه المسلمين صراحة وجهارا، فاحتالوا - كما قلنا - علي الوصول إلي مآربهم بشتي الحيل فاندسوا بين المسلمين باسم الحدب علي الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والموالاة لأهل البيت، وتظاهروا بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستارا لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب في العقيدة والسياسة.

ومن المحزن أن يدعي هؤلاء الملاحدة الانتماء إلي أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم

(١) أي العلماء الأربعة. (٢) الفرق بين الفرق ص ٢٦٦، والتبصير في الدين ص ٨٣.

بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين، فيلقي هذا الادعاء رواجاً وقبولاً من أناس ضعفاء أغمار، غرهم التباكي علي آل البيت والتحزن عليهم، فتحركت أحقاد دفينه، وثار فتنة دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرهما.

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين ورسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر والخديعة، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتيال علي الطعام بتأويل الشرائع إلي ما يعود إلي قواعدهم من الإباحة والإلحاد، وتدرجوا في وصولهم إلي غرضهم هذا بجعلهم الدعوة علي مراتب.

● مراتب الدعوة عند الباطنية:

أولاً: الذوق: وهو تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة أم لا؟ ولذلك منعوا من إلقاء البذر في السبخة. أي دعوة من ليس قابلاً لها، ومنعوا التكلم في بيت فيه سراج.. أي في موضع فيه فقيه أو متعلم.

ثانياً - التأسيس: باستمالة كل أحد من المدعويين بما يميل إليه بهواه وطبعه، من زهد، وخلاعة، وغيرهما، فإن كان يميل إلي زهد زينته في عينه وقبح نقيضه، وإن كان يميل إلي الخلاعة زينها وقبح نقيضها، ومن رآه الداعي مائلاً إلي أبي بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ في تأويل الشريعة، ولهذا انتصحب النبي أبا بكر إلي الغار، ثم إلي المدينة، وأفضي إليه في الغار تأويل الشريعة.. وهكذا حتي يحصل له الأئس به.

ثالثاً - التشكيك في أصول الدين وأركان الشريعة: كأن يقول للمدعو: ما معني الحروف المقطعة في أوائل السور؟ ولم تقضي الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولم يجب الغسل من المنى دون البول؟ ولم اختلفت الصلوات في عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثاً، وبعضها أربعاً؟..

وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم.

رابعاً: الرباط: وهو أمران (أحدهما): أخذ الميثاق علي الشخص بأن لا يفشي لهم سرا، ويستدلون علي ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، (وثانيهما): حوالبته علي الإمام في حل ما أشكل عليه من الأمور التي ألقىت إليه، فإنها لا تعلم إلا من قبل الإمام

خامسها - التدليس: وهو دعوي موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال علي مذهبهم.

سادسا - التأسيس : وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه .

سابعا- الخلع : وهو الطمأنينة إلي إسقاط الأعمال البدنية .

ثامنها - السلخ : وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون في تأويل الشريعة علي ما تشاء أهواؤهم^(١) .

فأنت تري أن الباطنية توسلوا بكل هذه الحيل إلي تشكيك المسلمين في عقائدهم، وكأنهم رأوا أن القرآن ما دام موجودا بين المسلمين ومحفوظا عندهم يرجعون إليه في أمور الدين ويهتدون بهديه كلما نزلت بهم نازلة، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله، وصرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يجدون في تأويل نصوص القرآن كما يحبون، وعلي أي وجه يرونه هدمًا لتعاليم الإسلام، الذي أصبح قذي في أعينهم وشجي في حلوقهم!!

وحرصا منهم علي أن تكون دعواهم في تأويل القرآن مقبولة لدي من يستخفونه .. قالوا: «إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون ، ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلي القرآن وأهل البيت، ولذلك قال عليه السلام - لما قيل: ومن أين يُعرف الحق بعدك؟: (ألم أترك فيكم القرآن وعترتي)؟ وأراد به أعقابه، فهم الذين يطلعون علي معاني القرآن»^(٢) .

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن علي هدم الشريعة لم يلق رواجًا عند عقلاء المسلمين، ولم يجد غباوة في عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين .. وكيف يمكن أن يجد رواجًا عند هؤلاء أو غباوة من أولئك وقد علموا وتيقنوا بأن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضي ظواهرها بغير اعتصام فيه ينقل عن صاحب الشريعة، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضي ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالي وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلي الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله علي وجوه شتى .

● إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم:

ومع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن بابا للوصول إلي أغراضهم فإننا لم نقف لهم علي كتب مستقلة في تفسير كتاب الله تعالي، ولم نسمع أن واحدا

(١) المواضع ٨/ ٣٨٩ - ٣٩٠، والفرق بين الفرق ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) فضائح الباطنية ص ٦ .

منهم كتب تفسيراً جامعاً للقرآن كله، سورة سورة، وآية آية، ولعل السرفي ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية. ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لا يستطيعون تذليلها، ولا يقدرّون علي التخلّص منها. وكل الذي وجدناه لهم في تفسير القرآن - أو تأويله علي الأصح - إنما هو نصوص متفرقة في بطون الكتب، تعطينا إلي حد ما صورة واضحة، وفكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم، ومبلغ تهجمهم علي القول فيه بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير.

وأري أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلي قسمين اثنين:

الأول: موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم.

والثاني: موقف الباطنية المتأخرين منه أيضا.

ونريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية ومن قاربهم في الزمن وبالتأخرين البابية والبهائية، وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذي من أجله عدناهم من قبيل الباطنية.

● موقف متقدمي الباطنية من تفسير القرآن الكريم:

علمت أن الغرض الأول الذي تقوم عليه دعوة الباطنية وتتركز فيه: هو العمل علي هدم الشرائع عموماً، وشريعة الإسلام علي الخصوص!! فكان لزاماً عليهم وقد قاموا يحاربون الإسلام - أن يعملوا معاول الهدم في ركن الإسلام المكين، وهو القرآن الكريم، وقد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معولاً أصلب ولا أقوى علي تنفيذ غرضهم من معول التأويل والميل بالآيات القرآنية إلي غير ما أراد الله.

كتب عبید الله بن الحسن القيرواني إلي سليمان بن الحسن بن سعيد الجناني رسالة طويلة جاء فيها: «... وإني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وتدعوهم إلي إبطال الشرائع، وإلي إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة في السماء، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلي القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك علي القول بقدم العالم» (١).

رأي هذا الزعيم الباطني أن التشكيك في القرآن خير معوان لهم علي تركيز عقائدهم، ورأي رأيه أهل الباطن جميعاً فقالوا: «للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلي الظاهر كنسبة اللب إلي القشر، والتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب، وباطنه مؤد إلي ترك العمل بظاهره،

وَتَمَسَّكُوا فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بِابٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. (١)

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم، ثم اعجب ما شاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية الكريمة علي قاعدتهم التي قعدوها؟ ولست أدري ما صلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة في شأن من شعون الآخرة ينساق إلي فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء

● من تأويلات الباطنية القدامي:

علي هذه القاعدة السابقة جري القوم في شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتي:

(الوضوء): عبارة عن موالة الإمام، و(التميم) هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجية. و(الصلاة) عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. و(الغسل) تجديد العهد بمن أفشي سرا من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم علي هذا النحو هو معني. (الاحتلام)، و(الزكاة) عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين، و(الكعبة) النبي، و(الباب) علي، و(الصفاء) هو النبي، و(المروة) علي، و(الميقات) الإيناس، و(التلبية) إجابة الدعوة، و(الطواف بالبيت سبعا) موالة الأئمة السبعة، و(الجنة) راحة الأبدان من التكاليف، و(النار) مشقتها بمزاولة التكاليف (٢).

وتأولوا أنهار الجنة فقالوا: ﴿أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ﴾ أي معادن العلم.. اللبن: العلم الباطن، يرتفع به أهلها، ويتغذون به تغذيا تدوم به حياتهم اللطيفة، فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدي الأم. و﴿أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ﴾ هو العلم الظاهر. و﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة (٣).

كذلك تجد الباطنية يرفضون المعجزات، ولا يعترفون بها للرسل، وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحي من الله، بل وزادوا علي ذلك فأنكروا أن يكون في السماء ملك وفي الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجال، ويأجوج ومأجوج، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تكذب دعواهم هذه، فتخلصوا منها بمبدأهم الذي ساروا عليه في تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن، وأولوا هذه الآيات بما يتفق

(٢) المواظف ٣٩/٨.

(١) المواظف ٣٨٨/٨.

(٣) فضائح الباطنية للغزالي ص ١٣ - والآية من سورة محمد: ١٥.

ومذهبهم، فتأولوا (الملائكة) علي دعاتهم الذين يدعون إلي بدعتهم. وتأولوا (الشياطين) علي مخالفيهم وتأولوا كل ما جاء في القرآن من معجزات الأنبياء عليهم السلام، فقالوا: (الطوفان) معناه طوفان العلم.. أغرق به المتمسكون بالسنة. و(السفينة) حرزه الذي تحصن به من استجاب لدعوته. و(نار إبراهيم) عبارة عن غضب نمرود عليه لا النار الحقيقية. و(ذبح إسحاق) معناه أخذ العهد عليه. و(عصا موسى) حجته التي تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب. و(انفلاق البحر) افتراق علم موسى فيهم عن أقسام. و(البحر) هو العلم. و(الغمام الذي أظلمهم) معناه الإمام الذي نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم و(الجراد والقمل والضفادع) هي سؤالات موسى والتزاماته التي سلطت عليهم. و(المن والسلوي) علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوي و(تسبيح الجبال) معناه تسبيح رجال شداد في الدين راسخين في اليقين و(الجن الذين ملكهم سليمان بن داود) باطنية ذلك الزمان، و(الشياطين) هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة، و(عيسي) له أب من حيث الظاهر. وإنما أراد بالأب المنفي: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا - لعنهم الله - أن أباه يوسف النجار. و(كلامه في المهد) إطلاعه في مهد القالب قبل التخلص منه علي ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القالب. و(إحياء الموتى من عيسي) معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن، و(إبرأؤه الأعمى) عن عمى الضلالة. و(الأبرص) عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين. و(إبليس وآدم) عبارة عن أبي بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر. و(الذجال) أبو بكر، وكان أعورا، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن. و(يأجوج ومأجوج) هم أهل الظاهر (١).

بل بالغوا فقالوا: (أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس والحيل، طلبا للزعامة بدعوي النبوة والإمامة) (٢).

هذا.. ومما زعمته الباطنية: أن من عرف معني العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك قوله تعالي: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].. وحملوا اليقين علي معرفة التأويل.

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم، بحجة أن الأخ أحق بأخته والأب أولى بابنته.. وهكذا، ولست أدري علي أي وجه تأولوا آية النساء التي حرمت ذلك، ومنعته منعا باتا!!

(١) فضائح الباطنية ص ١٣.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٩.

ويقول القيرواني في رسالته التي أرسلها إلي سليمان بن الحسن: «.. وينبغي أن تحيط علما بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسي ابن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها.. وبذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال ﴿الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥]، لما لم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسي في دعواه التي لم يكن عليها برهان سوي المخرقة بحسن الحيلة والشعوذة، ولما لم يجد الحق في زمانه عنده برهانا قال له: ﴿لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [الشعراء: ٢٩]. وقال لقومه: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] لأنه صاحب الزمان في وقته).

ثم قال في آخر هذه الرسالة: «... وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة في حسنها، فيحرمها علي نفسه وينكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي، ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذي يزعمونه، وأخبرهم يكون ما لا يروونه أبدا من البعث من القبور، والحساب، والجنة، والنار، حتي استبعدهم بذلك عاجلا وجعلهم له في حياتهم، ولذريته بعد وفاته خولا، واستباح بذلك أموالهم بقوله: ﴿لأأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ [الشوري: ٢٣]، فكان أمره معهم نقدا وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم علي انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج».

ثم قال لسليمان بن الحسن في هذه الرسالة: «... وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة علي الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئا لكم ما نلتهم من الراحة عن أمرهم»^(١).

ومن جملة تأويلاتهم الباطلة التي يتوصلون بها إلي هواهم النفسي، ومأربهم الشخصي، أنهم بعد أن يلقوا علي المدعو ما يشككونه به، وتتطلع إلي معرفته من جهتهم نفسه، يقولون له: لا نظهره إلا بتقديم خير عليه فيصلبون مائة وتسعة عشر

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٨١ - ٢٨٢.

درهماً من السبيكة الخالصة. ويقولون: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا ﴾ [الزمل: ٢٠] ، فالحاء والسين والنون والألف إذا جمع عددها بحساب الجُمَّل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر»^(١).

ومن ذا الذي قال إن القرآن يخضع في تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجُمَّل؟.. اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرف أو زنديق يريد أن يضل الناس ويحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله !!

كذلك نجد الباطنية يحرصون على نفى وجود الإله الحق، والنبى المرسل محمد ﷺ، ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكليف، فنراهم يقولون للمبتدئ: «إن الله خلق الناس واختار منهم محمداً ﷺ، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أتدرى من محمد؟ فيقول: نعم، محمد رسول الله، خرج من مكة، وادعى النبوة، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة. فيقول له: ليس هذا الذى تقوله إلا كقول هؤلاء الحمير - يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام - إنما محمد أنت، فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمداً، فيقول له: الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وهؤلاء الحمير يقولون: من مكة... فيقول له الغر الغمر: على أى معنى تقول أنا محمد؟ فيقول: خلقك وصورك خلقة محمد، فالرأس بمنزلة الميم، واليدان بمنزلة الحاء، والسرة بمنزلة الميم، والرجلان بمنزلة الدال، وكذلك أنت على أيضاً، عينيك هى العين، والأنف هى اللام، والضم الياء»^(٢).

وبهذا يوهمه أنه هو محمد الذى جاء ذكره فى القرآن، أما ما يدعى من وجود رسول اسمه محمد، فهذا ظاهره غير مراد.

ولأجل أن يوهمه أيضاً بأنه لا إله موجود على الحقيقة، وما جاء فى القرآن من ذلك فظواهر غير مراده، نجده يقول للمبتدئ: إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك، ويؤولون عليه قوله تعالى: ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ [قريش: ٣]، ويقولون: الرب هو الروح والبيت هو البدن.

ولقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه هو الذى كلم موسى بقوله: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه: ١٢]، وفى هذا يروى لنا البغدادي صاحب «الفرق بين الفرق» قصة رجل دخل فى دعوة الباطنية، ثم وفقه الله لتركها والرجوع لرشده.. يحكى هذا الرجل قصته للبغدادي فيقول: «إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة: كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات، واستعبدوهم بشرائعهم - قال الحاكى للبغدادى: ثم ناقض الذى كشف لى هذا السربان قال: ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾... ثم قال: فقلت: «سخت عينك، تدعونى إلى الكفر برب قديم خالق للعالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلهاً مرسلًا لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذباً، فالذى زعمت أنه أرسله أكذب» فقال: إنك لا تفلح أبداً، وندم على إفشاء أسرارهِ إلى وتبت من بدعتهم» (١).

فانظر إليهم - لعنهم الله - كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، ويدعون أنه كلام إلههم المزعوم محمد بن إسماعيل!!... أليس هذا غلواً فى الإلحاد؟ وإغراقاً فى الكفر والعناد؟

وبين أيدينا كتاب «أسرار الباطنية»، وهو يكشف لنا عن نواياهم ويفضح أسرارهم وخبائياهم، وهو لمحمد بن مالك اليماني أحد علماء القرن الخامس الهجرى، ولا أريد أن أطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازى القوم، ولكن أكتفى بذكر نبذة من الكتاب. ضمّنها المصنف ما شهد به بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهراً بدخوله فى زميرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه عنهم من أباطيل وأضاليل، وإنما اخترت هذه النبذة بالذات، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل، وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل!!

● مقالة محمد بن مالك اليماني فى الباطنية:

يقول محمد بن مالك اليماني: «أول ما أشهد به وأشرحه، وأبينه للمسلمين وأوضحه، أن له - يريد على بن محمد الصليحي زعيم باطنية اليمن فى وقته - نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبهم المكليين، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد، لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل، وينقبضون عن كل عاقل، ويُلْبَسون على كل جاهل، بكلمة حق يُراد بها الباطل، ويحضونه على شرائع الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام، كالذى ينثر الحب للطير ليقع فى شركه، فيقيم أكثر من سنة يمعنون به، وينظرون صبره، ويتصفحون أمره، ويخدعونه بروايات عن النبى ﷺ محرّفة، وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون أنكلم عن

مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يُعلّمونه، والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترضى لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، وتدبر القرآن ورموزه، واعرف مثله ومثوله، واعرف معاني الصلاة والطهارة، وما روى عن النبي ﷺ بالرموز والإشارة، دون التصريح فى ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لمثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها، وقف على باطنها ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه، فيقول: عمّ أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (١)، فالزكاة مفروضة فى كل عام مرة، وكذلك الصلاة، من صلاتها مرة فى السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضاً فالصلاة والزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان، والزكاة زكاتان، والصوم صومان، والحج حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن يدل على ذلك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن؟ فالظاهر ما تساوى به الناس، وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصص علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: ﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].. فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

و«الصلاة» و«الزكاة» سبعة أحرف (٢) دليل على محمد وعلى صلى الله عليهما، لأنهما سبعة أحرف، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة، فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبي ﷺ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة، لأن مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلتزمهم به الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قرب قرباناً يكون لك مسلماً ونجوى، ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثني عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعي: يا مولانا، إن عبدك فلاناً قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه اثنا عشر ديناراً، فيقول: اشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون: الحمد لله الذى وضع عنك ﴿وزرك﴾ الذى أنقض ظهرك ﴿الشرح: ٢-٣﴾ ثم يقول له ذلك

(١) البقرة: ٤٣، وفى مواضع أخرى من القرآن.

(٢) لعله عدّهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين.

الداعى - الملعون - بعد مدة: قد عرفت الصلاة وهي أول درجة، وأنا أرجو أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات، فاسأل وابحث، فيقول: عمّ أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر والميسر اللذين نهى الله تعالى عنهما: هما أبا بكر وعمر لمخالفتهما على علي، وأخذهما الخلافة دونه، فأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام، لأنه مما أنبتت الأرض، ويتلو عليه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]... إلى آخر الآية. ويتلو عليه: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا ﴾ [المائدة: ٩٣]... إلى آخر الآية، والصوم: الكتمان فيتلو عليه: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، يريد كتمان الأئمة في وقت استتارهم خوفاً من الظالمين، ويتلو عليه: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦]، فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام لقال: فلن أطعم اليوم شيئاً، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغياناً وكفراً، وينهمك إلى قول ذلك الداعى الملعون، لأنه أتاه بما يوافق هواه، والنفس أمارة بالسوء.. ثم يقول له: ادفع النجوى تكن لك سلباً ووسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثنى عشر ديناراً، فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا، عبدك فلان قد عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل في رمضان، فيقول له: قد وثقت وأمنت على سرائرنا؟ فيقول: نعم. فيقول: قد وضعت عنه ذلك، ثم يقيم بعد ذلك مدة، فيأتيه ذلك الداعى الملعون فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات، فاعرف الطهارة ما هي، ومعنى الجنابة ما هي في التأويل، فيقول له: فسّر لى ذلك. فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره، وأن الجنابة هي موالات الأضداد، أضداد الأنبياء والأئمة. فأما المنى فليس بنجس، منه خلق الله الأنبياء والأولياء، وأهل طاعته، وكيف يكون نجساً وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب، لأنهما نجسان، وإنما معنى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة: ٦]، معناه: وإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذى هو حياة الأرواح، كالماء الذى هو حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥ - ٦]، فلما سمّاه الله بهذا دل على طهارته، ويوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره ذلك الداعى أن يدفع اثنى عشر ديناراً، ويقول: يا مولانا، عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك، فيقول: اشهدوا أنى قد أحللت له ترك الغسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعى الملعون: قد عرفت أربع درجات، وبقي عليك الخامسة، فاكشف عنها، فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك،

ويتلو عليه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، فيقول له: اللهمني إياها ودلني عليها، فيتلو عليه: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ص: ٢٢]، ثم يقول له: أحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا؟ فيقول: وكيف لي بذلك؟ فيتلو عليه: ﴿وَإِنَّا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]، ثم يتلو عليه: ﴿قُلْ مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والزينة ههنا: ما خفى على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، وذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النور: ٣١]، والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٣٢].. فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الأبواب، وأهل العقول دون الجهال، لأن المستحسن من الأشياء ما خفى، ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة، وسميت الجن جنناً لاختفائهم عن الناس، والجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، والترس الجن لأنه يُستتر به، فالجنة ههنا: ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقول، فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكاً، ويقول لذلك الداعي الملعون: تلتطف في حالي، وبلغني إلى ما شوقتني إليه، فيقول: ادفع النجوى اثني عشر ديناراً تكون لك قرباناً وسلاماً، فيمضى به فيقول: يا مولانا، إن عبدك فلاناً قد صحت سريرته، وصفت خبرته وهو يريد أن تدخله الجنة، وتبلغه حد الأحكام، وتزوجه الحور العين، فيقول له: قد وثقت وأمنت؟ فيقول: يا مولانا، قد وثقت وأمنت وخبرته فوجدته على الحق صابراً، ولأنعمك شاكراً، فيقول: علمنا صعب مستصعب لا يحمله إلا نبي مرسل، أو ملك مقرب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها، فيقول: سمعاً وطاعة لله ولمولانا، فيمضى به إلى بيته، فيبيت مع زوجته، حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسمع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعي الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا، فادفع قربانك، فيدفع اثني عشر ديناراً ويصل به ويقول: يا مولانا، إن عبدك فلاناً يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جن الليل، ودارت الكؤوس وحميت الرؤوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوة الملعونة حرمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، وأطفأوا السراج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده، ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعي الملعون وجميع المستجيبين،

فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم، ووضع عنكم أوزاركم، وخطّ عنكم آصاركم، ووضع عنكم أثقالكم، وأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم جهّالكم: ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

قال محمد بن مالك - رحمه الله تعالى - هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم، والله تعالى لهم بالمرصاد، والله تعالى على شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعت عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم، والله يشهد على جميع ما ذكرته عالم به، ومن تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة والناس أجمعين، وأخزى الله من كذب عليهم، وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً، ومن حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرج من حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِ الشَّيْطَانِ وَقُوَّتِهِ..» (١).

وبعد.. ألسنت ترى معنى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس ولا يستند إلى برهان، وإنما هي أوهام وأباطيل، غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين، وليدخلوهم في زمرة الملحدين وحزب الشياطين؟ أعتقد ذلك، وأظن أن سؤالاً يدور بخلد القارئ هو: كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعاني التي نقلت عنهم للفظ الواحد؟ أليس هذا دليلاً على عدم صحة كل ما يُنسب إليهم؟ والحق أن السؤال وارد، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالي من أن «سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم» (٢).

● موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم:

قلنا إن الباطنية يُعرفون بأسماء عدة، وقلنا إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا في كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، ويُعرفون بالبهرة أو الإسماعيلية، وزعيمهم أغا خان الزعيم الإسماعيلي المعروف. ويوجدون في بلاد الأكراد ويُعرفون بـ «العلوية» حيث يقولون: على هو الله. ويوجدون في تركيا ويُعرفون بـ «البكداشية» وفي مصر جماعة من البكداشية من أصل ألباني يقيمون في الجبل المعروف بالمغاوري (٣). ويوجدون في بلاد العجم

(١) كشف أسرار الباطنية ص ١١ - ١٦ (٢) فضائح الباطنية ص ٨

(٣) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر وذلك لما ظهر من

فساد حالهم وسوء فعالهم.

ويعرفون بـ «البابية» ويوجدون في فلسطين ويعرفون بـ «البهائية» ومنهم جماعات في بلاد متفرقة (١)، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هي «القاديانية»، وهي أحدث فرقهم عهداً، وأقربها ظهوراً.

هذه الفرق التي تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأى في التأويل الباطني للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها ومشربها.

ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم. غير أننا لم نقف على شيء من ذلك، اللهم إلا شيئاً للبابية والبهائية.

لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة (٢) وموقفها من كتاب الله تعالى، لأن ما وصلنا عنها - وإن قل - فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

واعتمادنا في كل ما نكتب على بعض الكتب التي وصلتنا عنهم، وعلى ما نشر في المجالات العلمية من البحوث التي تدور حولهم، فنقول وبالله التوفيق:

● البابية والبهائية:

البابية: نسبة إلى الباب، وهو لقب ميرزا علي محمد، الذي ابتدع هذه النحلة، وإليه تُنسب هذه الطائفة، باعتباره المؤسس الأول لها.

البهائية: نسبة إلى بهاء الله، وهو لقب ميرزا حسين علي، الزعيم الثاني للبابية، وإليه تُنسب هذه الطائفة، باعتباره المؤسس الثاني لها.

وأصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا علي محمد، الملقب بالباب، والمولود في سنة ١٢٣٥ هـ، توفي عنه والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه، فربى في حجر خاله ميرزا سيد علي، ونشأ معه في مدينة شيراز بجنوب إيران، واشتغل معه بالتجارة، ولما بلغ سنة الخامسة والعشرين ادعى أنه الباب - والباب عند الشيعة معناه نائب المهدي المنتظر - وكان ادعائه هذا في سنة ١٢٦٠ هـ، وما لبث أن وصلت هذه الدعوى إلى طائفة من الجاهلين فصدقوا بها، وتتابعوا عليها، وكان عدد من صدقه في أول الأمر ثمانية عشر رجلاً، فسماهم بكلمة «حى» لأن عدد حرفيها بحساب الجُمَّل ثمانية عشر، ثم أمر أتباعه هؤلاء بالانتشار في إيران وبلاد العراق، يبشرون به وبدعوته، وأوصاهم بكتمان اسمه حتى يُظهره هو بنفسه. ولما حج وفرغ من أعمال الحج أعلن

(١) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، طرد البهائيين من مصر، والاستيلاء على مركزهم العام، وتحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وقد تم ذلك في حفل عام سنة ١٩٦١

(٢) البابية والبهائية في واقع الأمر طائفة واحدة، نسبت إلى «الباب» زعيمها الأول فقيل لها: «بابية»، ثم نسب إلى «البها» زعيمها الثاني، فقيل لها: «بهائية» كما هو موضح بعد.

دعوته في الجمع الكبير فاشتهر اسمه، وذاعت دعوته، فثارت طوائف المسلمين، وقاموا في سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

وقد عقد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهرت ما في دعوته من غواية وضلال، فكفره بعض العلماء، ورماه بعض آخر منهم بالجنون، فاعتقله الوالي في سجن شيراز، ثم في سجن أصفهان، ثم في طهران، ثم في أذربيجان. وفي عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابيين ومخالفهم، وقامت بينهم حرب طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فعُلّق في ميدان مدينة تبريز، وقُتِل رمياً بالرصاص، وذلك سنة ١٢٦٥ هـ.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم في شأن من ينوب عنه، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة: من قبيل النبوة، والوصاية، والولاية، وأمثالها. وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨ هـ إنتقاماً لزعيمهم الباب، ولما خاب سعيهم وفشلوا في هذه المؤامرة، أخذت الحومة تضطهد زعماء البابيين، وتسوقهم إلى التحقيق، فقتل من قُتِل ونُفي من نُفي، وكان من بين زعمائهم في هذا الوقت - وقت الاضطهاد - ميرزا حسين علي الملقب فيما بعد: «بهاء الله».

● بهاء الله :

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هـ، وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة في وقته، فلما قام الباب واشتهر أمره صدّقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هـ، وهي محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قُبِض على بهاء الله وسُجِن نحو أربعة أشهر، ثم أُفْرِج عنه وأُبعِد إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هـ، ومكث بها اثني عشر عاماً، يدعو الناس إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعد به الذي أخبر عنه الباب، وكان يشير إليه بلفظ: «مَنْ يظهره الله»، وهناك تجمع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين، وتسموا حينئذٍ بالبهايين، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تفضي إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية في ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة، فأرسل إليها ومكث بها نحواً من أربعة أشهر، ثم نُفي إلى أدرنة^(١) ومكث بها نحواً من خمس سنوات، ثم نُفي منها إلى عكا من بلاد الشام سنة ١٣٨٥ هـ، وبقي بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هـ، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس (المولود سنة ١٨٤٤ والمتوفى سنة ١٩٢١) والملقب

(١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه يحيى الملقب بـ «صبح أزل» - وكان ممن رفض دعوى أخيه. وأتباعه يعرفون بـ «الأزلية» - فتنة في أدرنة، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا، ونفت يحيى وأتباعه إلى قبرص.

«عبد البهاء» فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف فيه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتباع البهاء فانشقوا عليه، والتف فريق منهم حول أخيه الميرزا عليّ، وألّفوا كتاباً في الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء (١).

● الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى:

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريباً، فإننا نجد لها ليست بالفرقة المحدثّة في عقائدها وتعاليمها، بل هي في الحقيقة ونفس الأمر وليدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمة. وآراء فلسفية، ونزعات سياسية. ثم درجت تحذو وحذو الباطنية الأوّل، وترسم خطاهم في كل شيء، وتهذى في كتاب الله، فتأولته بمثل ما تأولوه: لتصرف عنه قلوباً تعلقت به ونفوساً اطمأنت إليه.

والذي يقرأ تاريخ الباطنية الأوّل، ويطلع على ما في كتبهم من خرافات وأباطيل، ثم يقرأ تاريخ البابية والبهائية، ويطلع على ما في كتبهم من خرافات وأباطيل، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح الباطنية حلّت في جسم ميرزا عليّ، وميرزا حسين عليّ، فخرجت للناس أخيراً باسم البابية والبهائية.

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وينفذون إلى عقول العامة بإظهارهم الحب والتشجيع، بل والانتساب إلى آل البيت، ثم يصلون إلى أهوائهم ومآربهم بصرفهم القرآن إلى معان باطنية لا يقبلها العقل، ولا تمت إلى الدين بسبب، وعلى هذا الأساس قامت دعوة البابية والبهائية، وبمثل هذه الوسيلة وصلوا إلى أغراضهم وأهوائهم، وإليك ما يوضح ذلك:

أولاً: في الباطنية من يدعى النبوة لنفسه أو يدعيها لغيره، وميرزا عليّ الملقب بالباب يدعى أنه رسول للناس من قبل الله تعالى، وله كتاب اسمه «البيان» ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى. وقد جاء في رسالة بعث بها الباب إلى العلامة الألوسي صاحب التفسير المعروف يدعو فيها إلى الإيمان به: «إني أنا عبد الله، قد بعثني بالهدى من عنده»، وسمى في هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال: «ومن لم يدخل في دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا في الإسلام» (٢).

ولا نعلم ماذا أجاب به الألوسي على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم رأيه في هذه الطائفة عندما تعرّض لتفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن

(١) لخصنا هذا البحث التاريخي من مقال لأبي الفضائل الإيراني منشور بمجلة المقتطف - الجزء التاسع - السنة العشرين، ومن مقال السيد محمد الخضر حسين منشور بمجلة نور الإسلام - مجلة الأزهر فيما بعد - العدد الخامس من السنة الأولى.

(٢) رسائل الإصلاح: ٣/ ٩٨

رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴿ [الأحزاب: ٤٠] ، وذلك حيث يقول: «وقد ظهر في هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، ولهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم في سلك ذوى العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم من العراق لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الانفاق، حيث خذلهم - نصره الله - وشتت شملهم، وغضب عليهم - رضى الله تعالى عنه - وأفسد عملهم. فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه فى الدارين ضيماً وضيراً» (١)

وكذلك ادعى زعيمهم الثانى الملقب ببهاء الله: أنه رسول من عند الله، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، وبين أيدينا كتاب بهاء الله، ويطلق عليه اسم «الكتاب» قرأنا فيه فوجدناه يقول: «لعمركم إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذى أنطق الأشياء بذكره وثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقدر المختار» (٢)

«لعمري ما أظهرتُ نفسى، بل الله أظهرنى كيف أراد، إنى كنت كأحد من العباد، وراقداً على المهاد، مرت على نسائم السبحان، وعلمنى علم ما كان. ليس هذا من عندى بل من لدن عزيز عليم، وأمرنى بالنداء بين الأرض والسماء، بذلك ورد على ما ذرفت به دموع العارفين. ما قرأت ما عند الناس من العلم، وما دخلت المدارس، فاسأل المدينة التى كنت فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين» (٣)

«قل قد أتى المختار، فى ظل الأنوار، ليحيى الأكوان، من نفحات اسمه الرحمن، ويتحد العالم، ويجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء» (٤)

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكاماً خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل الصوم تسعة عشر يوماً من شروق الشمس إلى غروبها، وعيّن لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى . بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم «النيروز» على الدوام، وفى كتاب «البيان»:

« . . أيام معدودات . وقد جعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها» (٥)

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، ويقرر ذلك فى كتابه فيقول: «لو كان القديم هو المختار عندكم، لما تركتم ما شرع فى الإنجيل، بينوا يا قوم . . لعمري ليس لكم اليوم من محيص . إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله، ومن قبله الروح، ومن قبله الكليم . وإن كان هذا ذنبى إعلاء كلمة الله وإظهار أمره، فأنا أول المذنبين . لا أبدل هذا الدين بملكوت السموات والأرضين» (٦)

(١) روح المعانى: ٣٩/٢٢ . (٢) الكتاب ص ٧ (٣) المرجع السابق ص ٩

(٤) نفس الرجوع ص ٣٥ (٥) رسائل الإصلاح: ٩٩/٣ (٦) كتاب بهاء الله ص ٣٩

وقرر البهاء أن الدين قسمان: عملي وروحاني، فالقسم الروحاني - وهو مظاهر الألوهية والنبوة - غير قابل للتبديل. والقسم العملي - وهو المتعلق بالصور والأشكال الخارجية - قابل للتغيير، وعلى هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات في اليوم والليلة، وجعل قبلتهم في الصلاة أين يكون هو!! وفي هذا يقول: «إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطري الأقدس»^(١).

وسوي بين الرجل والمرأة في الحقوق الشرعية والسياسية، وقرر عقوبات مالية للزنا والسرقه وغيرهما، ومنع التسري، وحرّم الزواج بأكثر من واحدة وقيد لهم الطلاق وصعبه، وحجته في هذا كله: أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالم، فلا بد من دين جديد يوافق هذا العصر.. عصر التقدم المادي العظيم. وهذا الدين الذي جاء به هو الذي يصلح في نظره لمساييره هذا العصر دون غيره^(٢).

ثانيا: منع الحسن بن الصباح وغيره من زعماء الباطنية، العوام من دراسة العلوم، والخواص من النظر في الكتب المتقدمة. وفعل الباب مثل ذلك فحرم في كتابه (البيان) التعليم وقراءة كتب غير كتبه، فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم، وما في أيديهم من كتب العلم، ولكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته، فنسخ ذلك التحجير، وذلك حيث يقول في كتابه المسمي بـ (الأقدس): «قد عفا الله عنكم ما نزل في البيان من محو الكتب، وأذنا لكم أن تقرأوا من العلوم ما ينفعكم»^(٣).

ثالثا: من الباطنية من يدعي حلول الإله في بعض الأشخاص، كالقرامطة الذين يدعون حلول الإله في إمامهم محمد بن إسماعيل. ونجد مثل هذه الدعوي متجلية في بعض مقالات البابية، فهذا بهاء الله يقول في (الكتاب): «لنا مع الله حالات نحن فيها هو، وهو نحن، ونحن نحن»^(٤).

وهذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجيء رب الجنود والأب الأزلي، ومخلص العالم الذي لا بد منه في آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه في الهيكل البشري، كما تجلي في هيكل عيسى الناصري، إلا أن تجليه في هذه المرة أتم وأكمل وأبهي، فعيسى وغيره من الأنبياء هيأوا الأفتدة والقلوب لاستعداد هذا التجلي الأعظم»^(٥).

(١) رسائل الإصلاح: ٣/ ٩٩.

(٢) انظر مقال أبي الفضائل في المقتطف - العدد التاسع من السنة العشرين، وانظر المحاضرة التي ألقاها عبد العزيز نصحي عن البهائيين بدار جمعية الهداية الإسلامية.

(٣) رسائل الإصلاح: ٣/ ١٠٠. (٤) الكتاب ص ٣٣. (٥) رسائل الإصلاح: ٢/ ١٠٠.

يريد بهذا: أن الله تجلي فيه بأعظم من تجليه في أجسام الأنبياء علي ما يزعم. وهذا أبو الفضل الإيراني أحد دعواتهم يقول: (... فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويسند إلي الله من العزة، والعظمة، والقدرة، والعلم، والحكمة، والإرادة، والمشية، وغيرها من الأوصاف، إنما يرجع بالحقيقة إلي مظاهر أمره، ومطالع نوره، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره)^(١) ... ومثل هذا كثير في كلام زعمائهم ودعاتهم.

رابعا: يدعي الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، ويحصرّون مدارك الحق في أقواله. والبهائية يقولون هذا القول ويثبتونه في كتبهم. يقول بهاء الله في (الكتاب): (يسند القائم ظهره إلي الحرم، ويمد يده المباركة، فترى بيضاء من غير سوء، ويقول: هذه يد الله، ويمين الله، وعين الله، وبأمر الله أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة، ظاهري إمامة، وباطني غيب لا يدرك)^(٢). وقد عرفت أن البابية والبهائية يعبرون عن الإمام المعصوم بـ (من سيظهره الله)، ويزعمون أنه هو الذي يعرف تأويل ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

خامسا: من مبادئ قدماء الباطنية التفرس. وعلي هذا المبدأ منعوا التكلم بأرائهم في بيت فيه سراج - أي فقيه أو متعلم - والبهائية يسيرون علي هذا المبدأ وإليك ما يثبت ذلك:

أرسل إلي أبي الفضائل الإيراني بعض إخوانه كتابا يرجوه فيه أن يرد علي مقال كتبه جرجس صال الإنجليزي بإمضاء هاشم الشامي، والمقال يتضمن توجيه الاعتراضات علي فصاحة القرآن الكريم، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك في رسالة أرسل بها إلي صاحبه يقول فيها:

« ... إن هناك موانع جمّة، أعظمها وأشدّها مانع كبير لا يستسهل العاقل تدليل صعوباته، ولا يتسّم النبيه متن صهواته، حيث إن قلوب الذين اكتفوا من الإسلام باسمه، ومن القرآن برسّمه، تغذت في مدة مديدة، وأزمنة غير وجيزة بقشور المطالب، وألفت سفاسف المسائل حتي بعدت عن لباب الكتاب، وجعلت حقيقة معاني الخطاب، فلو كشفنا عن حقائق الإشارات، وأظهرنا المعاني المقصودة من ظواهر العبارات، فطلعت صور الحقائق المقصورة في قصر الآيات، وتهللت وجوه المعاني المستورة في خدور الاستعارات، لندفع تلك الردود والاعتراضات ونظهر بطلان تلك الإيرادات والانتقادات، تثور أولا أحقاد جهلائنا، ويرتفع نعيب سفهائنا، وينادون بالويل والثبور، ويثيرون الأحقاد الكامنة في الصدور... ».

(٢) الكتاب ص ٨٣.

(١) رسائل الإصلاح: ١٠٠/٢.

ثم يقول لصاحبه في آخر الرسالة: «... لتعلم حق العلم أنني ما نسيت ولم أكره صفة من صفاتك، ولا خلة من خللك، ولكن - والحق يقال - إنك نسيت وصية روح الله الواردة في سفر متي: «لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنازير» حيث تجاهر بجواهر الأسرار ومعالي المعاني، عند من لا يستحق أن تخاطبه وتلاطفه، وتجالسه وتؤانسه، فكيف أنه يكون مستودع الحكمة الإلهية والأسرار الربانية، فتمسك بالحكمة، وكن علي جانب عظيم من الفطنة»^(١).

ويقول في رسالة أرسلها إلي الشيخ فرح الله زكي الكردي أحد اتباعهم في مصر: «... واعلم يا حبيبي أنه سيدخل عليكم كثيرون، ويتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث، ويظهرون السلم والوفاق، وهم أهل النفاق وأصل الشقاق، ومقصودهم معرفة أهل الإيمان، وإضطهاد أصحاب الإيقان كما تصرح وتنادي أي الفرقان: منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾... إلي آخر الآيات [الحديد: ١٣ - ١٥]، فتحكم الآية المباركة أنه لا بد من دخول أهل النفاق علي أصحاب الوفاق، للاستطلاع والاستراق، فلا يغرنك تحببهم وترفقهم، ولا يخذعنك ملاينتهم وتملقهم، فإن التهور والتعجيل يوجب الندم والافتضح، والتروي يكفل النجاح والفلاح. ومن الحكم المأثور: «العجلة من الشيطان، والتأني من الرحمن»^(٢).

من كل ما تقدم، يظهر لنا بوضوح: أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة في تعاليمها ومعتقداتها، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الديني، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن - علاوة علي ما سبق - أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول، ويترسمون خطاهم في تحريفهم لكتاب الله، والعبث بآياته!!^(٣).

● موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم:

لم تحل عقائد البابية والبهائية بينهم وبين الاعتراف بالقرآن الكريم، ولم يمنعهم موقفهم الشاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد علي دعاوهم الباطلة، ومذاهبهم الفاسدة، تمويها علي العامة، وتغريرا بعقول الأغمار الجهلة.

(١) رسائل أبي الفضائل ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) رسائل أبي الفضائل ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٣) انظر إنتاج البابية والبهائية في التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة: (التفسير

والمفسرون): ١٩٦/٢ وما بعدها.

● أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السنة:

ولم يكن في وجوههم قطرة من الحياء تمنعهم من التنديد بتفاسير علماء أهل السنة وتحقيرها، فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيراني، نجده في رسالة أرسلها لصديق له، يعيب علي تفاسير أهل السنة فيقول: «... ولقد يدهش الإنسان ويتحير يا حبيبي من تعاليمهم الباطلة، وتفاسيرهم المضحكة، فإن أحياءنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود علي الأرض المقدسة في هذه الأيام الأخيرة، قابلناهم في بيروت، وسافرنا معهم إلي الأرض الفيحاء مدينة حيفا، أخبرونا بما يتحير منه الأريب، ويدهش منه اللبيب، كيف تقدمت كلمة الله في تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة، من النفوس الجاهلة الخادعة... أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشديد قوته؟ وسطوع آياته وظهور بيناته» (١).

يعيب أبو الفضائل تفسير أهل السنة، لأنه يري في زعمه أنه وأهل نحلته خير من يفهم القرآن، ويعلم ما فيه من أسرار ورموز، ويرى أنه ومن شاكلة هم الراسخون في العلم، الذين يقفون علي عجائب القرآن التي لا يدل عليها إلا باطنه، أما ما يعني به مفسرو أهل السنة من الظواهر فليس في زعمه من المعاني التي يرمي إليها القرآن، وفي هذا يقول ما نصه: «... لو كان معاني آيات القرآن ما هو ظاهر يعرفه كل من يعرف اللغة العربية، ويتلذذ منه كل من له إلمام بالعلوم الأدبية، كيف يتم هذا القول - يريد قول رسول الله ﷺ في شأن القرآن: (إنه لا تنقضي عجائبه) - وكيف يصدق قول الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]» (٢).

● الزيدية - وموقفهم من التفسير والقرآن الكريم:

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، وبين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من خلاف بين الإمامية وجمهور أهل السنة، والذي يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرق الشيعة إلي مذهب أهل السنة، وما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكاد يذكر.

يري الزيدية: أن علياً أفضل من سائر الصحابة، وأولي بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ويقولون: إن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج للإمامة صحت إمامته، ووجبت طاعته، سواء أكان من أولاد الحسن، أم من أولاد الحسين، ومع ذلك فهم لا يتبرأون من الشيخين، ولا يكفرونهما، بل يجوزون إمامتهما، لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية،

(١) رسائل أبي الفضائل ص ٦٦.

(٢) رسائل أبي الفضائل ص ٧٦، وانظر التفسير والمفسرون: ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٥.

والعصمة للأئمة، واختفائهم ثم رجوعهم في آخر الزمان. وغير ذلك من خرافات الإمامية ومن علي شاكلتهم.

وكل الذي نلحظه علي الزيدية، أنهم يشترطون الاجتهاد في أئمتهم، ولهذا كثر فيهم الاجتهاد. وأنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت. والذي يقرأ كتاب (المجموع) للزيدية يري أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد ابن علي زين العابدين، عن آباءه من الأئمة، عن رسول الله ﷺ وليس فيه بعد ذلك حديث يروي عن صحابي آخر من غير أهل البيت رضي الله عنهم.

كما نلاحظ علي الزيدية أيضا أنهم تأثروا إلي حد كبير بآراء المعتزلة ومعتقداتهم، ويرجع السرفي هذا إلي أن إمامهم زيد بن علي، تتلمذ علي واصل بن عطاء كما قلنا ذلك فيما سبق.

إذن فلا نطمع بعد ذلك أن نري للزيدية أثرا مميزا، وطابعا خاصا في التفسير كما رأينا للإمامية، لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسره، ويتخذ له طابعا خاصا واتجاها معينا، حينما يكون لصاحبه طابع خاص واتجاه معين، وليست الزيدية - بصرف النظر عن ميولهم الاعتزالية - بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السنة، وعقائدهم، حتي يكون لهم في التفسير خلاف كبير^(١).

* * *

(١) التفسير والمفسرون: ٢/٢٠٧، وأنظر: أهم كتب التفسير عند الزيدية ص ٢٠٧ وما بعدها من هذا الجزء نفسه.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سنة ١٩٦٥

كتاب: أحوال النادريل : طبع منشورات دار النشر ببيروت
تأليف: إلهي الإسلاميلي : إنضامه سه ميون بتميم الميرضي ، -
قاضي قضاء الدولة العامة لجنوبي طرابلس وشرقها وشرقها من
قال عنه الكتاب: الأستاذ الفاضل في فقهنا (إنه - أستاذنا النادريل - الكتاب له جهد
فيه مجموع المؤلفات الإسلامية الذي يعالج موضوعاً معيناً هو النادريل (والفخر بنفسه
الذي يمثل فكرة الجاهلية بهذا العلم شيئاً مننا مفضولاً ، ويرضنا عرضاً وقسطاً
منضماً) ... ثم قال « لقد كان النادريل في عهد الدعوة الإسلامية المبكر
وإن إياه ازدهارها الموضوع الرئيسي لكل فكرة فلسفية بالهنية ، والسيطرة التي تمت
وتعرفنا ثم نخرج منو أكثر من الأفضال ، أو لطفه أضحى : الإسلام الذي نرتز على رعا
لغته الدعوة الفكرة ، وإفكار الذي نؤمن لفضله بالهنية ، بالعلم والمعرفة وإيمانه
والذي هذا كله اعتبر كتاباً أحوال النادريل « لدى الإسلاميين من السبب الثمينة ، والذخائر
الغالية التي نضمنها لغيرها بما ندينه بالهناظر على سببنا وكلماته تعالى ، ولله ربح
منع شرايع المواد الفعالة التي وردت فيه لغيرهم من غير الإسلاميين ، وكل هذا يعتبر من الصدق
ومفاتيح باب المعرفة ، رضا فأل ذلك أنه في الكتاب أودع بعض النادريل التي وردت في الكتاب لنعلم
بمنهذة الوزارة ، والناظرين ، فكل هذا كما به يشهد من منوعاً في هذه القضية بالهناظر على
أحواله العامة مما يمنع منه لخاصة المنزلة لدى طبقنا العامة إذ هم من اعتبارنا بأنهم لم يبالوا
منه لتقارير الأفتورها ، ومنه يعلم بالهناظرها » ص ٦١
« قد يكون من الواضح أنه النادريل مفاد الأفضل لدى الإسلاميين فينبغي عند التفسير بعينه
الصحيح الذي العامة الغرض الإسلامي - الميرضي ، والتفسير معناه جهادنا الفاضل لكل كلمة غامضة

مأمونة هنة

القسم الرابع منه

في آخر الكتاب مزاج لتسليم ^{توجه} حروف اللبابة السرية وما يقابلها
من الحروف العربية على النحو الآتي :

ن	ط	م	ح	م	ا	ل	ع	ص	هـ	ك	هـ	پ	(١)
ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	ذ	ر	ز	س	ش	ص	من
٨	(١)	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	٠	٩	٨	٧	
ظ	ع	ف	ق	ك	ل	م	ن	هـ	و	ي	لا		

وبناءً على ذلك فكل لرموز الموجود بالكتاب ^{استناداً} من أول حورة يونس إلى
آخر ما وصل إليه من حورة العنكبوت . وقد وضعنا فكل لرموز
بالأولى نقلاً عن مجلة ^{العلم} العدد ١٢٤٠ لرموز آخر للكتاب

سحر حيدر

بغداد ١٩٦٤/٥/٦

«بسم الله الرحمن الرحيم»

نقول منه كتاب الخافي لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق الطيفي بزازي
توفي ٤٤٨ هـ - ٤٤٩ هـ ، طبع إيران سنة ١٣٨١ هـ . الناشر مكتبة الصدوق

بجانب - الطيفي

روى عنه قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : مثل علم ابنه بشيرة عند البقرة
أما الذي روى في صحيحه لم يدرى من حفظه على عليه السلام بنده ، إنه لم يدرى لم يدرى لأحد
طيفي ، فمما علم في الحديث والقرآن فإنه أصح الطيفي طيفي العالم بالاطراف فمما
يزيد الواسع الحجة والبرهان ، إنه عليه السلام لا يضاهي الطيفي ، وهو صاحب العلم

علم على من علم

ويشده إلى سليم بن يقين السواداني قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إلى سمعت
عنه حكاية في مقدار أنوار ذرة شمساً منه تفسير القرآن ، وأخبرني عنه عن الله صان للوحي عليه السلام
غير طاعة أيدي الناس ، ثم سمعت منك تصديقه ما سمعت منكم ، وأنت في أيدي الناس
أشياء كثيرة منه تفسير القرآن ومنه الأحاديث منه النبي صلى الله عليه وسلم ، أنتم تحالفونهم فيهم
ومنهم من أدرك ذلك كله ، بل ، «أقرى الناس بكذبونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم منتمين»
وتفسرون القرآن بأرائهم ؟ فقال : فما قبل على فقال : قد خالت فافهم الجواب :
إنه في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذباً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ،
ومكافئاً ومساوياً ، ومنظراً ودهماً ، وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم على غيره ...
في ربه ١٠٥٦ هـ ، وقد كنت أدخل على من خلفه صلى الله عليه وسلم كل يوم دخلت وكل ليلة

لله يدرى كونه كتاب طيفي

✓ ✓

(وفي سورة الزمر ان عند قول تعالى يا ايها الذين آمنوا قولوا لله اعترافا - فلو كان الله اعترافا
 عنده لكانت آية في سورة الزمر - كل نفس بما كسبت رهينة - الى قول (الم الله اعترافا لله)
 روي عنه ابي عبد الله عليه السلام انه قال: «انهم ليعرفون مختلفا» اختلفت ولايته هذه
 البرائة بينهم استقام عمل ولايته على دخل الجنة وسد فالف ولايته على دخل النار
 واما قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» قال يعني بالياء «سه امله عنه ولايته اقله
 عنه الجنة» فذلك قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» (الوجه ص ١٠٤)
 وعند قوله تعالى في سورة الزمر (كل نفس بما كسبت رهينة) الى قول (الم الله اعترافا لله)
 روي عنه ابي عبد الله عليه السلام انه قال: «انهم ليعرفون مختلفا» اختلفت ولايته هذه
 البرائة بينهم استقام عمل ولايته على دخل الجنة وسد فالف ولايته على دخل النار
 واما قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» قال يعني بالياء «سه امله عنه ولايته اقله
 عنه الجنة» فذلك قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» (الوجه ص ١٠٤)
 وعند قوله تعالى في سورة الزمر (كل نفس بما كسبت رهينة) الى قول (الم الله اعترافا لله)
 روي عنه ابي عبد الله عليه السلام انه قال: «انهم ليعرفون مختلفا» اختلفت ولايته هذه
 البرائة بينهم استقام عمل ولايته على دخل الجنة وسد فالف ولايته على دخل النار
 واما قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» قال يعني بالياء «سه امله عنه ولايته اقله
 عنه الجنة» فذلك قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» (الوجه ص ١٠٤)
 وعند قوله تعالى في سورة الزمر (كل نفس بما كسبت رهينة) الى قول (الم الله اعترافا لله)
 روي عنه ابي عبد الله عليه السلام انه قال: «انهم ليعرفون مختلفا» اختلفت ولايته هذه
 البرائة بينهم استقام عمل ولايته على دخل الجنة وسد فالف ولايته على دخل النار
 واما قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» قال يعني بالياء «سه امله عنه ولايته اقله
 عنه الجنة» فذلك قوله «لو افلح عنه سد اعلمه» (الوجه ص ١٠٤)

مرحوم الكلب كذا في الشريعة - بعد اذ ١٣٦٤

١ - نُقول عن كتاب (أساس التأويل)
 طبع منشورات دار الثقافة ببيروت، تأليف الداعي
 الإسماعيلي: التعمان بن حيون التميمي المغربي،
 قاضي قضاة الدولة الفاطمية المتوفي سنة ٣٦٣هـ
 • مؤلف الكتاب:

هو محمد التعمان بن منصور بن أحمد بن حيان التميمي، القاضي، الذي اشتهر بأبي حنيفة الشيعة... كان في أول الأمر يتبع مذهب مالك، ثم التحق بالإمامية الإثني عشرية^(١) وانتقل إلي الفاطميين^(٢)، فجاء من إفريقية إلي مصر مع المعز لدين الله الفاطمي^(٣) (المتوفي سنة

(١) الإثنا عشرية، أو الإمامية: اسم يطلق علي إحدي فرق الشيعة لقولهم بإثني عشر إماما أولهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم انتقلت إلي ابنه الحسن بن علي، ثم إلي أخيه الحسين ابن علي، ثم إلي ابنه علي زين العابدين، ثم إلي ابنه محمد الباقر، ثم إلي ابنه جعفر الصادق، ثم إلي ابنه موسي الكاظم، ثم إلي ابنه علي الرضا، ثم إلي ابنه محمد الجواد، ثم إلي ابنه علي الهادي، ثم إلي ابنه الحسن العسكري، ثم إلي ابنه محمد المهدي المنتظر - وهو الإمام الثاني عشر ويزعمون أنه دخل سردابا في دار أبيه - (سر من رأي) ولم يعد بعد، وأنه يخرج في آخر الزمان، ليملا الدنيا عدلا وأمانا كما ملئت ظلما وخوفا... وقد أصبحت الإثنا عشرية مذهب الدولة في إيران منذ عهد الصفويين وانتشرت في جميع أنحاء العالم الإسلامي (البلتاجي).

(٢) الفاطميون: سلالة تنتسب إلي علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، أنشأوا دولة قامت أول أمرها في تونس عام ٢٩٧هـ، ثم أخضعت الشمال الإفريقي كله ثم مصر في عهد المعز لدين الله الذي مد حدود الدولة علي شواطئ الأطلسي، وبسط نفوذه علي سوريا وفلسطين ولبنان، ومؤسس هذه الدولة هو عبيد الله بن المهدي (من ٢٩٧ - ٣٢٢هـ) ثم تولي بعده القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ)، ثم المنصور (٣٣٤ - ٣٤١هـ)، ثم المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ)، ثم العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ)، ثم الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ)، ثم الظاهر بالله (٤١١ - ٤٢٧هـ)، ثم المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ)، ثم المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥هـ)، ثم الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٥هـ)، ثم الحافظ لدين الله (٥٢٥ - ٥٤٤هـ)، ثم الظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٥٩هـ)، ثم الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٥هـ)، وانتهت دولتهم بنهاية حكم العاضد لدين الله (٥٥٥ - ٥٦٧هـ) (البلتاجي).

(٣) المعز لدين الله الفاطمي: هو أبو تميم معد بن المنصور (٣١٩ - ٣٦٥هـ) رابع الخلفاء الفاطميين، خلف أباه المنصور (٣٤١هـ)، ولد في المهديّة، ووطد سلطان الدولة فانقادت له بلاد إفريقية كلها، احتل قائده (جوهر الصقلي) الفسطاط عام ٣٥٩هـ، وأسس القاهرة التي غدت عاصمة الفاطميين بعد أن استخلف بلكين بن زيري علي إفريقية، وانتقل إلي مصر، واستولي علي طرابلس وبيروت، وهزم الإمبراطور البيزنطي يوحنا بن شمشيق، شجع العلم والعلماء وأنشأ الأزهر (البلتاجي).

٣٦٥هـ) وتولي القضاء بمصر، وتوفي بها في أواخر جمادي الثانية سنة ٣٦٣هـ (١).

وله: دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضاء والأحكام عن أهل بيت رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الأساسي في الفقه والكلام عند الإسماعيلية (٢)، (٣).
قال محقق الكتاب - الأستاذ عارف تامر - في مقدمة (أساس التأويل): (ترددت

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار (٣/٣٤١)، ويراجع في ترجمته ابن خلكان ص ٧٣٧، وروضة الجنان للخوانساري: ٢/٢١٩ (الذهبي).

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، مرجع سابق: ٣/٣٤١، (الذهبي).

(٣) الإسماعيليون: هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه، ويرون أن الإمامة انتقلت إليه بالنص من أبيه علي ذلك، ويقولون: وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة في عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلي ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعده تتابع أئمة مستورون إلي أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدي رأس الفاطميين (البلتاجي).

ويقول الدكتور محمد حسين الذهبي - رحمه الله - في (التفسير والمفسرون) ٢/٩ - ١٠:
(ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لقبوا بسبعة ألقاب، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم وهذه الألقاب هي: الإسماعيلية: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق - كما قلناه والباطنية: لقولهم بالإمام الباطن - أي المستور، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، والمراد منه باطنه دون ظاهره، والقرامطة: لأن أولهم الذي دعا الناس إلي مذهبهم رجل يقال له (حمدان قرمط) والخرمية: لإباحتهم المحرمات والمحارم، والسبعية: لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ومحمد المهدي المنتظر (سابع النطقاء)، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، ولا بد في كل عصر من سبعة بهم يقتدي وبهم يهتدي، والبابكية أو الخرمية: لاتباع طائفة منهم بابك الخرمي الذي خرج بأذربيجان، والمحمرة: للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم: حميرا...).

ثم يقول رحمه الله: (وقبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبي المظفر الإسفرائيني في كتابه (التبصير في الدين) قال رحمه الله: (واعلم أن الزيدية والإمامية منهم، يكفر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة، والكيسانية يعدون في الإمامية، واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون علي تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غير عما كان ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النص علي إمامة علي فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنه لا اعتماد علي القرآن الآن ولا علي شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد علي الشريعة التي في أيدي المسلمين، وينتظرون إماماً يسمونه (المهدي) يخرج ويعلمهم الشريعة، وليسوا علي شيء من الدين، وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام في الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتي يتوسعوا في استحلال المحرمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغيير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد علي هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه علي شيء من الدين) (أهل التبصير في الدين ص ٢٤ - ٢٥).

كثيرا قبل أن أقدم علي دفع هذا الكتاب إلي الطبع، وما ذلك إلا لرغبتني التامة في الإبقاء عليه مدة أطول في كهف التقية^(١) بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الأخرى التي لم يحن وقت نشرها وتعميمها بعد).

(ص ٥)

● ثم قال في مقدمته :

(إنه - أي أساس التأويل - الكتاب الوحيد بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الذي يعالج موضوعا معيناً هو (التأويل) والسفر النفيس الذي يمثل الفكرة الأساسية لهذا العالم تمثيلاً متزنًا معقولاً، ويعرضها عرضاً دقيقاً مفصلاً) (ص ٥)

● ثم قال :

(لقد كان التأويل في عهد الدعوة الإسماعيلية المبكر وفي إبان ازدهارها هو الموضوع الأساسي لكل فكرة فلسفية باطنة، والشجرة التي نمت وترعرعت ثم تفرع منها الكثير من الأغصان، أو بلغة أصح: الأساس الذي تركزت عليه هذه الدعوة الفكرية، والغذاء الذي مون الفسلفة الباطنية بالحكم والمنطق والبيان، ولأجل هذا كله اعتبر (أساس التأويل) لدي الإسماعيلية من الكتب الثمينة، والذخائر الغالية التي تقضي تعاليمها العقائدية بالمحافظة علي سرية وكتمان تعاليمه والسهر علي منع تسرب المواد العقائدية التي وردت فيه لمن هم من غير الإسماعيليين، وكان هذا يعتبر

(١) التقية لغة: الحذر والخوف، أو الكتمان، واصطلاحاً: ترك بغض الفرائض في حالة الإكراه أو التهديد بالإيذاء، وليس للتقية شأن خطير عند أئمة أهل السنة، ولكن لها شأن خاص عند الشيعة، وهي في الحقيقة صفتهم المميزة، وتقوم التقية علي النية، لذا تجدهم يشيرون دائماً إلي النية في هذا المقام، فالشهادة - بوصفها أهم الفرائض - لا تقوم بصحة الجهر بها فقط، وإنما تقوم بالنية ومن هنا لا يحاسب المسلم إلا علي نيته إذا أكره علي الكفر بلسانه أو التعبد مع الكفار، ولا يمكن أن تمس التقية إلا حق الله تعالي فهو يعاقب المكره - بكسر الراء - ولا ينزل المكره بفتحها - إلا عقاباً رحيماً في بعض الأحوال.

ويقول الحنفية: (إن التقية رخصة من الله تعالي، وتركها أفضل فلو أكره علي الكفر فلم يفعل حتي قتل فهو أفضل ممن أظهر، وكذلك كل أمر فيه إعزاز للدين، فالإقدام عليه حتي يقتل أفضل من الأخذ بالرخصة).

ولما كانت الشيعة فئة قليلة مضطدة في أغلب أحيانها، فقد كان الاستتار سمة لهم (البلتاجي) ويقول الدكتور الذهبي: (التقية معناها المدارة والمصانعة، وهي مبدأ أساسي عندهم، وجزء من الدين يكتمونونه عن الناس، فهي نظام سري يسيرون علي تعاليمه، فيدعون في الخفاء لإمامهم المختفي ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوا ثورة مسلحة في وجه الدولة القائمة الظالمة).

سر العقيدة ومفتاح باب الدعوة، مضافا إلي ذلك أن في الكتاب تأويلا لقصص الأنبياء التي وردت في الكتب السماوية الثلاث: التوراة، والإنجيل، والقرآن، فكل هذا يشكل موضوعا تقضي العقيدة بالمحافظة علي أسراره التامة مما يخرج عن نطاق المفهوم لدي طبقات العامة الذين اعتبروا بأنهم لم ينالوا من الثقافة إلا قشورها، ومن العلوم إلا ظاهرها). (ص ٥-٦).

● وقال:

(قد يكون من الواضح أن التأويل بمعناه الواقعي لدي الإسماعيليين يختلف عن التفسير بمعناه الصحيح لدي عامة الفرق الإسلامية الأخرى، فالتفسير معناه جلاء المعني لكل كلمة غامضة لا يفهم معناها القارئ، فإذا سئلنا مثلا ما هو تفسير كلمة: (شجرة)؟ أجبناه: أنها نبتة تغرس صغيرة، ثم تنمو فيتفرع منها جذوع وأغصان ينبت عليها ورق أخضر، وفي الربيع تحمل أزهارا لا تلبث بعد ذلك حتي تعقد ثمرا طيبا... إلخ.

أما إذا قلنا: ما هو تأويل كلمة: (شجرة)؟ فنجيب: بأن ذلك يتبع رأي المسئول المباشر عن التأويل، قد يقول: إنها حجرة، أو بقرة، أو صخرة، أو غير ذلك مما يجب أن يتلاءم مع الحقيقة والواقع والعقل، فلا يكون غريبا عن التصديق، ولا بعيدا عن الفكر.

إذن فالتأويل هو باطن المعني أو رمزه أو جوهره، وهو حقيقة مستترة وراء لفظة لا تدل عليها... ومن هنا أعطي النظام الإسماعيلي الفكري صلاحية التفسير للناطق، ووهب صلاحية التأويل للإمام، فالأول اعتبر يمثل الشريعة والأحكام والفقه والقانون الظاهر، والثاني يمثل الحقيقة والتأويل والفلسفة والباطن» (١) (ص ٦-٧).

(١) يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: (وإذا نحن أجلنا النظر في مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام في الرأي والعقيدة، فبيننا نجد الغلاة الذين رفعوا عليا إلي مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون عليا أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق بالولاية وأولي بها من غيره فحسب، ونجد من يقف موقفا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء فلا هو يؤله عليا، ولا هو يري أنه بشر يخطئ ويصيب، بل يري أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ غير منازع ولا مدافع وإن غلب علي أمره واغتصبت الولاية منه.

ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلي حزبين أو ثلاثة، بل تفرقت بهم الأهواء - كما قلنا إلي حد الكثرة في التحزب، وكان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ورأى خاص لا يقول به سواه.

وكان طبيعيا - وكل حزب من هذه الأحزاب يدعي الإسلام ويعترف بالقرآن ولو في الجملة -

أن يبحث كل عن مستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص علي أن يكون القرآن شاهدا له لا عليه فما وجدته من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلا علي مذهبه تمسك به، وأخذ في إقامة مذهبه علي دعامة منه. وما وجدته مخالفا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقا لا مخالفا، وإن أدي هذا كله إلي خروج اللفظ القرآني عن معناه الذي وضع له وسبق من أجله، وإليك طرفا من تأويلات هؤلاء الغلاة.

– من تأويلات السبئية (أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام وغلا في حب علي حتي جعله نبيا، ثم بالغ في الغلو حتي جعله إلهيا، وزعم أنه لم يقتل ولكنه رفع إلي السماء): نجد بعض السبئية يزعم أن عليا في السحاب، وعلي هذا يفسرون الرعد بأنه صوت علي والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمدا ﷺ سيرجع إلي الحياة الدنيا، وتأول علي ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

– من تأويلات البيانية (أتباع بيان بن سمعان التميمي، وهم الذين زعموا أن الإمامة صارت من محمد ابن الحنفية إلي ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبي هاشم إلي بيان ابن سمعان بوصيته إليه. واختلف هؤلاء في (بيان) – زعيمهم – فمنهم من زعم أنه كان نبيا، وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ. ومنهم من زعم أنه كان إلهيا): نجد بيان بن سمعان التميمي زعيم البيانية، يزعم أنه هو المذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ويقول: أنا البيان: وأنا الهدى، والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفني كله غير وجهه، ويتأول علي زعمه هذا قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَنْ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧].

من تأويلات المغيرية (أتباع المغيرة بن سعيد العجلي. وكان يظهر في بدء أمره موالة الإمامية ثم ادعي النبوة. وادعي أنه يعرف الاسم الأعظم، وزعم أنه يحيي به الموتى ويهزم الجيوش): نجد المغيرة بن سعيد العجلي زعيم المغيرية يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجا علي رأسه، وتأول علي ذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وزعم أن (الاسم الأعلي) إنما هو ذلك التاج.... ويزعم المغيرة أيضا، أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد ﷺ. قال: فذلك قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].. قال: ثم أرسل ظل محمد إلي أظلال الناس، ثم عرض علي السموات والجمال أن يمنعن علي بن أبي طالب من ظلميه فأبين ذلك، فعرض ذلك علي الناس. فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة علي ومنعه من أعدائه، وأن يغدر به في الدنيا، وضمن له أن يعينه علي الغدر به، علي شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك. قال: فذلك تأويل قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبِينَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿ [الأحزاب: ٧٢] .. فرعم أن الظلوم والجهول : أبو بكر.
وتأول في عمر قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ ﴾ [الحشر: ١٦] والشيطان عنده: عمر.

من تأويلات المنصورية (أتباع أبي منصور العجلي، الملقب بالكسف، الذي زعم أن الإمامة دارت في أولاد علي حتي انتهت إلي أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي المعروف بالباقر، وادعي هذا العجلي: أنه خليفة الباقر ثم أُلحد في دعواه) نجد أبا منصور العجلي زعيم المنصورية، والمعروف بالكسف، يزعم أنه عرج به إلي السماء، وأن الله تعالى مسح بيده علي رأسه وقال له: يا بني بلغ عني، ثم أنزله إلي الأرض، وزعم أنه الكسف الساقط من السماء المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور: ٤٤].

وتأولت هذه الطائفة الجنة بأنها رجل أمرنا بمولاته وهو الإمام، والنار بالضد، أي رجل أمرنا ببغضه وهو ضد الإمام وخصمه كآبي بكر وعمر وتأولوا الفرائض والحرمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أمرنا بمولاتهم، والحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم.

— من تأويلات الخطابية (أتباع أبي الخطاب الأسدي وهم خمس فرق، يقولون إن الإمامة كانت في أولاد علي إلي أن انتهت إلي محمد الحبيب — آخر الأئمة المستورين — ابن جعفر الصادق، ويقولون: إن الأئمة كانوا آلهة، وكان أبو الخطاب يقول في أيامه: إن أولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه، وكان يقول: إن جعفر إليه، فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده، وكان أبو الخطاب يدعي بعد ذلك الألوهية): نجد من الخطابية من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا، والنار بأنها آلامها.

ووجدنا منهم من يقول إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يوحى إليه، وعلي هذا المعني كانوا يتأولون قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ويقولون إن معناه يوحى من الله، ويقولون: إِذَا جَازَ أَنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ النُّجُومِ كَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَأُوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨].. لم لا يجوز أن يوحى إلينا؟

— من تأويلات العبيديين: نجد أبا إسحاق الشاطبي يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعي المسمي بالمهدي، حين ملك إفريقيا واستولي عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما علي أمره، وكان أحدهما يسمي بـ (نصر الله)، والآخر يسمي بـ (الفتح) فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكرهما الله في كتابه فقال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [البصير: ١].. قالوا: وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى، فبدل قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].. بقوله: (كتامة خير أمة أخرجت للناس).

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون يجدون في صرف اللفظ القرآني عن معناه الذي سيق له إلي معني يتفق مع عقيدتهم، ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم، وهم بعملهم هذا يحملون القرآن ما لا يحتمله، ويقولون علي الله بغير علم ولا برهان.

— كذلك نجد الإمامية الإثني عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم وهؤلاء ليس لهم في تفسيرهم المذهبي مستند صحيح يستندون إليه، ولا دليل =

● وقال :

« من المسلم به، أن التأويل من العلوم التي خص بها الإسماعيليون أئمتهم وسموا لأجله بالباطنية (١)، فقد جعلوا محمداً هو صاحب التنزيل للقرآن كما قلنا، وجعلوا علياً صاحب التأويل، أي أن القرآن أنزل علي محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس، أما أسراره التأويلية الباطنة فقد خص بها علي والأئمة من بعده، وقد أخذ الإسماعيليون بعض آيات القرآن الكريم دليلاً علي القول بوجوب التأويل، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، وكقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]، وكقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ...﴾ إلي قوله: ﴿أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾ [آل عمران: ٧] (ص ٧-٨).

● وقال :

« هناك أدلة عقلية علي وجوب التأويل أخذت من القرآن الكريم كقوله تعالي: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]. وكقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، وكل هذا يفسر أن الظاهر وجد للدلالة علي الباطن، وقد اعتبروه ممثلوا والظاهر مثلاً، والمؤيد في الدين داعي دعواتهم وفيلسوفهم الأكبر يقول في هذا الصدد: «خلق الله الأمثال والمثولات، فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثل، والدنيا مثل والآخرة ممثل». وقال أيضاً:

«اقصد حمي ممثوله دون المثل ذا إبر النحل وهذا كالعسل»

(ص ٨)

= سليم يعتمدون عليه وإنما هي أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، وخرافات صدرت من عقول عتش فيها الباطل وأفرخ، فكان ما كان من خرافات وترهات!! نعم.. يعتمد الإمامية الإثنا عشرية في تفسيرهم للقرآن الكريم ونظراتهم إليه، علي أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والخرافات التي لا توجد إلا في عقول أصحابها) (التفسير والمفسرون: ١٤/٢).

(١) الباطنية: هم الذين يأخذون بالمعني الباطن للقرآن ويجعلون لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلاً.. وأطلق المسلمون هذا الاسم علي فرق عديدة كان لها شأن سياسي، أهمها القرامطة، وهي حركة دينية سياسية اجتماعية لا تزال حقيقتها علي كثير من الغموض لانقراض أتباعها، وتنسب إلي داعيها الأول (حمدان قرمط). وأطلق اسم الباطنية علي فرق الإمامية الإسماعيلية (انظر هامش (١)، (٢) بالمقدمة التاريخية ص ٤٤ من هذا الكتاب - (البلتاجي)).

٢ - مختارات من كتاب (مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية)

وهي لمؤلف مجهول: ومكتوب عليها: لا يجوز الإطلاع عليها إلا بإذن من له الحل والعقد (١).

قال في مقدمتها: «أما بعد أيها الأخ... فقد وقفت علي مسائلك التي دلت علي تألق جذوة ذكائك، وعلوك في مرتبة العلم وارتقائك، وسألت الإجابة عنها، وهي - أيها الأخ - تقتضي جوابا من زُبد الحقائق المصونة، وسرائر الحكم المكنونة، ولب الفوائد المخزونة، وأنا أتحقق أنك أهل لأن تطلع علي ذلك، وتحقيق بأن تخص بفضل ما هنالك، إلا أنه مما لا يودع في بطون الأوراق، ولا يجب أن يرمى من العيون الشحمية بالأحداق، صيانة له عن إيذائه، وبذله، وخوفا عليه أن يقع إلي غير أهله، بل يجب أن يكون قرطاسة الأذن الواعية، وقلمه اللسان المترجمة عن جواهرها العالية، لكنني لما أوثره من الجلاء لبصيرتك، والزيادة في إنارة صورتك، كتبت لك في هذه الأوراق، وأنا آخذ عليك عهد الله تعالي وعظيم الميثاق الذي أخذه علي ملائكته المقربين، وأنبيائه المنتجبين، وأئمة دينه الهادين، وحدودهم الميامين، وإفأنت برئ منهم أجمعين، لا وقف علي ذلك إلا أنت أو أولادك لا غيرهم، ثم يرد إلي هذه الكراسة بعد أن تحفظ ما فيها، وإن أردت أن تغيب ذلك تركتها عندك مدة ما يحفظ ما فيها، ثم أعدتها إلي، والله علي ما نقول وكييل).

(ص ٥ - ٦)

(١) ضمن أربعة كتب إسماعيلية، منقولة عن النسخة الخطية (هـ ٧٥) المحفوظة في مكتبة أميروسيانة - ميلانو، عني بتصحيحها الدكتور شتروطمان، للمجمع العلمي - غوتينغن. وهي:

- الرسالة الأولى: مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية، مؤلف مجهول...

- الرسالة الثانية: (رسالة الإيضاح والتبيين في كيفية تسلسل ولادتي الجسم والدين) لعلي ابن محمد بن الوليد.

- الرسالة الثالثة: (رسالة تحفة المرتاد وغصة الأضداد) لعلي بن محمد بن الوليد.

- الرسالة الرابعة: (رسالة الاسم الأعظم) لمؤلف مجهول، طبعت بتاريخ شهر ربيع الآخر سنة

١٢٨١هـ (الذهبي).

• قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَهَ أَمَهَاتِ الْأُئِمَّةِ عَنِ الطَّمْثِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١) (يعني بالرجس: دم الطمّث) (ص ٨).

• قال في جوابه عن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ﴾ [المطففين: ٧-٨]: «نقول بفضل الله تعالى ومادة وليه في أرضه صلوات الله عليه:

إن سجّين هي الصخرة التي تقدم ذكرها (٢) أن فيها العذاب الأكبر، وهي كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ﴾، ذكر سيدنا حميد الدين أعلي الله قدسه في كتاب (راحة العقل) أن المعنى بذلك بكتاب الفجار يعني نفوس الفجار المرقوم فيها ما اكتسبه من الذنوب، وقال (سجّين): صخرة في أسفل الأرض يعذب فيها المخالفون، فعني بـ (كتاب الفجار) إمامهم وأتباعهم الذين انكبتت في نفوسهم المعاصي فاستحقوا بها الكون هنالك بخلافهم للحق. كما قال بعض العلماء في بعض أشعاره:

سجنهم سجّين إذ لم يتبعوا علينا ، دليل علينا

وقال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، فعني بـ (عليين): عالم الإبداع، و (كتاب الأبرار): إمامهم ونفوسهم التي انكبتت فيها المعارف الحقيقية وصحت منهم الولاية لأهل الحق، وصفوا وخلصوا فصاروا أئمة بعد أن كانوا مأمورين كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص: ٥]، فهم المستضعفون؛ يعني المؤمنين الذين يمن الله عليهم فيصيرون أئمة كما تقدم شرح ذلك، ويحصلون في عليين عند صعودهم في زمرة القائم سلام الله عليه الذي به يصيرون عقلاً مجرداً مثل من يخلفونه من عقول عالم الإبداع الذي هو العاشر، ويرتفع العاشر إلي مرتبة من فوقه، فاعلم ذلك). (ص ١٦-١٧).

(١) تجاوز الشيعة في تقديسهم للأئمة فزعموا أنهم معصومون من الصغائر والكبائر في كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شيء من الخطأ والنسيان، بل ذهبوا في غلوهم إلي نفي السنن الطبيعية عنهم وعن أمهاتهم... فالإمام - في نظرهم - له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء. ويقولون: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت علي الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة في الأئمة - (والآية من سورة الأحزاب: ٣٣).

(٢) ذكر في صفحة ١٢: (أنها كانت الصخرة التي هي سفلى الأرض، وهي علي مثال سفلى القدر، في سفلىها مسام ضيقة يدخل فيها البخار والدخان الذي يتصاعد من جثث أضداد القائم بعد حرقهم بنار من الأثير، ويصيروا في وسطها، وهي غيران هائلة وأودية عظيمة) (الذهبي).

● قال: «ولما كان الدين ظاهرا وباطنا قام النبي صلي الله عليه وعلي آله بتبليغ الظاهر، وبصرف إلي وصيه (١) نصف الدين وهو الباطن... ولذلك خاطبه بقوله: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فعني بـ (وجهه) وصيه، وعني بـ (المسجد الحرام) دعوته التي هي الحرم الذي من دخله كان آمنا أو أطاعه واستقام علي ذلك، و (الشطر) الذي ولاه إياه بتأويل التنزيل والشريعة اللذين جاء بهما الرسول صلي الله عليهما وعلي آلهما» (ص ٢٠).

● وقال وفي شرحه لقول علي في خطبة النهروان: (إن كلامي مغلق، وعلمي غامض، وحكمتي غزيرة): (إن مولانا يعني - صلوات الله عليه - يكون كلامه مغلقا، وعلمه غامضا، لأنه إنما ينبئ عن خفيات الغيوب، وما أطلعه الله تعالي عليه بواسطة رسوله صلوات الله عليهما وعلي آلهما من العلم المحجوب، كما قال: «علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم، انفتح لي من كل باب منها ألف باب، أدركت علم ما كان وما سيكون إلي يوم القيامة» فهو إذا تكلم بذلك انغلق علي من لم يتصل بمن عندهم مفاتيحه ولديهم لديدجور الشك مصابيحهم من أولاده أئمة الهدي عليهم جميعا السلام.

وقوله صلوات الله عليه: «وحكمتي غزيرة» فعني بالحكمة تأويل الكتاب الكريم ودرر حقائقه وهي التي ذكرها الله تعالي في آيات من الكتاب كثيرة بقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وكرر ذكر الحكمة مع الكتاب في آيات كثيرة. فالكتاب هو ظاهر القرآن الكريم، والحكمة تأويله ومعانيه... والغزارة التي ذكرها في الحكمة هو، يجيب علي المسألة بسبعة أجوبة، وبسبعين، وبسبعمائة، كما ذكر ذلك مولانا الصادق صلوات الله عليه... وهذه الغزارة التي لا نهاية لها ولا حد يحق ذلك قول الله تعالي: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. (ص ٣٢).

● وقال عن قوله تعالي: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]: «إن حكم الآية يعم جميع من تقلد عهد النبي والوصي والإمام، وأعطاه صفقة يمينه علي الائتمار بأمره فراقته الدنيا في عينه، واستهوته زخارفها فمال إليها، واستبدل الذي هو أدني بالذي هو خير، فباع ما كان

(١) يعني عليا كرم الله وجهه.

قد اشتراه من الله من الجنة الباقية بالدنيا الحقيرة الفانية، وإنسلخ من جملة من عناهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، فلم يستحق لنكثه أن يكون له في الآخرة خلاق ولا نصيب في الخير، ولا يكلمه الله ولا أن ينظر إليه يوم القيامة ولا أن يزكيه، كما يستحق ذلك المؤمنون، بل خلده بفعله في عذاب أليم». (ص ٣٤ - ٣٥).

● وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]... إلي آخر الآية: «جعل العقل الأول نور السموات والأرض... ثم قال: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾، فعني بالمثل من قام مقامه في عالم الطبيعية، وهو النبي صلي الله عليه وعلي آله، وكان ما اتصل به من الوحي وأيد به من التأيد ﴿كَمِشْكَاتٍ﴾ وهي الكوة، فأعلمنا سبحانه أن ما استفاد الناطق من المعارف الإلهية المضمنة في الكتاب والشريعة هي - أعني المناسك الوضعية للمعارف الإلهية - كالحزانة التي عنها تؤخذ، و﴿فِيهَا﴾ توجد أنوار الملكوت التي كني عنها بالـ ﴿مِصْبَاحٍ﴾ وإن كانت تلك الموضوعات لا تعرف المعاني كما لا تشعر الكوة بالمصباح، ثم قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ فالمصباح كناية عن العلوم الإلهية، والزجاج كناية عن الأئمة القائمون بها، يجمعونها ويحفظونها ولا يفارقونها، فتضيئ ذواتهم بها وذوات غيرهم من أتباعهم الطالبين لها إحاطة القنديل وإضاءته لما حوله، وقوله تعالى: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ كناية عن الوصي، فعني أن الأئمة عليه وعليهم السلام في استنباط المعارف الدينية والحكم النبوية كالوصي عليهم جميعا السلام فيما انفتح له ظاهرا، وباطنا من الحكم، واحتوي عليه من العلوم، وقوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ﴾، فالشجرة المباركة كناية عن النبي ﷺ وعلي آله، فوصف الكوكب الدرري بأنه يستنبط المعارف من وضائع الشجرة المباركة التي هي الناطق، وأن الأئمة عليهم السلام يشاكلونه في استنباط ذلك وإن كانوا لا كهو في الرتبة لكون مرتبة الوصاية مالكة لمرتبة الإمامة، وقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ يعني أن الأئمة بمثابة الزيتون الذي هو ثمرة تلك الشجرة، وقوله ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يعني ليسوا في رتبة النبوة التي هي الدعوة الظاهرة فيكون شرقية مثلها، ولا في رتبة الوصاية التي لها الدعوة الباطنة فيكون غربية مثلها، بل شرقية غربية جميعا بقيامهم مقامهما وحفظهم مكانهما، ولهم في جمعهم وقيامهم بذلك مرتبتان هما الممثلان بالشرق والغرب، وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ الزيت: ما خرج من الزيتون من دهنه وهو مثل الكلام والفوائد التي تؤخذ من الأئمة عليهم السلام، يقول: تكاد معرفتهم وكلامهم في إفادتهم وتعليمهم وهدايتهم التي تخرج منهم

لفظاً وإن لم يكن عن الوصي المشبهة بالنار تشبه معرفة كلام أولي الوحي، وقوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ يقول: يفتح منه أنوار علوم زيادة علي زيادة بظهور إمام منهم عن إمام، وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يقول: وكل منهم في زمانه قائم.... (١) وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: وهذا القائم... (٢) ومقام رسوله يقيم خلفاء له في الجزائر يدعون الناس إلى الله وإلى عبادته ومعرفته ما جاء به النبي صلى الله عليه وعلي آله، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: وهذا القائم... (٣) ومقام رسوله بكل شيء من أمور الدنيا وأمور القبلة، وأحكامها وما فيها من النجاة، عليم خبير لا يشتبه عليه شيء منه» (ص ٣٦، ٣٧، ٣٨).

● وقال: «إن قسط الناطق تلاوة القرآن وبسط الشريعة، وقسط الوصي شرح التأويل وإيضاح الحقيقة» (ص ٤٢) (٤).

● وقال عن قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]... الآية: «إنه عزيز النبي عليه السلام وهو من الحدود الداعين في دور موسى عليه السلام كان قد نظر إلى دعوة خمل أمرها ومات ذكرها وامتنح أهلها وحدهم محنة شديدة فقال في نفسه: ما أظن أن يرجع إلى هؤلاء بعد هذا الانقطاع عن الخير بلا مادة ولا تأييد يحيون به، فأراد الله إظهار قدرته في نفسه فأنساه مراتب الحدود التسعة والتسعين الذين هم أسماء الله الحسنى ومرتبة إمام عصره الذي هو المسمى، ثم بعثه: يعني مباحثة حده له عن ذلك فلم يعرف منها غير حده الذي هو كالיום منها ونفسه التي هي كبعض اليوم بقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فلم يعترف إلا عن ذلك فأعلمه حده بما نسي من تلك الأسماء بقوله: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَيَّ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعني يتغير، وهو أنه أمره أن ينظر فيما معه من علم الظاهر الذي هو كالطعام، وعلم الباطن الذي هو كالشراب ليقوم له منه برهان مراتب تلك الحدود، وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَيَّ حِمَارِكَ﴾ إشارة في هذا الموضع إلى حده الذي يحمل عنه ثقل الطلبة كما يحمل الحمار ثقل راكمه ويريح عليه من تعب المسير، والحمار المذموم هو من علماء المخالفين، والحمار المحمود وهو من علماء الحق ولذلك ما صار في اليهود يتباركون بحافر حمار عزيز لما سمعوا له من التشريف فلزموا المثل وتركوا الممثل» (ص ٥٧ - ٥٨).

● وقال عن قول النبي ﷺ: «لخلاف فم الصائم أحب إلى الله من رائحة

(١)، (٢)، (٣) في مكان هذه النقط وضع حروفا وأرقاما يرمز بها إلى أشياء مصطلح عليها بين الطائفة، وأنا لم أفهم لها معني (الذهبي).

(٤) وراجع ما كتبه علي هذه الآية ص ١١١، ١١٢.

المسك»^(١): «إن الصائم مثل الكاتم لدينه وعلمه عمن لا يستحقه، والخلوف هو ما يطلع على الإنسان من بخار المعدة ولتعطلها عن الطعام، فأشار بذلك إلى ما يكون عند الحدود من الصمت عن الكلام فيما لم يؤذن لهم به ولم يحضر أهله وإن كان مكروهاً لعدم الفائدة كما تكره رائحة الخلوف لتغير ريحه، فإن ذلك الإمساك أحب إلى الله تعالى من إبدائه إلى غير أهله وفي غير وقته، وشبهه لديه تعالى برائحة المسك الذي هو أطيب المشمومات لفضيل الكتمان عنده». (ص ٦٩).

● وقال عن قوله تعالى: ﴿سَنَفِرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]: «إن الله تعالى قدر دور الستر على مدة معلومة وجعل حساب الخلائق وثوابهم وعقابهم عند انقضاء تلك المدة وفراغها، فأعلمهم تعالى في هذه الآية أن ما وعدهم به من الثواب وأوعدهم به من العقاب يكون عند فراغها، فذلك معنى قوله: ﴿سَنَفِرُغُ لَكُمْ﴾ فنسب فراغ المدة إليه إذ هي عن أمره تعالى، وإلا فلا يُنسب إليه اشتغال ولا فراغ على الحقيقة» (ص ٧٢).

● وقال: «إن أبواب الجنة الثمانية هم الأئمة السبعة والقائم، على ذكره السلام. وأبواب النار السبعة هم أضداد الأئمة السبعة، والقائم لا ضد له لقهره الأضداد عند قيامه» (ص ٧٣).

● وقال عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ تَابٍ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]: «وهم الذين قال فيهم مولانا الصادق صلوات الله عليه: «والله ما يبديل الله السيئات حسنات إلا لشيئتنا» (ص ٨٩).

● وقال في قصة آدم وإبليس: «إن آدم عليه السلام لما أقيم في أول دور الستر نُهي عن كشف الحقائق وهي التي بها النجاة، وهي بالحقيقة شجرة الخلد والمُلْك الذي لا يبلى، لكون معرفتها مع الأعمال الصالحة مورثة لعارفيها الخلد في دار النعيم والمُلْك الذي لا يبلى، ولما تأخر الحارث^(٢) عن السجود لآدم ورأى ما وقع من التعظيم لآدم ورفع منزلته، فاحتال في مكيدته فجاءه على وجه النصح وأقسم له على ذلك وقال: إن أردت صلاح من صرف أمره إليك فهم لا يصلحون إلا بأبداء الحقائق، فانخدع عليه السلام وظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، فأظهر شيئاً من ذلك فأنكره

(١) من حديث أخرجه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ونصه: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به، يدع شهرته وطعامه من أجلى، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» (البلتاجي).

(٢) اسم الشيطان.

ما تحت يده واضطرب على أمره، وكان في ذلك ترك وصية ربه، فسائر قصته المعروفة»: (ص ١٠١).

● وقال عن تأويل ليلة القدر إلى قوله تعالى: ﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].. إلى آخر السورة: «إن ليلة القدر مثل على مولاتنا فاطمة عليها السلام؛ لأن الليالي مثل علي الحجج وهي حجة مولانا.....» (١) وقال الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]: يريد أن فضلها زائد على ألف حجة ممن تقدمها، لأن الشهور أيضاً أمثال الحجج، وقوله تعالى: ﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤ - ٥]: يعنى بالملائكة والروح الأئمة من ذريتهما الذين من حملتهم القائم المكنتى عنه بالروح، وأنهم صلوات الله عليهم من ذريتهما ونسلهما إلى طلوع الفجر بقيام قائمهم صلوات الله عليهم أجمعين عند انقضاء دور الستر وابتداء دور الكشف الذى هو ممثول الفجر» (ص ١١٤ - ١١٥).

● وقال عن قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]: «الجواب ما قال الله تعالى في صفة الأئمة صلوات الله عليهم وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذلك أن الله تعالى أطلعهم بمادته وتأبيده لهم على نيات الخلق وما تخفيه صدورهم، فما يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا وعندهم - صلوات الله عليهم - علمه مما أخذوه عن جدتهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، كما جاء فى الرواية عن مولانا الصادق - صلوات الله عليه - أنه قال يوماً لبعضهم ما كان البارحة عاملاً فى دار فلان، فاستحى الرجل من كلامه صلوات الله عليه، فقال بعض من حضره: أو تعلم ما يفعل يا بن رسول الله؟ فقال: ما كان الله تعالى ليجعلنا شهداء على خلقه ويحجب عنا شيئاً من أمورهم، استحيوا منا فى السر كما تستحيون منا فى العلانية، فهم صلوات الله عليهم الرقباء والشهداء على الخلق» (ص ١١٥ - ١١٦).

● وقال عن قوله تعالى فى شأن آدم: ﴿فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢): «الخطاب من إمام ذلك الوقت عليه السلام للملائكة الذين هم الحدود المالكون أمر الدعوة، يقول: فإذا أقمتم آدم ونفخت فيه من روحي، يعنى أمددته بما يقدر على القيام فيمن دونه، فقعدوا له ساجدين، أى أطيعوا له واستمعوا وسلّموا لأمره ولا تعترضوا، فأطاعوا وسلّموا إلا إبليس وهو شخص ممن كان قد أقيم

(١) حروف مقطعة وأرقام يرمز بها لأمر نجهلها، وهى كتابة سرية (الذهبي).

(٢) الحجر: ٢٩، وسورة ص: ٧٢.

لإفادته غيره فإنه تكبر وأبى عن السجود وعارض آدم عليه السلام، وكانت القضية في ذلك كمثل ما كان رسول الله ﷺ في إقامة وصيه صلوات الله عليهما يوم غدير خم وطاعة من أطاعه كسلمان وأبى ذر والمقداد وعمار ومن تبعهم رضى الله عنهم، وعصيان من عصى كالأضداد الثلاثة وتابعيهم، وهذا جار في جميع الأدوار» (ص ١١٧).

● وقال عن علي: «كيف كان يقتل عن يمينه وشماله وخلفه وقدامه وهو شخص واحد؟ فإذا كانت معجزة فكيف بيان هذه المعجزة؟.. الجواب: أن هذه منه صلوات الله عليه من جملة المعجزات التي تقدم ذكرها التي لا يقدر عليها إلا الرسول والوصي والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، وفي ضمن كل واحد منهم صلوات الله عليهم من الصور ما لا يحصيه العدد، كل صورة منها قادرة على التشخيص على الانفراد أي وقت شاءت، وقد جاءت الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أنه قال: لما كان في يوم «أحد» واشتد القتال، خرجت من عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وهو واقف ووصيه معه في بعض المواضع، فلما وصلت العسكر رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وعلياً عليه السلام يحملان في عسكر المشركين فيلقيان الميمنة على الميسرة، والميسرة على الميمنة، ثم عدت إلى حيث عهدتهما فوجدتهما قاعدين ما تغير منهما شيء، فهذه الرواية تؤكد ما تقدم ذكره من التشخيص بما شاءوا - أي وقت شاءوا - صلوات الله عليهم» (ص ١٢٢ - ١٢٣).

● وقال عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]... الآية: «إن المراد بالنفس الواحدة ههنا الناطق صلوات الله عليه، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعنى الوصي عليه السلام المزوج له في الدين، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، يعنى حدوداً مقيدتين بمنزلة الرجال ومستفيدتين بمنزلة النساء، قال النبي صلى الله عليه وآله: «أنا وأنت يا عليّ أبوا المؤمنين» (ص ١٢٣).

● وقال في قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]: «السلطان هو قائم القيامة الذي يقدر به على خرق الأفلاك بوجيز من القول» (ص ١٢٥).

● قال: «لما سئل عن الأنبياء، والأئمة والحن التي وقعت عليهم، بم استحقوا المحنة؟ وما عدل الله سبحانه وكيف هذا القصاص؟.. الجواب: أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، ولا عنده حيف ولا محاباة لأحد، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨]، ولما كان الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم مجامع لمن دونهم، وكان منهم من له ذنب صغير وكبير، كانت المكافأة بالحن والقتل وغيره على قدر

ذنوب من في ضمنهم بما يوجب العدل وتقتضيه الحكمة، وما يظلم ربك أحداً» (ص ١٢٧ - ١٢٨).

● قال: وقد سئل عن كبش إسماعيل الذي قُدى به ما هو؟ الجواب: أن إسحاق عليه السلام هو المكنتى عنه بالكبش، وذلك أن إبراهيم صلوات الله عليه كان قد هم أن يأخذ العهد على إسماعيل لإسحاق عليه السلام، فأوحى الله تعالى إليه أن يأخذ العهد لإسماعيل على إسحاق ويقيمه سترًا عليه وحجاباً، وهو ما نصه الكتاب الكريم من قوله: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾: يعنى إسماعيل عليه السلام. ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾: أى آخذ العهد عليك لإسحاق. ﴿فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصفات: ١٠٢]: أى صابراً على ما تأمرنى به، مُسَلِّماً لأمرك..... إلى قوله: ﴿وقديناه بذبح عظيم﴾ [الصفات: ١٠٧]، وهو ما أمر به من أخذ العهد على إسحاق لإسماعيل عليه السلام، فإسحاق المكنتى عنه بالكبش» (ص ١٢٨).

● قال عن ردم ذى القرنين: «الجواب: أن الإشارة بذى القرنين إلى مولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه وقد قال فى بعض كلامه: «أنا ذو قرنى هذه الأمة»، والمعنى فى ذلك: أنه الحائز لرتبة الظاهر والباطن بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وكذلك كل إمام من ولده هو الحائز لهذه الرتبة، والردم بين يأجوج ومأجوج وبين البشر، هو مثل على العهد الكريم الذى حجز به بين أهل الظاهر وبين أهل الدعوة.. وفى الرواية: «أن يأجوج ومأجوج قصار الخلق، مشوهو الصور، وأنهم لا يزالون يلحسون السد بالسنتهم فى الليل يطلبون خرقه، وأن ألسنتهم كمثمل المبارد، فإذا طلع الفجر عليهم وأحسوا أصوات المؤذنين هربوا وعاد السد بحاله»، والمعنى فى ذلك أن «يأجوج ومأجوج» - كما تقدم به القول - هم أمثال أهل الظاهر، «وقصر قامتهم وشوه خلقهم» هو إشارة إلى قصور دينهم وقصورهم لخلاف الحق وأهله، ومعنى «لحسهم السد بالسنتهم فى الليل» أنهم فى أيام الفترات يتبعون آثار الأولياء ويطلبون تبطيلاً للعهود والمواثيق والاطلاع على مذهب الحق والكفر فيه، «فإذا أذن المؤذنون»، يعنى أقام الدعوة الذين هم ممثل المؤذنين «هربوا»، يعنى فهقروا على أعقابهم وانكسروا وبطل سحرهم وتمويههم «وعاد السد إلى ما كان عليه» يعنى استقامت أمور الدعوة على ما كانت عليه من أخذ العهود والمواثيق والحراسة عن أهل الفساد والعناد» (ص ١٣٠).

٣ - نَقُولُ مِنْ رِسَالَةِ «الْإِيضَاحِ وَالتَّبْيِينِ» (١)

● قال في عليّ: «أنا المخاطب من الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] (ص ١٣٨).

● وقال: «إِنَّ عَلِيًّا هُوَ الْمَعْنَى بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَخَاطَبَتِهِ نَبِيَّهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [القصص: ٣٥] (ص ١٣٩).

* * *

(١) وهي الرسالة الثانية من أربعة كتب إسماعيلية منقولة عن النسخة الخطية (هـ ٧٥)، المحفوظة في مكتبة أمبروسيانة - ميلانو - السابق الإشارة إليها - وعنوانها الكامل: «رسالة الإيضاح والتبيين في كيفية تسلسل ولادتي الجسم والدين» لعليّ بن محمد بن الوليد (الذهبي). هذا.. ولم ينقل فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبي - رحمه الله - شيئاً عن الرسالتين الثالثة والرابعة: «تحفة المرتاد وغصة الأضداد»، ورسالة «الاسم الأعظم» (البلتاجي).

٤ - نقول من كتاب «مزاج التسنيم»^(١)

• تعريف بالكتاب :

هو تفسير باطنى يبدأ من قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] وينتهى عند آخر قوله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

وهو مطبوع فى أربعة أقسام مسلسلة الأرقام يبدأ القسم الأول من صفحة (١) وينتهى القسم الرابع بصفحة (٣٧٠).. وفى آخر القسم الرابع فك رموز الكتابة السرية الموجودة بالكتاب .

• قال فى تفسير قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا...﴾ [التوبة: ١٠٧] إلى آخر الآية، ما نصه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾: وهم أشرف أقسام أهل الإضرار، ممن يظهر فى دور الستر، ﴿مَسْجِدًا﴾: يعنى بعبد اللات إمام الضلالة لما نصبوه لهم قائداً باختيارهم، وذلك جار منهم فى أول كل دور عطفاً على ما سبق من ابتداء الدعوة الإبليسية، ﴿ضُرَارًا﴾، لكى يضاروا به أهل الندم من أهل النسبة الأدون، ﴿وَكُفْرًا﴾: يعنى بمقام حجاب العين، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يعنى بين أهل الدعوة الإسلامية، ﴿وإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يعنى مركزاً لهم يَأْوُونَ إِلَيْهِ، ﴿مَنْ قَبِلَ﴾: يعنى من حال ابتداء تلك الدعوة الإبليسية، ﴿وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحِسْنَى﴾: يعنى بالدعاء إلى الحجاب النبوى، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾: يعنى الميم، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: يعنى فيما يقولون سابقاً ولاحقاً، وأيضاً أن هذا المسجد الذى كانوا يجتمعون فيه فى وقت الرسول ويعقدون فيه الآراء الفاسدة، أنه من البقاع الخبيثة التى كانوا يجتمعون بها فى كل دور، ويتصل بها خبائث من خثالاتهم، وهى تلحق بالسقيفة بالرجاسة...﴾ إلخ (ص ٨ - ٩).

• وقال فى شرحه لأول سورة يونس: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَيُبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١ - ٢] ما نصه: ﴿الرَّ﴾: إقسام منه بـ «ألف» الفاطر المتفرد فى المقام، و «لام» الحسين، و «راء» شبر اللذين صارا مقاماً واحداً، ﴿تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: يعنى إشارة إلى أسماء الكرار وصفاته، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾: يعنى أهل النسبة الأدون، ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا

(١) كتاب مزاج التسنيم، من تأليف ضياء الدين إسماعيل بن هبة الله بن إبراهيم الإسماعيلي السليماني، عنى بتصحيحه الدكتور شتروطمان، للمجمع العلمى غوتينغن، عن النسخة الخطية (٧٦ هـ) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة - ميلانو (الذهبي).

إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴿١﴾ : يعنى من مجموع صفو زبدهم الريحية وصورهم الملائكية، ﴿أَنْ أُنذِرَ النَّاسَ﴾ : يعنى بحجابه وهم أهل الجرائر وذلك من مخالفة وصيه فى الظاهر (T. 9 T J عل. TV2) (١)، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : يعنى بوصيه فى الباطن (J I I H عل) (٢) المحتجب به الفاطر ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ : يعنى الحسين بالانضمام إليه، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ : يعنى بهذه المقامات، ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ مِّبِينٌ﴾ : يعنى تعمية للعقول إرادة منهم الدحض لأمر من أمروا بطاعتهم (ص ١٥) .

• وقال فى تفسير قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ (٣)، ما نصه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ : يعنى حجابه، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ : يعنى يشير إلي حجاب ولده إسماعيل المتظاهر به فى مقر دعوته فى كل دور، وذلك بمكة المشرفة التى صارت مركزاً لخمائرهم الشريفة، وأيضاً أن دعاءه متوجه بالأمان إلى ما يتصل بتلك البقاع الطاهرة من خمائر أهل اليندم لكي لا يلحقها ويمتزج بها شىء من الخبائث التى فى تلك المواضع المظلمة، ﴿وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ﴾ : يعنى حجب الأئمة القائمين هنالك لهداية أهل الجرائر، ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ : يعنى يشير إليهم شىء من المراتب يقومون بها فى الدعوة وهم أعنى بذلك الأضداد، ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ : يعنى من المانوسين بالدعوة وذلك سابقاً ولاحقاً لكونهم مالوا إليهم فى حال المحارات، ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ : يعنى فى حد الابتداء، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ : يعنى فى حد الانتهاء، ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ : يعنى فى قبول ما دعوت إليه، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : يعنى ساتر لمن أطاعك رحيم به لأنه أشار بالرحمة إلى العصاة (ص ١٠٠ - ١٠١).

• وقال فى تفسير قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ...﴾ (٤) إلخ، ما نصه : ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ : يعنى العين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ : يعنى إمامين، وهو صاحب الولاية وضده، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ : يعنى المقام فيها (J L I H عل) (٥)، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ : يعنى من مخالفة أمره، ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : يعنى التصرف فى أمور الدعوتين، ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصْبَا﴾ : يعنى الإمداد للأبواب السلسية يصبه إليهم فى كل عصر، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ : يعنى الميم المحتجب به، ﴿تَتَّقُونَ﴾ : يعنى من المخالفة (ص ١٢٣).

• وقال عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿يَوْمَ نَدْعُ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...﴾ إلخ (٦)، ما نصه : «قال مولاى الحسام : يعنى عند قيام السابع يدعى

(١) أبى بن كعب . (٢) سلمان . (٣) إبراهيم : وما بعدها . (٤) النحل : ٥١ وما بعدها . (٥) سلمان . (٦) الإسراء : ٧١ وما بعدها .

أهل كل وقت بمن هو إمام لهم وشاهد عليهم، ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾: يعني وجد اعتقاده في الوصي ممثل اليمين، ﴿فَأُولَئِكَ يقرءون كتابهم﴾: يعني يظهرون ولاية إمامهم، ﴿وَلَا يظلمون﴾: يعني في ثوابهم، ﴿فَتَيْلًا﴾: والفتيل ما في شق نوى التمرة، يعني: لا يظلمون آخر ما فعلوه ووالوا به وكان شيئاً يسيراً من الولاية الرموز عليها بالفتيل. هذا قوله أعلى الله شريف قدسه.. ثم قال تعالى مخاطباً لأهل دعوة الناطق: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾: يعني في المقامات البشرية عن معرفة الحق الموجب ما كان منه سابقاً، ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾: يعني في القوالب المسوخة، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: يعني أبق، وأيضاً من ظهرو وهو في التراكيب البشرية أعمى عمي في غيرها، ثم قال تعالى مخاطباً للحجاب النبوي: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾: يعني أولئك الأجيات، ﴿لِيَفْتِنُونَكَ﴾: يعني يصدونك كما جرى ذلك من أصولهم إلى أصلك، ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: يعني من إقامة الوصي الذي هو من (. ح ٧ . T ط ٩)^(١)، ﴿لَتَفْتُرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾: يعني بنصب جبتهم الموازين له في كل كربة، ﴿وَإِذَا لَاتُخَذُوكَ خَلِيلًا﴾: يعني مخاللاً لهم في أمورهم النكيرة» (ص ١٥١ - ١٥٢).

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبوعاً...﴾ الخ^(٢) ما نصه: ﴿وقالوا﴾: يعني مجاثم الضلال كبراء هذه الأمة، ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾: يعني نستسلم استسلام معرفة ويقين بمقام من أقمته للوصاية، ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ﴾: يعني تظهر لنا من دعوة الباطن، ﴿يَنْبوعاً﴾: يعني بابها السلسلى نستفيد منه مشافهة، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةً﴾: يعني دعوة، ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾: يعنى من حدود الحضرة، ﴿فَتَفْجُرَ الأَنْهَارُ﴾: يعني الأسرار المحجوبة، ﴿خَلالَهَا تَفْجِيرًا﴾: يعني يتخلل بها الكل مناهم ومن أهل الدعوة حتى يستووا في معرفتها، ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾: يعني يقيم لهم وصياً منهم كما زعمت، يعني بما كان أوهمهم من إشراكهم في الأمر وذلك طلباً من الحجاب النبوي تسكين شرمهم كما أوهم ذلك فيما سبق، ﴿أَوْ تَأْتِي بَاللَّهِ﴾: يعني المحتجب بك، ﴿وَالْمَلَائِكَةَ﴾: يعني بحدود الدعوة العمرانية العلوية، ﴿قَبِيلًا﴾: يعني نشاهدهم مقابلة ومعاينة، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زَخْرَفٍ﴾: يعني وصياً، يشيرون إلى جبتهم المزخرف، إذ هي مأوى للصور المنكرة المتزخرفة بالإفك. ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾: يعني تدعى مقام مرسلك، ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾: يعني الارتقاء إلى ذلك المقام، ﴿حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾: يعني تنصب لنا إماماً منا، وكان هذا دأبهم في

(٢) الإسراء: ٩٠ وما بعدها .

(١) حجب على .

كل دور بحسب ما اختاروه ومالوا إليه في حال المحارات . وجمد على ذلك مائع تصوراتهم مع الانجدار، ﴿نَقْرُوهُ﴾: يعني يتصورون من تصوره بالاستفادة منه . . ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِحْحَانِ رَبِّي﴾: يعني تقديساً للمحتجب به أن يكون في مقامه أو يقيم وصياً بغير أمره، ﴿هَلْ كُنْتَ إِلَّا بُشْرًا﴾: يعني من أحد حدود أهل النسبة الأدون المباشرين لكم، ﴿رَسُولًا﴾: يعني منه إلى من أرسل إليهم سابقاً (ص ١٥٥).

● وَقَالَ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ الآيات [مريم: ٧٥]: - مَا نَصَّهُ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾، يعني عن اتباع العين وحجبه، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾: يعني الميم بأمر العين، ﴿مَدًّا﴾: يعني من الإمهال، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾: يعني في التراكيب، ﴿وَأَمَّا السَّاعَةَ﴾: يعني عند ظهور القائم المنتظر، ثم قال تعالى: ﴿فَسَبِّعِلْمُونَ﴾ يعني عند مشاهدتهم ذلك، ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾: يعني مأوي، ﴿وَأَضْعَفُ جَنَدًا﴾: يعني أنصاراً، ثم قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ﴾: يعني إمام كل زمان، ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾: يعني إلي النديم سابقاً، ﴿هُدًى﴾: يعني في ظهور فضلاتهم وذلك في المعرفة والصفاء والإنارة، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: يعني الذين بقوا علي الطاعة وصلحت نياتهم علي القيام بصلاح الدعوة في الحديث عطفاً منهم علي ما سبق في القديم، ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾: يعني العين، ﴿تَوَابًا﴾: يعني إثابة في صعودهم فس سلاليم الصعود، ﴿وَأَمَّا خَيْرٌ مُّرَدًّا﴾: يعني يأوون إليه عند ترتيبهم في النواصيت واللاواهيت، ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾: يعني «حبتراً» كفر بحجاب الوصي وحدوده في كل دور، ﴿وَقَالَ لِأُوتَيْنَ مَالًا وَلَوْلَا﴾: يعني علماً وأتباعاً وترشحاً منه للفساد، ولذلك تظاهر بدخوله في الملة الإسلامية تملقاً ليلبغ مرامه من الإغواء، وكان ذلك بمقتضي ما انعقد في وهمه الخبيث، ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: يعني علي علم الباطن، ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: يعني عند الناطق مقاماً يعهد به إليه ويشير، ﴿كَلَّا﴾، يعني إقساماً لا يكون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: يعني في تصوره المظلم ما كان منه من التعدي والتمويه، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾: يعني ما يقتصره من تلك السيئات، ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: يعني ما طلبه من الإمهال سابقاً ولاحقاً، ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: يعني في العذاب الأدنى والعذاب الأكبر لتفرده في أليم العذاب علي أتباعه، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾: يعني أهل الإصرار، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: يعني إمام كل زمان، ﴿آلِهَةً﴾: يعني أئمة وهم الذين اتخذوهم سابقاً ومالوا إليهم، ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾:، يعني في معادهم يعتزون بهم، ﴿كَلَّا﴾ يعني

امتناعهم بذلك المرام الفاسد، ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: يعني بتعبدهم لهم بالطاعة ويتبرأون منهم، وذلك حين يكشف لهم أنواع العذاب، ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾: ويعني يصادونهم بالتعذيب لهم والتهويل والإحراق لهم بتصوراتهم النارية» (ص ١٩٧ - ١٩٨).

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ إلخ [الأنبياء ١٦ وما بعدها] ما نصه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾: يعني ربنا (JIH عل) (١) في مقام الوصاية الباطنة دليلاً علي (H, IJ ٩ عل) (٢)، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: يعني ربنا (T٩ TJ ج T. V عل) (٣) في مقام الوصاية الظاهرة دليلاً علي (HIJ عل) (٤) ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: يعني من الحدود في الدعوتين، ﴿لَاعِبِينَ﴾: يعني مستهزئين في إقامتهم، ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾: يعني «حبتراً»، ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾: يعني لأقمناه منا، ولكن لا تكون الظلمة كالنور ولا الظل كالحرور، ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: يعني إقامته. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾: يعني مقام حجاب (2IJ ع J ع) (٥)، ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾: يعني مقام الضد، ﴿فَيُدْمِغُهُ﴾: يعني لظهور أمر (2IJ ع J ع) (٦) لاسيما عند تمام مدة مهلة الأجبات، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: يعني عن مقام ما يدعيه من الخلافة، ثم قال تعالى مشيراً إلي فريق الإصرار: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾: يعني أن حبتراً لحجاب (2IJ ع J ع) (٧).

(ص ٢٢٥)

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ...﴾ إلخ [الأنبياء ٨٣ وما بعدها] ما نصه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾: يعني إمام زمانه وهو كان من أبوابه وصار مجمعا عظيما من الأعضاء الرئيسية أولا في دور المسيح وآخرها في الجمع المحمدي، ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾: يعني إشارة إلي حجابته الذي حصل منه ومن في جواره التوقف في أحد أعضاء الهيكل العلوي وهو المستقر في ذلك الزمان فابتلي باضطراب أهل دعوته وكثرة المنافقين وتغلبهم، وجري ذلك منهم في كل دور عند ظهور فضلائهم، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرر: يعني ذلك الابتلاء، ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾: يعني أهل دعوته الذين كان ظهور فضلائهم فيها في كل كرة، ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: يعني من غير أهل دعوته، استجابوا له وصلحوا علي يديه، ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾: يعني ساقهم إليه وهداهم به

(٣) أبي بن كعب.

(٢) الحسين.

(١) سلمان.

(٧، ٦، ٥) الكرار.

(٤) الحسن.

وخصهم بذلك كما اختصه في ابتداء الفطرة، ﴿وَذَكَّرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ : يعني للمتعبدين منهم بطاعته ذكرهم بالهداية وقادهم إليها « (ص ٢٣٥) .

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا...﴾ إلخ [المؤمنون ٨٤ وما بعدها] ما نصه : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ : يعني الدعوة وحدودها، وأيضا الأرض الظاهرة ومن فيها، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ : يعني المدبر، ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ : يعني أنه العين تعالى علاه، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ : يعني الذي تكون منه مراتب السبعة الأتماء الذين أحاطت مراتبهم علي أكثر المراتب لكونهم أشرف مقامات الدور العمراني، ومقامات أهل الدور العمراني أفضل ممن تقدمهم في الأدوار - وقد أشار إلي ما لهم من علو المنازل في الهيكل القائي، ولأنهم وحدهم وأبيهم صاحب كنز الوالد بما هذا فصبه أعلي الله قدسه ورزقنا شفاعته وأنسه : وأتماء دوره مثل فاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وإسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل سابعهم، منهم حاسة السمع، ومنهم حاسة البصر، ومنهم حاسة الشم، ومنهم حاسة الذوق، ومنهم حاسة اللمس، ومنهم حاسة التخيل، ومنهم حاسة الحفظ، ومنهم حاسة الذكر، وهؤلاء الثمانية يكونون هذه الحواس الثماني، ومحمد صلي الله عليه وعلي آله حاسة النطق والفتنة (٩١٧١١ ل . اي T)^(١) والفكرة، ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ : يعني (ل XX١ ل أ ع) ^(٢) ﴿يَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ : يعني صاحب الاستقرار، ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ : يعني من مخالفته « (ص ٢٧٢ - ٢٧٣) .

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ...﴾ إلخ [النور: ١١ وما بعدها] : ما نصه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ : يعني الذين اختاروا الضد وأقاموا بحسب ما كان منه ومنهم في القديم، ﴿عَصَبَةٌ مِنْكُمْ﴾ : يعني بتظاهرهم بالدخول في الملة الإسلامية، ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ : يعني نكوصهم لأنه بذلك امتاز الخبيث من الطيب، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ : يعني ترافعت درجاتكم وتلاآت صوركم . ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ : يعني بقدير ما يصرفه من الضلال أو عمل به سابقا أو لاحقا، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ : يعني معظم أمر الضد منهم وهم أهل السقيفة، ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ : يعني متضاعف علي غيرهم في جميع أبواب العذاب الأدنى والأكبر، ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ، قال مولاي ذو

الجديدين قدس الله روحه في ذلك: يعني نص النبي علي الوصي، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ﴾: يعني بمستفيدهم، ﴿خَيْرًا وَقَالُوا﴾: يعني أولئك المخالفين، ﴿هَذَا إِفْكٌ مَبِينٌ﴾: يعني كذب بين، ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ﴾: يعني علي صحة أنه ضدهم، ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ﴾: يعني يشهدون بأربعة دلائل، الأولي: كونه من أهل بيت النبوة، والثانية: إثبات الإمامة في عقبه، والثالثة: الإشارة من الله ورسوله إليه، والرابعة: كونه في مقام العصمة، ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾: يعني بهذه الدلائل، ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: يعني عند الناطق، ﴿هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾: يعني عليه بالإشارة إلي من ليس يستكمل خصال الوصاية» (ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣، وما بعدها] ما نصه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾: يعني الدعاة، ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾: يعني في قوانين الدعوة عند ظهور فضلائهم في الأدوار، ﴿هَوْنًا﴾: يعني بوقار، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾: يعني بمقاماتهم، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: يعني أجابوه بلين وحسن عبارة ووعظ، وذلك دأبهم في كل ظهور، ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ﴾: يعني صاحب عصرهم، ﴿سُسُجُودًا وَقِيَامًا﴾: يعني متوجهين إليه بالعبادة ظاهرا وباطنا، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾: يعني إمام زمانهم الذين هم دعاة إليه، ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾: يعني الإدراك، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: يعني هلاكها، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَأً﴾: يعني أسوأ مستقر لمن دخلها، ﴿وَمَقَامًا﴾: يعني لمن أقام فيها، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾: يعني من علوم صاحب الدعوة الهادية وأمواله لكونهم معصومين به، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾: يعني متوسطا بين الحالين، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ﴾: يعني ولي أمره، ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾: يعني إماما ثانيا، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: يعني بواجب لدي الجهاد أو في أمر توجهه الشريعة، وأيضا لا يسقطون أحدا من مرتبته إلا باستحقاقه لذلك لموجب ما صدر منه من الذنب الذي جري عليه في الكرات، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾: يعني يتعدون إلي شيء من الخدم في غير جرائمهم التي أمرها مصروف إلي سواهم من الدعوة، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: يعني من الذين هم غير معصومين، ﴿يَلْقُ أَثَامًا﴾: يعني ظاهرا وباطنا، ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يعني من يوم انتقامه يجدد عليه في القوالب، ﴿وَيُخَلد فِيهِ مَهَانًا﴾: يعني في الصخرة، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾: يعني رجع إلي التوبة وأقلع عن ذلك الذنب، وكان ذلك منه المتاب بحسب ما انعقد في ضميره ولا بد له من التصفية

والتطهير بقدر ذلك الذنب: ﴿وَعَمَلٌ عَمَلًا صَالِحًا﴾: يعني بالدعوة إلي ولي أمره، ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدَلُ اللَّهُ﴾: يعني ولي الزمان المتولي للتدبير ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني تلك الذنوب التي ابْتِنَتْ في صورهم ظلّمات وما كانوا قد ترتبوا فيه من الضدية، ﴿حَسَنَاتٍ﴾ يعني بمراتب من مراتب أهل الحق وبصور نورانية من فعلهم ذلك وتلك التخيلات التي قد انْقَشِعَتْ عَنْهُمْ تلتئم ثم تكون لها أهلا من أهل العناد، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾: يعني لمن تاب إليه» (ص ٣٠٦ - ٣٠٧).

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة الشعراء: ﴿طَسَمَ * تَلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١، ٢]، (ما نصه: قال الله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾: إقسام من العاشر بمجمع المعين الذي جمع مجامع النطقاء والأسس والأئمة، لكون الطاء من النطقاء، والسين من الأسس، والميم من الأئمة، وأيضا أن عدد الطاء تسعة، وعدد السين والميم مائة، فدللتنا المائة علي أن مجمعه حوي من الصور الكلية التي سلمها إليه العاشر يوم (ل Y B ٩ ع) ^(١) من المركزية والاستقرارية مائة صورة، ثم علي تسعة مجامع عظام رجعت إليه وهم: الميم والفاء وأسابع الدور الحمدي فأقسم بها تعالى، وكان وضع الطاء في أول الحروف هذه إشارة أن العين الأولية أول ما تسلم إلي العين الآخرة من المجامع الميم والفاء وأسابع الدور الحمدي، ﴿تَلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: يعني مقامات (ل H ٩ عل) ^(٢)، قباب الأنوار من ولده لكونه الكتاب وهم آياته» (ص ٣٠٩).

● وقال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾ إلخ [العنكبوت: ٨] ما نصه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾: قال مولاي الحسام في حقيقة ذلك: يعني محمد بن أبي بكر، ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾: يعني الضالين اللذين كان استفادته أولا منهما، ﴿حَسَنًا﴾: يعني أن يدعوهما إلي ولاية الوصي، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾: يعني أن تُشْرِكُهُمَا في مقام الوصاية، ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: يعني أنهما يستحقانه، ﴿فَلَا تَطْعَمُهُمَا﴾: يعني فيما أمراك به، ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾: يعني دعوتهم إذا قام السابع، ﴿فَأَنْبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: يعني من صرف الدعوة) (ص ٣٦١).

● ما في آخر النسخة:

«وكان الفراغ من زبر هذا الكتاب الموضح من الأسرار لما هو لب اللباب يوم الأحد

خامس عشر شهر رجب الأصب (هكذا) (١) سنة ١١٧٣ هـ وذلك من مسودتها التي هي بخط مؤلفها سيدنا الداعي الجليل عديم النظير والمثيل: ضياء الدين ودره تاجه والإكليل، إسماعيل بن سيدنا هبة الله أيده الله بالنصر والظفر، وبلغه في رفع بناء الدعوة كنه الأمل والوטר، وذلك بحصنه السعيد وقصره الشامخ المشيد من محروس نجران ببلاد يام حرسها الله من الأشرار اللئام، وذلك بخط العبد الضعيف، البائس الذليل اللهيف، أحقر عبيد مولاه، وأحوجهم لعفوه ورضاه، عبد الله بن سيدنا علي ابن هبة الله، وفقه الله لما يحب ويرضي، وختم له بالحسني، فيجب علي من قرأه أن لا يتركه من الدعاء بأن الله يرحم لطيفه وكثيفه، ويسرع بانضمامه إلي جوار جده وأليفه، وأجره علي من لا يضيع أجر المحسنين:

يلوح الخط في القرطاس دهرا وكاتبه رميم (٢) في التراب

(ص ٣٧١).

● ملحوظة:

في آخر القسم الرابع من كتاب (مزاج التنسيم) توجد حروف الكتابة السرية وما يقابلها بالحروف العربية علي النحو التالي:

H	ل	ع	ل	y	٧	٤	ح	ه	ط	T	J
س	ز	ر	ذ	د	خ	ح	ج	ث	ت	ب	أ
⊥	2	ى	x	B	V	(J)	↑	(ل)	P	ك	
			ق	ف	غ	ع	ظ	ط	ض	ص	ش
									عد	I	
						4	٩	II	X		
										م	ن
										ه	و
										ي	لا

ويلي ذلك فك الرموز الموجودة بالكتاب ابتداء من أول سورة يونس إلي آخرها وصل إليهم من سورة العنكبوت. وقد وضعنا فك الرموز بالهامش نقلا عن الجدول الموجود بآخر الكتاب (الذهبي).

(٢) في الأصل: رميمًا.

(١) والأصح أن يقول: رجب الأصم.

٥ - نقول عن كتاب الكافي (الجزء الأول)

لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي

المتوفي سنة ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ

طبع إيران سنة ١٣٨٤ هـ - الناشر مكتبة الصدوق

● الجامعة - القياس :

« روي بسنده قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : ضل علم ابن شبرمة عند الجامعة ^(١) ، إملأ رسول الله ﷺ وخط علي عليه السلام بيده ، إن الجامعة لم تدع لأحد كلاما ، فيها علم الحلال والحرام ، وإن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعدا ، إن دين الله لا يصاب بالقياس » (ج ١ ص ٥٧) .

● علم علي رضي الله عنه :

« وبسنده إلي سليم بن قيس الهلالي قال : قلت لأمير المؤمنين عليه السلام : إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئا من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله ﷺ غير ما في أيدي الناس ، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن النبي ﷺ أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كله باطل ، أفترى الناس يكذبون علي رسول الله ﷺ متعمدين ويفسرون القرآن بأرائهم ؟

قال : فأقبل علي فقال : قد سألت فافهم الجواب : إن في أيدي الناس حقا وباطلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخا ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابهها ، وحفظا ووهما ، وقد كذب علي رسول الله ﷺ علي عهده

إلا أنه قال : وقد كنت أدخل علي رسول الله ﷺ كل يوم دخلة ، وكل ليلة دخلة ، فيخيلني فيها أدور معه حيث دار ، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري ، فرما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي ، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازل أخلاقي وأقام عني نساءه فلا يبقي عنده غيري ،

(١) يريد : في جنب كتاب الجامعة .

والجامعة - كما يقولون - : هي كتاب طوله سبعون ذراعا من إملأ رسول الله ﷺ وخط علي عليه السلام ، مكتوب علي الجلد المسمي بالرق في عرض الجلد ، جمعت الجلود بعضها ببعض حتي بلغ طولها سبعين ذراعا وعدها من مؤلفات علي باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ﷺ وإملائه . قالوا : وفيها كل حلال وحرام ، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتي الأرض في الخدش . (أعيان الشيعة : ٢ / ٥٤) .

وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عني فاطمة ولا أحد من بني، وكنت إذا سألته أجنبي، وإذا سكت عني وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت علي رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبت بها بخطي وعلمي تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه علي وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئا علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى، كان أو يكون، ولا كتب علي أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس حرفا واحدا، ثم وضع يده علي صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علما وفهما وحكما ونورا، فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئا ولم يفتني شيء لم أكتبه، أفتتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لا، لست أتخوف عليك النسيان والجهل».

(ج ١ ص ٦٢ - ٦٤)

● التقية:

«وبسنده عن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن مسألة فأجابني، ثم جاءه رجل فسأله عنها فأجابته بخلاف ما أجابني، ثم جاء رجل آخر فأجابته بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، فلما خرج الرجلان قلت يابن رسول الله، رجلان من أهل العراق من شيعتكم قدما يسألان فأجبت كل واحد منهما بغير ما أجبت به صاحبه؟ فقال: يا زرارة، إن هذا خير لنا وأبقى لنا ولكم، ولو اجتمعتم علي أمر واحد لصدقكم الناس علينا، ولكان أقل لبقائنا وبقائكم» (ج ١ ص ٦٥) (١)

(١) التقية: وجد الشيعة في التقية مخلصا لهم من تناقض أقوالهم في تفسير القرآن، فلإمام أن يسكت ولا يجيب تقية منه..

قيل عند الباقر: إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذي ربح بطونهم أهل النار فقال الباقر: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتوما منذ بعث الله نوحا، فليذهب الحسن يمينا وشمالا، لا يوجد العلم إلا ههنا - وأشار إلي صدره.

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال، وما يري فيه المصلحة، تقية منه أيضا.. وبنوا علي هذا أن الإمام إن قال قولاً عن سبيل التقية، فللشيعة أن يأخذ به والعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعة إلي أن قول الإمام كان علي سبيل التقية. (التفسير والمفسرون: ٥/٢، ٩).

ويروي الحسن العسكري في تفسيره للقرآن عن رسول الله ﷺ أحاديث في التقية، فمن ذلك: أنه روي عن الحسن بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء إنما فضلهم الله علي الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله، وحسن تقيتهم لأجل إخوانهم في الله».

وروي عن أمير المؤمنين أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سئل عن علم فكنمه حيث يجب أظهاره وتزول عنه التقية، جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار».

= وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] يقول: «الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد، وسع لهم في التقية، يجاهرون بإظهار موالة أولياء الله ومعادة أعدائه إذا قدرُوا، ويسرونها إذا عجزوا» أهد.
وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣] .. يقول: «.. نظر الباقر إلي بعض شيعته وقد دخل خلف بعض المنافقين إلي الصلاة، وأحس الشيعي بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده وقال: أعتذر إليك يا بن رسول الله عن صلاتي خلف فلان فإنها تقية، ولولا ذلك لصليت وحدي، قال له الباقر: يا أخي، إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت يا عبد الله المؤمن.. ما زالت ملائكة السموات السبع والأرضين السبع تصلي عليك وتعلن إمامك ذاك، وإن الله تعالى أمر أن تحسب صلاتك خلفه للتقية بسبعمائة صلاة لو صليتها لوحدك فعليك بالتقية».

ويفسر الطبرسي قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، فيقول: «من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله في شيء، أي ليس هو من أولياء الله، والله برئ منه، وقيل: ليس هو من أولياء الله تعالى في شيء. وقيل ليس من دين الله في شيء. ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. والمعني: إلا أن يكون الكفار غالبيين والمؤمنين مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه ومداراتهم تقية منهم ودفاعا عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك، وفي هذه الآية دلالة علي أن التقية جائزة في الدين عند الخوف علي النفس، وقال أصحابنا: إنها جائزة في الأحوال كلها عند الضرورة، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال في قتل المؤمن، ولا فيما يعلم أو يغلب عن الظن أنه استفساد في الدين.

قال المفيد: إنها قد تجب أحيانا وتكون فرضا، وتجاوز أحيانا من غير وجوب، وتكون في وقت أفضل من تركها، وقد يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذورا أو معفوا عنه متفضلا عليه بترك اللوم عليها، وقال الشيخ أبو جعفر الطوسي: وظاهر الروايات يدل علي أنها واجبة عند الخوف علي النفس، وقد روي رخصته في جواز الإفصاح بالحق عنده، وروي الحسن: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أنني رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أنني رسول الله؟ قال: إني أصم.. قالها ثلاثا، كل ذلك يجيبه بمثل الأول، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما ذلك المقتول فمضي علي صدقه ويقينه، وأخذ بفضلته فهنيئا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعه عليه» فعلي هذا تكون التقية رخصة والإفصاح بالحق فضيلة. ويقول محسن الكاشي بالتقية، ويراها ضرورة من ضروريات قيام مذهبهم ووضوح أصحابه من الاضطهاد، فإننا نراه يفيض فيها عندما تكلم عن هذه الآية: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: إلا أن تخافوا من جهتهم خوفا وأمرا يجب أن يخاف منه، وقرئ: (تقية) منع عن موالاتهم ظاهر=

● الأئمة حجة الله:

«وبسنده إلي أسود بن سعيد قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام فأنشأ يقول ابتداء منه من غير أن أسأله: نحن حجة الله، ونحن باب الله، ونحن لسان الله، ونحن وجه الله، ونحن عين الله في خلقه، ونحن ولاة أمر الله في عباده» (ج ١ ص ١٤٥).

● ولاية الأئمة ولاية الله، وظلمهم ظلمه:

«وبسنده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [البقرة: ٥٧]، قال إن الله تعالي أعظم وأجل وأمنع من أن يظلم، ولكنه خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ [المائدة: ٥٥] يعني الأئمة منا» (ج ١ ص ١٤٦).

● معرفة الإمام:

«وبسنده إلي أبي جعفر عليه السلام قال: إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبد هكذا ضلالاً. قلت: جعلت فداك، فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله ﷺ وموالاته علي عليه السلام، والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة إلي الله عز وجل من عدوهم، هكذا يعرف الله عز وجل» (ج ١ ص ١٨٠).

وبسنده إلي ابن أذينة قال: حدثنا غير واحد عن أحدهما عليه السلام أنه قال: لا يكون العبد مؤمناً حتي يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم وإمام زمانه ويرد إليه ويسلم له، ثم قال: كيف يعرف الآخر وهو يجهل الأول» (ج ١ ص ١٨٠).

● «وبسنده إلي أبي جعفر قال: إنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الإمام منا أهل البيت فإنما يعرف ويعبد غير الله، هكذا والله ضلالاً».

(ج ١ ص ١٨١)

= وباطنا في الاوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالاتة حينئذ جائز بالمخالفة كما قيل: كن وسطاً وامش جانباً... ثم قال: وفي العياشي عن الصادق قال: كان رسول الله ﷺ يقول (لا إيمان لمن لا تقية له)، ويقول: قال الله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، وفي الكافي عنه قال: التقية ترس الله بينه وبين خلقه. وعن الباقر قال: التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم وقد أحل الله له، والأخبار في ذلك مما لا يحصى).

ويقول السيد عبد الله العلوي في تفسيره لهذه الآية: «رخص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عدواتهم وهي التقية التي تدين بها الإمامية، ودلت عليها الأخبار المتواترة وقوله: ﴿إلا من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦]. (انظر: التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٩، ٧١، ٨٣،

(١٤١، ١٢٩)

● «وبسنده إلي ذريح قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأئمة بعد النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: كان أمير المؤمنين عليه السلام إماماً، ثم كان الحسن عليه السلام إماماً، ثم كان الحسين عليه السلام إماماً، ثم كان علي ابن الحسين إماماً، ثم كان محمد بن علي إماماً، من أنكر ذلك كان كمن أنكر معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة رسوله» (ج ١ ص ١٨١).

● «وبسنده إلي أبي عبد الله يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فقال: طاعة الله ومعرفة الإمام».

(ج ١ ص ١٨٥)

● «وبسنده إلي أبي جعفر يقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فقال «ميت»: لا يعرف شيئاً، و﴿نوراً يمشي به في الناس﴾ إماماً يؤتم به، ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾، قال: الذي لا يعرف الإمام» (ج ١ ص ١٨٥).

● «وبسنده إلي أبي جعفر قال: دخل أبو عبد الله الجدلي علي أمير المؤمنين فيقال عليه السلام: يا أبا عبد الله، ألا أخبرك بقول الله عز وجل ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمَنُونَ﴾ * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ [النمل: ٨٩ - ٩٠]، قال: بلي يا أمير المؤمنين، جعلت فداك، فقال: الحسنة معرفة الولاية وحبنا أهل البيت، والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت، ثم قرأ عليه هذه الآية» (ج ١ ص ١٨٥).

● فرض طاعة الأئمة:

«وبسنده إلي أبي عبد الله قال: نحن الذين فرض الله طاعتنا، لا يسع الناس إلا معرفتنا، ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمناً، ومن أنكرنا كان كافراً، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع إلي الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يمت علي ضلالته يفعل الله به ما يشاء» (ج ١ ص ١٨٧) (١).

(١) يقول ملا محسن الكاشي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾... الآية [النساء: ٥٩] ما نصه: «في الكافي والعياشي عن الباقر: إيانا عني خاصة.. أمر جميع المؤمنين إلي يوم القيامة بطاعتنا. وفي الكافي عن الصادق: أنه سئل عن الأوصياء.. طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾... الآية [النساء: ٥٩]، وقال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾... الآية [المائدة: ٥٥]، وفيه العياشي عنه في هذه الآية قال: نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين، فقال: إن الناس يقولون فماله لم يسم علياً وأهل بيته في كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى =

= كان رسول الله ﷺ فسر ذلك لهم، ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. ونزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله ﷺ في علي: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)، وقال: (أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتي يوردهما علي الحوض، فأعطاني ذلك) وقال: (لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم)، وقال: (إنهم لم يخرجوكم من باب هدي ولم يدخلوكم في باب ضلالة)، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين من أهل بيته لادعاه آل فلان وآل فلان، ولكن الله أنزل في كتابه تصديقا لنبيه: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] فكان علي والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال: (اللهم إن لكل نبي أهلا وثقلا، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي)، فقالت أم سلمة: ألسنت من أهلك؟ فقال: (إنك إلي خير، ولكن هؤلاء أهل بيتي وثقلي...) الحديث، وزاد العياشي: آل عباس، وآل عقيل، قيل قوله: وآل فلان. عن الصادق أنه سئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التي إذا أخذ بها زكي العمل ولم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق في الأموال والزكاة، والولاية التي أمر الله بها، ولاية آل محمد، فإن رسول الله ﷺ قال: (من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية).. قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.. فكان علي ثم صار من بعده الحسن، ثم من بعده الحسين، ثم من بعده علي بن الحسين، ثم من بعده محمد ابن علي، ثم هكذا يكون الأمر.. إن الأرض لا تصلح إلا بإمام..» الحديث. وفي المعاني عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدني ما يكون به الرجل ضالا، فقال: إن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته.. وجعله حجتة في أرضه، وشاهده علي خلقه.. قال: من هم يا أمير المؤمنين؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. قال: فقبلت رأسه وقلت: أوضحت لي، وفرجت عني، وأذهبت كل شئ كان في قلبي. وفي الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله، فمن أولوا الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: «هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر.. وستدرکه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسي ابن جعفر، ثم علي بن موسي، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سمعي محمد، وكنيته حجة الله في أرضه، وبقية في عباده، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح علي يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها علي القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان). قال جابر: فقلت: يا رسول الله، فهل لشيعته الانتفاع به في غيبته، فقال: (أي والذي بعثني بالنبوة أنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللتها سحب. يا جابر.. هذا من مكشور سر الله ومخزون علم الله فآكتمه إلا عن أهله).. والأخبار في هذا المعني في الكتب المتداولة المعتبرة لا تحصي كثرة. وفي التوحيد عن أمير المؤمنين اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسول، وأولي الأمر بالمعروف والعدل =

● «وبسنده إلى سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك، ما أنتم؟ قال: نحن خُرَّان علم الله، ونحن تراجمة وحى الله، ونحن الحجَّة البالغة على مَنْ دون السماء ومن فوق الأرض» (ج ١ ص ١٩٢).

● «وبسنده إلى أبي عبد الله في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُهُمُ الْعِبَائِثَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال: النور في هذا الموضع على أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام» (ج ١ ص ١٩٤).

● «وبسنده إلى صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥ - ٤٠]: فاطمة عليها السلام، ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾: الحسن، ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ﴾: الحسين، ﴿الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ﴾: فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾: إبراهيم عليه السلام، ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾: يكاد العلم ينفجر بها، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ﴾: إمام منها بعد إمام، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾: يهدي الله للأئمة من يشاء، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾.

قلت: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾؟ قال: الأول وصاحبه، ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾: الثالث، ﴿مَنْ فَوْقَهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ﴾: الثاني، ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: معاوية لعنه الله^(١)، ﴿وَفَتِنَ بَنِي أُمِّيَّةٍ﴾: إذا أخرج يده: المؤمن في ظلمة فتنتهم، ﴿لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾: إماماً من ولد فاطمة عليها السلام، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾: إمام يوم القيامة» (ج ١ ص ١٩٥).

=والإحسان. وفي العلل عنه: لا طاعة لمن عصي الله، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصية، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمر بمعصية) (التفسير والمفسرون: ١٢٦/٢ - ١٢٨).

(١) لا يجوز سب الصحابة رضوان الله عليهم فضلاً عن لعنهم، لقول الرسول ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدَّ أحدكم، ولا نصيفه».

(اتفق عليه الشيخان)

فضلاً عن أن «معاوية» - رضی الله عنه - كان أحد كتَّاب الوحي الذين ائتمنهم الرسول ﷺ على كتابته، وكان من الصحابة الأجلاء الذين قال الرسول ﷺ عنهم: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم بيمينه، ويمينه شهادته».

(رواه الشيخان)

وقد مات الرسول ﷺ وهو عنه راض، ولهذا يحرم سبه فضلاً عن لعنه (البلتاجي).

● سألته عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف: ٨] قال: يريدون ليطفئوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بأفواههم. قلت: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَتَمُّ نُورِهِ﴾؟ قال: يقول: والله متم الإمامة، والإمامة هي النور، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، قال: النور هو الإمام» (ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦).

● «وبسنده إلى أبي عبد الله، وساق حديثاً جاء في آخره: «... كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه باب الله الذي لا يُؤتى إلا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم، والجججة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى» (ج ١ ص ١٩٧).

● «وبسنده قال: حدثنا داود الجصاص قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، قال: النجم رسول الله ﷺ، والعلامات هم الأئمة عليهم السلام» (ج ١ ص ٢٠٦).

● «وبسنده إلى داود الرقي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، قال: الآيات هم الأئمة، والنذر هم الأنبياء عليهم السلام» (ج ١ ص ٢٠٧).

● «وعن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر: ٤٢]، يعني الأوصياء كلهم» (ج ١ ص ٢٠٧).

● «وبسنده إلى معاوية العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، قال: إيانا عنى» (ج ١ ص ٢٠٨).

● «وبسنده إلى أبي جعفر قال في قول الله عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، قال: نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الأبواب» (ج ١ ص ٢١٢).

● «وبسنده إلى أحمد بن عمير قال: سألت أبا الحسن الرضا عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [فاطر: ٣٢] الآية فقال ولد فاطمة عليها السلام، والسابق بالخيرات: الإمام، والمقتصد: العارف بالإمام، والظالم لنفسه: الذي لا يعرف الإمام» (ج ١ ص ٢١٥).

● «وبسنده إلى أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، قال: يهدي إلى الإمام» (ج ١ ص ٢١٦).

● «وبسنده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله قال: قال لي: يا أبا محمد، إن الله عز وجل لم يعط الأنبياء شيئاً إلا وقد أعطاه محمداً ﷺ، قال: وقد أعطى محمداً جميع

ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصحف التي قال الله عز وجل: ﴿صَحَفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٩]، قلت: جُعِلَتْ فداك، هي الألواح؟ قال: نعم» (ج ١ ص ٢٢٥).

● «وبسنده إلى أبي جعفر قال: ما ادَّعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب عليه السلام، والأئمة من بعده» (ج ١ ص ٢٢٨) (١).

(١) يرى الشيعة أن علياً رضي الله عنه هو أول من جمع القرآن، وأن القرآن الذي جمعه هو القرآن الكامل الذي لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ويروي لنا ملا محسن الكاشي في كتابه «الصافي في تفسير القرآن» أحاديث عن آل البيت كمستند له في رأيه هذا، فمن ذلك: ما نقله عن القمي في تفسيره بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن النبي ﷺ وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: يا علي، إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه في بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه، قال " كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه ».

ومنها ما رواه القمي بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل علي أبي عبد الله - وأنا أستمع - حروفاً من القرآن ليس علي ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله: كف عن هذه القراءة. اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة: وأخرج المصحف الذي كتبه علي عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعته بين اللوحين. فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان علي أن أخبركم حين جمعته لقراءته. ومن ذلك ما روى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: أنه لما توفي رسول الله ﷺ جمع علي عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم، لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا علي، اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه علي عليه السلام وانصرف، ثم حضر زيد بن ثابت - وكان قارئاً للقرآن - فقال له عمر: إن علياً جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتُسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن علي ما سألتكم وأظهر علي القرآن الذي ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟ ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبر في قتله علي يد خالد بن الوليد فلم يقدر علي ذلك.. فلما استخلف عمر سأل علياً عليه السلام أن يدفع إليه القرآن فيحرقه فيما بينهم فقال: يا أبا الحسن، إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأت به إلينا حتى نجمع عليه، فقال علي عليه السلام: هيهات، ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به لأبى بكر لتقوم به الحجّة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: ما جئنا به. إن القرآن الذي عندي لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي، فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال علي عليه السلام: نعم. إذا قام القائم من ولدي فيظهره ويحمل الناس عليه فتجري السنّة به» (الصافي في تفسير القرآن: ١/١٠، ١١).

= ولكننا نجد صاحبنا بعد ما ساق هذه الروايات وكثيراً غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول: «ويرد على هذا كله إشكال .. وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن، إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرّفاً ومغيّراً، أو يكون على خلاف ما أنزل الله، فلم يبق لنا في القرآن حُجّة أصلاً، فنتنبّئ في فائدة الأمر باتباعه والوصية بالتبسك به إلى غير ذلك. وأيضاً قال الله تعالى عز وجل: ﴿وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]... فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير؟ وأيضاً قد استفاض عن النبي والأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على كتاب الله ليعلم صحته بموافقتة له، وفساده بمخالفته [هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم]، فإذا كان القرآن الذي بأيدينا محرّفاً فما فائدة العرض؟ مع أن خير التحريف مخالف لكتاب الله مكذب له، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله.»

وهنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين:

«أولهما: أن هذه الأخبار إن صحّت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم علي وآل محمد، وحذف أسماء المنافقين، فإن انتفاء التغيير باق لعموم اللفظ. وثانيهما: أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير والبيان ولم يكن من أجزاء القرآن، فيكون التبديل من حيث المعنى، أي حرفوه وغيروه في تفسيره وتأويله، بأن حملوه على خلاف ما يراد منه» (الصافي: ١٠/١ - ١٤).

ثم ذكر بعد هذا أقوال من تقدمه من شيوخه وعلماء مذهبه. وهم ما بين مجيز للتحريف والنقصان ومانع لذلك، ولكل أدلته وحجته، ولا نطيل بذكرها ومن أرادها فليرجع إليها في المقدمة السادسة (ص ١٤، ١٥).

ويرى الشيعة أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله وأحاطوا بمعانيه وأسراره، ووقفوا على رموزه وإشاراته، ذلك لأن القرآن نزل في بيتهم - بيت النبوة - ورب البيت أدري بما فيه، وهو في هذه العقيدة لا يشذ وحده بل ذلك هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل ومتطرف.

يقول الكاشي في مقدمة تفسيره: «... وإن العترة تراجمة القرآن فمن الكشّاف عن وجوه عرايس أسراره ودقائقه وهم خوطبوا به؟ ومن لتبيان مشكلاته ولديه مجمع بيان معضلاته ومنع بحر حقائقه وهم أبو حسنه؟ ومن يشرح آيات الله وييسر تفسيرها بالرموز والصرّاح إلا من شرح الله صدره بنوره ومثله بالمشكاة والمصباح؟ ومن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل. وفي بيوتهم كان ينزل جبريل؟... وهي البيوت التي أذن الله أن تُرفع، فعنهم يؤخذ ومنهم يُسمع. إذن أهل البيت بما في البيت أدري، والمخاطبون بما خوطبوا به أوعى، فأين نذهب عن بابهم وإلى من نصير...؟» (الصافي: ٢/١).

ثم يمضي صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها - فيما نعتقد وكما يظهر من أسلوبها - من وضع الشيعة وأخلاقهم، فمن ذلك ما نقله عن الكافي بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول..... وساق الحديث إلى أن قال: «ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أقرأنيها وأملاها علي» =

= فأكتبها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلالٍ وحرامٍ، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا أعلمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي.. منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه.. أو تتخوف على النسيان فيما بعد؟. فقال: «لست أتخوف عليك نسياناً ولا جهلاً». قال: ورواه العياشي في تفسيره والصدوق في إكمال الدين. بتفاوت يسير في ألفاظه، وزيد في آخره: «وقد أخبرني ربي أنه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله، ومن شركائي من بعدى؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه وبى. فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فقلت: ومن هم؟ قال: الأوصياء مني إلى أن يردوا على الحوض، كلهم هادين مهتدين لا يضرهم من خذلهم، هم مع القرآن والقرآن معهم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، بهم تُنصر أمتي، وبهم تقطر، وبهم يدفع عنهم البلاء، وبهم يُستجاب دعاؤهم. فقلت: يا رسول الله، سمعهم لي.. فقال: ابني هذا.. ووضع يده على رأس الحسن، ثم قال: ابني هذا.. ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له «علي» وسيولد في حياتك فأقرئه مني السلام، ثم تكمله اثني عشر من ولد محمد. فقلت له: بأبي أنت وأمي.. أنت فسمهم لي، فسماهم، رجلاً رجلاً، فقال: منهم والله يا أبا بنى هلال مهدي أمة محمد، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والله إني لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم». (الصفاني: ١/٥، ٦)

ومنها ما نقله عن الكافي بإسناده إلى زيد الشحام.. قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة، أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون. فقال أبو جعفر عليه السلام: يعلم تفسيره أم بجهل؟ قال: لا.. بل بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسيه يعلم فانت أنت وأنا أسألك. قال قتادة: سل. قال: أخبرني عن قول الله تعالى في سبأ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيِّرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]. فقال قتادة: من خرج من بيته بزاد وراحلة وكري حلال يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع إلى أهله. فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك بالله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكري حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم. فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة.. إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة.. ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكري حلال يؤم هذا البيت عارفاً بحقنا، يهوانا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْعِدَّةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ولم يعين البيت فقيل إليه. نحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإن كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة. قال قتادة: لا جرم والله لا أفسرها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة.. إنما يعرف القرآن من خوطب به». (الصفاني في تفسير القرآن)

ولكن هل معنى ذلك أن ملا محسن يرى أن فهم معاني القرآن ومعرفة أسرارها أصبح أمراً =

= مقصوراً على أهل البيت وحدهم فيكون بذلك قد حجر واسعاً وجحد فضل من عداهم من العلماء؟ أو يرى أن القرآن في فهمه قدر مشترك بين العلماء جميعاً لا فرق بين أهل البيت وغيرهم؟ الحق أن صاحبنا يرى أن في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً، ولكن من هم أولوا الفهم الذين لا يجوز لهم أن يعملوا عقولهم في فهم معاني القرآن واستنباط أحكامه؟. نرى المؤلف يحدد لنا أولى الفهم بحدود، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعي، وذلك حيث يقول: «... فالصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام، وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ في العلم، والطمأنينة في المعرفة، وانفتح عيناً قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وياشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، ويستنبط منه نبذاً من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم. كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته فلا يبعد دخوله في الراسخين في العلم، العالمين بالتأويل».

(الصافي: ١٠/١)

ولما كان المؤلف - رحمه الله - قد جعل جُلَّ اعتماده في تفسيره، بل كله، على ما وصل إليه من التفسير عن آل البيت، لاعتقاده أنهم أدري به من غيرهم، فإننا نراه يرى - مع شيء من التواضع التقليدي - أن تفسيره هو التفسير المثالي الذي يجب أن يُحتذى، كما نراه لا يعترف بتفسير غيره ممن تقدم عصره بل ويبالغ في عدم الاعتراف فيظعن على من عدا أهل البيت من الصحابة ويرميهم بالنفاق وغيره، ولا يرتضى ما جاء عنهم من تفسير، كأن عقول الصحابة جميعاً قد عمقت وضلَّتْ إلا عقول أهل البيت ومن والأهم...

يقدر المؤلف هذا بكل صراحة وجراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله ﷺ وذلك حيث يقول: «... هذا يا إخواني ما سألتهموني من تفسير القرآن، بما وصل إلينا من أئمتنا المعصومين من البيان، أتيتكم به مع قلة البضاعة، وقصور يدي عن هذه الصناعة، على قدر مقدور، فإن المأمور معذور، والميسور لا يُترك بالمعسور، ولا سيما أنني كنت أراه أمراً مهماً، وبدونه أرى الخطب مدلهماً، فإن المفسرين وإن أكثروا القول في معاني القرآن، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسلطان، وذلك لأن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ومحكماً ومتشابهاً، وخاصياً وعماماً، ومبيناً ومبهماً، ومقطوعاً وموصولاً، وفرائض وأحكاماً، وسنناً وآداباً، وحلالاً وحراماً، وعزيمة ورخصة، وظاهراً وباطناً، وحداً ومطلعاً. ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل في بيته، وذلك هو النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، فكل ما لا يخرج من بيتهم فلا تعويل عليه، ولهذا ورد عن النبي ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ»، وقد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم في تفسير القرآن وتأويله أخبار كثيرة، إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين، وعلى أقدار المخاطبين، وبموجب إرشادهم إلى مناهج الدين، وبقيت بعد خبايا في زوايا، خوفاً من الأعداء وتقية من البعداء، ولعله مما برز وظهر لم يصل إلينا الأكثر، لأن رواته كانوا في محنة من التقية، وشدة من الخطر، وذلك أنه لما جرى في الصحابة ما جرى، وضل بهم عامة الوري، أعرض الناس عن الثقلين =

[يريد بالثقلين: كتاب الله والعترة كما أفصح عن ذلك في أول المقدمة ص ٤]، وتاهوا في بيداة ضلالتهم عن النجدين إلا شذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين، وعمهوا في غمرتهم حتى حين، فأل الحال إلى أن نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فكان الكتاب وأهله في الناس وليسوا في الناس، ومعهم وليسوا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا. وكان العلم مكتوماً، وأهله مظلوماً، لا سبيل لهم بإبرازه إلا بتعميته وإلغائه، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين ولا ناصبين، لم يدروا ما صنعوا بالقرآن، وعمن أخذوا التفسير والبيان. فعمدوا إلى طائفة يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا يفسرون لهم بالآراء، ويرون تفسيره عمّن يحسبونه من كبارهم، مثل أبي هريرة وأنس وابن عمر ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس، وكان خير من يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس، ممن ليس على قوله كثير تعويل، ولا له إلى لباب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله، وربما يسندونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، ومن الآخذين عنهم من لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم، لما تقرر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يبطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله ﷺ في عزة وشقاق، وهكذا كان حال الناس قرناً بعد قرن، فكان لهم في كل قرن رؤساء ضلالة، عنهم يأخذون، وإليهم يرجعون، وهم بأرائهم يجيبون، أو إلى كبارهم يستندون، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام في جملة ما يروون عن رجالهم، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتباً لهم ولأدب الرواية، إذ ما رعوها حق الرعاية، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب، وراموا غير باب الله أبواباً، واتخذوا من دون الله أرباباً، وفيهم أهل بيت نبينهم، وهم أئمة الحق، وسنة الصدق، وشجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، وعيبة العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا، خزائن أسرار الوحي والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والأمناء على الحقائق، والخلفاء على الخلائق. أولوا الأمر الذين أمروا بطاعتهم، وأهل الذكر الذين أمروا بمسألتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والراسخون في العلم الذين عندهم القرآن كله تأويلاً وتفسيراً، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون، إنا لله وإنا إليه واجعون. ولما أصبح الأمر كذلك وبقي العلم سخرياً هنالك صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم وحملوه على أهوائهم في تفاسيرهم وكلامهم والتفاسير التي صنّفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل؟ وكذلك التي صنّفها متأخرو أصحابنا فإنها أيضاً مستندة إلى رؤساء العامة وشذ ما نقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام، وذلك لأنهم إنما نسجوا على منوالهم، واقتصروا في الأكثر على أقوالهم، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء وهؤلاء - فإنما تكلموا في النحو، والصرف، والاشتقاق، واللغة، والقراءة، وأمثالها - مما يدور على القشور دون اللباب، فأين هم والمقصود من الكتاب؟ وإنما ورد على طائفة منهم ما قويت فيه منته، وترك ما لا معرفة له به مما قصرت عنه همته، ومنهم من أدخل في التفسير ما لا يليق به، فبسط الكلام في فروع الفقه وأصوله، وطول القول في اختلاف الفقهاء، أو صرف همته في المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء، وأما ما وصل إلينا مما ألفه قداماؤنا من أهل الحديث فغير تام، لأنه إما غير منته إلى آخر =

● «وبسنده إلى أبي جعفر قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة بعد عتمة وهو يقول: همهمة همهمة، وليلة مظلمة، خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم، وفي يده خاتم سليمان وعصا موسى عليهما السلام» (ج ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢).

● «وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام - في شأن «عفير» حمار رسول الله ﷺ - قال: إن ذلك الحمار كلّم رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي، إن أبي حدثنى عن أبيه عن جده عن أبيه أنه كان مع نوح في السفينة، فقام إليه نوح فمسح على كفله ثم قال: يخرج من صلب هذا الحمار حمار يركبه سيد النبيين وخاتمهم، فالحمد لله الذي جعلنى ذلك الحمار» (ج ١ ص ٢٣٧).

● مصحف فاطمة (١):

«وبسنده إلى أبي عبد الله قال: تظهر الزنادقة في سنة ثمان وعشرين ومائة، وذلك أنى نظرت في مصحف فاطمة عليها السلام قال: قلت: وما مصحف فاطمة؟ قال: إن

= القرآن، وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان، مع أن منه ما لم يثبت صحته عن المعصوم، لضعف رواته أو جهالة حالهم، ونكارة بعض مقالهم...» إلى أن قال: وبالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافي، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمخير والمتنافي» (ج ١ ص ٢ - ٤).

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم، فما كان من آية مدح فهي في آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهي في مخالفهم، ثم يقوى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة في هذا المعنى، فمن ذلك ما نقله عن الكافي وتفسير العياشي بالإسناد إلى أبي جعفر عليه السلام قال: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في أعدائنا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام»، وزاد العياشي: «ولنا كرائم القرآن»... ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية وأمثالها فقال: «وقد وردت أخبار جمّة عن أهل البيت عليهم السلام، في تأويل كثير من آيات القرآن بهم وأوليائهم وأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنّفوا كتباً في تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في تأويل آية إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم، على ترتيب القرآن. وقد رأيت منها كتاباً يقرب من عشرين ألف بيت»... ثم قال: «وذلك مثل ما رواه الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]... قال: هي الولاية لأمر المؤمنين عليه السلام». وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد... إذا سمعت الله ذكر قوماً من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فيهم عدونا، وفيه عن عبيد بن جنيطة عن أبي عبد الله عليه السلام: سأله عن قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]... قال: فلما رأني أتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: حسبك... كل شيء في الكتاب من فاتحته إلى خاتمته مثل هذا فهو في الأئمة عنوا به» (التفسير والمفسرون: ١١٠/٢ - ١١٨).

(١) مصحف فاطمة: جاء في البصائر: «أن أبا عبد الله سأل بعض الأصحاب عن مصحف =

الله تعالى لما قبض نبيه ﷺ دخل على فاطمة عليها السلام من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل إليها ملكاً يسلى غمها ويحدثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولى لى، فأعلمته بذلك فجعل أمير المؤمنين عليه السلام يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً، قال: ثم قال: إنه ليس فيه شىء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون» (ج ١ ص ٢٤٠).

● «وبسنده إلى أبى عبيدة قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر^(١) فقال: هو جلد ثور مملوء علماً. قال له: فالجامعة؟ قال: تلك صحيفة طولها

= فاطمة، فقال: «إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها. وكان جبريل يأتيها ويحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها. وكان على عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة» (أعيان الشيعة: ١/١٨٨).

(١) الجفر: هو غير الجامعة - وفيه يقول ابن خلدون: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلي وهو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر فى جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلي، وكتبه، وسماه: «الجفر» باسم الجلد الذى كتب فيه [المعروف من كتب الفقه أن الجفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، وفى القاموس: الجفر من أولاد الشاء ما عظم واستكرش]، لأن الجفر فى اللغة هو الصغير. وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى، مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرِفَ عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه، أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات» (المقدمة لابن خلدون ص ٣٧٣).

ويُعرفُ صاحب «أعيان الشيعة» الجفر بأنه كتاب أملاه رسول الله ﷺ على على رضى عنه، ويذكر فى ذلك أقوالاً متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها: «الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال، وحرام، وأحكام، وأصول ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم وما يصلحهم فى دنياهم، والإخبار عن بعض الحوادث، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد (أعيان الشيعة: ١/١٨٢). ثم ينكر على من يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم، ويتمثل بقول أبى العلاء المعرى:

لقد عجبوا لأهل البيت لما أروهم علمهم فى مسك جفر
مرآة المنجم وهى صغرى أرتة كل عامرة وقفر

ويقول العلامة ابن قتيبة: «وأعجب من هذا التفسير - يعنى تفسير المعتزلة - تفسير الروافض للقرآن، وما يدعونونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هارون بن سعد العجلي، وكان رأس الزيدية فقال:

الم تر أن الرافضين تفرَّقوا
 فطائفة قالوا : إمام . ومنهم
 ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم
 برئت إلى الرحمن من كل رافض
 إذا كف أهل الحق عن بدعة مضى
 ولو قال : إن الفيل ضبٌ لصدقوا
 وأخلف من بول البعير فإنه
 فقبح أقوام رموه بغيره

فكلهم في جعفر قال منكرا
 طوائف سمته النبي المطهرا
 برئت إلى الرحمن ممن تجفرا
 بصير باب الكفر . في الدين أورا
 عليها ، وإن يمضوا على الحق قصرا
 ولو قال : زنجي تحول أحمر
 إذا هو للإقبال وجه أدبرا
 كما قال في عيسى الفري من تنصرا

وهذا الذي ذكره ابن قتيبة عن هارون بن سعد العجلي ، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هارون بن سعد العجلي وهو يرويه عن جعفر الصادق ويمكن دفع هذا التناقض بأن نقول : إن هارون بن سعد العجلي ، وكان رافضياً مغالياً أول أمره ، وكان يروي هذا الجفر ويصدق به ، ثم رجع عن مذهبه وغلوه وتصديقه بالجفر ، وقال مقالته التي رواها ابن قتيبة بعد توبته . وهذا الذي ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء في تهذيب العجلي - ويقال الجعفي الكوفي الأعور - قال أحمد : روي عنه الناس ، وهو صالح وروي عن ابن معين أنه قال : ليس به بأس وذكره ابن حبان في الثقات ، وذكره أيضاً في الضعفاء ، قال : وكان غالباً في الرفض لا تحل عنه الرواية بحال . وروي عن ابن معين أيضاً أنه قال : كان من غلاة الشيعة . وقال الساجي : كان يغلو في الرفض ، وحكى أبو العرب الصقلبي عن ابن قتيبة أنه أشد له شعراً يدل على نزوعه عن الرفض ، [ونزع عن الرفض معناه : رجع عنه ، يقال : نزع عن الأمر إذا انتهى عنه وأباه . كما أفاده صاحب القاموس وغيره] .

قال أبو محمد : « وهو جفر ادعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلي علمه ، وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، فمن ذلك قولهم في قول الله عز وجل : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ [النمل : ١٦] : إنه الإمام ورث النبي ﷺ علمه . وقولهم في قول الله عز وجل : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ [البقرة : ٦٧] : إنها عائشة رضی الله عنها ، وفي قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ [البقرة : ٧٣] : إنه طلحة والزبير . وقولهم في الخمر والميسر : إنها أبو بكر وعمر - رضی الله عنهما - والجبت والطاغوت : أنهما معاوية وعمرو بن العاص . . مع عجائب أرغب عن ذكرها ، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها .

وكان بعض أهل الأدب يقول : ما أشبه تفسير الراضية للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر ، فإنه قال ذات يوم : ما سمعتُ بكاذب من بني تميم ، زعموا أن قول القائل :

بيت زرارة محتب بفنائها ومجاشع ، وأبو الفوارس نهشل

أنه في رجال منهم ... قيل له : فما تقول أنت فيهم ؟ قال : البيت : بيت الله . وزرارة : الحجر ، قيل : فمجاشع ؟ قال : رمز .. جشعت بالماء . قيل فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قيس ، قيل له : فنهشل ؟ قال : فنهشل ... أشده ، وفكر ساعة ثم قال : نهشل : مصباح الكعبة ، لأنه طويل أسود ، فذلك نهشل .

وهم أكثر أهل البدع اقترافاً ونحلاً ، فمنهم قوم يقال لهم « البيانية » ، يُنسبون إلى رجل يقال =

سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج^(١) فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وهي فيها حتى أرش الخدش. قال: فمصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: فسكت طويلاً ثم قال: إنكم لتبحثون عما تريدون وعما لا تريدون، إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً وكان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان على عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة عليها السلام» (ج ١ ص ٢٤١).

● الأئمة يزدادون علماً كل ليلة جمعة :

« روى بسنده إلى أبي يحيى الصنعاني عن أبي عبد الله بن سلام قال: قال لي: يا أبا يحيى، إن لنا في ليالي الجمعة لشأناً من الشأن؟ قال: قلت: جعلت فداك، وما ذاك الشأن؟ قال: يؤذن لأرواح الأنبياء الموتى عليهم السلام وأرواح الأوصياء الموتى وروح الوصي الذي بين ظهرانكم، يعرج بها إلى السماء حتى توافي عرش ربها فتطوف به أسبوعاً وتصلى عند كل قائمة من قوائم العرش ركعتين، ثم ترد إلى الأبدان التي كانت فيها فتصبح الأنبياء والأوصياء قد ملئوا سروراً، ويصبح الوصي الذي بين ظهرانكم وقد زيد في علمه مثل الجم الغفير» (ج ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٤).

● «عن أبي عبد الله قال: ما من ليلة جمعة إلا ولأولياء الله فيها سرور، قلت: كيف ذلك جعلت فداك؟ قال: إذا كان ليلة الجمعة، وافى رسول الله ﷺ العرش ووافى الأئمة عليهم السلام ووافيت معهم فما أرجع إلا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لنفد ما عندي» (ج ١ ص ٢٥٤).

= له «بيان»، قال لهم إلى أشار الله تعالى إذ قال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]

وهم أول من قال بخلق القرآن. ومنهم المنصورية، أصحاب أبي منصور الكسفي، وكان قال لأصحابه: في نزل قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ [الطور: ٤٤].. ومنهم الخناقون والشدأخون ومنهم الغرابية وهم الذين ذكروا أن علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب، فتغلط جبريل عليه السلام حيث بعث إلي علي لشبهه به.

قال أبو محمد: ولا نعلم في أهل البدع والأهواء أحدا ادعى الربوبية لبشر غيرهم، فإن عبد الله ابن سبأ ادعى الربوبية لعلي فأحرق علي أصحابه بالنار، وقال في ذلك:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبراً

ولا نعلم أحداً ادعى النبوة لنفسه غيرهم، فإن المختار بن أبي عبيد ادعى النبوة لنفسه، وقال: «إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته، فصدقهم قوم واتبعوه».. وهم الكيسانية. (تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ - ٨٨، وقنبر - المشار إليه - هو مولى علي بن أبي طالب الذي تولى طرحهم في النار).

(١) الفالج: الجمل العظيم ذو السنمين.

● «عن أبي عبد الله قال: ليس يخرج شيء من عند الله عز وجل حتى يبدأ برسول الله ﷺ، ثم بأمر المؤمنين عليه السلام، ثم بواحد بعد واحد لكيلا يكون آخرنا أعلم من أولنا» (ج ١ ص ٢٥٥).

● «عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنَّ لله عزَّ وجلَّ علمين: علم لا يعلمه إلا هو، وعلم علمه ملائكته ورسله، فما علمه ملائكته ورسله عليهم السلام فنحن نعلمه» (ج ١ ص ٢٥٦).

● «عن أبي عبد الله - في آخر حديث طويل - أنه أوما بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب والله كله عندنا، علم الكتاب والله كله عندنا» (ج ١ ص ٢٥٧).

● الأولياء يُخَيَّرُونَ في موتهم :

«عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أراد الإمام أن يعلم شيئا أعلمه الله ذلك» (ج ١ ص ٢٥٨).

● «عن الحسن بن الجهم قال: قلت للرضا عليه السلام: إن أمير المؤمنين قد عرف قاتله والليله التي يُقتل فيها والموضع الذي يُقتل فيه وقوله لما سمع صياح الأوز في الدار: صوايح تتبعها نوائح، وقول أم كلثوم: لو صليت الليلة داخل الدار وأمرت غيرك يُصلى بالناس، فأبى عليها وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح، وقد عرف عليه السلام أن ابن ملجم - لعنه الله - قاتله بالسيف، كان هذا مما لم يجز تعرضه، فقال: ذلك كان، ولكنه خيّر في تلك الليلة لتمضى مقادير الله عز وجل» (ج ١ ص ٢٥٩).

● «عن ابن الحسن موسى عليه السلام قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غضب على الشيعة فخيّرني نفسي أو هم، فوقيتهم والله بنفسى» (ج ١ ص ٢٦٠).

● عند الأولياء علم ما كان وما يكون :

«عن أبي جعفر قال: أنزل الله تعالى النصر على الحسين عليه السلام حتى كان ما بين السماء والأرض، ثم خيّر: النصر أو لقاء الله، فاختر لقاء الله» (ج ١ ص ٣٦٠).

● «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنني لأعلم ما في السموات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان ويكون. قال: ثم مكث هنيهة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه فقال: علمت ذلك من كتاب الله عز وجل: إن الله عز وجل يقول: «فيه تبيان كل شيء»^(١)» (ج ١ ص ٢٦١).

● «وفي حديث لأبي جعفر قال: أترون أن الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه

(١) هكذا بالأصل: قال معلقه: لعله نقل بالمعنى، فإن في المصاحف: ﴿تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

أو كان - في قراءتهم عليهم السلام - والآية من سورة النحل: ٨٩

على عباده ثم يخفى عنهم أخبار السموات والأرض، ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم؟» (ج ١ ص ٢٦٢).

● «وفي حديث لأبي جعفر قال: الله أجل وأعز وأكرم من أن يفرض طاعة عبد

يحجب عنه علم سمائه وأرضه، ثم قال: لا يحجب ذلك عنه» (ج ١ ص ٢٦٢).

● «وعن أبي جعفر قال: نزل جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام برمانتين من

الجنة، فلقيه على عليه السلام فقال: ما هاتان الرمانتان اللتان في يدك؟ فقال: أما هذه

فالنبوة ليس لك فيها نصيب، وأما هذه فالعلم، ثم فلقها رسول الله ﷺ بنصفين

فأعطاه نصفها، وأخذ رسول الله ﷺ نصفها، ثم قال: «أنت شريكى فيه وأنا شريك

فيه»، قال: فلم يعلم والله رسول الله ﷺ حرفاً مما علمه الله عز وجل إلا وقد علمه

علياً، ثم انتهى العلم إلينا، ثم وضع يده على صدره» (ج ١ ص ٢٦٣).

● «وعن أبي جعفر قال: لو كان لألسنتكم أوكية لحدثت كل امرئ بما له وما

عليه» (ج ١ ص ٢٦٤).

● «وفي حديث لأبي عبد الله قال: إن الله عز وجل فوض إلى سليمان فقال: ﴿هَذَا

عِطَاؤُنَا فَامْنِنْ أَوْ امْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، وفوض إلى نبيه عليه الصلاة

والسلام فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فما

فوض إلى رسول الله ﷺ فقد فوضه إلينا» (ج ١ ص ٢٦٦).

● «عن أبي عبد الله قال: الأئمة بمنزلة رسول الله ﷺ^(١) إلا أنهم ليسوا بأنبياء ولا

يحل لهم من النساء ما يحل للنبي ﷺ، فأما ما خلا ذلك فهم فيه بمنزلة الرسول ﷺ»

(ج ١ ص ٢٧٠).

(١) يرى الشيعة أن لأئمتهم عصمة كالأنبياء تماماً، وليس هذا لغيرهم، ويجب الرجوع إليهم

عند الاختلاف وعدم وجود نص من الكتاب والسنة، أما من عداهم من الناس فلا يصح الرجوع

إليه بحال من الأحوال، لأن غير المعصوم لا يرجع إليه، ولا يؤخذ برأيه في مسائل الخلاف.

ويقول السيد عبد الله العلوي الشهير بـ «شير» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] يقول: «دل على وجود أولى

الأمر في كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم، وعصمتهم، ولا ينطبق إلا على

مذهب الإمامية.. وعينهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة.. أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة

بطاعتنا. ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ﴾: من أمور الدين. ﴿فَرُدُّوهُ﴾: فراجعوا

فيه. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: إلى محكم كتابه.. ﴿وَالرَّسُولَ﴾: بالأخذ بسنته، والمراجعة إلى من أمر

بالمراجعة إليه. فإنها رد إليه. وقرئ: «فإن خفتم تنازعاً في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى

أولى الأمر منكم».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَلَوَّدُّوهُ إِلَى

الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّ الَّذِينَ يُسْتَبْطِنُونَ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]... يقول: =

• «عن أبي عبد الله قال: يعرف الذي بعد الإمام علم من كان قبله في آخر دقيقة تبقى من روحه» (ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٥).

• «عن زيد بن الجهم الهلالي، عن عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: لما نزلت ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان من قول رسول الله ﷺ: سلّموا علي علي بإمرة المؤمنين، فكان مما أكبر الله عليهما في ذلك اليوم يا زيد: قول رسول الله ﷺ لهما: قوما فسّلما عليه بإمرة المؤمنين فقالا: أمن الله أو من رسوله يا رسول الله؟ فقال لهما رسول الله ﷺ: «من الله ومن رسوله، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١): يعني به قول رسول الله ﷺ لهما وقولهما: أمن الله أو من رسوله؟ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْكَبُ مِنْ أُمَّتِكُمْ﴾ قال: قلت: جعلت فداك، أئمة؟ قال: إي والله أئمة. قلت: فإننا نقرأ «أرسي»، فقال: ما أربي؟ وأوماً بيده فطرحها، ﴿إِنَّمَا يَبُورُ كَمَا يَبُورُ اللَّهُ بِهِ﴾ يعني بعلي عليه السلام، ﴿وَلَيَسِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن: يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا تتخذوا أيمانكم دخالاً بينكم فنزل قدم بعد ثبوتها: يعني مقالة رسول الله ﷺ في علي عليه السلام، ﴿وَتَذَوَّقُوا السَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: يعني به علياً عليه السلام، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (ج ١ ص ٢٩٢) (٢).

= ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾: هم آل محمد عليهم السلام: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾: يستخرجون تدبيره بأفكارهم وهم آل محمد عليه السلام.

(التفسير والمفسرون: ١٤١/٢)

(١) النحل: ٩١ وما بعدها.

(٢) يدين الشيعة بإمامة علي رضي الله عنه، ويرون أنه خليفة النبي ﷺ بلا فصل، لذا تراهم يحاولون بكل جهودهم أن يثبتوا إمامته وولايته من القرآن، فالطبرسي - مثلاً - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].. يبذل مجهوداً كبيراً لاستخلاص وجوب إمامة علي رضي الله عنه من هذه الآية، فنجده أولاً يتكلم عن المعاني اللغوية لبعض مفردات الآية فيفسر «المولى» بقوله: «المولى هو الذي يلي النصرة والمعونة، والمولى هو الذي يلي تدبير الأمر. يقال: فلان ولي أمر المرأة: إذا كان يملك تدبير نكاحها. وولي الدم: من كان إليه المطالبة بالقدود. والسلطان ولي أمر الرعية. ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده: ولي عهد المسلمين. قال الكميت يمدح علياً:

ونعم ولي الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويروى الفتوى: «وإنما أراد ولي الأمر والقائم بتدبيره، قال مبرد في كتاب «العبرة عن صفات الله»: «أصل الولي الذي هو أولى أي أحق، ومثله المولى». ثم بعد ذلك فسر الطبرسي «الركوع» و«الحزب»، ثم ذكر الإعراب، ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل: «... بينا =

= عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله ﷺ: إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ إلا قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذو الغفارى، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمتا، ورأيت بهاتين وإلا عميتا يقول: «على قائد البررة، وقاتل الكفرة، ومنصور من نصره، ومخذول من خذله»: أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللهم إنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئاً، وكان على راکعاً فأوى بخنصره اليمنى إليه - وكان يتختم فيها - فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ، فلما فرغ النبي من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن أخى موسى سألنى فقال: ﴿رَبِّ اشرح لي صدري﴾ * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هرون أخى * أشدد به أزري * وأشرکه في أمري ﴿طه: ٢٥ - ٣٢﴾. . . فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما﴾ [القصص: ٣٥]. . . اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لى صدري، ويسر لى أمري، واجعل لى وزيراً من أهلى، علياً أشدد به ظهري، قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه فقال: «يا محمد.. اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال اقرأ: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ [المائدة: ٥٥]. . . وروى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبي فى تفسيره بهذا الإسناد بعينه. وروى أبو بكر الرازى فى كتاب «أحكام القرآن» - على ما حكاه المغربى عنه - والرماني، والطبرى أنها نزلت فى علي حين تصدق بخاتمه وهو راکع، وهو قول مجاهد والسدى، والمروى عن أبى جعفر وأبى عبد الله وجميع علماء أهل البيت. وقال الكليني: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية. وفى رواية عطاء: قال عبد الله بن سلام: يا رسول الله، أنا رأيت علياً تصدق بخاتمه وهو راکع فنحن نتولاه. وقد رواه السيد أبو الحمد عن أبى القاسم الحسكاني بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبى صالح أبى الصلاح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمنوا بالنبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذا المجلس، وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه رفضونا وآلوا علي أنفسهم أن لا يجالسوننا ولا يناكحونا ولا يكلمونا فشق ذلك علينا، فقال لهم النبي ﷺ: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. . . الآية، ثم إن النبي خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراکع، فبصر بسائل، فقال النبي ﷺ: «هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال: نعم.. خاتم من فضة، فقال النبي: «من أعطاكه؟ قال: ذلك القائم - وأوماً بيده إلى علي - فقال النبي ﷺ: علي أى حال أعطاكه؟ قال: أعطاني وهو راکع. فكبر النبي ثم قرأ: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾. . . فانشأ حسان بن ثابت يقول فى ذلك:

أبا حسن تفديك نفسى ومهجتي	وكل بطيء فى الهدى ومسارع
أيدهب مدحيك المحير ضائعاً	وما المدح فى جنب الإله بضائع
فأنت الذى أعطيت إذ كنت راکعاً	زكاة فدتك النفس يا خير راکع
فأنزل فيك الله خير ولاية	وثبتها ثبت الكتاب الشرائع

= وفى حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مع رهط من قومه يشكروا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من قومهم، فبينما هم يشكون إذ نزلت هذه الآية، وأذن بلال فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وإذا بمسكين يسأل، فقال ﷺ: «ماذا أعطيت؟» قال: خاتم من فضة، قال: «من أعطاكه؟» قال: ذلك القائم. فإذا هو عليّ. قال: «عليّ أى حال أعطاكه؟» قال: أعطاني وهو راعع، فكبر رسول الله ﷺ وقال: ﴿ومن يتول الله ورسوله﴾. ثم شرح المعنى فقال: «ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. أى الذى يتولى مصالحكم ويحقق تدبيركم هو الله تعالى، ورسوله يفعل به أمره. . . ﴿والذين آمنوا﴾. ثم وصف الذين آمنوا فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ بشرائها. . . ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أى يعطون الزكاة. . . ﴿وهم راععون﴾ أى فى حال الركوع. وهذه الآية من أوضح الأدلة على صحة إمامة عليّ بعد النبي ﷺ بلا فصل. والوجه فيه: أنه إذا ثبت أن لفظة: ﴿وليكم﴾ فى الآية من هو أولى بتدبير أموركم ويجب طاعته عليكم، وثبت أن المراد بـ «الذين آمنوا» عليّ، ثبت النص عليه بالإمامة ووضح. والذى يدل على الأول هو الرجوع إلى اللغة، فمن تأملها علم أن القوم نصوا على ذلك، وقد ذكرنا قول أهل اللغة فيه قبل فلا وجه لإعادته. وإن الذى يدل على أنها فى الآية تفيد ذلك دون غيره، أن لفظة: ﴿إنما﴾ على ما تقدم ذكره تفيد التخصيص ونفى الحكم عن عدا المذكور، كما يقولون: إنما الفصاحة للجاهلية، ويعنون نفي الفصاحة عن غيرهم. وإذا تقرّر هذا لم يجز حمل لفظة: «الولى» على الموالاة فى الدين والمحبة، لأنه لا تخصيص فى هذا المعنى لمؤمن دون مؤمن آخر، والمؤمنون كلهم مشتركون فى هذا المعنى، كما قال سبحانه: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ [التوبة: ٧١]. وإذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر وهو التحقيق بالأمر، وما يقتضى فرض الطاعة على الجمهور لأنه لا محتمل للفظ إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر. والذى يدل على أن المعنى بـ «الذين آمنوا» هو عليّ، والرواية الواردة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية فيه لما تصدق بخاتمته فى حال الركوع، وقد تقدم ذكرها، وأيضاً فإن كل من قال إن المراد بلفظه: «ولى» ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة، ذهب إلى أنه المقصود بالآية والمنفرد، ولا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا ويذهب إلى أن المعنى بها سواه. وليس لأحد أن يقول: إن لفظة: ﴿الذين آمنوا﴾ لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الأفراد، وذلك أن أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التفضيم والتعظيم، وذلك أشهر فى كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه. وليس لهم أن يقولوا: إن المراد بقوله: ﴿وهم راععون﴾، أن هذه شيمتهم وعادتهم ولا يكون حالاً لإيتاء الزكاة، وذلك لأن قوله: ﴿يقيمون الصلاة﴾ قد دخل فيه الركوع، فلو لم يحمل قوله: ﴿وهم راععون﴾ على أنه حال من ﴿يؤتون الزكاة﴾، وحملناه على من صفتهم الركوع، كان ذلك كالتكرار غير المفيد، والتأويل المفيد أولى من البعيد الذى لا يفيد. ووجه آخر فى الدلالة على أن الولاية فى الآية مختصة، أنه قال: ﴿إنما وليكم الله﴾ فخاطب جميع المؤمنين، ودخل فى الخطاب النبي ﷺ وغيره، ثم قال: ﴿ورسوله﴾. فأخرج النبي ﷺ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال: ﴿والذين آمنوا﴾. فوجب أن يكون الذى خاطب بالآية هو الذى جعلت له الولاية وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، =

= وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولي نفسه، وذلك محال. واستيفاء الكلام في هذا الباب يطول به الكتاب ومن أراد فليطلبه من مظانه...».

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة، فإن حديث تصدق عليّ بخاتمه في الصلاة - وهو محور الكلام - حديث موضوع لا أصل له، وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى في كتابه «منهاج السنّة» (ج ١ ص ٣ - ٩).

ويقول الحسين العسكري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]... يقول: «قال العالم موسى بن جعفر: إن رسول الله ﷺ لما أوقف أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في يوم الغدير موقفه المشهور، ثم قال: يا عباد الله انسيوني، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: يا أيها الناس، ألسن أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلي يا رسول الله، فنظر إلى السماء وقال: اللهم أشهد بقول هؤلاء - وهو يقول ويقولون ذلك ثلاثاً - ثم قال: ألا فمن كنت مولاه وأولى به فهذا عليّ مولاه وأولى به، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب فقال: يخ يخ يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرقوا عند ذلك وقد وكدت عليهم العهود والمواثيق. ثم إن قوماً من متمرديههم وجبايرتهم تواطأوا بينهم لئن كان لحمد كائنة ليدفعن هذا الأمر من عليّ ولا يتركونه، فعرف الله ذلك من قبلهم، وكانوا يأتون رسول الله ويقولون: لقد أقمنا علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا فكفيتنا مؤنة الظلمة لنا، والمتجبرين في سياستنا، وعلم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطاة بعضهم لبعض على العداوة مقيمين، ولدفع الأمر عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمداً عنهم فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾. الذي أمرك بنصب عليّ إماماً وسائساً لأمتك ومدبراً، ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك، لكنهم يتواطئون على إهلاكك وإهلاكه، يوظفون أنفسهم على التمرد على عليّ إن كانت بك كائنة» (ص ٤١ - ٤٢).

وعند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].. يقول: «قال موسى بن جعفر: إذ قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة، قال لهم خيار المؤمنين كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار: آمنوا بهذا النبي وسلّموا لهذا الإمام، موقفه وأقامه مقامه وأناط مصالح الدين والدنيا كلها به، وآمنوا بهذا النبي وسلّموا لهذا الإمام، وسلّموا له في ظاهر الأمر وباطنه كما آمن الناس المؤمنون كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار، قالوا في الجواب لمن يفرضون إليه - لا لهؤلاء المؤمنين - فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب، ولكنهم يذكرون لمن يفرضون إليه من أهلهم والذين يثقون بهم من المنافقين ومن المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾... يعنون سلمان وأصحابه لما أعطوا علياً خالص ودهم ومحض طاعتهم، وكشفوا رؤوسهم بموالة أوليائه ومعاداة أعدائه حتى إن إضمحل أمر محمد طحطحتهم أعداؤه، وأهلكهم سائر الملوك والمخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء، قال الله عز وجل: =

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ ﴾ . . . الأخفاء العقول والآراء، الذين لم ينظروا في أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته، ويعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين والدنيا، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين، وصاروا خائفين وجلين من محمد وذريته ومن مخالفهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه . فهم السفهاء حيث لا يُسَلِّمُ لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد والمؤمنين ولا محبة اليهود وسائر الكافرين، لأنهم يظهرون ل محمد من موالاته وموالاته أخيه على ومعادة أعدائهم اليهود والنصارى، كما يظهرون لهم من معاداة محمد وعلى وموالاته أعدائهم، فهم يقدرون فيهم نفاقهم معهم كنفاقهم مع محمد وعلى، ولكن لا يعلمون أن الأمر كذلك وأن الله يُطَلِّعُ نبيه على أسرارهم فيخشاهم ويلعنهم ويسقطهم» (ص ٤٤ - ٤٥).

وعند تفسيره ليقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠] . . . يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ . . . من صفة محمد وصفة على وحليته، ﴿ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ . . . قال: والذي أنزلناه هو ما أظهرناه من الآيات على فضلهم ومحلهم، كالغمامة التي تظل رسول الله في أسفاره، والمياه الأجاجة التي كانت تعذب في الآبار بريقه، والأشجار التي كانت تتهدل ثمارها بنزوله تحتها، والعاهات التي كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث ريقه فيها، وكالآيات التي ظهرت على على من تسليم الجبال والصخور والأشجار قائلة: يا ولي الله ويا خليفة رسول الله، السموم القاتلة التي تناولها من سمي باسمه عليها ولم يصبه بلاؤها . . . وسائر ما خصه الله تعالى به من فضائله، فهذا من الهدى الذي بينه الله للناس في كتابه . . . (ص ٢٣٦ - ٢٣٧).

أما ملا محسن الكاشي فإنه عندما يفسر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥] . . . نراه يستند إلى هذه الآية استناداً قوياً في أن علياً رضي الله عنه هو وصي النبي ﷺ وخليفته من بعده، فيقول ما نصه: «في الكافي عن الصادق في تفسير هذه الآية: «أولى بكم» أي أحق بكم وبأموالكم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا - يعني علياً وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة - ثم وصفهم الله فقال: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ . . . وكان أمير المؤمنين في صلاة الظهر - وقد صلى ركعتين - وهو راكع، عليه حلة قيمتها ألف دينار، وكان النبي أعطاه إياها، وكان النجاشي أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولي الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم . . . تصدق علي مسكين، فطرح الحلة إليه، وأوماً بيده إليه أن أحملها، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية، وصبر نعمة أولاده بنعمته، فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدقون وهم راكعون. والسائل الذي سأل أمير المؤمنين من الملائكة، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة. وعنه عن أبيه عن جده في قوله عز وجل: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣] . . . قال: لما نزلت ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ﴾ . . . الآية، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد المدينة فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرنا، وإن آمننا فإن هذا ذل حين يُسَلِّطُ علينا علي بن أبي طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول، ولكننا نتولاه ولا نطيع علياً فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ =

= **يُنْكِرُونَهَا** ﴿﴾ يعنى ولاية على.. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالولاية، وعنه أنه سئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: نعم هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].. وهم الذين قال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾... الآية، وروى المؤلف غير ذلك من الروايات، وكلها يدور حول هذا الشأن.. ثم ادعى إجماع الأمة على أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راعع غير رجل واحد هو على.. ثم علل عدم ذكره باسمه فى الكتاب بأنه لو ذُكر باسمه فى الكتاب لَأَسْقَطَ مع ما أسقط... ثم وفق بين الروايات القائلة بأنه تصدق بخلته وبين الروايات القائلة بأنه تصدق بخاتمه فقال: «لعله تصدق مرة فى ركوعه بالخلّة، ومرة بالخاتم.. والآية نزلت بعد الثانية. وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾.. إشعار بذلك، لتضمنه التكرار والتجدد، كما أن فيه إشعاراً بفعل أولاده أيضاً (ج ١ ص ١٦٤).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، نراه يحمل التبليغ المأمور به - عليه السلام - على تبليغه للناس إمامة على وولايته.. ويروى هنا قصة طويلة جداً.. ويروى خطبة النبى ﷺ لأصحابه عند «غدير خم»، وهى خطبة طويلة كذلك، وفى الخطبة يقول رسول الله ﷺ مبيناً سبب نزول الآية: «وأنا مبين لكم سبب هذه الآية: إن جبريل هبط إلى مراراً ثلاثة، يأمرنى عن السلام ربى، وهو السلام: أن أقوم فى هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علياً بن أبى طالب أخى، ووصىي وخليفتى، والإمام من بعدى الذى محله منى محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدى وهو وليكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله عليّ بذلك آية من كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].. وعلى بن أبى طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راعع، يريد الله عز وجل فى كل حال، وسألت جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعلمى بقلة المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الأثمين، وحيل المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، وكثرة أذاهم لى غير مرة حتى سمونى أذنباً، وزعموا أنى كذلك لكثرة ملازمتى إياي وإقبالى عليه، حتى أنزل الله عز وجل فى ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.. الآية [التوبة: ٦١]، ولو شئت أن أسميهم بأسمائهم لسميت، وأن أومىء إليهم لأعيانهم لأومات، وأن أدل عليهم لدلت، ولكنى - والله - فى أمورهم قد تكبريت، وكل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أبلغ ما أنزل إليّ.. ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فى على ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾.. إلخ (ج ١ ص ١٦٥ - ١٧١).

ومثلاً عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ الآية [النساء: ٥٩]، نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما من عداهم فليسوا أولى الأمر، وليس يجب على أحد أن يقوم بطاعتهم، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه الآية ما نصه: «فى الكافى والعياشى عن الباقر: إيانا عنى خاصة.. أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا. وفى الكافى عن الصادق: أنه سئل عن الأوصياء.. طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.. الآية، وقال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾.. الآية، وفيه العياشى عنه فى هذه الآية قال: نزلت فى على بن أبى طالب والحسن والحسين، فقال: =

= إن الناس يقولون: فما له لم يسم علياً وأهل بيته في كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ فسُر ذلك لهم، ونزلت: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . ونزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله ﷺ في علي: « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » . وقال: « أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما على الحوض، فأعطاني ذلك » . وقال: « لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم »، وقال: « إنهم لم يخرجوكم من باب هدى ولم يدخلوكم في باب ضلالة »، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين من أهل بيته لأدعاهما آل فلان وآل فلان، ولكن الله أنزل في كتابه تصديقاً لنبيه: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فكان علي والحسن والحسين وفاطمة، فادخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء في بيت أم سلمة، ثم قال: « اللهم إن لكل نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي »، فقالت أم سلمة: أأنت من أهلك؟ فقال: « إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهل بيتي وثقلي... » الحديث، وزاد العياشي: « آل عباس »، و « آل عقيل »، قبل قوله: وآل فلان. عن الصادق أنه سُئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التي إذا أخذ بها زكى العمل ولم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق في الأموال والزكاة، والولاية التي أمر الله بها، ولا يآل مجحد، فإن رسول الله قال: « من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية » . قال الله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . فكان علي، ثم صار من بعده الحسن، ثم بعده الحسين، ثم من بعده علي بن الحسين، ثم من بعده محمد بن علي، ثم هكذا يكون الأمر... إن الأرض لا تصلح إلا بإمام... » الحديث. وفي « المعاني » عن سليم ابن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ فقال: أن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته وجعله حجة في أرضه، وشاهده علي خلقه... قال: فمن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . قال: فقبلت رأسه وقلت: أوضحت لي، وفرجت عني، وأذهبت كل شيء كان في قلبي. وفي « الإكمال » عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك، فقال: هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدى، أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي.

ويذكر السيد عبد الله العلوي الشهير بـ « شير » عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، فيذكر أنها « نزلت في علي عليه السلام حين سأل سائل وهو راكع في صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمها منها » ويدعى إطباق أكثر المفسرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين - جانب الموافقين وجانب المخالفين - ثم يقول بعد ذلك: « وتدل - يعني الآية - على إمامته دون من سواه، للخصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيماً، أو لدخول أولاده الطاهرين » (ص ٢٦٤).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧]، يروى عن أهل البيت وابن عباس وجابر: « أن الله أوحى إلى نبيه أن =

= يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال: ألسنتُ أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى.. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه» (ص ٢٦٨).

ويدين هذا المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولاً لأجد من الناس، بل كل إمام يوصى لمن بعده، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية [النساء: ٥٨]، يعترف بأن الأمر يعم كل مكلف وكل أمانة.. ثم يقول: «وعنهم - عليهم السلام - أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده» (ص ٢٠٣).

وعند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٦]، يقول: «وفيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار» (ص ٨٧٣).

ويقرر سلطان محمد الخراساني في تفسيره إمامة علي رضي الله عنه، وخلافته للنبي ﷺ بدون فصل، فمثلاً في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].. نجده يؤكد أن الآية نازلة في حق علي رضي الله عنه، وأن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة، ويرد على من يخالف ذلك بما يظهره من الدليل، كما يبين السر الذي من أجله ذكر علي بوصفه دون اسمه. وذلك حيث يقول: «قد ورد من طريق العامة والخاصة أن الولاية نازلة في علي حين تصدق في المسجد في ركوع الصلاة بخاتمة أو بحلته التي كان قيمتها ألف دينار. ومفسرو العامة لا ينكرون الأخبار في كونها نازلة في أمير المؤمنين، وقد نقلوا بطرق عديدة من روايتهم أنها نزلت في علي، ومع ذلك يقولون في تفسيرها: إن الآية نزلت بعد النهي عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء، ولا شك أن المراد بالأولياء هناك أولياء المعاشرة، بقريئة المقابلة، وبقريئة جمع المؤمنين، ولو كان المراد أمير المؤمنين وبالولاية ولاية التصرف لصرح باسمه، أو لقال: «والذي آمن» بالإفراد، وهم غافلون عن أنه لو صرح باسمه.. أو أفرد المؤمن - مع الاتفاق في أنها نازلة في أمير المؤمنين - لأسقطوه تمويهاً على عابدي عجلهم، فنقول: نسبة الولاية أولاً إلى الله، ثم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، ثم إلى الذين آمنوا؛ تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التي في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].. لأن ولاية الله ليست ولاية المعاشرة ولا ولاية الرسول، بقريئة العطف، وبما هو معلوم من الخارج، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقريئة العطف، وبقريئة عدم تكرار الولي، فإن المراد أن الولاية ههنا أمر واحد مترتب في الظهور، فإن ولاية الرسول ليست شيئاً سوى ولاية الله، وولاية الله تتحقق بولاية الرسول، فهكذا ولاية الذين آمنوا، فإنها ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تظهر في ولاية الذين آمنوا على ما قاله الشيعة، ولو كان المراد ولاية المعاشرة كان «أولياؤكم» بلفظ الجمع أولى، وتقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في حال الركوع يدل على أنها ليست ولاية المعاشرة، وإلا لكان جملة المؤمنين فيها سواء، وليس كل المؤمنين متصفين بالصفات المذكور، علي أنه لا خلاف معتداً في «أنها نزلت في علي وصورة الأوصاف خاصة به، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ - بالمضارع - إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم، يعني جالهم استمرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في حال الخضوع لله، لا في حال بهجة النفس، لأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا اتَّوُوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].. بخلاف الفاعل من قبل النفس، =

• «عن أبي عبد الله قال: لما حضر رسول الله ﷺ الموت دخل عليه علي عليه السلام فأدخل رأسه، ثم قال: يا علي، إذا أنا مت فغسلني وكفني ثم أقعدني وسلني واكتب» (ج ١ ص ٢٩٧).

• الغيبة :

«وفي حديث عن موسى بن جعفر قال: إذا فقد الخامس من ولد السابع فالله الله في أديانكم لا يزيلكم عنها أحد، يا بني إنه لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به» (ج ١ ص ٣٣٦).

• «وفي حديث لأبي عبد الله قال: أما والله ليغيبن إمامكم سنيماً من دهركم ولتمحضن حتى يقال: مات، قُتِل، هلك بأى واد سلك؟ ولتدمعن عليه عيون المؤمنين» (ج ١ ص ٣٣٦).

= فإنه شأنه الارتضاء بفعله، وتوقع المدح من الغير على فعله، لأن كل حزب من أحزاب الناس بما لديهم فرحون، ويحبون أن يُحمدوا على ما لم يفعلوا، فضلاً عما فعلوا. واستمرار الصفات بحسب المعنى: لعلي وأولاده المعصومين بشهادة أعدائهم، وبحسب الصورة: ما كان أحد مصداقها إلا علي نقلاً عن طريق العامة والخاصة. ووقع صدور الزكاة في الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة. وفي نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب والإتيان بأداة الحصر دالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف، فإنها ثابتة لله ذاتاً ورسوله ولخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله، وليس لأحد شركة فيها، وليس المراد بها ولاية المعاشرة التي تكون بالمواضعة والاتخاذ، وإلا لم يكن للحصر وجه، وكان اقتضاء المقابلة أن يقول: بل أنتم أولياء الله. إلخ، أو: بل اتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ولأن المراد بها ولاية التصرف التي كانت بالذات لله قال في عكسه: ﴿ومن يتول الله ورسوله والأذنين آمنوا﴾ [المائدة: ٥٦] إشعاراً بأن الولاية السابقة هي ولاية التصرف وليست لغير الله إلا قبولها، ومن قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطاً بالله وخلفائه، ومن صار مرتبطاً بالله صار من حزب الله، ومن صار من حزب الله كان غالباً ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ [المائدة: ٥٦]. . . ولو كان المراد بها المعاشرة لكان الأولى أن يقول: ومن يتخذ الله، أو: ومن صار ولياً لله، والحاصل: أن في لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف، وأنها بعد الرسول ليست لحملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائناً من كان، متعدداً أو منفرداً، سواء قلنا نزلت في علي أو لم ينزل، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه، ونزلت الآية في حقه، والمراد بـ ﴿الذين آمنوا﴾ ههنا، هم الموصوفون في الآية السابقة، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عين الأولى» (ج ١ ص ١٢٤).

وعند قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧]، نجد يدعى - كغيره من الإمامية - أن القراءة الصحيحة كانت: «بلغ ما أنزل إليك من ربك في علي»، ويحمل التبليغ المأمور به النبي ﷺ على ذلك فحسب، ويمنع إرادة العموم، ويقيم الأدلة على ذلك رداً على من يدعى العموم، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامة علي رضي الله عنه بنص القرآن الكريم.

● «وعن أبي عبد الله قال: يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه» (ج ١ ص ٢٣٧، ٢٣٨).

● «وعن موسى بن جعفر في قوله الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، قال: إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد» (ج ١ ص ٣٤٠).

● «عن أم هانئ قالت: سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قوله الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ * الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦]، قالت: فقال: إمام يخنس سنة ستين ومائتين، ثم يظهر كالشهاب يتوقد في الليلة الظلماء، فإن أدركت زمانه قررت عينك» (ج ١ ص ٣٤١).

● مميزات الأئمة وعلاماتهم:

«عن جميل بن دراج قال: روى عن غير واحد من أصحابنا أنه قال: لا تتكلموا في الإمام، فإن الإمام يسمع الكلام وهو في بطن أمه، فإذا وضعت كتب الملك بين عينيه: ﴿وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ [الأنعام: ١١٥]، فإذا قام بالأمر رفع له في كل بلد منار ينظر منه إلى أعمال العباد» (ج ١ ص ٣٨٨).

● «عن أبي جعفر قال: للإمام عشر علامات: يولد مطهراً مختوناً، وإذا وقع على الأرض وقع على راحته رافعاً صوته بالشهادتين، ولا يجنب، وتنام عيناه ولا ينام قلبه، ولا يتشاءب، ولا يتمطى، ويرى من خلفه كما يرى من أمامه، ونجوه كرائحة المسك، والأرض موكلة بستره وابتلاعه، وإذا لبس درع رسول الله ﷺ كانت عليه وفقاً، وإذا لبسهما غيره من الناس طويلهم وقصيرهم زادت عليه شبراً، وهو محدث إلى أن تنقضى أيامه» (ج ١ ص ٣٨٨ - ٣٨٩).

■ «عن أبي عبد الله قال: إن الله خلقنا من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينه مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكننا نحن خلقاً وبشراً نورانيين لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيباً، وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل من تلك، ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيباً إلا للأنبياء، ولذلك صرنا نحن وهم الناس، وصار سائر الناس همجاً للنار وإلى النار» (ج ١ ص ٣٨٩).

● «وعن أبي جعفر قال: إن الله خلقنا من أعلى عليين، وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إلينا لأنها خلقت مما خلقنا، ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّن * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّون * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ - ٢١]، وخلق عدونا من سجين، وخلق

شيعتهم مما خلقهم منه، وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إليهم، لأنها خلقت مما خلقوا منه، ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٍ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٧-٩]. (ج ١ ص ٣٩٠).

● «عن سدير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام وهو داخل وأنا خارج وأخذ بيدي، ثم استقبل البيت فقال: يا سدير، إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا، وهو قول الله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] - ثم أوما بيده إلى صدره - إلى ولايتنا، ثم قال: يا سدير، فأريك الصادقين عن دين الله، ثم نظر إلي أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد فقال: هؤلاء الصادقون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين، إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله ﷺ، حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله ﷺ» (ج ١ ص ٣٩٢).

● «عن أبي حمزة الثمالي قال: دخلت على علي بن الحسين عليهما السلام فاحتبست في الدار ساعة، ثم دخلت البيت وهو يلتقط شيئاً، وأدخل يده من وراء الستر فناوله من كان في البيت، فقلت جُعِلتُ فداك، هذا الذي أراك تلتقطه أي شيء هو؟. فقال: فضلة من زغب الملائكة فجمعه إذا خلونا، نجعله سيحاً^(١) لأولادنا، فقلت: جُعِلتُ فداك، وإنهم ليأتونكم؟ فقال: يا أبا حمزة، إنهم ليزاحموننا على تكآتنا» (ج ١ ص ٣٩٤).

● «وعن أبي الحسن عليه السلام قال: ما من ملك يُهبطه الله في أمر ما يهبطه إلا بدأ بالإمام فعرض ذلك عليه، وإن مختلف الملائكة من عند الله تبارك وتعالى إلى صاحب هذا الأمر» (ج ١ ص ٣٩٤).

● «عن زرارة قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام فقال له رجل من أهل الكوفة يسأله عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: «سلوني عما شئتم فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به». قال: إنه ليس أحد عنده علم شيء إلا خرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فليذهب الناس حيث شاءوا، فوالله ليس الأمر إلا من ههنا، وأشار بيده إلى بيته» (ج ١ ص ٣٩٩).

● «عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

(١) قال معلقه: بفتح المهملة وسكون المثناة التحتانية: ضرب من البرود. أو سباحاً (بالموحدة) من السبحة. أه.

جَهُولًا ﴿[الأحزاب: ٧٢]، قال: هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.﴾ (ج ١ ص ٤١٣)

- «عن أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ﴾ [طه: ١١٥]: كلمات في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام في ذُرِّيَّتِهِمْ، ﴿فَنَسِي﴾، هكذا والله نزلت علي محمد ﷺ» (١).
- «عن أبي جعفر قال: ﴿أَفْكَلَمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: محمد، ﴿بِمَا لَا تَهْوَى

(١) يرى الشيعة أن الرسول ﷺ وآل بيته كانوا معروفين عند الأمم السابقة، وكان لهم أشياع وأتباع يوالونهم، ويتوسلون بهم، وينالهم الخير والبركة بسبب حبهم. وهذه الروايات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات التي تسلطت على عقول أولئك القوم، ومن هذه الروايات - مثلاً - ما ذكره سلطان محمد الخراساني في قصة قتل بني إسرائيل المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ الآيات (البقرة: ٦٧) إلى آخر القصة من أن موسى جمع أمثال القبيلة التي وجد القتل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القوي الشديد إله بني إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً» (ج ١ ص ٥٧).

وبعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذه البقرة المذكورة بأوصافها في القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بني إسرائيل أراه الله في منامه محمداً وعلياً وطيبى ذريتهما فقالا: إنك كنت لنا محبباً مفضلاً، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك في الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أمك، فإن الله يلقنها ما يغنيك وعقبك، وجاء القوم يطلبون بقرته، فقالوا: بكم تباع بقرتك هذه؟ قال: بدينارين، والخيار لأمي. قالوا: وضيئنا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا: نعطيك دينارين، فأخبر أمه: فقالت ثمانية.. فما زالوا يطلبون على النصف مما تقول أمه، ويرجع إلى أمه فتضعف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر ما يكون دانير، فأوجب لهم البيع فذبحوها وما كادوا يفعلون..» (ج ١ ص ٥٨).

وبعد ذلك بقليل يقول: «وفي تفسير الإمام أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى وقالوا: افتقرت القبيلة، وانسخلتا بلجاجنا عن قليلنا وكثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا ﷺ، فأوحى الله إليه: ليذهب رؤساؤهم إلى خربة بني فلان ويكشفوا عن موضع كذا ويستخرجوا ما هنالك، فإنه عشرة آلاف دينار، وليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة ما دفع، لتعود أحوالهم على ما كانت، ثم ليتقاسموا بعد ذلك ما يفضل وهو خمسة آلاف دينار على قدر ما دفع كل واحد منهم، لتضاعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد وآله، واعتقادهم لتفضيلهم» (ج ١ ص ٥٨).

كما يروى أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبي محمد وآله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يحييه لهم فاستجاب، وأن القتل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد وآله أن يبقيه في الدنيا متمتعاً بآبنة عمه، ويجزى عنه أعداءه، ويرزقه رزقاً كثيراً طيباً، فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التي عاشها قبل ذلك، وعاش في الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتعاً بحلال الدنيا، وعاش معها لم يفارقها ولم تفارقه، وماتا جميعاً معاً، وصارا إلى الجنة وكانا فيها زوجين ناعمين» (ج ١ ص ٥٨ - وانظر التفسير والمفسرون: ١٥٨/٢ - ١٥٩).

أَنْفُسِكُمْ ﴿: بمِوَالاةِ عَلِيٍّ، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا﴾: من آلِ مُحَمَّدٍ، ﴿كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. (ج ١ ص ٤١٨).

• «عن عبد الله بن كثير، عن أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ * عن النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿[النبا: ١ - ٢]، قال: النَّبِيُّ الْعَظِيمُ: الْوَلَايَةُ، وَسَأَلْتَهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿هِنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤]، قال: وَلَايَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» (ج ١ ص ٤١٨).

• «وعن إدريس بن عبد الله عن أبي عبد الله قال: سألته عن تفسير هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴿[المدثر: ٤٢ - ٤٣]، قال: عَنِّي بِهَا: لَمْ نَكُ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ * أَوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿[الواقعة: ١٠ - ١١]، أَمَا تَرَى النَّاسَ يُسَمِّونَ الَّذِي يَلِي السَّابِقَ فِي الْحَلْبَةِ مَصْلَى، فَذَلِكَ الَّذِي عَنَى حَيْثُ قَالَ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾: لَمْ نَكُ مِنْ أَتْبَاعِ السَّابِقِينَ» (ج ١ ص ٤١٩).

• «عن أبي جعفر في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَأَلْذِينَ كَفَرُوا﴾: بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ، ﴿قَطَّعْتَ لَهُمْ ثِيَابَ مَنْ نَارٍ﴾ [الحج: ١٩] (ج ١ ص ٤٢٢).
• «قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فَقَالَ: لَيْسَ هَكَذَا هِيَ، إِنَّمَا هِيَ: «وَالْمُؤْمِنُونَ»، وَنَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ» (ج ١ ص ٤٢٤).

• «عن علي بن جعفر عن أخيه موسى في قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، قال: الْبِئْرُ الْمُعَطَّلَةُ: الْإِمَامُ الصَّامِتُ، وَالْقَصْرُ الْمَشِيدُ: الْإِمَامُ النَّاطِقُ» (ج ١ ص ٤٢٧).

• «حَدَّثَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد المدينة فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في هذه الآية؟ فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرنا، وإن آمنا فهذا ذل حين يسلط علينا ابن أبي طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول ولكننا نتولاه ولا نطيعه علينا فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾، يعرفون: يعني ولاية علي بن أبي طالب، وأكثرهم الكافرون بالولاية» (ج ١ ص ٤٢٧).

• «عن عبد الله بن سليمان عن أبي عبد الله قال: سألته عن الإمام فوض الله إليه كما فوض إلى سليمان بن داود؟ فقال: نعم، وذلك أن رجلاً سأله عن مسألة فأجابته

فيها، وسأله آخر عن تلك المسألة فأجابته بغير الجواب الأول، ثم سأله آخر فأجابته بغير جواب الأولين، ثم قال: «هذا عطاؤنا فامنن أو (أعط)، بغير حساب»^(١)، وهكذا هي على قراءة علي عليه السلام، قال: قلت: أصلحك الله، فحين أجابهم بهذا الجواب يعبرفهم الإمام؟ قال: سبحان الله، أما تسمع الله يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، وهم الأئمة، ﴿وَإِنهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٦]، لا يخرج منها أبداً... ثم قال لي: نعم، إن الإمام إذا أبصر الرجل عرفه وعرف لونه، وإن سمع كلامه من خلف حائط عرفه وعرف من هو، إن الله يقول: ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وهم العلماء، فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطق به إلا عرفه، ناج أو هالك [هكذا بالأصل]، فلذلك يجيبهم بالذي يجيبهم» (ج ١ ص ٤٣٩).

* * *

نقول من الجزء الثاني

• «عن أبي جعفر قال: بُنِيَ الإسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يناد بشيء كما نودى بالولاية»^(٢)، فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه - يعني الولاية» (ج ٢ ص ١٨).

• «وعن الصادق قال: أثنافى الإسلام ثلاثة: الصلاة، والزكاة، والولاية، لا تصح واحدة منهن إلا بصاحبيتها» (ج ٢ ص ١٨).

• «عن زرارة، عن أبي جعفر قال: بُنِيَ الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرارة: فقلت: وأى شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالى هو الدليل عليهن...»

وفيه: أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره، ولم يعرف ولاية ولى الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله جل وعز حق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان» (ج ٢ ص ١٨، ١٩).

• التقيّة^(٣):

«عن أبي عبد الله في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾

(١) يشير إلى قوله تعالى في الآية ٣٩ من سورة ص: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(٢) جاء في حديث آخر: «لم يناد بشيء ما نودى بالولاية يوم الغدير» (ج ٢ ص ٢١).

(٣) التقيّة: معناها المدارة والمصانعة، وهى مبدأ أساسى عندهم، وجزء من الدين، يدعون لإمامهم المختفى، ويظهرون الطاعة لصاحب السلطان، فإذا قويت شوكتهم أعلنوا ثورة مسلحة فى وجه الدولة الظالمة - وقد سبق تعريفها.

[القصص: ٥٤]، قال: بما صبروا على التقية، ﴿وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، قال: الحسنة التقية، والسيئة: الإذاعة» (ج ٢ ص ٢١٧).

● «عن أبي عمر الأعجمي: قال: قال لى أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا عمر، إن تسعة أعشار الدين فى التقية، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية فى كل شىء إلا فى النبذ والمسح على الخفين»^(١) (ج ٢ ص ٢١٧).

● «قال أبو عبد الله: التقية من دين الله، قلت: من دين الله؟ قال: إى والله من دين الله، ولقد قال يوسف: ﴿أَيُّهَا الْعَيْرِ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، والله ما كانوا سرقوا شيئاً، ولقد قال إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، والله ما كان سقيماً» (ج ٢ ص ٢١٧).

● «قال أبو عبد الله: ما بلغت تقية أحد تقية أصحاب الكهف، إن كانوا ليشهدون الأعياد، ويشدون الزنانير، فأعطاهم الله أجرهم مرتين» (ج ٢ ص ٢١٨).

● «قال أبو جعفر: «خالطوهم بالبرانية، وخالطوهم بالجوانية إذا كانت الإمرة صيبانية» (ج ٢ ص ٢٢٠).

● تحريف القرآن^(٢):

«عن أحمد بن محمد بن أبى النصر قال: دَفِعَ إِلَى أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَصْحُفًا وَقَالَ: لَا تَنْظُرْ فِيهِ، فَفَتَحْتَهُ وَقَرَأْتُ فِيهِ: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [يقصد سورة البينة]، فوجدتُ فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال: فبعثتُ إلى أبعث إليّ بالمصحف» (ج ٢ ص ٦٣١).

(١) قال معلقه: ذلك لعدم مسيس الحاجة إلى التقية إلا نادراً، أو يكون نفى التقية فيهما باعتبار رعاية زمان هذا الخطاب ومكانه، وحال المخاطب وعلمه عليه السلام بأنه لا يضطر إليها.

(٢) يوي الشيعة أن القرآن الذى جمعه على عليه السلام. وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل. أما ما عدها فمحرّف أو مبدل، حُذِفَ مِنْهُ كُلُّ مَا وَرَدَ صَرِيحاً فِي فُضَائِلِ آلِ الْبَيْتِ، وَكُلُّ مَا وَرَدَ صَرِيحاً فِي مَثَلِ أَعْدَائِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ..

يقول سلطان محمد الخراساني فى كتابه «بيان السعادة فى مقامات العبادة» ما نصه: «اعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع فى صدور بعضها منهم وتأويل الجميع بأن الزيادة والنقيصة والتغيير إنما هى فى مدركاتهم من القرآن لا فى لفظ القرآن كلغة، ولا يلىق بالكاملين فى مخاطباتهم العامة، لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام والخواص، وصرف اللفظ عن ظاهره من غير صارف، وما توأموه صارفاً من كونه مجموعاً عندهم فى زمن النبى، وكانوا يحفظونه ويدرسونه، وكانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير التبديل، حتى ضبطوا قراءات القرأ وكيفيات قراءاتهم.

فالجواب عنه: أن كونه مجموعاً غير مُسَلَّم، فإن القرآن نزل فى مدة رسالته إلى آخر عمره نجوماً، وقد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور وبعض الآيات فى العام الآخر، وما ورد من أنهم جمعوه بعد رحلته، وأن علياً جلس فى بيته مشغولاً بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره. =

● «عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السلام وأنا أسمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله: كف عن هذه القراءة، اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام القائم عليه السلام، قرأ كتاب الله عز وجل على جده، وأخرج المصحف الذي كتبه على عليه السلام، وقال: أخرجه على عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه فقال لهم: هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعته من اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن، لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان على أن أخرجكم حين جمعته لتقرأوه» (ج ١ ص ٦٣٣).

● «عن أبي عبد الله قال: إن القرآن الذي جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية» (ج ٢ ص ٦٣٤).

= وكونهم يحفظونه ويدرسونه مسلّم، لكن كان الحفظ والدرس فيما كان بأيديهم، واهتمام الأصحاب بحفظه وحفظ قراءات القراء وكيفيات قراءاتهم كان بعد جمعه وترتيبه، وكما كانت الدواعي متوفرة في حفظه، كذلك كانت متوفرة من المنافقين في تغييره. وأما ما قيل: إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه، والحال أننا مأمورون بالاعتماد عليه، واتباع أحكامه، والتدبر في آياته، وامتنال أوامره ونواهيه. وإقامة حدوده، وعرض الأخبار عليه، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير والتحريف عن ظواهرها، لأن الاعتماد على هذا المكتوب ووجوب اتباعه، وامتثال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده، وإتمام أحكامه، إنما هي للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذكر، للقطع بأن ما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على محمد ﷺ من غير نقیصة وزيادة وتحريف فيه. ويستفاد من هذه الأخبار: أن الزيادة والنقيصة والتغيير إن وقعت في القرآن لم تكن مخلّة بمقصود الباقي منه، بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم، وفي الباقي منه حجّتهم أهل البيت، وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حجة قطعية لنا ولو كان مغيّراً تغييراً مخلاً، وإن لم نتوسل بهم أو لم يأمرنا باتباعه، وكان التوسل به، واتباع أحكامه، واستنباط أوامره ونواهيه، وحدوده، وأحكامه، من قبل أنفسنا كان من قبيل التفسير بالرأى الذي منعوا منه، ولو لم يكن مغيّراً» (ج ١ ص ١٢).

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل في القرآن، فإننا نجد عندنا بصطدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].. يحاول أن يتخلص من هذا النص الذي يجب عليه فيقول: «ولا ينافي حفظه تعالى للذكر بحسب حقيقة التحريف في صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع في الصورة المماثلة له كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ كِتَابَ بَأْيَدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].. وكما قال: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]..

كذلك نجد السيد عبد الله العلوي الشهير بـ «شبر» عندما بصطدم بهذه الآية، نجد يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾: عند أهل الذكر واحداً بعد واحد إلى القائم، أو في اللوح.. وقيل: الضمير للنبي ﷺ.

● فرض الرُّجْلَيْن «المسح» (١) :

«قال أبو عبد الله: إنه يأتي على الرجل ستون وسبعون سنة ما قبل الله منه صلاة. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأنه يغسل ما أمر الله بمسحه» (ج ١ ص ٣١).

(١) بل فرض الرجلين الغسل لا المسح.. يقول في «الفرقة على المذاهب الأربعة» في كتاب الطهارة: «رابعها: غسل الرجلين مع الكعبين مرة، وهما العظمان البارزان في أسفل الساق فوق القدم، ويجب عليه أن يتعهد عقبيه بالغسل بالماء، لقوله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار»، كما يجب عليه أن يتعهد الشقوق التي تكون في باطن القدم، ومن قُطِعَ من رجله بعض ما يجب غسله، وجب عليه أن يغسل ما يبقى، فإن قُطِعَ موضع الفرض كله سقط الغسل». ويقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

الثالثة عشرة - قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، قرأ نافع وابن عامر والكسائي: «وأرجلكم» بالنصب، وروى الوليد بن مسلم عن نافع أنه قرأ: «أرجلكم» بالرفع وهي قراءة الحسن والأعمش سليمان، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة: «وأرجلكم» بالخفض.. ويحسب هذه القراءات اختلفت الصحابة والتابعون.

فمن قرأ بالنصب جعل العامل «اغسلوا» وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل دون المسح، وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء، وهو الثابت من فعل النبي ﷺ، واللازم من قوله في غير ما حديث، وقد رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح فنأدى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء».

ثم إن الله حدّهما فقال: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ كما قال في اليدين: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، فدل على وجوب غسلهما، والله أعلم...

ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء، قال ابن العربي: اتفقت العلماء على وجوب غسلهما، وما علمت من رد ذلك سوى الطبري من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم، وتعلق الطبري بقراءة الخفض».

ثم يقول القرطبي: «قلت: قد روى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان.

وروى أن الحجاج خطب بالاهواز فذكر الوضوء فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، فإنه ليس شيء من ابن آدم من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما، فسمع ذلك أنس بن مالك فقال: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾. قال: وكان إذا مسح رجله بلهما، وروى عن أنس أيضاً أنه قال: نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل، وكان عكرمة يمسح رجله وقال: ليس في الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح، وقال عامر الشعبي: نزل جبريل بالمسح، ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غسلًا، ويلغى ما كان مسحًا، وقال قتادة: افترض الله غسلتين ومسحتين. وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح، وجعل القراءتين كالروايتين [أي كالروايتين في الخبر، يعمل بهما إذا لم يتناقضا].. قال الحسن: ومن أحسن ما قيل فيه: إن المسح والغسل واجبان جميعاً، فالمسح واجب على قراءة من قرأ بالخفض، والغسل واجب على قراءة من قرأ بالنصب، =

= والقراءتان بمنزلة آيتين، قال ابن عطية: وذهب قوم ممن يقرأ بالكسر إلى أن المسح في الرجلين هو الغسل».

ويعقب القرطبي على الرأي الأخير بقوله: «قلت: وهو الصحيح، فإن لفظ المسح مشترك، يُطلق بمعنى المسح ويُطلق بمعنى الغسل، قال الهروي: أخبرنا الأزهرى، أخبرنا أبو بكر محمد ابن عثمان بن سعيد الدارى عن أبي حاتم عن أبي زيد الأنصارى قال: المسح في كلام العرب يكون غسلاً ويكون مسحاً، ومنه يقال للرجل إذا توضع فغسل أعضائه: قد تمسح، ويقال: مسح الله ما بك، إذا غسلك وطهرك من الذنوب.. فإذا ثبت بالنقل عن العرب أن المسح يكون بمعنى الغسل، فترجع قول من قال: إن المراد بقراءة الخفض الغسل، بقراءة النصب التي لا احتمال فيها، وبكثرة الأحاديث الثابتة بالغسل، والتواعد على ترك غسلها في أخبار صحاح لا تحصى كثرة أخرجها الأئمة..

ثم إن المسح في الرأس إنما دخل بين ما يُغسل لبيان الترتيب على أنه مفعول قبل الرجلين، التقدير: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم، فلما كان الرأس مفعولاً قبل الرجلين قُدِّمَ عليهما في التلاوة - والله أعلم - لا أنهما مشتركان مع الرأس لتقدمه عليهما في صفة التطهير.

وقد روى عاصم بن كليب عن أبي عبد الرحمن السلمى قال: قرأ الحسن والحسين - رحمة الله عليهما - «أرجلكم» - بكسر اللام - فسمع على ذلك وكان يقضى بين الناس فقال: «وأرجلكم» - بالنصب - هذا من المقدم والمؤخر من الكلام.

وروى أبو إسحاق عن الحارث عن عليّ رضى الله عنه قال: اغسلوا الأقدام إلى الكعبين. وكذا روى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ: «وأرجلكم» بالنصب...

وقد قيل: إن الخفض في الرجلين إنما جاء مفيداً لمسحهما لكن إذا كان عليهما خفان، وتلقينا هذا القيد من رسول الله ﷺ، إذ لم يصح عنه أن مسح رجله إلا وعليهما خفان، فبين ﷺ بفعله الحال الذي تُغسل فيه الرجل والحال التي تمسح فيه، وهذا حسن.

فإن قيل: إن المسح على الخفين منسوخ بسورة المائدة - وقد قاله ابن عباس، ورد المسح أبو هريرة وعائشة، وأنكره مالك - في رواية عنه - فالجواب: أن من نفى شيئاً وأثبته غيره فلا حجة للنافي، وقد أثبت المسح على الخفين عدد كثير من الصحابة وغيرهم، وقد قال الحسن: حدثني سبعون رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أنهم مسحوا على الخفين، وقد ثبت بالنقل الصحيح عن همام قال: بال جرير ثم توضع ومسح على خفيه، وأن رسول الله ﷺ بال ثم توضع ومسح على خفيه. قال إبراهيم النخعي: كان يعجبهم هذا الحديث، لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة، وهذا نص يرد ما ذكره وما احتجوا به من رواية الواقدي عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، أن جريراً أسلم في ستة عشر من شهر رمضان، وأن «المائدة» نزلت في ذي الحجة يوم عرفات، وهذا حديث لا يثبت لوهاه، وإنما نزل منها يوم عرفة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [المائدة: ٣]. على ما تقدم، قال أحمد بن حنبل: أنا أستحسن حديث جرير في المسح على الخفين، لأن إسلامه كان بعد نزول المائدة، وأما ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنهما فلا يصح، وأما عائشة فلم يكن عندها بذلك علم، ولذلك ردت السائل إلى عليّ رضى الله عنه، وأحاطته عليه فقالت: «سله، فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ...» الحديث.

= وأما مالك، فما روى عنه من الإنكار فهو منكر لا يصح، والصحيح ما قاله عند موته لابن نافع: إني كنت آخذ في خاصة نفسى بالطهور، ولا أرى من مسح مقصراً فيما يجب عليه. وعلى هذا حمل أحمد بن حنبل ما رواه ابن وهب عنه أنه قال: لا أمسح في حَضْرٍ ولا سَفَرٍ. قال أحمد: كما روى عن ابن عمر أنه أمرهم أن يمسخوا خفافهم وخلع هو وتوضأ. وقال: حَبِّبْ إِلَى الوُضوءِ، ونحوه عن أبى أيوب، وقال أحمد رضى الله عنه: فَمَنْ ترك ذلك على نحو ما تركه ابن عمر وأبو أيوب ومالك لم أنكره عليه، وصلينا خلفه ولم نعبه، إلا أن يترك ذلك ولا يراه كما صنع أهل البدع، فلا يُصَلَّى خلفه، والله أعلم.

وقد قيل: إن قوله: «وأرجلكم» - بالجر - معطوف على اللفظ دون المعنى، وهذا أيضاً يدل على الغسل فإن المراعى المعنى لا اللفظ، وإنما الخفض للجوار كما تفعل العرب، وقد جاء هذا فى القرآن وغيره.. [وساق أمثلة ..]

ثم قال: «قلت: والقاطع فى الباب من أن فرض الرجلين الغسل ما قدمناه، وما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام: «ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار» [فى رواية أحمد]، فخوفنا بذكر النار من مخالفة مراد الله عز وجل، ومعلوم أن النار لا يُعَذَّبُ بها إلا مَنْ ترك الواجب، ومعلوم أن المسح ليس شأنه الاستيعاب، ولا خلاف بين القائلين بالمسح على الرجلين أن ذلك على ظهورهما لا على بطونهما، فتبين بهذا الحديث بطلان قول مَنْ قال بالمسح، إذ لا مدخل لمسح بطونهما عندهم، وإنما ذلك يُدْرَكُ بالغسل لا بالمسح.

ودليل آخر من جهة الإجماع، وذلك أنهم اتفقوا على أن مَنْ غسل قدميه فقد أدَّى الواجب عليه، واختلفوا فيمن مسح قدميه، فاليقين ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه. ونقل الجمهور كافة عن كافة عن نبيهم ﷺ أنه كان يغسل رجله فى وضوئه مرة واثنين وثلاثاً حتى ينقيهما، وحسبك بذلك حجة فى الغسل مع ما بيناه، فقد وضع أن قراءة الخفض المعنى فيها الغسل لا المسح، كما ذكرنا، وأن العامل فى قوله: «وأرجلكم» - بالنصب - قوله «فاغسلوا» والعرب قد تعطف الشيء على الشيء بفعل ينفرد به أحدهما، نقول: أكلت الخبز واللبن: أى وشربت اللبن..

ثم ساق أمثلة، ثم قال: «فيكون قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ عطف بالغسل على المسح حملاً على المعنى، والمراد الغسل، والله أعلم».. (انظر تفسير القرطبي، طبع الشعب ص ٢٠٨٨ - ٢٠٩٣ بتصريف - البلتاجى).

ويقول فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبى: «يقول الطبرسى - كغيره من علماء مذهبه - بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلت على شيء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه، فعندما فسّر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].. يقول ما نصه: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾: اختلف فى ذلك، فقال جمهور الفقهاء: إن فرضهما الغسل، وقالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره، وبه قال عكرمة. وقد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين. كابن عباس، وأنس وأبى العالية والشعبى. وقال الحسن البصرى بالتخيير بين المسح والغسل، وإليه ذهب =

= الطبري والجبائي إلا أنهما قالا: يجب مسح جميع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم. قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية: يجب الجمع بين المسح والغسل، وروى عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله ﷺ فمسح على رجليه. وروى عنه أنه قال: إن في كتاب الله المسح، ويأبى الناس إلا الغسل. وقال: الوضوء غسلتان ومسحتان. وقال قتادة: فرض الله غسلتين ومسحتين. وروى ابن عليه، عن حميد، عن موسى بن أنس: أنه قال لأنس ونحن عنده: إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم، وإنه ليس شيء من بني آدم أقرب من خبثه من قدميه، فإغسلوا بطونيهما وظهوريهما وعراقيبهما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.. قال: فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما. وقال الشعبي: نزل جبريل عليه السلام بالمسح. وقال: إن في التيمم يُمسح ما كان غسلاً، ويُغنى ما كان مسحاً. وقال يونس: حدثني من صحب عكرمة إلى واسط. قال: فما رأيته غسل رجليه، إنما كان يمسح عليهما - وأما ما روى عن سادة أهل البيت في ذلك فأكثر من أن يُحصى، فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازي، عن فضالة، عن حماد بن عثمان، عن غالب بن هذيل قال: سألت أبا جعفر عن المسح على الرجلين فقال: هو الذي نزل به جبريل. وعنه عن أحمد بن محمد قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحهما إلى الكعبين، فقلت له: لو أن رجلاً قال بأصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين؟ قال: لا. إلا بكفه كلها. وأما وجه القراءتين في: «أرجلكم» فمن قال بالغسل حمل الجر فيه على أنه عطف على رؤوسكم، وقال: المراد بالمسح هو الغسل. وروى عن أبي زيد أنه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا: تمسحت للصلاة، وقوي ذلك بأن التحديد إنما جاء في المغسول ولم يجيء في الممسوح، فلما وقع التحديد في المسح علم أنه في حكم الغسل لموافقة الغسل في التحديد، وهذا قول أبي علي الفارسي.

وقال بعضهم: هو خفض على الجوار، كما قالوا:

جحر ضب خرب. وخرب من صفات الجحر لا الضب، وكما قال امرؤ القيس:

كأن ثبيراً في عرانيين وبله كبير أناس بجاد مزمل

وقال الزجاج: إذا قرئ بالجر يكون عطفاً على الرؤوس فيقتضى كونه مسموحاً. وذكر عن بعض السلف أنه قال: نزل جبريل بالمسح، والسنة فيه الغسل. قال: والخفض على الجوار لا يجوز في كتاب الله تعالى، ولكن المسح على هذا التحديد في القرآن كالغسل.

وقال الأخفش: هو معطوف على الرؤوس في اللفظ، مقطوع في المعنى، كقول الشاعر:

* علفتها تبناً وماءً بارداً *

المعنى: وسقيتها ماءً بارداً.

وأما القراءة بالنصب، فقالوا فيه: إنه معطوف على «أيديكم»، لأننا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح، ولما روى أن النبي ﷺ رأى قوماً توضأوا وأعقابهم تلوح. فقال: «ويل للعراقيب من النار». ذكره أبو علي الفارسي. وأما من قال بوجوب مسح الرجلين.. حمل الجر والنصب في «أرجلكم» على ظاهره بدون تعسف، فالجر للعطف على الرؤوس، والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور، وأمثال ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى. قالوا: ليس فلان بقائم ولا ذاهباً، وأنشد:

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

وقال تأبط شراً:

هل أنت باعث ديناراً لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف «عبد» علي موضع «دينار»، فإنه منصوب في المعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

جئني بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى «جئني»: هات وأحضري مثلهم، عطف بالنصب على المعنى، وأجابوا الأولين عما ذكروه في وجه الجر والنصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجاز: قالوا: ما ذكروه أولاً من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه:

أحدها: أن فائدة اللفظين في اللغة والشرع مختلفة، وقد فرّق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاء المسوحة، فكيف يكون معنى المسح والغسل واحداً؟

وثانيها: أن الأرجل إذا كان معطوفاً على الرأس، وكان الفرض في الرأس المسح الذي ليس بغسل بلا خلاف، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك، لأن حقيقة العطف تقتضي ذلك.

وثالثها: أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما رووه عن النبي ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسموا المسح غسلًا وفي هذا ما فيه.

فأما استشهاد أبي زيد بقولهم: تمسّحتُ للصلاة، فالمعنى فيه: أنهم لما أرادوا أن يخبروا عن الظهور بلفظ موجز ولم يجوز أن يقولوا: تغسّلتُ للصلاة، لأن ذلك تشبيه بالغسل، قالوا بدلاً من ذلك تمسّحتُ، لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضاً فتجاوزوا لذلك تعويلاً على أن المراد مفهوم، وهذا لا يقتضي أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل.

وأما ما قالوا في تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى في الجواب عنه: أن ذلك لا يدل على الغسل، وذلك لأن المسح فعل قد أوجبه الشريعة كالغسل فلا ينكر تحديده كتحديد الغسل، ولو صرح سبحانه وتعالى فقال: وامسحوا أرجلكم وانتهوا بالمسح إلى الكعبين لم يكن منكراً. فإن قالوا: إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضى الغسل قلنا: إننا لم نوجب الغسل في اليدين للتحديد بل للتصريح بغسلهما، وليس كذلك في الرجلين، وإن قالوا: عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام. قلنا: هذا لا يصح، لأن الأيدي محدودة وهي معطوفة على الوجوه التي ليست في الآية محدودة، فإذا جاز عطف الأرجل وهي محدودة، على الرأس التي ليست بمحدودة، وهذا أشبه مما ذكرتموه، لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود وهو الوجه، وعطف عضو محدود مغسول عليه، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود، فيجب أن يكون «أرجل» مسوحة محدودة معطوفة على الرأس دون غيره. ليتقابل الجميلتان في عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود، وعطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود. وأما من قال: إنه عطف على الجوار، فقد ذكرنا عن الزجاج أنه لم يجوز ذلك في القرآن، ومن أجاز ذلك في الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف، وكل ما استشده به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذاك. وأيضاً فإن المجاورة إنما وردت في كلامهم عند ارتفاع اللبس والأمن من الاشتباه، فإن أحداً لا يشتبه عليه أن «خرباً» لا يكون من صفة الضب، ولفظة «مزمّل» لا يكون من صفة البجاد، وليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون مسوحة =

= كالرؤوس. وأيضاً فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزاً في كلام العرب، وقالوا في « جحر ضب خرب »: أنهم أرادوا خرب جحره، فحذفوا المضاف الذي هو « جحر » وأقيم المضاف إليه وهو الضمير المجرور مقامه وإذا ارتفع الضمير استكن في « خرب ». وكذلك القول في: « كبير أناس في بجاد مزمل »، فتقديره: مزمل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة، وهذا واضح لمن تدبره.

وأما من جعله مثل قول الشاعر: « علفتها تبناً وماءً بارداً »، كأنه قدّر في الآية: واغسلوا أرجلكم، فقوله أبعد من الجميع، لأن ذلك لو جاز في كتاب الله تعالى على ضعفه وبعده في سائر الكلام. فإنما يجوز إذا استحال حملة على ظاهر، فأما إذا كان الكلام مستقيماً ومعناه ظاهراً فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد؟

وأما ما قاله أبو علي في القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدي، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال: جعل التأثير في الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد، فنصب الأرجل عطفاً على الموضع أولى من عطفها على الأيدي والوجوه، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت وبطل حكمها باستئناف الجملة الثانية، ولا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم: ضربت زيدا وعمراً، وأكرمت خالداً وبكراً، فإن رد بكر إلى خالد في الإكرام هو الوجه في الكلام لا يسوغ الذي سواه، ولا يجوز رده إلى الضرب الذي قد انقطع حكمه، ولو جاز ذلك أيضاً لترجح ما ذكرناه لتطابق معنى القراءتين ولا تتنافيان.

فأما ما روى في الحديث أنه قال: « ويل للعراقيب من النار »، وغير ذلك من الأخبار التي رووها عن النبي ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، فالكلام في ذلك أنه لا يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن المعلوم بظاهر الأخبار الذي لا يوجب علماً وإنما يقتضى الظن، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووجدت في كتبهم، ونقلت عن شيوخهم، مثل ما روى عن أوس بن أبي أوس أنه قال: « رأيت النبي ﷺ يتوضأ ومسح على نعليه ثم قام فصلى »، وعن حذيفة قال: « أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال عليها ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على قدميه »، وذكره أبو عبيدة في غريب الحديث، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وقوله: « ويل للعراقيب من النار »، فقد روى فيه أن قوماً من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها، ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سبباً لهذا الوعيد.

وأما الكعبان فقد اختلف في معناهما، فعند الإمامية هما العظامان النابتان في ظهر القدم عند مقعد الشراك، ووافقهم في ذلك محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وإن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع. وقال جمهور المفسرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين، قالوا: ولو كان كما قالوه لقال سبحانه: « وأرجلكم إلى الكعبان »، ولم يقل « إلى الكعبين »، لأن على ذلك القول يكون في كل رجل كعبان» (ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٦).

ويرى الكاشي أن فرض الرجلين في الوضوء مسحها لا غسلها، كما يرى عدم جواز المسح على الخفين، ولهذا نراه عند تفسيره لهذه الآية، يقول بوجوب وصول الماء إلى بشرة سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح، وعليه فلا يجزئ المسح على القلنسوة ولا على الخفين، ثم يروى ما جاء في التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم على =

● المَذَىُّ وَالوَدَىُّ لَا يَنْقُضُ الوُضُوءَ (١) :

« عن أبي عبد الله قال: إن سال من ذكرك شيء من مَذَى أو وَدَى وأنت في الصلاة فلا تغسله ولا تقطع الصلاة ولا تنقض له الوضوء وإن بلغ عقبيك، فإنما ذلك بمنزلة النخامة، وكل شيء يخرج منك بعد الوضوء فإنه من الحبائل أو من البواسير وليس بشيء فلا تغسله من ثوبك إلا أن تقدره» (ج ٣ ص ٣٩).

= فقال: ما تقولون في المسح على الخفين؟ فقام المغيرة بن شعبه فقال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح على الخفين، فقال علي: قبل المائدة أو بعد المائدة؟ قال: لا أدري، فقال علي: سبق الكتاب الخفين، إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض بشهرين أو ثلاثة. وهنا يعقب ملا محسن على هذه الرواية فيقول: «أقول: المغيرة ابن شعبه هذا هو أحد رؤساء المنافقين عن أصحاب العقبة والسقيفة لعنهم الله.. ثم يقول: وفي الفقيه روت عائشة عن النبي أنه قال: «أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره». وروى عنها أنها قالت: «لأن أمسح على ظهر غير الفلاة أحب إلي من أن أمسح على خفي». ولم يعرف للنبي خف إلا خف أهدها النجاشي وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقاً، فمسح النبي ﷺ على رجله وعليه خفاه، فقال الناس: إنه مسح على خفيه، على أن الحديث في ذلك غير صحيح الإسناد - انتهى كلام الفقيه (ج ١ ص ١٥٤).

وبعد هذا انتقل المؤلف إلى الكلام على فرض الرجلين في الوضوء، فقال بعد ما بين أولاً أن قراءة نصب الأرجل: مردودة عندهم «.. ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس في رابعة النهار، وخصوصاً على قراءة الجر، ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل، وفي التهذيب عن الباقر أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَمْسَحُوا بَرءَ وُجُوهِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.. على الخفض هي أم على النصب؟ قال: «بل هي على الخفض» ثم قال: «أقول: وعلى تقدير القراءة على النصب أيضاً تدل على المسح، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرؤوس، كما تقول: مررت بزيد وعمراً، إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة، بل عن أسلوب العربية.. ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه» (ج ١ ص ١١٥).

ويقول سلطان محمد الخراساني في كتابه «بيان السعادة» عند تفسيره لهذه الآية: «... وأرجلكم» بالجر عطف على «رءوسكم» وبالنصب على محل «رءوسكم»، وعطفه على وجوهكم مع جواز العطف على «رءوسكم» في غاية البعد، غاية الأمر أنها في هذا العطف محتملة مجملة كسائر أجزاء الآية محتاجة إلى البيان، ولم يكن رأينا مبيناً للقرآن لاستلزامه الترجيح بلا مرجح، بل المبين: من نص الله ورسوله عليه، لا من نصبه لبيانه، فإن نصب شخص إنساني لبيان القرآن وخلافة الرحمن ليس بأقل من نصب الأصنام لعبادة الآنام، أو العجل المصنوع للعوام، وتفصيل الوضوء وكيفية تده وصل إلينا مفصلاً مبيناً عن أئمتنا المعصومين من الله ورسوله، وقد فصله الفقهاء رضوان الله عليهم، فلا حاجة إلى التفصيل ههنا».

(التفسير والمفسرون: ٢/٨٦، ١٣٣، ١٤٤)

(١) المَذَى: ماء رقيق يخرج من القبل عند الملاعبة ونحوها، والوَدَى: ماء أبيض تخين يخرج عقب البول غالباً. والفرق بينهما أن المَذَى هو الماء الرقيق الذي تفرزه الغدد الميالية من غير بول، أما الوَدَى فهو ماء رقيق أبيض يخرج في إثر البول من إفراز البروستاتة.. وفي «الفرق على المذاهب الأربعة» يقول في مبحث نواقض الوضوء: «ينقض الوضوء أشياء، منها: الخارج من أحد السبيلين=

● النكاح :

«عن زرارة. عن أبي عبد الله في تزويج أم كلثوم فقال: إن ذلك فرجٌ عُصْبناه». (ج ٥ ص ٣٤٦)

● «عن أبي عبد الله قال: لما خطب إليه قال أمير المؤمنين: إنها صبية، قال: فلقى العباس فقال: مالي، أبي بأس؟ قال: وما ذاك؟ قال: خطبت إلى ابن أخيك فردني، أما والله لأعورن زمرم^(١) ولا أدع لكم مكرمة إلا هدمتها ولأقيم عليها شاهدين بأنه سرق، ولأقطعن يمينه، فأتاه العباس فأخبره وسأله أن يجعل الأمر إليه فجعله إليه» (ج ٥ ص ٣٤٦).

● «عن أبي عبد الله أنه قال: تزوج اليهودية والنصرانية أفضل، أو قال: خير من تزوج الناصب والناصبية»^(٢) (ج ٥ ص ٣٥٠).

● «عن الفضيل بن يسار قال: «سألت أبا عبد الله عن نكاح الناصب فقال: لا والله ما يحل، قال الفضيل: ثم سألته مرة أخرى فقلت: جعلت فداك، ما يقول محمد في نكاحهم؟ قال: والمرأة عارفة؟ قلت: عارفة، قال: إن العارفة لا توضع إلا عند عارف». (ج ٥ ص ٣٥٠)

● «عن أبي عبد الله: لا تكون المتعة^(٣) إلا بأمرين: أجل مسمى وأجر مسمى». (ج ٥ ص ٤٥٥)

= وهو إما أن يكون معتاداً كالبول والمذبي والودى وكذا الهادى وهو ماء أبيض يخرج من قُبُل المرأة قرب ولادتها، والمنى الخارج بغير لذة، والغائط والريح، وإما أن يكون غير معتاد كالودود والحصا والدم والقيح والصديد وهي تنقض الوضوء سواء أكانت خارجة من القُبُل أو الدُبُر (البلتاجي).

(١) تعوير البئر: فطيمه.

(٢) الناصب على حسب بيان كتب الشيعة هو من يُقدّم الأول والثاني - يعني: أبا بكر وعمر رضى الله عنهما - على على كرم الله وجهه، أو يعتقد إمامتهما (البلتاجي).

(٣) نكاح المتعة: هو نكاح مؤقت عمل به لظروف معينة ثم نهى عنه الرسول ﷺ، ولكن الشيعة يقولون بجوازها، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين، فلهذا جاول الطبرسي أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى فعندما فسّر قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَا أَنْ تَتَّغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية [النساء: ٢٤]، يقول ما نصه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية، قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة.. عن الحسن ومجاهد وابن زيد. فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلدذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن. وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم.. عن أبي عباس والسدّي وابن سنعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح، لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان في الأصل واقعاً على الانتفاع والاتخاذ فقد صار الشرع مخصوصاً بهذا العقد، لا سيما إذا أضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون=

= معناه: فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن، ويدل على ذلك أن الله علّق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضى أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به. هذا، وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود: أنهم قرأوا: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن»... وفي ذلك تصريح بأن المراد به عقد المتعة، وقد أورد الثعلبي في تفسيره عن حبيب بن أبي ثابت قال: أعطاني ابن عباس مصحفاً فقال: هذا على قراءة أبي، فرأيت في المصحف: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى».

وبإسناده عن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى»، قلت: لا أقرأها هكذا. قال ابن عباس: والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات)، وإسناده عن سعيد بن جبيرة أنه قرأ: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى»، وإسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال: سألته عن هذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أمسنوخة هي؟ قال: قال الحكم: قال علي بن أبي طالب: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زني إلا شفى [بالفاء: أى إلا قليلاً]. وإسناده عن عمران بن الحصين قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها، فأمرنا رسول الله ﷺ، وتمتعنا مع رسول الله ﷺ، ومات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء. وما أورده مسلم بن الحجاج في الصحيح قال: حدثنا الحسن الحلواني، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريح، قال: قال عطاء: قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجعناه في منزله، فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر. وما يدل أيضاً على أن لفظ الاستمتاع في الآية لا يجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شيء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشيء، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزم نصف المهر، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد، لأنه قال: ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أى مهورهن، ولا خلاف في أن ذلك غير واجب، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد في نكاح المتعة.

ومما يمكن التعلق به في هذه المسألة، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ حلالاً، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله وأضيف النهى عنها إلى نفسه بضر من الرأى، فلو كان النبي ﷺ نسخها أو نهى عنها أو أباحها في وقت مخصوص دون غيره لأضاف التحريم إليه دون نفسه، وأيضاً فإنه قرن بين متعة الحج ومتعة النساء في النهى، ولا خلاف في أن متعة الحج غير منسوخة ولا مكرمة، فوجب أن يكون حكم متعة النساء حكمها. وقوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾ [النساء: ٢٤].. من قال إن المراد بالاستمتاع الانتفاع والجماع، قال: المراد به ولا حرج ولا إثم عليه: عليكم فيما تراضيتن به من زيادة مهر ونقصانه، أو حط، أو إبراء، أو تأخير. وقال السدي: معناه: لا جناح عليكم فيما تراضيتن به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب في عقد المتعة، يزيدا الرجل في الأجر وتزيده في المدة، وهذا قول الإمامية وتظاهرت به الروايات عن أئمتهم» (ج ١ ص ٢٥٥).

ونرى ملاحسن الكاشي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤].. يتأثر بما يراه من حل نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا ويجعلها دليلاً على صحة مذهبه وذلك حيث يقول ما نصه: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن مهورهن»، سمي أجراً لأنه في مقابلة الاستمتاع «فريضة» مصدر مؤكد، في الكافي عن الصادق: «إِنَّمَا أَنْزَلَتْ: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً»، وَالْعِيَّاشِيُّ عَنِ الْبَاقِرِ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا كَذَلِكَ، وَرَوَاهُ الْعَامَّةُ أَيْضاً عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾.. مِنْ زِيَادَةِ فِي الْمَهْرِ أَوْ الْأَجْلِ، أَوْ نَقْصَانِ فِيهِمَا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخَالِفُ الشَّرْعَ. فِي الْكَافِي مَقْطُوعاً وَالْعِيَّاشِيُّ عَنِ الْبَاقِرِ: «لَا بَأْسَ بِأَنْ تَزِيدَهَا وَتَزِيدَكَ إِذَا انْقَطَعَ الْأَجَلُ فِيمَا بَيْنَكُمَا، تَقُولُ: اسْتَحْلَلْتُكَ بِأَجَلٍ آخِرٍ بَرَضِي مِنْهَا، وَلَا تَحِلُّ لَغَيْرِكَ حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ.. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِالصَّالِحِ، فِيمَا شَرَعَ مِنَ الْأَحْكَامِ. فِي الْكَافِي عَنِ الصَّادِقِ: الْمَتْعَةُ نَزَلَتْ بِهَا الْقُرْآنُ، وَجُرَتْ بِهَا السُّنَّةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَعَنِ الْبَاقِرِ: كَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ: لَوْلَا مَا سَبَقَنِي بِهِ ابْنُ الْخَطَّابِ مَا زَنَيْتُ إِلَّا شَفِي [بِالْفَاءِ - يَعْنِي إِلَّا قَلِيلًا]، أَرَادَ أَنَّهُ لَوْلَا مَا سَبَقَنِي بِهِ عَمْرٌ مِنْ نَهْيِهِ عَنِ الْمَتْعَةِ وَتَمَكَّنَ نَهْيِهِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، لَنَدَبْتُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَرَغَبْتُهُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْنَوْا بِهَا عَنِ الزَّانَا، فَمَا زَنَى مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَكَانَ نَهْيُهُ عَنْهَا تَارَةً بِقَوْلِهِ: مَتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَيَّ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَا مُحْرَمُهُمَا وَمَعَاقِبُ عَلَيْهِمَا: مَتْعَةُ الْحَجِّ، وَمَتْعَةُ النِّسَاءِ.. وَأُخْرَى بِقَوْلِهِ: «ثَلَاثٌ كُنَّ عَلَيَّ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَا مُحْرَمُهُنَّ وَمَعَاقِبُ عَلَيْهِنَّ: مَتْعَةُ الْحَجِّ، وَمَتْعَةُ النِّسَاءِ، وَحَيٌّ عَلَيَّ خَيْرُ الْعَمَلِ فِي الْأَذَانِ».

وفيه: جاء عبد الله بن عمر الليثي إلى أبي جعفر فقال له: ما تقول في متعة النساء، فقال: أحلها الله في كتابه وعلى لسان نبيه، فهي حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر؛ مثلك يقول هذا وقد حرّمها عمر ونهى عنها؟ فقال: وإن كان فعل، قال: فإني أعيدك بالله من ذلك أن تحل شيئاً حرّمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهل ألعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، وقال: فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك، وبناتك، وأخواتك، وبنات عمك، يفعلن ذلك، فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه. وفيه: سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان صاحب الطاق فقال: يا أبا جعفر؛ ما تقول في المتعة؟ أتزعم أنها حلال؟ قال: نعم. قال: فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن ويكسبن عليك؟ فقال أبو جعفر: ليست كل الصناعات يُرغب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدارهم، ولكن ما تقول يا أبا حنيفة في النبيذ أتزعم أنه حلال؟ قال: نعم، قال: فما يمنعك أن تقعد نساءك في الحوانيت نبدات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيفة: واحدة بواحدة، وسهمك أنفذ، ثم قال: يا أبا جعفر؛ إن الآية التي في «سأل سائل» تنطق بتحريم المتعة [يريد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِهِمْ هَانٍ﴾]، والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين [المعارج: ٢٩ - ٣٠] والرواية عن النبي ﷺ قد جاءت بنسخها، فقال أبو جعفر: يا أبا حنيفة.. إن سورة «سأل سائل» مكية وآية المتعة مدنية، وروايتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة: وآية الميراث أيضاً تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة: من أين قلت ذلك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من =

= أهل الكتاب ثم توفى عنها. ما تقول فيها؟ قال: لا ترث منه، فقال: قد ثبت النكاح بغير ميراث.. ثم افترقا.

وعن الصادق أنه سأل أبو حنيفة عن المتعة فقال: عن أي المتعتين تسأل؟ فقال: سألتك عن متعة الحج فأبيني عن متعة النساء أحق هي؟ فقال: سبحان الله.. أما تقرأ في كتاب الله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾..؟ فقال أبو حنيفة: والله لكانها آية لم أقرأها قط. وفي الفقه عنه: ليس منا من لم يؤمن بكرتنا ويستحل متعتنا. أقول: الكرة: الرجعة، وهي إشارة إلى ما ثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم في زمن القائم لينصروه، وقد مضت الإشارة إليه فيما سلف، ويأتي أخبار فيها إن شاء الله» (أهـ (ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٧). ونجد السيد عبد الله العلوي الشهير بـ «شبر» يتأثر برأيه الذي يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخه.. فنهز عند تفسيره ليقوله تعالى: ﴿... وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾... الآية [النساء: ٢٤]، يقول: «.. والمراد به نكاح المتعة بإجماع أهل البيت، ويدل عليه قراءة أبيي وابن عباس وابن مسعود: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى».. ﴿فَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهن.. ﴿فَرِيضَةً﴾ من الله ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾: من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة في الأجر والمدة» (ص ١٢٢).

وعندما فسّر سلطان محمد الخراساني هذه الآية نجده يقول: «وفي لفظ الاستمتاع وذكر الأجر، وذكر الأجل - على قراءة: «إلى أجل» - دلالة واضحة على تحليل المتعة.. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئاً من الفريضة ﴿من بعد الفريضة﴾.. وفيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به. وعن الباقر: لا بأس بأن تزيدا وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجر آخر برضا منها ولا تحل لغيرك حتى تنقضي عدتها.. وعدتها حيضتان، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.. فحلل المتعة عن علم، ولغايات منوطة بالمصالح والحكم».

(التفسير والمفسرون: ٢/ ٨٤، ١٣٠، ١٤٤، ١٦٨)

ونقول: كان نكاح المتعة جائزاً في أول الإسلام لمن اضطر إليه - كأكل الميتة - ثم حُرّم يوم خيبر، ثم رُخص فيه عام الفتح أو عام حجة الوداع، ثم حُرّم إلى يوم القيامة لأن الغرض منه هو مجرد التمتع دون التوالد وغيره من أغراض النكاح.. فقد روى البخاري عن يحيى بن قزعة، عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الله والحسن ابني محمد بن علي عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل الخمر الإنسية».. وفي تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤] يقول القرطبي - بعد أن تحدّث عن أدلة الشيعة في إباحة المتعة وناقش هذه الأدلة:

«اختلف العلماء كم مرة أبيحت المتعة ونُسِخت.. في صحيح مسلم عن عبد الله قال: =

● «عن أبي عبد الله في حديث الدعاء عند إتيان الرجل أهله: «.. إن الشيطان ليحجىء حتى يقعد من المرأة كما يقعد الرجل منها ويحدث كما يحدث وينكح كما ينكح.. قلت - أي أبو بصير راوى الحديث عن أبي عبد الله - بأى شيء يعرف

» «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس لنا نساء، فقلنا: ألا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل».

قال أبا حاتم البستي في صحيحه: قولهم للنبي ﷺ: ألا نستخصى؟ دليل على أن المتعة كانت محظورة قبل أن أبيض لهم الاستمتاع، ولو لم تكن محظورة لم يكن لسؤالهم عن هذا معنى، ثم رخص لهم في الغزو أن ينكحوا المرأة بالثوب إلى أجل، ثم نهى عنها عام خيبر، ثم أذن فيها عام الفتح، ثم حرّمها بعد ثلاث، فهي محرّمة إلى يوم القيامة.

وقال ابن العربي: وأما متعة النساء فهي من غرائب الشريعة، لأنها أبيحت في صدر الإسلام ثم حرّمت يوم خيبر، ثم أبيحت في غزوة أوطاس، ثم حرّمت بعد ذلك، واستقر الأمر على التحريم، وليس لها أخت في الشريعة إلا مسألة القبلة، فإن النسخ طرأ عليها مرتين ثم استقر بعد ذلك.

وقال غيره ممن جمع طرق الأحاديث فيها: أنها تقتضى التحليل والتحريم سبع مرات.. فروى ابن أبي عمرة أنها كانت في صدر الإسلام. وروى سلمة بن الأكوع أنها كانت عام أوطاس. ومن رواية علي: تحريمها يوم خيبر، ومن رواية الربيع بن سبرة: إباحتها يوم الفتح».

يقول القرطبي: «وهذه الطرق كلها في صحيح مسلم، وفي غيره عن عليّ نهيه عنها في غزوة تبوك، ورواه إسحاق بن راشد عن الزهري عن عبد الله بن محمد بن عليّ عن أبيه عن عليّ، ولم يتابع إسحاق ابن راشد على هذه الرواية عن ابن شهاب، قاله أبو عمر رحمه الله.

وفي مصنف أبي داود من حديث الربيع بن سبرة النهى عنها في حجة الوداع، وذهب أبو داود أن هذا أصح ما روى في ذلك.

وقال عمرو بن الحسن: ما حلّت المتعة قط إلا ثلاثاً في عمرة القضاء، ما حلّت قبلها ولا بعدها... وروى هذا عن سبرة أيضاً، فهذه سبع مواطن أحلّت فيها المتعة وحرّمت.

قال أبو جعفر الطحاوي: كل هؤلاء الذين رَوَوْا عن النبي ﷺ إطلاقاً أخبروا أنها كانت في سفر، وأن النهى لحقها في ذلك السفر بعد ذلك، فمنع منها، وليس أحد يخبر أنها كانت في حضر... وكذلك روى عن ابن مسعود.

أما حديث سبرة الذي فيه إباحة النبي ﷺ لها في حجة الوداع، فخارج عن معانيها كلها.. وقد اعتبرنا هذا الحرف فلم نجده إلا في رواية عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز خاصة، وقد رواه إسماعيل بن عياش عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فذكر أن ذلك كان في فتح مكة، وأنهم شكوا إليه العزبة [بضم العين المهملة والزاي المعجمة: أى التجرد عن النساء، ويحتمل أن تكون بعين معجمة وراء مهملة: أى الفراق عن الأوطان لما فيه من فراق الأهل] فرخص لهم فيها، ومحال أن يشكوا إليه العزبة في حجة الوداع، لأنهم كانوا حجوا بالنساء، وكان تزويج النساء بمكة يمكنهم، ولم يكونوا حينئذ كما كانوا في الغزوات المتقدمة.

ويحتمل أنه لما كانت عادة النبي ﷺ تكرير مثل هذا في مغازيه وفي المواضع الجامعة، ذكر تحريمها في حجة الوداع لاجتماع الناس حتى يسمعه من لم يكن سمعه، فأكد ذلك حتى لا تبقى شبهة لأحد يدعى تحليلها، ولأن أهل مكة كانوا يستعملونها كثيراً (البلتاجي).

ذلك؟ قال: بحبنا وبغضنا، فمن أحبنا كان نطفة العبد، ومن أبغضنا كان نطفة الشيطان» (ج ٥ ص ٥٠٢).

• «عن أبي عبد الله قال: إن الله عز وجل نزع الشهوة من نساء بنى هاشم وجعلها في رجالهم، وكذلك فعل بشيعتهم، وإن الله عز وجل نزع الشهوة من رجال بنى أمية وجعلها في نساءهم وكذلك فعل بشيعتهم» (ج ٥ ص ٥٦٤).

• فضل الشيعة :

«وفي حديث لأبي عبد الله: .. فوالله لقد مات الرسول ﷺ وهو على أمته ساخطاً إلا الشيعة. ألا وإن لكل شيء عزاً وعز الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء شرفاً وشرف الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء شرفاً وشرف الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء سيدة وسيد المجالس الشيعة، ألا وإن لكل شيء إماماً وإمام الأرض أرض تسكنها الشيعة، والله لولا ما في الأرض منكم ما رأيت بعين عشيأ أبداً، والله لولا ما في الأرض منكم ما أنعم الله على أهل خلافكم ولا أصابوا الطيبات، ما لهم في الدنيا ولا لهم في الآخرة من نصيب.. كل ناصب وإن تعبد واجتهد منسوب إلى هذه الآية: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣ - ٤]، فكل ناصب مجتهد فعمله هباء» (ج ٨ ص ٢١٣).

• تفسير بعض الآيات :

«عن أبي جعفر في قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ * إن هو إلا ذكر للعالمين»، قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام، ﴿وتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٦ - ٨٨]، قال: عند خروج القائم عليه السلام.

وفى قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ [هود: ١١٠]. قال: اختلفوا كما اختلفت هذه الأمة في الكتاب، وستختلفون في الكتاب الذي مع القائم الذي يأتيهم به حتى ينكره ناس كثير فيقدمهم فيضرب أعناقهم. وأما قوله عز وجل: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [الشورى: ٢١]، قال: لولا ما تقدم فيهم من الله عز وجل ما أبقى القائم عليه السلام منهم أحداً..

وفى قوله عز وجل: ﴿والَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦]، قال: بخروج القائم عليه السلام.

وقوله عز وجل: ﴿واللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، قال يعنون بولاية علي عليه السلام.

وفى قوله عز وجل: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ [الإسراء: ٨١]، قال: إذا قام القائم عليه السلام، ذهب دولة الباطل» (ج ٨ ص ٢٨٧).

٦ - ترجمه مؤلف

«مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار»^(١)

«الفاضل العريف، والباذل جهده في سبيل التكليف، أبو الحسن العاملي، ثم الأصفهاني، ابن المولى محمد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن علي بن معتوق بن عبد الحميد العاملي، وقد كان من أعظم فقهاءنا المتأخرين، وأفاحم نبلائنا المتبحرين، سكن ديار العجم طوالاً من السنين، وهاجر إلى النجف... وكان ميلاده ببلدة أصفهان^(٢) لما أن والده المولى محمد طاهر كان قاطناً بها برهة من الزمان، وناكحاً فيها والدته المرضية العلوية التي هي أخت سيدنا الأمير محمد صالح بن عبد الواسع الحسيني.. كما أن تعبيره عن نسب نفسه في أواخر ما وجدناه من أرقامه المباركة: بأبي الحسين العاملي الشريف دليل على ذلك أيضاً وعلى أن البلدة المزبورة هي ميلاده المنيف».

ثم ذكر مشايخ إجازته وهم :

- ١ - العلامة الثقة الثبت : ملا محمد بن باقر بن محمد تقى المجلس، وتاريخ إجازته له : ثالث ربيع الأول سنة ١١٠٧ هـ .
- ٢ - الشيخ محمد حسين بن الحسن بن إبراهيم بن علي بن عبد العالى الميسى، وتاريخ إجازته له : شهر صفر سنة ١١٠٠ هـ .
- ٣ - الأمير محمد صالح بن عبد الواسع بن محمد صالح الحسيني (المتوفى سنة ١١١٦ هـ)، وتاريخ إجازته له : سنة ١١٠٧ هـ .
- ٤ - الشيخ عبد الواحد بن أحمد البوراني^(٣)، وتاريخ إجازته له : ١٥ شوال سنة ١١٠٣ هـ .

(١) ملخصة من المقدمة التي كتبها محمود بن جعفر الموسوي الزرندی لمرآة الأنوار والتي ذيلها بتوقيعه وبأنه كتبها في طهران بتاريخ (٢٠ محرم سنة ١٣٧٥ هـ) - ومرآة الأنوار طبع كالمقدمة لتفسير البرهان للبحراني في طهران في سنة ١٣٧٤ هـ .

وكان المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي قد عرض هذا الكتاب وناقشه في الجزء الثاني من التفسير والمفسرون (ص ٣٥ - ٥٨)، على أنه للمولى عبد اللطيف الكازراني مولدًا، النجفي سكنًا، وأشار - رحمه الله - (في هامش ص ٣٥) إلى أنه لم يقف على ترجمة للمؤلف أكثر من ذلك.. ثم تأتي هذه النقول الجديدة، لتقرر أن هذا الكتاب لأبي الحسن العاملي الأصفهاني (المتوفى عام ١١٣٨ هـ)، وأن ناشراً إيرانياً كان قد حصل على نسخة خطية منه، فقام بنشرها في طهران عام ١٢٩٥ هـ ، ناسباً إياه إلى المولى عبد اللطيف الكازراني (البلتاجي) .

(٢) قال معلقه : لم نقف على شهر ولا سنة ولادته مع كثرة التتبع منا في كتب الترجمات،

تراجع ترجمته في روضات الجنات، والزريعة : ج ٤ - ص ١٤٩

(٣) قال معلقه : وفي الروضات : الشيخ عبد الحميد بن محمد التواني، وهو غلط .

- ٥ - الشيخ قاسم بن محمد الكاظمي نزيل النجف (المتوفى سنة ١١٠٠ هـ) .
 ٦ - الحاج محمود بن عليّ الميبدى (الميمندى) المشهدى، وتاريخ إجازته له: المحرم سنة ١١٠٧ هـ .
 ٧ - محمد بن المرتضى المدعو بملا محسن الكاشي صاحب الوافي والصفافي والشافى .

- ٨ - السيد البارع المحدث نعمت الله بن عبد الله الموسوى التستري الجزائرى .
 ٩ - المولى المحقق صاحب التصانيف آقا حسين الخوانسارى .
 .. قال: «إلا أن غالب رواياته الموجودة فى الإجازات المنتمية إلينا مقصورة على شيخه الأفعم الأقدم محمد باقر بن محمد تقى المجلس رضوان الله عليه .
 ثم ذكر تلاميذه وهم :

- ١ - الشيخ أحمد بن إسماعيل بن الشيخ عبد النبى بن سعيد الجزائرى النجفى (المتوفى بعد سنة ١١٤٩ هـ) بقليل، وهو صاحب آيات الأحكام .
 ٢ - السيد السعيد نصر الله بن الحسين بن على الحسينى الفائزى الحايرى الشهيد فى حدود سنة ١١٦٨ هـ .

- ٣ - الشيخ محمد مهدى بن بهاء الدين محمد الملقب بالصالح الأفتونى العاملنى الغروى ابن عم المولى أبى الحسن صاحب الترجمة .

... ثم نقل صاحب المقدمة «محمود بن جعفر الموسوى» عن العلامة النورى فى الفيض القدسى نبذة عن أبى الحسن العاملنى (الترجم له) ما ملخصه:
 «العالم العامل الفاضل الكامل المدقق العلامة أفته المحدثين، وأكمل الربانيين الشريف العدل المولى أبو الحسن بن محمد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن على بن معتوق بن عبد الحميد الفتونى النباطى العاملنى الأصفهانى الغروى .. وهذا الشيخ جليل القدر عظيم الشأن، أفضل أهل عصره فيما أعلم، وهو مؤلف «مرآة الأنوار» إلى أواسط سورة البقرة يقرب مقدماته من عشرين ألف بيت لا يوجد مثله، وكتاب «ضياء العالمين فى الإمامة» يزيد عن ستين ألف بيت أجمع وأجل ما كتبت فى هذا الفن، وغيرهما مما جمع بعضه فى اللؤلؤة .. توفى فى أواخر عشر الأربعين بعد المائة والألف (١١٣٨ هـ)، وكان له ولد عالم فاضل محقق متتبع فى غاية الذكاء وحسن الإدراك، متوسع فى العقليات والشرعيات اسمه المولى أبو طالب، كما صرح به السيد عبد الله سبط الجزائرى فى إجازته» أ هـ .

... ثم ذكر مؤلفاته فقال ما ملخصه :

«وله من المصنفات المشهورة التى عثرنا عليها: كتاب لطيف طريف جعله فى

خصوص الأصوليين.. وسماه: الفوائد الغروية لكونه من بركات زمن مجاورته بأرض الغريين.. وعندنا الجزء المتأخر الذى هو فى أصول الفقه منه بخط مؤلفه المبرور. وله أيضاً رسالة غراء مبسوطة فى مسألة الرضاع. وكتاب كبير فى التفسير على النحو الذى ورد فى متون الأخبار سماه «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار»، لم يخرج منه سوى مجلدين: المجلد الأول يحوى مقدمات التفسير وعموم العلوم المتعلقة بالقرآن المجيد، وجاء فى المجلد الثانى تفسير سورة الفاتحة وما يقارب النصف من تفسير سورة البقرة».

ثم قال: قال شيخنا البحر المتلاطم الزخار الحاج ميرزا حسن النورى الطبرسى فى خاتمة كتابه «المستدرک» فى الفائدة الثالثة من (ص ٣٨٥) فى الحاشية: ومن الحوادث الطريفة والسراقات اللطيفة أن مجلد مقدمات تفسير هذا المولى الجليل المسمى بـ «مرآة الأنوار» موجودة الآن بخط مؤلفه فى خزانة كتب حفيده شيخ الفقهاء صاحب «جواهر الكلام» طاب ثراه واستنسخناه بتعب ومشقة، وكانت النسخة معى فى بعض أسفارى إلى طهران فأخذها منى بعض أركان الدولة وكان عازماً على طبع «تفسير البرهان» للعالم السيد هاشم البحرانى، وقال لى: إن تفسيره خال عن البيان فىناسب أن نلحق به هذه النسخة ليتم المقصود بها فاستنسخها ورجعت إلى العراق، وتوفى هذا البانى قبل إتمام الطبع فاشترى ما طبع من التفسير ونسخة «المرآة» من ورثته بعض أرباب الطبع فأكمل الناقص وطبع «المرآة» فى مجلد، ولما عثرت عليه فى المشهد الغروى رأيت مكتوباً على ظهر الورقة الأولى منه: كتاب «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار»، وهو مصباح لأنظار الأبرار، ومقدمة للتفسير الذى صنفه الشيخ الأجل والنحرير الأنبيل العالم العلامة والفاضل الفهامة الشيخ عبد اللطيف الكازرانى مولداً والنجفى سکناً.. إلخ، فتحيرت وتعجبت من هذه السرقة فكتبت إلى بانى الطبع ما معناه: إن هذا التفسير للمولى الجليل أبى الحسن الشريف، وأما عبد اللطيف فلم أسمع بذكره ولم نره فى كتاب، ولعل الكاتب السارق المطفىء لنور الله اشتبه عليه ما فى صدر الكتاب بعد الخطبة من قوله: «يقول العبد الضعيف الراجى لطف ربه اللطيف خادم كلام الله الشريف».. إلخ، فظن أنه أشار إلى اسمه فى ضمن هذه العبارة ولكن النسبة إلى كازران لا أدرى ما منشؤها، فوعدنى فى الجواب أن يتدارك ويغير ويبدل الصفحة الأولى ويكتب على ظهرها اسم مؤلفه وشرح حاله الذى كتبهته سالفاً على ظهر نسختى من التفسير، وإلى الآن ما وقى بعهدده وأعد نفسه لمؤاخذه المولى الشريف فى غد، فليبلغ الناظر الغائب أن هذا التفسير المطبوع فى سنة (١٢٩٥ هـ) فى طهران المكتوب فى ظهره ما تقدم للمولى أبى الحسن الشريف الذى يعبر عنه

في الجواهر بجدي العلامة لا لعبد اللطيف الكازراني الذي لم يتولد بعد .. إلى الله المشتكى وهو المستعان» أ هـ .

... ثم ذكر له ترجمة أخرى تتضمن ما سبق وفيها من مؤلفاته شرح على المفاتيح سماه: «شريعة الشيعة ودلائل الشريعة» .

«قال صاحب روضات الجنات: ويظهر من تضاعيف كتاب الأمل أن بيت بني موسى بن عليّ النباطيين العاملين بيت كبير من أهل الفقه والأدب والحديث، وأكثرهم كانوا متوطنين إما بمحروسة أصفهان أو مجاورين بالنجف الأشرف» أ هـ .
وفي خطبة الكتاب للمؤلف ما نصه :

«أما بعد .. فيقول العبد الضعيف الراجي لطف ربه اللطيف خادم كلام الله أبو الحسن الشريف» (ج ١ ص ٣) .

وقال الناشر في آخر المقدمة ما نصه :

«والحمد لله على أن وفقنا لتجديد طبع هذا الكتاب الذي لم يأت بمثله ذوو العلوم من تأويلات آيات كتاب الله المبين والفرقان العظيم وحل مشكلاته مستدلاً فيما جاء به من التأويل بالأحاديث المأثورة عن النبي والأئمة عليهم السلام . جزى الله مؤلفه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وقد صحح بمعرفتي وطبع في مطبعة الأقتاب بطهران في يوم الاثنين عاشر شعبان المعظم من شهور سنة ١٣٧٤ هـ ، وعنى بطبعه ونشره الصالح الوفي خادم علوم الأئمة الطاهرين الحاج أبو القاسم بن محمد تقى المشتهر بالسالك، سلك الله به طريقاً إلى جنّاته ورضوانه آمين، وأنا الأحقر محمود بن جعفر الموسوي الزرندي» أ هـ .^(١)

(١) إتماماً للفائدة واستكمالاً للبحث رأينا أن نورد ما كتبه فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي في هذا الموضوع .. وقد استبدلنا كلمة «المؤلف» بكلمة «المولى»، حيث أثبتت هذه النقول الجديدة أن الكتاب لأبي الحسن العاملي، وليس للمولى عبد اللطيف الكازراني .. يقول المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي: «هذا التفسير يعد في الحقيقة مرجعاً مهماً من مراجع التفسير عند الإمامية الإثني عشرية، وأصلاً لا بد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه ومن على شاكلته في فهمه لكتاب الله، وتنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية وهواه الشيعي .. ولكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الإثني عشر، ونحن لم نعثر عليه في مكتبة من مكاتبنا المصرية؟ ليس هذا يعد من قبيل الحكم على ما نجمله، والقول فيما ليس لنا به علم؟؟ لا، فالكتاب وإن لم نظفر به ولم نطلع عليه، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التي قدم بها مؤلفه لتفسيره هذا .

وجدت هذه المقدمة في دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها في تفسيره، وتوضح لنا كثيراً من آرائه في فهم كتاب الله، وتبين في صراحة تامة كيف تأثر المؤلف =

= بعقيدته الزائفة، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأى حال من الأحوال. وها أنذا أخص لك أهم المباحث التي تشتمل عليها هذه المقدمة. وبذلك نلقى ضوءاً على هذا التفسير المفقود ونعطي القارئ فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف ومنهجه في تفسيره.

ويجد القارئ أول ما يقرأ في هذه المقدمة، بياناً مسهباً من المؤلف ومنهجه في تفسيره. ويجد القارئ أول ما يقرأ في هذه المقدمة، بياناً مسهباً من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذي حمله على تأليفه لهذا التفسير، وعن المنهج الذي نهجه لنفسه فيه وسار عليه، وكما يكشف لنا في أثناء بيانه هذا، عن نظريته لكتاب الله وموقفه من تفسيره، تلك النظرة التي لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذي لا ترتاب في أنه موقف من أغراه مذهبه وخذعه هواه.

يقول المؤلف في المقدمة ما نصه: (... أن من أبين الأشياء وأظهرها، وأوضح الأمور وأشهرها أن لكل آية من كلام الله المجيد .. وكل فقره من كتاب الله الحميد، ظهراً وبطاناً، وتفسيراً وتأويلاً، بل لكل واحدة منها - كما يظهر من الأخبار المستفيضة - سبعة بطون وسبعون بطناً، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيراً من تنزيلها وتفسيرها، في فضل شأن السادة الأطهار، وإظهار جلالة حال القادة الأخيار، أنى النبي المختار. وآله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفار - بل الحق المتين، والصدق المبين كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير - أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفي أوليائهم نزلت، وأن جل فقرات التوبيخ والتنشيع، والتهديد والتفويض، بل جملتها في مخالفيهم وأعدائهم وردت. بل التحقيق الحقيق - كما سيظهر عن قريب - أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم. والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عز وجل جعل جملة بطن القرآن في دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جل ظهره في دعوة التوحيد والنبوة والرسالة) (ص ٢-٣).

وهذه الدعاوى من المؤلف لا نكاد نسلمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة على ما ذهب إليه، أمر لا يلتفت إليه ولا يعول عليه. لأن ما يعنيه من الأخبار، والأحاديث لا يعدو أن يكون موضوعاً لا أصل له. ومن هذا يتضح لنا أن هذا الشيعي مبالغ في تشييعه إلى حد جعله يحمل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله، ويجعله موزعاً بين دعوة الحق ودعوة الباطل، تلك بظاهر القرآن وهذه بباطنه!!

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسري الشيعة الذين سبقوه، وسكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة في تفاسيرهم وبين عذرهم في ذلك.

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدوره، ويدور بخاطره وخلده، أن يجمع ما تفرق من الأخبار الماثورة عن آل البيت ويشرح مضامينها، ثم يلحق نصوص كل آية بسورتها، وذلك كله في كتاب مستقل، ولكن حال بينه وبين ما تطمح إليه نفسه - حقبة من الزمان - تفرق باله، وتشتت حاله، وكثرة أشغاله، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التي كان حريصاً على جمعها، فرأى أن الذي تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل والتسامح فيه، فاستخار الله واستعان بحوله وقوته على تحقيق مرامه فشرع في جمع الروايات وتحريرها، وتفسير الآيات وتقريرها.

= ثم بين لنا هدفه الذى يرمى إليه من وراء هذا التفسير، وهو أنه أراد أن يفسر آيات القرآن ويقرر معانيها على وجه منيف، وبيان لطيف، وطور رشيق، وطرز أنيق، بطريق الإيجاز والاختصار، مع ذكر لب المقصود من الآيات والأخبار، بحيث يوضح غوامض أسرارها، ويكشف عن خبايا أسترها، ويتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها، ويرفع النقاب عن وجوه رموزها، من غير تطويل ممل، ولا اختصار زائد مخل.

ثم بين لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير، وهو يتلخص فيما يأتى :

١ - بختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة، ويحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار.

٢ - أنه لا يتعرض لبيان جميع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جملها.

٣ - أنه إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤ - أنه يحرص كل الحرص على ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن .

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير (بركات أول من آمن بالله بعين الإيقان، وثانى أول ما خلق الله قبل الكون والمكان، قاسم درجات الجنان ودركات النيران... إمام المشارق والمغرب . أمير المؤمنين أبى الحسين على بن أبى طالب) . ثم قال : « وكنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلنى فى شيعته الخاصين وأوليائه الخالصين، وأن تدركنى شفاعته المقبولة، وحمايته المأمولة، وجعلته خدمة لسدته السنوية، وثوابه هدية إلى حضرته العلية، وسميته « مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار » أهـ.

وبالجملة .. فهذا تفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت إما صريحا أو استخلاصا من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، ولا يعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من علماء آل البيت رضى الله عنهم .

بعد هذا البيان قال المؤلف : « ولندكر قبل الشروع فى المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها ههنا » ونستعرض هذه المقدمات الثلاث فنراه قد جعل المقدمة الأولى فى بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية والإمامة، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد والنبوة والرسالة، وأن الأصل فى تنزيل آيات القرآن بتأويلها، إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبى والأئمة صلوات الله عليهم وأعلام عز شأنهم وذل حال شأنهم، بحيث لا خير أخبر به إلا وهو فيهم وفى أتباعهم وعارفيهم، ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفى مخالففيهم قال : « ويستبين ذلك فى ثلاث مقالات » .

المقالة الأولى : فى بيان ما يوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة فى خصوص هذه المقدمة، وهى تتم بفصول، ثم ذكر ثلاثة فصول .

جعل الفصل الأول منها فى بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطونا وآياته تأويلات . وأن مفاد =

= فقرأت القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد، بل لكل منها تأويل يجري في كل أوان وعلى أهل كل زمان ... ثم ساق الروايات الدالة على ذلك وكلها مسندة إلى آل البيت، فمن هذه الروايات ما رواه العياشي وغيره عن جابر قال: « سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك، كيف أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لي: يا جابر، إن للقرآن بطناً، وللبطن بطناً وظهراً، يا جابر، وليس بشيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن .. إن الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه».

ثم عقب المؤلف على هذا الخبر فقال: « دلالة مبدأ هذا الخبر علي وجود تأويل له باطن وظاهر، وعلى تعدد تأويل آية واحدة، وعلى عدم تنافي تأويل أول الآية في شيء وآخرها في آخر، بل عدم تنافي التفسير بالظاهر في أولها والباطن في آخرها أو بالعكس ظاهرة، فإذا سمعت شيئاً من ذلك فلا تنكره، لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل والتأويل، وما فيه إصلاح السائل والسماع، ولهذا ورد « إن القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه»، ويؤيده ما في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ [الرعد: ٢١]: هذه نزلت في رحم آل محمد ﷺ وقد يكون في قرابتك، فلا تكون ممن يقول للشيء إنه في شيء واحد».

ومن هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبي حكيم الزاهد قال: حدثني أبو عبد الله بمكة قال: « بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلي فاستحسن صلاته، فقال: « يا هذا الرجل، إن الله تبارك وتعالى ما بعث نبيه ﷺ بأمر من الأمور إلا وله متشابه وتأويل وتنزيل، وكل ذلك على التعبد، فمن لم يعرف تأويل فصلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة» .. ثم عقب المؤلف على هذا فقال: « والظاهر أن المراد بالمتشابه: الشبيه، وبالتأويل: الباطن، وبالتنزيل: الظاهر، وبالتعبد: سبيل الإطاعة، والمعنى: أن كل ما جاء به النبي ﷺ وأمر به في الظاهر فله شبيه ونظير مأمور به في الباطن، ويلزم الإيمان بهما جميعاً. فمن لم يعرف شبيه الصلاة وباطنها الذي هو الإمام وإطاعته - كما سيأتي - فصلاته الظاهرية ناقصة» (ص ٣-٤).

وعند الفصل الثاني في ذكر الأخبار الصريحة في أن بطن القرآن وتأويله، إنما - هو بالنسبة إلى الأئمة - وولايتهم وأتباعهم وما يتعلق بذلك، فكان من جملة الأخبار التي ساقها: ما رواه الكليني بإسناده إلى أبي بصير فقال: « قال الصادق عليه السلام: يا أبا محمد، ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلها بخير إلا وهي فينا وفي شيعتنا. وما من آية نزلت يذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهي في عدونا ومن خالفنا».

وما نقله عن الكافي وتفسير العياشي وغيرهما، عن محمد بن ميمون، عن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .. قال: القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرم الله في الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور وجميع ما أحل الله في الكتاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق.

= وما رواه عن الباقر عليه السلام قال: قال النبي ﷺ في خطبته يوم الغدير: «معاشر الناس هذا على أحقكم بي . وأقربكم إلي ، والله وأنا عنه راضيان ، وما نزلت آية رضا إلا فيه وما خاطب الذين آمنوا إلا بدأ به ، وما نزلت آية مدح في القرآن إلا فيه . معاشر الناس . إن فضائل على عند الله عز وجل ، وقد أنزلها على في القرآن أكثر من أن أحصيتها في مكان واحد فمن نباكم بها وعرفها فصدقوه» .

وما رواه عن عبيد الله بن سنان أنه قال: قال ذريح الحاربي: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] . فِقَالَ: المراد لِقَاءَ الإمام، فَأَتَيْت أبا عبد الله عليه السلام وقلت له: جعلت فداك، قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ﴾ .. قال: أخذ الشارب، وقص الأظافر، وما أشبه ذلك، فحكيت له كلام ذريح فقال: صدق ذريح وصدقت، إن للقرآن ظاهرا وباطنا ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟ ثم عقب المؤلف على هذا فقال: «والكلام من الإمام عليه السلام صريح في أنهم - عليهم السلام - كانوا يكتُمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس، حتى عن ابن سنان الذي كان من فضلاء أصحابه» (ص ٥) .

وعقد الفصل الثالث في بيان نبذ مما يدل على وجود تناسب الظواهر مع البطون، وجهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال: «اعلم أن ما دلت عليه الأخبار الماضية، وما تدل عليه الأخبار التي ستأتي من المعاني الباطنة والتأويلات . ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة، بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز، ونهج الاستعارة، وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، إذ أبواب التجوز في كلام العرب واسعة وموارده في عبارات الفصحاء سائغة، فلا استبعاد إن أراد الله عز وجل بحسب الاستعمال الذي يدل عليه ظاهر اللفظ معنى، وبحسب التجوز الذي تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر، وسنشير إلى كثير من وجوه التناسب في المقدمة الثالثة وغيرها، ولكن نذكر في هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يستفاد من أخبار الأئمة الأطياب، ونرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب . ونكشف عنها النقاب، تبصرة لمن أراد التبصر من أولى الألباب . وأما إحاطة العلم بالجميع، فهي للراسخين في العلم ومن عنده علم الكتاب ... كما سيظهر في الفصل الأخير .

فاعلم أنه يمكن تبين المرام في هذا المقام من وجوه وإن أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال، فكان مما ذكره في الوجه الرابع ما جاء في البصائر عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَمَاءٍ كَثِيرٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣] . قال: يا نصر، إنه ليس حيث يذهب الناس، إنما هو العالم وما يخرج منه .

ثم قال المؤلف: «قال شيخنا العلامة - رحمه الله - «لعل المعنى ليس حيث يذهب الناس من انحصار جنة المؤمنين في الجنة الصورية الأخروية، بل لهم في الدنيا أيضا ببركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود في الدنيا والآخرة، وماء مسكوب من علومهم المتمتع التي بها تحيا النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التي لا تقطع شيعتهم ولا يمنعون منها، وفرش مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم بل لا يتلذذ =

= المقربون في الآخرة أيضا في الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التي كانوا يتنعمون بها في الدنيا كما تشهد به الأخبار - انتهى كلامه أعلى الله مقامه - فتأمل ولا تغفل عن جريان مثله في ساير نعم الجنة، مثل أنهار الخمر وأمثالها، كما يشهد له ما سيأتي في الأنهار والدين من تأويل اللبن والخمر يعلمون الأئمة عليهم السلام. وسيأتي في الجنة والنار وما بمعناها من تأويل الأولى بولاية الأئمة، والثانية بعداوتهم، وأمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار في الترجمات الجائية المناسبة لها فافهم. وكذا كل ما ورد ظاهره في العذاب، والمسخ والهلاك، والموت البدني، ونحو ذلك، فباطنه في الهلاك المعنوي بضلالاتهم وحرمانهم عن العلم والكمالات، وموت قلوبهم ومسخها وعميها عن إدراك الحق، فهم إن كانوا في صور البشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل، وإن كانوا ظاهرا بين الأحياء، فهم أموات، ولكن لا يشعرون، إذ لا يسمعون الحق، ولا يبصرونه ولا يعقلونه، ولا ينطقون به، ولا يأتي منهم أمر ينفعهم في آخرهم، فهم شر من الأموات، وكذا كل ما كان في القرآن مما ظاهره في النهي عن القبائح الصورية، وتحريم الخبائث الظاهرية، كالزنا، والسرقة، والإيذاء، ونحوها مما هو علامة رذالة حال فاعله، ودليل خبائث طبع مرتكبه، كالخمر والميتة، والدم ونحوها مما تستقدر منه الطبائع السليمة، وتنفر منه القرائح المستقيمة، فبطنه في النهي عن القبائح الباطنة التي هي معادة الأئمة عليهم السلام، والزجر عن الخبائث المعنوية التي هي أعاديهم ومنكرو لايتهم، والفضائل التي هي فيهم، فإنهم أيضا - في استقذار الأرواح، وتخبث القلوب، واستنفار العقول .. ونحو ذلك مثل الخبائث الظاهرة والقبائح الصورية، بل أشد كما لا يخفى، وهكذا حال بطون ما ظاهره في الترغيب بالمبرات والأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم ومعرفتهم، وبالجملة المدار على تشبيه الأمور المعنوية بالصورية، كالحياة والموت والانفعاعات والتصورات الروحانية بالجسمية .. وهكذا في البواقي. على أن في هذا الأخير تناسبا آخر أيضا، وهو أنه لا خفاء في كون النبي والأئمة صلوات الله عليهم وسائط معرفة العبادات والمأمورات، وأنهم الأصل في قبولها فلا بعد إن أريدوا بها في بطن القرآن، وكذا لا بعد في كون أعدائهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث والمنهيات» (ص ٨).

وفي الوجه الخامس من العلل، علل ما ورد من تأويل معرفة الله، وعبادته ومخالفته، وأسفه، وظلمه، ورضاه، وسخطه، وأمثاله بمعرفة الإمام، وإطاعته ومخالفته، وأسفه وظلمه ورضاه، وسخطه، وكذا تأويل الإمام: يد الله، وعينه، وجنبه، وقلبه وسائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه وخصه به، بالإمام عليه السلام، وما ورد من الأخبار في تأويل روح الله ونفسه، ولفظ الجلالة والإله والرب، الإمام عليه السلام... علل هذه التأويلات وما شاكلها بأن الذي جرى من عادة الأعظم والملوك والأكابر أن ينسبوا ما وقع من خدمتهم بأمرهم إلى أنفسهم تجوزوا، وكذا قد ينسبون مجازا ما يصيب خدمهم ومقربيه من الإطاعة والخير والشر إلى أنفسهم، إظهارا لجلالة حال أولئك الخدم عندهم، وإشعارا بأنهم في لزوم المراعاة والإطاعة ودفع الضر عنهم وجلب النفع إليهم بمنزلة مخادبهم وفي حكمهم، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم.

قال الصادق عليه السلام - كما سيأتي عن الكافي وغيره - إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا ولكن خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون فجعل رضاهم رضا نفسه وسخطهم سخط نفسه، لأنهم جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه... الخبر.

= وفى رواية أخرى: ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، ثم أنزل بذلك قرآنا على نبيه.....الخبر.

قال المؤلف: وسيأتى بقية الأخبار مفصلة، وهكذا كثيرا ما يطلق تجوزا على مقربى الرجل وأعوانه أسامى جوارحه وأعضائه وسائر ما يختص به فى النفع كما يقال للوزير الكامل المقرب عند السلطان النافع له جدا: إنه يده وسيفه وعينه... وهكذا بناء على أنه فى الدفع والنفع والقرب والعزة مثل ذلك، حتى إنه قد يقال: إنه روحه ونفسه، بل ربما يقال: إنه السلطان تجوزا، بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته، ومخالفته مخالفته، بحيث لا يرضى بغير ذلك» (ص ٩).

ثم عقد الفصل الرابع فى بيان ما يدل على أن الواجب الإيمان على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه، وتنزيله وتأويله معا، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وسائر ما يتعل بذلك جميعا مفسلا أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدرى بما فى البيت. وأن من أنكر الظاهر كافر وإن أقر بالباطن، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة الخطابية والإسماعيلية وغيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر، وكذا بالعكس: أى إنكار الباطن وإن أقر بالظاهر، على كل مؤمن أن لا يجترئ بإنكاره ما نقل عن الأئمة عليهم السلام فى ذلك تفسيراً وتأويلاً وأن لم يفهم معناه ولم يدرك مغزاه.. ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك، وكلها منسوبة إلى أهل البيت، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل قد أرسل رسلا بالكتاب وتأويله، فمن كذب بالكتاب أو كذب بما أرسل به رسلا من تأويل الكتاب فهو مشرك» (ص ٩).

ومنها ما روى عن الهيثم التميمي، قال: (قال أبو عبد الله عليه السلام: يا هيثم، إن قوما آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئا، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئا لا إيمان بظاهر إلا بباطن، ولا بباطن إلا بظاهر» (ص ٩).

وعقد الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام وما ذكر فى الأخبار الواردة فى المنع من تفسير القرآن بالرأى وبغير سماع من الأئمة، وفى الجمع بينها وبين ما يعارضها من الآيات والروايات وتوجيه ما هو الحق فى ذلك، فقال: اعلم أنه لا ريب فى اطلاع النبي ﷺ والأئمة على جميع وجوه آيات القرآن ومعانيها كلها، ظواهرها وبواطنها، تنزيلها وتأويلها، وأنهم الذين عندهم علم الكتاب كله، كما أنزله الله فى بيتهم، فإن أهل البيت أدرى بما فى البيت، وقد دلت على هذا أخبار متواترة.. فمنها ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال: والله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام: أن الله علم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل.. قال: فعلم رسول الله ﷺ عليا عليه السلام، قال: وعلمنا.....الخبر.

وما فيه أيضا بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع به، فقال أبو الحسن: فنحن نعرف حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، وسفريه وحضره، وفى أى ليلة نزلت من آية، فى من نزلت، وفيم أنزلت...الخبر.

واستدل أيضا بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال: ما يستطيع أحد يدعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره وباطنه إلا الأولياء.

= ثم قال المؤلف بعد سياقه لهذه الروايات وغيرها: «وأما غيرها - عليهم السلام - فلا شبهة في قصور علومهم وعجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر والتنزيل فضلا عن البواطن والتأويل، بلا إسناد من الأئمة العاملين، وعناية من الله رب العالمين».

ثم بعد أن استدل على ذلك بما ذكره من روايات سابقة ولاحقه قال: «ولهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام». ثم استدل على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى وضرورة الرجوع إلى الأئمة في فهم معانيه، فكان مما استدل به، ما رواه عن العياشي عن الصادق عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء» وما روى عن النبي ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وما ورد في تفسير الإمام عليه السلام من قوله: «أتدرون من المتمسك بالقرآن الذي له الشرف العظيم؟ هو الذي يأخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين، وقياس الفاسقين، فأما من قال في القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل في أخذه عن غير أهله، وإن أخطأ القائل في القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار» (ص ١١ - ١٢).

ثم بعد ذلك وفي بين الأخبار الدالة بظواهرها على حرمة التفسير بالرأى وبين ما ورد من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] .. وقوله ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] .. وقوله عليه السلام: «القرآن ذلول ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه» وغير ذلك من الآيات والأخبار الدالة على أن في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعا بالغا ومجالا رحبا فقال: لنا في هذا المقام توجيهات عديدة نشير ههنا إلى ما هو الأكمل منها، وهو ما ذكره بعض محققى علمائنا، وقال «الصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ورسوله ولأهل البيت، وأخذ علمه منهم، وتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث يحصل له المراس في العلم والطمأنية في المعرفة وانفتح عيننا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وياشر روح اليقين، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، فله أن يستفيد من القرآن غرائب ويستنبط منه نبذا من عجائبه، وليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من جوده بعجيب، وليست السعادة وقفا على قوم دون آخرين، وقد عدوا - عليهم السلام - جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله في الراسخين في العلم، العالمين بالتأويل» (ص ١٢ - ١٣).

ثم قال: «وأما التفسير المنهى عنه، فقد نزله المحقق أيضا على وجهين:

أحدهما: أن يكون للمفسر في الشئ رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليجتج به على تصحيح غرضه ومدعاه، فيكون قد فسر القرآن برأيه، أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وهذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلا كذلك قد يكون مع العلم، كالذى يجتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبس على خصمه، ومن هذا ما مر من تأويلات الباطنية، وقد يصدر مثله عن من له غرض صحيح، لكن يطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كالذى يدعو مثلا إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: =

= قال الله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤].. ويشير إلى قلبه ويومئ إليه أنه المراد بفرعون. قال ذلك المحقق، وهذا قد يستغله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع.

ثانيهما: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل عن الأئمة بما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيها من الاختصار والحذف والأضمار والتقديم والتأخير، وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه... إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع، إذ من بادر إلى استنباط المعاني فيها بمجرد فهم العربية كثر غلظه، ودخل في زمرة من يفسر بالرأى، فلا بد له أولا من السماع وظاهر التفسير ليتقى مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها لفهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩].. فإن معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ولا يدرى أنهم بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم بقتلها، والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ولا يدرى أنهم بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، ومن ذلك الآيات التي سنشير إلى كونها واردة على سبيل الكناية والرموز بحيث لا يطلع على ما فيها إلا من تجرع كؤوس علوم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، كما سيأتي في الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧].. من أن المراد ظلم محمد وآله. ومنها ما سيأتي أيضا في الفصل الثالث من المقالة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَا لَقَدْ تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٤) .. من أنه تعالى عنى بذلك غير النبي ﷺ كما قال الصادق عليه السلام: « ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به من مضى»، وقد روى الكليني وغيره عنه عليه السلام أنه قال: «نزل القرآن بـ» إياك أعنى واسمعى يا جارة». وعن الباقر عليه السلام: « إذا علم الله شيئا هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان»، وقد مر في حديث جابر قوله عليه السلام «وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء»... الخبير، وسندكر عن قريب في فصول المقالة المذكورة وغيرها، ما يوضح حال تفسير الآيات التي كذا شأنها، ليتبصر به الناظر فيما نذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى».

(ص ١٣)

ونحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير، ولكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال، بل جعل القرآن تبعا لرأيه، ونزله على معان تتفق وهواه، ورمي غيره بالداء الذي هو فيه.

ثم ذكر المقالة الثانية، فجعلها في بيان ما يوضح اشتمال كلام الله تعالى، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة صريحا وتنزيلا، علي ما يتعلق بالولاية والإمامة بطنا وكناية وتأويلا، بحسب الأخبار الواردة في أن الولاية - أي الإقرار بنبوة النبي وإمامة الأئمة والتزام حبهم وطاعتهم وبغض =

= أعدائهم ومخالفهم - أصل الإيمان، مع توحيد الله عز وجل، بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل أنها سبب إيجاد العالم، وبناء حكم التكليف، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأنها التي عرضت كالتوحيد علي الخلق جميعا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت في الكتب، وكلف بها جميع الأمم ولو ضمنا، وأن نسبة النبوة إلي الإمامة كتسبتها إلي التوحيد في تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل في حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، وأن الأئمة مثل النبي في فرض الطاعة والأفضلية بعده علي الخلائق أجمعين، وكونهم وسائط ووسائل لسائر عباد الله المكرمين، من الأنبياء والأوصياء والملائكة المقربين... عقد هذه المقالة الثانية لهذا الغرض فقال: «اعلم أن الأحاديث الغير محصورة، تدل علي هذه الأمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مجمع عليه عند علمائنا الإماميين وقد نص علي حقيقتها بل كون حلها من ضروريات هذا المذهب أعظم أصحابنا المحدثين، وكفي في بيان ذلك ما ذكروه من مباحث الإمامة وكتب فضائل الأئمة، وسنذكر في هذا الكتاب لها شواهد كثيرة فلنكتف ههنا بنقل شيء من تصريحات محققي أصحابنا في هذا الباب، وذكر أقل قليل من نصوص الأئمة الأطياب إذ ليس هنا موضع البسط والإطناب ويكفي ما سنذكره في تبصرة من هو من أولي الألباب، فههنا فصول خمسة».. ثم ساق الفصول الخمسة:

فجعل الفصل الأول منها في بيان نبذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظم شأن الأمة وولايتهم وكفر منكريهم.

وجعل الفصل الثاني في بيان نبذ من الأخبار التي وردت في خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم، وأن ذلك مناط صحة الإيمان، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية والشك فيهم، وكفر مبغضهم ومخالفهم.

وجعل الفصل الثالث في بيان بعض الأخبار التي وردت في أن الإقرار بإمامة الأئمة وحبهم وولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبي ﷺ في مدخلية صحة الدين وصدق الإيمان كما أن الإقرار بالنبوة بتلو التوحيد في ذلك، وأن نسبة النبوة إلي الإمامة، كنسبتها إلي التوحيد في تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث أن الكفر بكل في حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر.

وجعل الفصل الرابع في بيان بعض الأخبار التي وردت في خصوص أن الولاية عرضت مع التوحيد علي الخلق جميعا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت في الكتب، وكلف بها جميع الأمم، وأورد فيه ما يدل علي أنها سبب إيجاد الخلق أيضا.

وجعل الفصل الخامس في بيان بعض الأخبار التي وردت في أن النبي صلي الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، وأفضلهم وأكملهم، وأكرمهم بحيث كانت الملائكة والأنبياء تتوسل بهم وولايتهم، وتفخر الملائكة بخدمتهم، وتعلموا التسبيح والتمجيد منهم، وأنهم وولايتهم العلة في الإيجاد، والأصل في الطاعة والمعرفة.

ثم ذكر المقالة الثالثة وجعلها في بيان ما يوضح ورود بطون القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، بحسب الأخبار التي تدل علي أن هذه الأمة تقتفي سنن الأمم السالفة، وسيرة من كان قبلهم في كل أفعالهم وجميع أطوارهم وأعمالهم، كما أنه كان كذلك في سائر الأمم، قال: «فإنها بجملتها =

= - يعنى بطون القرآن - تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يترك الإنذار والتبشير فيهم، كما لم يترك بالنسبة إلى سابقهم، وأن يشير إلى الزين والشين فى كل أوان بالنسبة إلى أهل كل زمان . وحيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعد منهم، فلايد من أطفاه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يستفاد من التنزيل والتبليغ، ولا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز...» وقد أورد فى جملة ما أورد من الأخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى: ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾ [الأنشاق: ١٩]: أى لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء. ومما رواه الكليني فى الصحيح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾... قال: يا زرارة، أى لتركن هذه الأمة بعد نبيها طبقاً عن طبق فى أمر فلان، وفلان... وفلان.

قال المؤلف: «أقول: أى كانت ضلالتهم بعد نبيهم مطابقة لما صدر من الأمم السابقة فى ترك الخليفة واتباع العجل والسامرى وأشباه ذلك». قال: «ويحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة والفساد».

(ص ٢٣ - ٢٤)

ثم ذكر المقدمة الثانية فتكلم فى بيان ما بوضوح وقوع بعض تغيير فى القرآن وأنه السرفى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية والإمامة والإشارة إلى فضائل أهل البيت وفرض طاعة الأئمة بحسب بطن القرآن وتأويله، والإشعار بذلك على سبيل التجوز والرموز والتعريض فى ظاهر القرآن وتنزيله فقال: «اعلم أن الحق الذى لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شئ من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى ما جمعه على عليه السلام وحفظه إلي أن وصل إلي ابنه الحسن عليه السلام وهكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه - ولهذا - كما قد ورد صريحاً حديث سند كره - لما أن الله عز وجل قد سبق فى علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين فى الدين، وأنهم بحيث كما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد فى شأن على عليه السلام وذريته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأساً أو تغييره محرفين، وكان فى مشيخته الكاملة ومن أطفاه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية، ومحارسة مظاهر فضائل النبي صلى الله عليه وآله والأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضضيع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء التكليف، لم يكتف بما كان مصرحاً به منها فى كتابه الشريف، بل جعل جل بيانها بحسب البطون على نهج التأويل، وفى ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل، وأشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوز والتعريض، والتعبير عنها بالرموز والتورية وسائر ما هو من هذا القبيل، حتى تتم حجته على الخلائق جميعاً ولو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحاً بأحسن وجه وأجمل سبيل». قال: «ويستبين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما نذكره فى هذه الفصول الأربعة المشتملة على هذه الأحوال».

ثم عقد الفصل الأول فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره، من الروايات التى نقلها أصحابه من الإمامية فى كتبهم.

= وعقد الفصل الثاني في بيان نبذ ما ورد في جمع القرآن ونقصه وتغييره، والاختلاف فيه من الروايات التي نقلها المخالفون في كتبهم.

وعقد الفصل الثالث في بيان ما وعد به سابقا، من الخبر المشتمل على التصريح بتغيير القرآن وأنه هو السر في الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية والإمامة على سبيل الرمز والتعريض. وعقد الفصل الرابع في بيان خلاصة أقوال علمائهم في تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال من أنكر التغيير.

ثم ذكر المقدمة الثالثة وقد عقدها لبيان ما يوضح نبذًا من التأويلات الماثورة عن الأئمة السادات والمفهومة من بعض الروايات، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية والآيات، قال: ويستبان بها أيضا ما بيته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، وأن في هذا الأمر تأويل ما ورد تنزيله فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة.. عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال:

«اعلم أن التأويلات التي ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد مختصا بكلمة أو آية مذكورة في موضع واحد بحيث لا يجرى في غيرها، ومحل ذكر مورده.

الثاني: ما ورد في آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى في غيرها. بل ربما يكون الورد على سبيل العموم أيضا، ونحن نذكر هذا القسم في هذا المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص.

الثالث: ما لم يرد في تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها، كقوله عليه السلام: «نحن يد الله» ونحوه، وهذا أيضا مما نذكره في هذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه، وفي هذين الأخيرين إذا وصلنا في كتابنا هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل وموضعه، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص في مواردنا. ثم من هذه التأويلات ما هو على نهج الكناية والتعريض والمجازات العقلية، ومنها ما هو من قبيل المجاز اللغوي، وما نحن نرتب هذه المقدمة على مقالتين نذكر في إحداهما مظاهره على النهج الأول مما لا بد من إفراد ذكره، وفي الأخرى سائر التأويلات العامة مع نصوصها. ثم نلحقها بخاتمة نختم بها المقدمات» (ص ٣٦).

ثم ذكر المقالة الأولى: فجعلها في بيان بعض التأويلات التي لا بد من إفراد ذكرها من حيث عظم فوائدها، وجلها من قبيل المجازات العقلية، والتجوز في الأسناد، والكناية، والتعريض، وإن أمكن التكلف في إدخال بعضها تحت المجاز اللغوي، وقد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول:

جعل الفصل الأول منها: في بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عز وجل كثيرا ما أورد في كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهرا على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك.. قال: «ويدل على هذا أحاديث كثيرة، منها ما سيأتي في تأويل الكافرين بمن كفر بالولاية، والمنافقين بمن نافق فيها، والمشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، وأشبه ذلك».. ثم قال: «والحق أنه إذا تأمل بصير في أكثر ما ورد من تفسير البطن علم أن معظم ذلك من هذا القبيل، وهو مجاز شائع ذائع استعماله في كثير من الألفاظ العامة والمطلقة ونحوها».. إلخ (ص ٣٦).

= وجعل الفصل الثاني: فى بيان ما يظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيرا ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق عن الماضين من أهل زمان النبي ﷺ والأمم السالفة بحسب الظاهر، ومراده، بحسب التأويل والباطن من صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأمة بالنظر إلى حال الإمامة والولاية وإن لم يكن فى ذلك الزمان.. ثم ذكر فى ضمن ما رواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء فى تفسير العياشى عن عبد الله بن سنان عن أبى عبد الله فى قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّة يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٥٩].. قال: قوم موسى هم أهل الإسلام. قال المؤلف: « والظاهر أن مراده عليه السلام: أن نظيره جار فيهم، وإنما ذكر فى الآية، تمثيلاً لحال هذه الأمة، ويؤيده ما سياتى فى الأئمة (لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ وَقَطَعْنَا هَمَّهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا ﴾.. الآية، حيث يحمل على الأئمة الإثنى عشر). فلا ينافى هذا ما هو الظاهر من الآية من وجود جماعة فى قوم موسى هادين إلى الحق صريحا كما يظهر من بعض الأخبار» (ص ٣٧).

وجعل الفصل الثالث: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله سبحانه وتعالى قد يريد بخطابه فى كتابه بحسب التأويل والباطن مخاطبا غير من يفهم من الظاهر. كون الخطاب متوجها إليه، وكان ذلك فى أثناء الخطاب وبين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر وفى آية واحدة، وذلك كما ورد فى خبر جابر من قوله عليه السلام: « أن الآية لتكون أولها فى شئ وآخرها فى شئ»، وما ورد فى الكافى وفى تفسير العياشى عن عبد الله بن بكير عن أبى عبد الله قال: « نزل القرآن بـ إياك أعنى واسمعى يا جارة» وفيهما أيضا عن أبى عمير عن حدثه عن أبى عبد الله قال: « ما خاطب الله به فهو يعنى به من قد مضى ذكره فى القرآن مثل قوله: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبَتْنَا لَقَدْ كَدْتُمْ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].. عنى بذلك غيره. قال بعض المحدثين: لعل المراد من مضى ذكره فى القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملقبون فى آيات.. قال: وفى كنىز الفوائد عن الأعمش قال: سمعت عطاء بن أبى رباح يقول: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق: ٢٤]. فقال رسول الله ﷺ: « أنا وعلى نلقى فى جهنم كل من عادانا».... الخبير. (ص ٣٧).

وجعل الفصل الرابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير فى القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعا إلى شئ ليس بمذكور صريحا، بل مقصود بحسب الباطن ومعهود تأويلا كالضمائر التى ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك، بلا سبق ذكر ظاهرا. ثم ذكر ما ورد من الأخبار فى ذلك، ومنها: ما رواه الكلينى عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلَكَ ﴾ [يونس: ١٥].. قال: قالوا أو بدل عليا.. وما ورد فى كنىز الفوائد للكراكي عن تأويل أهل البيت فى حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾: أى أن شكر النعمة التى رزقكم وما من عليكم بمحمد وآله: أى ﴿ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ أى بوصيه ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينْشِدْ تَنْظُرُونَ ﴾. إلى وصيه على عليه السلام ببشر وليه بالجنة ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾: يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين على منكم ﴿ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢ - ٨٥] أى لا تعرفون.

= ومنها ما ورد في تفسير القمي عن أبي الشمال عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ إِنهَا لِإِحْدَى الْكَبِيرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٦] .. قال : يعني فاطمة ، وكذا قال في سائر الضمائر التي في السورة » (ص ٣٨) .

وجعل الفصل الخامس : في بيان ما يدل على أنه لا استبعاد في أن يحمل ما عبر عنه بالماضي على ما هو المستقبل الآتي كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال : روى الكليني في الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال : إذا علم الله شيئاً هو كائن أخير خبر ما قد كان ، يعني إذا كان في علم الله تعالى الكامل وقوع الشيء لا محالة وأنه سيكون قطعاً ، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى وكان سواء أكان ذلك مما يدل عليه ظاهر القرآن وتنزيله ، أو باطنه وتأويله ، كما هو مقتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثلاً ، والثواب والعقاب وسائر ما هو من هذا القبيل كالرجعة وما يكون فيها ، وما يصدر من الأمة بالنسبة إلى الإمامة وأمثال ذلك ... قال : ولا يخفى أنه بناء على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور » (ص ٣٨) .

وجعل الفصل السادس : في بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التي نسبها الله عز وجل إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم ﴾ [الزخرف : ٥٥] .. وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (الغاشية : ٢٥ - ٢٦) .. وأمثالها من الكلمات القرآنية فإن السرفيه إدخال النبي ﷺ والأئمة فيها ، بل إنهم هم المقصودون في كثير منها . وعد هذا من قبيل المجازات الشائعة في كلام الملوك والأعظم .. ثم قال : فلنكتف ههنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه ، وذكر أخباراً منها : ما رواه الكليني في الصحيح عن حمزة بن بزيع عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم ﴾ .. فقال : إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا ، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون وهم مخلوقون مربوبون ، فجعل رضاهم رضا نفسه ، وسخطهم سخط نفسه ، لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه .. إلخ ، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، وقد قال : « من أهان لى ولها فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها » ، وقال : ﴿ مِنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ١٠] .. وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] وقال : وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر ولا يخفى صراحة في المقصود ههنا .. قال : وفي الكافي وغيره عن زرارة عن أبي جعفر قال : سألته عن قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧] .. فقال : إن الله أعظم وأجل من أن يظلم ، ولكن خلطنا بنفسه ، فجعل ظلمنا ظلمه ، وولايتنا ولايته حيث يقول : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة : ٥٥] .. يعني الأئمة منا » (ص ٣٩) .

وجعل الفصل السابع : في بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن الرآن وتأويله على الإمام في مواضع عديدة ، بل هكذا حال بعض الضمائر الواجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه وأن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة ، والإطاعة ، والمعرفة ، والرضا ، والسخط ، والمخالفة ، والفقر ، والغنى ، إلى غير ذلك هو ما يتعلق =

= بالإمام كمتابعته، وإقامته، وإطاعته، ورضاه، وسخطه، وسبه، وأذاه، ومخالفته وغناه، وفقره، ونحو ذلك. وعد ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوز في الإسناد. قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن في ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوي أو التشبيه بالمعنى العرفي. ثم ذكر بعض ما هو نص في بيان المقصود، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن علي عليه السلام أنه قال في حديث طويل: **إِنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤].** وقوله: **﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]** وقوله: **﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].** فإنما أراد بذلك استيلاء أمثاله بالقدرة التي ركبها فيهم على جميع خلفه، وأن فعلهم فعله... الخبر، وما رواه العياشي في تفسيره عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل: ٥١].** يعني بذلك لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد، وما جاء في كنز الفوائد للكرامجى عن علي بن أسباط عن إبراهيم الجعفي عن أبي الجارود عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَنْ كَفَرَ مِنْ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَمَنْ يَبْغِي اللَّهَ فَأَعْدِدْ لَهُ أَسْفَلَ سَفَلِهِمْ ذَلِكُمْ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ الْقِسْمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ ﴾ [الزمر: ٦٩].** أن الصادق عليه السلام قال: **أَيُّ رَبِّ الْأَرْضِ يَعْنِي إِمَامَ الْأَرْضِ، وَمَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْقِسْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾... الآية [إبراهيم: ١٨].** قال: من لم يقر بولاية علي عليه السلام بطل عمله مثل الرماد الذي تجيء الريح فتحمله، وما جاء في كنز الفوائد من تأويل قوله تعالى: **﴿ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعْتَدُ بِهِ ثُمَّ نَأْتِي بِرَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧].** أن الأمام عليه السلام قال: هو يرد إلى أمير المؤمنين عليه السلام فعذبه عذابا نكرا، ثم يقول: **﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [النبا: ٤٠].** أي من شيعة أبي تراب». (ص ٤١).

وأما المقالة الثانية: فهي في بيان سائر التأويلات العامة التي تجرى في غير موضعها وتعم أكثر من موضع واحد من نصوصها وأدلتها. وقد رتب المؤلف ما في هذه المقالة على ترتيب حروف الهجاء ونهج فيها منهج كتب اللغة بملاحظة الحرف الأول، ثم الآخر ثم الثاني. فمن ذلك الذي ذكره ما يأتي:

(الإصر) قال هو في سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف. وفي أساس البلاغة، الإصر: الثقل. وفي القاموس: الإصر = بالكسر: الذنب، وسيأتي في الذنب تأويله، وقد روى الكليني أيضا عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].** أنه قال: «الإصر: الذنوب التي كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام. فلما عرفوا فضل الإمام وضع عنهم الإصر، قال: قال عليه السلام: **الإصر الذنب، وهي الأصار... الخبر.** وتأويله ظاهر. وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام أنه قال في قوله تعالى: **﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ﴾ [آل عمران: ٨١]** أي عهدى أي عهد الإيمان بالنبي ﷺ ونصرة علي عليه السلام» (ص ٥٠).

= «الباطل» قال: الباطل والمبطلون، والباطل ضد الحق، وقد ورد تأويله بأعداء الأئمة، وبدولة الباطل، وبما كان عليه بنو أمية وأشباهم من غاصبي الخلافة، كعداوة الأئمة وغيرها، ومنه يظهر المراد بالمبطلين، أي مدعى الباطل وأتباعهم ففى تفسير القمى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ [محمد: ٣] قال: هم الذين اتبعوا أعداء على وآل الرسول... الخبير. (ص ٧٠).

«الراجفة» قال: الراجفة، والرادفة، والرجفة، والمرجفون: أصل الرجفة الجركة والاضطراب ومنها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب. وفى سورة الأحزاب: ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الآية: ٦٠] قال: وسيأتى هناك عن الصادق عليه السلام: أن الراجفة الحسين عليه السلام، والرادفة أبوه على عليه السلام، وأن أول من ينفض التراب عن رأسه فى الرجفة الحسين عليه السلام، وقد فسرها المفسرون بالنفخ الأول، والرادفة بالنفخ الثانى، وهو أيضا مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى السور. وربما أمكن إجراء ما ذكرنا من التأويل فى بعض موارد الرجفة على حسب التناسب، بل يمكن التأويل أيضا بقيام القائم ورجعة الناس فلا تغفل» (ص ١٠٩).

«الزيت والزيتون» قال: أما الزيتون فمعروف. وأما الزيت ففرد منه. ويأتى إن شاء الله فى المشكاة، وفى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم، وفى سورة «التين» ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين، وقد أوله القمى أيضا بعلي عليه السلام كما سيظهر فى السورة المذكورة، ولعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضا. وقد قيل فى وجه هذه الاستعارة: إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن مبارك لطيف، وعليه السلام وكذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقربين، وعلومه قوة قلب المؤمنين، وبنوره ونور أولاده الظاهرين اهتدي جميع المهتدين، وقد مثل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى «الطور» (ص ١١٣).

«القبلة» قال فى القاموس: القبلة التى يصلى نحوها، والجهة، والكعبة، وكل ما يستقبل.. يقال: ما له قبلة ولا دبرة - بكسرهما - أى وجهة. هذا وقد مر فى الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام، وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن، واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ونحو هذا، وفى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام: «نحن قبلة الله ونحن كعبة الله» وسيأتى بعض المزيد فى «الكعبة» والله الهادي» (ص ١٨٣).

ثم ذكر الخاتمة، وجعلها مشتملة على فصلين:

الفصل الأول: فى بيان نبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال: «اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشرة: النبي ﷺ، وفاطمة، والأئمة الإثني عشر. والسور هى هذه: ألم المص. الر. المر. كهيعص. طه. طسم. طس. يس. ص. حم. حمعسق. ق. ن» ثم قال: وفى معاني الأخبار بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ألم» حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن، الذى يؤلفه النبي ﷺ والإمام عليه السلام، فإذا دعا به أوجب»، قال بعض الأفاضل: فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله ونبيه، ورموز لم يقصد بها إفهام غيره وغير الراسخين فى العلم من ذريته. أقول: ويؤيده ما فى تفسير الإمام عليه =

= السلام: أن معني «آلم»: أن هذا الكتاب الذي أنزلته هو الحروف المقطعة التي منها «ألم» وهي بلغتكم وحروف هجائكم، فأتورا بمثله إن كنتم صادقين.. ثم قال: وسنشير فيما ورد في «ص» إلي ما يدل علي أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبي ﷺ، ولنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها علي ترتيبها. فما ورد في «ألم»، وألمص، وألر، والمر «ما قيل من أن معني «ألم» أنا الله أعلم وأري». «ألمص»: أنا الله أعلم وأفصل. وعلي هذا يمكن التأويل بأنه علم حيث اختار محمداً وعلياً وآلهما الطيبين للنبوّة والإمامة وأنزل لهم وفيهم كتابه المجيد، وعلى هذا القياس تأويل ما يأتي بعده... إلخ. (ص ٢٣١).

ثم قال: وأما «كهيعص» فمعناه أنا الكافي الهادي، والوالى العالم الصادق الوعد.

أقول: تأويل هذا: ما ورد عنه عليه السلام أيضاً أنه قال: أى كاف لشيعتنا، هاد لهم، ولي لهم، وعده الحق، يبلغ بهم المنزلة التي وعدهم إياها في بطن القرآن - وما في الاحتجاج والمناب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحجة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل «كهيعص» فقال: إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عليها عبده زكريا، ثم فصلها علي محمد ﷺ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام، فعلمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمداً، وعلياً، وفاطمة، والحسن، سرى عنه همه وانجلي كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العيرة ووقعت عليه البهرة. فقال ذات يوم: إلهي، ما بالي ذكرت أربعاً منهم تسليت بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: «كهيعص» فالكاف: اسم كريلاء: والهاء هلاك العترة، والياء: يزيد لعنه الله - وهو ظالم الحسين - والعين: عطشه، والصاد: صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع فيها الناس من الدخول عليه... الخير.

قال: وسيأتى تتمته في سورتته». (ص ٢٢٣).

وجعل الفصل الثاني من الخاتمة في ذكر بعض الفوائد.

فالفائدة الأولى: بين فيها أن دأبه في هذا التفسير على شيعين:

أحدهما: تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة أنبيائه وعصيانهم، بأن المراد الإطاعة وعدمها فيما بلغوا إليهم وأمرهم به من الإقرار بولاية النبي والأئمة، والاعتراف بحقهم، والتمسك بهم، مع التبري من أعدائهم. بعد الإقرار بالله ورسله. وتصديقهم فيما بلغوا جميعاً، لا سيما الولاية.

وثانيهما: تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم وإلى طاعتهم وإلى معصيتهم وما ورد عليهم من الشر والنقم والخير، والنعم وغير ذلك علي طوائف هذه الآية فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبي والأئمة في أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، والأشرار بالأشرار، وتبيان وجه الشبه في تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتظهير أصحاب السبت بقتلة ذرية النبي كبنى أمية وبنى العباس مثلاً، وأصحاب الكهف بأبي طالب ونظرائه مثلاً، وأصحاب العجل بأهل السقيفة، وغير ذلك» (ص ٢٣٥).

والفائدة الثانية: بين فيها أن المراد في الباطن بجميع ما حرم الله في القرآن أئمة الجور، وبما =

= أحلُّ أئمة الحق، وأنهم أصل كل خير، ومن فروعهم كل بر، وأعداؤهم أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، وأن أعداءهم المراد بالفواحش والمناهي وما يُعبد من دون الله» (ص ٢٣٦).

والفائدة الثالثة قال فيها: «إنه تقدم وجوب الإيمان بظاهر القرآن وباطنه معاً، وأن كلا منهما مقصود الباري، ولكن لما كانت التفاسير المتداولة مشتملة على جلِّ ما يتعلق بالظاهر، وكان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة، لخلق أكثر التفاسير عنها جميعاً، ومن أكثرها، جعلنا مدار كلامنا على تبين هذا الأمر وبيان ما يتعلق بالبطون فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصلاً، حذراً من التطويل والخروج عن المقصود الأصلي» (ص ٢٣٦).

والفائدة الرابعة: بيّن فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات والكلمات القرآنية في تفسيره، فمبناه على التجوُّز في المعنى، أو الإسناد، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات وأمثالها. قال: «ومع هذا لا يجوز ذلك في موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه وفي مثله، أو بحسب العموم والإطلاق الشامل» (ص ٢٣٦).

والفائدة الخامسة: بيّن فيها أنه اقتصر في نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد، مخافة التطويل.

قال: «ربما فرقنا مضمون خبر على موضع، وربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، ولكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث ولا يتغير منه معناه» (ص ٢٣٦).

والفائدة السادسة: بيّن فيها أن كل ما ذكره في تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام» (ص ٢٣٦).

والفائدة السابعة: بيّن فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعة، وادعى تواتر الأحاديث المثبتة لها في الجملة، وإن كانت مختلفة في تفصيلها، وقال: لقد وقفت على أزيد من مائتي حديث فيها، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك» (ص ٢٣٧ - ٢٣٩).

ثم قال: وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده في مقدمات تفسيرنا، ونشرع بعد هذا في أصل التفسير إن شاء الله تعالى ويحوله وقوته وتوفيقه، حامداً ومصلياً ومُسَلِّماً، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، حمداً وصلوةً وتسليماً كثيراً كثيراً كثيراً. أ هـ.

ولكن أين هذا التفسير؟؟ قلنا: لم نعر عليه في مكتبته من مكاتبنا المصرية. وقلنا: إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يصور لنا معالم التفسير عند الإمامية الإثني عشرية... ولكن ألسنتُ معي في أن هذه المقدمة التي لخصتُ لك أهم مباحثها، تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها في تفسيره، وعن مقدار تأثيره بعقيدته في فهمه لكتاب الله؟ أظن أنك معي في هذا وإليك أسوق أهم القواعد التي سار عليها المؤلف في تفسيره، وهي قواعد استخلصتها ولخصتها من مقدمة تفسيره، ولا أحسب أنه تخطأها أو شد عنها بعد ما دافع عنها وقواها بما استطاع من الأدلة. وهذه هي أهم القواعد:

أولاً: القرآن له ظهر وبطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة وسبعون بطناً، وجملة باطن =

= الكتاب في الدعوة إلى الإمامة والولاية، وجملة ظاهره في التوحيد والنبوة والرسالة، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على المدح والإكرام ففي أئمتهم، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على التهديد والوعيد والتوبيخ والتفريع ففي مخالفهم وأعدائهم تزلت.

ثانياً: لا تقتصر معاني الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجري في كل أوان وعلى أهل كل زمان.

ثالثاً: معاني القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة.

رابعاً: المعاني الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز ونهج الاستعارة وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، وهذا في تقديره أمر لا غرابة فيه ولا استبعاد، إذ أن أبواب التجوز في كلام العرب واسعة، وموارده في عبارات الفصحاء سائغة.

خامساً: يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وبسائر ما يتعلق بذلك تفصيلاً أو إجمالاً إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت، ومن أنكر الظاهر وأقر بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر، بل ويجب على كل إنسان أن يصدق بكل ما نُقل عن الأئمة من تفسير وتأويل وإن لم يفهم معناه، ومن الجرأة أن ينكر أحد شيئاً من ذلك لخفائه عليه.

سادساً: علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة، وهذا أمر اختصوا به دون من عداهم، فلهذا لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه وبدون سماع منهم: لأنهم لا شبهة في أن من عداهم تقصر علومهم وتعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلاً عن بواطنه وتأويله.

سابعاً: ما علم الله صدوره من هذه الأمة المحمدية في الأزمنة المستقبلية - أي بعد نزول القرآن - أشار الله إليه ونبه عليه في كتابه الكريم، فكل ما جدد ويجدد من الحوادث بعد نزول القرآن يستفيد من آياته عن طريق تأويلها، وهذا أبلغ في الإعجاز وأجمل للإيجاز، فقله تعالى: ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾ [الانشقاق: ١٩].. تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

ثامناً: القرآن الذي جمعه على عليه السلام وتوارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح، وما عداه وقع فيه التغيير والتبديل، فكل ما ورد صريحاً في مدح أهل البيت وذم شأنهم أسقط من القرآن أو حُرف وُبدل، ولعلم الله بما سيكون من التغيير والتبديل لم يكتب الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة والولاية وفضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم بما صرح به القرآن، بل أرشد إلى ذلك أيضاً بحسب ما يدل عليه باطن اللفظ وتأويله، لتقوم بذلك الحججة على الناس وإن حُرف القرآن وُبدل.

تاسعاً: كثيراً ما يريد الله في كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك، كما ورد في تأويل «المشركين»: «بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام».

عاشراً: ما ورد من الخطاب للأمم السابقة كثيراً ما يراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه =

٧ - البرهان .. فى تفسير القرآن

للسيد هاشم بن السيد سليمان بن سيد إسماعيل بن سيد عبد الجواد الحسيني البحراني التوبلى الكتكاني (المتوفى سنة ١١٠٧ - أو ١١٠٩ هـ) .. والكتاب طبع للمرة الأولى على الحجر فى طهران سنة ١٢٩٥ هـ فى مجلدين يبلغ عدد صفحاتهما ١١٤٨ صحيفة، وطبع للمرة الثانية فى أربع مجلدات تبلغ عدد صفحاتها ١٩٩٦ صحيفة، وذلك فى سنة ١٣٧٥ هـ.

وهنا نحن نعتمد فى نقولنا على الطبعة الثانية، التى جعلت مقدمة «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» مقدمة لها وإن كانت فى مجلد وحدها.

● التعريف بالمؤلف (١) :

« مؤلف هذا الكتاب هو السيد هاشم بن سيد سليمان بن سيد إسماعيل بن سيد عبد الجواد بن سيد على بن سيد سليمان بن سيد ناصر الحسيني الكتكاني (٢) .

ولد - رحمه الله تعالى - فى كتكان من قرى بلدة توبلى من أعمال البحرين، لم يذكر مترجموه تاريخ ولادته ولم يشيروا إلى ما يوضح ذلك، ولكنهم ذكروا سنة وفاته وقد توفى سنة ١١٠٧ (أو سنة ١١٠٩ هـ) فى قرية النعيم ونقل إلى قرية التوبلى ودفن بها..

= الخطاب من هذه الأمة بحسب الإمامة والولاية وغيرهما، مع إرادة الظاهر أيضاً مثل: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّة يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩] .. أراد فى الباطن بقوم موسى: أهل الإسلام.

الحادية عشرة: قد يراد بالخطاب فى الباطن مخاطباً غير من نفهم من الظاهر كون الخطاب له، كما ورد عن أبي عبد الله أنه قال: نزل القرآن بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة» فقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْتِ لَقَدْ كَدَتِ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤] .. عنى به غير النبى .

الثانية عشرة: قد يرجع الضمير بحسب التأويل والباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحاً، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقرآنٍ غير هذا أو بدله ﴾ [يونس: ١٥] ... يعنى أو بدّل علياً.

الثالثة عشرة: ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله: ﴿ فَلَمَّا أَسْفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] ... السرفيه إدخال النبى ﷺ والأئمة فى مفهومه وهذا مجاز شائع معروف.

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة وما شاكلة والضمائر الراجعة إلى الله فى الظاهر مراد به الإمام باطنياً وتأويلاً، وهذا مجاز شائع معروف.

هذه هى أهم القواعد التى سار عليها المؤلف فى تفسيره، وهى كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره. (التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٥ - ٥٨).

(١) نقلاً عن الترجمة المذكورة له فى آخر المجلد الرابع ص ٥٥٥ وما بعدها.

(٢) قال معلقه: ريحانة الأدب: ج ٥ ص ١٤١ عن الكنى والألقاب: ج ٣ ص ٧٨

وذكر صاحب اللؤلؤة « أنه كان فاضلاً محدثاً جامعاً متتبِعاً للأخبار بما لم يسبق له سابق سوى شيخنا المجلى وقد صنّف كتباً عديدة تشهد بشدة تتبعه واطلاعه ». ومؤلفاته تبلغ خمسة وسبعين كتاباً بين صغير وكبير ووسيط .

قال صاحب اللؤلؤة : « إنى لم أقف له على كتاب « فتاوى الأحكام الشرعية » بالكلية ولو في مسألة جزئية، وأن ما كتبه مجرد جمع وتأليف ولم يتكلم في شيء منها مما وقفت عليه على ترجيح في الأقوال أو اختيار مذهب وقول في ذلك المجال، ولا أدرى أن ذلك لقصور درجته عن مرتبة النظر والاستدلال أم تورعاً من ذلك كما نقل عن السيد الزاهد العابد رضى الدين بن طولوس » .

قال المترجم : ولكن أعتقد أن المرجح هو ورعه لا قصوره وقد استدل على ذلك بدليلين : ثانيهما ما جاء في اللؤلؤة عنه : « وانتهت رياسة البلد بعد الشيخ محمد بن ماجد (المتقدم) إلى السيد المذكور، فقام بالقضاء فى البلاد وتولى الأمور الحسبية أحسن قيام وقمع أيدى الظلمة والحكام، ونشر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبالغ فى ذلك وأكثر، ولم تأخذه لومة لائم فى الدين، وكان من الأتقياء المتورعين شديداً على الملوك والسلطين » .

وها هى جملة من مؤلفاته :

- ١ - إثبات الوصية (ذكر المعلق أن صاحب الذريعة يستظهر أن هذا الكتاب هو كتاب البهجة المرضية الآتى بعد) .
- ٢ - احتجاج الخلفين على إمامة أمير المؤمنين .
- ٣ - إرشاد المسترشدين .
- ٤ - الإنصاف فى النص على الأئمة الأشراف من آل عبد مناف .
- ٥ - إيضاح المسترشدين فى بيان تراجم الراجعين إلى ولاية أمير المؤمنين .
- ٦ - البرهان فى تفسير القرآن .
- ٧ - البهجة المرضية فى إثبات الخلافة والوصية .
- ٨ - تبصرة الولي فيمن رأى المهدي فى زمان أبيه أو فى غيبته الصغرى أو الكبرى .
- ٩ - تحفة الإخوان . ١٠ - ترتيب التهذيب .
- ١١ - تفضيل الأئمة على الأنبياء الذين كانوا قبل جدهم النبى الخاتم ﷺ .
- ١٢ - تفضيل علىّ على أولى العزم من الرسل .
- ١٣ - تنبيه الأريب وتذكرة اللبيب فى إيضاح رجال التهذيب .
- ١٤ - التيمية فى بيان نسب التيمى .
- ١٥ - التنبيهات فى تمام كتاب الفقه من كتاب الطهارة إلى الديّات .
- ١٦ - ثاقب المناقب فى المعجزات .

- ١٧ - نزهة الأبرار في خلق الجنة والنار .
 ١٨ - حقيقة الإيمان .
 ١٩ - حلية الآراء (قال المترجم : والظاهر أنه مصحف الأبرار الآتى) .
 ٢٠ - حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار .
 ٢١ - حلية النظر في فضل الأئمة الإثني عشر .
 ٢٢ - الدر النضيد في خصائص الحسين الشهيد .
 ٢٣ - سلاسل الحديد ، منتخب من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
 ٢٤ - عمدة النظر في الأئمة الإثني عشر .
 ٢٥ - غاية المرام وحجّة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام .
 ٢٦ - لوامع الأنوار في التفسير .
 ٢٧ - مدينة المعجزات .
 ٢٨ - المحجّة فيما نزل في القائم الحجّة .
 ٢٩ - معالم الزلفى في النشأة الأخرى .
 ٣٠ - معجزات النبي ﷺ .
 ٣١ - مناقب أمير المؤمنين .
 ٣٢ - مناقب الشيعة .
 ٣٣ - مولد القائم .
 ٣٤ - الميثمية .
 ٣٥ - نور الأنوار في التفسير .
 ٣٦ - نزهة الأبرار ومنار الأفكار في خلق الجنة والنار .
 ٣٧ - نهاية الآمال في ما يتم به الأعمال .
 ٣٨ - نسب عمر بن الخطاب .
 ٣٩ - الهادى وضياء النادى (مجلدان في تفسير القرآن) .
 ٤٠ - وفاة الزهراء .
 ٤١ - وفاة النبي ﷺ .
 ٤٢ - روضة العارفين .
 ٤٣ - الهداية في تفسير القرآن .

قال المترجم : « وهذا السيد كان يروى عن جملة من المشايخ منهم السيد عبد العظيم بن السيد عباس الإستراباذى الأخبارى ، والشيخ محمود بن عبد السلام ، والشيخ فخر الدين الطريحي النجفى صاحب كتاب مجمع البحرين . واعلم أن كتابه « البرهان فى تفسير القرآن » ستة أجزاء قد جمع فيه جملة الأخبار الواردة فى التفسير من الكتب القديمة العربية وغيرها » . أ هـ .

قال المؤلف فى مقدمة تفسيره^(١) بعد أن ذكر فضل القرآن الكريم ما نصه : « غير أن أسرار تأويله لا تهتدى إليه العقول ، وأنوار حقائق خفياته لا تصل إليه قريحة المفضل ،

(١) الجزء الأول ص ٢ وما بعدها .

ولهذا اختلف فى تأويله الناس، وصاروا فى تفسيره على أنفاس وانعكاس، قد فسروه على مقتضى أديانهم، وسلكوا به على موجب مذاهبهم واعتقادهم، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولم يرجعوا فيه إلى أهل الذكر صلي الله عليهم وسلم أجمعين، أهل التنزيل والتأويل القائل فيهم جل جلاله: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ [آل عمران: ٧] لا غيرهم، وهم الذين أوتوا العلم وأولوا الأمر وأهل الاستنباط وأهل الذكر الذين أمر الناس بسؤالهم كما جاءت به الآثار النبوية والأخبار الإمامية، ومن ذا الذى يحوى القرآن غيرهم ويحيط تنزيله وتأويله سواهم؟ ففى الحديث عن مولانا باقر العلم أبى جعفر محمد بن علىّ عليهما السلام قال: « ما يستطيع أحد أن يدعى أنه جمع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء ». وفى حديث آخر عن جابر قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: « ما من أحد من الناس ادعى أنه جمع القرآن كله كما أنزل الله إلا كذب، وما جمعه وحفظه كما أنزل الله إلا علىّ بن أبى طالب والأئمة من بعده ». وفى الحديث عن مولى الأمة وإمامها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام: « أن عبد الله بن عباس جاءه عليه السلام يسأله عن تفسير القرآن فوعده بالليل، فلما حضر قال: ما أول القرآن؟ قال: الفاتحة، قال: وما أول الفاتحة؟ قال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾، قال وما أول ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾؟ قال: ﴿ بسم ﴾، قال: وما أول ﴿ بسم ﴾؟ قال: الباء، فجعل عليه السلام يتكلم فى الباء طول الليل، فلما قرب الفجر قال: لو زادنا الليل لزدنا ». وقال عليه السلام فى حديث آخر: « لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً فى تفسير فاتحة الكتاب ».

ثم ساق أحاديث أخرى ثم قال:

« إذا عرفت ذلك فقد رأيت عكوف أهل الزمان على تفسير من لم يرووه عن أهل العصمة سلام الله عليهم الذى أنزل التنزيل والتأويل فى بيوتهم وأوتوا من العلم ما لم يؤته غيرهم، بل كان يجب التوقف حتى يأتى تأويل عنهم لأن علم التنزيل والتأويل فى أيديهم مما جاء عنهم عليهم السلام فهو النور والهدى، وما جاء عن غيرهم فهو الظلمة والعمى، والعجب كل العجب من علماء علمى المعانى والبيان حيث زعموا أن معرفة هذين العلمين يطلع على مكنون سر الله جل جلاله من تأويل القرآن، قال بعض أئمتهم: ويل، ثم ويل، ثم ويل لمن تعاطى التفسير وهو فى هذين العلمين راجل، وذلك أنهم ذكروا أن العلمين مأخوذان من استقرار تراكيب كلام العرب البلغاء، باحثان عن مقتضيات الأحوال والمقام كالحذف، والإضمار، والفصل، والوصل، والحقيقة، والمجاز، وغير ذلك.

ولا ريب أن محل ذلك من كتاب الله جل جلاله يحتاج معرفته إلى العلم به من

أهل التنزيل والتأويل، وهم أهل البيت عليهم السلام الذين علّمهم الله سبحانه وتعالى فلا ينبغي معرفة ذلك إلا منهم، ومن تعاطى معرفته من غيرهم ركب متن عمياء، وخبط خبط عشواء، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنتى تُصرفون؟

«وقد كنت أولاً قد جمعت فى كتاب «الهادى» كثيراً من تفسير أهل البيت عليهم السلام قبل عشورى على تفسير الشيخ الثقة محمد بن مسعود العياشى. وتفسير الشيخ الثقة محمد بن العباس بن ماهيار المعروف بابن الحجام ما ذكره عنه الشيخ الفاضل شرف الدين النجفى وغيرهما من الكتب الآتى ذكرها فى الباب الخامس عشر فى ذكر الكتب المأخوذ منها الكتاب وذكر مصنفها فى مقدمة الكتاب، وهذه الكتب من الكتب المعتمد عليها، والمعول والمرجع إليها، مصنفوها مشايخ معتبرون، وعلماء منتجبون.

«وربما ذكرت فى الكتاب التفسير عن ابن عباس على قلة إذ هو تلميذ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، وربما ذكرت التفسير من طريق الجمهور إذا كان موافقاً لرواية أهل البيت عليهم السلام، أو كان فى فضل أهل البيت عليهم السلام.. عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «القرآن أربعة أرباع، فربع فىنا أهل البيت خاصة، وربع حلال، وربع حرام، وربع فرائض وأحكام، والله أنزل فىنا كرائم القرآن». والعجب من مصنفى تفسير الجمهور مع روايتهم هذه الرواية أنهم لم يذكروا إلا القليل فى تفاسيرهم من فضل أهل البيت ولا سيما متأخرى [هكذا] مفسريهم كصاحب الكشاف والبيضاوى.

«ثم إن لم أعثر على تفسير الآية من صريح رواية مسند عن أهل البيت ذكرت ما ذكره الشيخ أبو الحسن على بن إبراهيم الثقة فى تفسيره، إذ هو منسوب إلى مولانا وإمامنا الصادق عليه السلام.

«وكتابى هذا يطلعك على كثير من أسرار علم القرآن، ويرشدك إلى ما جهله متعاطى التفسير من أهل الزمان، ويوضح لك عن ما ذكره من العلوم الشرعية والقصص والأخبار النبوية وفضائل أهل البيت الإمامية، إذ صار كتاباً شافياً ودستوراً وافياً ومرجعاً كافياً، حجة فى الزمان، وعيناً من الأعيان، إذ هو مأخوذ من تأويل أهل التنزيل والتأويل الذين نزل الوحي فى دارهم عن جبريل عن الجليل، أهل بيت الرحمة، ومنبع العلم والحكمة، صلى الله عليهم أجمعين».

ثم ذكر المؤلف أنه أُلّف تفسيره خدمة للسلطان شاه بهادر خان الذى أثنى عليه بالغ الثناء، ووصل نسبه بنسب المصطفى عليه السلام، ثم قال: «واعلم أيها الراغب فيما جاء عن أهل البيت عليهم السلام من التفسير، والطالب لما سئح منهم من الحق المنير، أنى قد جمعت ما فى تفسير «الهادى» ومصباح النادى» الذى أُلّفته أولاً إلى زيادات هذا الكتاب لينعم النفع ويسهل أخذه على الطلاب، إن فى ذلك لعبرة لأولى

الألباب، وشفاء للمؤمنين، ونوراً لمن استضاء به من خلص الأصحاب، فهو كتاب عليه المعول، وإليه المرجع لا تفاسير الجمهور، فهذا التفسير الظل وتفاسيرهم الحرور.

« فيقول مؤلفه فقيراً إلى الله الغنى، عبده هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني: إني جعلت قبل المقصود مقدمة فيها أبواب تشتمل على فوائد في الكتاب، وسميته « البرهان في تفسير القرآن » وهو قد اشتمل على كثير من أهل البيت عليهم السلام، الذين نزل القرآن في منازلهم، فمرجع تنزيله وتأويله إليهم، والله سبحانه نسأل أن يجعل محيانا محياهم، ومماتنا مماتهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل ».

ثم ذكر عدة أبواب :

الباب الأول: في فضل العالم والمتعلم.

والباب الثاني: في فضل القرآن.

والباب الثالث: في الثقلين وهما: كتاب الله والعترة.

(ويعنى بالعترة الأئمة الإثني عشر كما صرح بذلك في الحديث الثالث رواية عن علي، وقيل: أهل بيت النبي ﷺ عامة).

والباب الرابع: في معنى الثقلين من طريق المخالفين وفي أنه ما من شيء يحتاج إليه العباد إلا وهو في القرآن وفيه تبيان كل شيء.

والباب الخامس: في أن القرآن لم يجمعه كما أنزل إلا الأئمة، عليهم السلام وعندهم تأويله، وذكر أحاديث منها: عن أبي عبد الله قال: « إنا أهل بيت لم ينبعث منا إلا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره ».

وعن أبي عبد الله أيضاً قال: « والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، قال الله تعالى: ﴿ فيه تبيان كل شيء ﴾ (١).

وعن يعقوب بن جعفر قال: « كنت مع أبي الحسن عليه السلام بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم يُسمع، فقال: علينا نزل قبل الناس ولنا فُسر قبل أن يُفسر في الناس، فنحن نعلم حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، وسفريه وحضرته، وفي أي ليلة نزلت من آية، وفيمن نزلت، فنحن حكماء الله في أرضه، وشهداؤه على خلقه، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ [الزخرف: ١٩]، فالشهادة لنا والمسألة للمشهود عليه، فهذا قد أنهيته ». وعن أبي عبد الله قال: « إنا أهل بيت لم يزل الله يبعث منا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره، وإن عندنا من حلاله وحرامه ما يسعنا كتماننا ما نستطيع أن نحدث به أحداً ».

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

والباب السادس: فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى والنهى عن الجدل، ويروى فيه عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة، أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، قال أبو جعفر: بلغنى أنك تفسر القرآن. قال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك، قال قتادة: سل، قال: أخبرنى عن قول الله عز وجل فى سبأ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر: ناشدتك الله يا قتادة، هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وكراء حلال يريد هذا البيت فتقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر: ويحك قتادة، إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلك، ويحك يا قتادة، ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفاً بحقنا يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ولم يعن البيت فيقول: «إليه»، فنحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التى من هوأها قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة، فإن كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جزم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر: ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن من خوطب به» (ج ١ ص ١٨).

والباب السابع: فى أن القرآن له ظهر وبطن، وعام وخاص، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، والنبي ﷺ وأهل بيته يعلمون ذلك وهم الراسخون فى العلم، وروى فيه عن أبى جابر قال: سألت أبا جعفر عن شىء فى تفسير القرآن فأجابنى، ثم سألته ثانية فأجابنى بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك، كنت أجبت فى هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم، فقال لى: يا جابر، إن للقرآن بطناً، وللبدن بطناً وظهراً، وللظهر ظهراً، يا جابر، وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية لتكون أولها فى شىء وأوسطها فى شىء، وآخرها فى شىء، وهو كلام متصل ينصرف على وجوه» (ج ١ ص ٢٠).

«وروى فيه أيضاً عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: إن الأحاديث تختلف عنكم، قال: فقال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأذن للإمام أن يفتى على سبعة وجوه، ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] (ج ١ ص ٢١).

والباب الثامن: فيما نزل عليه القرآن من الأقسام. وروى فيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أنزل القرآن أثلاثاً، ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام» (ج ١ ص ٢١).

والباب التاسع: في أن القرآن نزل بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة». وروى فيه عن أبي عبد الله قال: نزل القرآن بـ: «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، ثم قال الكليني: وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام، معناه: ما عاتب الله عز وجل به نبيه ﷺ فهو يعنى به ما قد مضى في القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَفَدَّتْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] (ج ١ ص ٢٢).

والباب العاشر: فيما عنى به الأئمة في القرآن، وروى فيه عن أبي جعفر قال: «إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الأمة بخير فهم نحن، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا» (ج ١ ص ٢٢).

«وروى عن أبي عبد الله قال: لو قرىء القرآن كما أنزل لألفيتنا فيه مسمين» (ج ١ ص ٢٢).

«وعن أبي جعفر قال: لولا أن زيد في كتاب الله ونقص منه ما خفى حقنا على ذى الحجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدقه القرآن» (ج ١ ص ٢٢).

«روى عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أنتم الصلاة في كتاب الله عز وجل، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ فقال: يا داود، نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله، ونحن الآيات، ونحن البيئات، وعدونا في كتاب الله الفحشاء والمنكر والبغى والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والحجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير، يا داود؛ إن الله خلقنا وأكرم خلقنا، وفضلنا، وجعلنا أمناء وحفظته وخزانه على ما فى السموات وما فى الأرض، وجعل لنا أصدقاء وأعداء، فسمانا فى كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه تكنية عن العدو^(١)، وسمى أصدادنا وأعدائنا فى كتابه، وكنى عن أسمائهم، وضرب لهم الأمثال فى كتابه فى أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين» (ج ١ ص ٢٣).

والباب الحادى عشر: فى معنى الباب العاشر.

والباب الثانى عشر: فى معنى الثقلين والخليفين من طريق المخالفين.

(١) كأنه أيضاً يأخذ بالتقية !!

والباب الثالث عشر: في العلة التي من أجلها أن القرآن باللسان العربي، وأن المعجز في نظمه، ولم صار جديداً على مر الأزمان.

والباب الرابع عشر: في أن كل حديث لا يوافق القرآن فهو مردود.

والباب الخامس عشر: في أول سورة نزلت وآخر سورة.

والباب السادس عشر: في ذكر الكتب المأخوذ منها الكتاب، وعداً ما يزيد عن ستين كتاباً منها ما هو في التفسير كتفسير الحسن العسكري، والطوسي، والطبرسي، والزمخشري، ومنها ما هو في الحديث كالكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والاستبصار، ومنها ما هو في المناقب، ومنها ما هو في الزهد والمواعظ.

ثم ذكر أن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ومحكما ومتشابهاً، وعاماً وخاصاً... الخ وذكر أمثلة لكل ذلك، كما ذكر أن في القرآن ما هو عليه خلاف ما أنزل الله وضرب مثلاً لذلك قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال أبو عبد الله لقارئ هذه الآية: خير أمة يقتلون أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين ابني علي عليهم السلام؟ ف قيل له: وكيف أنزلت يا بن رسول الله؟ فقال: إنما نزلت: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ إلا تري مدح الله لهم في آخر الآية: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

(ج ١ ص ٣٤)

● ومثله أنه قرئ علي أبي عبد الله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٣٤]، فقال أبو عبد الله: لقد سألوا الله عظيماً أن يجعلهم المتقين إماماً، ف قيل له: يا بن رسول الله، كيف نزلت هذه الآية؟ فقال: إنما نزلت: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

وقوله: ﴿ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، فقال أبو عبد الله: كيف يحفظ الشيء من أمر الله؟ وكيف يكون المعقب من بين يديه؟ ف قيل له: وكيف يكون ذلك يا بن رسول الله؟ فقال: إنما نزلت: ﴿ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾. قال: ومثله كثير (ج ١ ص ٣٤).

● ثم ذكر ما هو محرف في القرآن، وذكر من أمثلة ذلك قوله: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فِي عَلِيٍّ - كَذَا أَنْزَلَتْ - أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ (١).

(١) يشير إلي قوله تعالى: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. (١)

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٨]. (٢)

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. (٣)

وقوله: «ولو تري الذين ظلموا آل محمد حقهم في غمرات الموت»

[الأنعام: ٩٣] (٤) . قال: ومثله كثير نذكره في مواضعه» (ج ١ ص ٣٤).

● ثم ذكر أن بعض الآيات في سورة وتامها في سورة أخري، فقوله في سورة البقرة في قصة بني إسرائيل «حين عبر بهم موسى البحر وأغرق الله فرعون وأصحابه وأنزل موسى بني إسرائيل [هكذا] وأنزل عليهم المن والسلوي فقالوا لموسي: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، فقال لهم موسى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، فقالوا له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]، فنصف الآية في سورة البقرة، ونصفها في سورة المائدة.

(ج ١، ص ٣٤)

وقوله: ﴿اكَتْتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، فرد عليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمَبْطُلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فنصف الآية في سورة الفرقان ونصفها في سورة العنكبوت. قال: ومثله كثير نذكره في مواضعه إن شاء الله.

● ثم ذكر أن في القرآن ردا علي الزنادقة والثوية وعبدة الأوثان والدهرية والمعتزلة و... و... وعلي من أنكر الرجعة، وهنا عرض لقوله تعالي: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ [النمل: ٨٣]، فروي عن حماد عن أبي عبد الله قال: ما يقول الناس في هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، يقولون إنها في القيامة؟ قال: ليس كما يقولون، إن ذلك في الرجعة، يحشر الله في القيامة من كل أمة فوجا ويدع الباقيين؟ إنما

(١) يشير إلي قوله تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(٢) يشير إلي قوله تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

طَرِيقًا﴾

(٣) يشير إلي قوله تعالي: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾

(٤) يشير إلي قوله تعالي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ﴾

آية يوم القيامة قوله: ﴿وَحَشْرَبَانَهُمْ فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَيَّ قَرْيَةٌ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، فقال الصادق عليه السلام: كل قرية أهلك أهلها بالعذاب لا يرجعون في الرجعة، وأما في القيامة فيرجعون، والذين محضوا الإيمان محضاً وغيرهم ممن لم يهلكوا بالعذاب ومحضوا الكفر محضاً يرجعون» (ج ١ ص ٣٩).

«روي عن أبي عبد الله في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال: ما بعث الله نبياً من لدن آدم إلا ويرجع إلي الدنيا فينصر أمير المؤمنين وهو قوله: «لتؤمنن به» يعني رسول الله ﷺ، «ولتنصرنه» يعني أمير المؤمنين» (ج ١ ص ٤٠).

«وروي عن معمر بن شمر قال: ذكر عند أبي جعفر عليه السلام جابر فقال: رجم الله جابراً، لقد بلغ من علمه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، يعني الرجعة، قال: ومثله كثير نذكره في مواضعه» (ج ١ ص ٤٠).

وفي خاتمة الكتاب ذكر ابوابا هي :

اتباب الاول : في أن المعوذتين من القرآن .

والباب الثاني : في رد متشابه القرآن إلي تأويله ، وساق امثلة كثيرة من الآيات التي توهم الاختلاف والتناقض ووفق بينها بما يتفق مع اللغة و الشرع تارة ، وبما يتفق مع مذهبه الشيعي تارة أخرى (١) .

والباب الثالث : في فضل القرآن ، وساق فيه رواية عن علي عليه السلام أنه قال: «والذي بعث محمدا ﷺ بالحق، واکرم أهل بيته ، ما من شئ تطلبونه من حرز: من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابة من صاحبها أو ضالة أو آبق إلا وهو في القرآن، فمن أراد ذلك فليسألني عنه».. ثم ذكر أن رجالا سألوا علياً عما يؤمنهم من الغرق والحرق وغير ذلك فكان عليه السلام يعلم كل واحد من القرآن ما يدفع عنه هذا المكروه، في روايات متعددة.

(ج ٤ ص ٥٤٦ - ٥٤٧).

والباب الرابع: في أن حديث أهل البيت صعب مستصعب، وساق روايات متعددة

(١) نقل المؤلف هذا الباب من كتاب الاحتجاج عن أبي طالب الطبرسي، قال: جاء بعض الزنادقة إلي أمير المؤمنين علي عليه السلام وقال له: لولا ما في القرآن من الاختلاف والتناقض لدخلت في دينكم، فيقال له عليه السلام: وما هو؟ قال قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]... إلخ (ج ٣ ص ٥٣٢).

في هذا المعني، منها: «عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ «إن حديث آل محمد ﷺ صعب متصعب لا يؤمن به إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من حديث آل محمد ﷺ فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه، وما اشمأزت منه قلوبكم وأنكرتموه فردوه إلي الله وإلي الرسول وإلي العالم من آل محمد، وإنما الهالك أن يحدث أحدكم بشئ منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا، والإنكار هو الكفر» (ج ٤ ص ٥٤٧).

والباب الخامس: في وجوب التسليم لأهل البيت فيما جاء عنهم عليهم السلام وساق روايات كثيرة... منها:

«عن أبي سفيان بن السمط قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، يأتينا الرجل من قبلكم يعرف بالكذب فيحدث بالحديث فنستبشعه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يقول لك أنني قلت الليل إنه نهار والنهار إنه ليل؟ قلت: لا، قال: «فإن قال لك هذا أنني قلته فلا تكذب به فإنك إنما تكذبنني» (ج ٤ ص ٥٤٨).

«وروي عن علي بن سويد السائي. عن أبي الحسن الأول عليه السلام أنه كتب إليه في رسالته: ولا تقل لما يبلغك عنا أو ينسب إلينا هذا باطل وإن كنت تعرف خلافه، فإنك لا تدري لم قلناه وعلي أي وجه وضعناه».

(ج ٤ ص ٥٤٨).

«وروي عن كامل التمار عن أبي جعفر قال: كنت عنده فهو يحدثني إذ نكس رأسه إلي الأرض فقال: قد أفلح المسلمون^(١)، إن المسلمين هم النجباء، يا كامل: الناس كلهم بهائم إلا قليلا من المؤمنين، والمؤمن غريب» (ج ٤ ص ٥٤٩).

ثم قال المؤلف:

«ثم اعلم أيها الأخ في الدين، والطالب للحق المستبين، والراغب في علوم أهل اليقين محمد وآله والأئمة الراشدين والأمناء المعصومين حجة الله علي الخلق أجمعين، وأفضل الأولين والآخرين، فقد اشتمل الكتاب علي كثير من الروايات عنهم عليهم السلام في تفسير كتاب الله العزيز، وانطوي علي الجم الغفير من فضلهم وما نزل فيهم عليهم السلام واحتوي علي كثير من علوم الأحكام والآداب، وقصص الأنبياء وغير ذلك مما لا يحتموه كتاب، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبواب، فليس لأحد أن يعمل بتفسير المخالفين بعد إظهار الحق وزهوق الباطل، والالتماس من الإخوان الناظرين في هذا الكتاب إن صح عندهم ما هو أصح من الأصول التي أخذت منها هذا الكتاب فليصلحوا ما تبين فيه من الخلل، لأن بعض الكتب التي أخذت منها هذا الكتاب

(١) يجر اللام مع تشديدها.

كتفسير علي بن إبراهيم وكان يحضرنى فيه نسخ عديدة، والعياشى وكان يحضرنى منه نسختان من أول القرآن إلى آخر سورة الكهف فأصلحت وصححت بحسب الإمكان من ذلك، والله سبحانه هو الموفق» (ج ٤ ص ٥٥١).

ثم ذكر اصطلاحاته ورموزه إلى من نقل عنهم، ثم ذكر أن كتابه هذا مبني على كتب المشايخ الثلاثة: الشيخ محمد بن يعقوب، والشيخ محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه، والشيخ محمد بن الحسن الطوسي، ثم ذكر طريقه إليهم. وفي آخر الكتاب ما نصه:

«وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب المبارك المسمى بـ «البرهان في تفسير القرآن» علي يد مؤلفه الفهامة العلامة بحر العلوم الكامل العالم السيد هاشم ابن السيد سليمان بن السيد إسماعيل بن السيد عبد الجواد الحسيني البحراني خزانة مولفه (هكذا) وفقه الله تعالى لتأليف مثله بحق محمد وآله - باليوم الثالث من شهر ذي الحجة الحرام سنة الخامسة والتسعين بعد الألف من الهجرة المحمدية علي مهاجرها وآله الصلاة والسلام» (ج ٤ ص ٥٥١ - ٥٥٢).

* * *

● الكتاب في جملته تفسير بالرواية عن آل البيت:

من سورة الفاتحة

« روي عن أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، قال: الطريق هو معرفة أمير المؤمنين، ومعرفة الإمام».

(ج ١ ص ٤٦).

— «وفي رواية أخرى عنه قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته، والدليل علي أنه أمير المؤمنين قوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب في قوله: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (ج ١ ص ٤٧).
— «وعن أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال: المغضوب عليهم الغصاب، والضالين الشكاك الذين لا يعرفون الإمام» (ج ١ ص ٤٧).

* * *

سورة البقرة

«عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ اَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١ - ٢]. قال: الكتاب علي لاشك فيه، ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، قال: فيه تبيان لشيعتنا» (ج ١ ص ٥٣).
— «وعنه في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] قال: من آمن بقيام القائم عليه السلام أنه حق» (ج ١ ص ٥٣).

— «وفي رواية عن الصادق: أن الغيب هو الحجة الغائب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لَللَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٠] (ج ١ ص ٥٣ - ٥٤).
— «وعند قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧]، روي عن الإمام العسكري قال: قال رسول الله ﷺ: «أياكم وقي بنفسه نفس رجل مؤمن البارحة»؟ فقال علي عليه السلام: أنا هو يا رسول الله، وقيت بنفسي نفس ثابت بن قيس ابن شماس الأنصاري.

فقال رسول الله ﷺ: «حدث بالقصة إخوانك المؤمنين ولا تكشف عن اسم المنافقين الكائدين لنا فقد كفاكم الله شرهم وأخرهم للتوبة لعلهم يتذكروا أو يخشوا».

فقال علي عليه السلام: إنني بينا أسير في بني فلان بظاهر المدينة وبين يدي بعيدا

مني ثابت بن قيس، إذ بلغ بئرا عارية قديمة بعيدة القعر، وهناك رجل من المنافقين فدفعه ليرميه في البئر فتماسك ثابت بي، ثم عاد فدفعه والرجل لا يشعر بي حتي وصلت إليه وقد اندفع ثابت في البئر، فكرهت أن أشتغل بطلب المنافقين خوفا علي ثابت فوقع في البئر لعلي آخذه، فنظرت فإذا أنا قد سبقته إلي قرار البئر.

فقال رسول الله ﷺ: «وكيف لا تسبقه وأنت أرزن منه، ولو لم يكن من رزانتك إلا ما في جوفك من علم الأولين والآخريين الذي أودع الله ورسوله لكان من ححك أن تكون أرزن من كل شيء، فكيف كان حالك وحال ثابت؟»

قال: يا رسول الله، فصرت إلي البئر واستقررت قائما وكان ذلك أسهل علي وأخف علي رجلي من خطاي التي كنت أخطوها رويدا رويدا، ثم جاء ثابت فانحدر فوق علي يدي وقد بسطتها إليه، وخشيت أن يضرنني سقوطه علي أو يضره، فما كان إلا كطاقة ريحان تناولتها بيدي، ثم نظرت فإذا ذلك المنافق ومعه آخرا علي شفير البئر وهو يقول لهما: أردنا واحدا فصارا اثنين فجاءوا بصخرة فيها مائة «من» فأرسلوها فخشيت أن تصيب ثابتا فاحتضنته وجعلت رأسه إلي صدري وانحنيت عليه فوقع الصخرة علي مؤخر رأسي فما كانت إلا كترويحة بمروحة تروح بها في حمارة القيظ، ثم جاءوا بصخرة أخرى فيها قدر ثلاثمائة «من» فأرسلوها علينا وانحنيت علي ثابت فأصابت مؤخر رأسي فكان كماء صب علي رأسي وبدني في يوم شديد الحر، ثم جاءوا بصخرة ثالثة فيها قدر خمسمائة «من» يديرونها علي الأرض لا يمكنهم أن يقبلوها فأرسلوها علينا فانحنيت علي ثابت فأصابت مؤخر رأسي وظهري فكانت كثوب ناعم صببته علي بدني ولبسته فنعمت به، فسمعتهم يقولون: لو أن لابن أبي طالب وابن قيس مائة ألف روح ما نجت منها واحدة من بلاء هذه الصخور، ثم انصرفوا فدفع الله عنا شرهم، فأذن الله لشفير البئر فانحط، ولقرار البئر فارتفع، فاستوي القرار والشفير بعد بالأرض فخطونا وخرجنا.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، إن الله عز وجل أوجب لك من الفضائل والثواب ما لا يعرفه غيره، ينادي مناد يوم القيامة: أين محبو علي بن أبي طالب؟ فيقوم قوم من الصالحين فيقال لهم: خذوا بأيدي من شئتم من عرصات يوم القيامة فادخلوهم الجنة، وأقل رجل منهم ينجو بشفاعته من أهل تلك العرصات ألف ألف رجل، ثم ينادي مناد: أين البقية من محبي علي بن أبي طالب؟ فيقوم قوم مقتصدون فيقال لهم: تمنوا علي الله ما شئتم فيتمنون فيفعل بكل واحد منهم ما تمناه ثم يضعف له مائة ألف ضعف، ثم ينادي مناد: أين البقية من محبي علي بن أبي طالب؟ فيقوم قوم ظالمون لأنفسهم معتدون عليها، ويقال: أين المبغضون لعلي بن أبي طالب؟

فيؤتي بهم جم غفير وعدد كثير، فيجعل كل ألف من هؤلاء فداء لواحد من محبي علي بن أبي طالب عليه السلام ليدخلوا الجنة، فينجي الله عز وجل محبيك ويجعل أعداءهم فداءهم.

ثم قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «انظر» فنظر إلي عبد الله ابن أبي ولي سبعة من اليهود، قال: قد شاهدت، ختم الله علي قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت يا علي أفضل شهداء الله في الأرض بعد محمد رسول الله ﷺ»، قال فذلك قوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ تبصرها الملائكة فيعرفونهم بها، ويبصرها رسول الله ﷺ، ويبصرها خير خلق الله بعده علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم قال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة: ٧]: في الآخرة: ﴿بما كانوا يكذبون﴾ [البقرة: ١٠] من كفرهم بالله وكفرهم بمحمد رسول الله ﷺ.

(ج ١ ص ٥٨ - ٥٩)

- وعند قوله تعالي: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: ٨]، يروي عن جعفر الصادق أنه قال: إن رسول الله ﷺ لما أوقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: «يا عباد الله، انسوني»، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: «أيها الناس ألتست أولي بكم من أنفسكم، فأنا مولاكم أولي بكم من أنفسكم؟» قالوا: بلي يا رسول الله، فنظر رسول الله ﷺ إلي السماء فقال: «اللهم إني أستشهدك بقول هؤلاء» - ويقول ذلك ثلاثا - ثم قال: «ألا فمن كنت مولاه وأولي به، فهذا مولاه وأولي به، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»، ثم قال: «قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين»، فقام ففعل ذلك وبايع له، ثم قال: «قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين»، فقام وبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة ثم لرؤساء المهاجرين والأنصار فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب عليه اللعنة (١).

(١) مرة ثانية نعود لنؤكد أنه لا يجوز سب الصحابة رضوان الله عليهم - فضلا عن لعنهم لقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه» (متفق عليه).

فضلا عن أنه قد وردت في كتب السنن الكثير من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن سعد بن أبي وقاص قال: استأذن عمر علي رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش بكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر رضي الله عنه فممن يتدون الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله! قال: «عجبت من =

= هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب» قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهين. ثم قال: أي عدوات أنفسهن، أتبهنني ولا تهين رسول الله ﷺ؟! قلن: نعم، أنت أظف وأغلظ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك» (متفق عليه).

وقد شهد له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وضع عمر علي سريره فتكنفه الناس، يدعون ويصلون قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل آخذ منكبي، فإذا علي، فترحم علي عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وإيم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنني كنت كثيرا اسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر» (متفق عليه).

كيف يجيز هؤلاء القوم لأنفسهم سب عمر رضي الله عنهم ولعنه، وقد مات الرسول ﷺ وهو عنه راض؟ (البلتاجي).

وقد دأبت الشيعة علس سب الصحابة رضوان الله عليهم - ممن خالفوا عليا كرم الله وجهه - وطعنوا فيهم...

فهذا ملا محسن الكاشي يطعن في تفسيره علي أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلا عن صحابي جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل في سبيل نصرته دمه وماله، كما يطعن في بني أمية ويرميهم بكل نفيصة، وهو في حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

فمثلا عند تفسيره لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فِرْقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى فَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُونٌ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتُكْفِرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ [البقرة: ٨٤ -

٨٥]... نجده يفسر الآية تفسيراً مختصراً مقبولاً، ثم يروي عن القمي: «أنها نزلت في أبي ذر - رحمة الله عليه - وفيما فعل به عثمان بن عفان وكان سب ذلك: أنه لما أمر عثمان بنفي أبي ذر - رحمة الله عليه - إلى الريذة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً وهو متكئ علي عصاه، وبين يدي عثمان مائة ألف درهم أتته من بعض النواحي، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال: حمل إلينا من بعض الأعمال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيي.. قال أبو ذر: يا عثمان، أيما أكثر؟ مائة ألف درهم أم أربعة دنائير؟ قال عثمان: بل مائة ألف درهم، فقال: أما تذكر إذ أنا وأنت دخلنا علي رسول الله ﷺ عشاء فوجدناه كئيباً حزينا فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكاً مستبشراً، فقلت له: بأبي أنت وأمي... دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزينا، وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً، فقال: نعم.. قد بقي عندي من فئ المسلمين أربعة دنائير لم أكن قسمتها، وخفت أن يدر كنتي الموت وهي عندي، وقد قسمتها اليوم فاسترحت.. فنظر عثمان =

= إلي كعب الأحبار فقال له: يا أبا إسحاق، ما تقول في رجل أدي زكاة ماله المفروضة.. هل يجب عليه فيها بعد ذلك شيء؟ فقال: لا ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شيء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب، فقال: يابن اليهودية المشركية، ما أنت والنظر في أحكام المسلمين؟ قول الله عز وجل: **أُصِدِّقْ مِنْ قَوْلِكَ حَيْثُ قَالَ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**... إلي قوله: **﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾** [التوبة: ٣٤ - ٣٥].. قال عثمان: يا أبا ذر، إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ولولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلك، فقال: كذبت يا عثمان.. ويلك... أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ فقال: «لا يفتنونك يا أبا ذر ولا يقتلونك».. أما عقلي فقد بقي منه ما أذكرني حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قاله فيك وفي قومك، قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ في وفي قومي؟ قال: سمعته يقول - وهو قوله ﷺ - «إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثون رجلا صيروا مال الله دولا، وكتاب الله دغلا، وعباد الله خولا، والصالحين حزبا، والفاسقين حزبا» قال عثمان: يا معشر أصحاب محمد، هل سمع أحد منكم هذا الحديث من رسول الله؟ قالوا لا، ما سمعنا هذا من رسول الله ﷺ. قال عثمان: ادعوا عليا.. فجاء أمير المؤمنين فقال له عثمان: يا أبا الحسن، أسمع ما يقول هذا الشيخ الكذاب، فقال أمير المؤمنين يا عثمان لا تقل كذبا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء علي ذي لهجة أصدق من أبي ذر». قال أصحاب رسول الله: صدق علي، سمعنا هذا من رسول الله، فعند ذلك بكى أبو ذر، وقال: ويلكم.. كلكم قد مد عنقه إلي هذا الماء، ظننتم أنني أكذب علي رسول الله ﷺ، ثم نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا: أنت تقول إنك خيرنا، قال: نعم.. خلفت حبيبي رسول الله ﷺ وهو علي بعيره، وأنتم قد أحدثتم أحداثا كثيرة، والله سائلكم عن ذلك ولا يسألني. فقال عثمان: يا أبا ذر، أسألك بحق رسول الله ﷺ إلا ما أخبرتني عما أنا سائلك عنه؟ فقال أبو ذر: والله لو لم تسألني بحق رسول الله ﷺ لأخبرتكم، فقال: أي البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فقال: مكة حرم الله وحرم رسوله، أعبد الله فيها حتي يأتيني الموت، فقال: لا ولا كرامة لك، قال: المدينة حرم رسول الله، فقال: لا ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر، فقال: وأي البلاد أبغض إليك أن تكون بها؟ قال: الريذة التي كنت بها علي غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قد سألتني فصدقتك، وأنا أسألك فأصدقني، قال: نعم، قال: أخبرني لو أنك بعثتني فيمن بعثت من أصحابك إلي المشركين فأسروني وقالوا لا نفيده إلا بثلث ما تملك؟ قال: كنت أفديك قال: فإن قالوا: لا نفيده إلا بكل ما تملك قال: كنت أفديك، فقال أبو ذر: الله أكبر... قال لي حبيبي رسول الله ﷺ يوما: «يا أبا ذر كيف أنت إذا قيل لك أي البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقول مكة حرم الله وحرم رسوله... أعبد الله فيها حتي يأتيني الموت، فيقال: لا ولا كرامة لك، فتقول المدينة حرم رسول الله فيقال: لا ولا كرامة لك، ثم يقال لك أي البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ فتقول: الريذة التي كنت بها علي غير دين الإسلام، فيقال لك: سر إليها»، فقلت: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال: والذي نفسي بيده إنه لكائن»، فقلت: يا رسول الله أفلا أضع سيفي علي عاتقي فأضرب به قدما قدما؟ قال: «لا... أسمع واسكت ولو لعبد حبشي، وقد أنزل الله فيك وفي عثمان خصمك آية، فقلت وما هي يا رسول الله؟ فقال قول الله... وتلا الآية». (ج ١ ص ٤٢ - ٤٣) =

= ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾... الآية [التوبة: ٤٠]، تجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبي بكر، رضي الله عنه بل ويحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمزا وطعنا علي أبي بكر، وذلك حيث يقول ما نصه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾: وهو أبو بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: لا تخف ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: بالعصمة والمعونة.. في الكافي عن الباقر أن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار: اسكن فإن الله معنا وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله حاله قال له: تريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون؟ وأريك جعفر وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم فمسح رسول الله ﷺ يده علي وجهه فنظر إلي الأنصار يتحدثون، وإلي جعفر وأصحابه يغوصون فاضمر تلك الساعة أنه ساحر.. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾: أمنته التي تسكن إليها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾.. في الكافي عن الرضا: أنه قرأها «علي رسوله» قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نفرؤها، وهكذا تنزيلها. والعياشي عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وما لهم في ذلك من حجة، فوالله لقد قال الله: «فأنزل الله سكينته علي رسوله» وما ذكره فيها بخير، قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: هكذا قرأتها» (ج ١ ص ٢٥٧).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ الآية إلي قوله ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَأِكْ هَذَا قَالَ نَبَأِي الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ﴾ [التحریم: ١ - ٣].. نراه ينقل عن القمي في سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ كان في بعض بيوت نساءه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم في بيت حفصة، فذهبت حفصة في حاجة لها، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت علي رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله.. في يومي؟ وفي داري وعلي فراشي؟ فاستحي رسول الله ﷺ منها فقال: كفي فقد حرمت مارية علي نفسي، ولا أطؤها بعد هذا أبدا، وأنا أفضي إليك سرا إن أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم.. ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي، ثم بعده أبوك، فقالت: ﴿مِنْ أَنْبَأِكْ هَذَا﴾؟ قال: ﴿نَبَأِي الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ﴾، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلي عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني عن حفصة بشئ ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء إلي حفصة فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة، فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئا، فقال لها عمر: إن ذلك حق فأخبرتنا حتي نتقدم فيه، فقالت: نعم... قد قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة علي أن يسموا رسول الله، فنزل جبريل علي رسول الله ﷺ بهذه السورة، قال: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: يعني أظهره علي ما أخبرت به وما هموا به من قتله.. ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾: أخبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾.. قال: لم يخبرهم بما يعلم مما هموا به من قتله».

(ج ٢ ص ٢٣٠)

ويطعن السيد عبد الله العلوي الشهير بـ «شير» علي الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نسب إليهم في القرآن تقيصا لهم، وخطا من قدرهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ =

فقال: يخ بخ لك يا بن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولي كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرقوا عن ذلك وقد وكدت عليهم العهود والمواثيق. ثم إن قوما من متمردى جبارتهم تواطئوا بينهم إن كان لمحمد ﷺ كائنة ليدفعن هذا الأمر عن علي عليه السلام ولا يتركونه له، فعرف الله ذلك في قلوبهم، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون: لقد أقمتم علينا أحب خلق الله إلي الله وإليك وإلينا، وكفيتنا مؤنة الظلمة والجبابة في سياستنا، وعلم الله في قلوبهم خلاف ذلك مواطأة بعضهم لبعض أنهم

= **اللَّهُ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** .. الآية [التوبة: ٤٠] مجده يعرض عن تعيين هذا الذي صحب النبي ﷺ في هجرته، وهو أبو بكر، ثم يصرح أو يلمح بما ينقص من قدره، أو يذهب بفضيلة المنسوب إليه والمنزه به في القرآن الكريم فيقول: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾: حال أي معه واحد لا غير.. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾: نقب في ثور، وهو جبل بقرب مكة، ﴿إِذْ يُبَدِّلُ تَانٍ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾: ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٧].. ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: فإنه خاف علي نفسه وقبض واضطرب حتى كاد أن يبدل عليهما فنهاه عن ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: عالم بنا: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾... إلي قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]: أي عالم بهم.. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾: طمأنينته ﴿عَلَيْهِ﴾: علي الرسول.. وفي إقرائه ﷺ ههنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت ما لا يخفي، وجعل (الهاء) لصاحبه بنفيه كونها للرسول قبل وبعد. (التفسير والمفسرون: ج٢، ص ١٢١، ١٢٣، ١٤٢، ١٤٣، ١٦٦، ١٦٧).

ويقول فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي: «بدهي أن هذا الاتجاه في تفسير ما سبق من الآيات، إنما دفع قائله إليه ما يعتقدون في الإمامية والأئمة. ولسنا بحاجة إلي الإطالة في إبطال هذا الاتجاه، بعد ما أثبت لنا علماء الحديث ونقاده، أن كل الروايات في ولاية علي ليس لها أساس من الصحة، وأنها من وضع الشيعة أنفسهم ليروجوا بها مذهبهم في الإمامية والأئمة.

ثم ألا تري معي أن ما ذكره البحراني في آخر روايته لحديث الولاية من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «والله لقد تصدقت بأربعين خاتما وأنا راعع لينزل الله في ما نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام فما نزل» فيه رائحة الكذب والافتراء علي عمر رضي الله عنه؟ (الاتجاهات المنحرفة ص ٥٨).

ولا يفوتنا أن ننبه علي أن الكثير من الأحاديث التي يرويها الشيعة في تفاسيرهم عن رسول الله أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقولون: هي في الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها، وقد مر بك الكثير من هذه الروايات، وهي ناطقة علي نفسها بالوضع، فلست في حاجة إلي بيان وضعها بميزان نقد الرواة، إذ نحن في غني عن هذا بعد ما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه في ثنايا ألفاظه ومعانيه. والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر في نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب، وفي اعتقادي أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلي أبي وابن عباس في فضائل المسور.

علي العداوة مقيمون، ولدفع الحق عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمدا عنهم فقال: يا محمد: ﴿من الناس من يقول آمنا بالله﴾ الذي أمرك بنصب علي عليه السلام إماما وسائسا لأمتك ومدبرا، ﴿وما هم بمؤمنين﴾ بذلك ولكنهم مواطئون علي هلاكك وإهلاكه، يواطئون أنفسهم علي التمرد علي علي عليه السلام إن كانت بك كائنة».

(ج ١ ص ٥٩).

ثم ساق تفسير الآيات بعد علي هذا النحو الغريب العجيب، وذكر أن «الجبال انقلبت لعلي بن أبي طالب فضة، ثم ذهباً، ثم مسكاً وعنبراً وجواهر وياقوت، ونادته أنها مسخرات له فليأمرها بما يشاء، وأنها نادته بأن له عند الله من الشأن العظيم ما لو سأل الله أن يحط السماء إلي الأرض أو ينقل الأرض إلي السماء لفعل..... وأن هذا كله وغيره وقع أمام القوم وشاهدوه فمرضت قلوبهم بالإضافة إلي مرض أجسامهم لما شاهدوه من فضل علي، فقال الله عند ذلك: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾... إلخ» (ج ١ ص ٦٠، ٦١).

وعند تفسيره لقوله تعالي في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧].. قال ما نصه: «علي بن إبراهيم قال: حدثني أبي عن النضر بن سويد عن القاسم بن سليمان عن معلي بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام أن هذا المثل ضربه الله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فالبعوضة: أمير المؤمنين عليه السلام، وما فوقها: رسول الله ﷺ، والدليل علي ذلك قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني أمير المؤمنين كما أخذ رسول الله ﷺ الميثاق عليهم له، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فرد الله عليهم فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴿في علي﴾ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴿يعني من صلة أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام﴾ ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون».

(ج ١ ص ٧٠).

● انتقام الله والقائم من ذرية قتلة الحسين:

وعند تفسيره لقوله تعالي في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] قال ما نصه: «... عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالي: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قال: أولاد قتلة الحسين عليه السلام».

- « وعن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: يا بن رسول الله، ما تقول في حديث روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إذا قام القائم عليه السلام، قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائهم، فقال: هو كذلك، قلت: فقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ما معناه؟ فقال: صدق الله في جميع أقواله، لكن ذراري قتلة الحسين يرضون فعال آبائهم ويفتخرون بها، ومن رضي شيئاً كان كمن أتاه، ولو أن رجلاً قتل في المشرق فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل، وإنما يقتلهم القائم إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم، قال: فقلت له: بأي شيء يبدأ القائم فيكم؟ [هكذا] قال: يبدأ ببني شيبه ويقطع أيديهم لأنهم سراق بيت الله عز وجل» (ج ١ ص ١٩١).

* * *

سورة آل عمران

● النقص في القرآن:

« وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] قال ما نصه:

« الشيخ في أماليه عن أبي محمد الفحام قال: حدثني محمد بن عيسى عن هارون قال: حدثني جعفر بن محمد عليه السلام يقرأ [هكذا]: «إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد علي العالمين» قال: هكذا نزلت.

« علي بن إبراهيم قال العالم عليه السلام: نزل: «آل عمران وآل محمد علي العالمين» فأسقطوا آل محمد من الكتاب» (ج ١ ص ٢٧٧).

* * *

سورة النساء

« وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧]، قال ما نصه: «عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفراً لن تقبل توبتهم» [هكذا في الأصل] قال: نزلت في فلان وفلان وفلان، آمنوا بالنبي في أول الأمر وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية حين قال النبي ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه، ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام، ثم كفروا حيث مضى رسول الله ﷺ فلم يقروا بالبيعة، ثم أزدادوا كفراً

بأخذهم من بايعهم بالبيعة لهم، فهؤلاء لم يبق فيهم من الإيمان شيء» (ج ١ ص ٤٥١).

* * *

سورة المائدة

وعند قوله تعالى في أول سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] يقول ما نصه: «عن عكرمة أنه قال: ما أنزل الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا ورأسها علي بن أبي طالب عليه السلام».

- «عن عكرمة عن ابن عباس قال: «ما نزلت آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلي شريفها وأميرها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد ﷺ في غير مكان، وما ذكر عليا إلا بخير».

- «وفي صحيفة الرضا عليه السلام قال: ليس في القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا في حقنا».

- «... عن أبي جعفر في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، قال: إن رسول الله ﷺ عقد عليهم لعلي عليه السلام بالخلافة في عشرة مواطن، ثم أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين عليه السلام» (ج ١ ص ٤٣١).

- وعند قوله في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] يقول ما نصه: «... عن أبي حمزة قال: سألت أبا جعفر عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال: تفسيرها في بطن القرآن: ومن يكفر بولاية علي عليه السلام، وعلي هو الإيمان» (ج ١ ص ٤٥٠).

- وعند قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، قال ما نصه: «... العياشي عن أبي جميلة عن بعض أصحابه عن أحدهما عليه السلام قال: قد فرض الله في الخمس نصيبا لآل محمد فأبي أبو بكر أن يعطيهم نصيبهم حسدا وعداوة، وقد قال الله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وكان أبو بكر أول من منع من آل محمد حقهم فظلمهم وحمل الناس علي رقابهم، ولما قبض أبو بكر استخلف عمر علي غير شوري من المسلمين ولا رضا من آل محمد فعاش عمر بذلك لم يعط آل محمد حقهم وصنع ما صنع أبو بكر».

(ج ١ ص ٤٧٧ - ٤٧٨)

- وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ... الآية [المائدة: ٥٥] يقول ما نصبه: «... عن أبي جعفر عليه السلام قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال: إن رهطاً من اليهود أسلموا، منهم عبد الله بن سلام، وأسيد بن ثعلبة، وابن يامين، وابن صوريا، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله، إن موسى أوصي إلي يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله ومن ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾... إلي قوله: ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «قوموا»، فقاموا وأتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال: «يا سائل، ما أعطاك أحد شيئاً؟» قال: نعم؟ هذا الخاتم، قال: «ومن أعطاكه؟» قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي، قال: «علي أي حال أعطاك؟» قال: راکعاً.. فكبر النبي ﷺ وكبر أهل المسجد، فقال النبي ﷺ: «علي بن أبي طالب وليكم بعدي»، قالوا: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، ويعلي بن أبي طالب ولياً، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]، فروي عن عمر بن الخطاب أنه قال: والله لقد تصدقت بأربعين خاتماً وأنا راکع لينزل الله في ما نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام، فما نزل.

(ج ١ ص ٤٨٠).

= وليس بغريب أن يذكروا مثل هذه الروايات المكذوبة في تفاسيرهم بعد ما سؤدوا كتبهم من أولها بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته عليهم رضوان الله. كما لا يفوتنا أن نقول: إن الطبرسي - مثلاً - لم يكن صادقاً في وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث، ذلك لأننا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث في تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصاً ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم. وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث في فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاعتراض بما جاء من الأحاديث في فضائل السور مسنداً إلى أبي وغيره، ومرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، وهي أحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم.

كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى في تفسيره من الأحاديث ما يشهد لمذهبه أو يتصل به، وهي أخبار نقرأها ولا نكاد نرى عليها صيغة الصديق ورواء الحق. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧].. نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على السنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منه، مما يدل على أنه يصدقها ويقول بها. فهو بعد أن ذكر أقوالاً أربعة في معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي، يا علي... بك يهتدى المهتدون». ونقل بسنده إلى أبي بردة الأسلمي أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ بالظهور وعنده علي بن أبي طالب، فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي بعد ما تطهر فآلزمها ب صدره ثم قال: =

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ .. ثم ردها إلى صدره، ثم قال: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ .. ثم قال: إنك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى، وأشهد على ذلك أنك كذبك (ج ٢ ص ٥).
ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى: ٢٣] .. نجد أنه يذكر أقوالاً ثلاثة في معنى هذه الآية: أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التوادد والتحاب فيما يقرب إلى الله تعالى من العمل الصالح.
وثانيها: أن معناه: إلا أن تودوني في قرابتي منكم وتحفظوني لها.

وثالثها: إلا أن تودوا قرابتي وتحفظوني فيهم .. وهنا يسوق من الروايات عن أهل البيت وغيرهم مما يصرح بأن الذين أمر الله بمودتهم: علي وفاطمة ولدهما، ويروي فيما يروي هذا الحديث الغريب الذي نقله من كتاب «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل» مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهلي .. قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارِ شَتَّى، وَخَلَقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَنَا أَصْلُهَا، وَعَلِيٌّ فَرْعُهَا، وَفَاطِمَةُ لِقَاحُهَا، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثَمَارُهَا، وَأَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا، فَمَنْ تَعَلَّقَ يَغْصَنَ مِنْ أَغْصَانِهَا نَجَا، وَمَنْ زَاغَ عَنْهَا هَوَى، وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا عَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ جِئْتِي بِصَبِيرٍ كَالشَّيْنِ الْبَالِي، ثُمَّ لِمَ يَدْرِكُ مَحَبَّتَنَا كَبَّ اللَّهُ عَلَى مَنْخَرِيهِ فِي النَّارِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (ج ٢ ص ٣٨٧ - ٣٨٩).

وكثيراً ما يروي الطبرسي في تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائلها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها .. اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه علي كذب الرواية، ويبين ما فيها من مجافاتها للحق ويُعدها عن الصواب، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ ﴿ ... الآيات [سورة ص: ٢١ - ٢٢] نجد أنه يقول: «واختلف في استغفار داود من أي شيء كان، إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع والتذلل بالعبادة والسجود، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]. وأما قوله: ﴿ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾: فالعني: أنا قبلناه منه وأثبتناه، فأخرجه علي لفظ الجزء مثل قوله: ﴿ يَخَادَعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢] .. وقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥]. فلما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول قيل في جوابه: غفرنا. وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية وغيرهم. ومن جوز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنوب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا في ذلك على وجوه:

أحدها: أن أوريا بن حيان خطب امرأة وكان أهلها أرادوا أن يزوجوها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضاً فزوجها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا ... عن الجبائي.

وثانيها: أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

وثالثها: أنه كان في شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزويج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج، فلما قُتل أوريا خطب داود امرأته ومنعت هيبه داود وجلالته أولياؤه من أن يخطبها فعوتب على ذلك.

ورابعها: أن داود كان متشغلاً بالعبادة فاتاه رجل وامرأة متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها =

= بعينها وذلك مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر في أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

وخامسها: أنه عوتب على عجلته في الحكم قبل التثبت، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ولا يحكم عليه قبل ذلك، وإنما أنساه التثبت في الحكم فزعه من دخولها عليه في غير وقت العادة.

وأما ما ذكر في القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علي إبراهيم فاتخذته خليلاً، وفضلت علي موسى فكلمته تكليماً. فقال: يا داود إنا ابتليناكم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتلت، فقال: نعم يا رب فابتلني، فبينما هو في محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلي كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا بامرأة أوريا بن حيان تغتسل فهوها وهم بتزوجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقدمه أمام الثابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبني بها فولد له منها سليمان، فبينما هو ذات يوم في محرابه يقرأ إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾... إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [سورة ص: ٢٢ - ٢٤]، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك، فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبتكاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، مما لا شبهة في فساده، فإن ذلك مما يقدر في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك. وقد روي عن أمير المؤمنين أنه قال: لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين، حداً للنبوة وحداً للإسلام» (ج ٢ ص ٣٤٩).

والطبرسي مع أنه في كتابه هذا يفسر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن، إلا أننا نلاحظ عليه أحياناً أنه يذكر المعاني الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزي الذي يقول به الشيعة، وهو وإن كان ناقلاً لهذه الأقوال إلا أنه يرتضيها ولا يرد عليها، وكثيراً ما يؤديها بأدلة من عنده.

مثال ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾... الآية [النور: ٣٥]، نجده يقول بعد كلام طويل: «واختلف في هذا المشبه والمشبه به على أقوال... ثم ذكر هذه الأقوال، فكان من جملة ما ذكره هذه الروايات التي لا تعدو أن تكون من وضع الشيعة، وهي ما روى عن الرضا أنه قال: «نحن المشكاة فيها المصباح محمد ﷺ يهدي الله لولايتنا من أحب». وما نقله من كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى بن راشد عن أبي جعفر الباقر في قوله: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: قال: نور العلم في صدر النبي ﷺ، ﴿المصباح في زجاجة﴾: الزجاج صدر علي، صار علم النبي إلى صدر علي، علم النبي علياً، ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾: نور العلم، ﴿لا شرقية ولا غربية﴾: لا يهودية ولا نصرانية، ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾: قال: يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم نبل أن يسئل، ﴿نور علي نور﴾: أي إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في إثر إمام من آل محمد ﷺ، ذلك من النبي آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله =

وعند تفسيره لقوله تعالى في سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... ﴾ ... إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، قال ما نصه: «... عن أبي الجارود قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: فرض الله عزَّ وجلَّ على العباد خمساً، أخذوا أربعاً وتركوا واحدة، قلت: أتسميهن لي، جعلتُ فداك؟ فقال: الصلاة، وكان الناس لا يدرون كيف يعملون فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا محمد أخبرهم بمواقيت صلواتهم، ثم نزلت الزكاة فقال: يا محمد، أخبرهم عن زكّاتهم مثل ما أخبرتهم عن صلواتهم، ثم نزل الصوم فكان رسول الله ﷺ إذا كان يوم عاشوراء بعث إلى من حوله من القرى فصاموا ذلك اليوم، فنزل شهر رمضان بين شعبان وشوّال، ثم نزل الحج فنزل جبريل فقال: أخبرهم عن حجهم مثل ما أخبرتهم عن صلواتهم وزكّاتهم وصومهم، ثم نزلت الولاية، وإنما آتاه ذلك في يوم الجمعة بعرفة، أنزل الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣]، وكان كمال الدين بولاية عليّ بن أبي طالب فقال عند ذلك رسول الله ﷺ: إن أمتي حديثو عهد بالجاهلية، ومتى أخبرتهم بهذا في ابن عمي يقول قائل، ويقول قائل، فقلت في نفسي من غير أن ينطق به لساني، فأتتني عزيمة من الله عزَّ وجلَّ بتلة أوعدني إن لم أبلغ أن يعذبني [هكذا العبارة بالأصل] فنزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فأخذ الرسول ﷺ بيد عليّ عليه السلام فقال:

= خلفاء في أرضه، وحججه على خلقه، لا تخل الأرض في كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبي طالب:

أنت الأمير محمد	قرم أغرمسود
لمسودين أظاهر	كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعد	د تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل	فينا وصي مرشد
ولقد عرفت صادقاً	والقول لا يتفند
ما زلت تنطق بالصوا	ب وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضي أن الشجرة المباركة المذكورة في الآية هي دوحه التقى والرضوان وعتره الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفروعها الإمامية، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبريل وميكائيل.»

« يا أيها الناس، إنه لم يكن نبي من الأنبياء فيمن كان قبلي إلا وقد عمّرهُ الله تعالى ثم دعاه فأجابه، فأوشك أن أدعى فأجيب، وأنا مسئول وأنتم مسؤلون، فماذا أنتم قائلون؟ فقالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت ما عليك، فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين. فقال: «اللهم اشهد» - ثلاث مرات - ثم قال: «يا معشر المسلمين، هذا وليكم من بعدى فليبلغ الشاهد منكم الغائب». قال أبو جعفر عليه السلام: كان والله أمين على خلقه وعيبة علمه ودينه الذي ارتضاه لنفسه، ثم إن رسول الله ﷺ حضره الذي حضره فدعا علياً فقال: «يا علي، إني أريد أن أئتمنك على ما أئتمنى الله عليه من غيبة علمه ومن خلقه ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه، فلم يشرك والله فيها - يا زياد - أحداً من الخلق، ثم إن علياً حضره الذي حضره فدعا ولده وكانوا اثني عشر ذكراً، فقال لهم: يا بني، إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل في سنة من يعقوب، وإن يعقوب دعا ولده وكانوا اثني عشر ذكراً فأخبرهم بصاحبهم ألا أني أخبركم بصاحبكم، ألا إن هذين ابنا رسول الله ﷺ الحسن والحسين، فاسمعوا لهما وأطيعوا وازروهما فإنني قد أئتمنتهما على ما أئتمنتني عليه رسول الله ﷺ مما أئتمنه الله عليه من خلقه ومن غيبه ومن دينه الذي ارتضاه لنفسه، فأوجب الله لهما من علي عليه السلام ما أوجب لعلي من رسول الله ﷺ، فلم يكن لأحد منهما فضل على صاحبه إلا بكبره، وإن الحسين عليه السلام كان إذا حضر الحسن عليه السلام لم ينطق في ذلك المسجد حتى يقوم، ثم إن الحسن حضره الذي حضره فسلم ذلك إلى الحسين، ثم إن حسيناً حضره الذي حضره فدعا ابنته الكبرى فاطمة بنت الحسين عليها السلام فدفع إليها كتاباً ملفوفاً ووصية ظاهرة، وكان علي بن الحسين عليه السلام مبطوناً لا يرون إلا أنه لما به، فدفعت فاطمة الكتاب إلى علي بن الحسين عليه السلام، ثم صار والله ذلك الكتاب إلينا» (ج ١ ص ٤٨٨).

* * *

● فضائل السور :

سورة الأعراف

في أول تفسيره لسورة الأعراف يذكر روايات في فضائل السورة منها: «... عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الأعراف في كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها في كل جمعة كان ممن لا يحاسب

يوم القيامة لأن فيها محكماً، فلا تدعوا قراءتها فإنها تشهد يوم القيامة لمن قرأها» (ج ٢ ص ٢).

— وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ هذه السورة جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً، وكان لآدم رفيقاً، ومَنْ كتبها بماء ورد وزعفران وعلّقها عليها لم يضرّ به سبع ولا عدو ما دامت عليه بإذن الله» (ج ٢ ص ٢).

— وعند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة الأعراف: ﴿المص﴾ قال ما نصه: «... أتى رجل من بنى أمية - لعنهم الله^(١) وكان زنديقاً - إلى جعفر بن محمد عليه السلام فقال له: قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿المص﴾ أى شىء أراد بهذا؟ وأى شىء فيه من الحلال والحرام؟ وأى شىء فيه مما ينتفع به الناس؟ قال: فاغتاض عليه السلام من ذلك فقال: إمسك ويحك: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، كم معك؟ فقال الرجل: مائة وإحدى وستون. فقال عليه السلام: إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة ينقضى مُلك أصحابك، قال: فنظرنا، فلما انقضت سنة إحدى وستين ومائة، يوم عاشوراء، دخل المسوّد الكوفة وذهب مُلكهم» (ج ٢ ص ٣).

سورة الرعد

وفي سورة الرعد عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، يقول: «... عن مروان عن السدى عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ قال على عليه السلام: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾: قال: الأول» (ج ٢ ص ٢٨٧).

سورة إبراهيم

وعند قوله تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وما بعدها [إلى آخر الآية]، يقول ما نصه: «... عن عمرو بن حريث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أصلها، وأمير المؤمنين فرعها، والأئمة من ذريتهما أغصانها، وعلم الأئمة

(١) وهذا شأنهم دائماً مع مخالفيهم، تراهم يوزعون اللعنات بغير حساب (البلتاجي).

ثمرتها، وشيعتهم المؤمنون ورقها» هلى فى هذا فضل؟ قال: قلت: لا والله، قال: والله، وإن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها» (ج ٢ ص ٣١٠).

— وساق رواية أخرى بعد ذلك وفيها: «إن المولود ليولد من شيعتنا فتورق ورقة منها، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها» (ج ٢ ص ٣١٠).

— وفى رواية بعدها قال: «قلت له: جعلت فداك، قوله: ﴿تَوْتِي أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هو ما يخرج من الإمام من الحلال والحرام فى كل سنة إلى شيعته» (ج ٢ ص ٣١٠).

— وقال: «... عن أبى عبد الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ... الْآيَتِينَ، قَالَ: هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ، وَلَمَنْ عَادَاهُمْ هُوَ: ﴿وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾» (ج ٢ ص ٣١١).

سورة الحجر

وفى سورة الحجر عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ [الحجر: ٣٦ - ٣٨]. روى عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ قال له وهب: جعلت فداك، أى يوم هو؟ قال: يا وهب، أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان فى مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: يا ويله من هذا اليوم، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك اليوم الوقت المعلوم» (ج ٢ ص ٣٤٣).

سورة النحل

وفى سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، روى بسنده إلى داود الجصاص قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: النجم: رسول الله ﷺ، والعلامات: الأئمة عليهم السلام» (ج ٢ ص ٣٦٢).

سورة الإسراء

وفى سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] يروى بسنده إلى يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال: يدعو كل قرن من هذه الأمة بإمامهم، قلت: فيجىء الرسول

ﷺ في قرنه، وعلى في قرنه، والحسن في قرنه، والحسين في قرنه، وكل إمام في قرنه الذي هلك بين أظهرهم؟ قال: نعم» (ج ٢ ص ٤٢٩).

سورة الكهف

وفي سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾... إلى قوله "﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٧]، يروى عن أبي عبد الله أنه قال: دخل أبو بكر على علي عليه السلام فقال له: إن رسول الله ﷺ لم يحدث إلينا في أمرك حدثاً بعد يوم الولاية، وأنا أشهد أنك مولاي، مقر بذلك، وقد سلمت عليك على عهد رسول الله ﷺ بإمرة المؤمنين، وأخبرنا رسول الله ﷺ أنك وصيه ووارثه وخليفته في أهله ونسائه، ولم يخبرنا بأنك خليفته من بعده ولا جرم لنا في ذلك فيما بيننا وبينك ولا ذنب بيننا وبين الله، فقال له عليه السلام: رأيتك إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرك بأني أولى بالمجلس الذي أنت فيه، وإن لم تنح عنه كفرت فما تقول؟ فقال: إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرني ببعض هذا اكتفيت به، قال: فوافني إذا صليت المغرب، قال: فرجع بعد المغرب فأخذه بيده وأخرجه إلى مسجد قباء فإذا رسول الله ﷺ جالس في القبلة فقال: «يا عتيق، وثبت علي علي عليه السلام وجلست مجلس النبوة وقد تقدمت إليك فانزع هذا السربال الذي تسربلته فخله لعلني وإلا فموعدك النار»، ثم أخذ بيده فأخرجه فقام النبي ﷺ عنهما، وانطلق أمير المؤمنين إلى سلمان فقال: يا سلمان، أما علمت أنه كان من الأمر كذا وكذا؟ فقال سلمان: ليشهرن بك وليبد منه إلى صاحبه وليخبرنه بالخبر، فضحك أمير المؤمنين وقال: أما أن يخبر صاحبه فيفعل، ثم قال: لا والله لا يذكرانه أبداً إلى يوم القيامة مما نظرا إلى أنفسهما من ذلك، فلقي أبو بكر عمر فقال: إن علياً أتى كذا وكذا الموضع كذا وكذا وقال رسول الله ﷺ كذا وكذا. فقال له عمر: ويلك، ما أقل عقلك، فوالله ما أنت فيه الساعة إلا من بعض سحر ابن أبي كبشثة، قد نسيت بنى هاشم؟ تقلد هذه السربال ومن فيه» (ج ٢ ص ٤٧٦).

سورة النور

وفي سورة النور عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾... إلخ [النور: ١١]، يروى عن علي بن إبراهيم أنه قال: إن العامة روت أنها نزلت في عائشة وما رُميت به في غزاة بنى المصطلق من خزاعة، وأما الخاصة فإنهم رَووا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة، ثم قال علي بن إبراهيم: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن فضالة قال: حدثنا عبد الله بن

بكبير عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وأمره بقتله، فذهب على عليه السلام ومعه السيف وكان جريج القبظى فى حائط فضرب على عليه السلام باب البستان فأقبل جريج ليفتح الباب، فلما رأى علياً عليه السلام عرف فى وجهه الشر فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان، فوثب على عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جريج مدبراً، فلما خشى أن يرهقه صعده فى نخلة وصعد على عليه السلام فى إثره، فلما دنا منه رمى جريج بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء، فانصرف على عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أم أثبت؟ قال: بل اثبت. فقال: والذى بعثك بالحق، ما له ما للرجال ولا ما للنساء، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذى يصرف عنا سوء أهل البيت» (ج ٣ ص ١٢٦ - ١٢٧).

سورة الفرقان

وفى سورة الفرقان عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤] روى عن الباقر أنه قال: هو محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

- وفى رواية: «البشر والنسب: فاطمة، والصحرة: على صلوات الله وسلامه عليهما» (ج ٣ ص ١٧١).

سورة القصص

وفى سورة القصص عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، قال: «... عن أبى جعفر أنه سئل عن جابر فقال: رحم الله جابراً، بلغ من فقهه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ ﴾ يعنى الرجعة» (ج ٣ ص ٢٣٩).

سورة الشورى

وعند تفسيره لسورة الشورى يقول: «... ومن خواص القرآن روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ هذه السورة صلّت عليه الملائكة وترحموا عليه بعد موته، ومن كتبها بماء المطر وسحق بذلك الماء كحلاً واكتحل به من بعينه بياض قلعه وزال عنه كل ما كان عارضاً بعينه من الآلام بإذن الله»، وقال الصادق عليه السلام: من كتبها وعلّقها عليه أمن من الناس، ومن شربها فى سفر أنس» (ج ٤ ص ١١٥).

سورة الجاثية

وفي سورة الجاثية عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، يروى: «عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: الذين آمنوا: بنو هاشم وبنو عبد المطلب، والذين اجترحوا السيئات: بنو عبد شمس» (ج ٤ ص ١٦٨).

سورة الأحقاف

وفي سورة الأحقاف عند قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾... إلخ [الأحقاف: ١٥]، يروى: «عن أبي عبد الله قال: لما حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن فاطمة تلد غلاماً تقتله أمتك من بعدك، فلما حملت فاطمة بالحسين عليه السلام كرهت حملة، وحين وضعت كرهت وضعه، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: لم ترفى الدنيا أم تلد غلاماً تكرهه، ولكنها كرهته لما علمت أنه سيقتل، وفيه نزلت هذه الآية» (ج ٤ ص ١٧٢).

سورة الفتح

وعند تفسيره لسورة الفتح يقول: «ومن خواص القرآن روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ هذه السورة كتب الله له من الثواب كمن بايع النبي ﷺ تحت الشجرة. وأوفي بيعته، وكمن شهد مع النبي ﷺ يوم فتح مكة، ومن كتبها وجعلها تحت رأسه أمن من اللصوص، ومن كتبها في صحيفة وغسلها بماء زمزم وشربها كان عند الناس مسموع القول ولا يسمع شيئاً يمر عليه إلا وعاه».

(ج ٤ ص ١٩١).

سورة الذاريات

وفي سورة الذاريات عند قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ * يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكِ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]، يروى: «عن أبي جعفر أنه قال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ﴾: اختلف في ولاية هذه الأمة، فمن استقام علي ولاية علي دخل الجنة، ومن خالف ولاية علي دخل النار، وأما قوله: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكِ﴾ قال: يعني علياً، من أفك عن ولايته أفك عن الجنة، فذلك قوله ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكِ﴾ (ج ٤ ص ٢٣١).

سورة المدثر

وعند قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾... إلخ قوله:

﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٣]، روي «عن أبي جعفر عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: يا علي، قوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * : فالمجرمون هم المنكرون لولايتك، ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعَمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٥] : فيقول لهم أصحاب اليمين: ليس من هذا أوتيتم، فيما الذي سلككم في سقريا أشقياء؟ قالوا: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧] : فقالوا لهم: هذا الذي سلككم في سقريا أشقياء، ويوم الدين: يوم الميثاق، حيث جحدوا وكذبوا بولايتك وعتوا عليك واستكبروا» (ج ٤ ص ٤٠٤).

سورة النبأ

وفي سورة النبأ عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، يروي «عن أبي عبد الله أنه قال: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صوابا، قلت: ما تقولون إذا تكلمتم؟ قال: نحمد ربنا ونصلي علي نبينا، ونشفع لشيعتنا فلا يردنا ربنا» (ج ٤ ص ٤٢٤).

* * *

«تمت بحمد الله النقول التي كتبها فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله، وقد راعينا - بقدر الإمكان - أن تكون التعليقات عليها مما كتبه فضيلته في الجزء الثاني من التفسير والمفسرون حيث لم يتيسر له - رحمه الله - التعليق علي هذه النقول في حياته».

والله نسأل أن يتغمد الفقيد برحمته، وأن يجعل عملنا - في هذا الكتاب في الميزان ..

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ... وآخر دعوانا: ﴿أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

محمد الانور أحمد البلتاجي

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٢	العلائية.....		محتويات الكتاب
٣٢	المغيرية.....	٣	تمهيد.....
٣٣	المنصورية.....	٧	مقدمة: في تاريخ الشيعة.....
٣٤	الخطابية.....		١ - الكيسانية
٣٥	الكيالية.....		(٩ - ١٤)
٣٧	الهشامية.....	١٠	المختارية.....
٣٩	النعمانية.....	١٢	الهاشمية.....
٣٩	اليونسية.....	١٣	البيانية.....
٤٠	النصيرية والإسحاقية.....	١٤	الرزامية.....
٤١	رجال الشيعة ومصنفو كتبهم.....		٢ - الزيدية
	٥ - الإسماعيلية		(١٥ - ١٨)
	(٤٢ - ١٠١)	١٧	الجارودية.....
٤٢	تاريخ الشيعة عند ابن حرم.....	١٨	السليمانية.....
	بين يدي البحث: الشيعة وموقفهم من	١٨	الصالحية والبثرية.....
	تفسير القرآن.....		٣ - الإمامية
	كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم		(١٩ - ٢٩)
٦٢	الزيدية.....	٢١	الباقرية والجعفرية الواقفة.....
٦٤	قوام مذهب الزيدية.....	٢٢	الناووسية - الأفطحية - الشميطة.....
٦٥	الإمامية.....	٢٣	الموسوية أو المفضلية.....
٦٥	الإمامية الإثنا عشرية - أشهر تعاليمهم	٢٤	أسماء الأئمة الإثني عشر عند الإمامية..
٦٦	الإمامية الإسماعيلية.....		شجرة نسب الأئمة من ولد علي بن أبي
	موقف الإمامية الإثنا عشرية من تفسير	٢٦	طالب كرم الله وجهه:.....
٦٨	القرآن الكريم.....	٢٧	الإسماعيلية الواقفية.....
	موقفهم من الأئمة وأثر ذلك في	٢٧	الإثنا عشرية أو الجعفرية.....
٦٨	تفسيرهم.....		٤ - الغلاة
	تأثر الإمامية الإثنا عشرية بآراء المعتزلية		(٣٠ - ٤١)
٦٩	وأثر ذلك في تفسيرهم.....	٣٠	السبئية.....
		٣١	الكاملية.....

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٢	الكريم	٧٠	تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية في تفاسيرهم
٩٣	البابية والبهائية	٧١	احتياهم علي تركيز عقائدهم وترويجها
٩٤	بهاء الله	٧١	١ - ظاهر القرآن وباطنه
٩٥	الصللة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامي	٧١	حرصهم علي التوفيق بين ظاعر القرآن وباطنه
٩٩	موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم	٧١	حملهم الناس علي التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن
١٠٠	أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السنة	٧٢	أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن
١٠٠	الزريدي - وموقفهم من التفسير والقرآن الكريم	٧٣	مخلصهم من تناقض أقوالهم في التفسير
١٠٢	الصفحة الأولى من الكراسة الأولى	٧٤	٢ - موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم
١٠٣	الصفحة الأخيرة من الكراسة الأولى	٧٥	٣ - تحريف القرآن وتبديله
١٠٤	الصفحة الأولى من الكراسة الثانية	٧٦	٤ - موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة
١٠٥	الصفحة الأخيرة من الكراسة الثانية	٧٨	الإمامية الإسماعيلية (الباطنية)، وموقفهم من تفسير القرآن الكريم
١٠٦	١ - نقول من كتاب «أساس التأويل»	٨٠	مؤسسو هذه الطائفة
١٠٦	مؤلف الكتاب	٨٠	احتياهم علي الوصول إلي أغراضهم
	٢ - مختارات من كتاب «مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية»	٨١	مراتب الدعوة عند الباطنية
١١٣	٣ - نقول من رسالة «الأيضاح والتبيين»	٨٢	انتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم
١٢٢	٤ - نقول من كتاب «مزاج التنسيم»	٨٣	موقف متقدمي الباطنية من تفسير القرآن الكريم
١٢٣	تعريف بالكتاب	٨٤	من تأويلات الباطنية القدامي
	٥ - نقول من كتاب الكافي (الجزء الأول)	٨٨	مقالة محمد بن مالك اليماني في الباطنية
١٣٢	الجامعة - القياس		موقف متأخري الباطنية من تفسير القرآن
١٣٢	علم علي رضي الله عنه		
١٣٣	التقية		
١٣٥	الأئمة حجة الله		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٧٤	النكاح.....	١٣٥	ولاية الأئمة ولاية الله، وظلمهم ظلمه ..
١٧٩	فضل الشيعة.....	١٣٥	معرفة الإمام.....
١٧٩	تفسير بعض الآيات.....	١٣٦	فرض طاعة الأئمة.....
٦ -	ترجمة مؤلف «مرآة الأنوار ومشكاة	١٤٥	مصحف فاطمة.....
١٨٠	الأسرار».....	١٤٨	الأئمة يزدادون علما كل ليلة جمعة ..
٢٠٢	٧ - البرهان في تفسير القرآن.....	١٤٩	الأولياء يخبرون في موتهم.....
٢٠٢	التعريف بالمؤلف.....	١٤٩	عند الأولياء علم ما كان وما يكون
	الكتاب في جملته تفسير بالرواية عن آل	١٥٩	الغيبية.....
٢١٥	البيت.....	١٦٠	مميزات الأئمة وعلاماتهم.....
٢٢٢	انتقام الله والقائم من ذرية قتلة الحسين ..	١٦٤	نقول من الجزء الثاني.....
٢٢٣	النقص في القرآن.....	١٦٤	التقية.....
٢٢٩	فضائل السور.....	١٦٥	تحريف القرآن.....
٢٣٧	محتويات الكتاب.....	١٦٧	فرض الرجلين «المسح».....
		١٧٣	المذي والودي لا ينقض الوضوء.....